تصوير ابو عبدالرحمن الكردي



الرحلة

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثماني

أوليا چلبي

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

راجعها وأكمل مواقفها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلد الأول



منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

الرحلة

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثمانى

أوليا چلبى

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصرى وآخرون

راجعها وأكمل مواقفها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلد الأول



جميع الحقوق محفوظة للناشر



دار الآفاق العربية
نشر - توزيع - طباعة
٥٥ ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩
تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
EMAIL:Daralafk@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٤١
الترقيم الدولى : 1- 126 - 344 -944

الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م

الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الإهـــــداء

إلى الصديق البحرينى
الدكتور سمير فخرو
أحد الأعمدة الأساسى
فى النهضة العربية المعاصرة

محمد حرب



تقــــــديـــم

تعتبر رحلة الرحالة العثماني أوليا جلبى (توفى عام ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م) نموذجا فريدا غير مسبوق فى تاريــخ الثقافة الإسلامية. إن فوائدها كثيرة خـاصة فى وصف البلدان، لقد تفوق أوليــا جلبي الذي جاب ٣٣ دولة من الدول القائـمة آنذاك فى ثلاث قارات: أوربا، وأسـيا، وإفريقـيا. وتحتـاج هذه الدول معــرفة هذه الـرحلة لـتكون أساسـا فى تاريخها. فقد اهتم أوليا جلبى فى رحلته بوصف النظام الإدارى فى كل مكان ذهب إليه بدقة وتـفصيل وقدم لنـا معلومات عن مـالية كل بلد يـذهب إليه، وأخلاق أهل الـبلد ومدى قربهــم أو بعدهم عن التـدين. وصف المساجد بـدقة وكذلك الكنـائس والأديرة والمعابد السيهودية بإحصائيـات دقيقة مع إيراد تواريخـها. هذه الإحصائيات التـى قدمها لأوليا جلبى تشد الانتباه وتخدم علماء الاجتــماع وعلماء السكان أيضا. كما تعد رحلة أوليا جلبي مصدار هـاما لدراسة الجوانب التاريخية والحياة الاقتصـادية والاجتماعية في مصر العثمانية يعتمد عليها كل من أراد دراسة مصر فى القرن السابع عشر.

حدثنــي أستاذي بكير كـوتوك اوغلو الأستاذ بـجامعة استانـبول، قبل ما يزيـد على خمس وعشــرين سنة، أنه كون لجـنة لتحقيق رحـلة أوليا جلبــي، ففيها نقـص كبير، وتواريخ متروكة، وفراغـات، إذ مات الرحالة قبل أن يكتبها. وطلـب بكير بك مني أن أشترك فى هـذه اللجنة لتـحقيق الجزء الخاص بمصـر فى الرحلة. وحدثـته عن ضرورة ترجمتها إلى العربيــة فرأى أن تحقق فى لغتها الأصلية وتستكمل علـميا ثم يُنظر في أمر ترجمتها. ولم يتم مشروع لجنة التحقيق هذه.

ولأن ترجمة الرحلة إلى اللغة العربية ضرورة، فقد توفر عليها، أسماء كبارنا، ذلك الجيل القيم: محمد على عوني وقيل إنه ترجمها وسلمها إلى الدكتور عبد الوهاب عزام

ليراجعها وراجع بعضها وترك أغلبها ليراجها الدكتور أحمد السعيد وعدّل هذا فيها وبدّل فوجد نفسه فى النهاية أمام ترجمة جديدة من صــنعه ومن صياغته. وقيل إنه لم يسلمها لوزارة الثقافة المصرية، بل عهد بها إلى أحد أبنائه الأساتذة. كما قام كاتب هذا البحث بتكوين لجنة من الأساتذة الشبان المتخصصين فى اللغة التركية ليترجموا هذه الرحلة تحت إشرافي وكنت وقــتها رئيسا لوحدة البــحوث بمركز بحوث الشرق الأوسط بــجامعة عين شمس بالــقاهرة عام ١٩٨٢م، لكن لــم يتم أحد من هذه اللــجنة عملهــا إلا الدكتورة ماجدة مخلوف، وكانت وقتها مدرسا مساعدا.

وعندما تولينا - أي كــاتب هذه السطور - رياسة المركز المصري للدراســات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان سنة ١٩٩٠م، عــهدنا إلى أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصرى (عليه رحمة الله) بترجمة هذا العمل - أي رحلة أوليا جلبي، على ما في أصله العثماني من نقص، وعــهدنا إلى مجموعة من الباحثين الشبان بمــساعدته. وأنفق المركز على هذه الترجمة الشئ الكثير. وقد تطوعت الدكتور ماجدة مخلوف بمراجعتها وإكمال نواقصها. ولم نستطع نشر هذه الترجمة فــى حينها لأسباب متعددة رغم أنه لم يكن لنا أى مطالب مادية فيها، إلى أن اضطلعت دار الآفاق العربية بنشر هذه النسخة الورقية من الترجمة. عــلى كل حال، يظل أوليا جــلبي، رغم كل هذا، قمة أدب الــرحلات عند المسلمين.

أوليا جلبي: حياته ومسار رحلته

تعتمد معرفتنا لحياة أوليا جلبي. عــلى ما دوّنه في كتابه الضخم ذي المجلدات العشر الذي سجل فيه رحلته.

غير معروف لنا اسمه الكامل والحقيقي، وربما يكون اسم أوليا جلبى نسبة إلى معلمه أوليا محــمد أفندي. ارتحل أوليا جــلبي داخل كل البلاد العــثمانية وخارجهــا فى رحلة استغرقت حوالى الأربعــين عاما. وقد سجل رحلته هذه والتي تعتــبر نموذجا فريداً غير مسبوق في تاريخ الثقافة التركية ومازالت هذه الرحلة هامة حتى يومنا هذا.

ومن خلال مـا جاء في هذه الرحلـة من معلومات، نـقول أن أوليا جلبـي ولد في العاشـر من المحرم عام ١٠٢٠هـ- الخامـس والعشرين م مارس عـام ١٦١١، في حي (اون قايا) أحد أحياء اسـتانبول. كان والده- كما ذكر في بعض المـواضع من رحلته - يدعي درويش مـحمد أغا، ابن درويش محمـد ظلي أفندي، وكان هذا الأخـير صائغ ذهب. قيومجي) فـي القصر السلطاني. وقد مـال أوليا جلبي إلى المبالغـة كثيرا في ما ذكره من أخبـار في ثنايا رحلتـه. ومن هذه (المبالغات) أنـه كان يوجد في بيوتـهم عند مولده حوالـي سبعين من العلـماء والشيوخ، وقد تمكن بمـددهم المعنوي أن ينجـو بيسر وسهولـة من كل ما صادفه فـي حياته من آلام وصـعاب. وقد دون هذا كله لـيذكر أن والده كان رجلا معروفـا، وما يؤكد هذا التصور، ما ذكره من أن والـده اشترك فى فتح جزيرة قبـرص، وأنه قد مفاتيح ماغـوسا. كما أنه صنع بـنفسه ميزاب الكعـبة في زمن السلطـان أحمد الأول، وحمله إلى الحـجاز باعتباره أمـينا للصرة. واشتـرك في أعمال زخرفة باب ونوافذ مسجد السلطان أحمد، وأنه حظى بتقدير السلطان أحمد الأول لهذا السبـب فرفع مكانـته حتى أصبـح (مصاحبا للـسلطان). أما مـاذكره أوليا جلـبي عن أجداده، فلايعدو أن يكون معلـومات غير منتظمة. ويتصل نـسب عائلـته بأبناء كرميان، ويذكر أنه ينحدر من نسل الشيخ أحمد يسوي. وأن أحد أجداده وكان يدعي ياووز أرْ، كان بيرقدار السلطان الفاتح. وأن ياووز أرْ هذا قد ابتني من مال الغزو مائة دكان أوقفها كلها، وكذلك البيت الذي ولد فيه أوليا جلبي.

ذكر أوليا جلبي أن أجداده عاشوا في حي زره كان في كوتاهية. ثم جاءوا بعد الفتح إلى استانبول واستقروا فيها. وكانت عائلته تمتلك - علاوة على البيوت التي تمتلكها في كوتايـهة-، منزلا في حـي اينه لك، وآخر فـي بورصه، وفي مغـنيـيا، ومـزرعة في صنديقا. وبعد استقرار عائلته في استانبول، امتلكت بيتين ودكانا في (أون قابان). وفي مدار حديث أوليا جلـبي عن هذه الممتلكات، يذكر أن له حديـقة في قاضي كوي. أما أمه فكانت مـن الأباظه (الأبخار)، وذكر أنه تربطـه صلة قرابة من ناحيـة أمه بكل من ملـك أحمد باشـا، ودفتردار زاده محـمد، وإبشيـر مصطفـى باشا. وأن له أخ يـدعى

محمود، وأخت اسمها إينال، وقد تزوجت أختـه هذه من الياس باشا الباليكسرى الذي تمرد في زمن السلطان مراد الرابع.

تلقي أوليا جلبي تعليما جيدا، وواظـب على تلقي العلم من خلال المدرسة لمدة سبع سنوات وذالك في مدرسـة شيخ الإسلام حامد أفندي. وانكب على حـفظ القرآن على يد أستاذه أوليا محمد أفندي. كما تعلـم فن الخط على يد والده، ثم انتسب إلى القصر وواصل تعليمه داخل الأندرون. كما تعلم الموسـيقى بسبب جمال صوته. واستعان في هذا بدرويش عمر أفنـدى واستفاد منه. وبعد فترة، قدّمه إبراهيـم أفندى الروزنامجي، والخطاط حسن بـاشا، إلى السلطان مراد الـرابع، وفي هذه المقابلة رأى ولـلمرة الأولي «أمير كونـه خان». وصار أوليا جلـبى المسئول عن الكـيلار الخاص بأمر من الـسلطان. وهناك أتم تعليمه وتـلقى دروسا في الخط والموسيقى والنحو والتـجويد، وغير ذلك من المعارف.

وحسب قبـول أوليا جلبي نفـسه، أنه كان كثير التـواجد في مجلس الـسلطان مراد الرابع، وكان يقص عليه اللطائف. وكان الـسلطان يستدعيه لمجلسه إذا ما اعتراه الضيق. ولاشك أن الجو الـعام داخل القصـر، لعب دورا هاما وإلي حـد كبير في زيـادة قدرته الأدبية، ومعارفه، وقدرته على الملاحظة. وكان أوليـا جلبي يطمح إلى أن يقضي حياته في التعلم، ولهذا ترك عمله في الأندرون، بعد أربع سنوات فقط قضاها ضمن السباهية براتب قدره أربعون أقجه.

واعتملت لـدي أوليا جلبي الرغبة فـي الرحلة للمرة الأولى، بسـبب أحاديث والده التي كان يتـكلم فيها عن عمـله لدى الباشوات منذ زمـن القانوني حتى زمن الـسلطان إبراهيم ووقائع الرحلات المختلفة التـي استمع إليها من أصدقاء والده. ولاشك أن هذه الحكايات حركت لدي أوليـا جلبى الرغبة فى السفر. ويذكر أوليـا جلبي في كتابه، أن قيامه بهذه الرحلات، كان بسبب رؤيا رآها في منامه، في ليلة عاشوراء من شهر المحرم سنـة ١٠٤٠هـ (١٩ أغسطـس ١٦٣٠) وفيها رأى الـرسول عليـه الصلاة والسـلام في جماعة في مسجد آخـي جلبي بجوار يميش اسكله سي في استانـبول، فاعتراه الانفعال

وهم يقبل يد رسول الله، وبدلا من أن يقول الشفاعة يارسول الله، قال من فرط الانفعال «السياحة يارسول الله» فتبسم له النبي وبشره بالشفاعة والسياحة والزيارة (الحج) ودعا له الصحابة في هذه الجماعة، وتمني له سعد بن أبي وقاص أن يكتب مايراه. وقال له الشيخ عبد الله دده شيخ «المولوي خانه» في حي «قاسم باشا»، في تفسير هذه الرؤيا، «اتبع نصيحة سعد بن أبي وقاص، وابدأ بالكتابة عن استانبول». بناء على ذلك قرر التجول في المدينة التي ولد وعاش فيها أولا، وكتابة كل مايراه. تجول أوليا جلبي في استانبول وطاف بأحيائها واحدا تلو الآخر، وجالس الناس في المجالس على اختلافها، وفى المقاهى والحانات، وجمع المعلومات عنها. وكانت أول رحلة له خارج استانبول في عام ١٦٤٠، وكانت إلى بورصه. وقد ذهب إليها بغير إذن من والده، ولدى عودته منها، أذن له والده بالرحلة مرة أخرى، وأوصاه بكتابتها. وربما تمكن أولياء جلبى أثناء تجواله فى استانبول، من القيام برحلات إلى كوتاهية ومغنيسيا، وإزميد، لكنها كانت رحلات قصيرة بسبب ارتباطه بعائلته.

كانت أول رحلة لأوليا جلبي إلى بلاد بعيدة، ظفر بها من خلال وجوده مع كته نجي عمر باشا والي طرا بزون. فقد ذهب أوليا في معية الباشا إلى هناك عن طريق البحر، ومنها توجه إلى عنابه. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة التى قادها حسين باشا لاسترداد قلعة آزاق سنة ١٦٤١م. ولم تسفر الحملة عن شئ فتوجه إلى القرم وحل ضيفا على بهادر خان. وقطع الشتاء فى باغجه سراي. وفي الربيع. اشترك في فتح الآزاق، ثم رجع من القرم إلى استانبول عن طريق البحر. وتعرضت المركب التي يركبها لعاصفة قوية وكادت أن تغرق. وبعد رجوعه إلى استانبول توقف عن الرحلات لمدة أربع سنوات وربما كان هذا بسبب الخوف. ثم خرج للرحلة مرة أخرى في عام ١٦٤٥. وفي هذه المرة اشترك في الحملة على كريت مع يوسف باشا. وشاهد فتح قلعة قانيه، ثم عادة إلي استانبول. وفى العام التالي رافق دفتردار زاده محمد باشا إلى أرضروم لدى تعيينه أمير أمراء عليها، وصاحبه أوليا باعتباره مؤذن ومصاحب له. وصار ضمن رجاله. وأثناء الرحلة زار بعض مدن الأناضول، واشترك في حملته على شوشك،

ورافق رسول الصفويين لدى عودته إلى تبـريز. وتجول في اذربيجان وكردستان، وطوّف بأنحـاء باكو وتفلـيس وروان وكوموش خانه وطـورطوف، وشارك في الحمـلات على كردستان. ثم نُقل دفـتر زاده محمد أفندي الذى أقام علاقة مع البـاشوات المتمردين في تلك القري، من عمله هذا وعُيّن في قارص، لكنه لم يهذب إلى عمله الجديد، وعندما خرج للعودة إلى استانبول، كلف أوليا جلبي بنقل رسائله أثناء قيام أوليا جلبي بوظيفته هذه، تعرف برؤسـاء الجلالية مثل قره حيدر أوغـلو ممد وقاطرجي أوغلو مـحمد. كما عاصر تمرد واردار على باشا، ويفسح فى كتابه مكـانا للحديث عن هزيمته على يد بشير مصطفى باشا، ومقتله. (سياحتنامه ج٢، ص ٤٤٨-٤٥٢).

ثم ذهب أوليا جـلبي في شهر أغسطـس من عام ١٦٤٨ إلى الشام بصحـبة مرتضى باشا لدى تـعيينه بكـلر بك هناك، ومن هـناك تمكن نقل مـرتضى باشا من الـشام إلى سيواس، ذهـب معه أوليا جـلبي إلى سيـواس، وتحايل بوسائـل شتى حتى تمـكن من السياحة في مدن وسط وشرق الأناضول، ثم رجع إلى استانبول سنة ١٦٥٠.

وفى العام نفسه، وأثناء وجوده في استانبول اعتلى ملك محمد باشا منصب الصدارة وكانت تربط بينه وبين أوليا جلبي صلة قرابة ومعرفة وطيدة، فكان ذلك واحدة من أهم نقاط التحول في حياة أوليا جلبـي. فصار واحدا من أقرب الرجال إلى الصدر الأعظم. لم يتردد في أن يسجـل صراحة الوجه الآخر للأحداث التي شاهدهـا من خلال موقعه هذا. وسجل فـي كتابه أدوارهم في الـتمردات والمظالم الـتي وقعت. وكان قيـام ملك محمد بـاشا بسك عملة مـغشوشة للخروج من الأزمـة المالية، سببا فـي تمرد أصحاب الحرف بتحريض أغوات الانكشارية، وبناء عليـه تم عزله من الصدارة، وتم تعيينه بكلر بك في أوزي، مما أتاح السبيل أمام أوليا جلبي لـلسياحة مرة أخرى. فذهب برفقة ملك باشا إلى هناك. وخـلال ذلك شاهد روسجق وسلتره، وبابا داغـي. واشترك في أعمال وكتابة وتحرير القرى والقصبات التى هناك. كمـا كان برفقة ملك أحمد باشا أثناء وتوليه منصب بكلر بك الروملي. ولكنه رجع إلى استانبول في يوليو ١٦٥٣ بعد عزل الباشا. وظل في استانـبول لفترة طويلة. وذات مرة حمـل رسالة إلى ابشير مصطـفي باشا في

قونيه. ثم عاد أوليا جلبي ليطوف مرة ثانية في دروب الأناضول بعد تكليف ملك أحمد باشا بمنصب بكلر بك، وان. وأثناء هذه الرحلة تمكن من التجول في كثير من الأماكن فى شرق الأناضول كما تجول في أنحاء إيران وبغداد من خلال مهام مختلفة قام بها. عقب هذا، ذهب مع ملك أحمد باشا إل أوزي مرة أخرى بمناسبة تكليفه بمنصب بكلر بك. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة المتجهة إلى راقوجزى، كما اشترك أيضا في الحملات التي شنها محمد كيراي الرابع، خان القرم ضد الروس والقازاق.

وبعد أن أقام فترة في استانبول، خرج في شهر ديسمبر من عام ١٦٥٧، وتجول في بوصره وجناق قلعه وغاليبولي. وفي عام ١٦٥٩، أتيحت له الفرصة للسياحة مرة أخرى، وفي هذه المرة انضم إلى القافلة المتجهة إلى إقليم ستيفانيتزا من البغدان. واشترك في هجمات متعددة مع فرسان القرم وفي التحركات التي تمت لتأديب ميهنيان الثالث أمير الأفلاق المتمرد. وعقب عودته إلى أدرنه مباشرة، اشترك في حملة كوسه على باشا إلى واراد. وبعد هذا التحق مرة أخرى بملك أحمد باشا أمير أمراء البوسنة، وطاف بولاية البوسنة. واشترك في كل التحركات العسكرية التي تمت في هذا الإقليم. ثم ذهب إلى صوفيا أيضا مع ملك أحمد باشا، وتجول في الروملي بسبب تكليفه بمهمة جمع الضرائب. وفى هذه الفترة، اشترك في حملة كوسه على باشا على الإردل في صحراء طمشوار. (١٦٦١). وهناك، جال في الإردل مع جنود القرم. ثم ذهب إلى بلجراد لقضاء فصل الشتاء وعقب ذلك كُلف بتحصيل المال فى الأرناؤوط (ألبانيا) عقب عودته إلى استانبول، كان أوليا جلبي يتحين الفرص للقيام بسياحة جديدة فاشترك في حملة فاضل أحمد باشا على النمسا فى عام ١٦٦٣. واشترك في كل مراحل هذه الحملة. وعقب فتح قلعة أويوار، - وحسب روايته - تجول في ديار كثيرة من بوهيميا حتى بلغ السويد وهولندا. ولدى عودته إلى بلغراد، حمل رسالة إلى سوخ راب محمد باشا في الهرسك. وهناك اشترك في التحركات التي جرت على طول حدود البندقية. وبعد ذلك رجع إلى المجر، وحضر معركة رَعْب. وقد قدم معلومات مستفيضة عن هذه المعركة. (سياحتنامه، ج٧، ص ٨١-١٢٠) وفي عام ١٦٦٤، ذهب إلى فيينا فى

صحبة السفير قره محمد باشا وطاف معه على القلاع التى تم فتحها حديثا وذلك عقب معاهدة وارسوار، وكتب أوليا جلبي أنه التقي في فيينا بالإمبراطور ليوبويد الأول، والقائد مونته جوجوللي، وأنه ذهب إلى الدانمارك وهولند (١) وبراند نبرج بإذن من الإمبراطور، وقال أنه طاف ببلاد كثيرة، لكن هذا أمر مشكوك في صحته.

وبعد فترة ذهب أوليا إلى القوقاز سالكا طريق القرم، فوصل حتى شواطئ الفولجا، وقال أنه بعد أن طاف بهذه الأماكن انضم إلى قافلة ورجع إلى قلعة آزاق، ثم ذهب من كفه إلى باغجه سراى، واشترك في بعض الحملات التي قام بها عادل كيراي. وفي مايو ١٦٦٨، رجع أوليا إلى استانبول. وفى شهر ديسمبر من العام نفسه طاف بمدن الروملي مثل أدرنه وكوموجنه وسلانيك. ثم ركب البحر من الأناضول إلى كريت وفى تلك الأثناء كانت قلعة قنديه في كريت مازالت تحت الحصار، فشاهد بنفسه كل صفحات هذه الحصار، وسجل أحداثه في رحلته، وكتب «فتحنامه قنديه» وتجول أوليا في كريت وقدم معلومات مفصلة عنها. ثم رجع من هناك إلى المورة واشترك في التنكيل بمتمردي «فانبوت ثم ذهب إلى بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) وطارق بها، ثم رجع إلى استانبول في ديسمبر عام ١٦٧٠. ظل أوليا في استنابول بضع شهور، ثم قرر أن يؤدي فريضة الحج الذي كان يتحرق شوقا إليه منذ أمد، فقرر الارتحال مرة أخرى. وارتبط خروجه للرحلة هذه المرة برؤيا رآها في ليلة القدر عقب عودته من زيارة قبر أبو أيوب الأنصاري، فقد رأي في منامه، والده، وشيخه محمد أفندي وأوصياه بالحج فخرج من استانبول لهذه الغاية برفقه صديقه سائلي جلبي، وثلاثة من الرفاق وسبعة من الخدم، وذلك في مايو من سنة ١٦٧١. وكانت هذه الرحلة هي الأولى التي يرتحل فيها في رحلة طويلة بدون أن يلتحق بقافلة، إنما خرج مع مجموعة محدودة من الرجال. لهذا اختلف مساره في الرحلة عن ذى قبل. فقد مر ببورصه وكوتاهية وافيون ومنها إلى إزمير، ومن هناك ذهب إلى جزر صاقيز وسيسام، ثم رجع ثانية إلى غرب الأناضول، فطاف بسواحل آيدين ومنتشا وجزر استان كوي ورودس، وكتب معلومات عنها استفاد فيها من دفتر خانة رودس. (سياحتنامه، ج٩، ص ٢٥٦.) ثم انتقل أوليا من رودس إلى الأناضول،

وزار مدن جنوب الأناضول التي لم يتمكن من زيارتها من قبل، وتجول في إطنه ومرعش وعينتاب وكليس ومنها ذهب إلى سوريا. وفي الشام التحق بقافلة أمير الأمراء حسين باشا وتوجه إلى الحج. وقد سجل في كتابه، على حده، مسار رحلته للحج. وبعد أدائه للفريضة، ذهب إلى مصر. وسنحت له الفرصة وهو في مصر ليطوف بالمنطقة كلها فذهب إلى السودان والحبشة. ولعله خص لهذه الديار الجزء العاشر والأخير من رحلته، والذى كتبه فى مصر. ونتبين منه أنه قضى فى هذه المنطقة مدة تربو على عشر سنوات، وذكر أنه أثناء إقامته في مصر، انعقدت الصداقة بينه وبين الأمير أوبك بك، وقد احتوى الجزء العاشر محصلة هذا. لكن النسخ التي كتبها من هذا الجزء انتقلت إلى استانبول بعد إهدائها إلى الحاج بشير أغا، أغا البنات المشهور في زمن السلطان محمود الأول. ثم انتهي الجزءالعاشر من رحلة أوليا جلبي بدون أن يكتمل، لهذا فإن التصور هو وفاة أوليا جلبي قبل أن يضع نهاية كتابه، وليست هناك معلومات مؤكدة عن مكان أو تاريخ وفاته. وقد ذكر جاويد بايصون أنه بناء على المعلومات الواردة في نهايات الجزء العاشر من الرحلة، تكون وفاة أوليا جلبي في حوالي سنة ١٠٩٣-١٦٨٢م (دائر المعارف الإسلامية، ج٤، ص ٤٠٦). لكن هذه المعلومة تم تصحيحها بعد ذلك حيث ومحتمل أنه كان على قيد الحياة عام ١٩٠٥هـ-١٦٨٤م، وأنه أدرك حصار فيينا للمرة الثانية. كما أن هناك أقوال بأن وفاته كانت بعد عودته من مصر إلى استانبول. ويقال أن قبره موجود في مدافن أسرته بجوار قبر (ميت زاده).

ثم يتزوج أوليا جلبي. ونتبين من كتابه أنه كان ماهرا في الفروسية، ولعب الجريد، وكان دؤوبا نشيطا، عذب الصحبة، له في مجالسه لطائف يتوق الجالسون إلى سماعها، ورغم معرفته الجيدة برجال الدولة في عصره، إلا أنه لم يحرص على المناصب ولم يسع إليها. وأوقف حياته كلها على السياحة. وكان يجد في الوظائف التي شغلها كأن ينقل الرسائل أو يقوم بتحرير (=كتابة) القرى، ويجمع الضرائب عونا له في القيام بهذه الرحلات، وكان في بعض الأوقات ينضم إلى موكب أحد السفراء ليرتحل ويجد في هذا فرصة للقيام برحلة مأمونه. وكان ثراء عائلته يؤمن له نفقات رحلاته الطويلة، فكان

يأخذ معه خدامه وعبيده بل وأصدقاءه. وكانت العطايا التي يحصل عليها مقابل أدائه بعض الخدمات، والأموال التي تتوفر له من بيع غنائم الحملات التي اشترك فيها كل هذا كان يوفر له مصادر إضافية للمال. كما أن انضمامه إلى بعض الهيئات الرسمية كان يعفيه من نفقات بعض الرحلات.

ومثّل ملك أحمد باشا دورا هاما في رحلات أوليا جلبي، سواء أثناء توليه منصب الصدارة أو أثناء شغله وظيفة أمير الأمراء في أوزى والبوسنة والروملي ووان وديار بكر، حيث أن أوليا جلبي لم يفارقه في أي منها. وبذلك تمكن من التجول في مناطق كثيرة من الأناضول والروملي. حتي أنهم وصفوه بلقب «المنسوب إلى ملك أحمد باشا». واكتسب أوليا جلبي من رحلته التي قاربت نصف قرن من الزمان، تجارب ومعارف لانهاية لها. فكان شاعرا وخطاطا، ومزخرفا وعارفا بالموسيقى. وقد أكد مواهبه في مواضع كثيرة. وقد قام بكتابة الخطوط التي على الحرم الهمايوني على النسق القره حصاري. كما أنه عبر في كتابه، عن الانبهار الذي شعر به أمام الكتب المذهبة وذات المنمنمات التي شاهدها في مناطق ترحاله. وكانت له روح رقيقة متصوفة يصف نفسه بأنه «أوليا بلاريا» (أوليايي بي ريا) وبسبب تواضعه التف حوله الكثير من الأصدقاء. فضمت حاشيته الولاة والقادة. لكنه لم يتراجع عن توضيح ما لمسه فيهم من نقاط للضعف. ويغلب علي أوليا جلبي في كتابته حسن التعبير. أما أسلوبه، يجذب القراء رغم مايبدو فيه من أخطاء نحوية متناثرة. ونجد فيه بعض الأشكال التي لاتتواءم في فهمها مع لغة الكتابة. وقد أعطى أوليا جلبي أهمية خاصة لأشكال الحديث واللغة بين الاناس في الأماكن التي طاف بها. وهو بعبارته البسيطة وتعبيراته الصادقة التي كتبها وكأنه يتكلم، ظهر وكأنه يخاطب بها كل إنسان. وقد رأي بعض الباحثين في سياحتنامة هذه أنها مذكرات. وكان أوليا جلبي كثيرا مايدنو من الأحداث بصورة أخّاذة. ولايتورع عن تقليد من يلتقي بهم من شخصيات. وكان أحيانا يروي حادثة أو خبر مصطنع لكي يجعل الشئ الذي ينقله أكثر إثارة (تلونا). كما يبدو وقد أفسح مكانا للغريب من الوقائع التي لاتتفق مع العقل بغرض جذب اهتمام القارئ. مثال ذلك أن القرية التي يمر

منها الأفيال، تقوم النساء فيها بتوليد الأفيال. والمغامرات التي تقص أنباء الغيب، والأطباء الذين يعالجون الأمراض التي لاعلاج لها، وما شابه ذلك. ويصيغ كل هذه الأشياء غير العادية بأسلوبه وشرحه الجميل، حتى أنه يمكن القول إنه اجتهد بهذا النوع من الحكايات التي تثير اهتمام قطاع كبير من الناس، وأن يضفي على كتابه مسحة شعبية. ودفعته رغبته فى أن يترك أثره فى الأمكان التي يمر بها- إلى جانب تواضعه- إلى أن يكتب على جدران المنازل «الفاتحة على روح أوليا» فقد كان صاحب دعابة.

وحسبما نتبين من كتابه، كان أوليا جلبي يحب أوقات المرح، كما كان صاحب ذوق. ولاشك أنه لهذا تأثير فيما كتبه وذكره من وقائع غريبة ولطائف. وكان أثناء تجوله في كل شبر من استانبول، يخالط رواد المدارس والحانات ورواة المأثورات الشعبية، كما تعرف على أرباب الحرف فيها وصادقهم.

مسار رحلة أوليا جلبي

تضمن كتاب سياحتنامه أوليا جلبي بمجلدته العشر، الأحداث التي شاهدها أوليا جلبي في الأمكان التي تجول بها، ويعتبر بمثابة كتاب شامل وهام في تاريخ الثقافة التركية.. وهذا الكتاب المعروف باسم سياحتنامة أوليا جلبي، وباسم أوليا جلبي سياحتنامه سي، تحمل بعض النسخ منه اسم «تاريخ سيّاح». والجزء الأول منه يصور استانبول، والثاني يصور بورصه وإزميد، وبارطين، وأماصرا، وإينه بولو، وسينوب، بافرا، وصامصون، وكيره سون، وطرابيزون. كما يقدم معلومات عن كرجستان وديار الأباظه، وحملة كريت وفتح قلعة خانيه، ودوزجه، وبولو، وكرهده، وأماسيا، ونيكسار، وأرضروم، وأرزنجان، وشبنقره وحصار، ومرزيفون، وجوروم. وفي الجزء الثالث يأخذ بالحديث عن اسكيشهر، وليكين، وقونيه، وأولوقيشله، ويا ياص، والإسكندرون، وأنطاكيه، وحما، وحمص، والشام، ويافا، وبحر لوط، والرمله، ثم قيصري، وسيواس، وموش، وعرب كير، وخربوط، وبينكول، ومدن برغاز، وبراوادي، وشومنو، هزارجراد، وروسجق، ويركويي، ونيبولو، ثم يصف أطراف

أوزي، وكستانجه، وباباداغي، وزغره العتيقة، وفلبه، وتاتار بازارجق، وصوفيا، وجسر مصطفى باشا، وأدرنه. وفي المجلد الرابع يقدم معلومات عن ديار بكر، وماردين، بتليس، وان، ومن إيران رومية وتبريز، وهمدان، وكرمان شاه. في المجلد الخامس يبدأ أوليا جلبي بوصف ما رأه في مساره من إيران إلى بغداد، ومن هناك إلى سعرد، ومروره بطوقاد أثناء عودته إلى استانبول. بالإضافة إلى أنه في هذا المجلد يصف الطريق إلى اوزي، ويصف وارنه، وإسماعيل، وآق كرمان وبندر، وحملة لهستان (بولندا) التي اشترك فيها من هناك، وأوكرنيا، وبروت، كلبورن، ورحلة الأناضول التي خرج فيها مع السلطان محمد الرابع بعد عودته إلى استانبول، والوقائع المتعلقة بأباظه حسن باشا رئيس الجلاليين. والأماكن مثل القلعة السلطانية وبوزجعده، غاليبولي، وبولاير، وكاشان، والقره، والبوسنه، واسكوب، ومناستر. وفي المجلد السادس يبدأ أوليا جلبي بذكر الحملة التي خرج فيها إلى الإردل برفقة كوسه على باشا، ويمر ببلاد الصرب، والمجر، ورومانيا. ويتكلم عن المدن التي في هذه البلاد. وفي المجلد السابع، يصف الذهاب إلى فيينا مع سفارة قره محمد باشا، ويصف قانيجه، واستويني، وبلجراد، فيينا وقلاعها، ثم الوصول إلى المجر وبودين، وطمشوار، وولايات الأفلاق والبغدان، والأقوام في ولاية القاراق، والقرم وداغستان، والقوقاز، ولغاتهم، وأعرافهم، وعاداتهم. . وفي المجلد الثامن، ويصف العودة إلى استانبول من الآزاق عبر طريق كفه، وباغجه سراي، وقيل بورون، وآق كرمان وإسماعيل، وبابا داغي، وخاص كوي، وأدرنه وديماطوقه، وكوموجينه، ودراما، وسلانيك، مرورا من الزوره وخانيه، كما يتكلم عن ما بعد اشتراكه في فتح قنديه، فيذهب إلى الأرناؤوط، ومن هناك يصف العودة إلى استانبول من فوق يانيه وتبه دالن، وبولونيا، ودراج، وايلباصان، واوهري، ورسنه، ومناستر، اشتيب، وجسر مصطفى باشا وأدرنة. وفى المجلد التاسع، يصف المدن الواقعة على الطريق الطويل الممتد من استانبول إلى مكة والمدينة، وغرب وجنوب الأناضول وسوريا. أما الجزء العاشر فكله خاص بمصر، وتناول فيه الأقاليم القريبة من مصر، وشواطئ النيل، والسودان وبلاد الحبشة.

مسار رحلة أوليا جلبي في مصر، كما وردت في رحلته

القاهرة - شبرا - بطن البقر - قنطرة الملك الطاهر - مصر خيم - عفريت - تفاحية - مبهوم - شبرتين - زفتي - ميت غمر - سرسنه - منوف - سرسنه - طوخ النصارى - طنطا - محلة مرحوم - ابيار - نهاريه - بلـدة القبيلة - بلدة الفرزدق - محلة صال (محلة قلبية) - محلة أبو علـى - بلدة المجنون - دسوق - مرقص - رحمانية - داودية - سنهور - دمنـهور - حوش عيـسى - مدينـة العُقَّاب - دمنهور - جبـل قاسم بك - بصطيره - رزقون - زاوية الجنزال - ناصرية - سنتاويه - برسك - نحل - أبو خضر - قراوي - قافلة - دشـوش - بُركه - رويجب - لقون - بُركه - جريـون - مولَضفي - اقريش البستلقون البيضا - جنان - الإسكندرية - أبوقير - ادكو - رشيد - الإسكندرية - عزبة المـغدي - هدية - مـحلة الأميـر - برمبال ديَّـه - ادفينا - مـحلة مطـوبس - جمشيره - فـزاده - ديروط - سنديان - عاطف - فوه - شرف - شـرمباي - مالك - شموخزاد رحمانية - إبراهيم الدسوقي - أبـو على - مركز - دية البير - شبراخيش - شبريش - ميت جناح - كفر جديد - نقله - فرزدق - اشلميه - طاهريه - كفر الزيات - شبوج - سلمون - كفر النحا - كفر جـديد - أبو أحمد - البحيرة - زايره - طنوب - طيرنه - علقمة أبو الجاوي - طماليه - جزي - طراره - زاويَّة - أبو نشانه - إشمون جريس - كفر شركس - قوطه - أم ديـنار - شيراوي - دراري - بارودخانه - شبرا - الورّاق - امبابة - بولاق - العزبه - عزبة الحاج - البرلس - بلطيم - السنانية - دمياط - تينه - فَرْص فارسكور - كفر السليمانية - شرباص - ميت أبو غالب - رأس الخليج - أبو عبد الله - طهربة - بُشاط - دِنـجي - مساط - شربين - بدوي - بترا - درمبال - دياسط - خـياريه - قاش - المنصـورة - المنزله - طلـخا - الشيخ رمضـان - ميت خميس - ميـت الغرقي - ميت ويش - ميـت عساس - ميت نورسي - ميـت المنيا - سمنـهود - أبو على قيـطاس - أغا- محلـة الكبير (المحـلة الكبرى) - سمـنود - أبو الحارث - أبوصير - ميـت برقع - بريه - المنظره - ميت بدر - ميـت دمسيس - ميت أنسا - سنـباط - شرنجي - دنهور - غمـار - رفتي - المعصرة - غريـب - صهريج -

مسيد - صيد - عز - هارون - صفين - تـغني - سندي - بريّ - أشمون - مويش - ملاو - بنها - بطاي - رمبلي - أبو الطـوافتي - العطار - سيدي - خصر - عطف - طُخلا (طلخا) - جـوخ (طوخ) - عفيف - طنط - برشمس - بـرسوم - أبو شعره - قليوبية - شبرا - شروي - شبرا - القاهرة - الـبساتين - المعدية - مُحنط - قهوه خانه - دلي حسين باشا - الزاوية - كوم الدير - ميمـونه بني سويف - الفشن - أبو جرجو - كليـس (قيس) - سمنود سـعيد - المنيا أشـمونين - ملاوي - دار شيد - صـنبو - منفلوط - أسيوط - شطوب - جبل الطير (طيلمان) - أبوتيج - الشيخ بن عابد - طما - الجزيرة - سوهاج - المنـشية - جرجا - خالد - جمادي - مزار - بـلابيش - فوحة على - قنـا - القصير - أنبـوت - قوص - شمونين - طوت - شـفارس - أم على - حجيـزه ردسي - شبيـكه - سلسلـة - إدفو - - كوم سيـاه - كوم امبو - سـنباص - أسوان - الشـلال الأول - علوي- باب الـنوبه - قلـعة إبريب - كـنوزين - مهـريه - كلابشـه - أبوخور - سنـيال - قشطامـينه - كورد - وادي الـعرب - أزرق - إبريم - وادي حلفا - إبريم - سبوع - كنوز - طمانيس - رقُبه - كرخ عرباني - حمام فرعون - باجه - إدفو - حجيزه - جعفري - كلخ - فرشوط - سمنهو - برديس - أسيوط - هركه - قـلمون - ألواح - البـهنسا - - لاحون - الهـوارة - الفيوم - كامـيا - خان القهوة - أطفيح - الجيزة - القاهرة - الإسكـندرية - القاهرة - سبيل علام - المطرية - عين شمس الخـانكة - مشيره - دراعم بابـيس - رني - قرين - ستاره - الـصالحية - قرين - على - القاهرة - الإسكندرية.

مصادر رحلة أوليا جلبي

يقول أوليا جلبي في مقدمة رحلته في مصر :

«وبينمـا كنت أبحث عمن أقـام تلك الأبنية ذات الطـلاسم، وتلك القصور الـعالية رجعت إلى مالا يحده الحصر من التواريخ القيمة، وهذا بيان بعناوينها:

١- تاريخ المقريزي وهو كتاب عظيم مشهود له بصحته التاريخية، وهو مستخدم من

كتب قبطية وسريانية، ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية ويتقبله الخاص والعام بقبول حسن. ٢- تاريخ ابن جرير الطبرى صاحب التفسير القديم وهو تاريخ نفيس. ٣- تاريخ الشيخ الإمام السيوطى، وهو تاريخ له ماله من عظيم قيمته. ٤- تاريخ صابئة. ٥- كتاب فتوحات مصر لابن عبد الحكم. ٦- كتاب فضائل مصر لابن الكندي. ٧- كتاب ابن زولاق (فضائل مصر وأخبارها). ٨- كتاب خطط القضاع. ٩- كتاب إيقاظ المتغفل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب الزبيري. ١٠- كتاب مناهج الفكر ومنهج العبر. ١١- كتاب عوان عنوان السير. ١٢- كتاب المسالك لابن فضل الله. ١٣- كتاب الإصابة في معرفة الصحابة. ١٤- كتاب الرجال العشرة للحسيني. ١٥- كتاب طبقات الحفاظ للذهبي. ١٦- كتاب طبقات الشافعية للسبكي. ١٧- كتاب طبقات المالكية لابن فرحون. ١٨- كتاب طبقات الحنفية لابن دقماق. ١٩- كتاب مرآة الزمان لابن الجوزي. ٢٠- كتاب البداية والنهاية لابن كثير. ٢١- كتاب إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر. ٢٢- كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. ٢٣- كتاب السكُردان لابن حجلة. ٢٤- كتاب سجع النهرين في أوصاف نهر النيل. ٢٥- كتاب ثمار الأوراق لابن حجة. ٢٦- كتاب تواريخ الشهاب جلبي ترجمة لكتاب حسن المحاضرة «للشيخ السيوطي. ٢٧- تاريخ محمد جلبي.

ثم يقول أوليا جلبي :

«علاوة على تلك الكتب السالف ذكرها قرأت كثرة من الكتب والدواوين في مصر.

وهكذا يوضح أوليا جلبي للقارئ الكتب والمصادر التي اطلع عليها قبل زيارته لمصر ثم يوضح أن هناك كتبا أخرى استعان بها وقرأها فى مصر.

أما عن طريق تعامل أوليا جلبي مع المصادر فقد اختلفت من مصدر لآخر، حيث أن هناك مصادر مفضلة بالنسبة له اعتمد عليها اعتمادا كبيرا في أغلب فقرات كتابه ولتوضيح ذلك على النحو التالي:

أولا : يقول أوليا جلبي عن مصادره المفضلة.

«وليعلم من يطلعون عليها (يقصد رحلته) أن ما في رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافية وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوي العقول الراجحة.

ومن أمثلة استعانته بتلك المصادر التى ذكرها يقول :

وبناء على تواريخ اليونات أن مصر أول بلد عربى على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والأخرى بغداد والصين وعراق الداديين وهذه المدن الأربعة تشكل السوء الأعظم من العالم.

«وبناء من أمثلة اعتماده على تواريخ الصابئة وهي من المصادر الأساسية له خاصة في فترة التاريخ القديم منذ هبوط آدم، وأخبار وسير أبنائه يقول: «وجاء في تواريخ الصائبة أن إدريس كان له في علم الكتاب اليد الطولي والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما في الوجود من شئ، ويحرز جميع الوقائع في يوميات ويحفظها في جبال الأهرام».

أيضا اعتمد على تواريخ القبط فقال في إحدى فقراته التى نقلها عن هذه التواريخ وهي خاصة بدعاء سيدنا آدم عليه السلام لمصر يقول أوليا جلبي: «أما دعاؤه لمصر، الذي أخذت ترجمته عن التواريخ القبطية فسوق نكتبه في مجموعتنا تلك. دعاء سيدنا آدم عليه السلام صفي الله في حق مصر بلسان كلام الله العبري «صام اللهم طط زد لم يتم إيما نمي حوز جيرز باشيطا لأن صقله فلازريبا قورتا ربني قورتا بني (مصرع ثاني) شوزم تراكن جملة ملكلرك طرز ولم شريزتنا بكا خذمت اتسنلر.

وعن مصادر في المعلومات الجغرافية كان «بطليموس» هو المفضل له حيث يقول: «وعلى حد بطليموس الحكيم على وجه الأرض مئتا نهر عظيم وأربعة وأربعون ألف عين جارية».

هذا بالنسبة للتاريخ القديم، والنواحى الجغرافية، أما عن تاريخ مصر الإسلامية فإن أهم المصادر التى اعتمد عليها هو كتاب تاريخ المقريزي والذي نقل عنه الكثير واستشهد به في كثير من مواضع كتابه، بل ومدحه قائلا:

«وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقريزي القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية، والقبطية، واليونانية، وكأنه في كثرة سياحاته فيثاغورث وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحا، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره

الله بالتوجه إلى الشام، وكان لشيث ولده اسمه (غرياب) وابنه نقراوش، وكان نقراوش هذا متضلعا في جميع العلوم، وقد أحب نقراوش هذا وسماه «مصرايم» وأمره بتعمير مصر ومضى آدم إلى الشام لزراعتها ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون غادروا الديار فرارا من ظلم قابيل. . .»

ويقول أوليا جلبي عن المقريزي في موضوع آخر من كتابه إنه مؤرخ العالم وهذه المبالغة في مدحه إنما لشدة إعجابه به وأخذه عنه فيقول:

«يقول مؤرخ العالم الشيخ المقريزي: إنه لايخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم».

وهكذا تكرر استشهاد ونقل أوليا جلبي الكثير من تاريخ المقريزي. ومن المصادر التي اطلع عليها أوليا جلبي كتاب تذكرة داود، ويبدو أنه من الكتب التي اطلع عليها في مصر حيث إنه لم يذكره في المصادر التي ذكرها بداية كتابه يقول أوليا جلبي عن عصير العرقسوس: «وقد بذكر داود في تذكرته سبعين فائدة له، ومن أعظم فوائده أنه يطهر المثانة ويدر البول».

ومن المصادر التي اعتمد عليها أوليا جلبي خاصة في ذكر الفتح الإسلامي لمصر كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم وإن كان ما أخذه عنا بن عبدالحكم قليل فهو لم يذكه كما يذكر المقريزي وقد أخذ عنه ما يلي:

وبناء على قول بن عبدالحكم رحمه الله: إن جبل خليل الرحمن في القدس وجبل طور سيناء وجبل ينبع وعرفات وإلي ساحل نهر مراد والرها وحلب وريح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحكم.

ويبدو أن أوليا جلبي لم يكن ينقل نقلا تاما عن هذه المصادر وإنما كان يصيغ ما يأخذه منها بأسلوبه، فقصة زيارة عمرو بن العاص لمصر في الجاهلية مقارنة بما جاء في رحلة أوليا جلبي فوجدته يتفق في المضمون مع ماجاء في كتابي فتوح مصر لابن عبدالحكم وما جاء فى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى ولكنها تختلف بعض الشئ في صيغتها كما أنها أكثر اختصارا فى رحلة أوليا جلبى.

ومما يؤخذ على أولياء جلبي أن سرده للجزء التاريخى المتعلق بفتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب يتسم بالسطحية حيث لم يأخذ عن ابن عبد الحكم إلا ما ذكرناه سالفا

مع العلم إن ابن عبد الحكم مرجع المؤاخين القدامى فى كتابه حسن المحاضرة. أيضا لم يحدد المصدر الذى رجع إليه فى الأحداث المتعلقة بهذه الفترة.

ومن المصادر الأخرى التى اطلع عليها وذكرها كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى، والذى نقل عنه كثيرا من المعلومات الخاصة بالطوفان ومصر، وأبناء نوح عليه السلام، وكتاب ابن ظهيرة الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة.

أيضا من المصادر التى اطلع عليها وذكرها فى ثنايا كتابه ولم يذكرها فى بداية كتابه عند ذكره للمصادر كتاب مروج الذهب للمسعودى، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وكتاب عبد الوهاب الشعرانى أحد أقطاب الصوفية فى مصر العثمانية، وقد اعتمد أوليا جلبى على كتابه لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار أو مايعرف بالطبقات الكبرى، وكتابه البداية والنهاية لابن كثير. أيضا اعتمد على كتب التفسير فاستخدم تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، كما استخدم العديد من كتب الحديث كان أهمها كتاب الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م كذلك صحيح مسلم.

يؤخذ على أوليا جلبى قوله فى كثير من الفقرات التى ينقلها:

وبناء على قول كثير من المؤرخين أو بناء على قول كثير من المفسرين أو أجمع المؤرخون دون تحديد مصدر نقل عنه أو تحديد من هم هؤلاء المؤرخين أو المفسرين والأمثلة على ذلك كثيرة منها. قوله «وهذا مااجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين»، أيضا قوله «وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين» وفى ص ٢٩ «أجمع المؤرخون على القول الصحيح وهو أن مصر دخلت فى حورة أمة محمد عبد وفاة النبي (ﷺ) بثمانية عشر عاما».

وهكذا تكثر هذه المقولة فى كتابه أوليا جلبى وكان الأفضل أن يذكر اسم كل مصر ينقل عنه.

ورغم ذلك نجد أوليا جلبى يتميز بتحليل ومناقشة أراء غيره ومقارنة بعضها ببعض فى كثير من مواضع كتابه مثل قوله: «ومن الخطأ قولهم إن الفيّوم من ألف يوم، وإن

وفى تفسير قوله تعالى «مثل جنة بربوة» يقول بعض المفسرين إن المقصود بالربوة مصر كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير إن جمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر» .

ويقول فى موضع آخر مناقشا ومفندا أراء بعض المؤرخين:

«قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقريزى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام» وقد أخفاها الله حتى قيل إن جواهر وجدت فى سبيل علام، وقد رأيتها تباع بألف قرش، وبناء على قول بعض المؤرخين إن حديقة إرم بالقرب من دمشق أن أعرابيا أنخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملأ مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فعلم أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، وقال كثر من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلى مدينة أسوان وقالوا إن حديقه إرم فى مصر على الأرجح» وعن نقده لأراء غيره يقول فى ذكره لمعركة مرج دابق بين السلطان سليم خان العثمانى والسلطان الغورى» ويقول بعض المؤرخين إن الغورى قتل فى هذه المعركة، ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشا. ويؤخذ عليه هنا أنه لم يأت بالأدلة والبراهين التى تؤكد على صحة ما قاله.

ومن أمثلة نقده وتحليله ما جاء بشأن مدينة القسطاط: يقول: «ويسميها القبط الفسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى عهد الطوفان، وهي الآن كذلك مدينة عتيقة، والأحجار التى فيها كبيرة كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعا، وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعا، وقد رآها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لايقدرون على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولاعلم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلايتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان

القوة، وكان طـول كل إنسان مائة ذراع، أمـا الآن فلايتجاوز طول الإنـسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفـع جبلا، ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يـعارض فى ذلك لاعلم لـه ولاخبر لديه عن عـلم جر الأثقال وليـعلم أيضا أن (زحمة الرجال تقلع الجبال).

أما عن مصادر أوليا جلبي الخاص بالإحصـاءات والأعداد التى ذكرها فى كتابه فيبدو أنه اطلع على سجلات خاصة بذلك وقد ذكر فـى كثير من مواضع رحلته أنه أخذ هذه الإحصاءات عن ما يسمى بسجلات الغزالى حيث يقول:

«بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكـره الغزالى عن مصر أم الدنيا ففى مصر ٧٤٠ حيا للمسلمين وفيها ٧٨ قصرا لسلاطين السلف وأن اللسان ليعجز عن وصف كل منها فعلى شط بركة بـركة الفيل قصر السلطان قايتباي وفى قلعـة الكبش قصر السلطان جاولى وأسفلـه قصر محمد بك، وقبالـته قصر نذير أغا وقصر رضـوان بك أمير الحج وقصر يوسف بـك أمير الحج الأسبق، وقصر الشـيخ السادات وقصر بيقلـى محمد بك وقصور نوالى بك. . . . على هذه القصور (٢٢٠٠٠) بيت لـلمسلمين، أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعـون الخراج ويحصله أمين البحرين، واثنتان وعـشرون جماعة يهـودية تشكل حارة واحدة. . . وبـيوتهم من خمـسة أو ستة طوابـق. . . وعدد اليهـود ٦٠٦٠ نسمة يـدفعون الخـراج وهناك أربع حـارات للأورام وحارتـان للأرمـن ومجمـوع سكان الـروم والأرمن ٣٠٠٠ نـسمة يـدفعـون الخراج، والنصارى مـن التابعين لبـلدان أوربا أو الدولة العـثمانية فيـتراوح بين ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نـسمـة، ولاوجود لغجر الأورام، أما جـميع أهل مصر فـهم قوم فرعون، وعلـى حافة البركة حارة لنصارى أوربا وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا.

ويقول فى موضع آخر: وطبقا لما ورد فى كتب «الغزالى» فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر وهذا مافيه الحاجة إلى مجلد خاص به».

أيضا عـند ذكره لقـرى مصر وإجمالـى أكياس الخزانة وعـددها ودراهمهـا والدوانق

ويبدو أن أوليا جلبى استطاع الأطلاع على هـذه السجلات حتى يتمكن من ذكر هذه الأرقام الكثيرة جدا والإحصاءات الدقيقة خاصة فـيما يتعلق برواتب وطوائف الجند وما يتقـاضونه كل شهر أو كـل ثلاثة أشهر أيضـا ما يتعلـق بعوائد القرى والمـدن والمحاكم وغيرها. فيقول أوليا جلبى عن هذه السجلات:

«كما وجد رئيس المترجمين، وأمين السجلات، وهناك قبة أخرى من الحجر تراكمت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخلـيفة عمر رضى الله عنه وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتخدا».

وبعلاقة أوليـا جلبى بالإدارة العثمانـية فى مصر، وهى علاقة كـانت لاشك وطيدة حيث كان مقربا من الكتخدا وغيـره، استطاع الأطلاع على هذه السـجلات، وهذا الذى مكنه من رصد هذه الأرقام وهذه الإحصاءات.

يعد أولـيا جلبى الرحـالة الوحيد من بـين كل من سبقـوه بالرحلة إلى مـصر الذى حرص عـلى إظهار الجـوانب المضيـئة للحـضارة الإسلامـية في مصـر فى فترة الحـكم العثمانى، وهى الفتـرة التي نعتها كثير من المؤرخين والكتاب بـأنها فترة تخلف وظلام، فجاءت رحلة أوليا جلبى لتظهر هذه الجوانب وتبين ماكان فى مصر من مدارس ومساجد وكتاتيب، ودور للقراء، وتكايا، ومستشفيات وميـحاكم، ومبرّات، كما بينت بالتفصيل صورة الحياة الاقـتصادية فى مصر من خـلال عرض ما كخان بها من حـرف وصناعات ووكالات ودكاكين، ومسـتوى معيشة الناس وحالـة الرغد والرفاهية التي شـهدها أوليا جلبي في أثناء سياحته التى قام بها فى مصر.

أبرز أوليا جلبـى أهمية مصر، وعظمة مكانتـها من خلال الخلفية التاريخيـة البسيطة التي بدأ بها رحلته والتى تناول فيها تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى الأرض وحتى الفتح العثماني لها، ودعوة الأنبياء لها، واستقرارهم بها، وذكرها فى كتاب الله وفى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

جمعت رحلة أولـيا جلبى بين نمطين من الرحلات التـى تمت لمصر، الأولى رحلات الأجانب الغير مسلمين والتى ركز أصحابها على إظهار صورة مصر الفرعونية والمسيحية من خلال آثـارها، والنمط الآخـر رحلات المسلمـين أمثال بن جبـير وابن بطوطـة التى أظهرت بـعض مظاهر الحضـارة الإسلامية فى مصـر من مدارس ومساجد وخـانقاوات وغيرها، فجمع أوليا جلبى بين النمطين فـلم يهمل آثار الفراعنة بمصر من أهرام ومقابر وغيرها.

تميز أوليا جلـبى بالدقة فى الحصر، والاعتمـاد فى وصفه على مشاهداته الـشخصية وليس على مشاهدات وآراء الـغير والإتيان بإحصاءات غاية فى الأهمية لـم يستطع غيره من السابقين الإتيان بها.

لم تقتصر سياحـة أوليا جلبى ومشاهداته على القاهرة أو مصـر القديمة والإسكندرية كسابقيه ولكـنه زار وشاهد أغلب - إن لم يكن كل - مدن وقصـبات مصر آنذاك حتى مدينة أسوان بل وزار بلاد السودان والحبشة وهذا ما لم يقم به غيره من الرحالة السابقين عليه.

عرض موجز لرحلة أوليا جلبى فى مصر والسودان والحبشة

وتتناول رحلة أوليا جلبى إلى مصر فى بدايته تاريخ مصر منذ بدء الخليقة وهبوط آدم إلى الأرض والدول التى تعاقبت على حكمها حتى الفـتح العثمانى لها ونظم العثمانيين بها، ثم وصف للقاهرة أو مصر القديمة كما شاهدها أوليا جلبى حيث قام بتصوير الحياة الاجتماعيـة والاقتصادية والعلمـية بها، ومنشآتهـا من منازل وجوامع ومساجـد وتكايا وأسبلـة ومدارس وكتاتـيب وحمامـات ووكالات وخلجـان وترع وزراعات وحيـوانات وأضرحة وغيرها، ثم وصف لبقية رحلته مـن القاهرة إلى الإسكندرية ثم رشيد ودمياط ثم عودته لـلقاهرة واستئـناف رحلته إلى بـقية قصبات ومـدن مصر إلى الصعـيد فمزار الفيوم وبنى سويف وأسيوط وسوهاج وغيـرها حتى وصل إلى أسوان وتوغل حتى بلاد السودان والحبشة ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

وقد جاءت رحلة أوليا جلبى فى نحو ثلاثة وسبعين فصلا، بدأها بمقدمة حمد الله فيها وأثنى على رسوله الكريم، ثم تناول قصة خلق آدم وحواء وهبوطهما إلى الأرض وتنقلهما فى الأرض حتى وصولها إلى مصر حيث صارت مستقرا لهما ولذريتهم.

ثم ذكر أوليا جلبى بداية دخوله مصر وإعجابه بها وبأبنيتها، والمصادر التى اطلع عليها وفى ذكر مصر فقال فى تواضع جم يدل على رفعة نفسه وتدينه الشديد:

«دخلت أنا أوليا جلبى الحقير سياح العالم ونديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف، فوجدت داخلها وخارجها وأعجبت له كل العجب ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عمن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلا ما ليحده الحصر من التواريخ القيمة».

وفى خاتمة شرح أوليا جلبى خط سير رحلته التى كتب مسوداتها فى مدينة أبريم بالحبشة وهى آخر ما وصل إليه فى رحلته حيث يقول فى ذلك «واسترحنا فى مدينة أبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا فى السفن وأرسلناها إلى جرجة ولقد كتبت مسودات رحلتى».

ثم عاد أوليا جلبى إلى مصر ولكنه سلك الضفة الغربية للنيل أثناء عودته حيث كان فى ذهابه يسلك الضفة الشرقية وفى ذلك يقول:

«ومن مدينة أبريم ودعت خلانى وأحبابى وركبت السفينة فى النيل إلى الجانب المواجه لأن فى ذهابى رلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية».

ومر أوليا جلبى بعدد من المدن والقصبات أثناء عودته حتى وصل مدينة «الواح الكبرى» بولاية الواحات وبها بلغ كتابه نهايته، ووضع أوليا جلبى خاتمته التى شرح فيها خط سير رحلته ومشاهداته وطريقة كتابته لهذا الكتاب فيقول :

«ولله نحمد أن كتابنا هذا بلغ نهايته هنا، كما نحمد الله نثنى عليه الثناء كله على أننا أقمنا فى ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل

خرقة الدراويش ذات الألوان وكانت ألفاظها من بدايتها إلى نهايتها فى عصر وإلى مصر الباشا وأتممنا كتابنا فى ظل خيرة ورعايته، وإن كان هذا الكتاب فى رأى العقلاء والحكماء لايخلو من نقص وعيب وذلك لكثرة تنقلنا بين البلاد ولم يهتم بكتابته بألفاظ جذلة، والمرجو منهم أن يغضوا النظر عن السهو الغلط عنه... فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح فى البلاد خمسين عاما ولكثرة سياحتى انزويت فى ركن العزلة، ولم يتيسر لى أن أتتبع كل ما جاء فى التواريخ، ورأيت نهاية حدث من الأحداث، ولم أقيد فى كتابى نهاية حدث بالذات ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقيت إليه السمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك جرأت على كتابة هذه الأوراق (والعذر عند كرام الناس مقبول) وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت هذا التاريخ.

كتبه أضعف الكتاب الحاج محمد المعروف بحافظ القران المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

منهج أوليا جلبى فى كتابة رحلته

استهل أوليا جلبى رحلته بموجز عن تاريخ مصر منذ بدء الخليقة، واستقرار أبناء أدم من الأنبياء بها، وحكام مصر قبل الطوفان وبعده حتى الفتح الإسلامى لها فى خلافة عمر بن الخطاب، وتعاقب الدول الإسلامية على حكمها حتى الفتح العثمانى لها.

وقد كان هذا الموجز التاريخى من أسباب عظمة هذا الكتاب، حيث جعله عملا ثقافيا متكاملا يمتع قارئه، فهو يجمع بين تاريخ مصر وجغرافيتها منذ أقدم العصور وحتى عصر هذه الرحالة وهو بذلك يختلف عن أسلوب سابقيه من الرحالة فى هذا المجال.

وأفاض أوليا جلبى فى ذكر الفتح العثمانى لمصر، ودواوين العثمانيين بها ورسومهم، ومواكبهم، وجندهم ورواتبهم وملابسهم، وفرقهم وذلك من خلال صفحات الكتاب.

علاقة مصر والدولة العثمانية من خلال رحلة أوليا جلبى

من أهم مميزات هذا الكتاب هو توضيحه لموقف مصر من الدولة العثمانية قبل دخول العثمانيين إليها، ثم توضيح وإظهار الصورة المضيئة للعثمانيين فى ظل حكمهم مصر.

أما بالنسبة للنقطة الأولى والمتعلقة بموقف مصر من الدولة العثمانية قبل الفتح العثمانى لها بيّن أوليا أن دخول العثمانيين مصر كان بناء على رغبة أهلها وبموافقاتهم ولم يدخلوها عنوة حيث يقول:

وبسبب ظلم الشراكسة وطغيانهم، قدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاد بعيدة، وإذا مضينا إلى العجم، وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لاثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض، إليهم، فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة، وهتف كل من الشيخ أبو الجارحى، والشيخ مرزوق كفافى قائلا: تعال يا سليم تعال ياسليم وكان السلطان سليم فى مشتاه بأماسية مع وزراءه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا يونس باشا إننا سمعنا من قال يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة، فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حليمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفاف بالمكاشفة: ياسليم روح اجلس على تخت أبوك وإذا ما دعوناك إلى مصر فاقدم هذا ماقالاه.

ويقول أوليا جلبى عن بشريات فتح العثمانيين مصر:

«ومضى سليم إلى بورسة لزيارة أمير سلطان فقال السلام عليكم يا أهل القبور،

فسمع صوتا يقول: وعليكم السلام ياصاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين وتردد هذا الصوت من القبر الشريف، فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور وفى الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم، لقد بشرت يامولاي بفتح مصر.

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف فى ضريح أمير سلطان وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره وهناك جمع جميع علماء الترك، وأهل الفتيا على المذاهب الأربعة، فطلب منهم أن يفتوه فى فتح مصر، وكان الطواش سنان باشا الصدر الأعظم آنئذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك، وتبينوا ما جاء فيها، وقالوا مادام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

وبعد ما ذكر أوليا جلبى فى كتابه مضمون الفتوى قال:

فحمل سليم سند الفتوى وفى الحال بعث باثنى عشر رسولا إلى السلطان الغورى فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذي القدر وسبعين من أبنائه وأرسل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلى بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان، وفيها يقول: مادامت حيا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء فى سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلا تعال إلى ميدانى، وعندما تسلم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضبا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور وإذا ما قتل سفراء المسلمين، فقتل الغورى حلال، فانهض يامولانا لساعتك وخف إليه ولاترفع يدك عنه.

وجهز السلطان سليم جيشه وخاض معارك ضارية ونجح فى هزيمة الغورى وضم بلاد الشام. ثم اتجه إلى مصر ودارت بينه وبين الجراكسة حروبا شرسة حتى مكنه الله فى نهايتها من ضم مصر لحوزة العثمانيين.

وأما النقطة الثانية التى وضحها أوليا جلبى ألا وهى الصورة المضيئة للعثمانيين فى

مصر فقد ظهرت منذ استقرار العثمانيين بـها، فبعد أن مكّن الله السلطان سليم من فتح مصر ودانت له، يقول أوليا :

ويإذن من علماء مصـر جميعا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضـاء الديوان فى جامع عمرو بن العاص بمصـر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألـف رجل لأن فى ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كـفافى وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبـة باسم سلطان البرين وخاقان الـبحرين خادم الحرمين الشريفـينين سليم خان ابن بايزيد أيد الله سلطنته إلى آخر الزمان. وبـإذنهما الشريف سكّت العملة وكتب عليها «صاحب النصر، ضارب النصر غرو النصر فى البر والبحر السلطان سليم خان بن بايزيـد خان عز نصره سـنة ٩٢٢» وبعد ذلك جـمع سليـم ذات يوم الديوان الســلطان وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم فى السن والرتبة، ووضع سليم يده فى يد خير بك وأجلسه على سرير الخـلافة ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليـمى وريشة نفيسة، وعلى ظهر خلـعة فاخرة من السمور، وحول خصره مـنطقه مرصعة تعلق فـيها خنجر مرصع وحرص سـليم على أن يلـبسه كل ذلك بنفـسه، ورفع يده بالدعـاء وقال: لقد جعلتك ياخير بك وزيرا ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام، فأنا لارغبة لى فى شئ من مصر، لقد ظفرت بلقب خادم الحرمين الشريفين وكفى.

ووقف جميع محاصـيل مصر على النبى ﷺ فاشهدوا من الآن فـصاعدا ياخير بك أنت مولى هذا الوقف فأحسن خدمته.

ثم وضع السلطان سلـيم قانونا تسير عليه الإدارة فى مصر كـان من أهم ما جاء فيه التالى :

جعل مائـة من الأغوات بكوات الشراكسـة، وأمر ألا يجتمع الديوان ثـلاثة أيام فى الأسبوع وأيام العـطلة هى الجمعة والسبـت والأربعاء، ويحضر قاضى العـسكر الديوان خمسة أيام، ومن أجل الديوان في كل يوم كيـسان من دنانير. ويقدم ثلاثة آلاف صحن من طـعام، ويطعـم كل أعضاء الـديوان والخدم والآتون مـن بعيد وجـعل سليـم ذلك قانونا، ولشـاويشية الديوان كل يوم خـمسة خراف وأردب من أرز وكيلتـان من العدس

والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الإئمة والمؤذنين راتبا.. ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافا وفى دواوينهم يبسط كل يوم سماط فى الصباح وسماط فى المساء وذلك من المال السلطانى، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساءالفرق بعد سماطهم، يبسطون الموائد للعوام والخواص، وفى كل وقت من أوقات الطعام تقرع الطبول لينبه جميع الجياع. وجعل ذلك قانونا، ودامت هذه النعمة، وما كانت مثل هذه النعمة فى بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطانى.

وهكذا يتبين مما سبق نبل وعظمة هدف العثمانيين من دخول مصر فحدده السلطان سليم بأنه لخدمة الإسلام حيث جعل كل خيراتها وقفا لله تعالى.

وشهد الناس فى ظل حكمه عطف ورعاية لامثيل لها حيث نراه يأمر كاشفى الأقاليم بعمل أسمطة صباحا ومساء لإطعاء الناس، ولجدية الأمر يأمر بأن تقرع الطبول لينبه جميع الجياع.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن مصر شهدت ازدهارا اقتصاديا فى ظل حكم العثمانيين كما يتبين لنا ذلك من الرحلة، وتبين ذلك أيضا من طبيعة النشاط الاقتصادى وكثرة الحرف والدكاكين والوكالات والصناعات.

كما شهد الناس نوعا من الرغد والرفاهية فالمستشفيات تعمل مجانا والمبررات توزع طعامها ليلا ونهارا مجانا، والاحتفالات كثيرة ومتعددة مما يدل على نوع من الراحة والاستقرار وإن كان ذلك فى الفترة التى عاشها أوليا جلبى فى مصر. إلا أنها كشف عن الكثير من إيجابات الحكم العثمانى فى مصر.

تقويم رحلة أوليا جلبى

فى أوليا جلبى كثير من الصفات الجليلة أولها القدرة على تحمل المشاق والصبر عليها، وقد أوردنا جزءا يسيرا فى أمثلة سابقة من هذه المشاق، والرحلة بها غير هذه الأمثلة، عشرات الأمثلة.

ومن صفاته أيضا شجاعته، وإصراره على بلوغ هدفه وثقته بالله وإيمانه الشديد به سبحانه وتعالى:

مثال : أثناء عزمه زيارة فنجستان يقول :

«ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيوخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع، ولاتأمنون عادية اللصوص من الزنوج وبسطوا إلينا الرجاء ألا نمضى فقلت إن الخوف لايدخلنى مطلقا، لأن الله تعالى : (والحافظون لحدود الله)، وقد حفظت منذ أربعين عام، وقد ختمت القرآن الكريم فى كل يوم جمعة منذ فجر شبابى، وبذلك كنت أختمه فى كل عام ثمانية وأربعون مرة. وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع، وأنا لا أنثنى عن عزمى، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا، وأنت لاتحمل هدية، فأنا لا أرد جوابا، وماذا أصنع بالهدايا التى للملك فونجستان، وفى الموضع الذى يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتى الحاجة، ودعيت الله، ودعيت الله قائلا أن ييسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك، فالحمد لله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبنى رفيقا لأرحل، وألححت فى الدعاء، فقالوا لاتنسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة.

ومن صفات أوليا جلبى أيضا الواضحة تماما فى رحلته تدينه الشديد، وغلبة الروح الصوفية عليه، ويظهر ذلك فى كثير من فقرات كتابه، وفى تناوله وذكره للأولياء خاصة، والمتصوفة. أيضا يظهر تدينه الشديد من كثرة استشهاده بالآيات القرآنية وأحاديث النبى ﷺ .

ما يؤخذ على أوليا جلبى فى رحلته

يلاحظ القارئ لكتاب أوليا جلبى مبالغته فى سرد بعض المشاهد والأحداث التى يرويها فى مواضع متعددة من كتابه فعلى سبيل المثال، عند وصفه للتمساح، والحكايات التى أوردها عنه ذكر عجيبة من العجائب قائلا:

ومن عجب أن هذا التمساح يخرج إلى الجزيرة مع أنثاه وعند الجماع ترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو ممن أصيبوا بالسيلان وأرادوا البرء منه أو استجابو لنفسهم الأمارة بالسوء يختبئ الواحد منهم فى الرمل، وقبل أن يجامع التمساح أنثاه وهى على ظهرها، يخرج من كمينه، ويطلق صيحة الية، فيجفل التمساح الذكر ويطرح نفسه فى النيل، إلا أن أنثاه تظل على ظهرها، لاتحرك ساكنا، فهى لاتستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة، وهى تسبح فى الماء بفمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطى الملعون الذى يريد الاتصال بأنثى التمساح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع فى فعله الشنيع دون خوف ولاحياء.

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التمساح ألذ من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة، ويقول إن الدم الأحمر يسيل من كل جماع بكر، وإذا ما جامع أنثى التمساح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك فى أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع.

ثم يروى حكاية أخرى طويلة عن نفس الموضوع نقلا عن أحد الأشخاص، ثم يقول فى سبب جماع الناس للتماسيح:

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسيلان لقصر حضورهم، ولكى يبرءوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء، من هذا الداء، والبعض ممن لايجامعون التماسيح يجامعون الجوارى الحبشيات السود، وبذلك يشفون، ولهن حرارة شديدة تجذب ما فى جسم الإنسان من منّى وغيره.

ولم تكن هذه هى المرة الواحدة فقط التى يذكر فيها أوليا جلبى ذلك عن التماسيح ولكنه عاد وذكرها فى مواضع أخرى، والحقيقة أن ذلك فيه نوع من المبالغة والاستفاضة فى موضوع ليس ذا أهمية. كما أنه مخالف للفطرة البشرية.

ومن المبالغات التى ذكرها أيضا تحت عنوان . . «لطيفة غريبة»:

«رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالموق أكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم، وقد خنقوا بعض أسرارهم من النوغاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لاتتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونهم، ويقولون أن ألذ اللحم لحم البشر والثعابين والخنازير، كما يقولون أن إلية الخنزير وإلية البشر ألذا ما يكون طعما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق، ويعرفون ذلك حق العرفة أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حسناء فدبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدرت من ذلك أن لحم البشر لذيذ.

ومن المبالغات والمتناقضات لأوليا جلبى ما ذكره فى الفصل الثامن والخمسين قائلا «إن عدد المصابين بالرمد فى مصر مالا يعلمه إلا الله فى حين أنه لاوجود لكحال ماهر فيها، وجيادها كثيرة فى حين إنه لاوجود فيها لبيطار، ومرضاها كثير فى حين إنه لاوجود لطبيب يعالجهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتى تمزقت ولايجد له جراحا، ورجالها كثير فى حين أنه لاوجود لحاكم يحكمهم، وما أكثر قضاتها فى حين أنه لا وجود لمن يقول الحق فيها، وما أكثر شهود الزور فيها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين إنه لا وجود لمن يتفوه بكلمة طيبة، وجندها كثرة فى حين أنه ليس لهم ضابط، ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لاوجود لمحاسب ذى ضمير، وهذه العبارات أصبحت أمثالا تضرب فى مصر وهى تدور على ألسنة الناس.

والعجيب فى مقولة أوليا جلبى هذه أنها تتناقض بعض الشئ مع ما ذكره قبل ذلك فى رحلته، فبالنسبة للمرضى ذكر أن بها بيملرستانات وأنها تعالج المرضى مجانا، وعن قول الحق قال قبل ذلك أن مصر لايضيع فيها الحق «وأن بمصر إحقاقا للحق ليس له من وجود»، وأن بها جراحين لعملية ختان البنات والصبيان، كما أن كلامه ذلك كلام مطلق فليس من المعقول أنه لايوجد واحد فقط يقول الحق أو واحد فقط يتكلم كلمة طيبة أو محاسب ذى ضمير، رغم أن أوليا جلبى ذكر فى فضائل أهل مصر ومحاسنهم كثيرا من الأخلاق الحميدة، التى أعجب هو بها وذكرها فى كتابه، مثل وقوفهم بجوار بعضهم البعض فى حالات الوفاة، والختان وغيرها من المناسبات الاجتماعية.

خاتمـــة

وخاتمة القول فى ذلك :

١- قدمت إلى المكتبــة العربية شخصية رائدة فى مجال أدب الرحــلات هو أوليا جلبى، للمرة الأولى، ونشر هذا البحث معناه اهتمام الباحثين العرب به.

٢- أوليا جــلبى: عالم ورحــالة وأديب وصحفــى وناقد. هذه نتــيجة خرجت بــها من دراسته. والمتداول عنه إنه مجرد رحالة.

٣- كما أنه رجل إدارى.

٤- أوليا جلــبى، مثل للثقافــة الإسلامية بفروعها الـثلاثة الأساس: العربية والـفارسية والتركية العثمانية.

٥- قدمت هذا البحث ليكون عونا على دراسة رحالة أوليا جلبى فى مصر التى تبلغ فى أصلها التركى ألف صفحة.

٦- الشــقة فى المؤرخ الـعثمانــى الذى قدم لنــا إحصائــيات فاقت مــا قدمه عظــيم أدب الرحلات ابن بطوطة.

٧- دراسة أوليا جــلبى، تؤدى بالضرورة، إلى الـكشف عن عصر التنــوير الإسلام فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى.

والله الموفق

محمــد حــرب

- ١ -

الحمد لله وحده وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده وحبيبه ورسوله، وبعد..

حمدًا بلا حدّ وثناءً بلا عدّ، على الخلاق الباقى رب العباد، الذى أوجد كل ما فى هذا الوجود، وأتم خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض والليل والنهار مخاطبًا إياها بقوله كن: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، إن الله على كل شىء قدير.

خالق بلا نصب إله عظيم، خالق الأرض رب العرش العظيم.

ذلك الصانع المصورٌ القيوم، اقتضت حكمته الأزلية وحسب علمه أن يأتى بحبيبه المصطفى إلى أديم هذه الأرض، وأن يُزيِّن الأرض ببنى آدم، وكيما يزين الأرض ببنى آدم، خلق من التراب بيد قدرته صفىَّ البشر آدم، ونفخ فيه الروح من روحه، وجعله الكامل المكمل النبى وجعله حقيقًا بجواره وأدخله جنة المأوى، وألّف بينه وبين جميع الملائكة، ومتَّعه بالحور والغلمان فشاهد جمال البارى دونما واسطة وعلّمه كلمات وكان له عند الله حسن القبول، وسجد لآدم جميع الملائكة المقربين ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وعلى حد قول المفسرين إنه سكن أرض الجنة العالية عامًا واحدًا وعاش مع أمنا حواء أطيب العيش وفى نهاية الأمر كان لا يُسئل عما يفعل، وبناء على مشيئة الله الأزلية نهاه بتلك الآية الشريفة: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وبعد النص القاطع صدر الأمر القاطع لآدم فما ذاق آدم حبة من قمح سنين عددا، ولكن بما أن العصيان مركوز فى طبع الإنسان نسى ما أمره الله به وبإيعاز من أمنا حواء أكل حبة من قمح، فطرد آدم من مقره إلى الأرض فى جزيرة (سرنديل) من أرض الهند، أما أمنا حواء فاستبعدت إلى جدة، وبناء على قول المفسرين إن آدم وأمنا حواء بعد هبوطهما كانا يسيحان فى الأرض ويتجولان عريانين وعلى رأسهما التاج، وقد بلغ منهما الجوع مبلغه ومست حاجتهما إلى حبة قمح وهما يهيمان على وجهيهما.

- ٢ -

وبعد ذلك أهدت عصافير الجنة شعرة من لحية آدم إلى أمنا حواء، وأتت من شعر غدائر حواء لآدم عدة شعرات كالعنبر، فكانت طيور عصافير الجنة سبب لقائهما فى عرفات، فتم التقاء آدم بحواء فى عرفات، ولذلك سمى الجبل بـ «عرفات» وهو فى اللغة العربية جبل (عرفه)، وباجتماعهما تم لهما الصفاء، ولذلك كان دعاؤهما لعصفور الجنة، فقال العصفور: حيال خدمتى لكما، لى عندكما رجاء، بما أن لحمى غاية فى لذة طعمه، فإن كل الأفاعى والدويبات كثيرة الأرجل أعدائى، فلا أجد الذريّة، لى رجاء أبسطه لديكما هو أن يكون عشى فى داركما حيثما كنتما، يا آدم أعطنى من لحيتك شعرات، وعلى حواء كذلك أن تقدم عدة شعرات تمتزج بالطين وأصنع منها عشًا فى داركما ويسعد عيشى فى ظلكما وتكون لى ذرية، فوقع رجاؤه موقع القبول، فقدم آدم وحواء الشعرات إلى عصفور الجنة فخمرها فى الطين وجعل العصفور عشه بناء صغيراً فى دار آدم، وبسبب ذلك تعيش طيور عصافير الجنة فى البيوت إلى يومنا هذا، والبيت الذى بناه آدم وحواء فى أسفل جبل عرفات. ويسمون مطبخ آدم البيت الشريف، وهو الآن موضع يُزار، وقد عمَّر هذا البناء نوح - عليه السلام - بعد الطوفان، وهو مزار للحجيج.

وقد حملت أمنا حواء شتاءً فى عرفة، وقد أورد المؤرخون كثيرًا من الروايات الأخرى، بينما كان آدم فى عالم التجرد احتلم فى منامه، فوقع منيّه على الأرض، وبعد عام ظهر منه (شيث) وأصبح مثل آدم مخلوق من التراب.

وفى قول أن وسط آدم انقبض فسقط منيّه على الأرض فخلق الله عشبًا وانتشر هذا العشب فى البنغال وايرجيش ودماوندو جبل الرهبان فى بروسة وجبل البرز، إنه عشب من الجن منهم رجال ونساء وله شعر ولحية وهما من غريب خلق الخالق، وفى لسان العرب (يبروح الصنم وعبد السلام)، وبعض الأطباء يجعلون هذا العشب فى المعاجين لتكون أدوية، إنه عشب مقو إلى حد بعيد.

ولما هبط آدم إلى الأرض نبت هذا العشب من منيّه، وإن قيل إنه ليس (شيث)، والقول الأرجح أنه هو، لأن شيث من آدم وحواء كما أن (شيث) لم يشترك مع بنت فى الرحم لأن آدم قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، باسطًا الرجاء إلى البارى تعالى، طالبًا لشيث حورية، وسرعان ما جاء جبريل الأمين بحورية لآدم، وقدمت زوجة (لشيث)، وفى ذلك العصر كان عقد النكاح كلمة (لا إله إلا الله آدم صفى الله)، ثم مضى (شيث) مع أنيسته إلى أرض حوران بالشام.

- ٣ -

وهناك مكث مدة من الزمن وهذه الحورية يخطئون فى تسميتها حوران، وهذا ما سلف ذكره فى مجلد سابق، وكان مقرهما الأول سرنديب والمقر الثانى جبل عرفات، أما مقرهما الثالث فمكة التى بلغاها بإذن من الله تعالى ـ واستوطناها.

ومن أجل ألفة وأنس آدم أنزل الله ـ تعالى ـ قصرًا من جنة المأوى إلى مكة واسم هذا القصر البيت المعمور، وفى رواية أنه كان من الياقوت الأحمر، وفى أخرى أنه كان من اللؤلؤ الأبيض، وبعد الطوفان بينما كان الله يرفعه إلى الجنة، انفصل عنه الحجر الأسود، وقيل إنه اسودّ من ماء الطوفان، وقيل فى إحدى الروايات، أنه اسودً من مسح العُصَاة وجوههم عليه، ثم فرض رب العزة على آدم أن يطوف بالبيت المعمور هذا، وقد عَلَّمَ جبريل الأمين آدم العبادة فيه ودام على تلك الحال طويلاً وهو يسكن مكة.

ويذهب المؤرخون إلى أن آدم كان له أربعون ألفًا من الولد وكان يطوّف فى كل عام أبنائه حول البيت المعمور ويجعلهم يؤدون مناسك الحج، ولكن تأذت نفسه كثيرًا لأن مكة أرض غير ذات زرع، فمضى إلى أرض مصر مؤتمرًا بأمر الحق ـ تعالى ـ واستوطن شاطئ النيل، فمصر هى وطنه الرابع فاشتغل بالزراعة وتحصلت له وفرة من الغلال بحيث كان من كل حبة قمح مائة سنبلة وفى كل سنبلة مائة حبة. وفى البداية دعى آدم مع كل أبنائه لمصر، ودعا لهم بلسان عبرى إذ إن آدم حين هبوطه من الجنة نسى لغته العربية التى كان يتحدث بها فى الجنة بسبب عصيانه، فعلمه جبريل الأمين كلمات

عبرية، أما دعاؤه لمصر والذى أخـذته عن التواريخ القبطية فسوف نكتبه فى مجموعتنا تلك.

دعاء سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ صفى الله فى حق مصر باللغة العبرية:

اللهم احـفظ إيمانى من الشيـطان ونجنى، نجنى ولتكـن جميع الملائكة فـى خدمتى، واعطنى القمح لأصنع الخبز. اللهم اجعل هذا البلد عامراً لأبنائى بعد مماتى.

قال سيدنا آدم هـذا الدعاء فى حق مصر بلسان عـبرى على وزن مفتعلن مـفتعلن، ولقـد أصبحـت جميـع الديـار معمورة أبداً منذ ذلك اليوم وحتى الآن. والمدينة الواحدة نصف الدنيا، وأصبـحت مصر معمورة منذ أول الخلق وسوف نبـين ولاة مصر وملوكها منذ هـبوط آدم وكيفيـة حكمهم وتـصريفهم لأمـورها حتى يومـنا هذا ومدة حكـمهم وأعمارهم.

* * *

ذكر أوصاف أقدم البلاد وأعظم المدن
مصر المحروسة
نادرة الزمان أم الدنيا: القاهرة المعزيّة،
حفظها الله من الآفات السماوية والأرضية

دخلت أنا أوليا الحقير سياح العالم، ونديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف فوجدت داخلها وخارجها ما عجبت له كل العجب، ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عمن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلى ما لا يحده الحصر من التواريخ القيمة وهذا بيان بعناوينها:

- أسماء تواريخ مصر وغيرها من الكتب النادرة:

أولاً: تاريخ المقريزى: وهو كتاب عظيم القيمة مشهود له بصحته التاريخية وهو مستمد من كتب قبطية وسريانية ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية تلقاه الخاص والعام بقبول حسن.

وتاريخ ابن جرير الطبرى، صاحب التفسير القديم: وهو تاريخ نفيس.

تاريخ الشيخ الإمام السيوطى: وهو تاريخ له ما له من عظيم قيمته.

وتاريخ صابية وكتاب فتوحات مصر لابن عبد الحليم.

وكتاب فضائل مصر لابن عبد الكندى.

وكتاب ابن زولاق.

وكتاب خطط القضاع.

وكتاب إيقاض المتفضل وهو مختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب مباهج الفكر ومناهج العبر.

وكتاب عوان عنوان السير محمد بن عبد الملك الهمدانى.

وتاريخ الصحابة.

وتاريخ التجريد فى الصحابة للذهبى.

وكتاب المختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر.

وكتاب الرجال العشرة للحسينى.

وكتاب طبقات الحفاظ للذهبى، وكتاب طبقات الشافعية لابن السبكى، وكتاب طبقات المالكية لابن ترخون[1]، وكتاب طبقات الحنفية لابن دقماق، وكتاب مرآة الزمان لابن الجوزى، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير، وكتاب إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر، وكتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد لكمال الإدفوى، وكتاب السكردان لابن حجلة، وكتاب سجع النهر نيل فى أوصاف نهر النيل، وكتاب ثمار الأوراق لابن حجة، وتواريخ الشهاب جلبى ترجمة لكتاب «حسن المحاضرة» للشيخ السيوطى، وعلاوة على تلك الكتب السالف ذكرها، قرأت كثرة من الكتب والدواوين فى مصر وأدرجت فى رحلتى هذه ما تنبغى معرفته من قواطع الأدلة وأوصاف الرواة والحوادث، وقسمت تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى يومنا هذا، وتجرأت على كتابة هذا «وبه نستعين وبالله التوفيق».

* * *

(١) فى الأصل: مرحون.

الفصل الأول

فى وصف فسطاط مصر بالقرب من جبل المقطم

بعد هبوط آدم أبو البشر وصفى الله اهتدى إلى مصر ووطأتها قدمه، وهى أول ما استوطن آدم أبو البشر وابنه شيث، وكذلك أبناؤه وقينان ومهلائل وهو النبى هود، وابنه اخنوخ وهو هرمس وفى العبرية اخنوخ، أى إدريس، وكان يقال عنه فى لغة أهل الجنة من الملائكة اخنوخ هرمس، وسموه بهذا الاسم لأنه كان يدرس العلم لبنى آدم والملائكة فكان يقال إدريس النبى، أما مهلائل فكان كاهن العصر فى علم النجوم وقد بدأ ذيوع علم النجوم بفضله، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسكنون فى الكهوف ولقد شاهدت فى ديار مصر هذه الكهوف وهى تسع جند آل عثمان، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسمون أرض مصر (ايلون) وفى مصر ولد اخنوخ وإدريس، وأصبح سياح العالم وتعلم علم النجوم على يد مهلائل، وتعلم علم الكتاب من جبريل وعلم الحياكة بتمامه، وفى الأربعين من عمره جاءته النبوة فى مدينة (أسوان)، وأصبح نبيًا لقومه، وأقام على ساحل النيل مائة وأربعين مدينة وكانت له البراعة فى علم الهندسة، والمهارة فى علم النجوم وشاع عنه أنه يعرف كل غريب وعجيب فى جميع العلوم، والمدن التى أقامها إدريس النبى على شاطئ النيل هى الآن مدن عامرة، وفى أرض الجيزة المواجهة لفسطاط مصر هرمان بناهما «سوريد» الحكيم بفضل علم إدريس وحفظ فى الهرمين جميع الكتب والكنوز لعلمه وقوع الطوفان، وبعد وفاة آدم وإدريس أصبح هذان الهرمان كعبة للصابئة يحجونها فى كل عام. وكان الرجال يحجونها من الجهة الشمالية أما الجهة الجنوبية فكانت خاصة بالنساء، ولما كان آدم - عليه السلام - على قيد الحياة كان جيمع أبنائه يمضون من مصر إلى البيت المعمور ويطوفون حول الكعبة الشريفة حجاجًا، كما كانوا حينًا يقدمون إلى مصر وحينًا آخر يمضون إلى الشام إلى موضع قريب من «حوران»، وهناك يسكنون، وجاء فى تواريخ الصابئة أن إدريس كان له فى علم الكتاب اليد الطولى والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما فى الوجود، ويحرر جميع الوقائع فى يوميات

ويحفـظها فى جبـال الأهرام، واقتضت حـكمة الله أن ينقـضى زمان «شيث» ويـوافيه الأجل.

ويقال إن إدريس دفنه فى جبل الأهرام، كما كان الملك «مصرايم» والملك «بيطار» بن حام بن نوح ـ عليـه السلام ـ وهما ملكان قديمان، مدفونـين كذلك فى الأهرام، وكان من أبناء «شيث» الملك «نقراوش» كاهن العصر وقد شـيد فى مصر مدينة عظيمة سماها «أمسوس» وأمسوس فى العبرية بمعنى المدينة الجـديدة وسمى القبط هذه المدينة الفسطاط وقد عمرت ورممت بعد الطوفان وسميت «مصرايم» ولذلك تسمى الآن مصر وفى اللغة اليونانية تسمى «مقدونية» وفى العبرية «زرابيت» أما فى العربية فاسمها «القاهرة المعزية»؛ ذلك أنه عام خمسمائـة وخمسة وسبعين كان السلطان معز الدين مـلكًا للمغرب، وكان سلطان مصـر بسلطان الإخشيديين واستأذن المـلك معز الدين من ملك الإخـشيديين فى إقامة جامـع فى مصر، فأرسل من يسـمي «قائد أزهر»، وهو مملوك عـربى، ومال فى ألف خزانة، وخـمسين ألف نجار وبنّـاء وعامل وحمّال ومعـهم العدة والعتـاد، والعبد المسمـى «أزهر» تولى أمر بـناء الأزهر الذى تم بعـد سبعة أعـوام، وانطلق معـز الدين سلطان المغـرب إلى مصر وأغار عليها ليـلاً، كما أن جنده ادعوا أنهم إنما قـدموا مـن المغرب إلى مصر لبناء جامع الأزهر، واستولوا عـلى مصر من يد أحمد بن على سلطان الإخشيديين جـبرًا وقهرًا، وأقام مصر الحديثـة، لذا يقال لمصر «مصر المـعزيّة»، ولذلك فأهل مصر جمـيعًا يتسمون إما بقهّـار أو بقابض على أنهم ينقـبضون على رجال الله، وتسمى مصر «أم الدنيا»[1].

أما نقراوش، هــو الذى عمَّـر مصـر أى «أمسـوس» بعـد آدم ويمتد عمرانـها مسيرة ثلاثة أيام، و«نقراوش» هذا مَـلَك مصر مائة وثمانين عامًا، ولما زايل الدنـيا الفانية دُفن في جبـل الهرمين، وخَلَفَـه ملكًا علـي مصر ابنه «نـتراش»، وقد كان مثل جـده سيادة وكمالاً وعلمًا.

---

(١) يأتى سبب تسميتها بذلك فى الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب.

وأقام بعض المدن في الواحات، ولما مات دفن في جبل الأهرام وكان مُلك مصر بعده لأخيه.. مصرايم بن نقراوش.. وكان حكيمًا كاهنًا ساحرًا، ومن جملة علمه أنه كان يسخِّر الأسود، وكانت الجن والأسود يحملون سرير ملكه، ولما أدركه الموت دفن في الأهرام.

ومَلَكَ مصر بعده من يسمى «عبقام» وهو من ذوى قرباه، وقد أقام العدل في الناس، وفي عهده رُفع إدريس في أسوان إلى السماء، ولقد أخذ الحزن والألم الصابئة لعروج إدريس في السماء فأظهروا الفزع والجزع وانتحبوا فكفوا عن العبادات والطاعات. وتمثَّل إبليس اللعين في صورة إنسان وادعى للناس أن صورته من الله وقال لهم سائلاً: يا قوم ما لكم تبكون ويأخذكم شديد الأسى؟؛ وحكى قوم إدريس ما جرى من نقل إدريس، وفي التو قال إبليس: يا قوم لا تحزنوا سأحضر لكم صورة إدريس وعلى كل منكم أن يحتفظ بصوره في داره، وفي كل يوم تشاهدون هذه الصورة كأنكم شاهدتم إدريس وهذا عزاء لكم. فصنع لهم صورة إدريس وحفظوها في ديارهم، وكلما شاهدوها ذهب عنهم الحزن ونعموا بالسلوى.

وبعد موت الصابئة رأى أحفاد أحفادهم صورة إدريس في دارهم وقد توارثوها عنهم فزادت محبتهم لها، وشرعوا يعبدونها وهذا أول عهد الصابئة بعبادة الأصنام، وبقيت فيهم من قوم إدريس ومات كذلك الملك «عبقام» الذى كان في عصر إدريس وخلفه «عرياق»، وكان هاروت وماروت مصلوبان من قدميهما على مدخل غار في مدينة بابل وسماع قصتهما يثير الفزع، وأوصاف هذين الملكين مسطورة في كتاب ابن جرير الطبرى، ثم كانت وفاة «عرياق» وأفضى المُلك من بعده لابنه «الوخيم» وهو الذى أقام مدينة «شرق أخميم» شيد سبعمائة دير ومات.

وجاء بعده ابنه «خُصيليم» وعُمّر سبعمائة سنة وهو أول من أنشأ مدينة «أسوان» على شاطئ النيل، كما أنه أقام في تلك المدينة أول مقياس وهذا يعنى أن مصر هى أيضًا أم علم القياس، وتأسيسًا على علم الهندسة كذلك الترع في جميع أراضى مصر، وأجرى ماء النيل إلى كل زقاق في مصر، وروى أرض مصر فزادت محاصيلها وبطّن كل الترع

بالرخام السُّمَاقى والمرمر الخام، وأقام السدود على جانبى نهر النيل، وشيد المدن وأوصل النيل إلى بلاد النوبة، وأمر بحفر اثنتى عشرة عينًا، وأنشأ جسرًا عظيمًا وآثارها اليوم ظاهرة باهرة ووُلِدَ نوح - عليه السلام - فى عهد الملك «حُصيليم» هذا، وتكاثر عدد الناس فى هذا العهد حتى ازدحمت الأرض بهم إلى حد أنه لم يبق موضع فيها لزراعته، وأصاب الناس القحط واشتد الغلاء فعمد الناس جميعًا إلى صيد السمك من الأنهار والبحار، وبذلك عاشوا فى كفاف. ومات «حُصيليم» وأصبح المُلك من بعده للملك «ترسان ابن هوسال» ولما جاءت نوح النبوة وهو فى الأربعين من عمره، آمن به «ترسان»، ثم جاء بعده الملك «شَرْيَاق» ثم ولده الملك «شهلوق ثم ابنه الملك سوريد»، وكان جبارًا فى الأرض ظلومًا وهو أول من فرض الخراج على الرعية.

وبنى الأهرام الكبيرة الواقعة إلى جانب .. بنى سويف .. ولذا تسمى الأهرام أهرام سوريد، وفى حجر منها تاريخ مسطور بالعبرية، ثم جاء بعده ولده «افروس» ومات ودفن إلى جانب أبيه، ثم كان المُلك لابن عمه «فرغان»، ووقع الطوفان فى عصره وكان أول القيامة، وبطل كل علم السحر ومحيت كل العجائب والغرائب والطلاسم والمخطوطات العربية (   )(1) تفجرت الجبال والتى تحمل المعادن والكنوز فى داخلها عيون من الماء وتفجرت الأنهار من الجبال وتلاطمت الأمواج كأمواج البحر وصعد منها العجيج ودام الحال على ذلك أربعين يومًا وليلة فظهرت جميع المعادن والكنوز المخيفة فتغير وجه الأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، وعند الطوفان كانت سفينة نوح راسية بجانب جبل الجودى بالقرب من الموصل، وبمناسبة نجاتهم يوم عاشوراء صنع قدرًا ووضع فيها طعام عاشوراء فأصاب الناس جميعًا من هذا الطعام، فشكروا له، وإن طهو طعام عاشوراء هذا سُنَّة لنوح وهو آدم الثانى، ويجب أن تكون موضع اعتبار، وثمة دليل قاطع على نجاته من الطوفان على هذا الجبل، فقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وتلك آية نزلت على حبيب الرحمن، وبعد نجاة

(١) بياض فى الأصل.

نوح بسفينته على جبل الجودى وهى أرض مباركة، سكن فيها، وبعد الطوفان شيد نوح مدينة الجودى وهى الآن بلدة صغيرة فى قمة جبل الجودى بالقرب من الموصل.

وبعد ذلك بعث بيظرى بن حام إلى مصر، وبنى مدينة العريش فى أرض حاسان القريبة من مصر، ثم بنى مدينة بلبيس، وقد عمرت تلك المنطقة أيضًا بعد الطوفان ومعروف أنه دُفن فيها سبعة عشر نبيًا، ثم بعد ذلك جاء بيظرى إلى مصر وأنشأ مدينة أمسوس القديمة التى هى مصر فصارت معمورة ثم بنى مدينة منوف، وقد بنى سام بن نوح الشام وفلسطين والقدس، وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقريزى القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية والقبطية واليونانية وكأنه فى كثرة سياحاته فيثاغورث، وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحًا، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره الله بالتوجه إلى الشام، وكان «الشيث» ولد اسمه (غرباب)، وابنه «نقراوش»، وكان نقراوش هذا من النجباء الراشدين متطلعًا فى جميع العلوم، وقد أحب آدم نقراوش هذا وسماه «مصرايم»، وأمره بتعمير مصر، ومضى آدم إلى الشام، لزراعتها، ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون غادروا الديار فرارًا من ظلم «قابيل»، وكيما يجدوا لهم موطنًا قطعوا المراحل وطووا المنازل إلى أن بلغوا فى مصر جبل «غداس»، فطاب لهم هواؤه، فألقوا عصى التَّسيار، واستوطنوا، ولأن جدهم آدم تجول كثيرًا فى مصر إلا أنه لم يقم فيها أثرًا له، وفى ذلك العهد كانوا يسكنون الأكواخ، أما «نقراوش» المسمى «مصرايم» فكانت له فى مصر ذرية، فكان صاحب عشائر كثيرة وكان يشيد المدن والأبنية، وفى كل عام اعتاد أن يزور جده آدم فى الشام وحوران وبصرى ويدعو له، وسماه آدم ملك مصرايم، وسماه الملك فى اللغة العبرية، وكان له الملك مائة وثمانية عشر عامًا، وحكم جميع العشائر، وقد عمر وكان جبارًا عتيًا، وتعلم من أخيه الأكبر «زرايل» من عجائب وغرائب العلوم، واستخرج من جوف الأرض كثيرًا من الكنوز، وأمر قومه جميعًا أن يجمعوا من الجبال الأحجار، ومن هذه الأحجار بنى مدينة فى موضع الخيام تسمى «أمسوس» وهى الآن على ساحل النيل تعرف بمصر القديمة، ويسميها القبط الفسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى

عهد الطوفان، وهى الآن كذلك مدينة عتيقة والأحجار التى فيها كبيرة، كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعًا.

وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعًا، وقد رآها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لا يقدرون على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولا علم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلا يتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاثة أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جَبَلَ (بيستون) ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يعارض فى ذلك لا علم له ولا خبر لديه عن علم جر الأثقال، وليعلم أيضًا أن (همة الرجال تقلع الجبال).

وفى مدينة (أمسوس) خلق كثير، وقد حشد الملك (مصرايم) جيوشًا جرارة وأراد الانتقام من (قابيل)، فانطلق إلى الشام، كما أن (قابيل) جيَّش جيشًا عظيمًا إلى فلسطين وقد عسكر فى مدينة الرملة، وقد اجتمع الجيشان وخاضا حربًا ضروس، وقتل «هابيل» من رجال «قابيل» مائة ألف إنسان، وإن قابيل هو الذى ناشب (مصرايم) هذه الحرب وبما أن هذه الحرب وقعت فى صحراء الرملة. يسمونها فى العبرية فلسطين، وقد ألحق مصرايم الهزيمة بقابيل وغنم أموالاً وغنائم كثيرة وصلت مصر، وبهذه الأموال التى غنمها قسّم النيل إلى فروع، وشق الترع والخلجان فروى الصحراء والحقول، وزرعها، وكان النيل يجرى وله فرع إلى بلاد النوبة، وآخر إلى بحر السويس، وفرع يجرى إلى المغرب فى أرض بنى هلال ويصب فى خليج (كبرت)، ولكن بفضل علم مصرايم بالهندسة ارتفعت كل أرض فكانت تنقسم إلى خلجان وبذلك كان يُجرى النيل إلى الأراضى التى يريد ريها.

* وبنى مصرايم الهرمين التى فى مواجهة مصر، وأنشأ لنفسه مرقدًا ومخزنًا لكنوز الفرعون الكثيرة وبعد أن عُمر مصرايم سبعمائة وخمسة عشر عامًا انطوى كتاب عمره،

وجعل الـهرمين مقبرة لـه، ودفنوا معه أموالـه ومن عهد الطوفـان إلى اليوم لم ينـقطع نسله، وكان لذريته مُلك مصر، ومَلك مصر من ذرية نقراوش سبعون ملكًا.

وفى زمن الـطوفان بناء علـى ما سلف ذكره كان لـلملك (لفرغـان)، وإن نقراوش المذكور وهو من أبـناء مصرايم كان له كاهن يسـمى (قليمون) وله طول الـباع فى شتى العلوم، حتى إنه استطاع بغزارة علمه أن يـتنبأ بوقوع الطوفان على أنه غضب من الله، وقبل الطوفان زايل جـده وطنه مصر ومضى ليكون إلى جوار نـوح فى الكوفة، فشرف بالإيمان، وسكن العراق مع أهله وعشيرته.

وكان بعد ذلك لنـوح ابن يسمى «حام»، وكان لحام ابن يسـمى (بيطار)، وقد زوج قليمون الكاهـن ابنتـه بيطار، وبـذلك تمت القرابة بنوح، ولما حل زمان الطوفان، ركب نوح وجميع مـن معه السفينة، ونجى مـن الطوفان، واستوت على الجـودى بعد أربعين يومًا، وبعد الطوفان عمر نوح مدينة الجـودى، وهى الآن قصبة الجودى، وتلقى قليمون الكاهن وصهـره بيطار الأمر من (نوح) بالـتوجه إلى إسوس التى بنـاها جده مصرايم، وهى مصر القـديمة، وبعد قطع المنازل وطى المـراحل كانت نجاتهما مـن الغرق، وجعل بيطـار يبحث عن طريـق، ونزلا بمكان بالقـرب من مصر يسـمى العريش وأقامـا فيه، والعريش فى اللغة العبرية بمعنى المقر أو المستقر.

وكانت قد غرقت فى طوفان الغضب، وجلسـا يستريحان فى ظل شجرة، واقتضت حكمة الله ـ تعـالى ـ أن يكون لبيطار هذا من ابـنة الكاهن قليمون الـتى تسمى (زوزه) ولد وسمى كذلك مـصرايم، وكان مصرايم بن بيطار هو أول مولود ولـد بعد الطوفان، وأقاموا الأفراح فى العريـش، وبما أن ظل الشجرة موضع مبارك زينوا الـشجرة بالثياب وانطلـقا إلى بلبيـس واستطابا جوهـا ومكثا فيهـا، وقبل الطوفان كـانت بلبيس مـدينة السحرة، ووجدوها خرابًا وبعد ذلك مضوا إلى أرض مصر ولكنهم لم يجدوا فى مدينة أمسـوس الـتى بناها مصرايم أثرًا بـعد الطوفان إلا ما فى مـواجهة النيل من أهـرام بناها إدريس للتعليم، ولكـى ينجوا من الطوفان دخلاها فغرق كل متاعهمـا فقالا لنبحث لنا عن وطن آخر، فمضيا فـى سفينة إلى منوف ووجدا فيها مكانًا طيـب الهواء، وبجانبها

جزيرة جميلة فى النيل، فمكثا هناك وسكنا أكواخًا وخيامًا، وعلى مر الأيام كانت لهما ذرية وتحصل لهما مال جزيل من الزراعة؛ وكان وطنًا كثير الخيرات والبركات، وهناك أقاما بليدة صغيرة، وسموها منوف، ومعنى منوف فى اللغة العبرية (مكان المتعة).

وكانت منوف هى القرية الثانية التى تم بناؤها بعد قرية الجودى التى بناها نوح - عليه السلام - على جبل الجودى بالقرب من الموصل حيث رست سفينته بعد الطوفان، وقد عاش فيها بيطار عمرًا طويلاً، ومنوف مدينة عظيمة وبإيعاز من قليمون الكاهن صحب بيطار أهل بيته معه إلى «أمسوس» التى بناها جده وعمَّر قليمون مصر العتيقة التى بناها أجداده، وعمر قليمون الكاهن ألف سنة ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم وكان قليمون هذا هو أول من مات بعد الطوفان، ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم، وهو الذى أقام فى مصر مدينة الواح.

* * *

الفصل الثانى

بيان من ملكوا مصر بعد الطوفان

بعد نجاة بيطار بـن حام بن نوح من الطوفان أذن له نوح بالذهاب إلـى مصر بصحبة حماه الكاهن قليمون، فدعى نوح لبيطار بألا ينقطع نسله وأن يكون ملك مصر له، وأن يعمر طويلاً، ويجـد سعادة الدارين، فكان هذا دعاء له بالخيـر، وقدم بيطار أرض مصر وبنى مـدينة منوف، وجلـس على العرش، ويطـلق علماء التـاريخ على بيطـار هذا أبو القبـابطة، وكان له ثـلاثون من الولد، ومـصرايم أول من ولد لـه عندما قدم مـصر فى العريش، وهو أعلـم وأعقل أبناء بيطار الثلاثـين، وعلمه جده قليمون الكـاهن كثيراً من العلوم العجيبة، حتى أصبح فريد دهره، ودله قليمون على جميع الكنوز التى فى مصر، وعُمِّرَ بيطار بـعد والده مصرايم ثمانمائة وخمـسين سنة ولما تُوفى دفنوه فى الـهرم الكبير بجوار حماه قليـمون الكاهن، وجعلوا الخلافة من بعده لمصـرايم الذى ولد فى العريش، فاستقل بالمُلك، وبلغ إسنا وأسوان والسودان وبلاد الفونجة «فونجستان» وأصبح ملكًا نافذ الحكم، ووزع ثلاثـين من إخوته على أقالـيم مصر، وحكم كل مـنهم إقليمًا وشـيد فيه مدينة، وبفضل دعاء نـوح كان لهذه المدن أسماء أبناء بيطار للذكرى، فـمثلاً كان لبيطار ابن اسمـه رشيد فسميـت مدينة رشيـد باسمه، وكذلـك دمياط باسم دميـاط، وكذلك اسكندر باسم اسكنـدر، كما أن منهم تينه وسيف الذى شيد مدينـة بنى سويف، ومنهم من يسمى مـينا الذى أقام مدينة المنـيا، والشأن كذلك فى أشمـون، وأسيوط، وجرجة، وقنا، وقوص، وإسنـا، وأسوان، وشلال وإبريم وصاى وحلفا وسنـارة والسودان. فكل أمير من هؤلاء الأمراء شيد مدينة وإلى اليوم هذه المدن عامرة على ساحل النيل.

وكانت مهمـتهم فى تلك المدن مهمـة الحكام، أما أخوهم الأكبر مصـرايم فهو ملك العالـم وقد ولدته أمـه فى العريش ومـضت به إلى ظل شـجرة وكستـه من أوراق هذه الشجرة وزينت الأشجار بأحجار ثمينة، وجريًا على العادة عبدت الله تحت هذه الشجرة وبنت مدينة عظيمة بالقرب من تلك الشجرة واسمها (درسان) ومعناها فى العبرية (باب

الجنة)، وبينما كان مصرايم فى طريقه من غزة إلى مصر ظهرت علـى يُمنة طريقه آثار كثير من الأبنية، وعندما هدم بخت نصَّر مصر انهدمت كذلك مدينة درسان.

ومن الملوك الذين ملكوا مصر بعد ذلك يوسف صلاح الدين، والسلطان قايتباى، ولقد أقاما جامعًا وقلاعًا من أحجار ورخام درسان، وعمرا مصر، وابن مصرايم بانى هذه المدينة مدفون فى قبر عالى القبة، قبته تمس الفلك علواً، وقد تخربت هذه المدينة، أما سبب عمران هذه القبة فهو أن جميع القبط يزورونها ويعمرونها ويرممونها واسمه قبطم بن بيطار بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ، أما مصرايم فقد عُمر سبعمائة عام وبذل الجهد فى إعمار مصر كأنها صرح شامخ، وكان له مائتان من الولد وكثرت لأولاده ولإخوتهم الثلاثين الذرية، حتى أصبح إقليم مصر بحراً من بنى آدم، وكانوا جميعًا على دين جدهم نوح ـ عليه السلام ـ، وأولاد مصرايم هذا استقل كل منهم بحكم إقليم وبعد أن عاش مصرايم سبعمائة عام وقع تحت حكم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨]، ودفن مصرايم مع أبيه بيطار فى الهرمين إلى جانب سوريد بانيهما قبل الطوفان، وفى ذلك العهد كان يزور الهرمين عوام الناس وخواصهم لأن الملوك قاطبة كانوا يدفنون فيها، كما كانوا إلى عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ يطوفون حولها كالطواف حول الكعبة، ولكن أصبح الملك من بعد فى مدينة درسان لقبطم، وهو من أم قبطية، وفى درسان التى أقامها أبوه مصرايم بدأ يعبد الله تحت الشجرة التى ولد فى ظلها، وبدأت عبادة الشجرة بقبطم، وقد ارتد عن دين جده نوح، ووقعت الفرقة بين إخوته وعمومته الثلاثين، وابتدع كل منهم له مذهبًا، وأخذ ابن مصرايم له مذهبه عن قبطم، وذاعت له الشهرة وأصبح ملكًا عظيمًا، وجميع القبط من نسله، وبقيت تواريخ القبط منه، ومن نسل إدريس عالم أحاط بكل العلوم وكتب تواريخ القبط (فليس لتواريخ القبط أصل ونشأة، لأنه بعد هبوط آدم وبفضل إدريس انتشر علم الكتابة وعلم الحساب وعلم النجوم، وقد تيسرت تلك العلوم لقوم القبابطة، إنهم لا يشبهون قومًا آخرين، والآن[1] فى مصر كل أرباب الدولة فى حاجة إليهم، فليس لهم من نظير

(١) على عهد الكاتب.

فى علم الحساب والفراسة والتخطيط، حتى إن أعيان مصر يعتقدون أنهم أهلهم، وأن جميع حوائجهم ولوازمهم منهم، إنهم قوم يتقنون الحساب، فهم يحسبون كل (دانق) ينفق، ويقيدون، ولا وجود لهم إلا فى ديار مصر، ويقول هؤلاء القوم إن الملك قبطم (نبى)، وأما الآن فهم على دين المسيح - عليه السلام -، وهم قوم مدققون كثيرًا فى أكلهم وشربهم، ويقولون فى جميع الأوقات نحن قبط.

وتقول تواريخ الصابئة إن سيدنا هود ولد فى عهد قبطم بمدينة (ثمود)، ومن عهد آدم إلى عهد قبطم كان الناس يتكلمون بالعبرية، ولكون قبطم متضلعًا فى شتى العلوم شاعت فى عهده لغات مختلفة، وقد ألهم الله قبطم الفصاحة فى اللغة القبطية، وظل قبطم ملكًا لمدة أربعمائة وثمانين عامًا، وأدركه الموت ودفن فى جبل الهرمين إلى جانب أبيه مصرايم، ثم ملك بعده أخوه (اشمون)، واشمونين مدينتان وهو بانيهما، وأشمون فى العبرية بمعنى مَلَك له صفة الثور حامل الأرض ولهذا السبب كانت الثيران غاية فى الكثرة بتلك المدينة، ومن المشهور بين عرب مصر أن الإنسان الأبله يُشَبَّه بثور أشمون، ويجرى هذا مجرى المثل، إلا أن هذه المدينة ليست عامرة، وفى وقتنا هذا قراها عامرة، ومات أشمون، فملك أخوه اتريب، ومات كذلك، وخلفه صاى وبينما كان يصيد فى بلاد الفونجة قتله فيل، وقد كان ملكًا غاية فى النجدة والبسالة، وهو الذى شيد مدينة صاى الحالية[1] وقلعتها على حدود مصر وبلاد الفونجة، وأفضى الملك من بعده إلى تدارس بن صاى، وولد صالح - عليه السلام - فى عهد تدارس هذا، ومات وتولى بعده ابنه ماليق، إلا أنه لم يعمر إلا مائتى سنة، ولم يعقب فكان الملك لأخيه (خَرِبْتا) بن قبطيم، وانقضى عمره.

فكان الملك لولده (كلكن)، ولم يعقب كذلك، فخلفه فى الملك أخوه (مَلْبَاية) بن خربتا وقد شيد فى بلاد النوبة كثيرًا من المدن، ولما فارق الدنيا أصبح ابنه طوطيس ملكًا وكان طاغية جبارًا.

---

(١) على عهد الكاتب.

• حكاية •

قدم إبراهيم - عليه السلام - فى عهد طوطيس إلى مصر مع أمنا سارة فَمَدَّ طوطيس يده إليها، فجفّت يده بأمر الله - تعالى -، ولكن دعا له إبراهيم ربه، فشفيت يده إلا أنه لم يستطع كبح جماح نفسه الأمّارة ووضع يده على أمنا سارة فأصبحت يداه قديداً، ولكن إبراهيم عفا عنه ثانية ودعى له، فعادت يداه إلى ما كانت عليه من قبل، وفى التو رفع طوطيس أصبع الشهادة قائلاً: «لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله»، ودخل فى الإسلام وزوج إبراهيم من أمّنا هاجر وولد من هاجر القبطية سيدنا إسماعيل، وثم قدّم طوطيس إلى إبراهيم ما لا يحصى كثرة من الهدايا، وأرسل إبراهيم إلى مدينة جدة على بحر السويس، ثم شق طوطيس الجبال الواقعة فى مقابل مدينة بنى سويف لفرط محبته لإبراهيم، وأجرى النيل إلى بحر السويس بمقدار مسيرة ثلاثة أيام، فأرسل كثيراً من السُّفن فى النيل إلى السويس، وكانت له مكة، وعاش مائتى عام ودام له الملك مائة وثمانين عامًا، وملك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، ودفنوه فى الهرمين إلى جانب أبيه خربتا، وأصبحت ابنته (خَرُوبَا) ملكة من بعده و(خَرُوبَا) بنت طوطيس هى المملكة الأولى على هذه الأرض، ودام الملك لها سبعين عامًا وهى على ملة إبراهيم، ثم ماتت ثم كان الملك من بعدها لابنة عمها (زَالِقا)[1]، إلا أنها تعاطت السحر كثيراً، ودفنت إلى جانب أبيها (ماموم)، ويقول القبابطة الآن إنها زوجة نبىّ، وهذا اعتقاد باطل، ولها ضريح يزار فى مدينة (بهنيا) واستخدمت السحر على أنها تصنع به المعجزات، وكتب عنها القبط فى تواريخهم، ولكن لله من الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبىٍّ وليس فيهم أحد من النساء، وامتد بزاليقا العمر طويلاً، وكثر عدد القبط فى عصرها إلى حد أنهم انتشروا فى أقاليم مصر كلها، وإلى وقوع الطوفان، ومن بيطار بن حام بن نوح إلى عهد زليخة حكم مائتان وأربعون وألف ملك، ودامت دولهم ألفى عام وستة وفى عصر زاليقا ظهر بنو (العمالقة)، وألحقوا الهزائم بجند مصر وكان لهم ملكها.

* * *

(١) وتعريبها: زليخة.

الفصل الثالث

فى ذكر أحوال أهل العمالقة

(عَمْلاق) من أبناء العماليق، وكان وليد بن (إيدوس) أحد ملوكهم عنيدًا ذا بأس وشدة، طمع فى الاستيلاء على مصر من حوزة القبابطة لعمرانها، فجيش جيشًا عظيمًا كأنه موج البحر، اتجه به إلى مصر وخاض حربًا ضروسًا مع جيش (رَاْلِقا) بنت (مأموم)، وفى النهاية لم يكن للقبط طاقة بالعمالقة فلحقت بهم الكسرة، وانهزموا أمام جيش الوليد، وحكم وليد قرنًا من الزمان، ووقف مصر على كنيسة آيا صوفيا، وكان حاكمًا ظلومًا غشومًا، فسلط الله عليه أسدًا هصره وأكله، فأمن أهل مصر شروره، وكان ضخم الجسم يعبد الشجر، تزن سنّه ثمانية عشر رطلاً، وكان العمالقة هكذا قومًا ضخام الأجسام.

وملك بعده ابنه ريّان، وفى تاريخ الصابئة أن ريّان هذا كان فرعون يوسف، ويسمى الكافر من الملوك فرعون، والجمع فراعنة، واختار ريَّان ركن العزلة لنفسه، فخلفه فى الملك يوسف الصديق، وعُمّر مائة من الأعوام، وزان الدنيا بعدله وعمّر مصر.

* * *

الفصل الرابع
بيان تشييد يوسف الصديق لمدينة الفيوم
وحفره لبحيرة يوسف بإذن الله ـ تعالى ـ

جاء فى تاريخ الشيخ السيوطى ـ رحمه الله ـ: أن يوسف كان عبدًا مملوكًا لعزيز مصر قبل أن يشب فتًى يافعًا، وقيل افتراءً على يوسف أنه يعشق زليخة (امرأة العزيز) وتعشقه، فألقى الملك ريان يوسف فى السجن بمدينة الجيزة، وقد نزلت هذه الآية الشريفة على الرسول الكريم ﷺ على سبيل القصص: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف:٣٦]،وهذا السجن يقع الآن فى منطقة الجيزة فى مواجهة مصر القديمة وبالقرب من جامع بوصير، وفى هذا الجامع يوجد كذلك الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ولدها من خشية فرعون وألقته فى النيل، وتخلص يوسف من هذا السجن ببركة صدقه، وآل إليه حُكم مصر. وحكَم يوسف مصر على سُنّة إدريس ودعا الله قائلاً: «اللهم إنى غريب فحببها إلى وإلى كل غريب»، ولأجل دعاء يوسف هذا نعمت طائفة العبيد، وغريبو الديار، بالعزة والسعادة.

ولقد أصبحت أنا الفقير الذليل الحقير قرير العين فى مصر وببركة دعاء يوسف ـ عليه السلام ـ حبا الله الأرض عَشْر نِعَم اختص مصر بتسع منها، والعاشرة هى كل الدنيا، لأنها الإقليم الآخر وفيها كثير من المطلسمات والعجائب والمعادن الغريبة، ولقد جاءت النبوة إلى يوسف من قِبَل المولى جل وعلا وهو فى الأربعين من عمره، إلا أنه كان خليفة فى الأرض وله من العمر ثلاثون عامًا، ولما كانت مصر أرض الجبارين زايلها ومضى إلى وادى الفيوم، وطاب له جوها السَجْسَج وشيد مدينة الفيوم فى ألف يوم، ومن الخطأ قولهم إن الفيوم من ألف يوم وإن كان التحقيق فى لسان العرب مقبول، وقد رفعت بالمعرّفة باللام، ولذلك يقولون فيوم بمعنى المدينة التى بُنيت فى ألف يوم، ولقد حمل يوسف الصديق بنفسه تراب الخليج فى ذيله مؤتمرًا بأمر جبريل الأمين؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ لجبريل: «ألحق يا جبريل بيوسف وأعنه»؛ فهبط جبريل من السماء إلى الأرض وكأنه برق خاطف؛ فضرب البحيرة بجناحه فتطاير التراب إلى السماء ونزل إلى القعر فى الثريا، وضرب الصعيد العالى بجناح فانشقت ترعة فجرى فيها ماء النيل إلى

بحيرة الفيوم، إنها فج عميق كم فيها من مخلوقات وحشرات البحر، وفى كل عام يطهرون الترع بالثيران، ولكن بما أن هذه الترعة شقها جبريل فلن تجرف إلى انقضاء الزمن.

إن النيل يجرى ولكن إذا دخل ماؤه البحيرة أصبح ملحًا أجاجًا، وعلى جوانب هذه البحيرة الأربعة ثلاثمائة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه «إرم ذات العماد»، وسوف نذكر أوصاف الفيوم فى موضعها بمشيئة الله.

وحينما كان يوسف الصديق يسكن الفيوم لم يطق فراقه أبوه يعقوب، فقدم مصر من أرض كنعان مع أهله وعشيرته، وبينما كان الملك ريَّان فى عزلته منزويـًا عن الدنيا مضى إلى يعقوب والتقى به ونال منه خير الدعاء له، وأكرمه كل الإكرام، وبعث به إلى الفيوم، كما خرج يوسف الصديق مسافة ميلين خارج الفيوم لإستقبال (أبيه) لذا يطلقون على هذين الميلين اللذين تحف بهما البساتين اسم ميلىّ يوسف، وهناك التقى الابن بأبيه، والتقيا تعانقًا، وتبادلا القُبل وقد غمرت البهجة نفس يعقوب بلقاء يوسف، ومع أن عينيه ابيضتا حزنًا على يوسف وذهب بصرهما فإنهما أنارتا كنرجستين، فأعتق يوسف تسعين عبدًا له، فامتلأ قلب يعقوب سرورًا، ودعا الله ليوسف وسكن مصر ستة عشر عامًا. وكانت عيناه باصرتين إلى أن وافاه الأجل، وقبل أن يغمض يعقوب عينه عن الدنيا أوصى يوسف بأن يحمل نَعْشه إلى القدس ويدفن إلى جانب خليل الرحمن فى جبل جبرون.

ذكر وفاة يوسف. عليه السلام.

حين أدركت يوسف الوفاة كان ريَّان قد مات وملك بعده ابنه دارم فى مملكة أسوان فسمع بموت يوسف فاستقل بالمُلك، وبناء على وصية يوسف ألقوا يوسف فى صندوق من البرونز فى النيل، وبقى هذا الصندوق فى النيل إلى عهد سليمان عليه السلام ـ، وقدم سليمان مع الإنس والجن إلى شاطئ النيل، ومكثوا مدة، وأتت امرأة عجوز إلى سليمان فقالت: «يا سليمان فى هذا المكان ألقوا صندوقًا من البرونز فيه جثمان يوسف»، فتحين الفرصة لإخراجه، وفى التوّ أمر سليمان الجنَّ بحمل الصندوق وبه جثمان يوسف الصديق، فحملوه إلى القدس الشريف حيث دفنوه بجانب أبيه يعقوب فى جبل جبرون وهما الآن يرقدان فى قبر عظيم الأنوار يُزار.

* * *

الفصل الخامس
فى بيان آل الريَّان وذكرهم

بعد وفاة يوسف الصديق أصبح الملك ريّان جباراً فى الأرض، وكان من عَبَدة الأصنام، وقد غرق فى النيل، وأصبح (كاشم بن معدان) من بعده ملكًا، وأدركه الموت، وجاء بعده الفرعون ابن حَرِيم بن كنور؛ بن زيد موسى واعتلى العرش فى منوف، وكان مقدم موسى عليه بعد عشرين عامًا، وعُمر أربعمائة سنة، وكانت معظم أيامه حروبًا مع موسى، وآخر الأمر بينما كان يناشب موسى القتال، غرق مع جنده، فى موضع من بحر القَلْزَم يسمى خليج قلوندر، وهذا ثابت بقواطع الأدلة فى كل التفاسير، وكان المُلك من بعده لملكة تسمى دلوكة بنت زيباكا، وقد شيدت معظم عمائر منوف من الحديد، وكست كل عمائرها بالرصاص، كما كفتت سطوحها بالنحاس الأصفر، وزينت أبوابها بالنحاس، وأنشأت سبعمائة حمام، فما كان فى أرض مصر مدينة مثل منوف.

وفى اللغة القبلية: منوف اسم عروس، أى أنها مدينة مزينة كأنها عروس الدنيا وأصبحت الملكة دلوكة زينة الدنيا بالسحر، إلا أنها حكمت عشرين عامًا، وماتت فى الستين بعد المائة من عمرها، وبعدها كان الملك «الدركون»، وبعد موته كان الملك لابنه «تودس»، وبعده الملك «القاس»، ثم الملك «مرينا» ثم ابنه «اسمارس» الذى قتل وهو أول ملك يقتل لأنه كان ظالمًا غداراً عاتيًا، وملك بعده «بطولس بن ميكاكل»، وحكم أربعين عامًا وخلفه ابنه «بالوس»، ثم ملك «مياكل» وهو أخو بالوس، ودام حكمه مائة وعشرين عامًا، وقد خرّب القدس وبيت المقدس، ولكن رَمَحَهُ(١) الفرس الذى كان يركبه فهلك، وملك بعده ابنه «مرتشوس» وجاء بعده «مرمورة» وكان عادلاً منصفًا يرعى جانب رعيته، وعمر أرض القدس ومصر، وعاش ستين عامًا، وجاء بعده «القاس»، وقتل فى الحرب، وجاء بعده «قوبش»، وسافر فى البر والبحر وأغار على خمسين إقليم، وفى عهده خرج بُخْتِنَصَّر من بلاد الأكراد يطلب دم يحيى النبى فجعل - حلب ودمشق وبليسر وطبرستان

(١) رَمَحَتْ الدابة فلانًا رَمْحًا: رَفَسَتْهُ.

ونابلس والقدس وعكة ورملة وصفد وغزة ومصر والإسكندرية ـ خرابًا يبابًا، والحاصل أنه دمر ألف وسبعمائة مدينة من المدن الإسرائيلية، وشوى الأسرى شيّا، ولقد ادعى أنه يطالب بدم (يحيى ـ عليه السلام ـ) وكإبن من يهودى قتله، وظلت مصر أربعين عامًا بالتمام خرابًا يبابًا، ووجد من الأنبياء اليا وأرميا، ودانيال فى مدينة (صَفْت) فأسرهم، وبينما كانوا فى سجن المدينة، تنزل الوحى، فلما شاهده بختنصّر أطلق سراحهم من سجنهم وكان ذلك برجاء بسطه إليه هؤلاء الأنبياء الثلاثة، ورحّل أهل مصر إلى مصر، وأمر بتعمير القدس، وفى هذا العصر غلب الروم بمدد من بختنصّر على إسرائيل، وتسلطوا على جميع الشعوب المسيحية، حتى إنهم فى إيران أطلقوا ناقوسهم وأرغنهم[1]، ونزلت على النبى ﷺ آية: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١ ـ ٢]، فى هذا الشأن ولم تبق بقية من آل ريّان والعمالقة.

* * *

(١) الأرغن: آلة موسيقية نفخية بها منافيخ جلدية وأنابيب ومفاتيح لتنغيم الصوت.

الفصل السادس

ذكر من دخل مصر من الأنبياء العظام (عليهم السلام)

نزلت الصحف على قيناان بن شيث بن آدم بعد نزولها على آدم وشيث، وكان لمعلائيل المعجزة فى علم النجوم، ونزلت الصحف على أخنوخ ويلقب إدريس بهرمس ومعناها الشيخ فى العبرية.

ولد فى مصر وقد ساح فى جزيرة مصر من أقصاها إلى أقصاها، والآن تعتبر أسماء إدريس وحمد وحمود وخنوخ وجرجيس وكفيل مقبولة فى العديد من قرى مصر.

بعث إدريس فى مصر لقوم الصابئة، وأقام مائة وأربعين مدينة، وله كل البراعة فى علم الهندسة وعلم النجوم، وله المعجزات، ولكثرة ما علم الناس العلم سموه إدريس، ومن الدليل القاطع على عروجه فى السماء قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧]، ولذلك يعرف فى جنة المأوى بالحائك لأنه كان واسع العلم بالحياكة وعلم الكتابة، وإليه ينسب علم الحياكة وعلم الكتابة.

أتمّ سيدنا إبراهيم وإسماعيل بناء مكة، وقدما مصر فى عهد الملك طوطيس، كما قدم يوسف الصديق مصر، وكذلك قَدِمَها يعقوب (عليه السلام) حين جاء لرؤية يوسف، قدمها مع أولاده الإثنا عشر وأكبرهم يهودا، وفى مقدمهم إلى مصر طرحوا يوسف فى الجُبِّ قائلين إن الذئب أكله، وسامحهم يوسف، ولبثوا فى مصر ستة عشر عامًا، وبعد وفاة أبيهم يعقوب مضوا جميعًا إلى مدينة صفت وهم مدفونون فى غار (بيت الحزن)، أما ابن يامن ويوسف لما كانا لام واحدة بقيا فى الفيوم، وولد ليوسف افرايم فى الفيوم، وافرايم وابن يامن مدفونان فى قبر بجوار قبر عمر بن الفارض، وما دفن فى أرض مصر سواهما من أبناء الأنبياء، ولوط والأخوان موسى وهارون ولدا فى مدينة أرمنت بالقرب من أسوان، ووضعت أم موسى موسى فى صندوق من خشية فرعون وطرحت الصندوق فى النيل، واقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يكون لفرعون قَصرٌ على شاطئ النيل، وذات صباح فتحت السيدة (آسية) الصندوق ورأت عليه مخايل إلهية، فأحبته واحتفظت به وقامت على تربيته، ومن حكمة الله أن أبا موسى كان

بوابًا لفرعون، كما كانت أمه من خواص حريمه، ودفعت آسيا موسى إلى أمه لتربيه، وقصة فرعون مع موسى مذكورة فى كل كتب القصص، وسيدنا داود وسليمان والملك رحعيم بن سليمان وهود وشعيب قدموا مصر، وسيدنا ثمود كان يزور مصر فى كل مرة وفى مصر القديمة دير يُسميه قبط مصر دير ثمود وهم يزورونه، والخلاف قائم فى نبوة سيدنا لقمان والخضر.

كان لقمان النبى فى أرض مصر والسودان عالم نحرير أسمر اللون، ووقع مثل هذا الخلاف فيما يتعلق بالإسكندر ذو القرنين وقالوا إنه نبى، والبعض يرى أن الآية التى نزلت على نبينا ﷺ هى قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]، قد نزلت فى شأن الإسكندر.

وفى الدنيا أربعة يُسمى كل منهم إسكندر، ومن قوم الروم فيلقوس ابن الإسكندر ذو القرنين اليونانى، أما فى كتب التاريخ فهو الإسكندر بن مرزبة واسمه مرزبا، وكنيته الإسكندر؛ وكان يطلق القرن على اثنين وثلاثين عامًا، ولما كان الإسكندر قد ملك ستين عامًا لذلك يُسمى ذا القرنين، وفى رواية أن له قرنين من لحم ولذلك سمى بذى القرنين.

حكاية شرف نامه

يقول التبليسى صاحب شرف نامه فى تاريخ أسلافه: «إن الإسكندر لم يسترح أبدًا من آلام قرنيه فجمع زلفًا من الأطباء يستشيرهم، إلا أنهم لم يجدوا من دواء لوجعه، فساح فى الأرض إلى أن بلغ ماء الحياة فى الظلمات، إلا أنه لم يجد ماء الحياة، فمضى إلى أرض العراق وشرب من زلال شط العرب، فسكن وجع قرنيه ووجد الراحة، ورأى فى منام من قال له: يا اسكندر وأنت تشرب ماء الحياة امض إلى الموصل واشرب من الماء المخلوط بماء شط العرب، إن ما رأيت فيه نفعًا وجدت راحة البرء منه، فامضِ إلى شاطئ هذا النهر، وسر حتى تبلغ منبعه، وأقم هناك أربعين يومًا، واشرب هذا الماء وسوف تشفى من ألم قرنيك، وهذا ما أجمع الحكماء جميعًا على القول به. فمضى الإسكندر صوب الموصل وعبر أنهارًا وأنهارًا، وشرب من ماء النهر الذى يأتى إلى

جزيرة العُمر. فتجددت فيه روحه ونعم بالراحة، وقبل ذلك بينما كان يمضى إلى شاطئ النهر. انشق النهر شقين؛ فشرب من ماء الشق الأول فَسُرّ، ومضى إلى ساحله، وبالقرب من قلعة «بتليس» انشق النهر شقين، وشرب من ماء النهر الآتى من (ماد)، وارتفع أنين الإسكندر، وبينما كان يشرب من النهر الآتى من بتليس غمر السرور نفسه، فعطف بعنايته عن هذا المكان، وحينما قدم مدينة بتليس انشق النهر أسفل القلعة شقين، وشرب من النهر الآتى من داخل السوق، إلا أنه لم يجده طيبًا، أما حين شرب من الماء الآتى من أسفل القلعة وجد حياة الخلود.

وفى تلك الأثناء سقط أحد قرنيه، وبقى القرن الآخر، فحمد الله، ولما مضى إلى ساحل هذا النهر رفع صخرة وأسكن عسكره فى موضعها، وجعل يشرب من زلال هذا الينبوع أربعين يومًا، فسقط قرنه الآخر، وكان للإسكندر الخلاص من قرنيه ووجد البرء من وجعه، فشيد قصرًا شامخًا على رأس هذا النهر جعله خانقاه، وفيها كان المتصوفة من الدراويش وأهل العرفان وأصحاب المواجيد يقيمون ناعمين، وهو الآن مكان نزه، وكان للإسكندر خازن يسمى «بتليس» وكان عاقلاً مدبرًا، فأمره أن يقم قلعة حصينة عند منبع النهر أسماها بتليس على اسم خازنه، وفى عام ١٦٠٥ حيث وصل أفندينا ملك أحمد باشا بتليس وصفها على التفصيل، ولكنى رأيت فى التواريخ كلامًا عنها مؤداه أن الإسكندر أقام سدّ يأجوج، وقلعة الإسكندرية فى مصر، وقيل أنه الإسكندر هو ابن تارح بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ، وفى قول أنه الإسكندر بن داراب بن بهمن بن اسفنديار.

ومجمل القول أن الإسكندر مضى إلى مصر، وبنى قلعة الإسكندرية، ولهذا السبب فالإسكندر هو الخضر، لأن الخضر كان فى جند الإسكندر شيخًا محنكًا مُسنًا، وكان مع الإسكندر فى الظلمات، ويقولون الآن إنه على قيد الحياة ولكن وقع الخلاف كذلك فى نُبوته، ولكن مقدمه إلى مصر مثبت فى القرآن الكريم، ومدة ملكه أربع وستون سنة، ومات فى بابل وهو مدفون فى الإسكندرية، وفى مدينة دمياط بمصر يختلط ماء النيل المبارك بماء البحر وقد بلغ موسى هذا الموضع الذى يُسمى «مرج البحرين»، وقد خرق

الخضر سفينة ليتيم فغرقت، فلم يعجب ذلك منه موسى فكان الفراق بينهما: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٧٨]، وقد نزلت هذه الآية على المصطفى ﷺ، وتكفى هذه الآية دليلاً على أن موسى كان يسكن مصر وقد بلغ مصر رفيقًا للخضر فى مرج البحرين؛ كما أن يوشع كان من الأنبياء الذين كانوا فى مصر ومولده فى مدينة الفسطاط وهى مصر القديمة، ويوشع بن نون ليس ذا النون المصرى، وذو النون المصرى ولد كذلك فى مصر وكان حكيمًا عظيمًا من القبابطة، وقد أرسل المقوقس إلى النبى ﷺ رسولاً معه ثلاث جوارى من القبط وسيفًا وبغلاً هدية منه، وبينما كان يسلم هذه الهدايا شرف بالدخول فى الإسلام، وقد منح النبى ﷺ إحدى هذه الجوارى أبا بكر وسماها عين شمس، وولدت له حمد الأكبر، وأهدى جارية كذلك إلى حسان وسماها درّة ولدت له عبد الرحمن بن حسان، واحتفظ الرسول له بواحدة واسمها «مارية» وهى أم إبراهيم ابن الرسول ﷺ.

وحضر ذو النون هذا فتح مصر مع عمرو بن العاص، واستشهد كما استشهد الشيخ عقبة الجهنى العامرى، وهو مدفون بجانب ذى النون، أما يوشع بن نون فهو نبى، وغادر مصر إلى طرابلس فى الشام وهو مدفون هناك، وقد أسر بختنصر سيدنا دانيال وأرميا وعندما قدم مصر لتخريبها أحضر هذين النبيين معه، ثم جاء بهما إلى بلاد الأكراد، وقد هاجرت السيدة مريم والدة المسيح عيسى ـ عليه السلام ـ من مدينة نابلس، وفى مصر سكنت المطرية أعوامًا ثلاثة، وكانت تحت شجرة بليسان، ولم تشاهد هذه الشجرة على وجه الأرض حتى ظهرت فى عصر دولة الأكراد. أما الآن فبقيت منها جذورها، كما حفر عيسى ـ عليه السلام ـ تحتها بئرًا، وحينما كان الطين فى النيل شرب عظماء وكبراء مصر الماء من بئر المطرية هذا وهو الآن مزار للمسيحيين، ومنها بلغ عيسى ـ عليه السلام ـ مدينة البهنسا وسكنها مع أمه ثلاثة أعوام، ومما يشير إلى دخول عيسى ـ عليه السلام ـ هذه الآية الكريمة: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، والمفسرون يشيرون بهذه الآية إلى دخول المسيح ـ عليه السلام ـ مصر، وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين ـ وهو الصحيح ـ أن هؤلاء الأنبياء دخلوا

مصر، ولـكن ليس فى مصـر نبى مدفون سـوى اثنين من أبنـاء الأنبياء وهما يـامن بن يعقوب، وافرايم بن يوسف الصديق، والسلام.

ذكر من دخل مصر من أهل بيت رسولٍ

فـى البـداية أمنـا حــواء، أمنـا حوراء زوج شيــث، وأمنـا سـارة زوج إبـراهيـم (عليه السلام) وأمنا آسيه زوج فرعون، والتى استشهدت على يد فرعون، ويجدر بها أن تكـون زوجــة النبى ﷺ فــى الآخـرة، وكذلك أم سيدنـا موسى يوحينـه، وأم سيدنا يهـودا بن يعقـوب، والسيـدة مريـم أم المسيح عيسى، هذا ما اجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين.

ذكر من دخل مصر من قدماء الحكماء

أولهم إدريس الكاتب والحائك والحكيم، وكذلك لقمان، وفيثاغورث عالم التوحيد، وتيمون وفـليسله، وإسلاوس، وكـاوس، ويزدجرد، وبقراط، وسقـراط، وأفلاطون، وإقلطس، وارستطـاليس وبطليموس العالم بـالنجوم (الفلكى)، وإقلطـموس وفيلقوس وذو النون وأبو على (بن) سينا وأبو الحـارث، وّولاء من قدماء الحكماء والآن يؤخذ بما جاء فى مؤلفاتهم والسلام.

ففى مصر بعد هـبوط آدم وبعد طوفان آدم الثانى نوح (عليه السـلام) تناسل بنو آدم فى أرجاء الأرض، وكم مـن نبى وملك قدموا مـصر وكانت مصر فى حـوزتهم، ومن جملتهم (دارة) الـذى ادعـى المُلْك فـى زمـن الجاهـلية وهــو كيومرس أحـد أبنـاء نوح - عليه السلام -.

أما فى زمن الضلالة قبل النبى ﷺ ، كان الملوك منقسمين إلى طبقات لأربعة: الطائفة الأولى أهل الأديان، والطائفـة الثانية الإشكانيين، والطـائفة الثالثة الكيانـيون، والطائفة الرابعة أهل الـساسانيين، ومعظم هـؤلاء المذكورين حكموا أرض إيران ومـا وراء النهر وديار العراق ومصر.

* * *

الفصل السابع

ذكر فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب بفضل معجزات وبركات النبى ﷺ

أما سبب فتح مصر فهو أن الإسكندر اليونانى كان فاتحًا عظيمًا فاستولى على الأقاليم السبعة، ثم دخلت مصر فى حوزته فجعل للمقوقس القبطى رتبة الإمارة، ولكى يمضى إلى مكة والمدينة قطع طرق النيل قبالة بنى سويف، لما لم تصل السفن إلى السويس قحطت مكة والمدينة وغلت الأسعار، ورغمًا عن الكفار أرسل إلى القدس ثمانين ألف جندى وفتح عمر بنفسه القدس الشريف، وأمَّر خالد بن الوليد على جيش قوامه أربعين ألف مقاتل لفتح دمشق، وأثناء حصاره لدمشق جاءه مدد من أربعين ألف جندى، وفتح خالد بن الوليد بقوة ساعده دمشق واستخلصها من يد الملك خرقيل العنيد، وأرسل ما غنم من غنائم إلى المدينة المنورة، وقد أسماه الرسول ﷺ سيف الله المسلول، وفى عصر النبى ﷺ كان خالد بن الوليد أول من خرج إلى الروم، ثم شق الروم فى القدس عصا الطاعة، ففتحت فى خلافة عمر، فاستاء الروم والقبط من خالد، وبينما كان جند الروم ينهزمون أمام جند العرب أرسل خرقيل من قبل ملك أنطاكية مددًا قوامه أربعون ألف فارس، وأربعين ألفًا من المشاة الروم إلى قلعة الإسكندرية ومصر، فانشرحت لذلك صدور الروم والقبط؛ وكان عمرو بن العاص فى الجاهلية من أثرياء قريش، وفى كل عام يمضى إلى البصرة والقدس الشريف، وهناك كان يستظل بشجرة طلبًا للراحة، واتفق أن ظهرت له أفعى كأنها تنين وهاجمت من كان فى ظل الشجرة، فحمل عمرو قوسًا ورشق الأفعى بها، فاستيقظ من كان نائمًا فى ظل الشجرة ورأى عمرو وهو يرشق الأفعى بالسهم، فسأل هذا الرجل عمرًا ما هذا؟ فقال له: رشقت الأفعى بالسهم وقتلتها. فأكب الرجل على يد وقدم عمرو، فقال عمرو: أنا مسقط راس مكة، وأنا من آل هاشم. فقال الرجل: أنا أخوك فى الدنيا والآخرة، وتلك الأخوة جزاء إنقاذى من الأفعى، قال عمرو، إنما صنعت هذا حسبة لله، أنا أعيش من التجارة فى كفاف وحاجتى ماسة إلى الله.

قال الرجل: يا أخى أنا كذلك تاجر عظيم فى الإسكندرية، أنا شماس واسع الثراء ولى أملاك كثيرة فى الإسكندرية، ولكنى قدمت إلى القدس للزيارة، والآن أنا غريب الديار، تعال معى إلى الإسكندرية، وسأعطيك سكة ذهبية وجواهر ثمينة وأقمشة فاخرة، وسأبعث بك إلى مكة فى قافلتين تحملان مالاً جزيلاً، قال ذلك راجيًا، وأقر ذلك من سمعه، كما أن عمرو لم يعترض وقطع المنازل وطوى المراحل من القدس حتى دخل الإسكندرية بعد أيام عشرة، ونزل ضيفًا على دار الشماس، ووفّى الشماس بوعده وأعطى عمرو عشرة آلاف ذهبًا ومضى به إلى متنزهات المدينة، وبينما كانا يشاهدان ما حولهما، اقتضت حكمة الله أن جاءت الكرة إلى الصولجان وخطر لعمرو رأى، وأخذ العجب مأخذه من جميع الحضور فى المجالس وكان بين أهل الإسكندرية عقيدة مؤداها أنه كل من كان على رأسه صولجان وكرة أصبح ملكًا، وهزأ الناس جميعًا من تلك الكرة التى على رأس عمرو، وقالوا: هذا العربى أيصح أن يكون ملكًا علينا؟! وابتسموا، ومضى عمرو مع الشماس إلى داره وكان الشماس فريد عصره فى علم الإسطرلاب فنظر فى طالع عمرو فرأى أن له مُلك مصر، ولما أصبح الصباح قدم إليه سبعين جملاً تحمل المال، فأرسل عمروًا إلى مصر ومكث عمرو فى مصر شهرًا، ووقف على كل أحوال مصر، فمضى إلى مكة فى قافلة عظيمة، وقدم إلى جميع أهل مكة الهدايا، ومدح قلعة الإسكندرية ومصر أم الدنيا إلى حد أن جميع جند الإسلام دعوا الله أن يفتح عليهم مصر، ومثل عمرو فى حضرة الرسول ﷺ وعرض الهدايا وقبل الرسول من الهدايا، فرفع عمرو يده وشرف بالإسلام والحق بزمرة الصحابة الكرام، ووصف للرسول ﷺ الإسكندرية ومصر على الحقيقة، فَسُرَّ ﷺ وقال: «اللهم يَسِّرْ بالعمرين» وجعل يرغب الصحابة الكرام من يوم إلى يوم فى فتح مصر والقسطنطينية. وبلغته من المقوقس ملك مصر الهدايا والرسائل مرارًا؛ وجاء فى إحدى الرسائل: «يا محمد لقد غلبنا وظلمنا من الروم وسلبوا مصر من يدنا»، وبعد نصر النبى ﷺ فى العام السادس للهجرة فى غزوة الحديبية أَوْفَدَ الرسول ﷺ أبا الدرداء وحاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى عظيم مصر (المقوقس)، وبلغا مصر سالمين لدعوة المقوقس إلى الدين

الحنيف، وفى هذا روايات مختلفة، فى إحداها أن المقوقس وقع على الرسالة بأنه أسلم وأرسل المقوقس مع ذى النون ثلاث جوارٍ وبغلاً وسيفًا، فقالوا:

يبعث نصر إلينا ∴ وحتى فتح الله علينا

ومن المحقق أن النبى طاب بذلك نفسًا، ومن المؤكد المحقق أنه أحبه حبًا جمًا.

نقول والعهدة على الراوى: إن أبا الدرداء مع ابن أبى بلتعة قدما من قِبَل المقوقس، ووصفا للنبى ﷺ طيب هواء مصر، وأنواع الزروع فيها، والمطعوم والمشروب بها، وحاصلاتها، فقال النبى ﷺ عدة أحاديث خاصة بمصر، كما سيرد ذكره. وصرح بتفضيل القرآن الكريم لمصر وما ورد فى ذلك الأمر على طريق القصص تلاه تصريحًا وتنبيهًا بمسمع ومشهد من الصحابة، وبذلك أقنعهم بغزو مصر.

* * *

الفصل الثامن

بيان بالآيات الكريمة التى ذكرت فيها مصر صراحة وكناية وتنبيهاً

قال - عز من قائل -: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[١] الآية، وذلك على الحكاية، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾[٢]، وقال - تعالى - عن قصة يوسف الصديق: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾[٣]، ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾[٤].

وقال فى قصة فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾[٥]، وعن قصة يوسف الصديق قال - عز من قائل -: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[٦]، ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾[٧]، و ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾[٨]، ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[٩]، كما قال - تعالى - فيما يختص بعيسى - عليه السلام - والسيدة مريم: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[١٠]، ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾[١١]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾[١٢]، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾[١٣]، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾[١٤]، ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾[١٥]، ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[١٦]، ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾[١٧]، ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾[١٨]، ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٧.

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٩.

(٤) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٦) سورة يوسف: الآية ٣٠.

(٧) سورة القصص: الآية ١٥.

(٨) سورة القصص الآية ١٨.

(٩) سورة يس: الآية ٢٠.

(١٠) سورة المؤمنين: الآية ٥٠.

(١١) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(١٢) سورة يوسف: الآية ٢١.

(١٣) سورة يوسف: الآية ٨٠.

(١٤) سورة القصص: الآية ٤.

(١٥) سورة القصص: الآية ١٩.

(١٦) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.

(١٧) سورة الأعراف: الآية ١١٠.

(١٨) سورة الشعراء: الآية ٥٧، ٥٨.

مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات﴾[1]، ﴿كمثل جنة بربوة﴾[2]، يقول بعض المفسرين أن المقصود بالربوة مصر، كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير أن جمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر، ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾[3]، ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾[4]، ﴿وقدر فيها أقواتها﴾[5]، ﴿إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[6].

قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقريزى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام»، وقد أخفاها الله حتى قيل أن جواهر وجدت فى سبيل علام وقد رأيتها تباع بألف قرش. وبناء على قول بعض المؤرخين أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، أن أعرابيًا أناخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملأ مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فَعُلِمَ أن حديقة إرم بالقرب من دمشق.

وقال كثير من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلى مدينة أسوان، وقالوا إن حديقة إرم فى مصر على الأرجح، وجاء عن مصر: ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾[7]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾[8]، ومن الحق أن من جند مصر كثيرًا من الفاسقين والجبارين والعتاة، ﴿أمر كل جبار عنيد﴾[9]، وجميع الرعايا والبرايا فيها من قوم الفراعنة، وهم جبارون بحكم جوها، ويتألفون من طائفتين، طائفة هابيل وطائفة قابيل، فطائفة منهم أخيار والأخرى أشرار، فهم ليل نهار فى تشاجر وتناحر، والغالب يبقر بطن زوجة المغلوب ويقتل جنينها وهم على هذا النحو جبارين عتاة، وفرسهم الذى يشرب من ماء النيل

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٣. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٥. (٣) سورة المائدة: الآية ٢١.
(٤) سورة السجدة: الآية ٢٧. (٥) سورة فصلت: الآية ١٠. (٦) سورة الفجر: الآية ٧، ٨.
(٧) سورة يوسف: الآية ١٠٠. (٨) سورة الأعراف: الآية ١٤٥. (٩) سورة هود: الآية ٥٩.

جموح، وقال الله عنهم كذلك: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1]، ولكن ما ذكره الله ـ تعالى ـ خاص بالبلد القديم وما فيه من جبارين وفاسقين ما كان له دوام وفيه البلاء، كما أن الجراد كذلك لا يدوم له فى مصر البقاء، وبحمد الله ـ تعالى ـ لا يصيب الجراد محاصيلها قط، وفى عام ١٠٨٨ إذ كان عبد الرحمن باشا واليًا على مصر هبط الجراد فى مصر كالوابل، حتى ضؤل وهج الشمس، واسودت السماء ولم يشاهد وجهها، ولما هبط الجراد على الأرض بفضل الله احتفلت المدن والقرى والكبار والصغار بعيد الأضحى وطعموا وانمحى الجراد ذات يوم وغرق فى النيل.

وفى رواية أنه هلك بريح عظيم، وفى عهد الرسول ﷺ أصاب الجراد مكة ووادى فاطمة فقال أهل مكة: يا رسول الله إن الجراد أصاب مدينتنا فما عاقبة الأمر؟ ولما قالوا ذلك بسط ﷺ يده فدعى الله قائلاً: أرسل هذه الحشرات إلى مصر. فقال الصحابة الكرام: يا رسول الله إن كل أرزاق أمتك فى مكة والمدينة تأتى من مصر، فإذا ما وصل هذا الجراد إلى مصر أصاب الناس القحط وغلت الأسعار، فقال: إنه رجع عن رأيه.

ومصر حمى الله وكنانة أرضه، وفى مصر نجباء يحرسونها وهم سبعون كلهم رجال الله وليس منهم فاسق ولا ظالم، وإذا ما بلغ الجراد مصر من مكة فهو هالك، ودعا الله قائلاً: كل من نظر إلى مصر بعين الحقارة حُقر وذل، ومن عدل سلم،

من عدل فى مصر القديمة ∴ أعزته مصر بنعمها

وكم من آيات شريفة نزلت فى شأن مصر ولكن بسبب قوة ذاكرتى ألهمت كتابة هذه الآيات الشريفة، وقد رغب المصطفى ﷺ صحابته الكرام فى فتح مصر.

ذكر الأحاديث الشريفة التى ورد فيها ذكر مصر

قال رسول الله ﷺ: «افتحوا مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا»، فسيدنا إسماعيل بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولد للسيدة هاجر من قبابطة مصر، والرسول ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وكانت أم النبى من

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

مصر، والحديث الآتى ذكر خاص بالسيدة هاجر ومصر، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ستفتحون مصر وهى أرض تسمى القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا». وقال ـ عليه الصلاة والسلام: «استوصوا بالأدم الجُعُد» والجعد بمعنى أسمر اللون، ويطلق على القبط. وقال ﷺ : «إن إبليس دخل العراق وقضى حاجته فيها، ثم دخل الشام فطرد حتى بلغ ميسان ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقرته».

وقال ﷺ الجزة روضة من رياض الجنة، ومصر خزائن الله فى أرضه»، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن ولد مصر معاف من الفتن ومن يريدهم بسوء إلا صرعه ولا يريد أحدًا إهلاكهم إلا أهلكه، من يقصده بسوء غيرّ الله وجهه، ونهرها نهر العسل، ومأدبة من الجنة وكفى بالعسل طعامًا وشرابًا».

وكم من حديث شريف جاء فى شأن مصر، إلا أننى اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث وكم من عالم وشيخ وشاعر نظم شعرًا فى مصر.

وقال الشيخ الكندى ـ رحمه الله ـ لا يُعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى عليه الله فى القرآن الكريم بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر. كما مدح الإمام الشافعى والإمام الليث وعمر بن الفارض لمصر كأنما مدحوا إرم ذات العماد.

وقد سلف ذكر الحديث الذى قاله ﷺ لأصحابه ترغيبًا فى فتح مصر، ولكن فى عهد النبوة لم يسترح ﷺ من المغازى والسرايا، وقال: «الأمور مرهونة بأوقاتها» ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى وآلت الخلافة إلى أمير المؤمنين أبى بكر الصديق، وفى عهده وقعت الفرقة بين الصحابة وظهرت أحداث متباينة، فما استطاعوا إلى مصر التفاتًا، كما امتثل قول ربه: ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾[1]، وأفضت الخلافة إلى الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ، فعقد النية على فتح مصر.

* * *

(١) سورة الفجر: الآية ٢٨.

الفصل التاسع

ذكر فتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب

على يد عمرو بن العاص

أجمع المؤرخون على صحة القول بأن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد بعد وفاة النبى ﷺ بثمانية عشر عامًا، وفى خلافة عمر استولى الملك هرقل اللعين على القدس الشريف، وأعاد عمر فتح القدس الشريف بجيش قوامه أربعين ألف مقاتل، ووجه عمرو بن العاص والأسود بن المقداد على رأس جيش من أربعين ألف مقاتل لفتح مصر، فاتجها إلى مكة المكرمة، ومن جانب جمع عمرو بن العاص جيشًا قوامه أربعة آلاف وخمسمائة من فرسان العرب وأربعة آلاف مختارين من خيرة العربان البواسل الأبطال مشاة، وبعد طى المنازل وقطع المراحل، بلغ عمرو بن العاص الرَّملة على مقربة من العريش وهناك مكث حينًا، وحين مقامه فيها جاءه رسول من قبل عمر بن الخطاب يحمل رسالة فحواها قوله له:

«إذا بلغتك رسالتى وكانت قدمك قد وطأت أرض مصر. فاحمل على مصر، وسوف ييسر الله أمرك بمشيئته ـ تعالى ـ، أما إن كنت لم تدخل أرض مصر بعسكر الإسلام، وكانت غزوة عمان فى العراق ولزام أن تعود».

فجمع عمرو رجاله وأهل البلاد وتلا الرسالة ثم سألهم: العريش فى أرض مصر أم هى أرض فلسطين؟ فردوا عليه قائلين: يا عمرو إن العريش على منزلين داخل مصر، ولما شهدوا له على ذلك؛ أرسل إلى عمر يخبره هذا الخبر مع راكب الوجناء لسرعة سيرها، فقال عمرو بن العاص: توكلت على الله، وتوجه إلى مصر.

وكان المقوقس على الفسطاط وإليا لليونان وهى الآن تسمى مصر القديمة، وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رسائل فى الخفاء، ومن ناحية أخرى أرسل هرقل اللعين من أنطاكية وطرابلس وصيدا وعكا ألف سفينة تحمل ستين ألفًا من جنده إلى قلعة الإسكندرية. فحملوا جميعًا على جند الإسلام، واتجهوا إلى ساحة مدينة بلبيس للقتال، واختلط جند الفريقين فى ساحة الوغى وتراشقوا بالسهام، فكانا بحرين تلاطمت

أمواجهما ودام القتال شهرًا بتمامه، والتقى الجمعان، جيش أهل لا إله إلا الله وجيش الكفر، ودخل جند المسلمين المعركة، فمنهم من قطع رأسًا ومنهم من قطع رأسه.

نزع سيفنا جوشنهم[١] ∴ وودعت الأجساد أرواحها

فتغطت أرض حاسان بأكوام من أجساد القتلى ونصر البارى جنده نصرًا مبينًا، ولحقت هزيمة ماحقة بالروم، وفى تلك الحرب حمل «أشقف» القبطى من المقوقس رسائل، وقد حضر هذه الحرب ورأى الروم فى كسرتهم، فأخبر بذلك المقوقس، فجعل القبط يقاتلون الروم، وفى موضع يسمى «قواصر» أقام عسكر الإسلام خيامهم ومكثوا فيها، وقال القبابطة إن جند العرب جند شداد غلبوا ملكنا المقوقس وأوقعوه فى الأسر، وسبق أن هزمونا وأسرونا ـ قال هذا بعضهم لبعض ـ وكان يقول بعضهم أيضًا: إن هؤلاء العرب قوم أحبهم ملكنا المقوقس وهم جند محمد العربى وإذا انضممنا إليهم كانوا المظفرين وفى هذا الأمر تشاوروا.

فغادر جند المسلمين بلبيس وعسكروا فى موضع يسمى «أم دنين» بالقرب من مدينة الخانكة ومن هذه الجهة خرج جيش الروم وفى صحراء الخانكة اقتتل الجيشان ثانية وتقاتلوا سبع ساعات حتى المساء ثم تهاونوا عند الغروب، وفى هذا اليوم استشهد من الصحابة الكرام سبعون رجلاً ـ عليهم رحمة الله ـ ومن الغد فى الصباح وصل مدد من قبل عمر يتألف من أربعة آلاف رجل هم من خيرة الجند، فدبت فى جند المسلمين روح جديدة، وفى هذا اليوم حاصروا قلعة «بابليون» وهناك دار قتال ضار، وفى النهاية تولى القيادة الزبير بن العوام والأسود بن مقداد وشدوا من جانب القلعة التى دكت بالمنجنيق ففتحت وغنم المسلمون كثيرًا من الغنائم وفى موضع القلعة المفتوحة ـ بحمد الله ـ جاء مدد من أربعة آلاف جندى من خيرة الجند والفى جمل وسُرَّ عسكر الإسلام سرورًا عظيمًا وانخلعت قلوب من فى مصر من الروم رعبًا، وتشاور عمرو بن العاص فى الأمر وأقر الهجوم على مصر من جهاتها الأربع، ثم رأى جواز محاصرتها، ثم انطلقوا إلى الإسكندرية؛ وطووا المراحل فى أرض البحيرة وضربوا الحصار على قلعة

(١) الجوشن: الصدر، والدرع.

الإسكندرية، ووصل المدد تباعًا للروم. إلا أن عسكر الإسلام أحاطوا بداخل القلعة، وبعد أن دام الحصار تسعة أشهر بالتمام خرج القبط من القلعة آمنين ومضوا إلى مدينة حوش عيسى بالقرب من دمنهور، أما جند هرقل اللعين لم يقبلوا الصلح الذى اقترحه ملكهم وخرجوا للقتال، وفى آخر الأمر فى العام التاسع عشر للهجرة مات هرقل اللعين فى مدينة قيصرية فجزع الروم الموجودون فى الإسكندرية لموته، وعرف عسكر الإسلام كذلك هذا الخبر، وأغارت جيوش الموحدين من نواحى القلعة التى دكها المنجنيق وفى يوم الجمعة فى شهر المحرم من العام العشرين للهجرة فتحت قلعة الإسكندرية الحصينة وغادرها كل من فيها راكبين السفن ومضوا إلى عكا وصيدا ومنهم من اتجه إلى الرملة واستولى جيش المسلمين على قلعة الإسكندرية، وأقاموا أديرة ومساجد وتكايا، وبشر عمرو بن العاص عمر بن الخطاب بهذا النصر وأرسل له عشرة آلاف صندوق من الذهب كما أرسل إليه مراراً مائة ألف قطعة من السلاح ولما وصلت عمر أصدر أمرًا يقول له فيه: «لا شك أنك مالك مصر، ولا تنظر إلى القلاع على ساحل البحر، إن الحفاظ عليها أمر عسير، فإذا ما قدم الروم فى سفنهم استولوا عليها، أما إذا جاء الروم من ناحية البر انهزموا بمشيئة الله، وجاء بذلك رسالة مع خلعة فاخرة، لقد غنم جند المسلمين أموالاً كثيرة إلى حد أن خص كل منهم على الأقل مائة ألف دينار من ذهب، وفى زمن الجاهلية قدم عمرو بن العاص القائد الأعظم من القدس إلى الإسكندرية، ونزل ضيفًا على دار الشماس.

وفى ميدان اللعب بالصولجان وضع عمرو على رأسه كرة الصولجان، فتذكر عمرو هذا فمضى إلى الشماس فوجده مريضًا طريح الفراش، فداواه أيامًا عدة حتى عُوفِى الشماس من مرضه؛ فمنحه عمرو سبعين جملاً تحمل مال الخزائن، ودعى الشماس إلى الإسلام، فشرفه الشماس بالدخول فى الدين الحنيف توًا بلا تردد، وقدّم الملك المقوقس إلى غزاة المسلمين فى الإسكندرية من أطايب الطعام والشراب وكثيراً من الهدايا، وجعل عسكر الإسلام يغتنمون ولكن عسكر الروم كانوا محصورين فى مصر القديمة لأنهم كانوا مجبرين على أن يكونوا فى يد الروم وسوف نذكر أوصاف مدينة الإسكندرية فيما يلى بمشيئة الله.

وصف حصار عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ لمدينة القاهرة

فى العام الحادى والعشرين للهجرة حينما كانت الخلافة لعمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص أن يضرب الحصار حول مدينة الفسطاط، وهى مصر القديمة، بجيش كموج البحر؛ وذلك بعد فتح القدس. وفى الحملة الرابعة على الشام وبالقرب من مدينة دمشق فى موضع يسمى (حابية) أنفذ عمر إلى عمرو بن العاص جيشًا قوامه أربعة آلاف مقاتل، وبينما كان فى طريقه من دمشق إلى مصر فتح فى البداية ديار عسقلان وقلعة يافا وقلعة تينة وقلعة دمياط وقلعة البرلس وقلعة رشيد وبعد ذلك فتح مدينة خوش وقلعة الفيوم وقلعة بهنيسا، وبعد ذلك أحاط بمصر القديمة، وبعد قتال دارت رحاه ثلاثة أشهر وفى المرة الثالثة جاء المدد وعلى رأسه الزبير بن العوام ومقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، مضى المقوقس فى أمان مع من معه إلى حوش عيسى، ولم يستطع الروم الصمود للحصار؛ فسلموا قلعتهم صلحًا ومضوا فى النيل إلى دمياط، وأصبحت جميع الكنائس مساجد، وبلغت عمر بن الخطاب البشرى بفتح الفتوح هذا، وعبَّر جميع الصحابة الكرام وجميع أهل مكة والمدينة عن فرط ابتهاجهم بذلك، وقدم عمرو بن العاص واليًا على مصر من قبل عمر بن الخطاب وبدأ عمرو بن العاص بإقامة العدل بين الناس وأولى عمران مصر اهتمامه، وفى العام الحادى والعشرين للهجرة أقام عمرو بن العاص فى موضع خيمته مسجدًا عظيمًا وحمامًا وسموه حمام (الفأرة)، وأقام فى جانب مدينة الجيزة قلعة كما أقام قلعة فى جزيرة أم القياس وسماها قلعة الروضة، واليوم تسمى هذه الجزيرة جزيرة الروضة، لأنها تشبه روضة من رياض الجنة وآثارها اليوم بادية للعيان.

ودانت بالطاعة لعمرو من قبائل العرب قبيلة بنى مالك وقبيلة بنى شكر التى سكنت جبل الكبش، وأقام فى موضع الخيام مدينة أسماها فسطاط شكر وكان اسمها من قبل مدينة جبل الكبش، فقد كان فيها فى عصر الكهنة كبش من النحاس الأصفر وهو طلسم عظيم، وإذا ما تعارك هذا الكبش مع الكباش زاد عدد الشياه، ولذلك سموه جبل الكبش، وقدمت قبيلة بنى حَجَر وبنى سيف ونافع وهمدان وأطاعت عمرو بن العاص، واستوطنوا العرب المناطق الواقعة من الجيزة إلى أرض المغرب إلى أوجله، كما

أطاعته قبيلة ابن همام وبنى جوَّارة وبنى عابد واتخذوا من مصر العليا وطنًا وقدم الملك المقوقس إلى عمرو خزانة من ذهب وبسط إليه الرجاء أن يقيم على جبل المقطم وسفحه فى الجانب القبلى من مصر، ولم يقبل عمرو ما قدم إليه المقوقس من ذهب، وعرض ذلك على عمر بن الخطاب فى المدينة ولم يرض عمر بذلك وكتب إليه يقول: «إن هذه أرض مباركة وأقم لموتى المسلمين فيها مقبرة، لأن فيها سيدنا عامر أو مغافر وفى السفح دفن خمسة رجال وحذافة بن عبد الله السهيمى وعبد الله بن حارث الزبيدى من زبيد وهى مدينة من مدن اليمن، كما دُفن فيها أبو نصر الغفارى وعامر بن عقبة الجهينى، كما دفن فيها كثير من الأنبياء قبل الطوفان، وكم من أبناء الأنبياء دفنوا فيها بعد الطوفان، ولا تكون المقبرة إلا للمسلمين».

هذا ما كتب عمر فى رسالته إلى عمرو، فما أعطى عمرو هذا المكان للمقوقس إنه الآن المقبرة الكبرى، وفيها يدفن عظماء مصر وسوف نكتب عن هذا بمشيئة الله فى موضعه.

وبناء على قول ابن الحكم ـ رحمه الله ـ إن جبل خليل الرحمن فى القدس وجبل طور سيناء وجبل ينبع وعرفات وإلى ساحل نهر مراد والرها وحلب وربح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحكم، ويذهب إلى هذا كذلك كعب الأحبار، ولكن بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين يقولون: «أرض حاسان هى مدينة بلبيس وما بعدها إلى مصر أرض غير مقدسة»؛ فافهم بقول صحيح. .

أما فى تواريخ القبط فمن يدفنون فى جبل المقطم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهذا ما تبينه أحاديث سيدنا إدريس ـ عليه السلام ـ ودانيال والعزير والنبى قفاح.

وإذا ما دخل مصر من اشتد به العلة ورقد فى ظل جبل المقطم سبعة أيام شفى بإذن الله، وعند طلوع الشمس من وراء هذا الجبل يمتد ظله إلى مصر القديمة الواقعة على ساحل النيل، وعلى حد قول وهب بن سفيان أن ما يقع عليه ظل هذا الجبل فى مصر يُعد أرضًا مقدسة، لأن فى هذه المنطقة دفن أنبياء وبنوهم وما أكثرهم، والحق أنها جديرة بأن تكون أرضًا مقدسة ففى داخل مصر وخارجها دفن من الصحابة ثلاثمائة وأربعون.

وحينما فتح عمرو بن العاص مصر دفن فى أركان مصر الأربعة سبعة آلاف شهيد من الصحابة الكرام ومجمل القول أنه حينما حكم عمرو بن العاص مصر عمرت إلى حد أن أصبحت عروس الدنيا وأم الدنيا.

وفى زمن إبراهيم - عليه السلام - أجرى طوطيس ماء النيل إلى بحر السويس وبعد ذلك سمع أبو المقوقس بظهور النبى ﷺ فَسَدَّ الخليج رغمًا عنه، فلم يجر النيل إلى السويس، لكن عمرو بن العاص جرف هذا الخليج مرة أخرى، فجرت فى النيل سفن تحمل الغلال إلى السويس ومنها مضت السفن إلى جدة وينبع، وغُنِمت مكة والمدينة، لأن البارى فتح من الجنة على وجه الأرض أربعة أبواب: باب فتح على ميناء جدة، والثانى على ولاية عسقلان، والثالث على ولاية غزة، والرابع على ولاية الإسكندرية وهى ولايات مصر، والسلام.

وبعد ذلك توفى عمر فى المدينة، وآلت الخلافة إلى عثمان، وفى عهده مات عمرو ابن العاص فى مصر، وجعل عثمان الحكم فى مصر لمحمد الأكبر ابن أبى بكر الصديق، ولكن مروان كاتب عثمان وهو غير مروان الحمار، ما إن بلغ محمد الأكبر مصر حتى وجّه من قبل عثمان، إلى أهل مصر رسالة، وبحيلة من مروان الكاتب وهو يكتب كتب عبارة: إذا جاء الأمير فاقبلوه. وجعل القاف والباء بلا نقط وختمه بخاتم عثمان، ثم جعل فوق الباء غير المنقوطة نقطتين فأصبحت «فاقتلوه»، وأرسل مروان الكاتب هذه الرسالة إلى مصر واقتضت حكمة الله أنه حينما وصلت هذه الرسالة وقعت فى يد محمد الأكبر فردها إلى المدينة المنورة، ولما أطلع أهلُ المدينة عثمان عليها قال: حاشا لله لا علم لى بهذا الخبر، وحجزه فى بَيْتِه وضرب أهل المدينة الحصار على بيت عثمان أربعين يومًا وبينما كان عثمان يتلو القرآن الكريم فى اليوم الحادى والأربعين قتلوه شهيدًا. وأوصاف المدينة المنورة مذكورة أعلاه.

ثم كانت الخلافة بعد عثمان لعلى بن أبى طالب، إلا أن دولته لم تكن وطيدة الأركان وظهرت فى مصر الفتنة والفساد إلى الغاية، فكانوا يولون كل يوم حاكمًا. وبقى حالها هكذا إلى زمان دولة العثمانيين.

* * *

الفصل العاشر
بيان من حكم مصر من أمة محمد إلى عهد آل عثمان
أى إلى عهد السلطان محمد الرابع،
ومن خرجوا إلى مصر ليكون لهم الملك فيها
وأسماء هؤلاء وألقابهم ومدة حكمهم

إن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو عرض ما ذكر مؤرخو الروم وأهل العلم، ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾[1]، وبناء على توجيه هذه الآية الكريمة، جعلت بداية الكلام فى ذكر أبى البشر آدم من لدن هبط على أديم هذه الأرض وانتشرت ذريته فيها، وقد استولى على الأرض أولاد آدم، ولكن وقع كثير من الخلاف فى مختلف الأمم وأسلاف الملوك؛ أما فيما يختص بأهل مصر وبلاد الفيوم فالطوائف المتباينة فى هذا البلد شاء الحى القيوم أن يخلقها إظهاراً لقدرته - تعالى - وذلك قبل أن يخلقها ومن أجل أن يجعل من مصر موئلاً لأمة حبيبه محمد ﷺ وأمر بذلك أنبياءه. وما أكثر ما حكمها من ملوك إلى أن دخلت فى حوزة عمر خليفة النبى ﷺ فى العام الحادى والعشرين للهجرة، وكان فتحها على يد عمرو بن العاص الذى امتد حكمه فيها (   )[2] عامًا، وعُمِرَ (   )[3] عامًا، وفى عهده كانت جزيرة مصر مساحتها ثمانية آلاف ميل كجزيرة الإنجليز وهى أرض الغرب، وفى هذه الجزيرة كان الحكم لثمانية عشر ملكًا ضربت باسمهم السِّكَّة[4]، وقد خشوا جانب عمرو فأطاعوه وانقادوا له، إذ إن كثيراً منهم أغاروا على مصر بَيْد أنهم ارتدوا عنها منهزمين وانتهى بهم الأمر إلى أن يؤدوا الخراج وبذلك قر قرارهم، إذ إن عمرو بن العاص كان قائدًا مغواراً باسلاً.

وبعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى أفضى الأمر إلى الخلفاء الراشدين وهم أمراء المؤمنين، وانتهت خلافتهم بالإمام الحسين - رضى الله عنه - وقد انصرف الإمام

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٦٤.
(٢ ، ٣) بياض بالأصل.
(٤) السِّكَّةُ: النُّقُود.

الحسين عن الخلافة عن رضى وطـواعية وتنازل عنها ليزيد بن معاويـة، وبما أنه لم يبايع يزيد وجه يزيد بآلاف من جنده إلى الكوفـة لمحاربة الحسين، وفى العام الحادى والستين للهجرة استشهد الإمـام الحسين واستقل يزيد بالشام ملكًا عليـها، أما أبوه معاوية فكان من كتاب الوحى ومن ذوى قربى الرسول ﷺ، وكان ملكًا على الشام فى خلافة على ـ كرم الله وجهه ـ.

بنو أميــة

إنهم أربعة عشر: أولهم معاوية، وأمه هند بنت عتبة[1] بن عبد شمس، وقبل زواج أبى سفـيان منها كـانت زوجة لأبى عمـرو حفص بن المغـيرة المخزومى، وقد ولـد لها معاوية. وكان مـعاوية فى الثامنة والخمسـين حين كانت له الخلافة، وتملك تـسعة عشر عامًا وثلاثة أشهر، وعاش ثمانية وستين عـامًا، وأفضت الخلافة من بعده إلى ولده يزيد بن معاوية وقد هلك عام ستين للهجرة وله من العمر تسعة وثلاثون عامًا وثلاثة أشهر، وقبره فى دمشق.

وفى رواية: أن تيمور نبش قبره ووجد جثته سلـيمة غضة فأضرم النار فيها. وكانت الخلافـة بعـد يزيد لولده معاوية، ثم خلفه مروان، ثم عبد الملك، وبعده الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان، ثم عمر بن عبد العـزيز، ثم يزيد، ثم هشام، والوليد، وإبراهيم، ثم مروان الحمار، هؤلاء هم جميع خلفاء بنى أمية.

ولقد حارب مروان الحمار عـلى شاطئ نهر الفرات ولحقت به الهـزيمة، فانطلق إلى مصر هاربًا وفى ديار مصر على الشاطئ الغربى لـنهر النيل فى قرية أبو صير قبالة مصر القديمة قطع عنقه عامر بن الجرجانـى وعبد الله بن مازن وأُرْسلت رأسه إلى أبى مسـلم، وبذلك انقرضت دولة بنى أمية.

ودامت دولتهم إحدى وتـسعين سنة وقد مـلكوا عراق العرب وعراق العجم، ومصر وبلاد المغرب، ومائـة بلد، وكان أبو أيوب الأنصارى قائد جـيشهم إلى القسطنـطينية، وامتلكوا نصف القسطنطينية، وقد كَتَبْتُ تفصيلاً عن ضريحه الشريف، وانتقلت الخلافة من بعد إلى بنى العباس، وتربعوا على العرش (   )[2] عامًا.

(١) فى الأصل: عينية، والصواب ما أثبتناه.

(٢) بياض فى الأصـل.

أوصاف دولة بنى العباس

إنهم سبعة عشر: أولهم المستنصر بالله الذى كان له ملك مصر، وكان الملك فى بغداد لعشرين من العباسيين، وثلاثون منهم سكنوا مصر، وانقرضوا بالمعتصم، وأولهم عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ومدة خلافتهم جميعًا خمسمائة وأربع وأربعين سنة، أما المنقرضون فى مصر من آل العباس فانقرضوا بالمتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب، وفى عهد السلطان قلاوون دامت له الخلافة فى مصر إحدى وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام، وفى عام سبعمائة وعشرة للهجرة لم يكن حكمه نافذًا، وقد عدم حياءه، ولم يأت خليفة من العباسيين يشابهه فى سفاهته وانتهى أمره بأن قتلته أخته.

ولقد بلغ هولاكو بغداد بإيعاز من نصير الدين الطوسى، وبعد أن استشهد المعتصم بالله كان المستنصر هذا فى بادية العرب فى صحراء بغداد، ولم يستطع بلوغ بغداد خشية التتار، فهام على وجهه شريدًا، ولكن دعاه الظاهر بيبرس إلى مصر، وفى عام ستمائة وتسعة وخمسين استقل بمنصب الخلافة فى مصر، وبايعه الظاهر بيبرس وأعيان مصر قاطبة، وأصبح صاحب السكة والخطبة، ومضى إلى دمشق بجيش عظيم تحت إمرته، وحينما غادر دمشق إلى بغداد أسند حكم مصر إلى الظاهر بيبرس، وبلغ بغداد فابتهج العباسيون بمقدمه وأقام الحاكم بأمر الله العباسى مرة ثانية فى قلعة الكبش فى مصر خوفًا من بطش هولاكو خان. وعاش إحدى وأربعين سنة فى مصر وله الخلافة فيها، وفى عام سبعمائة وتسعين ولد فى مصر ولده المستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله، وسكن قلعة الكبش التى سكنها أبوه، وتربع على سرير الخلافة، إلا أن مقاليد الحكم كانت فى يد الظاهر بيبرس، وجرى قضاء الله وحكمته أن تقع الجفوة بين المستكفى بالله بن الحاكم بأمر الله والظاهر بيبرس بسبب وقيعة؛ فَرَحلّه مع أسرته إلى مدينة قوص فى الصعيد الأعلى، وهناك أدركته الوفاة فى عام سبعمائة وسبعة وثلاثين للهجرة.

ولما كان الحاكم بأمر الله على قيد الحياة جعل الخلافة فى ابنه محمد ولقبه المستمسك بالله، إلا أن ابنه هذا مات قبله؛ فأوصى الحاكم بالخلافة لابنه الأصغر أحمد المستكفى

بالله، إلا أن الملك الصالـح لم يعمل بوصية الحاكم بأمر الله ورأى أن ابـن أخيه إبراهيم هو بالخلافة أجدر، ولقبه الواثق بالله، إلا أنـه كان صاحب لهو ولذلك نُفِيَ إلى قوص وأصبـح ابنه محـمد خليـفة، وكان كذلـك سفيهًـا فنُفى إلـى قوص، وهؤلاء الخلـفاء مدفونون فى قوص.

ومن بعدأصبحت الخلافة فى مصر ثلاث عشرة سـنة لأحمد المستكفى بالله سليمان، وفى عهد الملك الصالـح بن الملك الناصر مات بالطاعون عام سبعـمائة وثلاثة وخمسين وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة، ثم كانت الخلافة من بعده فى مصر للمتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبى بكر.

وفى عام سبعمائة وثمانين كانت الخلافة لبرقوق من الجراكسة وطالب بالسلطنة فخلع المتوكل من الخلافة، فسجنه فى قلعة الجـبل وأقام فى سجنه ستة أعوام ثم أطلق برقوق سراحه وجعله خليفة.

وفى عام ثمانمائة وسبعة وتسعين أرسل السـلطان العثمانى يلدريم با يزيد رسولاً إلى الخليفة المتوكل هذا، وطلب منه الإذن بالبيعـة تبركًا، فدعى الخليفة الله للسلطان يلدريم بايزيـد قائلاً: بارك الله فـى السلطان يـلدريم، وأهدى إليه سـجادة مع صحـيفة. ودام سجن هذا الخليفة وخلافته وعزله خمسة وأربعين عامًا وتوفى فى عهد السلطان فرج بن برقوق ودفن إلى جوار السيدة نفيسة. إلا أن أحوال مصر والشام اختلت فى عهد الخليفة المتوكل هذا.

وفى عام ثمانمائة وسـتة عشر خَرَبَ تيمور خان الشام، وانخفض مـنسوب النيل ولم يكن له فيضان، فأصـاب الناس قحطٌ عظيم، فثارت الفتنة ووقـع الفساد وآلت الخلافة بعد ذلـك إلى الواثق بالله عـمر بن إبراهيـم بن المستمـسك بالله ابن الحاكـم بأمر الله، ووافاه الأجل عام سـبعمائة وثمانـية وثمانين للهـجرة، وهو مدفون فى ضريـح السيدة نفيـسة، ودامت الخلافة مـن بعده للمقتصد بالله داود ابن المتوكل عـلى الله محمد اثنتين وثلاثين سنة.

وفى عام ثمانمائة وخـمسة وأربعين توفاه الله وشهد جنازته السلـطان جيقماق، ودفن بجـوار السـيدة نفيسـة، وكانت الخلافة من بعده للمستكفى بالله سليمان، والمتوكل على

الله محمد، ولكنه ظل خليفة تسعة أشهر ليس إلا، وشهد جنازته السلطان جيقماق وأخوه المقتصد بالله مدفون فى ضريح السيدة نفيسة، وهو كذلك مدفون فى هذا الضريح، وأصبح الخليفة بعده القائم بأمر الله حمزة ابن المتوكل على الله محمد، وبعد خمسة أعوام غضب عليه سلطان مصر إينال فنفاه إلى الإسكندرية، وبها توفى سنة ثمانمائة وثلاث وستين، وأخوه المستعين بالله مدفون بجواره فى الإسكندرية، ودامت الخلافة للمستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد خمسة وثلاثين عامًا.

وفى عام ثمانمائة وأربعة وثمانين شهد السلطان قايتباى جنازته، ودفن بجوار السيدة نفيسة فى مقبرة سائر الخلفاء العباسيين، ودامت الخلافة للمتوكل على الله عبد العزيز ابن يعقوب بن المتوكل على الله تسعة عشر عامًا، وتوفى عام تسعمائة وثلاثة فى عهد السلطان الناصر محمد قايتباى ودفن بجوار السيدة نفيسة.

ولقد عاصر المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب فاتح مصر ساكن الجنان السلطان سليم، ومضى مع السلطان سليم إلى اسطنبول وأعزه كثيرًا وأكرمه، وتوفى السلطان سليم، وبعده أكرمه وأجلَّهُ السلطان سليمان إلى أبعد غاية، وفى أول خلافته تقلد السيف منه فى جامع أبى أيوب الأنصارى وتلقى منه البيعة وجلس سليمان على العرش وذلك لأنه ـ أى الخليفة المتوكل ـ من خلفاء العباسيين القدامى.

ولحكمة الله حينما بلغ المتوكل نعى أبيه المستمسك قدم مصر معززًا مكرمًا بإذن من السلطان سليمان، وخلف أباه فى الخلافة. وكانت خلافته ثلاثة وعشرين عامًا، وتوفى عام تسعمائة وثمانية فى عهد ولاية داود باشا ودفن بجوار السيدة نفيسة، وبوفاته انقرض خلفاء بنى العباس فى مصر وهم سبعة عشر خليفة ودامت خلافتهم ستمائة واثنين وثلاثين عامًا.

وخلفاء بنى العباس فى مصر كانت لهم مرتبة شيخ الشيوخ، ولكن الحل والعقد والضبط والربط كان فى أيدى الجراكسة، والمنح والمنع وتدبير الأمور فى يد الجراكسة منهم وكانوا يبايعون وحسب. ويُسمى الواحد منهم خليفة رسول الله ﷺ وبعدهم كانت:

الدولة الطاهرية

وهم فى خراسان خمسة:

أولهم طلحة الخليفة، والخليفة عبد الله، والخليفة على، والخليفة محمد، ومدة حكمهم ثمانية وتسعون عامًا، لم يملكوا مصر وجاءت بعدهم:

الدولة الصفارية

وكان فى حوزتهم ديار خراسان وبلخ والعراق وأصفهان، وهم تسعة، إنهم عبارون لهم الشهرة بالنجدة والبسالة، وحكموا اثنتين وخمسين سنة، لم يملكوا مصر، وبعدهم قامت:

الدولة السامانية

وهم تسعة أولهم إسماعيل السامانى، ثم أحمد، ثم نصر، ثم نوح ثم عبد الملك، ثم المنصور، ثم نوح، ثم منصور، ثم عبد الملك، وبدلاً من سلطان وخليفة يقال لهم سامان والجمع سامانيان (أى السامانيون)، وحكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان والصين، وجاءت بعدهم:

دولة بنى آل زياد

وكان لهم ممالك خراسان، وجرجان، وطبرستان، والعراق، حتى إن أنو شيروان عزم على أن ينطلق من بغداد إلى مملكتهم فى اليمن، ولكن تبابعة اليمن يدينون لهم بالطاعة، إلا أنه انثنى عن عزمه، وهم ستة ويقول المؤرخون إنهم العدول: العادل مرداونج، والعادل شمكين والعادل بهسان، والعادل قابوس، والعادل منوجهر، والعادل أنو شيروان، دامت حكومتهم (   )[1] عامًا وقيل إنهم أقاموا العدل فى الناس مثل أنو شيروان العادل، وجاءوا فى عهد الكفرة، وكان عدلهم كعدل أنو شيروان، هذا ما يذكره الناس، إلا أننا لم نقع عليه فى كتب التاريخ وقد عُمر أنو شيروان هذا طويلاً، وجاءت بعدهم:

(١) بياض بالأصل.

الدولة البويهية

وهم سبعة عشر، دام الحكم لهم (   )[1] عامًا، وجاءت بعدهم:

الدولة السبكتكية

(دولة آل سبكتكين)

وهم أربعة عشر، حكموا مائة وستة وسبعين عامًا، وجاءت بعدهم دولة:

دولة آل غوره

وهم خمسة، دام الحكم لدولتهم (   )[2] عامًا، ثم قامت:

الدولة الخوارزمية

وهم تسعة حكموا مائة وستة وثلاثين عامًا، حكموا ممالك (. . . . .)[3] ثم قامت بعدهم:

الدولة السلجوقية

وهم ثلاث طبقات: الطبقة الأولى منهم: ملكت إيران وما وراء النهر، وهم أربعة عشر، ودام ملكهم (   )[4] سنة.

الطبقة الثانية: (دولة السلاجقة الثانية): وهم الذين ملكوا كرمان وعددهم أحد عشر، حكموا مائة وتسعة وخمسين عامًا.

دولة سلاجقة الروم

وهؤلاء أربعة عشر، جاءوا أول أمرهم من بلاد ما وراء النهر، وقدموا إلى ديار اليونانيين أى قره مان، وقونيه وسيواص ـ فملكوها، وهم كيانيو الروم لأن أسماءهم كيقباد وكيخسرو وكيارسلان، وهم سبب رفعة آل عثمان، وسنوضح ذلك فى موضعه إن شاء الله، وجاءت بعدهم:

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة تاج الدولة

وهـم ستـة، ولهـم ألقـاب الملوك آل تاجيان، ملكوا الشام والعراق ودامـت دولتهم ( )[1] عامًا. ثم قامت بعدها:

دولة الأتابكة

وهم ستة، حكموا فى بلاد الشام ودمشق، حكموا ( )[2] عامًا، وجاءت بعدهم:

دولة آل عمرية

بعد مرور مائتى عام بعد الهجرة النبوية كان ظهورهم، فتحوا الموصل وجزيرة العمر وآمد وملاطيا، وأقام الأمير عمر ملاطيا حاضرة لدولتهم؛ وهم ثلاثة: أولهم الأمير زياد ثم ابنه الأمير لقمان، ثم ابنه الأمير عمر فاتح ملاطيا. ثم قامت:

دولة الأتابكة الكبرى

وهم ستة: أولهم نور الدين الشهيد، وبينمـا كان الكفار يدبرون لنبش قبر النبى ﷺ كان نور الدين هـذا سلطانًا، وقد رأى النبـى ﷺ فى المنام يقول له: هلـمّ يا نور الدين وذُدْ عن حُرمة قبر رسول الله، واقتل الكفار. فأحـاط نور الدين الشهيد الروضة المطهرة بصناديق مملوءة بالحديد والنحاس والرَّصاص، ونـور الدين الشهيد بن آق سُنْقُر البُرْسُقى أول مَنْ أقام قلعة للمدينة المنورة.

وقد ملـكوا الشام والـعراق وأَذَرَبيجان والـبصرة والحسـا وسيس وترسـوس وأطنه. وانقسم الأتابكيون ست فرق، كل فرقة منها تتألف من ستة عشر، وأولهم:

الصلاحيون

الذين لحقوا بخدمة نور الدين الشهيد، ولقد استولى فرنجة إسبانيا على دمياط ورشيد فى مصر، وأغاروا وسـلبوا ونَهَبُوا، فاستنجـد المصريون بنور الدين الشـهيد، وأمَّر نور الدين الشهيد الأمـير أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الديـن يوسف بن أيوب على جيش قوامه مائة ألف مقاتل استخلص عـسقلان ويافا ورشيد ودمياط من أيدى الكفار،

(١، ٢) بياض بالأصل.

وقد أعجب أهل مصر كل الإعجاب بنجدة وشجاعة صلاح الدين فحكم مصر، ولم يضرب السكة ولا قرأ الخطبة باسم سيده نور الدين، وبينما كان صلاح الدين يأمر بأن تقرأ الخطبة باسم الخليفة المتقى فى بغداد، مَر ذلك بمسمع نور الدين الشهيد فى دمشق فأخذه شديد الأسى، فاستدعى يوسف صلاح الدين هذا إلى دمشق، إلا أن صلاح الدين خاف الذهاب إلى دمشق فانتحل المعاذير، وفى عام خمسمائة واثنين وسبعين شيّد القلعة الداخلية فى مصر بمال الغزو وأحاط القاهرة من جوانبها الأربعة بسور طوله تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع وهو إلى الآن بادٍ للعيان، وبعد ذلك توفى نور الدين فى دمشق واستقل صلاح الدين يوسف هذا ملكا بملك على مصر كما ملك دمشق وحلب، وجعل فى مصر من رعاياه سبعة عشر ملكًا، وفى زمان خلافة صلاح الدين وفى عام خمسمائة واثنين وستين شن حربًا شعواء على الفرنجة فى مرج العيون، ولها أخبار فى جميع التواريخ، وأقام مدرسة عظيمة فى مصر بالإمام الشافعى بأموال الغزو.

وطبقة أخرى من الأتابكة هى:

دولة آل أيوب بن شاد الكردى

يقول بعض المؤرخين: إن صلاح الدين من الأيوبيين، وهم سبعة: منهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى حاصر قلعة عكا أربعة وأربعين يومًا، وفتحها بحرب ضروس، وحتى لا يستولى الكفار على عكة هدم قلعة عكا من أساسها، وسوف نكتب عنها من بعد، وبعده دفن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين فى جامع صلاح الدين، وهو من آل أيوب، وبعده كانت الخلافة للملك الكامل، ثم أصبح الملك الأشرف خليفة، وفى زمنه استولى الفرنجة على جميع القلاع التى على ساحل البحر وسلم القدس للفرنجة صلحًا، وكان ذلك عام ستمائة وخمسة وثلاثين، فكان ذلك افتضاحًا، ومات من ألم فى رأسه وهو فى الستين من سِنيّه، وجاء من بعده الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى دفن فى مصر. وبعده آل الأمر إلى الملكة شجرة الدر والمماليك البحرية، وهم ثمانية وثلاثون، دامت دولتهم مائة وستة وثلاثين عامًا.

وجاء من بعدهم:

دولة الجراكسة

إن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ولى نعمة الجراكسة والأباظية، والجراكسة يقال لهم المماليك البرجية، وبعده الملك الكامل محمد كامل، الذى توفى فى المنصورة وله من العمر ستون عامًا، وحُمل نعشهُ من المنصورة ليدفن فى جامعه فى القاهرة، وفى مصر بين القصرين شيد أربع مدارس للمذاهب الأربعة، كما شيد قلعة فى جزيرة الروضة وأثرها ما زال باقيًا، وحينما توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب والد الملك المعظم توران شاه فى المنصورة، كان حسن كيقباد واليًا على كردستان، وأمه شجرة الدر خاتون (وهى التى كست الكعبة حريرًا أسود) وهى التى كتمت سر وفاة الملك الصالح فى المنصورة ثلاثة أشهر. وأرسلت إلى حسن كيقباد بن الملك المعظم رسولاً فى عجلة وخفية، ودخل الملك المعظم مصر بعد ثلاثة أشهر وتربع على سرير الخلافة، وفى عام ستمائة وثمانية وأربعين أعمل القتل فى جميع الفرنجة الذين استولوا على دمياط، وفتحها وقد تمرد على هذا الملك عبيده وقتلوه شهيدًا. فانتقلت الخلافة إلى شجرة الدر والدته، فأمرت بأن تكسى الكعبة حريرًا أسود وذلك خير عظيم لم يتيسر للملوك، وأصبح زوجها أى بك (أيبك) وتلقب بالمعز، وكانت مصر بعد ذلك لدولة:

دولة التركمانيين (آل كمانيان)[(١)]

وعددهم ستة: وهم كذلك من طوائف الأتابكة، ثم غضب شجرة الدر على زوجها (أيبك) التركمانى لأنه كان سببًا فى قتل ابنها معظم شاه، وتزوج أيبك من ابنة أمير الموصل، فذلت شجرة الدر وحقرت وسقطت منزلتها، وبينما كان أيبك يغتسل فى الحمام تحينت شجرة الدر الفرصة فأمرت جواريها أن يحملن عليه بالسلاح، وحينما اقتحمت الجوارى الحمام يحملن أسلحتهن لم يكن أيبك غافلاً، وكانت عورته بادية فوقف أمام الجوارى وقفة الأسد، وفى تلك اللحظة كانت شجرة الدر تنظر من ثقب فى قبة الحمام، وشاء الله أن تنهدم القبة وتسقط منها بجانب أيبك التركمانى، وقد تهشمت عظامها، ولما رأى ذلك أيبك ترك الجوارى وقتل شجرة الدر إلا أن الجوارى قتلنه، وهما

(١) بياض بالأصل.

الآن دفينان فى قبر فـى «زقاق الخلالين» بالقرب من السيدة نفيـسة، وكذلك ولد شجرة الدر الشهيد معظم شاه مدفون فيها.

وانقرضت سلالة الأيوبيين بمعظم شاه هذا، وانتقـلت سلطنتهم إلى مماليكهم، ولكن فى تلك الأونة كان لأيبـك التركمانى ولد من ابنة أمير الموصل فـى الخامسة من عمره، وقيل إن لقبه المنصور، مـلَكَ ثمانية أشهر، وفى عهد العباسيين اسـتولى هولاكو التترى على بغداد واعتقلوا المُستعصم خليفة العـباسيين، ووضعـوا السيف فى سائر أبناء الخلفاء (   )[1] وأرسل إلى مصر، وفى عام ستمائة وسبـعة وثمانين فتح بلاد النوبة، وفـى عام ستمائـة وثمانية وثمانين استولى على طرابلس الشام من الفرنجة وفى شهر ذى القعدة من آخـر عـــام ستمائة وتسعة وثمانين أدركته الوفاة؛ ودامت سـلطنته أحد عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا، وخلفه ابـنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، واستولى على قلـعة عكا من الفـرنجة، وفى المرة الثالثـة التى قدم فيهـا الملك الناصر مـحمد بن قلاوون أصبح السـلطان ثانية وذلك فى عام سـبعمائة وثلاثة وثلاثين، وفـى عهده عُثر على الحاكم بأمر الله فى جبل جوشيد قتيلاً، ومن الأتابكة طائفة:

دولة الأكراد

ومن الأتابكة طائفة انشعبت عنهم دولة الأكراد وهم سبعة، وفى مصر كانت دولتهم غير وطيدة الأركان، وكانت مدة حكمهم (   )[2] عامًا، وكان أعظمهم السلطان محمد أكراد الذى أقام قبة على ضريح الإمام الشافعى وكساها بالرصاص الأزرق، وهم مدفونون مع أمهم عند قدم الإمام الشافعى.

وجاءت من بعدهم:

الدولة القره خاطئية

وهـم ثمانيـة ومـن الأتابكة، وحكومتهـم فـى ولايـة كرمـان، ودام الحكم لدولتهم

(١، ٢) بياض بالأصل.

(   )[1] عامًا، وجاءت من بعدهم:

دولة الأيوبيين

وهؤلاء حكموا اليمن، وهم سبعة، وقد عمروا أرض اليمن وأسلافهم مدفونون فى مدينة مزيب باليمن، وكانت مدة سلطنتهم (   )[2] عامًا، ثم جاءت من بعدهم:

دولة آل ملاح

ثمانية وفى قول آخر إنهم اثنا عشر، حكموا فى مدينة قوهستان، دام حكمهم مائة واثنين وثمانين عامًا، ومن بعدهم:

دولة بنى أرتق

حكمت حلب وملاطيا وديار بكر، وهم خمسة وعشرون، وكانت دولتهم قوية عظيمة، ومن ألقابهم رجل الكلام، وكانت مدة خلافتهم (   )[3] عامًا، و:

دولة آل مروان

حكمت دولتهم ديار بكر والموصل والجزيرة، وهم سبعة حكموا (   )[4] عامًا، و:

دولة بنى مرداس الكلابى

وحكمت دولتهم حلب وعينتاب ومرعش، وهم سبعة، ويسمون دولتهم دولة الأكراد، والآن الأكراد منهم، حكموا (   )[5] عامًا.

وبعدهم جاءت:

دولة آل بنى أسد

وحكمت دولتهم الحلة وتكريت وشهرزور، وهم سبعة وفى كردستان يسمونهم آل شيران، وألقاب سلاطينهم يزدن شير عبد آل شير، ضياء الدين، دام ملكهم (   )[6] عامًا، و:

دولة آل بنى حمدان

ملكوا موصل الحرير واردلان ورومية ودوم دمى، ودمبولى، وهم ستة، دام ملكهم

(١ : ٦) بياض بالأصل.

(   )[٢] عامًا.

دولة آل بنى عقيل بن أبى طالب

وهو أخو الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -، وحكموا الموصل والحلة وتكريت وهم عشرة، ومدت خلافتهم (   )[٣] عامًا، وبعد ذلك زحفوا إلى مصر إلا أن الأمويين سدوا عليهم الطريق، وحاربوهم حربًا شعواء، ولحقت بهم الهزيمة.

دولة التركمانيين

وهم خمسة كل منهم يلقب بالأمير، أولهم الأمير كربُوغا، وفى أنطاكية حارب الفرنجة ودارت عليه الدائرة، وذلك فى عام أربعمائة وخمسة وتسعين، ونجى بنفسه ومضى إلى أصفهان ودفن خارج مدينة (خوى)، حكموا (   )[٤] عامًا.

وجاءت بعدهم:

دولة الدأنِشْمَنْدِيين

ملكوا بلاد سيواس ونيكسار وبافرة وأماسية وقيصرية، وهم سبعة ويسمى الواحد منهم الملك، أولهم الملك غازى الذى دفن فى قلعة نيكسار وهم أول من حاربوا الروم، وحكموا (   )[٥] عامًا، وجاء بعدهم:

دولة آل قره يوسفيين. أى: (دولة الشياه السوداء)

يسمونهم القره قيونليين، وكانوا ملوكًا عظامًا، وهم عشرة، وكانت لهم السيادة على ديار بكر وأذربيجان والعراق وفارس، تلقب الواحد منهم بالبيك. ومنهم أوزون حسن، ودان بالطاعة لتيمور، وكان يمشى بجانب ركاب تيمور، وبعد موت تيمور هزم حسن هذا أولاده واستولى على الملك، وأصبح ملكًا عظيم الشأن، وأقام قلعة فى أرض الروم سميت بقلعة حسن، وبعد ذلك حارب السلطان أبا الفتح محمد خان الغازى فى صحراء ترجان حربًا حامية الوطيس، وتعلق معظم جند حسن بأذيال الفرار أمام سيوف جند محمد، وبلغ أوزون حسن تبريز وفيها أدركه الموت كمدًا، وهو مدفون فى ساحة

(٢ : ٥) بياض بالأصل.

مسجده، ومدت دولتهم (   )[1] عامًا، وجاءت بعدهم:

دولة آل آق قيونليين، أي: (دولة الشياه البيضاء)

وهؤلاء ملكوا كذلك ديار بكر وأذربيجان والعراق، إنهم تسعة ويسمون الواحد منهم (باى)، ولأنهم كانوا ملوكًا مترفين إلى أبعد غاية لقب الواحد منهم (باى)، ومدة خلافتهم (   ) [2] عامًا وكانوا طوال حكمهم ملوكًا صالحين عابدين زاهدين متقين؛ وسلالة من آل عثمان تنتهى إليهم، قدموا من ديار ماهان، وفى تاريخ محمد چلبى الأدرنوى أن أوزون حسن منهم، وقال بعضهم إنه من دولة الشاة السوداء، وأنا سميت الاثنين قيون، أى: الشاة، ومن بعدهم:

دولة شاه شاهان إيران توران

وقد أقام دولتهم فى أردبيل الشيخ صفى الأردبيلى، وأول أمرهم كانوا خلفاء فى بلاد العجم وكانت لهم الحكومة والقطبية[3] الكبرى، وبعده الشيخ جنيد وكان هو الآخر قطب أقطاب الآفاق على الإطلاق، وابنه الشيخ إبراهيم خان ابن الشيخ خواجه على بن الشيخ حيدر موسى ابن الشيخ صفى الدين أبو إسحاق الأردبيلى الذى كان أول ملوكهم، وهم إلى عهد الشاه عباس خمسة، ويطلقون عليهم من ألقاب السلاطين لقب شاه، وهم إلى الآن[4] يملكون أذربيجان وإيران، ويلقبون فى اللغة الفارسية خدا وندكار، شاه شاهان، وشه، وشاه، وشاهنشاه، وخسرو، وشهريار، وسرور، وتاجوار، وصاحب قران، وشاه إيران توران، وجاءت بعدهم:

دولة الدريندييين

وهم تسعة ويلقبونهم بالملوك المالكون، وكان تحت حكمهم كنجه وسيواس شماقى

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) القطب هو: الواحد الذى هو موضع نظر الله - تعالى - من العالم فى كل زمان، وهو على قلب إسرافيل - عليه السلام -. والقطبية الكبرى هى مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن نبوة محمد ﷺ فلا يكون إلا لورثته؛ لاختصاصه - عليه السلام - بالأكملية. معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشانى ص١٦٢. تحقيق د. عبد العال شاهين. القاهرة، دار المنار ١٤١٣هـ.

(٤) يعنى إلى زمن المصنف.

وباكـو وباب الأبواب، وهم سـنيون متـعصّبون وهـم من نسل أنـو شيروان، وظلـموا وانقرضت دولتهم، ويحكم أملاكهم تارة آل عثمان وتارة شاه جهان، وبعدهم جاءت:

دولة الشام خاليين

وهم كذلك مـن نسل أنو شيروان وهـم سنيون متعـصبون، ويسمون مـلوكهم الآن (شامخـال) أو شامقال وهم فـرقة من الأوغوز، ولهـم الآن ثمانين ألف جـندى، وهم يذكرون آل عثمان فى الخطبة، ومنهم (الأكار) الذين يسكنون جانب شمال جبال البُرُز، ولهـم هنـاك سبع إمـارات: إمارات قـره بوذاق ومـدنهم طَـرْخُو، وقـووز، واندرى، وطابيسران وفى ناحيتهم الشمالية دميرقبو على ساحل بحر الخزر، وفى ناحيتهم الشرقية كنجة وشروان شماقى، وفى ناحيتهم الجنوبيـة (جهة القبلة) جورجيا، لا تزال سلطنتهم قائمة للآن ومـنهم تمير خان وحارب (أيد الله دولـته) العجم لأن أقاليم ولايـتهم جبال صعبة المرتقى وهم غزاة بواسل، ومن بعدهم:

دولة الأوزبكيين

وألقابهم: «سلطـان بلخ وبُخارى وخراسان»، وقد دخلوا فى الديـن الحنيف برسالة من الـنبى ﷺ، وقـد ظهر جـميع أولـياء الله من خـراسان، إنهـم الآن قوم مؤمـنون موحدون، لم يملك أحد منهم مصر، لأنهم يـقعون فى الإقليم السادس والسابع، وكل أيامهم حروب مع العجم والهند، وبعدهم:

دولة الجنكيزيين

وفى تـواريخ ميرخـان أن جنكيـز خان تربع عـلى العـرش عام خمســمائة وتسـعة وسبعين، إنهم اثنتا عـشرة فرقة من الملوك، وكل طائفة لهم خمسة عـشر ملكًا وملكة، وفى القرم وداغستان طائفتين هما قومى وموغول بوفل وكل طائفة عشروات يملكون مائة ألف جندى، كـما أن أقوام القزاق والأوزبك ونوغـان وهشوك وموسكو والـصين وختا وختن وفغفـور ولبقه وبادران الهـند والسند والعجـم والأتراك التركمان وآل عـثمان من التتار المتفرقـين. وقول تاريخ تحفة الدول تحفة تاريخية حقًـا، وعلى حد قوله إن آدم له صفة التـتار، فابتداء أمره حين هبـط من السـماء كان أول تتـارى ازدانت به الأرض، ثم

ظهرت العرب بعد إسماعيل وإسماعيل أول من نطق بلسان العرب، وفى قول إن زوجة شيث جاءت من الجنة وبما أنها كانت حورية كانت تتكلم بلسان الجنة العربى، وكان أبناء آدم يتكلمون العبرية حتى شاع اللسان العبرى لدى إسماعيل وبناء على ذلك لا وجود لكثير من الأقوام غير العرب والتتار.

ولى كثير من سياحاتى فى القرم وداغستان وقالمق ونوغاى وهشدك ودشت وقپجاق (أى صحراء القپجاق) ولم أر قومًا أكثر من التتار وهم موحدون عدا القالموق.

دولة أبناء جنكيز

ملوك إسلام يقطنون سبعمائة وخمسين ميلاً فى جزيرة القرم، ولهم من الجند مائة ألف ومن الخيل مئات أضعاف هذا العدد، ولم تكن لهم عمائر عظيمة أما مالهم فهو الخيل والإبل والغنم، ولقبهم الخان، ووصفه الكيراى، مثال ذلك بهادر كيراى إسلام وغازى كيراى خان، وفى عهد طوخطمش خان كان الاستيلاء على القرم من كفار جنَويز، والوزير من أقارب اكان أو من إخوته ويسمونه قلغا سلطان، وهم فى مدينة آق مسجد، ويسمون الوزير الأيسر نور الدين سلطان، ويسمون وزيره الأوسط أغا، ويسمون رؤساء عشائرهم شيرين ومنصور وسجوت واولان، واولان هو من ولد لبناتهم، ويسمون طوائفهم العسكرية قِرَاجى، ويسمون قوم القِرم بارداق، وبعد ذلك فتح السلطان با يزيد من آل عثمان اق كرمان وقلعة كلى، وقدم إلى القرم فى البداية منكلى كيراى خان، ودان بالطاعة لآل عثمان، ووفّى بعهده، وقدم العون لآل عثمان، وضرب سكته باسمهم، وقرأت الخطبة أول الأمر باسم آل عثمان، ثم باسم كيراى خان، وهم إلى عهد السلطان محمد خان الرابع عشرون خانًا ولقد رأيت منهم كرمًا وإحسانًا أدام الله دولتهم.

دولة الجنكيزيين فى بلاد ما وراء النهر

وهم كذلك من ذرية الأوزبك، وهم اثنا عشر ملكًا، أدام الله دولتهم إلى الأبد،

وبينما كان هشام بن عبد الملك خليفة فى دمشق أرسل إليهم رسالة فأسلموا، وسلطنتهم الآن قائمة.

دولة الطبقة الثالثة للجنكيزيين

ملكوا إيران وتوران وصحراء قبجاق، والصين والختَا والخُتَن، وكانوا ثمانية عشر، وبإيعاز من نصير الدين الطوسى وخيانة الوزير العلقمى أغار هولاكو خان التتارى بمائة ألف مقاتل على بغداد عشر مرات، وقتل المستعصم بالله العباسى، وبينما كان أحد العباسيين فى البريّة فر إلى مصر، وفيها أصبح خليفة كشيخ، وكان هولاكو خان يملك جيشًا عظيمًا. وهم ثمانية عشر، ودامت دولتهم أربعمائة وخمسة عشر عامًا، ومن ألقابهم كذلك (خان).

دولة الطبقة الرابعة للجنكيزيين

آل تيمور الكوركانى (صاحب خروج جهان)

فتح تيمور خان إيران وتوران وصحراء قبجاق والهند والسند ومولتان والصين والماضين وخَتَا وخُتَن وموسكو والبلغار والقرم وداغستان وجورجيا والعراق العربى والعجمى وبلاد الروم والشام. وقد سار فى ركابه أربعون ملكًا وكانوا تحت حكمه.

ولقد أرسل تيمور رسالة إلى يلدريم با يزيد ليكون فى طاعته، فطرد يلدريم با يزيد رسول تيمور، فتوجه إليه تيمور بجيش كموج البحر، ووقعت بينهما حرب شعواء، وبسوء تدبير وزراء يلدريم با يزيد دارت الدائرة عليه فتقهقر با يزيد أمام جيش التتار، وسقط تحت فرسه، وتدحرج على الأرض، وفى التو تجمهر جند التتار على رأس با يزيد فحارب مترجلاً ساعة وفى النهاية مضى إلى الصحراء ومُثِّل فى حضرة تيمور، وكلمّه فى جرأة ودار الحوار بينهما وكان يلدريم مستعليًا على الدوام، وشاء الله أن يصاب بالحمى المحرقة ويموت محمومًا، وحملت جثته إلى بروسة، ودفن فى ساحة مسجده، ثم انطلق محمد بن با يزيد يلدريم إلى تيمور انتقامًا منه لأبيه وتعقبه، وفى سهل يسمى طَاشَق لحق تيمور وسلخت جلود جنود التتار، وبما أنه مكث فى هذا المكان سموه (طاشق اووسى) أى: سهل الخصية، وهذا اسم خارج عن حدود الأدب، ثم تعلق تيمور بأذيال الفرار، واتخذ من قره باغ مشتى له.

وقبل ذلك فى الربيع كان قد فتح دمشق واستولى على ألف خزانة مال من خزائن مصر، وبلغ عِزّةَ الهاشم، واستراح هو وجنوده فى ذلك المكان عدة أيام، ثم غادره وبلغ صحراء قطية وأم الحسن ولما بلغ هذا الموضع كان الإعياء قد بلغ مبلغه من عسكره وخيله، وجاء السلطان برقوق سلطان مصر من ناحية ومير فرج من ناحية أخرى من كُرْتَباى وأنفذوا إليهم الجنود الشجعان كأنهم ذئاب جائعة، وشد جند مصر عليهم شدة فنصبت عظامهم ظاهرة فى الصحراء إلى الآن. فما ملك تيمور مصر وفرّ منهزمًا ودفن فى مدينة (   )[1] ومدة حكمه (   )[2]. وبعدهم:

دولة الطبقة الخامسة لآل جنكيز أى أولاد تيمور

استولوا على إيران وتوران وحمدان ونَخْشِوَان وأصفهان وكيلان وأذربيجان، وأبناء تيمور واحد وأربعون ملكًا، وكل منهم كان ملكًا على بلد، وهُم ست طوائف. ولكن دبت الفرقة بينهم فتقاتلوا، وكان السلطان اوزون حسن يمشى فى ركاب تيمور، فقتل عدة من أبناء تيمور انتقامًا منه، فأصبح ملكًا استقل بديار بكر والموصل والحلة وبغداد والبصرة والحسا وأذربيجان إلا أن أبناء تيمور المذكورين لم تطل أعمارهم وابنه الأكبر (   )[3] أصبح ملكًا على الهند.

دولة الطبقة السادسة للجنكيزيين

أى: أبناء تيمور كُوركَان ملك الهند والسند

دولتهم قديمة، دخلوا الإسلام برسالة من النبى ﷺ، وهم الآن على مذهب الحنفية، والآن هم ملوك عظام يملكون بلادًا عظيمة. وهم ملوك الهند وبعدهم آل عثمان، وإن كان ملك موسكو كذلك ملك عالمًا عظيمًا، ولكن معظم آل تلك الولايات لا يسكنون المدن لشدة برد الشتاء. والهند بلاد شديدة القيظ، ولكن لطيب جوها هى بلاد عظيمة العمران، ويقال لملوكها (راى). فمثلاً يقال لأكبر راى، أورنَكيزيب راى وبدلاً من أن يقول له الرعايا عند لقائه يا مليكى يقولون له يا (راى). تلك كانت ألقابهم، وفى الهند سبع عشرة مملكة وكل مملكة على مذهب.

(١ : ٣) بياض بالأصل.

دولة ملوك السند

يسمون ملوكهم موغان، مثل موغان سيد، موغان تاد، موغان راى، موغان سرشاد؛ لهم أسماء من هذا القبيل، إلا أنهم الآن يتبعون ملوك الهند وهم يعبدون النار.

دولة ملوك مونتان

وأسماؤهم داد أو مونتان داد وهلاس مونتان. ورعاياهم كثيرة فى الحبشة بسواكن وسهل خرق وموص ويلبسون بيض العمائم، وهم جميعًا عبدة النار ويُسمى ملوكهم مونتان وهم كذلك من أتباع ملك الهند، ودولتهم الآن ممتدة. وهم قوم يعبدون النار والبقرة والفيل والشمس والقمر والشجر، إلا أنهم يقرون بوجود البارى، وإذا ما أوردنا ما جاء عنهم فى كتب التاريخ لطال بنا الكلام، ولا رغبة لى فى أن أكتب شيئًا لا أعلمه فى جزم ويقين ولكنى كتبت ما كتبت بمقتضى سياق الكلام.

ذكر أحوال دولة خاقان الصين

وإن لم يكن لهم من الممالك ما لملوك الهند إلا أن لهم اثنتى عشرة ألف مدينة على ساحل البحر المحيط، ويسمون ملوكهم الخاقان، إنهم لا يخشون الملوك، ورعية ملكهم كثيرة، وإذا ما قدم بحار من بلد إلى بلد قدم التجار سلعتهم هدية إلى الملك، ويقول هؤلاء التجار: نحن عبيد ملك الهند والعجم فيجدون السبيل إلى المثول بين يدى ملك الصين ويشرفون بالتحدث إليه وفى عودة هؤلاء التجار إلى بلادهم يجود عليهم السلطان بأكثر من قيمة سلعهم أضعافًا مضاعفة، ويعود هؤلاء التجار إلى أوطانهم ودولتهم قائمة إلى الآن.

دولة سلطان فغفور

إن مملكة فغفور تمتد إلى عالم الظلام ويقال لكل ملك فغفور، وفى عام (١٠٣٠) ألف وثلاثين استولى قالمق على هذه المملكة، وفى أكثر من مرة قتل منهم مائة ألف فغفورى وأكله، حتى إنه طبخ الفغفور «حجنان» وأكله لأن قوم قالمق أكلة البشر، ومنذ هذا العهد انقرضت دولة الفغفور وهم الآن يحكمون مملكة قالمق.

ذكر أحوال دولة الديالمة

لقب سلاطينهم قاشانيان وهم سبعة عشر على المذهب السنى ومدة حكمهم قرنان من الزمان، وبلادهم ديلم وكرمان وكاشان.

ذكر أحوال ملك بلخ

إنهم ملوك سنيون يلقبون بدارا، وقد ألحق اليونان الهزيمة بملك هؤلاء الدارا بالقرب من الموصل فى موضع يُسمى (قره دره) واستولوا على إيران وأدّى الإيرانيون الخراج لليونان، ودولتهم قائمة وهم ملوك سنّيون.

دولة الأنجوليين

أصبح ملك الآنجوليين ملكًا على المغول، ويسمى المغول ملكهم آنجور، وكان فى بلاد إيران، إنهم ثلاثة، وفى عام ٧٠٠ ثار المغول وقتلوا آنجور هذا وهم يسمونه حيدر آنجور واسد آنجور.

دولة آل المظفر

حكموا فارس والعراق وكرمان، وهم ثمانية يطلقون عليهم لقب مظفر، مثل جعفر المظفّر وعلىّ المظفر. دام لهم الحكم مائة عام وخمسة، وهم كذلك من طوائف الملوك.

دولة آل الجوبانيين

حكموا إيران وأذربيجان، وهم اثنا عشر، ويقال للواحد منهم الأمير، ومدة حكمهم (   )[1] عامًا.

دولة الإيلكانيين

حكموا أذربيجان وهم ستة ويقال للواحد منهم قامى، إنهم من طوائف الملوك وكانوا عدولاً، ومدة حكمهم (   )[2] عامًا وبعدهم:

دولة آل كرتباى

وكانت الخطبة للملك كرتباى فى بلاد خراسان وغورستان، وكانوا ملوكًا سنيين، وهم ثمانية، ومدة حكمهم ثمانية وثمانون عامًا.

(١، ٢) بياض بالأصل.

دولة السرابداريين

حكموا سبزوان وخراسان وألقابهم السرابداريون، وهم سبعة، ولكن لا نسب لهم ولا حسب، ولكنهم سرابداريون تغلبيًا، وهم كذلك من طوائف الملوك.

ذكر دولة العباسيين

كان لهم الحكم فى بغداد والبصرة ولحسة واليمن والمدينة ومصر أم الدنيا، ودمشق وحلب ومرعش وديار بكر وأرضروم وجورجيا، أما من حكم بغداد فى سالف الدهر فكان يقال للملك منهم كسرى، والجمع أكاسرة، وبعد النبى ﷺ آلت بغداد لدولة بنى العباس، وهم ثلاثون، حكموا خمسمائة وثلاثًا وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا ويومًا، والعباس عم النبى ﷺ ، وهو العباس بن عبد المطلب إلا أنه يكبر النبى ﷺ بعامين، عاش خمسًا وثمانين سنة، ومات بعد الهجرة باثنين وثلاثين عامًا، وقبره فى المدينة المنورة، ومدفون فى البقيع وأصبح ابنه السفاح خليفة بعده، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وعاش خمسين عامًا، قبره فى الكوفة، وخلفه ابنه أبو جعفر، ثم ابنه أبو عبد الله محمد المهدى، ثم ابنه أبو محمد الهادى، ثم جعفر بن عبد الله وابنه كذلك أبو منصور هارون الرشيد وكانت الخلافة لأربعة من أبناء هارون الرشيد، منهم أبو عبد الله وأبو العباس عبد الله، وأبو إسحاق محمد المستعصم بالله، ومنهم الخليفة المأمون، وقدم المأمون هذا مصر بنفسه وسوَّف فى مصر طولاً وعرضًا وأخرج من الأهرام كنزًا عظيمًا، واستولى منه اليونان على أطنه وسيس ومصص وقره كوركزى وطرسوس وهو مدفون فى ركن مظلم بالجهة اليسرى من جامع النور، والخليفة المأمون مذموم لضعف فى عقيدته، وضريحه لا يُزار، وكان الناس فى عصر بنى العباس يقرأون الخطبة وهم جلوس، ولكن أبا العباس عبد الله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله العباس كان يتلو الخطبة وهو واقف وأُخذت هذه السُّنَّة عنهم، ويُسمون فى العربية بالخليفة وأمير المؤمنين والأمير، والسلطان، والملك والخاقان، والمؤيد من عند الله وبذلك يمدحون.

والحاصل أن الخلفاء العباسيين فى بغداد أنابوا عنهم فى مصر ثلاثين خليفة وحكموا مصر إلى أن أسقط هولاكو دولة العباسيين بقتله للمستعصم، وفر أبناء المستعصم إلى

مصر، وشيَّد منصور الدوانقى فى عام ثلاثمـائة وخمسة مدينة ملاطيا وقدم مكة ووسع الحرم الشريف وأقام منارة، وفى عام ثمانمائة وواحد وخمسين توفّى وله من العمر ثلاث وستون عامًا، وهو مدفـون فى المحلة. وفى عهد خلافة العباسيـين كان فى سائر البلاد اثنتا عشـر طبقة من الملوك وكلهم مـن سلاطين الإسلام، تضرب السكة وتتـلى الخطبة بأسمائهم.

دولة آل ساسان

تسعة، حكموا واحدًا وتسعين سنة ثم:

دولة الديالمة

وهم خمسة عشر، مدة حكمهم قرنان، ثم:

دولة السُلفريين

وهم خمسة عشر ومدة حكمهم مائة عام وثلاثة أعوام. ثم استولى بعض خلفاء بنى العباس على كردستان وهم كذلك اثنتا عشرة طبقة:

أكراد دول آل عباس

الطبـقة الأولى منهم تحـكم جزيرة العُمـر الواقعة بالقـرب من مدينة الموصـل ولهم عشرين ألف محارب من حملة البندقية.

والطبقة الثانية منهم عليها سيد خان الذى له من الجند أربعون ألفًا.

أما الطبقة الثالثة لها الحكم فى صوران ولها عشرون ألف مقاتل.

والطبقة الرابعة تحكم أردلان ولها عشرة آلاف مقاتل.

والطبقة الخامسة تحكم الحرير وعدة مقاتليها خمسة آلاف من حملة البندقية.

والطبقة السادسة لها الحكم فى بتيلنشى وهم خمسة آلف مقاتل.

والطبقة السابعة تحكم المحمودى ولها ثمانية آلاف جندى.

والطبقة الثـامنة تحكم حكّارى ولها أكثر مـن أربعين ألف مقاتل من حملـة البندقية، وعشرة آلاف فارس، وفى عام ألف وسـتمائة وخمسة منح اشير باشـا الملك أحمد باشا مديـنة وان، وبتكـليف مـنه أحضرت خـلعة الحكـم إلى يزدَن شـير حاكم حَـكّارى،

وشاهدت استعراض جنده ومن الحق القول إن الحكاريين جند يطلقون النار بمهارة عظيمة.

أما الطبقة التاسعة فتحكم فى هيزان ولهم عشرة آلاف جندى.

أما الطبقة العاشرة فتحكم تبليس ولهم عشرون ألف مقاتل، وتحت حكمها عشرون عشيرة.

والطبقة الحادية عشرة فتحكم حَضّو واليزيدية.

والطبقة الثانية عشرة تحكم باك ولهم عشرة آلاف مقاتل.

إن هذه الحكومات الاثنى عشرة منذ قانون السلطان سليم لا يولون ولا يعزلون وهم يحكمون هم وذريتهم من قبل الوزراء وبأمر السلطان ويُرْسَلُ إليهم أمرٌ سلطانىٌّ بذلك، وأهل الولايات يسمون الحاكم منهم الخان، ولكن هذه الطبقات السالف ذكرها من ذرية العباسيين، وغيرهم لهم فى إقليم أرضروم وديار بكر ووان والموصل وشهرذل وولاية بغداد مائتان من رؤساء العشائر ويوليهم أو يعزلهم الوالى، ولهم مقاطعات مثل: أكيل، ميافارقين، كارنى، هيرون، اسبير، دوزريقى، باركيرى، وملاذكرد، ولله الحمد فقد سِحْتُ فى كردستان ذات الأرض الحجرية سبعة أعوام، وكتبت عن كردستان ما تحققت من صحته فى كتاب قائم بذاته، ولولا وجود كردستان كسد بين آل عثمان والفرس لما تحقق الاستقرار لآل عثمان لأن الفرس خصم عتى شجاع، والأكراد الذين ملكوا مصر من أكراد العباسيين. ثم جاءت:

دولة الكيانيين

وهم عجم وحكم منهم أحد عشر ملكًا إيران وما وراء النَّهر، ودام الملك لهم (   )(1) عامًا، ثم:

دولة الاشكانيين

وهم سبعة، حكموا فى همدان ودركزبن وأردبيل وحكموا ثمانية وسبعين عامًا، وكان أسلافهم ملوكًا قبل الإسلام، وبعد المأمون أصبح هؤلاء السبعة خلفاء وهم

(1) بياض بالأصل.

أشكانيون، ثم:

دولة آل قروانيين

ستة، حكموا (   )[١] عامًا، ثم:

دولة آل مانيانيين

عددهم (   )[٢] ومدة حكمهم (   )[٣] عامًا.

دولة آل ساسان

عددهم (   )[٤] ومدة حكمهم (   )[٥] عامًا.

دولة آل ماهانيين

ظهروا أول ما ظهروا في بلاد ما وراء النهر، وغادروا ماهان خوفًا من الجنكيزيين، وفي ديار أخلاط كان السلطان أوحده الله وهو جد سلاطين تبليس وقد سكنوا إلى جوارهم، وهم قوم اشتهروا بشجاعتهم، فحمد الأهالي ذلك منهم، وولوهم حكامًا عليهم، ودامت حكومتهم في أخلاط مائة وسبعين عامًا، وهجروا أخلاط كذلك خوفًا من الجنكيزيين، ودخلوا أرض السلاجقة، وبينما كان قائدهم سليمان شاه يغتسل في ساحل نهر مراد بالقرب من قلعة جعبر غرق في النهر، وتولى قيادتهم أرطغرل، وبينما كان أرطغرل في صحراء قونية صعد جبلاً وبينما كان ينظر من قمته رأى حربًا تنشب، ورأى أن الغلبة كانت للتتار على السلاجقة، فانطلق بسبعمائة مقاتل نحو التتار ورشقوهم بسهام كالمطر، فتقهقر التتار، وبهذا النصر عادت الحياة إلى السلاجقة بعد موتهم، فأعزُّوا أرطغرل وأكرموه وأجَلُّوه وأقاموا على عتبته قبة هي قبة البك، وبذلوا له المال الجزيل، وقيل له كل مقاطعة تفتحها إلى جانب بروسة فهي لك وتحت تصرفك، وجعلوه قائدًا عظيمًا، وبأمر الله كان أرطغرل مظفرًا حيثما اتجه، ومع ما غنم من أموال غنم ديار السلطان السلجوقي، وأرطغرل هذا من الماهانيين أجداد العثمانيين.

والآن في أخلاط في عهد حكمهم اثنا عشر ضريحًا، وفيها موتاهم على عروشهم، ومعهم أسلحتهم وقد زرتها جميعها.

(١ : ٥) بياض بالأصل.

وقد حكم فى أخلاط من المـاهانيين أجداد العثمانيين أربعـة وأربعون حاكمًا، والآن ليكن الدوام إلى الأبد لدولة آل عثمان فهـى من هذه السلالة الطاهرة، ولها الآن الحكم فى العراق وبـغداد ومصر أم الدنيا ومكـة والمدينة وبلاد المجر والروم والعـرب والعجم وخاقانها سلطان البرين والبحرين، وجميع الخلفاء هم السلاطين المذكورون.

ذكر دولة آل بنى رسول

إنهم خـمسة عشر ملـكوا اليمن وعـدن وصنعاء، ويـسـمون اليمن جزيـرة العرب، واليمن من إقـليم عُرُفيّة، ومن الشرق إلـى الجنوب ومن الجنوب إلى الغرب يـحيط بها بحر القلزم[١]، وبقية اليمن من ناحية البرية بـحر الإحساء، وبحيرة اليمن ويفصل بين الشرق والغرب خط فاصل، أما معنى اليمن ففيه عدة أقوال، منها: أنه إذا اتجه أحد فى اليمن إلـى ناحية الشرق فـبما أن هذا الإقليم واقع علـى يمنته سُمى اليـمن، وقيل: إن اليمن إنما سميت بذلك لوقوعها على يمنة الكعبة الشريفة.

وكانوا يسمون ملوكها التبابعة فى العصر الجاهلى، والواحد منهم تُبع، ولكن قبل أن يحكم ساداتها كانوا يُسمون الملوك، والآن يُسمون الأئمة.

واستولى العـثمانيون على اليمن فـى عهد السلطان مراد الرابع، أمـا الآن فهى على مذهب الزيدية، وقد أشاعوا زواج المتعة؛ فالرجل يتزوج امرأة عدة أيام لقاء أجر، ولها أن تكون من بعده لسواه، وفـى إقليم اليمن أربع حكومات وليس بيـنها وفاق، وساكنو الجبال من الأعراب الـفقراء المعدمين، إلا أنهم يحسـنون القتال بالبُندقيـة، وأهل اليمن صلحاء أتقياء ومعظمهم شرفاء ومعظمهم من أبناء الصحابة الكرام، ففى عهد النبى ﷺ هاجر بعض الصحابة إلى اليمن، وظهرت كرامات لأولياء الله فيها.

دولة أشراف مكة. أى: دولة الهاشميين.

وفى حوزتهـم الحجاز والطائف والعبـاس والمدينة ووادى القرى ومدينـة ثمود، وقد اجتمـع مرارًا الأشراف واليمن، وعقدوا العزم على أن يملكوا مصر، إلا أنهم لم يحققوا

---
(١) هى البحر الأحمر.

بغيتهـم، وهم ثمانيـة وثلاثون وهـم حسينيون لهم حسب ونسب، ومدة حكمهـم (   )[1] عامًا، ويسمونهم كذلك آل حيدر.

دولة أشراف مكة. أى دولة بنى قِتَادَة.

سبعة وعشـرون، ينتهى نسبهـم إلى الإمام على بن أبى طالـب ـ كرم الله وجهه ـ، وبناء على قـول هؤلاء الأشراف ـ وهو صحيح ـ أنهم مـنذ عهد إسماعيل أبـناء أنبياء، ويقـولون إن أسلافـهم بـنى جرهـم، وهى قبـيلة هـاجرت من الـيمـن وقدموا مـكة واستوطنـوها، وتزوج إسماعيل فتـاة من بنى جرهم وولد لـه منها (   )[2] ولما بلغ الأربعين من عمره أنزلت عليه الصحف بالعربية، ودام البقاء للغة العربية على ما يقال، وهم يقولون هذا معلنين عن ذريتهم القديمة[3].

وفى هذه الممالـك المحروسة التى زرناها، كثـيراً ما رأينا مئات الألوف مـن العشائر والقبائل السـاكنـة الصحارى، كما كان يوجد فى صحاريها وجـبالها أمراء ورؤساء لهذه العشائر وقد أمسكـنا عن ذكرهم لأنهم لم تضرب لهم سكة ولم تقـرأ باسمهم خطبة، ولأنهم كانوا أصحاب سـيف وقلم أيَّد الله حكومتهم وأودعهم بطـشاً وقوة فيؤدب بهم خليفة الله فى أرضه عبيده البغاه، ويأمن عباده المظلومين من ظلم الطغاة.

إذا غاب السلطـان عنـد بلـد   فان بيوت المظلومين تكون طعما للظالمين

وقد جعل الله تعالى نفحات الخليفة عـلى عباده أكثر من نفع الغوث الأعظم ورجال الغيب، وإذا لم يكن فى الأرض خليفـة، لم يُجر على وجه الأرض عبادات أو طاعات أو إسلام وإيمان وإعتقاد وبذلك يختل الدين المبين. والآية الشريفة ﴿**لَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ**﴾ (الحج ٤٠). هى دليل قاطـع على هذا نسأل الله أن يديم الخلفاء فى الأرض. حديث (لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا).

* * *

(١ ، ٢) بياض بالأصل.
(٣) أمسكنا عن ترجمة بضع سطور هنا لغرابة ما ورد فيها.
(٤) تحريم الآية (الحج ٤٠).

ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية

إن أول خلفاء على وجه الأرض منذ ظهور الإسلام هم الخلفاء الراشدون، وهم أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى - رضى الله عنهم - ويقال للواحد منهم أمير المؤمنين فى اللغة العربية، كما يقال أمير المؤمنين للإمام الحسن والحسين والأمويين والعباسيين، وأول خليفة من الخلفاء الراشدين ملك مصر عمر بن الخطاب بعد فتح عمرو بن العاص لها، ثم ملكها الأمويون، ثم العباسيون، وهم كذلك طبقتان منهم طبقة فى بغداد أنابوا عنهم ولاةً فى مصر، وطبقة أخرى بعد انقراض العباسيين بغارة هولاكو، وكان أبناؤهم فى الصحراء لدى الأعراب، فجاء بهم الظاهر بيبرس من الصحراء إلى مصر وأجلسهم على مسند الخلافة، وأصبحوا خلفاء مستقلين.

ديار مصر والإخشيديون

وهم (   )[1]، ومدة خلافتهم (   )[2] عامًا، بعد ذلك كان المعز لدين الله القاهر الفاطمى ملكًا عظيم الشأن فى بلاد المغرب، وأعطى أحد مماليكه - كان يدعى أزهر وهو عربى من الحبشة - عشرين ألف تبسًا، وحتى لا يُعارض فى مصر أمره أن يطلب الإذن من الإخشيديين فى إقامة جامع فى مصر، ووقع هذا موقع القبول من رجالها، فشرع فى بناء الجامع الأزهر، ومن أجل بناء هذا الجامع قدم مصر كل من كان فى بلاد المغرب من نَحَّات وبَنَّاء، ولقد أفاد الأزهر علماء مصر فائدة عظيمة، حتى إن بناء الأزهر قبل تمامه كان طلاب العلم يجتمعون فيه ولما قرب تمامه ذاع أن معز الدين الظاهر آتٍ إلى مصر، وحشد المعز لدين الله حشودًا من الجند وانتزعها من الإخشيديين، وصلى فى الجامع الأزهر، ويسمونها القاهرة لأن معز الدين القاهر قدم من المغرب وفتحها، وعددهم (   )[3] ودامت دولتهم (   )[4] عامًا.

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة بنى البحرية

وهم ثمانية وعشرون ودامت دولتهم مائة وثلاثين عامًا، والمظفر بالله بن الحافظ لدين الله الفاطمى قتل مملوك مصر وأصبح بعده أبو القاسم عيسى بن الحافظ لدين الله ملكًا، ولما بلغ هذا الخبر بغداد وسمعه المتقى بالله العباسى ولّى من وزراءه - نور الدين محمود بن زنكى - المُلك، فقدم فى جيش عظيم واستولى على مصر، ثم حاصر قلعة دمشق وخليفة الشام بحير الدين طُغْتكين الذى كان محاصرًا فى القلعة، وسلم قلعة دمشق لنور الدين محمود صلحًا، وذلك فى عام خمسمائة واثنين وستين (٥٦٢)، وجاءت بعد ذلك.

دولة الجراكسة

وأولهم برقوق وآخرهم طُومَان باى، ملكوا (   )[1] عامًا وأول من كان له مماليك الجراكسة نجم الدين الصالح أيوب، وجملتهم اثنا عشر فارس، كما كان له اثنا عشر ألف اشتراهم، وفى قول إن السلطان فرج هزم تيمور وأحضر جميع عبيده مع ما غنم منه من غنائم إلى مصر، وبقى فى مصر الجراكسة والأبخاز (الأباظية) والجورجيون والروس منذ عهد السلطان فرج، وقد مرّ ذِكر السلاطين الذين ولوا مصر على الترتيب،

أول من ملك مصر من آل عثمان

كان أول من ملك مصر من العثمانيين السلطان سليم، وإن شاء الله سوف نذكر فتح مصر وجميع ما وقع من أحداث.

أول من حكم مصر الفراعنة، ومن طبقاتهم من يعرف بالعزيز، كما قيل إن منهم القبابطة والجمع أقباط، ولما فتح السلطان سليم مصر سُمى خادم الحرمين الشريفين، ومن سماه بهذا الاسم كمال باشا زاده، وأبو السعود افندى، وعندما فتح السلطان سليمان المجر سموه صاحب قران الزمان، وفى عام ٩٢٩ تسعمائة وتسعة وعشرين فتح سليمان خان جزيرة رودس واستولى عليها من نصارى مالطة، وبعد هذا الفتح فتح فى

(١) بياض بالأصل.

البحر الأبيض سبعمائة وستين جزيرة فسماه كمال باشا زاده وأبو السعود أفندى سلطان البرين وخاقان البحرين، وفتح كذلك بغداد فسماه علماء الترك سيد العرب والعجم، ولما فتح طنجة فى بلاد المغرب والجزائر وتونس وطرابلس سموه فاتح المغارب، ولما فتح سليمان باشا الطواشى (الخادم) بإذن من السلطان سليمان سبعة أقطار وسبعة من الموانئ فى الهند سموه فاتح المغارب، وفى ثمانية وأربعين عامًا من خلافته فتح أقطارًا فى سبعة أقاليم، وجعل لآل عثمان نصيبًا من أقاليم الدنيا السبعة أما أول غزاة آل عثمان فهم الأمير عثمان والأمير أورخان والأمير يلدريم والأمير مراد حتى أبى الفتح، ويطلق عليهم جميع علماء الترك أولو الأمر، ولأن أبا الفتح كان يحب العلماء فقد كان يجمع العلماء والمشايخ حوله من الأقاليم السبعة، فقد كان سلطانًا عالمًا فاضلاً كاملاً مجاهدًا فى سبيل الله، عندما اعتلى العرش العثمانى، كان دائم الجلوس بالعمامة (العرفى) وكان يعقد الديوان بها، ولم يرتدى أى سلطان قبله تلك العمامة العرفى، بل كان الملوك من قبله يضعون تيجانًا يعجز اللسان عن وصفها، ولما فتح استانبول كان فى معيته سبعون من كبار الأولياء وعلماء العرب والعجم من العراق وخراسان، وكان فى معيته أيضًا الشيخ آق شمس الدين وأنصار ده ده، والمولا جورانى وأمير البخارى وغيرهم من كبار العلماء وكان بعض علماء الترك المذكورين يطلقون على السلطان محمد الثانى لقب أبو الفتح محمد خان، أما علماء الروم فيطلقون عليه لقب السلطان، أما كل مشايخ العجم فيطلقون عليه لقب خنكار أى صاحب الخبز، نظرًا لكثرة ما أنفق من خبز فى هذا اليوم، وبعد فتح استانبول جمع محمد الفاتح كل الجند فى ميدان الرماية (اوق ميدان) وأولم لهم الولائم العظيمة، وملأ ذيل ثوبه بالخبز، يقدم منه الطعام لجند الإسلام، ولأن العجم يطلقون على الخبز كلمة (خون) أطلق على الفاتح لقب خنكار.

وتذكر إحدى الروايات أن أبو الفتح السلطان محمد أنشأ أثناء حصار مدينة استانبول مائتى فرقاطة فى مكان يسمى مزرعة اللوند، ولضيق ميدان الرماية قام جنود فرقة العزب بناء على رأى القبطان شاه قولى بفتح أشرعة تلك المراكب وأنزلوها إلى المياه بسحبها برًا بالقرب من حديقة ترسخانه، ولا تزال آثار سحب تلك السفن على اليابسة واضحة للعيان فى ميدان الرماية.

وعندما رأى الملك تكفـور تلك السفن المشرعة قادمة إليه من الـبر من قصره الموجود فى مكان يسمى تكفـور سراى انقطع أمله هو ومن معه من القسطنـطينية، إذ جـاء فـى كتبهم أن ملكًا يدعـى محمد من الأمة المحمدية يأتى على رأسه عمامة يمتطى بغلاً وكل بساطه من الجلد، يرتدى الصوف، وينتعل بحذاء أزرق، يسير السفن على اليابسة ويأخذ القسطنطينية، وهذا مسطور على المسلة الواقعة فى آت ميدان (ميدان الخيل).

وفور رؤية الكفار لمجيء السفن على اليابسة قالوا لنهيئ أمرًا آخر وجرت حكمة الله القادر القيوم بـأن تظهر فى سراى بورنو اثنتـا عشر سفينة للفرنـسيين جاءت مددًا، لأن جميع الكفار كانوا مطمئنين من جهة البـحر وقاتلو من جهة البر وكان ملكهم فى قصره الكائن فى اكرى قابى.

أما من ناحية البحـر فكانت الطيور لا تستطيع الطيـران من ناحيته، وذلك لأن ألف مدفع فى (سراى بورونو) ومائة مدفع فى (قيز قله سى)، وخمسمائة مدفع كانوا يقفون أمام دار المدفعية القديمة فى (غالاطة) والتى تسمى اليوم باسم (كرج قابى). وعندما كان الحقيـر فى صباه شاهد هـذه المدافع أمام (كرج قـابى) للاحتفـال بالعيدين. ولـما وجهه السلطان مراد الرابـع حافظ أحمد باشا على رأس الجيش إلى بغـداد، أفسد تلك المدافع وصب مدافع صغيرة، وأرسلها بالسفن إلى الإسكندرون حيث ظلت ثلاثة أيام فى قلعة بيره جيك، ثم أرسلها إلى بغداد بالقوارب عبر نهر الفرات.

ولذلك لم تـكن الخشية من المدافع المـنصوبة فى (سراى بوررونو) ولـما قدم المدد من سبعـة عشر سفيـنة للروم من نـاحية ميناء (بـطريق خانه)، وفـى موضع يسـمـى (فنار قبوسى) أطلقوا المدافـع والبنادق، فأعلنوا شديد فرحهم، ثم ألـقوا مراسى السفن، ولما كانوا فى سيرهم إلى قـرى النصارى، أنزل السلطان محمد من ناحية الـيابسة مائتين من الفرقاطـات تحت إمرة القبطان شـاه قولى وكانت وكأنهـا التنانين، ووصلوا إلـى السفن كأنهم البرق الخاطف، وبـأمر الله لم تطلق اثنتا عشرة سفينة المـدافع والبنادق، وسحبوا هذه السفن الواحدة تلو الأخرى إلى حديقة ترسخانه.

فقال رجالنا إننا قدمـنا لنستولى على ما فى حوزتكم من ممالـك، وكانت هذه ثلمة فى صفوف الفـرنجة أوقعتهم فـى فزع ورعب، ونمى خبر الانتـصار على هذه السـفن إلى أبى

الفتح وكان فى حصار ادرنه قابى وركب زورقًا فى ميناء (يا ودود) ورأى فى حديقة ترسخانه اثنا عشر سفينة تسمى جهنم الحمراء وهى تشبه أصل الجحيم محملة بالغنائم فأخرج منها العشر حسبما يقضى قانون الغنائم، ووزعوا بقية ذلك على الغزاة من المجاهدين.

وفى سفينة من تلك السفن كانت توجد ابنة ملك فرنسا وهى تشبه ضوء الشمس وكانت مخطوبة لملك استانبول، ومعها ألف فتاة من الفتيات الطاهرات من بنات أمّة محمد، أخذهن الكفار عندما أغاروا على غزا وعكا والرملة ليكنّ جوارى لهذه الفتاة وقد أودعن جميعهن أمانة لدى الشيخ آق شمس الدين، وفى نفس الوقت كان أبو الفتح مشغول بحصار القلعة، وفى شهر يوليو من عام ثمانمائة وسبعة وخمسين للهجرة، وفى اليوم الذى حدده الشيخ آق شمس الدين فُتحت القسطنطينية بمشيئة الله وهذا تاريخ مذكور فى تواريخ أخرى.

لطيفة صوفية

بعد ذلك مضى أبو الفتح إلى حديقة ترسخانه وخلع باب قلعة الروح وجعل فيها عسكر النفس، فتزوجها وكانت حكمة الله أن حملت فى تلك الليلة بابنه الأمير با يزيد وبعد أن قضى السلطان الفاتح ليلته هذه مع ابنة ملك فرنسا اغتسل ثم توجه فى الصباح إلى الشيخ آق شمس الدين، لقد أسلت دماء فى تلك الليلة دلالة على زواجه بابنة ملك فرنسا وإنى لأرجو ألا تسفك الدماء إلا فى الحق، وأطعم غزاة المسلمين الذين شاركوا فى فتح استانبول، لتكون تسميتهم لك بخنكار فى موضعها، وقد أطلقوا على السلطان أبو الفتح السلطان محمد لقب خنكار لأنه أطعم غزاة المسلمين وأحسن عليهم بالتيمارات والزعامات.

ولكل ملك ألقاب ولقب آل عثمان سلطان، وخادم الحرمين، وسلطان البر والبحر، وسيد العرب والعجم، وصاحب قران الشرق والغرب، وخنكار والسلام، ولكن أول ما فتح السلطان سليم مصر كان عرب مصر تقول: «الله ينصر السلطان سليم»، ويسمونه فى اللغة الفارسية سلطان بلاد قيصر، ويُسمون ملوكهم سلطان بلاد إيران، ويسمون أمير الحج فى مصر سلطان البر.

وكان جيش العثمانيين يؤدى خدمة عظيمة لحجاج المسلمين ولما كان بين العرب أمراء للأقاليم نزل عليهم كثير من الرحالة ضيوفًا، ويُسمى العرب الواحد منهم سلطان البر أما عرب صحراء الشام فيسمون شيوخهم آل بنى رشيد وآل بنى عمر وآل بنى رباج وآل بنى زهد، أما الآن فيقال لوزراء مصر عزيز مصر والمتولى، ونظام الدولة وكافل مصر ووالى مصر ويسمون كذلك والى مصر (الصوباشى) وهذا المنصب تبقى من عهد الفراعنة وفرعون فى أول أمره كان صوباشيا إلى أن غيّر الملك ثوبه فصلبه فى سوق الصليبة وبعد ذلك أصبح فرعون ملكًا مستقلاً وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وبمرور الزمان قلّ لقب صوباشى إلى أن جاء الإمام الشافعى فما وجد فى مصر صوباشى.

حكاية غريبة

قدم الإمام الشافعى من بغداد، ولما وطأت قدمه مصر سرق اللصوص داره، إلا أن كل ما أخرج من مؤلفات لم يَضِعْ، وإن سرقوا مئات منها فاكْتَأَبَ لذلك الإمام الشافعى وأخذه مُرُّ الأسى لضياع مؤلفاته النفيسة. ومضى إلى السلطان محمد سلطان الأكراد، وبسط رجاءه بأن يُعين صوباشيًا على أن يكون شديدًا فقبل رجاءه، فجعل هذا الرجل عالى مصر سافلها، وإن كان مدبرًا، وسديد الرأى، وصاحب فراسة.

واحتفل ذات ليلة فى منزله بالمولد الشريف، ودعا جميع علماء مصر إلى حضور هذا المولد، وأثناء الكلام قال الصوباشى:

لقد سمعتم بأن الإمام الشافعى تكرم علىّ بأن جعلنى صوباشيًا، وهو الآن يطلب منا رشوة فهل يكون المذهب الشافعى حلالاً لنا؟. وأنتم بما أنكم علماء مصر هل ترون هذا الظلم جائز؟ وهل جميع علماء مصر على المذهب الشافعى؟ قال هذا وفى قلبه مرارة. فقال علماء مصر فى التو: يا أيها الوالى خذ حذرك ولا تقدم فلسًا ونحن لا نقبل مذهبه وهو مذهب صاحب تفسير جرير، وقد شئنا أن نسرق كل ما لديه من كتب ونحرقها جميعًا بعد بضعة أيام كما نريد رجمه أو ننفيه إلى السودان.

وقد تلقى الصوباشى هذا بأدب وقال: يا أيها النقباء ويا أساتذتى أتموا المولد والآن خذوا صرتكم وعطيتكم. ومضى يتجول فى المدينة بحجة الحراسة، ثم انطلق إلى السلطان محمد سلطان الأكراد وعرض عليه كل ما قال العلماء، فامتطى فرسه وحبس

جميع العلماء فـى بيت الصوباشى واقتحم بيوت العلماء وأخـرج كل ما فيها من أموال وأرزاق أمام الإمـام الشافـعى، وانـعقد الـديوان فى الـصباح وسـلم الإمـام الشافـعى الصوباشى كل ما أشار إليه، وقتل مائتين من مخالفى الإمام الشافعى من المتشيعين، كما أن مائتين آخريـن تابوا وأنابوا؛ فجدد الإمام الشـافعى مذهبه، وبسبـب من هذا ظهرت كتب الإمام الشافعى واسترد المذهب الشافعى اعتباره.

والآن فى مصر ثلاثـمائة من الحراس يحملـون الهراوات فى يدهم ومعهـم اثنا عشر جلاداً يفتحون بيت الصوباشى كل صباح ويحضر جميع خدامه ويدعون للإمام الشافعى على أنه بـرهم وسبب رفعتـهم، ثم يتجول ليـل نهار لتعرف الأحـوال، ولا شك أنهم يجدون اللصوص والنـشالين، وكل لقطاء مصر مقيدون فى دفـتر الصوباشى. وإذا كان الصوباشـى يحكم حكمًا مطـلقًا فإنه بذلك يـكون كالوالى، وكل المجرمين يـخشُونه. وسواء كانوا مذنبين أو أبرياء قتلهم.

وهكذا كـان هذا الرجل يـستحل الـقتل كوسـيلة لإصلاح الـعالم، إذ لم يـكن فى الإمكان الـسيطرة علـى الفلاحين فى مـصر، وكذلك مَنْ يـدعون الولاية من مـكحول العين، ومن يـحمل على رأسه سـبحة، والواعظ الذى يـحمل المسواك، مظـهرهم هذا دليل بلـههم، ومشجع علـى اللصوصية والفـوضى، والحاصل أن كل ما ليـس شرعيّا يرتكبـه علماء مصر حتى إنـهم يبيعون ما أوقف مـنذ تسعين عامًا علـى أن هذا الوقف يتوارث أبّـا عن جد، وهكـذا تسرق جميـع أوقاف الله، وكم من آلاف مـن دور القراء ودور الحديث والمدارس جعلوهـا بيوتًا وعليه فلا بد لمصر من حـاكم جبار وإذا ما غلت الأسعار (   )[1] فإن هذا يظل فى يد الحاكم وبناءاً على قراره.

* * *

(١) بياض بالأصل.

الفصل الحادى عشر
ذكر ثمانية واربعين ملكاً وسلطاناً فى جزيرة مصر

من المتعارف المعلوم لدى سياح الترك أن البارى خلق فى الربع المسكون من الأرض فى بحر الاقيونوس والبحر المحيط والبحر الأبيض مائة ألف جزيرة، زينها ببنى آدم والعلم عند الله. وخلق اثنتى عشرة جزيرة فى بحر جزيرة الهند والصين وبلاد السند، وبسياحتى فى الهند لم أجر قلمى بالكتابة. أما فى البحر الأبيض فسبعمائة وستون جزيرة كبيرة وصغيرة فى حوزة آل عثمان، ففى البحر الأسود جزيرة القرم، وفى البحر الأبيض جزيرة قبرص وجزيرة المورة وجزيرة كريت التى فتحت منذ زمن يسير. وهذه جزر تتراوح مساحتها بين سبعمائة وستين ميلاً وسبعمائة وسبعين ميلاً.

وعلى حد قول بطليموس المهندس وقول بادرا وقولون، أن جزر مدللى وايلمنى وصاقر واستانكوى ورودس من جزر العالم الجديد وكلها تقع الآن تحت حكم آل عثمان تتراوح مساحتها بين الثلاثمائة والأربعمائة ميل، ومحاصيلها كمحصول روضة الجنات، وفى البحر الأبيض كذلك جزيرة مسنّة ومساحتها مائة وسبعون ميلاً، ومنذ عمرت لم تطأ أرضها قدم ثائر ولا لص وهى الآن تحت حكم ملك إسبانيا، كما أن جزيرة ميورقة ومينورقة تبلغ مساحتهما سبعمائة ميل، وهما جزيرتان خصبتان غاصتان بالسكان، وهما تحت حكم أسبانيا وجزيرة قورسقه فى البحر الأبيض تبعد عن الجزائر بسبعمائة ميل، إنها جزيرة معمورة وقد دخلت حكم أسبانيا حيناً وحكم البرتغال حيناً آخر وهى إلى الآن لأسبانيا.

وعلى مسافة ألفي ميل فى إتجاه الغرب من مضيق سبته تقع جزيرة الإنكليس (الإنجليز) وهى جزيرة عظيمة محيطها ثمانية آلاف ميل وتقع فى الإقليمين الرابع والخامس.

وحاضرة ملك الإنكليز مدينة لوندرة الواقعة على ضفة نهر لوندرة، وهى مدينة عظيمة وعلاوة على هذه المدينة سبعمائة مدينة معمورة، وهذه المدن لها

واسع الشهرة لدى سياح الترك، وفى البحر المحيط كذلك جزيرتان إحداهما جزيرة ( )[1] والأخرى جزيرة ( )[2] ومحيطها عشرون ميلاً، وهما تحت حكم الإنجليز فى كل زمان إلا أنهما ليستا معمورتين ولا جميلتين مثل جزيرة الإنكليز.

مدح الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة

مصر القاهرة المعزية

ولكن جزيرة مصر أكبر من جزيرة الإنكليز وكانت السياحة فيها لجميع مهندسى علماء السلف ألف مرة براً وبحراً، وكتبوا عن طول نهرها وأرضها وسكانها ومائها وهوائها. ومحيطها ثمانية عشر ألف ميل إنها جزيرة مصر أم الدنيا المربعة الشكل، وطرفها الشمالى يطل على البحر الأبيض ومن مضيق سبتة إلى بحر العريش ألف ميل وفى تلك المساحة - التى تُعبَرُ فى ثلاثة أشهر - على البحر الأبيض سبتة وطنجة والجزائر وتونس وطرابلس وجربة وجزيرة كريت، وصحراء بنى هلال، وتنتهى بالإسكندرية ورشيد ودمياط وقلعة التينة وبحيرة العريش، وبعد يومين يكون الوصول إلى السويس وهى أرض يابسة، وعلى حسب ما سلف ذكره من حاجة قطع ملوك السلف هذه المساحة وسبق أن قلت إنها جزيرة حقًا، وعلى ساحل بحر السويس إلى أرض الصعيد العالى كثير من المدن وفى الساحل المقابل لبحر السويس طرف أرض الكعبة قلاع ازلم، ومويلح، وينبع، وجدة، ومن الجانب البرى لجزيرة مصر تقع أرض الحبشة وعلى ساحل بحر السويس ميناء بورغه والقصير وريده وأبراش وعجون ودنقلاب وميناء آت وميناء مدينة سواكن وهى حاضرة باشا الحبشة، وميناء مدينة كيف وبعدها ميناء زيلع، وبعدها قلعة هندية، ثم ميناء طوزلة، ثم ميناء بَهْلُولة، ثم ميناء مدينة زيلع، ومن ميناء السويس إلى هذا الموضع ألف ميل.

إن هذه الموانى الحبشية المذكورة معمورة وتقع على ساحل بحر السويس أى بحر القلزم، بعد ذلك على ساحل البحر المحيط فى جزيرة مصر من مصب النيل إلى مضيق سبتة موانى على مسافة قدرها أربعة عشر ألف ميل. وهذه الموانى وغيرها من المدن

(١، ٢) بياض بالأصل.

المعمورة جميعها فى حوزة ملك البرتـغال، وليس الحكم فيها لأحد، وفى داخل جزيرة مصر هذه أحاطت البرتغال من ثلاثة جوانب بثمانية وأربعين ملكًا.

إن جزيرة مصر جزيرة عظيمة، يقسمها خط الاستواء بالقرب من الشلالات بعشرين مرحلة. وعـندما دخلتُ هذه المنـطقة كان ربع دائرة الليـل والنهار متساويـين، والإقليم الأول والثانـى يقعان فى جزيـرة مصر، أما الإقلـيم الثالث فـيقع فى جزيرة مـصر فى الإسكندرية ورشيد ودمياط وقلعة التينة.

إنها جزيرة متراحبة الأرجاء، ويشق هذه الجزيـرة نهر النيل المبارك إلى وسطها، وفى جنوب جزيرة مصر طريـق بطول ثلاثة أشهر وهو صحراء قاحلة لا يسـكنها أحد وفيها حيوانات سامـــة، وفـى أرض وعـرة مـــن جبل القَمَر ينبـع نهر النيل، وهناك تـتجمع مياهـه، ويصب فى بحيرة، ومن هناك يمتد طريـقه بطول سبعة أشهر، وشعبة من النيل تمضى إلـى رشيد وأخرى تمـضى إلى دمياط، وعـدة شعب من الـترع أيضًا تـصب فى البحر.

أما فرعا رشيد ودمياط فهما الفرعان الرئيسـيان وفى المواضع التى يَختلط فيها ماؤها بماء البحر الأبيض تسمى مرج البحرين يلتقيان، وتجعل ثلاثمائة ميل من ماء البحر المالح حلوًا، وتجـعل لون البـحر ضاربًا إلى الحُـمرة، وحينـما تقترب سـفن الترك مـن مصر ويريدون العلم بالاقتراب منها يتذوقون مـاء البحر فإن كان عذبًا أدركوا أنه لم يبق على بلوغ رشيد ودمياط إلا مـائتان أوثلاثمائة ميل وإذا كان الجو صحوًا جـعل ماء النيل لون ماء البحر ضاربًا إلى الحـمرة فيدركون أنهم اقتربوا من دمياط ورشيـد، وللنيل فرع آخر من الناحية الغربية لمصر يجرى إلى السودان وفرع آخر فى أرض المغرب فى مقابلة جزيرة كريت، وفى بلاد بنى هلال كان يَصُبُّ فى البحر الأبيض.

والآن الأماكن التى كان يجرى فيها تبدو للـعيان، ثم قطع سيف بن ذى يزن مضايق الشلالات فجرت كلها إلى نيل مصر، والنيل لا يجرى إلى أرض بنى هلال لقد عطّل، وبعد أن خرج فرع آخر لنهـر النيل من جبل القَمر يجرى من الجانــب الغربى إلى إقليم السودان وكان يصب فى البحر المحيط، وفى ديـار مصر مئات الآلاف من الترع المتفرعة عن النيل إلا أنهـا ليست طبيعية وإنما مـن صنع البشر، وهى تجرى عند فـيضان النيل، وسوف نتحدث عن الترع فى موضعه بمشيئة الله ـ تعالى ـ.

وفى الناحية الجنوبية وراء خط الاستواء كانت إقـليمًا خاليًا ولشدة القيظ فيه والخوف من الحشرات السامـة فيه لا يعد إقليمًا مسكـونًا والآن يسكنه البرتغاليـون ويسمونه بلاد الفونج وهذا ما حكاه القبطان حمداد.

والآن أكثر من نـصف مصر فى قبـضة العثمانيـين، وقد تجولت فى ربوعـها ما عدا جنوبها، وعَرَّفتُ بسلاطينها وأصحاب السكة والخطبة وبألقاب غيرهم.

أولاً سلاطين اشراف الأدارسة

حكم ممالك المغرب خمسة أولهم إدريس؛ ولذلك سموا بالأدارسة، إن نسبهم يتصل بالإمـام عـلى بـن أبـى طالـب ـ كرم الله وجهه ـ وكلهـم حسينيون ومدة خـلافتهم ( )[1] عامًا، وبعدهم:

سلاطين آل حمود

حكم ممالك الأنـدلس سبعة أولهم النـاصر لدين الله، وثانيهم المـأمون بالله، دامت دولتهم ( )[2] عامًا وجاء بعدهم:

سلاطين آل الموحدين

وهم فى بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ثلاثـة عشر، وأول ظهورهم من الشام، وكان الدوام لدولتهم ( )[3] عامًا، وبعدهم:

سلاطين آل بنى طاش

وهم فى ممالك فاس ومكناس سبعة ومدتهم ( )[4] عامًا ويُسمى الواجد منهم كذلك ملكًا، وجاء بعدهم:

سلاطين آل مُكَثَّمين

وهم فى ممـالك المغرب والأندلـس ستة، ولكن ـ عـلى العمـوم ـ بقى حكم إقـليم

(١ : ٤) بياض بالأصل.

الحبشة لجزيرة مصر، وأصلهم من اليمن من قبيلة حِميَر، حتى إنهم مضوا لغزو الشام في عهد عمر بن الخطاب، وبعد فتح الشام قدم عمرو بن العاص مع قبيلة الملثمين، وكان عمرو بن العاص واليًا على مصر (........)[1] ثم سمع عمرو بن العاص بغارة الكفار على طنجة وجعل تحت إمرة موسى بن نصير جيشًا قوامه خمسون ألفًا من مصر، وكان الملثمون حكامًا على أوجله فمضوا إلى طنجة وحاصروا قلعتها وفتحوها بقوة سواعدهم، وسكن الملثمون هؤلاء قلعة طنجة وتناسلوا وأصبحوا خلفاء وخلافتهم لهذا السبب، ودام ملكهم (   )[2] عامًا.

سلاطين آل بنى حرين

وهم سبعة من ملوك فاس ومراكش، وبعد مائتين وثمانين عامًا دالت دولتهم، وانتقل ملكهم لغيرهم إلا أنهم كانوا قومًا غاية فى نجدتهم وبسالتهم، وأغاروا على أسبانيا والبرتغال بألف سفينة وحصَّلوا منهم الخراج.

سلاطين أشراف آل الكاملين

وهم فى فاس ومراكش والمغرب سبعة، ويسمون أشراف الكاملين، فمن أسمائهم مثلاً نصر الدين الكامل وسليمان الكامل، وقد أغار سبُّوعُ الكامل على مصر، ولما اقترب من مصر بجيش عظيم وفى أرض البحيرة فى مصر بمدينة حوش عيسى هبت ريح عاتية عصفت بالجيش وأهلكته عن آخره، وانتهت دولة الكاملين بالشريف سبُّوعُ هذا.

دولة بنى الأغلب

حكام دولة إفريقية عشرة، ويسمون الأغلبين وكانوا على الدوام مع أسبانيا فى قتال ونزال، دامت دولتهم (   )[3] عامًا. والآن فى أرض المغرب إذا كلم أحد آخر فخورًا متباهيًا سأله قائلاً: أأنت من بنى الأغلب وهذا مثل سائر، وبأمر الله إذا شد عشرة منهم على عدو كانت لهم الغلبة عليه، ودامت دولتهم (   )[4] عامًا، وبعدهم:

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة بنى كلب

وهم تسعة فى جزيرة صقلية، لهم البراعة فى الملاحة، وهم بسفنهم يغيرون على الأعداء، دامت دولتهم (   )[1] عامًا، جاء بعدهم:

دولة آل باديس

إنهم فى أفريقيا ثمانية، دامت دولتهم (   )[2] عامًا.

دولة آل بنى حفص

اثنان وعشرون حكموا ولاية تونس وأفريقية وفى عام ٦٠٣ ستمائة وثلاثة فتح عبد المؤمن الأموى هذه الديار بألف سفينة، وولاه بنو حفص حاكمًا، وأصبح خليفة وتسمى ذريته آل بنى حفص، وهم ينتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب، وجاءت بعدهم:

دولة سلاطين فاس

فى المغرب مدينة عظيمة هى فاس وبما أن لهم عرشًا يسمون ملوك فاس ودولتهم مستمرة منذ عهد بنى العباس إلى يومنا هذا[3].

وأسماؤهم هى هارون فاس ومنصور فاس، ومملكتهم على ساحل المحيط إلا أن البرتغاليين أحيانا ماكانوا يستولون على قلاعهم لأنها كانت مشاع مع فرنجة البرتغال.

دولة سلاطين مرانكش العظام

فى جزيرة مصر لا وجود لدولة أقدم منهم يملكون مليون من الجند، وهم على المذهب المالكى، وليس فى دولتهم ثغر، والآن وهب الله مال قارون الهند لبلاد مرانكش هذه، ويسمون ملكهم السلطان، وكلهم بيض البشرة، لكن لم يتيسر لى الوصول إلى ديارهم وبينهم وبين البرتغاليين حروب، وفى جنوب مملكتهم:

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) يعنى زمن المؤلف.

دولة سلاطين السودان

وهـم يسمـون الملك مـن ملوكهم بدلاً من سلطان سودان، مثل محمد سودان وعبد الله سـودان وهـم على مذهـب الإمام مالـك، وهم أهل بحر، وإذا انتقلت الخلافة من أحدهم إلى الآخـر دون موافقتهم لا يصـبح خليفة ودولتهـم منذ سبعمائـة عام، ولهم جنود لا يحـصون كثرة، ولهم الآن مائة حـصن حصين وسد متين وقـلاع، وهم على الدوام فى حرب مع البرتغاليين، إنهم أهل شجاعـة ونخوة وقد اختلطت بهم كثيـرًا فى بلاد الفونج إنهم بيض الأجسام ضخام وعيونُهم فى موضع حواجبهم، أكثرهم بحَّارة.

وصف دولة سلاطين فونجستان

هم قوم عرب سُمر البشرة يسكنون ساحل النيل، ولهم جنوب خط الاستواء عشرون قُناق، وملـكهم يسمى المـلك، ويعتقدون فـى أبناء الشيخ الـبكرى، إنهم ملـوك أتقياء صلحاء، ليـس لهم سكة ولكن فى الخطبـة يذكرون ملكهم الملك عطـاء الله، ويسمونه ماى أى السلطان، وفى الناحية الشمالية:

دولة ملك بربر ستان

ويسمون مدنهم دنقـلة وهى مدينة فى حجم البلدة على ساحل الـنيل، وهم جميعًا سُمر البشرة إلا أنهم غاية فى الجمال، وليس لهم سكة، ولكن يذكرون فى الخطبة الملك إدريس والمـلك حمـد والملك حـسن، وسيأتـى الحديث عـنهم فـى موضعـه، وهؤلاء البربرستانيون أتقياء وعلى مذهب الإمام الشافـعى ويطلقون على ملوكهم اسم دنقل مثل دنقل إدريس، ودنقـل حميد ودنقل إلياس، ولـسانهم هو اللسان الـعبرى، لأن إدريس بعث فى هذه الديار.

دولة آل قِرْمَانقة

يسمون ملكهـم ققان، مثل عادى ققان، زوال ققان، إدريس ققـان، إنهم مسلمون، ووجوههم ضاربة للحمرة، إذا أوقعوا فى أسرهم قومًا كافرين باعهم النخاسة فى مصر، وهم يتكلمون السريانية، وهى لغة صعبة.

دولة آل بغه ونسكى

يسمونهم بغه ونسكى، ومملكتهم فى الصحراء على الجهة الغربية، إنهم عراة عيونهم صفر وحمر، إلا أنهم لا يؤمّنون جيرانهم، وليس لهم سكة، وفى الخطبة يسمون ملكهم عمران، أى السلطان، مثل ذلك على عمران، كمال عمران، ومهما كانت أسماؤهم يضيفون إليها كلمة عمران مثل الصُهَيْب عمران، وقد استولى هؤلاء القوم على الحبشة وما بين النيل، إنهم عراة.

ويخافهم جيرانهم لما لديهم من أسلحة، وسلاحهم ينفذ فى الإنسان كأنه مبضع وهم يختلطون بالبرتغاليين فى الأغلب ويشترون منهم ويبيعون لهم، ومنهم من يعمر ألف عام، وسن الفيل وقرن الكركدن وجلد الزواحف والذهب والزباد غاية فى الكثرة عندهم ولا يفهم لغتهم سوى البرتغاليون أولاد الزنا، وهم يجعلون كلامهم بالإيماء والإشارة، ويستخدمون ذلك فى المعاملات والمهملات، أئمتهم فى الخطبة يوردون الآيات والأحاديث ويذكرون بالحشر والنشر، ويسمون لسانهم العمرانى، ولم أسمع لسانًا مثله، وسوف أورد بعضًا من ألفاظه من بعد.

دولة ملوك ذى اليزن

يسمون ملوكهم ناصر يزان وقاسم يزان، وهى تخفيف ذى اليزن، يقولون قاسم يزدان أى إنهم ينتسبون إلى سيف ذى اليزن، إنهم مؤمنون موحدون على المذهب الشافعى، سود البشرة وليس لديهم سكة، ولديهم ذهب كثير ولكنهم لا يعرفون له قيمة، وقد رأيت فى فونجستان مدينة تسمى شولومقاى، وقد التقيت مع بعض من قوم ذى اليزن، إلا أن لغتهم صعبة، ولقد جئت برجل من أولاد فونج يعرف لغتهم ليترجم لى، وسألته فقال: نحن اثنا عشر ملكًا، وكل ملك منهم له ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جندى، وقد أحطنا بديار الحبشة من الخلف، ولولانا لاستولى البرتغاليون على الحبشة.
إلا أن قائل ذلك كان منهم والله أعلم، وإذا ما وقف قرد على قدميه ومشى أشبهه.

إن أفخاذهم كأرجل الجراد وبطونهم سود، وأجسامهم غاية فى النحول، وجميع بنى آدم يخافونهم، أما الأقوام الآخرون فهم لا يعرفون الكفر ولا الضلالة ولا الحشر والنشر

ولا الجنة والنار، وكأنهم حيوان ناطق، إلا أنى لم أرهم والله على ما أقول شهيد.

دولة بنى آل هلال

تقع دولتهم فى أرض المغرب بجانب أوجلة، ومدينة بنى هلال تقع قبالة جزيرة كريت، وكانت مدينة عظيمة فى الزمان الخالى، أغار عليهم الأسبان وقتلوا ملكهم، وكان بنو هلال هم هؤلاء الملوك وبذلك انقرضوا والآن من ذريتهم قوم بنى هلال، وهم مئات آلاف من العرب الرحل، وحيواناتهم كثيرة، ولما كنت فى عسكر الإسلام وجدت عندهم زيتًا له رائحة المسك وهم يحضرونه إلى مصر، وهو زيت غاية فى اللطف، وقديمًا كانوا يطلقون على ملوكهم اسم هلال مثل نور الله هلال، صنع الله هلال، فضل الله هلال، وقد أقاموا فى صحراء بلاد المغرب.

دولة آل افاريقة

إنهم جنود عظام وكثير من أثريائهم يسكنون المدن، ويحكمونها ويسمون أفريقه وفى الجمع أفاريقه.

دولة ماى بورنو

إنهم ملوك سُنّيون حَنْبَلِيون، وقوم مسلمون موحدون، يسمون ملكهم ماى مثل ماى سنجال وماى عباس وماى صادق، وماى بمعنى سلطان، لا سكة لهم وبدلاً من النقود يستخدمون الخرز، ويرسلونه إلى مصر ويأخذون الذهب، وملوكهم ونساؤهم بدلاً من التزين باللؤلؤ يتزينون بالخرز، وفى كل عام يصل الحجاج فى ثمانية أشهر إلى مصر عن طريق صحراء الأشراف، إلا أنهم يستولون على الذهب المصرى، وقد تيسر لى أن ألتقى بالملك ماى سنجال الدين ولكى يمضى إلى الحج كان معه ألف جمل تحمل الذهب، وكان قد ستر وجهه كأنه امرأة محتشمة.

دولة آفنو

هم سبع قبائل قبيلة منهم مسلمة، ليس لديهم سكة، ولكن لهم خطبة، إنهم سمر

البشرة، وغيرهم لا يعرفون ما الضلال، وبما أنهم ليسوا على المذهب السنى يأسرون غيرهم فى الحرب ويبيعون أسراهم فى أوجله ومصر، وفى هذه الجزيرة كثير من الملوك إلا أنى لم أشاهدهم ولكنى حسب ما اتصل بعلمى بقدر ما على وجه الأرض ممن يلبسون ثيابًا فى جزيرة مصر عرايا.

دولة ولاية الجزائر

كانوا ملوكًا أصحاب سكة تحت حكم الأسبان، وفى عام (   )[1] فتح السلطان سليمان القانونى بلادهم على يد (   )[2] باشا وهى الآن ولاية ولها وزارة ولهم سكة وخطبة، ولهم اثنا عشر ألف جندى مسلحون بالبنادق.

دولة ولاية تونس

مملكة لها سكة وتحت حكم الأسبان، فتحها السلطان سليمان خان عام (   )[3] على يد دورقود باشا، وهى ولاية ذات وزارة والآن لها سكة وخطبة ولها عشرون ألف جندى.

دولة ولاية طرابلس المغرب

كانت كذلك تحت حكم أسبانيا، فتحها السلطان سليمان خان عام (   )[4] على يد (هالا) باشا، ولها عشرون ألف جندى يحاربون الكفار، ويمتصون دماءهم، ولديهم سكة وخطبة، ولما كانوا تحت حكم الأسبان كانت لهم كذلك مملكة وسكة، ومكتوب على سكتهم صاحب النصر صالح النصّر ضارب النصّر فى البر والبحر السلطان ابن السلطان مراد بن أحمد خان عز نصره. ولهم دنانير بلون المسك لأن الذهب كثير فى بلادهم، وتسمى إيالتهم المحلات، ومن عرب الصحراء من يسميها المحلات، وفى بعض المحلات يحتشد جند الجزائر وتونس وطرابلس ويخرج عرب المحلات للحرب لأن السلطان يغدق عليهم من ماله.

ولو كنت على معرفة بشيوخ هؤلاء العرب لذكرت أوصافهم وأخرجت فى ذلك

(١ : ٤) بياض بالأصل.

كتابًا. أما فـى سكة غيرهم من السلاطيـن فبعد أن يكتبوا عبـارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يكتبون أسماء كل ملك من ملوكهم، وتحت حكم السلاطين السالف ذكرهم وهم: آفنو، ويـورنو، وقرمانق، وبغه نسـكى، وفونج، كان لكل منـهم أسرى. ذلك أنهم إذا حاربوا أقـوامًا أوقعوا فى الأسر ذريتهم، ويَـخْصُونَ صبيانهم وكـان النخاسون يبيعونهم فى مصر.

وهكذا خلق الله فـى هذه البلاد قومًا لهم هـذا الشأن العجيب والسـلام ولقد ذكرنا السلاطين الـذين فى غرب مصر والآن نذكر الـسلاطين فى شرقها وإذا سـأل سائل عن حدودها الشرقية والغربية، فإن النيل يـجرى فى وسطها وغربها الجزائر وفاس ومراكش والسودان. وفى شرقها الحبشة ودهلك وزيلع وبلاد الفونج.

دولة ملوك الدُمْبيَه

الله أعلم بحدودها، إنهم قوم سمر البشرة، وهم عبدة النار، إن لهم مال قارون.

دولة آل حابية

وهم قوم كثير عددهم ويقال لملكهم (رداقاى) وهم من ذرية كنعان بن نوح المرتدين، وهم قوم سمر البشـرة عبوس وجههم، يعبدون الشمس، والحـاصل أن فى بلاد الحبشة سبعين ملكًا، وكل منهم على مذهب، وكلهـم سمر البشرة، لأنهم يسكنون فى المنطقة الحارة، أما فى الناحية الغربية على شاطئ البحر يسكنها قوم بيض البشرة.

أوصاف دولة ملوك الحبشة

كانوا يـسمون ملكهـم فى الجاهلية نجـاشى، ولما ملكوا عـالمًا واسعًا من بعـد سموه سلطان، وفى عام ( )[1] فى عهد السلطان سليمان خان فتح اوزدمير باشا وهو من بقية جند الـسلطان الغورى الشراكسة مع الطـواشى سليمان باشا الحبشة بِـمَدَدٍ تلقاه من

---

(١) بياض بالأصل.

السلطان سليمان، والآن[1] كل عمائرهم وقلاعهم ومســاجدهم من خيراته، وهى بلاد لها سكة وخطبة ووزارة، وتحــت حكمهم أقوام مختلفة لغاتهم، ومنــهم من ليسوا على الإسلام لأنهم كثيراً ما يختلطون بالبرتغال الكفار، كما أنهم ترددوا فى الضلالة، وبذلك يكون كل من فى جِزيرة مصر قد تم ذكرهم، وسوف يذكر هؤلاء الملوك منذ الأزل إلى عهد الملوك المسيحيين.

* * *

(١) يعنى زمن المؤلف.

الفصل الثانى عشر
فى ذكر الملوك المشركين والضالين
الذين ساءت أحوالهم وأفعالهم

أول من كان له الملك على وجه هذه الأرض هو الملك كيومرث وهو من أبناء نوح - عليه السلام - الذين يعرفون بالعمالقة، والملوك الذين ظهروا فى عهد المسيح - عليه السلام - أربع طبقات وسلف ذكرهم، ومع كونه غير مناسب ذكروا، الطبقة الأولى الدارانيون والطبقة الثانية الكيانيون والطبقة الثالثة الأشكانيون، أما الطبقة الرابعة فالساسانيون ولكن الدارانيون لم تنقرض ذريتهم لأن النبى ﷺ دعى لهم بالدوام إلى يوم القيامة.

أولاً: دولة كسرى

من الدارانيين وجمعهم الأكاسرة، كان تحت حكمهم بغداد والكوفة ومصر والحسة والعجم وخراسان وإيران وتوران، وقد ولد النبى ﷺ فى عهد نوشروان العادل، ودعى له، وقد استولى الجنكيزيون على دولته، واستوطنوا جورجيا، والآن[1] فيها.

آل دَاديَان

فى جورجيا يدينون بالطاعة للعثمانيين، وعلى سبيل الهدية يقدمون مطبخ السلطان مائة ألف عنزة وصقر وفتيات حسان وفتيان، وهؤلاء الداديانيون كثرت ذريتهم للطف جوهم، وهؤلاء فى أرض جبلية كثيرة الغابات ينقسمون خمس طبقات:

الطبقة الأولى من آل الجورجيين

وهم يدينون بالطاعة لآل عثمان منذ حملة سفر باشا.

الطبقة الثانية آل آجق باش

وكانوا يطيعون حينًا ويتمردون حينًا آخر، وتعين أرض روم ولاتهم، وهم يسرقون الفتيات الحسان والشبان والأوانى الفضية الثمينة، ثم يتصالحون وهم قوم شجعان بواسل.

---

(١) يعنى زمن المؤلف.

الطبقة الثالثة آل كوريل

وهم أيضًا أربعون ألفًا ومطيعون.

الطبقة الرابعة آل شَوْشَاد

وكان لأنوشروان ولد يسمى شَوْشَاد. إنهم جند كثيرون إلا أنهم مطيعون.

الطبقة الخامسة آل مكْرِل

تعوذهم الشجاعة ولا اعتبار لهم عند غيرهم من الشعوب، وهم رعية لا ملك لهم، وهم يسكنون المنطقة من قلعة قونية بالقرب من طرابزون إلى ساحل نهر جوروغ وساحل البحر الأسود، وهم جميعًا على الدين المسيحى، وانجيليون، ولهم أقطار ذات قلاع ومدن، وإن شاء الله سوف أكتب عنهم تفصيلاً من خلال سياحتى فى بلادهم عام ٥٦، ومنهم ابن لأنوشروان هو هورمز سكن سفح جبل البُرْز مع دادنيى العراق بعد استيلاء طوخطمش خان.

الطبقة السادسة: آل تاجدار. يعنى قوم المجر.

بالقرب من أكره التى انتصر بجانبها السلطان محمد صحراء خرشتوش قلعة تسمى (تورك اوردى) بمعنى جيش الترك وفيها سكنوا، وعندما سألتهم قالوا إننا منجار، أى أربعة أشخاص، ومنجار هو ما يسمى به ملوك تلك الديار، هذا ما يخبرون به، ويقولون إن منجار خطأ والصواب مجار. بعد ذلك انتقل تاجهم إلى قيصر النمسا، وقد فتح السلطان سليمان خان بلادهم وقلعتهم فوجد التاج هناك واحتفظ به فى خزانته، وبعد ذلك أهدى آل عثمان التاج إلى الملك فردينار وهو يشاهد الآن فى ديوان قيصر النمسا.

وسياحتى فى بلاد الألمان فى عام ٧٤ (أربعة وسبعين) سلف ذكرها، وليُعلم أن أصل المجر جورجيون وجاءوا من بلاد العجم وأصبحوا المجر.

الطبقة السابعة ملك موسكو

وهم كذلك من أبناء أنو شيروان إلا أنهم أصبحوا يملكون دولة عظيمة إضافة إلى ما ملكوا فى العالم المحصول.

وقد حكموا فى إقليمين، إنهم إنجيليون، والآن إذا مات منهم ملك يحضرون من جورجيا من الدادانيين ولى العهد ويجعلونه ملكًا عليهم ويلقبوه بالملك.

هذا ما قلناه عن ملوك التتار عندما سافرنا إلى بلادهم عام (   )[1] وذكرناه فى موضعه، وفى ديار موسكو ثمانية وأربعون بان وثمانية عشر وزارة.

دولة بولندا

والبولنديون كذلك من ذرية الداديانيين وهم ستة أجناس وهم جميعًا إنجيليون ويسمون ملوكهم بان.

دولة جه

يسمون ملكهم جهدام، ولهم سكة وهم قوم أشداء.

دولة مجار أردل

ينحدر نسبهم من منوجهر، يسمون ملكهم يورام، كما يسمونه (بتلان غُور) بمعنى الملك الأعظم، ولكن عوام الناس يسمونه قرال وهم يدينون بالطاعة لآل عثمان، ومملكتهم أربعة أقسام: قسم يسمى حايد أوشاخ، ومنهم أردل، منهم قوم صاز، ومنهم سيكل، ورعاياهم الأفلاق ولهم سكة، ويسكون عملتهم فى قلعة (ازدر) ولهم ولايات معمورة وقد غزوت هذه البلاد مراراً وكتبت عنهم.

دولة المجر الوسطى

ينحدر نسبهم كذلك من منوجهر، إذ إن فى لغتهم ألفاظ فارسية كثيرة، ولهم قلاع هى فُلَكْ وسضمَنْدِرَه وكَرْمَات وسِجَان، أقطارهم قليلة، لكنهم أبطال كفار وسكتهم تسمى زُولَطَة. إنهم يتبعون النمسا ويسمون ملكهم بِلَطْنُوش.

دولة إسفاح

قطر عظيم على ساحل البحر المحيط، أهله كفرة، ورعاياهم مليون من التتار المهاجرين، ولم يعترفوا بجند سوى جندهم، ولقب ملكهم (انْبراسفَان) و (انبرردال)،

(١) بياض بالأصل.

لهم سكة وهم كفار شداد، ولا طاقة لقيصر النمسا بهم، وفى حقبة من الزمن هى مائة وعشرون عامًا حكمهم كثير من الملوك، وهم إلى الآن يخوضون الحروب.

بمعنى دولة هولندا العتيقة

يسمونها فلمنك العتيقة وفيامنك، وتقع فى الجانب الشرقى من نهاية خليج متشعب من البحر المحيط، وعليهم ملك مملكته بلا نهاية، ولقب ملوكهم (مستردام) بمعنى أعلى الناس قدرًا، ولهم ثلاثة آلاف سفينة ولا وجود فى بلادهم لأشجار كبيرة، ولذلك بنى الإنجليز لهم سفنهم ولهم سكة وعملتهم الذهب والريال الامبراطورى وحاضرة ملكهم امستردام وقد بلغناها عام (   )[1] وكتبنا عنها.

دولة الدانيمارك

يسمون ملكهم (انكور) وبلادهم كذلك على ساحل البحر المحيط، وجزيرة الإنجليز قبالتهم وأرضهم متراحبة الأرجاء، وهم سبع ممالك تبع النمسا. وسكتهم من الذهب والريال الألمانى الإمبراطورى، وحاضرة ملكهم (   )[2].

دولة دونقارقيز

لقب ملكهم (دونقارقه)، هذا اللقب خاص بالملوك وهو بمعنى سلطان، والإفكل ملك له اسمه وقد مضيت إليها فى شهر رمضان من عام أربعة وسبعين، وملكهم يشترك فى الحكم مع أختين، وحاضرة ملكهم مدينة لونجاط وهى بلد بها سبعة وزراء للملك لأن قبالتها جزيرة الإنجليز الكبرى، وميناء أمريكا والأمريكيون فيها كثير، ويستوردون الذهب وشجر أمريكا وعظم السمك الذى يشبه قوس قزح ويدفع عليه ضريبة، وينال كل من الملوك السبعة نصيبه. ولونجاط مدينة لها مساحة اسطنبول، وحولها حدائق ولذلك تبدو مدينة كبيرة ولكنها ليست كاسطنبول تمامًا. وما أطيب جوها وقد سلف أن وصفتها بالتفصيل، وعلى سكتها صورة بنتين إحداهما بجانب الأخرى، ولهم نوع من السفن تحوى سبعة طوابق من المخازن وثلاثة من مدافع من

(١ ، ٢) بياض بالأصل.

البرونز، وثلاثة آلاف رجل وألف بحار ماهر ويبحرون إلى الهند والصين وأمريكا.

ولدونقارقـة سفن بها أسواق وطـواحين تديرها الخـيل، وحمامات، وفى مـؤخرتها حديقة وهى تستحق المشاهدة.

دولة النمسا

ويسمونها ملك ألمانيـا ولكن سائر ملوكها لهم ألقابهم الخاصة بهـم ويسمونهم قيصر النمسا وإمـبراطورها ومعنى ذلك ملـك الملوك، وقد سلف ذكر ذلك، هم شـعب كبير العدد ولهم جيش لا حد له وهم ملوك من ألف وسبعة أعوام ولهم ألف وسبعمائة قلعة لكل منها سد منيع.

وحاضرتهم (بج، وبراق) وعلى سكتهم صورة ملوكهم الخاصة، وهم من نسل الملك «هوشنك» وكـان تاجهم على الدوام فـى قلعة (بوجن) ومنذ أن فـتح العثمانيـون قلعة (أويوار) جاءوا بالتاج من قلعة يوجن إلى قلعة براق، وقد أوردت أوصافهم عندما زرت بلادهم عام سبعة وأربعين.

دولة الإنجليز

من ألـقاب ملـكهم أيرلانـده، وهو ملـك عظيـم صاحب سكـة، إلا أنى لم أبـلغ ولاياتهم، ولم يقوموا بثورة طوال تاريخهم، وهم يعيشون على التجارة، وكل حكومتهم ثلاث جزر عظيمة وحاضرة ملكهم لونده وهى مدينة عظيمة على نهر لونده، وتقع فى جزيرة مساحتها ثمانية آلاف ميل، ليس للإنجليز حكم فى شواطئ ألمانيا.

دولة المجر الصغرى

تتبع قيصر الـنمسا، ثاروا غير مرة على النمسـا، وتبعوا العثمانيين ومعـظم مملكتهم فـى حوزة آل عـثمان، وهى بورغه وقنـزه وأوسِّك والبوا، واوبجوى وشـكلوس. وقد بقـوا الآن فى ولاية مـصلوون ويسـمون حاضـرة ملكـهم الفرادجـق، وجقه طـورنه، ويسمون مـلوكهم هرسك. إنهـم سبع طبقات كفار، ويـذكر كل منهم باسـمه، أولهم زرين أوغلى الـذى سكن طورن وبكان أوغلـى له ولاية (سلوون) و (نَيَـاز أوغلى) وله

ولايات (صَمَّاى)، و (شِوار أوغلى) وله مملكة (   )[1] وحدود نهر رابه طريق شديدة الوعورة.

وفى عام أربعة وسبعين انهزمت مع الوزير أحمد باشا كوبرلى اوغلى وذلك بسبب سوء تدبير ودودوشقه اوغلى.

وسكتهم من البرونز وفى داخل ظادرَدَان وساحل خليج ونديك دودو شقستان أرض حجرية، أما فى عام (   )[2] كان أحمد باشا قائدًا علينا ولقد كتبتُ أنه أغار على تلك الولاية بجيش قوامه ثمانون ألف مقاتل ولكن ثمة هرسك آخر غير أن قدمى لم تطأ ولايته لذلك لم أكتب عنه.

دولة البندقية وهى البلاء الأكبر

يسمون ملوكهم بج برم وهم أربعون عاهلاً، ومن هؤلاء الأربعين سبعة أمراء (بكوات) واحد منهم سلطان يحكم، وعاصمتهم البندقية فمعظم مدنهم مع مدننا منغصات، ومصالحات، (. . . . .)[3] وإذا ما وقع أمر يتعارض مع الصلح جاءوا كأنهم الجرب الأفرنجى وبقوا وتجولوا عشرين أو خمسة وعشرين عامًا، إنهم ملاعين وبقبول الصلح مع كوجيله يأتون بالطاعون الأكبر.

دولة دويره ونديك

ألقاب ملوكهم (جَارنًا) وهم يستخدمون اللاتينية لغة، وعند ظهور الدولة العثمانية تنبأوا بأنهم سيفتحون الدنيا، وقدموا إلى السطان أورخان غازى فى بروسه وعقدوا الصلح معه بناء على صلح من سبعين بندًا وجملة هذا العهد مائة وأربعين بندًا، وهى تسجل كل ما فى الأرض وجميع ما فى السماء وما فى البحر فى دفاترهم.

وهم يبرزون ما لديهم من أوامر سلطانية وعهود ملكية لسبعين ألف ملك من القدماء. إلا أنهم لم ينكسوا عهدهم قط مع جميع الملوك فى جميع الأزمنة وقلعة دوبرة ونه ديك تقع بالقرب من قلعة نووه فى إقليم الهرسك، وهى ولاية صغيرة وقبالتهم خليج البندقية.

(١ : ٣) بياض بالأصل.

ولاية التفاحة الحمراء أو دولة البابا

ويسمون ملوكهم (بابا). وهم يتولون الفُتْيَا نيابة عن عيسى ـ عليه السلام ـ فى بلاد المسيحيين ويسجد لهم كل ما فى البلاد المسيحية ويجلونهم، والعجيب أن رياضة الامتناع عن الطعام عندهم هى القديد المحض الذى يسد الرمق ويمسك الروح على الجسد، وبما أنهم على ذلك فإن الواحد منهم يُعمر مائتى عام، والبابا الذى كان على عهد مراد الرابع ثبت أنه مات وله من العمر ثلاثمائة عام، «يا اسفًا له فقد بقى عاجزًا فى حبالة الجهل». ولكن فى رأى ليس هذا مستبعدًا، فقد رأينا فى صحراء القبجاق من الناس من عاش مائتين ومائتين وخمسين وثلاثمائة عام وهم يركبون الخيل وينزلون عنها، ومن لا يعرف رياضة الامتناع عن الطعام يعيش طويلاً هكذا.

دولة فرنسا

يسمون ملوكهم (الملك العظيم) وملكهم عظيم وهو يمت بصلة القرابة إلى آل عثمان وهو يحكم على ساحل البحر الأبيض، وما على ساحل البحر المحيط. وحاضرة ملكهم مدينة باريس، إنهم يملكون آلاف القلاع والسفن.

دولة جِنوز

يسمون ملوكهم (جنوان) وولاياتهم قليلة، يعيشون على التجارة وهم كفار، والآن يعيشون فى سلام مع آل عثمان. وبينما كان فى اسطنبول سبعة سفراء للملوك أصبحوا به ثمانية.

دولة إغرا ندورقه

ملك آخر من الفرنجة لشعب مسيحى يسكن ساحر البحر الأبيض، وعاصمتهم مدينة الأغورنه، ولا تبلغ دولتهم مبلغ فرنسا، ويعيشون على التجارة فى البر والبحر، ويسمون ملوكهم (اغراندو) ولهم جيش وسفن.

دولة البرتغال

يسمون ملوكهم (. . . . . . .)[1] ولم يقبلوا الصلح مع أحد على طول الزمان، وهم متكبرون متجبرون كفرة، إلا أنّهم مسيحيون ومذهبهم لا كاثوليكى ولا بروتستانتى، وحاضرة ملكهم هى مدينة (. . . .)[2] بالقرب من مضيق سبتة وساحل البحر المحيط كله فى حوزتهم، وقد ملكوا فى الهند سبعمائة جزيرة ووصلوا الصين والصين الكبرى وختا وختنه، وقد طاف البرتغال حول هذه الجزيرة آلاف المرات وأكثرهم من الكفار. دانت لهم الهند.

مملكة الأفلاق

كان لهم دولة عظيمة فى سالف الزمان، وخضعوا لآل عثمان وهم الآن يؤدون الخراج، وولاياتهم على ساحل نهر الطونة ولهم حاضرتين وهما مدن بُوقْرَش وتَرْقُووِش.

دولة بوغدان

كانت كذلك دولة عظيمة وقد استولى السلطان با يزيد ولى على آق كرمان وقلعة كلى منهم فى بداية حكمه؛ فأدوا الخراج له وكم من ملك فى روملى بلاد الكفر، وانقرضت دولتهم بقيام الدولة العثمانية وضُمَّتْ ولاياتهم إلى سائر الولايات الإسلامية مثل: اسلوون وقورول وطوت وكروات والصرب والبلغار واللاتين والهرسك، ووينيق واللاز وحيلاز، وقزاق عاق وروس منحوس والبانيا ونابود، وروم والمورة ودوجاقونا روم وروماني ولازروم.

هذه الدول الحقيرة من الدول الملكية اضمحلت، وبقيت كل منهما فى ظل حماية ملك، ولكن حمداً لله فقد أصبحت الكروا والبلغار والصرب وووينوق والألبان من رعايا الدولة العثمانية.

(١ ، ٢) بياض بالأصل.

دولة بلاد الجركس

ليست دولة ملكية ولكن لهم أمراء فيما بينهم، ويقال لهم مرزه وكلهم رؤساء عشائر، أولاً الجركس في جزيرة طمان: وهم يطيعون أميرهم وفي الطرف المقابل لنهر قوبان الجركس الشغا، وهم كذلك من الأتباع، بعدهم عصاة الشغا جركس الكبار، منهم كذلك جركس الزانا، ثم والية مامالوقه حاتوقاى وهم عصاة كذلك، ثم ولاية الجركس بولتقاى وهم عصاة كذلك، ثم ولاية الجركس البوزدوق عصاة متمردون، وولاية جراكسة بَسْنِى عصاة، وهم جميعًا جنود شجعان، ثم ولاية جراكسة أدمى أعداء البشر، وولاية جراكسة تقـقو قوم شداد، وجراكسة ولاية قبارتى يسمون أميرهم طاوسطان، ويسمون بكواتهم مرزا ولهم أربعون ألف جندى، أما أنا ففى عام ألف وسبعة وسبعين مضيت مع محمد كراى خان أوغلى وسلطان كراى إلى مدينة (صُهومة)، والحمد لله أنه فى هذا العام المبارك شرف كل جراكسة قبارتى بالإسلام، وأهلكوا كل ما لهم من خنازير وطرحوها فى نهر جَنْجكه، ووسعوا المساجد وقد صَعّدت أنا الآذان وأنا أول من أمّ المصلين، ولكن غير الجراكسة ليسوا مقيدين بمذهب خاص، وإذا قلت إنهم كفرة قتلوك وإذا قلت إنهم مسلمون فلا طاعة ولا عبادة لهم، إنهم قوم أمرهم عجاب وسوف يشرفون باعتناق الإسلام إن شاء الله.

وجراكسة ولاية طاوسطان من رعايا الملك شامخال خان ملك داغستان وهؤلاء القوم يسكنون سفح جبل البُرْز ومن القرم إلى هذه المحلة سبع وتسعون قناق. وفى الجانب الشمالى من بلاد الجركس فى صحراء القبجاق أربعة ملوك (من القالمق).

ذكر الحكام الذين سكنوا صحراء القبجاق وغيرها

دولة طيسى شاه

فى الجانب الشرقى من صحراء هيهات بجانب قلعة الترك عبر مليون من القلمق نهر اديلى إلى القبجاق، وسكنوا هناك، وهم لا يعرفون الكفر والضلالة والحشر والنشر والآيات والأحاديث والجنة والنار ولا يكترثون بالدنيا، إنهم يأكلون لحم كل ذى روح فى هذا العالم، ويلبسون الجلود ولا يشربون الماء وما أكلوا الخبز، ولا يصيبهم الطاعون

وذات الجنب والحمى والأوجاع، ولا يعرفون الشيخوخة إنهم يشربون البوزة والقمز ولبن الفرس، ومنهم من يُعمر ثلاثمائة عام، ومائة ومائة وخمسون عامًا أدنى ما يعيشون. ولما عدت من داغستان كتبت عنها تفصيلاً.

دولة مونجاق شاه ابن طيسى شاه

إنهم كذلك مليون من القَلْمَق، وهم كذلك لا يعرفون ما الإسلام وما الإيمان وما الكفر، إلا أنهم شجعان أشداء.

دولة قوبا قلمق

إنهم مائة ألف أسرة من البدو يسكنون جانب نهر قوبان، وأتيحت الفرصة لأرسلان بك ونوروز بك اللذين يسكنان بلاد الجركس للإغارة على النوغايين وأسروا منهم، والآن فى قلمق خمسون ألف من مسلمى النوغاى فى الأسر.

دولة جاقار قالمق

إنها فى الطرف الآخر من نهر اديلى، وهم خمسمائة ألف، إلا أنى لم أعبر نهر اديلى إلى ناحيتهم ولم أر هذه الطائفة إلا أن القالمق يخافونهم كثيرًا.

دولة كوك دلن قالمق

كانوا خمسمائة ألف لعين وهم يسكنون المنطقة بين نهر اديلى ونهر جايق، كانوا أكثر سحرًا من القالمق الآخرين.

دولة اورومبت قالمق

كانوا كذلك خمسمائة ألف لعين وكانوا يسكنون ساحل نهر اديلى والنغايون فيهم لا يحصون كثرة ديو غيرى نوغاى نقل ايدرلر.

دولة صقار قالمق

ثمانمائة ألف لعين كانوا يسكنون القبجاق الكبرى، وهذه الطائفة جميعًا تسكن خيامًا على مركبات، وهذه الطائفة تسكن فى كل يوم أرضًا معشوشبة ذات ماء، ولهؤلاء الملاعين سبعة عشر ملكًا وهؤلاء يعبرون إلى الصين والماصين والختا وختنه وفغفور والبلغار إلى العالم المظلم من أرضهم المتجمدة، وفى الجانب الآخر فى زعمهم أنهم

يسكنون الدنيا البيضاء، وأن ماء الحياة فيها، ويقولون: نمضى إليها لنعيش أبدًا، وجميع أوصافهم مذكورة من قبل، ومما لا ريب فيه أن بنى الأصفر منهم اللهم عافنا.

ذكر أحوال الأبخاز[1] الضالين

يسكنون ساحل البحر الأسود، جميعهم (   )[2]، إنهم عشائر متناحرة متحاربة، لا دين لهم ولا كتاب، ولا يعرفون ما الحشر ولا النشر وهم فى ذلك يشبهون الجراكسة ولهم منازعات فى الشمال مع الجركس، وفى الأحايين يحاربون الجركس والمكرل، والمكرل يسكنون شرقهم ويفصل بينهم نهر فاشه وأصل هؤلاء الانجاز والجراكسة عرب، وقد ذكرناهم آنفًا، والجراكسة والانجاز فى مصر أصلهم من هذه الأرجاء الذين نذكرهم عشيرة عشيرة.

أولاً ولاية أبخاز الجاج المشاعة مع مكرلستان

يتكلمون اللغة المكرلية ويسمون أمراءهم جاجه، إنهم عشرة آلاف. ومنهم:

ولاية أبخاز ارلان

ميناؤهم لاجيفار، وهؤلاء عشرة آلاف شجاع. ومنهم:

ولاية أبخاز جندا

ميناؤهم قَاقِر، ولهم أمراء، وهم خمسة عشر ألفًا، ولا وجود لحسناء من النساء ولا وسيم من الرجال منهم، ويسمونهم (داغ جاندالرى) أى جاندالو الجبل، وهم على مسيرة ثلاثة قناق غربًا. ومنهم:

ولاية أبخاز جندا الكبار

إنهم خمس وعشرون قرية، وخمسة عشر ألف جندى، لهم ميناء وخلف جبال انجازيا منطقة يسكنها جراكسة المامشوخ، وكانوا يتحاربون مع الانجاز فى اتصال ودوام.

---

(١) الأبخاز هم: شعب الاباظة، أو الأباظية.

(٢) بياض بالأصل.

ولاية أبخاز كج

وهم قوم فى حدود الألفين، لهم عسكر كثير من الفرسان، وهم مشهورون لذلك بالفروسية.

ولاية أبخاز ارت

وهم ثلاثون ألفًا، ولرجالهم الشهرة باللصوصية، ويسمون ميناءهم كبوس ولهم ميناء لطيف، وكثيراً ما تشتو سفن اسطنبول هناك، وفى جبل ارتلر:

ولاية أبخاز صدشه

ليسوا جراكسة ولا من الانجار تمامًا، إنهم عشرة آلاف وسيدى أحمد باشا وصل إلى ولايتهم. وإذا ما سألتهم أهم من الأبخاز؟ أقسموا أنهم من رجال الصدشه، وهم على مسيرة ثلاثة (قوناق) على الجانب الغربى لبحيرة آبى.

ولاية أبخاز قامش

لهم أمراء، وهم عشرة آلاف شجاع، وميناؤهم لا يستخدم كثيراً لأنهم عصاة عتاة، إلا أن المسلمين الذين يأتون من مصر وبلاد الترك كثيرون وديارهم غينمة وهى ثلاثة قوناق.

ولاية أبخاز سوجه

لهم أمراء. وعشرة آلاف جندى، وميناؤهم مستخدم كثيراً، وهى مواجهة لكفه على ٢ قوناق منها.

ولاية جراكسة البوزدوق

لهم أمراء وموانئ وهم عشرة آلاف، ولقد أخذ منكلى كِراى خان من هؤلاء القوم عشرة آلاف رجل لمحاربة ازدرخان، واستطونوا بلاد الجركس ومن ميناء البوزدوق حتى ساحل البحر الأسود ٢ قوناق.

ولاية عشيرة قوتاس الأبخاز

ولهم أمراء وموانئ وسبعة آلاف جندى، ومن ميناء أنابا بالقرب من طمان، قناق إلى الأبخاز، وهؤلاء القوم مشهورون بطاعتهم لأن فيهم على الدوام جند القرم وطمان، وفى هذا الموضع كذلك اثنا عشر قومًا من الأبخاز. حقًا إن نساؤهم حسان ورجالهم

مشهورون بالشجاعة، إنهم قوم شجعان وهم فى الأصل عرب، وفى عهد خلافة عمر بن الخطاب كانت هذه الديار لكفار الجنويز وقد أعلنوا العصيان على بلاد العرب، وقدموا إلى جنويز واتخذوها ملجأ، وسكنوا تلك الديار، وهم يتكلمون اللغة الأبخازية، لكن فى جبال الأبخار اثنتى عشرة عشيرة ولكن لم يكن لنا فى بلادهم سياحة، إلا أننا سمعنا بأسمائهم واختلطنا برجالهم.

أولاً: عشيرة بوسُوخُو بالقرب من جبال مكرل، وكذلك عشيرة آج جبسى وعشيرة بَسْلَبْ ومكله، وعشيرة آيبغا، وعشيرة والاقرِبْشْ وعشيرة جما قورش، وعشيرة ماجا، وعشيرة بانجارش، وحكامهم كذلك أمراء، ولكل قبيلة بين عشرة واثنى عشرة، وخمسة عشر ألفًا من الجند، وبما أن أرضهم وعرة وكثيفة الغابات فهم لصوص ولا طاقة للأبخار ولا الشركس بهم.

وبلاد الجركس هى التى تمد مصر بجنودها، إنهم من أهل الضلال وإن بدوا مسلمين، وإذا سألن الواحد منهم: مَن أنت؟ ألح على قوله إنه مسلم. وانتسب إلى الإسلام، ولذلك من شرف منهم بالإسلام يعد مسلمًا غالٍ، فإذا وجد فى الأبخاز والجركس كافر قتلوه، وهم على الدوام بغاة عتاة.

ذكر أحوال الروس المنحوسين

أى القزاق العققة

تحت حكم ملوك له وموسكو سبعون فرقة من الملاعين وهم قوم استولوا على العالم. وهم تارة يتبعون خان التتار وتارة أخرى من موسكو إلى بولندا وثالثة من بولندا إلى ملوك قرانلق.

وأحيانًا يشقون عصا الطاعة وهم بخمسمائة سفينة يغيرون على سواحل البحر الأسود الأربعة ناهبين سالبين، ثم يعودون بهذه السفن إلى بلادهم المنحوسة، أولاً فى جانب نهر اوزو قَطْمان قرداش قراق، ثم خطمان دور زنقه وخطمان سركه، وخطمان إخْمِل نج، وخَطْمَان بِرَابَاش وخطمان أَنْدرِيَا وخطمان شَرَه مَتْ، وخطمان زابور وسقه، وخطمان خَرنَسْتِيان، وخطمان أومان، وخطمان كورلو، وخطمان جَهْرِل، وكم من

خطَمَان فى تلك القبيلة الكفارة.

ولكن فى عام واحد وخمسين أغار عليها كيراى خان واستباحها وحررها من الكفار.

وهؤلاء يتبعون بولندا أما من يتبعون موسكو فهم سبعون خطمان وهم على ساحل نهر تَنْ الذى يجرى تحت قلعة ازاق.

أولاً: تن خطمانى هو رئيس سبعون خطمان، ويسمون قلاعهم بأسماء غيرهم، وجميع قلاعهم على ضفة نهر تن من الخشب وجركس كرمن ومنجه كرمن وسَوَاكرْمَنْ وإسُوركرِمَن ومُورِق كِرمن وتوقاى كرِمن وبراص كِرْمَن والحاصل أنه من ساحل نهر تن إلى أزاق بمسيرة ثلاثة أشهر سبعون خطمان، ويعرفون بالكِرْمَنْلَر وهم القزاق العققة. وقد انتهى ذكر هؤلاء الملاعين فى هذا الموضع.

أما كفار الروم واليهود والقبط فكل منهم رعية لمملكة، خاصة إن الروم والأرمن ليس لهم مستقر فى بلاد العثمانيين، إنهم من المسيحيين، وكان لهم مَلك فى دمشق وحلب وأنطاكية.

دولة آل قيصر الروم

وجمع قيصر قياصرة، والملك هرقل أطولهم عمرًا، وقد استولى على مصر كذلك، لقد كتبنا ما يختص بذلك فى تلك البلاد فالمسلمون والمسيحيون جميعًا يريدون القدس ومصر.

دولة القبط

كانت لهم ملك مصر ويسمون ملوكها قبابطة، دامت دولتهم أربعمائة عام، من طبقاتهم طبقة تتألف من سبع وأربعين، ثم دالت دولتهم وانضمت دولتهم إلى دولة العمالقة ثلاثمائة عام، ثم عادت دولة القبابطة ودامت دولتهم الثانية مائة وثمانية وثمانين عامًا وعددهم (   )[1].

أما فى عهد المسيح عيسى ويحيى وزكريا فكانت دولة:

(١) بياض بالأصل.

اليونـان

اعتنقوا المسيحية ومنهم كذلك.

دولة البطالسة

ومنهم ثمانية من الحكماء، ويسمون الواحد منهم بطليموس الحكيم؛ ولذلك يُعرفون بالبطالسة وجملتهم أربعة عشر ملكًا إلا أنهم كانوا رجالاً لهم عقل أرسطو، حكموا مائتين وسبعة أعوام وأفلاطون وأبوقراط وسقراط وأرسطاليس وفيثاغورث وفيلقوس فيلسوف جميعهم من اليونانيين كما أن الإسكندر يونانى، ويسمون الملك فى عهده شهريار، وفى ذلك الزمان ملك اليونانيون الدنيا وحكموا من المشارق إلى المغارب، أما مَنْ حكموا الدنيا من أقصاها إلى أقصاها فأربعة، اثنان منهم مسلمان والآخران كافران، أما المسلمان فهما سليمان ـ عليه السلام ـ والإسكندر، ومن اليونانيين يانقو بن ماديان وبخت نصّر، وهذان ملكا الأرض من أقصاها إلى أقصاها. والآن من الكفار والمؤرخين من ذكروا أن الأرض على صورة ثور أسود، وقالوا إن عدد الكفار ممن يلبسون القبعات السود عددهم بعدد الشعرات السود.

ولله الحمد فإن أمة محمد بفضل معجزاته وبركاته قد شتتت شمل الكفار وأذهبت ريحهم، وقد ظهر بعد ذلك سلاطين آل عثمان، وبعدما ذكرنا من شعوب النصارى ولهم مائة وأربعون دولة ومن كان لهم الملك فيها وبعد دولة الخطمانيين ظهر آل عثمان، ونذكر كل من كان لهم الملك بعد هؤلاء الملوك.

* * *

الفصل الثالث عشر

ظهور دولة آل عثمان

ولقد ذكر المؤرخون الترك والجهابذة ما أسلفنا ذكره من دول وملوك سكنوا هذه الأرض، ووقع كثير من الخلاف بين الأمم، أما الترك ومن ملكوا أمرهم بأمر الله من ذرية عيص بن إسحاق ثم انتهوا إلى يافث ثم إلى نوح - عليه السلام - ومن أرومتهم الطاهرة ظهر السلاجقة أول من وطأت قدمهم بلاد الترك وفى عام ٤٤٧ أربعمائة وسبعة وأربعين اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلبًا وقالبًا واستولوا على ديار ملاطيا وقيصرية وعلائية وأنطاكية وقونية وأصبحوا ملوكًا مستقلين وظهروا من بلاد ما وراء النهر واقتضت مشيئة الله أن يغادر سليمان شاه وأرطغرل وهم أجداد العثمانيين بلدهم ماهان خوفًا من بطش المغول وقدموا إلى مدينة أخلاط وسكنوها، وفى عام (   )[1] ولما كانوا فى اتجاههم غربًا إلى ساحل نهر مراد غرق رئيسهم سليمان شاه وهو يغتسل فى النهر عند قلعة جعبر، وهناك دفن. وانطلق أرطغرل مع جميع رجاله إلى علاء الدين السلجوقى، وإذ هو فى الطريق إليه صعد ربوة وبينما هو ينظر إلى سهل قونية وقعت عينه على جيشين كأنهما بحران يقتتلان، وكانت الغلبة لجيش التتار على جيش السلاجقة وعلى رءوس رجاله بيض العمائم فقال أرطغرل: لنبذل لهم العون فما نحن من التتار. فرفع لواءًا محمديًا أبيض وتعقبه التتار بجميع جنودهم وأعد لهم كمينًا فتردوا فيه، فكان فرارهم بديلاً من قرارهم فعادت الحياة إلى السلاجقة. فلم ينج أحد من التتار، وقدم علاء الدين مدينة قونية مظفرًا فخلع على أرطغرل خلعًا فاخرة ومنحه رتبة أمير الجناح الأيمن وولاه على بورسة، وقد غنم أرطغرل غنائم كثيرة من مناطق «بيله جك» و«ايلى باط» و«اينه كول» و«يلق ابادو» وغيرها من المناطق المجاورة لولاية بورسة، وقدم بهذه الغنائم إلى السلطان علاء الدين، كما غنم كثيرًا من الجند بمال الغزوات وأصبح علاء الدين على تعاقب الأيام ملكًا عظيمًا بعون من أرطغرل وكان السلاجقة يتلقبون بالسلاطين، ولما قدم الكفار إلى اوسكدار لم يستطيعوا رفع رأسهم

(١) بياض بالأصل.

لأنهم جميعًا تحت حكمه، وله سبعون من أصحاب الطبل والعلم و(   )[1] أمير لواء وجيشًا. أما أمراء اللواء الذين كانوا للسلطان علاء الدين فهم، آل ذو القادرية فى مرعش والرمضانية فى أدنه والملك الغازى الدانشمندى فى سيواس، وآل (   )[2] فى قسطمونى، وآل فرهاد فى أماسية وآل كرميان فى كوتاهية وآل سبحان فى أنقره وآل صادحان فى ولاية صارصان، وإمارة آل عماد فى يد العماد، وإمارة صونقور فى يد أمير صونقور وإمارة كسكن فى يد الكسكان، وآل تكه فى ولاية تكه والحميديين فى ولاية حميد وإمارة منتشة فى يد آل منتشه وآل قرمان فى ولاية ولارنده وإمارة آل أيدين فى حوزة آل أيدين والأمير أرطغرل فى يلق اباد وفى عام ٦٨١ فى مدينة قونية توفى سلطان العلماء بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى فى عهد السلطان علاء الدين، وخلفه ابنه مولانا جلال الدين الرومى، ولقد منح الأمراء السالف ذكرهم لقب سلطان العلماء وسوف يذكر كل منهم فى موضعه ومضى السلطان علاء الدين بجيش عظيم صوب أرض روم وفى موضع يسمى فناده أصبح حزينًا وبينما كان يرقد عليلاً دس السم له ابنه غياث الدين تهالكًا منه على طلب الدنيا، وفى هذا الموضع مزق الجند غياث الدين تمزيقًا، فحملوا نعشهما إلى قونية ودفنوهما داخل القلعة، ودالت دولة السلاجقة بعد ذلك بستة وعشرين عامًا وعدد سلاطينهم أربعة عشر، فاجتمع جميع علماء الروم وتشاوروا فى الأمر، فولوا الخلافة أرطغرل وبايعوه، ولما عاد من غزوة بورسة مات جريحًا ودفن فى قصبة تسمى سكوت. كما استشهد صاووجى بك ابن أورخان فى غزوة طومالج ودفن كذلك إلى جوار أرطغرل، وتشاور العلماء ثانية فجعلوا عثمان الصغير بن أرطغرل خليفة مستقلاً فى رأس شهر سبعة، وبايعه السلاجقة من أعماق قلوبهم، كانت ولادته سنة ٦٥٦هـ، وتولى الحكم سنة ٦٩٩، ودامت سلطنته ست وعشرين سنة وتوفى سنة ٧٢٦ وعمره ٦٩ عامًا. ثم أصبح أورخان بك خليفة بعده، ودامت له السلطنة خمسًا وثلاثين سنة.

(١، ٢) بياض بالأصل.

وسليمان باشا ابن أورخان، وقره مرُسل بك، واجه يعقوب بك مع أربعين من الأعيان بالقرب من قبو داغى فى البحر الأبيض من موضع يسمى بابسكى خرجوا على رمثهم مع خيلهم صوب الروملى، ولما بلغوا (غاليبولى) ركبوا خيولهم وأغاروا عليها، وتتقدم أفواج الجند يومًا بعد يوم ففتحت قلعة (غاليبولى) وضرب سليمان الغازى باب القلعة بيده، وكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم، فتحت فى عام سبعمائة وواحد وستين ٧٦١، وأصبحت القلعة فى يدهم ووزعت الغنائم على غزاة المسلمين وتزوجوا ما أسروا من نساء، وولدن لهم.

وكان فى المنطقة المعروفة بالروملى من الكفار اثنتا عشرة ملة مثل الروم والبلغار وأفلاق الصرب ونيق والكروات واللاتين والبوشناق واللاز، وقد تخربت ديارهم ولم يستطيعوا فتح أعينهم وجمعوا من الغنائم ما جمعوا إلى أن وصلوا إلى نهر الطونه فغنموا الأموال الطائلة وأسروا منهم فتيات وفتية وأعملوا السيف فى آبائهم الكفار، وضيقّوا عليهم الخناق فى ديارهم، وفتحوا آلافًا من قراهم وقصباتهم ومدنهم. وفى موضع يسمى (بولاير) سقط سليمان باشا عن فرسه وتدحرج على الأرض فرمحه الفرس فى رأسه؛ فمات. وهو مدفون فى قبر فى ذلك الموضع المسمى (بولاير)، وفى ذلك الموضع جامع وتكية ومبرة، وكانت وفاته عام (٧٦٠).

وأول من مضى إلى الروم هو سليمان باشا هذا وعاش أورخان ثلاثة وثمانين عامًا واعتلى العرش عام ٧٢٩ سبعمائة وتسعة وعشرين. أما مولده فكان فى عام ستمائة وثمانية وسبعين وتوفى عام سبعمائة وواحد وستين (٧٦١). وتلقب أخوه (خدا وندكار غازى) بالبك، وعاش خمسة وستين عامًا، وكان مولده عام ٧٢٧ وحكم واحدًا وثلاثين سنة، فتح أدرنة. وفى حرب قوسوفا قام من بين قتلى الكفار من طعنه بخنجر فاستشهد. كما قُتل قاتله فى الموضع نفسه، ثم نقل جثمان مراد خان إلى مدينة بروسة ودفن فى موضع يسمى (اسكى قبليجه)، ثم خلفه ابنه يلدريم خان الغازى فى عام (٧٩٢)، ومولده فى عام ٧٤٨ واعتلى العرش عام ٧٩٢، حكم ستة عشر عامًا. وكان شجاعًا مقدامًا وفى عام واحد غادر بلاد الترك لقتال كفار الأفلاق وبغدان، ولذلك

سموه يلدريم خان أى الصاعقة، وإن كان عظيمًا إلا أنه عاش ستين عامًا، وكانت له السلطنة ستة عشر عامًا. أما سبب موته فهو انهزامه فى حربه مع تيمور، وبينما كان فى سجن تيمور مات محمومًا، فحملوا جثمانه إلى جامعه فى بروسة حيث دفن.

وآلت الخلافة من بعده إلى ابنه محمد خان جلبى فملك عام ٨٠٤، وكان مولده عام ٧٤٦ ومدة خلافته ثلاثون عامًا، وعُمّر (   )[١] سنة.

وجاء بعده ابنه مراد بك، وكان ذلك عام ٨٢٣ وحكم واحدًا وثلاثين عامًا، وعاش تسعة وأربعين سنة وتوفى عام ٨٥٥.

آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبو الفتح سلطان محمد خان عام ٨٥٥، حكم واحدًا وثلاثين عامًا، وتوفى فى عام ٨٨٦.

وتولى ابنه با يزيد خان الخلافة من بعده وكان مولده عام ٨٣٥ ودام حكمه إحدى وثلاثين سنة، ووفاته فى عام ٩٢٨ وعُمّر إحدى وتسعين سنة.

وجاء من بعده ولده سليم الأول الذى ولد عام ٨٧٣ وكان فى الثالثة والأربعين حينما اعتلى العرش، ومات سنة (٩٢٦) وحكم ثمانية أعوام، وعاش إحدى وخمسين سنة.

وكانت الخلافة من بعده لولده سليمان خان الذى ولد عام ٩٠٠، وحكم ثمانية وأربعين عامًا، عُمّر (   )[٢]، ثم كان الملك من بعده لسليم الثانى الذى ولد عام ٩٢٩ وجلس على عرش الدولة عام ٩٧٣ وحكم ثمانية أعوام، عاش اثنتين وخمسين سنة، وكانت وفاته عام ٩٨٢، ثم أصبح ولده مراد الثالث سلطانًا وكان قد ولد عام ٩٥٣، واعتلى عرش الدولة عام ٩٨٢ ودام حكمه إحدى وعشرين سنة وتوفى عام (   )[٣]، ثم أصبح ابنه محمد خان الثالث ملكًا من بعده الذى ولد عام ٩٧٦ وكانت ولادته فى مغنيسا. واعتلى العرش عام ألف وثلاثة فى يوم الجمعة السادس عشر من شهر جمادى الأولى، حكم تسع سنين، وتوفى عام ألف واثنى عشر ١٠١٢، ثم كانت الخلافة من بعده لابنه أحمد خان وذلك فى عام ١٠١٢، ومولده فى مغنيسا،

(١ : ٣) بياض بالأصل.

وجلس على العرش فى الرابعة من عمره، فحل محل جده العظيم، وكان ذلك فى الثامن عشر من شهر رجب عام ألف وثلاثة عشر ١٠١٣ ، ووافاه الأجل عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦ ، حكم أربعة عشر سنة، عُمِّر (   )[1] سنة.

وجاء بعده أخوه مصطفى خان عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦ وعزل فى الثالث والعشرين من شهر ذى القعدة، ومدة حكمه سنة وأربعة أشهر، ثم خلفه السلطان عثمان عام ١٠٢٧ ، حكم خمس سنوات واستشهد فى الثامن من شهر رجب عام ١٠٣١ ، ثم أصبح مصطفى خان خليفة فى غرة ربيع الأول من عام ١٠٣١، ثم عزل.

ثم كانت الخلافة للسلطان مراد الرابع ابن أحمد خان سنة ١٠٣٢ ، ودام حكمه سبعة عشر عامًا، وعاش (   )[2] عامًا، ثم آلت السلطنة إلى إبراهيم خان بن أحمد خان عام ١٠٤٩ ، ودامت له السلطنة (   )[3] عامًا، واستشهد عام (   )[4]، وأصبح ابنه محمد الرابع سلطان آل عثمان عام ١٠٥٨ ، وحكم (   )[5] عامًا، وعاش (   )[6] عامًا، أدام الله سلطانه آمين يا معين.

وقد خص الله ـ تعالى ـ الدولة العثمانية برعايته. واستولوا على سبعين مملكة، وكان سببًا فى تملك العثمانيين وكانت السبب فى تلقبهم بخادم الحرمين الشريفين ومولانا ملك ملوك العرب والعجم وعلى رأس جميع الملوك والسلاطين السلطان سليم الأول فاتح مصر ابن با يزيد خان ـ رحمة الله عليه.

سبب غزو سليم لمصر

لا يخفى على مؤرخى العالم أن أبا الفتح السلطان محمد الفاتح بعد أن ألحق الهزيمة بأوزون حسن فى صحراء «ترجان» عطف عنانه صوب طرابيزون على ساحل البحر الأسود وحاصرها برًا وبحرًا، واستولى عليها بعد قلة من الأيام، وولى عليها الأمير با يزيد، فأقام العدل فى الناس، ثم ولد سليم الأول وكان مسعود الطالع، وعلى تعاقب الأيام أصبح شمس الدنيا، ومن هذه البقعة خرج أبو الفتح ليحارب عُصاة القره مانييه، وفى موضع يسمى (مال تپه) على مقربة من اسكودار أدركته الوفاة، فانتقلت

(١ : ٦) بياض بالأصل.

السلطنة وتخت الخلافة إلى السلطان با يزيد ولى، وأصبح ابنه الأمير سليم واليًا على طرابيزون، وولاه عليها حاكمًا مستقلاً ومعه عشرون ألفًا من جند الإسلام ممن قالوا «نحن لها». وأكد با يزيد أنه سوف يفتح أكناف الأرض واستقر على العرش فى الأستانة وهو يرعى أمور المسلمين، أما الأمير سليم فقد أغار على جورجيا ومكرلستان وداديان واتسع فى فتوحاته فى تلك البلاد، وبالتعاون مع ميراخان من أسرة أوزون حسن فتح سليم خان قلعة (جانخه) وجعل لها مفتاحًا من فضة. وأرسله مع ثلاثمائة قنطار من الأوانى الفضية إلى با يزيد، فأرسل با يزيد ولى إلى الأمير سليم خلعًا فاخرة، وجعل سليم خان (جانخة) حاضرة ملكه، وضم إليها آلاف من حملة البنادق الشجعان ويسمون الآن جانخه لأن فى سبعة مواضع منها مناجم للفضة تجرى كالأنهار، وشاء الله أن يظهر فى طالع الأمير سليم منجم للذهب. فصنع منه مائة ألف دينار ذهبًا وأرسلها إلى أبيه كتب عليها: (السلطان با يزيد بن محمد خان عَزّ نَصره ضرب جانخه سنة (   ))[1]، فقال له با يزيد لفرط سروره منه: لتكن المملكة حلالاً لك، لقد وهبتك ما فتحت من ديار والغيرة والحمية لك.

وأرسل بذلك منشوراً إليه، ولما بلغ هذا المنشور الأمير سليم حتى أصبح كأنه تنين ذو سبعة رءوس وفى فترة قدرها سبع أو ثمانى سنوات أتم فتح خمس وأربعين مدينة وقرية وحصن حصين مثل: حصار، ونكسار، وبايبورط، وانسيز، وطوزطوم وأرزنجان، وحينما مضى نصره الله نصرًا عزيزًا، إلا أن السلطان با يزيد ولى كان مشغولاً بمحاربة البنادقة فى أوربا وفتح قلعتى متون وقرون من ولاية المورة، وقد تعاون علاء الدولة بن ذى القدر مع القزلباش، والآق باش فى مرعش على قلب واحد وهدف واحد فبلغ القزلباش طوقاد وسيواس وأماسيه وعثمانجيق واستولوا عليها واستأسد العجم يومًا بعد يوم. وكان الأمير سليم يغير على مؤخرتهم وينال منهم ولكن ما العمل ولعجم عدد لايُستهان به.

---

(١) بياض بالأصل.

وذات مرة قدم با يزيد على رأس جيش عظيم وتحارب مع العجم فى سهل طورحال وكانت الحرب حربًا ضـروسًا، ومن قبل علاء الدولة صاحب ذو القـدرية أرسل سلطان مصر الغورى اثـنى عشر ألف فارس دخلوا المعركـة واشتبكوا مع جند با يـزيد، فكانت سوقًا للسلاح لا قدرة للسان على وصفهـا، وفى وقت الغروب اتجه الأمير سليم بجنده إلى جبال جـانخه، وفى جهة أخـرى بقى العجم والتـركمان وجند الغـورى فى ميدان المعركة، أما الأمير سليم فكان يقول: تبًا لـكم أيها المصريون تبًا لكم، إذا ما وهبنى الله تعالى عرش آل عثمان، علىّ عهد الله أن أغزو العجم، ثم ابن ذو القدر، ثم مصر، إن هؤلاء ملوك مسلمون إلا أنهم يؤازرون العجم، أما القزلباش فقطعوا رءوسهم وأرسلوها مع الرسائل من اسكودار إلى حكام سيواص وبناء على ذلك بدأ آل عثمان يؤدون الخراج للعجم، وبذلك ذل العثمانيون وحقروا، فآثر با يزيد ولى حياة الخلوة والاعتكاف، وبدأ يقوم بالمجـاهدات والرياضات ونفـض يده من الدنيا، واسـتشار سليم أهـل المشورة من ساكنى طرابيزون إلى ساكنى الأستانة، وقالوا له: اظهر لنا فى شرزمة من الجند وسوف نسلمك الـعرش، قضى الأمرُ وحسبنـا هذا ولا شك، ولما شاع هذا الخبر كـان سليمان خان ابن سليم خان قد ولد فى مدينة طرابيزون وكذلك سليم خان، ولذلك كتب الشاه إسماعيل رسالة مفعمة بالفحش سماه فيها ابن اللاز، كما كان الأمير سليمان ابن سليم شابًا كُفئًا، كما رغب سليم إلى أبيه أن يسنـد ولاية (كفه) إلى سليمان، فتقبل منه هذا الرجاء، وقدم إليه خمسة آلاف جندى ممن قالوا (نحن لها) وبمائتى سفينة بلغ (كفه) من طرابيزون، واعتلى عرشها وبدأ يجمع الجـند حوله، وعلى إثر ذلك أركب الأمير سليم عشرة آلاف جندى فى خمسمائة سفينة وبلغ ميـناء كفه ودخل قلعتها والتقى بملك التتار منكلى كراى خان وأطلعه على السر فقـال خان التتار على بركة الله، ومضى فى أربعين ألف جندى وجمع سليم عشرين ألفًا كـذلك وقطعوا المنازل والمراحل وأقاموا فى موضع يُسمى «أوغراشى دره سى» فى منطقة تسمـى برادادى ووافق جند الديوان السلطانى من أتباع السـلطان با يزيد ولى عـلى ملاقاة سليم، وشـاور با يزيد أصحاب مشـورته فقال أحدهم: إنه شاب سعود طالما يعتلى العرش سوف يقضى علينا فالأجدر بنا أن نحاربه،

وبذلك بدأوا فى القتال. أما سليم فلم يتحرك. فأطلقوا على جند سليم البنادق والمدافع، وفى وادى «أوغراش» واجه الفريقان كل منهما الآخر واختلط المتحاربون ودارت الدائرة على عسكر سليم وفرّ صوب الطونة واتصل بعلماء الصوفية وانهزم على ساحل البحر الأسود، وفى موضع يسمى وارنه ركب فى سفينة ثم انطلق إلى حاضرته القديمة طرابيزون ولزم الصمت، أما نائبه (صارى قيابك) فكان الحاكم فى طرابيزون كما أن (على بك) قام بالحراسة وتولى الأمير سليمان شئون كفه.

سيرة السلطان سليم خان

إن سيرة السلطان سليم هذه أوردها فى أمانة من أبى، انتقل والدى الدرويش محمد ظللى ـ رحمة الله عليه ـ من دار الفناء إلى دار البقاء وله من العمر مائة وسبعة عشر عامًا، وعلى ما تجولت سائحًا لم يتشرف أحد مثلى بمصاحبة ثلاثين سلطانًا من آل عثمان، ما عدا السلطان سليمان خان الذى صاحبته فى غزوة سيّدوار وكنت حاضراً حارضة فتح قبرص مع القائد مصطفى باشا وأرسلت مفاتيح قلعة (ماغوسه) إلى السلطان سليم الثانى وبعد ما أحسن وأنعم علىّ منحنى رئاسة جوهرى الباب العالى، وأعطانى المنشورات الدائمة، وفى عهد السلطان أحمد صنع والدى الميزاب الذهبى للكعبة فى مكة، ووضع على سطح الكعبة ميزاب الرحمة مع خدمة أمانة الصرّة. والغرض من هذا تبيان أنه كان شيخًا مجربًا خبيرًا، وقزو على أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان خان، مات وله مائة ثمانية وأربعون سنة.

واجتمع عبدى افندى صاحب منزل برنجى زاده ومحمد افندى قره فروعَرَب، وبمقدم هؤلاء الشيوخ سُررتُ بهم، وبينما كانوا يتحدثون مع أبى دخل رجل نحيف يتوكأ على خدم وما إن ظهر من الباب حتى نهض جميع الجالسين مع أبى فقدموا لاستقباله فى إجلال وإعظام وأجلسوه على أريكة عالية ورحبوا به.

وكان رحيق البرش والقهوة مما يشرب على نطاق واسع وتحدثوا وانتشوا؛ فأمالوا قلانسهم، وجعلوا يهزون؛ فقال قزوعلى أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان: يا عزيزى حليم جلبى افندى بحق روح سيدك السلطان سليم الأول وكرامة

للسلطان سليمان حل مشكلنا هذا؛ حين نحارب السلطان سليم ووالده السلطان با يزيد في وادى أوغراش بالقرب من سوق حاجى أوغلو، ولحقت الهزيمة بسليم؛ فانطلق إلى طرابيزون وبدّل ثيابه وقال: حدثنا عما رأيت فى سياحتك. وأمسك يد أبى من خلف، وقال: بينما كان سليم منزويًا فى طرابيزون دعانى أنا وقره نديم إلى حضرته، وقال لنا: ما قولكما أيها الفتيان؟ هل لى من سياحة معكما، (فقرأنا الفاتحة بعد البسملة، بدون أن نسأله عن وجهتنا فى هذه السياحة)، وأخرج سليم مصحفاً من جيبه واستحلفنا عليه بأن تبقى هذه الأسرار طى الكتمان، فأقسمنا على هذا عملاً بالقول : تطير رؤوسنا، ولا نفشى سرنا.

ودخلنا حجرة الخزانة فالبس كل واحد منا حزقه بكتاشيه وأعطى فى يده بلطة سلمية، وفى خصره مقلاع داودى، وعلى رأسه عمامه واحديه وربطنا على حضورنا تنوة حمراء من الجلد اطمك، واعطاه مجموعة عظيمة من التحف. ووضع على كتفنا فرواً وإحراماً؛ وأحضر لنا حماراً فحَمَّلْنا الكتب والهدايا، وفى الصباح غادرنا طرابيزون فى غفلة من العدو، وانطلقنا فى طرثنا، أما سليم ده ده فكان فتى قوياً مهيباً، وشاباً عالى الجبهة، ولما كنت أنا وحليمى وقره نديم شابين فى العشرين وكأننا اثنان من ملاعبى القرود وطوال الطريق لم تتلكم فى شئ من أمور الدولة وجعلنا نصيد فى تلك الديار فصدنا كثيراً واتسعنا فى الفتح، وقلنا لنمض إلى بلد آخر، وفى اليوم السابع صلّينا فى جوامع بديار قره بوداق خان بإقليم الملك شامخال ملك داغستان، ثم التقينا بقالقه شاشمخال خان، فقال: من أين جئتم أيها الدرويش، فقال إن سليم ده ده، إننا قادمون من بلاد الروم. فنزلنا ضيوفاً لديه أيام عدة، ثم مضينا من هناك إلى مدينة (طرخو) ثم إلى مدينة (قوون) ثم إلى (دميرقبو) على حدود العجم. وتسلمنا رسائل من خان العجم. إلى قلعة (باكو) ومنها إلى كيلان وكنجه وشيروان، وبلغنا مازندران على ساحل بحر الخزر. وهناك مكثنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم مضينا إلى (قم) ثم إلى (كاشان) ثم إلى جبل ذيلم وفى خراسان كان تجديد البيعة من مولانا الإمام (   )* وتجديد السكه. وخدمنا لديه مدة شهروحملنا الرسائل إلى أبناء (حاجى بكتاش ولى)

* بياض فى الأصل

فى بلاد الروم وأذن لـنا الشيخ بالمـغادرة. ولما بلغنـا أصبهان كناقـد طفنا بمائة وسـبعين مدينة، فى ذلك المكان بلغنا أصفهان الذى شيـدت فيه هذه المدينة المسماة بنصف الدنيا، وأقمنا فى خانقاه للقلندرية بأصفهـان، واتجه كل منا إلى صوب ومضينا لمشاهدة المدينة، وفى المقاهى اتسعـت الشهرة لـسليم ده ده، بمهارته فى لعب الـشطرنج حتى أن أحداً من أساتذة اللعـبة، لم يكن بمقدروه أن يرفع بيـدقاً أمامه، وقد تملكه العجـز أهل أصفهان وملأتهم الحيرة من لـعب سليم ده ده وقالوا إذا لعب هذا الدرويش الـشطرنج مع شاهنا الجميل فلن يسلم منه وسيغلبه وأقسموا بالله جهد أيمانهم. وقالوا للشاه عليك أن تلعب الشطرنج مع سليم ده ده هذا. فقال الشاه آتـوا لى بهذا الدرويش فوراً فرأينا رجلاً على حمار أشهب يخرج من خـانقاه القلندرية وسلم قائلاً السلام عـلى عباد الله العاشقين. فقالوا زادكم الله عشقاً بكـمال جمالك فلما قالوا تفضل الشاه يستدعـيكم عندما وصلنا نحن الأصدقاء والظرفاء الثلاثة بخرقتـا الفاخرة إلى حضرة الشاه أخرج سليم ده ده من خصره صُوَرًا وتلـى دعاء محمديًا ودعاءً لحيدر الـكرار وهى تتألف من اثنـى عشر بنداً ترمز إلى الأئمة الاثنى عشر، وقال من أسـماء الله الحسنى: يا واحد الفرد الأحد القادر المؤخّر الأول الآخر الظـاهر الباطن الوالى، كمـا تلى اثنتى عشر زمـزمة وذكر الأسماء كذلك، وقال: ليس منى ركوع ولا منى قيام السـلام عليكم، عليكم السلام وترنم بهذه الأبيات داعيًا له:

إن الآفـاق أيـهـا الملـك نـــور ونــــار
فكن للـدهر مصباحـًا مثـل الشمـس أنـار
الـصـحراء والـوادى لـنـا فجـة عـــطـــرِ
وكـــن للـــروض زيـنـة كـالـزهــر
لـم يـخـلـق الله الـدنـيـا إلا بـــك
وحيـثما كـنت كـن يا مـليكـى الـمـلك

فلما أنشد سليم هذا الدعاء، وقف الشاه إسماعيل من فرط سعادته، وقرّبه إليه وقال له أهلاً وسهلاً بك، ولما قال له: من أين تحمل السلام، قال لـه: يا مولاى، أنا غرس يد حاجى بكتاش ولـى فى أرض قيصر وزرت ديار القرم ثم مملكة شـمخال، ثم مشهد سلطان خراسان فى بـخارى وأخذت الرسائل من الشيخ، وجئت لرؤيـة جمال سلطانى لأسلمها إلى الشاه يدًا بيد، ومن فرط سرور الشاه قال: أهلاً بك فى دارك، فقال سليم

ده ده: هو كذلك يـا مولاى، وكان يعنى أنها ستصبح داره، وقرأ الشاه رسالة الشيخ ودلنا على ركن فى قصره الشامخ، فمكث فى أصفهان مدة مديدة فجعل الشاه إسماعيل سليم ده ده نديمًا له وقاصًا يقص عليه الحكايات، وقد أنس به الشاه، وانعقدت بينهم أواصر الألفة. وذات يوم قال له الشاه: يقولون أنك بارع فى لعب الشطرنج، فقال له سليم: حقًا يا مولاى حقًا، فقال الشاه: هيا لنلعب سويًا من قبيل المحبة فإما العرش وإما الحظ، فقال له سليم ده ده: ومن يا مولاى بقادر على منازلة الشاه، إن منصب الشاهانية يمنع ذلك، فقال الشاه: دعك من هذا وافعل كل ما فى وسعك، وها هو الميدان لك وتدبر الأمر، فرأى سليم فى قول الشاه تواضعًا منه وقال: الله كريم، وعندما جعلا يلعبان تفاءل سليم وقال فى نفسه: يا رب إذا ما تغلبت على هذا الشاه فإن بلاده سوف تهزم بسيفى والفرصة لى، وجرى قضاء الله أن يدخل الشاه فى خانة (مات) أى أنه هُزم فأنشد سليم هذا البيت:

عندما يشتبك الفيل بالفيل فالموت محقق

فاسحب الفيل من خانته فالملك قد مات

ولما غلب الشاه ،غضب غضبًا شديدًا ولطم وجه سليم، فقال له سليم: لقد أخلفت وعدك عندما قلت لى دعك من الشاهانية وافعل ما بوسعك، فأنا لم أفعل بقدر ما أعرف، ومات الملك لكنى يا مولاى لست ممن يخلف عهده، ثم رمز قائلاً سنلعب مرة أخرى ذات يوم، وسأقول مات الملك أيضًا، إلا أن الشاه لم يفقه قوله، وقال الشاه لنلعب فى يوم آخر، ولعبا فى ذلك اليوم ثلاث مرات، وغُلِب الشاه فى تلك المرات الثلاث أيضًا، فقال له الشاه أيها الديوث أتغلبنى فى كل مرة، ولكن سليم وحقق بغيته، ونال من الشاه عطاء جزيل، وأذن له أيضًا فى زيارة ضريح الترك الأتراك الشيخ أحمد اليسوى شيخ حاجى بكتاش، وغادر أصفهان وشاهد مدنًا كثيرة وزار كثيرًا من أولياء الله ودعوا له بالخير، وبلغ تبريز، وهمدان، وأردبيل، ودركزين، ودرتنك، ودرنه، وشهربان، وبغداد ،حيث مكث فى الأخيرة أربعين يومًا زار فيها ضريح الإمام الأعظم، وعبد القادر الجيلانى والشيخ شهاب الدين السهروردى، وسلمان الفارسى، والإمام موسى الكاظم، ومعروف الكرخى والإمام الحسين والإمام علىّ كرم الله وجهه، وكل أولياء الله، وعفر جبينه على عتباتهم، وطلب المدد من روحانيتهم.

«ذكر مجيء الأمير سليم من بغداد إلى الكعبة
فى أول سياحة له

ثم مضى سليم مع حجاج بغداد إلى الكعبة فى سبعة عشر يومًا، وحج البيت الشريف، كما قبل يد كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة هناك، ودعوا الله له بالخير، ثم تابع زياراته فمضى إلى المدينة المنورة، فى معية حجاج مصر، ثم زار قبر الرسول ﷺ وتضرع لرسول الله متعلقًا بسياج قبره، وصاح صيحة عالية وهو يقول: لقد انشقت مرارتنا يا رسول الله، رفعنا من شأن شرف الإسلام ويا له من شرف ولكن شراكسة مصر الكفرة أضروا به، علىّ عهد الله إذا توليت ويسر لى أمرى وفُتحت لى مصر فسوف أوقفها عليك وأجعلها مخزنًا لأطعمة الحجاز، وسأرسل إلى أمتك منها فى كل عام الكسوة والصرة، وجعل سليم يردد هذا من قوله سبع مرات منتحبًا: وإذا ما دعانى معدم بجوار ضريحك مستغيثًا بى قائلاً: يا سليم. كنت كفيلاً به مغيثًا له. وأشار إلى أنه سوف يقيم العدل فى الرعية ويبسط رعايته على علماء مصر، ثم حمد الله وأثنى عليه. وقدم سليم مصر مع فوج من حجاجها وبلغها بعد أربعين يومًا، ونزل ضيفًا على تكية الميمندى فى القرافة الكبرى وفى هذا الوقت وصل أسبابه بأسباب الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى؛ فقرأ عليهم السلام فردّ الشيخ أبو السعود الجارحى قائلاً: وعليكم السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين، ويا حاكم مصر سلامتك سلامتك، عجّل بالرحيل إلى بلاد الترك.

وكان ذلك بالمكاشفة وعرف ذلك الشيخ مرزوق كفافى بالوسيلة نفسها، وكان يجيد اللغة التركية، وقال له: امض سريعًا إلى بلاد الترك واعتل عرش الدولة ثم انطلق إلى العجم وبعد ذلك حينما ندعوك تعال، ولكن لا تبق فى مصر. لقد أخرجونا مع كبار أولياء الله من مصر، ولكن ما رأيناه فى مصر من فسق وفجور وعصيان فى اثنى عشر يومًا لم نجده فى بلد آخر، ففى تلك الفترة من الزمن أقام السلطان الغورى قناطر مياه القاهرة وعسف الناس عسفًا شديدًا وأمر العلماء بحمل الأحجار، ولم تكن له سيطرة على جنوده، وقد رأينا من هؤلاء الجنود الظلم والعدوان.

فركب سليم على صهوة جواده بعد أن استأذن من المشايخ، وأرسل إلى خليل بن رمضان فى (أدنه) حتى يكون فى خدمته فى العودة، فمضى من مصر وبلغ (أدنه) بعد عشرين يومًا، وبلغ بلاد الترك، وبعد أربعة أيام بلغ طرابيزون، والتقى بأمه الرءوم ودعت له بالخير، وسأل عن أبيه با يزيد ولى فأخبرته أنه مضى إلى ملك أردل وأفلاق وبوغدان الكفار، وكانوا قد شقوا عصا الطاعة جميعًا واتحدوا جميعًا، ودعت سليم، وقالت له مرحبًا بمقدمك لقد فارقنا أميرًا عظيم ولا ذكر له منذ عامين، فهل استشهد فى هذه الحرب، واستدعوا الأمير سليمان بن سليم من «كَفَه»، وقالوا إذا أجلسناه على العرش لدبر الأمور يومًا بعد يوم، وفى التو وصلت رسائل الدرويش سليم إلى الأستانة؛ فقالت أمة محمد: إن الأمير سليم حى يرزق فى خير وعافية. ووصلت الرسائل من جميع الجهات والفرق العسكرية وكان القول فى الرسائل.. يا مولاى الأمير لا لزوم للعسكر حسبنا عهدنا ولتأت. ولما بلغت الرسائل الأمير سليم فى طرابيزون بعد سبعة أيام. وفى سبعمائة سفينة مضى سليم إلى «كفة» فعانق الأمير سليمان، ورأى فيه بطلاً شجاعًا فقبل عيناه النرجسيتين، وأصبح سمر محمد كراى خان، فقدم كذلك واقترب من ادرنه فى جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل، واقتضت مشيئة الله أن كفار المجر قاموا بتحركات عسكرية فأرسل سليم إلى بلغراد، ولما بلغ سليم (صوفيه) جاء عسكر الإسلام ببا يزيد خان إلى اسطنبول، فمر هذا الخبر بسمع سليم؛ فتراجع عن «صوفيه»، وفى سهل «چورلو» احتشد الجند وقالوا بحياة با يزيد وسقوط سليم. أما المنصِفُون فقالوا إن الدولة العثمانية ضاعت منا وتشاوروا فى الأمر، فقدم سليم فى جيش عظيم وخرج للقتال وبينما كان القتال يدور عزل السلطان با يزيد ولى وأصبح سليم سلطانًا فى سهل «چورلى»، فقال با يزيد ولى لسليم بعد أن عزله: لقد استوليت على سهل چورلى قهرًا قبل أن تكون خليفة، وسوف تتركه قهرًا جعلك الله قَصِير العمر وليكن سيفك حسامًا وليكتب على جندك الانكشارية ألا يخلعوا حذائهم ولا ثوبهم، ولتصب الواحد منهم ثلاثة أقچة، ولتكن رواتب الجند جزيلة ولكنها عديمة البركة، ولتعلوا هيبتهم ولينقطع وجود جثثهم فى الميدان وتذهب حماستهم للحرب، أما أرباب

الزعامة والتيمار فلا كفوا عن نزاعهم وشجارهم وليبتلى الأبناء بما صنع الآباء. وبهذا من كلامه دعا الله على جند العثمانيين كافة. وبينما كان سليم يمضى به إلى «ديما دوقيا» أسلم با يزيد الروح فى مكان يسمى «هاوسه» ولا نعلم السن الذى مات فيها - رحمة الله عليه - وفى عام ٩١٨هـ استقل سليم بالسلطنة.

«استقلال الأمير سليم بالسلطنة عام ٩١٨هـ»

ولقد بويع سليم فى موضع يسمى «يكى باغچه»، فى استانبول وفى الوقت الشافعى فى يوم مبايعته بالسلطنة بناء على تقرير حليمى جلبى لبس ثوب الدرويش فى القصر ثم زار مسجد أبى أيوب الأنصارى ثم مسجد محمد الفاتح، ثم دخل حجرة تسمى «صولاقلر اوده سى» فى الحجرات القديمة، فقال كل من فى الغرفة من الأوده باشى مرحبًا بك، وسألهم عن أحوالهم وتناول الإفطار وأثناء الكلام قال لهم هل تريدوننى سلطانًا محاربًا أم معتكفًا متفرغًا للدعاء، فقال بهى ده ده ينبغى أن نقوم بحملة لكى يحلل الله العلوفة التى نأخذها. لقد أحاط بنا الكفار والعجم من جهاتنا الأربع، ولم تبق لنا ولاية وينبغى علينا القتال توًا. فقال سليم: إذا انثنيتم عن هذا القرار فقد انثنيتم عن الإيمان فأقسموا له وأقسم فمضى سليم ده ده ووصل أمام الباب السلطانى ونفخ فى النفير حسب القانون البكتاشى فأخذ صحاف النقود من البوابين وعند الباب الأوسط نفخ فى النفير مرة ثانية وحظى بإنعام من كتخدا البوابين، فلما بلغ باب الآق أغا نفخ فى النفير مرة ثالثة وتسلم منه منحة مالية، وأثناء وقوفه لاحت له الفرصة ليتقدم منها إلى خصيان الداخل بغير تكلف وذهب إلى أحدهم فلما رحب به تقدم سليم مباشرة نحو الغرفة الخاصة فالأسرة التى تربى فيها سليم أسرة عريقة وجلس على السلطنة وكأنه الشمس بين النجوم واستقر عليه كأنه سد الإسكندر، ورأى أحد أغوات الخاصة أن درويشًا تسلل إلى الداخل وجلس فوق العرش السامى، فقرع الناقوس الحديد فهرع أربعون من رجال الغرفة الخاصة يحملون البالطة وعندما هجموا عليه كشف سليم عن ذراعه. فلما شاهدوه عرفوا أنه الأمير سليم لأن كثيرًا من الناس لم يشاهدوا سليمًا قط، ولكن الخدم الذين يعرفونه شاهدوه، وقالوا: أيها الأمير سليم. وعفروا جبينهم على

قدمه، وبايعوه فى حجرة (قرق خاص اوداسى) أى حجرة الأربعين الخاصة. جلوس السلطان سليم عليه الرحمة والغفران:

يا من ماتت قلوبهم إن وصال مولانا سليم
لقلوبهم السقيمة دواء

وبايعه على هذا النحو أركان الدولة: شيخ الإسلام، وسبعة وزراء، والعلماء، وصلحاء وأعيان الدولة كافة، وعرف بالخبر من ينتظرون البيعة فى (يكى باغچه) مقدم الناس زرافات زرافات وأثناء مبايعة السلطان سليم جاء دور فرقة الإنكشارية فرأوا من فى الحجرات القديمة أن من أكل معهم فى حجراتهم وحل اليمين هو السلطان نفسه، فطاشت عقولهم، فقال لهم: أتوفون بعهدكم؟ فقالوا: نحن على عهدك يا مولانا. فلنمض توًا إلى اسكودار، ولنخرج من باب أدرنه فجددوا العهد.

وفى اليوم التالى تمنطق سليم بالسيف فى مسجد أبى أيوب الأنصارى، وعاد إلى القصر فى موكب عظيم، وقال إن لدى سبع حملات، وجعل المنادين يقولون بذلك، وكان الصدر الأعظم آنئذ بيرى باشا وأسس سرادقًا خارج أدرنه وآخر خارج نطاق أسكودار وأرسل الرسائل إلى جميع الملوك، وخشى الكفار وأهل الضلالة من سليم، فأرسلوا نفائس الهدايا مع السفراء وجددوا السلام.

كما كتب رسالة إلى الشاه إسماعيل قال له فيها: «لقد توفى أبى با يزيد (الصوفى) وأنا من غَلَبْتُكُ فى أصفهان ثلاث مرات، ولقد عقدت العزم على أن أغِيرُ عليك انتقامًا لتلك اللطمة التى لطمتنى إياها».

ولما بلغت هذه الرسالة الشاه إسماعيل قال: «يالله فى العام الماضى لاعبنى الشطرنج سليم الدرويش وغلبنى. لقد كان سليم أمير آل عثمان. ومزّق الرسالة قائلاً: واويلاه.

هذا ما نقلته أنا الفقير كثير الذنوب بمحضر من الشيوخ عن قوجه حليمى جلبى فى سيرة سليم خان وهذا صحيح لأنه كان من أقران سليمان خان ومع والدى ـ رحمه الله ـ وقد وقف على تلك الأمور وقد استمعوا له ولم يعارضوه فى شىء مما نقله.

ذكر حرب السلطان سليم
مع الشاه إسماعيل الصفوى فى چالديران

فى عام ٩٢٠ خرج السلطان سليم على رأس جيش عظيم لقتال الشاه فى إيران ووصل إلى صحراء چالدر، وهناك التقى الجيشان. وقبل بدء القتال أرسل ابن ذى القدر والسلطان الغورى مدداً من الجيش إلى الشاه إسماعيل، وقد فتح جند الشاه ثغرة فى جيش الإسلام، ودخلت السيوف ساقة[1] جيشنا. لأن العجم ملاعبو السيوف، ولهم البراعة فى استخدامها، وفى هذا الموضع كان الفريقان قد اتفقا على عدم إطلاق المدافع والبنادق فتذكر السلطان سليم، وقال: عندما كنت فى أصفهان لعبت الشطرنج مع الشاه بقطع النظر عن الملكية، ولما تغلبت عليه لم يف بالعهد، ولطم وجهى ناكثًا عهده، وهذا هو أوان نقض العهد وأمر بإطلاق المدافع وكان إياس باشا رئيسًا للإنكشارية وسرعان ما دمرت المدافع القزلباش عن آخرهم، ودارت الدائرة عليهم كافة، وفى سبع ساعات لم يبق فى أرض إيران من الجند أحد، وبينما كان الشاه فى فراره مع سبعة فرسان رأته امرأته وقالت له: جُعِلتُ فداك ياسليم لقد شتَّت شاهنا ودفعته للفرار فذلك بسبب من فرارك. لكن الشاه أحسن الشاه إليها، وعفى عنها ولا حاجة لنا إلى وصف معركة جلديران لأنها مشهورة، وقد وقعت فى الأسر زوجته «تاجلى هانم» مع أكثر من مائتى جارية من جواريه الملاح. وعاد سليم إلى الأستانة بمال قارون.

وبعد ذلك اتخذ من أماسيه مشتى له. إلا أنه لم يكن غافلاً عما أعده العجم من عُدَّة فخرج ابن ذو القدر علاء الدين من مرعش على رأس جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألفًا. ومضى به إلى مصيف كوكسن وعين السلطان سليم (   )[2] باشا قائداً. وانتشب قتال عظيم وقتل علاء الدولة مع أبنائه وحمل من أسرته سبعين أسرى مكبلين بالحديد وبينهم شقيق جدنا أحمد بك سالى بك وأرسلوا إلى السلطان الغورى فى مصر، وعندما رأى السلطان الغورى الأسرى على هذه الصورة، ورأى رأس علاء الدولة ورءوس

(١) الساقة: المؤخرة.

(٢) بياض بالأصل.

أبنائه، أدرك أنه أمام عدو قدير وأن الدائرة ستدور عليه وأن العثمانيين يريدونه بالسوء. وأطلق سراح الأسرى كما أطلق سراح عمّنا، ومضى إلى القدس الشريف، وصرف نظره عن رفع العلم ودق الطبل، ووجد فى القدس قبر (طور زيتا) فرمه.

وبسبب ظلم الجراكسة النحس وطغيانهم فى مصر فإن أذاهم لم يقتصر على الرعايا والعامة بل امتد ليشمل من يقال لهم فلان بن فلان وعيالهم ووكالاتهم ونالهم من الجند ذوى الشقاوة ما نالهم، وقدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر، وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء، وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاداً بعيدةً، وإذا مضينا إلى العجم وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لا ثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، كما إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ، وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض إليهم. فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة وهتف كل من الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى قائلاً: تعال يا سليم! تعال يا سليم! تعال يا سليم!

وكان السلطان سليم فى مشتاه بأماسيه مع وزرائه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا ويونس باشا: إننا سمعنا من قال تعال «يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة. فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حليمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفافى بالمكاشفة: يا سليم روح اجلس على تخت ابوك.. وإذا ما دعوناك إلى مصر فأقدم» هذا ما قالاه. وهذا لصوت الذى وصل إلى مسامعكم هو كلامهم. هيا نعد العدة على وجه السرعة.

قتل السلطان سليم الأول لإخوته وأبناء أخوته

وبينما كانوا يعدون العدة لغزو مصر، جاء المستغيثون إلى سليم وقالوا: لقد شق أخوك قورقود من ناحية وأخوك أحمد عصا الطاعة من ناحية أخرى، وضاعت منك الولاية، فاتجه سليم نحوالسلطان أحمد وفى بورسه بجوار يكى شهر[1] حاربه، وفى

(١) تُقرأ ينى شهر.

هذه المعركة سقط الأمير أحمد عن فرسه وحُمِل إلى السلطان سليم أسيرًا. ولكنه لم يعف عنه، فأمر بقتله خنقًا فى حجرته، ودفن فى بورسه إلى جوار السلطان مراد الثانى، وفر الأمير مراد ابن الأمير أحمد من هذه المعركة إلى أردبيل، وطلب اللجوء إلى الشاه إسماعيل، ومات فى العام الثالث، وقبره فى أردبيل، ومضى الابن الأكبر للأمير أحمد، والابن الأكبر للأمير علاء الدين إلى السلطان سليم. فشملهم بعطفه وماتا الاثنان بالطاعون فى اسطنبول وبها دُفِنَا، ولقد اعتقل السلطان سليم كلا من ابن أخيه الأمير محمد والأمير محمود وأبنائهما الكبار: الأمير موسى، والأمير أورخان، وعثمان ابن السلطان على شاه. كل هؤلاء اعتقلهم السلطان سليم أثناء حربه مع أخيه الأمير أحمد، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم، ودفنوا جميعًا فى بورسه بجوار أورخان غازى، لأن هؤلاء فى عهد السلطان با يزيد ولى يعتبرون ملوك الطوائف، وكان لهم على مر الأيام أوضاع وأعمال شاذة، وكانوا يتحاربون ويتناحرون، وكان الرعايا والبرايا أشتاتًا وفى أسوأ حال، وضاق الناس بذلك ذرعًا فاتَّجهوا إلى العجم وأصبحوا لهم أتباعًا.

ثم اتجه السلطان سليم لمحاربة الأمير قورقود؛ فقام قورقود وجمع حوله عدة آلاف من الرعاع والسفلة، إلا أنه انهزم آخر الأمر، فهرب مع نائبه ودخلا كهفًا فى مقاطعة تكه. ولكن الجوع أجهدهم، فأعطوا رجلاً تركيًا جوادًا ليبيعه ويشترى لهم خبزًا وشعيرًا، وخرج الرجل بالجواد ليبيعه إلا أنه قبض عليه وسألوه من أين جاء بهذا الجواد؟ فقال: فى هذا الجبل سيدان باعاه لى ودلهم على الغار، وفى هذا الوقت قبض على قورقود ونائبه وأُرْسلوا مقيدين إلى سليم إلا أنه لم يعف عنهما وأمر بقتلهما.

وحُمِل جثمان الأمير قورقود كذلك إلى بورسه ودفن إلى جوار أورخان غازى، وبعد ذلك أصبحت الدولة خالصة له.

واستقدم سليم الأمير سليمان من كَفَه إلى أدرنه وأشركه فى الحكم، وقال له تدبر أمرك وأسند له تدبير أمور الدولة وولاه على أدرنه وفوّض إليه كل أمر، فقد كان الأمير سليمان رشيدًا عاقلاً، وقال أحد أولياء الله: يا سليم إن إخوتك لا خير فيهم ولا جدوى منهم، وينبغى أن يخلفك سليمان على عرش الدولة.

وحقيقة الحال أن سليمًا لم يعقب ولدًا سوى سليمان، ولقد ولد فى طرابيزون كما ولد أبوه. ووالدته مدفونة الآن فى جامع خنكار فى بوزديه.

ولقد ولد الأمير سليمان عام ٩٠٠ على رأس المائة، وبذلك أصبح مرموق المنزلة؛ فقد قال النبى ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة برأس كل مائة عام من يجدد لها دينها». ولذلك قتل سليم جميع أخوته لأنه رأى أن سليمان هو الأصلح للدولة. ومضى سليم إلى بورسه لزيارة «أمير سلطان» فقال: السلام عليكم يا آل القبور. فسمع صوتًا يقول: «وعليكم السلام يا صاحب السيف والقلم.. ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين».. وتردد هذا الصوت من القبر الشريف. فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور، وفى الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم: لقد بُشرت يا مولاى بفتح مصر.

ذكر حرب السلطان سليم الأول مع السلطان الغورى فى طريقه لفتح مصر

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف فى ضريح أمير سلطان فى الأستانة، وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره، وهناك جمع جميع علماء الترك وأهل الفُتيا على المذاهب الأربعة وطلب منهم أن يفتوه فى فتح مصر وكان الطواشى سنان باشا الصدر الأعظم آنئذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك وبيّنوا ما جاء فيها؛ وقالوا: ما دام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

أما مضمون الفتوى التى أصدروها فهو:

ما الواجب فعله تجاه من يدّعى أنه من ملوك الإسلام، وأنه خادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة، ومع ذلك ينضم إلى القِزِلْباش الذين يسُبون الخلفاء الراشدين، وحينما يحاربهم من يريد منع هذا السب عن الخلفاء الراشدين يؤازرهم صاحب مكة والمدينة ويرسل العون إلى القزلباش، وينبغى منع هذا السب واللعن، وأن يحمل بالسيف على مثل هذا السلطان الذى يمنع هذا السب فقتاله فرض ويجب أن يخلع لأن مثل تلك

الإمامات غير جائزة، ومن يتابع الروافض على ذلك ينبغى إهدار دمه والإغارة على مملكته، وينبغى قتله لا أسره، ويحرم الزواج من نسائه، ولا يجب اتخاذهن جوارى وينبغى محاربته كما ينبغى تقويض ملكه.

فحمل سليم سند الفتوى وفى الحال بعث باثنى عشر رسولا إلى السلطان الغورى بمصر؛ فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذو القدر وسبعين من ابنائه، وأرسل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلىّ بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان وفيها يقول: ما دمت حيًا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء فى سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلاً تعال إلى ميدانى.

وعندما تسلَّم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضبًا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور، وإنما قُتل سفراء المسلمين فقتل الغورى حلال. فانهض يا مولانا لساعتك وخف إليه ولا ترفع يدك عنه.

ووكل السلطان سليم تدبير أمور الدولة إلى قره بيرى باشا فى اسطنبول وأمر بأن تكون إمارة الجيش للأمير سليمان. ومضى بالجيش من بروسه يطوى المراحل الواحدة تلو الأخرى، وفى قونية عَفَّر جبينه على عتبة سلطان العلماء ومولانا جلال الدين الرومى، وطلب المدد من روحانيتهما، ثم بلغ دولة الرمضانية فى أدنه وهناك أقام، وبناء على رسالة من الشيخ أبى السعود الجارحى نزل ضيفًا على خليل بك الرمضانى، وقال له: «إن قدَّر الله أن تكون مصر لى أبقيت على دولتك»، وقد قدم سليم هذه المرة بجيش عظيم ومنح آل رمضان جميع أوقاف وكل ما يملكون ومالهم من أقاليم ما عدا إقليم طرسوس، وجعل ابن رمضان طليعة جيشه وجعل فى مقدمة جيشه عشرين ألف جندى من صفوة الجند، وإلى طرسوس وصل من اسطنبول أكثر من ثلاثمائة سفينة مما يعرف بـ «بدرغه» ومائتا سفينة مما يعرف بـ «شايقه» و«قره مُرْسَل»، و«غليون» مع قدر

عظيم من الجند والعدة والعتاد، وبلغ نبأ ذلك السلطان سليم فسر سرورًا ما بعده سرور؛ فدعا الله بالخير لبيرى باشا الذى فوض إليه النظر فى أمور الدولة بالأستانة ووصل الخبر من أحد رؤساء بوابى الباب العالى إلى الربان مصطفى بلاق باشا. ولما وصلت الأوامر إليه بألا يفارق ساحل البحر هذا فقام من طرسوس وبلغ ميناء الإسكندرونة، وهناك ألقى مرساة سفائنه. كما تحرك سليم من أدرنه على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف جندى من خيرة الجند، ودخل حدود مصر، ذلك أن أدنه كانت فى ذلك العصر حدود مصر، وغادرها إلى سهل مرج دابق بالقرب من موضع يسمى كلس وهناك أقام. فقدم عليه درويش وقال له: إذا شئت لنفسك أن تكون شجاعًا مظفرًا فاعلم أن داود بأمر الله حارب جالوت فى سهل مرج دابق هذا، وفى الموضع الذى انهزم فيه جالوت ضريح النبى داود ـ عليه السلام ـ، وقبل أن يقدم الغورى ولِّ هذا الضريح ظهرك حتى تشاهد صنع الله، ففى هذا الموضع تعلق نظر الله ـ تعالى ـ وأنزل الله على حبيبه قوله: ﴿ **وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فانطلق لِتَوّك يا سليم لهذا الموضع وكن سد الإسكندر. وغاب الدرويش عن النظر، وسرعان ما قام سليم من هذا الموضع وعسكر عند مقام داود فى مرج دابق وأوقف الحراس فى الجهات الأربع ثم راح فى ثبات عظيم.

أول هزيمة لحقت بالغورى على يد السلطان سليم الأول

وفى صباح اليوم التالى قدم الغورى بجيش عظيم ووقف لملاقاة العثمانيين، وقام بترتيب سبع فرق من الجنود، وكان جيشه مؤلفًا من عشرين ألف جندى من حملة العصى وعشرين ألفًا من مقيمى الخيام وعشرين ألفَ سائسٍ وعشرين ألفَ فلاح من الحُرَّاس حاملى العصى، واثنى عشر ألفَ فارسٍ من خيرة الفرسان، وأربعين ألف فارس وثمانين ألفًا من أغوات الميرميران وأمراء الشراكسة، وعلى حد قول تواريخ الشهاب، وعلاوة على سائر الرعاع مائتين من حاملى السيوف. وواجه الغورى بهؤلاء الجند السلطان سليم فى مرج دابق. أما العثمانيون فكانت عدتهم سبعة وثمانين ألف جندى.

كـأن قـمـر يـوسـف صـعـد إلى بـرج الميـزان
وقـد كشـفت زلـيخـة فى الـسحـر عن الـكنـز للـعيـان
ومـن الـسـحـر ظـهـرت الأنـوار الإلـهـيـة
ومـن الـقـبـة الـزمـرديـة قـلـنـسـوة ذهـبـيـة
وامـتـطـى جـمـيـع المـلـوك صـهـوة فـرسـهـم
وامـتـطـى الـشـجـعـان بَـبْـرَهـم[1] ونمـرهـم

وقد اصطفت الصفـوف وأعد كل كمين والتحم الفريقان، ودام الـقتال سبع ساعات على نحو لم يكن فى هذا السهل قتال مثله لداود مع جالوت، ولا نُطيل فى القول فقد هَبَّ نسيـم النصر صَوْب سليـم، وقد كان جميـع جـند الغورى حصاد الـسيف، أما البقية الباقية منهم فتعلقوا بأذيال الـفرار مع الغورى قائلين (عينك يا مصر) ويقول بعض المؤرخين: إن الغورى قتل فى هذه المعركة ولكـن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشـد جيشًا. ومكث سليـم الأول فى سهل مرج دابق عشريـن يومًا وجمع الأمـوال والغـنائم، وكان الجمالة والحمّارة يلحقون بخدمته ويتلـقون أجرتهم؛ فأثروا من كثرة ما كانوا يتلقون من أمـوال من السـلطان سليم. ودفن جنود الغورى وأرزاقهم فى الأرض قائلين أن الصباح أم المعارك، وجاء جند آل عثـمان واستخرجوها بعد قتـل أصحابها، وأصـبح جميـع المتسـولين فى غنـية عـن التسول.

ثم توجـه السلطـان سليم إلـى قلعة عـزز وأقام فيهـا، وقال جند الإسـلام إن لدى الجراكسة أموال كثيرة فبحث جند سليـم على جند الغورى وقتلوهم، وأخذوا أموالهم، وعلى هذه الـصورة فإن وزير الغورى الـسابق للشام سـينال وكُرتباى وقـوده باى ووزير الشام الحـالى جان بردى مَـلُّوا حياتـهم وفروا هاربـين، وفر خيـرة بك الحاكم الـسابق لحلب، فر منـها ومسح وجهه بالركاب الـسلطانى لـسليـم وأصبح عبدًا مطيعًا لـلسلطان

(١) البَبْرُ: النَّمِر.

سليم فأقسم له سليم كذلك أنه إن صدقت فى خدمته وقدر الله لسليم فتح مصر جعله حاكمًا مستقلاً وأعطاه جندًا بقدر ما يطلب وسوف ينظر فى هذا الأمر وأغراه بذلك وأغراه وأغدق عليه العطاء وأنعم عليه بإقليم كُستَنْدِيل فى بلاد الترك وقدم خيرة بك عظيمًا من الخدمات إلى السلطان سليم أثناء توقفه فى حلب الشهباء فى طريقه لفتح مصر وأقنع علماء حلب وصلحاءها وأئمتها وخطباءها ومشايخها وجنودها قاطبة بأن يسلموا مفاتيحها إلى السلطان سليم، ونالوا جميعًا نوال السلطان، وفى عام ٩٣١ فُتِحت حلب صلحًا وإيالتها أُسنِدت إلى قره جه باشا ومولويتها إلى جوملكجى زاده كمال چلبى.

ومكث السلطان سليم فى قصر الحاكم بحلب مع جيشه العظيم المظفر، وزار ضريح النبى زكريا فى الجامع الكبير وأضرحة باقى كبار أولياء الله والتمس المدد من روحانيتهم، وبعث برسائله إلى الولايات فى جميع الجهات لاستمالة الناس إلى جانبه فجىء له بمفاتيح القلاع وأعلن أهالى الولايات طاعتهم وولاءهم له وهذه الولايات هى:

مرعش، وعينتاب، وريحانية، والمعرة، وروحه، وبيره جيك، وحران، وكلس، وعزز، وحلب، وحماه، وحمص، ومَدَقْ وشَجَر، وأنتاكيّة، ولازقية وجبليّة ومارقاب وحَصين، وطرابلس، وبيروت وصيدا، وعكه، وصَفَد، والرَّملة، وزيدانيّة، وبعلبكه، شقف وطربية، وفلسطين، ولجون، وعجلون، ونابلس، والقدس، وغزت الهاشم. وقد فتحت هذه القلاع الحصينة - وهى قريب من مائة وأربعين - صلحًا، وانقاد أهلها وأطاعوا، كما خضع له بدو الصحراء مثل آل بنى سلامة، وآل رشيد، وآل وحيدات، وآل بنى عمورى، وآل بنى زهد، وآل بنى رباح، وآل بنى ترابى، وآل بنى سالم، وهم سبعون قبيلة. كما خضع له جميع الدروز والتيمانية واليزيدية والمروانية والهوبارية والمعروفية والأقلية والقزللية، والشهابية، والشهبارية، والنصيرية، والتاتكية وجميع القلاع الواقعة فى جبال بيروت وصيدا والتى كانت فى حوزة الفرق الضالة وهؤلاء جميعًا مسحوا جبينهم على حافر فرس السلطان سليم.

وبدأ سليم يتلـو قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، ثم غادر السلطـان سليم مدينة حلـب ومضى إلى خانتيمـان ثم أسند قلعة المعـرة إلى أمير اللواء الـغنى عطـا، واستقبـله أهل حمـاه ـ حماها الله ـ وقـدموا له فروض الـطاعة، وسلموه القلعة وعين عليها أمير اللواء طورخان بك، ثم استقبله أهل قلعة حمص قاطبة بالهدايا، وأنعم بها على أمير اللواء إخِتْـمَان زاده ومنحت طرابلس الشام إلى قاسم باشا وصدر الأمر لـلأسطول العثمـانى بالقدوم إلـى طرابلس فمـضى سليم إلى دمـشق ولما اقترب منـها قدم خيرة بك وجان بَرْدى وزيـر الغورى على دمشق وأهـل دمشق فروض الطاعة للسلطان سليم وأصدر عفوه عمـا فرط منهم، وأسند ولاية دمشق ثانية إلى جان بَرْدى وتصدق على شيخ المولوية على مُنلا ودخل سليم دمشق فى موكب عظيم وبسطوا الديباج والمزركش فى كل ما مر به من طرق.

فتح قلعة دمشق

فُتِحت قلعة دمشق فى عام ٩٣١ ونادى الدلالـون بذلك، وأصدر سليم فرمانًا بإقامة القلعة الداخلية لدمشق. وحينما كان سليم أميرًا ترك التاج والعرش فى طرابيزون وخرج للسياحة واستخلف عليها مير اللواء صارى أرسلان، وأمره بإقامة قلعة حصينة لدمشق، وبعد أن فتح سليم مصر، غادرها إلى دمشق، ووجد أن القلعة تم بناؤها؛ سماها باسْم بانيهـا صارى أرسلان، والقلعة الداخـلية فى دمشق هى قـلعة سليم التى بـناها صارى أرسلان، أما القلعة الخارجية فهى لمعاوية بن أبى سفيان.

وجاء الحمام الزاجل مـن مصر إلى دمشق حاملاً الرسائل، وعـندما وصل إلى جان بردى أخذ ما يحمـله من رسائل وتوجه بها إلى الـسلطان سليم وبقراءتهـا جاء فيها أن السلطان الغورى لحقته الهزيمة فى مرج دابق وجـميع الفارين من المعركة نفقت جمالهم وخيولهم ظمأ فى صحراء قطيّة وأم الحسن، أما الـناجون منهم فقد قتلهم البدو، وتأتّى للغورى أن يعود إلى مصر فى ستين من جنده وأسند قيادة الجيش إلى طومان باى. ولما قـال جـان بــردى: أن الجنـد كتبوا هذه الرسـالة صباحًا ووصلت الشام وقـت العصـر

أخذ العجب مأخذه من السلطان سليم، والآن يطير الحمام من ميناء إلى آخر فى مصر حاملاً الرسائل. ثم حشد سليم جنده وعدته وعتاده وكان تفقده لهم يومًا بعد يوم.

فى بيان قبر محيى الدين بن عربى

واقتضت حكمة الله أن كان السلطان سليم فى مشتاه فى دمشق وبينما كان يتصفح كتابًا مع كمال باشا زاده وجد فى رسائل محيى الدين بن عربى عبارة (إذا جاء السين دخل الشين ظهر بمرقد الميم) وهذه عبارة ألفاظها من الدرر والمقصود بالسين السلطان سليم ودخول الشين بمعنى دخوله الشام أى دمشق، والمقصود بالظهور بمرقد الميم هو ظهور قبر محيى الدين بن عربى، هذا ما استنتجاه من العبارة.

وأنكر سليم أن تكون هذه الرموز بحساب الجَفْر[1]، ومضى فى الحال إلى زيارة محيى الدين بن عربى، وقال لنكشف عن قبره ليبدو للعيان فسأل ذوى السن من رجال دمشق إلا أنهم لم يقتدروا على أن يوردوا خبرًا فى ذلك. وقال بعضهم: يفهم من هذه الرموز أن قبره فى أطراف دمشق ولما كان قبره غير معلوم حزن السلطان سليم حزنًا لا مزيد عليه، وفى تلك الليلة رأى فى منامه أن محيى الدين بن عربى قدم عليه وقال له: كنت فى انتظار مجيئك إلى الشام، مرحبًا بك لقد تيسر لك فتح مصر وأنا أزف إليك البشرى بذلك، فامتط صهوة فرس أسود فى الصَّباح وابحث عنى وارفع عنى تراب المذلّة وأقم لى ضريحًا فى الصالحية ومقامًا وجامعًا ومبرّةً ومدرسةً ومكتب صبيان وحمامًا وتكية ومحكمة وبيت للحاكم وأسواقًا صغيرة ونبعًا، وأجلب الماء فى جداول وعمِّر الصالحية فامض فإن الله يسّر لك.

وهَبَّ سليم من نومه وطلب أن يُسرَج له فرسًا أسود سريع العدو ولكن قيلَ له ليس فى الحظيرة فرس أسود، فقال: يجب أن تبحثوا وتجدوا هذا الفرس، وألح فى طلبه، وأخيرًا وجدوا برزون جموح أجرب فالتف حوله الخدم وروضوه ليكّن ثم أسرجوه.

(١) الجَفْرُ: عِلْمٌ يبحث فيه عن الحروف من حيث دلالتها على أحداث العالم.

وامتطى صهـوته سليم دون أن يكون له لجـام، وصهل واشتد عدوه وبلغ بـالسلطان الصالحية واعتلى كومـة من القمامة وجعل يصهل إلى حد لم يطق سـليم صهيله، فنزل عنه وظهر له نعش حجرى كبير فكَفَّ البرزون عن الصهيل كأنما أتم خدمته ومضى نحو سليـم وظل صامتًا ولـسان حاله يقـول هذا قبر محيـى الدين فنظـر سليم فى الـنعش الحجرى، فإذا به كتابة بالخط الكوفى هذا قبر محيى الدين.

وفى قديم الزمان لم يدرك المنكرون مزايا مؤلفات الصوفية فكفروه وكوموا على قبره مزبلـة من تراب المذلة، فظـل قبره مجهولاً، فـجمع السلـطان سليم فى الحـال كل ما استطاع سبيلاً إلى جمعه من المعماريين والبنائين ولكى يشرُف بخدمة الشيخ حمل بنفسه ما فى المزبلة من أحجار كما حملها جميع جنده، وفى طرفة عين طهروها وبناء على ما سلف ذكره ورآه سلـيم فى منامه أقام خانات مـغطاة بالرصاص وجامعًـا ومَبَرَّةً ومدرسة ومكتبًا للصبيان وضريحًا ومحكمة ودار ضيـافة ومستشفى على نحو ما ذكر تفصيلاً فى وصف دمشق. وبينما كان السلطان سليم فـى مشتاه فى دمشق اشتغل بعلم الجَفْرِ وأَنِس بمن لهم علم به، وفى حديث له معهم ذات يوم سأل الشيخ ناصر الطرسوسى قائلاً:

أيتيسر لى فتح مصر؟ فأجابه الشيخ الطرسوسى قائلاً: بشراك يا مولاى.. لقد شهد الإمام علـى ـ كرم الله وجهه ـ أنـك سوف تملك مـصر فقد قـال: لا بد من سلـيم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب.. وهو يقصد بجزيرة العرب جزيرة مصر بكلامـه الذى كالدر النفيس. ومصر تـسمى جزيرة لأن أحد ملوك القـبابطة وهو طوطيس أجرى مياه النيل إلى بحر السويس فأصبَحَتْ مصر جزيرة. ولذلك تسمى مصر الجزيرة، وإن شاء الله سوف تفتح مصر بناء على كلام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ وستكون أول خادم للحرمين الشريفين من آل عثمان، وبهذا بشره ناصر الطرسوسى بفتح مصر، كـما أن عالمـًا قـال: إن القرآن أعلن أنك ستفتح مصر، وهذا ما استنتجه الإمام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ وبلغه للإمام الحسين فبلغه الإمام الحسين إلى زين العابدين، وبعد ذلك بلغه إلى السرى الـسقطى، ومنه إلى الجنيّد، وإن كلام القرآن الـكريم له الدوام إلى يوم القيامة.

ولمقدمـك إشارات ورموز ﴿مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وأهل الذكـر مأذونون بإعلان هذا وليست فيه رخصة، والآية الشـريفة هى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فلفظ «ولقد» يساوى مائة وأربعين وكذلك عدد لفظ سليم وهو إشارة إلى سليم.

ولفظ «ذكر» يساوى تسعمائة وعشرينًا و«من بعد الذكر» أى بعد تسعمائة سوف تكون فاتح مصر. «أن الأرض يرثـها» ولفظ أرض بدون تعريفـه باللام عندما يذكر يـشير إلى أرض مصر، كما أن «أرض» بـ ال تفيد الإرادة: أى أن هذا المعنى يتقرر بناء على قاعدة علم الجَفْر.

«عبادى الصالحون» يعنى أن الله أعدك من عبـاده الصالحين، وسترث مصر وحسبك هذه البشرى، امض راشدًا إن مصر لك. ودعى الله أن يعينه وينصره. فقال سليم ثانية: إلى كم تدوم سلطـنتى؟ فردّ قائلاً: لا أعرف سوى لفظ جداً. لا يـعلم الغيب إلا الله. وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بكفه.

ولو أن لفظ (جدا) يساوى ثمانية. فإن فتحه لمصر ووصوله إلى اسطنبول سلطنته قد دامت ثمانيـة أعوام، وهكذا علم الجفر علـم خفى وصحة هذا الخبر: أن سـليم أمضى الشتاء فى الشام بمشقة وبدأ ماء الرحمة فى الجريان، وترك جند قوجه بيدرمان فى الشام بجانـب جان بردى وكوز لجـة قاسم باشا وقـطع المنازل وطوى المـراجل حتى بـلغ غزة بعسكر الإسلام، ومن الجنوب وصل سليم إلـى نابلس ومنها إلى القدس، وزار الأنبياء وطلب المدد من روحانيتهم وغلب على جبل الخليل وزار جميع الأنبِياء.

فتح قلعة غزّت الهاشم صلحًا

ثم استراح فيـها سبعة أيام، وخضع جميـع البدو له ودانوا له بالطاعـة، وقبَّل قدمه بنوزُهـد وآل عمور وآل رشيد وآل رباح وآل مـعان وآل شهاب وآل تُرَابـى وآل خرفوش وآل حَبَش وآل سعيد وبنو إبراهيم وبنو السوالم وبنى عطية وبنو عمران وبنو حوالم وبنو جوران وبنو البُصْرى وبنـو جعفر ومشايخ نابلس وصفد وعكة والرمـلة وفلسطين وغزة

والقدس والخليل والكرك والعقبة وصَقَر وأتباعهم ونال كل منهم نصيبًا من إحسانه، ودانت له بالطاعة جميع العشائر والقبائل، وتعهدوا جميعًا بأن تطيب نفسهم بخدمته، ولكى يجتاز صحراء أم الحسن وقطيّة أمدوه بأربعمائة ألف جمل يحمل ماء، ولما غادر غزة ووطأت قدمه صحراء مصر والعظمة لله، فقد هطلت غيث الرحمة، وإن من تخوفوا من الظمأ فى الصحراء ساءهم أن يهطل المطر كأنه سيل فأصبحت أرض الصحراء من طين.

ولما وصل سليم خان يونس قتل يونس باشا وبنى بماله قلعة خان يونس، وطوى الجند الأرض طيًا ووصل العريش وفى ذلك الموضع تقدم الصدر الأعظم سنان باشا وخليل الرمضانى بك وخيرة بك الشركسى وعبروا صحراء قطيّة وأم الحسن وبلغوا الصالحية فظهر رعاع الشراكسة فى حدائق النخيل إلا أن السيوف حصدتهم حصدًا وأحضر البدو أكثر من ألف شركسى وأعملوا فيهم السيف بعد أن سلموا أسلحتهم لبدو الصحراء، ثم مضوا إلى أم القرين وأرسلوا دليل الجراكسة إلى حضرة السلطان سليم فقال: هل لسلطاننا الغورى طاقة لكم فى صحراء بلبيس، لا تغفل عن هذا.. فأطلق سراح الأدلاء.

حرب سليم مع الغورى وعاقبة أمر الغورى

والتقى الجمعان فى القرين بالقرب من بلبيس ولم يستطع الجيش أن يرى الجيش الآخر الذى يقاتله من دوى المدافع والبنادق. واتفق أن هب نسيم فأثار غبارًا كان حجابًا بين الجيشين، ورأوا أن جنود الغورى صاروا فلولاً متفرقة وأصبحوا من قبيلة «موتوا بأمر الله» فتحين الجنود العثمانيون الفرصة وشدوا عليهم وانقض عليهم طومان باى من جانب كما ينقض الذئب الجائع على الغنم، ودارت رحى الحرب من وقت الزوال إلى وقت الغروب، وما أشبهت هذه الحربَ حربٌ، وقرع الطبول، والتحم جندِ الفريقين فى معركة حامية الوطيس، والتفت الساق بالساق وانحلت الدروع. وفى هذه الليلة دفن من العثمانيين سبعة آلاف. وقد استبسل فى القتال خيرة بك والذى جاء مددًا للجيش العثمانى فى هذه المعركة، وهذا وارد فى تواريخ مصر، وعرفوا أن خيرة بك حليف العثمانيين، وفى صباح اليوم التالى دقت طبول الحرب وكأنها تقول: أين من يحتسى

كأس الحمام فى هذه الحرب، واتفق أن حمل جميع جنـد الغورى على العثمانيين كأنهم بلاء أسود وكأنـهم قضاء مبرم، ودخـل بينهم جند الـعثمانييـن بكل أسلحتـهم وأطلق الإنكشارية البـنادق من ناحيتهم وبقوا فى نـار النمرود، فألقت المدافع ثلاثـمائة وستين قذيفـة فاسودّت السـماء والأرض بالبارود، ورأوا أن جـند الغورى تقـهقروا وقيـل إنها خدعة منهم.

ورأوا أن قرار الجراكسة تبدّل فراراً، وأصبح سهل بلـبيس كحديقة للزهر الأحمر مما جرى فيه من دمـاء، وإلى وقت الغروب كانوا كقصّـاب يعود إلى كبشه وجعـلوا يتلون آيات الذكر الحكيم ويدهم وسيفهم ملـطخ بالدماء وهم عراة الأجسام، ومضوا إلى مقر سليم ونالـوا منه العطاء، وظل غزاة المـسلمين فى مواضعهـم مطمئنين وقالـوا لسليم: لنحاصر مصر ولنغادر هذا المكان، إلا أن خيرة بك لم يقبل منهم ذلك وقال:

يا مولاى السلطان إن الجند الآن متعبون، لقد ألحقوا الهزيمة بالعدو مرتين، لا شك أن فتنة تثور فى قلوبهم، وبذلك ثنى سليمًا عن عزم الحملة على مصر؛ واستراح عسكر الإسلام فى بلبيس ثلاثة أيام وشاء الله أن فى هذا اليوم من أيام الحرب مات الغورى فى جانب من ذلك السـهل عـلى سجادة وهو متوجه إلى القبلة. وقطـع عنقه أحد الجراكسة كى لا يكون ذلـك بيد عثمانى ولـف جثته فى سجادة ومضـى بها إلى السلطـان سليم واستقدم خيـرة بك الجراكسة فقالوا: إنها جـثة الغورى، ولم يتعرف عليـه بعضهم لأن الجثة كانت بلا رأس؛ فقالوا: إنها ليست جثته.

ولكن بعد مرور سبعة عشر عامًا أوصى معلم مكتب فى بلبيس بأن يكتب على قبره «أنا الغورى»، وأدركه الموت والخاتم الذى فى إصبعه وجرح السيف فى ذراعه يثبتان أنه الغورى. وجملة القول أن الغورى فقد فى معركة بلبيس هذه. وقال خيرة بك فى الجند إنه بلا رأس ولا عنق وآخر الأمر ولوّ العرش ابنه السـلطان محمد إلا أن البعض لم يُقر ذلك، وقالوا: إذا وليـنا فتًى غريراً ناقص التجـربة مثله فماذا تكون عـاقبة الأمر؟ وماذا يستطيع أن يفعلـه تجاه العثمانيين يجدر بنا أن نختار طومان بـاى خليفة. هذا ما قالوه. ودارت الحرب بينهم شهراً فى مصر وكان النـصر لأنصار طومان باى واستخلف طومان

باى دويدار ولقب بالملـك الأشرف وفى ذلك اليوم خرج الناس جميعًـا للصلاة ونشبت معركة ضارية مع السلطان سليم بالقرب من الخانكة.

إلا أن الجراكسة لحقت بهـم الهزيمة ثانية، وتجدد القتال فى صبـاح الغد فى الخانكة ودام إلى العصر وأرسلوا إلى السلطان سليم قائـلين: نحن لا نحاربكم بالمدافع والبنادق فإن هذه الحرب بإطـلاق النار خاصة بالكفـار، وذلك لأن الجراكسة لم تكن لـهم طاقة بالمدفع والبندقية أما إذا كان السيف يستخدم فى القتال فلا يمكن مواجهة المصريين لأنهم حقًا كالعجم فرسان يـحسنون القتال بالسيف وبالرمح. والحاصل أنـه منذ مجىء سليم إلى مصر خاض مع الجراكسة أحد عشر معركة من بلبيس إلى أقصى مصر.

وفى نهاية الأمر نشب القتال فى وادى الريدانية أى فى سهل سبيل علام وكانت حربًا لا يشبـهها حتـى حرب علىّ ـ كـرم الله وجهه ـ وقالـوا: لقد تحاربـنا طويلاً مـع هذا العثمـانى ودارت الدائرة عليـنا، فلنقتـل سليم وعاهدوا الله عـلى ذلك، وبينمـا كانت الحرب دائرة الرحى فى سبيل علام بلغ طومان باى وكُرتَباى و (   )[1] باى معسكر الإسلام وظن طومان باى أن الصدر الأعظم خادم سنان بـاشا هو السلطان سليم ورشقه برمح فسقط عـن جواده فقد كان سنان باشا بلا لحـية كالسلطان سليم، وكـان السلطان سليم يركب فرسه وعليه ثياب كثياب سنان باشا.

وظن كرتباى أنه وزير آخر للسلطان فأسقطه عن فرسه، وظن الثلاثة أنهم أسقطوا الوزير عن فرسه، فسلك ثلاثة وزراء الطريق إلى سليم وأصبح (   )[2] باشا صدر أعظم.

وقامت معركـة فى وقت الغروب ومكث العثـمانيون فى العادليـة، ودخل المصريون جميعًا مصر وتحَصَّنُوا فيها، وضرب العثمانـيون عليهم الحصار ودان لهم بالطاعة جميع رؤساء قبائـل العرب ولم يحضـروا حبة من غلال وأحاط جـند من العرب بالمـدينة من جوانبها الأربعة وفى ذلك اليوم قدم ابن خـبير وابن بنى سيف وابن عوار وابن ايد وابن حمادة وهم من شيوخ العرب المقيمين قبالـة شاطئ النيل ومسحوا وجوههم بحافر فرس سليم، وقـد طيّب خاطرهم بما لا مزيـد عليه ورجع كل منهـم إلى قبيلته وعلـيه خلع

(١، ٢) بياض بالأصل.

فاخرة وجمعوا جميع جنودهم على الشاطئ الغربى للنيل، وقاموا بالحراسة إلى حد أن الطير لم يكن يطير من هذا الجانب، وفى البداية حاصر جند الإسلام القلعة الداخلية وبدأ كوزلجه قاسم باشا قَصْف القلعة باثنى عشر مدفعًا واقتحمها من جبل الجوشى، ودخل عسكر الترك جامع السلطان حسن وتحصَّنوا بالحواجز، ويسمون ذلك باب الوزير، وتحصن الوزير الأعظم (   )[1] باشا وراء الحواجز عند جامع النظامية ودارت رحى المعارك ليل نهار. وبينما كان كل طوائف الجند تنحدر من القلعة اتفق أن أخبر بوابو القلعة الداخلية الذين يسمون أبناء الألواح أخبروا السلطان سليم، وفتحوا باب المطبخ وبينما كان السلطان سليم يدخل القلعة الداخلية وفى معيّته أغوات الداخل وحراس الباب وسبعة من وزراء القبة، كان رجل أعمى ينتظرهم عند الباب منذ أربعين عامًا، وكان يقول «شوى شوى سلطان سليم»، وبينما كان سليم يدخل القلعة التصق هذا الأعمى بركاب فرس سليم ورقد وأسلم الروح وهو يقول: «شوى شوى يا سليم»، وتحسب بحساب الجُمل، وهذا الأعمى مدفون فى نهاية باب المطبخ، والآن أحفاده لهم معاش دائم، وبينما كان السلطان سليم تحت سُلّم ديوان قيتباى انطلقت قذيفة مدفع من القلعة وأصابت طرف قمة رأس سليم ثم قام السلطان سليم ومكث فى بناء حصين أسفل حجرات العيارين، وبيّضوا قصر القلعة وزينوه بالأعلام ومن هذا الموضع رأى أهل المدينة أن القلعة الداخلية للقاهرة قد فُتحت؛ فرحب أهل القاهرة جميعًا بجند العثمانيين، وقامت كذلك حرب شعواء رهيبة، وكان للغورى فى الميدان الأسود اثنا عشر ألف جندى زنجى من العرب.

ولذلك يسمون الميدان قره ميدان أى الميدان الأسود، ودخل جند الروملى هذا الميدان واشتبكوا معهم وقاتلوهم ونصبوا جثثهم السود فى الميدان، ولذلك سُمى قره ميدان أى الميدان الأسود.

---

(١) بياض بالأصل.

فتح قلعة القاهرة عام ٩٢٢ بعد معركة طاحنة

وقال كمال باشا زاده فتح ممالك العرب سنة ٩٢٢ وقال الشيخ نصر الله سلطان سليم شوى شوى ٩٢٢ وفاتح ممالك العرب سنة ٩٢٣.

فتح سليم القلعة الداخلية وخلع على كل من دخل القلعة من وزراء ووكلاء وأعيان خلعًا على حسب رتبة كل منهم وبمضمون (الكريم إذا عهد وفا) ولى مصر ووزارتها خيرة بك، ومُنح كمال باشا زاده أحمد أفندى قاضى عسكر الروملى مولويتها، وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة - أدى جند الإسلام صلاة الجمعة فى جامع قلاوون وتلى الخطبة كمال باشا زاده، وذكر فيها خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان با يزيد خان، فسجد سليم سجدة الشكر وسمع كل الجراكسة تحت القلعة بأن خيرة بك عُين وزيرًا لمصر فأوصدوا جميع بواباتهم وجعلوا أسلحتهم وماءهم في بيوتهم ودامت الحرب ثانية بينهم وبين جند الإسلام سبعين يومًا فى الأسطح والسراديب وفى المنارات ليل نهار.

وهتف جميع أهل القاهرة قائلين: «الله ينصر السلطان طومان باى» وكانت الخطبة فى الصعيد تتلى باسم السلطان طومان باى سبعين يومًا.

وبناء على ذلك قدّم طومان باى وكرتباى و (   )[1] باى المدد إلى مدن الصعيد ثمانى وسبعين مرة، ونشبت المعارك وسُدَّ كل بيت بباب من حديد، وقذفت النساء من أسطحهن وكُوَّاتهن غزاة الإسلام بالحجارة والماء الحار والقاذورات.

وآخر الأمر أمر السلطان سليم لنساء مصر بعلوفة - أى رواتب - وفتح الصعيد، وبقيت رواتب الجوارى فى مصر منذ عهد السلطان سليم، وآخر الأمر استوجب سليم من خيرة بك القضاء على طومان باى ووعد خيرة بك ابن خبير خيرًا، والتزم بذلك، وجاءه الخبر بأن طومان باى فى قلعة حصينة فى الفيّوم، فأخبر سليم هذا الخبر، فأرسل سليم مصطفى باشا رئيس بكوات الروملى، ومضى مع خبير أوغلى إلى مكمن طومان باى وكان طومان باى نائمًا، ورأى فى منامه النبى ﷺ فقال له: يا طومان باى لا بد أن

(١) بياض بالأصل.

تغار على عرضك. لقد أديت ما يستوجبه الشرف، أمض إلى سليم سوف أجعله يأتينى بك. وليأتنى سليم الغازى كذلك قريبًا»؛ فلفظ سليم الغازى يساوى العدد (١٤٦٣) وحقًا بلغ سليم اسطنبول وبعد ألف وأربعمائة وثلاثة وستين يومًا وافاه الأجل بمقتضى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] رحمة الله عليه.

وهب طومان باى من نومه وتوضأ فى التو، وصلى ركعتين ثم سَلمَ، وامتطى صهوة فرسه وبينما كان فى سيره ظهر أمامه مصطفى باشا فحمله إلى سليم مقيدًا، كما أن سليم رأى فيما يرى النائم أن الرسول ﷺ جاءه، وقال له: «ابعث إلىّ طومان باى واسْعَ فى جنازته وأعاهدك أن أجعل مصر لك، وإذا ما بلغت اسطنبول فجئنى أنت الآخر. فقال سليم: يا رسول الله لمن أترك مصر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن مصر فى حمى الله يا سليم، وستبقى فى حوزة المسلمين إلى آخر الزمان فلا تحزن وفى تاريخها أنها ستكون للملك كعب الرابع ابن إبراهيم، من ذريتك»، ولفظ (غم يمه) أى لا تحزن يساوى العدد ١٠٠٣ وفى هذا العام سوف تقوم ثورة فى مصر.

ولفظ كعب من ذريتك يساوى ٩٢ ومحمد كذلك يساوى ٩٢ أى أن محمد الرابع ابن إبراهيم فى هذا التاريخ ستكون مصر فى حوزته.

فهبّ سليم من نومه مضطربًا، وبينما كان يصلى قيل له يا مولاى قَدِم طومان باى.

الحوار الذى دار بين طومان باى والسلطان سليم وقتل طومان باى

وبمجرد أن فرغ سليم من صلاته خرج وقال:

مرحبًا بك يا أخى طومان باى، فقال طومان باى توًا: لقد قبلت الأخوة وطبق الفُتُوة الأولى وقد أخذت ما فى يدنا من أموال وجعلت منا نحن الجراكسة كفار ملاعين، والآن تقول يا أخى، وإذا كنتُ أخاك الكافر فمن تكون؟ عليك أن تختار أحسنهما، فقال سليم: هذا يكون فى سبيل الملك.

فقال طومان باى هـل الملك الذى ورثه عن والدك أن تقتل هـذا القدر من عباد الله بسبب طمع الدنيا، من سيجيب عن سؤالهم يوم الحساب.

فقال السـلطان سليم: لقد سـاعدت العجم لذا فأنـت تستحق القتل، فـقال طومان باى: حاشـا لله، ما كان منـا عون. إن عَلِىّ الدولـةِ ألْبَسَ فرقـةً من أشراف التـركمان سراويل حمراً وسمـاهم بأسماء مصرية، وقال: إن هذا هو المـدد من مصر، وحاشا أن تكون قطعت عنق عَلِىٍّ الدولة وأرسلت رأسـه إلى الغورى فانتقمت أنت، وماذا تطلب غير ذلـك. فقال سليم: إنـك قتلت رسلنـا. فقال طومان باى: إنـهم بسطوا لسـانهم بالفحش فى حضرة الغـورى ولذا قتل منهم عشرة، أما الاثنان الباقيان فـلم ينطقا ببنت شفة فأطلق سراحهما.

قال سليم: لماذا حاربتنى كل هذه الحروب؟

قال طومان باى: ما دمت قد أغرت على أهلى وعيالـى وجئتِ لتقاتلنى فأنا مقاتلك إلى يوم الدين.

قال سليم: لماذا مثلت فى حضرتنا؟

رد طومان باى: إن الرسول ﷺ هو الذى أرسلنى، وهذا ما أقدمنى عليك.

وفى النهاية ألفى سليم أن كل كلامه هو الحق.

فقال سـليم: ولماذا قالوا: «الله يـنصر السلـطان طومان باى..؟» قال: إنـى أقمت العدل فى الفقراء، ولم أنـسهم وهم الآن يحاربون فى الصعيد فاعدل أنت كذلك، وكف عن الحرب، وهم يتـبعونك وعندما قال ذلك أمـر سليم خيرة بك بصـلب طومان باى على باب زويلة ويظل سبع ساعات ثم ينزل. وسـار السلطان سليم فى جنازته من باب النصر حتى بـلغت العادلية كما حمل نـعشه على كتفه، لأن السلـطان طومان باى كان يحفظ القرآن ومن أهل العدل والعلم، حتى إن بناء العادلية منسوب إليه وهو مدفون فيه وقد كُتِب حول ضريحه تـاريخ (تسعمائة)[1] وأقيم على ضـريحه قبة عالية وأقيم كذلـك جامع، وكان الضيوف يجيئون ويروحون فى جـوانبه الأربعة، ولهم منازل ينـزلون فيها، كما أقيـم قصر شامخ يستـريح فيه وزراء مصر أول مقدمـهم وبعد

---

(١) بياض بالأصل.

ثلاثة أيام وثلاث ليال يدخلون القاهرة في موكب عظيم. وجميع موالى مصر ووزرائها المعزولين يمكثون في قبر طومان باى طالبين المدد من روحه الشريفة، ويمضون إلى هذا القبر قبل خروجهم إلى أى مكان، إن هذا القبر مزار عام، ويُسمونه العادلية، إنه حديقة كحديقة إرم.

أمر السلطان سليم بصلب طومان باى ودفنه، إلا أن الناس لم يهدأ لهم بال في القاهرة، فكانت مناوشات تقع لأن دولة طومان باى والغورى كانت دولة عظيمة، وقد حزن خيرة بك على الغورى وهو الذى كان دليل العثمانيين إلى مصر.

ولما تولى الحكم نكث الشراكسة جميعًا عهدهم وتحصنوا فى المدينة، وقاتلوا، وأمر خيرة بك العرب بأن تقول «الله ينصر السلطان طومان باى»، وأسمع ذلك السلطان سليم، وكان خيرة بك هو السبب فى قتل طومان باى، وهذا ما أغضب المصريين منه.

وأجبر العرب أن يتعاهدوا وجنّد الأروام، كما أن جنود العثمانيين فتحوا مصر فى سبعة أشهر بعد إلحاق الهزيمة بجنودها، واستقل خيرة بك بالوزارة فى مصر، فاطمأن السلطان سليم وتلقى الأسطول العثمانى هذا الخبر وقدم إلى الإسكندرية سبعمائة سفينة ونزل الجند بلا خشية ووصلت بشرى فتح الإسكندرية إلى سليم وقد أقيمت الاحتفالات ودامت سبعة أيام لفتح القاهرة ودمياط والإسكندرية ورشيد وآل الملك فى مكة والمدينة لآل عثمان، وأرسل السلطان سليم إلى أشراف مكة وتبابعة اليمن ونجاشىّ الحبشة وققان فونجستان وملوك الفور ودنقله وأفنو بورنو وسلاطين السودان، وفاس ومراكش وسلاطين بلاد المغرب، والبيت العباسى فى بغداد وملك الهند والشاه إسماعيل شاه العجم وحكام البصرة ولحسه وعُمَان أى جميع السلاطين والملوك رسائل المحبة يقول فيها: «أنا فاتح مصر خادم الحرمين الشريفين».

واستقل السلطان سليم بملك مصر وشغل نفسه بألزم ما يلزم مصر وقام شَغْبٌ فى قصر قيتباى فى الصباح ولم يبد شىء ولكن وجِد فى جانب من القصر أوهاق طول الواحد منها خمسين باعًا، ورآها سليم فسخط على القاهرة. فانتقل إلى قصر عين القبة وهى الآن تكية للبكتاشية وبما أنه درويش نزل عدة ليال ضيفًا عليهم ومقصورتهم باقية هناك فغادرها، وحقًا إن الروضة روضة من رياض الجنة.

خبر السلطان سليم الأول مع الفدائى كرتباى
فى قصر «أم القياس»

نزل السلطان سليم ضيفًا على جوسق المأمون فى جزيرة أم القياس خمس أو عشر ليال، وكان ينعم بالإقامة فيه، وكان يقوم بحراسته خدام حجرته إلا أنهم ظلوا عاجزين عن حراسته، وطرأ على السلطان سليم وهم طارئ بحيث عزّ عليه المنام.

وحكى حليمى چلبى الذى كان مرافقًا له يقول: كان السلطان سليم فى أم القياس فى تلك الليلة إلى منتصفها على خير ما يرام، وعندما حان وقت النوم وارتدينا ملابسه لم يكن أحد من الأغيار يعلم أن عدوًا تسلل إلى القصر وعندما صاح السلطان سليم على أحد الغلمان، خرج أمامه رجلاً عاريًا فى يده سيف خرج بجانب السلطان وعلى بعد ستين ذراعًا من القصر طرح نفسه فى النيل واختفى عن النظر، ورأينا سفينة ترسو بالقرب من القصر ولعل هذا الفدائى قد هبط منها ولكن قصر أم القياس شامخ فى النيل يرتفع مائه ذراع، فاشتد غضب السلطان سليم على جميع خدامه وأمر بحراس حجرته تلك الليلة أن يركعوا لقتلهم.

وكان برويز أغا فى ذلك الوقت وهو من صلحاء الأمة يلزم ركاب السلطان، فقال للسلطان: يا مولاى عليك فى البداية أن تستجوبنا ولك بعد ذلك أن تأمر بقتلنا. لقد عجزنا عن حراستك منذ أن فتحت مصر، ولما قلنا لننتظر سلطاننا تلك الليلة لحراسته ظهر لنا النبى ﷺ من الباب ولم نكن نعرفه ورفع عن وجهه نقابًا أصفر، فكشف عما لوجهه من جمال، وكان عليه خِلعة من ليف النخيل، وفى قدميه نعلان صفراوان وعلى رأسه الشريف عمامة كأنها حِمل بعير، وعلى جانبى العمامة طيلسانان فسلَّم ورددنا عليه السلام.

وأراد رفاقنا أن يطردوه ولكنى قلت لهم لنتحدث معه، فسألناه من أين جئت إلى هنا؟ فقال: أنا رسول الله ولدىّ عهد مع سليم إلى يوم الدين على أن يخدمنى وأنا فى خدمته وذريته فى حمايتى إلى يوم الدين، لتطمئن نفوسكم وإذا وقع شىء فأنا أوقظ سليمًا من نومه فلا تقلقوا، ونزل من السلم وما كان من وجود لأحد. إن هذه حكمة

عجيبة وهذا ما أوقعه فى الحيرة والعجب وبينما كنا نتشاور فى هذا مع رفيقنا نمنا كما نام أصحاب الكهف وبعد مدة من الزمن رأينا سلطاننا يحمل السيف ويصيح ورأينا من يطرح نفسه فى اليَمّ ويغيب عن النظر. هو ذا ما قد وقع. وإن الأمر لمولانا السلطان، وعندئذ قال سليم: هذا ما رأيته فى المنام مع الرسول ﷺ، وقال لىّ: لقد نبهتُ خدامك إلى أن يستريحوا فى طمأنينة فلا تغضب منهم، وخذ حذرك ولكن لا تخف لن يلحق بك من ذلك ضرر، وقال لى: انهض، فاستيقظت فرأيت رجلاً أمامى وقد طرح سيفه بالقرب من قمة رأسى. فأخبرت الناس بذلك وكان الجميع نيامًا.

وقال: إن رؤياكم هى الواقع ولقد أطلقت سراحكم وعفوت عن الخدام الملحقين بحجرتى. وأجزل سليم لهم العطاء وجعلهم أمراء على مصر، ومنح كلاً منهم قصرًا شامخًا وكثرة من الجوارى.

ثم مضى سليم إلى القصر ثانية وجعل المنادين ينادون قائلين: فليأتِ من قدم تلك الليلة لقتلى فى قصر أم القياس له منى أمان وعهد آل عثمان، فليحضُر دون أن يخاف وله منى الأمان.

وعندما كان المنادون ينادون بذلك قدم بطل شركسى صنديد يُسمى كرتباى وقال: السلام عليك يا سليم، وكان رابط الجأش، فقال سليم: أأنت من قدم تلك الليلة ليقتلنى؟ فقال: نعم أنا هو. فقال سليم: لماذا فعلت هذا؟ فقال كرتباى لماذا لا أفعل ذلك لقد جئت غازيًا بلادنا، واستوليت على أهلى وعيالى، وأهلكت ما أهلكت من عباد الله، واستشهد فى الحروب معك سبعة من أبنائى واستوليت على كل ما أملك وفرقت بينى وبين أقرانى الشجعان وأولياء نعمتى مثل طومان باى حافظ كلام الله المجيد التقى الشجاع. فقُلتُ ينبغى أن أقتل سليمًا هذا وطلبت الإذن من رسول الله ﷺ فإن متاع الدنيا متاع الغرور، ورضاء الله خير وأبقى، لقد نزع الملك من الشراكسة وآل الملك إلى آل عثمان فلا تؤذه..

وفى هذه الليلة قلت يا رسول الله لم يقر لى قرار فلأنتقم من سليم ولذلك مضيت إليك فى تلك الليلة لأقتلك. فقال ﷺ : «إذا ما ذهبت فسوف أوقظ سليمًا».

وفى الـنهايـة لم أطق فـراق أبنائى وأحـبائى، فـجئت لأضـع راسى فى رمـسى. فاستيقظت ولـست أدرى ما الذى أفزعنى فطرحتُ نفسى فى الـيم، إلا ما استطعت أن أرتد عن خمسين رجلاً فـى محاولتى تلك، ولكن ماذا كان حالى فى تـلك الليلة، لقد مررت فى سَبْحِى بجزيرة وبلغت قاربًا فنجوت. وبما أنك أعطيتنى الأمان قَدِمتُ، وهذا أمر الله.

فَسُرَّ السلطان سليم وضحك قائلاً: جـندًا أنت من عدو جميل الوجه صادق القول. من الآن فصاعدًا لا تبق فى مصرى، امض إلى الجحيم، وقال كرتباى فورًا: وما شأنك بمصر إن هذه الدنيا متاع الغرور ليست ملكًا لأحد إن كنت عاقلاً فغادر مصر وأمْضِ إلى الجحيم أنا لم أستطع قتلك ولكن فى مصـر كم ممن يسخط عليك وسوف يقتلك واحد منهم فى يوم من الأيام وتسوء سمعتك. فسُرّ سليم من كلامه وأجزل له العطاء حتى إنه صحب غازى كرتباى إلى اسطنبول، ثم فوّض السلطان سليم كل الأمور إلى خيرة بك.

* * *

الفصل الرابع عشر

ذهاب السلطان سليم إلى دمياط ورشيد والإسكندرية

بلغت مائتا سفينة من الأسطول العثمانى بولاق بمصر، وكان الاحتفال بذلك عظيمًا وزينت كل السفن، واستقل سليم السفن فى عشرة آلاف جندى فأطلقوا المدافع والبنادق ابتهاجًا. وبينما كانوا فى نزهتهم يشاهدون مائتى مدينة على شاطئ النيل جهة دمياط بلغوا ميناء دمياط، وهو على بعد خمسمائة ميل. وهناك وبالقرب من الشيخ أبى الفتح نزل السلطان سليم، وأهدى الأعيان عشر خزائن إلى السلطان سليم فوزعها صدقات على الناس جميعًا، وأطلقت المدافع طلقة من قلعة دمياط، وبلغ سليم مَرَج البحرين؛ فتوضأ وصلى فى الموضع الذى التقى فيه موسى - عليه السلام - بالخضر، ثم مضى إلى دمياط ثانية، وزار جميع أولياء الله، وطلب المدد من بركاتهم. وفى اليوم الذى وصل فيه رشيد بطريق البحر المالح أطلقت المدافع تحية وابتهاجًا من قلعة التينة، وأقام سليم فى مدينة رشيد؛ فتقدم إليه جميع الأعيان بالهدايا، وسلموه مفاتيح القلعة، وقام بزيارة كوم أفراح، وزار جميع كبار أولياء الله، ودخل حمّام عباد الله، واغتسل فيه، وخلوته الخالية موصدة وإذا ما فتحت لمريض شفاه الله. ومن هناك ركب هو ومن معه الزوارق وشرب من مرج البحرين فى رشيد، ولما دخل ميناء الإسكندرية وهى على بعد ستين ميلاً (العظمة لله) أطلقت المدافع من خمس قلاع، ومن سبعمائة سفينة من الأسطول العثمانى، وبقيت قلعة الإسكندرية كأنها نار النمرود.

وبين الميناءين اتخذ سليم لنفسه مقرًا، وقدّم له جميع الأعيان مفاتيح خمس قلاع وهدايا لا تدخل تحت حصر. ونال كل منهم منح سلطانية.

ذكر خزائن السلطان الغورى فى قلعة الإسكندرية

حينما سمع الغورى بظهور أمر السلطان سليم سأل المنجمين فى مصر أن يحسبوا له طالعه وطالع السلطان سليم.

فقال كل المنجمين والرّمّالين وقارئى الكف وعلماء الجفر: إن ما فكرت فيه يريدك بالسوء وإلحاق المضرة بك.

هذا ما قاله جميع المنجمين وعلماء الجفر للسلطان الغورى، فهيأ الغورى نفسه لمواجهة هذا الأمر؛ فوضع كل خزائنه ونفائسه فى خزائن قلعة الإسكندرية، وكان فى ميناء الإسكندرية على الدوام خمسون سفينة حربية، وتآخى الغورى مع السلطان يعقوب فى بلاد المغرب؛ فاستقر الرأى على أن الغورى إذا ما هزمه سليم فرّ إلى المغرب بهذه السفن ومعه كل أمواله وبعد ذلك يعود لغزو مصر، وبناء على ذلك كانت كل خزائنه ونفائسه فى الإسكندرية ولكن العبد يدبر والله يقدر.

وقبل أن يمضى سليم إلى مصر جعل وزيره پيرى باشا واليًا على اسطنبول وأمره أن يضرب الحصار على الإسكندرية بسبعمائة سفينة شراعية وبعد أن قطع سليم المراحل مرحلة تلو الأخرى اشتبك مع الغورى فى القتال بالقرب من مصر، وغاب الغورى عن حومة الوغى، وبقيت كل أمواله فى الإسكندرية، ومضى سليم إلى الإسكندرية وفتح أبواب الخزائن وفى أول معركة أخرج سبعة وخمسين ألف كيس من مال مصر، واستولى على اثنى عشر كيسًا من الذهب الخالص، وفى البداية هزم الغورى فى سهل مرج دابق بالقرب من حلب، وبينما كان يتعلق بأذيال الفرار وقع علم النبى ﷺ فى يد السلطان سليم؛ فتفاءل بذلك وحمل العلم على بعير سبعة أيام. وتسلمه جندى يُسمى الحاج على، وبذلك أصبح حمل علم الرسول ﷺ تقليدًا مرعيًا؛ كما أُخِذ من قلعة الإسكندرية علم أحمر عليه صورة أسد وعبارة «نصر من الله»؛ كما استولى السلطان سليم على صندوق مرصع بالجواهر به السِنّة الشريفة التى سقطت من أسنانه ﷺ فى غزوة أحد، وشعرات من شاربه ولحيته الشريفة، ومكحلته ومروده، وقطعة من حصير وأبريق وضوئه، وسبحته، وقطعة من نعله، وعصاة من الخيزران وخفه، وخرقتان شريفتان له من ليف النخيل يقترب لونها إلى الصفرة، والأخرى من القطن الأبيض، وسرج، وسيف، وغطاء حمل جمل، وعمامته الشريفة، وقلنسوة بيضاء، وكلها طبقة فوق طبقة فى ذهب على ذهب، وذلك كله فى صرّة مزركشة، وقد كتب عليها هذه مخلفات رسول الله ﷺ، فمسح سليم بكل هذه المخلفات وجهه تبركًا وقال: شفاعة يا رسول الله. كما أنه وضع عمامة يوسف الصدّيق على رأسه التماسًا للبركة ثم حفظها

فى الصندوق المرصع بالجواهر، كما رأى مدية كان يوسف الصديق يخط بها على الجدار فى سجنه ليتعرف بها مواقيت الصلاة، والبساط الذى كان يصلى عليه.

وأيام خلافته كان يلبس عمامة يوسف، ثم ابتكر العمامة التى تُسمى سليمى، وسميت باسمه، لأن السلطان أبو الفتح وولده با يزيد ولى كانا يلبسان العمامة العُرفى، أما هو فكان يلبس عمامة يوسف والسليمى، إلا أنهم وجدوا فى خزانة الإسكندرية عمامة قلاوى ولعل اسمها مستمد من السلطان قلاوون لأنها بقيت من عهده، ووجد كذلك سيوف الخلفاء الراشدين وثياب ملوك السلف وأسلحتهم وخمسين ألف بندقية مرصعة وعشرون ألف سيف مصرى، وعشرة آلاف درع، وعشرين ألف قوس، وسهام لا تدخل تحت حصر، وكنائن ودروع الفرس وأربعون ألف ترس حلبى ومثل عددها من التروس الدمشقية وعشرة آلاف نيزك، وعدد لا يحصى من الطبر الدمشقى وعشرون ألف درع وثلاثون ألف خوذة وعشرة آلاف طبق من الخزف المرتبانى من صنع الغورى نفسه، وما كان هذا النوع من الخزف فى أى بلد سوى مصر، وكان كلما نظر إلى ولى من أولياء الله يصنع هذه الأطباق المرتبانى وكان يقدم هذه الأطباق الخزفية هدية إلى الأعيان، وكان هؤلاء الأعيان يردون على ذلك بإهداء الذهب إليه على قدر ما يهدى إليهم من هذه الأطباق، وكان الغورى يصنعها طمعًا فى الحصول منهم على هذا الذهب، كما أخرج سليم من خزينة الإسكندرية أشياء شتى لا يتسع المقام لذكرها، وقد ملأت بها السفن العثمانية وأرسلت إلى الأستانة، وكان السلطان سليم فى الإسكندرية يزور من الأولياء مَنْ بقوا على وجه الحياة ويدعون له بالخير، وكان يطلب المدد من أرواح الموتى منهم، كما قدم مصر هو وسفنه من العقبة واحتفل بهذا القدوم، وفى ذلك الأسبوع كان الاحتفال بوفاء النيل فى قصر أم القياس، وهذا الاحتفال مذكور فى تواريخ مصر، وقد شاهد هذا الاحتفال السلطان سليم. أراد سليم أن يتخذ من مصر حاضرة له، غير أن أعيان الدولة وعلماءها لم يؤيدوه فى هذا.

* * *

الفصل الخامس عشر
قوانين مصر فى دولة السلطان سليم بن با يزيد
ـ نوّر الله مضجعهما بأنوار الغفران ـ

قدم سليم من الإسكندرية وبإذن من علماء مصر جميعًا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضاء الديوان فى جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألف رجل لأن فى ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبة باسم سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين سليم خان بن با يزيد خان أيّد الله سلطنته إلى آخر الزمان.

وبإذنهما الشريف سُكّت العملة وكتب عليها «صاحب النصر ضارب النصر عز والنصر فى البر والبحر السلطان بن السلطان سليم خان بن با يزيد خان ـ عز نصره ـ مصر سنة ٩٢٢».

وبعد ذلك جمع سليم ذات يوم الديوان السلطانى، وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم فى السن والرتبة، ووضع سليم يده فى يد خيرة بك، وأجلسه على سرير النيابة والخلافة، ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليمى وريشة نفيسة، وعلى ظهره خلعة فاخرة من السمّور، وحول خصره منطقة مرصعة تعلق فيها خنجر مرصع، وحرص سليم على أن يلبسه كل ذلك بنفسه، ورفع يده بالدعاء، وقال: لقد جعلتك يا خير بك وزيرًا ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام فأنا لا رغبة لى فى شىء من مصر، لقد ظفرتُ بلقب خادم الحرمين الشريفين وكفى، ووقفت جميع محاصيل مصر على النبى ﷺ فاشهد ومن الآن فصاعدًا يا خير بك أنت مولى هذا الوقف؛ فأحسن خدمتَه.

ومنح من يتبعون موكبه اثنى عشر ألف دينار ذهبًا كما منح خدام القصر ثلاثمائة منطقة مرصعة، كما منح اثنى عشر سرجًا مزينًا بالجواهر واثنتى عشرة جعبة للقائمين على سياسة الخيل وسبع قِسِىٍّ خسروانية، كما منح خيامًا ذات ثلاثة أعمدة ومظلة، وجعل لأربعين من خدام القصر طوغين لكل منهم، كما جعلهم أمراء على مصر.

وجعل مائة من الأغوات بكوات من الشراكسة، وأمر بأن يُعطل الديوان ثلاثة أيام فى الأسبوع وأيام العطلة هى الجمعة والسبت والأربعاء ويحضر قاضى العسكر الديوان خمسة أيام ويقدم للديوان فى كل يوم كيسان من دنانير (   )[1]، ويُقدم ثلاثة آلاف صحف من طعام، ويطعم كل أعضاء الديوان والخدم والآتون من بعيد (. . . . . .)[2]، وجعل سليم ذلك قانونًا لجاوشية الديوان كل يوم خمسة خراف وأردب من أرز وكيلتان من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الأئمة والمؤذنين راتبًا، ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافًا، وفى دواوينهم يبسط كل يوم سماط فى الصباح وسماط فى المساء، وذلك من المال السلطانى، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساء الفرق بعد سماطهم يبسطون الموائد للعوام والخواص، وفى كل وقت من أوقات الطعام تقرع الطبول لينبه جميع الجياع، وجعل ذلك قانونًا، ودامت هذه النعمة وما كانت مثل هذه النعمة فى بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطانى، ويقدم من قِبَل السلطان لخاصته اثنا عشر حملاً وسبع وأربعون ألف أقچه وكان ولاة مصر وبغداد والحبشة واليمن والعراق يضعون ريشة على عمائهم المعروفة بسليمى، وكان هناك خان التتار يحكم فى بلاده ويأتى بعده فى الترتيب والى مصر، ثم ولاة العراق فتابعة اليمن، وأخيرًا بُودُمْ وهؤلاء الوزراء الخمسة يَنُوبُونَ عن السلطان فى الحكم ولهم صفته.

وبما أنهم كانوا يضعون الريشة على رءوسهم كانت لهم الدرجة على من سواهم من الوزراء. ووزير مصر طبقًا للخاصة السلطانية إذا ما عين قائدًا على الحبشة أو اليمن أو العراق فإنه يلزم عليه أن يمضى به هو وجنوده و(   )[3] إلى هذه المناطق، وبهذا صدر قانون سليمى. أما فى الوقت الحاضر بما أن الغلبة لجند مصر فإن جميع الأقاليم يسرى عليها قانون سليم ولا يبقى شيء تابعًا للوالى إلا أنه يسكن القلعة الداخلية مع ألف من جنوده، وأغواته جميعًا يعيشون على ما يصرف لهم من مرتبات طبق القانون، كما يوجد أربعة وعشرون رئيسًا للموانى وهم يعيشون على الكفاف. وللباشا ثلاثمائة

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

من الأغوات وخيامهم، وفى كل عام تُوزَع عليهم الأقمشة والثياب والقمصان والنعال كما يتم كساء كعبة الله بالكسوة السوداء من وقف السيدة شجرة الدر قانونًا مرعيًا. لأن شجرة الدر وهى من ملوك السلف كانت تدفع مرتبًا سنويًا لأغوات الخارج وأغوات الداخل التابعين لها؛ وقد أحصى السلطان سليم أوقاف شجرة الدر هذه وقال: إن شجرة الدر وهى امرأة كست الكعبة بالحرير الأسود، وقد أصبحت الآن سلطان مكة والمدينة وعلىّ أن أكسو الكعبة الشريفة من أعلاها إلى أسفلها بالديباج والقماش المزركش وبالذهب واللؤلؤ إلا أن علماء مصر جميعًا وشيوخ المذاهب الأربعة والشيخ أبو السعود الجارحى لم يقروه على ذلك فيما سلف ذكره، وقالوا إن كسوة شجرة الدر لم يتيسر لأحد غيرها، إلا أن الله قدّرها على ذلك، والآن هذا الوقف وقفها، وشرط الواقف كنص الشارع». فغبطها سليم على ذلك وقال: مضت المرأة، فما أعظم ما عملت من خير لم يتيسر لغيرها من الملوك.

وماذا يمكننا أن نصنع نحن فى مكة والمدينة، فقام بعمل كسوة باب الكعبة الشريفة بالحرير الأخضر. ومزركشة بالذهب، وجَدّدَ بناء مقام إبراهيم - عليه السلام - وجعل الصندوق الشريف مكسوًا بالذهب وستارة باب منبر الحرم الشريف مزركشة بالذهب وعَمَّر ورمَم الحرم الشريف. أما البيت الذى ولدته فيه السيدة أمينه - رضى الله عنها - فقد جُددَت قبته وكُسيت بالرصاص. وبنى فى مكة مائة أثر للسلطان وتُلِيَت الخطبة لسليم أول ما تليت لآل عثمان فيها، وجعل على قبره الشريف ﷺ من الجواهر ما يبهر العيون ووَزّع الصدقات فى المدينة بلا حساب وجعل كمال باشا زاده قاضى مصر يقوم بمسح ألف قرية وقصبة وبلدة فى مصر. والحاصل أنه أمره بأن يسجل كل ما يطير فى الجو من طائر وما يدب على الأرض من دابة وما يسبح فى البحر من سمكة، ووزع المقاطعات على الملتزمين والأمناء. ووقف كل ذلك على الحرمين الشريفين. ودُونت جميع قرى ولاية مصر وعددها (   )[1] قرية، وهى منقسمة أربعة أقسام. **والقسم الأول** (   )[2] قرية وهى جميعًا من أوقاف ملوك السلف، وقدر الوقف

(١، ٢) بياض فى الأصل.

بعدد أفدنته ووكل به ناظر يدير شئونه ويحصل إيراده فيعطى منه رواتب جملة الأئمة والمشايخ والمسّاحين والمعرّفين، أما ما يتبقى من ذلك فيرد إلى المال الأميرى وسُنَّ بذلك قانون خاص.

أما **القسم الثانى** فهو قرى الكشوفية، وهم (   )[1] قرية على كل منها كاشف وهى خاصة بالباشا ويعاونه فى جميع تحركاته مائة أو مائتا جندى، ويُحصّل الباشا أموال الكشوفية وقدرها مائتا كيس فى العام، أما فى زماننا إذا أصبح البلد عاطلاً عجز الملتزم عن دفع ما عليه من أموال ويغادر القرية وتؤول إلى الباشا وتصبح قرية كشوفية ويجمع الباشا الرعايا ويخطرهم بذلك، ويزرعها ويحصل منها المال، وإذا كان لها من يطلبها أعطاه الباشا إياها لأنه عمرها بنفسه.

وقسم ثالث هو أراض خاصة بالسلطان فيها كشافون لهم رتبة البك، وعددها سبع عشرة وجملتها (   )[2] ألف قرية تحت إدارة الكاشف، وكل كاشف يقدم له مائة رجل من السبع فرق، ويُطعِم الكاشف كذلك خمسمائة أو ستمائة من السكبان[3]، ويحصِّلَ المال السلطانى من ولايته والثلث الأول والثلث الثانى والثلث الثالث والمال الصيفى والشتوى وما إلى ذلك من أموال يجمعها بمعاونة العسكر ويدفع منها رواتب الجند ونصيب خزانة السلطان، وثمة ضريبة من خمسمائة أو ستمائة أو ألف كيس من القروش تدفع من كيس السلطان لمن يطوف الولايات من أفراد الفرق السبع ولم يقنع الجورباجية[4] بخمسة أكياس فأطلقوا بعض المجرمين من سلاسل الكاشف.

والقسم الرابع إذا كان الملتزم فى شدة آلت قريته للدولة ويبيعها الباشا فى المزاد بأربعين كيسًا أو خمسين إلى مائة كيس وكل رعاياه وتركاته تصبح مزادًا سلطانيًا.

ومن قانون سليم أن يأخذ الباشا ثمن ما يبيع ويلتزم من اشترى للبلد حين التسجيل إذا أخذ (   )[5] عليه تسديد كل عام المرتبات وصرّة مكة والمدينة وكل ما فاض سواء كان كيسًا أو مائة كيس كان مالاً له، ويُعمِّر القرية ويكون له حق التصرف فى

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) السكبان: نوع من المشاه.

(٤) الجورباجيه: قسم من الضباط فى فرقة الانكشارية.

(٥) بياض فى الأصل.

تلك القرية مدى حيـاته، ولا تؤول إلى أبنائه بعد وفاته بل تصبـح ملكًا للدولة، وسُنَّ بذلك قانون.

وقد أقام سـليم فى مصر عـام، ثم اتجه إلى رشيـد والإسكندرية سنـة، ووصل إلى إستانبول عام ٩٢٣هـ وتوفى عام ٩٢٦هـ وخلفه ابنه سليمان المُلقب بسليمان الأصفر.

القسـم الخامس: ما يدفـعه كل ما فى مـصر من الكفـرة واليهود والقـبط والأرمن والفرنجة بناء على شريعة النبى ﷺ وحـاصل الكلام أن أمين الجوالى حاكم آخر ويسلم مائة ( )[١] إلى الدفتردار فى الديوان السلطانى، ويرسل الصرة إلى مكة والمدينة كل عام مع أمير الحاج.

والقسم السادس كل معمور مـن القرى فى مصر يرسل ريعه إلـى أغا دار السعادة* باسطنبول، وإذا مات الأغوات يسجل الباشا جمـيع قراهم ومخلفاتهم وهذا طبق قانون سليم وفى عهد ( )[٢] وإبراهيم باشا صدر فرمان يقـضى بتعيين أغا أمينًا لبيت المال من قبل أغوات القرى، وبناء على أمر ( )[٣] حفظ كل جزئى وكل كلى، ويعين الباشا كذلك أغا مباشراً ويوقع جميع ( )[٤] عليها؛ ويعرض الباشا علـى السلطـان ويأتى مـن الأستانـة رئيس البـوابين أو ( )[٥] والأموال والقرى المذكورة تمنح لعبدٍ أو تُباع ( )[٦] وعلى ذلك فإن الأغوات السود يؤدون مال قراهم إلى السلطان، ومهما كان قدر ما يتبقى فإنهم يتصرفون فيه على أنه خاص بهم.

أما القسـم السابع فبموجب قانون سليم يُسَجل الباشا ما يتقاضاه الانكشارية والعزب والمتفرقة، والمتطوعة، والجند حملة الـبنادق، والأيتام، والجوالين وجميع طوائف الجند، ولكن منذ عـام ١٠٧٠ تغلبت فرقة المستحـفظان أو الانكشارية وفرقة الـعزب واستولوا على بيت المال لأنفسـهم، وهُم عدة آلاف من الفـلاحين من المواطنين استولوا على بيت المال وإذا ما أُمروا بالحـرب فإنهم يحصلون علـى نفقاتهم من بيت المـال. وإذا ما اعتنق كافر الإسلام واتفق له أن وصل إلى بابهم يكسوه، كما يقدمون للغريب الغذاء والكساء

(١ : ٦) بياض فى الأصل.

* أغادار السعادة: رئيس الأغوات العامـلين فى القسـم الداخلى من القصر العثمانى الـذى يعيش فيه السلطان مع نسـائه وهو المسئول الأول عن تنظيم العلاقة بين هـذا القسم والعالم الخارجى. ويتمتع بدرجة رقيقة من البروتوكول العثمانى، كما أنه المسئول عن أوقاف الحرمين الشريفين.

وإذا ما وقع أحد مواطنيهم أو زملاؤهم فى أسر الكفار يدفعون له فدية قدرها عشرة آلاف قرش ويخلصونه من أسره.

ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع الباشا أن يسيطر على بيت المال ولكنه يسيطر على بيت مال الغير من العامة والخاصة، ويكلفون جاويشية الفرق السبع وقاضى العسكر يكلفون القسّامين بتدوين المال، وبإذن أغا الباشا يودعون المال فى خزانة الباشا، لأن على الباشا التزامًا يرعاه، وتوزع الرواتب من المال المحصل، وإذا ما ظهر وارث لمتوفى واستطاع إثبات ذلك فإنه يطلب مال قريبه المتوفى من الباشا بموجب دفاتر جاويشية الفرق السبع ودفتر القسّام؛ وينال الوارث حقه.

القسم الثامن: القرى الموقوفة على مكة والمدينة فى أقاليم مصر «يرسل منها مصروفات قدرها اثنان وستون ألف كيس مع خمسة وستين ألف دينار من ذهب فى الصرّه وتسلم الصرّة إلى أحد أغوات الباشا وسبعمائة جندى من السبع فرق، ويسلمونها أمين الصرّة فى الشام الشريف، وعليه إحضارها إلى المدينة ولذلك قانون مرعى، ومن قبل كان السلطان سليم يرسلها من اسطنبول وكان قانونًا سليميًا، كذلك يُرسل من مصر ستمائة كيس من ستة آلاف وقف وكان يمضى بها أمير الحج المصرى لتسليمها إلى جميع الأشراف والمشايخ والمجاورين فى مكة والمدينة.

أما القسم التاسع: فهو أن ما يُتحصل من أقاليم مصر وقراها وعددها سبعمائة قرية وقصبة مثل مطوبس طاروط الشريف وصنبو وجملته (   )[1] أردب من الغلال تشحن فى سفن تسمى السفن المحمدية إلى مكة والمدينة وسوف تذكر القوانين الأخرى فى موضعها.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

الفصل السادس عشر

ذكر كل من فى إيالة مصر من خليفة وأمير لواء وأمير سنجق وكاشف ومرتباتهم طبق قانون السلطان سليم

يكـون سلطان الـبرين أمـير الحج فـى مصر وهو أحـد بكواتـها ويقـال: لبعضـهم متصرف، ولـبعضهم طوغان، ومـقره فى السويس بنـاء على القانون، وجمـيع العرب المقيمين على طريق الكعبة يسمون أميـر الحج سلطان البر، وله الرياسة على أربعين ألف حاج فى كل عام.

والنيابة الثانية فى مصر: لأمير السويس ومهـمته إرسال اثنى عشر سفينة كل عام محملة بالغلال وما لا يحصى كـثرة من الحجاج إلى جده وينبع عن طريق بحـر السـويـس، وهـو يتقاضى فى العام اثنى عشر كيسًا وله من مخزن يوسف فى كل عام (   )[1] أردب من القمح، ويطـعم جنوده وربانيه والذين يقـومون بالتجديف فى سفنـه وهو يبحر، وفى سفنه التى تحمل الفوانيس، والعلم الذهبى الأصفر ويسمونه سلطان البحر.

والنيابة الثالثة: هى حكومة ميناء جده وفـيها باشا مستقل، وأحيانًا يُمنح طوغين لأن له الحق فى السيـطرة على الأشراف، ويسميه العـرب وكيل السلطان، وسلطنـته عظيمة لأن جميع ملوك الهنـد والسند واليمن والحبشة وسواكن يرجعـون إليه، ولأنهم يعدونه وكيل السلطان ودائمًا تأتيه الرسائل من ملك الهند مصحوبة بالهدايا.

والنيابـة الرابعة فى مصر: هى منصب شريف مكة المكـرمة ويسمون القائم عـليها سلطان الأشـراف، ويذكر اسمه فى الخـطبة بعد ذكر آل عثـمان وله الحكم النـافذ حتى بغداد والبصرة ولحسة* واليمن وإذا شاء جمع أربعين أو خمسين ألفًا من الفرسان.

أما النيابة الخامسة فى مصر: فهى على اليمن وكانت حكومة اليمن تحت حكم مصر حتى عـهد السلطان مـراد الرابع أى إلى عام ١٠٣٣هـ وفـى هذا العام استولـى الأئمة الزيدية على اليمن وحكموها.

---

(١) بياض فى الأصل.

* تعرف الآن باسم الإحساء.

والنيابة السادسة فى مصر: هى الحبشة وهى الآن تحت تصرف وزراء آل عثمان، وهى سلطنة عظيمة. ـ مصراع: «سلطان الحبش كأنه طفل أسود» .

والنيابة السابعة: هى بلاد الفونج* وملوكهم الآن يدينون بالطاعة إلى وزراء مصر.

والنيابة الثامنة: هى طرابلس.

والتاسعة: تونس.

والعاشرة: الجزائر. وهذه الحكومات الثلاث تابعة لمصر الآن وما زالت لكل منها سكتها (عُملتها) وفى كل عام يذهب أحد الأغوات من قبل وزراء مصر لكل من ولاة هذه النيابات العشرة لاستمالتهم ويصلهم منها هدايا تصل إلى وزراء مصر، وفى مصر مير لواءات ممن لهم طوغان وطبل وأربعون علمًا، أما فى زماننا فيقرع الطبل فى اثنين وعشرين موضعًا ويمد السماط المحمدى ويوجد الأمراء ولكل منهم وظيفته، فهناك أمير مسئول عن إيصال الخزانة إلى اسطنبول مع خمسمائة رجل، وأمير آخر يحمل خاتم السلطان حتى إذا ما توجه قائد من قبل السلطان للحرب أمر بالحرب بخاتم أمير الخاتم هذا، ومنهم أمير بولاق وله خمسمائة فارس، ومنهم أمير على مصر القديمة وله أيضًا خمسمائة فارس ومنهم أمير الإمام الشافعى وله خمسمائة فارس وآخر لسبيل علام وله خمسمائة فارس وهم يستقدمون ويرحلون المسافرين والزائرين.

وثمة أمير آخر وظيفته نقل الحجاج وقوافلهم إلى ميناء السويس وذلك بمعاونة خمسمائة رجل. أما الآن فرائد القافلة بدلاً من الأغا. وكذلك أمير ومعه خمسمائة رجل يبعث ويأتى بالتجّار والحجاج، وكذلك بك أو أمير معه خمسمائة رجل على أهبة الاستعداد حتى إذا ما وقع على مصر عدوان كانت مهمة هذا البك المضى لمواجهة هؤلاء المجرمين بأمر من الوزير.

وثمة أمير آخر معه خمسمائة رجل يقومون على الكلار العامرة لآل عثمان وكل عام يقوم بتحصيل (   )[1] و ٣٣ كيسًا، كما يقوم بتحصيل (   )[2] أردب

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

* أى بلاد النوبة حالياً.

من الأرز و(   )[1] قنطاراً من السكر و(   )[2] وسبعين رزمة من البن و(   )[3] أردب من العدس، وذلك من مدن دمياط وفراسكور ورشيد، وينزلون هذا إلى ميناء رشيد وتحمل فى زوارق وتوضع فى المخازن بمدينة الإسكندرية، وعلى ذلك الأمير إرسال هذا كله إلى الأستانة فى أيام مناسبة.

وأمير «أوبك» كذلك هو دفتردار البلد، وهو يرأس غيره من البكوات وكلهم فى حاجة إليه، وطبقًا لقانون السلطان سليم كان يوجد أربعون من بكوات الشراكسة، أما الآن فهم عشرون، ولكل مائة منهم رجل، والبكوات الآخرين (   )[4] يحضرون من شَهْرٍ إلى شهر وهم مُتأهبون على الدوام مع فرقة الموسيقى العسكرية وجميع هؤلاء البكوات لقاء خدمتهم، يتقاضون (   )[5] سنويًا عشرة أو اثنى عشر كيسًا و (   )[6] أردب من الغلال و (   )[7] من اللحوم.

فى ذكر من هم على منصب
أمير الأمراء فى مصر

أولاً أنعم السلطان على (   )[8] بطوغين، ويتقاضى فى العام ستة أكياس من ديوان مصر، وله كذلك ستة أكياس من دمياط، وله من المدينة ستة أكياس أخرى تأتيه بلا وجه ظاهر ونظير هذه الأكياس الثمانية عشر التى يتقاضاها لقاء عمله، وكان يبحر بسفينيتين من نوع القادرغة مرتين مع قبودان باشا لمدة ستة أشهر، وفى شهر نوفمبر ترسو سفنه على ميناء دمياط منصورة ومظفرة . ورشيد إقليم إدارى كذلك وجميع سلياناته مثل أمير دمياط والواحد منهم يسافر فى البحر الأبيض بسفينين من نوع القادرغة. وكذلك سنجق الإسكندرية وهو مثل دمياط ورشيد يتقاضى مرتبات سنوية (سليانه) من ديوان مصر وسنجق الإسكندرية عظيم، وأميرها يرأس أمير سنجق رشيد، وأمير سنجق دمياط، فيكون بسفتهم الست من نوع القادرغة مكلفين مع الأسطول السلطانى بمرافقة سفن التجار ذهاباً وإياباً. والسنجق الرابع فى مصر هو سنجق الشرقية، والخامس الغربية، والسادس المنوفية، والسابع الجيزة.

(١ : ٨) بياض فى الأصل. ويفهم من النص أنه «أمير دمياط».

ومنذ فتح السلطان سليم لمصر ظهر فى بلاد المغرب تبر الذهب الذى سُمى «أوجيله» وصارت «أوجيلة» كشوفية عظيمة، وعلى عهد السلطان إبراهيم، وفى أيام مقصود باشا وزير مصر استولى مقصود باشا هذا على طرابلس وبها كشوفية أوجيله الموجود بها المعدن النفيس، وهى إلى الآن فى حوزته ويستمد منها الذهب. أما السنجق الثامن فهو المنصورة والتاسع القليوبية والعاشر جيزة يوسف، والحادى عشر بنى سويف، والثانى عشر فيوم يوسف، والثالث عشر المنيا، والرابع عشر منفلوط، والخامس عشر جرجا، والسادس عشر الواحات، والسابع عشر ابريم، وكل هذه السناجق والأقاليم وأمرائها تجرى حساباتها بالحساب القبطى من عام إلى عام وما تبقى فى الذمة يقدم إلى دفتردار السلطان، وهذا ما يودع خزانة السلطان، وفى كل سنجق ثلاثمائة أو أربعمائة قرية وبلدة معمورة وأعظم هؤلاء البكوات بك جرجا فهو يحكم بلاد الفونج وبلاد البربر والسودان وأوجيله والمغرب، وله خمسة آلاف من الجند ويمنح بعض البكوات طوغان[2]، ويتحصل من مصر القديمة فى كل عام مائة ألف أردب من الغلال، ويقدم إلى جند مصر العلف والخبز. كما تعطى من المال السلطانى مائتا كيس ويقدم إلى إدارة الباشا ثمانون كيسًا ولجند جرجا راتب قدره مائة كيس وهى محسوبة عليه، ومن إقليم الصعيد يرسل بك جرجا أربعمائة ألف أردب من الغلال ويتبقى له فى العام مائتا كيس وبعد المصاريف يُسمى الصعيد العالى، وهو صعيد مصر، وهذا ما خص به الله الصعيد وهذا ما سوف يذكر فى موضعه بإذن الله.

وديوان باشا جرجا هذه يشبه ديوان باشا مصر تمامًا حيث يجتمع فيه أعضاء الديوان ويكثر فيه الأخذ والرد والتسليم والتوقيع والعقد والحل. وهو ديوان يعجز اللسان عن وصفه. وتحت إدارة حاكم جرجا أربعة وعشرون كشوفية وهو يخلع على هؤلاء الكشافين الخِلَع. وهؤلاء الكشافين هم من نتحدث عنهم حسب ما جاء فى القانون.

(٢) الطوغ: ذؤابه، أو خصلة تصنع من شعر الخيول تستخدم شعارًا مميزًا. لمزيد من التفصيل انظر: معجم الدولة العثمانية ص٨٦ - ٨٧.

أولاً الداخلـون فى هذا القانون كـاشف منفلوط، ثـم كاشف المنيا، وكـاشف شرق إدفو، وكاشـف شرق أخميم وأبو تـيج، وكاشف وكشـافو تخته والواحـات، وكاشف المنشية وكشافو بـلابش وفوه العليا، وكشوفية قنا وقوص، وكشوفـية القصرين وهم فى غرب النيل بالقرب من كشوفية جرجا وكشوفية نما فى الجهة الغربية وكشوفية أسيوط فى الغرب. وابن ريان العابد كانت تسمى كشوفية شيخ العرب، وكشوفية سليم فى الشرق وكاشف المريج وبهجور وفرشوط والقصاص وكشوفـية إسنا فى الغرب وكشوفية سنهود غرب النيل، وكشوفيـة قصير بهانس فى الغرب، وكشوفية برديس بـعد جرجا وكشوفية الجزيرة فى الغرب.

وطبقـا لقانون الكاشـفية كانت ولاية إبـريم تحتوى على أربـعة وعشرين كاشـفًا من أصحاب الطبل[١] وعلاوة على ذلك كان بها ستة كشافين ملحقين على كشوفياتها. كما ينضم إليهم بعض مشايخ العرب ممن لا طبل لهـم فتصبح جملتهم أربعة وأربعين كاشفًا ومهمتهم إرسال الغلال إلى جند مصر.

* * *

(١) أصحاب الطبل: أمراء الطبلخاناه، رتبة فى الجيش كانت تـسمح لحاملها بحيازة أربعين فارسًا.

الفصل السابع عشر
قوانين ديوان مصر فى عهد السلطان سليم
فاتح مصر نادرة العصر

ديوان مصر هو دار السلطان الغورى الواسعة التى تسع خمسة آلاف شخص وعلى جانبيه قمريات ويجلس فيه كتبة الأقلام والمحاسبون مع الخليفة يفحصون الدفاتر. وفى وسط حجرة الديوان موضع مرصوف بالرخام يجتمع فيه أصحاب الحاجات خمس مرات فى الأسبوع ويخرج عليهم الباشا وعلى يمنته الدفتردار والبكوات، وقد اختلفت هيئة عمائمهم، وعلى يسرته يجلس رؤساء الباهية والمطوعة والانكشارية والطوبجية وكذلك رئيس فرقة العزب، ويطعمون ثلاثة آلاف صحف، إلا أن كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس الجبه جيه ورئيس المعماريين والصوباشى وجاويشية العزب والانكشارية لا يجلسون على تلك المائدة ويتناول أعضاء الديوان الطعام على حسب الأصول المرعية، وترفع الصحون ويأتى الخدام بالأباريق والقدور ويغسل الجميع أيديهم ويدعو القائم على الدعاء فى الديوان، وحينما يذكر رسول الله ﷺ يقفون مرتين إجلالاً وتعظيمًا، كما يقفون مرة إذا ذكر السلطان العثمانى، ثم يتفرق الناس بعد الدعاء ويبقى أصحاب الحاجات ويسأل كتخدا الجاويشية فى صوت مرتفع: هل من شاك؟

فإذا وجد شاك بُتَ فى أمره وفصل فى خصومته، ويمضى الباشا إلى حجرة الكرسى ويبقى كتخدا الباشا والدفتردار ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية. وإذا ما وُجدت قرى آلت إلى المال الأميرى وهى خالية نادى الدلالون عليها بالمزاد وتباع، وبعد ذلك يتسلم الدفتردار والروزنامجى بقية المال الأميرى، ويمضى الجاويشية هنا وهناك لتحصيل هذا المال. أما العاجزون عن تحصيل المال من الملتزمين فيحضره الجاويشية إلى وسط الديوان حيث يوجد مكان لشنقهم، وفى هذا الموضع حبال غلاظ والملتزم المقصر تُربط ذراعه فى بكرة ويقوم أربعون أو خمسون جلادًا قساة بتجريده من ثيابه ويضربونه بالسياط بعد أن يرفعوه على عود بين الأعيان، ويرتفع صراخ المسكين إلى عنان السماء ولا يستطيع أحد أن يشفع له؛ لأن من يقومون بالشفاعة يطلبون على ذلك رواتب أول كل شهر أو كل

ثلاثة أشهر، ويقولون له: حصّل المال وسلمه لنا ونحن نرى ذلك عيانًا، ولا يشفع الأب لابنه ولا الابن لأبيه. وهذا ما يعرفه أعيان مصر ولهذا لا يشفعون لأحد وإن كان لهذا المسكين مال قدمه وينام على حصير وإذا لم يك ذا مال زجوا به فى سجن ضيق جهنم إزائه أعراف. وإذا عاش فيه الإنسان ليلة مات. ثم تباع قريته وممتلكاته وبذلك يكون خلاصه. وفى هذا المقام يكون الحكم للدفتردار الباشا لأن جراديتنا تحصل مرتباتهم من الدفتردار وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة، والدفتردار أعظم بكوات مصر كفاءة ويوليه السلطان منصبه بمنحة طوغين وهو يحصل كل عام من أقاليم مصر أربعمائة آلاف وخمسمائة كيس و ( )[1] بارة، وفى كل كيس خمس وعشرون أوقية وكل كيس فيه النقود المصرية، كل قرش فيه يعدل ثلاثين باره وبذلك يكون ما فى كل كيس مصرى ٨٣٣ قرشًا، وهذه المبالغ فى يد الدفتردار وفى العام تبلغ ستة وعشرين ألف كيس وتحت يد ( )[2] ثلاثة آلاف من الخدم، وخزائن هذه الأموال عليها خاتم الديوان وهى اثنتا عشرة خزينة ( )[3] ويضاف إلى ذلك خزينتان وبذلك يجتمع لمصر أربع وعشرون خزانة وفى كل خزانة ألف ومائتى كيس. وسوف نتحدث عنها فى موضعه بإذن الله، ولهذا الدفتردار مكان فى ديوان مصر، وليس لغيره من البكوات.

وفى ولاية مصر لكل ( )[4] باب للكتخدا وصرافين، ويقوم الصيارفة بإحصاء المال الوارد إلى الخزانة وإذا ما نقص أكمله «كتخدا قبوسى» أى نائب الباب. وتحت يد هذا الدفتردار رئيس للصيارفة يهودى وتحت يده كذلك ثلاثمائة صراف يهودى، ولكل ملتزم صراف يهودى، وهم يخدمون فى الأقاليم. وفى جميع الأزمنة كان اليهود شياطين ملاعين إلا أنهم فى مصر أحسن سيرة منهم فى غيرها وإذا ما تلقى أحد عملة نحاسية زائفة فى مرتبه وقابل صرافًا قدمها إليه فأبدله غيرها.

دار سك العملة فى مصر

ودار سك العملة هى عرض السلطان ويتولى شئونها الدفتردار، وعدد خدام دار سك

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

العملة خمسمائة رجل وكلهم يتبعون الدفتردار، أما أمين دار سك العملة فهو أغا الباشا. أما صاحب الكلمة فصاحب العيار، والدفتردار يتبعه. ولأن صاحب العيار مسئول عن السكة وعن العيار إذا وُجِدت عملة مزيفة قُطِعت يد صاحب العيار، وجميع خدام دار سك العملة تحت رياسته، وله خمسون سمسارًا يهودى وخمسون نحّاسًا وخمسون صائغًا وعشرة (هدفكار) وعشرة وزانين وخمسون (كهله دار) وعشرون دقاقًا وعشرون سكاكًا وعشرة من الدولابجية وعشرة حلائين ووزّان وسكاك وعشرون حارسًا وليس لهؤلاء عمل آخر غير ذلك وكل من جاء من بيته خلع ما عليه من ثياب ولا يلبس إلا الثياب الرسمية الخاصة بدار سك العملة والحراس يفتشون الخدام القائمين على العمل فى هذه الدار، ربما كان فى ملابسهم شيء مزيف وإذا ما وجد فى ثيابهم شيء فإن الحراس يرقبونه. وكل شيء يقدم ويأخذ بالوزن وبعد سك العملة تترك ثانية على النار وإذا ما خرجت الأقجة من النار سوداء جيء بصاحب العيار فى دار الضرب وتقطع يداه بقطع النظر عن كونه بك أو باشا، ولرئيس دار سك العملة مرتب يومى وهو محجوز فى حجرته على الدوام ويسلم ما سُكَ من عُملة لصاحب العيار ويختم عليه فى الخزانة وللخزانة خمسون حارسًا وهذا عمل شاق. ومن رأى دار سك العملة فى مصر كان فى غنى عن رؤيتها فى غيرها لأن الذهب جميعه يأتى من خزانة مصر وفى دار سك العملة هذه يصهر الذهب ليلاً ونهارًا، ويذاب خامه ويحول إلى أسلاك تقطع، ثم تدق، ثم يسك بمحله، ويصقل، وعندما يخرج من دار السكة وتداولته مائة وسبعون يدًا أصبح بلاء عظيمًا ولكنه بلاء حلو كالجماع، ولكنه حلو كذلك لأهله أما لغير أهله سم أقتل من سم الأفعى وحينما كان الذهب يتكوم فى مصر كالجبال ضاع كأنه طيف خيال كما أنه وهم خيال كذلك لمن يصدون عن دنياهم، وغرضنا من هذا التفصيل هو التحقيق وإلا فلله الحمد على قناعتنا.

أوصاف حكام مصر وسادة ديوانها

وفى مصر تيك كتخدا الجاويشية دفتردار الباشا، وهو بك بمقتضى القانون وله علاوة

على أتابعه مائتا جاويش وجميع جاويشية الديوان يضعون على رءوسهم العمامة المعروفة بالمجوّزة، ويحصل بواقى المال السلطانى بفرمان من الدفتردار، ويتلوه فى الحكومة رئيس المتفرقة وهو مسئول عن أموال الكشوفية والمال الصيفى والشتوى، وله من الأتباع مائتان، ويليه فى الحكومة ترجمان باشى أى رئيس المترجمين يتلقى شكاوى الشاكين ويمضى بها إلى مجلس الباشا. وإذا ما استدعى المدعى والمدَّعى عليه قام بالترجمة. وبمقتضى القانون يتلوه رئيس المتفرقة وله خمسون من الأتباع.

ورؤساء الجاويشية من فرقة الانكشارية ورؤساء الجاويشية من فرقة العزب يحضرون الدواوين الخمسة وإذا كان لأحد من زملائه فى فرقته شكوى ينظر فيها بمعرفة هؤلاء الرؤساء ومصيرهم إلى إمارة الحج أو رئاسة الخزانة، ثم يصبح «قول كتخداسى» أى وكيل، وبعده سنجق بك أى أمير الإقليم.

والروزنامجى حاكم عظيم كذلك فى مصر وهو ركن مصر الأعظم وكل ما يطير فى السماء وما يسبح فى البحر وما يمشى على الأرض مقيّد فى دفتر الروزنامجى وإذا ما شاء جعل الباشا مفلسًا حين عزله، وإذا ما شاء جعله ثريًا مستورًا، ومقامه يعادل مقام الدفتردار. وتحت الروزنامجى الكبير روزنامجى صغير، وتتبعه بعض الإدارات وأنبار يوسف ومن أجل مراقبة الروزنامجى الكبير فإن وزراء مصر يعينون روزنامجى صغيرًا ممن يتوسمون فيه الكفاءة والنجابة ويجب أن يكون كذلك لأنه شرف الباشا حين عزله وعلى الجوانب الأربعة للروزنامجى خمسون يخلفونه ويمسكون دفاتر الروزنامه، وكل منهم مكلف بدفتر ولاية من الولايات، وكل منهم مأمور بالنظر فى دفتر إقليمه، وكانوا يتواجدون فى أقاليمهم الخاصة بهم، ويتلوهم رئيس الديوان المعروف بـ مقابله جى أفندى وهو يقيد رواتب الفرق السبع وترقياتهم والمنضمين إليهم والمسرحين منهم. وهذا الرجل موضع ثقة وزير مصر الذى يعتمد عليه. إنه ليس مصرى ويتقاضى فى العام أربعين كيسًا وتحت إدارته خمسون، وإذا أهمل أحد النظر فى القائمة التى بين يديه منهم وأحيلت هذه القائمة على غيره قدر له مرتب شهر ويأخذ المقابله جى نصف هذا المرتب وما عدا ذلك يُمنح لدراويش القلندرية. . وثمة إيرادات كثيرة أخرى. إلا أن هؤلاء

المقابلجية يسكنون مع خلفائهم ولكن جان بولاد زاده حسين باشا أصدر فرمانًا بإقامة المقابلجي الخاص به في الديوان. كما كان يسكن مع سائر خلفائه ويجلس في ديوان الباشا بمصر وله دخل سنوى قدره اثنان وعشرون كيسًا من الكشوفية إضافة إلى الهدايا التى يتلقاها.

وثمة موظف آخر في الديوان له الوقوف على جميع الأمور وهو يضطلع بوكالة الديوان، وهذا الموظف يقيد ـ وفق القانون ـ كل الأوامر الصادرة من مصر. وينال شيئًا من كل ضريبة ويتقاضى هذا الموظف كيسين.

وفى أحد أركان الديوان كذلك أمين الدفتر، وهو من قبل الباشا. وكاتب الشواغر الخارجية و(طشره محلول كاتبى)، وأمين الرسائل الخارجية وأمين الخزانة والمقابله جى أفندى، والمحاسبه جى أفندى، وكاتب الأيتام أفندى، وكاتب الانكشارية، وكاتب العزب، وهؤلاء بعد الديوان يبقون فى إداراتهم الحكومية. كما أن كتبة الفرق السبع يبقون فى إداراتهم الحكومية، وهؤلاء يرتدون أحسن الخلع ويجلسون مع معاونيهم.

ذكر الموظفين الذين يبقون فى الديوان بلا خِلعة، واتباع الباشا ووظائف المتقاعدين منهم

أولاً إدارة المشاه وهى إدارتان وتعنى إدارة المقابلة والإدارة الثالثة منظمة والرابعة إدارة المتقاعدين والخامسة إدارة الشراكسة والسادسة أقلام السباهية والسابعة إدارات الأيتام والثامنة إدارات الخصيان والتاسعة إدارات (   )[1] والعاشرة إدارات الجواليان والحادى عشر إدارات الأمناء، وثانى عشر إدارات الملتزمين، ثالث عشر إدارات (   )[2] رابع عشر إدارات الخزانة العامرة، وخامس عشر إدارات صرّة مكة والمدينة، وثامن عشر إدارات انبار سيدنا يوسف الصديق أى أكلة الخبز، تاسع عشر إدارات المتفرقة، وعشرون إدارات الجاويشية، وحادى وعشرون إدارات المطوعة، ثانى وعشرون إدارات التفكجيه أى حملة البنادق، وثالث وعشرون إدارات البحرين، ورابع

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وعشرون إدارات جماعة المشاة و (   )[1] السويس. وعددهم خمسة وعشرون وخامس وعشرون إدارات رجال المدفعية والجبه جيان والعربه جيان وصانعو الذخائر وكل هؤلاء نقلوا إلى مشاة المستحفظات. وإدارات الروزنامجه الكبرى، وفلاحو المدن، ومقاطعة جى الإدارات الشرقية، والغربية ومقاطعة جى المدينة، ومقاطعة جى إيراد الغلال ومقاطعه جى مصرف الغلال، وإدارات دشيشة صغرى، وإدارات المحمدى وإدارات المرادية وإدارات الخاصكية، وإدارات كاتب محلول.

ذكر الإدارات المضحكة لأمين البحرين
وعدد خزائن مصر نادرة العصر

والمستخلص مما ذكر أعلاه أن هذه الإدارات سبعون إدارة، وهؤلاء السادة طبقًا لقانون سليم يعملون فى ديوان مصر حسب درجاتهم. ولا وجود فى ديوان مصر لدفتردار الزعامة أو التيمار وأمين الدفتر كالشأن فى غيرها من الولايات. وبناء على قانون سليم فلا وجود فى مصر لشيء يتعلق بالتيمار ولا الزعامة لأن جميع أقاليم مصر عند تدوينها دُونت على أنها قرى ملك للدولة وما سمع بأرباب التيمار والزعماء ورئيس الجند وأمير اللواء.

ومما سلف ذكره عن الكتّاب إدارات تعرف بـ خورده أقلام وهى إدارات غريبة وعجيبة وقد ذكرنا قبل غيرها.

أولا: كل ما فى مصر من الحواه ولاعبى الصراخى، والمصارعين، واللاعبين، بالكؤوس، ومُربى الطيور، واللاعبين على الحبال، واللاعبين بالنار، واللاعبين بالكيزان، واللاعبين بالأطباق، واللاعبين بالصوانى، واللاعبين بالكرة الحديدية، ومحركى العرائس، واللاعبين بالصاجات، ولاعبى القمار، واللاعبين بالقصعة، واللاعبين بالورق، واللاعيين بالمرايا، والرياضيين، واللاعبين على الحبال، واللاعبين بالطيور، واللاعبين بالخرز، والحمّارة ومروضى الثعابين، واللاعبين بالقضبان، واللاعبين بالمطارق، والقُرداتيّة، وعارضى خيال الظل، ومصارعة الديكة وأصحاب السيميا،

---

(١) بياض فى الأصل.

واللاعبين بالفئران ومروضى الدببة، والقـاصين وقَشْمَرَان، ومربى النحل، والحاصل كل هؤلاء من أصحاب الحـرف المضحكة والنحالين وبائـعى الأشياء العتيقة، هـؤلاء جميعًا تحت حكم أمـين الخورده ولهؤلاء كثير من الأمـثال، ويرد على الخزانة الأميـرية فى كل عام (   )[1] كيس وتوضع فى خزينة مصر، وفـى ولاية مصر ثمانون خزانة ويقدم فى ولاية مـصر إلى الجنـد كل عام ملء تسـعة خزائن والخزانـة العاشرة لأشـراف مكة والمدينة وخـزانة للباشا وأخرى لأغـواته. أما الخزانة الشـالثة عشر فلأميـر الحج المصرى والخزانة الرابعة عشر فتذهب إلى مصاريف أهالى العقبه وأزلم أثناء عودة الحجاج.

والخزانة الخامسة عشر ينفق منها على تعمير وترميم مكة والمدينة وزينتها وشراء الشمع الكافورى وعودها وعنبرها وما يجرى هـذا المجرى. ومن الخزانة السادسة عشر تمضى من مصر الصُّرة إلــى دمشق ومنها إلى مكـة والمدينة، والسابعة عـشر ينفق منها عـلى المطبخ السلطانى ويشترى بها الأرز والسكر والأشربة العطرة والقهوة والفطائر المختلفة.

أما الخزانة الثامنة عشر فهى لفقهاء مصـر ومقسمى التركات ولقضاة مصر. والتاسعة عشر حسب ما جاء فى دفتر الغزالى كان لمصر سـبعة وسبعون ألف وقف طبقًا لما سجّله كمال باشا زاده فى بداية حديثه عن مصر، والآن اثـنا عشر ألف منها معمور وموجود، وكل قادم إلى مصر يأخذ منه فقهاؤها ديـنارًا ذهبيًا للأوقاف وثمة أوقاف تنال أربعين أو خمسين أو مائة دينـار ذهبى ويحصل لهذه الأوقاف، ومن العقـارات والأفدنة خزينتان، تُقدم إلى المرتزقة والضيوف.

والخزانة العشرون تكـون من نصيب كشافى مصر ويحصّل الخزانـة الحادية والعشرين أمناء مصر وملـتزموها وهم ينفقونها. والخزانـة الثانية والعشرون يحصّلـها مشايخ قرى مصر، والثالثة والعـشرون يحصّلها الرعايا والفلاحون، والرابعة والـعشرون يُتصدق بها على من يقدم مصر مـن تجار الأقاليم السبعة، أما الخزانة الخامســة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون تُحصى هذه الخزائن الثلاث.

(١) بياض فى الأصل.

وكل عام تمتلئ انبار يوسف بالغلال ويقـدم منها الخبز والعلف إلى الجند، والحاصل أنه ـ على حـد قول رجال الأعمال فى مصر، وهـو صحيح ـ أنه فى كل عام يـتحصل لمصر ثلاثون خزانة وفـى كل خزانة منها ألف ومائتا كيس وسوف نـكتب عن كل خزانة فى موضعها ولكن أشير إلى هذه المواضع طـبق الفهرس، ولكن يا عزيزى هذه الخزائن يصيب منها كل ما يطير فى الجو ويدب على الأرض ويسبح فى الماء فمن إذن الفقير.

ذكر مقياس النيل المبارك وكثرة الناس
وأنواع الحيوانات ووفرة الحمّارين

لقد أفاض الله على مصر البركات بالنيل، فيجمع المال السلطانى، فإذا ارتفع ماء النيل فى المقيـاس بمقدار ثمانية عشـر ذراعًا يتحصل المال السـلطانى، فإذا ارتفع ماء الـنيل فى المقيـاس عشرين ذراعـًا يكون للـباشا وللأمنـاء والملتزمـين والكاشفـين والرعايا نـصيب ويحتفظون بـالمال، وما لم يرتفع إلى ثمانيـة عشر ذراعًا اللهم عافنا يسـتحيل رى البلاد ويقع القحط والغلاء ويفلس جميع الأمنـاء والملتزمين ولا يتحصل خراج للسلطان. وإذا لم تكتمل الخزانة اضطر الباشا إلى تكميلها من ماله ويدفع رواتب الجند من صلب ماله، ويطلب ثلاثمائة ألف وخمسون إمام يحملون البراءة والخطباء والعلماء والصلحاء ومشايخ السادات وجمـيع سكان البلاد يطـلبون من متولى ونـاظرى أوقافهم الطعـام والمرتبات، ولمصر خزانتان للمال وإذا لم تدفع الرواتـب ثارت الخواطر ولكن إذا ما عم مصر الرخاء نالوا طعامهم ورواتبهم ويدعون للباشا والسلطان وأصحاب الخير.

ولكن بـناء على ما كتـب محى الدين بن عـربى من جفر: «إذا استـوى الماء وتجاوز الخشبة من الجبل إلى الجبل وزاد على ثلاثة أذرع فلا شك فى غرق القاهرة، حقًا إن هذا كذلك.

ولما كان إبراهيم باشا كـتخدا واليًا على مصر فاضت مياه النيل مـن عتبة دميرقبو أى باب الحديد وأمام تكية إبراهيم الكُلشنى بدا النيل وكأنه سهل كفى أهل مصر.

وجملـة القول أنـه ليس تحت قُبةِ السمـاء وليـس فى البلاد الخاضعة لآل عثمان ولا غيرها بلاد مزدحمة بالسكان، خصبة وافرة المحاصيل مثل مصر أم الدنيا.

أما سبب تسمية مصر أم الدنيا فهو أنه إذا وقع القحط فى جميع بلاد الدنيا فإن مصر قادرة على إطعام هذه الدنيا. لقد منحها الله هذه الخيرات والبركات؛ ولكن إذا أقْحَطَتْ مصر يومًا ـ لا قدر الله ـ فمحصول ألف بلد بل محاصيل الدنيا بأسرها لا تكفيها يومًا ولا تحقق الرخاء فيها لأن مصر بحر من الناس. فقد قدمت عام ١٠٨٢ وبينما كنت أتجول فى مدينة مصر مات فيها ثمانمائة ألف إنسان بالطاعون وهذا مقيد فى سجلات المذاهب الأربعة حتى إن إبراهيم باشا باع قرية خالية فى شهرين لتسعة رجال كل قرية بعشرين كيسًا ومع ذلك أصبحت خالية مرة أخرى وبينما كانت كذلك كان يستحيل المرور فى أسواقها لشدة ازدحامها. وما كان فى مصر من دواب مثل الحصان والبغل والجمل والعجل والجاموس والشاة والعنزة كانت تمر قطعانًا قطعانًا فى الأسواق، وقد كثرت الحمير فى القاهرة ولا ينقطع نهيقها فى جميع جنبات شوارعها ويقول الحمّارة «طريق يا سيدى طريق» ويسمون الْبَلَهْ من الترك بالحمار، وفى مصر أول ابتهال فى مقام السيكا نهيق الحمار فإذا ما نهق الحمار مرة. «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» وفى منتصف الليل إذا ما نهق الحمار فى حظيرته ساعتين متعاقبتين والعظمة لله اضطرب الناس وانزعجوا ظنًا منهم أن الوقت حان لخروج الدجال وهو من علامات الساعة، فجميع أعيان وأشراف ونساء مصر يركبون الحمير وهم فرسان الحمير فإذا ما وصل النساء إلى الأوزبكية والصليبية ومصر القديمة وبولاق وقايتباى لعبن الجريد وهن على حمير سروجها منفضة ومزركشة قائلين «هُسَك» وتتنزهن على ظهور الحمير وليس هذا ما يعيب الناس فى مصر لأن كل تنقلاتهم بها. وكان لعلى بك الجرجاوى أربعين ألف حمار، فكان يشترى لها غلالاً بعشرات البارات، وهذا عنه فى مصر مشهور.

كما أن لأمير الحاج رضوان بك أربعين ألف جمل، والآن لا يمر فى مصر جمال ولا حمير تحمل الماء، وفى مصر اثنا عشر عيدًا فى العام وسوف نتحدث عنها فى موضعها، وفى هذه الأيام لا يمكن المرور فى الأسواق لازدحامها بالناس والحَمَّارة والجَمَّالة.

الفصل الثامن عشر
بيان قوانين السلطان سليم
فيما يتعلق بجند الفرق السبع ورواتبهم

عندما فتح سليم مصر تشرف ثلاثة آلاف وثلاثمائة جندى من جنود العزب بتعفير وجوههم بتراب فيرسه وصاروا عبيداً له، ودعى سليم الله لهؤلاء الجند بالخير، وجعل لهم ما كان لهم فى السابق من رواتب ومأكولات ومشروبات. لأنهم أول جيش إسلامى يأتى إلى مصر مع عمرو ابن العاص من قِبَل الخليفة عمر، وكانوا مطيعين على مر الزمان.

أما متفرقة مصر فيبلغ عددهم ألفين وسبعمائة وخمسة وأربعين جندى يأتى بعد ذلك جاويشية مصر، وهم ألف وأربعمائة وتسعة وأربعون، أما عدد الجنود المعروفين بالتوفنكجيان بمعنى حملة البنادق ألف وثمانية وثمانون ثم الكوكليان أى المطوعة وعددهم ألف وثلاثمائة وخمسة وستون ثم عسكر المستحفظات وعددهم سبعة آلاف وستمائة وثمانية وأربعون، وهم ينقسمون إلى مائة وثمانٍ وثلاثين فرقة أخرى. على حين أن جند المتفرقة والمستحفظات يشكلون فرقة واحدة من هذه الفرق السبع، وهم مائة رجل.

ثم من بعدهم فرقة الطوبجية أى المدفعية وهم عشر رجال (   )[1] ولجند العزب فرق يتألف كل منها مائة رجل ثم فرقة خزانة القلعة وهم مائة، ثم فرقة جند الملازمين وعدد أفرادها (   )[2] أما فرقة متقاعدى القلعة فعدد هذه الفرقة مائتان. أما فرقة جبه جيان مصر فعددهم (   )[3]، ثم فرقة الفشنكيان وهم (   )[4] أما فرقة المهتر أى الموسيقات العسكرية فهم خمسون ويتقاضون المرتبات كالانكشارية وهم مقيدون فى دفاترهم. أما جند الجراكسة فى مصر فعددهم ألف وتسعمائة وفى ميناء السويس عدد جند العزب مائة وخمسة وستون. وبناء على قانون السلطان سليم يكون قد تشكل فى مصر جيشًا قوامه عشرون أو خمسة وعشرون ألف جندى ونحن

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

نسجل ذلك بناء على ما نشاهده فى يومنا. أما السلطان سليم فقد أمر وزيره إبراهيم باشا أن يجعل كتخدا الجند فى مصر والسنجق بك رئيسًا للانكشارية، وأقام أربع وأربعين حجرة للانكشارية، وهذه الحجرات لا زالت إلى اليوم فى القلعة التى شيدها يوسف صلاح الدين بجوار سيدى الشيخ سارى بالقلعة. إلا أن بعضها مهجور وبنى أغواتها إدارة أخرى. وهى غاية فى الأهمية والجمال.

إنها رئاسة عظيمة لها الآن مائة من الأتباع. وفى الديوان السلطانى يرتدى جميع البكوات وكل رؤساء الفرق العسكرية السبع الخلع الفاخرة ولهم مكانهم فى الديوان، ويجلس جميع الأغوات على الأرض، ولكن لهم منزلة ووقار، ويتلو رئيس الانكشارية الكتخدا ولا مكان له فى الديوان أصلاً، وهم فى إدارتهم يعملون، وعلى رءوسهم العمامة المعروفة بالقلاوى وفى قدمهم خُفٌّ أحمر، وعليهم فرو السّمور وعباءات من الحرير وهم يلبسون هذا قانونًا والحكم من بعد لرؤساء جاويشيتهم. وكذلك قد يلبسون عباءة وقفطانًا من الحرير وعلى رءوسهم العمامة المعروفة بالقلاوى وحذاء أحمر وخف أحمر وكأنهم من قبل الباشا أغا المحضر وهم تحت رياسة موظف بيت المال، وهو يلبس القفطان والعمامة المسماه قلاوى، ولكن جاويشية الوسط والجاويشية الصغار وجاويشية الموكب والصره وأمين الصره جميعًا يَتمنْطَقُون بالمناطق وعمامة مثل القلاوى وخف أحمر. إلا أنهم لا يحملون سكينًا وإذا أصبح موظفًا فى بيت المال خلع ثوبه الأسود ولبس قفطانًا من الجوخ. وإذا ما دخل وزير مصر مصر أو عزل عنها وغادرها معززًا أو خرج مع أمير الحج والمحل فإن الانكشارية وجميع جند مصر على السواء يشكلون موكبًا منقطع النظير تعظيمًا للباشا وحُجَّاجه عند سفرهم.

* * *

الفصل التاسع عشر[1]

ذكر موكب عسكر مصر

عند قدوم الباشا للمرة الأولى إلى مصر يخرج أهلها لاستقباله تعظيمًا له وترحيبًا به، ويصطفون أمام إدارة العادلية، وفى البداية يرسل الباشا جنوده إلى المدينة ويلزم كلٌ بيته ويلبسون أحسن ثيابهم ويواجهون الموكب، ويقوم الصوباشى مع ثلاثمائة من الحراس وخمسون جلادًا بتمهيد الطريق من باب النَّصر وهم يفسحون الطريق وينظفونه حتى يعبروا.

ويمر الفرسان مع رجال بريد الباشا وفرسانه ثم يمر موكب الولاة والمطوعة حاملين أنواع الأعلام وعليهم ثياب من جلد النمر والفرو وتاج من فرو السمّور، ويمر بعد ذلك موكب الجاشنكير[2] والكلاجيان أى المسئولين عن المخازن معًا ويسيران جنبًا إلى جنب وبعد ذلك يمر موسيقو الخيمة و (السراجين) ثم جنود المتفرقة حاملين أسلحتهم وعلى رءوسهم الخاص من عمائمهم وكل موكب يمر يحمل ما لديه من أسلحة، وبعد ذلك يتوقف مرور جند الباشا وبعد ذلك يمر موكب جاويشية مصر. والجميع يلبسون فرو السمّور وعلى رءوسهم العمامة المعروفة بالمجوّزة وفى أيديهم عمد من الفضة الخالصة وعلى خيولهم المطهمة والسروج الفضية والغدارّة ويمرون وعلى رءوس جيادهم الزينة ثم بعد ذلك يمر جنود المطوعة بعمائمهم المزركشة وفى أيديهم الأعلام الحمر ومعهم صبيانهم من حملة الصاجات ويقرعون الطبول أمام أغواتهم، ثم بعد ذلك حملة البنادق ويمرون، ثم موكب (   )[3] وأفراده جميعًا يحملون كل أسلحتهم ويرتدون أفضل ثيابهم. وفى أيديهم أعلامهم يرفعونها. وحملة الصاجات على جيادهم وهم يقرعون طبولهم، ويأتى الدور على موكب جنود المتفرقة وهم فى فاخر ثيابهم ويتقدمهم عشرون أو ثلاثون ممن يلبسون الجبة ذات الفرو والجوشن[4] قارعين الطبول. ثم يمر أغوات الفرق متحازين. ثم يمر أغا الانكشارية مع رئيس العزب ثم يمر مرتدى الثياب الصوف

---

(١) هكذا فى الأصل.

(٢) الجاشنكير: فرقة من الجنود مكلفون بمهمة مراقبة جودة الطعام.

(٣) بياض فى الأصل.

(٤) الجوشن: الدرع.

السوداء متحازين ثم يمر موكب بكوات الشراكسة متحازين مثنى مثنى وقد لبسوا ثيابهم الفاخرة وعليهم فرو السمور وخلع المخمل. غير أنهم لا طبول لهم. ويمر موكب بكوات أمراء اللواء وهؤلاء كذلك يلبسون فاخر ثيابهم وأمامهم فرقة الموسيقى العسكرية وخلفهم أغوات الداخل عارفين الموسيقى العسكرية ويمرون مثنى مثنى.

وبعد ذلك موكب مشاة العزب ويمرون رافعين أعلامهم وهم غزاة مسلحون بالبنادق يلبسون جلد النمر وعلى قلانسهم طُرّةٌ مزدانة بالجوهر. ورؤسائهم القدامى يلبسون حول طرابيشهم عمامة. ثم يمضى موكب الجاويشية وسطهم ويتمنطقون بالأحزمة وسود الثياب. ورؤساء هؤلاء الأفراد من السباهية. ويمر أغا الانكشارية أو كتخدا الجاويشية ورؤساء كتبتهم ورؤساء جاويشيتهم متحازين. ومن عهد عمر وهم اثنتان وسبعون فرقة. وكلهم ثمانية عشر من الجورباجية يسمونهم الرؤساء وهم اثنتان وسبعون إدارة فى السكنات ولكل إدارة رئيس على حدة. إلا أنهم ليسوا عزابًا ويحاربون وإدارتهم بالأقدمية وكلهم متزوجون ورؤساء الجاويشية وجاويشية الموكب والجاويشية المتوسطون وصغار الجاويشية والذين يسيرون بجانب طبول الأغا والكتخدا جميعهم كجاويشية الانكشارية يلبسون (جبة سوداء) وعمامة تسمى (بريشانى) ولا يركبون فى مرورهم. ثم يمر جميع الجورباجية يمتطون صهوة الجياد ويلبسون فراجة مثل المسئول عن بيت المال ولا يلبسون (جبة سوداء). ولكن ليس لديهم طبول ولا فرقة موسيقى عسكرية. لكن مائة رجل يذكرون عمر ويرفعون الابتهالات المحمدية قائلين: الله الله، لأنهم جند (طيبون) وعددهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر جندى من حَمَلَةِ البنادق ومقامهم داخل إدارة العزب وهو مقام عمر الفاروق. وهو عبارة عن اثنين وسبعين بيتاً غرفها تطل على قره ميدان. وهم يرعون أصول الأدب فى مرورهم ويظهرون أعلام الانكشارية. ويأتى الدور على موكب مشاة المستحفظان ويمضون مثنى مثنى ومعهم البنادق ثم ثم حملة الطبول و(ثم الدلاه) ثم يمر رؤساؤهم وكلهم يحملون السلاح ويلبسون (جبه من الجوخ الأحمر) ويمضون أربعين أربعين أو خمسين خمسين ويمضون ببنادقهم وعلى رؤسهم اللباد ويلبسون جلد النمر وفى أقدامهم الخف اليمنى الأحمر. وفى وسط موكبهم ستة من الجاويشية على رؤسهم عُرفية من اللباد ويرتدون (جبة سوداء) ومن يمهد طريقهم ثم شيوخ بلحاهم التى نالها الشيب ويمضون مرتدين جلد النمر وعلى رؤسهم عرفية من

اللباد. ويمر رؤساء مائة وثمان وثلاثين فرقة وغيرهم من شيوخهم ثم جميع المشاة لابسين جلد النمر والفان تروسهم مذهبة.

يقولون إنهم مائة وثمانية وثلاثون جورباجيا. وهم أكثر من مائتين. ويمرون عشرة أو خمسة عشر يحملون أسلحتهم ويركبون صهوة جيادهم متحازين. كما يمر سبعون أو ثمانون من جند الكتخدا ورؤساء الجاويشية والمتقاعدين من رؤساء الفرق على جيادهم وخلفهم أربعون أو خمسون من خدامهم. إلا أن هؤلاء لا يرتدون السراويل المصرية الخاصة بالسپاهية والمتفرقة والجاويشية وهذه الطائفة من الانكشارية تمر بلا موسيقى عسكرية ولا طبول. ويمضون وهم يبتهلون ويلوحون. ويمر الكتخدا ورئيس الانكشارية وإمام الفرقة وسائر كتبتهم متحازين.

وهذه طائفة عسكرية عظيمة العدد. عدد أفرادها سبعة آلاف ومائتان وثمانية وثلاثون. وليس فى جيش آل عثمان طائفة تشبههم فى الزينة. كما أن رؤساء فرقهم ليسوا عزابا، وجميعهم مترفون ومن شارك منهم فى كثير من المعارك وتقدم به العمر وكان لديه الاستعداد فينضم إلى لابسى الـ (الجبة السوداء) ويصبح كتخدا وإذا ما مر عام وهو فى هذا المنصب يتحصل له ألف كيس من المال وبمجرد أن يفرغوا من موكبهم يأتى الدور على موكب ملازمى الانكشارية وهم من الانكشارية إلا أنهم يلبسون على رءوسهم عُرفية من اللباد ويجعلون (الطوغ) فى وسطهم. وعندما يمر موكبهم كموكب الصولاق الذين يسيرون بجانب فرس السلطان ويتقدمهم اطواغ الباشا وبوابوه ورئيس فرقهم وستون أو سبعون من طائفة اللوند* المسلحين ويسيرون جنبًا إلى جنب إلى جانب (رئيس المنازل)** ورئيس المؤذنين، ثم يمر رؤساء البوابين مثنى مثنى مع خمسة عشر أو عشرين من الغلمان فى أبهى ثيابهم. ثم كتخدا البوابين الأمير آخور[1] مع تسعة ممن يسوقون الجياد وهم فى أبهى زينة وكل منهم على فرس وعلى رأسه العمامة المجوزة. ويمر ملازمو الانكشارية على الجانبين ثم رئيس التراجمة ورئيس المتفرقة متحازين. ويمر بعدهم كتخدا الجاويشية والروزنامجى، ثم يمر حراس الباشا فى ثيابهم المزركشة، ثم يمضى الباشا وعلى قبائه فرو السمور وله السراويل المخملية وعلى وسطه المنطقة الذهبية التى يتدلى منها سيفه المكفت

* اللوند : عساكر البحرية العثمانية. ** قناقجى باشي: المسئول عن تهيئة المنازل أثناء السفر.

(١) امير آخور: مسئول الحظيرة السلطانية.

بالذهب، وعلى رأسه ريشتان متشعبتان وهو على فرس فاره وعلى جانبيه من يحملون البنادق ومن يسقون القافلة، وخلفه من يحملون على رؤسهم حمر القلانس من المسلحين والخدم. وبعدهم يمر كتخدا الباشا والخزينة دار وعشرون من صفوة أغوات الداخل ومائتان أو ثلاثمائة من أغوات الداخل وهم يحملون السلاح ومائة ممن يحملون البنادق وأعضاء فرقة الموسيقى العسكرية. وبعد ذلك يمر أمام الباشا ورئيس الديوان مع أتباعه. ثم يمر من يحملون علم النبى ﷺ الأخضر ومن يحملون الأعلام الحمر ورجال فرق الموسيقى العسكرية بطبقاتهم التسع، وكذلك فراشو وسقاؤو وأغوات الداخل. وجميع هؤلاء الجند مع موكب الباشا يطلقون مائتى طلقة من مدافعهم، وتعزف الموسيقى العسكرية ويعم السرور. ثم ينال الجند منحة الموكب من الباشا وقدرها خمسة أكياس. ثم يمد سماط عظيم وبعد تناول الطعام يرفع من الطاعمين الدعاء ويعقد الديوان السلطانى طبقًا لقانون السلطان سليم خان. ويتلى الأمر السلطانى وتنفذ أوامره فى هذا الديوان. وإذا ما كان فى مصر حاكم له إدارة خاصة فيأتى من الأستانة جاويش الانكشارية ويصبح أغا. وجميع موظفى الباب العالى لهم المراكز فى بيت المال، ووفقوا فى الأخذ على يد المجرمين. وحضورهم إلى الموكب أو الديوان ليس قانون، وإذا مست الحاجة استحضروا إلى الديوان. أما إذا رغب وزير مصر وقال ينبغى للموكب أن يخرج. ويجب عليه أن يحضر الديوان وبذلك اشتهر (قبو قولى) فى مصر. وثمة حاكم آخر هو الصوباشى أى رئيس الشرطة وهو يستطيع أن يأمر بالقتل إذا حصل على أمر مطلق من السلطان. وبذلك يستتب النظام. وفى إحدى إدارات هذا الصوباشى رئيس عسس انكشارية مصر ينوب عنه فى أداء مهمته.

وفضلاً عما ذكر من الشراكسة وحاملى البنادق والجند المطوعة والجاويشية وكل من يرتدون السراويل الحمر عبيد. ويستطيعون إنجاز مهامهم الصعبة. وفضلاً عن هؤلاء فهناك انكشارية أهل مصر وعزب (   )(١) وهم يلبسون ثيابًا من الجوخ وقباء يسمى حورانى وعلى رؤسهم عمامة ويتمنطقون بمنطقة مختومة، ويحملون مدية كردية،

(١) بياض بالأصل.

ويعلقون فى خواصرهم بسكين كبيرة. ولهؤلاء الانكشارية والعزب منزلة مرموقة فى مصر. وكثيرٌ من أغوات السباهية والمتفرقة ينضمون إليهم ويصبحون انكشارية وعزب على نحو ما رأيت.

أما محافظ القلعة فى مصر وجند الأبراج وأفراد فرق الموسيقى العسكرية والمتقاعدون لا يستطيعون أن يبرحوا أماكنهم ويخرجون إلى الموكب. ففى القلعة آلاف مؤلفة من أكياس المال السلطانية، وهم على الدوام يقومون بحراستها. أما رئيس البارودجيه فله مصنع كذلك فى ميدان القصر ويحرسون خزانة البارود التى نصفها فى القلعة الداخلية ونصفها الآخر فى القصر. ولأنهم محبوسون على الدوام لهم رواتب سخية.

وأعضاء فرقة الموسيقى العسكرية لا يستطيعون الخروج إلى جهة أخرى. فبعد العشاء تعزف فرقة الموسيقى العسكرية مقطوعة لا يستطيع أحد أن يعزف مثلها. ولأن كل رئيس من رؤساء فرق الموسيقى العسكرية ملحق بخدمة وزير فإنه يبقى عنده ولكل منهم مرتب جزيل. وهم على الدوام صيفًا وشتاء حتى طلوع الفجر بساعتين يعزفون دون أن يشعر بهم من حولهم. وهم بنغمة العشاق يجرحون قلوب العشاق. إلا أنها حكمة عجيبة فهم يتفقون مع مؤذنى مصر ولهم معهم ساعات. فبعد أن يرفع آلاف من مؤذنى الجوامع فى مصر الأذان ويكون الفراغ من أداء صلاة الصبح تبدأ جوقة الموسيقى العسكرية فى العزف. وكان ذلك دأب لهم على الدوام وهو ظاهرة عجيبة.

بيان بجملة رواتب ما سلف ذكرهم من طوائف الجند وما يتقاضونه كل شهر أو كل ثلاثة أشهر

يقضى قانون السلطان سليم بأن يكون فى كل شهر مرتب يتقاضاه فرق المتفرقة والجاويشية وحملة البنادق والجند المطوعة والشراكسة والأيتام والجوالى. ورواتب فى كل ثلاثة أشهر لطوائف الانكشارية والعزب والقائمين على مخازن السلاح وسائقى المركبات وفرق الموسيقى العسكرية.

وعلى النحو التالى نبين مقدار ما يتقاضونه بالأقجة أو أكياس المال فى كل عام:

أولاً: فرقة المتفرقة وعدد أفرادها ٢٧٤٥ وراتبهم اليومى ٤٤٦٢٦ باره يخرجون منها ٧٨٩٨٠٧٦ باره، ومعنى هذه الإخراجات أن بعضهم يخرج لحراسة الكشافين والقلاع ويتقاضون راتبًا على ذلك وإخراجاتهم وبقيتها ٧٧٠٥٤٤١ وما يستحقونه سنويًا يختلف الفارق بينه فقط ٣٠٨ كيسًا وكسورها ٥٤٤١ والفارق ١٩٢٥٣٥ باره وهذا الفارق هو أنه حين إعطاء المرتب تخصم باره واحدة على كل أربعين باره، ويضاف هذا إلى المقيد فى الخزانة. والمقيدون فى دفتر الجاويشية عددهم ١٤٤٩ وراتبهم اليومى ٢٥٠٥٥ وإخراجاتهم ٤٤٢٤٧٢٠ والباقى لهم ٤٢٢٦٥٥٨ و ١٧٣ كيسًا والكسور ١٥٥٧ والتفاوت ١٠٨١٦٢.

وجند التوفنكجيان أى حملة البنادق عددهم ١٠٨٧ ويتقاضون فى اليوم ٩٧٠٩ وإخراجاتهم ١٧١٨٤٨٨ وبقيتهم ١٦٧٦٦٦٥، و ٢٧ كيسًا والكسور ١٦٦٥ والتفاوت ٤١٨٣٣.

وجند الكَوكليان أى المطوعة عددهم ١٣٦٥ ويتقاضون فى اليوم ١٢٥٧٥ معها إخراجات قدرها ٢٢٢٥٧٧٢ والبقية ٢١٧١٤٨٧ و ٨٦ كيسًا والتفاوت ٥٤٢٨٥.

أما دفتر جند الشراكسة فالأفراد عددهم ١٠٩٠ يتقاضون فى اليوم ١٣٨٤٨ وفى السنة ١٧٥٩٤٦٤ والبقية ١٧١٦٥٥١ و ٢٨ كيسًا والكسور ١٦٥٥١ والتفاوت ٤٢٩١٣.

دفتر العزب القدماء وعددهم ٣٢١٢ ويتقاضون فى اليوم ١٣٨٤٨ معه إخراجات قدرها ٣٤٥٠٨٣٦ والبقية ٢٣٩١٠٦١ و ٩٥ كيسًا والكسور ١٦٠٦١ والتفاوت ( )[1].

أما دفتر عزب السويس فعددهم ١٢٥ ويتقاضون فى اليوم ٢٦٧ وفى السنة ٤٧٤٢٦ والبقية ٤٦٢٨٠ كيسًا والكسور ٢١٢٨٠ والتفاوت ١١٥٦.

---

(١) بياض فى الأصل.

ثم دفتر المستحفظان وعددهم ٧٣٣٨ ويوميتهم ٦٣٧١٦ ويتقاضون فى اليوم ١١٢٧٨ والبقية ١١٠٠٢٧٩٠ و ٤٤٠ كيسًا والكسور ٢٧٩٠ والتفاوت ٢٧٥٠٦٩ باره. ومجموع طوائف المستحفظان ١٣٨. كما أن لهم فرقة من المتفرقة خاصة بهم تتكون من ٧ بلوكات وعدد أفرادها مائة وعدد أفراد فرقة مدفعية القلعة ٥٠٠ وطائفة جند المركبات الفرقة الواحدة منها ١٠٠٠ وفرقة جند خزانة القلعة ٢٠٠ وفرقة متقاعدى القلعة ٢٥، ورجال فرقة الموسيقى بالقلعة الداخلية ٦٠، أفراد فرقة جبه جيان (   )[1]. ومرتبات هؤلاء المستحفظان ومن يتبعهم يحصلون عليها.

وإجمالى المرتبات السنوية السالف ذكرها والتى يتقاضاها جند الإسلام من الفرق السبع ١٢٤٠ وكسورها ٢٢١٦٧ باره والسلام.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

الفصل العشرون

ذكر قاضى مصر وحكم حكومته وعوائد الفوائد وجميع محاكمه والقضاة فى أقاليم مصر

عندما فتح السلطان سليم الأول مصر كان كمال باشا أحمد افندى يشغل منصب قاضى عسكر الروملى، فأنعم عليه بمولوية[1] مصر، وأمر بأن تكون إمارة مصر للغزالى جان بردى وكمال باشا زاده وأصدر بذلك مرسومًا، وجاء فيه أن قاضى مصر يتقاضى مائتى كيس عدلاً وإنصافًا. وكان يكفيه مائة من الخدم. وتولى مهام الحكم.

وكان فى الديوان أربعة فقهاء للمذاهب الأربعة، وكان لهم مسجلون ومقيدون وشهود ومحضرون، كما كان لهم مائة من الخدام وكانت إحدى فرق الانكشارية مع الجورباجية يعينون للقيام بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، وهذه الفرقة من الانكشارية تسمى (الملازم)، وكانوا جميعًا يلبسون قباء وقلنسوة مزركشة.

وكان هناك رئيس المترجمين وأمين السجلات. وهناك قبة أخرى من الحجر تراكمت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخليفة عمر ـ رضى الله عنه ـ، وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتخدا الذى كان يد الرشوة.

كما كان يوجد نائب الإدارة ونائب المدينة. وكذلك رجل محنك من رؤساء بوابى الباب العالى يشغل منصب رئيس المحضرين وتحت رياسته ثلاثمائة محضر، ويتقاضى فى العام خمسة أكياس. وفى حالة انعقاد الديوان السلطانى خمسة أيام فى الأسبوع يرتدى هذا المحضر الرئيس قلنسوة مزركشة، ويرتدى الكتخدا افندى على رأسه قلنسوة البريشان وأمامهم المحضرون وجميعهم من حملة العصى. ويمر الانكشارية مثنى مثنى وعلى رءوسهم القلانس المزركشة. ويمر القاضى وعلى رأسه كذلك العمامة التى تعرف (بالعُرفى) وعلى جانبيه خدم الانكشارية والذى يعرف الواحد منهم باسم المسئول عن التسوق، وعشرون أو ثلاثون من صرَّاجى المشاة، وأحيانًا يمرون ومعهم أكياس الديوان الحمر. وعلى هذا النظام يصلون إلى الديوان وعلى هذا النسق ينتفى عن

---

(١) مولوية: واحدة من الرتب الخاصة بالعلماء.

القاضى اختصاصه بإقليم دون الآخر ـ ويطلقون على القاضى فى مصر لقب قاضى عسكر افندى، لأن فى بداية فتح مصر كان كمال باشا زاده يشغل منصب قاضى العسكر، ولذلك فمنذ ذلك الوقت يسمون القاضى قاضى العسكر، وهو يقيم فى قصر شامخ وهو القصر الذى أقامه السلطان معز الدين القاهر المغربى الفاطمى قديمًا. وفى ديوان القاضى يوجد قسّام عسكر القاضى وهو معين من قبل قاضى عسكر الأناضول فى الأستانة وتحرر جميع تركات جنده بإذن منه. ويأخذ منها (   )[1] ويسجل الباشا هذه التركات. ويحضر إلى جانب الباشا فى ديوان مصر على الدوام نائب القاضى وشهوده ومحضروه فى كل يوم وليلة لربما ظهر شىء بعد العشاء يكون الحكم فيه للشريعة ولذلك يحضر نائب الديوان.

وللقاضى فى مصر أربع وعشرون محكمة، فى كل واحدة منها نائب للترك وقضاة المذاهب الأربعة، وهذه المحاكم هى: محكمة باب النصر، ومحكمة باب الخرق[2]، ومحكمة المشهد الحسينى، ومحكمة باب (   )[3]، والمحكمة القيسونية ومحكمة ميدان الروملى الجديدة، والمحكمة الطولونية ومحكمة باب الشعرية، ومحكمة درب الجماميز، ومحكمة سويقة الدلالين القديمة، ومحكمة باب الحديد ومحكمة مصر العتيقة، ومحكمة جامع الصالحية ومحكمة باب الحديد، ومحكمة خارج السور، ومحكمة بولاق، ومحكمة قضاء شرق اتفيه وجملة القول إنها أربع وعشرون محكمة وتصل محصولاتها إلى الموظفين أسبوعًا بأسبوع.

وهناك نائب آخر يتجول مع المحتسب فى الأسواق. إلا أنه تحت الرقابة. وهم لا يستطيعون تطبيق التسعيرة السلطانية؛ لأنهم جميعًا تحت الحماية وفى أقاليم مصر يوجد كذلك نواب النواحى ويوجد نيابات مثل بلدة شبرا والبساتين وقايتباى.

ذكر الأقضية التابعة للقاضى فى مصر

أولاً قضاء الغربية: أى المحكمة العليا وهى أولى المحاكم الست. وتحصل هذه المحكمة على أربعين كيسًا فى العام، وهو قضاء معمور وأكثر من مرة تأتيهم منحة من

(١) بياض فى الأصل.

(٢) وهى ما يعرف الآن باسم باب الخلق.

(٣) بياض فى الأصل.

المولوية قدرها خمسمائة أقجه.

وبعد ذلك قضاء دمياط ويحصِّل ثلاثين كيسًا. ثم قضاء مزاحمتين.

ثم قضاء رشيد ويحصِّل ثلاثين كيسًا، وهو قضاء شريف.

وبعدها قضاء الإسكندرية: ولها أربعون كيسًا.

ثم قضاء المنصورة ولها عشرون أو ثلاثون كيسًا.

ثم قضاء منية التين: ولها كذلك خمسة وعشرون كيسًا.

وهذه الأقضية تسمى الستة الأول وهى أعلى من غيرها، ثم يليها:

قضاء المنوفية، ثم قضاء البحرية، فقضاء البرلس، وبعدها قضاء فُوّة، وبعدها قضاء سنديون، ثم قضاء محلة أبى على، ثم قضاء ابيار، ثم قضاء النهارية، ثم قضاء محلة المرحوم، وقضاء بلبيس، وقضاء ميت غمر، ثم قضاء زفته، وقضاء الشرقية، وقضاء الشيخ سلمون، وقضاء الخانكة، وقضاء الجيزة التى تولى القضاء فيها شيخ الإسلام بُولَوى مصطفى افندى، وقضاء الفيوم، وقضاء بنى سيف، وقضاء تزمين، وقضاء بهنسا، وقضاء فيشنا، وقضاء ملوى، وقضاء منفلوط، وقضاء أسيوط، وقضاء أبى تيج، وقضاء تحته، وقضاء أقطعه، وقضاء أشمونين، وقضاء صنبوط التى كان يرأس القضاء فيها شيوخ الساداتية، وقضاء الجزيرة، وقضاء سوهاج، وقضاء المنشية، وقضاء الواحات، وقضاء جرجا، وقضاء فرشوط، وقضاء شرق بويت، وقضاء إسنا. ولا وجود لأقضية أخرى على الجانب الغربى للنيل وكلها قرى الأقاليم، وهى تمتد إلى بلاد السودان.

وعلى الجانب الشرقى للنيل أقضية أُسُمَانى صاى وتقع على حدود مصر، وقضاء إبريم، وقضاء أسوان، وقضاء قوص، وقضاء قنا، وقضاء فو، وقضاء شرق اخميم، وقضاء السويس.

وبذا يكون عدد الأقضية فى أقاليم مصر ستة وسبعين قضاء. وثمة بضعة أقضية، إلا أنهم ليسوا بالمشاهير ويسمونهم «المضافات» وهؤلاء القضاة جميعًا يعينهم قاضى عسكر الأناضول من قبل السلطان فى الأستانة، وقضاة إدارات مصر قضاة آخرون، وليس

لأقضية الأناضول سيطرة عليهم. إلا أن قضــاة مصر ممن تولوا القضاء فى المحاكم الست العلـيا مثل الغـربية ودمياط ورشـيد واسكندرية والمـنصورة يمنحـون منصب المولـوية فى الأناضول والروملى وذلك بناء على قانون السلطان سليم. وتنتهى مناصبهم فى مصر إلا أنهم شبـكة عظيمة. وفى قـانون مصر القديم كـان يوجد شيوخ للإسلام عـلى المذاهب الأربعة. وفى زمـاننا بما أن بولوى مصـطفى افندى لم يصـدر الفتوى بقتل قـائد جزيرة كريت غازى دلى حسين باشا ويقدمها إلى كوپرلى محمد باشا نفى إلى مصر فمنح قضاء الجيزة على أن ذلك معاش يتقاضاه، وكان شيخ الإسلام الحنفى. ولكن لم يكن أحد فى حاجة إلـى فتواه، لأن أصحاب الحـاجة كانوا يمـضون إلى الأزهر. وإذا ما أعـطى أحد العلماء «منقرين» أو ثـلاثة استصدر منه الفتوى حسبما يريد، ثم يـأتى خصمه ويستصدر هو الآخر لنفسه فتوى بقول ضعيف ويكون الحـكم لإثنين، ثم يتم الصلح والصلح سيد الأحكام ولا يحكم بأن الحق لأحد الطرفين، ويضطر الطرفان إلى الصلح.

وخلاصة القول أن فى مصر إحقاق الحق لـيس له من وجود، لأن أحد الطرفين يلح طويلاً أو يكون مـحميًا فيكون الحكم له بـغير حق وفى مصر علماء لـهم عشرون ألف فتوى، وفيها كثير من المسائل والمشاكل.

ومن فى حاجة لمعرفة مصر وهى من البلاد العجيبة والغريبة فليرجع إلى علماء مصر وفضلائهـا الذين يعرفون شـتى العجائب والغـرائب. وحكماؤها مـنقطعو النـظير وهم أذكياء ألباء بـطبعهم. وصبيانـهم لهم فكر وقاد، ومنـهم سبع وخمسون ألفًـا يحفظون القرآن الكريم وجـميعهم يتلون القرآن الـكريم فى الحوانيت وعلى مفتـرق الطرق وعلى أبواب معظم الحمامات ومـيدان الروملى. ومنهم عميان يحفظـون القرآن الكريم وكلهم مائة وأربعة وسبعون ألفًا من العلماء والقضاة والمعلمين.

وعلم التفسير والحديث خاص بمصر، وفيـها أكثر من عشرة آلاف إمام وخطيب وعشرة آلاف من كبار المشايخ. وفى أروقة الجامع الأزهر اثنا عشر ألفًا من كبار العلماء.

ذكر ما يدرس فى مدينة مصر من علوم

جاء فى الحديث الشريف أن: «العلم علمان الأول علم الأبدان والثانى علم الأديان» فالعلوم هى علم الطب وعلم الفرائض وعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلم الحديث، وعلم التفسير، وعلم التجويد، وعلم التوحيد، والعلم اللدنى، وعلم البيان، وعلم الكلام، وعلم الكمال، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم المنطق واللغة، والعروض، والخط، والنجوم، والجفر، والكاف، والكف، وعلم القاف، وعلم السيما والكيمياء، والهيئة، والحكمة، والزيج، وعلم دانيال، وعلم الفول والفال، وجر الأثقال، وعلم الرمل، والوفق، وعلم الأسماء، وعلم التسخير، والدعوة، والفلسفة، وعلم الأدوار، وعلم الزيرجه، وعلم الاصطرلاب، وعلم الحروف، والنارنجات، وعلم طى المكان، وعلم الإخفاء، وعلم التعبير، وعلم الفراسة، ولكن لا وجود لعلم الأدب.

بيان توزيع الخزائن السابق ذكرها التى تصرف على جميع جنود مصر وغيرهم من العلماء والدعاة الصالحين، وكذا خزائن مصر الأخرى التى تبذل على غير ذلك من المصروفات، وجميع الإيرادات التى يجمعها الكتخدا إبراهيم باشا للخزينة بموجب الخط الشريف، وصورة الدفتر الهمايونى المجمل الذى يودع خزنة القلعة

كان سبب تحرير هذا الكتاب، والتسطير صحيح النصاب، هو تحرير وبيان تلك المسائل جليلة الشأن، وهى أنه فى الحضور العالى لحضرة مدبر أمور الجمهور، باعث الوقار بسند لطفه، ومجلى كل قانون خفى، مشيد بنيان العدل، هادم أساس الظلم والفساد، حافظ معالم الإسلام، ناصر ضعاف الأيام، معين الرعايا، باسط العدالة، حامى حجاب الدين والدولة، ماحى آثار الظلم والبدعة، الوزير المكرم والدستور المحترم صاحب السعادة والدولة إبراهيم باشا، وفقه الله تعالى لما يرضاه ويشاء، عقد فى حضوره مجلس الشرع الشريف، شامخ العماد المحمدى، وطرح المحفل المنيف، رايح الأوباد الأحمدى، ملجأ ظلال الرايات السلطانية، ومرتقى أرائك الإمارات الخاقانية،

ومن الأمراء المصريين، أوزبك بك أمير الحاج ومقدم ركب الحجيج والبيت العتيق، ومحمد بك النوه لى مقدم جيش الأمراء، وحسن بك وقانصوه بك ومصطفى بك ويوسف بك هم من شغلوا منصب الدفتر دارية سابقا، ومن حكام إيالة جرجا السابقين؛ محمد بك وعلى بك ومحمد بك الجندى وعبد الله بك وعمر بك، ومن أغوات الفرق السبع محمد أغا رئيس الكوكلليه، ومصطفى أغا رئيس الجراكسة، ومصطفى أغا.

رئيس المستحفظان، وجعفر أغا رئيس العزب، وسليمان أغا كتخدا الجاويشية خدام الديوان المصرى المحصلين، ومصطفى أغا ترجمان الديوان العالى، ومحمد أغا رئيس المتفرقة،وجعفر أغا رئيس الجبجية وكتخداوات البلوكات السبعة ورؤساء جاويشياتها، ومن أرباب الأقلام المصرية إيواز بك دفتردار الخزينة المصرية، وعبد الرحمن أفندى الرونامجى، وأحمد أفندى نائبه الأول، وعلى أفندى نائبه الثانى، والمحاسب يوسف أفندى، ومن نوابه مصطفى أفندى وصالح أفندى، ومحمد أفندى المسئول عن مقاطعة الشرقية، ونوابه على أفندى ومحمد أفندى، وعن مقاطعة الغربية حسن أفندى ونائباه أحمد أفندى وابراهيم أفندى، وعن مقاطة المدينة محمد أفندى، ونائباه شعبان أفندى ومحمد أفندى، والمسئول عن مقاطعة إيراد الغلال مرتضى أفندى ونائباه مصطفى أفندى ومحمد أفندى، وعن مقاطعة مصرف الغلال رضوان أفندى، ونائباه فضلى أفندى وعثمان أفندى، وكاتب الجاويشية (   ) أفندى، وكاتب المتفرقة (   ) أفندى، وكاتب الحواله (   ) أفندى، وكاتب الانكشارية (   ) أفندى، وكاتب العزب (   ) أفندى، وكاتب الكوكلليه (   ) أفندى، وكاتب التفنكجية (   ) أفندى، وكاتب سباهية اليمين واليسار (   ) أفندى، وكاتب الجبجية رجب أفندى، وكات الأيتام ابراهيم أفندى، وعثمان أفندى الملقب كاتب الأرزاق، وكاتب الإنكشارية سليمان أفندى الصغير، خلاصة القول إنه فى حضور جميع أرباب الديوان صغارا وكبارا، وسائر الأعيان، عندما عرض على هذا الوزير المكرم بتولى أمر إيالة مصر نادرة العصر من قبل السلطان وظل الله فى أرضه إجمال المدون والمصون والمصحح من الإيراد والمصروف

السنوى على الوجه المضبوط والمحفوظ بمفرداته فى الدفاتر والتى هى عبارة عن الحصيلة الداخلية رلى الخزينة من قلم الروزنامة والمحاسبة وسائر المقاطعات ومن خراج الزراضى وسائر الأقلام المتفرقة، عندما أشرق على ديوان مصر العالى فى أسعد الساعات والأوقات، تبين أن عدم كفاية الأموال المحصلة لنفقات الإدارة المصرية، ناشئ عن الاضطرابات فى زمن الوزراء السابقين، إلى تاريخ تصدر ديوان مصر العالى، لذا كانت النفقات السنوية تزيد على الإيرادات، مما أدى إلى نقص الأموال المقرر إرسالها إلى الآستانة، بمقدار أربعمائة وأربعين كيسا وسبعة عشر ألفا ومائة وثلاثون بارة فى كل عام، عن المبلغ المقرر ومقداره ألفا ومائتى كيس مصرى. كذلك نقص الذخائر السلطانية وغيرها من اللوازم الضرورية المعتاد إرسالها إلى خزائن القصور العامرة فى الآستانة، مقدار واحد وأربعين كيسا وثلاثة وعشرين ألفا ومائة وخمسا وثلاثين باره، بحيث لزم لإتمام الخزينة كل سنة مبلغ أربعمائة وأربعة وثمانين كيسا مصريا وخمسة آلاف ومائتين وثمان وثمانين بارة.

لذا عمد الوزير المذكور (اسبغ الله تعالى نعمه عليه) إلى إعمال صائب الفكر وضبط الأراضى المحلولة والتى خلت من أربابها فى زمانه الآمن، وجمع الأموال الضائعة، فلما غطت الأموال المتحصلة بالمصاريف اللازمة فى زمنه السعيد، أرسل الباقى بموجب الدفاتر التى تم تحريرها مجددا فى الأقلام بالتفاصيل إلى الآستانة السعيدة، مشفوعا بتخليص عن أحوال البلد فصارت موضع نظر القبول السلطانى والالتفات الهمايونى لحضرة السلطان ظل الله، كما أن الدفتر والتى رفعت إلى العتبة السنية، جاءت مفرونة بالخط الشريف الهمايونى، وجاء مضمونها المقرون بالسعادة على النحو التالى «فليكن معلوما لديك ياوزيرنا أبو الخير إبراهيم باشا فى محافظة مصر نادرة العصر التى هى باب الحرمين الشريفين حينما يبلغك خطنا الشريف أنه قد ورد إلى عتبتنا السنية دفتر خزينة مصر وكتابها الخاص، فألفينا الإيرادات والمصروفات قد نظمت وفقا لصلاح الدين والدولة ونظام أحوال المملكة بشكل لائق ومناسب، إذ تم تصحيح ماكان يبدو فيها حتى تلك اللحظة من خلل، وقد ألقينا نظرنا الهمايونى على الكشوف الإجمالية

والتخليصات، وقد حازت قبولنا المملوكى، أطال الله فى عمرك ومتعك بسعادة الدارين، وحلال عليك نعمنا السلطانية، وإذا قد عرضت على عتبتنا السنية، فإن الأمر يتطلب تنبيهاتنا الهمايونية فى بعض المواد، التى ضمناها رسالة التنبيه السلطانية التى ذكرها، وتنص على أنه اعتبارا من اليوم، لايجوز البدء بمنح مخصصات سنوية ومواجب أو بدل عليق أو فدادين محلولة من خزينة مصر المحروسة، مهما كانت قليلة، وإذا ورد أمر صادر من بابنا الهمايوني بمنحها، فينبغى عدم قيده فى السجل المخصص لذلك ويعرض على أعتابنا مع توضيح مخالفته للقانون.

وعند عزل وال من ولاة مصر، فيجب على أمير اللواء المعين فى منصب قائمقام من قبل الوالى الجديد، ودفتردار المال والروزنامجى والمقاطعة جى وسائر الكتاب الذين لهم صلة بشئون الخزينة وخدماتها أن يبادروا بمحاسبة ذلك الوالى المعزول بموجب السجلات على وجه الحق والعدل وألا يتدخل فى ذلك من لادخل لهم فى هذه القضية ولا علاقة لهم بشئون الخزينة.

ولايجوز إعطاء المحلولات التى تحدث فى أثناء تولى القائمقام نيابة عن الوالى، لأحد من الطالبين، ويجب حفظ الطلبات المقدمة من قبل إدارة الأيتام بإشغال تلك المحلولات وتوقيعها حتى يحضر الوالى الجديد. ولايؤجل مال الإيراد السنوى بالترك والإهمال بل يعجل بتحصيله بدون تأخير أو إمهال. إن كان هناك ما يقتضى التنزيل من الإيراد من مقاطعة أو قرية عاطلة - سواء أكانت قرية مال أو قرية غلال، فإن الباقى بعد التنزيل يبقى فى الخزانة ولاتنقص بعد ذلك من الإيرادات حبة ولا أقجه، ما لم يوجد مايقتضى ذلك أو يوجبه.

يجب على والى مصر ومعه الدفتردار والروزنامجى ومدير الحسابات، فتح دفاتر حسابات الخزينة وأنبار يوسف فى شهر توت من كل عام إخراج ما يخص الخزينة من الاجمالات الواردة بأمرى الهمايونى، والقيام بمراجعة إيرادات الخزينة ومصاريفها وإعادتها إلى أماكنها إن وجدت الإيرادات متعادلة مع النفقات، وإكمال الوالى ما فى الإيرادات من النقص بما يحصّل من المال من المحلولات، ثم قيده بمعرفة الدفتردار فى

السجلات كى يعلم ما بالخزانة من نقص وزيادة، ثم تسليم ذلك الإجمال إلى البك، أمين إرسالية مصر لتوصيله الآستانة وتسليمه إلينا مع الخزانة.

ينبغى أن تنفذ المواد المبنية على وجهه المشروح، وأن يعمل حكام الإيالة المصرية ومحكوموها بما فى أمرنا الصادر فى هذا الباب من الأحكام.

وأنت أيها الوزير، عليك أن تقوم بتنفيذ المواد المذكورة على هذا المنوال فى عهد حكومتك، وأن تتجنب العمل على خلاف ذلك مباشرة أو بالواسطة، ولأجل أن يكون هذا الفرمان دستور العمل مدى الدهر عليك بحفظه فى حصن خزينة مصر وإبقائه فيه. وذلك إخراجه كل سنة فى أول توت وإمعان النظر فيه عند عمل الإجمال من الحسابات، وفحص الإيرادات والمصاريف، حتى يمكن رفع الخلافات التى تكون قد ارتكبت فى أثناء السنة، حسب النصائع والتشبيهات الهمايونية الواردة فى فرماننا الهمايونى هذا. وحيث أنه قد صار فرماتنا الشريف الجارى بقضائنا السلطانى وأمرنا العالى الواجب الاتباع بتنفيذ كل ذلك بالدقة والاهتمام حسب ما سبق شرحه، حتى إذا طبق ما يحصله أرباب الأقلام من الأموال إلى ما دون من المفردات فى دفاتر الخزينة التى وضعت حديثا تبين أن بالأراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الشرقية ١٠٨٤ كيسا مصريا و١٢٣٩٤ بارة ومن الزراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الغربية ١٠٥٧ كيسا و٧٠٥٧ بارة. ومن الأراضي والقرى الخراجية التابعة لقلم الروزنامية ١٦٧ كيسا و ٩٥٣١ بارة، ومن الأراضى والقرى الخراجية التابعة لقلم مقاطعة إيراد الغلال ٢٦ كيسا و ١٧٧٢٠ بارة.

وخلاصة الكلام أن حاصلات أقلام مصر السبعة والسبعين الناتجة من الرسوم المفروضة على كل ما يطير فى السماء أو يسبح فى الماء أو يمشى على الأرض كلها أمانة، حيث تنطق دفاتر الروزنامجى بأن النفقات تبلغ ٢٦٥٢ كيسا مصريا و٥٠٤٣ باره، ومن هذا المبلغ ٥٦٤ كيسا و ١٠٠٠٠ بارة من الكشوفية الكبيرة، و٥٤٧ كيسا و٩٠٦٥ باره من مقطوعية الثغر، و١٠٠ كيس و٥٥٤٨ بارة من أموال متفرقة متحصلة من قلم المحاسبة، و٤٠ كيسا من المال يقدمه والى مصر مقطوعا كل عام لتكملة الخزينة المطلوبة عن قرى الحلوان المحلولة، و٢٢ كيسا و١٥٠٧٠ بارة أموال متحصلة من القرى التى

أوقفتها الملكة شجرة الدر على كسوة الكعبة الشريفة، و٥٥ كيسا و٠٠ ١٢٥ بارة سنويا من المال الناتج عن خصم بارة من كل ٤١ بارة، المعتاد خصمها منذ القدم من عموم مصاريف ديوان مصر باسم التفاوت. وعندما بلغ مجموع الأموال التى يجرى تحصيلها فى زمانكم الشريف أيها الوزير المكرم اعتبارا من أول توت إلى آخره، من أراضى الخراج والكشوفيات وقرى الحلوان وعدد سبع من الموانئ وسائر المقاطعات والأموال المتفرقة وغيرها من الأقلام المذكورة ٣٩٨١ كيسه و٢٤٨٤٤ بارة، كانت المصاريف عن سنة كاملة اعتبارا من توت إلى آخره وهى المصاريف السنوية للأمراء المصرية ومواجب العساكر المنصورة وغيرها ٢١٤٢ كيسة و ٧٩٤ بارة، وبلغت المواجبات وأموال الحرمين الشريفين ٣٤٧ كيسة و ١٧٩٢٥ بارة. ومخرجات الإرسالية إلى العتبة العلية ٩٧ كيسة مال و ١٠٥٦٥ بارة، والمصروف السنوى فى ديوان مصر المحروسة المسمى باسم مخرجات المقاطعات الساير ١٧ كيسة و ٢٣٧٤ بارة سنويا، وعدد ٦٣ كيسة و ٥٧٢٨ بارة تسلم إلى كشاف الولايات لصيانة الجسور السلطانية ومهماتها وتجريف الترع فى ولاية مصر، والفدادين التى تصرف التى تصرف حسب ما كان معتادا قديما على الزوايا والأضرحة فى مصر، وعلى العلماء العظام والمشايخ الكرام، وعلماء ثغر الإسكندرية، وكذا مال مراعى الأمراء المصريين والجنود المنصورين وأموال جميع العلماء مبلغا قدره ١٨١ كيسا و ٥٠٠ بارة فى العام.

وبما أن أثمان ما يلزم شراؤه من الأشياء للجنود القائمين على خدمة الحجاج والكسوة وغيرهم ممن يرأسون الأعمال ويقومون بعا حسب الوارد فى دفاتر الروزنامة، هو مبلغ٣٣ كيسا و ٢٤٢٤ بارة، حيث يكون ذلك مع مجموع رواتب العلماء والأمراء وأثمان الخلع، مبلغا قدره ٢٧٨١ كيسا و ٢٤٨٤٤ بارة. ولما كان ما يرسل إلى الخزينة العامرة حسب المعتاد منذ عهد السلطان يبلغ ١٢٠٠ كيسا مصريا، فيكون المجموع الكلى ٣٩٨١ كيسا و ٢٤٨٤٤ بارة سنويا حسبما هو مقيد فى الدفاتر وبذلك صار الإيراد السنوى مساويا للمصروف السنوى.

ثم أن دفاتر الروزنامة والمقاطعات وأقلام المتفرقة تدل على أن الباشا الوزير حصّل بفضل عنايته وسعيه من يوم توليه حتى تاريخ الكتاب، مبلغا للخزينة العامرة قدره ٣٣ كيسا و ٢٠٠٠٠ بارة زيادة على المبلغ الذى أرسله إلى الآستانة.

وحينما عرض الباشا الوالى هذا الأمر على الحاضرين فى المجلس طالبا آراءهم فيه، أفادوا بما يأتى: إنه حسبما هو مقيد فى السجلات، يبلغ مجموع ما ورد إلى الديوان المصرى من المال مبلغا قدره ٣٩٨١ كيسا و ٢٤٨٤٤ بارة فى العام، وأن المصاريف السنوية حسب ما ورد فى دفاتر الروزنامة وسائر الأقاليم، ومع ١٢٠٠ كيس من المال المعتاد إراسله إلى الآستانة يبلغ ٣٩٨١ كيسا و ٢٤٨٤٤ بارة، وعلى هذا يصير الإيراد السنوى معادلات للمصاريف السنوية.

وبعد اعتراف المذكورين وإقرارهم واقترانه بالأمر الهمايونى الكريم، واتخاذ الدفاتر المذكورة دستورا للعمل، بادر الدفتردار وسائر الموظفين إلى التعهد بأداء ما وقع من العجز والنقص من أموال الخزينة العامرة، وسائر الإيرادات والمصروفات في عهد القائمقامية، وقام الوزير المكرم الذى صار مظهرا لنص الآية الكريمة (قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) بامتثال الأمر السلطانى وإطاعة ظل الله فى أرضه حسب قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم). وبما أنك أيها الوزير عليم بأن طاعة أولى الأمر وامتثال أوامر من يتولى أمور الدين والدولة، فرض وواجب، وأن مخالفة ذلك مخالفة للشرع، فعليك من الآن فصاعدا اجتناب التغيير والتبديل والتحريف والتأويل فى الأمور المذكورة، وإياك وعدم الانصياع لقبول فحوى الآية الكريم (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم)، فى شأن صرف المرتبات والإنعامات الممنوحة من الأعتاب السلطانية السامية لفقراء الحرمين الشريفين والمشايخ الكبار... أموال مصر المحروسة التى هى مطبخ زراق الألم ومنبع معايش بنى آدم مدى الدهور والأمان، فإن تلك الرواتب والمخصصات صدقة لاتنقطع.

وبموجب الفرمان العالى والأمر السلطانى واتفاق آراء الوزير المكرم والأمراء الذين ورت أسماؤهم فى هذا الكتاب وسائر أمراء مصر المشهورين وأعيان الديوان وأغواته، قد أودعت دفتر إيرادات الأقلام المصرية ومصروفاتها مع هذا الكتاب برج الخزينة لكى تكون دستورا صالحا للعمل، يرجع رليه لدى الحاجة... (إلى أن قال باللغة العربية).

تحريرا فى اليوم الخامس من شهر شوال سنة ١٠٨٢ اثنين وثمانين وألف بعد الهجرة الأحمدية ﷺ.

صورة إمضاء مولى مصر أعنى حضرة أبو المال اسحق زادة أفندى الشهير. مافيه من تكميل خزانة المال وختمها بخاتم التصديق من عدول الرجال. وقع عنه العبد المنكسر البال، الفقير إلى ربه ذى الجلال، أبو الفلاح محمد الصالح بن اسحق القاضى بمصر المحروسة دامت دار الأمالى والأمان، عفى عنهما ربهما يوم الحساب والسؤال. تم هذا المكتوب فى شهر شوال.

فى بيان لهجة المصريين الخاصة

من المعلوم أن لأعيان وأشراف مصر اصطلاحات وعبارات مختلفة. ولكن أغلب أهل مصر من الشراكسة الهاشميين والأبخاز القرشيين، وقوم الصدشة والجورجيين والمكرل وداديان، والاجقباش والروس، وأقوام أخرى لممالك مختلفة.

وشاء الله أن يأتى إلى مصر هؤلاء الذين سلف ذكرهم وتوافدوا عليها بعضهم إثر بعض. وقد بيعوا فى مصر كما بيع يوسف الصديق. وكل منهم آل إلى أسرة حاكمة. وتعلموا، ومنهم من تبوأ منزلة رفيعة وأصبح عزيز مصر. وبما أن مصر بلاد العرب ترك كل منهم لهجته الخاصة وتكلم العربية. ولكن بما أن لغة الأبخاز والشراكسة لغة صعبة كانت لهم اصطلاحات وعبارات تمتزج فيها العربية والتركية، ولكن عباراتهم واصطلاحاتهم هذه لا تستخدم فى ديار أخرى ولكنها تستخدم بين أهل مصر، لا يستخدمها سواهم من أهل البلاد الأخرى. إنها اصطلاحات خاصة بأهل مصر وهذا بيانها:

أولاً: (رغيف) بمعنى الخبز، و(حَدَ الله) يعنى الله الواحد، و (الله ستر ايده) بمعنى حفظ الله، (فطور ايده لم) بمعنى لنتناول طعام الفطور، و(بيورك غدوه ايده لم) بمعنى لنتناول طعام الغذاء. و(عشوه ايده لم) بمعنى لنتناول طعام العشاء، و(أبرار اولدى)

بمعنى صعد الآذان فى أول ليلة من ليالى رمضان. و(سلام أولدى) بمعنى أذّن للفجر. و(نيل وفا ايتدى) بمعنى فاض النيل على ما يرام. و(نيل وفا اتمدى) بمعنى لم يفض النيل. (غشيم) بمعنى ناقص التجربة. و(دويدار) بمعنى نائب أحد رؤساء الشرطة و(وجندى) بمعنى سيد. و(سجان) بمعنى السجّان، (موقع ديوان كاتبى عرفات) بمعنى عالم بقواعد الديوان، و(فرّاش) بمعنى كناس البيوت، و(ربّال) بمعنى كناس الشوارع، و(حمّار)، و(جمّال) بمعناهما فى العربية وكذلك (طباخ)، و(كاشف) بمعنى حاكم، و(والى) بمعنى رئيس الشرطة، و(حاجب) بمعنى بواب، و(قوّاس) بمعنى خادم يحمل القوس، و(مقدم) من يتقدم الحاكم فى سيره، و(نايب غيبه) من يرعى أمور الوافدين من الخارج، و(قلجدار) بمعنى من يحمل السيف ويمشى أمام الحكام، و(رُوشنبًا) بمعنى رئيس النواب. وهى صحيحة لغة. و(ركابدار) بمعنى يركب جواد الحاكم ويسير فى ركابه ويخدم فى سماطه، (استَدَار) بمعنى من يذوق طعام السلطان. (حاصِل باشى) بمعنى رئيس الطهاة، (حاصل) بمعنى مخزن الأطعمة. (مرشد) بمعنى حاكم القرية، (شيخ البلد) هو حاكم فلاحى القرية. (فلاح) بمعنى مزارع، (غفير) بمعنى حارس، (تَخْطِير) بمعنى نشر البذور، (عاطل) بمعنى قرية لا محصول لها. (شراقى) بمعنى قرية أرضها يابسة لا تروى، (راى اولمش) بمعنى قرية مروية. (كَفِردن فائض كَلدى) بمعنى ورد مال من القرية. (شومنَه) بمعنى مخزن القمح (جرافا) هو الصندوق الذى تجره الثيران لجرف التراب. (نُورُج) هو نصال المحراث التى يدك بها القمح فى البيدر. (جُورُون) بمعنى بيدر القمح، (غِلال) بمعنى القمح والشعير والفول. (حِنطة) بمعنى القمح. (رِزْقه يَرى) الموضع الذى تلقى فيه البذور أى الحقل. (قمح) بمعناه فى العربية. (عَليق) الوجبة من الشعير. (جرايه) بمعنى وجبة القمح. (فدّان يرَى) بمعنى الأرض ذات الكلأ. (مُحْتَكِر) بمعنى خازن السلع للغلاء يعنى القحط. (مُسبب) بمعنى مربح. (فُودْ ايتدى) بمعنى اتم وأنجز. (غَلْق ايتدى) بمعنى أغلق. (ارقِ خانه) بمعنى سجن المدنيين. (دَيلَم) السجن الخاص بقاضى العسكر (والى ديلمى) بمعنى سجن رئيس الشرطة. (شيال) بمعنى الحمال. (نشّال يان) بمعنى من يقطع الجيوب للنشل. (نصّاب) بمعنى

محتال. (مَمْـلوك) بمعنى عبد. (مماليك) بمعنى حرس الحدود. (طواشـى) بمعنى خادم القصر، (وكالة) بمعنى مكان مبيت الغرباء. (راَب) بمعنى حجرات المتزوجين، (سُطوح) بمعنـى سطح المنـازل. (مواليس) بمعـنى المنافق. (خـورده) بمعنى إدارة الـرسومات أى الجمرك. (غيَالـه) بمعنى القيلولة أى النـوم فى وقت الظهيرة. (كحك) تعـنى الكعك. (بُقصماط) بمعـنى البقسماط. (قَراقِيش) بمعـنى غريبة تصنع بالسمـن. (مُطَبَّق) نوع من الرقاق يصنع بالسمن (بنى بهتيل ايتدى) بمعنى ضربنى ضربًا مبرحًا. (بنى وتَاه ايتدى) بمعـنى جرحنـى. (بن أوُوزْميـم) بمعنى: أحـتاج إليـه. (يا حضـرى) بمعنى يـا مولاى السلطـان. (يا نظرى) بمعنى يـا عينى. (توت) بمعنى رأس الـسنة القبطيـة. (خماسين) بمعنى أيام القيظ الشديد فى مصر. (مُلاقه) ما بين قرية وأخرى. (لَمْلوم) بمعنى العاصى الذى كون له أتباعًا. (بُوغ ايتدى) بمعنى سلخ جلد أحد، وحشاه تبنًا وأرسله إلى ديوان (شرانى اتدر) بمعـنى جواد جموح. (بَطْران اتدّر) بمعنى جواد كـسلان أو بطىء (طرعه جرف ايتدى) بمعنى جـرف الترعة. (قمين) بمعنى هطول البرد. (عـمال) بمعنى عمال. (بنا) بمعـنى بناء. (غَرامه) بمعنى ما يـدفع تغريمًا أى غرامة، (شَرْمُوط) قـطعة من شىء قديم. (ماى بالى) بمعنى هكذا الأمر فلا تحـزن. (ما له أوطور دى) بمعنى تعهد أن يسد دينه، (   )[1] من رجل إلى رجل. (بَـرْطيل) بمعنى رشوة، (باشمـزه شبكه اولدى) بمعنى بلاء لحق بنا. (استحالدر) بمعنى كوفئ. (كلفه وردى) بمعنى عين النفقة.

أوصاف العلماء السادات الكرام نقباء الأشراف

إن السيد برهان الديـن الرومى هو سيد نقباء الأشراف. إنه من العـرق الطاهر لسيد برهـان الدين فى مـدينة «اكـردر» بإقليـم حميـد. وكم لأجداده الـكرام من معـجزات وكرامات ظاهـرة وباطنة. وقد سكـن مصر سبعين عـامًا وهو صاحب أسـرة غاية فى الكرم. ورحـالة العرب والفـرس والترك، والذين قـدموا من الهنـد والسند وسمـرقند وبخارى كانوا ينزلـون ضيوفًا على داره أو شرفوا بصحبته والتـحدث إليه. وأصابوا من

(١) بياض فى الأصل.

نعمه، ونالوا من الإحسان والإنعام. وقرر لهم أنواعًا من الخرقة يلبسونها. وكان منهم من يقيمون فى ضيافته العام والعامين دون أن يستثقل منهم ضيافته. وكان على الدوام يردد هذا المصراع من الشعر: «تعال إلى دار أملك دون كلفة».

وكان فى مجالسه على الدوام يبحث المسائل الشرعية والحقائق العلمية وكان له نواب عنه فى سبعين جهة. أما إيراده الذى كان يصله من شهر إلى شهر فكان ينفقه صدقة على أنه مرتبات عدا قضاء الخانقاه فكان له. وكان له مدرستان وسبع نظارات. كما كان له قرى تدر محصولاً وفيراً. وكان تحت رياسته فى مصر ستة وأربعون ألف من ذوى الحسب والنسب. وفى أيام الموكب كان يخرج لاستقبال الباشا هو وأتباعه ويرفعون علم رسول الله ﷺ وتحته عمائمهم الخضر وبذلك الطريق أشبه شىء بأرض مخضوضرة. ومن شعشعة النور المحمدى كان هذا العلم يتموج. وكان جميع السادات يمتطون جيادهم متحازين مراعين الأحكام المحمدية.

ولقد ذكرنا على وجه الإجمال طوائف جند مصر وعلماءها وأمناءها وإدارات الملتزمين والكشافين. ولكن سوف نتحدث عنهم فى موضعه على وجه أفضل.

سكن السلطان سليم عليه الرحمة والغفران مدينة مصر ودمياط ورشيد والإسكندرية تسعة أشهر بتمامها. وقد ذكرنا هذا آنفًا على ما ينبغى أن يكون. وتحدثنا عن الجند والعلماء والصلحاء وذلك طبق قانون السلطان سليم فى كل تفاصيله. وقد ضيف العلماء وكبار أولياء الله وأحسن إليهم، وشرف بدعائهم له وسمح لهم بالسفر إلى بلاد الترك، كما زار أضرحة الأولياء. وأمر بختم القرآن الكريم مائة مرة فى مشهد الإمام الحسين فى يوم واحد. وكان يطلب المدد من أرواح جميع الأنبياء والأولياء.

بعد تسعة أشهر خرج السلطان سليم من مدينة مصر إلى العادلية فى موكب عظيم وأولم وليمة عظيمة لجملة أعيان مصر فى الديوان، وجعل كمال باشا زاده على يمنته والوزير المكرم خيرة بك باشا على يسرته وأمر أن يقبل كل منهم الآخر، ثم قال: «لقد جعلتكما أخوين فى الدنيا والآخرة، وجعلتكما حاكمين على مصر وفوضت أمرها إلى الله. وملكتكما أنتما وأعيان مصر أمانة الله». وسلم كمال باشا زاده لأشراف وعلماء

مصر، وسلم خيرة بك لأعضاء الديوان وقرأ الفاتحة وفوض كل الأمور إلى خيرة بك.

وفى شهر المحرم من عام ٩٣٣ غادر مصر إلى الأستانة. وكان خيرة بك على نية الخروج معه إلى غزة فقال له السلطان سليم: يا وزيرى خيرة بك إذا كنت ترى فى مصر خيرًا فعد من العادلية. لمن تترك الديار المصرية التى فتحت حديثًا؟ افتح عينك ولطمه!. فعاد خيرة بك. وفى الطريق الذى سلكه السلطان سليم إلى الشام فرش خيرة بك الحرير تحت قدميه مرحلة بعد مرحلة وبذل المطعوم والمشروب وقدم الهدايا. وفى الوقت الذى وصل فيه سليم خان إلى الأستانة أصبح خيرة بك يتولى الحكم.

ولقد فرق خيرة بك ما عين السلطان من محافظين وكذلك كل ما فى مدينة مصر من جند الروملى والأناضول. وحتى لا تقع الفتنة ومن صالح مصر حشد جند الإسلام فى قلعة قره ميدان وطوابق القلعة الداخلية السبعة. فعم الاستقرار والطمأنينة مصر. ولم يستطع أى شخص أن يتجاوز حده. وقد أقام خيرة بك العدل فى مصر وحكم بالحكمة والرأى الصواب. وتوثقت الألفة بينه وبين المصريين، وكانوا جميعًا يقولون: «الله ينصر السلطان خيرة بك». وحقيقة الأمر أنهم إذا سموا وزير مصر سلطانًا فلهذا وجهه وسببه ولكن شريطة أن يكون فعله عين قوله. وإذا ما عزل وزير مصر فى النهاية وخرج سالمًا فهذا هو الملك بتمام معناه. وسوف نذكر شروط مغادرة العمل بسلام فى موضعه بإذن الله.

وأقام خيرة بك جامعًا عظيمًا على الطريق العام عند باب الوزير. ولا يزال الآن قائمًا يسترعى النظر بجماله. ولقد وُزِّر خمس سنين وشهرين، وأدركته الوفاة فى عهد السلطان سليمان. وهو مدفون أمام محراب جامعه. وطبقًا للقانون نظارة الجامع لوزير مصر. وفى مصر الآن يبنى جميع وزراء آل عثمان جوامعًا تحت نظارتهم. وسوف نتحدث عن جميع مبراتهم ومؤسساتهم الخيرية فى موضعه بإذن الله.

* * *

الفصل الحادى والعشرون
ذكر أول من بنى قلعة مصر المحروسة
وجميع من أقام المبرات وكل الأبنية العظيمة فيها

إن أوصاف مصر ـ عمرها الله ـ مدونة فى الآلاف من كتب التاريخ ولكنى أنا أوليا الرحالة قليل البضاعة وكثير السياحة دونتها فى اختصار. ففى هذه الدنيا الفانية كم من دول بقيت، ومصر قدر ضئيل منها. وأول من بناها هو نقراوش بن غرباب بن شيث بن آدم وبعد الطوفان أعاد بناءها سيدنا حام بن نوح وابنه بيطر. وما بنى فى ذلك العصر هو مصر القديمة. وإن كانت مصر اسم جميع البلاد إلا أن اسم مصر أصبح علمًا لأن أحد بناتها نقراوش وقد سماه سيدنا آدم مصرايم ولذلك سميت مصر. أما اسمها الأول فى اللغة العبرية «مقدونيا»، وفى اللغة السريانية «افسوس»، وفى اليونانية «الفسطاط»، وفى اللغة القبطية تسمى «مصرايم»، واسمها بين الناس «أم الدنيا»، وفى اللغة العربية تسمى «القاهرة المعزية» لأن المعز لدين الله القاهر خرج من بلاد المغرب واستولى عليها عنوة قهرًا من أيدى الإخشيديين عام ٣٥٨. وكانت هذه المدينة فى الزمان الخالى عامرة وكان عمارها على شاطئ النيل بقدر مسيرة ثلاثة أيام. وقد اغتر فرعون بامتلاكه مصر وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] حاشا وكلا. وقد حارب سيدنا موسى عند موضع من بحر السويس يسمى مضيق «قولوندر» وقد غرق هناك وقد عصفت ريح قهر ببلاده وعرشه فى مدينة منوف ولهذا سميت القاهرة. وجاء بعده كثير من الملوك والسلاطين وعقدوا العزم على تعميرها وأعادوا بناء عرش فرعون فى منوف وهى مدينة صغيرة فى حجم القصبة.

وقد عمر الملك «طوطيس» وهو من أجداد الملك المقوقس مصر القديمة أى مدينة الفسطاط. ولما كانت فى حوزة القبط تحالف اليونان والفرنجة فى عام ٢١ وأثناء فيضان النيل المبارك استطاعوا دخول مصر فى ألفى سفينة شراعية من مضيق رشيد ودمياط وأغاروا على مدينة المنصورة حتى وصلوا إلى مصر القديمة ناهبين سالبين واستولوا على

عدة مئات من خزائن مصر، وساقوا القبط جماعات جماعات من الأسرى وكأنهم بحر وبسطوا سيطرتهم على مصر القديمة، وجعلوا مصر وقفًا على كنيسة آيا صوفيا، وأدى القبط الجزية للروم.

وفى الجانب الشرقى لمصر القديمة على بعد ساعة من جبل المقطم جبل الجوشى[1] وجبل بجايم وجبل تَقاطع والجبل الشرقى وجبل المقطب[2] أى جبل قطب الأقطاب وجبل لوقان وجبل حِجان. أما الناحية الأخرى من النيل فجبال الجبل الغربى وجبل جُزام وجبال الهرمين. وبين هذه الجبال المذكورة إلى بلاد الفونج والبربر والنوبة فطرفا النيل ضيقان. وبعض أراضى النيل فى صعيد مصر واسعة وفيها تجرى مياهه التى تأتى من جبال القمر فى الجنوب.

وعندما يصب النيل فى البحر الأبيض عند الجهة الشمالية فى فرع رشيد وفرع دمياط توجد كثير من الصحارى الواسعة وبها جبال لا تحصى كثرة.

ولكن الجبال الواقعة فى شرق مصر ومنها جبل المقطم وجبال الجوشى يصدان عن مصر ريح الصبا. وهذا الجبل حينما تكون الشمس فى الأفق يصد نورها عن مصر وبذلك تصبح مصر كأنها سرداب مظلم بعد طلوع الشمس بساعتين ولذلك أقام القبط فى هذين الجبلين مغارات سكنوها ثم بدأوا بعد ذلك فى تشييد مصر الحديثة ثم جاء إلى مصر ملوك الإسلام. وبعد عمرو بن العاص جاء بنو أمية وبنو العباس والفاطميون. وجملة القول أنه جاء إليها الملوك السالف ذكرهم ولم يرغبوا فى الإقامة فى مصر القديمة وقد عمروا جميعًا مصر.

أما أنا فقد أقمت اثنين وثلاثين عامًا فى بلاد سبعة عشر من الملوك وطوفت فى جبالها وتلالها، وكانت المملكة الثامنة عشرة والتى قدمتها هى بلاد الكعبة الشريفة وهى مقصد الناس كافة، ولله الحمد فى عام ١٠٨٢ حججت وطوفت. ثم قدمت مصر وكانت الدولة التاسعة عشرة ولله الحمد فقد أصاب سهم رغبتى غرضه، ودخلت القاهرة وذات يوم أردت أن أغير الجو وأستروح فأمسكت على عنان اختيارى وامتطيت

(١) وهو ما يُعرف باسم جبل الجيوشى. (٢) أى: جبل المقطم.

المطايا وشاهدت مصر القديمة التى تسمى الفسطاط ومقدونيا ومصرايم وأم الدنيا والقاهرة المعزية وهى شوق الملوك وكانت قصتها فى الزمان الغابر حديث الأصدقاء وطبقت شهرة آثارها الآفاق.

حكاية مناسبة

وفى ذلك العصر سأل رحالة شخصًا قائلاً: يا أخى من أى بلد أنت؟ فقال الرجل خفيف الظل له: أنا مصرى، فقال: من أى حى فى مصر؟ فرد قائلاً: أنا من حى بغداد، فقال السائل: أيها الظريف إن بين مصر وبغداد صحراء تمتد مسيرة ثلاثة أشهر. فقال الرجل إن ما ذكرتُه هو الدنيا بل إن مصر أم الدنيا. وإن ولايات بغداد والبصرة واليمن وعدن والصعيد وأسوان والسودان كل منها حى على أطراف مصر. حقًا إن ما قاله الرجل هراء.

فمما يروى أن خليفة بغداد كان يستمع إلى تاريخ مصر وعندما علم أن فرعون مصر ادعى الربوبية فقال: إن فرعون الذى يحكم مصر وهى فى حجم البليدة ادعى الألوهية ترى ماذا كان سيدعى لو أنه ملك بغداد التى هى جنة فى الأرض وقال إن مصر تعد حيًا من أحياء بغداد.

وبناء على تواريخ اليونان فإن مصر أول بلد على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والأخرى بغداد والصين وعراق الداديين. وهذه المدن الأربعة تشكل السواد الأعظم من العالم ولكن مصر لوقوعها فى وسط الدنيا كانت عظيمة العمران. والآن ليس لها من نظير على وجه الأرض. إلا أنه فى عام ٩١٢ فى عهد الشراكسة بسبب عصيان جنودهم وطغيانهم وتمردهم سمحوا لهم أن يتجاوزوا الحد فى ظلمهم وأن يخربوا عمائرها وأسواقها فأصبحت مصر خرائب وتراب ورمال هنا وهناك. وأصبحت مصر القديمة مأوى للبوم والوطاويط. وبمرور الأيام والقرون أصبحت المدينة كأنها شيخ فى السبعين. ولسان حالها يتحدث عنها وكانت على نقيض ذلك من قبل فى غابر الأزمنة. وعلى شاطئ النيل وعلى مجرى السيل مدينة الفسطاط المسماة بمصر القديمة وكانت هناك قلعة عظيمة. وكانت مدينة هى نادرة الدهر وكم كان بها من خانات وحمامات تخربت

وانتقلت من يد إلى يد. وهى مدينة قديمة لـها أخبار وحكايات لا تنتهى. وأراضيها فى خارجها وداخلها مكتظة بالغرائب والعـجائب والطلاسم والكنوز والرموز وهـى أحسـن إقليم، وهـى كـثيرة الخيرات والقـرى وحدودهـا الجـنوبيـة تنتهى عند قـلعة صاى بعد أسوان على مسيرة عشـرين مرحلة وهى مشاع مع سلطان بلاد الفـونج وتنتهى حدودها الشمالية بقـلعة الإسكندرية على ساحل البـحر. وتنتهى حدودها من ناحية الـقبلة عند الكعبة. ويحدها من الغرب اوجله وهكذا هى بلاد تقع فى إقليمين.

وفى أرض مصـر هذه كنوز ودفـائن عظيـمة وخبايـا كثيرة. ولـقد جاء فى بـعض الروايات أن موضـع فيها لا يخلو من كـنز خفى. ولأن مذهب أهل مصـر أرضى فهم يدفنـون كل أموالهـم فى الأرض. وبما أنى مواطـن والى مصر كتـخدا إبراهيـم باشا، سكنتُ مع أغوات البـاشا فى برج واقع فى مكان يسمى «مرتع المـفلسين» وخرجت من مسكنـى فى السحر ووقعت فـتنة وشغب أمام مبنـى الجاويشية جرح فيـها عدة خدام. وسألت عن سبب ذلـك فقيل لى ربما عثروا هذه اللـيلة فى هذا المكان على كـنز وبينما كانوا يحـملون الكنز سـقط منه ذهب كثيـر على الأرض. وتصادف مرور خـدام التتار (ناقلوا البريد)، والحمّارة ولم ينالوا نصيبهم من الكنز فكان ذلك سبب العراك الذى وقع بينهم. وبمجرد أن وصلت فمماليكى كالذئـاب الجائعة جعلوا يبحثون بين الناس فوجدوا مائة وسبعين ديناراً من ذهب. وعدنا إلى مسكننا. ورأينا الكنز فى الصباح فوجدنا حفرة الكنز تتسـع لخمسة رجال وكان الكنز كـنزاً عظيمًا. ومن الحق قولنا أن لـيس فى مصر موضع يخلـو من كنز. وهذا الكنز كـان من الذهب الخالص. وكان كل ديـنار منه يزن ثلاثة مثاقيل وكتـب فى طرف الدينار الصلاة الـشريفة وكلمة الشهادة. وفى أحد جوانبه كتب اسم الخليفة المأمون ـ عز نصره ـ ضرب فى مصر.

وفى الجانب الغربى لمصر بعد النيل جبال جالوت وفيها المنارات التى تقاتل فيها داود مع جالوت، وتسمى هذه الجـبال كذلك جبل التقاطع وكذلك يسمـونها جبل الجُوشى. لأن الشيخ الجوشـى مدفون فى مسجد فى ذروة ذلك الجـبل. أما سبب تسميتـها بجبل التقـاطع أن هذه الجبال تقـطع القلعـة الداخلية لمـصر من داخلها ولـهذا سميت بـجبل

التقاطع. وتسمى كـذلك جبل بجاميم وكان يسكنه فى الزمان الخـالى قوم بجميم وهذا الجبل يمتد من مصر إلى طرفها الجنوبى علـى بعد مسيرة أربعين مرحلة من أسوان وتمتد سلسلة من الجبال بين جبال الأهرام وجبل المقطم ويمر من بين هذه الجبال نهر النيل.

إقامة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب شادى الكردى

قلعة مصر

فى عام ٥٧٢ كان يوسف صلاح الدين وزيرًا للخليفة نور الدين الشهيد فى دمشق. ودخل الأسبان المـلاعين مصر من مضيـق دمياط فى وقت فيـضان النيل بألف سـفينة، واستولوا على المنصورة وبدأوا فى نهب وسلب جوانبها الأربعة. فتظلم خلفاء العباسيين من مصر نور الدين الشهيد فأمَّر نور الدين صلاح الدين يوسف على ثمانين ألف جندى ليدخل مصر ولما بلغ مـصر أباد الكفار جميعًا. ولأنه انتصر فى المنـصورة سميت المدينة بالمنصورة وكان اسمها قبل ذلك «ريحان» ثم خلـص دمياط وقلعة «التينة» من المغيرين. ولما قدموا مدينة مصر سالمين غانمين كانت الثورة تعم مصر ولما كان صلاح الدين رجلاً مسعودًا مدبرًا جعلوه خليفة عليهم. وسمع بذلك نور الدين فاستعدى صلاح الدين إلى دمشق فاختلق صلاح الـدين مختلف المعازير فلم يمض إلى دمشـق. ولم يضرب السكة ولم يـذكر اسمه ولا اسـم سيده فى دمـشق فى الخطـبة بل جـعل الخطـبة تتلى بـاسم العباسيين. وفى تلك المرة اشتد استياء نور الدين من صلاح الدين وهذا ما عرفه صلاح الدين ولشـدة مخافته منه أقام قـلعته الداخليـة حول القاهرة فوق جبل المـقطم، أحاط جوانب المدينـة الأربعة بسور طوله تسعـة وعشرون ألفًا وثلاثمائـة ذراع. وأنشأ مدرسة بالقرب من ضريح الإمام الـشافعى. وحارب كفار الفرنجة ثانية في مـرج العيون وانتصر عليهم. وفى ذلك الوقت توفى نور الدين الشهيد فى دمشق فأغار عليها من مرج العيون واستولى على جميع خزائنها وكنوزها وضم دمشـق إلى ملكه واستقل بمصر ملكًا عليها وانصرفت همته إلى تعمير مصر. حتى أصبحت مصر أم الدنيا كأنها عروس. وجاء بعد صلاح الدين سبعون ملكًا كذلك وكل منهم عَمّر مصر وهى الآن شوق الملوك.

وأنا أجرى على مصر أوصافها بناء على علمى بها والله المستعان.

أولاً: وصف قلعة مصر الداخلية

تقع القلعة الداخلية لمصر فى الجهة الشمالية من أنف جبل المقطم وهى قلعة جميلة على ربوة منتصبة. ومن جبل الجوشى إلى القلعة موضع للمدافع وما بينهما واد من مائتى ذراع فيه حفر وأحجار. وجميع من ينحتون فى الولايات ينحتونها مثل فرهاد ويحفرون الخنادق. وبين القلعة وجبل الجوشى أرض كثيرة الحجارة وعند حصارها لا يمكن اختراق حواجزها. وهذه القلعة الداخلية قلعة شامخة تبعد عن الجانب الشرقى للنيل ألف وخمسمائة قدمًا. (وجوانبها الأربعة شديدة الانحدار ذات صخور بيضاء) وباب جدارها ثقيل وبناؤها يرتفع ثمانين ذراعًا. وهذه القلعة التى أقامها صلاح الدين هى حصنه الحصين وسده المتين تسمى «زَرْ ابَاد» أى منجم الذهب. ويرجع السبب فى تسميتها بهذا الاسم إلى أنه حينما شرع صلاح الدين فى حفر أساسها رغّب إليه المنجمون أن ينثر الذهب فى أساسها وأن ينثر الذهب كذلك فى برجها.

وهذا ما ظهر لهم فى الطالع الميمون ولما نثروا الذهب فى أساسها عند بنائها سموها قلعة «زر اباد» بمعنى «منجم الذهب» وهذا ما ذكره جميع المؤرخين. لأن مصر منجم الذهب. ولقد بنيت القلعة على شكل مخمس بناء على ما أشار به علماء الفلك. ولأن الشكل المثلث لايخلو من الفتنة والفساد لأنه يجلب النحس. لذلك بنيت القلعة على شكل مخمس ولكن العبد يدبر والله يقدر، وشاء الله أن يكون بناؤها على شكل مخمس ولكن طالعها كان نحسًا. فما سكنت فيها الحروب والفتن فى كل عام. ومن باب مطبخها إلى برج أغا الانكشارية (يوجد خندق كأنه بئر). وأساسها بتمامه قائم على الصخر. ويحيط بالقلعة اثنا عشر برجًا وهذه الأبراج هى البرج الشرقى والبرج الغربى وبرج الأغا وبرج الباب والبرج المسطح وبرج الفرنجة وبرج صلاح الدين وبرج المعمار، وهذه الأبراج بديعة الزينة والزخرفة وكل منها يتألف من ثلاثة طوابق ويتسع كل منها لألف رجل. وكل برج من هذه الأبراج حصن قائم بذاته يتألف من ثلاثة طوابق، وفى أحد هذه الطوابق حجرات الانكشارية عند باب الشيخ سارى. وعددها

أربع وأربعون حجرة ولا وجود لشيء آخر ولها باب يطل على الغرب. وحجم هذه القلعة ستمائة قدم وعدد أسوارها ألفان وستون ويتصل بها قلعة داخلية أخرى. ويتوسط هذه القلعة جامع الشيخ سارى ومسجد الشيخ وزاوية الجاوش وزاوية الكتخدا وإدارة الأغا ومخزن البارود خانه ودار الضرب والطوبخانه ومصنع المركبات وحمام القلعة وثمانمائة بيت صغير قديم وسبعون دكانًا. ولهذه القلعة ثلاثة أبواب إحداها فى الجانب الغربى. وهناك بابان من طبقتين من حديد بين برجى القلعة، وفى الوجه الداخلى لهذه الأبواب مدافع من حديد طول الواحد منها ثلاثون شبرًا. وفى نهاية مصنع المركبات مدفع آخر. ويتصل بدار الضرب جدولان للماء وكل من فى القلعة فى حاجة إليهما. ولهذه القلعة باب يفضى إلى ميدان أغا الانكشارية ويطل على الناحية الغربية. وديوان جميع الانكشارية أمام هذا الباب، وله عتبة من القيشانى الصينى. وثمة باب آخر هو باب صلاح الدين وبينما كان يفتح فى الصباح كان يحضر جميع نوابه وبيت «المالجى» أى القائم على أمر بيت المال وجاويشيته الستة وجميع بوابيه وبعد دعائهم له يفتحون الباب، إنه يتألف من ثلاث طبقات من الحديد. وعند دخول القلعة بين هذين البابين على الجدار فى الجانب الأيمن، تواريخ الملوك السابقين على أربعة ألواح من الرخام والتاريخ فى أعلاها هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أمر بتجديد القلعة المباركة سيدنا ومولانا السلطان مالك الملك العادل صاحب الدنيا المصرية والبلاد النامية والقلاع السواحلية والأقطار الحجازية سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم والسد والعلم السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عزّ نصره سنة ست وتسعمائة).

وعلى لوحة رخامية أخرى تاريخ قايتباى. وعلى لوحة أخرى من الرخام تاريخ برقوق الذى دون سنة خمسمائة وستين. إن هذه القلاع الثلاثة المنفصلة قلاع صلاح الدين.

ولكن فى عهد السلطان سليم وزّر أول ما وزّر خيره بك وكان ذلك عام ٩٢٣ وقد دام حكم خيره بك خمس سنون وشهرين واثنين وعشرين يومًا وتوفى فى عهد السلطان سليمان وأسندت الوزارة إلى «بلاق مصطفى باشا» ثم أسندت إلى أحمد باشا الخائن. ولما شغل السلطان سليمان بحرب المجر اغتنم أحمد باشا الفرصة وفكر فى الاستقلال بحكم مصر وحشد حوله جميع الشراكسة الذين نجوا من حرب السلطان سليم وشق عصى الطاعة وأعلن التمرد والعصيان. ولما نمى الخبر إلى السلطان سليمان بعث إليه بجيش فى البر والبحر كما أرسل الوزير الأعظم إبراهيم باشا «المقتول» فى ثلاثمائة من سفن الأسطول العثمانى. ولكن جرى قضاء الله بألا يكون الحظ مواتيًا فاشتد عصف الرياح فاضطر الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى الناحية البرية وحشد عتاده من جديد وعندما قدم مصر فى جيش عظيم أقام العدل فى الناس وأخذ على يد الظالمين. وعمت الثورة أعيان الديوان فى مصر وكذلك الأشراف وكبار الأعيان وقالوا: يكفينا ما أصابنا من بلاء فى حرب السلطان سليم ولا يجب أن نحارب من أجل خيانة أحمد باشا هذا. نحن لا نريده. وقبضوا على أحمد باشا الخائن وصلبوه على باب زويلة وعاد الاستقرار والطمأنينة إلى مصر.

أوصاف قلعة نارن والقلاع الأخرى

قدم إبراهيم باشا مصر وقد قال جلالى مصطفى چلبى تاريخًا: هو وزير عادل عمّر مصر، لكنه حكم سنة واحدة عام ٩٣١، وأقام قلعة إضافة إلى القلعة الداخلية. وهى الآن تسمى قلعة السلطان سليمان. والقلعة التى أقامها إبراهيم باشا تتوسط قلعة صلاح الدين وهى قلعة فخمة جميلة على شكل مربع، تزدان بها المدينة وهى تضيف للقلعة المناعة ومحيطها ثمانمائة قدم. وهناك برجان يطلان على الناحية الغربية وبينهما باب حديدى من طبقتين وفى ركن منها بنى برج شامخ من عشرة طوابق يشبه برج «غَلَطَه» ولا يستطيع مهندس آخر أن يبنيه، وهذا البرج كثير الزخارف وفى أركانه مزاغل، وقبته عظيمة الارتفاع مكسوة بالرصاص الأزرق ولا وجود فى هذا البرج إلا لمال السلطان وكله تحت الأرض. وما يحصله الدفتردار من مال يضعه فى هذا البرج.

وخارج القلعة لا وجود إلا لمقر محافظ القلعة والكتخدا والإمام والمؤذن وزاوية ومخزن وصهاريج الماء ومقر محافظ القلعة من طائفة الانكشارية وهو فيها ليل نهار. وخارج خزانة البرج هذه بنى سور ركين للقلعة من طابق أمام جامع قلاوون. كما أقام على جانبيه برجين شامخين، وثمة برج عظيم هو برج المِهْتَرخَانَه، وهو من عشرة طوابق، ويقيم بداخله جميع أفراد المهترخانه، وثمة برج آخر يطل على قصر إبراهيم باشا، وهو يسمى باسمه وهو برج متين ركين وطوله ألفا قدم. وثمة برج آخر هو برج المخزن وهو كذلك مواجه للقصر. وبرج آخر مسدس الشكل فوق بئر يوسف، وهو كذلك مواجه لقصر الباشا.

وجملة القول أنها سبعة أبراج قبابها مكسوة بالرصاص ولكل منها أربعون أو خمسون مدفعًا وكلها تطل على قصر الباشا حتى إذا أعلن أحد العصيان عليه أوردته مدافع القصر موارد الهلاك.

وبناء على هذا الإحصاء ينتهى الحديث عن القلاع المنفصلة ذات الثلاثة طوابق فى مصر.

ولقد حشد إبراهيم باشا فى هذه القلعة الداخلية ثمانية آلاف جندى انكشارى ورمم وأصلح حجراتها ودبر أمور مكة والمدينة وأحصى جميع أوقاف الله وأنفق المال السلطانى فى وجوهه وأسند وزارة مصر إلى «كُورْلُجَه قاسم باشا» ومضى إلى الأستانة. وكان بين باب الوزير والقلعتين مسافة أقام فيها «كورلجه قاسم باشا» سورًا وأنشأ باب قلعة ولذلك يسمون هذا الموضع «باب الوزير» وصنع بابًا حديديًا يصعد ويهبط بمائة قدم ويسمى «دَمِر قَپُو» أى الباب الحديدى. وعلى اليمين باب قلعة منفصلة من طابق واحد، والصعود والنزول يكون من بين أسوار القلعتين. . وثمة باب قلعة من طابقين من الحديد. يفضى هذا الباب إلى ميدان سوق القلعة. إنه ميدان وسيع وتقف فى هذا الميدان خيول أعضاء الديوان. وفى جوانبه الأربعة دكاكين وفى هذا الموضع سور قلعة من طابق واحد. إنه سور مزين مزخرف وله باب حديدى متين من طبقتين ويسمونه «طوب اتان باشا قبوسى» أى باب الباشا الذى يطلق المدفع. وهناك سور قلعة متين يقع بين برج «المِهتَرخَانَه» وجامع قلاوون ومنه تطل جميع المدافع السلطانية على الميدان.

وثمة قلعة من طابق واحد بها مقر أغوات الباشا ولا يسكنه أحد سواهم ولهذه القلعة طريقان رئيسيان أحدهما فى ناحية «كسوه قبوسى» أى باب الكسوه والآخر عند ديوان قلاوون ولا طريق سواهما.

والقلعة ذات الطابقين لها أبواب حديدية كل منها من طبقتين عند عتبة العزب منها باب كبير يطل على «ميدان الروملى»* وجميع البوابين يقومون بالحراسة عليه. وما بين البابين مزين بالأسلحة والدروع.

ذكر قصر قره ميدان وطول وعرض قره ميدان

عندما كان خيره بك وزيراً لمصر أحاط «قره ميدان» من جوانبه الأربعة بسور.. وأنشأ فيه حديقة خاصة بالباشوات ولكن فى قديم الأيام كان قصر «قره ميدان» خاصًا بالسلطان قايتباى وهو الآن بستان من الأزهار والأشجار والنخيل. وكان الباشوات فى كل مرة ينزلون به ويلعبون الجريد وهو ميدان طوله ثمانمائة قدم وفى نهايته حجرات مرشدى الباشا. ولهذه القلعة كذلك من جوانبها الأربعة أبواب حديدية، والسلام.

وبذلك ينتهى الكلام جملة وتفصيلاً عن القلعة الداخلية. وعلى نحو ما أسلفت يكون للقلعة الداخلية بمصر ثلاث عشرة قلعة منفصلة. وعدد أبواب هذه القلاع المنفصلة تسعة عشر بابًا والسلام.

ذكر طلاسم القلعة الداخلية

إن قلعة مصر الداخلية سامقة ذروتها فى الأفلاك وفيها مكان مرتفع يسمى «مرتع المفلسين» وفيه برج عال يطل على مقر العزب. وقد سكنت هذه القلعة سبعة أعوام وكانت لى حجرة أعتزل فيها وأرى منها الدنيا. وتحت كوتى كانت توجد سجادة عليها كتابة وفى وسط هذه الكتابة صورة لطائر بقدر قدمين، وقد بسط جناحيه وله رأسان. وفيما كانت حجرتى ترمم ذات مرة خرجت من النافذة وجلست على ألواح الخشب (السقالة) ورأيت تمثالا من الرخام لطائر لا يستطيع مثال غير صانع التمثال أن يصنعه، وقيل إن تاريخ هذا التمثال يرجع إلى ألف عام. ومع ذلك فحجر التمثال ما زال أبيض اللون وقد لونه المثال فأضفى عليه جمالاً وكأن التمثال ذو روح وله رأسان يلتفت

---

* يقصد ميدان الرُميلة.

أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وصورة هذا الطائر على عملة فضية بولندية. ولا فرق بين الصورتين إلا أن الصنعة هى السحر المبين، وللطائر لسانان، فإذا عصفت ريح الشمال، خرج صوت حزين من لسانه فى رأسه الملتفت إلى الشرق وهذا صوت مخيف وهو صوت نسر. وإذا ما اشتد عصفها خرج من لسان الطائر الملتفت إلى الغرب صوت يثير الرعب وهو صوت اللقلق. أما اللسانان فى هذين الرأسين فأحدهما من النحاس والآخر من الصلب وقد نظرت فيهما وأمعنت النظر فوجدت أن طرف هذين اللسانين من الداخل يشبه السكين، فإذا عصفت الريح حركت اللسانين وكلا اللسانين يطلقان الصوت على هذا النحو فى الريح وفى غير ذلك من الرياح فصوته كصوت العقعق والعقاب. وتحت كل جناح من جناحيه ثقب وإذا ما أدخل الإصبع فيه خرج صوت مخيف وبطن الطائر كبطن رجل بدين وكأن تحت ريشه ثقبًا يتسع لليد. وفيه ورق يحمل خاتمًا يحمل صورة لجندب البحر. وإذا هبت رياح الشمال صدر منه صوت مهلك.

وبعض الأصدقاء سموا هذا الطائر «أوليا جلبى الطائر الذى حط». إنه على الدوام طائر مطلسم عجيب يستحق المشاهدة وهو ظاهر للغادى والرائح من باب العزب وهو معروف لدى أهل مصر جميعًا. وعلى رأس هذا الطائر كتابة من ثلاثة أسطر ولم أر مثل هذا الخط فى بلد من البلاد إلا فى بلغراد عند نهر الطونه على حافة حوض متروك فى خندق قلعتها ويقرر علماء مصر أن مثل هذا الطائر له صفير خاص لا عهد لهم به فى طيور مصر. إنه ليس طائر اللقلق فى مصر ما فى ذلك شك وليس البومة ولا الصقصغان ولا غيرها.. ويا لها من حكمة عجيبة.

طلسم العقرب

وفى القلعة التى سلف ذكرها عقرب إلا أنها إذا لدغت أحدًا لم يصبه أذى وبعد عدة ساعات يشفى من ألمه وهى طلسم ديوان السلطان قلاوون العتيق ويقع فى نهاية أربعة وأربعين عمودًا ولعلها كانت فى أسوان فى الربع المسكون وهذا الطلسم طلسم هذه الأعمدة.

وهو فى عمود على طرف مقر التتار وفى نهايته طوق حديدى وفى هذا الطوق الحديدى صورة عقرب من النحاس وهى معلقة من ذيلها وواقفة وهى الآن ظاهرة.

طلسم الثعبان

وأمام هذا العمود الذى يحمل طلسم العقرب عمود آخر عليه صورة ثعبان وعلى هذا العمود كذلك سطران من طلسم. إنه طلسم ثعبان ولا وجود لطلسم الثعبان الموجود فى القلعة الداخلية الخربة فى مصر فى قلعة شاه ماران. لكنه لا يصيب أحدًا بأذى بإذن الله - إنه حيوان مخيف.

طلسم الحية

وثمة عمود آخر فيه طلسم حية. وعليه كتابة مطلسمة من سطرين والآن لا أذى يصيب الإنسان من تلك الحية.

طلسم الحمى

حمدًا لله فما كان فى تلك القلعة الداخلية فى أى زمان حمى الربع أو الحمى المحرقة. وإذا ما سكن هذه القلعة محموم من بلاد أخرى ثلاثة أيام شفى بإذن الله. وفى نهاية باب «وفقى حلواجى محمد أغا» عمود عليه كتابة مطلسمة من ثلاثة أسطر.

طلسم القولنج

وهو مكتوب على عمود.

طلسم الطاعون

ينسبونه إلى ابن سينا. إنه رحمة داخل القلعة الداخلية لمصر وهو ليس خاصًا ببلد معين. فلا إصابة بالأمراض المختلفة مثل الإسهال وذات الجنب واللقوة والخرّاج. والطلاسم الموجودة الآن مستمرة المفعول ولله الحمد. . والأعمدة سالفة الذكر لكل منها عالم مطلع على أسرارها. ففى العمود الأصفر للقلعة طلسم للعبد الآبق. وآخر للص الهارب وطلسم آخر يشل يد العبد الذى يغدر بسيده. وثمة طلسم فى عمود لكى لا تزنى المرأة. وطلسم يحمى مدينة مصر من الحريق ولله الحمد فهذا الطلسم الأخير مستمر المفعول.

وطلسم على عمود به يهطل المطر أربع مرات فى الشهر، وطلسم لتسلم عيون الصبيان من الرمد.

وجملة القول أن لهذه الطلاسم طلاسم أخرى كثيرة تشبهها على كل عمود ولكى يتعرف بعض الملاعين من المغاربة والهنود والمجوس الباحثين عن الكنوز على موضعها من تلك الطلاسم التى على الأعمدة يبحثون عنها ويجذبون بعض الأعمدة بالوهق ويطرحونها على الأرض ويحكون هذه الخطوط أو الطلاسم بملح البارود والزئبق ويبطلون مفعولها فلا تظهر الكنوز ولا مال الدفائن وينسحبون خاسرين وقد نزلت بهم المحن والشدائد.

والآن منذ ذلك الزمان والبراغيث والقمل والبق يشوى أهل مصر اللهم عافنا ولا وجود فى بلد قمّل إلا فى مصر، وأهلها يكتبون رسائل استغاثة من القمل من بلاد إلى بلاد حتى أنا نفسى كتبت إحدى هذه الرسائل.

طلسم الكَلبَيْن الكَلِبين

وفى مدينة مصر بين قنطرة الحسين وقنطرة الموسكى على الطريق الرئيسى حمام صغير يسمى «حمام الكلب». وفى أساس هذا الحمام قبة صغيرة بها تمثال لكلبين من النحاس وهما ليل نهار يعض أحدهما الآخر. ولا يسمع فى مدينة مصر أن فيها كَلْبًا كَلِبًا رآه أحد. ولذلك يعرف هذا الحمام بحمام الكلب وذلك مدون فى تواريخ القبط.

أوصاف قصر وزراء مصر

هذه القلعة كذلك متصلة بالقلعة الداخلية إلا أن أبوابها تختلف ومفاتيحها فى يد الباشا. ولقد أقام هذه القلعة والقصر يوسف صلاح الدين وكم من ملوك أضافوا إليها ملحقات فصارت قصرًا عاليًا كأنها قصر آل عثمان.

وأول أبواب الديوان باب «عَرْضحالجِيلر» أى متلقو الشكاوى ويدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد دكاكين الخياطين على الجانبين، وبعد باب السبيل يدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد بابين وعلى الجانب الأيمن فى الطريق الخاص بمحافظ المدينة باب صغير وعلى جانبه الأيسر الباب الكبير للديوان. وبعد خمسين قدمًا فى ارتفاع

وانخفاض باب من طبقة واحدة بعده بعشرة أقدام باب آخر من طبقة واحدة وبعبور باب ذى طبقتين يكون الخروج إلى ميدان القصر وهو سهل واسع وهو ميدان محيطه ألف قدم وفى جوانب هذا الميدان الأربعة حجرات أغوات الباشا وجامع «دُهَيْشَة» فى هذا الميدان. وقصر رئيس الديوان وقصر «رئيس الذواقة» و«رئيس الخَزَنة» كل هذه القصور جميعًا تطل على هذا الميدان. كما أن ديوان قايتباى وديوان الغورى وقصر «المُقابَلَه جى افندى»* و«البارودخانَه» وقصر كَتْخدا البوابين والشطّار وحملة البنادق تطل على ميدان القصر هذا.. ويطل على هذا الميدان كذلك باب المطبخ المكشوف وبالدخول منه نواجه بقلعة من طابق واحد هى مطبخ «كِيكَاوسْ» وبالمرور من الباب الكائن فى ميدان على قنطرة وتحته منارة يتم الوصول إلى قصر المُطوّعة وهذا الموضع قلعة أخرى قائمة بذاتها. أما المطبخ فهو قلعة حصينة ولها ثلاثة أبواب وقد فتح البوابون هذا المطبخ للسلطان سليم. وبما أن السلطان سليم ورجاله دخلوا من هذا الباب سمى «باب السليمية».

ومنذ أربعين عامًا دفن أعرابى أعمى تحت هذا المطبخ وكان يقول: «سلطان سليم شُوىْ شُوىْ» وكان ذلك عام ٩٢٣ ولأبنائه راتب من الدولة وطعام دائم من مطبخ القصر، حقًا إن هذا لتاريخ عجب ويقول البعض إن هذا التاريخ جَفْر.

ولكن باب سليم هذا لا يستعمل إلا إذا مر الباشا إلى هذا الجانب أو أن يموت أحد الأغوات أو إذا جد أمر سرى فإنه يفتح.. إنه باب عظيم متين من الحديد، وفى قلعة هذا المطبخ مائة وخمسون مقرًا للطهاة وحمامات صغيرة خاصة وفى زواياهم أئمة مؤذنون. وما فى مطبخ الخليل هذا من النعم ما لم يشاهده بلد آخر. وجريًا على العادة يطبخ فى ثلاث قدور عظيمة ليل نهار الحساء وهو حساء العدس والأرز والقمح وتوزع على جميع الفقراء عدة آلاف علبة وقصعة من هذه النعم صباح مساء، إلا أن ذلك خاص بالفقراء وحدهم. وفى المطبخ مائتا موقد ويطهى عليها فى الأسبوع خمسة عشر ألف صحن. وهذه نعمة عظيمة تمنح فى ديوان الغورى للخواص والعوام ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ

* الموظف المسئول عن مطابقة المسودات والمبيضات فى المحررات أى المراجع.

﴿فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وكأنـها مصنـع عظيـم به مائة طـاهى. وإذا شاهدها الإنسان أخذ منـه العجب كل مأخذ. ويتصل بهذا المطبـخ خارج ميدان القصر مدافع البارودخانه التى تجرها الجياد وعددهـا أربعون من مدافع الهاون. وهى تعمل ليل نهار. والبارود المصرى أشد من البارود الإنجليزى. وفـى الركن القبلى من ميدان القصر مخبز عظيم وله خمسون خادمًا ويصرف كل يوم عشرة آلاف رغيف تعيينًا.

وثمة قلعة منفـصلة أخرى ناحية محافظ المدينة فى ميدان الـقصر، ولها ثلاثة أبواب وهذه الأبواب الثلاثة تحت السـواقى. وثمة باب تحت مقر «الشُطّار» وباب آخر تحت مقر محافـظ المدينة. وهذه الأبواب الخـمسة أبواب حديديـة متينة ذات سلاسـل. وبين هذه الأبواب مـقر وكـيل الخرج وكـاتب المصـروفات وعـدة دكاكين لـلخيـاطين والخـلالين والسراجين. وناحيـة مقر الكتخدا منازل متـصلة ببعضها البعـض إلا أن ليس بها أسوار كأسوار القلعة إلا أنها تقع على سور قلعـة قصر الباشا وهى قصر شامخ ولها حمامات وأحواض وشاذروانات وحـجرات من القيشانى وحـجرات للحريم. ويطل عـلى ميدان القصر القاعة ذات الخزف الخاصة بإسماعـيل أغا كَتْخُدا جَانْ بُولاَدْ زاده حسين باشا ولا نظير لنافورتها وحوضها.

أوصاف قصر وزير مصر

إنها دار للـضيافة بقيـت من عدة دول وهى مسكـن لكل وزير بقدر مـا يقدر له الله وكأنما هى عش للحمام. والـقصر يقع على صخور منتصبة وهى أبنـية مشيدة على سد عال متين يرتفع عن الأرض، وكل حجر فى بنائها فى حجم الفيل، وهذه الصخور أَمَر السلـطان صلاح الديـن يوسف بن أيوب وزيـره قَرَاقُوشْ بإحـضارها من جـبل الأهرام بالجيزة وقـد بنى بهذه الأحجـار قصر القلعـة وقناطر الجيزة وكـان ذلك عام (   )[١] وبدلاً من أسوار قلعة الـقصر تقع طُنُفُ وكوّات ومقصورات وقاعـات وكل خاناته تطل على الإمام الشـافعى وجبل الجوشى وهذا المـوضع الذى يسمى «القرافـة الكبرى» وهى مقبرة عظيمة.

---

(١) بياض فى الأصل.

ويتألف القصر من ثلاثمائة وستين حجرة متعددة مزخرفة وكل منها أثر لوزير أو ملك أو سلطان. وإذا ما وصفنا كُلا منها طال بنا الكلام. ويتوسط القصر ساحة وسيعة وفيها يتدرب أغوات الداخل على التحطيب والفروسية والطعن بالحراب والمبارزة والرمى بالسهام وإطلاق البنادق واستخدام التروس والحراب. وعلى الجوانب الأربعة لهذه الساحة تقع حجرات أغوات الداخل وهى تتألف من طابقين أو ثلاثة. وكل كواتها تطل على الفناء. وتحت هذه الحجرات حظيرة خيل خاصة بالباشا ويقيم فى هذه الحظيرة أغوات الداخل من القائمين على رعاية خيل الباشا وعددهم عشرون من أصحاب المراتب. ويقيم فى هذه الحجرات كذلك الخَزِينه دار والمُهُرِدار، وفى الداخل كذلك حجرة عرض الباشا وهى بناء قديم. أما البناء الذى هو ذهب فى ذهب فلقايتباى ونوافذه تطل على الإمام الشافعى وحجرة الخزانة متصلة بحجرة العرض هذه وبالقرب منها قصران للكتخدا إبراهيم باشا وهما يطلان على ميدان أغوات الداخل وهذان القصران يعجز عنهما الوصف أركانهما الأربعة من البللور والزجاج المعروف بالمورانو وهما يشبهان قصر الخورنق، وقد أرخ هو الحقير لهذا القصر الصغير، بهذا التاريخ: «قال أوليا تأريخه لهذا القصر، بلغ القصر المنيف تمامه سنة ١٠٨٣».

كما أرّخ رسمى داعى قائلاً: عندما رآه رسمى داعى لقصرجها منها قال: «إن تاريخ الانتهاء من قصر إبراهيم باشا عام ١٠٨٣»، وكان رسمى داعى من أغوات الداخل وهو شخصية عظيمة غزير العلم صائب الرأى متبحرًا فى العلوم والفنون.

ولما أنشأ سيدنا محمد بك بن إبراهيم باشا مقصورة صغيرة خاصة به لكى يتلو فيها الدوس، أرخت أن الحقير لهذا قائلا: «لقد أرح أوليا لهذا القصر، أن ثم بناء. هذا القصر العالى سنة ١٠٨١. وفوق هذا القصر قصر غازى باشا المعروف باسم جهان غا وهو مطل على جميع بلاد مصر «أى ضواحى القاهرة».

وبالدخول فى حجرة العرض نواجه بقاعة عظيمة يتناول فيها أغوات الداخل طعامهم والجوانب الأربعة لهذه القاعة مزينة الجدران من أعلى إلى أسفل بالقيشانى. وفى أعلى عتبة الباب لوحة رخامية مكتوبة بخط جلى مذهب تحمل تاريخًا هو:

(قد بنى هذا المكان العالى جناب العظيم صاحب العز والأمثال سلطان سلاطين جهان حضرت سليمان خان عن سلاطين آل عثمان فى ولاية مصر القاهرة والأقطار

الحجازية محـمد باشا بن أحمد باشا أدام الله إجـلاله إلى وقع التاريخ البنـيان هو خير المكان سنة ٩٢٢).

وداخل هذه القاعـة أمر سيدى جان پولاد زاده حسين بـاشا بإنشاء قاعة مزينـة على الطراز الرومى تطل على الحديقة الداخلية. ولا نـظير لهذه القاعة فى مصر. ولقد كتب الشيخ أحـمد المالكى لها طلـسمًا فلا يدخلها ذبـابة ولا بعوضة، ويتوسط هـذه القاعة حوض لطيف بداخله شادروان. حقًا إنها موئل فى قصر مصر.

وخارجها قاعة بيرام باشا وهى قاعة عجيبة فى تـصميمها وكتب تاريخها على بابها بخط التعليق وهو:

إن حضـــرة بيــرام باشـــا هـــذا .˙. زينـــة قصـــر الملـك والديـــن
وفى مدة قصيرة صاحب الكرم هذا .˙. أقام هذا القصر اللطيف منقطع النظير
اقـــرأ الفاتحـــة لإتمـــامـــه .˙. ادخلـــوها بســـلام آمنـــين ١٠٣٧

وفى ظهر الباب الذى كتب عليه هذا التاريخ تاريخ هو:

قال أحد عبيده تاريخ جميل تعالى الله حبذا هذا الطاق المفرح سنة (١٠٣٧).

وتحت حجرة بـيرام باشا، ميدان واسع وفيـه يتدرب أغوات الداخل على اسـتعمال السلاح، وبـالدخول من هذا المـيدان نواجه بقـاعة السلطـان قايتباى. إنـها قبة عظـيمة الارتفاع وكل كَوّاتها تطل على الإمام الشافـعى، وداخلها حرم بداخله حجرات وحمام وشادروانات داخل هذا القصر حمامان علويان أحدهما خاص بالباشا وبه حوض جميل والآخر خاص بأغوات الداخل، ودكانا حلاق، ولأغوات الداخل رئيس للحلاقين.

وفى الجهة الداخـلية من ميدان أغوات الداخل حـديقة تمتلئ بالأزهار وفـيها أشجار السرو والـنبق والليـمون والنارنج والسفـرجل وأغصان عديـدة من العنب عـلى عروش وداخل هذه الحديقة الرائعة حوض عظيم للسلطان قايتباى يبلغ فى الطول مائة وخمسين قدمًا وعـرضه ثمانون قـدمًا. إنه حوض عظيـم كأنه البحـر الخضم. وعلى حـافة هذا الحوض مقصورة صغيرة أنشأها إبراهيم باشـا ليستريح فيها. وكان يضع فى الحوض من يودهم وينثر عليهم الدنانير.

وثمة حديقـة أخرى تحت حجرة بيرام باشا وأصـلها كان مزبلة فى ارتـفاع المنارة ثم حوله الإبراهيم باشا إلـى حديقة كأنها بستان فى بلاد العجـم أو إرم ذات العماد. ويبلغ طولها خـمسمائة قدم وعرضـها مائتا قدم وفى داخل هـذه الحديقة مجلس تحـت قمرية يتوسطها حوض عظيم. ومن هذا الحوض يـتدفق الماء فى قناتين إلى حوض آخر وخرير ماء الحوض يصيب الإنسان بالرهبة. ومن الفـوارة يتصاعد الماء إلى ارتفاع منارة. وعنب هذه الحديقة ليس كمثله عنب فى مصر.

وكان تحت قصر آخر بناه إبراهيم باشا حديثًـا موضع للقمامة تحول إلى حديقة، وكى لا يبقى أثر لهذه القمامة جمع كل من فى مصر من زبالين وحمَّارة وحمَّالة وعمال أجراء فحملوا منها مرتين فى أسبوع مائة ألف حِمْل جمل وحمار، وأقيم أمام هذا الموضع سد عظيم ومُهِّد سَهْلٌ وأمر سبعة آلاف وستمائة بستانى فى مصر بأن يزرع كل منهم شجرة، وفى ثلاثة أيام أُنشِأت روضة كأنها روضة مدينة أصفـهان نصف الدنيا وإليها تدفقت المياه من الأحواض فأصـبحت حديقة إرم ذات الـعماد تحيط بقـصر مصر من جهـاته الأربع.

وتحت مخدع بـيرام باشا سلم يختـرق سور القلعة ويهـبط إلى الحديقة ويبـلغ طول هذا السلم مائة وخمسين قدمًا وهو من الحجر. وكان بيرام باشا فى شهر رمضان يتناول طعام الإفطار فـى تلك الحديقـة. ثم شُقّ منهـا طريق وأنشـأت مقصورة فى ركـن من أركان الحديقـة تطل على مـيدان «قواق» وكان جمـيع الجنود يسـيرون فى هذا الطـريق. وكان يكافئ مـن يطلق الرصاص أو يـرمى الـسهام القرع. ومـيدان فواق هذا يبلـغ فى الطول سبعمائة قدم وهو مفروش بالرمال. وقـد ركز فى وسطه صارى سفينة وهو عال ضارب فى السماء وفى قمته كرة مذهبة وكان جميع الجنود يصوبون إلى هذه الكرة.

إنه موضع للفرجة ويطل على هذا الميدان قصر لمقصود باشا. والآن أقام «جان بولاد زاده حسين باشا» فـى هذا الموضع عدة حجرات منقـوشة وحمامًا لطيفًـا، وجعلها دارًا للضيافة للقادمين والذاهبين إلى «الأستانة» وبيت الضيافة هذا مذهـب.

أوصاف قاعة ديوان السلطان الغورى

إنها قاعة علوية للديوان تتسع لعشرة آلاف شخص. وقد كان بين السلطان الغورى والعجم مودة وألفة، وقد أرسل الشاه الخبيث النيّة إلى الغورى رسولاً واستمع إليه الغورى، لإكرامه جميع كل علماء مصر وتم بناء هذا الديوان فى ثلاثة أيام بلياليها، وحقًا إن هذا ليس فى قدرة البشر.

وجميع أبواب هذه القاعة وجدرانها مكسوة بالرخام. كما أن سقوفها تحوى رسومًا ونقوشًا وهى ذات ألوان مختلفة، وأرضها مفروشة بالرخام، وطولها مائة وخمسة وثمانون قدمًا وعرضها خمسة وخمسون قدمًا. وفى جوانبها الأربعة ثلاثة وثلاثون شباكًا من النحاس وست وعشرون بلورة من الزجاج وثلاثون صاريًا تصنع روافد عليها سقف من الخشب وليس قبة من الحجر. إنه سقف كثير النقوش الذهبية يبهر النظر. وللقاعة ثلاثة أبواب، وباب يفضى إلى الباشا، والثانى يهبط إلى الفناء بسلم حجرى من عشرين درجة، أما الباب الثالث فيفضى إلى قاعة الضيافة. ومنها يهبط بسلم حجرى ومن أحد جوانبها دهليز يطل على ميدان القصر وجميع (أقلام خليفه لرى) أى خلفاء الأقلام يجلسون فيه أيام انعقاد الديوان، ولفتح هذا الديوان أربع كوات وفى كل منها حبل غليظ فى بكرة. والجلادون يعلقون المدينين للدولة من الأمناء والملتزمين من أذرعهم ويضربونهم بالسياط حتى يردوا ما عليهم. إن هذا مكان مخيف للعقاب اللهم عافنا.

ونصف هذا الديوان مفروش بالبسط الحريرية وعلى البسط فرش الجلد الروسى ويتكوم على هذه البسط الدنانير الذهبية فى أيام انعقاد الديوان ويحصيها الصيارفة من اليهود. وفى نهاية هذا البساط على يسرة موضع السلطان سليم مجلس الوزير وفوق هذه الصفة بارتفاع قدمين لوحة تتضمن طغراء السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وهى مكتوبة بخط جلى مذهب وهو توقيعه المبارك وتسعة من تروس صنعت من خشب شجرة التين مع مدرة وهذه ما تتعلق بها هذه اللوحة. وعلى طرف رأس الباشا كتب

بخط غليظ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. وهناك عدة خطوط علوية وسفلية متنوعة على رخام الجدران التى على يمنة ويسرة قاعة ديوان الغورى هذه.

وعلى لوح رخامى فى الأركان على يمنة ويسرة صفة الباشا خط كوفى بعلم الجفر لإخفائه عن السلطان الغورى ويشير هذا الخط إلى أن السلطان سليم سوف يقدم إلى هذا الديوان. وكأن ذلك سحر مبين وقد أطلَّعت على هذا الخط عدة مئات من أهل العلم فما استطاع أحد منهم أن يقرأ منه شيئًا لأن هذا الخط إنما يقرأ بالرموز. وفى المربع الذى على يسرة الباشا كتب على الرخام: «عزّ لمولانا السلطان» وعلى المربع الذى على يمنته كتب على الرخام: «سليم شاه خلّد ملكه» وهذا من العجائب.

وخارج هذه القاعة حجرة العرش، والباشا يسكنها أيام انعقاد الديوان ويلقى السمع إلى الشكاوى المرفوعة إليه. ولهذه الحجرة كوتان تطلان على ميدان القصر كما تطل كوتان أخريان لهذه الحجرة على قاعة ديوان الغورى.

مدح قاعة ديوان السلطان قايتباى

وخارج حجرة العرش هذه قاعة ديوان قديمة أقامها السلطان قايتباى وأرضها مرصوفة بالرخام الخالص ولها سقف ذو نقوش ذهبية يقوم على خمسة أعمدة من الرخام ودخول هذه القاعة من ميدان القصر يتم من خلال سلم حجرى من خمس وعشرين درجة. وفى هذه القاعة أكثر السلطان سليم من عقد الديوان وفى موضعه الآن لوح رخامى أخضر اللون على الجدار. وعلى الجدار كتب بخط غاية فى الغلظ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وعلى الجدار المواجه لهذا الخط كتب قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. إلا أن هذه القاعة أصغر من قاعة ديوان الغورى فطولها ثلاثون قدمًا وعرضها خمسة عشر قدمًا. وعلى نوافذها الثلاث وبابها تاريخ مكتوب هو:

(تم فى شعبان المبارك سنة ستين وثمانمائة). وجملة القول أنها قصر سلطانى عظيم

يعجز اللسان عن مدح صفاتها. ولديوان السلطان قايتباى مخزن للأطعمة يمتلئ بالمؤن ويصرف منه الوجبات لجميع الأغوات. وباب هذا المخزن كان مدخل باب الديوان فى عهد السلطان قايتباى.

ويدخل إلى هذا الديوان بسلم حجرى من ( )[1] درجة إلاأن طريقه مظلم إنه الباب القديم ويسمونه الآن باب الكلار أى باب مخزن الأطعمة. وعلى يمنة ويسرة هذا الباب تواريخ مكتوبة هى:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك للعبد فضل من الله تعالى وعزته عطايا بدوام مولانا السلطان ملك الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين على العدل فى العالمين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلّد ملكه بتاريخ شهر المحرم سنة سبع وسبعين وثمانمائة).

وعلى يسرة هذا الباب مقصورة خضراء داخلها مجلس السلطان سليم وعندما دخل السلطان سليم من باب المطبخ وبينما كان يجلس فى ذلك الموضع أطلقوا ثلاث قذائف من مدافع القلعة الداخلية نحو السلطان سليم وكادت تصيب رأسه ومكانها ظاهر إلى الآن. وبالقرب من مواضع علامات هذه القذائف كتب فى دوائر ثلاث (لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى عزّ نصره). وبعد أن خاف السلطان سليم من قصف المدافع جلس تحت أعمدة مقر «الشطار» ـ أى من يتبعون ركاب السلطان ـ أسفل الباب الكبير لميدان القصر حتى ينجو من قصف المدافع وصلى ركعتين حمداً لله. ومنذ ذلك الوقت والديوان يفتتح فى ذلك الموضع. وجميع وزراء مصر قبل الذهاب لأداء صلاة العيدين يعقدون الديوان فى هذا الموضع طبقًا لما جاء فى قانون السلطان سليم. وكل وزير لمصر قبل أى شىء يأتى إلى هذا القص، وبعد أن يترجل يجلس فى الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم حينما سقطت عليه القذائف ويدعو الله. وكذلك يدعو الله فى أيام انعقاد الديوان فى الأعياد. ثم يهبط سلمًا من خمسة وعشرين درجة يفضى إلى قاعة ديوان قايتباى وهناك يدعو الله كذلك وعند انعقاد الديوان يبدأ وزير مصر بمعاينة

(١) بياض فى الأصل.

دفاتر ما يرسل إلى الحرمين من صرة وغلال لأنه خادم الحرمين الشريفين والسلام.

وفى ديوان الغورى سبع وستون أو سبع وسبعون إدارة لها دفاترها المفصلة والموجزة وهى محفوظة فى الخزائن. ومن بين هذه الدفاتر دفتر «الرُوزنَامجَه» وكذلك أكياس المرتبات التى يوزعها الدفتردار. وعندما يغادر الباشا القلعة أو القصر ينزل جاويش موكب الانكشارية إلى تلك الخزانة لحراستها ليل نهار ويتناوب على تلك الحراسة خمسمائة أو ستمائة رجل كما يحرسون كذلك جميع حجرات الباشا وأغواته ولذا يسمى انكشارية مصر «المُستَحْفظَان». وفى الجوانب الأربعة لميدان القصر هذا خمسة أبواب، واحداً للمطبخ والثانى للديوان الكبير وهما أبواب من الحديد المتين ذو الطبقتين. وأمراء هذه الأبواب هم «آل ألواح» الذين سلموا مفاتيحها للسلطان سليم، والثالث باب محافظ المدينة. وكذلك باب «الكتخدا» وهو باب ذو سلاسل ويقع هذا الباب تجاه سجن «ارق خانه» وباب آخر بالقرب منه يهبط منه إلى الميدان وهو من الحديد. وباب آخر يفضى إلى «قره ميدان» وهو طريق حجرى فى ارتفاع وانخفاض وعلاوة على تلك الباب باب يسمى «باب الطلسم» وقد وادعى «دلى حسين باشا» أن تحته كنزاً وأطلق عليه المدافع وتركت فيه آثارها إلا أنها لم تلحق به ضرراً.

وثمة باب حديدى آخر يدخل منه وعلى بعد مائة قدم فى طريق يرتفع ثم مائة قدم أخرى فى طريق ينخفض يصل إلى «باب السرّاج خانه» وجميع سرّاجى الباشا وأغواته وقائدى الجنائب يسكنون داخل هذا الباب فى ثمانين حجرة للعمال. ويتوسط هذه الحجرات ميدان واسع. وبعد باب السرّاج خانه بمقدار مائة قدم فى أسفل باب الاسطبل «حجرة الهندى» بها نخلة سامقة وبعدها بخمسين قدم باب الاسطبل الكبير وفى هذا الاسطبل خيل الباشا وأغوات الداخل. وبعده بمائة قدم قلعة منفصلة يسكنها رؤساء الاسطبل والصراجون. وخارج هذه القلعة قلعة الميدان. أما قلعة الانكشارية الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة قره ميدان فمحيطها ثمانية آلاف وخمسمائة قدم ولا وجود لخندق يحيط بها ولكن ثمة خندق محفور فى الصخر طوله سبعمائة قدم بجانب «باب المطبخ». وفوق هذه القلعة الداخلية وقصر الباشا سبعون برجًا، ولكن قلعة «قره ميدان»

ليس لها أبراج ولكن لها أربعة أبواب. ويفضى إلى ميدان الروملى باب كبير مكشوف يدخل كل مرة بسلسلة وهذا الباب متجه إلى النجم وبجانبه باب صغير، الفارس يجتازه بصعوبة وثمة باب آخر أسفل باب القصر هو «باب الإسطبل» وهو باب حديدى متجه إلى الغرب، وباب حديدى آخر فى أسفل مقر المرشدين هو «باب الزاوية» وهو متجه إلى القبلة، وعلى بعد عشرين قدمًا من هذا الباب يقع باب «القرافة» وهو باب حديدى مكشوف متجه إلى الشرق وفى هذا الموضع أكون قد أكملت الحديث عن القلعة الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة «قره ميدان» ويكون عدد القلاع التى أحصيتها ثمانى عشرة قلعة قائمة بذاتها وعدد الأبواب طبق ما ذكرت سبعون بابًا من كبير وصغير، وهى موصدة فى كل ليلة ولا يمر منها الطير فى طيرانه. ومفاتيح القلعة الداخلية للانكشارية تظل مع رئيسهم، ومفاتيح أبواب العزب مع رئيسهم كذلك، وجميع مفاتيح قصر الباشا تبقى مع بوابى وكتخدا الباشا، وقد ذكرت جميع قلاع مصر الداخلية وسوف أتحدث عن مياه عباد الله والدواب فى القلعة الواقعة على الجبل المنتصب.

أوصاف سواقى بئر يوسف وغيرها من الآبار الأخرى

عندما بدأ يوسف صلاح الدين فى بناء هذه القلعة كانت الحاجة ماسة إلى المياه ولذلك جمع جميع المهندسين وحفارى الجبال وقال لهم: ينبغى أن نجد منبعًا للماء فى هذا الجبل. وتشاوروا فى الأمر وأجمعوا على رأى وهو لا مناص من بئر لهذه القلعة، وجاء الخبر بظهور ماء على عمق مائتى باع. وألح صلاح الدين عليهم إذا لم يستخرج الماء إلى هذه القلعة على أية حال فسوف يقتلهم كما يقتل من أجرموا فاجتمعوا وحفروا بئرًا لا نظير لمثلها على وجه الأرض. وبدأوا بحفر بئر مربعة وتم حفرها فى سبعة أعوام ومساحتها مائة وخمسون ذراعًا مكيًا، وليس لها حبل ولا من يقدر على جذب الماء منها.. وحفر جميع الحفارين الأرض وجعلوا ما حول البئر أشبه شيء بالقبور، وجوانبها الأربعة طريق وفى كل طرف فتحوا نافذة ويدخل النور من هذه النوافذ إلى البئر وهذا الطريق يشبه الطريق الذى يصعد منه إلى طوابق جامع آيا صوفيا باسطنبول حيث يستطيع ستة أشخاص أن يصعدوها وينزلوها فى سهولة ويسر. وينزل إلى هذه

البئر ثلاثة آلاف قدم حتى يكون الوصول إلى مقر الشياطين. والجزء الأدنى مكان مظلم مخيف ولا ينبغى أن يبلغ هذا المكان الرجل الوهّام. ثم جعل صانع ماهر هذه البئر ثلاثة طوابق وجعل الطبقة السفلى منها ستين باعًا وشق مغارات فى أحد جوانب البئر، وفيها أقام دواليب، وزوجان من الثيران يسحبان الماء من القاع بالدواليب فتنصب مياه كمياه البحر عند هذا الموضع فى حوض كبير من الصخر. كما حفرت مغارات فى جانب آخر من البئر فى الطبقة الوسطى والعلوية. وتقوم أزواج من الثيران بسحب الماء من الحوض السفلى بالدواليب وتصب المياه فى الطبقة الوسطى، وفى أعلى أربعة أزواج من الثيران تقوم بسحب الماء من الطبقة الثانية من انخفاض ثمانين باعًا بالدواليب وتصب الماء فى حوض الطبقة العليا فيتوزع على المدينة ويصل الماء إلى معسكر الانكشارية، وحمام الطواشى سليمان باشا، والأحواض وبعض البيوت، إنها بئر تثير تذكر العبرة يسمونها بئر يوسف الصديق ولكن هذا خطأ لأنها منسوبة إلى السلطان صلاح الدين يوسف وليست منسوبة إلى يوسف الصديق، إن من يمضون لمشاهدتها يحملون الفوانيس والشموع وينزلون إلى نهايتها فى ساعة من الزمن. ولها مائة ثور، ولكل طبقة مغارات للثيران، والثيران التى فى نهايتها تعودت على البقاء فى الظلام وغيرها لا يتحمل ذلك لأنها لا تستطيع أن تتنسم الهواء فى كل وقت. أما الثيران التى فى الطبقة العليا فيسهل عليها أن تتنفس.

ويسكن الفلاحون الذين يديرون هذه السواقى فى طبقات هذه البئر الثلاث ويتسلمون رواتبهم من أمين الساقية. ومرتب الذين يعملون فى الطبقة السفلى أكثر من مرتب بقية الذين يعملون فى الطبقتين الأخريين، وثيرانهم كثيرة. وهذه الدواليب تدور ليل نهار ومن ينظر من أسفل البئر إلى أعلى فوهتها يرى أن الدواليب تدور كأنها الفلك.

وخلاصة القول أن من يسيح فى هذه الدنيا ولا يشاهد بئر يوسف لا يعرف ما فى الدنيا من صنعة ولا يعرف كيف أن الإنسان هو أشرف مخلوقات الله وكيف يستطيع عمل ما يشبه المعجزات، وعندما يشاهدها العارف بالله يقول: «إن همة الرجال تقلع الجبال». إن هذا الأثر يسمو إلى مرتبة الكرامة وهذا فى الحق ليس فى قدرة البشر. إن

ماءها أميل إلى الملوحة وأثناء محاصرة الغورى كان جميع منفى القلعة الداخلية يشربون منها. والآن بعض الناس يشربون من بئر يوسف ولكن لا حاجة إلى ذلك. ففى أسفل القلعة الوسطى سبيل ويستقى منه اثنى عشر ألف سقاء. كما يوجد سبيل على باب الأغا ومنه يستقى الماء أربعون ألف سقاء. وفى الشيخ «سارى» كذلك فى سوق القلعة الداخلية صهريج «اكوز محمد باشا» ويغترف منه الماء بمقدار عشرين ألف حمل جمل. إنه وقف عظيم وفى كل عام تحمل هذه المياه على ظهور الجمال وتمتلئ الصهاريج والحمام وصهريج فى وسط القلعة يقوم على مائة عمود وهو صهريج عظيم كأنه البحر. وعند الحصار يأتى من بئر يوسف والنيل مائة ألف حمل من الماء محملة على الجمال عدة مرات.

قناطر السلطان الغورى فى مصر القديمة وأعدادها

لم يكتف السلطان الغورى ـ رحمه الله ـ ببئر يوسف. وفى عام ٩٠٠ بذل همته فى توفير الماء لأهل القلعة الداخلية والقاهرة. ورصد من صُلب ماله ألف كيس من الدنانير حسبة لله، وأقام ساقية أمام جزيرة الروضة كأنها القلعة ويبلغ طولها ثمانين ذراعًا، ويسحبون الماء من الأرض إلى قمتها بالخيول، وتقوم الثيران بإدارة دواليبها من خمس جهات لتستمد الماء من النيل، ويصل الماء إلى الأحواض خلال القناطر ويبلغ سواقى القلعة الداخلية وتمر فى ثلاثمائة وثلاث عشر قنطرة ومن هذه القناطر ما تنخفض بمقدار ثمانين باعًا، ومنها قناطر يبلغ طولها خمسين باعًا فى بعض أجزائها. وفى أراضى منخفضة حوالى مائة قنطرة مسدودة الفوهات.

عدد دواليب ساقية قلعة قصر الباشا

يتدفق ماء النيل أسفل القلعة الداخلية من خلال هذه القناطر ويملأ الآبار العظيمة ثم تسحب السواقى الماء فى الآبار الكائنة أسفل قصر الباشا. ولقصر الباشا عدة سواق أخرى، وهى كذلك تسحب الماء. ويتدفق الماء من ساقية الباشا إلى الينابيع وحديقة أغوات الداخل والأحواض وينابيع الأسواق وعيون القلعة الداخلية. ولقصر الباشا ثلاث سواق تجلب الماء له من النيل. وفى قلعة القصر ساقيتين للنيل. إحداهما ساقية تحت

جوسق إبراهيم باشا والأخرى تجاه مقر محافظ المدينة. أما هذه الساقية ذات العيون الأربع فتجرها ثمانية ثيران، أما الماء الذى تسحبه سواقى الطبقة الوسطى فيتدفق إلى إدارة العزب والاسطبلات وبعض الينابيع. أما السواقى السفلية فماؤها أجاج وماؤها يمضى إلى بعض الجهات وتوجد ساقية خلف مقر مرشدى الباشا فى قره ميدان أى الميدان الأسود وفى حى رؤساء الإسطبل وعند جامع عمرو بن العاص، لكنها أعمق من السواقى الأخرى، هى ملك للحكومة. كما أن بئر يوسف، وجميع السواقى الكبرى ذات العيون الخمس، وسواقى مقر العزب، والطبقة الوسطى، وساقية قصر العزب التى يصل ماؤها إلى أساس جامع السلطان حسن ملك للحكومة كذلك. والحاصل أن عدد دواليب جميع السواقى ستة وثلاثون دولابًا وجميعها فى إحدى عشرة محلة. ولكن أكبرها فى مصر القديمة وقلعة الباشا.

وكل هذه الخيرات للسلطان الغورى وينفق عليها فى العام مائتا كيس ولها مائتان وخمسون ثوراً، ومائتا خادم وأمين ساقية وموظف جورباجى من فرقة الانكشارية، إنها خيرات عظيمة فليس فى مصر أعز من الماء لأن النيل يبعد عن القاهرة بمسيرة ساعة. ولكن لا نفع لمصر السفلى من مياه قناطر الغورى فجميع مياهها تذهب إلى القلعة الداخلية ولكن لا حاجة بمصر السفلى إلى مياه تلك القناطر لأن مصر السفلى تقع فى أرض منخفضة فتكثر الآبار فى كل منزل وسوق وقصر عالٍ.

بيان بجميع الآبار فى مصر السفلى

بينما كان بيرام باشا واليًا على مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع عام ١٠٣٧ أرسل السلطان فرمانًا إلى بيرام باشا وعلى بك الجرجاوى ورضوان بك أمير الحج أمرهم فيه على عمل إحصائية عن مصر. وبناء على إحصاء كمال باشا زاده ودفتر الغزالى قاموا بإحصاء كل ما فى مصر من عمائر وجوامع ومساجد ومدارس، وبعد أن عرضوا هذا الإحصاء أشاروا إلى قلة الماء وأفادوا أن فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة ٢١٧٤٠٠٠ بئر و﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وماؤها جميعًا مالح وماء جميع

حماماتنا مالح ـ ولكن بئر الحمام القيسونى أسفل المدينة وسبعة آبار أخرى ماؤها هو ماء الحياة. هذا ما ذكروه فى تقريرهم وإحصائهم.

وحقيقة الحال أن مدينة مصر تقع علـى شاطئ النيل ذى الماء العذب، وأن يكون ماء جميع الآبار ملـحًا أمر عجب وله حكمة غريـبة «يفعل الله ما يشاء بقدرتـه ويحكم ما يريد بعزته».

والجو فى القلـعة الداخلية يهب الروح والحيـاة لأنها مصيف وفيها تـعصف الريح. وميـاهها فى وقـت الخماسين غـاية فى الـبرودة. وإذا ما أراد بعـض المرضى البُـرْءَ من مرضهم غيروا مكانهـم فجاءوا بهم إلى القلعة العليا فَتَصِـحُّ أجسامهم بإذن الله فى عدة أيام. وللطف الجو تصـبح عيون أولادهم مكحلة كعيون الغـزلان، أما عيون أهل مصر السفلى فتشبه عيون الغول. تلك حكمة لله عجيبة.

* * *

الفصل الثالث والعشرون[1]

بيان بمحيط قلعة مصر السفلى وجميع أبوابها وأبراجها

تسلحت أنا الحقير وغلامان لى ولبسنا أحذيتنا وخرجنا فى وقت السحر من باب الوزير وهو أحد أبواب القلعة الداخلية. وصعدنا أكمة فى الجانب الشرقى وهبطنا خمسمائة قدم وهناك «باب النظامية» وهو باب خشبى يتجه ناحية الشرق. وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الشمال وهناك «باب چقور قرافة» - أى باب القرافة - وهو من الخشب ويتجه إلى جهة الجنوب. ومشينا ألف قدم فى رملة جانب سور القلعة فواجهنا «باب الدرب الأحمر» وهو باب خشبى من طبقتين متجه إلى الشرق. وفى هذا الموضع تغطى الرمال أسوار القلعة إلا أن داود باشا أقام سورًا من طبقة واحدة للقلعة، وعبرنا هذا الموضع وتقدمنا خمسمائة قدم فواجهنا «باب خوه المغرب» الذى كان قرافة للمغاربة فى عهد المعز لدين الله. وهو باب خشبى صغير يتجه إلى الناحية القبلية. وقد جددت أسواره حديثًا ومقبرته كلها داخل أسوار القلعة القديمة. وخارج هذا الباب مشينا إلى نهاية سور القلعة القديمة فواجهنا على بعد ألف قدم «قله كوم» أى برج الرمال وهذا البرج زاوية من قلعة مصر تطل على الناحية الشرقية. ومضينا فى اتجاه النجم ألف قدم أخرى من ركن جدار القلعة فواجهنا «باب الناصر» وهو باب حديدى من طبقتين يبلغ حجمه عشرين ذراعًا وفى عتبته العالية كتب بخط الجفر تاريخ صلاح الدين، وموكب جميع الحجاج والوزراء يدخل ويخرج من هذا الباب، وهو باب الطريق الرئيسى المتجه إلى الشرق. ومن أسفل سور القلعة باتجاه النجم والريح مشينا خمسمائة قدم فوصلنا إلى «باب الفتوح» وهو باب حديدى مكشوف من طبقتين ويبلغ طوله عشرين ذراعًا. وهو باب يزدحم الداخلون والخارجون فيه. وتقدمنا ألف قدم من أسفل سور القلعة صوب الغرب فواجهنا «باب البحر» وهو كذلك باب حديدى من طبقتين متجه إلى الغرب وارتفاعه عشرة أذرع. وفى هذا الموضع تختفى المنازل والحدائق وراء أسوار القلعة. وخطونا نحو حافة المدينة ولكن وجدنا أبوابًا كذلك فى محلة أطراف المدينة

---

(١) هكذا فى الأصل.

وعليها أسوار قلعة ومزاغل وبوابون ومفاتيحها مع أئمة الحارة، ومضينا ألف قدم من «باب البحر» على جانب الحدائق فواجهنا «باب اللوق» وهو باب خشبى يتجه إلى الغرب وأمامه بيوت الدعارة والمواخير والمقاهى. ومن خارج باب اللوق مضينا جنوبًا مائتا قدم فواجهنا «باب عبادة» وهو باب خشبى يتجه إلى الغرب وأسفله جامع ولد عبادة وهو جامع مقام على أربعين عمودًا وله منارة ويقع بالقرب من بركة النيل على جسر الليمون وهو جامع يستحق المشاهدة، فى فنائه شجرة نبق عظيمة لا نظير لها فى مصر، ومضينا مائتى قدم صوب الجنوب على ضفة البركة وعبرنا حديقة العجم وبلغنا «باب قنطرة الدكة» وهو على بعد سبعمائة قدم منها وأسفل هذه القنطرة جامع سيدى الشيخ حسن الشاذلى وهو مدفون فيه. وتحت هذه القنطرة تتدفق مياه بركة الأوزبكية وإلى الجنوب منها مضينا مائتا قدم فبلغنا «باب سكينة» وهناك جامع سكينة وهو جميل، ثم مضينا عبر الحدائق واتجهنا نحو الجنوب ألف قدم فبلغنا «باب الدباغين» وهو باب خشبى متجه نحو الغرب وعليه أسوار القلعة، وأمام الباب جسر، ومشينا فى البساتين صوب الجنوب خمسمائة قدم فواجهنا «باب الصقائية» وهو باب خشبى يتجه نحو الغرب ودخلنا هذا الباب وعبرنا من الحارة مائتا قدم حتى بلغنا جامع الجبيّة وفى طريق بولاق مررنَا سبعمائة قدم فبلغنا «باب الأصمعى» وسوق النصرية فى هذه الحارة وكذلك جامع «أميرا خور» وهو جامع بديع. ثم مضينا جنوبًا ستمائة قدم ومررنا «بقنطرة السبوع» فواجهنا «الباب الجديد» وهو على الطريق الرئيسى وعلى عتبته العالية أسوار ومزاغل. ثم عبرنا من أمام ضريح السيدة رقية بنت الإمام على، وتقدمنا نحو الجنوب أربعمائة قدم فواجهنا «باب عز الدين»، وهناك جامع جمال الدين وهو باب خشبى متجه إلى الغرب، ثم اتجهنا جنوبًا خمسمائة قدم فى الرملة فبلغنا «باب حارة النصارى» وهو باب من الخشب متجه إلى الغرب. وعليه أسوار ومزاغل وراء هذا الباب جميع الخانات والبغايا والصبيان. وتقدمنا ثمانمائة قدم أسفل سور القلعة فواجهنا «باب ست نفيسة» وهناك جامع السلطان خير الأم وهو باب خشبى مكشوف يطل على ضريح السيدة نفيسة. ثم تجولنا خارج حى السيدة نفيسة وتقدمنا مائتى قدم صوب الشمال

فبلغنا «باب القرافة الوسطى» ومضينا أمام قبر الطويل وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الجنوب فبلغنا «باب القرافة الكبرى» وهو باب خشبى كبير متجه إلى الشرق ومنه يكون المضى إلى الإمام الشافعى وعمرو بن العاص، ثم مضينا خمسمائة قدم أسفل أسوار القلعة المسماة قره ميدان فبلغنا «باب الفارض» وهو كذلك باب خشبى يتجه إلى الشرق، ثم مضينا خمسمائة قدم صوب الشرق فبلغنا «باب الجمالين» وهو باب خشبى يتجه نحو الشرق وهو أسفل قصر الباشا بالقرب من ميدان قواق، وبهذا الباب يكون قد تم عدد الأبواب الموجودة فى جهات القاهرة الأربع.

وقد أدركنا التعب ومع ذلك مضينا من أسفل أسوار قلعة قره ميدان وصعدنا الأكمة من «باب المطبخ» وخطونا من خندق القلعة وتجولنا داخل القلعة الداخلية وهى حجرات الانكشارية. حتى إذا بلغنا «باب النظامية» نكون قد خطونا ألفىّ قدم. وعندما اقترب وقت الغروب دخلنا باب النظامية وعُدْنا إلى مسكننا وقد خارت قوانا.

وعلى هذا يكون طول أسوار ضواحى القلعة لمصر السفلى خمسة عشر ألفًا وخمسمائة قدم. وواحد وعشرون باب قلعة، وعدد أبراجها ثلاثمائة وأربعون برجًا وسبعة آلاف متراس. أما أبواب القلعة التى بلا أسوار فعددها سبعون بابًا من الخشب عليها أسوار ومزاغل.

وفى الصباح تسلحنا وبلغنا «باب الناصر» على صهوة جيادنا وهناك ترجلنا ثم خرجنا من باب الناصر وباب الفتوح حتى وصلنا إلى جانب قيون ومنها بلغنا جامع الظاهر بيبرس وبعد ذلك بلغنا قنطرة الأوزبكية ثم قنطرة الليمون. وبذلك نكون قد قطعنا ضاحية عظيمة يبلغ طولها عشرة آلاف قدم.

وجملة القول أن مناطق القلعة ذات الأسوار وأبواب ضواحى القلعة التى بلا أسوار وابتعادنا عن القلعة بعشرة آلاف قدم يكون محيط عمائر مدينة القاهرة ٤٣٠٠٠ قدم وانتهينا من ذلك فى يوم واحد بعد الظهر. واستغرق سيرنا سبع عشرة ساعة. أما ما ذكر سلفًا عن القلاع الداخلية وقلعة الباشا فمما يدخل فى هذا الإحصاء. ويخرج من هذا الإحصاء مدينة بولاق ومصر عتيقة ومصيف السلطان قايتباى وحى الإمام الشافعى

والإمام الليث وعمرو بن الفارض وأبو السعود الجارحى لأنها أحياء متباعدة عن مصر. كما أن باب الخرق وباب الشعرية وهما من الأبواب العالية من بناء أمير الجيوش بدر الجمالى وبذلك يكون محيط مصر المحروسة ٤٣٠٠٠ ألف قدم والسلام.

أما ضواحى مصر الجنوبية والشرقية والشمالية فقد أصبحت أسوار القلعة فيها خندقًا لتراكم القمامة. لقد كانت قلعة معمورة فى عهد صلاح الدين لكن فى بعض مواضعها بدلاً من الخنادق فى أطراف المدينة كانت البرك تجرى فيها مياهها مثل بركة الأوزبكية والناصرية، وكانت البرك بمثابة الخنادق. وعلى حافة هذه البرك كانت هناك الأبواب سالفة الذكر، وفى كل ليلة كان يتجول فيها الحراس والبوابون والصوباشية ومحافظو القلعة والقواسون وهم يوصدون جميع الأبواب. ففى مصر من الفلاحين واللصوص وأتباعهم والمجرمين ما لا وجود لمثلهم فى بلد آخر.

بيان البوابات فى مدينة مصر السفلى

ومن شرور هؤلاء اللصوص أقيمت أبواب من طبقة أو طبقتين فى أركان مدينة مصر وأقام أعيان مصر الطُنُفُ [1] على الأبواب وكانت كواتها مطلة على الطريق ومن هذه النوافذ يطلقون السهام والرصاص على اللصوص. وفى كل زاوية باب مقام وبوابو هذه الأبواب جميعًا يخضعون للصوباشى وبموجب دفتره فإن عدد الأبواب التى يقفون حراسًا عليها ستة وعشرون ألف باب. ويدخل فى هذا الإحصاء أبواب مدينة بولاق ومصر القديمة. وهذه الأبواب كلها توصد بعد العشاء ولا يستطيع أحد أن يخرج منها. ومفتاح هذه الأبواب يبقى أمانة عند شيوخ الحارات. والبوابون يستندون إلى عصيهم الطوال الغلاظ خلف هذه الأبواب ويتناوبون على حراستها ذلك أنه إذا ضاع شىء من هذه الحارة يسأل عنه البواب ويوقع عليه العقاب ونظير هذه الحراسة يتقاضى البواب راتبًا من أهالى الحارة.

* * *

(١) السَّقِيفَةُ تشرع وتبنى فوق باب الدار ونحوها للوقاية من المطر. والجمع: أَطْنَافٌ، وطُنُوفٌ.

الفصل الرابع والعشرون

أوصاف الأحياء والقصور العالية وغير ذلك من البيوت

بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكره الغزالى عن مصر أم الدنيا ففى مصر ٧٤٠ حيًا للمسلمين، وفيها ٧٨ قصرًا لسلاطين السلف، وإن اللسان ليعجز عن وصف كل منها؛ فعلى شط بركة الفيل قصر السلطان قايتباى، وفى قلعة الكبش قصر السلطان جاولى. وأسفله قصر محمد بك، وقبالته قصر نذير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج، وقصر يوسف بك أمير الحج الأسبق، وقصر الشيخ السادات، وقصر بيقلى محمد بك، وقصور نوالى محمد بك، وعباس أغا وبلتاجى محمد أغا، ورمضان أغا، وشعبان باشا رئيس المتفرقة، وبكر افندى قائد الانكشارية، وكنعان بك، والشيخ البكرى، وحاجى باشا، واوزبك بك، ومسعود أغا، وعلاوة على هذه القصور ٣٢٠٠٠ بيت للمسلمين. أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين.

واثنتان وعشرون جماعة يهودية تشكل حارة واحدة، وشوارع اليهود ضيقة مما يجعل من المتعذر مرور جمل منها أو فرس، وهم يهود معتزلون وبيوتهم من خمسة أو ستة طوابق، وعلى بعد خمسين قدمًا من حارة اليهود أبواب عليها حراسة وجملة أسواق اليهود فى حارتهم ولا حاجة بهم إلى مكان آخر، وتقوم فرقة من الانكشارية بمراقبة اليهود فى حارتهم على الدوام. وعدد اليهود ٦٠٦٠ نسمة يدفعون الخراج.

وهناك أربع حارات للأرواء وحارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن ٣٠٠٠ نسمة يدفعون الخراج. والنصارى من التابعين لبلدان أوربا أو الدولة العثمانية فيتراوح بين ٦٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ نسمة، ولا وجود لغجر الأروام. أما جميع أهل مصر فهم قوم فرعون، وعلى حافة البركة حارة لنصارى أوربا، وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا ولا يؤدى واحد منهم حبة قمح من الخراج.

وجملة القول أن هناك اثنتان وسبعون ملة، ومائة وأربعون لغة تدور على الألسنة وإضافة إلى وجود عشرين ملة للنصارى فى مدينة مصر فإن هناك أجناس أخر كثيرة مثل المغرب، والأندلس، وافنو، ودونقلا، والبربر، والفونج، وقرمانقة، وبغه نسكى،

والحبشة وماى بورن، والنوبة ولغات هذه الأجناس منطوقة وليست مكتوبة. وسوف أكتب بإذن الله عن جميع أجناس الناس وأحوالهم فى مصر فى حينه.

باب زويلة

فى عام ٤٨١ عندما وَزَّر حسين القائد مجدد عمائر مصر ابن المعز لدين الله الفاطمى بعد أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى وزير المستنصر بالله العباسى، انهدم الجانب الجنوبى للقلعة التى أقامها جوهر القائد؛ فألحق بها قلعة ركينة، وبقيت تلك الأسوار مطمورة فى الرمال ناحية قايتباى. وباب زويلة من بناء أمير الجيوش بدر الجمالى سالف الذكر فى ذلك العصر وإلى كتابتى هذا التاريخ كان قد مر عليه إحدى وخمسون سنة، ولم أر فى سياحاتى بابًا متقن الصنع مثله.

وعندما كان أمير الجيوش يبنى هذا الباب كتب طلسمًا عظيمًا فلم يصنع له مصاريع قط، وكان يبقى على الدوام مفتوحًا. ومن الحجر الأسود الموجود فى عتبته إذا ما دخل مدينة مصر أحد ماشيًا أو راكبًا للسرقة أو القتل أو الثورة بحكم هذا الطلسم ذلت حوافر فرسه وسقط على عرفه وهلك وإلا خرج جواده من الباب وهو حرن ولذلك لم يحتمل دخول لص أو باغ ولا ثائر وعلاوة على ذلك الطلسم فإن موسى - عليه السلام - التقى بالخضر فى هذا الموضع المطلسم. والآن هو مزار يسمى «قرقلر مقامى» أى مزار الأربعين. وحتى عهد خلافة الملك الكامل ناصر الدين محمد كان طلسم باب زويلة نافذ الأثر، وذات يوم أراد الملك الكامل أن يقهر المجرمين فى الجامع الأزهر داخل القاهرة وبينما كان يدخل من باب زويلة حرن فرسه ولما حثه سقط على عرفه وسقط فى الرمال فدخله شديد الغضب، فأمر بإراقة دماء مائة كبش على عتبة باب زويلة، وبذلك أفسد الطلسم ونزع الحجر الأسود من عتبته وجعل للباب مصراعين وأصبح يفتح ويغلق مثل سائر الأبواب، وهو الآن ذو مصراعين من حديد.

وفى المرة الثالثة عام ٥٦٦ بنى السلطان يوسف صلاح الدين القلعة الداخلية والقلعة العليا، وفى عام ٥٦٦ كان بهاء الدين قره مونلى الأسدى أميرًا طواشيًا عظيمًا وخشى سلاطين دمشق فوسع للمرة الرابعة بناء القلعة حتى بلغت ٣٩٣٠٠٠ ذراعًا هاشميًا.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

جوامع مصر المحروسة التى شيدها السلاطين

وغيرها من الجوامع الكبرى التى يستجاب فيها الدعاء

فى القاهرة مائة وستة وخمسون مسجداً لسلاطين السلف من الترك والعرب والعجم ولا وجود لمثل هذا فى جميع الممالك الإسلامية. وإن ما أقيم من هذه الجوامع ليست جوامع ولكنها جنات وسوف أكتب عن هذه الجوامع بالترتيب على حسب ما زرتها وأقدم هذه الجوامع وأعرقها:

جامع عمرو بن العاص

وهو فى مصر العتيقة مسجد عتيق عظيم يستجاب فيه دعاء الفقراء، وهو كعبة الضعفاء، وبنى هذا الجامع عمرو بن العاص فاتح مصر. أما سبب بناء هذا الجامع أنه عندما حاصر عمرو بن العاص مصر القديمة أى مدينة الفسطاط ضرب جند الإسلام خيامهم فى موضع هذا الجامع وحفروا خندقًا حولهم وقامت الحرب ودامت أيامًا وكان المسلمون يدفنون شهداءهم فى هذا الموضع وقضى الله أن تفتح القلعة فخلعوا خيامهم ولما اقتضى الأمر أن ينتقلوا إلى المدينة رأوا أن حمامة اعتشت على رأس خيمة عمرو ورآها عمرو، وقال: لا تخلعوا هذه الخيمة إن هذه الحمامة فى بيتنا وإكرامها واجب علينا وإذا ما أفرخت وطار صغارها فلتطر إلى مقرنا وهى وصغارها فى حمانا من الوحوش والناس.

وأفرخت هذه الحمامة وطارت من عشها وكانت فى كل مرة تأتى أمامه وتحط عليه وأنست به وألفته. لكن عمرو فيما بعد خلع الخيمة وكان ديران كبيران فى هذا الموضع أحدهما للقبط والآخر للروم فهدمهما وأقام جامعًا، ولكن هذه الحمامة اعتشت ثانية فى ذلك الجامع ولذلك سمى هذا الجامع «فطاس».

وقد أنجز بناء هذا الجامع أربعون ألف من جند الإسلام، وكانوا يصلون فيه على الدوام؛ ولذلك فهو أقدم جامع فى القاهرة، وله كثير من المحامد والمحاسن ولكن لنوجز القول فى وصفه:

الجامع الآن مربع الشكل أسواره كأسوار القلعة، ومساحته مائة وثمانون قدمًا طولاً وعرضًا، ومن ناحية بابه إلى القبلة مائتا عمود من الرخام الأبيض، وعلى يمنة ويسرة حرمه كذلك مائتان وأربعون عمودًا أبيض. وعند بدء البناء فيه لم يكن حوله جدران وبنى كله على أعمدة والآن رءوس بعض أعمدته ظاهرة فى بعض المواضع، وفيه كذلك ثلاثمائة عمود. ومكان المؤذن على ثمانية أعمدة. وبناء على هذا الإحصاء فيه ثمانمائة وعشرون عمودًا تنتهى بطاقات كأنها قوس.

وبعد ذلك قال لهم عمرو: ينبغى أن يكون الجامع متينًا رصينًا وينبغى بناء جدران حوله كأسوار القلعة. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم، ومنبره من الخشب المنقوش. ومن يصلى ركعتين فى الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فى هذا الجامع يتحقق له كل ما يتمناه فى دنياه وأخراه. وقد رصفت مساحته بالحجر فكأنها سهل منبسط. ومن محرابه إلى وسطه حجرات علوية، وقد سكن فيها سيدى الشيخ علاء الدين الطائى، والآن يسكنها صاحب السلوك الشيخ يوسف الشناوى، وحول هذا الجامع مئات من الأركان المظلمة وفى كل ركن يسكن عارف من العارفين، وهم يفطرون فى الأسبوع مرة، ومنهم الشيخ على الفارضى، والشيخ رمضان خليفة القيصرى وهما من أصحاب الكرامات. وإذا ما قرأوا علم الموسيقى على الشيخ على الفارضى رغبهم فيه. إنهما سلطانان عظيمان، وفى الجمعة الأخيرة من شهر رمضان يحتشد فى هذا الجامع عدة آلاف من الناس ويصبح داخل الجامع وخارجه بحر من الناس وهم يصلون. ولا شك أن أرواح الأنبياء والأولياء تحضر فى هذا الوقت على ما يقال.

ولهذا الجامع سبعة أبواب وأربع منائر وفى كل ركن من أركانه منارة إلا أنها منارات صغار قديمة الطراز. وفى الركن الأيمن لهذا الجامع قفص وهو مصلى الوزراء وثمة كلام مكتوب بخط سيدنا عمر وعثمان على رق الغزال، وهو خط كوفى. وبالقرب منه مقام

الشهداء وقد دفن فيه سبعة آلاف صحابى، وهذا ثابت. وفى الجانب الأيسر من هذا الجامع موضع زيارة مربع يسمى «مقام الأوتاد» وله محراب آخر وبالقرب من المحراب على لوح من الرخام الأبيض المربع مساحته ثلاثة أشبار تاريخ مكتوب بخط جلى وهو:

أتما بنى التمام المكان الشريف سنة ثلاثة وثمانين عمّر العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن عمر المجلى لتاج أكابر تاج الحوض الشريعة عفى الله عنه الجامع عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ البروق سبع بوابل بيع لوجه الله غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين صلى الله عليه وعلى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين).

وقد رمم هذا الجامع بيرام باشا حينما كان واليًا على مصر. وكتب على لوحة نحاسية على يمنة المنبر تاريخ يتألف من خمسة وأربعين بيتًا. والمصراع الذى يحمل تاريخ ذلك هو: بينما كان اثنان يسيران قالا إحياء أثر الأصحاب الراشدين سنة ١٠٣٢.

عجائب جامع عمرو بن العاص

وفى داخل هذا الجامع عجائب وغرائب. ففى داخل باب القبلة أمام المنبر عمودان من رخام ويزعم الناس أن العاصى النجس إذا شاء أن يمر بين هذين العمودين لم يمر. أما إذا كان تقيًا مر. وبعض ضخام الجسم يمرون من بين هذين العمودين كالصاعقة وبعض من نحلت أجسامهم لا يمرون.

ويحكى حاجب الجامع أنه ذات يوم أراد خادم لأحد بكوات القاهرة أن يمر إلا أنه انحشر بين العمودين ولم يمر وحينئذ أمسك جميع الحاضرين بذراعه وهم يصيحون وعندما أخرجوه ثانية عجبوا لحاله ولا يعلم أحد ماذا حدث وخرج الرجل خارج الجامع وغسّلوه فى طرفة عين داخل الجامع وبعد صلاة الجمعة صلى عليه صلاة الجنازة مئات آلاف من المصلين. يا لها من حكمة عجيبة.

إن هذا الجامع ليس مزخرفًا كالجوامع الأخرى وله أكثر من مائتى خادم وفى جوانبه الأربعة ثمانية وسبعون رواقًا للفقراء. وحوله أرض خربة.

جامع أزهر القائد ـ أى الجامع الأزهر

بناه السلطان المعز لدين الله المغربى الفاطمى عام ٣٥٨ وذلك بيد المملوك المسمى

أزهر الذى جاء من بلاد المغرب بآلاف الأكياس من المال واستأذن من الخليفة الإخشيدى فى طرح أساس هذا الجامع، وكان جملة خدامه يزيدون على عشرة آلاف وكلهم من المغاربة. ولما اقترب بناء الجامع من التمام قدم المعز لدين الله من المغرب غازيًا ودخل مصر بغتة وتسلح كذلك المغاربة الذين قدموا بحجة بناء الجامع الأزهر. وانتزع المعز لدين الله الفاطمى مصر من يد الإخشيديين وأصبح ملكًا مستقلاً عليها.

وعمّر المعز لدين الله الفاطمى الجامع الأزهر بحيث جمع فيه علماء الدنيا بأسرها وكان يقدم فيه الطعام لبنًا وتمرًا وسكرًا. وإلى هذا الوقت لم يكن فى القاهرة وقف عظيم كهذا. ولقد سمى الجامع الأزهر باسْم مَنْ بَنَاهُ وهو هذا المملوك أزهر. إلا أنه بنى من صلب مال المعز لدين الله ولهذا السبب ملك مصر. وليس فى القاهرة جامع يؤمه كثرة من المصلين كالجامع الأزهر ويرجع السبب فى ذلك إلى وقوع الجامع فى قلب القاهرة حيث لا يخلو موضع فيه ليل نهار من ساجد ففيه ليل نهار اثنا عشر ألف طالب علم، ولهم دوى كدوى خلية النحل يبعث فى النفوس الرهبة، وكلهم مشغولون بمدارسة العلم، ولا يحرم من معرفة أصول الدين أحد يقف موقف التلميذ أمام أستاذه فيه. إنه جامع مبارك وبين الباب والباب مائة وسبعون قدمًا. ويدخل من باب المجلدين ويمر من الحرم الصغير ومنه الدخول إلى الحرم الكبير، وحتى بلوغ المحراب تبلغ المسافة مائة وخمسين قدمًا وداخل الجامع مائة وعشرون عمودًا من الرخام وعشرون عمودًا منها لها قواعد مزخرفة وتقع هذه الأعمدة بين الجامع والحرم. إلا أن هذه الأعمدة صغار وكلها على أربعمائة رافد وكلها تحمل سقفًا خشبيًا أخضر اللون وليس للسقف قبة. وهو بنيان شاهق ليس من نوع بنيان سائر الجوامع الأخرى. ومن دخل هذا الجامع وجد روحانية لا يريد معها أن يخرج منها. وللجامع أربعة محاريب للمذاهب الأربعة، وعلى المحراب الحنفى كتب قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]. ومنبره من خشب كتب عليه بخط أبيض الآية القرآنية الشريفة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وفى هذا الجامع ألفا دولاب، وعرض الدولاب منها قدمان

وارتفاعه ستة وسبعة أقدام. وبناء على هذا الإحصاء يكون الدواليب تسعة آلاف دولاب وهى مكتظة بالكتب وفيها حاجيات طلاب العلم من مأكول ومشروب وغير ذلك. ولا يخلو هذا الجامع من اثنين أو ثلاثة آلاف ضرير من حفظة القرآن الكريم، ولهم فى مباحثهم فى العلم أصوات تلقى فى القلب الخشوع.

وخارج الحرم ساحة مرصوفة بالبلاط الأبيض ومساحتها طولاً وعرضاً مائة وخمسون قدمًا والحرم مرصوف بالرخام الأبيض المصقول والحجر المجلو. وإذا ما هطل غيث الرحمة فإنه يملئ الصهاريج الموجودة أسفل هذا الحرم وتمتلئ هذه الصهاريج من ماء النيل بما يُحمل أربعون ألف جمل، وذلك ضمن أوقاف الجامع. وداخل الحرم فى ثلاثة مواضع فوهات آبار وكأن هذا الصهريج بحر من الماء الزلال.

وعلى جوانب الجامع أربعة وخمسون رواقًا أى مقر لخمسين قومًا من بلاد مختلفة وحقيقة الأمر أن فى كل رواق من أروقتها جمع من العلماء المسلمين من بلد إسلامى ولا علم لسكان أى رواق بلغة أهل الأروقة الأخرى ولا أحوالهم فكل منهم مشغول بالخاص من شأنه. أما فى وقت الصلاة فكأن اليوم يوم الحشر والعظمة لله. وهم يحملون حاجياتهم ويجددون وضوءهم ويؤدون الصلاة ثم يعودون إلى الاشتغال بالعلم وحتى الآن لم أسمع فى الأزهر كلامًا بذيئًا. وكلما وجدت فى الأزهر نسيت علائق الدنيا ودخلت فى حال آخر وطابت نفسى. والأزهر ممتلئ بعلماء مصر وفى مائة وسبعين موضعًا يلقى العلماء دروسهم.

ورواق الأتراك نظيف ويسكنه جميع الأتراك وجميع من يسكنون الأروقة يميلون إلى رواق الأتراك وله أوقاف عظيمة، ورواق العراقيين ورواق المغاربة غير نظيف. وفى أروقة الأندلس والفونجستان والكردستان وأروقة التتار وداغستان والعجم وغيرها من الأروقة الخمسين طلاب العلم. وهم يدرسون جميع العلوم الغريبة والعجيبة كل يوم. وما يسمى بالأروقة فى الجوانب الأربعة من الجامع مائتان وخمسون عمودًا من الرخام الأبيض. وبناء على هذا الإحصاء فهذه الأعمدة أربعمائة عمود. وفى داخل الجامع وخارجه اثنا عشر ألف قنديل تنار كل ليلة ولا تمس حاجة الطلبة إلى الشمع. وعندما

كان أزهر القائد يبنى هذا الجامع كتب طلسمًا وبذلك لا يدخل الجامع من الطيور اللقلق والعصفور والحمامة ولا تعتش فيه وهذا طلسم عجيب.

وخلف باب المحراب تقوم منارتان وكل منهما من خمس طبقات وللجامع سبعة أبواب وهى جميلة الصنع من النحاس الأصفر. وعلى الجانب الأيسر للحرم حوض شافعى ومساحته عشرة أقدام فى مثلها. وفى الجوانب الأربعة للجامع فى سبعة مواضع متصلة مدارس ودور للحديث ودور للقراء وكلها فى أطراف الحرم الكبير للجامع وكلها مكتظة بالمدرسين والطلاب وفضلاً عن هذه الأروقة يتصل بالجامع ربوع إذا دخل الإنسان حجرات واحد منها تَوَّهَتْهُ وهذه الحجرات غاصة بالأعيان والعلماء والصلحاء.

وخلاصة القول أن فى الأزهر اثنى عشر ألف إنسان. وإذا أعلن علماء الأزهر ثورتهم خرج من الجامع منهم سبعمائة رافعين العلم اللهم عافنا إن ثورتهم غاية فى شدتها. وإذا ما دخل الجامع الأزهر مجرم أو لص وتاب وأناب لم يستطع الحاكم أن يأخذه بالعقاب. وفى كل يوم يختم القرآن أكثر من ألف مرة. وإذا أراد أحد أن يختم القرآن على روح أبيه أو ولى نعمته دفع لمن يتلو القرآن ثلاثين باره ولو دفع أكثر أخذوها مع كيسه غصبًا. ويختم القرآن من يتلوه فى سبع ساعات والحفاظ كثيرون. وفى الصباح والمساء يوزع على الفقراء من مطبخ نعمة الله حساء الأرز والعدس مع رغيف. وفى ليالى الجمعة يوزع أرز الزردة واليخنى ويبدو الجامع ليل نهار كأن فيه صاعقة لشدة ارتفاع أصوات من فيه من الناس. وللمذاهب الأربعة فيه من لهم الرياسة عليها. فلمصطفى أفندى الرياسة على رواق الأتراك وكم من مجرم أصبح عبرة لمن يعتبر.

ولرسوخ الاعتقاد فى الجامع الأزهر تبذل له الصدقات والنذور والصُّرر والعطايا وذلك من أهل القاهرة وغيرها من البلاد. إن له أوقافًا عظيمة وإن اللسان عن مدحه لعاجز.

جامع السلطان أحمد بن طولون

فى عام (   )[1] قدم السلطان أحمد بن طولون الإخشيدى من بلاد المغرب ورأى

(١) بياض فى الأصل.

النبى ﷺ فى المنام. فكان ذلك سببًا فى إقامته لهذا الجامع. ومن يشاهد هذا الجامع يظن أنه قلعة لأن جدران أركانه الأربعة وجدرانه ومتانتها ليست لقلعة من القلاع. إنه جامع عظيم مربع الشكل يرتفع جداره أربعين ذراعًا وكأنما فى حجم الكعبة الشريفة. ومحرابه طبق ما أمر به الرسول ﷺ ولذلك أصبح قبلة، وهى قبلة مساوية لكل المواقيت، وبما أنه موضع نظر الرسول ﷺ فله روحانية خاصة. وهو كعبة الفقراء لأنه معبد قديم. وقد جاءت أوصافه فى تواريخ القبط. ويسمون أرضه فى التواريخ القديمة «الأرض الحمراء القصوى» ويسمون جبله «جبل الكبش» ولكن حينما ضرب عمرو بن العاص - رضى الله عنه - الحصار على مدينة الفسطاط وأقام بنو يشكر خيامهم فى هذا الموضع المسمى بالفسطاط فسمى هذاالجبل «جبل يشكر» وكان اسمه من قبل «جبل الكبش» ولما شيد أحمد بن طولون قلعته عليه عرفت بقلعة الكبش. ذلك أنه فى أيام القبابطة كان ثمة طلسم من نحاس لكبش وكان وجه هذا الكبش متجهًا نحو جبل الأهرام بالجيزة. ولما كانت سوق الغنم فى هذا الموضع سمى الجبل «جبل الكبش» وهذه السوق باقية إلى اليوم فى ذلك الموضع. ولما كان موسى عليه السلام راعيًا كان يرعى غنمه فى ذلك الموضع وفى الموضع الذى كان يصلى فيه محراب هذا الجامع. كما كان فيه كذلك مقام موسى عليه السلام والخضر.

وقد رأى أحمد بن طولون النبى ﷺ فى المنام وهو يقول له:

«يا أحمد أقم جامعًا فى موضع مقام أخى موسى»، ونزولاً على أمره ﷺ فى الموضع الذى كان موسى يناجى فيه ربه فوق جبل يشكر وهى أثر قدم موسى عليه السلام بنى أحمد بن طولون جامعه. إنه معبد قديم وفى محرابه وقت الصلاة يستجاب دعاء الدنيا والآخرة. ومن باب قبلة هذا الجامع حتى بابه الغربى مائة وعشرون قدمًا أما عرضه فمائتا قدم. وداخل الجامع من ناحية القبلة تسعون عمودًا عليها قباب حجرية ذات روافد منأعلاها إلى أسفلها. وفى الجوانب الأربعة للحرم العظيم عقود حولها مائة عمود وبين الروافد مائة وستون لوحًا زجاجيًا. وللجامع ستة أبواب ومن باب القبلة الكبير يصعد بسلم له ثمانى عشرة درجة. وكانت مياه بركة الفيل تنصب فى أصل هذا

السلم وكانوا يتوضئون بمائها، وآثارها ظاهرة الآن للعيان ومن الحرم العظيم إلى القبة التى تتوسطه تشبه الكعبة وتحت تلك القبة حوض شافعي وعلى يسرة هذا الحوض نخلة عظيمة لا نظير لها في أرض مصر. وبأمر رسول الله ﷺ حينما جنى تمر المدينة لوحظ أن تمرها من هذا التمر.

وحرم الجامع مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. وللحرم كذلك مقصورتان وله منارة عجيبة بديعة لا وجود لها في بلاد الإسلام وهى مربعة الشكل ومن ثلاث طبقات وهى فى الجهة الشمالية للجامع تطل على الطريق. والصعود في جميع المنارات من داخلها أما هذه المنارة فتصعد من الخارج وذلك بفضل براعة المعمارى الذى بناها. والمؤذنون يصعدون إليها من الخارج وهى من ثلاث طبقات وارتفاعها مائتا قدم. حتى إن فارسًا من فرسان رضوان بك أمير الحج صعدها على جواده وهى ليست غليظة إلى هذا الحد ولكنها من عمل معمارى ماهر.

كيف يكون السماع كالمشاهدة ؟

إن الوصف يعجز عنها وينبغى مشاهدتها، وهى أعلى من كل المنارات وفى ذروتها بدل العلم علم من النحاس على هيئة القارب يقولون إنه طلسم ويقول بعض أهل العلم إن النيل طغى ماؤه حتى بلغ هذه المنارة، وهذا أمارة على غرق مصر على ما يزعمون. إنها الآن عجيبة تشاهد.

وعلى يسرة جدار الحرم كتبت البسملة وطولها أربعون قدمًا وخطها بديع وكل ألف فيها بطول ثمانية أذرع وذيل حروف تلك البسملة مرتفع وهو سحر مبين وهى على الجدار مصقولة مجلوة وتبدو كأنها كتبت لتوها وقد كتبها (الفقير أحمد القره حصارى) عام ٩٣١. وجامع ابن طولون وبسملته التى كتبها «قره حصارى» لهما الشهرة بين الرحالة من العرب والترك والعجم.

وفي الجدار المجاور لهذه البسملة كتبت (و) كلمة (والله) بقلم غليظ اتساع ثلاثة أشبار وهي (و) مستديرة طولها عشرة أذرع وهذا قلم له إعجاز السحر. وعلي يمنة باب قبلة الحرم بسملة أخري وهي كذلك مثل البسملة الأولي إلا أنها مكتوبة بخط أبيض

وهى كذلك طولها أربعون قدمًا ولكنها بخط «حسن چلبى القره حصارى» وفى جدار قبلة هذا الجامع بابان يفتحان على سوق المغاربة، وفى ركن الباب الأيمن منارة من طبقتين، وفى ركن الباب الواقع على الناحية اليسرى منارة من طبقتين. وخلاصة القول أنها ثلاث منارات بديعة الصنع. كما أن للجامع منبر خشبى وقد نجر فكان كالسحر الحلال يحار عقل من يشاهدهُ. ومحرابه كذلك من الرخام المُحَلَّى بالصدف وهو سحر إعجاز.

جامع الحاكم بأمر الله

كان أميرًا من بنى العباس وبعد غارة هولاكو على بغداد فر منها إلى مصر، وكان ساكنًا فى قلعة الكبش. وظل خليفة إحدى وأربعين سنة وأقام هذا الجامع، إنه جامع عظيم كأنه القلعة يقع بين باب الناصر وباب الفتوح. مساحته طولاً وعرضًا مائتا قدم. وللجامع سقف كثير النقوش يقوم على مائة وخمسين عمودًا أبيض وليست له قباب حجرية، وله حرم واسع كأنه سهل، وفى منتصف هذا الحرم جدار مربع، وبداخله حديقة، وفيها الورد والريحان والنبق، وفيها نخيل. ومنبره خشبى مزخرف، ومحرابه من الطراز القديم، ولكنه متقن الصنع وله ثلاثة أبواب: أولها باب القبلة وهو متجه إلى باب الناصر. والآخر يتجه إلى باب الفتوح، أما الثالث فيتجه إلى اليمين. وله ثلاث منارات، أما المنارة التى تتوسط المحراب ضيقة بحيث لا يستطيع رجل أن يصعدها ويمكن أن يصعدها طفل، ومنارتان كأنهما برجان ركينان، طبقاتها السفلى تتسع لخمسمائة رجل يعلوها (شريفة) بديعة الصنع وفوقها طبقة أخرى أصغر وهى كذلك مزخرفة، وهذه المنارات تشبه عمامة البكتاشية طبقة طبقة.

جملة القول أنها منارات رائعة. ولقد بنى الحاكم بأمر الله هذا الجامع ورتب للقائمين عليه اللبن والتمر والسكر. ومع ذلك لم يكن الناس يأتون إلى جامعه وفى النهاية ملأ الجامع الأزهر بالقمامة وبذلك ملأ جامعه بالناس ونسى جميع العلماء أنهم لا يجدون فيه الملائكة التى يجدونها فى الأزهر. وفى النهاية فروا من جامعه الواحد تلو الآخر. وكانوا يتلون القرآن فى الأزهر على الزبيل وكانوا يحملون القمامة من الأزهر على

ظهورهم ويـخرجونها منه. ودامت الحـال على ذلك مدة من الزمـن وذات يوم من عام ٧١٧ قتل الحـاكم بأمر الله ووجـد الناس الخلاص مـن شروره. لقد تحـدثوا كثيـراً عن سفاهة الحاكم بأمر الله وقـالوا إنه فى مذهبه متأثر بالمعتزلة وعـند بعض المؤرخين أنه لم يكن عـلى أى مذهب كان. لـذلك لا يصلى فـى هذا الجامع كـثير من النـاس. ولقد أصبحت ساحته محكمة ولذلك كان فى وسطـه طريق يقطعونه من باب النصر إلى باب الفتوح.

جامع الظاهر بيبرس

مملوك للعبـاسيين وأحد خلفائهم، وجامعـه فى الجهة الشمالية للـقاهرة على أطراف المدينة وهو كذلك جامع كأنه القلعة وفى عهد الظاهر بيبرس أعمل السـيف فى الصليبيين فى بيت المـقدس، وبعد أن فتحه بـنى هذا الجامع من مـال الغنائم. وليس فـى القاهرة جامع مثله فى زخرفته وإتقان بنائه. ومساحته مائة وخمسـة وثمانون قدمًا طولاً وعرضًا. وناحية محـرابه مائة وسبعون عمودًا من الحـجر الصماقى الأحمر واليرقـانى والزنبورى والرخام الأبيض. وكل عـمود منها يعدل ما يؤديه الروم مـن خراج. ويتوسط المحراب قبة عالية يحملـها اثنا عشر عمودًا رخاميًا غليظًا وهى ترتـفع إلى الأفلاك التسعة. وهى مزينة بالزجاج مـختلف الألوان. والجدران فى طرف هذه القبة مكسـوة من أسفلها إلى أعلاها بالـرخام، وأعلى هذا الرخـام صورة لشجرة طوبى وكَـلستان على صـفحة من الميناء، وتحار العيون بمشاهدتها. وفى حـرمه عدة أشجار نبق. وله ثلاث منارات صغيرة يبدو أنها ناقصة البناء، والله أعلم. ولهذا الجامع ثلاثة أبواب. والمصلون فى هذا الجامع قلال. وقـبة المحراب مـكسوة بـالرصاص. وفـى القـاهرة ثلاث قـباب مثـله مكسـوة بالرصاص ولا وجود لـسواهم. ويخترق هذا الجامـع طريق أصبح طريقًا عـامًا. وعلى الأعمدة سقف منقوش بالسيلو واللازورد. وليـس له قبة حجرية. وفـى جوانبه الأربعـة زجـاج منقـوش. ودقـة الصنـع فـى منبره ومحرابه ومكان مؤذنه لا وجود لها فى جامع آخر. والصنعة المعمارية فى باب قبلة حـرمه لا مثيل لها فى ديار أخرى. إنه حقًا جامع جدير بالمشاهدة.

جامع خاى أتابك

من وزراء السلطان حسـن. وهو جامع يقع بالقرب من جامع السلطان حسن وعلى صف حمام الدفتردار وأمام دار عوض بك. يصعد إليه بسلم من ثمان درجات. وجميع جدرانه من الأحجار الحمر والبيض المنقرشة. ولا وجود لأعمدة داخل الجامع وله سقف مذهب قائم على روافد. ومنبر محرابه بديع الصنع. وله بابان أحدهما باب الميضأة وهو على الجهة اليمنى. ولوقوع الجامع على الطريق العام الرئيسى فليس له حرم. وباب قبلته مفتوح على الطريق العام، وقد كتب على يمنة ويسرة هذا الباب بخط جلى (بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وبعد هذه الآية الشريفة كتب على يسرة الباب (أمر بإنشاء هذا الجامع المدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى أمير النعى الخاى أتابك العساكر المنصورة الملك الأشرف أعز الله نصره بتاريخ سنة أربع وسبعين وسبعمائة). وعند باب الحديد يقع:

جامع السلطان المؤيد

وهو سلطان (   )[1] رفيع النسب، وهو الذى بنى هذا الجامع منقطع النظير. إنه جامع معلق، أسفله طوابق أرضية ودكاكين وله ثلاثة أبواب ويُصْعَدُ إليه بسلم حجرى من خمس عشرة درجة. وعلى جانبيه سبعون نافذة كلها تطل على السوق السلطانية. ولازدحام الناس فيه فهو أكثر المساجد ازدحامًا بعد الجامع الأزهر. إنه جامع يسرى فيه النسيم ويشرح الصدر. مساحته مائة وستون قدمًا فى مثلها. وناحية محرابه أربعة وثلاثون عمودًا تحمل سقفًا منقوشًا. ولا وجود فيه للقباب. والعقود التى حول حرمه يحيط بها خمسة وتسعون عمودًا.

وبناء على هذا الإحصاء يكون له مائة وثلاثون عمودًا من الرخام تحمل سقفًا. وطرف جدار محرابه مكسو بالرخام وحرمه الواسع الذى يشبه السهل مرصوف بالرخام الأبيض المصقول ولا وجود لنظيره فى أم الدنيا. وهو مجلو على الدوام ولأن هذا

(١) بياض فى الأصل.

الجامع معلق فإن أرضه يابسة وجدرانه الأربعة من الرخام المجلو، وفيه يبدو وجوه الساجدين فى ركوعهم وسجودهم. وبما أن أوقافه كثيرة فخدامه كثير، وهم على الدوام ينظفون الجامع. ويتوسط حرمه حوض عظيم تعلوه قبة عالية مرفوعة على ثمانية أعمدة بديعة من الرخام، وشادروناتها دائمة الجريان ومنها يجدد المصلون وضوءهم.

وللجامع منارتان وعلى جانبى بابه الحديدى منارتان عاليتان ذات ثلاث طبقات ولكن كل منهما قريبة من الأخرى وغاية فى دقة البناء، وثمة منارة أخرى فى الركن الواقع على يسرة المحراب. والمحراب غاية فى الجمال ومنبره من الخشب المزخرف. كما توجد مقصورة هى مقر المؤذنين مبنية على ثمانية أعمدة رقيقة بديعة. وله سبعون نافذة لها قفص نحاسى ولها مائة وعشرون لوحًا من زجاج.

وخلاصة القول أنه جامع يشرح قلب من يشاهده، وفيه من الثريات ما لا وجود لمثلها فى جامع سواء. وفى محرابه فانوس من النحاس الأصفر. وللجامع ألفا قنديل وكأنه مصباح منير. وهذا الجامع ركين البنيان كالقلعة.

وفى عام ١٠٧٢ حينما كان عمر باشا واليًا على مصر أعلن مماليكه العصيان فتحصنوا فى هذا الجامع، ودام القتال بينه وبينهم ثلاثة أيام بلياليها. وقد حاول استمالتهم فأصدر عفوه عنهم وأمّنهم. إلا أنهم استمروا فى تمردهم عليه واستأنفوا القتال وأغاروا على أرجاء المدينة هنا وهناك؛ فأخرج عمر باشا العلم النبوى المبارك وجعل المنادين ينادون فى المدينة يرددون أنه ليأت من يدينون للسلطان تحت هذا العلم، وأن قتل هؤلاء العصاة حلال، وأموالهم كذلك غنيمة للسلطان. ثم تمنطق عمر باشا بسيف الفاروق عمر وأحضر ما يقرب من خمسة مدافع من طراز «بال يمز» وأقام الحواجز عند حمام الصوباشى ونشب القتال من نوافذ وأسطح المنازل، وأطلق عمر باشا عدة قذائف فأصابت بعضها جامع المؤيد؛ فألقت الرعب فى صدور العصاة فتبدلوا من قرارهم بفرارهم، وتتبعوهم من شارع إلى شارع وأعملوا فيهم السَّيف. وبحسن تدبير عمر باشا دخل القلعة مظفرًا منصورًا ووجد فلولهم فقتلهم.

وبذلك استتب الأمن في القاهرة. حقًا إن له شجاعة وعدل عمر. ولا تزال آثار قذائف المدافع ماثلة إلى الآن في بعض مواضع الجامع.

جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاوون

كان سلطانًا من عظماء الأتراك وفي النهاية ثار عليه مماليكه واغتاله من يسمى يلبغا الذي قتله الملك الأشرف من أبناء السلطان قلاوون ومزق جسده إربًا إربًا، ونال يلبغا جزاءه. وكان ليلبغا مملوك شركسي يسمى برقوق ويسمونه كذلك برقوق العثماني لأنه لحق بخدمة السلطان الغازي «خدا وندكار» العثماني. ولكي يثأر برقوق وجميع الأبخاز والشراكسة من مصر، وبلغوا السلطان طاهر سيف الدين أبا سعيد في دمشق ووزّر له برقوق. ومن أجل روح سيده يلبغا وعمارة مسجد السلطان حسن أرسل خزانة من الدنانير الذهبية، وبذلك جعل من جامع السلطان حسن في ميدان الروملي جامعًا عظيمًا وحوله إلى قلعة حصينة. وليس في بنيانه خشب قط ولا يتصل بالجامع أي بناء آخر. وعلى الجوانب الأربعة للجامع طريق عام، وأساس جدرانه حجارة ضخمة في حجم الفيل. ومحيطه من الخارج ألفا قدم حتى إنه قيل إن السلطان سليم فاتح مصر عند مقدمه من العادلية رأى هذا الجامع فقال: ما هذه القلعة التي لها منارتان؟!

ويسمونه جامع السلطان حسن، ويقال إن السلطان الغوري قد تحصن فيه وهو يقاتل وذلك وإن دل على شيء فإنما يدل على أنه إلى هذا الحد في متانة القلعة الحصينة، وهو أكثر متانة من قلعة مصر. حتى إنه في عام (   )[1] ثار المماليك وتحصنوا بهذا الجامع، وأطلقت المدافع من برج العزب على الجامع إلا أنهم لم يلحقوا به الدمار. والصُدوع إلى الآن ظاهرة فيه.

وجدران هذا الجامع الأربعة عليها نوافذ المدرسة ذات الطبقات العشر. وهي حجرات طوابق المدرسة. وارتفاع جدرانها الأربعة مائة ذراع وهي جدران عظيمة الارتفاع.

(١) بياض في الأصل.

وللجامع بابان أحدهما فى الناحية الشرقية يفتح على سوق السباهية، وهذا الجامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من عشرين درجة من كلا البابين. وعلى الباب روافد على هيئة المحراب وقد صنعها معمارى ماهر فأحسن أيما إحسان وكأنما صنع السحر.

وارتفاع روافد الباب ثمانون ذراعًا. ومصراعا الباب من النحاس الأصفر دقيق الصنع. ويبلغ طول المصراع عشرين ذراعًا. وعلى جانبى هذا الباب كتب بخط كوفى على لوحة سميكة طولها ثلاثة أقدام الشهادة وقد كتبت بالرخام الأبيض والأسود ولم يظهر فيها أثر للبلى منذ ذلك الزمان. وداخل هذا الباب طريق ضيق وهو مرصوف كذلك بالرخام الخالص. ويكون الوصول إلى باب الحرم بالتقدم مائة قدم فى هذا الطريق. وللحرم كذلك بابان أحدهما ينفتح على ميدان الروملى فى طريق يمتد مائة قدم مرصوف بالرخام. وباب آخر ينفتح على سوق السباهية وهو باب مرتفع متقن الصنع. وداخله باب للحرم كتب عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان المرحوم الشهيد الملك الناصر حسن ابن مولانا الشهيد المرحوم الناصر محمد بن قلاوون ذلك فى شهور سنة ٧٦٤).

وتبلغ مساحة هذا الجامع مائة وثمانين قدمًا طولا وعرضًا. وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم العظيم عقود وكل منها كأنها جامع. وليس فى هذا الجامع أعمدة كغيره من الجوامع ولكنه مبنى على روافد. وفوقه وعلى جوانبه الأربعة سبعمائة حجرة للدرس. والآن يقوم على خدمة هذا الجامع خدام متزوجون وفى وسط هذا الحرم العظيم حوض جميل مثمن الشكل، وعلى جوانبه الثمانية أعمدة تقوم عليها قبة عالية. إلا أن مياه هذاالحوض جيرية وقبته دقيقة الصنع.

وجاء فى تاريخ فضائل مصر أنه حينما أرسل يزيد بن معاوية رأس الحسين إلى مصر سنة إحدى وستين للهجرة رغمًا عن أهلها تركت فى موضع جامع السلطان حسن. وكم من يزيدى ركل رأس الحسين وكم من أرجل لهم تورمت وأصبحت كالقربة ومن ذريتهم الآن آلاف لهم أرجل كالقرب. ولكى يحفظ الله هذا الرأس الشريف أظهر بحيرة حوله فلم يستطع اليزيديون ركله، وبعد ذلك أقدمت امرأة من محبى أهل بيت الرسول ﷺ

على ذبـح ولدها ليـلاً وأخذت رأس الحسين ووضعـت مكانه رأس ولـدها. وإلى الآن رأسه محفوظ فى مشهده. وفى عهد الخلفاء العباسيين عمر هذا المشهد.

وبعد عـام ٧٦٤ أقام السلطـان حسن هذا الجامـع وأنشأ حوضًا عـظيمًا علـى حافة البحيـرة التى ظهرت حول رأس الحسـين تبركًا. ولقد ثار مماليـك السلطان حسـن عليه وضربوا عـنقه عند حافـة الحوض الذى فيه رأس الحسـين وسال دم السلطان حسـن فى الموضع الذى كان فيه رأس الحسين.

وفى ذلك الوقت جف ماء الحوض فأنشأ أولاد السلطان حسن فى هذا الموضع ساقية والآن يمتلـئ حوض الجامع من مـاء الساقية. والآن حوض الـسلطان حسـن مقام رأس الإمام الحسين، ولذا فـإن الناس يتوضئُون من مـاء هذا الحوض ويدعون بالخير لـلحسن والحسين ومـوضع المؤذنين فـى ذلك الجامع مـقام على ثـمانية أعـمدة رفيعـة فى رافد المحراب ولا وجود لمثله فى مصر.

وزخرفة المحراب محلاة بالـصدف وطرزها فوق طاقة البشر. والمنبـر جدير بالمشاهدة وهو منبر ينتهى بالرخام ولذلك فهو منقطـع النظير وزخارفه بديعة وكأنه منبر معلق لأن الناس يمرون تحـته ذاهبين عائدين. والأطراف الـثلاثة لجدار رافد هذا المنبـر رخام طوله ثلاثة أقدام، وهـذا الرخام مكسو بألواح الحـجر الصماقى الأحمر والـرخام. وأمام هذا المحراب دفن السلطان حسـن تحت قبة بيضاء عالية. لقد اغتالـه مماليكه والله أعلم. ولا وجود فى الدنيا لمثل هذا القبر فعلاوة على النقوش مختلفة الألوان فيه كتب قيمة وبسط منسوجـة بخيوط الذهب ومصـاحف وثريات نفيـة وعـدة مئات من القناديـل المرصعة بالجواهر وشمعدانات ومباخر وأوعية لمـاء الورد. وكأن هذا الضريح ضريح النبى ﷺ. وعلى يمنة المحراب ويـسرته نافذتان تطلان على قـبر السلطان حسن ولهمـا قضيبان من النحاس إحداهما تبـدو وكأنها باب يدخل منه إلى الضريح. ولهاتـين النافذتين مصاريع يبلـغ طول الواحد مـنها ثلاثة أقـدام، وعرضه باعـان. إنها مصاريـع مكسوة بـالذهب والفضة، ومرصعة بالسيلو واللازورد. وكل مصراع منها يقدر بقيمة خزانة مصرية وهذا حق ولا يستطيع صائغ أن يكسرها بمطرقة ولا أن يبردها بمبرد.

رأينــــا جـوامـــع الـدنـيـا جـمـيـعـــًا
ولـكـن مـا رأيـنـا مـثـــل هـــــذا الجامـــع

وفوق جدران المحراب منارتان عاليتان، وقد انهدمت المنارة اليسرى فى عهد الدفتردار إبراهيم باشا فأقاموا منارة أخرى على أساسها، إلا أنها منارة قصيرة من طبقتين. أما المنارة اليمنى فهى عالية من خمس طبقات تضاء بالقناديل. ولا وجود فى مصر لمنارة أعلى من هذه المنارة. وعند الصعود من داخل الجامع إلى سطحه عبر باب المنارة يكون الارتفاع تسعون قدمًا ومن داخل المنارة إلى أعلاها يكون الارتفاع تسعون قدمًا كذلك. وبذلك يكون الارتفاع بتمامه مائة وثمانون قدمًا. ولقد صعدتها فتعبت ركبتاى ثلاثة أيام. إنها منارة عالية وطبقتها الوسطى تتساوى فى الارتفاع مع باب القلعة الداخلية مع عتبته. وبناء على هذا القياس يبدو كيف أن القلعة الداخلية بناء عالٍ طيب النسيم.

وتحت هذا الجامع طريق على جانبيه خمسون دكانًا وميضأة وأحواض شافعية ودار للضيافة وسواق. إنه بناء ركين له أوقاف عظيمة ونظارة هذه الأوقاف لرؤساء خزانة وزير مصر، ويتقاضى الواحد منهم ثلاثة أكياس فى العام.

وأمام محراب جامع السلطان حسن طريق يؤدى إلى:

جامع محمود باشا

من وزراء السلطان سليمان. وقد شيد هذا الجامع عندما كان واليًا على مصر وفى ليلة أول جمعة أدى صلاتها فيه رأى فيما يرى النائم أن السلطان تربع على العرش وعقد الديوان وجمع علماء مصر قاطبة وقال لهم: لى مع محمود باشا نزاع شرعى لماذا أقام جامعًا فى حدودى لقد سرق المصلين من مسجدى. وما الذى يتخذ تجاه هذا التصرف منه؟ وعندئذ قال العلماء جميعًا: ينبغى أن تخلع عليه خلعة لأنه أقام جامعًا أملاً فى رحمة الله به وسرق هذه الرحمة. فغضب السلطان حسن وقال: ينبغى أن أقتل محمود هذا وأستدعى الجلادين، وطلب إلى أن أجثو وضرب عنقى. وقص محمود باشا هذه الرؤيا على إمامه وطلب منه أن يفسرها له. فقال الإمام: خيراً. وفى اليوم التالى بينما كان محمود باشا فى موكبه يمر أمام جامع السلطان حسن أطلق أحد الجنود الرصاص

عليه وفر القاتل. إلا أن رجال محمود باشا أسقطوا القاتل عن جواده ودفعوا به على جثة محمود باشا وبينما كانوا يضربون عنقه أصاب السيف جثة محمود باشا ففصل رأسه عن جسده وقتلوا القاتل كذلك بجانب جثة محمود باشا. وهو الآن مدفون فى قبر مرتفع أمام محراب جامعه.

وسبب استشهاده هذا المصراع الذى أصبح تاريخًا لوفاته: كانت خاتمة محمود سنة ٩٧٥.

وهذا الجامع جامع لطيف معلق على الطراز التركى ويصعد إليه بسلم حجرى من اثنتى عشرة درجة. إنه جامع صغير لطيف وله منارة على الطراز الاسطنبولى. وعلى يسرة جامع محمود باشا طريق يفضى إلى:

جامع مير آخور الكبير

إنه كذلك جامع معلق صغير جميل، كل جدرانه مزخرفة. وعلى يمنته باب يصعد إليه بسلم حجرى من ست عشرة درجة. وعلى رافد بابه كتب بالمرمر الأبيض بخط جلى هذه الآية الشريفة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**﴾ [الإسراء: ٨٠]. وعلى يمنة ويسرة هذا الباب كتب على الرخام بخط جلى: (إنشاء أيام هذه المدرسة المباركة من فضل الله المعز الأشرف العالى المولى الوالى لسنغى فانالى أمير اخور الكبير أعزه الله تعالى).

ويعلو بابه منارة رشيقة مربعة من أربع طبقات.

إن هذان الجامعان ليسا من جوامع السلاطين ولكنهما ملتصقان بجامع السلطان حسن ولذا ذكرتهما.

جامع السلطان الغورى

إنه قريب العهد لأنه بنى عام ٩١٦. وبما أنه بنى بعد كل الجوامع الأخرى فقد سرق مهندسهُ تصميمهُ من تلك الجوامع. ومن يتعرف إلى جامع الغورى يدرك أن مهندسه له اليد الطولى. إنه أقام جداره من رخام وسماق ملون ومزج الرخام بالصماق بحيث لم يكن بين هذا وذاك موضع لرجل بعوضة. كما مزج رخام أرضيته بحيث يظن من يراها أن الأرضية من حجر واحد. والرخام الذى فيه كالذى فى قصر الغورى. ولوجود هذا الجامع فى سوق الغورى يؤمه كثير من المصلين.

وبعد أداء الصلوات توصد أبوابه لأن خلاص الجامع من الفلاحين فى مصر غير ممكن لأن هذا الجامع طيب النسيم وكأنه قصر. فإذا فتح على الدوام أعدوه داراً للضيافة والاستراحة. إنه جامع معلق يصعد إليه من السوق السلطانية بسلم حجرى من تسع درجات وذلك من ناحيتين. وله باب خلف باب القبلة (تاقيه جيلر ايجنه مكشوفدر) ويصعد إليه بسلم حجرى من عشر درجات. وله محراب بديع الصنع يعجز صناع الهند عن صنعه. إلا أن منبره صغير وهو منبر خال من الزخارف لأنه مصنوع من خشب العود. وجوانب هذا الجامع الأربعة لها قباب ذات روافد ولا وجود لأعمدة فيه وهو يزدان بثريات نفيسة مختلفة، ونوافذه تطل على السوق السلطانية وفيها زجاج بديع ينفذ نور الشمس فيجعل الجامع نوراً على نور. وفى جامع السليمانية فى اسطنبول زجاج مثل هذا. ولأن الجامع مبنى فى مكان ضيق ليس له حرم وكأنه قصر عالٍ. وعلى محرابه قبة زرقاء عالية مكسوة من أسفلها إلى أعلاها بالقيشانى اللازوردى. وللجامع منارة من أربع طبقات متشعبة من أسفلها إلى أعلاها وأمام هذا الجامع طريق يفضى إلى:

ضريح السلطان الغورى

ضريح مرتفع إلى عنان السماء وهو مكسو باللازورد بدلاً من الرصاص. إنه الآن زاوية يؤمها المصلون. ولها خدام. وهذا الضريح علوى كذلك يصعد إليه بسلم حجرى من عشر درجات وكأنه قصر ملكى. وفى جوانبه الأربعة كوات تطل على السوق

السلطانية. وهذا الضريح عليه نقوش ذهبية مختلفة الألوان وكأنما بنى بقدرة إلهية وكأنه قصر من قصور إرم ذات العماد. إن اللسان ليعجز عن وصفه ولقد شاء السلطان الغورى ـ رحمه الله ـ أن يجعل هذا الضريح له فأمر بتذهيبه وزخرفته، ولكن «العبد يدبر والله يقدر» وفقد الغورى فى حربه مع السلطان سليم فأصبح هذا الضريح زاوية. وفى هذه الزاوية منشفة وضوء النبى ﷺ ومكحلته ومروده وشعرات من لحيته الشريفة، وهى محفوظة فى صندوق مرصع بالجواهر وهذا الدولاب مغلق. وبعض الأعيان يأتون لمشاهدته تبركًا. وعندما قدمت من بلاد الفرنجة عشيت عيناى من شدة الحر، وجرأت على أن أكحل عينى من مكحلة النبى ﷺ فقوى بصرى ووجدت الفائدة من اكتحالى.

وفى هذا الضريح والجامع المقابل له طلسم له خاصية عجيبة فليس بهما بعوض ولا ذباب ولا بق. وإذا ما داوم على المجىء إليه رجل مقمل لم يبق قمل فى رأسه. إنه طلسم عجيب غريب. ولقد عرفت عدم وجود البعوض والذباب فيه وكنت أداوم على المضى إليه وداومت على أن أنام كأصحاب الكهف لأنه مكان طيب النسيم ولا وجود فيه لعذاب البعوض. وطالما اجتمع فيه ظرفاء القاهرة. إنه جامع يستحق المشاهدة والسلام. ولقد أعيد بناؤه عام ٧٧٧.

جامع السلطان برقوق

مجاهد فى سبيل الله من صفوة الشراكسة. وكان فى أول أمره مملوكًا لمن يسمى يلبغا الذى قتل السلطان حسن صاحب الجامع. وكان برقوق فتًى شركسيًا شجاعًا من قبيلة بسنى الشركسية. وحينما هم الملك الأشرف بالثأر من يلبغا لقتله السلطان حسن وتمكن من قتله ألف برقوق جيشًا من أربعين أو خمسين ألفًا من الشراكسة والأبخاز وثاروا مطالبين بالثأر لسيدهم يلبغا إلا أنهم انهزموا فى النهاية وأبعد برقوق وجميع من معه من الشراكسة والأبخاز إلى الشام. وهناك أصبح سلطانًا عظيم الشأن وفتح عكا وصيدا وبيروت وطرابلس الشام، ثم عاد إلى مصر سلطانًا عظيمًا على رأس جيش جرار. وكان اسمه يذكر فى الخطبة على أنه «الملك الطاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق العثمانى».

وفى عام ٨٠٠ أصبح برقـوق هذا أول سلطان من الشراكسة. وقـد أقام هذا الجامع من أموال الغزو فى السـوق السلطانية. ويؤم هذا الجامع كثير مـن المصلين. وهو جامع معلق يصعد إليـه بسلم حجرى من ثمانى درجات. إنه بناء عظـيم على الطراز القديم. ومساحتـه مائة وسبعون قدمًـا فى مثلها. وفـى جوانب حرمه الأربعة أربـعة عقود ذات روافد. ويتوسط حرمه حوض عظيم ومنبر محـرابه من الطراز القديم وله مئذنتان وهما لا تتشابهان، بناهمـا معمارى بارع بذل قصاراه فى بنائهما فصنع مـئذنتين بديعتين وكل منهما من ثلاث طبقات. وليس للجامع بـاب يطل على السوق. وطاقاته ومصاريع بابه النحاسـية يعجز عنهـا الوصف. وهو مشهور بين جـميع الرحالة بباب «الـبرقوقية». وكتب علـى محراب هذا الجامع قولـه ـ تعالى ـ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾[1]. وتحت هذه الآيـة تاريخ هو: (أمر بـعمارت فى أيام مـولانا السلـطان برقوق سنـة سبع وسبعين وسبعمائه. ولا وجود لأعمدة داخـل هذا الجامع، وكله بناء ذو روافد والرخام الذى فيه لا وجود له فى سواه ويتصل بهذا الجامع:

جامع الملك الكامل محمد

كان السلطان الكامل سلطانًا شجاعًا مشهورًا تقيًا من صفوة سلاطين الأيوبيين، وهو الذى بنى هـذا الجامع وطرازه هو عين طـراز جامع السلطـان برقوق، ولا فرق بينـهما البتـة. وإن كان بينهمـا فـرق فـهـو فـى المنارة التى تختلف فى طرازها عن منارة جامع برقوق. كما أن قبةهذا الجامع أكثر ارتفاعًا من قبة جامع برقوق إلا أنها قبة مستديرة من الخشب. وله قبـة أخرى مكسوة بالرصاص، فالفـرق بينهما فى المنارة والـقبة ليس إلا. والسلام.

وعلى جانب جامع البرقوقية:

(١) الآية الكريمة ٥٠ من سورة الروم.

جامع السلطان ناصر الدين

سلطان غازى حسيب النسب من سلاطين الأيوبيين، وهذا ما يبدو من آثاره. وله جامع عظيم يشبه جامع السلطان حسن. وداخله مصمم على نفس الغرار. وله أربعة عقود. وهو بناء ذو روافد ولا أعمدة بداخله. ومساحته مائة وخمسون قدمًا فى مثلها. ومنارته كأنها برج مزخرف يعجز عنها الوصف. ويتوسطه حوض شافعى مساحته عشرة أقدام فى مثلها. وعلى باب الحرم تاريخ مكتوب هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة السلطان العادل ناصر الدين بن محمد بن السلطان سيف الدين بن السلطان قلاوون الصالحى) ومقابل هذا الجامع:

جامع السلطان الطاهر

إنه جامع معلق كذلك يصعد إليه بسلم حجرى من بضع درجات. وهو جامع عتيق ومساحته مائة وسبعون قدمًا فى مثلها. وعلى جوانب حرمه الأربعة أربعة عقود عليها روافد. وفى حرمه حوض ومنبره قديم الطراز. ومنارته من ثلاث طبقات ورخام حرمه ليس متقن الصنع إلى حد بعيد. ولكن فى هذا الجامع روحانية. وتجاه هذا الجامع طريق يفضى إلى:

جامع السلطان قلاوون الصالحى

سلطان عظيم الشأن من آل (   )[1]. إنه جامع معلق فى السوق. ويصعد إليه بسلم حجرى من خمس درجات. وله باب مزخرف عليه تاريخ مكتوب هو:

(أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك فى أيام مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى، وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٨٣). وفى أطراف حرمه العظيم أربعة صفوف من العقود. ثلاثة منها روافد أما فى العقد الذى فى جهة المحراب سقف منقوش مقام على ثمانية أعمدة من الرخام ومحرابه مزين بالصدف بديع الصنع. أما منبره فمزخرف بالرسوم النباتية. ويتوسط حرمه أربعة عشر

(١) بياض فى الأصل.

عمودًا دقيقًا من الرخام، عليها قبة عالية ذات سقف وتحتها حوض شافعى مساحته عشرة أقدام فى مثلها. ونافورته تتدفق كأنها السلسبيل. وعلى الطريق بعيدًا عن الجامع منارة من ثلاث طبقات كأنها برج قلعة وهى مرتفعة للغاية. ويؤم الجامع كثير من المصلين لأن به مستشفى قلاوون والمبرات السلطانية. ولهم مؤسسات خيرية وأوقاف كثيرة. ويتصدق على خمسة أو عشرة آلاف غريب فى كل يوم على الدوام. وسوف أتحدث عن مستشفاه ومبراته فى موضعهما بمشيئة الله.

جامع السلطان الصالح

أحد سلاطين الأكراد. دبّر الأمور فى مصر، وألحق الهزيمة بالصليبيين فى المنصورة ورشيد. ولقد أقام هذا الجامع من مال الغزو. إنه يوسف صلاح الدين بن أيوب الكردى. وهذا الجامع على الطراز القديم إلا أن فيه روحانية وجهة المحراب وخلفه باب، على جوانبه روافد وعقود. وعلى جانبى الحرم ثمانية أعمدة من الرخام. فوقها حجرات المدرسة. ونوافذها تطل على حرم الجامع ومحرابه ومنبره على الطراز القديم. ويتوسط حرمه حوض شافعى. وله منارة وباب، وعلى يسرة الحرم «سبيل خانه» وخلفه قبر عالٍ دفن فيه السلطان الصالح. إنه ملك غاية فى عظمته. ومن أبنائه سبعة سلاطين. كما أن سبعة من أحفاده خلفاء. وأوقافه معمورة إلى الآن.

وعلى محرابه تاريخ تعمير هذا الجامع وترميمه وهو:

أتحف الله مصرنا بوزير قد تسمى باسمه الجليل الكريم، ثم تجديده سعد تاريخ نجم أشراف أحمد المرحومى سنة ١٠٦٣ . وكان هذا الجامع بناء قديمًا ثم أصبح بناء جديدًا، وأصبح جامعًا هو نور على نور. إنه جامع عتيق. وعلى الطريق العام قبالة هذا الجامع يقع:

جامع السلطان الأشرف

آخر سلاطين الأيوبيين. وهذا الجامع معلق. يصعد إليه بسلم حجرى من ست درجات إنه جامع بديع وكأنما بناه معمارى لتوه. وهو جامع تنشرح له الصدور وهو يشبه جامع السلطان الصالح فى وجود عقود ذات روافد ناحية محرابه، ولا وجود

لعقـود فى جوانبـه. ولكن له جدران. ووسـطه مكشـوف ولا حرم له ـ وكل جـوانبه الأربعة مكسوة بالرخام بسمك قدم. ولوقوع هذا الجـامع فى السوق السلطانية يؤمه كثير من المصلين. وله منارة من ثلاث طبقات.

وهذه الجوامـع السلطانـية السبعـة سالفة الذكر تـقاربت جدرانهـا ومناراتها ومـعظم الجوامع فى القاهرة على هذه الصفة.

جامع السلطان جان بولاد زاده

إنه جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من عشر درجات. وسلم هذا الجامع خارج القلعة. ولقـد أقيم هذا الجامع على أسوار القـلعة وهو متصل بباب النـاصر. إنه جامع صغير لا حرم له وهو منقطع النظير ليس فى القاهرة وحدها بل فى جميع بلاد المسلمين التى زرتها. وله قبتان عـاليتان وهما مربعتان مدببتان، وقد بنـيتا على حجر طوله ذراع وليس لـهما من نظـير فى بلـد آخر. وهما ليـستا مكسـوتان بالجص ولا بـالرصاص. ولكنهما من حـجر وهذا الحجر معروف فى مصر وحدها وفى مـناطق أخرى قباب من الحجر مثـل هذه القباب إلا أنها عـلى غرار هاتين القـبتين. وكان للبنـاء قواعد وأصول روعيت منذ الزمان الغابر فى مصر وكان بناء كل قبة على نسق خاص، ولذلك لم يكن بين هذه القباب تشابه.

كما أن المنارات فى القاهرة كان زخارف كل منها تختلف عن زخارف الأخرى، وكل منها أقيـم على طار خاص. مما أضفى عـلى المدينة زينة. ولجامـع جان بولاد زاده هذا منارة رشـيقة من ثلاث طـبقات وهى منارة غـاية فى جمالـها. وعند عودة أمـير الحج المصرى مـن مكة إلى مصـر فى اليوم السـادس من شهر صفـر الخير يأتى مـع المحمل الشريف إلى هذا الجـامع ويحتشد فيه العلـماء والصلحاء ويقضون ليـلة فى تلاوة المولد وذكر الله وتوحيده. وفى صباح اليوم التالى يمضـى أمير الحج بالمحمل فى موكب عظيم إلى الباشا لتسليمه إليه. فجامع جان بولاد زاده جامع مبارك.

وبالدخول من باب الناصر وبالقرب من وكالة جعفر يواجه:

جامع السلطان بيبرس

أحد مماليك بنى العباس. وليس هذا الجامع كبيرًا. ولكنه بنى بمال الغزو ولذا له روحانية. ولا وجود لأعمدة بداخله. وعلى جوانبه الأربعة صفات عقود. والجدران التى حوله مكسوة بأحجار مختلفة وحجارته الأخرى رخام وكل حجر منها فى حجم السجادة. ومحرابه ومنبره من الطراز القديم ومنارته من ثلاث طبقات وهى من طراز آخر. وعند باب الصوباشى وأمام الباب الحديدى يقع:

جامع السلطان صالح حاجى

آخر سلاطين البحرية ويحتمل أن يكون هذا الجامع للسلطان يوسف صلاح الدين والله أعلم؛ لأنه جامع عتيق ولكنه ليس كبيرًا. إنه مقام على أربعين عمودًا ومحرابه ومنبره لا دقة فى صنعهما. وفى حرمه شجرة نبق عظيمة ولهذا الجامع ثلاثة أبواب من حديد. والباب الذى من ناحية قصر الصوباشى موصد. إنه جامع معلق والجزء السفلى منه تحت الأرض وفى المكان الذى يسمى ديلم سجن للصوباشى وكأنه الجحيم ويسجن فيه المجرمون والمستحقون القتل. ولهذا الجامع منارة عتيقة من طبقتين وعند الباب القبلى لهذا الجامع محكمة «مبين شرع الرسول».

وبالقرب من جامع النظامية:

جامع السلطان قان باى الچركسى

عزل سبعة سلاطين من التركمان فى يوم واحد وثمل عين بعضهم. وهؤلاء السبعة مدفونون أمام محراب هذا الجامع. والسلطان «چيقماق» مدفون بين هؤلاء السلاطين السبعة. ولهذا الجامع باب مفتوح على الناحية القبلية وعلى طرفى هذا الباب تاريخ مكتوب بخط جلى على الرخام وهو قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١٨]. ثم (بتاريخ شهر ربيع سنة ٨٨٤).

إنه جامع معلق صغير جدًا. له منارة منخفضة منطبقتين. وقباب هذا الجامع من الحجر ويؤمه قليل من المصلين وهو واقع في موضع طيب النسيم. وبعد باب الوزير يواجه جامع «أم الحسن» وداخله قرافة المجاورين وبداخلها باب متروك أمامه:

جامع أرسلان قاى

له سلم يتألف من ست درجات. وهو جامع معلق بديع ولكنه صغير. وليس له حرم وله منارة من طبقتين. وفى الميدان الذى يطل عليه باب قبلته سوق الغلال وهذا الجامع متصل بأسوار القلعة. ولكن الرمال غطت أسوار القلعة وأهالى هذا الجامع يخشون عادية اللصوص. وفى القلعة الداخلية يقع:

جامع السلطان قلاوون

أحد سلاطين آل أيوب. إنه جامع من طابق واحد عظيم كأنه القلعة ومساحته مائة وخمسون قدمًا فى مثلها. وناحية محرابة ثمانية وثلاثون عمودًا تحمل سقفًا. وعلى محرابه قبة عالية مغطاة بالجص الأبيض. إلا أنها قبة من نور، وداخلها محلى بنقوش ذهبية «لبهزاد» وقد أقيمت هذه القبة على عشرة أعمدة عالية من الحجر الصماقى الأحمر. والمحراب من الحجر. ومنبره منبر صغير منخفض من الرخام الأبيض. وكتب على باب منبره الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعلى يمنة المنبر قفص حديدي مربع وداخله مصلى خاص بالباشاوات. وهو قفص مشبك متقن الصنع بديع الشكل وكأنما صنع حديده داود ـ عليه السلام ـ. ومثل هذا القفص فى المدينة المنورة وهو شبكة رسول الله ﷺ. وفى أطراف هذا الجامع صفّات عليها ستة وثلاثون عمودًا من الرخام الأبيض عليها عقود وفوقها سقف منقوش مزين بالسيلو واللازورد وحمر الألوان، والسقف من أوله إلى آخره ثقوب ثُمَانية الزوايا وهذه الثقوب على هيئة الأطباق ذلك أن السلطان قلاوون فى سماطه المحمدى على الدوام كان يقدم الطعام فى ثلاثة آلاف طبق من الخزف المرتبانى الأخضر ورمزًا إلى هذه الأطباق زين السقف بثلاثة آلاف وحدة زخرفية على هيئتها. ومساحة كل وحدة زخرفية تتسع لإنسان. وجدران هذا الجامع محلاة من أعلاها إلى

أسفلها بالصدف كما أن بعض المواضع فى جدرانه من الرخام. وليس فى القاهرة جامع كل جدرانه مكسوة بالرخام المزخرف.

وللجامع بابان. ولقد أوصد «طوب اتان باشا» الباب القبلى. أما أبوابه الجانبية فمصنوعة من النحاس. وموضع مؤذنه فوق ستة عشر عمودًا رقيقًا من الرخام الأبيض فكأنه مقصورة «إرم ذات العماد». وللجامع باب آخر هو باب الميضأة ويقع هذا الباب فى الركن الأيسر للمحراب. وفى طرف حوض هذه الميضأة منارة رشيقة من طبقتين مكسوة بالقيشانى الأخضر كذلك. وحرم الجامع مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. ولهذا الجامع أوقاف عظيمة. وهو يطل على مقر رياسة جاويشية معسكر الانكشارية. ولا وجود لمؤذنين فى الجوامع الأخرى لهم حسن صوت مؤذنى هذا الجامع. والباشا يستمع إلى تواشيحهم وابتهالاتهم فى كل ليلة. ويؤدى الباشاوات صلاة الجمعة غالبًا فى ذلك الجامع. وقد صنع صانع ماهر ساعة شمسية لمعرفة مواقيت الصلاة الثلاثة فى حرم الجامع وكأنها ساعة على قوشجى. وثمة جامع آخر فى ميدان قصر الباشا وهو:

جامع السلطان الملك الناصر فرج

يسمى جامع دهيشة وسبب تسميته بذلك الاسم أنه كان ديرًا فى عصر القبط لفتاة قبطية تسمى «دهيشة» ولكن السلطان فرج هو الذى بناه. ويصعد إليه بسلم من ست درجات وهو جامع علوى وله بابان جانبيان وليس له باب للقبلة. وأعمدة هذا الجامع أعمدة مربعة ذات قواعد يبلغ عددها (   )[1] عمودًا عليها سقف خشبى أخضر وعلى يمنة ويسرة بابه الكبير تاريخ السلطان فرج. وكواته تطل على ميدان القصر. إنه جامع صغير لا حرم له. له منارة منخفضة من طبقة واحدة. وقد مال محرابه نحو أحد الأركان والحقيقة أنه كان ديرًا فى ماضى الزمان. وله مؤذنان رخيم صوتهما وخطيب من صلحاء الأمة. وبالقرب من بركة الأوزبكية يقع:

(١) بياض فى الأصل.

جامع السلطان أوزبك

من سلاطين آل (   )[1]. وهو جامع علوى يرتفع ستة أقدام. ومساحته مائة قدم طولاً وعرضًا. وله سقف أزرق اللون مرفوع على ثمانية وثلاثين عمودًا من الرخام. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم. وله بابان جانبيان وباب للقبلة ومنارة رشيقة جميلة من ثلاث طبقات.

وفى الدرب الأحمر يقع:

جامع أم السلطان حسن

جامع معلق يصعد إليه من باب مطل على الطريق بسلم حجرى من ثمانى درجات وله منارة رشيقة من أربع طبقات. إنه جامع غاية فى الجمال إلا أنه بلا حرم وكواته تطل على الطريق العام. ولا أعمدة بداخله. وسقفه منقوش مقام على عقود ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. وعلى نفس الطريق يقع:

جامع السلطان مردان

من تجار الأكراد. وكان قصابًا فيما مضى. وكانت تأتى إليه امرأة على الدوام وتشترى من مردان هذا خروفًا. واتفق ذات يوم أن تعقبها مردان هذا ليعلم إلى أى مكان تمضى بهذا الخروف فتابع السير فى أثرها. فرأى أنها دخلت جوف مغارة فى جبل الجوشى بهذا الخروف. وكان فى هذه المغارة دب مخيف فوضعت الخروف أمام الدب. وبعد أن التهم الدب الخروف باشر هذه المرأة. فرأى مردان القصاب هذا من أمر المرأة فبلغ منه العجب مبلغه. فظن أن فى الغار كنز أو مقبرة للمجوس. وعاد مردان القصاب إلى دكانه. وفى صباح اليوم التالى اشترت المرأة خروفًا ومضت إلى المغارة فتمنطق مردان بالساطور فى شجاعة ومضى إلى المغارة. ورأى المرأة مع الدب فصاح قائلاً: الله وقتل الدب. واستجوب المرأة فقالت: والله إن هذا الدب كان موكلاً بهذا الكنز. وكلفنى والدى بهذا الأمر فكنت آخذ من هذا المال وأشترى خروفًا فى كل يوم وأطعم الدب الذى يجامعنى. وهنا أنت خلصتنى من ذلك الأمر. لذا أصبح ذلك المال الجزيل

(١) بياض فى الأصل.

من حقك. وإذا ما شئت فالأمر كذلك. فأخذ مردان هذا المال الجزيل ومضى بالمرأة إلى السلطان وقص كل منهما الخبر عليه. فقال السلطان: يا مردان أعطنا عشر هذا المال. وتصرف كيفما شئت فيه.

فكره مردان أن يحمل المال ووزعه على فقراء القاهرة. ومن هذا الكنز أقام مسجدًا، ومات السلطان فنصّبوا مردانًا سلطانًا مستقلاً.

إنه جامع معلق مزخرف جميل له سقف منقوش يقوم على ستين عمودًا من الرخام. وله حرم واسع. وله بابان جانبيان وباب للقبلة. ومنارته من ثلاث طبقات ومنبره من الخشب المنقوش وهو غاية فى جماله. ومحرابه محلى بالصدف. والجامع مزين بالثريات النفيسة، وله فوانيس نحاسية داخلها آلاف من القناديل. كما أن بسطه الحريرية لا وجود لها فى جامع آخر. وأغلب المصلين فيه من الترك. وله خدام كثيرون. كما أن أوقافه عظيمة.

وبالقرب من السيدة نفيسة:

جامع السلطان خير الأم

إنه جامع عتيق. ولكن المصلين فيه قليل. وفنونه الزخرفية قديمة الطراز يعجز اللسان والقلم عن وصفها. وقد بليت منارته وضاعت أوقافه.

وبالقرب من هذا الجامع يقع:

جامع السلطان عبد العزيز

من سلاطين العباسيين. إنه جامع صغير. له سقف يحمله اثنا عشر عمودًا من الرخام. ومحرابه خال من النقوش. ومنبره من الخشب المزخرف. وله منارة رشيقة جميلة. ولأن السيدة نفيسة مدفونة أمام محراب هذا الجامع سمى بجامع السيدة نفيسة.

وفى أسفل المدينة فى حارة صانعى العمائم يقع:

جامع پيك خانه

إنه جامع أرضى يؤمه كثير من المصلين.

وفى حارة الوزانين يقع:

جامع عصام الدين

إنه جامع غاية فى صغره.

وتجاه قصر رضوان بك طريق يفضى إلى:

جامع محمود بك

وهو على رأس حارة صانعى الخفاف. إنه جامع صغير لا حرم له ولكنه جامع نظيف بديع. ومحرابه مزين بالأحجار. وعلى جانبيه أعمدة فى غلظ الذراع وكأنما ينثر الجوهر. والمصابون باليرقان إذا داوموا ثلاثة أسابيع على لعق أعمدته شفوا من هذا المرض بإذن الله. ولهذا الجامع منارة جميلة.

وفى هذه السوق تقع «الصراج خانه» وبها:

جامع جانم بهلوان

جامع معلق يصعد إليه بسلم من ست درجات. إنه غاية فى الجمال. له منارة رشيقة من ثلاث طبقات. وبالقرب منه:

جامع ( )[1]

جامع معلق كذلك وهو يكتظ بالمصلين. وله منارة رشيقة عالية من ثلاث طبقات وعلى رأس حى «الخيامة»:

جامع جان بكيه

كتب على بابه قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، كما كتب بعد هذه الآية تاريخ هو (سنة اثنين وثمانمائة). إنه جامع معلق يصعد إليه من طرفه بسلم من خمس درجات. وهو جامع منير. إلا أنه صغير وبالقرب من سوق الصليبة:

جامع أمير الماس حاجب سلطانى

إنه جامع صغير أرضى. ولكنه نظيف للغاية، وفيه روحانية، ولا ينقطع عنه المصلون، وقد بنى من مال الزكاة، لذلك يسكن فيه الصوفية. وإذا ما وجد أحد فى

(١) بياض فى الأصل.

نفسه ألمًا وصلى فيه زال عنه ألمه وطاب نفسًا. وله ثمانية وعشرون عمودًا تحمل سقفًا مذهبًا. وفى حرمه شجرة نبق وثمارها فى حجم الجوزة. وعلى أربعة أعمدة صغيرة من الرخام يرتفع عليها قبة صغيرة تحتها صنابير. ومحرابه من الطراز القديم. ومنبره من الرخام الأبيض. وعلى بابه تاريخ مكتوب هو:

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك الفقير أمير الماس حاجب فى شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة وكماله سنة ثلاثين من الهجرة النبوية المحمدية) وهو جامع ذو منارة.

وفى سوق الصليبة:

جامع الشيخونية

من وزراء السلطان حسن. ولأنه كردى الأصل فهو شجاع مقدام. وله سيرة عمر كما أن اسمه عمر. وله عمائر شيدها منها مبرتان متشابهتان. إلا أن الجامع الذى شيده على الجانب الأيسر من الطريق العام جامع مرتفع منير. وكل منهما يرتفع بمقدار سبعة أقدام. ومساحته مائة وستون قدمًا فى مثلها. وجملة أعمدته خمسة وأربعون عمودًا من رخام عليها سقف منقوش. وله باب وحرمه مرصوف بالرخام من أوله إلى آخره. ولأن له أوقافًا عظيمةً خدامه كثير، وهم يعنون بتنظيفه إلى أبعد حد. وله منبر خشبى مزخرف. ومحرابه مزين بحجارة ذات ألوان. وعلى الجدار الواقع على يسرة المحراب لوحة عظيمة، رسم عليها رسام بارع صورة للكعبة كتلك الكعبة التى فى مكة المكرمة تمامًا. والتكية الشيخونية الواقعة قبالة هذا الجامع مثله تمامًا. وهى تكية للقادرية وسوف توصف هذه التكايا فى موضعه.

وبعد الشيخونية أثناء الذهاب إلى ميدان الروملى يقع على الجانب الأيمن:

الجامع المحمدى

جامع صغير معلق وله منارة شاهقة. إلا أنى لم أدخله ولم أُصَلِّ فيه.

جامع أَلْتِي برماق افندى

يصعد إليه بسلم حجرى من ست درجات. إنه جامع جميل. وواعظه الناصح وجميع المصلين فيه من الترك. وله باب وسقف خال من النقوش يقوم على أعمدة. ولكن ليس له حرم. ولأنه جامع علوى تحته ستة دكاكين. وله منارة منخفضة.

وأمام محرابه دفن «ألْتِي بارمق افندى» صاحب السيرة النبوية.

وقبالة هذا الجامع أسفل السهل يقع:

جامع المرزبانية

إنه جامع جميل ينشرح له صدر من يشاهده. له سقف منقوش يقوم على عشرين عمودًا جميلاً. ومحرابه ومنبره غاية فى جمال الصنع. وفى حرمه نخلة عظيمة.

جامع الداودية

من وزراء السلطان سليمان. كانت له الولاية على مصر بعد سليمان باشا الطواشى، وهو الذى بنى هذا الجامع. حقًا إنه صنيع الوزراء. فأقام هذا الجامع الذى لا يشبهه جامع أقامه وزير. ويصعد إليه بسلم حجرى من عشرين درجة من ثلاثة أبواب. إنه مرتفع البنيان. وقد أقيم على ستين عمودًا. وفى جهة محرابه وحرمه ستون قبة مستديرة من الحجر، وهى مكسوة بالجص الأبيض. وعلى كل قبة علم من الرخام. وحرمه واسع مرصوف بالرخام. ومحرابه ومنبره ومنارته ذات الطبقة الواحدة على الطراز التركى. وعلاوة على حرمه العلوى له حرم سفلى. والجامع فى جدرانه يشبه قلعة صغيرة. ولا يتصل بأى بناء آخر. والجامع يؤمه عدد غفير من المصلين.

جامع اسكندر باشا

كانت له ولاية مصر بعد «دوقه كين محمد باشا». وهو كذلك من وزراء السلطان سليمان. ومن الحق قولنا إنه جامع منقطع النظير. وهو يشبه جامع رستم باشا فى اسطنبول الذى يؤمه المصلون ليل نهار. إنه جامع منّور. وبداخله ثمانية أعمدة وكواته تطل على الطريق الرئيسى. ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. إلا أنهما جميلان.

وليس له حرم لأنه واقع فى حارة ضيقة. وتجرى بركة مصر خلفه ومنارته كالمنارة التركية من طبقة واحدة لها ستة أبواب.

جامع منجك اليوسفى

من وزراء السلطان حسن، وهو صاحب جوسق منجك الواقع فى ميدان «كوك» فى دمشق. إنه جامع عتيق مقام على صخرة واطئة تحت جامع النظامية. وله منارة.

جامع الشيخ نظامى الأصفهانى

إنه جامع يقع خارج باب الوزير. وهو جامع جميل يقوم على ربوة. إنه أكمل الجوامع فى مدينة القاهرة. ولا وجود لأعمدة بداخله. وله سقف لطيف منقوش وله منارة رشيقة عالية من ثلاث طبقات. إنه تكية عظيمة للخلوتية، وسوف تذكر عند حديثنا عن التكايا. وقد بنى هذا الجامع سيدى نظامى الأصفهانى فى خلافة السلطان محمد بن السلطان قلاوون الصالحى بماله الحلال. وتم بناؤه عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة. وسيدى الشيخ الأصفهانى مدفون فى هذا الجامع قدّس سره العزيز. وداخل باب العزب يقع:

جامع العزب

إنه جامع صغير. ولوقوعه أمام عتبة العزب يؤمه كثير من المصلين. لكن ليس للجامع حرم. وقد شيد إبراهيم كتخدا له منارة رشيقة جميلة على الطراز التركى.

وبعد هذا الجامع سور القلعة وعليه عطفة بداخلها يقع:

جامع السلطان المؤيد

يقع هذا الجامع فى نهاية باب الوزير. وهو الآن مغلق وموضعه ظاهر، إنه جامع مرتفع. وله نوافذ تطل على سور القلعة على طريق الوزير. ولا أعمدة بداخله. إنه صغير ولا حرم له. وله منارة قصيرة تفى بالغرض. وبعد جامع المؤيد فى القلعة الداخلية:

جامع سليمان باشا

كان يدعى «طواشى سليمان باشا الأبيض». وقد وزّر فى مصر مرتين. مضى إلى الهند من السويس بمائتى سفينة. وفتح مدن «بندرديوى» و «شهربندر صورتى» وسبع

مدن أخرى وقضى على البرتغاليين هناك. وقد فتح اليمن كذلك بأموال الغنائم وجعل «أوردمير بك» قائداً للحبشة وفتحها. وقد بنى هذا الجامع بأموال الغزو. وليس فى الجامع أخشاب وكله أبنية من الحجر. وله قبة مستديرة زرقاء أسفلها مكو بالرخام. ومحرابه من الحجر بديع الصنعة. وعلى جانبى الحرم شمعدانات مذهبة يبلغ طول الواحد منها قدمًا. ويوضع فيها فى كل ليلة شمع العسل بطول قدمين. وهذه الشمعدانات ليست خاصة بجامع فى القاهرة. والمنبر من الرخام بديع الصنع. وفى الجامع عدة آلاف من الثريات المعلقة. وأمام محرابه أربعون آية من آيات الذكر الحكيم. وكل منها كنز، وبسطه رائعة. وللجامع بابان جانبيان وباب للقبلة. وهو جامع صغير مساحته مائة وعشرون قدمًا فى مثلها ولكنه درّ يتيم. وحرمه الخارجى تبلغ مساحته مائة قدم فى مثلها. وعلى صفاته الجانبية عشرة أعمدة من الرخام تحمل قبابًا صغيرة مستديرة. والقباب الكبيرة والصغيرة مكسوة بالقيشانى اللازوردى. وباب المحراب محلى بالزخارف وكأنه السحر المبين. وجدران صُفَّات هذا الحرم مكسوة بالرخام والحجر الصماقى بسمك قدم.

وعلى الرخام كتب خطاط بارع بالخط الكوفى آية الكرسى ولا يشبهه خط كوفى ويأتى الرحالة لمشاهدته. والحرم مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. وهو نظيف مجلو بحيث يبدو فيه وجه الإنسان ولونه كأنه مرآة. ولهذا الحرم ثلاثة أبواب وله بابان جانبيان أحدهما باب القبلة. وسيدى الشيخ «سارية» وهو من الصحابة الكرام مدفون فى قبر بداخله.

إنه سارية الذى أمَّرَهُ الفاروق عمر على مدينة نهاوند فى بلاد العجم. وبينما كان يحارب فى بلاد العجم وبينما كان عمر يخطب المسلمين خطبة الجمعة فى المدينة المنورة رأى بعين قلبه أنّ سارية ينهزم فى بلاد العجم، فصاح قائلاً: «يا سارية إلى الجبل إلى الجبل». فأخذ العجب من الناس كل مأخذ فسمع سارية - وعدد من جنوده فى نهاوند - صيحة عمر فولوا ظهرهم الجبل. فكان لهم النصر على العجم بإذن الله. وعندما رجع سارية إلى المدينة مظفراً سمع أن عمر صاح قائلاً: «يا سارية إلى الجبل إلى الجبل»

فى يوم جمعة. وبذلـك زاد المؤرخون محبة لعمر. وها هو الصحابـى الجليل يدفن فى غار وعلى هذا الغار أقيـمت تكية وضريح. وعلى باب قبلة هذا الجـامع تاريخ مكتوب هو:

(قد بنى عمر السلطان الجناب العالى مملـوك السلطان سليمان خان بن سليم خان من آل عثمان أدام الله دولته إلى يوم الدين وهو أمير الأمراء لمصر القاهرة سليمان باشا جعل اللهم من الفائزين مسجدًا لوجه الله الملك المعين وطلبًا رضاء رب العالمين ليعبد فيه عباد الله الصالحين وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين سنة ٩٣٥).

وعلى المصراع الأيمن لبـاب القبلة هذا كتب بخط مذهب (بسـم الله الرحمن الرحيم ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]).

وكتب عـلى المصراع الأيسر من هذا البـاب قوله ـ تـعالى ـ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ صدق الله العظيم [الزمر: ٧٣].

إنه باب عالـى. ولهذا الجامع حرم آخر شـرق قبلته. وفيـه حوض وشادروان جار. وللحوض صنابـير كثيرة يتوضأ منها كثـير من المصلين. وقبة هذا الجامع لـيست مكسوة بالجص كـغيرها من قـباب الجوامع الأخرى فـى مدينة الـقاهرة. وهى من أعـلاها إلى أسفلها مكسوة بالقيشانى اللازوردى. ومن شـاهدها من بعيد خالها مكسوة بالرصاص. ولهذا الجامع منارة تتألف من طبقتين. وهى أعلى من كل ما فى القاهرة من منائر. وقد بنيت على طراز منائر اسطنبول. ومحراب هذا الجامع يقع تحت نصف قبة. وتطل نوافذ هذا المحراب على بستـان. وبذلك يتنسم المصلون فى هذا الجامـع أزهار ذلك البـستان. وناظر وقف هذا الجامـع من أغاوات الانكشارية. ولذلك أوقافه عظـيمة. وبما أن رئيس الانكشارية يداوم على أداء الصلوات الخمس فيه فهو نظيف على الدوام.

وفى داخل باب اللوق يقع:

أوصاف جامع البَرْمَشِى

إنه جامع مـعمور مزين يؤمه كثـير من المصلين. ومنـارته رشيقة مزخرفة عـالية من ثلاث طبقات. وفى الدرب الأحمر على رأس شارعين:

أوصاف جامع القَشْماس

أى جامع القَاچمازية. إنه جامع معلق وتحتـه دكاكين. ويصعد إليه بسلم حجرى من ثمانى درجات. إنه صغير ولكنه لطيف مزين. يؤمه كثير من المصلين. ولكن لا حرم له. ومن جوانبه الأربعة طريق يمر. وهو واقع فى أرض ضيقة.

وبعد هذا الجامع فى نهاية وكالة محمد الحبشى كتخدا:

أوصاف مسجد المِهمَاندارية

يصـعد إليـه بسلـم من خمـس درجات. وهو عـلى الطـراز القديم. ولـيس كثـير الزخارف. ولكن لـوقوعه فى السوق السلطانـية يكثر فيه المصلـون. وكوات هذا الجامع تطل على الطريق العام وله منارة من طبقتين. وفى الدرب الأحمر كذلك:

جامع إبراهيم أغا

ولقرب عهد مـشيد هذا الجامع برئاسة الانـكشارية كان هذا الجامع جـديدًا كأنما كان الفراغ مـن بنائه فى التـو. وهو جامع معـلق. وإذا حاولنا وصـفًا لمحرابه ومنبـره عجز اللسـان ومنارته جميلة عالية تتألف من ثلاث طبقات. وبالقرب منه:

جامع خَيْرَة بك المحمدى

كان وزيرًا للسـلطان الغورى. ولقد أشاح عـن الغورى وانضم إلى السلـطان سليم. وبناء عـلى رأيه وتدبـيره فتح سلـيم مصر. وأسـندت أول وزارة لـ «خيـرة بك» هذا، وكانت له ولاية مصر خمسة أعوام ونصفًا بنى فيها هذا الجامع. وبعد خيرة بك أسندت وزارة مصر إلى «لاله مصطفى باشا» وبعـد عام أصبح الوزير الأعظم فى الدولة، وحل محله «قاسم باشا» ثم أحمد باشا الخائن الذى صلب.

وهذا الجامـع نور محض. وكل أبوابـه وجدرانه مكسوة بـالرخام واليشم الحـرقانى والصماقى. ومنـبره ومحرابه سحر مبين. ولكـنه ليس مبنيًا على عـقود. وكله سقف. وفى حرمه مواسـير للماء وعدة نخلات. وخيـرة بك مدفون فى قبر عال عـلى الطريق العام. وله منارة منقوشة عالية من ثلاث طبقات.

وعند مرور الشراكسةمن أمام هذا الجامع لا ينظرون إليه ولا إلى الضريح. لأنهم حاقدون على خيرة بك هذا لأنه كان عميلاً للعثمانيين. وهو الذى جاء بهم إلى مصر وأخرجها من حوزة الشراكسة. وليس فى القاهرة جامع له ما لهذا الجامع من خدام وأوقاف ونظافة. وعلى طريق باب النصر:

جامع مرزوق كفافى

إنه جامع صغير معلق مقام على أربعة أعمدة تحمل سقفًا. إنه تكية سيدى الشيخ مرزوق كفافى. وله منارة جميلة. وعلى طريق باب الناصر وبالقرب من هذا الجامع:

جامع جمال الدين

إنه جامع معلق صغير ذو منارة. ولكن ليس له حرم.

وبالقرب من هذا الجامع عند خان ذى الفقار كتخدا طريق يفضى إلى:

جامع السلطان سونقور

إنه جامع علوى من الطراز القديم. وله منارة مربعة. وحرمه مرصوف بالرخام المصقول وفى تجاهه طريق يفضى إلى:

جامع الخانقاه

إنه جامع أرضى عتيق له سقف منقوش يقوم على أربعة أعمدة. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم. وله حرم واسع. ومنارته من طبقة واحدة خالية من الزخارف. إنه جامع جد وسيع.

وداخل باب اللوق:

جامع ولد عبادة

وهو جامع علوى على ضفة الخليج. وفى حرمه شجرة نبق عظيمة. وبالقرب منه:

جامع (   )[1]

إنه جامع أرضى عظيم الاتساع يقوم على عشرين عمودًا من الرخام. وله منارة منخفضة من طبقة واحدة. وفى حرمه شجرة نبق عتيقة. إلا أنها كثيرة الثمر.

وبالقرب من هذا الجامع:

(١) بياض فى الأصل.

جامع الأصمعى

إنه جامع عتيق كثير الزخارف، وفى حرمه أشجار جميز ضخمة. ولكن المصلين فيه قليل وبابه مغلق على الدوام. وبالقرب منه:

جامع ميراخور

وهو معلق تحته دكاكين.

وداخل قنطرة البكرى:

جامع الأبيض

جامع معلق على ضفة الخليج. له سقف منقوش على عشرين عمودًا من الرخام الأبيض. وله حرم ومنارة. وحوله حدائق كأنها حدائق إرم. ولوقوع هذا الجامع على ضفة الخليج فهو موضع يستحق الزيارة للمشاهدة.

جامع خان باى

جامع جميل ذو منارة صغيرة. يؤمه كثير من المصلين كلهم من الحضر. وفى أركان هذا الجامع كثير من المعتكفين.

جامع عبدِ القادر الطشطوشى

إنه جامع واسع الوسط، لا حرم له، ومنارته من ثلاث طبقات. له أربعة محاريب للمذاهب الأربعة. ومنبره من الخشب.

وداخل الباب الجديد:

جامع المغارب

إنه جامع يقوم على عشرين عمودًا. وهو مكشوف الوسط. مساحته خمسون قدمًا فى مثلها.

وداخل باب الشعرية فى السوق السلطانية:

جامع العمرى

له سقف منقوش يقوم على واحد وثلاثين عمودًا. ليس له حرم. ومنارته من ثلاث طبقات.

جامع عابدين بك

جامع معلق يُصعد إليه بسلم من عشرين درجة. وتحته دكاكين. وله سقف يقوم على أربعة وعشرين عمودًا من الرخام الأبيض. وله منارة عالية من طابق واحد على الطراز الاسطنبولى. ولا وجود لمنارة رشيقة مزخرفة مثلها ليس فى القاهرة وحدها بل فى جميع ديار المسلمين.

وأسفل الباب الجديد:

جامع مَرْدَه بك إينالى

إنه جامع معلق على ضفة الخليج له سقف منقوش على أعمدة عالية. ولكن ليس له حرم. ونوافذه تطل على الطريق الرئيسى وعلى الخليج. وفى الجامع محكمة. وله منارة من ثلاث طبقات. وبينما كان القاضى منصور افندى صهر الشيخ على الشمرلى ناظرًا لهذا الجامع عمَّره ورمَّمه وجعله نورًا محضًا. حقًا إنه جامع بديع. ولهذا الجامع بابان. وبابه الأيسر له قنطرة خشبية على الخليج.

وتجاه هذا الجامع سوق الدلالين. وفى هذه السوق:

جامع الجُندى

إنه جامع صغير ومنارته منخفضة.

وكذلك فى السوق:

جامع الداودية الكبير

وهو معلق يُصعد إليه بسلم حجرى من تسع درجات. إنه مزخرف. له منارة رشيقة من ثلاث طبقات. ومحرابه محلى بالصدف.

وعلى باب منبره الرخامى الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعلى باب الجامع كتب بخط جلى أبيات هى تاريخ:

بناء على اسام داود صديق، وفى سبيل الهدى قد جد سيرا، حمد ثناه فور خنا بناه، هو حمدا جزا الله خيرا سنة ٩٥٤.

وخارج باب الفتوح:

جامع المطهَّر

إنه جامع على الطراز القديم وبنيانه عظيم ويؤمه كثير من المصلين، وله منارة ولكن لم يتيسر لى دخوله، وهو جامع معلق.

جامع البندقانى

جامع معلق جميل، لم يتيسر لى دخوله. وله باب مزين ومنارة منقوشة من ثلاث طبقات.

وبالقرب منه على طريق البندقانى:

جامع حبشلى محمد كتخدا

يصعد إليه بسلم من خمس درجات. إنه جامع جديد. وله سقف يقوم على أربعين عموداً. وهو سقف غاية فى روعة نقوشه. وله باب يطل على الناحية القبلية ومنارة تركية الطراز.

جامع القيسونى

وهو بالقرب من جامع الداودية الكبير، أمام منزل المرحوم مصطفى افندى أغا الانكشارية:

جامع الشيخ كريم الدين الدبوشرى وجامع الهندى

وجامع الهندى جامع معلق صغير على طريق باب الخَرْق على ضفة الخليج، وله باب على الطريق العام يصعد إليه من ثمانى درجات. وتحته دكاكين. وله منارة مزخرفة ونوافذه تطل على السوق. وسقفه منقوش. ويؤم الجامع كثير من المصلين. إنه جامع بالقرب من بركة الفيل. ومساحة الجامع بحرمه مائة وستون قدمًا فى مثلها. وداخل الجامع وخارجه وتحت موضع المؤذن عشرة أعمدة من الرخام الأبيض. وعلى هذا يكون للجامع مائة عمود يقوم عليها سقف منقوش ومحراب من الرخام والحجر.

ومنبره من الخشب المكسو بالجص ولكنه جميل الصنع. وله أبواب ثلاثة. وفى أسفل عتبته تصاوير متنوعة على الحجر الزنبورى. ويتوسط حرم هذا الجامع الذى يشبه السهل جدار مربع منخفض داخله حديقة يُنْفَحُ منها عبير مسكى. وبها نخلات عظيمة وبجانب

باب القبلة منارة مكسوة بالقيشانى الأخضر كأنها زمردة. إنها منارة عظيمة الارتفاع. وعلى يمنة باب القبلة كتب قوله ـ تعالى ـ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، وعلى يسرته كتب:

(أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله ـ تعالى ـ قوصون الباقى).

ويصلى فى هذا الجامع أعيان وأشراف الترك ولذلك يهتم خدامه اهتمامًا عظيمًا بتنظيفه. وله خطيب مكرم عندما يتلو آيات الله البينات تنشرح قلوب من يلقون السمع إليه. إنه رجل من صلحاء الأمة. ولأنه من تلامذة أستاذنا الشيخ على شمرلسى فهو زميل لى. ولا وجود فى مصر لمن له رخامة صوته الحزين.

ولذلك يأتى حشد كبير من الناس يوم الجمعة لسماع خطبته. ولا يبقى فى الجامع موضع لأحد قبل الخطبة بساعة.

وعلى ضفة بركة الفيل بالقرب من قنطرة السنقور على شاطئ الخليج:

جامع كاتب السر الشيخ إبراهيم

يقع هذا الجامع على الطريق العام، ويصعد إليه بسلم واحد من ست درجات. وعلى يمنة ويسرة هذا الباب كتب على لوح من الرخام قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، ولكن لا تاريخ له. إنه جامع بديع صغير له منارة من ثلاث طبقات ونوافذه القبلية تطل على الطريق الرئيسى. أما نوافذه البحرية فتطل على الخليج. إنه تحفة معمارية.

جامع الحبانية

جامع مقام على عشرين عمودًا. ويصعد إليه بسلم من ست درجات. إنه صغير إلا أنه متين ركين. وعلى بابه منارة من ثلاث طبقات. وناظر هذا الجامع سليم جاوش، ولذلك أبدع فى بنائه.

وفى باب الشعرية:

جامع الشيخ الشعراوى

يُصعد إليه بسلم من إحدى عشرة درجة. إنه جامع معلق وتحته دكاكين. وليس متسعًا. ولا حرم له لأن الخليج عند طرفه فى المدينة. وله سقف يقوم على اثنى عشر عمودًا. ومحرابه ومنبره صغيران. وله منارة جميلة من ثلاث طبقات. وسيدى الشيخ الشعراوى مدفون فى هذا الجامع. وله مؤلفات فى ثلاثمائة مجلد.

وعلى الضفة المقابلة للخليج وعلى الساحل مباشرة:

جامع الشيخ الخلوتى

جامع له عشرون عمودًا تحمل سقفًا منقوشًا. وليست له قبة من حجر. ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. ونوافذه تطل على الخليج. وفى حرمه حديقة صغيرة بها شجرة نبق عظيمة، ونبقها لذيذ للغاية. وفى زاوية الشيخ محراب من الصماقى الأخضر، ولا وجود لمثله فى مصر؛ ولكن يوجد مثله فى القدس الشريف. وله منارة من ثلاث طبقات. وفى الجوانب الأربعة للتكية الخلوتية ثمان وسبعون حجرة للمتصوفة. وسوف نتحدث عنها فى حينه.

وبالقرب من درب الجماميز:

جامع بَشَك

وهو من الجراكسة، وفى عام ٨١٣ لجأ إلى تيمورلنك بدمشق. إنه جامع جميل ومزين ومجموع أعمدته ستة عشر عمودًا تحمل سقفًا. وفى حرمه نخلات وهو جامع جميل. وله منارة رشيقة من ثلاث طبقات.

جامع نقيب الجيش

يقع بالقرب من جامع قَرَهْ قُوجَه. إنه جميل أو عتيق.

وعند قنطرة الجماميز:

جامع قَرَه قوجَه

إنه جامع صغير ولكن يؤمه كثير من المصلين.

وفى درب الجماميز تجاه قنطرة العمر:

جامع كتكوت

جامع صغير على الطريق، ومنارته رائعة، وهو كذلك من الجوامع كثيرة الزخارف وفى طريق الباب الجديد أسفل قلعة الكبش:

جامع الأمير لاجين

إنه جامع جميل يصعد إليه بسلم من خمس درجات. ومنارته نحيلة مرتفعة ومزخرفة وكواته تطل على الطريق العام. وله أربعة عشر عموداً من الرخام تحمل سقفًا منقوشًا إنه وزير السلطان الطاهر.

وعلى أسوار قلعة الكبش:

جامع السلطان الجولى

تمكنت من دخوله. له زاوية تشبه الجامع. وله منارة مربعة من ثلاث طبقات.

وفى الحارة التى بعد جامع طيلون:

جامع الأمير يوسف أوزبك

إنه جامع جميل على مفرق الطريق. وله سقف مزين يقوم على أربعة عقود. ومحرابه مرصع. ومنبره خشبى مُقَرنَصٌ. وموضع مؤذنه جميل. وجدرانه الأربعة مكسوة بالأحجار الملونة. وله منارة من ثلاث طبقات. إنه جامع يشرح الصدر. ولكن لا حرم له.

وإذا ما تصديت لذكر ما فى القاهرة من جوامع لاقتضى ذلك كتابة مجلد قائم بذاته أما أسماء الجوامع الأخرى فمنها:

جامع الإمام الحسين، وجامع مسيح باشا فى طريق الإمام الشافعى. وعلى مقربة منه جامع القيسونى، وإلى جواره جامع أم السلطان حسن. وبالقرب من القبر الطويل جامع السيد بدر الدين. وبالقرب منه جامع الخاتونية. ويتصل به جامع الأشرفية. وبالقرب منه فى حارة الخلالين جامع شجرة الدر. وهى شجرة الدر التى كست الكعبة بالحرير الأسود، وجامع الزينية بالقرب من قنطرة الموسكى. وهو جامع صغير ذو منارة. وفى آخر باب الوزير على الطريق العام جامع ايتموس وزير الظاهر بيبرس. وهو جامع متين

ركين له قبة ومنارة. وجامع الشيخ شمس الدين الحنفى وهو جامع معمور وخانقاه قديمة للعبادة. ويؤمه كثير من المصلين. وفى حرمه شجرة نبق مثمرة. وله منارة.

وعلاوة على هـذه الجوامع آلاف الأوقاف فى مصر المحـروسة، وجميعها مـقيدة فى دفتر قاضى عسكر أفـندى؛ لأنه ينال من كل منها على الأقل دينـاراً ذهبيّا أو خمسة أو عشرة أو خـمسين أو مائة. إنـها أوقاف جِدُّ عظيـمة. والقاضى عـسكر هو ناظـر نظار الأوقاف وهو القائم على التفتيش عليهم وجميع الأوقاف مقيدة فى دفتره.

* * *

الفصل السادس والعشرون

المساجد الكبرى المشهورة فى مصر المحروسة

نزل فى شأنها آية كريمة: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨]، كما أن ثمة آية أخرى نزلت فى شأن المسلمين الذين يعمرون مساجد الله. يقول - عز من قائل -: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]، إلى آخره.

وليعلم أولو الألباب أنَّ مصر على عهد الأيوبيين والتركمان كان بها مائة وسبعة وسبعون ألف محراب. والآن فى قايتباى والقرافات عدة آلاف من المساجد متلاصقة الجدران متجاورة المنارات وهى قديمة مهجورة. أما الآن فهناك ستة وأربعون ألف مسجد معمور. لبعضها منارات وبعضها الآخر خال منها.

ذكر المساجد على حد علمنا:

فى القلعة الداخلية مسجد آشْجى باشى ومسجد قلاوون ومسجد السوق ومسجد جاوش أغا ومسجد الباب ومسجد ناران ومسجد حجرات العَزَب ومسجد صراج خانه ومسجد قره ميدان ومسجد بائع الخفاف ومسجد الكَلْشَنى ومسجد الخراطين ومسجد إبراهيم أغا ومسجد قنطرة الليمون ومسجد حسن الشاذلى ومسجد باب الخَرَق ومسجد الجماميز ومسجد ريحان أفندى ومسجد سيد على ومسجد الشيخ العبّارى ومسجد مِهْمَانْدار بالقرب من جامع قَچمَازية.

وطبقا لما ورد فى كتب الغزالى فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر. وهذا ما فيه الحاجة إلي مجلد خاص بذلك.

* * *

الفصل السابع والعشرون

المدارس فى مدينة القاهرة

منذ فتح مصر فى عهد خلافة عمر - رضى الله عنه - إلى الفتح العثمانى لها حكم مصر من الأمويين والإخشيديين والفاطميين والأكراد والتركمان والشراكسة حتى العثمانيين سبع عشرة دولة. ملوكها ثلاثمائة وأربعون. وقد بنى كل منهم مدرسة. وكان لهؤلاء مئات الوزراء والوكلاء وكبار الأعيان الذين عمروا القاهرة، وكان فى القاهرة ثلاث آلاف وستمائة مدرسة. إلا أن أوقافها تخربت على مر الأيام فتخربت هذه المدارس ولم يبق منها إلا جوامع السلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الصالح والسلطان برقوق والسلطان فرج والسلطان قايتباى والسلطان جيقمق والسلطان إينال والسلطان الأشرف والسلطان سيف الدين والسلطان ايْبك التركمانى، والحاصل أنَّ كل ما فى مدينة القاهرة من جوامع السلاطين وأبناء السلاطين وكل من هذه الجوامع به مدرسة عامرة. وكان لها منائر هى الأخرى من شاهدها ظنها جوامع إلا أنها ليست جوامع. إنها جميعًا مدارس.

وبالقرب من باب الخَرْق «مدرسة اسكندر باشا» وحجراتها على الطراز الروحى. وفى حرمها حوض وشادروان جارٍ. وتلقى فى هذه المدرسة الدروس العامة. ومدرسة الداودية ومدرسة السلطان صِرغِتمِش ولها منارة كمنارة الجامع من ثلاث طبقات، ولها ناظر وحجرات كثيرة. وفى حرمها حوض عظيم ولها محراب. وبالقرب من جامع الشيخ مرزوق مدرسة القرافية وهى مدرسة قديمة علوية. ومدرسة سليمان باشا وتقع فى السراج خانه وجميع حجراتها على الطراز التركى. ولها قبة من حجر. وفى حرمها ميضأة عظيمة. إنها مدرسة معمورة مزينة وقد بناها سليمان باشا الطواشى صاحب الجامع الكائن بالشيخ سارية بالقلعة الداخلية. وناظر هذه المدرسة من رؤساء الانكشارية.

و«المدرسة الباسطية» وهى تتألف من ثلاث مدارس ملكية. وهناك المدرسة القيسونية فى الطريق إلى عمر بن الفارض. إنها مدرسة عظيمة البناء. لها منارة من ثلاث

طبقات ومن شاهدها ظنها جامعًا عظيمًا. وقد كتب على جانب بابها قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، وتحت هذه الآية تاريخ هو: (سنة أربعين وسبعمائة من الهجرة النبوية).

ومدرسة الحسابية وهى مدرسة معمورة. ومدرسة الملك الكامل فى مدينة القاهرة، وقد بنيت هذه المدرسة فى أول الأمر على أنها دار للحديث. ومدرسة الملك الكامل فى الإمام الشافعى. وأمام باب ضريح الإمام الشافعى كذلك حوض شافعى وسبيل عظيم يستمد ماء النيل عن طريق قنطرة مياه من بركة الحبش عند قرية البساتين. والملك الأفضل هو صاحب هذا الخير العظيم. كما له فى مدينة دمياط خيرات لا تحصى. وبعد أن انتهت دولته خلفه ابنه الملك العادل عام ٦٣٥.

ومدرسة السلطان صلاح الدين التى بناها عام ٥٧٥ بالقرب من الإمام الشافعى. وبنى كذلك القلعة الداخلية للقاهرة عام ٥٧٦.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

دور الحديث التى بناها سلاطين السلف فى القاهرة

فى القاهرة ثمانمائة وستون داراً للحديث. ولا يدرس فيها إلا علوم الحديث وفى نواحى الجامع الأزهر أربعون داراً للحديث. ويتلى صحيح مسلم والبخارى فى جامع المؤيد ويقرأ صحيح البخارى فى دار الحديث الأجهرية.

وإذا ما ذكرنا جميع دور الحديث لاقتضى ذلك كتاباً خاصاً بها.

وخلاصة القول أن القاهرة هى منبع علم الحديث وبها أكثر من خمسين ألف محدث وهم يحفظون أكثر من عشرين ألف حديث بسلاسلها. ولهم شهرة حفاظ القرآن الكريم، ولهم ملفاتهم وجمعوا أربعين ألف حديث. وهم يتلون صحيح مسلم والبخارى. وقد سجلوا الأحاديث الموضوعة وغير الموضوعة. ولا يقتدر أحد من العلماء أن يقول شيئاً بجانبهم.

وعلماء الحديث فى مصر أعظم من سائر العلماء فى أى بلد آخر. وهم يلقون كل احترام وتقدير. ولكن أى حكمة فى أن كل من اشتغل بعلم الحديث أشرق وجهه بالنور. وفى جميع دور الحديث هذه محاريب وحجرات للفقراء ومدرسون. إنهم يجتمعون ثلاث مرات فى الأسبوع ويمضى المحدثون إلى دروس الحديث زرافات زرافات.

* * *

الفصل التاسع والعشرون
دور القــراء فــى القاهــرة

فى القاهرة سبعــون وثلاثمائة دار للقُرّاء. وفى معظم الجوامــع كان سلاطين السلف يعينون أئمة وخطــباء ومؤذنين لقراءة أجزاء من القرآن الكريم كما كــانوا يعينون فى كل جامع شيخًــا للقراء. كما أن كبار الأعيــان فى مناطق أخرى أقاموا أضرحــة خاصة بهم إلى جانب دار القراء.

ويوصى جميع مشايخ القرآن تلاميذهم بقراءة هذه الأبيات من كتاب الجزرى:

والأخذ بالتجويد حتم لازم   من لـم يجـود القرآن آثــم

وبعد أن يعرفوا أصول نطق حروف التجويد يختمون قولهم بهذا البيت:

إذا واجــب عليهــم محتم   قبل الشروع أولا أن يعلم

وبعد أن ينتهوا من حــفظ اجلزرى وابن كثير يسجلون جميــع المآخذ طبقًا لما ورد فى كتاب الجزرية والــشاطبية، ثم يكمــلون علمهم بقراءة ابــن كثير ثم القراءات الســبعة ثم القراءات العشرة وأخيرًا القراءات التقريبية.

وبعض الأئمة فى القاهرة يقرأون القرآن فى المساجد على سبع عشرة رواية حسب ما يقتضيه الناس. وغالبًا ما يقبل الناس القراءة على رواية قالون وأبى عمرو.

أما الترك فيقــبلون رواية حفص. وهذه القراءات منعت فــى خلافة عمر - رضى الله عنه - وبعده قامت ابنته حفصة بجمع القرآن هى وعثمان. ولأن هذه القراءة مأخوذة عن رواية حفصة سميت باسمها. وعلاوة على قراءة حفصة فى بلاد الترك هناك قراءات ابن كثير والقراءات السبع، ولكنها لم تشتهر. إلا أن شيخنا أوليا افندى مضى إلى اسطنبول وفى معيته سيدى الشيخ أحمد وعكف جميــع علماء الترك على علوم الحفظ فشاع علم القراءة. وتوفى الــشيخ أحمد وأصبح أوليــا افندى شيخ القراء، واشتــهرت قراءات ابن كثير والقراءات الــسبع والقراءات العشر والقراءات التقريبية.

أما فى ســائر البلاد لا يستــطيعون نطــق الحروف كما ينــطقها الترك، إن الــترك قوم راشدون نجباء وهــم يعنون عناية خاصة بمخارج الحروف بمقتضى هذين البيتين:

وهـو أيضـا حلـيـة التلاوة وزينـــة الأداء والـقـــراءة
وهو إعطاء الحروف حقها مـن صفـة لها ومستحقهـا

أما فى مصر فيكثرون من اللحن الجـلى والخفى، وهم فى الأعم الأغلب يميلون إلى ترقيق الحروف وتسهيلها. ولكن فيهم من يحفظ القرآن بسرعة وهم كثرة، خصوصًا من فى عصرنـا مثل الشيخ سلامـة والشيخ عبد الحق والـشيخ الغمزاوى والشـيخ حمد الله الســيوطى ولهـم فصاحة الـلسان وبديـع البيـان، وهم من أصحـاب القراءات العـشر والتقريبية، وأمثالـهم سبعمائة من شيوخ القراء، وعندما كنت أتـلو القرآن أقسموا على أنى من قراء دمشق، وجميع حفاظ القرآن فى مصر موضع إجلال وتقدير.

* * *

الفصل الثلاثون

ذكر ما في مصر أم الدنيا من مكاتب الصبيان لتعليم القراءة

فى القاهرة ألفان وخمسة عشر مكتب للصبيان أوقافها دائمة، بالإضافة إلى ألفا مكتب لتعليم الحساب إلا أن أوقافها معطلة، وقد أقام مائة وستة وخمسون سلطانًا على أسبلة جوامعهم مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم، ولسائر الوزراء والوكلاء والأثرياء وأصحاب الخيرات أربعة آلاف سبيل، وفوق كل سبيل مكتب منقوش ذو كوات وكأنه قصر يوسف. وهذا دأب أهل مصر، فكل مكاتبها مقامة فوق الأسبلة، وكلها مكسوة بقماش زنبورى، وفى هذه المكاتب يتلو جميع الصبيان آيات الذكر الحكيم.

وطبق هذا الإحصاء يوجد فى مصر كلها ستة آلاف ومائة وستة وسبعون مكتبًا، وأغلبها تابعة لجوامع السلاطين.

وفى النصف من شهر رمضان يجتمع مدرسو مكاتب السلطان الغورى والسلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الأشرف والسلطان المؤيد وغيرها من مكاتب السلاطين والوزراء وحولهم الصبيان من الفقراء والمعوزين وينقسمون طائفتين: طائفة تقول: (يا حنّان)، وطائفة أخرى تقول: (يا منّان)؟ وقد تشابكت أيديهم وتعالت أصواتهم ومروا فى وسط السوق وقد تبعهم شيوخهم وانطلق الجميع إلى مكتب الناظر. وينال جميع الصبيان من الوقف قماشًا من حرير مصر والخلع والقلانس الحريرية ويلبسونها، ويتقاضون مرتباتهم وهى من أربعين أو خمسين باره مصرية، ثم يمضون فى طريقهم فرحين قائلين: «يا حَنان يا مَنان» وتدوم الحال على ذلك فى القاهرة من منتصف رمضان حتى يوم عرفة، وتموج مكاتب الصبيان بهم ويمضون زرافات زرافات إلى نظارهم.

حقًا إنها لأوقاف عظيمة، وفى وقت الظهر والعصر يصعد المؤذنون الأذان من منائر جميع جوامع السلاطين وبذلك تغمر عظمة الله تعالى كل أرجاء القاهرة.

وفى المكاتب التى على الأسبلة يترنم أربعون أو خمسون صبيًا رخيم الصوت بمنظومة المحمدية، ويدوم الأذان فى القاهرة مدة ساعة بنغمات حجاز وسيكاه وحسينى، ومثل هذا الأذان فى مكاتب الصبيان لا وجود له فى بلاد أخرى.

وبعد الصلاة يجتمع الصبيان جميعًا فى مكان ويتلون على العموم سورة المُلك، ثم يصلون صلوات طويلة، ويدعون بخير لصاحب الثواب. وهذه العادة غير معروفة كذلك فى بلد آخر.

وفى هذه المكاتب يتنافس الصبيان فى تصعيد الآذان بأصوات رخيمة، وأنفاس طويلة، وهذا ما تُشَنَّفُ به الأسماع وتنشرح به الصدور. وإذا ما مر موكب بعض الأعيان أو الوزراء وشربوا من الأسبلة التى تعلوها مكاتب الصبيان رفع الصبيان جميعًا أصواتهم بقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فيكرمهم بعض أهل الكرم. وهذا هو النظام المرعى فى مكاتب الصبيان فى مصر.

أما مكاتب صبيان الترك فسبعون، ولكنها ليست مكاتب مقامة فوق الأسبلة، وكأنها القصور، ففى الحارات وبالقرب من تكية سيدى الكُلْشَنى يتولى التدريس معلمون وخطاطون فى دكاكينهم لسبعين أو ثمانين طفلا تركيًا، ويدرسون علم الحساب وعلم الكتاب وعلم القراءة، وليس بينهم أبناء الفلاحين ولا أبناء الحضر، وجميع معلمى هذه المكاتب من الترك الذين يسكنون فى هذه الحارات.

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

ذكر ما فى قاهرة المعز من تكايا الدراويش

فى القاهـرة ثلاثمائة وستون طـريقة صوفية وعلـى رأس هذه الطرق طريقة الـعلماء والصلحاء وأهل الشريـعة وأهل المعرفة وأهل الحقيقة المحمدية، وثـمة طريقة أخرى هى الطريقة «النَقْشَـبَندية» وهى طريقة أبى بكر الصديق رضـى الله عنه أول رفيق فى الغار، ويـسمونهـا طريقة «خُوجَه كان» وقد بلـغت هذه الطريقة بلخ وبـخارى وخراسان وبلاد الترك وكردستان، وقد انشعبت عن هذه الطريقة اثنتا عشر طريقة وكلها تنتهى بنقشبند، والطريـقة الثانية هـى طريقة الإمام علـىّ كرم الله وجهه، وأصبحـت الطريقة الخُلـوتية وانشعبـت هذه الطريقة إلى ثـلاثمائة طريقة مـثل الطريقة الجُلـوتية، وكلها تنـتهى إلى الطريقة الخلوتية.

ثم طريقة الإمام الأعظم والتى أصبحت سراجًا مـنيرًا إلى جميع الطرق، ثم الطريقة الشافعية فالمـالكية فالحنبلية، فالقادريـة والسعدية والبدوية والرفاعية والـراعية والدسوقية والبرهـانية والواحديـة واليسّوية والـكميليـة والعباسـية والأدهمية والـبكرية والسـاداتية والويسـية والعلـوية والحيدريـة والمولوية والعـشاقية والـفنائية والـبكتاشـية والقلـندرية والصموديـة والبَيرامية والحـمزاوية والإدريسية والعُـمَرُ روشَنِيَّة والإبراهـيمية والكلـشنية والـسنانية والزينية والنعمة اللهية والنوربَخْشية والمطوعية والشناوية والفارضية.

وفضلاً عن هذه الطرق الـثلاثمائة والستين ثمة عدة آلاف من شـيوخ الطرق. ولكن ليس يـخفى على أولى الأبـصار الذين ينظـرون فى الكتب أن سـلسلة المشايـخ الكرام انشعبت طرقهم حسب مشاربهم إلى عـدة طرق أخرى وكل منها اتخذت لها موطنًا فى بقعة من البقاع.

تكايا سيد أحمد البدوى

مائتا تكية، وطبق ما فى دفتر الخلفاء فى ولاية مصر أن بها ألفين وستين تكية بدوية، وفى كل عام يأتـى خلفاؤه إلى مولده الكـبير لتجديد البـيعة، وأهل مصر جميـعًا لهم عقيدة راسخة فى الـسيد البدوى، فإذا تعقد أمر من الأمور قالـوا: «يا لله يا سيد أحمد

البدوى» وفى المحكمة إذا وجب الحل كان الحلف برأس البدوى أو رأس أبى اليتامى، وللبدوى فى مصر تكايا وأوقاف عظيمة، وله ثلاثمائة ألف درويش مكحل العين أحمر الخِرْقَة، والتكية الرئيسية تقع فى شمال القاهرة على بعد مرحلتين فى إقليم الغربية بوسط طنطا.

تكية الشيخ مرزوق كفافى

ولكن أعظم تكية للبدوى فى القاهرة تقع بالقرب من قصر قاضى العسكر افندى على الطريق العام وهى تكة الشيخ مرزوق كفافى خليفة البدوى.

وكان كشافى هذا مع الشيخ الجارحى حين قال للسلطان سليم: «تعال واجلس المصر»، وتكيته داخل الجامع وبها خمس وأربعون حجرة للدراويش توزع عليهم الصدقات والأطعمة، وشيخهم أحمد الخليفة.

تكية الشيخ الرفاعى

إنها تكية كبيرة فى نهاية جامع السلطان حسن، وهى للطريقة البرهانية وفيها مائة ألف درويش، وأتباع هذه الطريقة فى مصر كثير، وفى أيام موكب المحمل الشريف يزينون الطرق بخمسمائة علم أبيض، ونشأتهم من الشيخ إبراهيم الدسوقى البرهانى، وكان معاصراً للسيد أحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى ابن أخى السيد البدوى، وكثير من أهل مصر لهم فيه معتقد راسخ هو الآخر؛ فهم لو حلفوا فيما بينهم حلفوا برأس المولى النحاس أى إبراهيم الدسوقى الذى يعيد العلم النحاس، وإذا ما كانت ستظهر علامة عظيمة عاد العلم النحاس فوق قبر الدسوقى قبلها بعدة أيام ويبدأ فى الحركة فيعلمون أن علامة تظهر.

ولإبراهيم الدسوقى البرهانى مائتا ألف درويش، وله تكية بالقرب من رشيد على شاطئ النيل وستُذكر فى موضعها بإذن الله.

تكية الإمام الشافعى

تكية عظيمة للغاية، ويجتمع فيها كل ليلة سبت خمسة أو ستة آلاف من الدراويش ويسهرون حتى مطلع الفجر ويختمون القرآن مائتين أو ثلاثمائة مرة، وتوزع الأطعمة

علـى دراويش هذه التـكية من الـوقف، وفى مولـد الشافعـى يأتى عشـرة آلاف رجل بأطعمتهم لإحياء هذا المولد، ويقال إن روح المصطفى ﷺ تحضر فى تلك الليلة.

تكية الإمام أبى الليث

وهى تكية عـظيمة كذلك، وهى فى حى آخر، ويـسكنها جميع دراويشـها ويعرفون بالليثيين، وتوزع عليهم الأطعمة من أوقافها.

تكية أبى السعود الجارحى

فى محلة أخرى، وهى موضع للنظر فى جنوب القاهرة خارج المدينة، وعاش كذلك فى عهد الـسلطان سليم وهو الـذى قال له: «تعال واملك مصـر». وله عدة آلاف من الحكرامـات الظاهرة والبـاهرة، ودراويش هذه التكـية يعرفون بـالـسعوديين، إنـهم أهل استقامة وورع وتكيتهم تكية عظيمة.

تكية السادات

وقف عليـه نصف أوقاف القاهـرة، وعندما جاء من المـغرب لم يفض النـيل ثلاثة أعوام، وعم القحط والغلاء، وتقدم أهل مصر إليـه أن يأمر النيل بالفيضان، فأمره وفى التـو فاض. وقال المصـريون عن بـكرة أبيهـم: «يالله يا سادات»، إنـها تكـية عظيـمة ودراويشها كثرة.

تكية عمر بن الفارض

تقع فى سفح جبل الجـوشى، وفيها يجتمع خمسة أو ستة آلاف كـل يوم جمعة بعد الصلاة ويتـلون سورة الكهف، وبـعد قراءة الأوراد والأذكار يوحدون الله ويـبدأون فى تلاوة العشر الشريـف، ومن يتلونه ذوو صوت رخيم، وهم من حفظـة القرآن مما يشيع البهجة فـى نفوس الحضور، ثم يقومون بتـلاوة «تائية الفارض» بصوت حزيـن بنغمات الحجاز والعشاق فيغيب الجميع فى نشوة الجذب فاقدين الوعى، ففى هذا اليوم فى هذا الجمع الحاشد عشاق صادقون وبدلاء وأمناء ونجبـاء ونقباء ومجاذبون وملاميون، وفيهم عشاق لهم قـدر ومنزلة تأتى لهم رؤية الـرسول ﷺ مرارًا فى تلك الغيـبوبة، ويقال إن روح الرسول ﷺ تحضـر فى كل يوم جمعـة ولذلك تغض التـكية بالناس حـتى إذا ما

جلس أحد على كتف من يجاوره لم يغضب منه، فهم جميعًا فى نشوة السرور. يا لها من حكمة عجيبة، وليس فى هذه التكية أميرًا ولا شحاذًا، إنهم جميعًا ركوع ولهذه التكية ستمائة درويش، وطعامهم حساء العدس، وتبسط الموائد لجميع الحضور.

تكية الشيخ شاهين

حقًا إنها تكية تشبه صخرة الشاهين، فهى تقع فوق صخرة بحيث تبدو مدينة القاهرة تحت القدم، ولهذه التكية منارة وفيها يجتمع كذلك المتصوفة لعقد حلقات الذكر، ولهذه التكية مائتا درويش.

تكية الشيخ الجوشى

إنها تكية عظيمة على جبل المقطم مطلة على القلعة الداخلية لمصر، وتبدو القاهرة تحتها وهى تكية طيبة النسيم بها جامع وأربعون أو خمسون درويشًا، والماء العذب يأتيها من جنوب القاهرة على ظهور الجمال بأمر من كتخدا الباشا.

وجنوب هذه التكية فى القرافة:

تكية الشيخ عقبة بن عامر الجُهَنِى

من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وفى عام ١٠٦٣ جدد خاصكى محمد باشا جامعه وتكيته، وأصلح منارته فأصبحت هذه التكية وكأنها القلعة يعجز عنها الوصف، ولهذه التكية سبعون أو ثمانون درويشًا.

تكية البساتين

إنها تكية إرم ذات العماد، لها حوض وشادروان، تقع فى بلدة بالقرب من النيل، وهى تحت إدارة نقيب الأشراف، ودراويشها شرفاء، وبها عدة مقاصير ومطابخ.

تكية رماة السهام

تكية متصلة بأثر النبى، يأتى إليها جميع حاملى القسى والرماة بالسهام لينعموا بنسيمها الطيب، ولها مطابخ وبيوت وأسواق، ولكل بطل أهداف من الحجارة ويتصل بها أثر النبى ﷺ. وكل هذه الخيرات لإبراهيم باشا الدفتردار، وسوف نتحدث عن هذا الأثر عند حديثنا عن المتنزهات بمشيئة الله تعالى.

تكية السيدة نفيسة

تكية عظيمة عـلى أطراف المدينة، ودراويشها يزيدون على مائـتين، ولها ناظر وقائم عليها، وأطعمتها مبذولة للفادى والرائح.

تكية الشيخ نور الله البدوى

تقع بالقرب من القبر الطويل، لها مائتا درويش.

تكية سيدى زين العابدين

توجد بـالقرب من قـناطر الغـورى، إنها تكـية كالقـلعة، بهـا أربعون أو خمـسون درويشًا، ولكن ليس لها أطعمة توزعها، وكان لها من قبل أوقاف عظيمة.

تكية الشيخ (   )[1]

لها جامع ذو مـنارة على الطراز القديم، وفى ساحـتها يبيع فقراء المسـلمين الغلال، وتقع هذه التكية داخل القاهرة بالقرب من حارة السقائين.

تكية الشيخ الخلوتى

توجد فى القاهرة بالقـرب من قنسطرة السنقور على ضفة الخليج، إنـها تكية عظيمة وفيها عدة صوامع للدراويش، وفيها محراب من الحجر الصماقى الأخضر يعجز اللسان عن وصفه، وقد لف سيدى عزيز عبد الرحـمن افندى عِمَامَةَ علىٌّ السَّوداء حول رأسه، ووحد الله وسبـح له مع عدة آلاف من الـدراويش فى هذا المحراب الأخـضر، وتؤدى صلاة الجمعة فى هذه التكية، ولهذه التكية جـامع وقد اشتهرت المدينة بأنها مدينة جامع الخلوتى إنه جامع أرضى وفـى حرمه حديقة تتصل بها بئر طَيِّبٌ مـاؤها، ومن مطبخها توزع الأطعمة على الدراويش.

تكية الشيخ الشعراوى

وهـو اليـوم حـى يرزق، ويعكـف چلبى افندى مـع عدة مئات من الدراويـش على إقامة حلقـات الذكر والتوحـيد فـى هذه الـتكية ليل نهار، ويوزع الطعام مـن مطبخها على الدراويش.

---

(١) بياض فى الأصل.

تكية شمس الدين الحنفى

تكية عظيمة بالقرب من الخليج، وبها جامع ودراويشها مائة وخمسون يوحدون الله ويسبحون له، وبها عدة حجرات. ويصيب من طعامها الغادى والرائح.

تكية الشيخونية

تقع فى سوق الصلبية، وهو وزير السلطان حسن، وهى تكية للشيخ عبد القادر الجيلانى، ولها سقف منقوش مقام على ستة عشر عمودًا، يتوسط حرمها حوض عظيم تعلوه قبة بيضاء على ثمانية أعمدة، والحرم من أوله إلى آخره مرصوف بالرخام الأبيض، وفى الركن الأيمن لهذه التكية باب يفضى إلى ساحة مسقوفة الوسط وفى أطرافها حجرات للقادرية، وفى هذه الساحة ينعم الدراويش بإلقاء السمع إلى التوحيد. وعددهم يربو على مائتين، وهم أصحاب الفقر والمجاهدات، والنور يبدو فى وجوههم. وهذه التكية مجمع لدراويش وعلماء القادرية، ولها أوقاف عظيمة، وتوزع الأطعمة على الغادى والرائح وناظرها إمام ولاة مصر، ويتقاضى إمام الخلوتية تسعة آلاف باره فى السنة، وعلى باب هذه التكية المطل على الطريق الرئيسى منارة عالية من ثلاث طبقات، وفى مواجهة هذه التكية جامع الشيخونية وقد بنيت التكية والجامع على طراز واحد، ونوافذها مطلة على الطريق الرئيسى، وشيخ هذه التكية أمير چلبى، إنه سيد كريم حميد السجايا، وفى القاهرة أربع تكايا للقادرية فى أربع جهات متفرقة إلا أنها جميعًا تابعة لهذه التكية.

تكية الشيخ العبارى

توجد تكيته بالقرب من تكية الشيخونية فى سوق الصلبية، وهو الآن على قيد الحياة وهو صاحب كرامات، إنه لا يغادر داره قط ويعتكف فيها صائمًا قائمًا، وفطوره على رغيف من خبز الشعير يزن عشرين درهمًا وكوب من اللبن وغَدَاؤه كذلك، إنه عالم عامل فاضل مستجاب الدعوة تقى ورع صاحب رياضات ومجاهدات.

• **مناقبــه:**

كنت فى حضرة الشيخ العبارى قبل أن أذهب إلى نُزُل أحمد باشا الدفتردار بثلاثة أيام، وأثناء الكلام سألنى الشيخ: ماذا يعمل الباشا؟

فقلت: إنه يقوم على خدمة مكة والمدينة ويدعو لك بالخير.

فقال الشيخ مكاشفًا: ربما مر بعد ثلاثة أيام بزاويتنا ويسأل عنها.

فأخذ حضار المجلس بإشارات الشيخ، وقال بعض الدراويش: إن الباشا لا يحب الدراويش، وبسطوا ألسنتهم فى مذمته.

فقال الشيخ: كل أمر من الله، وبأمر الله لا بقاء للجراد فى مصر ولا بقاء للمسىء بين الناس ولن يعمر كذلك من يعيث فى الأرض سادًا ليل نهار.

وهذا من كلام الشيخ فيه ما فيه من إشارات واقتضت حكمة الله أن يجتمع الجند بعد ثلاثة أيام فى ميدان الروملى مدججين بالسلاح وأعلنوا ثورتهم، وساد الهرج والمرج. وأمام باب العزب أسقطوا من يسمى عبد الفتاح كاتب مخازن يوسف عن جواده ومزقوه إربًا إربًا ونادوا بإسقاط الباشا وعزلوه فى النهاية بلا سبب.

ومر الباشا مع أتباعه من سوق الصليبة ووقف خدام الشيخ العبارى لتحية الباشا وسأل الباشا الشيخ عن حاله ثم ذهب إلى قصر حاجى باشا فى موكب حيث نزل ضيفًا وتذكرت ما تنبأ به الشيخ للباشا من أنه سوف يمر بعد ثلاثة أيام فى موكب وقد تحقق ذلك، إن هذا من الكرامات.

ولم يدخل يد الشيخ ولا يد آله قط درهم حرام ولا حلال، إلا أنه كان يقبل الهدايا من أرز وعسل وسمن وقمح وما أشبه، وثيابه من الهدايا كذلك. إنه سلطان المتصوفة، وجملة الدراويش فى تكيته يقنعون بلقمة الكفاف والسلام.

تكية خوجكان

تقع هذه التكية فى نهاية الجهة الشرقية من ميدان الروملى، إنها معدن الدراويش ويسكنها جميع دراويش الأوزبك وبخارى وبلخ. ولأن أوقافها قليلة فإنها تعتمد على النذور. وعندما غادر السلطان سليم اسطنبول متجهًا إلى مصر حمل درويش نقشبندى

عموداً ثقيلاً من الحجر السماقى يزن أربعمائة أوقية فوق كتفه ومضى به إلى مصر مع السلطان سليم وبعد الفتح أقام له السلطان سليم هذه التكية وهو الآن مدفون إلى جوارها. والعمود المذكور معلق بالسلاسل على باب التكية ويراه الغادى والرائح وهو من حجر سماقى كأنه حمل جمل، حقًا إنها لكرامة.

تكية الأوزبك

تقع على مقربة من تكية خوجكان فى مستشفى السلطان المؤيد، إنها تكية صغيرة لا أوقاف لها ومن فيها يعيشون على لقمة الكفاف وهم جماعة من الدراويش الأوزبك والهنود والبلخيين والبنكاليين والسليمانيين والمغول، ولهم زاوية ولأن شيخهم صاحب كرامات يلتف حوله جميع الدراويش كما تلتف الفراشة حول الشمعة.

التكية النظامية

فى عام ٧٣٣ أصبح سيدى الشيخ نظام الدين قطبًا صوفيًا عظيمًا للطريقة الخلوتية وبما أنه أقام تكيته من صلب ماله لكى تصبح مقرًا للدراويش أذن له السلطان محمد بن قلاوون فى إقامة تكية خارج باب الوزير ليس لها فى مصر من نظير وبها جامع لطيف ونحو مائتى حجرة للدراويش وحجرات للمتزوجين منهم وحجرات أخرى لغير المتزوجين. وهم يعقدون حلقات الذكر فى ساحة علوية مرصوفة بالرخام الأبيض، ومطبخ هذه التكية ينال منه الغادى والرائح، وكنت ناظرًا لهذه التكية مدة عام على عهد سيدى جان بولاد زاده حسين باشا. وينفق على الجامع وتكيته كيس من فائض الوقف، والطعام فيها يقدم فى وقتين، ودخلها فى العام سبعة أكياس ونفقتها أربعة أكياس ولها أوقاف عظيمة.

حتى إن المرحوم عمر افندى المصرى الذى توفى فى اسطنبول سكن هذه التكية أربعين عامًا، وكان متضلعًا من شتى العلوم والفنون، إنها تكية روحانية وقد دفن فيها سيدى الشيخ نظام الدين الأصفهانى.

تكية الواحدى

تقع فى نهاية جامع السلطان حسن، يسكنها جميع الهنود ولها ساحات صيفية وأخرى شتوية وعدة حجرات، لم تكن لها أوقاف، وقد رصد إبراهيم چلبى القائم على

خزانة جان بولاد زاده حسين باشا مبلغين، وأقام على سطحها عشرة دكاكين، وفيها من الهنود من لم يتكلموا منذ أربعين سنة كأنهم صم بكم عاكفون على العبادة ليل نهار وبعضهم يظل واقفًا ثلاثة أشهر متعبداً.

تكية الإمام الحسين

أقامها (   )[1] العباسى عام (   )[2]، إنها جامع كبير والأعمدة التى بهذا الجامع فى حجم الكعبة ولذلك يحضرون كسوة الكعبة إلى هذا الجامع بعد أن يعاينها الباشا وتلف حول هذه الأعمدة وفى كل عام تعلق عليها كسوة الكعبة، ولهذه التكية دراويش وخدام للأضرحة ونفقاتهم تكفيهم وحدهم، ولأنها تكية كبيرة تأتيها النذور وصنوف الأطعمة والأشربة من كل جهة.

تكية الشيخ إبراهيم الكُلْشَنِى

تقع بالقرب من الباب الحديد وقد بناها سيدى الشيخ الكُلْشَنِى من صلب ماله فى عام ٩٤٠ على عهد السلطان سليمان، إنها تكية عظيمة على الطريق المحمدى العام، ويصعد إليها من باب حرمها بسلم حجرى من عشرين درجة، وبداخلها ثلاثة أبواب منفصلة، وعلى يمنة الباب الكبير منها والمطل على الطريق العام كتب قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [فصلت: ٣٣].

وبين هذا الباب والباب الأوسط كتب أبيات من الشعر على لوح بخط جلى وهى:

تكية الكُلْشَنِى المفعمة بالذوق والصفا
تقام فيها شعائر المصطفى
أيها الزاهد عن تكية الكُلْشنى لا تبتعد
إنما يهدى الخلق كل من فيها زَهَد

وعند مدخل هذا الباب يوجد سبيل الدراويش، والقائم على هذا السبيل يبخره بالعود والعنبر ويوزع منه الماء العذب، وبعد تجاوزه يصعد إلى الحرم الشريف بسلم ذى

(١، ٢) بياض فى الأصل.

سبع درجات، وهى ساحة بيضاء مرصوفة بالرخام الأبيض المصقول، وفى هذه الساحة محراب جميل كتب عليه بخط جلى على الرخام قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم حجرات الدراويش وتحت كل حجرة فسقية، وعندما يموت صاحب الحجرة يدفن تحت أرض الفسقية وتباع مخلفاته إن وجدت ويوقف ماله على المصاحف ويتلو كل الدراويش القرآن على روحه وينطق الداعى باسم المرحوم، ولا وجود لتكية فيها من الخيرات ما فى تلك التكية، كما لا وجود لتكية مثلها تحت كل حجرة من حجراتها قبر. إنها تكية عجيبة الطراز والآن بها أكثر من ثلاثمائة من دراويش الكُلْشَنِيَّة وقد صفت أرواحهم وكل منهم فى زاوية يتعبد وهم عاكفون على الرياضات والمجاهدات.

وفى كل ليلة جمعة تبسط السجاجيد النفيسة فى هذا الحرم وتؤدى صلاة العشاء وبعد تلاوة سورة الملك يحضر جميع المصتوفة، وبعد إتمام الأذكار والأوراد يشرعون فى التوحيد السلطانى وتتماسك أيديهم وأذرعهم جميعًا ويدورون ويؤدون السماع ويوحدون الله فتصبح التكية الكُلْشَنِيَّة كأنها حديقة إرم ذات العماد ويتغنون بأصوات كأصوات العندليب، وبنغمات العشاف يروح هؤلاء المتصوفة فى نشوة الجذب ويتفننون فى النغمات، ومنهم من يحرقون البخور وينثرون ماء الورد على وجوه الزوار ويقدمون لهم الشراب، وأثناء تلاوة التوحيد سبع أو ثمانى ساعات يترنم الذاكرون الشاكرون بصوت رخيم بألحان من مقامين وأربع وعشرين شعبة، ويقرأون الأدوار والتقاسيم بصوت حزين وبذلك يدخل الدراويش فيما يعرف بحال السكر، وبعد أن يكمل أحد الذاكرين الترنم يقرأ بصوت داودى بيتين أو خمسة لفضولى أو روحى أو عَرفى أو الخَيام، وذلك للترويح عن الدراويش ويغيب الدراويش جميعًا عن وعيهم ويترنمون بالألحان ويداومون على التوحيد بهذه الكيفية إلى ما شاء الله أن يداوموا.

وجميع المترددين على هذه التكية من علماء وأعيان الترك ولا يمكن أن يدخل هذه التكية أحد من أبناء العرب.

ويتوسط حرم هذه التكية قبر ذو قبة عالية هو مثوى لسيدى الشيخ إبراهيم الكُلْشَنى وأولاده وأحفاده.

وفى الجانب الشمالى لهذه التكية باب متقن الصنع مزخرف بالكتابات، ومكسو بالفضة، وعلى عتبته العالية كتب قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، وفوق هذه الكتابة كتابة أخرى بخط جلى لم تتأثر بشدة الحر ولا الأمطار وخطها بديع وتاريخها هو: مات قطب الزمان إبراهيم الكُلْشَنى سنة ٩٤٠.

وعندما يدخل الزوار من هذا الباب تنعقد ألسنتهم ويقعون فى الحيرة، وفى هذا القبر ما فيه من زينات بديعة وثريات نَفيسَة، مَن أمعن النظر فيها أخذته الدهشة، فهو مزين بأكثر من ألف قنديل فضى، وقناديل بللورية، وثريات، وحول النعش الشريف شمعدانات ومباخر وأوانٍ لماء الورد.

ولقد أرسل السلطان تقى الدين سلطان خراسان مصباحين وشمعدانين ومَن شاهدهم ظنهم من ذهب، إلا أنها من النحاس الأصفر ولا يستطيع مهرة الصناع فى يومنا هذا أن يصنعوا مثلها وكل منها بقدر قامة الإنسان وقضاء كل ليلة بشمع الكافور.

وهذه التكية مفروشة ببسط مخيطة بخيوط الذهب وسيدى الكُلْشَنى مدفون تحت تلك القبة، وفى جوانبها الأربعة آيات الذكر الحكيم بخط ياقوت المستعصمى والقره حصارى ومحمد الدرويش وعبد الله القرمى، وهؤلاء من خدام السلطان سليم وابنه سليمان، وكل منهم يعدل خزانة مصرية. وكم من مئات الكتب والمجلدات وكتب التصوف والدواوين التى نظمها الشيخ وكتبها بخطه الشريف موجودة كذلك. وهو مدفون بعمامته الخضراء عند جدار قبلة القبة، ولقبره غاية المهابة.

وإلى جوار الشيخ إبراهيم الكُلْشَنى دفن كذلك أبناؤه وهم الشيخ إبراهيم افندى ابن الشيخ على صفوتى بن أحمد خيالى بن حسن خيالى ابن سيدى إبراهيم الكُلْشَنى قدس سره العزيز، وإلى جواره الشيخ أحمد الخيالى الذى توفى عام ٩٧٧، وإلى جواره الشيخ على الصفوتى ابن الشيخ أحمد الخيالى حفيد الكُلْشَنى الذى توفى عام ١٠٠٥ وإلى جانبه كذلك الشيخ حسن بن سيد الخيالى المتوفى عام ١٠١٢ وخلفه صهره الشيخ محمد افندى المتوفى عام ١٠١٤ ولا وجود لنعش داخل هذا الضريح إلا أنه مدفون فيه، وأسفل هذا الضريح ذى القبة (سماع خانه) ذات حرم تتوسطه فواره تحت الأرض دفن فيها جميع مشايخ وأعيان الكُلْشَنية والرُّوشَنِيَّة.

وإبراهيم الكُـلْشَنى هذا قدم بلخ وخراسـان وبايع سيد عمر الرُّوشَنِـى، كما أن عمر كذلك نال الإذن من سيد يحيى الشّرْوانى وتنتهى سلسلة نسبه إلى على الكرار.

إنها تكيـة وطريقة عظيمة ولا وجود لتـكية لدى الترك ولا العرب والعجـم لها مثل أوقافها، وتوزع مـنها الصدقات وأشهى الأطعـمة على المترددين علـيها، ولا وجود فى مصر لتكية لها ما لهذه التكية من روحانية، ودراويش هذه التكية عارفون بالله متضلعون من شتى العلوم، وكل منهم عالم نظير عبد الله الفارابى وغلام الناصرى وغلام الشادى وفيثاغورث التوحيدى.

وإذا ما تحدثنا عن هذه التكية على قدر وقوفنا على أسرارها لطال بنا الحديث.

تكية القصر العينى

وهى تكية حاجى بكتاش ولى قدس سره العـزيز، وقصر العينى مكان نزه فى الجهة الغربيـة من القاهرة على ساحـل النيل فى حديقـة كأنها حديقة إرم، وكان هـذا القصر موضع عناية كثير من سلاطين السلف، أمـا أول من بناه فهو السلطان الظاهر، وأضاف إليه كل فاعل خير قاعات ومقاصير وحجرات عديدة وأحواض وشادروانات، ويأتى إليه جميع أعيان مصر ويقيمون فى حجراته للمتعة والاستجمام.

ويتوسط هـذه الحديقة التى تشـبه حديقة إرم قبة عـظيمة مكسوة بـالجص الأبيض، وهـى قبـة تكيـة الـبكتاشيـــة، وهـى تتســع لألـف إنسـان، ولـــهـا سـاحة عـظيمة مرصوفة من أولها إلـى آخرها بالرخام الأبيض، والجوانب الأربعة لهذه الـتكية مفروشة بفراء الأضاحى.

وفى أسفـل المحراب الشيخ مـحمد دده، وإلى جواره الخلـيفة الرئيـس، ثم الإمام، فالمؤذن، والداعى، وصاحب الشريعة، وصاحـب الطريقة، وصاحب العصا، وصاحب العلم، والمضيف، ورئـيس الطهاة ورئيس الخبازين. وجملة الـقول أن جميع الدراويش جالسون على الـفراء، وكل منهم فى عمله مـنهمك فيه، ومنهم من يـدرس ومنهم من يتلو القرآن، ومنهم من يتلقى أصول وتعاليم التصوف.

إنهم طائفة من أهل السنة والجماعة يقومون على خدمة المترددين عليهم، ويرحبون بهم، وهم على أهبة الاستعداد لأن يكونوا فداء لضيوفهم. وفى الجوانب الأربعة لهذه القبة نوافذ قضبانها من النحاس تطل على حديقة كأنها إرم ذات العماد. وقد دفن فيها بعض شيوخ البكتاشية.

وأطراف المحراب مزينة بالأعلام والشمعدانات المذهبة والقناديل والمصابيح المختلفة والنفيسة. وعندما قَدِم سليم مصر سائحًا نزل ضيفًا عدة ليالٍ على هذه التكية، وبعد الفتح وَفَّى بوعده وجاء إلى هذا القصر وفى معيته خدامه، وحل ضيفًا فيها سبع ليال وسماه القصر العينى:

سمى القصر العينى كما قال سليم

وإن كان هذا التشبيه مجازًا فهو الحقيقة

حقًا إنه مكان نزهة للسلاطين. وقد أقيمت مقصورة فى الركن الأيمن الذى نام فيه السلطان سليم، ولا يجلس أحد فى تلك المقصورة، وفيها تحفظ دفاتر وقف التكية.

وفى المطبخ الحيدرى لهذه التكية أناس تركوا التجريد، ونفضوا يديهم من كل شيء سوى الله وملكوا خزائن السر فى ركن العزلة. فكل منهم مأمور بإنجاز عمل، والخبازون فى فرنهم وقد صفت أرواحهم وخبزوا الخبز الأبيض ليقدمونه للدراويش. وفى المطبخ الخليلى تبسط الموائد فى الصباح والمساء للغادين والرائحين والمتصوفة، وفى بعض الأحايين يتوافد على هذه التكية بعض الأعيان ويبسطون الرجاء إلى الدده افندى بأن يامر دراويشه بإنشاد بعض أشعارهم، فينظر الدده افندى إلى سر چشمه دده وشيدا دده وطاهر دده وعاشق دده وقربان دده وطلبكار دده ورجعى دده وغواص دده وجوان مست دده ومدهوش دده ويقول لهم: إن ضيوفكم يطلبون سماع أشعاركم فتكرموا بإنشاد الأشعار فيردون عليه: سمعًا وطاعة. ويمضون إلى ساحة المنافسة الشريفة مثنى مثنى وقد حمل كل منهم قضيبًا فى يده وصفحات ربطها على خصره ودخل ميدان الشعر وعند البدء يخرج شيخ من أحد الأركان ويصلى على جمال وكمال المصطفى ﷺ ويقول الشعراء كذلك:

أيـها الحـبيـب إن هذا الـعـالـم ليـس لـــه من أســاس
إن الـشـعـر مـن ذؤابـــة الـنـبـى صـلـوات الله عـلـيـه

وينشد المتبارون فنون الشعر من المثنى والمثلث والمربع والمخمس والمسدس والمسبع والمثمن والمعشر، والقصائد، والترجيع بند، والمراثى، والرباعيات ورد العجز على الصدر، والغزليات، وما قيل فى بحر الطويل، وغير ذلك من مشكلات، وكأن كل واحد منهم حسان وامرؤ القيس.

ثم تظهر مجموعة من صغار الدراويش الذين اتسموا بالوسامة والبدانة وقد حفيت أرجلهم وانكشفت رءوسهم يمسكون بما لديهم من الطبر والقضبان الحديدية ويكشفون عن رقابهم وأذرعهم البيض وهى كشمع العسل ويدخلون حومة المحبة ويذكرون ما قاله المتصوفة من اللطائف والأمثال الشيقة المستطرفة، ويمزحون وكل منهم له مقدرته، ويدخلون السرور على نفوس الحضور، كما يذكرون النوادر الخاصة بمن يتعاطون المخدرات، ويغيب الحضور عن وعيهم من الضحك كمن تعاطوا المخدرات.

وكل من يزور هذه التكية من العلماء يقرض الشعر عنها. حتى إنه فى عام ١٠٨١ عندما أقام إبراهيم باشا والى مصر قصرًا شامخًا فى أحد أركان القصر العينى يطل على ميدان الجريد نظمت هذه الأبيات وهى تاريخ القصر العينى:

تـعـالـى الله حـبـذا هـذا مـن قـصـر عـظـيـم
أقـيـم عـرشـا عـلـى شـاطـئ الـنـيـل
إنـه خـاص بطـريـقـة حـاجى بـكـتـاش وفـى تـكـيـتـه
وكـأنمـا هـو جـنـة المـأوى
لقـد طوفـت فى الأقـاليـم السبعـة ولم أجـد له نـظيـرا
وكـأنمـا صـمـم بـنـائـه أسـتـاذ الأزل
وبـقى هـذا الـقصـر اسـمًا لـقـصر إرم وقـصـر يوسـف
ولـقـد أقـام قـصـر الخـورنـق هـذا إبـراهـيـم بـاشـا

أنا سائح العالـم طوفت فى الدنيا من أقصاهـا إلى أقصاها
إن لـم يـكن فـى الأرض مثـله فـهـو قـصـر الـسـعـادة
وبمـا يـــوزع فـيـــه مـن طـــعـام هـــو أبُ أم الـدنـيـا
لـــقـــد رأي الـــنـــجـــم دارتـــه لاســـكـــنـــدر دارا
الـلـهم احـفـظ مـقـام الكُـلْـشَـنـى هـذا من كـل سـوء
ولـيـسـلـم بـدعـائـى لـه وخـتـمـى لآيـات الـقـرآن
ولـيـكـن لـهـذا الـقـصـر الـبـقـاء كـبـقـاء الأرض
سـنـــة ١٠٨٢

وأصبح هذا القصـر قصرًا سلطانيًا يضفـى الرواء والبهاء على القصر الـعينى، وثمة تكية بكتاشية أخرى فى وسط حجرات العزب وهى:

تكية حسن بابا البكتاشية

وهو حامل لواء الرسول ﷺ إلا أنه بنى قبة صغيرة أصبحت تكية للبكتاشية وفيها ما يقرب من عشرين درويشًا من أهل الحال، ولهم طعام يصرف لهم من حجرات العزب.

تكية قيغيسر بابا البكتاشية

إنها تكية صـغيرة مظلمة بالقرب مـن باب قاضى العسكر فى حارة بـالقرب من بين القصرين، إنـها ليست واسعة ولا أوقاف لها، ولـها عشرون درويشًا مسنًا يـعيشون فى زهد ولها ساحـة صغيرة وتربة منورة. وفى كـل يوم جمعة بعد أداء الصـلاة يعين لكل قادم صحن من الأرز المخلوط بالماست وقد اشتهـرت التكية بذلك. لقد وهبهم الله هذا من خزائن الغيب.

تكية عبد الله الأنصارى

توجد فى القصر المواجه للقلعة الداخلية، وهو من الصحابة الكرام إلا أن هذه التكية خاصة ببعض دراويش البكتاشية ولها أوقاف كثيرة.

وبالقرب من قصر الكتخدا أسفل زاوية الملك الطاهر تكية هى:

تكية سيدى عبد القادر الجيلانى

وقد دفن فيـها أخ لأبى أيوب الأنصارى وسـيدى الشيخ سارية، إنها تكية صـغيرة يسكنها عـشرة من الدراويش. والباشا يقدم إلـيهم الخبز واللحم. وفى كل لـيلة جمعة يأتى إليها دراويش الشيخونية وفيها يقيمون حلقات الذكر والتوحيد، ولقرب هذه التكية من مسكنى كنت أذهب إليها ليلة الجمعة وهناك أنعم بالذكر.

تكية قره قيا باشا فى قره ميدان

إنها تـكية ضيقـة للشيخ عـبد القادر وفيـها ما لا يقل عـن ستة أو ثمانـية دراويش وطعامهم يأتيهم من مبرة الشيخونية.

تكية مصلى سبيل المؤمنين فى ميدان الروملى

بناها السلطان الغورى عام تسعمائة واثنى عـشر، ويصعد إليها بسلم من اثنتى عشرة درجة، وعلى عقود القبة كتب على الرخام الأبيض تاريخ هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم فى أيام أبى النـصر عبد الله قانصوه الغورى شهر جمادى الأولى فى سنة اثنا عشرة وتسعمائة من الهجرة النبوية).

وكل من يقـتل شرعًا فى ميـدان الروملى ومن يتوفـى من الأعيان فى القـاهرة تقام عليهم فى هـذه التكية ويشترك فيها آلاف المـصلين، إن هذه التكية مصلى لـلمسلمين، وفى جوانبها حـجرات وسبيل، ولكن لا مطبخ لـها، وقبة هذه التكية تقـوم على أربعة أعمدة، ويجتمع فيها دراويش الطريقة المطـاوعية فى كل يوم جمعة، وبعد صلاة الجمعة يعقدون مجـالس التوحيد، ولا تستطيـع واحدة من الطرق الثلاثمائـة والستين أن تؤدى التوحيد مثلهم فهم حينما يتنفسون يسمع صدى كلمة اللهم.

ولكن حينمـا يدخلون فى حالالوجد يحمـل بعضهم على بعض كمـن امتطوا الخيل وحملوا السيف فى يدهم أو من حملوا القسى ورموا بالسهام، ويضرب بعضهم البعض فيبدو الـزبد فى أفواههم ويتـهاوون على الأرض، ويبدو بـعضهم كمن يرشـقون العدو بسهامـهم فتمتلئ عـيونهم بالدم كمن تـصيد، ويسيل اللـعاب من فمهم كأنـه الصمغ الهندى وهم يصرخون، ويـحمل بعضهم على بعضهم الآخر ويتـفق أن يحجز الشيوخ

بين اثنين منهم وبذلك ينجوان. ويهجم بعضهم على بعضهم الآخر وكأنهم الأسود الضوارى فيخاف بعضهم ونتحى بعيدًا وبعضهم يبدو وهو يصيح كالقط والكلب، ويبدأ فى التمرغ على الأرض، وبعضهم يبدو كالتنين له سبعة رءوس يهاجم من يهاجمه، ويرفعون أصواتهم بالصياح إلى حد تنشق مرارة من يسمعونه فيتوارى الخائف خلف الشيوخ والدراويش ويلزم الصمت.

وقسمًا بالقرآن الكريم أن هذه التكية فيها أحوال وأسرار إلهية من يقف عليها يغيب عن وعيه مندهشًا، وتمس حاجته إلى الانخراط فى الطريقة المطاوعية، ومن لم يكن له علم اليقين وعين اليقين لا يقتدر على أن يبلغها لأن من رأى ليس كمن قرأ أو سمع. وفى جامع الحاكم بأمر الله كذلك يقام التوحيد على الطريقة المطاوعية فى عشرة مواضع يوم الجمعة، وهذا ما يعجز عن وصفه اللسان والقلم جميعًا.

تكية الكُلْشَنى

فى بولاق، إنها تكية سلطانية على ساحل النيل، إلا أنها ليست واسعة وفيها ما يقرب من ثلاثين درويشًا من العلماء والأطهار أصحاب السلوك، ولهذه التكية أوقاف عظيمة ولذلك تقدم فيها الأطعمة لكل متردد عليها. وفى الأيام التى تبحر فيها سفن السيد البدوى يقدم إلى هذه التكية كل من فى القاهرة من أهل العلم والصلاح لإقامة مولد عظيم مرة فى العام.

تكية الشيخ فرج الله

فى بولاق كذلك، وهى تكية صغيرة على ساحل النيل وشيخها رجل عظيم صاحب كرامة. وتأتيها النذور من كل الجهات ويعيش عليها خمسة وأربعون درويشًا، وطريقتهم يمنية، وكل أبنيتها تحت ظلال أشجار الجميز والنبق، ولذلك لا تؤثر فيها الشمس، وكل من يتردد عليها يقدم له فنجان من القهوة اليمنية، أما هذه القهوة فكأنها ماء الورد ولا يحتمل أن تصنع مثل هذه القهوة فى قصر أحد الأعيان، ولا يحتمل أن تقدم فى قصور الأثرياء، إنها بركة شاذلية عجيبة.

ودفن سيدى الشيخ فرج فى هذه التكية وهى من روحانياته، وإن له بركات الخليل وكم من تكية فى مدينة بولاق، ولكننا اكتفينا بذكر هذه التكايا، وعدد التكايا فى مدينة بولاق خمس وأربعون تكية.

تكية الملك الأشرف

فى مصيف السلطان قايتباى، لها قبة عالية مكسوة بالجص الأبيض وكأنها تكية القصر العينى، إنها قبة سلطانية تتسع لألف إنسان، وقد أقيمت للطريقة الخلوتية، ولأن لها أوقاف عظيمة يربو عدد دراويشها على المائة ولكل منهم حجرة مستقلة وما يكفيهم من طعام.

تكية السلطان قايتباى

إنها تكية عظيمة للطريقة البدوية وتقع قبالة جامع قايتباى، ويقام فيها المولد مرة فى كل عام. وفى هذه التكية ثلاثمائة من الدراويش المتزوجين، وطعامهم من مبرة قايتباى، وفى قايتباى عشر تكايا.

تكية السلطان طومانباى

فى العادلية وبها ما يقرب من عشرين درويشًا خلوتيًا.

تكية مولوى خانه

إنها تكية كبيرة فى القاهرة بالقرب من سوق الصليبة، بها ساحة عظيمة للسماع ودراويش يقرأون المثنوى. حتى إن حسن افندى ترك منصب قاضى قضاة القاهرة وقنع بالفقر واعتكف فى خلوته فيها، كما أن آدم افندى شيخ البيت المولوى فى باب البرج باسطنبول قدم من مكة إلى مصر، ودفن فى هذه التكية، وتاريخ وفاته هو: «مضى شيخنا آدم إلى الجنان سنة (   )[1]» ويطلقون على المكان الذى بنيت فيه تكية جامع الطيلونية قلعة الكبش وجبل الشكر، وفى هذا الموضع وجه موسى عليه السلام إلى الله كلمات وكلمات، ولهذا لم تتحمل الصخور جمال التجلى فتفتت قطعة قطعة. والآن الدعاء فى هذا الموضع يستجاب. ودراويش هذه التكية معظمهم من المغاربة وشيخهم عزيز نصر الله، وهو شيخ مستجاب الدعاء، وهو على الدوام يصوم صيام داود سلمه الله.

---

(١) بياض فى الأصل.

وهذه التكية من خيرات السلطان قايتباى. وقبتها منقوشة بألوان مختلفة ويصعد إليها بسلم من خمس عشرة درجة. وما فيها من نقوش لا وجود لها فى بلد آخر، والقبة مطلية من الداخل باللازورد والسليو وفيها رسومات نباتية تبهر عين من يشاهدها إنها قبة ذات سحر معجز. إنها مكسوة من الخارج بالجص الأبيض وليست مكسوة بالرصاص الأزرق. وأشغال الصدف فى محرابها، وأشغال الجص فى جدرانها الأربعة المبنية بحجر اليشم الحرقانى لا وجود لها فى مبنى آخر فى مصر.

وقد أقيمت هذه التكية للطريقة الأحمدية ودراويشها يربو عددهم على ثلاثمائة درويش ويكفيهم ما يجرى عليهم من الأوقاف.

إنها تكية كأنها القلعة وجميع الدراويش يسكنونها، ويقام فيها مولد عظيم مرة كل عام ويدوم ثلاثة أيام بلياليها. وفى الطرف القبلى لهذه التكية نخلات وحديقة ذات أزهار.

تكية الطوبخانه

تقع فى الجانب الشرقى خارج مدينة القاهرة على بعد ربع ساعة منها.

تكية تيمور طاش

بالقرب من تكية الطوبخانة أقيمت لدراويش الخلوتية. إنها تكية ذات قبة عظيمة، وفى كل ليلة جمعة يتوافد عليها آلاف المتصوفة وتقام المراسم الحيدرية وهى تكية ذات حدائق وحجرات للدراويش وساحة للسماع. وهذه التكية خاصة بالدراويش ذوى الشأن والمنزلة.

تكية السلطان الغورى

إنها على بعد ساعة من القاهرة فى الجانب الشرقى منها. وقد أقيمت للطريقة البدوية وأرضها مرصوفة بالرخام يعجز عنها الوصف. وفى هذه التكية محراب ومنبر وتقام فيها صلاة الجمعة [الغورية حى لأسواق الغورى الصغير][1] وفى هذه التكية ما يقرب من ألف درويش على الطريقة البدوية. وأوقافها قليلة لذا يعيش من فيها على الكفاف. وشيخ طريقتها من صلحاء الأمة، ويقام فيها المولد مرة كل عام ويتلى التوحيد السلطانى.

(١) هذه العبارة مقحمة فى هذا الموضع؛ وربما ذكرها تمييزاً ليُعْرَف أن تكية الغورى شىء، والغورية شىء آخر.

تكية قدم النبى عليه السلام

فى عام ١٠٧٤ أقام إبراهيم باشا الدفتردار من فرط محبته للرسول ﷺ قبة شامخة تناطح الجوزاء أنفق عليها خمسين كيسًا من صلب ماله لقدم النبى ﷺ كما أقام بجوارها جامعًا عظيمًا يعجز اللسان عن وصفه. كما أقام قصرًا عاليًا يطل على ميدان الجريد.
إنها تكية عظيمة مزينة بالصُّفَّات وجامعها الجميل له سقف منقوش مربع يقوم على ستة أعمدة من الرخام الأبيض، ومحرابه جميل خال من الزخرفة ومنبره من الخشب الأحمر المنقوش. وأرض الجامع مفروشة بالبُسُطِ الحريرية النفيسة، كما يزدان الجامع بالثُّرَيَّات الفاخرة الجميلة. وأمام المحراب حديقة ذات أزهار أما مساحته فمائة قدم فى مثلها. وعلى باب قبلته لوح ذهبى عليه تاريخ بخط التعليق باللون الأزرق وهو:

(أصبح الجامع كالجنة، تم بناؤه عام ١٠٧٧ وأصبح جامع إبراهيم باشا دار سلام).

وفى الجانب الأيمن داخل الجامع باب يفضى إلى قبة قدم النبى ﷺ فى صيوان وداخله ماء الورد وجميع الزوار يمرغون وجوههم على أثر قدمه ﷺ على الحجر:

تعال إن روضة النبوة أثر هذه القدم
مرغ وجهك على قدمه

والقبة من الداخل مكسوة من أولها إلى آخرها بالقيشانى وفيها خطوط مختلفة لمهرة الخطاطين ولى أنا كذلك خط كتبته وقد نقش إبراهيم باشا كذلك طفراء على لوح مذهب وكأنها سحر مبين، وفى الصواوين نفائس عظيمة وعلى باب القبة تاريخ هو:

فى هذا المقام الرائع أثر قدم المصطفى صلى الله عليه وسلم
وغبارها كحل لعيون الكائنات
كل من مرغ وجهه على تلك القدم مخلصًا
كان النور منه فى ظاهره وباطنه
ولقد أرضى هاتف الغيب وبذلك أصبح تاريخه
حقًا إن أثر قدم المصطفى يشرح الصدور
سنة ١٠٧٧

وعلى يسرة المحراب لوحة تحمل تاريخًا مكتوبًا بخط النسخ وهو:

لـقد أرخ إبـراهيـم باشـا لأثـر قدم الـنبـى

سنــة ١٠٧٤

وثمة تاريخ آخر مسطور على باب القبة بخط التعليق وهو:

لما شارف الـتـمام ذكـر الـهاتـف تـاريخـه

أصــبـح إرم الـفــردوس ســنــة ١٠٧٤

وكذلك عــلى الباب الخـارجى للقبلة كتـب تاريخ آخر بـخط التعـليق علـى لوحة باللازورد وهو:

مـولانـا الـسـلـطـان مـحـمـد الـغـازى

غـمــر الله بـالخـيـر جـسـده الـطـاهـر

دعـا الله قـائـلاً تـاريـخـه الـطـهـور

أرسـى أسـاس هـذا الجـامـع سـنـة ١٠٧٤

وعلى الصواوين تاريخ مسطور هو:

أقـام هـذا البـنـاء عـلـى أثـر قدم الـنـبـى

إبـراهـيـم بـاشـا أمـد الله فـى عـمـره

وضمن الكتابات الموجـودة فى القصر العالى على شاطئ النيـل تاريخ مكتوب بخط التعليق هو:

قـال إن تـاريــخ هــذا الـقـصـر

هــو عـام ١٠٧٧

ولهذا الجامع منارة رشـيقة من طبقة واحدة على الطراز التركـى وكأنها شجرة سرو، ولهذه التكية مطبخ عظيم وكأنه مطبخ كيكاوس. وشيخها هو محمد چلبى الخلوتى وهو من أهل التقوى والصلاح.

ويبعد عن هذه التكـية حديقة غَنّاء تزدان بصنوف الليمـون والنارنج وسبعة أنواع من العنب. وفـى هذا الموضع ساقية وحـوض وشادروان تجرى مياههـا وزاوية ذات محراب عليه تاريخ على اللازورد مكتوب بخط جلى بطراز قره حصارى وهو:

سميت الساقية باسم السلطان محمد
كما أنشئ سبيل بجانب الساقية
ولما قارب التمام ذكر الهاتف تاريخه
كان هذا مثوبة جارية لروح السلطان محمد
سنة ١٠٧٧

وحاصل الكلام أن هذا المزار تكية مشهورة لدى عوام الناس وخواصهم.

وفى القاهرة مئات التكايا إلا أن أكبرها وأشهرها هى التى سلف ذكرها وبما أن فى كل هذه التكايا جوامع وزوايا فقد صنفت طبق ما فيها من مساجد وجوامع ومدارس ودور للحديث والقراء ومكاتب صبيان.

وفى ماضى الزمان كان بالقرافة الكبرى ٣٦٦ تكية عامرة ذات أوقاف جارية. وإذا ما قدم القاهرة درويش زائر وأراد أن يحل ضيفًا حل فى كل ليلة ضيفًا بإحدى التكايا، وتحكرم وفادة هذا الضيف مصداقًا لقولهم: «أكرموا الضيف»، وكان شيخ التكية يدفع له كل صباح أجرة الحمام باره مصرية. وإذا ما طلب هذا الضيف الإقامة سنة فى التكية أجيب إلى طلبه، ويجرى عليه راتب فى كل يوم من الوقف. وفى رأس كل سنة كان يقدم لكل ضيف خرقة.

وبعض الدراويش يحلون ضيوفًا كل ليلة على التكية ويرصد لكل منهم مبلغ من المال وعلى هذه الكيفية كان بالقرافة الكبرى ثلاثمائة وست وستون تكية.

وداخل مدينة القاهرة ما لا يقع تحت حصر من التكايا والزوايا أدام الله ما فيها من نعم.

* * *

الفصل الثانى والثلاثون

ذكر ما فى القاهرة من مَبَرَّات توزع طعامها على الغنى والفقير

فضلا عما فى مصر ـ أم الدنيا ـ من مبرات ملحقة بالتكايا ففى كل جامع من جوامع سلاطين السلف وعددها سبعمائة جامع مبرة وعلى مر الأيام تخربت أوقافها وضمت أفدنتها وأرزاقها إلى المال الأميرى فخربت الكثرة الكاثرة منها. وتبقى من عهد الجراكسة مائة وخمسون جامعًا ذات مصابخ ولكن لا يقدم فيها الطعام مرتين فى اليوم على الدوام كما هو الشأن فى مبرات اسطنبول.

وفى ليالى الجمعة وأيام المواسم تقدم آلاف الصحون. وفى القاهرة مبرات جارية النعم وأكبر هذه المبرات مبرة قصر الباشا وهى ذات مطبخ سلطانى عظيم ويقدم فيها ثلاثة قدور من الحساء صباحًا ومثلها بعد العصر ويصيب منها جميع الناس شبابًا وشيوخًا أغنياء وفقراء.

مبرة السلطان قلاوون

تمد فيها الموائد للعوام والخواص والمعوزين فى اتصال ودوام: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. وبعد أن تقدم آلاف الصحون إلى جميع المرتزقة تقدم عدة آلاف من قصاع العدس والحنطة إلى جميع الفقراء.

وفى ليالى الجمعة يوزع اللحم والأرز على الفقراء. ومع أن طعام الأئمة والخطباء والمشايخ يختلف عن طعام الفقراء إلا أن طعام الفقراء دائم، فعلى باب المطبخ كتبت آية كريمة هى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وفى هذا المطبخ أربعون طاهيًا وأربعون عاملاً فى مخزن الأطعمة. وإذا ما توافد بعض الأعيان على هذه المبرة لمشاهدتها أحضر الطهاة الصحون القلاوونية والصينيات المنقوشة والأباريق لإكرام هؤلاء الضيوف. إنها خيرات عظيمة رحم الله صاحبها. وغيره من السلاطين ليست لهم مثل هذه النعم الجارية.

وعندما خرب الظالمون أوقاف المبرات أصبح المولد يقام مرة واحدة فى العام فى كل جوامع السلاطين، ويوزع فيه الأطعمة، إلا أن نظارها كانوا يعينون لخدام الجوامع أثمان اللحم والخبز والشمع ويحسبونها من صدقات الأوقاف.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

ذكر الحَمَّامَات فى مصر نادرة العصر

إن ما سلف ذكره من آلاف الأوقاف كانت خاصة بالجوامع والمساجد والحمامات الأولى فى مدينة القاهرة ذو الماء الجارى يقع فى القلعة الداخلية وهو:

حَمّام سليمان باشا الطواشى

إنه حمام صغير به ثلاث خلوات وحوض شافعى وهو حمام بديعى التصميم وماؤه من بئر يوسف وهو أميل إلى الملوحة، ولأن رواده من جميع طوائف العسكر فجميع أثوابه وعماله ودلاكوه فى غاية النظافة، ولكن بعد الظهر يتردد على الحمام جميع الأمهات والأخوات. وفى منتصف الليل يقوم عمال الحَمّام بتطهير أحواضه وملئها بالماء الصافى.

وفى سوق السباهية وبالقرب من جامع السلطان حسن:

حمام مصطفى باشا

إنه حَمّام كبير، ولا حَمّام فى القاهرة يشبهه فى كبره، ومائه الساخن وجريان ماء حوضه وشادروانه. وفى كل خلوة من خلواته الخمس صنبور. وأرضيته مرصوفة كلها بالرخام الملون ويزدان هذا الحمام بزجاج وثريات وبللورات مختلفة الألوان.

وحَمّام «قنطرة الموسكى»

للسيدات والرجال.

وحَمّام «جى جى على بك»

بما أنه قريب من حارة اليهود يتردد عليه اليهود جميعًا وهو للسيدات والرجال.

وحَمّام «الكلب»

فى مكان منخفض وهو قذر ويدخله الرجال والنساء مجانًا. وعند بنائه قديمًا ظهر فى أساسه تمثالان من النحاس لكلبين يتهارشان ولم يفطن بانى الحمام إلى أن هذين الكلبين مسعران وإلا لحفر له أساسًا فى موضع آخر. ولوجود هذين التمثالين لا وجود فى القاهرة لكلب مسعر يصيب أحدًا بأذى ولذلك يسمون هذا الحَمّام «حَمّام الكلب».

وحَمَّام «الخرونفيس»

فى حارة الخرونفيس، وهو حَمَّام غير مزدوج ولكنه طيب النسيم.

وحَمَّام «البندقانى»

غير مزدوج وهو شديد الزحام.

وحَمَّام «مهدية سلطان»

وهو للرجال والسيدات.

وحَمَّام «باب الخرق»

وهو حمام غير مزدوج.

وحَمَّام «الشيخ البكرى»

فى الأوزبكية

وحَمَّام «القبودان»

وهو للسيدات والرجال، وجَوّه لطيف إلى أبعد حد وزجاجه صاف لامع.

وحَمَّام «تحت الربع»

غير مزدوج.

وحَمَّام «عابدين بك»

فى حارة عابدين وهو للسيدات والرجال.

وحَمَّام «قنطرة السنقور»

غير مزدوج.

وحَمَّام «سوق الدلال»

وزجاجه ينفذ منه النور وشادروانه يدفق الماء الحار الذى يبلغ قبته. وفى هذا الحمام حوض يسبح فيه السمك أما فوارته فتدفق الماء إلى قبته. أما دلاكوه فهم ولدان صِباح الوجوه عيونهم كعيون الظباء وكلامهم عذب مستملح وهم يخدمون من يستحمون فى الحمام وقد لفوا حول خصورهم مناشف زرقا، وكل ثيابهم من الحرير، ومناشفهم فضفاضة. إنه حمام طيب النسيم نظيف وهو للسيدات والرجال. وثمة حمام آخر هو:

حَمّام «بشتك»

وهو للسيدات والرجال، وهو نظيف إلى أبعد حد.

وحَمّام «قيسريه لى إبراهيم كتخدا»

بالقرب من جامع ألْتِى بَرْمَاق.

وحَمّام «الدرب الأحمر»

وهو للسيدات والرجال إلا أنه صغير.

وحَمّام «الصوباشى»

وهو حَمام لطيف للرجال والسيدات.

وحَمّام «بائعى السكر»

وهو أنظف من جميع الحمامات، إذ لا يدخلـه القبط واليهود. وهذا ما اشترطه من أنشاه، ولذا يتردد عليه أهل التقوى والصلاح، وجَوُّه لطيف.

وثمة حَمّام آخر هو:

«حَمّام الخرابة»

وهو لضيقه شديد الزحام، وهو خاص بالرجال.

وحَمّام «بقرجى باشا»

وماؤه حار، وجوّهُ لطيف.

وحَمّام «السقا»

وهو خاص بالرجال.

وحَمّام «قاضى العسكر»

وهو للسيدات والرجال.

وحَمّام «مرزوق»

داخل الباب الجديد، وهو غير مزدوج.

وحَمّام «النساء»

بالقرب من سيدى الهندى.

وحَمّام (   )[1]

بالقرب من سوق الخضار.

وحَمّام «طيلون»

وهذه الحمامات الثلاثة متقاربة وجوها لطيف إلى حد بعيد، وجميع المغاربة يترددون عليها.

وحَمّام «الصليبة»

وهو حَمّام قديم للسيدات والرجال، وجَوّه لا يسبب الصداع.

وحَمّام «الدود»

وحَمّام «القيسونية»

وهو للسيدات والرجال، وقد بناه الحكيم القيسونى وهو طيب الماء والهواء.

وحَمّام «باب الوزير»

وهو غير مزدوج.

وحَمّام «محكمة الصالحية»

على مقربة من ضريح الحسين، وهو حَمّام قديم.

وحَمّام «قنطرة الليمون»

غير مزدوج.

وهذه الحَمّامات المذكورة واحد وأربعون حمامًا دخلتها وهناك أربعة عشر حَمّامًا أخرى لم أدخلها. وبناء على هذا الإحصاء فإن فى القاهرة خمسة وخمسين حَمّامًا خاصًا وعامًا، إضافة إلى ما فى قصور السلاطين والأمراء والأعيان والشيوخ والعلماء. وفى بعض هذه القصور حَمّامان ولكن قصور رضوان بك أمير الحج وقيطاس بك وعلى بك الجرجاوى وذو الفقار بك وأبى الشوارب بك وغيرها من القصور تضم أربعة حمامات أو أكثر فى القصر الواحد.

---

(١) بياض فى الأصل.

وبناء على هذا الإحصاء فإن حمّامات القصور سالفة الذكر تقدر بستين ألف حمّام في القاهرة. وهذا ما عرض على السلطان مراد. ولكن مياه هذه الحمّامات إلى الملوحة أميل وذلك لحكمة يعلمها الله. ولكن إذا ما فاض النيل وجرت مياه الخلجان في المدينة أصبحت مياه الحمّامات القريبة من هذه الخلجان مياه عذبة، فماء حمّام «القيسوني» مثلاً ماء عذب.

ويقول الأطباء إن الماء الملح ماء مفيد وبه تصح الأبدان، ولكل حمّام فسقية وحوض ولأن أهل القاهرة جميعًا - عدا النصارى - على المذهب الشافعي. وإذا لم ينزلوا إلى الحوض الشافعي لم ينظفوا. ولها جوٌ يناسب جو مصر ولا وجود لمواقد تحت حمامات القاهرة، كما أن ما وراء جدرانها الأربعة ليس خاليًا، إنها جدران صلبة وبما أن سخانات الحمامات تجعل المياه شديدة الحرارة فإن ماء الشادروانات تشتد حرارته كذلك. وقدور الماء الساخن في أركان الحمّام تتجمع مياهها على رخام الحمام وليس للحمّام بالوعة ولشدة حرارة هذه المياه تشتد حرارة الحمّام بحيث لا يستطيع أحد أن يضع قدمه على أرضيته وماء الحمّام لا يبرد قط وهو حار على الدوام ليل نهار، وذلك لوجود أربعة أو خمسة خزانات للماء فوق كل حمّام وماء هذه الخزانات يفيض ويتدفق إلى الحمّام ولذا فالماء حار على الدوام. وخزان تسخين الماء في بلاد الترك وخزان الماء البارد بخلاف ذلك فالخزانات في مصر من الرصاص وليست من النحاس كما في بلاد الترك، وهذا ما لا وجود له إلا في مصر، إنها صناعة عجيبة محيرة للعقل جديرة بالمشاهدة.

وفي القاهرة لا يشعلون الحطب في الحمامات قط وإنما يحرقون فضلات الماشية التي تسمى عندهم «بالجِلّة»، وللحمَّامِيَّة أربعة أو خمسة كناسين بالأجرة وهؤلاء الكناسون يتجولون في الشوارع الرئيسية ويكنسونها بحيث لا يبقوا ذرّة من تراب أو قش ويحضرون هذا القش إلى أتون الحمامات ويكومونه أكوامًا أكوامًا كالجبال، ويضرمون فيه النار. والزنبيل هو رأس مال الحمّامي، والحمّاميّة يحملون ما في الزنابيل

ويحرقونـها. ولجميع حَمّامـات القاهرة من يديرونهـا وهم يخضعون لمن يـسمى «جادر مهتر باشى» لوالى مصر. وإذا ما تشاجر الحَمّـاميون والدلاكون وصبيانهم وآذى بعضهم البعض الآخر فإن من يصلح ذات بينهم هو المهترباشى، وريع هذه الحَمّامات يذهب إلى الأوقاف.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

ذكر وكالات (أى خانات) سلاطين السلف ووزرائهم ووكلائهم

فى القاهرة (   )[1] وكالة أعظمـها «خان الخليل» وهو خان عظيـم مساحته مائة قدم فى مـثلها وفى أركانه الأربعة مائتـا دكان، وجامعه من الخشب، وليـس مبنيًا بالأحجـار وجميع مـن يؤمون هذا الجامـع من تجار التـرك. وفى هذا الخان مـن أثرياء التجار من يملكون عدة آلاف من الأكياس، ومـثلهم فى بولاق. إن كل أموال مصر فى خان الخليل هذا. وله أبـواب حديدية من طبقتين وكأنها أبـواب القلاع. وعلى الجوانب الأربعة الخارجية للخـان دكاكين مبنية بالحجارة. إنه سوق مصر ولذلـك يكثر فيه ما فى الأقاليم السبعة من نفائس لا تقوم بمال ويتصل بهذا الخان:

خان الحناء

وتصدر الحنة من هذا الخان إلى بلاد الترك والعجم وبلاد العرب، وقد تراكمت حوله مئات التلال من الحناء. إنه خان واسع كذلك، وفيه ثلاثمائة حجرة بعضها فوق بعض. وجميع الأسرى والرقيق يباعون فيه. وبالقرب منه:

«خان دويدار الكبير»

وهو حقًا خان كبير.

وخان «دويدار الصغير»

وهو خان معمور.

وخان (   )[2]

فى سوق حافظ.

وخان (   )[3]

وهما خانان عظيمان.

ثم خان «قاسم كتخذا وخان جوالى، وخان البـندقانى، وخان أحمد أغا القبرصى، وخان آق قاش، وخان مـرتضى، وخان محمد أغـا، وخان أبى طاقية، وخـان جعفر، وخان الأسير، وخان جلابه، وخان حسين، وخان رجب أغا.

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

وخان «ذى الفقار كتخدا»

وهو مبنى جديد كأنه القلعة وعلى جـوانبه الأربعة دكاكين ومخازن وفوقه بيوت من ثلاثة طوابق وقد بنيت لـيسكنها عليّة القوم، ويبلغ طول هذا الخـان مائة وخمسين قدمًا وعرضه ثمـانون قدمًا. ويتوسط هذا الخـان زاوية. ولما وصلت إليها وجـدت أن تاريخا سنة (١٠٨٣).

وبالقرب من هذا الخان:

خان «الكتخدا محمد الحبشى»

وهو كذلك خان جديد جميل.

وخان «الناصرية»

داخل باب النـاصر. وقبالته «وكـالة الزيت»، ويأتى إليـها الزيتون وزيتـه من دمشق والقدسو غـزة. إنه خان لتجارة الزيـت. وملابس من يسكنـونها رثة ملطخـة بالزيت. وبالقـرب منـهـا: «خان البكارية»، وبالقـــرب منـه خـان «الصابونـيـة»، وإلى جواره «خـان الكردية»، وغلى مـقربة منه «خان جعفر» ووكالة «البهار» وسـميت وكالة البهار لأن الباشـا يحصل المكوس مـن المدينة على الـتوابل الآتية من الـهند واليمن والحـبشة وعدن. والباشا ملتزم بتسديد (   )[١] من هذه المكوس. والربح والخسارة تحسب له أو عليه.

وخان «الكتخدا الحبشى» بالقرب من جامع الحبشى، وبالقرب من جامع الشاهمردانية «خان الحبشى» الجديد وهو من طوابق.

وخان «مسـعود أغا» بالـقرب من جامـع الداودية، وبعـد باب الوزير «خـان حافظ باشا»، ووكالة (   )[٢].

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

وفضلا عن هذه الوكالات وكالات أخرى كثيرة ولكن كل منها فى عطفة وليست من الخانات المتعددة، أما الخانات سالفة الذكر فكلها تتألف من ثلاثمائة حجرة أو أكثر وكأنها القلاع. وعلى كل باب من أبوابها خمسة أو عشرة بوابين يقومون بالحراسة، وعلاوة على هذه الوكالات فى مصر ثمانمائة وخمسون رَبْعًا، أى خانات المتزوجين فليس فيها رجل غير متزوج، والنساء والرجال والأطفال فى موضع واحد ولا وجود فيها لمحرم ولا غير محرم. ويسكنها الفلاحون الحضر ولا يسكنها غيرهم.

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

ذكر ما فى فسطاط مصر من البيمارستانات والمستشفيات

كان فى مصر قديمًا ١٤٠ بيمارستانًا ومستشفى، وآثارها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا ولأن أوقافها ضمت إلى المال الأميرى لحق بها الخراب. وفى وقت سياحتى كان بها أربعة بيمارستانات، أحدها بالقرب من بين القصرين وهو:

بيمارستان مقام موسى

إنه بيمارستان بلا وقف والخدمة فيه ابتغاء مرضاة الله، ولذا يرسل إليه أهل الخير الطعام لكل من فيه فى كل وقت. كما أن بعض الدراويش يخدمون فيه لوجه الله وكل أحد يتصدق عليه من مال الزكاة.

بيمارستان الجامع الأزهر

الخدمة فيه كذلك مجانية ابتغاء لوجه الله، إلا أن له أوقافًا عظيمة علاوة على ما يأتيه من النُّذور والصدقات والأطعمة حتى صار خدّامه من المترفين إلا أن هذه الأوقاف غير تابعة للجامع الأزهر. ويقع هذا البيمارستان داخل زاوية الشيخ محمد المطوبسى.

بيمارستان السلطان المؤيد

يقع بعد باب الوزير عند التكية الأوزبكية. إنه بناء عال فى موضع طيب النسيم وهو بناء سلطانى من الحجر وفيه حجرات وقاعات متعددة، وله باب شاهق داخل التكية الأوزبكية، ولكى يتنسم المرضى فيه طيب النسيم له مقصورات مختلفة، إنه بناء جميل ولكنه بلا أوقاف ولذلك فخدامه من دراويش التكية الأوزبكية.

أوصاف مستشفى السلطان قلاوون العامر

إنه مستشفى عظيم يقع فى ركن حرم جامع قلاوون الذى سبق الحديث عنه وعن ميرته، ولا وجود لمبنى يشبهه فى بلاد العرب والترك والعجم. وطراز تصميمه يخلب الألباب، والأطباء يعالجون فيه المختلون عقليًا فيعقلون.

وفى بدايته كان مرصوفًا بالرخام طولا وعرضًا، وله حرم عظيم، مساحته مائة وخمسون قدمًا، ويتوسط هذا الحرم حوض عظيم، ونافورته تدفع الماء إلى أعلى بقدر قامة

رجلين، وعلى حافة هذا الحوض مصلى، وفوق هذا الحوض قبة سقفها منقوش يحملها اثنا عشر عموداً، وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم قاعة عظيمة تتسع لألف إنسان، وعلى جانبي هذه القاعة صُفَّات، ويعلو العقود الحجرية سقف منقوش، وهذه القاعات مرصوفة من أولها إلى آخرها بمختلف أنواع الرخام وكأنها رسول «ارزنك» وتمتد أحواض الماء الجارى حتى نهاية هذه القاعات، ويجرى الماء بين هذه الصُفَّات وتصب فى الحوض الذى يتوسط الحرم، ولقد أنشأت أربع قاعات أخرى على نفس الطراز.

وعلى هذه الصُفَّات يرقد المرضى فى ثياب النوم وتحت اللحف الحريرية، ويستريح بعض الناقهين من هؤلاء المرضى على حافة تلك الأحواض الجارية، ويخدمهم الخدام وكأنهم فراشات. إلا أن بعض الأخوة المجانين يستقرون فى الأركان المظلمة، وبعضهم فى حجرات واسعة ذات أحواض وشادروانات وهم مقيدو الأعناق بالسلاسل كالأسود وبعضهم يصيحون وكأن صوتهم هزيم الرعد، وبعضهم يلزمون الصمت والهدوء.

وبما أن جو مصر جاف فجميع أهلها سودويون، ولكثرة مكر النساء فيها فالكثرة الكاثرة من أهلها مسحورون ممكورون. وإذا أخبر أهل حى من الأحياء الباشا عن حالة أحد ممن اختلت قوتهم العقلية أمر الباشا بإدخاله البيمارستان للعلاج، وإذا لم يأمر الباشا بذلك لا يدخلونه البيمارستان إلا بناء على هذا الأمر.

ولأن له نفقة تصرف له فى كل يوم على الدوام لذلك يوجد فى بيمارستان قلاوون ٣٦٠ مريض ومجنون فى يومنا هذا. وفى الموضع الذى يصرف منه طعام المبرة يصرف للأطباء مع تلاميذهم الأطعمة ومعاجين الأدوية على حسب حالة كل المرضى.

وللأطباء خُدّام من ذوى الجرأة ولهم طبع الجلادين. وهؤلاء الخدام يطعمون بعض الأخوة المجانين الخوشاف المسمى «قزلجق».

وإذا ما قدم هذه العتبة مريض كان قد لزم الفراش ثلاثة أعوام أو مجنون شُفِيَ من مرضه بعد أربعين يومًا بإذن الله وتوردت وجنتاه ففى هذا المستشفى من الأطباء أمثال بقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث التوحيدى وأبى على ابن سينا، وهم يحيون الموتى كأنهم المسيح. ولكن هؤلاء الأباء ليسوا من أهل المدينة فهم جميعًا من الغرباء، إنهم

كذلك مـن العرب لأن العـرب لقنوا عـلم الطب، وكـان هذا العلـم عندهم مـن ألزم اللوازم، فعنه ﷺ قـال: (العلم علمان الأول علم الأبدان والثانـى علم الأديان). وبناء على هذا الحديث شاع علم الطب فى العرب ولـقد وجد علم الطب فى عهد آدم الثانى وهو نـوح النجىّ عـليه السـلام، والإسكندر الأكـبر، وفى عـهد الفلاسـفة فيلـقوس وجالينوس، وبعد عهد الرسالة لما كان من كرامات باهرة لكبار أولياء الله اشتهر الحكماء بالطب. وقد وقـف اليونان والفرنجة على دقائـق علم الطب واشتهروا بهـا ولكن مست حاجتهم إلى العـرب لأن هؤلاء العرب بتقواهم وزهدهم وقوة علـمهم إذا نزل بأحدهم مرض وعالجوه شفى بإذن الله.

وفى مـستشفى قـلاوون إذا ما جس مهرة الأطباء نبض أحد المرضى عـالجوه بما يتفق مع حـالته وكان لـه الشفاء بـإذن الله، لأن فى بلاد مصـر فى الإقليـم الأول بالصعيد والواحات والحبشـة وبلاد الفونج وجبل القمر نـباتات وأعشاب مختلـفة، وقد لا توجد هذه النـباتات حتى فـى بلاد الهند، وتجلـب هذه الأدوية إلى القـاهرة ويصفهـا الأطباء للمرضى فيـتم شفاؤهم، ولذا كان لمستشـفى قلاوون مستفيض الشهـرة فى بلاد العرب والترك والعجم.

وفى أحد جوانب هذا المستشفى بيمارستـان النسـاء، وقد أنفق على إنشائه مال وفير، وكل القـائمين على الخـدمة فيه من الـنسوة والأطباء يـدخلونه بلا خـوف ولا حرجة، ويصفون لكل داء دواء. وقد يتـفق لبعض نزيلات هذا البيمارستان مـن النسـاء الذاهبات العقول أن يلدن فيه، فـفى عهد إبراهيم باشا اتفق أن ولد لامرأة ولد فـى هذا المستشفى فسموه شفائى.

وخلاصة القول أننى لم أشهد مبنى بهذه العظمة أثناء تطوافى فى البلاد.

أوصاف صنع مستحضرات الترياق الفاروقى العظيم

ليعـلم الرحالة من أهـل العلم بقـدر ما على وجه الأرض مـن أطباء يصنع الـترياق الفاروقى ولكن لا يحتمل أن يكون كالترياق الفاروقى الذى يحضر فى مصر لأن أقراص الترياق الفاروقى خاصة بمصر ولا وجود لها إلا فـيها. وكلمة قرص تدل على عدة أشياء

وهى: أن هذا القرص يستخلص من جسم الثعبان. وهناك أربعون شخصًا تجرى عليهم رواتب من أوقاف قلاوون، وهم يعملون مرة فى العام وهم يسكنون فى قرى ابن خبير فى الجيزة وهم طائفة يصيدون ثعبان الترياق الفاروقى مرة فى شهر يوليو من كل عام.

وهم عندما يحلون فى موضع صيده يجتمعون فى موضع واحد ويكسون جسمهم من أعلاه إلى أسفله باللباد الغليظ بحيث يسترونه ولا يبدو منهم إلا عينهم التى ترى وهم يسترون كذلك وجوههم، وعلى عمائمهم الطويلة قطع من اللباد الأبيض ويمضون صوب نواحى بهنسيا والفيوم والجبل الأخضر، ويصلون إلى الموضع الذى فيه ثعابين الفاروقى فى برد الصباح لأن الثعابين تخمل دون شدة الحر، ومع ذلك فإن الثعابين الفاروقى تهاجمهم بضراوة ويصطادون منها آلافًا فيضعونها فى الزنابيل فتثور فيخيطون أفواه الزنابيل ويتفق فى بعض الأحايين أثناء صيدهم للثعابين أن تثب إلى وجوههم، فإذا ما أصابت عيونهم فلا نجاة للصياد من الموت لأن سم هذه الثعابين سم زعاف، والقطرة من سمها تقتل فى التو، إنها ثعابين فتاكة، وهؤلاء الرجال المذكورين يختصون بصيدها. ولا طاقة لغيرهم من الناس بعملهم هذا، ولهم موكب خاص بفرقتهم وهم من أهل التقوى والصلاح وهم على الطريقة السعدية.

واتفق أن اصطادت هذه الطائفة كثير من الثعابين وضعوها فى زنابيل وحملوها على الحُمُر وفى طريقهم إلى القاهرة عندما وصلوا إلى حديقة جميلة وكأنها حديقة إرم انطلق ثعبان من الزنابيل ولدغ الحمار الذى يحمل الزنابيل فسقطت عن الحمار وفى طرفة العين تورم جسم الحمار إلى أن أصبح كجسم الفيل وتيبست قوائمه وكأنها أعمدة من حجر وأبعد الصيادون الناس عنه محذرين إياهم من الرائحة المنبعثة من جثة الحمار التى تؤذيهم، وأخذوا الزنابيل الممتلئة بالثعابين التى كانت محملة على الحمار ووضعوها على حمار آخر، وقد تفتقت جثة الحمار المسموم وذابت كل عظامه، وحمدًا لله أن أحدًا لم يصب بأذى، وأهل من كانوا فى هذا الموضع التراب على جثة الحمار وستروها ودفنوها، أما الحُمُر الأخرى فمضوا بها إلى مستشفى قلاوون وسلموها لرئيس الأطباء ورئيس المستشفى.

وكنت قد استأذنت كبير الأطباء لمشاهدة المستشفى فأخبرونى بأنه أذن لى، وفى التو ركبت جوادى وعندما بلغت مستشفى قلاوون فتحوا باب الفاروق وأدخلونى ثم أوصدوا الباب، وحتى لا تنكشف أسرار علمهم ولأن المكان مفعم بآلاف الثعابين الفتاكة لا يدخلون شخصًا غريبًا.

وبيت الفاروق هذا مدرسة عظيمة، وكل جدرانها وأرضيتها مكسوة بالرخام، وهى مدرسة قاصرة على علم الطب فقط، ولهذه المدرسة حرم تحيط به صُفَّات وفى ذلك اليوم انهارت هذه الصُفَّات وكنا ثلاثين شخصًا من كبير الأطباء والناظر أغا وكاتب الأوقاف ومرشد الأوقاف وعشرة من نواب كبير الأطباء وداع واثنى عشر صيادًا وطهاة وقصابين، وكان عدد من دقوا الباب وأرادوا الدخول من خارج الباب لا يدخل تحت حصر، وكان الباب محكم السد فقالوا لى لا تخف وأشعلوا قنديلاً، واعتليت مرتفعًا وتهيأت لمشاهدة المستشفى.

وقام هؤلاء الثلاثين وتوضأوا وصلوا ركعتين قضاء وأحضروا مائة عصى طول كل منها ثلاثة أشبار ومائة من سواطير القصابين وهى سواطير حادة مصنوعة من الصلب الإفرنجى ومائة ماجور من الفخار المبطن بالزجاج وكل منها يتسع لإنسان وهى مملوة بالماء الصافى وبعضها فارغ، وعدة صينيات من القصدير التى تعود إلى عهد قلاوون، وأردب من الملح المسحوق المنخول، وخمسون وعاء كبيرًا مثل أوعية الماء مبطنة بالزجاج من الداخل والخارج، وهذه الأوعية واسعة القاع وفوهتها تتسع لرأس إنسان، وجهزوا كل الأوعية النحاسية والفخارية. ولما هَمّ الداعى بالقيام نهض الحضور جميعًا، وبعد البسملة وحمد الله والطرزية والتصلية قرأ الداعى الفاتحة على أرواح آل عثمان والسلطان قلاوون صاحب هذه الخيرات والحسنات، ولقمان الحكيم وفيثاغورث التوحيدى وسلطان الأطباء ابن سينا وسائر الحكماء والأطباء، ودعا الله بالخير للطبيب الرئيس والناظر أغا وكاتب رئيس الطهاة ومساعديه وسائر الخدم، ثم كبّر وقرأ الفاتحة الشريفة وبعد أن مسح وجهه بيده فتح كبير الصيادين وثلاثة من قصابى الثعابين فوهة أحد الزنابيل فى وسط حرم المستشفى فانطلقت آلاف الثعابين السامة الفتاكة فطاش صوابى واعتليت موضعًا

مرتفعًا واندفعت الثعابين يمينًا ويسارًا وهاجت وفحت واصطدمت بالجدران وانتشرت حول الحاضرين فجمعها خدام كبير الأطباء والصيادون فى مكان واحد وكانت لهم زنابيل من الصوف الأصفر، وعندما وضعوا الثعابين فيها هدأت ولم تعد تحرك ساكنًا، وجلس كبير الصيادين مع ثلاثة من رجاله إلى جانب أورمة وحملوا سواطيرهم وأخرجوا الثعابين من الزنابيل الواحد تلو الآخر وضموا نوعًا من الثعابين البيض إلى غنمهم وقد انتشيت من شذا مسك هذه الثعابين، فسألت كبير الأباء عنها فردّ علىّ قائلاً: إنها ثعابين المسك وليست ثعابين الفاروق ونحن نصنع منها أدوية أخرى وسوف ترى الآن.

ورأيت أنهم جمعوا ثعابين بِيض كثيرة فى مكان واحد وصففوا أفواه الثعابين بخيوط حريرية حمراء طويلة فى ركن ظليل وامتد هذا الخيط من جدار إلى جدار وقد علقوا فيه ثعابين المسك هذه ثم استخدموا قطعة من القطن فى وضع قطرات من زيت زيتون صوصه فى أفواه الثعابين فنفقت جميعًا، وبدأ كل منها فى الانتفاخ وبقيت هذه الثعابين معلقة على هذا الوضع أربعين يومًا وليلة، وبذلك تتكون داخل جلد هذه الثعابين حبات من المِسك وقوة رائحة هذا المسك تدمى أنف من يشمها، إنها رائحة حادة إلى هذا الحد البعيد.

وثمة ثعابين قصيرة منقوشة الجلد ورءوسها مستديرة كالجوزة وعندما وضعوها سألت عنها فقيل لى إنها «حيات الصفى» وهى من نسل الأفاعى التى أخرجت من الجنة مع آدم عليه السلام، وهى كذلك ليست من نوع أفاعى الفاروق وثعابين الصفى لا تخرج صغارها من البيض مثل ثعابين الفاروق، وإنما تولد كسائر الحيوانات وهى تختلف عن خلق الحية وتلك حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وجملة أفاعى الفاروق التى صادوها ٨٣٠٠ سلّمها الصيادون للمتولى وقيد الكتبة والمرشدون فى الدفاتر أن سعر كل ثعبان ٨٠٠ قرش، وبعد ذلك جلس كبير الصيادين وقصابو الثعابين الثلاثة إلى جانب أورمة وقالوا: «بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله بنيّة الشفاء وأخرجوا ثعبانًا كبيرًا من الزنبيل ووضعوا وسط الثعبان على الأورمة وأمسك أحد

القصابين رأس الثعبان وذيله بيده اليسرى وهوى بالساطور عليه مرة واحدة بيده اليمنى، فتلوى الثعبان على الرخام بلا رأس ولا ذيل وبقى رأس الثعبان وذيله فى يد كبير الصيادين وبظهر الساطور أخذ يسحق رأس الثعبان وتركها على الرخام وردد الحضور فى المجلس «لا إله إلا الله» وقبض كبير القصابين على الثعبان الذبيح ونحى ذيله ورأسه جانبًا بثلاثة أصابع وقطعه ثم جاء قصاب آخر وحمل الثعبان المقطع وشق بطنه بسكين من ذهب وأخرج أحشاءه وبيضه وألقى به إلى قصاب آخر فقام بنزع جلد الثعبان بأظافره وسلخه من رأسه إلى ذيله فأخرج قطعة من لحم أبيض، وظل الثعبان يتلوى وبعد ذلك أمسك به أحد الأطباء وتنتهى مهمة القصابين عند هذا الحد، ويأخذ مساعدو كبير الأباء الثعابين المسلوخة ويغسلونها جيدًا فى ماء تلك المواجير سالفة الذكر ويملحونها ويضعونها فى الأوانى المبطنة بالزجاج حتى تمتلئ ثم يضعونها على النار وعندئذ أمسك كبير الأطباء الساعة وأحرق خشب السنط تحت الأوانى والجميع يوحدون الله وهم خاشعون، وعندما أخرجوا بعض الثعابين من الزنابيل بصقوا فى أفواهها ووضعوها على الأورمة فتلوت الثعابين حتى ذبحوها.

والحاصل أن اثنى عشر صيادًا وقصابًا ذبحوا ثعابين الزنابيل العشرة جميعًا واحتفظوا بأذيالها ورءوسها ليصنعوا منها دواء آخر ولهم زجاجات كبيرة للقطرة يملؤنها بها. ولكنى ألححت فى السؤال إلا أنهم لم يجيبونى إجابة شافية ولست أدرى إن كنت على صواب فى قولى إنهم يستخرجون ما فى رءوس الثعابين من سم لتصديره إلى بلاد الفرنجة، فقد أرسلوا إلى ملك «دونقاقيز» ما يقرب من ألف رأس ثعبان سلكت فى خيط على سبيل الهدية، فَسُرَّ الملك بذلك وأرسلها لأحد ولاته.

عبرة عظيمة عند تحضير الترياق الفاروقى

عندما كان القصابون يذبحون هذه الثعابين ولم تكن ضربة الساطور فى موضعها وأصابت جزءًا من الرأس أو الجذع أو الذيل سرعان ما يثب إليهم كبير الأطباء قائلا لهم: «ارموا الحية ارموا الحية!» ولم يرموها مع أحشاء وبيض الثعابين الأخرى وتركوها فى مكان آخر، وفى هذه الحالة أصبح الثعبان فى غلظ الذراع وانتفخ وكان من قبل

الرأس فى غلظ الأصبع، ولعدم ذبحه على الطريقة الصحيحة أثر ما فى رأسه من سم فى جسمه فانتفخ. ولذلك صاح كبير الأطباء وأمرهم أن يلقوه من يدهم وألقوا كذلك الأورمة والساطور وجاءوا بأورمة أخرى وساطور أخر.

واقتضت حكمة الله أن خمسة وستين ثعبانا مما كان فى العشر سلال لم تذبح جيدا فى ذلك اليوم ورميت مع آلاتها، ولكن هذه الثعابين التى ألقيت لا تحسب على الوقف ولكنها تحسب على الصيادين والقصابين وتحسب تحت حساب وظيفتهم وتلك ظاهرة عجيبة.

عبرة أخرى

كوم القصابون بيض وجلد وأحشاء تلك الثعابين كالجبال وذروا عليها الملح الناعم لتمليحها وعندئذ صرخ أحد القصابين وجذب يده وجعل يتأوه ويصيح قائلا: وا ولداه وفى التو أحضر كبير الصيادين ثلاثة ثعابين من التى غسلت فى المواجير وربطها على أصبع الرجل وفى الحال تورمت الثعابين الثلاثة وأصبحت فى غلظ الذراع، ثم رفعها وجاء بثلاثة ثعابين أخرى وربطها على جرح الرجل إلا أنها لم تتورم وتغير لونها فرفعها كذلك ثم وضع أصبع الرجل فى فمه وامتص موضع الجرح وبصق بصاقا أصفر على الأرض ومسح يد الرجل بمصل الفاروق الأعظم المخفف، وبذلك سكن ألم الرجل ونجى من التسمم ونفخت فيه روح جديدة، ولعلهم كانوا قد تركوا سهوا رأس وذيل أحد الثعابين التى لم تذبح على الطريقة الصحيحة بين أحشاء وبيض الثعابين الأخرى، بعد ذلك بينما كان القصابون يملحون أحشاء وبيض الثعابين بالملح، أصاب السم الذى فى الثعبان الذى لم يذبح بطريقة سليمة أصبع الرجل وعولج الرجل على نحو ما سلف ذكره وكتبت له النجاة.

وخلاصة القول أننى لم أصادف أحدا فى شجاعة وعنف وقسوة هؤلاء الصيادين والقصابين حاشا أن يكون هؤلاء من البشر. ولو أنى رأيت ما تستفاد منه العبرة ولكنى لم أكن فى وعيى فى أى دقيقة ولقد قدمت على مشاهدتى ذلك.

وسألت كبير الأطباء ثانية: ماذا أنتم صانعون بجلود وأحشاء وأكباد وبيض هذه الثعابين بعد تمليحها ووضعها فى أوعية بها ماء الملح!.

فقال كبير الأطباء: ماذا تقصد بسؤالك هذا؟ فكررت سؤالى.

فأجاب قائلا: إن سفراء الفرنجة هنا يشترونها منا ويبعثون بها إلى أطبائهم فى بلاد الفرنجة، وهم يستخدمونها فى علاج جميع الأمراض كل عضو على حده، ومفعول هذه الأدوية يسرى فى الحال.

وبعد أن طهروا الثعابين المملحة وضعوا كل اثنتى عشرة قطعة منها فى وعاء مبطن بالزجاج ثم وضعوا هذه الأوعية فوق مواقد المطبخ فى أحد أركان حرم المستشفى وأشعلوا تحتها حطب شجر السنط وأمسك كبير الأطباء فى إحدى يديه عصا وفى يده الأخرى ساعة ومعه الطهاة من معاونيه وكل منهم ممن تبحروا فى الطب من تلاميذه الكمل، ومهمة كبير الأطباء هى مجرد مراقبة الوقت. وغليت الثعابين داخل الأوعية ثلاث ساعات حتى ظهرت زيوت صفراء فوق هذه الأوعية فحمل كبير الأطباء ملعقة كبيرة فى يده وأخذ بعضا من هذا الزيت ثم ملأوا زجاجات للقطرة كانت لديهم بهذه الزيوت، وبعد أن أفرغوا كل ما فى هذه الأوعية داخل الزجاجات أوقدوا النار تحت أوعية الثعابين للمرة الثانية. وليكن فى معلومك أن الأوعية التى تطبخ فيها الأفاعى ليست من النحاس، إنها ـ كما سبق أن أشرنا ـ أوعية فخارية مبطنة من الداخل والخارج بالزجاج ثم حمل كبير الأطباء الزيت الناتج من الثعابين بملعقة كبيرة ومزج هذا الزيت بأجود أنواع زيت صوصة فى بلاد المغرب وهذا الزيت يشبه ماء الحياة وملأ زجاجة من خمس أوقيات من زيت الثعابين مع خمس أوقيات من الزيت الخالص لمدينة صوصة ووضع هذه الزجاجات على نار هادئة ثم زاد النار اشتعالا وبعد ثلاث ساعات رفعها فأصبح لهذا الزيت قوام السمن المصفى ورائحة ذكية وهى رائحة يتنسمها الحضور على لذة.

وبعد أن عيل صبرى سألت كبير الأطباء فقال: والله فى الهند تكثر أمراض الجذام والبهق والبرص وهذا الزيت مناسب جدا لجو الهند، وإذا دهنت أجسام المصابين بهذه الأمراض بهذا الزيت لم يبق فى أجسامهم أثر لهذه الأمراض وابيضت بشرتهم، إلا أن

هذا الزيت عديم النفع فى مصر ولو دهنوا أجسامهم به ألف مرة، أما المبتلون فى مصر بالجرب والخفقان إذا طعموا كل يوم بدرهم طيلة أربعين يوما تم لهم الشفاء بإذن الله.

وبعد أن تطهى الثعابين على النار فى الأوانى لمدة ثلاث ساعات أخرى حتى ينقص ماؤها بقدر شبر ترفع جميع الأوانى عن النار، ثم توضع الثعابين المطبوخة فى صينيات نحاسية ثم تبرد.

وعندما جاء أعيان مصر برسائل الشفاعة منذ شهر ومعهم الكاسات والأباريق والدلاء أخرجوا ما تبقى من الثعابين المطبوخة المحفوظة فى أوعية زجاجية من داخل الصواوين وكان يكتب اسم ومرض ووصف كل أحد على ورقة توضع فى إناء من نحاس، وملأت هذه الكاسات والأوانى بحساء الأفاعى وأضيف إليه بعض الأدوية حسب ما تقتضيه حالة المريض وسلمت الكاسات والأباريق لكل واحد وبذلك وزع حساء الأفاعى على مئات المناطق.

ثم ملأ الخدام الصحون بحساء الأفاعى وقطعوا الخبز ووضعوه فيها فطاش صوابى.

وبدأ كبير الأطباء والناظر أغا والكاتب وسائر الخدم فى احتساء فناجين حساء الأفاعى وأحضروا لى فنجانا فلم أقبله، فقال لى كبير الأطباء: إنه يا مولاى يقوى البصر ويقطع ريح الباسور. ونزولا على رغبتهم وإلحاحهم تجرأت على شرب فنجان معهم وأنا مغمض العينين وضغطت على أسنانى وقلت: بسم الله وبنية الشفاء ولكنى شممت منه رائحة المسك، فأتونى بفنجان آخر وقد وضعوا فيه بطرف السكين مقداراً من زيت الأفعى مع مقدار من الزيت فشربته كذلك وأشهد الله أن رائحة المسك لم تفارق أنفى طيلة أسبوع.

فوائد مسلوق الأفاعى

عندما غادرنا مكة وقدمنا بدرا وحُنَيْنا بحمد الله، هاجمنا بعض البدو فى تلك الليلة ونشب القتال بيننا وبينهم، وفى تلك المناطق أصابتنى الحمى وظهر طفح على جلدى فاحتسيت فنجانين من حساء الأفاعى، وبعد أسبوع لم يبق فى جسمى أثر للمرض وابيضت بشرتى وأصبحت كالفضة الخالصة وامتلأت عافية ولمست فوائدا عدة لهذا الحساء.

حـادثـــة

وأعظم فوائده كذلك أنه فى عام ١٠٥٦ حاصر: تكلى مصطفى باشا قلعة «مشاشبه» إحدى قلاع البندقية عـلى حدود البوسنة وأمطر القلعة بوابل من طـلقات المدافع أربعين يوما وليلـة، إلا أنه ما استطاع إلى فتحهـا سبيلا وعاد دون أن يحقق بغيـته ومضى إلى موضع يسمى «دانيال اوو» أى سهل دانيال، وعـسكر فيه، وعندئذ حاصرنا مائتا ألف من نصارى الأوسقو والدوشقة والفرنجة والكـروات من جميع الجهات، وبعد قتال ضار دام سبع ساعات انهزمت القوات العثمانية وبدأ النـصارى يسخنون القتل فى المسلمين وكنت فى ذلك الوقت منخـرطا فى سلك الانكشارية ووكيلا للخرج، وشـاهدت بعينى هؤلاء النصارى وهـم يعملون السيف فـى سبعة من عبيـدى وثلاثمائة من رفاقى فـتركت كل أموالى وأرزاقى وكـان لى جواد وهبنى إيـاه الصدر الأعظم قره مـصطفى باشا فـتركته جانبا، وفى هذا السهل الوسيع جعل النصارى الضالون يقتفون أثرى إلا أنهم لم يعثروا على فقـد أخفانى الله عن أبصـارهم، وفى آخر الأمر عنـدما مال ميزان النـهار ضـاقت الدنيا فـى عينى فتركت جوادى ودخـلت غابة ومعى سيـفى وكنانتى وعايشـت الطيور والوحوش فيها سبعة أيام وست ليال كنت أتقوت فيها بجذور بعض النباتات والثمار.

ولأنى كنت أمضى سيرا على الأقدام كان سيفى وجعبتى ومنطقتى وما فيها من نقود قد أنهكتنى بثقـلها وما عدت أطيق لها حملا، فأخرجت السهام مـن كنانتى وأمسكت بالقـوس ووضعت كنانتـى ومسدسين وبنـدقيتى وسيفـى وما معى من نقـود فى قراب ورفعت أحجارا تحت صخرة ودفنت فيها السيف والبندقية ومنطقتى واستودعت كل هذه الأشياء الله أمانة فطابت نفسى بذلك، ومضـيت بعد ذلك إلى غدير وتوضأت وصليت ركعتين واستمددت العون من أرواح الأنبياء والأولياء قاطبة، وبينما كنت مندهشا حائرا سمعت صوتا باللغـة البوسنويه هو صوت شيخ مجود وسمعت صوتـا من الجهة المقابلة يقول: أين أنت؟ فـرد الآخر باللغة البوسنويـه: تعال يا ولدى العزيز ولما اسـتمعت إلى هذا الكـلام ارتدت إلى روحى وتنفـست الصعداء ولـكن الشيطان وسـوس فى صدرى وتساءلت هل كل من يسكنون هذه الجبال مـن الكروات والأصقو وهم يتبعون النصارى

وقد أعملوا سيفهم فى العثمانيين فهل هذا الصوت آت من قبلهم. وبينما كنت أفكر فى ذلك قدم صاحب الصوت الذى سمعته فإذا به رجل مع ابنه قدما إلى الجبل يحطبان إلى أن حل وقت الظهر ورُفع الآذان فعرفت أنهما من أمة محمد فتقدمت نحوهما وتعرفت بهما بعد أن ألقيت السلام. فقال لى هذا الرجل باللغة البوسنويه: أهلا بك، هل أنت من سكان هذه الجبال؟

فقلت: كلا إن لى بعض الرفاق خرجت معهم متصيدا فى تلك الجبال التى نعرفها. وسألته: هل أنت من انكشارية قلعة هلونه؟

فقال: أو ليس عندك خبر عن هؤلاء الجند الذين لحقت بهم الهزيمة ؟

قلت: لقد انهزم هؤلاء الجند منذ أسبوع ومضوا إلى قلعة هلونه وقلعة كنين.

فقال: لما استولى النصارى على قلعة «كلس»؟

أما أنا فمهمتى كانت المحافظة على نفسى وأنا أحتضر.

وجملة القول أن الصداقة انعقدت بيننا، وبينما كنا نمضى إلى قلعة «غلاموج» التقينا بحاكمها فى الطريق وبعد حديث طويل أنزل أحد خدامه عن حصانه وأركبنى فحمدت الله حمدا كثيرا وانخرطت فى البكاء. وبعد ساعتين دخلت قلعة «غلاموج» فى موكب وحللت ضيفا فى تلك الليلة على منزل حاكم القلعة، ويا لها من حكمة أن يكون حصن الإسلام على بعد ساعة منى إلا أن الخوف تملكنى فبقيت سبعة أيام وليال ولا يؤنسنى إلا الثعالب وبنات آوى والأرانب والظباء. وفى اليوم التالى طلبت من حاكم القلعة عشرة فرسان فقد تركت تحت صخور الجبل خلانا أوفياء وذهبت لأبحث عنهم مع عشرة من الرفاق وعندما وصلنا الموضع الذى دفنت فيه سيفى وكنانتى وقوسى ومنطقتى تركت جوادى لرفاقى وتقدمت وأزحت الأحجار وأخذت أسلحتى، وكانت الثعالب وبنات آوى أكلت جلد كنانتى وعلقتها فى خصرى على هذه الحالة وأخذت منطقتى كذلك وحملت بندقيتى وحمدت الله حمدا كثيرا، ومضيت نحو رفاقى وامتطيت صهوة جوادى ووصلنا قلعة «علاموج» بعد ساعة، ونزلت ضيفا فيها سبعة أيام.

واتفق لى أنى نمت ذات ليلة وحدث لى ما يشبه الاحتلام واستيقظت على ألم فى خصرى، وبينما كنت فى ثوب النوم أنزلت وتدفق المنى وكأنه دم أحمر مدة ساعة فمرضت سبعة أيام ثم تم لى الشفاء وأكرمنى محمد أغا حاكم القلعة بإهدائى جوادا وثيابا، كما أكرمنى سائر أعيان الدولة وطيبوا خاطرى ووهبونى خادما ووصلت فى كثير من الرجال إلى «تكلى باشا» فى سهل هلونه إلا أننى لم أجد أحدا من رفاقى فقد استشهدوا جميعا فى قتال النصارى واستولى النصارى على قلعة «كلس» وقضوا على من بها من جند، بيد أن تكلى باشا أعلن النفير العام وبدأ فى الدفاع عن الولاية مع أهلها فقدمت والتقيت به فأهدانى جوادا وثيابا وصلتى به كانت جد قديمة، فحما أحمد باشا كان قد تزوج والدة الأميرة «رقية».

وبما أن الشىء بالشىء يذكر فإن ما ذكرته من احتلامى فى تلك الليلة التى قضيتها فى قلعة «غلاموج» لم يكن احتلاما وإنما كان نتيجة انقطاع ذريتى فدب دبيب اليأس فى نفسى إلا أنه بعد مرور سبعة وعشرين عاما هبطت مصر وشربت فنجانين من حساء الأفاعى فى بيمارستان قلاوون وفى تلك الليلة احتلمت مرتين فتوجهت فى الصباح إلى هذا المستشفى وقصصت ما وقع لى من أوله إلى آخره على كبير الأطباء فأعطانى عشر أوقيات من مسلوق الثعابين وحقة من زيت الثعابين وتعاطيت مسلوق الثعابين خمسة أو ستة أيام فتمت عافيتى وصح بدنى حتى إنهم كانوا يكسرون البندق على شحم ولحم جسمى وهكذا أصبح جسمى وكأنه حجر ووجدت كذلك كثيرا من الفوائد .

فوائد تعاطى مستحضرات الترياق الفاروقى

جملة القول أن كبير الأطباء وزع مسلوق الثعابين هذا على الناس جميعا ووضعت يخنى الثعابين التى طبخوها فى صينيات وجلس كبير الأطباء وتلاميذه ومعاونوه على رأس الصينيات وقد غسلوا جميعا أيديهم وشمروا عن سواعدهم وأخذوا يخنى الثعابين وتناولوه بأيديهم وأمسكوا بأيديهم كل ثعبان واستخرجوا نخاعه من ظهره وكأنه حبل شديد الفتل وهذا ما يسمونه (قرص الترياق الفاروقى) والترياق الأعظم هو هذا النخاع الذى يشبه الحبل. ويستخرج من كل ثعبان مقدار مثقال.

وكل هذا العناء والمشقة والخوف من أجل الحصول على مثقال من هذا الدواء، وكل أعضاء الشعبان المطبوخة ليست فاروقا وهم يلقونها أو يمنحونها للفقراء ليأكلونها والبعض يلقون بها فى الأراضى الخربة.

لطيفة مرغوبة من أجل طائفة الجماع

أتفق أن وزع يخنى الثعابين على أحد العاجزين جنسيا ولما تناوله هذا الرجل جامع زوجته خمس أو عشر مرات، ولما لم يكتف بذلك تأذت منه زوجته وشكته إلى المحكمة فى الصباح قائلة: إنى لا أحتمل هذا الألم والعياذ بالله، فقال آكل لحم الثعابين إنه جامعها عشر مرات، فأصلح قاضى العسكر ذات بينهما على عشرين مرة وكان معظم من استمعوا إلى هذه الشكوى يتعاطون حساء الأفاعى فدعوا الله قائلين: اللهم يسر.

وجملة القول أنهم يسحقون لحم ظهر الثعابين فى هواوين من الخشب حتى تصبح على هيئة معجون أبيض ويَزِنُونَ هذا المعجون، وعندئذ يسمونه قرص الأفعى، وهو معجون أبيض يصفونه بمناخل ضيقة ويخلط قرص الأفعى والعسل الصافى بأوزان معلومة.

وفى كل عام تطهى ثلاثة قدور كبيرة من الترياق الفاروقى فيهدون وعائين إلى السلطان ووعاء إلى الباشا وآخر للصدر الأعظم وشيخ الإسلام فى اسطنبول وكبير الأطباء وقاضى عسكر مصر، وما يتبقى يحفظه ناظر قلاوون على أنه وقف خيرى ويصرف منه إلى المرضى طريحى الفراش فى مستشفى قلاوون، وبذلك يصل هذا الترياق الفاروقى إلى بلاد الترك والعرب والعجم والفرنجة وجميع الأقاليم السبعة.

وبهذه الكيفية كان يطبخ هذا الترياق مرة واحدة فى مصر فى العام ولكن عندما زرتها أمر كبير الأطباء فى مستشفى قلاوون وهو أستاذ جهبذ بطبخه ثلاث مرات فى العام.

ذكر ميزات حية الصفى

كانت أفاعى الصفى التى سلف الحديث عنها تربو على الألف وللمدرسة التى يصنع فيها الترياق الفاروقى باب يفضى إلى حجرة صغيرة من زجاج وقد مدوا حبالا غليظة من ركن إلى ركن فى هذه الحجرة ثم قام كبير الأطباء بربط ذيول الأفاعى البيض بخيوط من الحرير الأحمر وعلقها فى تلك الحبال فجعلت هذه الأفاعى تتلوى بعنف

وتلدغ بعضها البعض وانتفخت هذه الأفاعى إلى أن أصبحت الواحدة منها فى غلظ الذراع وغُلقت جميع أبواب ونوافذ الحجرة وخرج الأطباء منها، وبعد أربعين يوما أعادوا فتح الحجرة فإذا بالحيات وقد أصبحت كلها مثل حبال شديدة القتل وأصبح ما فى جوفها من عظام مثل البذور السود والرائحة المنبعثة منها أذهبت عقول الحضور.

ميزة أخرى للحية العجيبة

وهذه الأفاعى ذات الرءوس المستديرة كالجوز قطعها القصابون شطرين من نصفها وملحوا جلدها المختلف الألوان وعلقوها من رءوسها فى حبل ودفنوا أطراف ذيولها فى الأرض وتركوها على تلك الحالة أربعين يوما فاحمر لونها وتربست أجسامها فأخذوها مرة أخرى وحفظوها فى حقاق من رصاص بعيدا عن النمل الذى يتهافت عليها. فلحم الثعابين ولحم البشر غاية فى لذة طعمه.

لطيفة غريبة

رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالمون أكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم وقد خنقوا بعض أسراهم من النوغاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لا تتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونهم. ويقولون إن ألذ اللحم لحم البشر والثعابين والخنازير كما يقولون إن إلية الخنزير وإلية البشر ألذ ما يكون طعما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق ويعرفون ذلك حق المعرفة، أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حسناء فدبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدركت من ذلك أن لحم البشر لذيذ.

خلاصة القول أننى عندما قدمت مصر لم أجد شيئا يشبه الترياق الفاروقى فى الدنيا بأسرها.

وإذا اتفق أن دخل ثعبان برج الحمام فى بيت أحد وهاجم صاحب الدار فإنه ينطلق إلى أحد صيادى الثعابين، وبالطبع يدفع إليه مبلغا من المال فيدخل البيت ويصيح صيحة وينفخ فى الصفارة المعلقة فى خصره وله صفير خاص فى فمه، وعندما يتردد هذا الصفير تبدأ الثعابين فى الظهور من جميع الأركان وترفع رءوسها وترتمى على الصياد

وتهاجمه فيجمعها كلها فى مخلاته، فتأمن هذه الدار شرها، إلا أن الترياق الفاروقى لا يستخرج من تلك الثعابين بل يستخرج من نوع معين من الثعابين يوجد فى البرية.

وبالحديث عن الثعابين يطول كذبنا ولكنى أشهد الله أن هذا ما وقع ففى عام ١٠٨٥ اتفق أن كان أحمد أفندى إماما لجان بولاد زاده حسين باشا وقد اجتمعت الثعابين فى حجرته فأرجعته عنها. وبينما كان جواد الإمام يعتلف دخل ثعبان منخره فنفق وانتفخت جثته وأصبحت كجثة الفيل وتعذر نقله أو تنحيته جانبا فحفروا حفرة فى هذا الموضع ودفنوه فيها، إلا أن الإمام لم يستطع العودة إلى داره وكنت قد التقيت ذات يوم بأحد صيادى الثعابين فمضيت به إلى حجرة الإمام وعندما وصلها أطلق صيحة عالية وشرع ينفخ فى صفارته وعندئذ خرجت خمسة أو عشرة ثعابين طويلة كل ثعبان فى غلظ الذراع وطول الباع ورفعت رءوسها وتجمعت حول الصياد فتعلق الناس أما أنا فهربت إلى مقر أفندى الديوان وأطللت من النافذة، وربما هاجمت الثعابين الصياد ساعة إلا أنه فى النهاية وضع أحد عشر ثعبانا منها فى مخلاة وقال الحمد لله ومضى إلى سبيله وأمن القصر من الثعابين وعاد الإمام إلى حجرته.

حكاية أغرب الغرائب العجيبة

وبعد أيام عدة وصلنا ميدان الروملى ولعل الصياد باع أحد عشر ثعبانا للحواة بمبلغ عشرة قروش للثعبان الواحد والله أعلم، وكل منها ضخم مخيف ولقد درب الحاوى هذه الثعابين عدة أيام فجعلها ترقص كالقردة فى ميدان الروملى، ويا عجبا لما لهؤلاء الصيادين من سحر، وربما كانت لهم كرامات كالأولياء والله أعلم. والعجيب فى ذلك أنها مسخرات يعجز عنها الوصف وبينما كان الحواة يرقصون ثعابين الإمام اندفع أحد هذه الثعابين ولدغ طفلا فى قدمه، واتفق أن كان فى هذا المكان وفى تلك اللحظة درويش سعدى فامتص السم من موضع لدغة الثعبان فى قدم الطفل وبصق السم وفى الحال تخلص قدم الطفل من السم، بيد أن هذا الدرويش لم يقر قراره فقال: يا حى يا قيوم وسلام على نوح فى العالمين وشوى الثعبان الذى لدغ الطفل لأكله وعلى

الجانب الآخر صاح الحاوى قائلا: وا ويلاه إن هذا ثعبان إمام الباشا وقد ابتعته بأحد عشر قرشا.

وفى نهاية الأمر جاء قوامى نقيب الحواة ومضى بالدرويش السعدى إلى الباشا وفى حضرة الباشا كان الدرويش لم يزل يأكل ما تبقى من الثعبان وقد أزيد فمه أما الحاوى فجعل يصيح كالتنين قائلا: ضاع ثعبانى واستشاط غضبا، وشهد حضور المجلس أن الدرويش أنقذ الطفل من فتكة الثعبان فسر الباشا لذلك فقدم للدرويش ثعبانين ليأكلهما أمامه وقدم إليه كذلك خمسين ديناراً من ذهب، ومنح الحاوى عشرة دنانير والطفل خمسة دنانير، وكان هذا مشهدا عجيبا إلى حد جد بعيد.

ونعود إلى استكمال حديثنا عن أوصاف الترياق الفاروقى ومستشفى قلاوون:

لا وجود فى مصر لمبنى له ما لأبنية مستشفى قلاوون من عظمة ومتانة أوقافه وله صيدلية منقطعة النظير يصرف الدواء منها للمرضى والمجانين وهى لا نظير لها فى الدنيا. إنها مؤسسة خيرية بكل ما تحمله الكلمة من معان.

مستحضرات الترياق الفاروقى المستخرج من قرص الأفعى

إن أطباء المشفى ولو أنهم صنعوا أدوية مختلفة إلا أن أهمها وأعظمها:

* **الترياق الأكبر:** إنه دواء لمائة وستة وسبعين داء وهو يحضر من ستة وسبعين دواء، وهو يطرد الريح من المعدة والأمعاء، كما يشفى أربعين مرضا كذلك.

* **ترياق الطين المختوم:** إذا تناول أحد السم أو لدغته أفعى أو بعض الحشرات وتناول منه مثقالا شفى ونجى من الهلاك بإذن الله.

* **ترياق الطين:** إنه ـ على حد قول الجرجانى ـ نافع من لدغ الثعابين.

* **ترياق اليانوش:** إذا أذيب نصف مثقال منه فى الماء أنقذ من لدغة الأفعى والحية.

* **ترياق الكبير:** أما هذا الترياق فهو نافع لجميع السموم.

* **ترياق الأمير باليوس:** مستحضر عجيب يضفى الجمال على الإنسان ويمنحه صفاء البشرة.

وجميع هذه العقاقير والمستحضرات في مستشفى قلاوون.

ترياق الحكيم هاليوشى الذى يصنع فى عصرنا الحالى

إنه ترياق يعدل الدنيا بأسرها، ومن ملكه ملك الدنيا وما فيها، إنه شفاء لكل داء. فمن تناول مثقالا منه شفى من الجذام والبرص وما شابههما من أمراض، وهو يخرج العرق من البدن فيخرج معه المرض، أما تركيبه فعلى النحو التالي:

قرص أفعى، والقرنفل، والزنجبيل، وجوز البوا، والجنطيانا، والقاقوله، والميع اليابس، والقصب المر، وأصل الكبره، والحناء، وعود القهر، وحب البيلسان، والسليحة، والقرفة والسنبل الهندى، والزراوند، وبذر الكرفس، وبذور الجزر، والفلفل الأسود، وحب القار، وثلاثة دراهم من القرد مانا، وتعجن فى مقدار كاف من العسل الخالص، وتحفظ ثلاثة أيام فى وعاء فخاري مبطن بالزجاج، ثم يسحق هذا الخليط مع ثلاثة دراهم من كل من الأفيون، واللادن والزعفران، ويضاف إلى ذلك الميعة السائلة، ومثقال من ماب الحمار يسحق كذلك مع هذا الخليط،ويضاف ذلك إلي المعجون الموجود فى الأوعية الفخارية المبطنة بالزجاج، ويوضع هذا مثل سائر المعاجين فى الشعير حتى يؤكل منه مثقال، وهو عظيم النفع ومن ملكه ملك الدنيا بأسرها.

وأول من اخترع الترياق الفاروقى، «انوش منافيوش» أحد ملوك القبط.

* * *

الفصل السادس والثلاثون
فى ذكرى ما يهب الحياة لأهل القاهرة
من أسبلة وخلجان وبرك وأحواض وآبار

بما أنه ليس من شىء أعز ولا ألذ من الماء عند جميع مخلوقات الله فقد أنزل فى ذلك آية كريمة على المصطفى ﷺ هى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ولحاجة مدينة القاهرة بصفة خاصة إلى الماء لم يكن هناك ما هو أعظم ثوابا من توفير الماء لخلق الله فيها. فمنذ أن قَدِمها عمرو بن العاص فاتحا إلى يومنا هذا حكمها مائة وسبعون ملكا، وأقام كل منهم جامعا يتصل به سبيل، كما أنشأوا آلاف الأسبلة فى جهات أخرى وفى كل من هذه الأسبلة حمل عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف جمل من الماء كما أن سائر الوزراء والوكلاء والأعيان والأشراف أقام كل منهم سبيلا على رأس كل جهة يصعد إليه بسلم حجرى من ثلاث درجات أو أكثر، وهى أسبلة مزخرفة لها نوافذ ذات قضبان من النحاس وقد زينت بالقيشانى الصينى واليشم اليرقانى والرخام والصماقى. علاوة على ما بجانب القصور العالية وأسفل بعض البيوت من أسبلة جميلة ذات زخارف.

وجملة القول أنه كان فى القاهرة ـ على حد قول الغزالى ـ ٦٠٠٠ سبيل، أما الآن فهى (   )[1] سبيل، إضافة إلى إلى أسبلة كثيرة على رأس كل جهة وبين بعض الحوانيت.

اشهر أسبلة مدينة القاهرة

* **سبيل السلطان الغورى:**

أعظم وأشهر أسبلة القاهرة، وبما أنه يقع فى مكان مزدحم من السوق السلطانية يزدحم الناس عليه، وهو يقدم الماء النقى من الصباح إلى المساء، وهو سبيل كأنه البحر الخضم فماؤه يقدر بحمل عشرين ألف جمل، وأوقافه عظيمة، وبنيانه متين، ومما يروى عنه أن صهاريجه الأربعة كلها من الرصاص ولذلك كان ماؤها عذب. كتب على شباكه بخط جلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

(١) بياض فى الأصل.

• سبيل محمد اوكوز باشا:

فى القلعة الداخلية:

- سبيل «باب القلعة» كذلك فيها من الماء حمل ۱۰۰۰۰جمل.

- سبيل إبراهيم أغا رئيس الانكشارية:

يقع هذا السبيل أسفل مقر رئيس الانكشارية، وعلى نافذته تاريخ مسطور هو:

إبراهيم أغا الذى يتفكر فى عقباه

بذل همته فى مرضاة الله

فأقام مثل هذا السبيل الجميل

فقال كل من شرب من مائه الزلال تاريخه

إن هذا السبيل يمتلئ من ماء العين على الدوام

سنة ۱۰۳۷

ويليه فى ازدحام الناس عليه:

- سبيل «السلطان الأشرف».

- سبيل «السلطان حسن».

وجملة القول أن كل أسبلة السوق السلطانية جارية الماء على الدوام، وإذا تعرضنا إلى وصف كل سبيل وتاريخه اقتضى ذلك إخراج مجلد ضخم خاص بها.

وفى عصرنا الحالى أنشأ عباس أغا المعزول من منصب أغا دار السعادة سبيلا جديدا فى مدينة القاهرة وهو سبيل ذو زخارف، وماؤه حمل ۱۰۰۰۰ جمل، وكأنه متحف الصين، كما أقام فوقه مكتبا للصبيان.

- سبيل على أغا خازن السلطان محمد خان:

إنه سبيل مزخرف يهب الحياة لكل ظمآن وماؤه حمل ۱۰۰۰۰ جمل، ومقام عليه كذلك مكتبا لصغار الصبيان.

- سبيل مصاحب أحمد أغا:

بالقرب من الداودية، إنه سبيل جميل عليه مكتب لصغار الصبيان وكأن فيه نقوش أرزنك وماؤه حمل ۱۰۰۰۰ جمل.

- سبيل عبد الباقى الجورباجى:

بناه بالقرب من دار القوندافجى، وفوقه مكتب لصبيان المسلمين.

- سبيل الكتخدا الحبشى:

أقام محمد كتخدا الحبشى هذا السبيل ووكالة، بيد أن الزمان تنكر له وبيعت الوكالة والسبيل فى المزاد، واشتراهما مصطفى أغا كتخدا آغا دار السعادة يوسف أغا فى اسطنبول، وأرسل إليه يوسف أغا البنات، الحُجج والإيصالات. وهذا السبيل أكثر إزدحاما من كل الأسبلة وماؤه بقدر ما يحمل ٦٠٠٠٠ جمل. وعليه مكتب صبيان ذو زخارف.

- سبيل ذى الفقار كتخدا:

فى باب النصر، ومكتبه جديد مزخرف، وبالقرب منه سبيل آخر للكتخدا الحبشى وهو كذلك سبيل عظيم وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل.

وجملة القول أنه فى خلال سبعة أعوام أقيم ٧٠ سبيلا جديدا، أما أسبلة سلاطين السلف فكلها مبطنة من الداخل بالرصاص، وفى شهر يوليو تكون مياهها باردة كالثلج وهذه الأسبلة يطهرها الوقف كل عام ويملأونها مرة أخرى من النيل فليس فى القاهرة نعمة أعظم من نسمة الماء، والنيل يبعد عن مدينة القاهرة بمقدار ساعة.

وفى حى سيدى الشيخ عقبة الجهينى أقام «خاصكى محمد باشا» تكية كأنها القلعة وضريحا ومبرة ومدرسة وسبيلا، وماء هذا السبيل حمل ١٥٠٠٠ جمل، وعلى نافذته تاريخ هو:

- لسبيل هذا السبيل هو ماء الكوثر سنة (   )[1]

وعلاوة على الأسبلة الأربعة آلآف فى القاهرة يجلب الماء من النيل عدة مئات الآلآف من الحمر والخيول والجمال إلى الشوارع الرئيسية، وتغص الشوارع بهؤلاء السقائين وهم يرددون «ظهرك، جنبك، هشك» بحيث يتعذر المرور فى هذه الشوارع. ومع ذلك فكل هذه المياه لا تكفى أهل القاهرة وهم فى كثرة مياه البحر.

(١) بياض فى الأصل.

وطبق ما جاء فى سجلات رئيس السقائين أن عدد السقائين النصارى ٢٦٠٠٠ سقاء وكل صاحب قصر له سقاء يجلب له الماء على ظهر الجمل والجواد.

إحدى عجائب مدينة القاهرة

فى مدينة القاهرة إذا هطل ماء الرحمة يشح الماء، أما إذا هطل فى بلاد أخرى يسر الناس جميعا ويستغرقون فى ماء الرحمة. أما إذا هطل المطر فى القاهرة أكل أهلها بعضهم بعضا من شح الماء لأن تراب القاهرة كأنه ملئ بالزيت فإذا ما هطل المطر ما استطاع أحد الخروج من داره، وتعذر سير الحمر والجياد والجمال فى الطرق لجلب الماء وبذلك يقع قحط الماء ويبيع السقاء قربة الماء بخمس بارات، أما الأسبلة فتفتح وتوزع منها المشروبات ويشح الماء، ولذلك يأمر الصوباشى ٥٠٠٠ زبال يحمل التراب اليابس على حمرهم وفرش الطريق العام به، ويبدأ الناس فى السير فى الطريق بسهولة، فليس فى القاهرة أرصفة لذلك توحل شوارعها وتصبح وكأنها شوارع مدينة «سلستره» والعياذ بالله. ولكون مصر بلد ساحلى يهطل المطر فيها مرة أو مرتين فى كل عام.

وإذا ما هطل المطر على الدوام كما هو الشأن فى بلاد الترك لخربت مصر.

ففى عام ٨٣ دام هطول المطر والثلج سبعة أيام بلياليها ولم يستطع الناس المضى إلى المصلى لأداء صلاة الاستسقاء وقد انهدمت بيوت اثنين وعشرين من بيوت الفلاحين والحضر وشح الماء ونزل الثلج على أسطح المنازل بلونه الأبيض الناصع فكان أبناء العرب يقولون: «اش هذا أنزل القطن من السماء» أما الترك حينما شاهدوا ذلك قالوا: «الحمد لله، انظروا إلى رحمة الله» وكانوا يأكلون الثلج المتساقط هذا. وكان أبناء العرب يجتمعون هنا وهناك ويضعون قطع الثلج فى أفواههم وعندئذ كانوا يقولون: «الحاد يا برد النار». أى أنه يحرقهم كالنار. ولكن ذاب الجليد واختفى ودام هطوله فى البحيرة خمس ساعات كاملة، وفى تلك السنة نزل البرد كل حبة فيه فى قدر الدرهم.

ولله الحمد فالنبات فى مصر ليس فى حاجة إلى المطر لأن النيل إذا ما فاضت مياهه غمر أقاليم مصر، وجعلها بحرا قانى الحمرة، ثم ينحسر الماء ويزرعون الأرض، وينضج

المحصول فى ستين يومـا، ويجمعونه فى مخازنهم، ولذلك لا تمس حـاجتهم إلى المطر ويجرى هذا مجرى المعتاد بإذن الله . . . يا لها من حكمة عجيبة.

* * *

الفصل السابع والثلاثون

ذكر ينابيع مدينة القاهرة

فى القلعة الداخلية واحد وعشرون ينبوعا يأتيها الماء من النيل المبارك عبر ٣٦٠ قنطرة من خيرات السلطان الغورى، وتصل المياه إلى أسفل القلعة فترفعها السواقى ليل نهار، وثمة خزان عظيم للماء له قباب يمتلئ هذا الخزان بالماء وفى الصباح يأتى سقاؤو القلعة وعددهم ٥٠٠ لحمل المياه فى قربهم، فيسقوا البيوت التى فى القلعة، وتباع أربع قرب بيارة، وأحد هذه الينابيع لها قبة عظيمة أسفل «الضرب خانه» بالقلعة الداخلية، ولها مواسير فى غلظ ذراعين وماؤها يأتى من السواقى المجاورة لقصر الباشا.

وثمة ينبوع آخر بالقرب من الشيخ سارية إلا أن ماءها من بئر يوسف لذلك فهو أميل إلى الملوحة وثمة سواق أخرى لينابيع وأحواض وشادروانات الشيخ سارية وماؤها أميل إلى الملوحة.

وفى شمال قلعة الانكشارية بالقرب من جامع «قان باى سلطان» نبع على صخرة قائمة تأتى مياهها من بئر كأنها حفرت فى جهنم.

وخارج القلعة فى مقر أتباع الباشا ينبوع ذات قبة عظيمة أسفل قاعة ديوان السلطان قلاوون ذات الأربعين عمودا وهى ينبوع لهما ماسورتان فى غلظ الذراع وماؤها عذب زلال ويجلب السَّقاؤن الماء منها لأتباع الباشا، ومياهها كذلك من المياه التى تأتى عبر قناطر الغورى.

وينبوع آخر فى ميدان قصر الباشا تحت النخيل وأشجار الزيتون، ولها قبة عظيمة وماسورتان وماؤها صاف، ويأتيها الماء كذلك من قناطر الغورى.

وينبوع آخر بالقرب من مخبز رئيس الخبازين وله ست مواسير تتصل بصنابير يتوضأ منها المصلون وجميع أتباع الباشا يروون ظمأهم منها إنه شراب طهور، وماؤها يأتى كذلك من سواقى الغورى.

وفى مطبخ الباشا ينبوع كذلك ذات ماسورتين وماؤها صاف تشرب منه الجياد وهو منسوب كذلك للغورى.

وتتوسط حجرات العزب ينبوع لها قبة عالية تهب الحياة، ويصعد إلى قبتها بسلم من ست درجات، إنها عين الحياة، ولها ماسورتان متجاورتان فى غلظ الذراع، وهى كذلك منسوبة إلى السلطان الغورى.

وفى داخل باب العزب كذلك ينبوع يجرى فى اسطبل طائفة عسكر حجاج المسلمين، وتشرب كل الخيول من هذا الماء العذب وهذا النبع كذلك من خيرات السلطان الغورى. وليس فى القاهرة ينابيع سوى هذه وما فى القلعة الداخلية.

وإذا ما سئل عما إذا كانت هذه الينابيع تكفى أهل القاهرة وهم بحر من البشر فتذكر ما جاء فى فرمان السلطان مراد الرابع عن الآبار والينابيع والسواقى بيد أن سواقى البساتين والحدائق قليلة وهى خاصة بها وحدها.

بيان عام بما فى القاهرة من آبار وأحواض وأسواق

فى عهد السلطان (مراد الرابع) وعندما كان بيرم باشا واليا على مصر- بناء على الفرمان السلطانى - أحصى جميع مبرات ودكاكين الأسواق السلطانية، وما تحتويها، وعرض ذلك على السلطان (مراد)، وجاء فى هذا الإحصاء أن فى القاهرة ٢٧٤٠٠٠ بئر ! ذلك لأن ما سلف ذكره من قصور السلف والوزراء والوكلاء والأعيان والأعراف يضم خمسة أو ستة آبار، أو على الأقل بئر واحدة لكل قصر من هذه القصور.

فضلا عن آلاف الجوامع والمساجد والخانات والمبرات والمدارس لكل منها بئر أو أكثر وعلى رأس كل طريق، وداخل بعض العطفات أحواض طويلة تسقى منها دواب المسافرين من خيل، وجمال، وثيران، وحمر. ولكل حوض منها سواق ذات سقف منقوش ذى زخارف، يقوم على أعمدة من حجر، وتستخرج هذه السواقى الماء من الآبار، ويتدفق الماء من ثلاثة مواضع على هيئة رؤوس أسود أو تنانين أو شياطين، فتملأ الأحواض وتشرب منها كل الدواب.

وفى مدينة القاهرة ٩٢٠٠ ساقية ذات حوض، وكل منها من خيرات سلطان، أو وزير، أو عين من الأعيان.

فى القاهرة ٨٩٠٠ طريق من طرق رئيسية ودروب، وأسواق سلطانية، و١٧ حارة منها ليس لها أبواب كالطريق الرئيسى، وفى كل ليلة يعس (الصوباشى) فى ٦٠٠ أو أكثر من رجاله مع (الديودار) للحفاظ على الأمن والحراسة.

وفى الصباح يقوم زبالو الحمامات بكنس الطريق العام، ثم يقوم كل صاحب دار أو دكان برش الماء فى الطريق من الآبار سالفة الذكر، وبذلك تنظف الأسواق السلطانية، وطرق المسلمين، والطرق الرئيسية خاصها وعامها ويطيب هواؤها، إلى حد لا تبقى فيها ذرة من تراب وبذلك يجد جميع أهل السوق الراحة. هذا هو النظام المرعى فى الكثرة الكاثرة من الطرق الرئيسية العظيمة.

وفى بعض العطفات كذلك، يرش سقاؤو ديارها الماء فى الطرق فيلطف هواؤها.

وفى القاهرة بعد (كسر النيل) يجرى ماء النيل المبارك داخل القاهرة وخارجها من أربعين جهة، ويحمل السقاءون المياه من الخلجان، ويباع حمل جمل من الماء بـ (باره)، وتباع قربة الماء بـ (منقرين). ويشرب أهل القاهرة الماء الصافى فترتد إليهم الروح.

ثمة خليج أسفل إحدى سواقى الغورى هو خليج (جسر المنجان)، ويسميه العوام (خليج قطع النيل)، وفى سفح جبل الجوشى بئر تسمى (بئر أفناى)، وأول من حفرها هما (هاروت وماروت) بعد هبوطهما إلى الأرض، وقد عرفا فيه علم الرصد وكانا يرقبان الكواكب، وعلموا أهل القاهرة علم النجوم والسحرة حتى أصبح كل أهلها من السحرة.

وبئر (أفناى) تلك موجودة إلى الآن إلا أنها خربة لعدم وجود ماء فيها. وكان الحاكم بأمر الله قد أمر بتطهيرها فأصبحت كما كانت فى عهد هاروت.

***

الفصل الثامن والثلاثون

بيان جميع الخلجان التى يسقى منها كل ذى روح فى القاهرة وجميع الناس فيها

فى شهر يوليو من كل عام تغيض المياه فى كل أنحاء الدنيا، أما فى مصر فى اليوم ( )[1] من نفس هذا الشهر وهو رأس السنة القبطية الذى يسمونه (توت) يفيض ماء النيل ويموج وكأنه البحر الخضم، وبعد سبعين يوما من (توت) يرتفع منسوب النيل فى (أم القياس) بمقدار عشرين ذراعا وعندئذ يحتشد جميع أعيان القاهرة وأشرافها وعلماؤها وصلحاؤها ووزراؤها وأمراء جيشها على رأس الجسر المسمى (أبو المنجا) والواقع أسفل ساقية السلطان الغورى، ويرفعون أصواتهم بالدعاء والثناء، ويرفعون التراب الذى سد به الخليج الذى أنشأه المقوقس أثناء حكم ملوك القبط، وبذلك يفيض ماء النيل فيضانا وكأنه البحر، وينطلق ماؤه فكأنه سهم أطلق من قوس شديد.

ويمضون بقارب (الصوباشى) إلى داخل المدينة. وعلى ضفاف هذا الخليج الجارى بسيرة ثلاث ساعات من داخل المدينة وحتى جوسق الغورية قاعات وحجرات متعددة وقصور ذات أحواض وشادروانات، وعلى ساحل هذا الخليج كذلك مقاصير ذات حدائق غناء والناس فيها يمرحون ويبتهجون، ويطربون فى منازلهم ليل نهار، وتصبح مجالسهم أشبه بمجالس السلطان (حسين بيقرا)[2].

ويجرى ماء هذا الخليج ثلاثة أشهر بتمامها، تتوفر خلالها المياه لدى أهل القاهرة ولا يعانون أى نقص للمياه. ويمرحون على ضفاف هذا الخليج خمسة أشهر كاملة، وتصبح أيامهم أعيادا كعيد الأضحى، ويجالس كلٌ أحباءه ويسامرهم فى مجالس كثيرة الزينات وهم يصيدون السمك بشباكهم، وتأتى جميع الحسان إلى هذا الخليج وينزلن فى مائه

(١) بياض بالأصل.

(٢) أحد علماء السلاطين، غلب على مدينة هراة سنة ٨٧٢ الهجرية، وجعلها حاضرة ملكه ووزر له مير على شير نوائى، فالتقيا على حب العلم وإكرام العلماء فكان قصره فى هراة مثابة لأهل العلم والفضل بسط رعايته عليهم وغمرهم بنواله، وتوفى رحمه الله عام ٩١١هـ. انظر: المعجم الفارسى العربى الجامع للدكتور حسين مجيب المصرى ص١٢٤.

وهن عاريات بلا إزار ويسبحن كأنهن سمـك من لجين، ويَغُصْنَ فى الماء ويصدن قلوب العشاق ويصعدن إلى الشاطئ.

وفى مواسم الخلـيج هذه فى القاهرة تلـتقى الحسناوات مع عشـاقهن بلا خوف ولا مبالاة وينزلون فى ماء الخليج ويعانق الحبيب حبيبته.

وتغدو وتـروح آلاف القوارب فى الخـليج، وقد زينـها أصحابهـا بالأعلام المختـلفة الألوان ويجلس شباب العرب فى مؤخرة القوارب مع محبوباتهم مرددين (مصراع):

«احمل كأس المدام فى يدك وتعال لترشفها»

يرددون هذا وهم يرشفـون الشراب فى كؤوس من زجاج ويعبرون الخـليج على هذه الصورة، وهم يتغنون بمختلف النغمات (مصراع): «بادروا إلى المتعة فما متعة مثلها».

ويتغنون بهذا فيستخف الطرب بمن يسمع صوتهم الرخيم.

ومنهم من يربط زورقا فى آخر، ويفرشـون عليهما آلات الطرب من صنج ورباب، وناى، وطبل، وقانون، ويعزفون عليها باثنى عشر مقاما وأربعة وعشرين أصلا ويعزفون بلا انقطاع، وكأن عزفهم هو عزف الفارابى وغلام الشادى. ويدوم الحال على ذلك ليل نهار وتزين القوارب بالقناديل وتستمـر الألحان مع صيحات العشاق، ولا يعد ذلك عيبا فى هذه الأيام، وفى هذا الوقت تستر مـساوئ القاهرة وتبرز محاسنها.

الخليج الثانى: (خليج السلطان أوزبك)

أسفل قصر العينى، إنه خليج واسع، يخترق فى جريانه الحدائق، وينصب فى (بركة الأوزبكية)، ومنها يجـرى إلى أسفل حديقة العجم حتى يصل إلـى جسر الليمون، وما أكثر ما يروى هذا الخليج من حقول وبساتين، ويمر أسفل جسر (الظاهر بيبرس) ويروى أراضى (قليوب) ويغيب ماؤه هناك.

أما الخليـج الذى يخترق مدينـة القاهرة يمر مـن تحت جسر (إبراهيم بـاشا) الجديد شمال المدينة ويمر بـساحل (جميز العبد)، ويقطع ثلاث مراحل حتـى يصل إلى بلبيس ويرويها إنه خليج عظيم.

أما الخليج الآتى إلى الأوزبكية هذه فتجرى مياهه مخترقة نفس الحدائق، وفيه كذلك مكان للمتعة والطرب، إلا أنه مكان للرعاع والأراذل، وهو كالخليج الذى يخترق المدينة ليس موضعا لقوم لهم أعراض.

الخليج الثالث: (خليج السلطان برقوق)

أسفل البارود خانه، بالقرب من مدينة بولاق، وهو كذلك يروى حدائق وحقول بولاق، ويمضى ماؤه إلى (قليوب)، وبه أماكن للنزهة والمتعة كذلك.

الخليج الرابع: (خليج السلطان قايتباى)

إنه خليج عظيم بين قصر السبتية وبولاق، يمضى ماؤه إلى قليوب، ويروى أراضى الشرقية.

الخليج الخامس: (خليج السلطان ناصر الدين)

يقع بين بولاق والبلدة الصغيرة المعروفة بشبرا، ويجرى حتى الشرقية ويروى أراضيها.

وقد شق هذه الخلجان مهندسو السلف لرى جميع الولايات فى مصر، ويركب الناس القوارب فى هذه الخلجان ستة أشهر، ويحملون الغلال من إقليم إلى إقليم.

أما الملوك الذين جاءوا من بعد فقد شقوا من هذه الخلجان الترع ووزعوا ماؤها على جهات القاهرة الثلاث، وتمضى فى هذه الترع كذلك القوارب خمسة أشهر.

إنها أربعون ترعة، شقت فى خمس وأربعين بقعة فى مدينة القاهرة. وفى موسم ترع هذه الخلجان تصبح القاهرة جنة وتغزر المياه، ويعهد إلى كتخدا والى مصر أن يطهر هذه الترع وكان لزاما على كل صاحب دار - مهما كانت منزلته - أن يطهر ماء ما أمام داره أما فيما عدا ذلك فيحضر حكام ورعايا الجيزة وقليوب والشرقية الثيران والجرافات لتطهيرها، وهذا ما يتكلف فى كل عام سبعة أكياس ويعين لذلك موظف برتبة (رئيس البوابين) وتطهير هذه الترع كل ثلاثة أشهر.

- جسر السبوع:

يقع هذا الجسر أمام (يكى قابو) أى الباب الجديد ، إنه جسر متين من ثلاثة فروع وقد أنشأه السلطان (   )[1] عام (   )[2]. والسبب فى تسميته باسم جسر السبوع أنه فى مرفأ الخليج فى ناحية بولاق كان أسدان مهيبان من الرخام فى حجم الحصان من شاهدهما ظن أن لهما روحًا وكانت كل القوارب تتهيأ للحركة من هذا المرفأ وتحمل الناس إلى أى مكان يريدون الوصول إليه.

- جسر السلطان إينال:

إنه جسر خشبى من سوارى القوارب ويعبروه سيرا على الأقدام، وقد أقيم هذا الجسر للعبور إلى جامع (الجماعة) فى الناحية المقابلة للخليج، أما الآن فقد أصبح هذا الجسر طريقا عاما.

- جسر العمرسى:

إنه جسر متين على الرغم من أنه من فرع واحد.

- جسر الجماميز:

إنه جسر عظيم واسع من فرع واحد، وعلى جانبى هذا الجسر مقاهى، ذات حجرات ومقاعد وفيرة، وعليه كذلك عشرون دكانا، ومن يجلسون فى هذه المقاهى يصيدون السمك بالشص.

- جسر السنقور:

من فرع واحد إلا أنه واسع، وعلى جانبيه أكثر من أربعين دكانا ومقاهى، ذات زخارف تطل جميع نوافذها على الخليج ويتردد على هذه المقاهى علماء مصر، إن هذا الجسر طريق رئيسى عظيم.

- جسر (باب الخرق):

شيده إسكندر باشا وزير السلطان سليمان، وثمة جامع سلطانى معلق فى حارة (صانعى القدور)، وكل من يصلى فى هذا الجامع يشاهد الخليج، إنه جامع طيب

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

النسيم، وهذا الجسر من فرع واحد إلا أنه أوسع وأمتن من جميع الجسور، ويعلوه دكانا سلطانيا، أما مقهاه ففى رأس الجسر الآخر ناحية بولاق. إنه أكثر جسور القاهرة ازدحاما.

- جسر الأمير الحسين:

إنه جسر واسع عليه مقاهٍ ذات مقاصير مطلة على النيل، ويعلوه ٣٠ دكانا للزياتين والعطارين، وكل كواتها مطلة على الخليج، إنه طريق رئيسى عظيم.

- جسر الموسكى:

إنه صراط طويل مرتفع من فرع واحد، وعلى جانبيه دكاكين ذات زخارف، ومقاهٍ ذات ثلاث مقاصير ولأن من شيد هذا الجسر هو من يسمى (مثقال شرف زاده) - من مهندسى الحاكم بأمر الله - سمى هذا الجسر (قنطرة الموسكى)، إنه فى الحقيقة جسر واسع، وكل من يرتاد مقاهيه من العلماء والموسيقيين ولهم لغط فيها صباح مساء ويتجاذبون أطراف الحديث بينهم.

- جسر البيت:

إنه ليس مجرد طريق عام بل هو بيت قديم يشبه قصرا شامخا مقاما على جسر.

- جسر البيون:

يقع بالقرب من الجسر السابق ذكره، إنه جسر بنى حديثًا، وهو كذلك ليس طريقا عاما بل طريق خاص، إنه مقر متعة ونزهة لأهل العشق، ومنه توزع صنوف الأطعمة على من يغدو ويروح.

- جسر باب الشعرية:

إنه جسر عظيم من فرع واحد، وهو أوسع الجسور، وهو طريق عام مزدحم يعبره جميع أرباب الحاجات، وعلى جانبيه دكاكين، أما مقهاه فهو بعيد.

- جسر الخروب:

جسر متين البناء من فرع واحد، وعليه مقهى علوى وآخر سفلى، والسفلى منه على ضفة النيل مكان نَزِهٌ جميل، وبعضهم يدلى قدميه فى الماء ويصيد السمك بصغير

الشباك وإذا ما شاءوا نزلـوا فى الماء وسبحوا. إنها مقهى جمـيل، ولا دكاكين فوق هذا الجسر.

- جسر الخشخاش:

جسر من فـرع واحد، لا دكاكين علـيه، إنه جسر قلـيل الزحام لأن الناس يـركبون القوارب للنزهة ويمرون من تحته.

- جسر أبى الخير إبراهيم باشا:

إنه جسر متين شيد عام ١٠٨٣ من أجل عبـور عتاد اليمن إلى السويس، وهو على مقربـة مـن جامـع الظاهــر بيبرس خـارج المديـنة، إنه جسر غاية فى دقة بنائه وجمال صنعه.

- جسر الوز:

من فرع واحد، وهو خارج المدينة .

- جسر جميز العبد:

إنه جسر جمـيل خارج الطرف الشمالى لـلمدينة، وهو من خيرات المـلك الظاهر، ويقال لطرفى هـذا الجســر (جميز العبد)، وفـى هذيـن الطرفيــن أشجار جميز ضخمة لا وجود لمثلها فى مصـر، زرعها عبد أسود ولما كان يصلى تحت ظلالهـا سميت جميز العبد، وإليها يمضى أعيان مدينة القاهرة فى الـقوارب ويجلسون فى ظلالها طلبا للمتعة والنزهة. إنه مكان نزهة على ضفة الخليج.

وهنـا نكـون قـد انتهينـا مـن الحديــث عـن جسـور الخلجان التى تجرى داخل مدينة القاهرة.

وصفوة القول أن الجسور المقامة على خلـجان مدينة القاهرة وترعها ٣٦ جسرا. لأن النيل يجرى بين ما فى جوانب مصر الأربـعة من رياض وبساتين تعلوه جسور. وتجرى مياه الخلجان والترع هذه فتصبح خلجان مصر فى داخلها وخارجها مترعة بالماء.

***

الفصل الأربعون

ذكر البِرَك التى تشبه البحار داخل مدينة القاهرة

- بركة الأوزبكية:

مما لا ريب فيه أنها أعظم بِرَك مدينة القاهرة، محيطها أرض تُقطع فى ساعتين، وعندما يفيض النيل تمتلئ بالماء وتموج كأنها اليَمّ. وكم من مئات القوارب التى تحمل الناس من دار إلى دار ومن قصر إلى قصر ويصيدون منها أنواع السمك، وكم فيها من قوارب تعرف (بقوارب أبى الخير) وهى قوارب كبيرة فى جوفها دكاكين بها كل ما يُشتهى من مطعوم ومشروب، وتمضى هذه القوارب من دار إلى دار ومن قصر إلى قصر لبيع المطعوم من البقل إلى الفجل. وحول بركة الأوزبكية هذه حدائق ذات مقاصير وقاعات وممرات ومقاعد ومعروشات، وفى هذه الحدائق قصور كقصر (الخورنق)، ومنازل ذات نقوش وكأنها نقوش الصين.

إنها بِركة عظيمة على جوانبها الأربعة جوامع حولها مروج، وكل من هذه الجوامع من خيرات ملك من ملوك السلف، يقصر اللسان والبيان عن مدحه، إنها جوامع تُكسب البِركة بهاء.

- القصور الواقعة على ضفتى البِركة:

وعلى ضفة هذه البركة قصر (رمضان أغا) أمين الأنبار[1] وهو أعظم القصور العالية، وقصر باقلاجى محمد بك أمير جدة، وقصر مصطفى أغا، وقبالته على الجانب الشرقى قصر قاسم بك قبودان[2] السويس، وقصر حسام زاده ومئات من القصور الأخرى، أما أعظم هذه القصور قصر سيدى الشيخ البكرى زاده عزيز محمد أفندى، وقد ورثه عن أجداده العظام.

إنه قصر عظيم كائن فى الركن الجنوبى للبركة ويتألف من ٣٦٠ حجرة مزدانة بالمقاصير والأحواض والشادروانات والقاعات المختلفة، وفيه بيوت أخرى للضيوف

(١) الأنبار: مخازن الغلال. ومنها أنبار يوسف عليه السلام، وهى مشهورة بجنوب القاهرة.

(٢) قبودان: قائد أسطول بحرى.

والمجاورين، وفيها من سكنها عام أو أكثر يتناولون طعامهم من السماط المحمدى، وتخلع عليهم ثياب طوال أول كل عام، فيدعون بالخير لأهل الخير.

ولسيدى العزيز ولدان عزيزان عليه: أحدهما أبو المواهب وهو صاحب كرم، وخير منه زين العابدين خفيف الظل، مضياف، رحيم، غزير العلم.

وعلاوة على قصور عزيز چلبى هذا له بيوت لكل منها حرم وتكية ذات حمام.

وينتسب أجداد العزيز چلبى إلى عمرو بن العاص وأبى بكر الصديق - رضى الله عنهما- فى عهد عمر بن الخطاب، ونار مطابخهم لا تنطفئ، ويقدمون الطعام صباح مساء للغنى والفقير والخاص والعام، وهم يفخرون بدوام اشتعال النار فى مطابخهم، وكم لهم فى مصر من أوقاف وضياع وأفدنة وأرزاق.

وشيوخ البكرية من أعيان القاهرة كذلك، وفى كل عام ليلة الاثنين من اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول يحتفل بالمولد بشكل يقصر عنه الوصف.

وفى تلك الأثناء يشتد الحر فيجف ماء البركة ستة أشهر وتصبح مرجا مخضوضراً. وفى أيام الاحتفال بالمولد يأتى شيوخ مائة وأربعين طريقة إلى ساحة هذه البركة ومعهم خيامهم التى يقيمونها مع من يصحبهم، ويقيمون خمسمائة أو ستمائة خيمة، وفيها يقرع الشيوخ والعلماء وعدة آلاف من الدراويش الدفوف ويقيمون حلقات الذكر ثلاثة أيام بلياليها.

ويعلق أصحاب البيوت على حافة البركة القناديل وعلى نوافذهم وجدرانهم حسب مقدرتهم، ويزين نظار الجوامع على حافة البركة منائر وصفات الجوامع وكأن الرسول ﷺ ولد فى تلك الليلة، وفى تلك الليلة يعم النور القاهرة. يا لها من بركة عجيبة عظيمة.

- البركة الثانية: (بركة الفيل)

وهذه البركة أصغر فى الطول وأقل فى العمق من بركة الأوزبكية، بيد أن جوانبها الأربعة مزدحمة ولا موضع فيها لأرض خالية قدر ذراع وحولها منازل ذات نافورات وأحواض وحدائق، وجوها لطيف إلى حد جدٍّ بعيد. إنها بركة عظيمة تمتد من الجنوب إلى الشمال، وتجرى فيها القوارب تغدو وتروح، وليس بها منفذ، ويأتيها ماء النيل

مترسبا تحت الأرض من ناحية الباب الجديد. ولأصحاب البيوت المطلة على هذه البركة سفنهم وقواربهم الخاصة بهم، وينتقلون بهذه القوارب بين قصورهم. إنها موضع عظيم للشرفاء بحكم وقوعها فى منطقة مزدحمة فى مدينة القاهرة.

ومن أعظم القصور الواقعة على أطراف هذه البركة هو قصر سيد برهان الدين نقيب الأشراف الذى يتصل نسبه بالحسين من أهل هاشم، وهو شيخ علته الكبر والوهن، وكان بيته منذ تسعين عاما يبذل منه الطعام للغادى والرائح.

كما أن على حافة تلك البركة قصر (الخزينة دار المصاحب شاهين أحمد أغا)، وقصر معتق عباس أغا البنات، ودار شعبان أغا رئيس المتفرقة، وأفضل ديار الشيخ السادات، وقصر بكر أفندى كاتب الانكشارية، وقصر قانصو بك الذى كان قصر السلطان ( )[1] وهو قصر يعجز عنه الوصف، وقصر المصاحب صالح أغا، وقصر البلتاجى محمد خليفة، وقصر الداماى، وقصر سليمان أغا، وقصر مصطفى أفندى أفندى الانكشارية، وقصر المصاحب خليل أغا وقصر قيطاس بك، وقصر نذير أغا، وقصر أمير الحج، وقصر أبى المواهب أفضل أبناء الشيخ السادات، وقصر بوشناق محمد أغا، وقصر مصطفى أغا رئيس التوفنكية (أى حملة البنادق)، وقصر أحمد أغا چاووش رئيس الإنكشارية، وقصر سليمان بك، وقصر سليمان چاووش . . .، وجملة القول أن على ضفة بركة الفيل سبعون قصرا للملوك السلف، ومائتا دار عظيمة.

وفى هذه البركة سفينة واحدة من النوع المعروف بـ (أبى الخير)، وهى تنتقل من قصر إلى قصر لبيع صنوف المأكولات والمشروبات.

سبب تسمية هذه البركة ببركة الفيل

أما سبب تسمية هذه البركة ببركة الفيل: أن أحد سحرة فرعون استعرض سحره فجعل هيئته على هيئة فيل، وأكل من عشب هذه البركة وشرب من مائها ولذلك سميت بركة الفيل، وفى رواية أخرى أنه عندما قدم الخليفة المأمون إلى مصر من بغداد، أحضر معه مائتى فيل وجعلها فى هذه البقعة لتبترد، ولذلك سميت بركة الفيل.

(١) بياض فى الأصل.

وبعض أصحـاب القصور المطلة عـلى هذه البركة حينـما يحتفلون بمـولود لهم، أو بمناسبة سعيدة يزينون قصورهم بالقناديل، ويزينون سفنهم وقواربهم بالأعلام، ويطلقون البنادق فتمتلئ الـسماء بما يشبه الشهب الهابط من السمـاء، وكم من قذائف (الفشنك) تسقط فى الماء وتغوص فى الماء وتطهى السمك.

وتبقى المياه فى هذه البركة عشرة أشهر بتمامها، وتحول الأراضى التى جفت منها إلى بساتين، ويزرعون فيها شماما، وبطيخا غاية فى لذة الطعم، إنها بركة وفيرة المحصول.

- البركة الثالثة: (بركة الرطل)

بركة مستديرة الـشكل، يطاف حولها فى ساعة، ماؤهـا عذب فرات، وعلى الجانب الشمالى والـغربى منها حدائق فـقط، فى جانبها الجنـوبى شوامخ القصور، منـها قصر محمد چلبى الضـريخانجى، وكأنه حديقة إرم، وله شادروانات عظيـمة وسفينة، وقصر سيد أحمد الجيزى، وقصر حسن البكـرى، وقصور أخرى، وجو هذه البركة لطيف إلى أبعد حـد، وكثير مـن الناس يغـدون ويرحون فيهـا بالقوارب، وهـى على مقـربة من بولاق.

البركة الرابعة: (بركة مصنع القرميد)

بركة على هيئة مربع، عذب ماؤها.

ـ البركة الخامسة: (بركة الغسال)

بركة عذبة الماء، يغسل فيها أمتعة المدينة، ولذلك تسمى بركة (الغسال)، وتمتد حتى الفيـوم بمسيرة يوم وليـلة، ويصاد السمـك منها ويحمـل فى زنابيل إلى الـقاهرة، ولا يستطيع إنسان أن يقـترب من هذه الزنابيل لرائحتها الكريهة، وتحـمل هذه الزنابيل على ظهور الحمير وتطرح على حافة البركة، وتغسـل كل سمكة على حده فتنبعث من أذنها الدماء وكأنما عادت إلى الحياة.

وثمة سمـكة لذة للآكليـن، يتهافت علـيها المصريون، ويـسمونها سمـكة يوسف، ومائدة يوسف، وحوت يوسف، إنها سمكة منقـطة، وقد أكلت هذه الـسمكة فى الفيوم عملا بقولهم: «أكلت الـسمكة حتى رأسها»، ولـكنها كانت قد غسلت فى بركة الغسال

وليس لها سهك (أى رائحة السمك الكريهة)، إنها سمكة لها رائحة السمك، ولأنها تغسل فى هذه البركة فهى كسمكة مائدة القدرة.

ولبركة الغسال هذه ميزة مشهورة فى الآفاق، فإذا نزلها مجذوم لأربعين يوما، وشرب من مائها أصبح جسمه كالدر السمين.

- البركة السادسة: (بركة الدباغين)

بركة مستديرة الشكل فى حى عابدين، يحيط بها منازل من ثلاثة طوابق أو أكثر، وعلى أحد جوانبها مدبغة عظيمة للدباغين، وماؤها عذب فرات ولذا فسمكها غاية فى لذة الطعم.

ويجرى فى هذه البركة قوارب خاصة مصنوعة من القرع، يركبها صيادو السمك لصيد السمك بشباكهم ثم يمنعونه فى سفافيد.

- ميزة:

ومن ميزات هذه البركة أنه إذا ما أصيب أحد باليرقان (أى الصفراء) وأصبحت عينه ووجهه وجسمه فى صفرة الكهرمان الصافى ونزل فى مياه هذه البركة ثلاثة أسابيع يوميا فى الصباح قبل الإفطار، وغاص فيها ثلاث مرات وخرج وشرب من مائها شفى وأصبح جسمه فى بياض الفضة الخالصة.

- البركة السابعة: (بركة قارون)

شقها قارون، وهى على شكل مخمس، وتحيط بها الحدائق من جميع الجهات.

- ميزتها:

ومن ميزاتها أنه إذا ما نزلها أحد المنحوسين أربعين يوما فارقه النحس، ودخل يده مال قارون. إنها بركة تجرى مياهها بالطلاسم، إلا أن ماءها أميل إلى الملوحة. وتستمد هذه البركة مياهها من النيل، إلا أنه مع ذلك ماء ملح.

- البركة الثامنة: (بركة الشواربى)

نشأت فى قديم العصور، وتنسب إلى أبى الشوارب وكان أميرًا مصريا شيد قصرا عاليا على ضفة هذه البركة، ولذلك سميت باسمه.

- ميزتها:

وهذه البركة إذا ما نزلـها مصروع وقت الظهيرة حين يشتـد الحر واغتسل وشرب من مائها برئ من الصرع بإذن الله. إنها بركة ذات طلاسم.

- البركة التاسعة: (بركة الحبش)

بركة مربعة الشكل على هيئة بحيرة، ماؤها عذب.

- ميزتها:

إذا ما نزلت هذه البركة امرأة حائض، برأت من النـفاس، والكثرة الكاثرة من البغايا المقيدات فى سجل الصـوباشى ينزلن فيها، وتلك حكمة عجيـبة، وقد سألتُ عدةَ نساء عن ذلك فقلن لى تحقق من ذلك.

- البركة العاشرة: (بركة بيبرس)

بركة صغيرة شمال مدينة القاهرة بالقرب من جامع السلطان بيبرس.

- ميزتها:

وهذه البركة إذا ما غسلوا فيها الخضروات مثل: السبانخ والطماطم والملوخية والبامية والفجل، نضرت وأصبحت طازجة وكأنما قلـعت لتوها من الأرض، وتذبل بعد يومين أو أكثر. إن تأثيرها لعجيب.

- البركة الحادية عشرة: (بركة الكبش)

بركة مثلثة الشكل، أسفل قلعة الكبش.

- ميزتها:

فى عصر الكهنة كانت تجرى فى هذه الـبركة قوارب نحتت من صـخر، وكانت هذه القوارب تتسع لركوب أربعة أشخاص فيهـا، وتغدو وتروح هذه القوارب إلى النيل عبر هذه البركة، وهذه القوارب الآن تحت أحد العقود بجانب قلعة الكبش.

- البركة الثانية عشرة: (بركة عين شمس)

ليس بها ضفدعة، ولا ثعبان، ولا حية.

- البركة الثالثة عشرة: (بركة الحبج)

إنها بركة مطلسمة إلى الآن.

- ميزتها:

ومن ميزات هذه البركة أنه إذا حملت قربة ماء من هذه البركة إلى الحج لا يتغير طعم مائها حتى ولو احتفظوا به فى جرة مدة عام.

وهى من المطلسمات القديمة، وفى موضعها مسلة من حجر، وعلى الجوانب الأربعة لهذه المسلة صور متنوعة غريبة ونقوش عجيبة، إلا أن على هذا العمود من أسفله إلى أعلاه خط إدريسى يقرأه القبط، ولا يقرأه أحد سواهم، ومعنى رموز هذا الخط هو: «انظر إلى وجهى واحفر قاعى، فحيث يكون العقل يكون المال !»، وقد هلك كثير ممن حاولوا سرقة هذه المسلة، وفى النهاية تفجر الماء من قاع هذه المسلة وتكونت بحيرة تبقى ستة أشهر فى العام، وتجف ستة أشهر أخرى، والباحثون عن الكنوز من المغاربة يحضرون إليها ويحفرون أرضها بحثا عن المال إلى الآن.

إجمالى عدد البرك فى مدينة القاهرة

إنها جميعا ١٧ بركة لكل منها ميزة تميزها عن الأخرى، وقد حفر كل منها، فى الزمان، مهندس بارع، وجعل فى كل منها طلسما. وتأثير هذه الطلاسم دائم إلى الآن.

وهذه البرك التى تقع داخل القاهرة لها عظيم أهميتها، لأن ماءها الطاهر يرد على المصريين أرواحهم، ويلطف من جو المدينة.

***

الفصل الحادى والأربعون

أوصاف مدينة ميناء بولاق المشهورة فى الآفاق

الوصول إليها بالاتجاه من مدينة القاهرة غربا خلال ساعة عبر الحدائق. إنها مدينة عظيمة على ضفة النيل، وبلاق فى اللغة العربية بمعنى (   )[1].

وهى مدينة يمتد عمرانها طولا من الجنوب إلى الغرب ألفين وخمسمائة قدم، وعرضها فى بعض المواضع سبعمائة قدم والبعض الآخر ثمانمائة قدم وبعض آخر ثلاثمائة قدم، وخمسمائة قدم. إنها مدينة متراحبة الأرجاء، ولوقوعها على ضفة النيل فهى مرفأ معمور، وبينها وبين مدينة القاهرة بساتين وحقوق وافرة المحصول.

ويحكمها من يعرف بـ (رسالة أغاسى) أى أغا الرسالة من قبل الوالى، ويعاونه مائة من رجاله، ويتعين عليه أن يرسل إلى الباشا سنويا عشرين كيسا، كما أنه يحصل لنفسه عشرين كيسا مصريا.

ومن هذا الميناء وحتى دمياط ورشيد وإسنا وأسوان ١٠٠٠٠ سفينة مختلفة الأحجام مسجلة فى دفتر أغا الرسالة، وجميع رؤساء هذه السفن تحت نفوذه، ويحملون الغلال الأميرية من الصعيد العالى ويخزنونها فى (أنبار يوسف) أى مخزن يوسف، وهذه هى مهمة حاكم مدينة بولاق.

أما معرف البحرين فهو صاحب السيطرة على جميع القوارب، وتمضى السفن إلى ولاية الصعيد بدفاتره وتأتى من هناك بالغلال وهو نائب قاضى عسكر مصر يعاونه ثلاثمائة من رجاله، ومن قبل دفتردار مصر يحصل أمين الجمرك المال السلطانى مع مائتين من رجاله وهو ملتزم بتوريد كيس عن كل يوم. وهو يباشر مهامه من تكية عظيمة للانكشارية مواجهة للجمرك، وفى معيته ضابط من أوجاق الانكشارية

(١) بياض فى الأصل.

هذه هى الخانات الضخمة التى تشبه القلاع، والخانات الأخرى يتألف الواحد منها من مائة حجرة أو مائة وخمسين، وفيها تجار كبار تقدر ثروة كل واحد منهم بخزانة مصرية، ولهم شركاء فى الهند، واليمن والسند، وعدن، وأوربا، وبلاد الترك.

وفضلا عن هذه الخانات فإنه يوجد مائتا مخزن للغلال على ضفة النيل، اثنا عشر مخزنا منها مخازن أميرية وفيها تحفظ غلال مكة والمدينة، فهناك الشونة الكبرى، والشونة الصغرى، وشونة الدشيشة الكبرى والصغرى، ومخزن المحمدية، وشونة المرادية، ومخزن الخاصكية، وقد أنشأت محظية السلطان محمد الرابع - فاتح قمانچه وقنديّه - مستشفى، ودار ضيافة، ومبرة لتوزيع الطعام، ولحفظ ما فيها من غلال بنى أمين الشعير مصطفى أفندى شونة عظيمة كالقلعة فى بولاق، وهو مخزن تجلب عشرة مدافع لحصاره شهرا، ومحيطه ستمائة قدم.

وفى مدينة بولاق ٦ حمامات، منها حمام سنان باشا على ضفة النيل، ويصعد إليه بسلم من ست درجات، وهو حمام جميل على الطراز التركى، وحمام (   )[1] الذى بنى حديثا، إنه حمام لطيف إلى أبعد حد ذو ماء حار، وحمام (   )[2].

وفى بولاق كذلك ٦٠٠ دكان، ولكن ليس فيها سوق للأقمشة، وسوق سنان باشا لها بابان من الحديد، وتضم ٢٠٠ دكان، ويتوسطها طريق رئيسى، وبها من كل شئ ثمين، كما أن فيها ٢٠ مقهى سلطانيا جميلا، وفيها يستريح جميع التجار، وجميع أسواق بولاق مزدحمة إلى حد جد بعيد، فهى بحر من البشر يتزاحم فيه الناس بالمناكب، لأن تجار الأقاليم السبعة يتوافدون على هذا المرفأ، ويجلبون معهم سلع وبضائع بلادهم. وفى كل عام يأتى إلى هذا المرفأ ١٠٠٠٠ من السفن والقوارب تحمل السلع من بلاد الترك، وبلاد الفونج والنيل. إنه مرفأ جميع الولايات، وكل سكان بولاق من التجار وصناعى السفن. وفى بولاق تتوفر جميع الغلال وصنوف المأكولات والمشروبات، والأخشاب. إنها مرفأ الربح والكسب.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

دار صناعة السفن السلطانية

تقع على رأس مرفأ بولاق، ويحيط بها سور كسور القلعة، ويبلغ محيطها ١٠٠٠ قدم، وهى مملوءة بأخشاب البناء، إنها مهمات أرسلها سلطان العثمانيين عتادا لليمن، وبها الأمين الذى يخضع لرياسة قبودان السويس وأربعون من الكتبة، وناظر، وعمال المخازن، والحراس، والبوابون. إنها بناء مستطيل الشكل مكشوف، وتضم ما لا يحصى كثرة من الآلات والأدوات والمهمات، كما أن فيها مخازن يقدر ما فيها بما فى خزائن مصر من مال. وتكتظ هذه الدار بآلات من النحاس والرصاص والقصدير والحديد والمسامير ومدافع وقذائف،ولها بابان مرتفعان أحدهما ينفتح على الجنوب حيث اليابسة، والآخر على ضفة النيل.

وعندما صدرت الأوامر إلى كتخدا إبراهيم باشا بغزو اليمن قدم إلى هذه الدار مرارا ليعاين هذه المهمات والمواد وأقام عند الباب المطل على النيل قصرا عظيما يستريح فيه، لا يشبهه فى بولاق إلا قصر السبتية، وأمر ببناء حجرات متعددة ومطابخ ومخازن للطعام فى ذلك القصر وكان له متعة الملوك، وأعد العدة للحرب.

قصر السبتية

يقع نهاية الطرف الشمالى من مدينة بولاق، إنه قصر عال يشبه قصر الخورنق، وفيه قاعات ذات أحواض وشادروانات، وهو قصر فخم له مطل على النيل، ويأتى إليه جميع الوزراء مرة فى كل أسبوع لتنسم النسيم العليل، لأن جو بولاق لطيف إلى حد بعيد، لذا فوجوه أهل بولاق وردية اللون، وذريتهم كثيرة، وهم يلدون التوائم بأمر الله. إنهم أهل شوق وذوق وتوحيد. وتنتشر الحدائق هنا وهناك، وسوف نذكر أولياء الله فيها وأضرحتهم.

* * *

الفصل الثانى والأربعون

أوصاف مصيف مدينة السلطان قايتباى

كان إنسانا ذواقة، ميالا للترف، ولوعا بالصيد والقنص والفروسية، ولذلك كان يطيب له جو هذه المدينة فعمرها. ففى مصر ما يعرف بأيام الخماسين وهى أيام تدوم خمسين يوما وتصيب الناس فى جنوب مصر. والعياذ بالله - بالنحس والقذارة والأمراض المختلفة.

ويقضى الناس خمسين يوما فى خمول وإعياء وعناء ويتفشى فيهم الطاعون وتسوء أحوالهم أيما سوء، وينفجر مخ الأجنة فى بطون أمهاتهم فى شهرهم الخامس ويتوفون، وتسقط أسنان الشيوخ وحواجبهم، ومنهم من يموت ومن تكتب له النجاة.

لقد دعا سيدنا موسى على قوم فرعون فنزل بهم البلاء خمسين يوما. إنها أيام خوفهم التى يعبرون عنها قائلين: «آه خناق هنم خماسين».

وفى هذه الأيام يسعد باشا مصر لأن كثيرا من القرى تصبح قرى محلولة[1] ويتحصل له منها مال كثير.

ولكن من حكمة الله أن هذه الأوقات العصيبة فى مصر وهى أيام الخماسين تصادف موسم الربيع فى بلاد الترك ويا لها من حكمة عجيبة.

وكان السلطان قايتباى يقيم فى ذلك المكان ستة أشهر لتلافى قذارة أيام الخماسين، ولذلك صرف همته فى تعمير هذا المصيف. ومصيف قايتباى الآن مكان نزه طيب النسيم وتشكل كل من القاهرة وبولاق ومصيف قايتباى مثلث، وبين كل منها مسيرة ساعة، وكلها حدائق عامرة ومن خارج باب الناصر- فى الجهة الشرقية للقاهرة- وحتى العادلية طريق اسطنبول وطريق الحج، ويقع مصيف قايتباى على هذا الطريق الرئيسى، وعلى جانبى هذا الطريق كان يوجد ١٠٠٠٠ قصر فخم، ومنذ أن دخلت مصر فى حوزة العثمانيين انقرض قوم الشراكسة وتخربت قصورهم فى قايتباى هذه، ولم يبق منها

(١) محلولة: بمعنى شاغرة حُلّت إدارتها وخرجت من التزام ملتزمها.

إلا أحد عشر قصرا، وما يقرب من ١٠٠٠ دار من ديار الفقراء و٧٠ دكانا وحمام واحد، و٧٠ محرابا، و١٧ جامعا سلطانيا عظيم البناء، ونتحدث عنها الآن.

جامع السلطان قايتباى

أكثر الجوامع عمرانا وزينة، وهو جامع علوى يصدر إليه بسلم حجرى من ثمانى درجات، ولا أعمدة فيه، وله سقف منقوش مزخرف يقوم على سرادقات، ونوافذه من زجاج، وجدرانه الأربعة من أسفلها إلى أعلاها مكسوة بأحجار البشم الحرقانى والرخام المتنوع، ومنبر هذا الجامع محلى بالصدف لم يصنع مثله صانع بارع قط، ومحرابه جميل هندى الطراز، ومقصورة المؤذن غاية فى مهارة صنعها، وأرضيته مرصوفة بأحجار عين الطير، كما يزدان الجامع بصنوف الثريات والقناديل الثمينة. ويتصل بهذا الجامع ضريح قبته عالية من الحجر وهو مثوى السلطان قايتباى وهو ضريح منور بسطت فيه بسط ثمينة متنوعة.

مناقب أثر قدم النبى (صلى الله عليه وسلم)

وفى هذه التكية حجر عليه أثر قدم النبى ﷺ حتى إنه عندما بنى السلطان أحمد[١] من سلاطين آل عثمان جامعه الجديد، وشى واش قائلا له: إن فى ضريح قايتباى أثر قدم النبى ﷺ، وقد وجد عند العرب قبل ذلك، ويليق بجامع مولاى السلطان.

وكان لهذا من قوله وقعه فى نفس السلطان، فأرسل فى التو أمرا مع من يسمى (مراد الرئيس) إلى وزير مصر، وعندما حاولوا اقتلاع الأثر من ضريح قايتباى عصفت ريح عاتية وقصف الرعد ولمع البرق، فانصرفوا عنه دون أن يقتلعوه، وعرضوا ما حدث على السلطان، فأصدر أمرا خاصا أرسله مع أحد رؤساء بوابى الباب العالى، وتلوا سورة الأنعام ألف مرة فى ضريح قايتباى وحمل (مراد الرئيس) القدم الشريفة إلى الإسكندرية فى سفينة وكابد فى ذلك ألوانا من المشقة والعناء، وبعد سبعة أشهر بلغ الخبر السلطان أحمد بوصول القدم الشريفة فأرسلها إلى جامع أبى أيوب الأنصارى فى موكب عظيم من الجند.

---

(١) يقصد السلطان العثمانى أحمد الأول ١٦٠٣ : ١٦١٧ م = ١٠١٢ : ١٠٢٧ هـ

وفى الصباح خرج جميع أهل اسطنبول رجالا ونساء شيوخا وشبابا منتظرين وصول القدم الشريفة، وانطلق السلطان أحمد، بناء على القانون السلطانى، فى موكب عظيم إلى جامع أبى أيوب الأنصارى، ومسح بوجهه القدم الشريفة، ووضعها على رأسه وأنشد على البديهة هذه الأبيات وكأنها الدر:

ما ضر لو جعلت على رأسى كالتاج على الدوام

أثر قدم النبى خير الأنام

وردة روضة الأنبياء صاحب هذه القدم

أحمد قدم المصطفى لمسح وجهك بها تقدم

وتغنى السلطان أحمد بهذا الشعر، وقد لحن هذا الشعر الدرويش (عمر الكلشنى) فى مقام البنجكاه فى دار أستاذنا (باباى عالم سلطان)، وأضافها إلى التسبيح فى ليالى رمضان، لقد كانت شيئًا بديعا، ثم قام السلطان أحمد فى موكب كأنه البحر يحمل حجر قدم النبى فى حضنه وسلمه إلى نقيب الأشراف، ولما دخل به اسطنبول رفع الناس أصواتهم قائلين: شفاعة يارسول الله. وتجمع الناس مزدحمين حول نقيب الأشراف حتى ضاق بهم فأمر الجند فمنعتهم من الاقتراب من القدم الشريفة، ووصلت القدم الشريفة من مسجد أبى أيوب الأنصارى إلى اسطنبول والناس على تلك الحال.

فى بيان الرؤيا التى رآها السلطان أحمد بخصوص قدم النبى (صلى الله عليه وسلم)

وفى ليلة وصول أثر قدم النبى ﷺ من أبى أيوب الأنصارى إلى اسطنبول رأى السلطان أحمد فيما يرى النائم أن ملوك الإسلام قاطبة اجتمعوا فى ديوان، وكان النبى ﷺ يرأس الديوان فوقف السلطان قايتباى وقال: يارسول الله استنادا إلى شرعك المبين أشكوا إليك السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان، أقم عليه الدعوى استنادا إلى شرعك الشريف.

فقال رسول الله ﷺ فى الحال: إن أحمد من أمتى وقد خدمنى كما خدم البيت الشريف. ونادى عليه قائلا: تعال يا أحمد. فجاء السلطان أحمد قائلا: لبيك يا رسول

الله، ومثل بين يدى سيد الكونين وقال: السلام عليك يا رسول الله. فرد عليه ﷺ قائلا: وعليك السلام يا أحمد إن ثمة من يشكون منك، لتكن مرافعة شرعية مع خصمك، ووقف السلطان أحمد إلى جانب قايتباى الأسفل وقال ﷺ: أنت حى يا أحمد فقف إلى جانبه الأعلى، فوقف السلطان أحمد فوقه فقال ﷺ: أقم دعواك يا قايتباى، فقال قايتباى: يا رسول الله لقد كنت مجاهدا فى سبيل الله وبنيت بمال الغزو ثمانمائة جامع كما تعلم، كما بنيت جامعا آخر ليكون مثوى لى واشتريت رسم قدمك الشريفة من سيد على الأبطحى من العرق الطاهر بأربعين ألف دينار، وهيأته فى صندوق من الذهب ليوضع فى ضريحى حتى إذا جاء من يزوره زارنى، وبذلك أنال مثوبة الفاتحة آلاف المرات، فتغمرنى الرحمات، لكن منذ أن سرق هذا الظالم القدم الشريفة لم أر رحمة لى، والأمر أمرك يا رسول الله، وعندئذ قال ﷺ ردا عليه: يا أحمد ماذا تقول ؟ فقال السلطان أحمد: نعم يا رسول الله أنا اليوم موكل بالحرمين الشريفين، ولقد أقام عبدك وأخى قايتباى عدة جوامع له، تخرب جامعه على مر الأيام، وقد تنامى إلى علمى أن أثر القدم الشريفة بين الفلاحين الفسقة غير الأطهار، وقد تراكمت عليه الرمال، فبحكم توليتى ومحبتى لك أمرت بإرساله إلى بلاد الترك وسط مظاهر التعظيم والتكريم، ووضعته فى جامعى. والأمر الآن لك يا سيد الكونين ثم لزم السلطان أحمد الصمت. فقال قايتباى فى التو واللحظة: بما أنك كنت متوليا نزيها لماذا لم تعمر أوقافى حين عاينتها، لقد أودعت ريعها فى الخزانة، ولم يبق من أوقافى إلا عشر عامرة.

فقال جميع ملوك السلف: يا رسول الله منذ أن دخلت مصر فى حوزة آل عثمان، خربوا جميع أوقافنا وضموا أموالنا إلى المال الأميرى. وبسطوا إليه الرجاء أن يأخذ مصر من حوزة العثمانيين ويدخلها فى حوزة دولة أخرى.

فقال ﷺ: كلا إن هؤلاء - بعون الله - إلى أن يظهر المهدى ويقدر ما فى آية الكرسى من حروف «الله لا إله إلا هو ...، حتى إلى بإذنه - سيكون للعثمانيين سلاطين يملكون مصر وجميع بلاد الكفر، ولن يبق على وجه الأرض كافر، وسوف يمضون إلى أرض الدنيا الجديدة، وبعد ذلك تظهر أشراط الساعة.

ولكن يا أحمد إن فى ذلك حكمة، وإن لى عشاقا مساكين يعفرون وجوههم على الحجر الذى يحمل أثر قدمى، فينالون مرادهم، ولقد نلت أنت الثواب لأن الدال على الخير كفاعله، فبادر بإرسال أثر قدمى الذى اشتراه قايتباى بمال الغزو إلى ضريحه فى مصر، وإلا فأنت وما تشاء.

وانفض المجلس، فهب السلطان أحمد من نومه، فدعى إلى مجلسه شيخ الإسلام زكريا أفندى ونقيب الأشراف قدسى أفندى وقره سنبل أفندى وأستاذنا أوليا أفندى وأسكودارى محمد أفندى ووالدى الدرويش محمد ظللى، والدرويش عمر الكلشنى وقص عليهم جميعا رؤياه. فقالوا له: أرسل وقف الله إلى موضعه. وعندئذ أخرج السلطان قنطارا من الفضة الخالصة، وكان والدى فى ذلك الوقت رئيس صاغة الباب العالى، فقام بصنع صندوق هو تحفة فنية ووشاه بالمينا والذهب والفضة ليوضع فيه الأثر، وكتب عليه بخط ذهبى أبياتا من الشعر، وبعد أن فرغ من ذلك سلمه ثانية إلى (مراد الرئيس)، وكان ذلك فى وقت مناسب، إن أثر قدم النبى الذى لم يصل اسطنبول إلا بعد سبعة أشهر بعد مكابدة ألوان المشقة والعناء بلغ الإسكندرية فى سبعة أيام، وأحضر إلى القاهرة فى يوم واحد، وعندئذ حمله أعيان القاهرة فى موكب عظيم إلى ضريح قايتباى، ولله الحمد فقد مسحت أنا الضعيف وجهى بأثر قدم النبى ﷺ، ورأيت التحفة التى صنعها والدى وعلى هذا الصندوق خط أبى وهو تاريخ مسطور بالذهب والفضة وهو:

وهذه الأبيات كتبها أبى بالفضة الخالصة.

بشوق حضرة سلطان أحمد	زيارة موطئ القدم المكرم
فحركه بجاذبة اشتياق	على أقدام أقدام فقدم
وسيره إلى قسطنطينية	فقال له تقدم خير مقدم
وادخل داره باليمن حبا	وتعظيما لصاحبه المعظم
حبيب الله سيدنا محمد	عليه ربنا صلى وسلم
وراجعه بإعزاز عظيم	إلى تلقاء موضعه المقدم
إلهى عمر سلطان أحمد	وقدمه على من تقدم
بحرمة صاحب القدم المعلا	له الدرجات العلا فى الأفلاك سلم

وتجاه أثر قدم النبى صندوق بداخله أثر قدم النبى وهو كذلك قدمان وداخل الصندوق يمتلئ بالكافور والمسك والعنبر الخالص، وفى هذا الضريح سجادة مبسوطة على الجدار، نقش عليها فنان بارع أبياتا من الشعر، كل من شاهدها قال إنها كرامة، ويمسح جميع الزوار وجوههم وعيونهم على المسك والعنبر وماء الورد الموجود فى ذلك الصندوق ويترحمون على السلطان قايتباى.

إنه ضريح بديع وجامع عظيم منور، بيد أن ليس لهذا الجامع حرم، وله منارة عالية من ثلاث طبقات، كما أن له سبيلا، ومكتب صبيان، ومدرسة، ودار قراء، ومبرة لإطعام العوام والخواص، وخان لاستضافة الضيوف، وخان للمجاورين وهو خان كالقلعة، يضم ٢٠٠ حجرة، إلا أن أحداً من الأغنياء لم يستطع البقاء فى هذا الخان خوفا من جماعات اللصوص، ويسكنه الفقراء، وفيه ٠ دكانا. إنه وقف معمور، وكان السلطان قايتباى سلطانا عظيم الشأن، ولقد حاسبت ناظر أوقافه ذات مرة، ولهذا الجامع ميزانية قدرها عشرة أكياس تحصل من القرى الموقوفة عليه، وله ٣٠٠ يقومون على خدمته.

وفى كل ولاية فتحها السلطان قايتباى أقام جامعا أو أكثر، وإلى الآن تتلى فيها الخطبة له، لقد أقام هذا السلطان ٧٠٠ جامع، وكم له من آلاف المؤسسات الخيرية، كما أن له ٣٠٠ مؤسسة خيرية فى مكة المكرمة. رحمة الله عليه.

وعلى مقربة من هذا الجامع:

جامع السلطان فرج بن برقوق

يبلغ طوله ١٨٠ قدما، وعرضه ١٢٠، له سقف مذهب أزرق يقوم على ٣٨ عمودا، ويتوسط حرمه حديقة جميلة تزدان بالنخيل، وأشجار النبق، كما أن فى حرمه ميضأة.

إنه جامع عظيم غاية فى الجمال، ولوقوعه فى صحراء لا يؤمه كثير من المصلين، وله منارتان عاليتان، لا يستطيع أى نحات فى يومنا هذا أن يضرب بالفأس رخامهما، وكلتاهما فى شكل القلم، وتتكون من ثلاث طبقات.

وفى جنب هذ الجامع الأيسر باب عليه كتابة هى قوله ـ عز من قائل ـ: بسم الله الله الرحمن الرحيم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وتاريخ مرقوم هو: «أمر بإنشاء هذه التربة بفضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر أبو السعادة فرج بن السلطان برقوق الشهيد تغمده الله برحمته وأسكنه الجنة يا رب العالمين، وكان الفراغ من هذا المكان المبارك فى سنة ستمائة».

وعلى جانبى هذا الجامع قبتان متشابهتان منقوشتان من حجر، دفن تحتهما السلطان برقوق وأولاده، ولا وجود لجامع كتب فيه آيات قرآنية بخط بديع كما فى هذا الجامع، بل إن فيه أجزاء كبيرة من كتاب الله المبين، ويسمون هذه الكتابات (كتابات الفتاة)، فقد سطرتها فتاة فى الثانية عشرة من عمرها، وخطها بديع إلى حد جد بعيد، ولأنها كانت ابنة سلطان دفنت فى هذا الضريح. إنه جامع منور طاهر.

جامع السلطان الأشرف

جامع علوى يقع على مقربة من جامع السلطان فرج بن برقوق، وهذا الجامع بنى بأكمله بالحجر، وعلى بابه منارة صغيرة، إنه جامع منور صنعت جميع نوافذه من النحاس الأصفر وله سبيل وسواقٍ وتكية ومكتب صبيان، وما يقرب من مائة بيت، وعلى مقربة منه:

جامع الأمير الكبير

وهو كذلك جامع علوى، لا حرم له، وله منارة من ثلاث طبقات، وهذا الجامع يماثل فى تصميمه تصميم جامع السلطان قايتباى، وعلى أحد أبوابه تاريخه وهو: سنة ٩٢٠.

ويتصل بهذا الجامع ضريح ذو قبة عالية دفن فيها الأمير الكبير، والله أعلم.

وقد بنى هذا الجامع بالحجارة، وله قبة ذات زخارف فى داخلها وخارجها وهى مرتفعة ضاربة فى السماء لا تشبهها فى القاهرة قبة أخرى، وجدران الجامع مكسوة بأحجار جميلة ذات ألوان، وإلى جانبه سبيل يعلوه مكتب صبيان، وقبالته عشرون دكانا، وخان فيه ما يقرب من مائة حجرة، وكل المقيمين فى هذا الخان من المتزوجين، ولصق هذا الجامع:

جامع السلطان إينال

جامع علوى لا حرم له، ولا وجود فى داخله لأعمدة، له سقف مذهب ذو زخارف يقوم على عقود، ومحرابه من قطع صغيرة من الرخام، ومنبره من خشب، كما أن أرضيته مرصوفة بالرخام، وعلى نوافذه بلور صاف. ولما رممه وأصلحه المرحوم قوانداقجى كتخدا بك أصبح وكأنه قصر من قصور الجنة، وجدرانه من الداخل والخارج مزخرفة من أولها إلى آخرها وعلى بابه منارة رشيقة ذات زخارف، كأنها شجرة سرو فى بستان. إلا أن هذا الجامع ليس كبيرا كسائر الجوامع، بيد أنه يبلغ غاية الغايات فى الروعة والجمال.

وعلى بابه الأيسر الواقع على الطريق العام لوح من رخام، حفرت فيه آية قرآنية كريمة هى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

كتب بعدها: «أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الأشرف أبو النصر إينال عز نصره تاريخ: ربيع الأول عام ثمانمائة وستين».

وقبالة هذا الجامع طريق رئيسى يقع عليه

جامع السلطان الغورى

كان مبنى عظيما، إلا أن الغورى دخل فى حرب مع السلطان سليم، وهلك واختفى أثره فى هذه الحرب، ولذلك لم يكتمل بناء هذا الجامع، ولو كان قد قدر لبنائه أن يكتمل لما كان فى أرض الإسلام جامعا يشبهه.

جامع السلطان چقماق

إنه كذلك جامع غاية فى الجمال والروعة بنى بتمامه من الحجر، ومنارته منخفضة من طبقتين، لكن المصلين فيه قليل.

جامع السلطان فرج

جامع سلطانى علوى يقع على الطريق الرئيسى، ليس كبيرا إلا أنه غاية فى الجمال والروعة وكأنه قصر فى إرم ذات العماد، وهو مزخرف فى داخله وخارجه، ومحرابه من الرخام المنحوت ومنبره من الخشب، إنه كذلك روعة، وقضبان جميع نوافذه من

النحاس الأصفر وهى مطلة على الطريق العام، كما أن له منارتان رشيقتان متشابهتان، ولهذا الجامع باب يتجه إلى الشرق، وهو باب مزخرف ذو عقود وبجواره (تابخانه) أى حجره يوقد فيها تنور أو مدفأة، يستريح فيها بعض أعيان القاهرة.

وقبالة هذا الجامع طريق قصور عالية وقاعات متعددة يأتى إليها أعيان مصر مرتين فى الأسبوع لينعموا بالراحة والمتعة، وهناك يمارسون الرماية بالسهام والبنادق، ويلعبون بالجريد وإضافة إلى حوض عظيم مساحته عشرة أقدام فى مثلها.

ويتصل بهذه المصطبة وكالة البهار أى التوابل، وكان يحصل فيها رسوم جمرك التوابل الواردة من الهند واليمن. وذلك فى عهد مقصود باشا. وهذه الوكالة تتألف من ٢٠٠ حجرة، ومن شاهدها من بعيد خالها قلعة.

جامع السلطان طومان باى (أى العادلية)

جامع معلق، يصعد إليه بسلم من عشرة درجات، ولا أعمدة فى داخله ولا خارجه، وله سقف ذو زخارف يقوم على أربعة عقود، وجميع جدران هذا الجامع مكسوة بأحجار مختلفة الألوان، ومحرابه من الرخام، ومنبره من الخشب الصنوبر، وللمؤذن مقصورة تقوم على عودين، وهى متقنة الصنع، وأرضية الجامع مرصوفة برخام مختلف الأنواع، وكل نوافذه من النحاس الأصفر، وله بابان مقرنصان: أحدهما فى جدار المحراب، والآخر باب القبلة.

ولا حرم لهذا الجامع، ومنارته جميلة من ثلاث طبقات. ولقد رممه ناظره فأصبح وكأنه قصر فى جنة الخلد.

وعلى يمنة هذا الجامع ضريح ذو قبة عالية، دفن تحتها السلطان طومان باى فى تابوت يحمل تاريخا هو: (سنة ست وتسعمائة).

وبعد الحرب التى نشبت بين السلطان سليم والغورى آلت السلطنة إلى طومانباى هذا، ونشب القتال بينه وبين سليم تسعة أشهر، وفى النهاية قبض عليه سليم، وصلبه على (باب زويلة)، وصلى عليه سليم صلاة الجنازة، ودفنه فى هذا الضريح.

ويعلو هذا الضريح قبة منقوشة داخلها وخارجها، وطول الحجر فيها ذراع، والقبة ليست مكسوة بالرصاص ولا الجص، ولهذا الضريح فناء يحيط به جدران كجدران القلعة، وتضم ما يربو على مائة حجرة، وقاعة ودار للضيافة، وزوايا، وقصور عالية لاستراحة الباشوات، ومخازن للأطعمة ومطبخ، ومقهى، وساقية، وحوض، وأسبلة ثلاثة، وخارج هذه الأسوار قصر عال لطومان باى يسمى قصر العادلية، وكان طومان باى يمضى إلى هذا القصر مرة فى الأسبوع، يعقد فيه ديوانا لإقامة العدل بين الناس، إنه مكان للعدالة، ومبرة.

جامع السلطان الطويل

جامع ذو منارة، ولكنى لم أدخله ولم أشاهد ما فيه، إلا أنى فيما بعد دخلته وصليت فيه ودونت معلومات عنه تيقنتها.

وكم فى مصيف قايتباى هذا من جوامع ومنارات ومساجد ومدارس وتكايا وخانات وحمامات وأسبلة وسواقٍ ومؤسسات خيرية كلها تخرب، وكانت قديما مدينة عظيمة تعادل مدينة القاهرة ليعمرها الله.

ومصيف قايتباى هذا وإن كان خربا، إلا أن جوه لطيف إلى حد جِد بعيد، والآن يسكنه الذواقة من الناس مع أبنائهم فى أيام الخماسين المشئومة، وتدوم لهم الإقامة فيه شهر أو أكثر، ويولد لهم التوائم، ويأتون بالمرضعات لأبنائهم فتصبح عيونهم كعيون الغزلان من تنسم نسيم هذا المصيف، أما من يولد لهم فى مدينة القاهرة فتصبح عيونهم مثل عيون أبناء العبيد وهذا الكلام فى مصر مثل يضرب أى أن أعينهم تصبح (جمروز).

وفى مصر أيام الخماسين إذا ما وقع الرجل على زوجته أولدها طفلا مصابا بصنوف الأمراض، والأجنة فى شهرهم الخامس أو السادس يتقرح أعلى أمخاخهم، ويخرج ما بداخلها مثل (البوزة)، وتفوح منها رائحة تشبه رائحة الخل، ويهلك الجنين.

أما الأطفال الذين يربون فى مصيف قايتباى هذا فبمنأى عن هذه الآفات.

إنه مصيف لطيف طيب الجو، ولذلك يشد إليه الرحال.

***

الفصل الثالث والأربعون

أوصاف مدينة (الفسطاط القديمة)

أى: مصر القديمة أم الدنيا العظيمة

كم من آلاف المجلدات، والكتب القيمة تتضمن أوصاف مصر القديمة، ووصف فيها استبحار عمرانها ولكنى أذكر ما شهدته بعين رأسى من مظاهر عمرانها. فبعد الطوفان عمر مدينة الفسطاط (البود بن قفط بن بيطار بن حام ابن سيدنا نوح النبى (عليه السلام) وكان أبو البود هذا أول من أجرى النيل أمام تلك المدينة، وفى تلك الحقبة من الزمن كان النيل يسمى (بلون)، وفى أيامنا هذه يسمى أهل النوبة النيل (جربلون)، وكانت الفسطاط مدينة عظيمة يمتد عمرانها من الغرب إلى الجنوب بقدر ثلاثة منازل، بيد أن (بخت نصر) خرب دمشق والقدس وبلبيس فى أرض حاسان وكذلك الفسطاط، ثم عمرت مرة أخرى، وفى عصر الرسول ﷺ تحالف (هرقل) قيصر الروم مع الأسبان والفرنجة، وفى فيضان النيل دخلوا مصر من دمياط ورشيد بألف سفينة، وانتزع اليونان مصر عنوة من يد المقوقس، وأوقفوها على كنيسة (آيا صوفيا) بالقسطنطينية.

أما أول من بنى مصر القديمة (نقراوش مصرايم) أحد أبناء سيدنا آدم عليه السلام.

وبعد طوفان نوح تزوج بيطار بن حام بن نوح عليه السلام بابنة (قليمون الكاهن)، وقدم العريش بإذن من نوح (عليه السلام)، ثم قدم بعد ذلك إلى بلبيس ومصر، وما عمروه مذكور آنفا، لكنى سوف أذكر ما هى عليه الآن.

إنها مدينة قديمة على بعد ساعة من القاهرة فى إتجاه الجنوب على ساحل النيل تمتد من ساقية الغورى إلى نقطة تحصيل الجمارك، وهى تمتد من الجنوب إلى الشمال بمقدار ألف وثمانمائة قدم، وفيها قصور عالية من خمسة طوابق أو أكثر.

وعرض هذه المدينة يبلغ ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة قدم، ويبلغ فى بعض الجهات ستمائة قدم، وتطل أماكن جميلة فيها على النيل.

ومن أجل أن يشاهد أعيان مصر (كسر النيل) أقاموا قصورا متعددة الطوابق والقاعات والمظلات، وحدائق، ونافورات وأحواضا، فكأن هذه القصور قصور فى إرم ذات العماد يعجز عنها الوصف. ومنازل الأثرياء والفقراء كبيرها وصغيرها ٤٦٠٠ منزل، ولوقوعها على النيل لها مرافئ، وتأتى إليها ١٠٠٠٠ سفينة كبيرة وصغيرة من بلاد الفونج، وولايات صاى والنوبة والواحات وترسو هذه السفن على ساحل مصر القديمة، وتسلم إلى الحكام.

وفى عام ٢٥ كان بمصر القديمة هذه ٣٦٠٠٠ مسجد، و٨٠٠٠ شارع مزدحم، و١١٧٠ حماما خاصا وعاما، و١٠٠٠٠٠ حانوت.

وفى عام ٤٢٨ نشب القتال بين عبيد المستنصر بالله الفاطمى فى مصر، وهلك الجند قاطبة وفى هذا العام أصاب مصر قحط عظيم، وغلت الأسعار وتفشى الطاعون، فاقبل جميع أهل الفسطاط على المستنصر بالله أبى تميم سعد بن الظاهر الأعز لدين الله أبى الحسن على، وهو أحد صفوة الفاطميين، وتقدموا إليه بالشكوى. فوجه المستنصر بعشرة رجال من أهل الفسطاط إلى القسطنطينية لطلب المدد (أى الغلال) من الأمير أرطوغرول أمير أحد الثغور التابعة للسلاجقة، فمضوا إلى مدينة (آبا صولون)، بيد أن المستنصر توفى وسفن الغلال فى طريقها إلى مصر، فارتدت هذه السفن إلى بلاد الترك، وتخربت مصر وأصبحت خاوية على عروشها. ولكن وجه ببعض الرجال إلى أرطغول ليطلب من القيصر الغلال لمصر، كما بسط أرطوغرول رجاءه إلى القيصر بأن يسمح له بأداء صلاة الجمعة فى دير آيا صوفيا مع الرسول الذى قدم من مصر، والتقى هذا الرسول فى ثلاثمائة من رجاله بقسطنطين، وأجيب إلى رجائه، وأدى صلاة الجمعة هو ورجاله فى كنيسة آيا صوفيا، وقرؤا الخطبة باسم القائم بأمر الله الفاطمى.

إلا أنه قبل أن تصل الغلال إلى مصر، تحت وطأة المجاعة، فتح القائم بأمر الله (كنيسة القيامة) فى بيت المقدس، وتنامى إلى سمع الملوك والقياصرة أنه غنم ما يعادل مائة خزانة مصرية، فأبحرت ألف سفينة من سفن الصليبيين من سلفاك وأغارت على قلاع الإسلام فى طرابلس الشام وبيروت وصيدا وعكا والرملة وأحكموا سيطرتهم عليها

واستعادوا ما اغتنمه القائم بأمر الله من كنيسة قمامة ببيت المقدس وكانت فضيحة بكل ما تحمله الكلمة من معان.

وفى عام ٤٥٤ استولى الروم والفرنجة على مصر، وتفشى فيها الطاعون أعواما عشرة بتمامها، وشهدت الفسطاط هذا الخطب، وكى لا يستولى الصليبيين على الفسطاط ثانية قدم (جوهر القائد) وزير المعز لدين الله الفاطمى من المغرب إلى سفح جبل المقطم الذى يبعد عن النيل مسيرة ساعة عام ٣٥٧، وجوهر القائد هذا هو أول من بنى مصر الجديدة، وكان جوهر القائد مملوكا لأبى المعز ولقّبه بأبى الحسن وأصله غلام رومى، ثم رباه الطواشى ( )[1].

وفى عام ٢٧ أصبح جوهر القائد وزيرا للمعز، وفتح مدينة فاس فى المغرب، وتلمسان ومراكش وطنجة والسودان وأسوان والحبشة واستولى على ممالك عشرين ملكا فى اليمن والعراق وفارس والهند والصين، وذلك فى ستة أعوام ثم قفل إلى المغرب، وبعد ذلك هبط مصر عام ٣٥٨ وبنى فيها مدينة القاهرة.

أما سبب تسمية مصر بالقاهرة فجاء فيه عدة روايات والصحيح أنه بينما كان جوهر القائد يرسى أساس مدينة القاهرة علق المنجمون ناقوسا فى حبل وذلك لرصد ساعة السعد حتى إذا رصدوها أرسى العمال ما فى أيديهم من أحجار فى أساسها، إلا أن «العبد يدبر والله يقدر» فجرى قضاء الله بأن يحط غراب على ناقوس المنجمين وحينما نَقَرَ الناقوس ألقى البناؤون أساس مدينة مصر وكان الوقت وقت نحس من أوقات النجم المعروف بالقاهرة أى ما يعرف فى اصطلاح المنجمين بكوكب المريخ، وهو جلاد الفلك، وبذلك لم ينقطع جريان الدماء والحروب والفتن فى القاهرة، وبما أن وضع الأساس لهذه المدينة كان فى طالع القاهرة سميت مدينة مصر بالقاهرة المعزية.

---

(١) بياض فى الأصل.

حكام مصر العتيقة

يحكم مصر القديمة سبعة حكام:

أولهم: بك عظيم من بكوات مصر

وله من الأتباع ثلاثمائة جندى مدججون بالسلاح، ويقيم هذا البك فى قصر عظيم يباشر منه مهام الحكم وله فرقة موسيقى عسكرية (مهتر) تعزف طيلة شهر بتمامه، ويقيم الولائم، وبعد شهر يتولى بك آخر منصبه، وهذا ما نص عليه القانون. وإذا ما سرق شىء من غاد أو رائح فى عهد محافظة بك من هؤلاء البكوات فالمسئولية واقعة عليه وكان لزاما عليه أن يقبض على اللص السارق على أى نحو كان، أو يدفع الغرامة ليعوض بها صاحب المال المسروق.

- و الثانى:

حاكم ينوب عن مولا مصر من قبل حاكم الشرع المبين، وراتبه ١٥٠ أقجه.

- و الثالث:

رئيس البوابين الذى يعين من قبل الباشا ويعاونه ١٠٠ رجل، ولأنه يشغل منصب الناظر أغا لأنبار يوسف يرهب جانبه جميع الكتبة والأمناء والحمالين وحاملى التروس إنه منصب رفيع يشغله من له علم بالكتاب ويعرف بالاستقامة، وإذا ما خامر الشك أحد فى نزاهته صودر ماله.

- و الرابع:

إنه أمين الأنبار وهو مركز مرموق لمماليك مصر، ويعاونه مائة من الأتباع، له الحكم على ألف من خدامه وجميع الفلاحين.

- و الخامس:

وهو جورجى من فرقة الانكشارية، ويحكم بمعاونة أربعين أو أكثر من الأتباع.

- و السادس:

إنه أمين الجمرك، ومهمته تحصيل الرسوم الجمركية على كل ما يطير فى الجو أو يدب على الأرض أو يسبح فى الماء.

وهو صوباشى مصر القديمة، ويقوم بمهام المحافظة على الأمن ليل نهار، ويصحبه ستون من القواسين.

- و الثامن:

وهو جوريجى من طائفة الانكشارية، يقوم بمهمة حفظ الأمن بمعاونة مائتى جندى مدجج بالسلاح. ولهذا الحاكم تكية جميلة على النيل يعجز الوصف عنها، والشمس لا تؤثر فيها فهى تكية فى ظلال أشجار عالية، ويجلب إليها السقاءون الماء من النيل ليل نهار، مما يجعل أرضها رطبة تحمى النفوس.

- و التاسع:

إنه أمين ساقية السلطان الغورى، وهو كذلك من جوريجى الانكشارية، ويقوم على صيانة الساقية مع سبعين أو ثمانين من رجاله، ويروى أرض مصر.

وصف قلعة مصر العتيقة

ذكر فتح المسلمين مصر من أيدى الكفار، وما حدث فيها بعد ذلك من المدن والأمصار.

إن كل ما سجله جميع المؤرخين عن مصر مقصود به مصر القديمة، وبما أنها عمرت ثمانى مرات فإن لها ثمانية أسماء. كان اسمها فى البداية الفسطاط، والاسم الثانى (امسوس)، واسمها الثالث (قصر الشمع) حيث كان لها برج مرتفع به مصباح مطلسم، ومن عهد طوفان نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا موسى والشمع متقد على الدوام، لذا سميت مدينة (قصر الشمع) ولا يزال أساس برجها هذا ظاهر للعيان.

ثم أقيمت مدينة عظيمة خارج مدينة الفسطاط سميت (مقر العسكر)، ولقد عمر هذه المدينة السلطان أبو العون عام ١٣٢، وأبو العون هذا هو ابن عبد الملك. ثم قدم أحمد بن طولون من بغداد عام (   )[١] فزاد فى عمران مصر، وسكن القصر الذى شيده أبو العون، وبنى ابن طولون مدينة جميلة سماها (القطائع)، وكانت تضم مائة ألف دار عظيمة. وكانت هذه المدينة حاضرة ملك أحمد بن طولون، ثم دالت دولة أحمد بن طولون، وتخربت مدينة القطائع وعندئذ قدم جوهر القائد فى جيش عظيم من بلاد

(١) بياض فى الأصل.

المغرب، وعندما بنى مدينة القاهرة كان قد تعاقب على حكم مصر ستة عشر ملكا من مغاربة وعجم، ومنهم من كان يسكن مدينة (مقر العسكر)، ومنهم من كان يسكن أطلال (مدينة القطائع).

وكان أول خلفائهم (محمد بن سليمان)، وكان كاتبا لأحمد بن طولون وعبدا فى ذات الوقت . وكان يلقب بالورد لأنه كان كاتبا للورد. وله فى القاهرة الآن جامع.

وقد انتزع (جوهر القائد) الذى قدم من بلاد المغرب، الملك من محمد بن سليمان هذا والسلطان أحمد آخر سلاطين الإخشيديين، وعندما أحكم قبضته على مصر كان قد مضى على قيام الدولة العباسية مائتان وخمسة وعشرون عاما، تلى ذلك أربعة وثلاثون عاما وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما هى فترة حكم الإخشيديين التى انتهت بحكم أحمد بن على بن (   )[1] الإخشيدى، وكان ذلك عام ٣٥٨.

ويزعم البعض أن ملكا يسمى (إينى ارسلاوش) كان قد أقام قصرا عظيما فى موضع مدينة الفسطاط وكانت الشمس إذا ما انتقلت من برج إلى برج فى غرة كل شهر، أوقدوا النار تلك الليلة فوق هذا القصر، وبذلك كانوا يعرفون انتقال الشمس من برج إلى برج، ولذلك سميت هذه المدينة (أرسلاوش)، ومعناها فى العبرية بيت الشمس. ثم خرب (بخت النصر) هذه المدينة وظلت خمسمائة عام بتمامها خرابا يبابا، حتى ألحقت بمدينة أخرى سميت (مدينة يشكرقود) وهى سوق.

كما بنيت مدينة عظيمة على مقربة منها سموها (حمراى قصوى)، ثم قدم (جوهر القائد) مصر من بلاد المغرب عام ٣٥٨ وهو مملوك للمعز لدين الله الفاطمى وشيد جوهر القائد هذا مصر الجديدة التى سمت (القاهرة المعزية)، وكان أحمد بن طولون قد شيد مدينة جميلة على مقربة من مدينة (   )[2].

وعندما كانت الغلبة لملوك الروم على ملوك القبط حكم مصر (أرجالس بن مقراطيس)، وبنى مدينة فى موضع مدينة الفسطاط (فسطه أرجاليس).

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وعلى حد قول بعض المؤرخين أن من يدعى (حصنى كسرى جوش)، كان من ملوك الفرس المجوس، تولى على مصر بعد (بخت النصر)، بنى مدينة ضمها إلى مصر سميت (قبة الدخان) لأنه أقام فيها معبدا عظيما للنار، وآثار قباب معبد النار هذا ظاهرة خارج مدينة مصر القديمة إلى يومنا هذا، ويسكن حاكم مصر القديمة بالقرب من هذه القبة.

وبنى (اشمون بن قبطيم) مدينة فى سفح جبل المقطم سماها (أوطى طيس)، وفى نواحى الجيزة مدينة تسمى (أتريب) نسبة إلى الملك (أتريب) الذى شيدها.

وبالقرب من مدينة مصر بنى الوزير (جيرون) مدينة (قندومه) للملكة (خروبا)، غير أن حاكما من هؤلاء لم يستطع بسط سيطرته على قلعة مصر القديمة، لأنه منذ عهد عمر بن الخطاب للقبط الذين يسكنون هذه القلعة عهود أمان، لا يستطيع أحد أن يتعرض لها أو يدخلها، إذ إن جميع رهبان القبط يسكنونها وكانت لهم فيها أديرة قديمة ويسكنها ما يقرب من ألف قبطى يقولون إنها مسكننا القديم. وداخل أديرتها دفن قبطيم، وفلبطير، وميخائيل، وميكائيل وطوطيس. وقلعتهم قلعة عتيقة خربة إلا أنهم رمموها وأصلحوها خوفا من عادية اللصوص، صنعوا لها بابا صغيرا منخفضا ينفتح على الجهة الغربية لا يدخل منه الفرس، إنما يدخل منه الحمار والماشى. ومحيط هذه القلعة يبلغ ١٠٠٠ قدم، وهذا الدير دير مرتفع يشبه برجا عظيما ويحيط بهذه القلعة خندق عميق، وهم يطهرونه فى كل عام.

أما البوابون فهم من الرهبان، وليس بينهم أحد سواهم، وكانت هذه القلعة قلعة عظيمة فى الزمان الخالى، وجدرانها وأسوارها ومزاغل برجها ظاهرة إلى يومنا هذا. إلا أن ما يسكنه القبط الآن فهوالقلعة الداخلية وتقع فى الناحية القبلية من المدينة، وجوانبها الأربعة رملة وخرائب لكن ضواحيها فهى مدينة مصر القديمة المعمومة، وكان بها ٢٧٠ محرابا، و١٢ جامعا سلطانيا معمورا، وأعظم هذه الجوامع جامع عظيم كالقلعة يستجاب فيه الدعاء.

جامع عمروبن العاص

سبق وصفه تفصيلا عند وصفنا للجوامع، وليس فى مصر جامع يكبره له أربع منارات فالجوامع الأخرى منها ما له منارة، وما له اثنتان.

جامع السلطان محمد بن قلاوون

يقع بالقرب من ساقية الغورى، إنه جامع عجيب بالقرب من ضفة النيل، ومساحته ١١٠ قدم فى مثلها، بيد أن جانبه القبلى منهدم، وأعمدته ساقطة على الأرض.
وفى الجوانب الأربعة للحرم ٦٨ عمودا، تحمل سقفا عتيقا. وللجامع ثلاثة أبواب، ومنارتان وعلى جانبى باب القبلة تاريخ مسطور بخط تبلغ مساحته قامة إنسان وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر للدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون أعز الله أنصاره بمحمد وآله، وذلك فى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة).

جامع الأمير عابدين

يقع هذا الجامع على مقربة من الجمرك، قبالة (أم القياس)، إنه جامع لطيف على ضفة النيل، له قبة حجرية مستديرة تقوم على أربعة أعمدة. وهو مكشوف الوسط وعليه شبكة. وجدران الجامع من الداخل مكسوة من أولها إلى آخرها بالقيشانى، ومحرابه كذلك يحمل زخارفا من القاشانى، ومنبره من الخشب المزخرف، وعلى باب منبره تاريخ مسطور هو: (سنة ١٠٧٠). ولهذا الجامع منارة عالية تركية الطراز من طبقة واحدة. ونوافذه حديدية القضبان تطل على الطريق العام، إنها نوافذ لا نظير لها فيما جلب من نوافذ اسطنبول.

جامع محمد بن حسين الكوفى (ذو المنارة المائلة)

يقع داخل السوق، تخرب أحد جوانبه، وله منارة عالية مائلة، وقد بنيت هذه المنارة مائلة والله أعلم، إنها منارة غريبة وعجيبة، فهى لا تنهدم قط. وقد كتب على أبواب

جانبه الأيسر آية من آيات الذكر الحكيم هى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [سورة التوبة ١٨]. وكتب بعد هذه الآية (محمد بن حسين الكوفى سنة ستين وسبعمائة).

جامع السلطان چقمق

يقع هذا الجامع داخل سوق أوزون الطويل، ويسمى جامع الحسنات، إنه جامع صغير له ثمانية وثلاثون عمودا منخفضة، تحمل سقفا ذا زخارف.

وعلى جانبى بابه، وداخله على لوح فى منبره تاريخ مسطور هو: (أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الطاهر محمد بن أبى سعيد جقمق عز نصره بمحمد وآله وصحبه أجمعين). ويعلو بابه منارة منخفضة.

جامع الملك الطاهر

يقع على مقربة من جامع السلطان جقمق، وله منارة، وبما أن المصلين فيه قليل بابه مغلق على الدوام، ولذلك لم أدخله.

وعلاوة على هذه الجوامع المذكورة توجد الزوايا.

جامع الشيخ حسن السويدى

حينما كان زاوية تردد عليه كثير من المصلين ولذلك تحول إلى جامع، إنه جامع جميل منور يقع داخل السوق.

وفى مدينة (مصر القديمة) ثلاث مدارس، و٢٠ مكتبًا للصبيان، وخمس تكايا، بيد أنه لا وجود لتكية عظيمة مثل تكية الشيخ (على ياحى) بالقرب من الجمرك، لها أشجار جميز ضخمة، ويزورها العوام والخواص، ولكن لا أوقاف لها.

وفى خمسة مواضع على ضفة النيل تكايا، إلا أنه ليس لهذه التكايا أبنية ولا أوقاف، يؤمها عابرو السبيل والمجاورين للصلاة فى ظلال الشجر، وكأنها رياض من رياض الجنة. وقد أقام بعض فاعلى الخير محاريب وصفات لهذه التكايا، ولها من يقوم على الخدمة فيها.

وفى إحدى هذه التكايا يجمع جورباجية الانكشارية الإتاوات من الغادى والرائح ممن يحملون السلع، إنها دار للمظالم، ليصرف الله شرها فلا نجاة لفقير دون أن يدفع نصف ما يحمله من سلع. وكان هذا المكان هو المكان الذى يحصل فيه فرعون الضرائب لتأمين التجارة فى مصر القديمة. وطالما كان الأقباط يخرجون عن حدود الأدب عند عبورهم من هذا المكان يمضون. إنه مكان له الشهرة فى الآفاق، وهو سيئة من سيئات فرعون التى أغرقت الدنيا بالظلم.

وكان قديما فى هذه المدينة ٧٠٠ حمام، والآن لايوجد إلا حمام واحد فى السوق، وبها الآن كذلك ١١ وكالة، و١٠ مقاه، أما فى مواسم (قطع النيل) فهم يزينون المقاهى المعطلة، ويعقدون فيها مجالس الأنس والغناء، كما أن بها ٣٨٠ حانوتا واسعا وكثير منها مغلق. ولا وجود فيها لسوق الأقمشة.

مخازن الغلال التى بناها يوسف الصديق - عليه السلام -
(انبار يوسف)

تقع عند منتصف المدينة على ضفة النيل، وقد بناها يوسف الصديق عليه السلام.

وقصة يوسف الصديق واردة فى كل كتب التاريخ، إلا أننا فى هذا المقام نجملها إجمالا لأن ذلك من ألزم اللوازم:

لما كان الملك (الريان) ملكا لمصر، وقع يوسف الصديق فى الأسر وبيع فى مصر، فاشتراه عزيز مصر، ولفرط عشق (زليخة) زوجة العزيز له افترت عليه كذبا، فزج به فى غياهب السجن، وطرح فى السجن معه كذلك فتيان، يقول عز من قائل: ﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٣٦]، ففسر يوسف رؤيا أحدهم قائلا: سوف يصلبونك وفى تلك اللحظة جاء السجانون وأخرجوا هذا الفتى من السجن وصلبوه.

وخلاصة القول أنه عندما كان يوسف الصديق حبيسا فى سجنه اشتهر بحسن تأويله للرؤى.

بعد ذلك اتفق أن رأى الملك الريان رؤيا، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]. فأخرجوا يوسف من السجن، وفسر رؤيا الملك الريان قائلا: أيها الملك سيقع فى البلاد قحط عظيم يدوم سبعة أعوام فأطلق الملك سراح يوسف الصديق من سجنه. وبدأ الملك يبنى مخازن الغلال بناء على رأى يوسف إلا أن الملك وافاه الأجل، وجرى قضاء الله بأن تؤول الخلافة إلى يوسف على مر الأيام، فأنشأ هذه المخازن.

وقحطت مصر سبعة أعوام، وقحط مصر على عهد يوسف أمر مشهور، وكان ذلك هو السبب فى بناء مخازن يوسف. وقد تغيرت معالم هذه المخازن لأنها دخلت فى حوزة آلاف الملوك وخرجت منها أما أساس بنائها فى الأصل فكان الأرض، أما الآن فهى قلعتان مربعتان متقابلتان.

إنها مكان غريب وعجيب حقيق بالمشاهد وبتعبير العوام إنه أسطورة.

ويبلغ ارتفاع جدرانها أربعين ذراعا، إنها بناء من الآجر الأحمر كأنه سد الاسكندر، وغطيت بشبكة من الغاب، وإذا ما دخلها أحد أخذه شديد العجب. وبما أنها مكشوفة السطح فإن أسرابا من الحمام واليمام لا حد لها تحط عليها لتلتقط ما فيها من حب ثم تطير أسرابا، ومن عجب أن هذه الطير التى تبلغ مئات الآلاف تلتقط الحب منها ليل نهار إلا أن حبة منها لا تنقص، وذلك بفضل من الله.

حتى إنه قيل ذات مرة إن الغلال تنقص من أجل التقاط الطير تلك حباتها فأقاموا سقوفا لهذه المخازن لستر ما فيها، وفى تلك السنة أصاب مصر قحط شديد أشد كثيرا من القحط الذى أصاب مصر على عهد يوسف ففتحوا المخازن فما بقيت فيها حبة واحدة مما خزنوه، وأصبحت رمادا حالك السواد، وماتت على سقوفها مئات الآلاف من الطير، وكاد أهل مصر يأكل بعضهم بعضا من شدة الجوع فاجتمع العلماء والعارفون بالله وتشاوروا فى الأمر واستقر رأيهم على هدم الأسقف التى أقيمت فوق المخازن، وإلى يومنا هذا وهذه المخازن مكشوفة.

وفى أول العام مضى وزير مصر وفى معيته جميع الأمناء وأغوات الفرق السبع والدفتردار إلى أنبار يوسف (أى مخازن يوسف)، وذلك لمحاسبة أمين المخازن وعندئذ ظهر عجز قدره اثنا عشر ألف أردب كانت قد غرقت فى الماء والتقطتها الطيور فحسبت على المال السلطانى.

وداخل هذه المخازن(   )[1] مائة ألف أردب من القمح، و(   )[2] مائة ألف أردب من البقول و(   )[3] مائة ألف أردب من الشعير، وهذه الغلال ترد من صعيد مصر العالى (أى جرجا)، ولا ترد مصر حبة قمح واحدة من رشيد ودمياط لأن إنتاجها من القمح لا يكفيها لأن محاصيلهم هى القصب والحناء والقطن والكتان والأرز أما الغلال فهى قليلة.

وجملة القول أن مصر أم الدنيا هى ولاة الصعيد العالى، فهى أم مصر التى تطعمها. وهذه الغلال المذكورة محسوبة إلى خزانتين مصريتين لصالح السلطان.

ومخزن يوسف هو أحد مخازن مصر البالغ عددها (   )[4]، وجميع مخازن غلال مكة والمدينة، الدشيشة والمحمدية والمرادية، والخاصكية فى مدينة بولاق، وكتبتها ونظارها وأمناؤها وكيالوها لهم إدارات خاصة بهم. وفى بادئ الأمر كانت إدارات الدشيشة فى يد الأغوات السود، وكانوا نظارها، وقد أخطر الكتخدا إبراهيم باشا السلطان أن أوقافهم تخربت، فصدر فرمان من السلطان بإسناد إدارتها إلى فرقة الانكشارية، وتولى رئيس الانكشارية نظارة هذه المخازن.

وغلال الحرمين اثنان وأربعون ألف أردب، ترد من قرى صعيد مصر العالى بعد أن يحصلها نظار الأوقاف من تلك القرى، ثم تخزن فى مخازن بولاق. ثم يقوم عرب الدشيشة بحملها على عشرة آلاف جمل إلى ميناء السويس حيث توجد سفن المحمدية والمرادية والخاصكية، ويسلمونها بدفتر إلى القباطنة الذين يحمولنها إلى جدة وينبع حيث تسلم لمكة والمدينة، ولا تخزن أى حبة من غلال مكة والمدينة فى أنبار يوسف، فقد كانت فى عصر الشراكسة تخزن فى أنبار يوسف حتى فتح السلطان سليم مصر

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

وعندئذ قال جميع المماليك للسلطان سليم: يا مولانا السلطان لقد امتزجت جرايتنا وأعلافنا بغلال مكة والمدينة، وأصبحنا جزءًا من الوقف، فعدمت البركة أموالنا وأرزاقنا وطعامنا، فنرجو يا مولانا السلطان أن تمنع ذلك . فاستجاب السلطان لرجائهم وأنشأ المخازن سالفة الذكر فى بولاق، وكان هذا منه خيرا عظيما، وهذه المخازن كذلك مكشوفة بلا سقف.

وفى مصر القديمة هذه عدة مئات من مخازن الغلال، وهى شونات خاصة بأعيان وأشراف مصر، وكلها مسقوفة، بيد أنها عديمة البركة. وإذا ما وقع القحط فى مصر لحق الضرر- ولا شك بأصحاب هذه المخازن، وهذا الضرر يصيب أموالهم وأرواحهم وعيالهم.

ولكن الله وهب (أنبار يوسف) بركة الخليل، ففى مصر سبعون طائفة عسكرية، وهى: الانكشارية، والعزب، والمتفرقة، والجاويشية، والمطوعة، والسپاهية، والتوفنكجيان، والجبه جيان، والمدفعية، وطائفة المتقاعدين، والجواليه، والأيتام، والطواشية، والنساء، وطائفة الأئمة والخطباء، والمشايخ، والسادات، والحاصل أن هذه الطوائف السبعين سالفة الذكر تضم سبعة وأربعين ألف وثلاثمائة وسبعين من عبيد السلطان يصرف لهم الجراية والعلف كل عام وكل شهر صباح مساء من أنبار يوسف.

وعلاوة على هؤلاء ففى القاهرة مليون وستمائة ألف نسمة طبق ما سجل ببرام باشا، وهؤلاء كذلك تمس حاجتهم إلى مخازن يوسف، لأن حبة القمح هذه مبذولة للغنى والفقير والشاب والهرم والناس جميعا على اختلاف أجناسهم، وكل من له عقل أرسطو يعجز تمام العجز عن فهم تلك الأسرار وحاروا فيها إلى أن ماتوا. إن نعمة الله مبذولة للخلق، فمخازن يوسف هذه معجزته وهى ممتلئة من خزائن الغيب، يقول عز من قائل: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]. إن هذا هو كلام رب العزة القديم، ورزق العالمين عليه عز شأنه، وهذا شاهد على أن الله يرزق جميع مخلوقاته.

يا من كرمك وهو من خزائن الغيب   طعم منه المجوسى والمسيحى
كيف تحرم الأحباء   وأنت من ترعى جانب الأعداء

وكم فى مصر من عجائب تستحق المشاهدة، ومخازن يوسف إحدى هذه العجائب.

ولقد طال تطوافى فى دولة آل عثمان، إلا أن أربعة أشياء كانت فوق مستوى تفكيرى: أولها الترسانة العامرة فى اسطنبول، ومطبخ آل عثمان، ومصروفات مكة والمدينة والحجيج، ومخازن يوسف الصديق فى مصر، تلك هى الأربعة التى حارت فيها عقول العقلاء.

ذكر سواقى مصر العتيقة

ومما يستحق المشاهدة فى مصر العتيقة ساقية السلطان الغورى الواقعة فى نهاية الجانب الشمالى من تلك المدينة، إنها قلعة حصينة مثمنة الشكل، يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا مكيا وتصعد الخيل والثيران حتى ذروتها فى ارتفاع وإنخفاض وهى ساقية تدور بدواليب فى ثمانى مواضع، وهى تسحب الماء من النيل، ويمضى الماء فى مجار إلى القلعة الداخلية لمصر، ولها أمين قائم على أمرها، وتحت إدارته ٣٦ دولابا ويتبعها ٣٠٠ ثور، و٢٠٠ خادم.

وينفق على هذه الساقية فى العام ١٥٠ كيسا من المال السلطانى. إنه خير عظيم وخدمة جليلة ويجرى ماء النيل إلى القلعة الداخلية من خلال ٣٦٠ قنطرة من هذه السواقى، وبذلك يروى عباد الله فى القلعة ظمأهم ويترحمون على السلطان الغورى ويدعون له بالخير.

ولقد شربت طيلة ثمانى أعوام من الماء العذب الفرات لهذه الساقية، الفاتحة لروحه.

وأتحدث الآن عن الخليج الذى شقه الملك المقوقس أى النيل المبارك الذى يخترق مدينة القاهرة عند قطع النيل أسفل جسر أبى المنجا.

***

الفصل الرابع والأربعين

ذكر قطع النيل الذى يهب مصر الحياة والثراء

إن ما يعرف بـقطع النيل هو أنـه لما كان ماء المطر لا يكفـى أقاليم مصر حسـبما جرى قضاء الله، ولذلك شق كهنة مصر قديما - بفضل من معجزة إدريس وسعة علمه بالهندسة - من النيل تـرعا وخلجانا من المناطق المـرتفعة من النيل المبارك، وبـذلك أجروا ماءه من ولاية إلى ولاية، وبعد أن يروى أراضى مصر بتمامهـا يزرع الناس على الطمى الذى جلبه ماء النيل، ويحصدون المحاصيل بعد سبعين يوما من الزراعة ويقتاتون بها.

وتلك حكـمة الله التى تجرى مـجرى العادة، فالمياه تـفيض فى كل أنحاء الـدنيا فى شهر يوليـو من كل عام أما هذا النيـل المبارك فى يوم (   )[1] من شهر أغسطس الموافق يوم (   )[2] بالتقويم القبطى، ويـسمونه غرة شهر توت، وهى أيام مراسم تقليدية سيـئة حيث يتمنطقون بالزنانيـر ويلبسون ثيابهم المهملة، ويضـرمون النار فيها، ويبتهجون باشتعالها.

وفى تلك الأيام يشاء الله أن ترتفع مياه فيضان النيل، وتسقط النقطة أى يحمر النيل حمرة قـانية ويصبـح وكأنه بحر مـن الحمأ، إلا أنه لا يـفيض دفعة واحـدة وإنما خلال سبعين يوما بتمامها، وبعد ذلك قطع النيل، ويسمون فيضانه قبل سبعين يوما (النقطة).

أوصاف نقطة النيل المبارك

قبل شهر توت القبطى بسبعين يوما ينوب كبير جاويشية الانكشارية عن المحضر أغا فى رعاية أمور الانكشارية، وعندما تقترب أيام النـقطة المذكورة يأذن الباشا للجاويش المذكور فيمضون لتطهـير حوض أم القياس، لأنهم مكلفون بتطهيـر هذا الحوض منذ صدور قانون السلطان سليم. وهم إن لم يطهروا حوض أم القياس لن يعلم مقدار ارتفاع النيل، وكل من فى القاهرة من السقائين الذين يحملون القرب على ظهورهم يجتمعون فى أم القياس ذلك اليوم لكسح حوض أم القـياس. وإذا لم تبق فيه قطرة ماء يدعوا جاويشـية الانكشارية كل يوم فرقـة عسكرية من الـفرق السبع بكـل من فيها من شـيوخ وشباب، وتبسـط الولائم

(١، ٢) بياض فى الأصل.

العظيمة طوال سبعة أيام وسبع ليال، كما يولمون للباشا ولائم عظيمة، وبعد الفراغ من تناول الطعام يخلع الباشا على أغوات الفرق السبع وكبير جاويشية الانكشارية صاحب الوليمة اثنتى عشرة خلعة فاخرة، كما يمنح الباشا خدام كبير الجاويشية مائة قرش، إلا أن جان بولاد زاده لم يكن يخلع على أحد خلعا سوى كبير الجاويشية، ويمنح رئيس الجاويشية كيسا من القروش، وهؤلاء لا يمنحون الباشا فرسا ولا غير ذلك.

ثم يركب الباشا سفينة العقبة، ويمضى بها فى النيل وهو يشاهد ما على ضفتيه إلى أن يصل إلى (القصر العينى)، ثم يأتى بعده جميع الأشراف والأعيان من الانشكارية وجاويشيتهم، ويولم الباشا وليمة عظيمة فى أم القياس، وتقام الولائم كذلك فى أربعين موضعا، وعلى كل وليمة مائتا صحن، وبعد الطعام والدعاء والثناء وإحراق البخور يشربون الأشربة وينصرفون.

وبعد العصر يقدم جميع علماء مصر وصلحائها وأئمتها وخطبائها ومشايخها العظام، وتقام لهم وليمة خاصة يعجز عنها الوصف، لأنه عندما يقدم العلماء يمتلئ جامع أم القياس بالعوام والانشكارية ويطلق عند مجيء كل منهم عيارا ناريا تحية للعلماء، وينال الانكشارية كيسين صدقة من كبير جاويشيتهم، ويمضى قرابة ألفين من الأوداباشية والبكوات إلى حال سبيلهم.

ولكن بما أنها ليلة الجمعة فالعلماء لا ينصرفون قط ويحيون الليلة حتى مطلع الفجر فى قراءة المولد. وأثناء قراءة المولد يقوم كبير الجاويشية بتوزيع الحلوى وإحراق العود، وفى الصباح، وهو صباح يوم الجمعة يبسطون سماطا خفيفا لتناول الفطور، وبعد تناول طعام الفطور يمضى جميع العلماء إلى حافة حوض أم القياس، وهناك يرفع الدعاء الشيخ ابن الرداد شيخ أم القياس، ولأنهم جميعا من المسلمين فليس لأحد ما يشغله فى ذلك اليوم، وتدوم الولائم فى أم القياس وكسح حوضها ثمانية أيام بلياليها، أما كل من يكون فى منصب رئيس الجاويشية فإنه يفلس لأن له ميزانية قدرها عشرة أكياس مصرية، ويكون ذلك مصيبة عليه لأنه فى هذه الولائم طوال ثمانية أيام وثمانى ليال يقوم مائتا طاه بإعداد الطعام، ويقدم ألف خروف وخمسون ألف دجاجة، وخمسون ألف حمامة، وألف ألف رغيف، ومائة ألف كعكة، وهذه النفقات لا يعلم مقدارها إلا الله.

وعندما كان (سليم كتخدا) رئيسا للجاويشية أنفق مثل كل هذه النفقات، لأنه كان يقدم الطعام كل يوم فى مائتى صحن فى حدائق الروضة ومصر العتيقة وأم القياس إلى جماعة الأوداباشية.

وبعد الفراغ من هذه الولائم يرفع الدعاء والثناء، فيتدفق ماء النيل المبارك من جوانب الحوض الأربعة، وحيثما يجرى النيل فإن ماءه يأتى إلى حوض أم القياس. وبعد عشرين يوما من تطهير هذا الحوض مما كان فيه من مياه، يخطرون الباشا بأن النقطة سوف تسقط فى هذه الليلة فيبتهج ابتهاجا لا مزيد عليه فيأمر وكيل الخرج بأن يقيم ولائم عظيمة فى أم القياس يومين وليلتين، ولا يحضر هذه الولائم العلماء والصلحاء والسادات والمشايخ العظام ولا غيرهم من طوائف الجند، بل تقتصر هذه الولائم على ناظر أم القياس، وكتخدا الجاويشية، ورئيس المتفرقة وأغوات الفرق السبع، والترجمان باشى. وبعد الفراغ من تناول الطعام يمضى الجميع، ولا يبقى إلا أغوات الباشا والترجمان باشى لأن الباشا هو صاحب الوليمة إلا أنه لا يحضر، وضيافة ما بعد العصر والصباح يقيمها الترجمان باشى، وفى تلك الليلة يتلى المولد النبوى الشريف وتزين أم القياس بما لا يحصى كثرة من القناديل، والشمع الكافورى، ويحيى العلماء هذه الليلة حتى مطلع الفجر، وفى تلك الليلة يشاء الله أن تسقط النقطة فى النيل، وسقوط النقطة هو أنه بعد تطهير حوض أم القياس يبقى فيه ماء قليل، ثم يظهر ماء كطمى فى حمرة الدم ويسقط، وتتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله، وتتلى آيات الذكر الحكيم طيلة يومين وليلتين ويتلى الختم الشريف مائتى مرة، وعندما تسقط النقطة يجلسون على الجوانب الأربعة للحوض ويفرغون من تلاوة الختم الشريف، ويدعو الشيخ السادات الله ويثنى عليه، ويصبح كمن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، ويقوم وكيل خرج الباشا بنحر مائة أضحية، يوزعها على العلماء، كما يخلع على بعض المشايخ والسادات وشيوخ البكرية ثيابا من الصوف، ويسجل القاضى لحظة سقوط النقطة ويقيدها فى سجل شريف، ويزف البشرى إلى الباشا أحد شيوخ مناديى النيل فينال منه قباء من صوف أبيض، وسبعين أو ثمانين دينارا من ذهب.

وتتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله وشكر نعمته ويمضون جميعا إلى بيوتهم.

مناقب الشيخ السادات

هبط الشيخ السادات مصر قادما من بلاد المغرب عام (   )[1]، وبينما كان منزويا فى خلوته اتفق أن النيل لم يفض فى عام من الأعوام، فعم القحط والغلاء وانزعج أهل مصر أيما انزعاج وبسطوا رجاءهم إلى الشيخ السادات أن يدعو الله لهم، وما أن بسط الشيخ أكف الدعاء حتى فاض النيل الذى لم يفض منذ عام، وكان وفاء النيل ومنذ ذلك الحين يفيض النيل فى هذه الأيام ويفى النيل.

وفى ذلك الوقت دعى السلطان (   )[2] الشيخ السادات إلى وليمة، وملكه نصف مصر، ولذلك يأتى أبناء السادات إلى هذا المكان للدعاء وإقامة الولائم، حقا إنها ذرية عريقة.

ويسكن أم القياس شيوخها، وثلاثمائة من أبناء مناديها. وفى كل ليلة يفيض فيها النيل بأى مقدار يجتمع خدام أم القياس، وشيوخها ويسجلون على طبق من ورق بالزعفران مقدار ما ارتفع من مائه وما يسجلونه هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أدام الله نعمته على سيدنا ومولانا المقام العالى الأعظمى مولانا الوزير كفيل الممالك الشريفة الإسلامية، بالديار المصرية والأقطار الحجازية وما مع ذلك الملك المظفر أعز الله تعالى أنصاره بجاه محمد عليه السلام الفقير إلى الله تعالى أولاد أبى سادات الأمناء على قياس النيل المبارك، يبتهلون إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة، فى صحائف سيدنا ومولانا من يجيب الدعاء سرا وينهون أن الله تعالى زاد فى النيل المبارك يوم الأحد المبارك خامس جمادى الأول سنة سبع وثمانين وألف الموافق الثالث عشر من مسره أربعة أصابع صار ثمانية عشر ذراعا وتسع أصابع أنهى ذلك كذلك اللهم أنعم لنا خيرا).

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

وهذا التقرير يذيل بخاتم شيخ أم القياس وتوقيعه ويرسل إلى الباشا ويدفع عنه القائم بخزانة الباشا دينارا من ذهب عن كل يوم.

وعلى هذا النحو عندما يفيض النيل يومًا بعد يوم عقب سقوط النقطة يعم السرور والبهجة مصر، ويوزع وزير مصر وجميع الأمناء والملتزمين والكاشفين الصدقات والنذور.

ولأن الكثرة الكاثرة من أهل القاهرة أمناء وملتزمون فهم ينتظرون فيضان النيل المبارك، وإذا لم يفض اللهم عافنا وقع القحط والغلاء.

وإذا ما سمع عن ارتفاع منسوب النيل، فلشيخ أم القياس فى الحوض عمود ارتفاعه ثلاثون ذراعا عليها علامات مدرجة بين كل منها نحو أصبع فينظر إليها الشيخ، ويكتب سندا فى كل صباح فيمضى به شيخ طاعن فى السن إلى الباشا، ويدخل حتى حرم الباشا ويدخل عليه فى أى مكان كان فيه قائلا: السلام عليك يا وكيل السلطان الوالى حفظك الله وسلمك زاد النيل المبارك هذه الليلة - بأمر الله بمقدار (   )[1] ذراع، و(   )[2] أصبعا، فينال دينارا من ذهب.

ويحاط الباشا علما على هذا النحو طيلة أربعة وثمانين يوما بالتمام.

وتحت إدارة المنادى الذى يأتى إلى الباشا ثلاثمائة وستون شخصا، وكل منهم يمضى إلى كل حى أو كل حارة وينتشر هؤلاء المنادون فى أرجاء مدينة القاهرة، ولكل منهم منطقة خاصة به لايتجاوزها لأن لكل واحد منهم من كل منزل عوائد يحصل عليها ولذلك لا يتجاوز أى من هؤلاء المنادين وإذا جاء مناد آخر وقع صاحب المنزل فى الحيرة، ولا يعرف لمن يسدد العوائد أو الفوائد، ولتلافى وقوع مثل ذلك يلتزم كل مناد بالمنطقة المحددة له.

وعلى الرغم من أن هؤلاء المنادين من صباح الوجوه مكحولى العيون يحملون عصيا، وإن لم يكونوا طاعنين فى السن إلا أنه يتعين عليهم حتما أن يحملوا عصيا.

ويعاون كل مناد ثلاثة أو أربعة من أبناء العرب صباح الوجوه يلفون الشال متعدد الألوان كالأصفر والأحمر والأخضر حول رقابهم، وعندما يمرون بأى باب يقولون:

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(السلام عليك يا أمير محمود، يا شريف أحمد، يا سيدى على، أو يا أمير الأمراء الكرام) وهكذا ينادون أصحاب البيوت بأسمائهم. وعلى هذا النحو يبلغون الناس بأن ماء النيل المبارك زاد بمقدار ذراع وستة أصابع أو بمقدار ذراعين وثلاثة أصابع أو بأى زيادة أيا كان مقدارها، ويجود عليهم كل شخص قدر مقدرته، وعلى الرغم من أن هؤلاء المنادين يتقاضون دينارا ذهبيا عن كل يوم لكل واحد منهم، يحصلون كذلك الأموال من الناس.

ولشيوخ أم القياس ومناديها الثلاثمائة وستين كشوفية مقدارها (   )[1] باره من المال الأميرى ويسددون الضرائب.

وفى إقليم مصر ٢٧٦ بلدة وميناء، وعندما يتوجه المنادون إلى جميع المدن فى مصر، يستأذن منادى مصر من الباشا ويسدد عوائد الكشوفية ويحمل أوراقه ويمضى من ولاية إلى أخرى، فلا يستطيع أن يخبر الناس بمقدار ما ارتفع من ماء النيل.

وفى مدينة القاهرة ٢٠٦٠ حديقة يبسط هؤلاء المنادون سيطرتهم عليها لأنهم يزفون البشرى كذلك إلى بستانيى النيل، لأن كل البساتين فى حاجة إلى النيل، ولذلك فإن جميع الحدائق والحقول تخضع لنفوذهم. وإذا ما احتاج الباشا وأعيان مصر إلى البنفسج والورد والسنبل والعنب، وما إلى ذلك من الثمار فذلك متوفر لديهم.

وعلى مدار أربعة وثمانين يوما ينادى المنادون عن منسوب النيل. وإذا ما بلغ منسوب النيل عشرين ذراعا يقولون: (استوى الماء والخشب): أى أن ماء النيل أصبح مستواه فى مستوى جسر الخشب الذى يعلو العمود المدرج الموجود فى حوض أم القياس.

وإذا ما بلغ أربعة وعشرين ذراعا نادوا قائلين: (من الجبل إلى الجبل)، والمقصود بذلك أن النيل زاد وأصبح فى مستوى سفح جبال الأهرام فى مدينة الجيزة بغرب القاهرة، وهما جبلان كبيران وجبل صغير من صنع بنى الإنسان، ويسميها الناس الأهرام أما العوام فيسمونها جبل فرعون، وإذا ما ارتفع ماء النيل إلى سفحها قالوا (من الجبل إلى الجبل). أما المصريون فيقولون الحمد لله يكفى يارب يكفى لأنه إذا ما ارتفع ماء النيل بمقدار أربعة وعشرين ذراعا إلى هذه الجبال وزاد عن ذلك بمقدار خمسة وعشرين ذراعا

(١) بياض فى الأصل.

(والعياذ بالله) بلغ ماء النيل إلى عتبة الباب الحديد، وهو باب القلعة، فغرقت القاهرة. وخوفا من ذلك حينما ينادى المنادون قائلين: (من الجبل إلى الجبل) يقول المصريون (يكفى يارب) أى أنهم يخافون الغرق. لأن الملك (سوريد) بنى هذه الأهرام بفضل معجزة إدريس عليه السلام، لأن إدريس عليه السلام عرف بوحى من الله أن النيل المبارك سوف يغرق مصر، ولذلك أشار على الملك سوريد ببناء هذه الأهرام، وجعل لها طلاسم، ولذا يبلغ ماء النيل سفح هذه الجبال فى بعض الأعوام.

أما إذا ما اقتربت أشراط الساعة يأتى ملك بنسف هذه الجبال بالبارود الأسود وعندما تنهدم يكون خراب التاسع أى خراب بخت نصر التاسع أما الخراب العاشر فهو حتما إذا زال أثر هذه الطلاسم وزوال الأهرام وبذلك يخرب النيل مصر لا مفر من ذلك، ويخرب نهرنا بالشام ونهر شط العرب ببغداد.

وإذا ما بلغ النيل ستة عشر ذراعا فإنه يتعين تحصيل الخراج السلطانى. إلا أن الأمناء والملتزمين والكاشفين يفلسون وإذا ما ارتفع عن ثمانية عشرة ذراعا اغتنى كل الملتزمين والكاشفين.

أما إذا ارتفع إلى عشرين ذراعا لا تبقى فى مصر أرض بور وتروى جميع الأراضى أى لا يبقى فى مصر أرض قاحلة.

أما إذا غمر النيل أرضها بأكثر من هذا المنسوب لحق بمصر الضرر.

أما إذا بلغ النيل خمسة عشر ذراعا والعياذ بالله وقع الضرر كذلك، فلا يمكن تحصيل خراج السلطان ولا مال الأمناء والكاشفين. وتتعالى الأصوات مطالبة بعزل الباشا بدعوى أنه مشئوم ويحبس فى جوسق يوسف ويعرض جميع الجند مسألة عزله على الأستانة ويظل الباشا حبيسا إلى أن يأتى وزير آخر ويتولى مهامه أحد البكوات بصفة مؤقتة. ويلقى بالملتزمين والأمناء والكاشفين فيما يسمى بالأرق خانه أى - السجن ويعذبون ويعلقون فى البكرات وتصادر أموالهم وتباع ويحصل المال السلطانى بتمامه غير منقوص ثم يطلق سراحهم.

وإذا ما فاض النيل بادر جميع المحتكرين والأثرياء بإخراج ما فى مخازنهم من غلال عن طيب خاطـر، لذا يعم الرخاء مصر ويصبـح سعر أربعة أوقيات من الخبز الـعثمانى باره واحدة.

قصة فيضان النيل

إن فيضان النيل لحكمة عجيبة، لأنه قد يفيض سنة ولا يفيض أخرى. ولكن المشاهد أنه يفيض فى غرة شهـر توت القبطى، غير أن قلة مائه أو وفرته فـليس لها ثبات، إذ إن ذلك فى يد البارى عز شأنه. وهذه الكرامات العلية بقيت من سيدنا عمر رضى الله عنه كما يقال .

ففى خلافة الفاروق عـمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه فى الـعام الحادى والعشرين للهجرة الـنبوية الشريفة فـى العام الذى فتحت فيـه مصر على يد عمرو بـن العاص لم يفض النيل على ما هو معهود. فقال له أهل مصر:

كان لنا دأبا جرينا عـليه منذ القدم أنه قبل فيضان النيل بـيوم واحد فى كل عام نزين فتاة حسناء كأنها الـشمس فى حسنها ونحليها من ياقوت أحـمر ونفيس الجواهر، ونعد مئـات القنـاطير مـن رؤوس السكـر، وعدة آلاف أردب من الـغلال وآلاف الزعـفران والكعك ونطرح هذا كله فـى النيل مع الفتاة، فكانت النقطة تسـقط صباح اليوم التالى ويبدأ النيل يفيض.

فرد عليهم عمرو بن العاص قائلا:

حاشا لله هذا من طقـوس الكفرة، وليس فى ديننا أن نسفك الدمـاء بغير حق ونبدد نعمة الله على هذا النحو من أجل فيضان النيل.

ومضى على ذلـك أربعون يوما ولـم يفض النيـل وانتشر القيل والقال فـى البلاد التى فتحت لتوها، وتردد على ألسنة الناس أن مقدم العرب كان شؤما عظيما عليهم، واحتجز المحتكرون الغلال فى مخازنهم وأفضى ذلك إلى تفشى القحط والغلاء فى مصر.

وفى الـنهاية أرسل عمرو بـن العاص رسولا إلى عمـر بن الخطاب رضى اللـه عنه يخبره بأمر الفتاة التى تطرح فى النيل على وجه التفصيل. ولما بلغ هذا الرسول مكة بعد

عشرة أيام أبلغ عمر بما جاء فى رسالة عمرو بن العاص. وأدرك عمر ما جاء فى تلك الرسالة، وعندئذ كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بأن يبطل هذه العادة من عادات الكفرة. ويقول له إذا ما استطعت أن تمنع طرح الفتاة فى النيل فاطرح رسالتى تلك فيه وكان نص هذه الرسالة هو:

(من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر، يا نيل إن كنت تجرى بحولك وقوتك فلا حاجة لنا بك. وإن كنت تجرى بأمر الله وبقدرته فاجر صاعدا).

وأعقب عمر كلامه هذا بقوله عز من قائل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وبلغت هذه الرقعة عمرو بن العاص بعد عشرة أيام. بيد أن الناس كان قد دب فيهم دبيب اليأس وحمل كثرة منهم عصاهم على كاهلهم ورحلوا عن مصر. وما أن وصلت رسالة عمر بن الخطاب حتى تلاها عمرو بن العاص ومضى فى نفر من أعيان مصر إلى الموضع المسمى الآن بأم القياس، ونقلوا إلى النيل تحية عمر وألقوا رسالته فى مائه.

وعندما سقطت الرسالة فى النيل المبارك جاش ماؤه كأنه البحر الطامى. وفاض النيل الذى لم يفض منذ ستين يوما وزادت مياهه بمقدار الزيادة فى أربعين يوما وذلك ببركة رسالة عمر وما فيها من آيات الذكر الحكيم فابتهج أهل مصر واستبشروا.

ولله الحمد منذ ذلك اليوم لم يخلف النيل ميعادا وتسقط نقطته ما فى ذلك شك.

ونذكر الآن حوض سقوط النقطة وأم القياس وبانيها وأشكال مبانيها:

اوصاف جزيرة روضة أم القياس

تلك البقعة المواجهة لمصر العتيقة تسمى «الروضة». وفى الجهة الجنوبية لهذه الجزيرة قصور عالية وعدة قاعات وحجرات متنوعة ومخزن للأطعمة ومطبخ ومائتا منزل لمناديى شيخ أم القياس.

وفى أحد أركان هذه الجزيرة جامع السلطان قايتباى العلوى، القائم على أربعين عمودا من الرخام، وهو جامع له منارة منخفضة من طبقة واحدة وحرمه شديد الإتساع.

إنه قصر عـال تجرى عليه الأوصاف السالـف ذكرها وحرمه الخارجى ساحـة وسيعة تحيط بها أشجار الجميز وافرة الظل. وهو موضع نزه.

أول من بنى أم القياس:

وأول من ابتنى أم القيـاس كاهن فى عهد القبط يسمى «قليـمون الحكيم» وكان ذلك بعد طوفان نوح علـيه السلام. وجاء بعد ذلك كاهن آخر يسمى «حـصليم» وكان فريد دهره فى علم الهندسـة وقد اخترع آلات مختلفة للمقياس، وهـو الذى جعل أم القياس على شكلها الحالى، وكان له فضل التجديـد. كما أنه شق جميع خلجان مصر وترعها بعلمه وحكمته. وبذلك أجرى ماء النيل من ولاية إلى ولاية.

وبمرور الأيام لحق الخراب بأم الـقياس. وفى عام ١٩٨ قدم مصر الخليـفة المأمون من بغداد وأخرج ما أخرجه من كنوز وكتب مـن جبال الأهرام، وبهذا المال الذى استخرجه رسم أم القياس وجددها.

وفى عام ٧٨٥ فى خلافة المتوكل على الله محمد بـن المعتضد بالله أبو بكر العباسى أمر نائبه السلطان برقوق بأن يضم إلى أم القياس بعض الأبنية.

ولم يدم البقاء للخليفة المأمون فى مصر، وتوجه لمحاربة قياصرة أنطاكية- بما أخرجه من جبال الأهرام من مال - وغلب على ديارهم، فـهجر الأديرة كل من فيها من كفار، وتبدلوا من القرار بالفرار، وضرب حصاره على قلعة طرسوس فملكها ولما بلغ المأمـون الثامنة والأربـعين من عمره قتله أخـوه، ودفن عام ١٩٩ فى ركن مظلم فـى نعش مـن الرخـام بالقرب مـن جامـع النور فى طرسوس وقد تأتى لى زيارته والتأكد من تاريخه.

وللمأمون فى مصر علاوة على أم القياس الكثير من المؤسسات الخيرية.

أوصاف حوض أم القياس

إن «أم القياس» خطأ صحته فى اللغة العربية «المقياس» أى مقياس الماء. والحوض هو التعبير الأصح. إلا أنهم يقولون «أم القياس» وهذا خطأ شائع.

وحوض المقياس يقع فى أحد أركان الحرم الموجود أسفل قصر الخليفة المأمون فى طرف جزيرة الروضة. وهو عبارة عن قبة ذات زخارف تقوم على ثمانية أعمدة من الرخام وتحت هذه القبة حوض عظيم مربع الشكل من الرخام الأبيض الخالص، وعلى جوانبه الأربعة سلم من ثمانين درجة، ويبلغ عمق هذا الحوض ثلاثين ذراعا بالتمام.

ويطهره الإنكشارية مرة فى العام ويستغرق ذلك منهم أسبوعا على نحو ما سبق ذكره. ويتوسط هذا الحوض «شيتخانه» تقع فى نهاية عمود من الرخام يبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين ذراعا، ولكى يبقى هذا العمود ثابتا لا يميل يمينا ولا يسارا ثبت على جسر من الخشب. وهذا الجشر الخشبى مقام بين طرفى الحوض وهذا الجسر الخشبى هو ما يقال عنه «استوى الماء والخشبة».

وبارتفاع خمسة وعشرين ذراعا من هذا العمود حتى «الشيخانة» فى ذروته علامات عشرية بحساب الأصابع. وهذا الحساب مضرب مثل فى مصر، فهم يقولون «حاسبنى بحساب الأصابع». وقد قرض بعد الشعراء أبيانا فى هذا الحساب فقال:

انتظر الأطفال الهلال انتظار جبريل فما أكثر ما تحسب أم القياس بالأصابع

ويعلم من حساب الأصابع هذا مقدار ما يفيض من ماء النيل فى اليوم، فكل علامة تساوى أصبعا، هكذا صنعها المهندس ( )[1].

وكى ما تحسب هذه العلامات أنشئ سلم من الرخام داخل الحوض وهذا السلم يهبط إلى قاعه بطول ثمانية وأربعين قدما. وكل صباح يهبط شيخ المقياس هذا السلم ويتبين من العلامات الموجودة على العمود الرخامى مقدار الماء الذى جاء به النيل البارحة. ويقوم بتسجيل مقدار ما بلغ النيل من زيادة بالزعفران على رقعة فى حجم الكف ويخطر الباشا بذلك.

وعلى حافة الحوض تاريخ بخط كوفى ذهبى على لوح من الرخام، وشاهد هذا التاريخ كثرة من الرحالة العرب إلا أن أحداً منهم لم يستطع قراءته، إنه تاريخ المأمون والله أعلم، فعلى حافة الجسر الخشبى الذى يثبت عليه العمود كتب آية الكرسى بخط

(١) بياض فى الأصل.

مذهب وفى نـهاية هذه الآية تاريخ هو: (وذلـك فى جمادى الآخر سنة سبـع وأربعين ومائتين)

وفى رأس عمود الرخام خلية مغطاة بالذهب، والتاريخ المنقوش بالذهب على الرخام عند حافة الحوض هو:

(لمولانا المـلك عز نصـره سلطان محـمد خان بن إبراهـيم خان دام منـصورا وعاش وللمقياس قد أرخت أحيا بتجديد الوالى إبراهيم باشا يسر الله ما يشاء شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٠).

وعلى حافة حوض أم القياس ثـمانية أعمدة من الرخام تعلوها قبة مُقـرنصة مختلفة الألوان غايـة فى الجمال والروعة، وعـلى إطارات هذه الأعمـدة المذكورة على خلـفية لازوردية كتب بخط جلى آيات قرآنية من سـورة الروم وهى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]. إلى آخر الآية وبعد ذلك كتب:

(بتجديد ملوك سلاطين المصرية الملك الأشرف الظاهر بيبرس الصالحى).

ويعلو هذا النص على حافة القبة قوله عز من قائل:

بسم الـله الرحمن الـرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ [الزمر: ٢١]. إلى آخر الآيات الكريمة وكتب بعد ذلك:

(مالك ممالك رقاب الأمم مولانا ملك ملوك العرب والعجم، سلطان سلاطين العرب والعجم صاحب العراقـين وديار الديلم واليمن السلطان مراد خان خـلد الله ملكه وآله وصحبه وسلم بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وسبعمائة).

وفوقه وسط القبة كتب بخط جلى قوله تعالى:

بسم الـله الرحمن الـرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]. إلى آخر الآية.

ووسط القبة كتب آية من سورة الإسراء وهى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

ويحيط بهذا الحوض زاوية تقام فيها صلاة الجمعة، وفى أحد أركانها محراب، كتب عليه بخط جلى مذهب قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ [الحج: ٦٣] إلى آخر الآية. وبعد ذلك كتب: (إنشاء هذا الجامع المبارك فى زمان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان سليمان خان بن سليم خان أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو بناء أمير الأمراء المصرية داود باشا جعل اللهم من الفائزين مسجدا سنة أربعة وخمسين وتسعمائة).

وعلى جدار قبلة هذا المحراب كتب على يسرة وجهة الداخلى على لوح مربع من الرخام بخط كوفى دقيق قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. وبعد هذه الآية كتب قوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، وبعد هذه الآية كتب: (بانشاء هذا الجامع قبلة المسلمين).

إنه موضع يستجاب فيه الدعاء. ولأن هذه القبة من الخشب المزخرف حولها شبكة من نحاس، وحول الحوض درابيزين من الخشب، ولا يجرؤ أى إنسان على النظر إلى قاعه. والسلام.

وخارج هذا الحوض قاعة واسعة، وفى جوانبها الأربعة كوات مطلة على النيل، ويصعد إلى قمة هذه القاعة بسلم حجرى من أربعين درجة.

وثمة قصر كأنه الخورنق، وكان موضع نزه لسلاطين مصر قاطبة، ويأتى إليه الآن وزراء مصر من وقت إلى آخر طلبا للراحة والاستجمام.

حادثة السلطان سليم الأول فى قصر ام القياس

اتفق فات ليلة أن كان السلطان سليم فاتح مصر نائما فى ذلك القصر، وقدم فدائى من قبل الشراكسة بيَّت النيَّة على اغتياله، فاقترب من المقياس وتسلق سارية القارب إلى قبة القصر، ثم هبط إلى مخدع السلطان سليم، وفيما كان يسل هذا الفدائى سيفه أيقظ النبى ﷺ سليما من نومه، فطرح هذا الفدائى نفسه من أعلى القصر الشامخ وكأنه

المنارة فى الماء ونجى بنفسه. فألقى سليم باللائمة على الخواص من خدمه إلا أنه تجاوز عن خطاهم ونصبهم جميعا بكوات فى مصر، وأمر بإحضار هذا الفدائى وله منه الأمان واصطحبه معه إلى اسطنبول وأكرمه وأعزه كما سلف أن ذكرنا.

وقصر أم القياس قصر شامخ، وكواته فى جهاته الأربع، وقبة سوره مكسوة بالجص.

وصف جزيرة الروضة

أو جزيرة أم القياس

جزيرة تقع فى النيل، وهو يتبع من جهة الجيزة ويضيق من جهة مصر العتيقة حول هذه الجزيرة، وكان النيل يجف فى بعض الأحايين فيعبر الناس إلى هذه الجزيرة مشيا بينما لا تستطيع أن تنفذ إليها السفن المحملة بالغلال.

وفى عام ١٠٨٦ أنفق جان بولاد زاده حسين باشا مائتى ألف كيس مصرى، وفى أشهر ثلاثة جمع خمسين الف رجل، وعدة آلاف من ثيران الجرف، وطهروا الطريق أمام أنبار يوسف وأجرى ماء النيل إلى تلك الجهة فأصبحت جزيرة الروضة جزيرة عظيمة.

وقد شيد الملك الصالح نجم الدين قلعة شامخة على طول جوانب هذه الجزيرة الأربعة والآن يبدو بروجها بمزاغلها فى الجهة المطلة على الجيزة. إنها قلعة محكمة وسد ركين، وحصن حصين، وقد بقيت هذه القلعة مئات السنين فما نال منها الخراب.

والمسافة من ركن أم القياس إلى بولاق والتى تبلغ مسيرة ساعة ونصف كأنها الجنة وهى خاصة بالسلاطين وجوها لطيف إلى حد جد بعيد. وهى خالية من الأفاعى والحيات والحشرات، وإنها جزيرة مطلسمة. ونفح أزهار ليمونها ونارنجها يصل إلى مسيرة ساعة وشذاها فاغم.

وفى هذه الجزيرة مائة وستون بستانا وحقلا خاصة بأعيان مصر، ولهم فى هذه البساتين عدة قصور عالية وعرائش وقاعات وأحواض وشادروانات وحمامات. ومن لم

يجد له مسكنا وجد له فى هذه الجزيرة مسكنا. وبها الآن سبعة قصور، وثلاثة جوامع أحداها من أوقاف السلطان المؤيد.

ويجدر بها أن تسمى «روضة من رياض الجنة» وبساتينها ورياضها عامرة إلى الآن. ولم يرد فى كتب التاريخ أنها كانت عامرة.

وجملة القول أنها حديقة «إرم ذات العماد» فى مصر، وإذا قيل إنها روضة من رياض الجنة فحق يجدر بالذكر.

وإذا نزل بها عليل ضيفا ليلة واحدة برأ من علته وامتلأ عافية.

***

الفصل الخامس والأربعون

وصف الموكب الثانى لقطع النيل

عندما تسقط النقطة فى يوم (   )[1] توت من شهر يوليو يُذكِّر الباشا كتخدا جاويشيته ورئيس فرقة المتفرقة والترجمان أغا، وأغوات الفرق السبع وسائر رجال الأعمال قائلا: إننا بإذن الله سوف نقطع النيل بعد أربعة وثمانين يوما فلتعدوا العدة لذلك يا أعيان مصر حسب القانون القديم، وليكن احتفالا عظيما بهيجا.

وكان ذلك جديرا بأن يدخل السرور فى نفوس أهل مصر جميعا. وجرت العادة بأن يستأجروا المنازل فى مصر العتيقة بمائة قرش أو مائتين أو خمسمائة. كما يستأجرون مقدمًا عدة آلاف من السفن الضخمة من بولاق ورشيد وجرجا بمائة أو مائتى قرش.

ويشرع الناس جميعا يزينون سفنهم وبيوتهم بالقناديل، ويزخرفون مجالسهم وكواتهم، ويطلون جدرانهم وأبوابهم بالجص الأبيض، وبذلك يجعلون من مصر العتيقة أم الدنيا عروسا فى ليلة عرسها.

ويجهز الأمناء والملتزمون والكاشفون وأمراء اللواء وبكوات مصر وجميع الأعيان - طبق ما جرى من عادات - هداياهم التى سيقدمونا إلى الباشا.

ويعهد إلى أحد أغوات الباشا بتطهير موضع قطع النيل ويتسلم عشرة أكياس للإنفاق على خمسة أو عشرة آلاف أجير وثيرانهم طيلة خمسين يوما حتى يتم تطهير الخليج، ويدفعون للأغا الذى يقوم بهذه المهمة عشرة آلاف باره، كما يتحصل له كيسان من القرى وأصحاب البيوت جميعا، ويتحصل لكتخدا الباشا كيسان، وللباشا .

وفى عهد الملك «خصليم» أحد ملوك القبط كانت مياه هذا الخليج تجرى صيفا وشتاء، وكان المصريون جميعا يروون ظمأهم منها، وكانت أرضية هذا الخليج مرصوفة من أولها إلى آخرها بالرخام، وعلى مر الأيام غطاها الطين والغبار، وأصبحت تجف ستة أشهر، ثم تجرى فيها المياه ستة أشهر أخرى بعد قطع النيل.

(١) بياض فى الأصل.

ويمنح الأغا القائم على تطهير هذا الخليج عشرة آلاف بارة، وعند إنجاز مهمته يقيد ذلك فى سجلات محكمة باب النصر، ويتسلم الأغا المذكور الحجة الشرعية فيحملها إلى الباشا.

ثم يلتفت إلى إعداد وتنظيم مواكب «قطع النيل». وفى تلك الأثناء يبلغ منسوب النيل ستة عشر ذراعا أو سبعة عشر ذراعا.

وفى الموضع الذى يقطع النيل فيه يقع جسر يسمى «جسر أبى المنجا»، ولكى لا يجرى النيل من تحت هذا الجسر يعهد إلى الأغا القائم على تطهير الخليج بإقامة سد من التراب أسفل هذا الجسر، ويجهز فوق هذا السد الترابى قارب عظيم مزين لصوباشى المدينة، ويكوم الأغا المحتسب فى هذا المكان ألفى رأس من السكر، وألفى قطعة من الحلوى، وعدة آلاف الأرطال من الفاكهة، وسبعين أو ثمانين حمل جمل من الخبز الأبيض الفاخر وصنوف من المأكولات والمشروبات علمها عند ربى. ويجهز الأغا المحتسب كل ذلك من صلب مال الباشا.

ويقوم الصوباشى فى ستمائة أو أكثر من رجاله بحراسة هذه المأكولات والمشروبات. ومن موضع قطع النيل إلى بولاق مسيرة ساعة وتجاه هذه المسافة جزيرة الروضة تقطع فى ساعة كذلك، وعلى هذين الجانبين على ساحل النيل لا وجود لمكان متروك.

وتغص هاتان الضفتان بالخيام والسرادقات والمظلات والمطابخ ومخازن الطعام، وهاتان الضفتان كأنهما خضم من البشر، وهم يحجزون أماكنهم قبل قطع النيل بخمسة أو ستة أيام.

وفى سبتية مدينة بولاق تزين سفن كتخدا الباشا وسفن رئيس الديوان و(شهر حواله) وكتخدا البوابين وأغا الرسالة وأمين الجمرك، وأمين الأنبار وناظرها، وقوارب عشرين من أمراء مصر وقوارب أغوات الأوجاقات السبع، وقوارب أمراء الجراكسة، وقوارب قاضى العسكر ونقيب الأشراف والروزنامجى والدفتردار والقبودان. والحاصل أن آلافًا مؤلفة من سفن وقوارب أعيان مصر وأشرافها تزين بأجمل زينة من ذهب وحرير كما تزين بالأعلام المزركشة ذوات الألوان بحيث لا يخلو قارب من زينة فى هذه المناسبة،

كما تزين جميع هذه القوارب فى داخلها وخارجها بأنواع الأسلحة وكأنها هيأت للحرب، وتزدحم هذه السفن المزينة على صفحة ماء النيل من قصر السبتية حتى أثر قدم النبى مرورا ببولاق وقصر العينى ومصر القديمة بمسيرة ثلاث ساعات فتصبح صفحة ماء النيل وكأنها بستان سفن من حمر الأزهار، وتتقارب هذه السفن بحيث يمكن لأى شخص أن ينتقل من قاربه إلى القارب المواجه له، فالقوارب تزدحم إلى هذا الحد البعيد.

ويعلم الباشا أن أهل مصر جميعا على أهبة الاستعداد لقطع النيل، وتبدأ المواكب فى التحرك.

وصف موكب قطع النيل

ويدخل هذا الموكب مصر كدخول موكب الباشا الذى سبق الحديث عنه، غير أن هذا الموكب يضم العلماء والصلحاء والأشراف والطواشية.

وقبل تحرك الموكب بيومين تغلق الحوانيت ويصطف أصحابها من أعيان مصر وأشرافها ورجالها ونساؤها وشيوخها وشبابها على الطريق من القطعة الداخلية إلى بولاق بمسيرة ساعتين وكأنهم بحر من البشر فى انتظار مقدم الباشا.

ويتقدم الصوباشى الموكب فى مائتين من رجاله يحملون العصى، وعشرة من الجلادين لتمهيد الطريق، ويتجاوزون المزدحمين ويمر خلفهم أفواج وأفواج من الأئمة والخطباء يتلوهم شيوخ ثلاثمائة وستين طريقة، وهم يقرعون الطبول ويبتهلون.

وبعدهم يمر عدة آلاف من المشايخ الكرام ثم أفواج وأفواج من علماء المذاهب الأربعة وهم فى أبهى حلة.

ثم يعبر بعدهم رجال الدين الذين يعرف الواحد منهم «بالمولا» والبالغ عددهم مائتين وستين وهم يتقاضون خمسمائة أقجة لكل منهم إعانة من المولوية. وهم يمرون وعليهم ثياب من حرير متحارين، ثم يمر شيوخ الإفتاء من الشافعية والمالكية والحنبلية وشيخ الإسلام الإمام الأعظم «مصطفى أفندى البولوى» مع قاضى العسكر وبعدهم السادات الكرام وعددهم فى مصر ستة وأربعون ألفا، وهم على خيولهم المطهمة، وفى نهاية

صفوفهم يجئ نقيب الأشراف برهان الدين أفندى حاملا علم النبى ﷺ وهو يلوح بالسلام فى أدب ووقار.

ثم موكب الشاويشية وعلى رءوسهم المجوزات يمرون على جياد بيض متوازية وعليهم حمر السراويل، وعلى أيديهم شهب الصقور. وبعدهم موكب الكوكليان أى المطوعة يحملون أعلام فرقتهم بجيادهم المتحازية يقرعون الطبول، وعليهم حمر السراويل.

ثم موكب التوفنكجيان أى حملة البنادق، وهم كذلك يحملون أعلامهم وعليهم حمر السراويل، ويركبون خيولهم متحازين ويقرع رؤساؤهم الطبول وقد بسطوا أعلامهم ولبسوا قلانسهم.

ويتولهم موكب مشاة المتفرقة، وقد لبسوا فرو السمور ويمضون فى صحبة رؤسائهم فى جماعات تتألف من خمسة أو عشرة قارعين الطبول.

ثم موكب الجراكسة وهم كذلك يحملون أعلامهم الحمر وفى أثرهم صبيانهم مثنى مثنى يمرون من رؤسائهم قارعين الطبول. ثم يمر موكب بكوات الجراكسة وهم أربعون أو خمسون فى عظمة وأبهة وكأنهم أمراء مصر، ولا يحملون طبولا.

ثم موكب العزب، وهم خمسة آلاف من الجند المشاة أما فى موكب قطع النيل هذا يمر منهم عشرة آلاف من فتيان طائفة، «الداليان» مثنى مثنى وفى خصورهم السيوف. ثم يأتى بعدهم موكب الإنكشارية وهم ثمانية آلاف أما فى ذلك اليوم فيمر منهم عشرون ألفا يحملون البنادق، وعلى رءوسهم قلانس من جلد النمر، ثم موكب أغوات الباشا ويتقدم موكبهم مائتا شاب مثنى مثنى يمتطون صهوة جيادهم حاملين أسلحتهم ويتلوهم موكب جند الكوكليان أى المطوعة وهم أربعمائة على رءوسهم القلانس من جلد النمر والتيجان، وخلفهم موكب الدلاة وهم يلبسون جلد النمر وعلى رووسهم القلانس وتيجان فرو النمور المزدانة بريش الصقور، وبعد ذلك يمر موكب المتهرخانة وفى أيديهم الحراب، ثم موكب الجاشنكيران وهم يمرون على صهوة جيادهم حاملين أعلام السباهية، ثم موكب «طشره كلارجيان» أى القائمين على المخارن الخارجية للطعام

وهؤلاء كذلك يمرون رافعين أعلامهم، ثم موكب غلمان صراجى القصر، وهم كذلك مدججون بالسلاح يركبون جيادهم المطهمة وفى أيديهم الأعلام المرفوعة، وبعد ذلك موكب مشاة المتفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الأعلام، وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا وهم يمرون وعلى رءوسهم القلانس رافعين صفر الأعلام، إنهم أغوات كمل، ثم موكب رئيس البوابين وعليهم كذلك قباء السمور، وفى أثرهم عشرون أو ثلاثون يحملون الحراب ورءوس النمور.

موكب أمراء مصر

وهؤلاء جميعا يلبسون قباء من فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم المسماة «بالبريشانى» وأمامهم، ويتقدمهم أربعة من شطارهم وعليهم بيض العمائم وحرير الخلع، وفى أيديهم الطير، وبجانب البكوات أربعون أو خمسون من قواسيهم، وخلفهم مائة أو مائة وخمسون من أغوات القصور فى ثيابهم المزركشة وكل منهم مدجج بالسلاح.

وصف قطع النيل

وفى هذا الموضع احتشد السادات والشيوخ وأصحاب الحاجات وبسطوا أكف الضراعة ودعوا الله ومسحو وجوههم بأيديهم. وفى (   )[1] من شهر يوليو أول توت ركب الصوباشى قاربه الذى أعد فوق السد الترابى الواقع أمام فم الخليج، وفى التو قام عدة آلاف من المصريين - وقد تجردوا من ثيابهم- بهدم السد الترابى، فانساب النيل الدفين كالبحر الخضم بعد أن وجد له طريقا، وعند مرور مائه من داخل الخليج صدر منه صوت كهزيم الرعد وعندئذ ارتفعت أصوات المشايخ بقراءة الفاتحة، ثم أعقب ذلك إطلاق البنادق والمدافع من جميع القوارب فارتفعت الضوضاء والضجيج، ومضى الصوباشى بقاربه، ودخل مصر وكأنه السهم المنطلق من قوسه، ونحر مائتى خروف وخمسين جملا هى التى أعدها المحتسب من قبل على ضفة النيل، فتخاطفها المصريون صائحين، وقام المحتسب ووكيل خرج الباشا بطرح ما سبق ذكره من ألفى رأس سكر

(١) بياض فى الأصل.

وألف صندوق من الحلوى وآلاف الأرطال من الفاكهة، وثمانين جمل بعير من الخبز وخمسين قنطارا من البقسماط فى مياه النيل.

إن هذا والعظمة لله مشهد من مشاهد يوم الحشر. وقام عدة آلاف من المصريين بطرح أنفسهم فى النيل وراء هذه المأكولات فارتطموا ببعضهم البعض بفعل أمواج النيل، ولم يضع شئ مما طرح فى النيل وأخرجوه كله ناحية ساحل النيل، ولله الحمد لم يلحق الأذى بأحد منهم.

وفى ذلك اليوم رأيت الكثير من العراة وخيِّل إلىَّ أن إسرافيل قد نفخ فى الصور، وخرجوا من قبورهم.

وإن إلقاء مثل هذه النعم والأطعمة فى النيل فى يوم قطع النيل هذا يذكرنا بطرح فتاة فى النيل فى عهد الجاهلية.

وقطع النيل وجرت مياهه من هذا الخليج حتى وصلت وسط القاهرة، وروت ولايات قليوب والمنصورة والشرقية، وزرع الرعايا والبرايا وعم الخير والسلام.

وما يسمى قطع النيل فى مصر يجرى على هذا النحو، وهذا ما لا وجود له فى أى بلد على وجه الأرض. إنه مشهد يشتاق إلى رؤيته الملوك إنه مذكور فى جميع التواريخ.

وفى هذا الاحتفال شاهد الباشا هذه العجائب والغرائب، وخلع خلعا فاخرة على الأغا الذى قام بتطهير الخليج، وأمين الساقية والصوباشى والمحتسب أغا، ووكيل خرجه وأمر برفع مرساة قاربه، وعبر عن امتنانه، وألقى السلم على جانبيه حتى رست سفينته عند قصر أم القياس، وخرج مع جميع الجند والأعيان وأمراء مصر خارج السفينة وأدوا صلاة الظهر وسجدوا سجدة الشكر لقطع النيل، وأكثر الجميع من الحمد والثناء، ثم ضيف الباشا جميع أعيان مصر ومد سماطا عظيما يعجز عنه الوصف وهنا دعى أغا الإنكشارية الباشا إلى وليمة عند أثر قدم النبى ﷺ، ولبى الباشا الدعوة ثم أذن الباشا بالإنصراف لجميع أعضاء الديوان والعلماء والأشراف بعد أن فرغوا من تناول الطعام وعاد كل إلى إدارته.

وفى تلك الليلة نعم الباشا بالراحة والاستجمام فى قصر أم القياس.

وازدانت ألف سفينة فى النيل عند مصر القديمة بما لا يحصى كثرة من القناديل التى بددت ظلمة الليل وأصبح نورا قائما فى الظهيرة، وقام وكيل خرج الباشا بتزيين قصر أم القياس بالقناديل فأصبح وكأنه كمصباح قصر الجنان.

ونفخ فى المزامير وقرعت الطبول فى كل الأرجاء إلى مطلع الفجر وعمت الضوضاء والضجيج جميع مناحى القاهرة. وفى كل ساعة كانت تطلق مئات الآلاف من طلقات المدافع والبنادق وغنت الأرض والسماء وتحولت جميع البيوت فى القاهرة وجميع القوارب والسرادقات والخيام إلى مجالس أنس يغنى فيها المطربون ويعزف فيها العازفون وكأنها مجالس السلطان حسين بيقرا. وعمت البهجة والمتعة والصفاء كل الأرجاء.

وصف القائمين بالألعاب النارية المهرة

وصلت طائفة اللاعبين بالقذائف النارية (الفشنك) أى أتباع ابن سينا بالقوارب إلى قصر أم القياس حيث مجلس الباشا، وقدموا فصلا من الألعاب النارية ووصلت قذائفهم إلى عنان السماء، وأثناء هبوط هذه القذائف من السماء كانت تنبثق منها عدة مئات القناديل وكأنها الشهب فتنير الأرض.

وثمة نوع من القذائف يسمى «صراخى» وهذا النوع يتكون من ثلاث أنابيب وينطلق إلى السماء على ثلاث دفعات، ففى البداية تنطلق قذيفة تحمل أوقيتين من البارود فتبدوا وكأنها نجم صغير ويتصل بهذه القذيفة قذيفة أخرى فتشتعل من نار القذيفة الأولى وتسقط القذيفة الأولى على الأرض بينما تتابع القذيفة الثانية انطلاقها إلى عنان السماء.

وعندما توشك على الإنتهاء تشتعل القذيفة الثالثة وتسقط القذيفة الثانية على الأرض وتظل القذيفة الثالثة مشتعلة وكأنها شجرة بلوط تتمزق قطعا قطعا، فتقول الملائكة جميعا اللهم اكفنا شر الإنس ويستعيذون بالله.

إنها صناعة عجيبة وغريبة. وثمة نوع آخر من القذائف النارية يصعد إلى عنان السماء وينبثق منها فى الجو أربعون قذيفة أو أكثر، وقد انطلقت قذائف من هذا النوع فى الجو وهبطت إلى الأرض منها أربعون أو خمسون كأنها غضب من الله، وأحرقت ما صادفته وشتت حشود الناس.

وأطلقت القذائف النارية من أنواع وألوان شتى فى حضور الباشا وبمرأى ومسمع من المزدحمين من الناس وكأنهم الخضم، واستمر ذلك حتى مطلع الفجر، وكانت بعض القذائف التى أطلقت تغوص فى جوف النيل سبع أو ثمان مرات ثم تخرج من موضع آخر، وتسبح فى ماء النيل كالغواصين ثم تظهر ثم تغوص ثانية، وأطلقوا قذائفا من قلاع من ورق وكأن حرب دائرة الرحى، وأظهروا صورا للقساوسة واليهود والفرنجة والقزلباش وكأنهم يتقاتلون، كما أظهروا أشكالا للخيول والحُمُر والخنازير والجن والشياطين، ثم جاءوا بحُمُر وكلاب وعلقوا فيها القذائف وأضرموا فى تلك القذائف النار فانطلقت هذه الحيوانات بين الناس الذين قدموا لمشاهدة العروض فاختلط حابلهم بنابلهم وأصبح مشهدا مثيرا للضحك.

وجميع أنواع الألعاب النارية الخاصة بالفرنجة صنعها مهرة الصناع المصريين وعرضوا عجائبها بمناسبة الاحتفال بقطع النيل.

وبإطلاق هذه القذائف أصبح الليل المظلم نهارا منيرا، وتحولت الليالى أيام عيد وابتهج أهل مصر كبارا وصغارا سبعة أيام بلياليها فى مصر القديمة، واستأجر بعض الناس جواسقا على ساحل النيل نظير مئات القروش فى اليوم الواحد وأطلق بعضهم القذائف عمدا على المنازل فشتتوا أهلها.

وجملة القول أن الفرنجة وإن كانوا اخترعوا الألعاب النارية فإن المصريين قد أتقنوها إتقانا يبعث على الإعجاب وهم لا نظير لهم فى هذا المجال فى أرجاء الأرض. ولم أشاهد فى بلد آخر غير مصر هذه الألعاب النارية وفى مصر يعرضونها ليل نهار، ونارها مثل نار النمرود وأطلقت قذائف بمائة ألف قرش.

وأطلقت آلاف القذائف من مئات السفن والقوارب الموجودة فى النيل، ويبلغ ثمن كل قذيفة خمسمائة قرش أو أكثر، ومن المؤكد أنه ينفق على هذه الألعاب النارية مئات الآلاف من القروش.

ومرت جميع السفن أمام الباشا وكأن حربا ضروسا بينها، وقد زين البكوات جوانب قواربهم بكل ما هو نفيس وأطلقوا المدافع والبنادق وعزفت موسيقاهم العسكرية وأدوا

التحيـة للباشا أثناء مـرورهم أمامه، وكانت السفـن تمضى فى إتجاه الجيزة وكـان الباشا يتأملـها ليتبين أيـهم أكثر زينة. وحتى مـطلع الفجر كانـت تطلق القذائف فـى ضجيج وصخب فعمت البهجة كبهجة الحجاج.

وفى صباح اليوم التالى أرسل الباشا مئتين من أغواته يمضى كل واحد منهم إلى بك من البكوات وأغوات الأوجاقات السبعة وكبار رجال الـدولة لدعوتهم إلى وليمة يقيمها الباشا وكان يـوزع على كل أغا قادم عليهنه قماشا من صوف. وقدم أم القـياس القاضى عسكر ونقـيب الأشراف وشيوخ الإفتاء علـى المذاهب الأربعة والحاصل أن جمـيع كبار العلماء والصلحاء والمشايخ والأئمة والخطـباء وأغوات الأوجاقات السبعة وجميع أعضاء الديوان والمشاهير، أقيـمت لهم مأدبة عظيمة يقال إنها تكلـفت مائة كيس، ودامت هذه المأدبة ثلاث ساعات بالتمام.

وبعد الفراغ من تنـاول الطعام قدم الشراب وماء الورد والبخور، وخلـع الباشا خلعا على أصحاب المناصب حسب رتبهم وكانه يتم لـهم التثبيت فى وظائفهم، وغيرهـم كان يسند إليه الكشوفيات.

ولأن قطع النـيل هو رأس السنة منح الـباشا جند الأوجاقات الـسبعة المشتركين فـى موكبه خمسة أكياس مـصرية. وقضى الباشا تلك الـليلة فى قصر أم القياس كـذلك. وبمناسبة رأس السنة أنعم الباشا بمنصب «بنشر أغا» على جميع الأغوات وخلع عليهم كذلك فاخر الخلع.

وفى هذا اليوم أقام كتـخدا الباشا المأدبة ودعى إليها رؤساء كـتاب السجلات، وما أن فرغوا مـن تناول الطعـام حتى خلع الـباشا على الـكتخدا خلـعة من فرو الســمور وقام الكتخدا بتحصيل مال الكشوفية للباشا، وفى تلك الليلة من ليالى أم القياس زينت جميع القوارب والمنازل بالقناديل وهزت أصوات المدافع والبنادق الأرض والسماء هزا.

وفى صباح اليوم التالى أقام الدفتردار مأدبة إكـراما لوزير مصر فى حديقة كنعان بك بجزيرة الروضـة وكانت هذه المأدبة مأدبة عظـيمة. وبعد الفراغ من تنـاول الطعام أهدى الدفتردار الباشـا عشرة أكياس وعشرة من الطواعـية وجوادا مطهما مزينا بـالجواهر كما أهدى جوادا وبعض الـهدايا لكل من أصحاب المنـاصب الرفيعة. وبعد أن خـلع الباشا

خلعة السمور على الدفتردار ركب الباشا جواده السريع وفى الطريق انضم إلى ركابه أمير الحج ودعى أمير الحج الباشا إلى مأدبة فى قصر على بك بحدائق الروضة، وكان بها كثرة من المغنيين والعازفين والحواة والمصارعين واللاعبين بالألعاب النارية واللاعبين بالعرائس واللاعبين بالطيور واللاعبين بالعمد، وجملة القول أن مائة وسبعين من هؤلاء اللاعبين قدموا عروضهم فى تلك الضيافة ونال كل منهم نصيبه من منحة الوزير.

ثم خلع الباشا خلعة من فرو السمور على أمير الحج وامتطى الباشا صهوة جواده.

وقبل وقت الغروب كان كل بك ينوب الباشا قد أقام وليمة للباشا كوليمة أمير الحج وأعطى كل واحد منهم الباشا مثلما منحه أمير الحج من هدايا، وهى خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجواد مطهم مزين بالجواهر وبعض التحف، كما منح كل بك منهم أحد عشر من أصحاب المراتب جوادا لكل منهم ثم تلقى هؤلاء البكوات النواب خلعة من فرو السمور لكل منهم من الباشا، ثم عاد الباشا إلى أم القياس ليلا.

وفى تلك الليلة أقيم حفل ساهر استمر حتى مطلع الفجر. وفى الصباح قدم البك قائد الأمراء الكرام ورئيس تجارهم، وأقام مأدبة عظيمة للباشا فى إحدى حدائق الروضة، وأهدى الباشا خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجوادا مطهما سرجه مرصع بالجواهر وما شابه ذلك من نفائس، وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة.

وطيلة هذه الأيام الثلاثة ولياليها أقام البكوات المآدب للباشا وقدموا إليه هداياهم ونالوا منه خلع السمور .

وفى ذلك اليوم عفر رئيس فرقة الانكشارية وجهه على حافر جواد الباشا ودعاه إلى مأدبة فى «أثر قدم النبى» ﷺ لأنه عند إدارتهم، ثم ركب الباشا سفينته وركب جميع الأمراء والأعيان وأعضاء الديوان وأصحاب الألقاب سفنهم تغمرهم البهجة والسرور وسبقوا سفينة الباشا وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ابتهاجا وأمر جميع البكوات موسيقييهم بالعزف وقرع الطبول حتى وصلوا بسفنهم إلى القياس فى ساعتين. وتناول الباشا الطعام فى مأدبة أغا الانكشارية وقدم إليه كيسا من الذهب وخمسة من الطواشية وخمس بنادق

مرصعة بالجواهر وجوادا مطهما فخلع عليه الباشا كذلك خلعة من فرو السمور. كما أهدى أغا الانكشارية لكل من كتخدا الباشا ومن فى معيته ورئيس الديوان والخزينة دار والمهردار جوادا مطهما ثم ركب الباشا سفينته وبسط شراعها وأطلقت المدافع والبنادق تعبيرا عن البهجة والسرور.

ثم تناول الباشا طعامه فى مأدبة «الشهر حواله» وتلقى الباشا منه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية، كما منح كتخدا الباشا جوادا ونال خلعة من الباشا وتم له التثبيت فى منصبه.

وجملة القول أنه فى اليوم السابع لكى لا يقعد الناس عن العمل ويرهقون بالإنفاق ركن بعض الوزراء إلى الراحة والمتعة كالملوك ثلاثة أيام بلياليها.

وفى اليوم الثالث ركب الوزراء سفنهم ومضت بهم بين التهليل والهتافات، ونزل أغا العزب بقاربه إلى قصر أم القياس ودعى الباشا والكتخدا إلى مأدبة عظيمة يعجز عنها الوصف، وبعد الفراغ من الطعام قدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد، كما أهدى جوادا إلى كتخدا الباشا. وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

بعد ذلك ركب الباشا وموكبه السفن وتم إعلان مظاهر البهجة والسرور، كما أقام كتخدا الشاويشية مأدبة للباشا فى حديقة رمضان بك وقدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد، فخلع عليه الباشا خلعة مزركشة وثبته فى منصبه.

وأقام رئيس فرقة المتفرقة خياما وسرادقات فى جزيرة الروضة وأقام مأدبة للباشا فى ظلة فاخرة، وبعد الفراغ من الطعام قدم إلى الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة من الجياد المطهمة. فطيب الباشا خاطره بخلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

ثم ركب الباشا زورقه وسط قرع الطبول وطلقات المدافع حتى بلغ قصر السبتية وعندما رسى زورقه أطلق جند الإسلام مدافعهم وبنادقهم من السفن ومن الخيام والسرادقات التى نصبت على جانبى النيل، وصدحت الموسيقى وعمهم البشر والبهجة وكأنهم شاهدوا خيال الظل. ثم تفرق الناس ومضى بعضهم مع موكب الباشا إلى قصر السبتية. وهناك حضر الباشا وليمة أعدها الروزنامجى أفندى، الذى أهدى الباشا ثلاثة من الطواشية

وثلاثة جياد ومحبرة من الفضة الخالصة وبعض الكتب القيمة. فخلع عليه فروا فاخرا وثبته فى منصبه. وبعد الفراغ من هذه الوليمة خرج الباشا فى الموكب على صهوة فرسه وفى معيته جند الإسلام جريا على العادة القديمة ومضى الجند زرافات زرافات موجة بعد موجة مثنى مثنى منحازين جريا على عادتهم فى مظاهر الأبهة والعظمة.

ومر الباشا وعليه قلنسوته السليمية المزينة وعليه قباء من فرو السمور حاملا كنانته المرصعة واصطف الناس جميعا كبارا وصغارا رجالا ونساء شيوخا وشبابا على جانبى الطريق العام فى مدينة القاهرة لاستقباله، وعندما لوح الباشا لهم بالسلام ارتفعت أصوات النساء بالزغاريد ودعا له الكبار والصغار والشيوخ والشباب قائلين: «حفظك الله وسلمك يا عزيز مصر يا والى مصر يا وكيل السلطان»، وما إلى ذلك من شتى الألقاب. ثم جاء رئيس سقائى قافلة الباشا ومساعدوه يحمل كل منهم كيسا من المال ونثروا ما بها من مال على الفقراء الذين اصطفوا يدعون للباشا بكل خير ونال كل منهم نصيبه. آية: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧، الأنعام: ٩١]. واصطف كذلك صبيان المدارس الابتدائية على الطريق العام أثناء مرور الباشا وهتفوا بقولهم: « الله ينصر السلطان» ونال كل منهم كذلك من عطاء الباشا.

وعلى هذا النحو السابق عندما دخل الباشا من باب العزب وزع عطاياه على البوابين وعندما وصل من القلعة إلى قصره أطلقت سبعون أو ثمانون طلقة من القلعة وأقيم سماط فى قاعة ديوان الغورى دعى إليه جند الإسلام جميعا.

ويبلغ عدد المآدب التى تقام طوال سبعة أيام وليال بمناسبة الاحتفال بقطع النيل سبعين مأدبة.

هذا هو قطع النيل بمآدبه ومواكبه واحتفالاته ذكرتها على حد وقوفى على أمورها.

وتكثر الهدايا المقدمة للباشا بمناسبة قطع النيل، وهذا ما سأذكره فى حديثى عن قوانين التشريفات فى مصر.

غير أنه فى عهد «جان بولاد زاده حسين باشا» تدهورت أوضاع مصر وساءت أحوالها إلى حد جد بعيد، ولم يحتفل بقطع النيل ومع ذلك قدموا له الهدايا وإن

قلت ذلك لأن مـصر قد أفلست فى عـهد الكتخدا إبراهيـم باشا؛ ولذلك لم يحـتفلوا بقطع النيل.

ومنذ القوانين القديمة لسلاطين السـلف كان يـحتفل باثنى عشر عيدا منها عيد «قطع النيل» وقد اشتهر هـذا الاحتفال على لسان مؤرخى العالم من الـترك والعرب والعجم. وكم من آلاف الشعراء والبلغاء قرضوا فيه الشعر. فما كان لهذا الاحتفال من نظير على وجه الأرض.

***

الفصل السادس والأربعون
أوصاف نهر النيل المبارك وهو ماء الرحمة

ليكن معلوما لدى الأخوة من السياح والرحالة أن الأقوال تضاربت كثيرا فيما يختص بالأنهار الجارية على وجه الأرض.

يقول عوفى عن ابن العباس رضى الله عنه: «إن على وجه الأرض عيون وجداول بقدر ما فى بدن الإنسان من شرايين».

وعلى حد قول بطليموس الحكيم على وجه الأرض مائتا نهر عظيم وأربع وأربعون ألف عين جارية. وهذه الأنهار لا يزيد الواحد منها على ألف فرسخ ولا يقل عن خمسين. ومن بين مائتى نهر عظيم أربعة عظيمة يمدحها الله والناس. أما أعظمها فالنيل المبارك وقد ذكره الله فى كتابه العزيز ست عشر مرة تصريحا وتنزيها. يقول تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]. وقد فسر المفسرون هذه الآية أن المقصود بها أرض مصر ونهر النيل.

وفى آية شريفة أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقيل إن المراد بذلك أرض مصر ونهر النيل. وكم من آيات جاءت بشأن النيل.

كما وردت أحاديث نبوية كثيرة خاصة بالنيل. يقول المصطفى ﷺ: «سيحون وجيحون والنيل والفرات كلها من أنهار الجَنَّة» أخرجه مسلم منفردا بذلك[١].

وهناك أحاديث أخرى كثيرة إلا أننى اكتفيت بهذا القدر.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صفة الجنة والنار (١١) باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة حديث رقم (٧٠٢)، ولفظه: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة». قال شارحه: سيحان وجيحان نهران بالعواصم عند المصيصة وطرسوس، وهما غير سيحون وجيحون. وخطأ من قال من الشراح أنهما سيحون وجيحون اللذان ببلاد خراسان. وذكر مسلم فى كتاب الإيمان فى حديث الإسراء أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة. وفى البخارى من أصل سدرة المنتهى.

أما نهر النيل فبتقدير العلى القدير وعلى حد قول بطليموس الحكيم فينبع من جبل القمر فى جنوب مصر من مسافة تقطع فى سبعة أشهر. ومنبعه اثنتا عشرة عيناً عظيمة، وهذه العيون الاثنتى عشرة تقع جنوب خط الإستواء، وتصب فى بحيرة عظيمة كأنها البحر الخضم، ويتفرع النيل من هذه البحيرة ويمر هذا الفرع فى شمال الإقليم الأول والإقليم الثانى حيث ولايات قرمانقه، وققان، وبلاد الفونج، وبلاد البربر، والنوبة، وصاى فى أقصى حدود مصر الجنوبية حيث القلعة العظيمة التى يحرسها جند من الأوجاقات السبعة فى مصر وذلك بمسيرة شهرين يعبرها النيل ويخترق مدينة جرجا، وولاية إسنا وأسوان ثم يمر من مدن المنشية طهطا وأبى تيج وأسيوط ومنفلوط، وصنبو، والمنيا، والفشن، وبنى سويف، ويستغرق ذلك شهرا إلى أن يبلغ مصر أم الدنيا، وعلى بعد خمسة أميال من مدينة القاهرة وفى الموضع الذى يسمى «بطن البقر».

أهم المدن الواقعة على فرع دمياط

أولا مدينة ميت غمر فى كشوفية المنصورة، وقبالتها قصبة زفته فى أرض الغربية، ومدينة المنصورة شرق النيل، وقصبة سمنود فى الغربية، ومدينة فراسكور شرق مدينة المنصورة، ثم مدينة دمياط وهى ميناء عظيم فى الجهة الشرقية من ضفة النيل. ثم يبلغ النيل موضعا يسمى «مَرَج البحرين» حيث يصب فى البحر الأبيض وتختلط مياههما.

المدن التى يمر بها فرع دمياط بعد تفرعه من «بطن البقر»

أولها محلة طنوب، ومحلة بشير، ومحلة أبى على، وتقع هذه القرى فى أرض الغربية وكذلك محلة مالك، ومحلة مطوبس، ومحلة الأمير على، ومدينة رشيد التى تقع فى أرض البحيرة. ويعبر النيل رشيد وتختلط مياهه بالبحر الأبيض فى الموضع الذى يسمى «مرج البحرين».

وهذه المدن السالف ذكرها تقع على جانبى نهر النيل وعددها مائة وستون مدينة. وحتى قلعة صاى وبمسيرة ثلاثة أشهر تقع ألف وثمانمائة قرية معمورة جميلة، أما عدد القرى الواقعة على ضفتى النيل فالله أعلم بعددها الحقيقى.

وبحساب الفرسخ فإن طول النيل من منبعه حتى مصبه فى البحر الأبيض يبلغ ثلاثة آلاف فرسخ.

ويتفرع النيل تسعة أفرع، وكل فرع منه يتجه غربا حيث ممالك السودان وفاس ومراكش، بيد أننى لم أبلغ تلك الجهات. إلا أننى بلغت الأماكن الواقعة فى المنطقة الاستوائية جنوب النيل عند خط عرض ٢ درجة وخط طول ١، وسوف أكتب عنها تفصيلا عند الحديث عن سياحتى فى بلاد الفونج. ومن عجب أن تكون سياحتى هى سيرتى.

والأفرع التسعة للنيل التى تجرى غربا فى ممالك فاس ومراكش طولها جميعا ألف فرسخ وتصب فى المحيط، وسألت عن ذلك بعض الأشخاص الذين بلغوا بلاد الفونج، فقالوا إن التمساح لا يوجد فى تلك الجهات من نهر النيل.

وفى عهد خلافة السلطان المؤيد مضى بعض التجار إلى منبع النيل مرارا، وكانوا يصلون إلى هناك فى ثمانية أشهر واشتروا سلعا من هناك وعادوا. وأهل بلاد الفونج (فونجستان) يبلغونه فى أربعة أو خمسة أشهر، ويبيعون سلعهم للبرتغاليين والفرنجة ثم يعودون إلى فونجستان كذلك فى أربعة أو خمسة أشهر.

ولأن ملك فونسجتان هذه على مذهب الإمام مالك، فهو راسخ الاعتقاد فى الشيخ البكرى فى مصر، ويزوره رجاله على الدوام.

وبناء على هذه الأصرة يرسل ملك فونجستان إلى الباشا فى مصر سفراءه حاملين الهدايا من تروس من جلد الفيل وسن الفيل وقرون وحيد القرن وجلد الضب وخشب الأبانوس والزباد. وشعب الفونج يستوطن ساحل النيل، غير أن ساحل النيل فى تلك البلاد قليل العمران. لأنهم قوم كثيرو الترحال.

أما المناطق المستبحرة العمران فتمتد من قلعة الصاى ومدينة در وقلعة إبريم وولاية الشلال، وأسوان، وإسنا، ومدينة قوص، ومدينة قنا، وتوره، وجرجا وبقية المدن سالفة الذكر حتى مدينة القاهرة ومدن دمياط ورشيد. وهذه المدن جميعا واقعة على ضفتى نهر النيل.

وقد وردت أماكن العمران فى مصر وتضاريسها برا وبحراً فى كتب الهيئة لبابا مونطه وأطلس ومينور وفى تواريخ الخطط.

ذكر الميزات الحسنة لمصر

لقد قمت بسياحتى ولم أذكر إلا ما تأكدت منه اعتقادا جازما.

ويفيض النيل المبارك وتجرى مياهه فى ٧٠٠٠ خليج، و ١١٠٠٠ ترعة فى مصر وسوف أذكر كلا منها فى حينه بمشيئة الله تعالى، وتجرى مياه النيل فى تلك الترع وتروى أراضى مصر الزراعية. والمطر لا يهطل فى إقليم مصر إلا مرة أو مرتين فى العام. وما لم يفض النيل والعياذ بالله وقع القحط وغلت الأسعار، ومن هنا كان سر الاحتفاء بقطع النيل وفرط السرور به. ولولا النيل لكانت مصر جزيرة قاحلة.

وإذا ما جاء النيل على ما يرام أصبحت جميع ولايات مصر بحرا. والقرى فى مصر سواء كانت أوقافا لمكة والمدينة أو كشوفية أو تابعة لملتزم أو أمين والقصبات والمجلات والكفور فعددها (   )[1] وجميعها تقع على أرض مرتفعة وكان كلا منها جزيرة داخل النيل الذى يشبه البحر وتبقى النخلات مرتفعة الرأس فى ماء النيل.

وقد أقيمت مملكة مصر وفق علم الهندسة لأن بين كل قرية وأخرى مسافة يسمونها «ملاقى»، وحيثما يطغى النيل على تلك الوديان أقاموا جسوراً من التراب للمضى من قرية إلى قرية. والسد منها يرتفع بمقدار خمس أو عشرة قامات، وحينما يفيض النيل يعبر الناس على هذه الجسور بخيلهم وحمرهم، وإذا ما بلغ النيل هذه السدود وامتلأت به روى الأرض عشرة أيام، بعد ذلك تفتح هذه السدود ويجرى النيل إلى واد آخر وتصبح مياهه وكأنها البحر ويروى أرض بلد آخر، وتلافيا لوقوع النزاع بين الناس على ماء النيل يرسل الحاكم طائفة من جنوده مدججين بالسلاح لإجراء ماء النيل من قرية إلى أخرى لريها، وما لم يوجد أحد من قِبَل الحاكم نشب القتال بين البدو والفلاحين.

وفى بعض الجهات قناطر أو جسور يجرى النيل من تحتها. ويسمون النيل إذا دخل قرية ترعة كذلك، ويجرى ماء النيل فى هذه الترع ويروى أراضى الولايات .

وأرض مصر كلها فروع من النيل وخلجان وترع وبرك شقها مهندسو الكهنة بفضل تعاليم النبى إدريس عليه السلام. وهذا كله ما يستحق المشاهدة.

---

(١) بياض فى الأصل.

وعند قطع النيل فى رأس العام الحالى وفى السنة الماضية تسلم جميع الكاشفين والأمناء والملتزمين المحاصيل من القرى بتمامها، وعندما سلموها زالت عنهم سلطتهم وصلاحيتهم وعين مكانهم نائب، ثم عين لكل كاشف أغا لدى الباشا. وعندما دعى جميع الكاشفين للحضور فى ديوان مصر أهدى كل أغا قدم على الكاشفين أربع آلاف پاره وجواداً مُطَهَمّاً وإذا كانوا قد أعطوا أكثر من ذلك فهو كرم من الكاشفين.

وعزل الكاشفين فى رأس السنة القبطية، وبذلك اليوم يبدأ الاحتفال بمولد السيد البدوى الذى يدوم خمسة عشر يوما بلياليها وسط جو من الصخب والضجيج. إنه مولد جد عظيم، بالمشاهدة حقيق. .

وإذا ما أفلس أحد الكاشفين أو الأمناء أو الملتزمين فر من الأغا الذى جاء لاستدعائه بأمر الباشا ولجأ إلى تكية أحمد البدوى معتصما بها. ولو قدم الملك بنفسه للقبض عليه لما استطاع إلى ذلك سبيلا. وإذا ما حاول أحد إخراج هذا الرجل من التكية بالقوة شُلَّ ساعده. ومن فى هذه التكية من علماء وشيوخ ومتصوفة، لا يسلمون لصًا ولا مفلسًا ولا قاتلا، إلا أنهم يطيعون أولى الأمر من الحكام. أما الكاشف الشريف فيذهب إلى الديوان، ويحاسب ويدفع ما فى ذمته من مال السلطان ويحظى بخلعة.

ذكر الأفعال الشائنة فى مصر

أما من أفلس من الكاشفين طُرح فى سجن ديوان الغورى، وتعرض لعذاب مُهين يندى له جبين من غلب على طبعهم الحياء، ويهلكون خجلا من قبح ما يتعرض له الكاشف المفلس من عذاب. ويباع كل ما يملكه فى المزاد ويخلو وفاضه. وإذا ما أدركَت الوزير الرحمة له، خلع عليه خِلعة فى العام المقبل وأعاده إلى منصبه، فيطيب خاطره.

وتصبح الولاية كأنها بحر طيلة ستة أشهر بتمامها بسبب قطع النيل، ولا يستطيع الكاشفون مباشرة أعمالهم طيلة ستة أشهر بتمامها، ويرسلون من ينوب عنهم يعاونه خمسمائة أو ستمائة رجل بسفنهم.

وفى ذلك الوقت يكون الفلاحون وكأنهم تنين ذو سبعة رءوس ويقعدون عن العمل ولا مال لهم من الأرض التى زرعت. فيركب مجرموهم سفنهم وينتقلون من ولاية إلى

أخرى مُغِيرين سالبين ناهبين.

وبما أن الكاشف ليس له جند من الأوجاقات السبعة، لا يخشى الفلاحون من نائب وتثور ثائرتهم ويثأر بعضهم من بعض لعدم وجود من يخضعهم من الحكام.

وهؤلاء الفلاحون والبدو، منذ عهد قابيل وهابيل ابنى آدم - عليه السلام - طائفتان؛ طائفة «بنى الحرام» وهم شجعان وهم ذرية قابيل. وطائفة أخرى تسمى «بنى جذام» وهم ذرية هابيل وهذه الطائفة غاية فى الخبث ولصوص أشرار، وهم إذا تسلطوا على مكان أصابه منهم بلاء كأنه بلاء الجذام، ولكن منهم من لهم فى الحرب ضراوة وبسالة وهم ذرية هابيل.

وهناك قرية أهلها جميعا من بنى الحرام وأخرى أهلها من بنى جذام، وبين الفريقين اللدد فى العداء والخصومة. ومنهم من يجمع حوله عصابة يغير بها على القرى إما عبورا على الجسور أو بقواربهم. ويتقاتلون ولابد أن تكون الغَلَبة لأحدهم. أما المغلوبون فيعمل السيف فيهم شيوخا وشبابا، وتبقر بطون نسائهم ويخرجون منها الأجنة ويحرقونها ويقطعون ثدى النساء ويسألنهن عن مالهم المدفون ويعثرون عليه حتما ويستولون على كل أنعامهم ويضرمون النيران فى بلدة المنكسرين ويجعلون مُلكهم خرابا يبابا.

وبعد أن يغتنموا ما يغتنمون من أموال يتغنون بالمواويل ويمرحون فى صخب وضجيج ثم يعودون إلى بلادهم.

أما أصحاب البلدة التى نهبت فيفلسون ويخلو وفاضهم بعد أن أضرمت النيران فيها اللهم عافنا.

إن فلاحى مصر طائفة من قوم فرعون، فهم جبابرة فيهم عنف وفساق وحساد وهذا ما ينبغى أن يُعرف من طباعهم.

ولكن بعد ثلاثة أشهر من قطع النيل ينحسر ماؤه وينثر الفلاحون بذورهم فى الأرض غليظة الطين، ويبدأون فى زراعتها وينشغلون بذلك. وفى ذلك الوقت يطيب الكاشفون

والأمناء والملتزمون نفسا ويهدأون بالا.

وفى شهر بابه وهاتور من السنة القبطية يمضى الكاشفون فى جنودهم لتخضير الولاية أى بذر البذور وبعد شهرين يعودون إلى القاهرة.

ثم يصطحب كل كاشف فرقة من جند الأوجاقات السبعة طبق ما جاء فى قانون السلطان سليم، ويمضى كل كاشف إلى ولايات حاكم جرجا وفى معيته ألف أو ألف وخمسمائة فارس ليباشر مهام منصبه . وكل ملتزم يستعين بأربعين أو خمسين أو مائة من فتيان الترك الأشداء لإحكام سيطرتهم على القرى ومباشرة مهامهم، وعندئذ تبطل سلطات النواب والمسلمين المعينين من قبل الأوجاقات السبعة، ويؤول الأمر والنهى إلى الكاشفين.

وفى أيام فيضان النيل يقبضون على العصاة والمجرمين ممن يغيرون على القرى والقصبات، حتى إذا اختفوا فى حرمهم أو فى قرون ثيرانهم، ويأخذونهم بأشد العقوبة، وباستجوابهم يرشدون عمن سِواهم فيتم القبض عليهم ويسلخون جلودهم أحياء ويقطعون أرجلهم وأيديهم ويستردون منهم كل ما سلبوه من أموال، ثم يقتلونهم جميعا وذلك لصلاح حال العالمين.

فى وصف جراة جبابرة مصر

ومن عجب أن قُبض ذات مرة على أحد اللصوص من فلاحى مصر بكيفيةٍ ما، وعندما حان وقت إعدامه أعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة وبسط إليه الرجاء أن يُخرجه فى موكب وكأنه بك ويمضى به إلى ديوان مصر. وفى التو تسلم الكاشف الأكياس وقَبِل منه رجاءه، وساق الجلادون هذا اللص إلى ميدان توقيع العقوبة وصلبوه وسلخوا جلده من الظهر إلى الصدر ومن الصدر إلى الظهر، وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال ويمدح من قبض عليه ومن صلبه ومن قطع يده. وقطع الجلادون أرجله ويديه دون أن يتأوه متألما، وبعد ذلك أتموا سلخ جلده وحشوه تبنا وأركبوا جثته على حمار مغطاة بملابسه ومضوا بها فى موكب إلى ديوان مصر قائلين إنها جثة لص وهذا منظر عجب.

وعلى هذا النحو يُحَصَّل المال السلطانى من كل ما يطير فى الجو ويدب على الأرض ويسبح فى الماء ويسلمونه إلى الباشا ليضيفه إلى الخزانة السلطانية. وهكذا يحصل المال السلطانى من الرعايا الفلاحين.

وهؤلاء الفلاحين قوم حاسروا الرأس حفاة يلبسون القباء واللقاع[1]، غير أنهم ثراة وهم يكدون فى العمل كفرهاد[2].

ولقد نظر الله عز وجل إلى مصر بعين الرحمة ولذا يسمونها أرض الذهب وهم على الحق والصواب فى تسميتها بذلك الاسم، ولقد تكلم العظماء عن مصر فقالوا: «إن نيلها عجب وأرضها ذهب وهى لمن غلب».

وحقا إن من غلب عليها كان له الحكم فيها. وقد حُكمت غِلابا منذ عهد الصديق يوسف. ولم يكن سلاطينها من أهل الحسب والنسب. وأهلها ليسوا أهل المسكنة وجميع جنودها من العصاة الطغاة وهم يحكمون بقوتهم وجبروتهم.

وأصل مقولة أنها تُنبت ذهبا، هو أنهم إذا بذروا فى الأرض كيلة من البذور نبتت محصولا يقدر بعشرين كيلة، وبِيع بدينار من ذهب.

وثمة ميزة لماء نيلها وفولها هى:

أنه إذا شرب منه أحد ولو كان تركيا ثلاثة أعوام أصبح جبارا عتيا، أما نساؤهم فيصبحن غاية فى حسنهن ويذهب حياؤهن. وإذا شربت الخيل من ماء النيل أصبحت جامحة وخرجت إلى صحراء قطية وأم الحسن ولا تبلغ بلدا آخر. أما حُمرها فهى

---

(١) القَبَاءُ: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص، ويتمنطق عليه. ويقال له أيضًا: القفطان.
واللِّفَاعُ: ما يغطى به الجسد كله كِساءً كان أو غيره. والمِلْفَعَةُ اللِّفاعُ.

(٢) فرهاد هو اسم حفار ونقاش مشهور فى الأدب الفارسى، له قصة حب مأساوية مع من تدعى «شيرين» جارية أرمنية كانت للملك خسرو برويز أحد ملوك الفرس الساسانيين. انظر: حسين مجيب المصرى، فارسيات وتركيات ص٣٩.

سلسة القيـاد تهملج[١]. وثيرانهم التـى تطهر الترع والخلجان تشـبه جاموس «أدنه»[٢] وهى غاية فى شراستها. وكان الكهنة فى ماضى الزمان يحفرون الخنادق والجداول بمئات الآلاف من هذه الثيـران، كما استخدموها كذلـك فى حفر الخلجان التـى مست الحاجة إلى حفرها.

أسماء الشهور باللغة القبطية

طبق علم الهـندسة، قَسَّم حكماء الكهـنة فى سالف الزمان النيل إلـى أقسام . ففى العام تكتسى أرضه أربعة أثواب. وهذه الأقسام الأربـعة انقسمت بدورها إلى اثنى عشر شهرا وانقسم كل قسم إلى ثلاثة أشهر، وبذلك يصبح عدد الشهور اثنى عشر.

الفصل الأول:

وأسماء هذا الفصل فى اللغة القبطـية هى: أبيب ومسرى وتوت وهذه الأشهر تـسمى فى اللغة الـعربية شهر ذى القعدة وذى الحـجة والمحرم، واقتضت حكمـة الله أن يوافق شهر تـوت شهر يولـيو على الـدوام فى بلاد مصـر. ولا تدور هذه الشـهور كالشـهور العربية. وفى شهر توت يـصبح النيل المبارك كأنه البحر طيلة ثـلاثة أشهر وتغرق مياهه أراضى مصر وتكتسى حلة حمراء لأنه فى ذلـك الوقت يجرى الطين الأحمر القانى فى ماء النيل، وهذه الأشهر الثلاثة هى أشهر الكساد فى مصر.

الفصل الثانى:

أما هذا الفصل فهو الشهور المسماة «بابه وهـاتور وكهيك». وتـسمى فى اللغة العربية صفر وربيـع الأول وربيع الآخر، وفيهـا ينحسر ماء الـنيل عن كل الأراضى فـى مصر وتصبح هذه الأراضـى طينة فى سواد المسك والعـنبر الخالص، ويصبح ماء الـنيل كماء الورد المصـفى. ويشرع الفـلاحون يزرعون هذا الـطين المتخـمر بيد القـدرة. وفى هذا

---

(١) هملجت الدابة: سارت سيراً حسنًا فى سرعة.

(٢) أدنه أو أطنه، مدينة فى الأناضول.

الوقت تكتسى أراضــى مصر حلة عباسية سوداء. وما أن يبذر الفــلاحون بذور البرسيم إلا ونمت فى ليلة واحدة فى طول شبر فترعى الأنعام فيه وتسمن أجسامها.

ثم تخلع مصر بزروعها الحلة العباسيــة السوداء وتكتسى قباء أخضر من زمرد ويعود إليها شبابها وترتد إلى الناس أرواحهم.

وفى هذا الوقــت يشتد الشتــاء فى بلاد الترك، أما فى مــصر فيكون الربــيع فى أوله وتخرج الجياد إلى المراعى.

الفصل الثالث:

وهو «طــوبة وامشــير وبرمــهات» وهذه الأشهــر تسمــى فى العــربية جـمادى الأول وجمادى الآخر ورجــب، وتخلع أراضى مصــر حلتها المخملــية الخضراء وتلبــس خلعة فاخرة كالزعفران الأصفر وتصبح وكأنها ذهب إبــريز، وتصبح جميع الزروع وكأنها تنثر الجواهر وهذا الــوقت وقت البيدر، ووقــت تحصيل المال الســلطانى وقدره اثنــتى عشرة خزانة وتحصل كذلك خزائن الأوقاف. إنه موسم الحصاد.

الفصل الرابع:

وهو أشهر برموده وبشنس بؤونه أى أشهــر شعبان ورمضان وشوال وفى هذه الأشهر الثلاثة يكــون موسم الحصاد وتصبح الأرض صــفراء كأنها الذهب، ويصــدق القول بأن نيلها عجب وأرضها ذهب. وتسابق جميع الماشية والدواب إلى البيادر وتأكل الماشية كل الأعشاب، ثم تكتسى أرض مــصر حلتها العباسية السوداء ثانية ويــجرى النيل كما قدر الله له أن يجرى، وهو على تلك الحال إلى أبد الآبدين، ويالها من حكمة إلهية عجيبة والدهر يدور ويدور على هذا من حاله. وشهورنا هى التى تدور أما الشهور القبطية فلها الثبات. تلك أحوال الدنيا ولا وجود لجو مثل جو مصر.

ذكر مضار ماء النيل

كثر القيل والقال فيما يتعلق بالنيل، غير أن هناك حديث نبوى شريف مؤداه أن النيل نهر من أنهار الجنة.

حقا إنه ماء الجنة وله لذة جعلها الله لماء قلعة بلاد الترك أو لماء أربعين عينا فى اسطنبول. والنيل وإن لم يمتزج ماؤه من منبعه إلى مصبه بماء نهر آخر فإنه يتشعب إلى شعب، وهذا وارد فى جميع كتب التواريخ وكتب علم الهيئة، ولكن له طبيعة الامتصاص. وعندما تسقط النقطة ويبدأ النيل الفيضان تجرى مياهه مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، وعندئذ ينبغى على الذواقة التحرز من شرب مائه وإذا ما لزم شربه فينبغى أن يقطر ويغلى مع العلك[1] وبذلك يمكن شربه أو يمضى شرق مدينة القاهرة على مقربة من مدينة عين شمس، حيث البئر التى حفرتها السيدة مريم أم المسيح عيسى عليه السلام، ليشرب من مائها الطيب الذى يشبه ماء الحياة وذلك بفضل معجزة عيسى عليه السلام.

وسبب جريان مياه النيل مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، والسبب فى كونه مضرا كذلك، هو: أن هذه المياه ركدت فى الخلجان والترع منذ العام المنصرم وقد اختلطت بحشرات وحيوانات سامة مثل العقارب والأفاعى والحيات وذلك من شدة الحر، وعندما تدخل مياه الفيضان آلاف البحيرات تكتسح أمامها المياه المسمومة وتخرجها وبذلك يجرى ماء النيل فى القاهرة أخضر اللون. ومن شرب منه تورمت قدمه أو سائر جسده أو تورمت خصيته،وإذا ما حملت زوجته ولدت طفله مصابا بالجذام.

وينبغى شدة الاحتراز ويشرب الماء من الأسبلة طيلة شهر بتمامه.

وماء النيل عظيم النفع للحصان والمرأة. ولكن بما أن مصر مملكة الفراعنة فإن جوها يجعل الناس جبابرة عتاة متكبرين، وهم سريعو الغضب والملل، ولا يدوم لهم السرور لأن أرزاقهم تعتمد على أوقاف الله.

وكم من خواص وميزات للنيل إلا أننا اكتفينا بهذا القدر الذى ذكرناه.

***

(١) العلك : اللبان. وهو كل صمغ يعلك- يعنى يمضغ - فلا يسيل من لبان وغيره.

الفصل السابع والأربعون

حيوانات النيل وصفاتها وميزاتها

كم من آلاف الأنواع من الحيوانات المائية تعيش فى مياه النيل، ولعل أهم هذه الحيوانات هو التمساح.

إنه حيوان مخيف مؤذ. وهو موجود كذلك فى بلاد الترك، ويسمونه الضب والوزغة وهو من ثلاثة أنواع متشابهة، له أربعة قوائم وذيل.

ويسمى فى بلاد النوبة. «وولى»، وفى الولاية العلوية «شونشار».

إنه ملعون، يبلغ طوله خمسة عشر ذراعا، وظهره أزرار أزرار، ولا تؤثر فيه الأعيرة النارية. إلا أنه يطعن تحت إبطه حيث إن جلده فى هذا الموضع من جسمه غاية فى الرقة والتأثر وكأنما هو شحمة أذن. وإذا أطلقت البندقية على رأسه أوردته مورد الهلاك ونفق.

ميزاته

وإذا أخذ الصيادون زيته ومسحوا به جسم شخص أصابته شدة الحر بآلام فى جلده زال عنه الألم بإذن الله.

وجميع الحيوانات تحرك فكها السفلى أما التمساح فإن فكه العلوى هو الذى يتحرك فينفتح وينغلق، وفكه السفلى لا يتحرك قط.

وفكه العلوى يحتوى على ستين سنا، أما فكه السفلى فيحتوى على أربعين سنا. وفى فكه السفلى سنان طويلان يبرزان من ثقبين بجانب منخريه فى فكه العلوى.

ولكنى أمعنت النظر فى صغار التماسيح فلم أر أن لهم هاتين السنين الطويلين. أما كبارها فلها سنان طويلان كأنهما سيفان فى طرف الفك السفلى.

وإذا ما توقف إنسان أو حيوان على ضفة النيل يروى ظمأه اقترب منه التمساح خلسة وعاجله بضربة من ذيله ثم سحب فريسته إلى النيل وأجهز عليها وابتلعها.

وليس للتمساح دبر، فإذا أراد أن يقضى حاجته خرج إلى اليابسة.

وثمة نوع من الطيور فى مصر يشبه البط، قصير الرجلين له منقار ومخالب، وهذا الطائر إذا ما شاهد التمساح اقترب منه وتحرك حركة أو حركتين بجانبه. وإذا ما شاهد

التمساح هذا الطائر سُر. وإذا ما كان هذا الطائر جائعا ولم يكن التمساح قد قضى حاجته بعد. يرفع التمساح منخريه ويفتح فاه ليدخله هذا الطائر حتى يبلغ بطنه، ثم يشرع فى التقاط ما فى أحشائه من فضلات، ويرتاح التمساح بذلك راحة ما بعدها راحة، ويبحث هذا الطائر عما فى أحشاء التمساح من ديدان ويأكلها وبذلك يشبع من جوع. كما أن التمساح يتخفف من ثقل ما فى جوفه من فضلات. يا لها من حكمة عجيبة.

وهكذا يؤدى الطائر خدمة لهذا التمساح.

ومن الطيور من لا تجد ما تريده من بطن التمساح فتدخله ثانية وتخرج كثيرا من فضلاته. إلا أن التمساح حينما يبتلع يبتلع الطائر كذلك، وحينما يدخل الطائر فم التمساح يضربه بعظمة مدببة فى ظهره عدة ضربات فى منخريه فيفتح فاه من شدة ألمه وكأنه تنين ويخرج الطائر. ويا لها من حكمة غريبة عجيبة، فكل تمساح لا دبر له قيَّد الله له طائرا يخدمه، يفعل الله ما يشاء بقدرته.

ومن عجب أن هذا التمساح هو تنين النيل، وكل مخلوق يهابه. إنه يفترسها جميعا وليس فى النيل أسرع وأقوى منه. بيد أنه شديد البطء على اليابسة لأنه قصير الأطراف فهو يزحف كذلك على بطنه ولا قدرة له على تحريك جسمه فى سرعة، ولا يتجول كثيرا وليس فى مقدوره البقاء خارج الماء أكثر من ثلاثة أيام وإلا نفق.

العدو اللدود للتمساح

لقد خلق الله للتمساح من يسبب نفوقه، إنه ابن عرس وهو حيوان ذو أربع قوائم عدو الفأر إلا أنه يشبهه، وهو حيوان كثيف الشعر يعيش فى النيل، وهو كالتمساح يستوطن اليابسة ويخرج إليها ويزحف فى الرمال على الجزر ويبحث عن التمساح لأنه عدو لدود للتمساح ويقتنص كذلك الطائر الذى يستخرج فضلات التمساح.

ويخرج هذا الحيوان عندما يخرج التمساح لقضاء حاجته ويقترب منه والتمساح لا يراه لأن عينى التمساح فوق رأسه وليس له عنق فهو جسم من قطعة واحدة لا يلتفت يمينه ويساره على اليابسة. وحينما يأتى الطائر المذكور إلى التمساح ليشبع جوعته يفتح

التمساح فاه وعندما يدخل الطائر ينقض ابن عرس على التمساح ويدخل فاه كذلك فيتخبط التمساح ويضرب متأوها ثم يطرح نفسه فى النيل.

واتفق ذات مرة أن جئنا من مدينة أسوان فى سفينة فرأيت تمساحا عظيما فى النيل يتموج كأنه البحر الهادر ويميل يمنة ويسرة فى سرعة البرق الخاطف ويتحرك كأنه سهم منطلق من قوس. ويرتفع ماء النيل من فيه إلى ارتفاع منارة، فسألت ملاح سفينتى قائلا: يا حاج رشيد لماذا يصنع التمساح هكذا؟ فأجاب قائلا: يا سيدى ربما كان فى عراك مع تمساح أكبر منه أو أنه يبحث عن أنثاه.

وعندئذ اقترب التمساح من سفينتنا فأمرت خدمى أن يطلقوا عليه النار،فأطلقوا عليه رصاصتين إلا أنهما لم تحدثا فيه أثرا. وفى النهاية خرج التمساح إلى الضفة الغربية للنيل وجعل يتململ متألما، ثم بلغنا الضفة بسفينتنا ونزلنا إلى الشاطئ وبينما كنا ننظر حولنا رأينا ابن عرس يخرج من فم التمساح ويهرب إلى النيل ثم نفق التمساح وكان طوله اثنتين وثلاثين قدما.

ومن التماسيح ما يبلغ طول الواحد منها أربعين أو خمسين قدما. ومثل هذه التماسيح العملاقة لا وجود لها إلا فى ولايات إسنا وأسوان.

وثمة قلعة تسمى «الحفير الكبير» وكانت لـ «كور حسين بك» الذى كان بمثابة ملك فونجستان، ولهذه القلعة باب حديدى سُمِّر على مصراعيه جلد تمساح عظيم، وهذا الجلد بلا رأس ولا ذيل، وقد قست طول جلد جذعه بالذراع فوجدت أن طوله أربعة عشر ذراعا، وعرضه سبعة أذرع، فأخذنى شديد العجب، فأخبرنى شيوخ فونجستان عن وجود تماسيح أضخم من هذا التمساح.

عدو لدود آخر للتمساح

وثمة عدو لدود آخر للتمساح هو «فرس النهر» ولكثرة وجود هذا الحيوان على حدود مدينة دنقلة وبلاد النوبه تندر التماسيح هنالك.

ويسمى التمساح فى بلاد النوبة (وولى)، وفى الولايات العلوية (شوشار).

عجيبة من العجائب

ومن عجب أن هذا التمساح يخرج إلى الجزيرة مع أنثاه وعند الجماع ترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو ممن أصيبوا بالسيلان وأرادوا البرء منه أو استجابوا لنفسهم الأمارة بالسوء، يختبئ الواحد منهم فى الرمل، وقبل أن يجامع التمساح أنثاه وهى على ظهرها يخرج الرجل من كمينه ويطلق صيحة عالية، فيجفل التمساح الذكر ويطرح نفسه فى النيل، إلا أن أنثاه تظل على ظهرها لا تحرك ساكنا فهى لا تستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة وهى تسبح فى الماء بفمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطى الملعون الذى يريد الإتصال بأنثى التمساح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع فى فعله الشنيع دون خوف ولا حياء.

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التمساح ألذ من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة ويقول إن الدم الأحمر يسيل فى كل جماع بكر وإذا ما جامع أنثى التمساح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك فى أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع.

وفرج أنثى التمساح أبيض مثل فروج جوارى الحبشة وهذا حق. فلقد أرسل حاكم جرجا أنثى تمساح إلى أوزبك بك وكان ظهرها جميلا منقوشا.

حكاية غريبة عن تمساح النيل

أثناء سياحتى فى بلاد التلال، اتفق أن تطرق حديثنا إلى التمساح، وكان صاحب منزلنا «أبا جاد الله» وكان شيخا بلغ من الكبر عتيا، كريما من أهل التقوى والصلاح وقص علينا قصته فقال:

حينما كنت شابا كان لى تمساح فى النيل، وكان أنثى، وكنت أصطاد السمك بالشبكة وأقتات به، وكنت أصيد أنواعا خاصة من السمك. واتفق أن مر أمامى تمساح يسبح فى الماء إلا أنه كان غاية فى الجمال فقطعت رؤوس بعض الأسماك التى صدتها وألقيتها لأنثى التمساح وداومت على المجئ عدة أيام وكنت ألقى إليها السمك. وذات يوم خرجت أنثى التمساح إلى الشط ومشت ورفعت ذيلها واستلقت على ظهرها،

فتذكرت أن بعض البدو يجامعون التماسيح فطاش عقلى فأخذت عصا، ودستها بين الرمل وبين ظهر أنثى التمساح وقلبتها إلى جانبها ولاعبتها ومضت إلى النيل وهى تنظر إلى، وكان هذا حماقة منى، وداومت على فعل ذلك ثلاثة أعوام، وقد عرف عنى أهل عشيرتى فى الشلال ذلك، وكنت إذا تخلفت يوما جاءت أنثى التمساح تبحث عنى، إلا أننى كنت أخشى التماسيح الأخرى فما اقتربت من شاطئ النيل.

وفى كل مرة كانت تأتى أنثى التمساح إلى شاطئ النيل كانت تمح رائحة طيبة فكنت أملأ إصيصًا بهذا الزيت وأبيعه بعشرة قروش طيلة ثلاث سنوات.

واتفق ذات يوما أن وصلت إلى جزيرة من جزر النيل، فتبعتنى أنثى التمساح وخرجت إلى الجزيرة وتدحرجت ونفقت، ورأيتها وهبط الليل فرأيت تماسحى وله وجه فتاة تشبه الشمس حسنا إلا أن جسده وذيله جسد وذيل تمساح إلا أن فرجها وأطرافها فرج وأطراف تمساح فطاش صوابى، وربما كانت ابنة شيخ من شيوخ البدو فسحرت تماسحا ولكن لما نفقت بطل السحر، لأن كل مخلوق يموت على صورته الأولى التى ولد عليها. ودفنتها فى تلك الجزيرة.

وكان بعض أهالى تلك الولاية حاضرين وشهدوا على ما قصه الحاج أبو جاد الله ففى تلك البلاد لم يكن جماع التماسيح وقتلها وتسمير جلودها على الأبواب أعمالا شائنة بل يعد ذلك شجاعة ما بعدها شجاعة، ولا يعد شجاعا من لم يتعارك مع التمساح، وجعل الحاضرون يتكلمون فى شئون أخرى وقالوا إنهم يزوجون بناتهم من يستطيع قتل التمساح والفيل، فالتمساح تنين هذه البلاد، وهو يلحق الأذى بأهلها فهو يختطف الناس والدواب عندما يشربون من النيل، ويختطف كذلك الصبيان وهم يسبحون فيه.

سبب جماع الناس للتماسيح

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسيلان لقصر خصورهم، ولكى يبرأوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء من هذا الداء، والبعض ممن لا يجامعون التماسيح يجامعون الجوارى

الحبشيات السود، وبذلك يشفون، ولهن حرارة شديدة تجذب ما فى جسم الإنسان من منى وغيره.

حكمة الله فى ميزة التمساح

إذا ما وقع السفاد [١] بين التمساح وأنثاه على اليابسة، باضت أنثاه بيضة فى حجم بيضة النعامة، إلا أن هذه البيضة ليست مستديرة وهى منقوشة، وتدفن أنثى التمساح بيضتها فى الرمال، ثم تمضى إلى النيل ثانية، وتأتى كل يوم لتشاهدها وبعض الإناث تبقى إلى جانب بيضتها. ومن شدة الحر ينضج بياض البيضة وفى اليوم الأربعين يخرج «الصقنقور» من المحة[٢].

أما البيضة المدفونة فى الرمال فيخرج منها تمساح، ويصبح له غشاء فى أنفه فيستطيع أن يسبح فى النيل، أما الصقنقور فليس له هذا الغشاء فيبقى على اليابسة.

وتبيض أنثى التمساح اثنتى عشرة بيضة بعضها تماسيح وبعضها صقنقور إلا أن الصقنقور ينزل الماء ويخرج منه ثانية وليس فى مقدوره البقاء فى النيل. ويسميه العلماء «سمكة الصقنقور»، وما يتولد من هذا الصقنقور يسمى «الصقنقور البرى» وهو لا ينزل الماء ولا يشربه قط، وإنما يبقى فى الرملة والصحراء. وقال عنه العلماء إنه عظيم النفع.

صفات الصقنقور

وللذكر منه ذكران وللإناث فرجان، ويولد الصقنقور من فرجها الأيمن، ويولد الضب من فرجها الأيسر، ﴿رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. وبعض الناس يصطاده لأن أكله مقو للباه[٣] ويقطعون رأسه وذيله مثل ثعبان الترياق الفاروقى، ويرمون الرأس، والذيل فى الصحراء، أما جذعه فيجففونه فى الظل ويسحقون مثقالا من لحمه مع مثقالين من العنب الأسود فى هاوون، وإذا ما أكل على معدة خاوية

---

(١) السفاد : الجماع للحيوانات.

(٢) المحة : والماح: المادة الصفراء فى البيضة. وأجزاء البيضة على الترتيب: القيض (القشرة)، والغرقئ، والآح، والماح.

(٣) البَاهُ: الجماع.

استطاع آكله أن يظهر رجولته مع عشر جوار فى ليلة واحدة واستطاع إرضاءهن جميعا وهو مقو إلى هذا الحد البعيد.

إذا ما عض الصقنقور إنسانا ونزل هذا الإنسان توا إلى الماء نجى ونفق الصقنقور، وإذا ما نزل الصقنقور ذلك الماء هلك الرجل الذى عضه الصقنقور ونجى الصقنقور. ولذا يستلزم على من عضه الصقنقور أن يبادر بالنزول إلى الماء.

طلاسم المقياس من أجل التمساح

تردد على ألسنة الناس عدة أقوال خاصة فى تسمية أم القياس بهذا الاسم. ففى قول أنه كان لأحد الملوك فى سالف الدهر ابنة رائعة الحسن، واتفق ذات مرة أن كانت هذه الفتاة تسبح فى النيل فاختطفها تمساح. ولما بلغ الخبر أباها الملك أخذه شديد الأسى لما حدث، وفى ذلك الزمان اتفق أن كان سيدى الشيخ أبو بكر البطرانى وهو من كبار أولياء الله الأعاظم، فدعا هذا الولى الله أن ينجى الفتاة، فاستجاب الله ورد التمساح الفتاة إلى ذلك المكان الذى اختطفها منه ولم يصبها أى أذى، فابتهج لذلك الملك ابتهاجا لا مزيد عليه، وأقام قصرا فى ذلك الموضع. وسماه باسم ابنته وهو «أم القياس» وكان هذا سببا للتسمية، ثم أمر الشيخ البطرانى بصنع تمثال من الرخام للتمساح ودفن هذا التمثال فى قاع حوض أم القياس، ومنذ ذلك الزمان إذا ما مر تمساح أسفل أم القياس انقلب على ظهره أو خرج إلى الشاطئ هاربًا.

ولذلك لا وجود للتماسيح فى الوجه البحرى من مصر. والسلام.

فرس النيل

يستوطن ولاية النوبة وما وراء الشلالات. أنه حيوان غاية فى الضخامة وكأنه حصان. إلا أن مَعْرَفَته[1] وذيله غزيرتا الشعر، وهو كثير التجوال على اليابسة، وإذا ما رأى أحدا هرب إلى النيل وهو يقتات من اليابسة، ويأكل بقدر ما تأكله عشرة جياد ويخرب الحقول، وبعضه يسفد الحجر فيولد منها الجحش ويبقى على اليابسة، وهذا

(١) المَعْرَفَةُ: موضعُ العُرْفِ من الطير والخيل.

الجحش جميل الشكل، إلا أنه لا يستطيع أن يحتمل المشقة مثل سائر الخيول، وهو مع ذلك يركب. حتى إن حاكم قوص على الكاشف كان له جحش فرس النيل، وعندما بلغ العام الثانى كنا نلعب الجريد مع الأغوات فى مصطبة على شاطئ النيل وكان هذا الجحش معنا، وعندئذ ظهر على ساحل النيل حصان «سهيلى» فالتفتت إليه جميع خيولنا وانتصبت آذانها، وفى عينه قصف الرعد، وعندما سمع الجحش ذلك جذب لجامه من يد القواس ووثب بإكافه فى الماء فتبعه جميع الفرسان الموجودين فى ساحة لعب الجريد، إلا أنهم فقدوا أثره فى الماء. وبعد مدة خرج الجحش ثانية منه وقد سال الدم من منخريه وخرج إلى الضفة المقابلة للنيل وخرج وراءه دابة الماء التى تشبه دابة الأرض وطاردت الجحش وهى تعضه حتى قفز الجحش فى الماء وتبعته إلى أن غاب الإثنان فى ماء النيل. ثم برز الجحش على صفحة الماء وجعل يسبح وعبر النيل إلى الشاطئ المقابل فطرح عدة قواسين أنفسهم فى النيل وهم عراة وتعقبوا الجحش وأخرجوه إلى الضفة التى نحن عليها وهو يختلج، ثم خرج فرس النهر من الماء فأطلقوا عليه النار حتى عاد وغاص فى النيل.

وفى اليوم الثالث رأوا جثته عند شاطئ النيل فى قنا، وما رأيت مثل هذا المشهد قط فى حياتى .

وفى تلك البلاد تكثر أفراس النهر.

بقية أوصاف فرس النيل

إنه غاية فى الجرأة ولذا فهو دائم العراك مع التمساح فى النيل ويتغلب عليه، وحيثما وجد فرس النيل لا يستطيع التمساح العيش. وعلى الرغم من أنه يشبه الخيول العادية فإنه رقيق الذيل طويل كذيل الثور. ولأن حافر رجليه الأماميتين متشعب يحل أكل لحمه. وفى جسده وبر متنوع. وفكه الأعلى يتحرك كالتمساح ويصهل كالخيل. ويصنعون من جلده تروسا لا تنفذ السهام ولا السيوف ولا المناخس ولكن ينفذ منها الرصاص، كما يصنعون من ذكره السياط، والجلادون فى مصر يجلدون الناس بذكره.

سمكة الرعـاد

وفى نهر النيل فى مصر نوع من السمك يسمى الرعاد، وكل من أمسك بسمكة منه ليأكلها شلت يداه فى تلك اللحظة، وإذا ما أطلقها من يده عادت يداه سليمة كما كانت من قبل. ولذلك يطلقها جميع الصيادين إذا خرجت فى شباكهم. تزن السمكة الواحدة منه أوقيتين. وهى سمكة صفراء، ولكن كان يوجد منها الأسود فيما مضى.

والبعض يصيدها ويحضرون رأسها لمريض اليرقان أو من يشكو من ألم شديد فإذا شمها حينا بعد حين شفى من اليرقان.

ميزة هـذه السمكة

إذا ما حنط رأس هذه السمكة واحتفظ بنصف منه رجل وبالنصف الآخر امرأة لم يفترقا أبدا، وهذا مجرب.

أما إذا أكل فقد يموت آكله، ويبلغ وزن هذه السمكة أوقيتين وهى مستديرة الرأس، سمينة لينة كالقربة، وإذا ما صيدت سمكة منها ونفقت نفق أليفها. يا لها من حكمة عجيبة.

ميزة أخـرى

وإذا ما علق المحموم هذه السمكة فى عنقه شفى بإذن الله. وإذا ما أصيب أحد بالصداع ووضعت هذه السمكة على رأسه شفى من صداعه بإذن الله.

ميزة أخـرى

وإذا ما احتفظ رجل وامرأة كل منهما بنصفها تحابا ولم يفترقا إلى أن يدركهما الموت. ولما لهذه السمكة من أثر فإن عدة آلاف من الرجال فى صعيد مصر العالى يظلون أوفياء لزوجاتهن الماكرات.

ويسمون هذه السمكة كذلك «حوت إدريس». إنها سمكة منقوشة كالسمكة التى تسمى «سمكة الله»، وهى دواء لما لا يحصى كثرة من أدواء.

وحينما بعث إدريس النبى إلى أهل هذه البلاد أنزل عليه البارى عز شأنه مائدة من السماء، وكانت سمكا مطبوخا وجرجيرا فأكلها، وبعد أن أشبع جوعته رمى شوكها فى

النيل فخلقت منه هذه السمكة، ثم حرم إدريس على أمته أكل هذه السمكة وأخبرهم بخواصها. وهم منذ ذلك الوقت وإلى الآن يستخدمونها للتداوى. إلا أنهم لا يجترأون على أكلها.

خاصية التمساح

إذا ما أصيب أحد بالصرع - اللهم عافنا - وأحرق كبد تمساح وبخر بها شفى هذا الرجل بإذن الله.

خاصية أخرى

يقضى التمساح حاجته من فمه، فليس له دبر. وإذا كُحِّلت عينٌ - ابيضت أو غامت - بفضلات التمساح شفيت بأمر الله.

خاصية أخرى

إذا ما نزعت عين التمساح وهو حى وعلقت فى عنق مجذوم وجد فى ذلك الشفاء بإذن الله. وكان ابن رئيس الباش بلوك عندما قدم إلى باب اللوق أصيب بالجذام، وتورمت عينه ووجهه وانتشر الجذام فى جسمه من أنفه إلى ركبته. فأكل عدة أوقيات من لحم التمساح ونزعت عين التمساح وعلقت فى عنقه، فأصبح جسد الطفل كالبيض المقشور. وقد شاهدت ذلك بنفسى، وسألت الغلام فقال: والله إن لحم التمساح له رائحة المسك.

عجيبة مضحكة

ثمة حيوان يسمى «كلب النيل» وهو يشبه الضب، له وبر ملون، يعيش فى النيل وعلى ضفافه، وهو عدو لدود للتمساح، إنه يفترس صغار التمساح، ولو لم يأكل صغارها لما كتبت له النجاة من كبارها، فهو إذا دخل مرة تحت إبط تمساح لم ينج منه، وينفق ما فى ذلك شك.

وهذا الحيوان يأكل كبد التمساح. إنه حيوان ماكر، وشيطان، ومضحك وهو قصير الأطراف. وهو إذا ما ملكه شديد الجوع أكل التمساح بحيلة يندهش لها الإنسان فهذا الحيوان يخرج إلى الأماكن التى يوجد بها التماسيح، ويطلى نفسه بالطين وينام على شط النيل فى الشمس، ويراه التمساح ويظنه فريسة له، فيضربه بذيله ويبتلعه، وفى التو يأكل

كلب النيل كبد التمساح فى بطنه، ويشقهـا ويخرج منها، وينفق التمسـاح، لذلك يحتفظ الفلاحون الذين يسكنون شاطئ النيل بأحد أفراد كلب الماء هذا ليأمنوا شر التماسيح.

حكمة عجيبة

ويا لها من حكمة عجيبة إنه حينما يصطاد صيادو السمك كلب النيل هذا يقطعون ذكره ويطرحون الكلب فى الماء ويطلقون سراحه. لأن المصابين بالحمة المحرقة أو الذين يعانون من آلام مبرحة إذا ما حملوه كان لهم نافعا. بعد ذلك يعيش كلب النيل بلا ذكر، فإذا وقع فى شباك الصيادين ثانية رقدوه على ظهره ورفعوا ذيله، فإذا وجدوه بلا ذكر عرفوا أنه قد وقع قبل ذلك فى يد صياد ويتعجبون متضاحكين ويطلقون سراحه. إنه كلب لطيف، مضحك. والسلام.

وإذا ما ذكرنا أوصاف جميع مخلوقات النيل كما شاهدتها لاقتضى ذلك منا تأليف كتاب لأن النيل نهر عظيم كأنه البحر الخضم.

وثمة مملكة تسمى «بلاد علوه» فى جنوب ولاية أسوان، إنها بلاد قليلة العمران وهناك منطقة تسمى «الأبواب» تقع فى الجانب الشرقى لتلك البلاد على ضفة النيل يتشعب النيل فيها سبع شعب، وتجرى مياهه إلى عدة ممالك فى الجهة الغربية ويروى أراضيها، ثم تعود مياهها إلى النيل ثانية وتختلط بها، ولكل فرع منها لون خاص، وتصب جميعها فى النيل. حتى إنه فى عام ١٠٨٣ فى عهد أبى الخير إبراهيم باشا جرى النيل شهرين بتمامهما ومياهه خضراء اللون، فخاف الذواقة من شربها، وكانوا يروون ظمأهم من بئر المطرية، وغيرها من السواقى العذبة الماء. وثمة بئر تسمى بئر هامان وزير فرعون فى قليوب على مسيرة ثمانى ساعات من القاهرة، وهى بئر عظيمة وفيها تدور دواليب اثنتى عشرة ساقية، وماؤها رقيق، وبعض العظماء والثراة يأمرون خدمهم بإحضار الماء من هذه البئر ويشربون منه، ولا يشرب أحد من ماء النيل وهو أخضر. والسلام.. وهنا نكون قد انتهينا من الحديث عن قطع النيل وأوصافه وخواصه وسفنه وحشراته وحيواناته ومواكبه، ولنذكر الآن المواكب الأخرى.

***

الفصل الثامن والأربعون

وصف الموكب الثالث

وهو موكب رؤية هلال رمضان المبارك (أى موكب المحتسب)

لمدينة القاهرة العظيمة اثنا عشر موكبا للعيد، منها الموكب العظيم لليلة المحتسب ويسميه الصوفية والعارفين بالله. «عيد النسوان» إذ إنه فى تلك الليلة لا يمكن التحكم فى النساء، فهن يخرجن لمشاهدة هذا الموكب، وشرط عقد الزواج هو الخروج فى هذا الموكب فى تلك الليلة. وهذا ما يقضى به قانون مصر.

وقبل هذا الموكب بأسبوع تستأجر الحوانيت فى الأسواق السلطانية بخمسة أو عشرة قروش أو قرش واحد أو يمضين إلى منازل معارفهن.

وخلاصة القول: من الرجال من لا يحق لهم سؤال أزواجهن أين كن فى هذه الليلة، إنها ظاهرة عجيبة.

ولأنها الليلة الشريفة لشهر رمضان المبارك فإن جميع أهل القاهرة يبتهجون ويسعدون وتظل جميع حوانيت الأسواق السلطانية مفتوحة فى تلك الليلة حتى الصباح، وتزدان القاهرة بعدة آلاف من القناديل، وكل أحد يزين واجهة حانوته بِسِلَعِهِ، وينتظر كل أحد مع أحبابه وأصدقائه موكب المحتسب.

أصل الاحتفال بهذا الموكب:

وأصل الاحتفال بهذا الموكب هو أنه فى عهد (   )[1] وقع الشك فى معرفة غرة شهر رمضان المبارك، وعجز جميع العلماء والأعيان والبكوات وأعضاء الديوان عن معرفة ذلك اليوم. وفى آخر الأمر فى الليلة التاسعة والعشرين من شهر شعبان المعظم أرسل المحتسب بك إلى قاضى عسكر مصر يقول له: إنه ينبغى أن يكون لكم علم بيوم الشك.

وتلقى المحتسب مع موكبه خبرا أكيدا من قاضى العسكر أفندى، وبشر السلطان بذلك والآن ومنذ ذلك الزمان يمضى جميع الناس إلى باب الشريعة تعظيما واحتفاء

(١) بياض فى الأصل.

بحلول شهر رمضان المبارك لمعرفة غُرة الشهر الكريم. وهذا فى مصر قانون مرعى منذ عهد (   )[1] وهو الآن من الشعائر، إنه احتفال يعجز عنه الوصف.

والمحتسب بك، على الرغم من أنه مطلق الإرادة فى تلك الليلة وسائر الليالى الأخرى، إلا أنه لا يحق له قتل أحد فيها. وله الحق فى إصدار كافة الأحكام الأخرى، ويطبق القانون والعرف، وله الحق فى توقيع عقوبة الغرامة والسجن.

ليلة رؤية هلال شهر رمضان المبارك

وفى تلك الليلة مضى المحتسب أغا والصوباشى مع خمسمائة من رجالهما فى أبهة وجلال متحارين قارعين الطبول، ودخلوا من باب العزب، وصعدوا إلى الباشا بعد العصر فى ديوان الغورى وعند لقائهم به قبلوا الأرض تحت قدمه، فأصدر الباشا أوامره بأن تخلع على المحتسب خلعة فاخرة عبارة عن حزام من فرو السمور مخيط بخيوط الذهب والفضة، كما وضع الباشا عمامته السليمية بنفسه على رأس المحتسب، كما وضع على رأسه كذلك ريشتين سلطانيتين مزينتين بالجواهر، وقال له: بلغ سلامى إلى شيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة والقاضى عسكر، وتعرف صحة الخبر عما إذا كانت غرة شهر رمضان غدا، وإذا تلقيت الخبر السار أخبرنا إياه.

وما أن قبل المحتسب الأرض حتى قال كتخدا الباشا للباشا: يا مولاى لقد أنعمت على عبدك المحتسب بخلعة سلطانية وفق القانون القديم، ولى الآن رجاء أبسطه إليك وهو أن تجعل على نفقات الموكب من بسط ومنح لفرق التوفنكجيان والسقائين والشطار وفرق الموسيقى العسكرية. وقد بسط هذا الرجاء إلى الباشا وهو يقبل الأرض تحت قدمه، فقبل الباشا، وأمره بأن يذهب لإعداد العدة للموكب، فقبل المحتسب الأرض ثانية وخرج مع الكتخدا، وتولى كتخدا البوابين رئاسة أغوات الباشا نيابة عن المحتسب وكتخدا الباشا، وخلع الباشا عليه خلعة فاخرة، فقبل الأرض تحت قدمه ومضى.

(١) بياض فى الأصل.

بعد ذلك دخل المحتسب مع قادة الجند من الأوجاقات السبعة المكلفين بالإشتراك فى الموكب ونالوا خلعا من الباشا الذى شدد فى التنبيه عليهم بأن يملكوا زمام جندهم فى تلك الليلة، فقال قادة الجند: سمعا وطاعة وقبلوا الأرض، وخرجوا.

ثم قدم بعد ذلك الصوباشى مع الدويدار (أى محافظ القلعة) وخلع على كل منهما خلعة فاخرة، ثم شدد الباشا كذلك عليهما فى التنبيه، ثم خرجا.

ثم وقف جميع الجند فى ميدان القصر على أهبة الاستعداد، وفى البداية مهد الصوباشى الطريق مع جلاديه، ثم مرت مواكب التتار[1] والدلاة والكوكليان[2]، والجاشنكير[3] والكلارجيان[4] والموسيقى العسكرية والصرّاجين والمتفرقة وموكب واجب الرعايا وموكب رؤساء البوابين وجنائب الباشا التسع ذات السروج المرصعة بالجواهر، وشطار الباشا وفى يديهم البلطة الحادة، مع المحتسب أغا، وكتخدا البوابين متحاذين، وعزفت فرق الموسيقى العسكرية التسع الخاصة بالباشا ومروا من أمامه، ونزلوا من القلعة. ولم يكن هذا الموكب يضم أطواغا ولا أعلاما ولا علم رسول الله ﷺ وعلى هذا النحو نزلوا من القلعة، ولم يشترك فى هذا الموكب من جند الأوجاقات السبعة إلا مائتا جندى من كل أوجاق ولا يشترك أكثر من هذا العدد، لأنهم من طائفة الجند وينالون منحا بعد إنتهاء الموكب، وإذا جاء كثير من العسكر لا يصبح فى مقدور المحتسب أن يدفع لهم منحا. وقد اشترك فى هذا الموكب ألف وأربعمائة جندى من الأوجقات السبعة، وهم مدججين بالسلاح، وفى كامل زينتهم وقد تقدمهم جند الباشا، وخلف الصوباشى مائة من جاويشية الجند يحملون العمد، ومضى فى أثرهم مائتان من فرقة الكوكليان ثم مر موكب التوفنكجيان وبعدهم موكب الشراكسة ثم

---

(١) التتار: ناقلو البريد.

(٢) الكوكليان: فرقة من الجيش تعرف باسم المتطوعة.

(٣) الجاشنكير: فرقة عسكرية كانت تتولى مهمة ترتيب الموائد.

(٤) الكلارجيان: الفرقة المكلفة بحفظ الطعام والشراب فى مطبخ القصر العثمانى.

المتفرقة، ثم فرقة العزب ثم موكب ملازمى الانكشارية وعلى رؤوسهم القلانس المزركشة. ثم شطر الباشا وبجانبهم المحتسب أغا مشاة وفرسانا متحازين.

ووصل الموكب وقت صلاة العشاء قبالة جامع محمود باشا فى ميدان الروملى وتوقف هناك وظلت فرقة الموسيقى العسكرية صامتة، وأدى المحتسب بك وبقية الأعيان صلاة المغرب قضاء فى جامع المحمودية وكانت الليلة قد أظلمت ولنكمل بقية مواكب أهل الحرف التى تحت إدارة المحتسب بك.

***

الفصل التاسع والأربعون
بيان ما فى القاهرة من دكاكين طوائف الحرف
وأعداد العاملين بها

ولأن أرباب الحرف الآتى ذكرهم يخضعون لإدارة المحتسب فقد أقاموا موكبا عظيما وكأنه موكب السلطان. وبعد أن حَمَدَ المحتسب أغا اللهَ وأثنى عليه ما هو أهله من ثناء فى جامع المحمودية اعتلى صهوة جواده، فأطلق الجند بنادقهم تحية وتعظيما له، وعزفت الموسيقى العسكرية، ودوت أصداء كلمة الله فى جميع أرجاء مدينة القاهرة.

وفى بداية الموكب مرَّ الصوباشى فى سبعمائة قواس يحملون العصى وألف فارس من البدو وثلاثمائة من حملة المشاعل، مر كذلك فى معيته مئات الموسيقيين والمطربين، إذ إنهم تحت إدارته، واشتد الزحام وكأنما ظهر حمار الدجال وازدحم الناس حوله، وارتفعت الضجة كأنما حل يوم الحشر، وارتفعت أصوات جلادى الصوباشى قائلين: «هذا وكيل السلطان والى الولايات حفظه الله، الله ينصر السلطان».

وقد نبهوا الناس، الذين ازدحموا كموج البحر الخضم، بهذا من كلامهم، ثم قدم الصوباشى وعليه مظاهر العظمة والجلال وعلى جانبيه من يحملون عدة آلاف من القناديل وأربعون أو خمسون من الغلمان الصباح، ومر فى أثرهم أربع فرق من فرق الموسيقى العسكرية، إلا أنه فى ليلة المحتسب تلك لم يحضر الأعيان ولا الأشراف والعلماء والصلحاء ومشايخ السادات والأئمة والخطباء والقضاة قط، فقد كانوا ينتظرون قدوم الموكب فى السوق السلطانية، وهم لم يكونوا مكلفين بالمشاركة فى الموكب.

وفى تلك الليلة ظلت المدينة مضاءة بالزينات حتى مطلع الفجر وكأنها ليلة القدر، وبأمر من الباشا اجتمع الغلمان والشباب والفتيات ويسمى الظرفاء فيما بينهم موكب المحتسب بـ «موكب الأحباء»، ففى تلك الليلة كل من فى مدينة القاهرة من الفتيات الحسان يلبسن حليهن الذهبية وثيابهن المزركشة ويشاهدن هذا الموكب بعد الاستئذان من أولياء أمورهم، وينبغى أن يكون لكل ابن من أرباب الحرف ثوب خاص وعلى رأسه

ريشة ويمر هؤلاء بينما الموسيقى العسكرية تعزف.

وبعض الصوفية يسمون هذا الموكب موكب المهرجين المضحكين، وواقع الأمر أن كل من فى مدينة القاهرة من مضحكين ومهرجين قد خرجوا من بيوتهم لتقديم عروضهم الفكاهية فى الأسواق.

وبعد موكب الصوباشى تمر:

- طائفة الفلاحين:

وهم فى الطليعة، إذ إن حرفتهم هى أقدم الحرف، وهم لا يحصون كثرة فى مصر تنتهى سلسلتهم بـ «آدم عليه السلام»، ومنهم طائفة الكيالين الذين يكيلون القمح وعددهم ٢٠٠٠.

وطوائف «المغربلين»: وهم ينخلون الشعير والقمح، فإذا ما اختلط القمح والشعير والعدس والأرز والفول والقمح وحب الخشخاش، ينخلون هذا كله فى طرفة العين.

ويكتبون على الغربال الذى ينخلون به القمح «لا إله إلا الله، وبسم الله، ويا الله، ويا شافى، ويا كافى» وغير ذلك من الأسماء. وهم لا دكاكين لهم وعددهم ١٠٠٠ رجل، خمسمائة منهم يعملون فى أنبار يوسف وخمسمائة يخدمون أعيان مصر.

ثم طائفة «صانعى الغرابيل»: وهم يصنعون المنخل والغربال، لهم ١٦٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠ عامل.

- طائفة البستانيين:

فى القاهرة ٣٠٦٠ حديقة وحقلا، تنتهى سلسلة هؤلاء بـ «إسماعيل عليه السلام»، وعددهم ٩٣٠٠ بستانى.

ويمر الزُرّاع والكيالون والمغربلون والبستانيون وفى أيديهم الطبر والفأس والمجرفة والمسحاة ويرددون على ألسنتهم قولهم «يا خالق، ويا رزاق، يا منعم، يا مغنى» وقد تزينوا من الرأس إلى القدم بالزهور والبراعم والريحان والسنبل والحناء والنسرين وفى أيديهم الليمون والنارنج، وفى معيتهم رئيس الكيالين ورئيس البستانيين، ويسيرون

متحازين، وتمر معهم نساؤهم والموسيقى تعزف ثم:

- طائفة سقائى الجمال:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠٠٠، وطائفة «سقائى الحمر»، وهم كذلك لا دكاكين لهم، وعددهم ٨٠٠٠ سقاء حمار ويتعذر المرور فى شوارع القاهرة من شدة إزدحامهم، وطائفة «السقائين المتجولين» وهم ٨٠٠.

- طائفة بائعى الماء:

لهم أربعون دكانا، وهم يبيعون الماء المقطر، ويزينون دكاكينهم بالأكواب والطاسات المتنوعة، ومن يشربون عندهم يدفعون إليهم ما تجود به نفوسهم وأقل ذلك «نقرة». إنهم ١٠٠ شخص، منهم من يحمل القرب المعطرة بالمسك ويملأها من هذه الدكاكين ويوزعها على رجال الدولة. ولهم طاسات نظيفة مصقولة كأنها من الذهب الخالص، كما يقدمون الماء العذب فى كاسات وكيزان متنوعة.

- طائفة دكاكين العرقسوس:

أى من يغلون جذور العرقسوس لبيعها، وينمو العرقسوس بكثرة فى بلاد الترك فى منتشة وايدين وصارحان وجزيرة استانكوى وهو جذر حلو المذاق وعصيره عظيم النفع للمصريين. وجاء فى تذكرة داود أنه عظيم النفع للبلغم ومدر للبول.

والواقع أن البلغم يكثر بين المصريين وكل أهل مصر يكثر منهم السعال، وفى كل البلاد يتنحنح العرب وبعد شرب العرقسوس يسعلون فيصقون البلغم فى حجم السمكة فيتخلصون منه. إنه عصير جد نافع، وعدد الدكاكين التى تبيعه ١٥٠، يعمل بها ٣٠٠٠، ويبيعونه فى جرار وينادون عليه قائلين: « يا عرقسوس يا»، ويبيعون الكأس منه بمنقره، وهو شراب مرطب فمن شربه فى يوم شديد الحر أصبح جسمه قطعة من ثلج. وتنتسب هذه الطائفة إلى «عمر».

- **طائفة بائعى الخشاف:**

دكاكينهم ( )[1]، وهم ٧٠ ويبيعون خشاف الفاكهة، فكنت أحب شراب التمر هندى المسك اللذيذ وأشرب منه كل يوم كأسا.

- **طائفة بائعى الصوبية:**

لهم ( )[2] دكانا، يعمل بها ٧٠ بائعا، وما يطلقون عليه فى مصر اسم «الصوبية» بوزة كاللبن يصنعونها من أرز دمياط وفراسكور والمنزلة، ويوضع فيها القرفة والقرنفل والجوز وتحلى بالسكر. ومنها نشوة خفيفة ودفئ، وتبعث فى الجسم القوة والعافية، وتلطف حرارة الجسم.

- **طائفة بائعى الشراب الجائلين:**

وهم يبيعون عصير المشمش فى أكواب من القصدير، ويبيعون كذلك شراب الزبيب ويضعون فيه الأفاويه، ويشرب مثلجا. وهو مشروب حامض الطعم.

وشراب الثعلب ويسمونه فى العربية «خصية الثعلب»، وهو نبات أبيض مثل فصوص الثوم يجفف ويسحق فى هاون ويحلى بالعسل والسكر ويشرب مع الزنجبيل، ولكن شرط طهوه أن يقلب مثل الفالوذج حتى لا يصبح كرة كرة. ومن يشرب منه فنجانا شفى من آلام الصدر، كما أنه مقو للبصر والجسم.

- **طائفة بائعى الفالوذج:** لهم ٧ دكاكين، وهم ٦ بائعين.

- **طائفة اللبانين:**

لهم ٧٠ دكانا، وهم ٣٠٠ بائع ودكاكينهم تبيع الماست، وفى الصباح يبيعون اللبن الساخن وفيه الكعك، ويقدمونه للبعض فى فناجين.

- **طائفة بائعى الشاى واليانسون:**

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠ بائعا يتجولون حاملين أباريق الشاى واليانسون الساخن.

- **طائفة الخلالين:**

توجد دكاكينهم فى حارة بأكملها بالقرب من شجرة الدر، وهم ١٠٠٠ بائع.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- **طائفة بائعى المخلل:** ٤٠ دكانا، و٦٠ بائعا.

- **طائفة بائعى القهوة:**

لهم ٦٣ مقهى فى بولاق ومصر العتيقة ومصيف قايتباى والقاهرة، وهى مقاه واسعة تستوعب الواحدة منها ألفا من الرواد، ولها مقاصير وشادروانات وأحواض للماء، وكان يتردد عليها المغنيون والشباب الصباح وبلغاء الشعراء.

ومن أشهر مقاهى القاهرة وأجملها هى مقهى الغورية والمقهى الجديد، ومقهى باب الفتوح ومقهى باب الشعرية ومقهى الكتخدا الحبشى ومقهى ميدان الروملى ومقهى السلطان حسن، ومقاه القلعة الثلاث ومقهى الجماميز ومقهى الصقنقورية وهى مقاه ذات أسبلة وفسقيات وأحواض، وفى كل منها مغن رخيم الصوت، وعازف بارع، ولا تخلو من الضوضاء والضجيج ليل نهار.

ومما تمتاز به أنه إذا قدمها رحالة من الترك أو الفرس أو العرب حل ضيفا فى ركن من أركانها، وهى ملتقى أهل العلم والعرفان. ومجموع من يعمل فى هذه المقاهى ويخدم فيها ٣٠٠٠ شخص.

- **طائفة بائعى القهوة الجائلين:**

لا دكاكين لهؤلاء، إنهم يبيعون القهوة المُمَسَّكة فى أباريق، ويطوفون فى الأسواق السلطانية، وبعضهم يربح ربحا عظيما. أما أكثرهم ربحا فهم من يقدمون القهوة فى مقهى الخرابة، ويغلون قنطارا من القهوة يوميا فى مقهى «الحبشى» ويتحصل لهم ربح عظيم، ويؤدون الضرائب لرئيس شطار الباشا وهم تحت حمايته.

- **طائفة بائعى لوز النبى:**

لا دكاكين لهم، وهم يبيعون بذور الشمام وعبد اللاوى، وعددهم ٣٠٠ بائع.

- **طائفة بائعى الدخان:**

وهم يقدمون الدخان فى ٦٣ مقهى إضافة إلى ألف وستين دكان تبيع التبغ فى القاهرة، وهم مقيدون فى سجلات الصوباشى، ومنادوهم وبائعوهم ٢٠٠٠، ويشتركون فى الركب مع أصحاب المقاهى.

- طائفة المداحين:

وعددهم ٧٠٠، وهم يشتركون فى الموكب مع أصحاب المقاهى.

- طائفة المقلدين والمهرجين:

عددهم ٣٠٠، ويقدمون عروضهم الفكاهية الضاحكة فى المقاهى والحانات.

- طائفة بائعى البوزة: إنهم مسلمون لهم ٧٥ حانة، يعمل بها ٦٠٠.

- طائفة الخمارين:

وهم جميعا من النصارى واليهود، لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٦٠٠. وهذه مخالفة للشرع، لذا ليس لها موكب مستقل، ويمرون عقب رئيس أصحاب المقاهى. وهم مذمومون مكروهون.

وقد مر من سلف ذكرهم من الطوائف وهم السقاءون وبائعو الخشاف وكل بائعى المشروبات فى موكب أصحاب المقاهى وهم فى صخب عظيم، يحمل كل منهم فى يده شمعة كافورية، وعدة آلاف من القناديل مع الراقصين وهم يدقون الدفوف، فى معية رئيس الخلالين ورئيس أصحاب المقاهى، وفى أثرهم مرت فرقة الموسيقى العسكرية.

(الفصل الرابع)

طائفة الزياتين بائعى الزيت الحار

لهم ١٧٠ معملا، يعمل بها ١٨٠٠. إنهم تجار غاية فى الثراء إلا أنهم غاية فى قذارتهم.

- طائفة بائعى زيت السمسم:

لهم ٢٠٠ معمل، يعمل بها ٧٠٠. وهؤلاء يستخرجون زيت العصفور والسمسم واللوز. وهم قوم معرفون بقذارتهم. وفقراء مصر جميعا يتناولون الزيت الحار وزيت السمسم والطحينة.

وفى كل ليلة يقدح عدة آلاف الأرطال من الزيت الحار، خصوصا فى ليالى المولد وليالى رمضان وليلة المحتسب هذه. وتصدر مصر زيت البذور إلى جميع الولايات، ولذلك فهذه الطائفة طائفة ذات ثراء، ولا يتبع أحد طائفة هؤلاء فى الموكب، وقد ساروا فى الموكب حاملين المشاعل من زيوت مختلفة وقد لبسوا ملابس خشنة ملوثة

بالزيت وبعضهم مضوا عراة وملأوا قربهم بالزيت وحملوها على أكتافهم ولوثوا ملابس الناس المتزاحمين فى السوق السلطانية بما يحملون من قرب الزيت وسخر الناس منهم وأفسحوا لهم الطريق، وقد مر هؤلاء الزياتين وهم يدقون دفوفهم وفى معيتهم حصانهم وسط عزف الموسيقى.

وقد أوصد أهل القاهرة دكاكينهم قبل الموكب بخمسة أو عشرة أيام خوفا من أن تتلوث ثيابهم من هذه الطائفة.

(الفصل الخامس)

طائفة كبير المعماريين

ويتبع هذه الطائفة كثير من أهل الحرف، ومنهم:

- حرفة النجارين:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠٠٠، ومنهم المسلم ومن هو على غير الإسلام.

- قاطعو الحجارة:

يقطعون الحجارة، مثل فرهاد، فى جبل الجوشى وبالقرب من أثر قدم النبى، فيؤتون على ما فى الجبل من أحجار. وعددهم ٢٠٠٠ شخص.

- قاطعوا الرخام:

أى من يرصفون الحمامات وأحواض الماء بالرخام. لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠، وخبرتهم ومهارتهم لا تتوفر لأحد فى بلد آخر. وإن عمائر القاهرة لها ذيوع الصيت فى الآفاق برخامها.

- حفارو الآبار: عددهم ٣٠٠.

- صناع دواليب السواقى والطواحين التى تديرها الخيول: عددهم ٢٦٠.

- عمال البناء:

الكثرة الكاثرة منهم من السود، والفلاحون فيهم قليل. وعددهم ٣٠٠٠ وأسماؤهم مقيدة فى الدفاتر، ولا يستطيع كل أحد مزاولة هذه الحرفة. إن مصر بلد العجائب، ولأنهم جميعا عمال حكوميون فهم مسجلون.

- كاسحو المراحيض:

وجميع مراحيض القاهرة ليست لها مجار بل هى آبار. وفى كل عام يكسحها القائم على كسحها ويسكبونها فى الرمال. وليست لهم دكاكين، وإنما ينتظرون كل صباح فى الصليبة وميدان الروملى أو فى أركان أخرى ومعهم مجارفهم وفؤوسهم وزنابيلهم، وعددهم ١٢٠٠ عامل.

- صانعو اللِّبِنْ والآجُرّ:

لا دكاكين لهم، بل لهم قمائن فى الأماكن المطلة على شاطئ النيل، وهم ٦٠٠.

- الفخاريون:

لهم ١٠٠ دكان عند ساقية الغورى ومصر العتيقة وجهات أخرى، عددهم ١٠٠٠، وهم يصنعون حقاق الأدوية والمعاجين وكأنها من الصينى.

- بناؤو الحمامات: وهم ٣٥٠ من مهرة الصناع يختصون ببناء الحمامات.

- صانعو الجص:

لهم ٧٠٠ معمل بالقرب من السيدة نفيسة خارج مدينة القاهرة وفى مصر العتيقة وبعض الجهات الأخرى.

- الجصاصون: لهم ٢٠٠ دكان، وهم ١٣٠٠.

- قاطعوا البلاط:

أى من يقطعون بالمنشار حجرا أبيض أملسا يشبه الرخام، ويرصفون به الجوامع والمنازل بدلا من الرخام. وهم ٦٠٠ عامل.

- صانعو الأخشاب: لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٥٠٠.

- صانعو النعوش: لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ٣٠.

- صانعو المحفات:

وهم يصنعون المحفات والتختروانات للحجاج لهم (   )[1] دكانا، يعمل بها ١٦٠.

---

(١) بياض فى الأصل.

- صانعو الأسِرّة:

وهم يصنعــون الأسِرّة من جريد النخل، ويصــنعون أقفاص السكر. دكــاكينهم ٥٠ يعمل بها ٨٠.

- الخراطون: لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٦٠٠.

- النجارون:

لهم فــى الدرب الأحمر ٨ دكاكيــن، يعمل بها ٢٠ نجــارا. ويظهرون مهارتــهم فى الترصيع بالصدف الهندى.

- صانعو فتائل قذائف البنادق:

لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠.

- الرسامون:

لا دكاكين لــهم، يعملون فى البــيوت والمنازل التى تحت الإنــشاء، وعددهم ٧٠٠، منهم نقاشون فــى براعة «مانى» و«بهزاد»[1]. ويعجز الرسامــون فى البلاد الأخرى عن بلوغ مستوى مهارتهم.

- صانعو الصناديق: لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٨٠.

- صانعو الطنابير: لهم ٩ دكاكين، يعمل بها ٢٠.

وهؤلاء الذين ســلف ذكرهم فى الفــصل الخامس ٢٤ طائفــة، وعددهم ١٥٤٦ من صفوة الجند، وكلهم يتبعون أغا المعمار.

وقد مروا جــميعا فى مجــموعات حــسب حرفــهم متمارحــين، عارضين سلــعهم، حاملين مئات الآلاف من الــشموع الكافورية، وقد ارتفعت أصواتهم بــالغناء كأنهم فى حفل عرس، ثم مَرَّ رئيس المعماريين وكبير الرسامــين جنبا إلى جنب وفى معيتهم فتيان يعزفون الموسيقى.

---

(١) بهزاد: من أهل مدينة هراة عاش فى القرن الخامــش عشر الميلادى (أعظم وأشهر مصور ورسام فى العصر الصــفوى)، وقد شبهه المؤرخون بمانى ـ رســام فارسى ـ الذى جعل من التصــوير معجزة، ومانى أحد أنبيــاء الفرس المزعومين قبل الإسلام. انظــر: المعجم الفارسى العربى الجــامع للدكتور حسين مجيب المصرى ص٦٢، ٣٩٠. وكذلك مادة «منو» من شرح القاموس للزبيدى.

(الفصل السادس)

طوائف نجارى السفن

لأن أباهم الروحى نوح عليه السلام لا يتبعون موكب المعماريين، ويشكلون موكبا يترأسه كتخدا[1] القبطان.

- **نجارو المراكب:**

لا دكاكين لهم، لهم تكايا تابعة للترسخانه (دار صناعة السفن)، وهم ٨٦٠.

- **القائمون على إصلاح السفن:** عددهم ٥٠٠.
- **صانعو المضخات:** لهم دكانان، يعمل بهما ١٠ صناع.
- **بائعو القار:** لهم ٧ دكاكين، يعمل بها ١٥.
- **فتالو الكتان المقطرن:** لهم ٧ دكاكين، يعمل بها ٠.
- **فتالو الحبال:**

لا دكاكين لهم، وهم ١٥٠، ويفتلون حبال أربع وسبعين ألف بذر من نبات الحلفا.

- **صانعو شراع السفينة:** لهم ٣ دكاكين، ويعمل بها ٣٠.

وهذه الطوائف كلها فى مدينة بولاق. وقد مضوا مدججين بالسلاح وزينوا قواربهم الصغيرة بالأعلام ووضعوها فوق مركبات وجروها داخل مدينة القاهرة صائحين «يا مولا يا مولا»، رافعين أعلامهم وعبر كبير صناع المراكب وفى معيته ثمانين فتى فى أبهى حلة وسط عزف الموسيقى العسكرية. وهم الطائفة الوحيدة التى حملت الأعلام.

(الفصل السابع)

طوائف الخبازين وتجار الغلال

فى مصر أم الدنيا ٧٠ دكانا للخبازين، وإذا قيل إنها تكفى أبناء النيل وهم بحر من البشر فذلك لأن فى كل قصر من قصور الأعيان والأثرياء فرن خاص، كما أنه فى كل

---

(١) الكتخدا: الوكيل أو النائب، كان من كبار رجال الدولة العثمانية، ولهم من ينوب عنهم فى أعمالهم ويعاونهم، ويطلق عليهم «كتخدا». انظر: معجم الدولة العثمانية ص١١٢.

بيت من بيوت الفقراء تنور صغير. وكل إنسان يخبز خبزه فى بيته ويبيع الصبية والفتيان والنساء الخبز على محفات فى كل ركن من أركان السوق السلطانية.

لذا فإن هذه الأفران السبعين تكفى أهل القاهرة، وجملة من يعملون بها ٦٠٠ خباز. وهم يستخدمون روث الخيل الجاف وقودا فى جميع هذه الأفران. وهذا فى المذهب الشافعى نجس حرام، إلا أنهم يضطرون إلى استخدامه لندرة الحطب.

وثمة طوائف أخرى للخبازين وهم صانعو الفطائر وغيرها من المخبوزات مثل السميط والقطائف والغرايبة والبقسماط والرقاق والشعرية وخبز البلح أى فطائر البلح. ويبلغ عدد هذه الحرف خمسة عشر حرفة، لهم ٢٥٠ دكانا. وهم لا يستخدمون روث الخيل فى خبز الفطائر، وإنما يستخدمون أعواد الفول الجافة وقشر الحمص ونشارة الخشب وما شابه. ويعمل فى هذه الأفران ما يقرب من ٢٠٠٠ خبار.

- **طائفة صانعى النشاء:** لهم ١١ معملا، يعمل بها ١٥٠.

- **صناع الملح:** لهم ١٢٠ مخزنا.

- **حرفة من يعملون فى ملح النطرون:**

لهم مخازن مكتظة بملح النطرون، ولا شئ فى مصر أكثر من الملح والبصل ويعمل بهذه الحرفة (   )[1]، وهم واسعو الثراء.

- **طوائف العاملين فى طواحين الخيل:**

لهم ٢١٦٠ طاحونه نصفها يتبع المحتسب وما سواها فى حماية الفرق والأغوات إلا أنهم يشتركون فى الموكب وعددهم ٣١٦٠ عاملا، ويشتغلون فى طواحين الخيل، إنها طواحين عجيبة يديرها جواد أو ثور. وفضلا عن هذه الطواحين يوجد طاحونة فى كل قصر. ولأنى لم أسأل عنها المحتسب فعلمها ليس عندى.

- **طوائف تجار الغلال:**

لهم ٣٠٠٠ مخزن فى بولاق ومصر العتيقة والقاهرة، وهم تجار أثرياء، وعددهم ٣٣٠٠ تاجر، وصورهم وأسماؤهم مقيدة فى سجلات أمين الأنبار، ونظارها حتى إذا مست الحاجة إلى الغلال طلبت منهم.

---

(١) بياض فى الأصل.

والأب الروحى لـلخبازيـن هو «عمر بـن عمران البـربرى»، الذى نال الإجـارة من سلمان الفارسى رضى الـله عنه فى مجلس الرسول ﷺ ، ومات فى السابـعة والثمانين من سنيه، ودفن فى البقيع إلى جوار العباس رضى الله عنه.

وقد مضى هؤلاء الخبازين مدججين بالسلاح، ووزعوا الحلوى والفطائر المختلفة على الناس، ونثروا علـيهم كذلك القطائف وسبـح البقسماط والرغفان الكـبيرة والمضفورة، وهم يتمـارحون ويتضاحكون، ومـر كبير الخبازين وبجـانبه كبير الأعيـان، وفى أثرهم غلمان صِباح مدججون بالسلاح، وعبروا على نغمات الموسيقى العسكرية.

(الفصل الثامن)

طوائـف القصابيـن

لهم ٦٠٠ دكـان، يعمل بهـا ١٨٠٠ قصاب. أبوهـم الروحى «جوهر الـقصاب»، وهذا هو اللقب الذى عرف به نصر القصاب، الذى كان يكنى بأبى عقيل، وهو مدفون فى بغداد.

ويذبح فى القاهرة يوميا ٢٢٠٠ من الغنم.

- طائفة العاملين «بالسلخانة» أى المذبح:

إنه مذبح حكومى يـقع خارج باب الفتوح، تذبح فيه كل مـا فى القاهرة من خراف وعجول وماعز وجِمـال وجاموس. ويرأسه أمين وانكشارى جـورباجى، وإذا ما ذبحت الأغنام فى مكان آخـر غرم ذابحها. ويعمل فى هذا المذبح ٢٠٠ جـزار انعدم النور من وجوههم، وكل ما فى هـذا المذبح من ذبائح فجلودها للدولة، وهـذا ما يلتزم به فلاح يسمى «على الجلاد».

- طائفة قصابى العجل:

لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠ قصاب، يبيعون كذلك لحم الجِمال.

- القصابون اليهود:

لهم عشرون دكانا، ويعـمل بها ٣٠ قصابا،ولا يشترى منهم أحد. ولحـمهم يبيعونه لذويهم من اليهود.

- **حرف اللبانين:** أى صانعى الماست[1]، لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

- **حرف لبانى الماعز:**

وهم ٣٠٠، يسيرون فى الأسواق بقطعان الماعز، ويبيعون لبنها.

وإذا ما أراد أحد شراء أوقية من لبن الماعز حلبوا له الماعزة فى علبة، ويبيعون الأوقية بـ «سكة»[2]، وإذا ما زاد اللبن المحلوب عن أوقية صبوه مرة أخرى فى فم العنزة وهم يطوفون فى الأسواق والحارات بعنزاتهم وهم ينادون قائلين «يا صباح اللبن».

- **صانعو الجبن الحالوم:**

لهم ٢٨٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠، وأشهر هذه الدكاكين دكان فى بولاق يسمى «ميت أوغى»، يمتلكه ويديره رجل عربى يبيع صنوفا من الجبن لا وجود لها فى بلد آخر ومذاق جبنه اللذيذ لا وجود له فى «مريشة» دمشق الشريفة.

إنه جبن سريع الهضم. أما صانعو الجبن من اليهود فهم يختلفون، ولا أعرف لهم عددا.

- **طائفة بائعى الأكارع:**

لهم (   )[3] دكانا، يعمل بها ١٢٠، وهم زملاء للقصابين.

- **بائعو الكبد:**

يبيعونها مطبوخة أو نيئًا، لا دكاكين لهم، ويبيعونها فى زنابيل أو على محفة. وهم ٢٠٠ بائع.

- **بائعو الكرش:**

لهم ٨٠ دكانا، وهم ١٢٠، وهم كذلك زملاء للقصابين، إلا أنهم لا يتبعون الطهاة.

- **طائفة بائعى الشمع:** لهم ٤٠ معملا، وهم ٣٠٠.

وهذه الطوائف العشر سالفة الذكر حملت كامل أسلحتها، وزين القصابون أغنامهم السمينة بحبل من الديباج المزركش، وعلقوا فى أحزمتهم الخناجر المرصعة بالجواهر وذهبوا قرون خمسة من خرافهم وسحبوها بسلاسل من فضة، ومروا قاصدين المذبح،

(١) الماست: اللبن الزبادى.   (٢) السكة: عملة متداولة.   (٣) بياض فى الأصل.

ومر كبير القصابين وسط فتيان مدججين بالسلاح وسط عزف الموسيقى العسكرية، وكان موكبهم غاية جمال الزينة.

(الفصل التاسع)
طوائف الطهاة

لهم ٦٠٠ دكان، وهم ١١٠٠، وأبوهم الروحى «إبراهيم عليه السلام»، وهم فى حمى كبير طهاة قصر الباشا وهو حاكمهم، وفى يده تعيينهم وفصلهم وتدبير شئونهم. وليس للمحتسب أغا سلطان عليهم. وفى هذا الموكب مر نائب كبير طهاة قصر الباشا جنبا إلى جنب مع رئيس طهاة المدينة.

- **بائعو الكباب:** لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٢٥٠.
- **بائعو اليخنى:** لهم ١٠٠ دكان وهم ٣٠٠.
- **بائعو الأرز باللبن والفالوذج:** لهم (   )[1] دكانا، وهم ٧٠.
- **بائعو الخضر:**

وهم يبيعون السبانخ والملوخية والبامية والبقول والقلقاس والقرنبيط والزعتر والفجل والجرجير والعجور والقثاء والخيار. لهم ٢٠٠ دكان وهم ٢٥٠.

- **بائعو الحلو:** لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

وصنوف الحلوى والزلابيا التى تصنع فى مصر لا وجود لها فى بلدِ آخر غيرها. والأب الروحى لهذه الطائفة هو «سيدنا عمر» رضى الله عنه.

- **بائعو السكر:**

لهم ١٥٠ دكانا، وهم ٢٠٠، ولهم ٠ معملا للسكر، يعمل بها ٣٠٠ ويصنعون السكر فى الوقت الذى تعينه لهم الحكومة، ويرسله الباشا إلى الأستانة.

- **طهاة السمك:** لهم ٨٠ دكانا، وهم ١٠٠.
- **طائفة صيادى السمك:** وهم ٦٠٠ صياد يتبعون الحكومة.

---
(١) بياض فى الأصل.

وقد مر هؤلاء من أصحاب الحرف، وهم يعرضون سلعهم، ويتبادلون الفكاهات ومر رئيس طهاة المدينة جنبا إلى جنب مع نائب كبير طهاة القصر، والموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل العاشر)

طوائف البقالين وبائعى الصابون وبائعى الحمص

أبوهم الروحى هو «عزى بن نباش»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، وتوفى وله من العمر مائة وعشرون عاما، ودفن فى القدس على مقربة من «عين السلوان».

ولهؤلاء جميعًا ١٠٦٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠٠.

وقد ارتدوا الملابس الفاخرة ومضوا فى موكبهم يتبادلون الفكاهات، ومر كبير البقالين جنبا إلى جنب مع وكيل السوق، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الحادى عشر)

طائفة الجراحين

لهم ٢٠ دكانا، وهم ٦٠ جراحا، وأبوهم الروحى هو أبو عبيدة القصاب الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، ودفن فى الإحساء.

- طائفة الحكماء (الأطباء):

لهم ١٩ دكانا، وهم ٤٠، وأبوهم الروحى هو «لقمان» عليه السلام، وفى العصر الإسلامى «ذو النون المصرى» الذى نال الإجازة من علّى كرم الله وجهه.

- طائفة صانعى المعاجين الطبية:

لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٢٢٠ «هاشمى»، وهم يستخدمون معجون الحشيش على نطاق واسع.

- طائفة صانعى الأدوية:

وهم يستخرجون سائر الزعتر والنعناع ولسان الثور والهندباء وما إلى ذلك من الأعشاب، وهؤلاء جميعا لا دكاكين لهم، ولكنهم يعملون فى منازلهم، وهم ٧٠ شخصا.

والطوائف السالف ذكرها يبلغ عدد أفرادها ٣٦٠، وهم من العسكر، وقد مروا مدججين بالسلاح، ومعهم كبير الأطباء وكبير الجراحين، والموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الثانى عشر)

طائفة صانعى السيوف

لهم ١٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠.

- **طائفة صانعى نصال الرماح:** لهم ٣٠ دكانا، ويعمل بها ٦٥.
- **طائفة صانعى السكاكين:** لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٢٦٠.
- **طائفة صانعى أربطة السروج:** لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠.
- **طائفة صانعى البنادق:** لهم ١٠ دكاكين وهم ١٨.
- **طائفة صانعى البارود:**

دكاكينهم ١٠ تقع عند باب الحديد، يعمل بها ١٨. وأبوهم الروحى «جمشيد»، وهم يتبعون رئيس الأسلحة.

- **طائفة صانعى الفتائل:**

لهم ٦ دكاكين، ويعمل بها ١١، علاوة على ٢٠٠٠ من الزنوج يفتلون فتائل البنادق من الكتان.

وقد مضى هؤلاء كذلك كل منهم يحمل فى يده قنديلا أو أكثر، وعلى أكتافهم فتائل محترقة، وهم يتبادلون الفكاهات بلغتهم.

وهؤلاء المذكورون آنفا عددهم ٢٣٥٢، وقد مروا وهم يطلقون بنادقهم ويعرضون سلعهم، ثم مر بعد ذلك كبير صانعى السيوف وكبير صانعى البنادق جنبا إلى جنب وفرقة الموسيقى العسكرية تصدح.

(الفصل الثالث عشر)

طوائف الحدادين

لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٨٠٠، وأبوهم الروحى «داود عليه السلام»، أما أبوهم الروحى فى العصر الإسلامى فهو «أبو زيد مسلم»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، وقبره فى صنعاء.

- **طوائف صانعى النعال:** لهم (   )[1] دكانا، وعددهم ١٥٠.
- **طائفة صانعى المسامير:** لهم ٢٠ دكانا، وهم ١٢٠.
- **صانعو المبرد:** لهم ٦ دكاكين أسفل تكية الكلشنى، ويعمل بها ١٠ من الصناع.
- **طائفة صانعى الأزميل:** لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٢٠ صانعا.
- **طائفة صانعى المنشار:**

يصنعون نوعا خاصا من المنشار يختلف عن غيره، دكاكينهم ٦، يعمل بها ٢٠ .

- **طائفة الفحامين:**

دكاكينهم ٥٠ بالقرب من البندقانى والنظامية وبعض الجهات الأخرى، ويعمل بها ٦٠.

- **طائفة صانعى الأقفال:** دكاكينهم ١٠، يعمل بها ١٥.
- **طائفة صانعى الخطاف:** دكاكينهم ٥٠، وهم ١٨٠.
- **طائفة صانعى الركاب:** دكاكينهم ٤٠، وهم ١٥٠.
- **طائفة صانعى المقص:** لهم ٢٠ دكانا، وهم ٦٠.
- **طائفة صانعى حدوة الأحذية:** دكاكينهم ١٠، وهم ١٥.
- **طائفة بائعى الحديد:** لهم ١٥ مخزنا، وهم ٢٠.
- **طائفة بائعى الأشياء القديمة:**

دكاكينهم ٦٠ عند الشيخونية، وميدان الروملى وجهات أخرى، وعددهم ٨٠.

- **طوائف صانعى حدوة الخيل:** دكاكينهم ٨٠، وهم ٢٠٠.
- **طائفة صانعى حدوة الحُمُر:**

دكاكينهم ٢٠٠، وهم ٣٠٠، ولكثرة الحُمُر فى القاهرة فصناعو حدوتهم كثير.

وهذه الطوائف الخمس عشرة عدد أفرادها ٢٠٠٣، وقد حملوا كامل أسلحتهم وعرضوا سلعهم على بسط، وسار كبير الحدادين جنبا إلى جنب مع رئيس صناع الحدوة وسط جماعة من الفتيان الصِباح المدججين بالسلاح.

---

(١) بياض فى الأصل.

(الفصل الرابع عشر)

طوائف صانعى المراجل

أبوهم الروحى هو «أبو حبيب محيى الدين البخارى»، دكاكينهم ٦٥، وعددهم ٦٠٠ إلا أنه ليست لهم مهارة صناع الترك.

- طائفة من يطلون النحاس:

دكاكينهم ٣، وهم ٤٠، يطلون قدور النحاس القديمة والتى علاها الصدأ.

- طائفة التجار:

لهم ١١٥ حانوتا فى خان الخليل، والصالحية وبالقرب من قلاوون، وهم ٢١٥ من أثرياء التجار، وفى كل دكان للواحد منهم أوانٍ من النحاس يصل ثمنها خمسة أو عشرة آلاف قرش، ولديهم مراجل المبرات، وقدور الكاشف، وليس لديهم المقدرة على تصنيعها فى مصر، فتأتى من بلاد الترك فى السفن.

- طائفة ميضى النحاس: لهم ١٥٠ دكانا، وعددهم ٣٠٠.

- طائفة من يصهرون المعادن:

إنهم صناع مهرة من عجائب الزمان، ويصنعون قضبان النوافذ وأبواب جميع الجوامع والمبرات، والأسبلة، ولا وجود لنظرائهم فى أى بلد آخر. دكاكينهم ٧٠، وعددهم ٥٠٠.

وعدد أفراد هذه الطوائف الخمس ١٠٦٥، وقد حملوا كامل أسلحتهم، وحمل كل منهم فى يده شمعة كافورية، ومضى كبير صانعى المراجل وكبير من يصهرون المعادن جنبا إلى جنب مع فرقتهم الموسيقية.

(الفصل الخامس عشر)

طوائف الصاغة

أبوهم الروحى «نصر بن عبد الله الصائغ»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه. دكاكينهم ٥٠٠، وهم ٢٠٠٠ معظمهم من النصارى. ومنهم صناع بلغت مهارتهم غاية الغايات.

- **طائفة الجوهريين:** دكاكينهم ١٠، وهم ٢٠.
- **طائفة الساعاتية:** أبوهم الروحى يوسف الصديق، لهم ٥ دكاكين، وهم ١٢.
- **رئيس طائفة ضاربى العملة:**

يعمل فى دار الضرب، وتنحصر فيه رئاسة هذه الطائفة، وليس فى الإمكان أن يوجد غيره يشغل هذا المنصب وهو لا يقترب من أحد ولا يختلط بأحد.

- **رئاسة صانعى الدمغة:** وهى تنحصر فى شخص واحد.
- **طائفة كانسى البرادة:**

يكنسون دكاكين الصاغة والجوهريين، ويستخرجون دقائق الفضة من كناستها.

- **طائفة العاملين فى دار الضرب:**

وهم ٣٠٠، ولهم أمين أغا، وناظر أغا، وصاحب عيار أغا، وأغا للوزانين ورئيس للصيارفة.

- **طائفة صيارفة الأسواق:**

لهم ٢٠٠ دكان، وعددهم ٣٥٠، نصفهم موظفون فى ديوان مصر، وهم يحصون الأموال الواردة من الملتزمين فى الديوان.

- **طائفة صاهرى المعادن:** لهم ٣ دكاكين، وهم ٢٠.
- **طائفة الرسامين:** لهم ٢٠ دكانا، وهم ٣٠.
- **طائفة النحاتين:** لهم ٤٠ دكانا، وهم ٦٠.
- **طائفة صانعى الأختام:** دكاكينهم ٣، يعمل بها ٣ أشخاص.

- **طائفة نساجى الصِرْمة:**

دكاكينهم ٦ ، يعمل بها ١٢ نساجا، وهم ينسجون صرمة الكسوة الشريفة.

- **طائفة صانعى المحابر النحاسية:**

لهم دكان واحد يديره رجل بارع يسمى «أمير جلبى»، لا نظير له فى صنعته، وكان قد اشترى عدة أزواج من الغنم من الكعبة الشريفة، فكانت تلد له فى كل مرة زوجا من الغنم، لذا تنتشر غنم مكة فى القاهرة الآن.

- **طائفة صانعى أوعية القصدير:**

لهم ٨ دكاكين، يعمل بها ١٨ ، وهم جميعا من اليهود والنصارى، والمسلمين فيهم قليل.

(الفصل السادس عشر)

طائفة الحلاجين

أبوهم الروحى «منصور زاهد القطان»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى، ومثواه فى مدينة «الرى»، وهو غير «منصور الحلاج» الذى صلب فى بغداد.

وللحلاجين ١٥٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

- **طائفة صانعى أغطية الرأس:** دكاكينهم ٤٠ ، يعمل بها ٦٠.
- **طائفة صانعى أغطية رأس النساء:** لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ١٠٠.
- **طائفة صانعى الطراطير:** لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٣٠٠.
- **طائفة صانعى اللحف:** لهم ٥٠ دكانا، يعمل بها ١٦٠.
- **طائفة صانعى القمصان:** لهم ١٥٠ دكانا، وهم ٢٦٠.
- **طائفة الرفائين:**

وهم يرفون الثياب التى عابها ثقب فيها فلا يظهر فيها أثر لرقعة، ولهذه الطائفة ١٢ دكانا، يعمل بها ٣٠.

- **طائفة مرقعى الثياب:**

أبوهم الروحى «عمار بن ياسر»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى، ودكاكين هذه الطائفة ٤٠ ، وعدد أفرادها ٣٠٠.

- **طائفة صانعى الخيوط:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.
- **طائفة الغزالين:**

أبوهم الروحى «عبد الله بن جعفر الطيار»، لهم ٣٠٠ دكان، وهم ١٦٠٠.

- **طائفة صانعى الأزرار:** لهم ٤٠دكانا، وهم ١٥٠ أغلبهم من اليهود.
- **طائفة صانعى الحرير:** لهم ١٠٠ دكان فى سوق الغورى، وهم ١٥٠.

وهذه الطوائف الأربعة عشر عدد أفرادها ٦٠٤٦، مر فتيانهم الصباح مدججين بالسلاح، ومر رئيس حاكة قصر الباشا مع «الشهر حواله» وهما يركبان جوادين ويسيران جنبا إلى جنب، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل السابع عشر)

طوائف الخيامية

أبوهم الروحى ناصر بن عبد الله المكى الحيان، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، وقبره فى بغداد إلى جوار الإمام الحسين.

ولهذه الطائفة ١٠٠دكان، ويعمل بها ٦٠٠ عامل غاية فى المهارة. وإن كانت خيامهم لا تبلغ فى جودتها وروعتها جودة وروعة خيام حلب واسطنبول. وهم يصنعون خياما ومظلات جيدة لا بأس بها.

- **طائفة صانعى الأحزمة:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.
- **طائفة صانعى حبال الخيام:** ليست لهم دكاكين، وإنما يعملون فى العراء، وهم ٣٠٠.
- **طائفة صانعى الحبال الغلاظ:**

وهم كذلك يعملون فى العراء، وعددهم ١٥٠٠. إنهم فقراء.

- **طائفة رفائى حواشى الخيام:** لهم ٣ دكاكين، وهم ٦ أشخاص.
- **طائفة (مطافان):**

وهم مثل صانعى الأرائك الخاصة بالخيام، ولذا فهم زملاء للخيامية مثل صانعى أحزمة الخيام. ولهذه الطائفة ٢٠٠ دكان، وهم ٦٠٠.

- طائفة الغسالين:

دكاكينهم ٨٠، يعمل بها ٢٠٠ غسال، وهم يغسلون الثياب، ولأنهم يغسلون الخيام يشتركون فى موكب الخيامية.

وهذه الطوائف الست عدد أفرادها ٣٢٥٦، وقد مضوا مرتدين ملابسا عسكرية، متبادلين الفكاهات، ومر كبير صناعى الخيام والفرقة العسكرية تعزف.

(الفصل الثامن عشر)

طائفة صانعى السهام والقسى

أبوهم الروحى أبو محمد بن عمران القواس، ولأنه - رضى الله عنه - كان يحمل السهم والقسى سمى بالقواس، وكان يصنعهما. أما سعد بن أبى وقاص فكان يرمى بالسهام وهو الأب الروحى للرماة بالسهام. ومن بعد أصبح الأب الروحى لصانعى القسى محمد الأكبر بن أبى بكر الصديق، وهو مدفون فى مصر فى رملة زين العابدين.

ولا بد لصانعى القسى والسهام من دكان يعملون فيه، ولهم ٤٨ دكانا، يعمل بها ١٦٠.

- طائفة الرماة:

لا دكاكين لهم، لأنهم أبطال ليس إلا، وقد نزلت فى شأنهم آية شريفة هى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. وعددهم ٨٠٠ بطل.

- طائفة صائدى الطيور:

وهم فى زمرة صانعى السهام، وعددهم ٦٠٠، يصيدون الطيور ويحضرون أجنحتها وريشها لصانعى السهام، ولذلك فإن عدد الطيور فى مصر قليل.

- **طائفة صانعى المراوح:** دكاكينهم ١٢، وهم ٢٦.

- **طائفة مربى الطيور:** لهم ٦ دكاكين، وهم ١٢.

- **طائفة بائعى الدجاج:** لهم ٢٠ دكانا، وهم ٣٠.

وهذه الطوائف السبع عدد أفرادها ١٦٢٩، وقد مضى منهم مائة مدججين بالسلاح ومائة آخرون حاملين المطارق ومروا مع كبير صانعى السهام والقسى، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل التاسع عشر)

طائفة الفرائين

وهؤلاء لا يتبعون أحدًا اعتماداً على قوتهم وعلى قوة رئيس فرائى الباشا. وأبوهم الروحى هو شنك شاه. وهو أول من لبس الفرو على أنه درع، وبقى ذلك عنه فاستحسنه الناس وبدأوا يلبسون الريش، والآن فى بلاد داغستان وبالوخان وقازان، وتتارستان يلبسون الريش.

وللفرائين فى مصر ٢٠٠ دكان، ويعمل بها ٨٠٠، لأن الفلاحين يكثرون من لبس فراء الغنم.

- **طائفة صانعى قلانس الفرو:** لهم ٦ دكاكين، وهم ١٦.
- **طائفة صيادى الحيوانات:** عددهم ٦٠٠.

وهذه الطوائف الثلاث يبلغ عدد أفرادها (   )[1]، ومضوا يحملون كامل أسلحتهم وعليهم فراء الأسد والنمر والببر والذئب، ومروا مثنى مثنى يجرون السلاسل، وألقوها على الناس الذين اصطفوا لمشاهدة موكبهم فتفرق الناس ثم مر كبير فرائى قصر الباشا وكبير فرائى المدينة وسط عزف الموسيقى العسكرية.

(الفصل العشرون)

طائفة نساجى كسوة الكعبة الشريفة

وهم يعملون فى جوسق يوسف. عددهم ٣٠٠، وعلى الرغم من أن عيونهم غائرة إلا أن صناعتهم فوق قدرة البشر وكأنها سحر إعجاز.

ويصبغ حريرهم طائفة الصباغين.

- **طائفة الصباغين:** لهم ١٧ معملا حكوميا، ويعمل فيها ٣٠٠.
- **طائفة صباغى القماش:** دكاكينهم ٣٠، وعددهم ٥٥.
- **طائفة نساجى البَزّ:** أى من ينسجون البز الملون. لهم ٤٠ دكانا، وهم ١٨٠.
- **طائفة البزازين:** لهم ٢٠٠ دكان، وعددهم ٣٢٠.

(١) بياض فى الأصل.

- **طائفة صانعى القمصان:** سبق الحديث عن هذه الطائفة.

- **طائفة الجلاة:**

أبوهم الروحى شيث بن آدم عليه السلام. لهم ١٨٠٠ دكان، وهم ٣٠٠.

وكثرة أفراد هذه الطائفة مما تختص به مدينة القاهرة، أما عدد من يعملون فى منازلهم الله أعلم بعددهم.

- **طائفة نساجى البسط:**

لهم عشرون ٢٠ مصنعا، وهم ٣٠٠ من مهرة الصناع الذين ينسجون بسطا من الحرير تبهر عين من يراها وتصيبه بالوله.

- **طائفة نساجى الأطلس والمخمل:** لهم ١٠٠ مصنع، وهم ٦٠٠ نساج ماهر.

وهذه الطوائف العشر عددها (   )[1]، مضوا وهم يعرضون سلعتهم وفى معيتهم ناظر الكسوة، وأمين طائفة نساجى الحرير متحازين، وفى أثرهم غلمان صِباح وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الحادى والعشرون)

طائفة الدباغين

أبوهم الروحى «زيد الهندى»، وهو راوية للحديث، ونال الأجازة من سلمان الفارسى بين يدى على كرم الله وجهه، وقبره فى مكة.

ولهذه الطائفة ٢٠٠ دكان، وهم ٣٠٠ من مهرة الصناع.

- **طائفة صانعى الرقوق:** لهم ٦ دكاكين، وهم ٢٠.

- **طائفة صناعى اللباد:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.

- **طائفة بائعى الجلود:** لهم ٦ دكاكين، وهم ٩.

ويبلغ عدد أفراد طوائف الدباغين (   )[2]، وقد مضوا يلبسون القلنسوة والقباء من الفرو قارعين طبولهم.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

(الفصل الثانى والعشرون)

طوائف الخفافين - أى الإسكافية.

دكاكينهم قليلة، لكنهم كثيرون فى الوكالات. لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٥٥٠٠.

- **طائفة صانعى الخف الشركسى:** لهم ٧٠ دكانا، وهم ٢٠٠.
- **طائفة صانعى الجوارب:** لهم مائة دكان، وهم ٨٠٠.
- **طائفة صانعى الخفاف التى تلبس فى المنزل:** لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.
- **طائفة صانعى الأحذية طويلة الساق:**

لهم ( )[1] دكانا، وهم ١٥٠، وهؤلاء يختصون بتصنيع هذا النوع من الأحذية لبيعه لرجال الباشا وضيوفه. فالمصريون لا يلبسون ذلك النوع من الأحذية بل يلبسون الخفاف الشركسية الحمراء.

- **طائفة بائعى الأشياء القديمة:**

علاوة على دكاكينهم عند أبواب الحمامات لهم ٦٠٠ دكان، وهم ١٢٠٠.

ومن يسرقون الخفاف من المساجد وغيرها يبيعونها لهم.

- **طائفة بائعى الخفاف الحاضرة:**

لهم ٣٠٠ دكان نظيف بالقرب من باب الحديد، وفى خان الخليلى، وهم ٦٥٠.

والأب الروحى لصانعى الخفاف وتجارها «محمد الأكبر اليمنى»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى، وعمر مائة وعشرين عاما، وقبره فى البصرة.

وعدد أفراد هذه الطوائف السبع ( )[2]، وقد مضى صفوتهم مدججين بالسلاح وفى معيتهم كبير الخفافين، وهم قارعين الطبول متبادلين الفكاهات.

(الفصل الثالث والعشرون)

طوائف السراجين

أبوهم الروحى أبو النصر حاتم البغدادى، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه. لهذه الطائفة ٦٠٠ دكان، وعددهم ١٠٦٠ من الأثرياء الأتقياء.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- **طائفة صانعو السروج:** وهم يصنعون السروج من الخشب، لهم ٢٠ دكانا، وهم ٥٥.
- **طائفة صانعى سروج الحُمُر:** لهم عشرون دكانا، وهم ٦٠.
- **طائفة صانعى القرب:**

لهم ١٠٠ دكان وهم ٦٠٠. وجميع الحجاج فى حاجـة إليهم، فهم يقومون بأعظم الأعمال، وبعضهم من المتصوفة.

- **طائفة صانعى السلال والصناديق:** دكاكينهم ٤٠، ويعمل بها ١٥٠.
- **طائفة صانعى الإكاف:**

أبوهم الروحى «أبو ذر الغفارى»، لهم ٨٥ دكانا، وهم ٣٠٠.

وهذه الطوائف الخمس عدد أفرادها ( )[١]، مضوا حاملين كامل أسلحتهم وفى أيديهم شمـوع الكافور ووجوهم تشع نورا واجتـمعوا فى مكان فكأنهـم الشمس بددت ظلام الليل، ومروا قارعين الطبول.

(الفصل الرابع والعشرون)

طائفة العطارين

أبوهم الروحى حسام بن عبد الله البصرى، أخذ الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه بين يدى الرسول ﷺ، وتتبع طائـفة العطارين عدة مئات من الطوائف الأخرى لأن كل شئ لدى هؤلاء العطارين، ولهم ١٢٠٠ دكان، يعمل بها ١٨٠٠ شخص.

- **طائفة سوق الفحامين:**

يبيعون الأعشاب الطبية والأدوية، لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ١٥٠ معلما كلهم أطباء.

- **دكاكين شمع العسل:** لهم ( )[٢] دكانا، يعمل بها ٨٢.
- **طائفة بائعى المسك:** لهم ١٠ دكاكين، وهم ١٥.
- **طائفة بائعى الصابون المسك:** لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١٢.
- **طائفة بائعى العود والعنبر:** لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ٢٠.
- **طائفة بائعى ماء الورد:** لهم ٤٠ دكانا يعمل بها ١٠٠.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- طائفة بائعى البخور:

يصغنون البخور لمكة والمدينة. لهم ٢٠ دكانا، وهم كذلك ٢٠ شخصا.

- طائفة بائعى الفناجين: لهم (   )[١] دكانا يعمل بها ٥٠ شخصا.

- طائفة بائعى أوعية الفخار للعطارين:

لهم ٢٠٠ دكان يعمل بـها ٢٠٠. يتوفر لديهم أوعية فخاريـة وأكواب يتسع الواحد منها لرجل، وهم من أهل التقوى والصلاح.

- طائفة بائعى الكبريت:

لا دكاكين لهم يعملون بها لأن رائحة الكبريت كريهة، لذا فهم يعملون فى منازلهم وعددهم ٢٠٠.

- طائفة صانعى القذائف النارية:

٨ دكاكيـن، وهم يصنعون مـختلف أنواع القـذائف النارية بـآلاف الحيل الشيطـانية ودكاكيـنهم عند باب الحـديد. وفى عهد إبراهـيم باشا فى يوم الـعيد اتفق أنهـم باعوا القذائف للصـبيان كالمجانين وفى الحال أشعـل أحد الغلمان قذيفة انطـلقت داخل أحد دكاكيـنهم ففجرت عـدة آلاف من القذائف النـارية وعدة قناطـير من البارود فتـطايرت دكاكينهم فى الـهواء وسط الطريق العام الذى كان يغص بالمـارة، وشوت القذائف أكثر من أربعين شخصا من بينهم كبير هذه الطائفة، وجرح مائتان.

إنها حرفة ملعونة إلى هذا الحد البعيد، ومع ذلك ففى موكب العطارين أطلقوا آلاف القذائف الناريـة على الأماكن القديمة التى لا يـسكنها إلا العناكب ولم يـنتج عنها أى حريق بإذن الله، ولو كانت هـذه النار فى اسطنبول[٢] لضاعت هباء والعياذ بالله. لقد حفظ الله مصر.

- طائفة صانعى النارجيلة:

لهم ٣ مصانع يعمل بها ٣٠٠، وكثير من الناس يدخنون النارجيلة.

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) كانت اسطنبول فى ذلك الوقت معظم مبانيها من الخشب، لذا فهى بلد كثيرة الحرائق.

- **طائفة بائعى الحناء:** ٣٠٠ تاجر، مخازنهم فى الوكالات.

- **صانعو الحصير:**

لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠ ينسجون شتى أنواع الحصير المنقوش الذى يبلغ غاية الغايات فى جماله وجودته. ومن عجب أن منهم العميان، وأعجب من ذلك أن هؤلاء العميان يصنعون المراوح من سعف النخيل ويشكلون عليها عبارات مثل: «يا شافى، يا كافى، وشفاء القلوب»، وما يجرى هذا المجرى.

- **نساجو الكتان:** لهم ٢٠٠ دكان يعمل بها ٢٥٠ نساجا.

- **طائفة تجار البُن:**

٦٠٠ من التجار الأثرياء، إلا أنهم أرسلوا خدامهم إلى هذا الموكب ومروا ناثرين البُن على حشود الناس.

- **طائفة تجار الأرز:**

وهم كذلك من ثراة التجار، وقد سلحوا خدامهم وأرسلوهم إلى الموكب، وهم ١٥٠٠ تاجر بالتمام.

- **صانعو المصائد أو الشرك:** لهم ٣٠٠ دكان يعمل بها ٥٠٠.

- **طائفة ناسجى شباك السمك:**

لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١١ نساجا.

وموكب العطارين كان يتألف من (   )[١] شخص ولموكبهم مهابة وما فيه من عظمة وأبهة لم يكن لأى موكب آخر. وما فى موكبهم من زينة وفتيان صباح لا وجود له فى طائفة غيرهم، ومر كبير العطارين وفى معيته فرقة الموسيقى العسكرية رباعا رباعا وهم يعزفون وغلمانهم يرفعون أصواتهم بالهتاف والتهليل على نحو يعجز عنه.

---

(١) بياض فى الأصل.

(الفصل الخامس والعشرون)

طائفة الحمامية

لهم ٥٥ حماما، والحمامية كذلك ٥٥ . وأبوهم الروحى «حسن بن عثمان».

- **طائفة المنادين:** إنهم ١٢٠٠ .
- **طائفة النواطير:** إنهم ١٠٠٠ ، أبوهم الروحى «المنصور بن القاسم».
- **طائفة صانعى العمائم:**

لهم دكان فى أعلى القلعة، وهم ٣ من البكم يصنعون العمائم المعروفة بالمجوزة والبريشانى والقلاوى لأعضاء الديوان.

وهذه الطوائف السبع عدد أفرادها ( )[1]، وقد ارتدوا الملابس العسكرية وأصبحوا فى كامل زينتهم حاملين كامل أسلحتهم ومضوا على تلك الهيئة ومن خلفهم صبيانهم قارعين الطبول.

(الفصل السادس والعشرون)

طائفة نقاشى القسى

يعملون فى بيوتهم، وكل منهم فى فنه بهزاد ومانى.

- **طائفة المذهبين بصحائف الذهب:** أى دكاكين صحائف الذهب وهى ٣ يعمل بها ١١ .
- **طائفة المذهبين:** لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١١ . إلا أنهم ليسوا مهرة فى فنهم.
- **طائفة مجلدى الكتب:** لهم ٨ دكاكين يعمل بها ١٥٠ .
- **طائفة الصحافين:**

لهم ٢٠ دكانا يعمل بها ٣٠. أبوهم الروحى «عبد الله اليتيم»، وهو مدفون فى سهل الخرق بالحبشة، وقد تيسرت لى زيارته ثلاث مرات، وضريحه يزوره العوام والخواص.

- **طائفة الوراقين:** لهم ٥٠ دكانا يعمل بها ٦٨ .
- **طائفة صانعى أختام الأوراق:** لهم ١١ دكانا يعمل بها ٣٠ .

(١) بياض فى الأصل.

- **طائفة الرمالين (المنجمون):**

لهم (   )[1] دكانا يعمل بها ٤٠ شخصا ولكن فيهم الجهابذة الكمل.

- **طائفة كاتبى «العرضحال»:**

٤٥ دكانا يعمل بها كذلك ٤٥، منهم نصارى سريعو الكتابة.

- **طائفة صانعى المداد:**

لهم ٣ دكاكين يعمل بها ٦، وهم لا يذيبونه فى هاون مثل الترك، وإنما يغلونه على النار.

- **طائفة المصورين:**

إنهم ٢٠، ولا دكاكين لهم، وفى كل مكان يجتمع فيه الناس يرسمون صورا على الجدران تكون غاية فى الروعة والإبداع.

- **طائفة الزجاجين:** لهم ٨ دكاكين يعمل بها ٢٠.

وعدد أفراد هذه الطوائف المذكورة أعلاه (   )[2]، مضوا مقيمين الزينات حاملين القناديل وفى معيتهم كبير الرسامين وسط عزف الفرقة العسكرية.

(الفصل السابع والعشرون)

تجار خان الخليلى

لهم ١٥٠٠ خزانة متنوعة تقوم طائفة من الحراس على حراستها كل ليلة وهم ستمائة من الزنوج الشجعان يحملون الحراب، وفى كل ليلة تضاء أرجاء الخان بثلاثة آلاف قنديل.

- **طائفة الدلالين المعتمدين:** عددهم ٣٠٠ دلال.
- **طائفة الدلالين الضامنين:** وهم ٦٠٠ دلال.
- **طائفة سماسرة الخيول:** عددهم ٢٠٠ لهم أمين أغا واحد، وجورباجى واحد، وثلاثة كتاب.
- **طائفة وسطاء سوق الخيول:** وهم ٢٠٠ شخص.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- **طائفة سماسرة خان الخليلى:**

عددهم ٥٠، ومهمة هؤلاء هى أنه إذا شاء أحد شراء شىء ما نادر بحث عنه هؤلاء السماسرة وأخبروا المشترى بمكانه.

- **طائفة الصوافين:** لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ١٨.

- **بائعو الحرير والمخمل والخلع والبز والسجاجيد والعباءات والعمائم:**

وعدد أفراد هذه الطوائف سالفة الذكر (   )[1]، وهم قد حملوا كامل أسلحتهم وأصبحوا وكأنهم الجيش الجرار، ووصفهم فى فكاهاتهم وزينتهم مما يقصر عنه الوصف ومروا وفى معيتهم كبير التجار وكبير الرسامين وكبير الوراقين، وطبولهم تقرع.

(الفصل الثامن والعشرون)

طائفة المهرجين

ذكروا تفصيلا فيما سبق، وهم جميعا ٧٠٠٠٠ مهرج يمثلون ٧٠ طائفة وإذا ما تحدثنا عن ماهية كل منهم لطال بنا الكلام ونكون قد امتدحنا الدجال وما قالوا من فكاهات وأضاحيك فى تلك الليلة لم يأتى بمثلها أبوهم الروحى «أبو على». حتى أن جميع المشاهدين وضعوا أصابعهم على أفواههم مندهشين متعجبين وبالغوا فى الضحك. وهؤلاء من شياطين الإنس فى مصر لا وجود لهم فى أوربا ولا الهند. وبينهم من كان يلعب بالنار فى الموكب ويطلق القذائف النارية ولم يكن لهؤلاء فرقة موسيقية لأنهم يجتذبون انتباه الناس إليهم أكثر من الفرقة الموسيقية.

(الفصل التاسع والعشرون)

طائفة الموسيقيين

أبوهم الروحى فيثاغورث التوحيدى وعبد الله الفارابى . عددهم ٧٠٠، وقد مروا وهم يعزفون على سبع وأربعين آلة موسيقية.

---

(١) بياض فى الأصل.

(الفصل الثلاثون)

موكب جند مصر

مروا موكبًا موكبًا يفصل الموكب عن الآخر زينات من القناديل والمشاعل، ومرت كل فرقة وفيها شعراء ومغنون وعازفون. وبعد مرور موكب المصريين على هذا النحو مر أغوات الباشا وهم فى كامل زينتهم وأبهتهم متحازين، وجنائب الباشا وملازمو الانكشارية من ذوى الطوغين، وشطار الباشا وعلى رءوسهم الخوذات، وسقاءوا ركاب الباشا وفى معيتهم المحتسب أغا الذى امتطى جوادا مطهما عليه سرج محلى بالجواهر وكان يلوح بالسلام على جانبيه، وفى أثره مضى كتخدا بوابى الباشا وأربعمائة من غلمان قصر الباشا وسط عزف الفرقة العسكرية ذات التسعة صفوف، وبعد ست ساعات وصل الموكب العظيم إلى قصر القاضى عسكر وأطلقت فرقة المدفعية طلقة واحدة تحية وابتهاجا وصفق جاويشية ديوان مصر. ثم تقدم القاضى عسكر وتبوأ مكانه فى المجلس. وبعد تقديم القهوة وماء الورد وإحراق البخور ألقى المحتسب أغا كلمته ترحيبا بالقاضى عسكر أفندى فقال:

«إن مولاى صاحب الدولة يقرأ عليكم السلام. هل هذه الليلة المباركة ليلة رمضان؟ وهل غدا غرة الشهر المبارك أم يوم الشك؟ أننوى الصيام؟ أفتِنا يا مولاى حتى نرسل هذه الجموع من الجند حاملة البشرى لسلطاننا بحلول شهر رمضان المعظم». وعندما انتهى المحتسب أغا من إلقاء كلمته قال قاضى العسكر أفندى: «ليحضر فى التو شيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة» وعندئذ تقدم نحو القاضى عسكر جميع العلماء والصلحاء وشيوخ الإسلام.

وإن كان الهلال ظهر فإن ذلك يثبت ويقيد فى سجلات القاضى عسكر، ويسلم المحتسب أغا حجة شرعية فيها أن غدًا هو غرة رمضان. فيرسل المحتسب أغا والكتخدا البُشرى إلى الباشا ويقرأ الباشا الحجة الشرعية وينوى الصيام بناء على ما ورد فيها. وتضاء القناديل أول ما تضاء فى منارة جامع الدهيشة فى ميدان قصر الباشا ومن بعد فى منارات جامع قلاوون وتطلق المدافع فى القلعة فى منتصف الليل أربعين طلقة أو أكثر

فتهتز السماء والأرض وتزدان الثمانمائة وستون منارة فى مدينة القاهرة فإذا هى نور على نور، ويمضى كل شخص لأداء صلاة التراويح وينوون الصيام.

وإذا سأل المحتسب أغا قاضى العسكر أفندى ولم يشاهد الهلال، فإن القاضى عسكر - طبق القانون- يبسط سماطا ليسد جميع الأغوات والأعيان وأرباب الديوان جوعتهم، ويمر جميع أفراد الطوائف الذين فى فناء قصر قاضى عسكر أفندى من أمام مجلس المحتسب أغا وقاضى العسكر حاملين زيناتهم. ثم يطلق اللاعبون بالألعاب النارية سبعين قذيفة كقذائفهم فى يوم الإحتفال بقطع النيل، وتستمر عروضهم ثلاث ساعات، وعندما ينتهى موكب المغنيين والموسيقيين يبدأ موكب جند الأوجاقات السبعة فى التحرك لإخبار الباشا بأن هلال رمضان لم يشاهد من أى جهة إلى تلك اللحظة ولا تضاء القناديل ولا يكون يوم تلك الليلة رمضان وإنما يوم الشك. وبما أن هذا الأمر يحتمل وجهين يخبر المحتسب حتما الباشا بذلك.

وعندما حانت لحظة الوداع خلع المحتسب أغا على القاضى عسكر أفندى خلعة أرسلها إليه الباشا لأن القاضى عسكر فى تلك الليلة أنفق ألف قرش فى ضيافته تلك. وعلى هذا النحو مضى المحتسب أغا ثانية إلى الموكب وعاد إلى منزله قبيل الفجر، وعندما نزل عن صهوة جواده تبادل شيوخ الطوائف الفكاهات قائلين «طريق طريق» ويمضون فى شوارع القاهرة فى ضجة وجلبة كما مضى الشيوخ إلى بيوتهم وعاد الجميع إلى ديارهم. وعندما وصل المحتسب فى موكبه إلى داره جلس على كرسيه وبعد أن وزعت القهوة والبخور على أغوات الأوجاقات السبعة منح طائفة العسكر - على نحو ما سبق ذكره فى تعريفات الطوائف العسكرية - كيسين ومضى جند مصر جميعا. ثم منح أغوات الباشا كيسين ليوزعوها فيما بينهم وكيسين لتقديمهما إلى الباشا ونصف كيس للكتخدا كما وزع المحتسب أغا العمائم على اثنى عشر من أصحاب المراتب من أغوات قصر الباشا تطييبًا للخاطر.

وعلى هذا النحو انتهى موكب ليلة المحتسب أغا. والمنح التى قدمها المحتسب أغا للباشا والكتخدا وأغوات الباشا وأفراد الأوجقات السبعة فهى من الأكياس العشرة التى جمعها ممن تحت إدارته من طوائف الشيوخ الثلاثين أصحاب الطبل خانه ومن

تحت سيطرته كذلك من أفراد مائة وستين طائفة حرفية، وذلك بمعاونة الكتخدا والنقباء والجاويشية.

ولكن بما أن عدة طوائف تحت إدارة خدام الباشا لا يحصل منهم أى شيء. فالطهاة تحت حماية كبير طهاة الباشا، وجميع أصحاب المقاهى تحت حماية رئيس شطار الباشا، وجميع الخبازين تحت حماية كبير خبازى القصر وكل الجوهريين تحت حماية كبير جوهريى الباشا.

وبما أننى كنت أعد فى خدمة الباشا والأمين أغا وصاحب العيار ورئيس ضاربى العملة والناظر أغا والوزان أغا و١٥ من (وهده كش)، وعشرة من حراس الخزانة وضاربو العملة العشرون وعشرون من الماهرين وخمسة من الفرائين وعشرة من «يصى جى»، وعشرة من الصيارفة القائمين على الإحصاء وعشرة من الوزانين ورئيس الصيارفة وهو واحد وهؤلاء جميعا يبلغ مجموعهم خمسمائة من العاملين فى الضرب خانه لا يدفعون شيئا للمحتسب.

وجميع الحاكة تحت حماية كبير حاكة الباشا لا يدفعون شيئا كذلك.

ونفس الشأن بالنسبة للفرائين الذين تحت حماية رئيس فرائى الباشا. إلا أن هؤلاء جميعا يشتركون فى الموكب. وهذه الطوائف لا تدفع أى أموال للمحتسب فى الظاهر ولكن حينما يعزل الباشا فلا يقام أى وزن لرئيس الشطار ولا رئيس الطهاة ويرهبون المحتسب ولذا يقدمون له الأموال سرا وعلانية لأنه حينئذ الحاكم الحر المطلق الإرادة الذى يخشونه. ويساهم أهل الطوائف جميعا فى نفقات موكب ليلة المحتسب حسب ما جاء فى قانون مصر.

وموكب ليلة المحتسب أحد مواكب الأعياد فى مصر والبالغ عددها (   )[1]، ولا نظير لهذا الموكب على وجه الأرض. حتى أن أهل مصر يحددون مواعيد زواجهم على ليلة هذا الموكب.

وإذا ما تحدثت عما رأيته تفصيلا لاقتضى ذلك منى تأليف مجلد قائم بذاته. لذا تحدثت عنه بإيجاز.

***

(١) بياض فى الأصل.

الفصل التاسع والأربعون
ذكر أهل الصناعات فى مصر
ممن لا وجود لهم فى غيرها من البلاد

- الترياق الفاروقى:

إن الترياق الفاروقى الذى يجهز فى مستشفى قلاوون التى سلف الحديث عنها لا وجود لمثله فى الدنيا بأسرها. ومن مصر يصدر هذا الترياق ومشتقاته إلى شتى بقاع العالم.

- الترياق الكنعانى:

وفى المستشفى ذاته يصنعون سما زعافا يبلغ من قوته أنه يؤثر على الخيول والبغال حتى من حوافرها. و«الترياق الكنعانى» يبطِل مفعول هذا السم. إنه عبارة عن شىء صلب أصفر يشبه الكشتبان. ولله الحمد أننى أملك شيئا من هذا الترياق. وقد اكتشفه من يدعى كنعان رحمه الله بينما كان يبحث فى علم الكاف. وكان متضلعا من شتى العلوم ولم يفته الإحاطة بعلم قط. حتى إنه كان له سبعون من مخترعاته حازت على إعجاب العالم بأسره.

- معجون العقرب:

إنه كذلك شىء عجيب، وممن يجرى عليهم راتب من أوقاف قلاوون من إذا رأهم الشيطان استعاذ بالله يسمون «صيادى العقارب»، وهم عشرة أشخاص. إذا ما أراد كبير الأطباء تحضير «معجون العقرب» هذا أرسلوا هؤلاء الصيادين إلى البرية وهناك يحفرون عدة حفر فى الرمال، ويضعون فى كل حفرة وعاء من الفخار المبطن من الداخل بالزجاج، ويسوون فوهته بالأرض ويضعون بداخله قطعة من الكبد ويضعون قطعا أخرى عند حافته حتى إذا ما انتصف الليل خرجت العقارب متصيدة فتشم رائحة الكبد ويسيل لعابها كالكلب وتسقط فى الوعاء إذا ما بلغت حافته. ويتوالى سقوط العقارب على هذا النحو. وفى الصباح تكون هذه الأوعية قد امتلأت بما لا يحصى كثرة من العقارب وتصبح عاجزة على الخروج منها. فيأتى الصيادون ويملأون مخلاتهم بهذه

العقارب ويسلمونها إلى كبير الأطباء فى مستشفى قلاوون. فيقومون بقطع ذيلها وأرجلها بالمقص ويطبخونها فى قدور من الفخار ويفصلون زيتها ويصنعون من لحمها معجونا بالسكر.

وإذا ما أصيب أحد باحتباس البول وأكل منه مقدار نصف حبة حمص تفتحت مثانته فهذا المعجون مدر قوى للبول. ولكن ينبغى عدم الإكثار من استعمال هذا المعجون.

- **مصنع السكر:** وهو حقا جدير بالمشاهدة.

- **معمل النوشادر:** وهو جدير كذلك بالمشاهدة وسوف أتحدث عنه فى حينه.

- **مصنع ملح البارود:**

إنه مصنع عظيم فى بولاق يستحق المشاهدة، وفى القرى الأخرى مصانع كثيرة لملح البارود وكلها مملوكة للدولة. ويصنعون منه البارود الأسود.

- **ملح النطرون:**

إنه كذلك يشبه الملح. والكثرة الكاثرة من أهل مصر يستخدمونه بديلا من الملح فى طعامهم فهو ينضج اللحم فى طرفة العين. كما أنه إذا أذيب فى طعام نيئ حله لذا لا لذة فى طعام أهل مصر. ولندرة الحطب فى مصر يضعون هذا الملح فى طعامهم كى ينضج سريعا. بيد أنه يسبب تورم الخصية وسلس البول لمن يستعمله بكثرة.

وصانعو النرجيلة يستخدمونه كذلك. ويُصَدَّر من مصر إلى بلاد الترك. وبإضافته إلى الزجاج يذيبه ويجعله كالماء عندما يوضع على نار هادئة. ويوجد بكميات هائلة فى مخازن بولاق بالقاهرة. ولهذا الملح أمانة مستقلة وهو يدر دخلا للحكومة.

- **طائفة صانعى خزانات ماء الحمامات:**

إن خزانات المياه الساخنة لجميع الحمامات مصنوعة من الرصاص، وهذا أمر عجب.

فى بيان قبائح مصر وطوائف الصوباشى

وهذه الطائفة ملاعين وزنادقة.

- **بغايا باب اللوق:**

٨٠٠ بغى، وهن من أهل المعصية، ولهن أكواخ بين الرمال وعند باب حصن باب اللوق:

- بغايا المنازل:

وهن يعملن سرا فى منازلهن، ولكن لهن قوادون. وعددهن ٢١٠٠ بغى، وهن مقيدات فى دفتر الصوباشى ويؤدين الضرائب. ولأنهن تحت سيطرة طوائف الجند لا يستطيع الصوباشى تحكما فيهن ولذا لا تقع البغى تحت طائلة العقاب.

- غلمان باب اللوق:

يترددون على المقاهى والخانات وميدان الروملى وكلهم مأفونون ولوطيون. وهم كذلك يؤدون الضرائب للدولة.

- شيوخ القوادين:

إنهم ٣ أحدهم فى باب اللوق والآخر فى مصر العتيقة والثالث فى مصر الجديدة. وجميع البغايا والغلمان مقيدون فى سجلاتهم. وعليهم دفع الضريبة للدولة.

- جاويشية باب اللوق:

٤٠ وهؤلاء يعرفون بيت كل بغى ويعرفون كذلك هل باتت البغى فى منزلها أم لم تبت.

- دياثو باب اللوق:

يمضون من بيت إلى بيت مقيمين سوقا كسوق الخيول والبغال ويربحون من ذلك.

- قوادات النساء:

إنهن عجائز مهمتهن البحث عن حسان البغايا لمن يقبل عليهن وينلن عن ذلك أجورهن. وهن ٣٠٠ عجوز لعينة.

- المتسوقه:

يذهبون لشراء ما يطلب منهم من حانات باب اللوق أو دكاكين الكباب وينقلون آلات الطرب ويتقاضون على ذلك أجورهم وهذا ما يكفل لهم العيش.

وبعض الفتيان من أسفه السفهاء يستأذنون من سادتهم فى الخروج بحجة أنهم ماضون إلى الحَمَّام ويولون وجوههم شطر باب اللوق. وحينما يجالس الواحد منهم

بغيا فى أحد الأكواخ تطلب منه خمرا وكبابا بـ «باره»[1] وفى التو يعطى من يذهب إلى السوق ٣ أقچات[2] ليهيئ طلبه. ويضعون فى الخمر القرنفل الأبيض والطاطوله وصمغ الأذن ورماد الحصير. وإذا ما تناول هذا الشاب قدحا ثمل ومال كأنه غرارة الحناء.

وسرعان ما يجردوه من كل ملابسه وسكينه وخنجره، وكيس نقوده ويحمله الرعاع دون أن يحقق مرامه ليطرحوه فى الطريق ولا يستطيع أحد أن يكشف سر من جرد من ثيابه وبقى عاريا هكذا. وإن كان لديه كثير من النقود قتلوه وأخفوا جثته دون أن يعلم أحد إلا الله.

وفى عهد «جان بولاد زاده» كثر القيل والقال عن وقوع مثل هذه الحوادث فأصدر الباشا أوامره إلى أحد رؤساء البوابين بهدم بيوت هؤلاء الفُسَّاق، وعندئذ جمع الأغا المذكور ألفا من الزنوج والفلاحين فسووا بالأرض جميع الحانات ومضارب البوزة وبيوت الدَّعارة ونفى جميع البغايا وطهر القاهرة من رجسهن.

والغرض من ذكرنا لهؤلاء هو تنبيه الغافلين حتى يتحرزوا منهم فى المناطق التى يجب التحرز فيها.

- شيخ الشحاذين:

له تكايا فى ميدان الرومـلى يجتمع فيها كل الشحاذين. وله اثنا عشر من الجاويشية يقفون عند باب الباشا وباب القاضى عسكر أفندى حتى يخبروا شيخهم بأى صوب يمضى الباشا فيحتشد الشحاذون على جانبى الطريق العام. ويبلغ عدد الشحاذين فى القاهرة ٩٠٠٠ شحاذ وهم مقيدون فى دفاتر شيخ الشحاذين وهم يتلقون الصدقات من الباشا والأعيان ويدعون الله لهم بالخير.

وإذا ما بسط شحاذ لسانه بالسوء فى حق أحد نبه شيخه بذلك ليقتص منه.

- أضحوكة أخرى:

وفى يوم خروج الكسوة الشريفة يركب شيخ الشحاذين حمارا وإلى جانبه أعور وأقطع وأقرع ومعهم عدة آلاف من الشحاذين. وهذا ما لا وجود له فى بلد آخر غير مصر.

(١) الباره: العملة العثمانية.

(٢) الأقچه: وحدة النقد العثمانية.

- طائفة صانعى القناديل:

لهم ٤٠ دكانا، تظل مفتوحة حتى الصباح أيام الموالد والمواسم وشهور رجب وشعبان ورمضان. وتزين هذه الدكاكين بالقناديل. ويلزم كل تاجر أن يضع قنديلا على دكانه المغلق. وفى ليالى المواسم تزين المدينة بالقناديل. وإذا ما أردنا إشعال ألف قنديل أو أكثر اتفقنا مع أفراد هذه الطائفة على أن يزينوا المنازل والطرق العامة بالقناديل. وهذا فى مصر وحدها لا فى بلاد غيرها.

- تجار الرقيق:

عددهم ٢٠٠٠، مقرهم فى الوكالات. يمضون فى العام مرة إلى بلاد الفونج وولايات أواسط أفريقيا لصيد الزنوج. وأغلب تجار هذه الطائفة من جنوب مصر.

- جراحو تجار الرقيق:

عددهم ١٠ يعملون فى منازلهم أما مهنتهم اللهم عافنا فهى إجراء عمليات الخصى حيث يقدمون شراب الزعفران المخدر إلى أربعين أو خمسين أو مائة من الأطفال الزنوج ثم يصففونهم ويقطعون بالموسى ذكورهم بأكملها ويضعون قطعة من القصب فى موضع الذكر ويوقفون نزيف الدم بمسحوق أحد الأعشاب التى تنمو فى السودان ويضعون مسحوق أشجار السنطة مع دهان أسود ثم يلفون الجرح بقماش معين. وبذلك ينقطع نسل جميع هؤلاء الأطفال الأبرياء.

إنهم عشرة رجال سمر البشرة لا يعرفون الرحمة، قساة، انعدم النور من وجوههم الدميمة. وقد خصوا أكثر من مائة من الأطفال الزنوج ليرسلونهم هدايا إلى كتخدا إبراهيم باشا ومضيت لمشاهدتهم فإذا بهم - الله عافنا- كالدجاج المذبوح مقيدين، منهم من يخر على الأرض إعياء ومنهم من امتنع عن النطق من عدة أيام.

إلى هذا الحد البعيد هؤلاء النخاسون قساة.

- نساجو البسط:

لهم ٢٠ مصنعا، يعمل بها ٣٠٠ نساج ينسجون البسط الحريرية والسجاجيد التى يعجز اللسان عن وصف جمالها وروعتها. وعلى الرغم من أن السجاجيد تصنع فى مدينة عشاق وقولا و والاشهر إلا أنها ليست فى جودة ما ينسج فى مصر منها.

- الحَمَّارة:

إنهم ٣٠٠ حَمَّـار. وحُمُر القاهرة حُـمُر سريعة لا يدركـها الخيول السريـعة. وفى القاهرة ٤٠٠٠٠ حمار على نحو ما يقال. وجميع أعيان مصر يركبونها ما فى ذلك من عيب. لأن ذلك سُنَّة عن الرسول ﷺ. فقد كان له حمـار يسمى «اليغفور» يركبه على الدوام. حتى إن أحدا إذا ركب حمارا وسخر منه أحد اتهمه الناس بالكفر والزندقة.

- حلاقو الحمر:

لا دكاكين لهم، إلا أنهم يوجدون فى أماكن معـلومة يظلون فيها. وهم يقصون وبر الحُمُر والجِمال مرة كل شهر. وعددهم ٢٠٠ حلاق يـقصون وبر الحُمُر والجِمَال بالمقص ولا يبقون له من أثر وكأنهم استخدموا فى ذلك الموسى.

- النشالون:

إنهم تحت سيطرة الصـوباشى، وهم يسرقون أكياس النقود والخناجـر والسكاكين من جانب الناس ومن صدورهم، ويقدمون على ذلك دون حياء أو تردد.

إنهم ٣٠٠ نشال. ولابد من الاحتراس منهم فـى الأماكن المزدحمة. إنهم مهرة إلى حد جد بعيد فهم يـسرقون العين من الكحل ويبقى الكحل فـى موضعه. ولهم كذلك مشيخة مستقلة. وإذا ما سرق أحدهم شيئا وطـلبه الصوباشى بحث عنه شيخهم ووجده له فى التو فجميع النشالين مسجلون فى دفتره.

- صانعو الأسرة:

يصـنـعـون الأسِّرة وأقـفـاص السكـر مـن سعـف النخيل. وعـدد أفراد هذه الطائفة (   )[1] ولا وجود لمثلهم فى بلد آخر غير مصر.

- الزبالـون:

عددهم (   )[2] يكنسون كذلك الشوك والقش فى الطرق العامة ويحملونه إلى مواقد الحَمَّامَات ومصانع الزجاج والمخابز ومصانع الجص والجير ومصانع الأكواب حيث يستخدم وقودا. وليس فى مصر من يشبه هذه الطائفة فى غرابة هيئتها وسيماها وكأنهـم

(١، ٢) بياض فى الأصل.

مخلوقات نسخت. لقد رأيت أن بعض أتقياء الأمة يقبلون أيدى هؤلاء الزبالين المحتقرين المذمومين عندما يشاهدونهم. وكثير من الناس لهم راسخ الاعتقاد فى أن هؤلاء الزبالين من أولياء الله مثل المجاذيب وبائعى الأشياء القديمة. لا يعلم الغيب إلا الله. يقول المولى سبحانه وتعالى فى حديثه القدسى: «أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى».

- بائعو لحم الجمال المطبوخ:

يبيعون كذلك كبد الجمال. إنهم ١٠ أشخاص ولهم ١٠ دكاكين. إنه طعام الفقراء إلا أنه غاية فى لذة طعمه ولقد أكلت منه مرات ومرات.

- بائعو الفئران المطبوخة:

لا دكاكين لهم، يبيعون ما يبيعون فى أكواخ وخيام فى ميدان الروملى. وهم ٢٠ بائعا. ولكن لهذه الفئران مواسم فعند قطع النيل يخرج الصيادون لصيدها وإحضارها إلى ميدان الروملى ويبيعونها.

والفأر حيوان صغير، يشبه الأرنب إلى حد بعيد وهو يكثر فى الأرض بمشيئة الله ولقد شاهدت ذات مرة دماءها تسيل أثناء مرور حديدة المحراث على جحورها. ولذلك كان أكلها حلال فى المذاهب الأربعة. وعندما تكبر الفئران يجدون عند موضع جحورها أكواما من الرمل فيعلم من ذلك أن ثمة فأرا كبيرا فيحفرون الأرض ويخرجونه. إنه حيوان لطيف يشبه السنجاب فى وبره، يزن خمسين أو ستين درهما. إنه سمين الجسم، لحمه خفيف وشحمه خفيف وهو سريع الهضم ومقو. وعندما ذهبت إلى الواحات أكلت من لحمه كثيرا. وهو يقتات بجذور النباتات تحت الأرض، ولا يأكل شيئا ذى روح.

- بائعو الحشيش والخمر:

لهم دكانان فى ميدان الروملى، يعمل بهما شخصان، ينقعون الحشيش لليلة ويستخرجون ماءه الذى يضعون فيه العسل المصفى ويبيعونه كذلك فى كؤوس لمن يطلب.

ويقال إن من يشرب منه كأسا وراح ينظر إلى وجه حبيبته وقع نشوة وأنشد ألف بيت من الشعر ويصبح خصب الخيال.

- بائعو السوبية:

والسوبية بوزة تصنع من الأرز، وقد سبق الحديث عنها وهذا المشروب لا وجود له إلا فى مصر.

- بائعو التمر هندى: إنه مشروب راحة للأبدان وهو لا وجود له إلا فى مصر.

- بائعو شراب العرقسوس: ذكر آنفا وهم كذلك لا وجود لهم إلا فى مصر.

- صانعو العقوة:

يصنعون الخنجر العربى المعروف بالعقوة فى حجم السيف، لا وجود لمثل هؤلاء فى بلاد الترك.

- صانعو الحصير: ينسجون الحصير المنقوش الجميل الذى يباع بأربعين أو خمسين قرشا.

- الطهاة:

يطهون أرز «الكوسكوس»، والملوخية والبامية والقلقاس والقرنبيط. وصنوف الطعام هذه لا وجود لها إلا فى مصر.

- دراويش التوابل:

أغلبهم من دراويش اليمن يحملون أنواعا من الرياحين والسنبل والياسمين داخل منشفة ويوزعون الفل وشقائق النعمان على من يصادفونه من الأعيان وينالون منهم الصدقات إنهم سبعون أو ثمانون، وهم كذلك فى مصر وحدها.

***

الفصل الخمسون

طوائف الحرفيين ممن لا وجود لهم فى القاهرة والموجودين فى البلاد الأخرى

ثمة مثل له عظيم الشيوع والانتشار بين العلماء والعارفين وهو أن فى مصر كثيرا من الخيول ولكن لا وجود لبيطار ماهر ولا وجود إلا لبيطار الحُمُر. والمرضى كثير ولا وجود لطبيب، والعميان كثير ولا وجود لكحال. وهذه الأقوال صحيحة لا تتجافى عن الصواب. وإذا اتفق أن مرض رجل من اثنين ورمدت عينه قيل لـه فى المثل: إذا لم ير أحد شيئا جليا قيل له إن عينه تشبه عين ابن العبد المصرى. وحقيقة الحال بأمر الحى المتعال أن من يولدون فى مصر لآباء من الترك تضعف أبصارهم وتسيل دموعهم.

ويقولون لا وجود لحاكم وهم لا يجعلون الحكم للشرع والعرف وكل شئ مصون. إلا أن الوزير كالملتزم فقط يحصل مال السلطان.

ولا وجود كذلك لطواحين الماء، ولا وجود للحُمَّة أى نبع للماء الحار ولكن الآبار كثيرة. ولا وجود لميزان خاص بالدقيق والزيت والعسل ويوجد ميزان للحرير ومصانع الشمع ومصانع الصِرْمة ودور الوشم ووكالات الرقيق والبزازين.

وهذه الطوائف الحرفية موجودة إلا أنها ليست لها الصفة الرسمية.

إن سوق البَز كأنها خان الخليلى، ولا وجود لدكان خاص ببائع الدقيق ولا بائع الغلال، ولا وجود لدكان صانع البوصلة، ولا لمعمل الأوتار. ولا وجود لبائع البضاعة الدقيقة، ولا وجود لصانع السلطة. ولا دكان لصانع الدروع ولا لصانع التروس، ولا وجود لدكان الجل ولا وجود لدكان صانع الطبنجات ولا لصانع البنادق. فالدروع والخوذ تأتى من بلاد الشركس وداغستان. أما الترس فيأتى من حلب، والجل يأتى من كل البلاد والبنادق والطبنجات تأتى من الجزائر.

ولا وجود لدكاكين وَزَّانى الحديد ولا النحاس ولا دكاكين لصانع المثقاب، ولا لصانع المطرقة ولا المنشار. ولا دكاكين لصانعى الكشتبان والإبر، ولا دكاكين لمدربى

الرمى بالسهام ولا لمدربى النفخ فى بوق الفرقة الموسيقية العسكرية، ولا نافخى المزمار. إلا أنهم يصنعون طبولا عجيبة للكاشف.

ولا وجود لدكاكين الأوانى الزجاجية ولا دكاكين لصانعى الصحون النحاسية، ولا لصانعى دولاب السفينة. ولا وجود كذلك لمن يحك الماس ولا لصانع الأسلاك الحديدية وهذه الأشياء تستورد جاهزة من بلاد الفرنجة.

ولا دكاكين لصهر القصدير ولا لصنع ألواح الرصاص. إلا أن ثمة من يسمى الحاج ناصر وهو رجل من رشيد تعلم على يدى صناعة القوالب وصب ما يقرب من ألف لوح من الرصاص وأرسلت إلى مكة لعمل خزانات الماء لمبرة (خاصكى سلطان) ومستشفى، ولا وجود لدكاكين صانعى الريش الذى يوضع على الرأس، ولا دكاكين لصنع رق الغزال ولا للباد الانكشارية، ولا دكان صانع السياط.

ومصنوعات تلك الطوائف الغير موجودة فى مصر تستورد من جميع أرجاء الدنيا وتتوفر جميع الأشياء ذات القيمة النفيسة.

ولا وجود كذلك لطوائف صانعى القيشانى، ومستخرجى الفضة بحامض الكبريت، وطوائف صناع البراميل من الخشب والخرانة وقنوات المياه والجص والقرميد والبلاط، ولا وجود لأحدها فى مصر، فمدينة القاهرة فى غنى عنها وجميع النفائس ترد من الهند واليمن إلى مصر.

***

الفصل الحادى والخمسون

الموكب الرابع فى مصر وهو موكب العيد ومظاهر البهجة والسرور

والموكب الأول فى مصر هو موكب «دخول وزير مصر إليها» والموكب الثانى هو موكب الاحتفال «بقطع النيل» والثالث «موكب ليلة المحتسب»، أما الموكب الرابع فهو موكب عيد الفطر المبارك، وهى الأيام التى تصبح فيها حسان الدنيا فى أجمل وأبهى زينتهن، ونساء مصر يذهبن لمشاهدة مظاهر الاحتفال بهذا العيد ويعقد زواجهن شريطة ذلك. والشأن فيه لا يختلف عن الشأن فى موكب ليلة المحتسب فلا يمكثن فى منازلهن فى ليالى هذا الموكب.

ولعقد ديوان موكب عيد الفطر المبارك ووقفة عرفات، أقام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية السرادقات العظيمة فى ساحة قصر الباشا وأقام مظلة لأفراد فرقته وزين هذه الساحة وفى تلك الليلة أحضر مع أربعين من رجاله الطبول العثمانية السلطانية، وعزفوا المقطوعات الموسيقية فى اثنى عشر مقاما حتى مطلع الفجر، وقدمت القهوة الفاخرة والمشروبات والبخور لكل الأغوات الذين حضروا فى السرادقات.

وطلع الفجر عليهم وهم على هذا النحو. وأدى وزير مصر صلاة الفجر فى قصره وفرش ساحة قصره من الخارج بالحصير وصلى جميع الأشراف والأعيان وأرباب الديوان ركعتى سنة الفجر فى تلك الساحة. ثم قام مؤذن الديوان بتصعيد الآذان وتلى الآية الشريفة الخاصة بالعيد وهى: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة: ١١٤].

وأقيمت صلاة الصبح ورفعت جميع البسط والحصير، ووقف جميع أعضاء الديوان كل منهم فى مكانه حسب رتبته، وأعد كتخدا الباشا واثنى عشر من الأغوات من ذوى الرتب العالية خلع فرو السمور والعمائم، ولبس الباشا عمامته السليمية المزينة بالجواهر وقباءه الأحمر المزين بالفرو وعلى يمنته ويسرته السلحدار والجوقدار[١] وعندما هم الباشا بالخروج جاء الكتخدا ليقف على يمنته ووقف على يسرته «الشهر حواله»،

(١) الجوقدار: المسئول عن الملابس الصوف.

فوقف السلحدار خلف الباشا وعلى رأسه قلنسوة من اللباد الأحمر الحريرى ويرتدى السروال الشركسى الأصفر والسروال الحريرى المحلى بصفر الأزهار وفى يده سيفه المرصع بالجواهر. وكان الجوقدار كذلك فى أبهى حلة له، ووقف جنبا إلى جنب مع السلحدار خلف الباشا. وجاء اثنى عشر من أغوات قصر الباشا من أصحاب الرتب وفى يد كل منهم سيف وعليهم فرو السمور وتبعوا الباشا وتقدم موكبه كتخدا الجاويشية وبجانبه رئيس فرقة المتفرقة وكذلك رئيس التراجمة وكتخدا البوابين واثنى عشر من أغوات الديوان وفى يد كل منهم عصا من القصب، وأنزلوا الباشا من سلم ديوان قايتباى. وعندما امتطى الباشا صهوة جواده يتقدمه المحتسب وجلادو الصوباشى ماشين، خرج جميع البكوات لاستقباله وأنزلوا الباشا فى ديوان السلطان سليم.

ولكن جان بولاد زاده حسين باشا كان يذهب إلى ديوان السليمية من ديوان قايتباى مشيا تواضعا منه وتبركًا وتيمنا كما كان يفعل أسلافه.

حقا كان ذلك منه تواضع الدراويش العارفين بالله.

وما إن جلس الباشا على عرش السلطان سليم حتى قرعت الطبول تحت المظلات كما لو كانت تقرع فى الحرب، ثم صافح الباشا أول من صافحه أمير الحج باشا ثم الكتخدا فأبو الكلام وسائر الأمراء ثم انصرفوا، ثم صافح الباشا بعد ذلك أربعون من بكوات الشراكسة وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وسائر شيوخ الديوان وقبلوا يده جميعا.

ثم امتطى الباشا صهوة جواده يتقدمه جميع الأغوات على خيولهم إلى الجامع وتبعه جميع البكوات مثنى مثنى متحازين.

وعندما وصل الباشا إلى جامع قلاوون وفى معيته المحتسب أغا وجلادى الصوباشى وعلى جانبيه جميع الشطار وعلى رؤوسهم الخوذات المذهبة مع حملة البنادق وسقائى ركاب الباشا كانت الشمس فى كبد السماء. وصعد المؤذنون تسع تكبيرات وصلُّوا ركعتى صلاة العيد وعندما اعتلى الخطيب المنبر خلع عليه كتخدا البوابين قباء من الصوف الأبيض، وبينما كان يلقى خطبته كان خدام الباشا يعطرون الجامع بمجامر العود والعنبر والبخور.

وأتم الخطيب وعظه وإرشاده وبعد الفراغ من الدعاء صافح الباشا الإمام والخطيب والمشايخ ونالوا آلاف الـ «پارات» منحة منه.

وعندما استوى الباشا على كرسيه في ديوان الغورى مع موكب قليل العدد، صفق جميع جاويشية الديوان له وجلس الباشا على رأس سماط عظيم عليه ثلاثة آلاف صحن مذهب وممسك فيه أطايب الطعام، وجلس على يمنته أمير الحج والقائم مقام بك وغيرهم من البكوات، وجلس على يسرته الدفتردار بك وأبو الكلام وأغوات الأوجاقات العسكرية وأغا العزب. أما الجبه جى باشى[1] ورئيس المدفعية ورئيس مركبات المدفعية والمحتسب أغا والصوباشى وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس التراجمة هؤلاء كانوا يقومون على خدمة الديوان السلطانى ولم يجلس منهم أحد على السماط مع الباشا.

ثم ألقى الباشا قطعا من الكباب والدجاج والحمام على من بجانبه يتناولون الطعام فمن كان يلبس العمامة المجوزة وقعت عمامته عندما سقطت عليها قطع الدجاج واللحم فكان يكتم ضحكه، ومنهم من كانوا يبتسمون إذا ما تعلقت أجنحة الحمام بلحيتهم وعلى هذا النحو قسم الباشا الطعام على من حوله وعندما قالوا «بسم الله» بدأوا يتناولون الطعام. وفى ساحة ديوان الغورى العظيمة قدم ألفا صحن من الطعام.

وفى الساحة العظيمة لديوان الغورى قدم ١٢٠٠٠ صحن من الطعام التهمها الانكشارية وأرباب الديوان فى طرفة العين، حتى إنه من صوت الآكلين وصوت الأطباق النحاسية سمعت القاهرة ما يشبه الرعد، ثم قام مائتان من خدام موائد الباشا برفع الصحون فكوموا منها تلالا تلالا، ونظفها فراشو الديوان معهم. بعد ذلك دعوا الباشا إلى سماط آخر ودعى إليه كذلك بكوات الشراكسة وشيوخ الأوجقات السبعة ورؤساء السبعة وسبعين إدارة للديوان، وألقى الباشا عليهم كذلك قطعا من اللحم فأسقطت عمائمهم عن رءوسهم وحار البعض فى خجله.

وكان إذا ما قال الباشا «فليجلس رئيس المتفرقة وكتخدا الشاويشية والترجمان أغا»، جلسوا ثم وقفوا وتولوا خدمة المدعوين ثانية، ثم دعو الاختيارية أى القدماء. أما

(١) مسئول الأسلحة والذخيرة.

أغوات الباشا الإثنى عشر أصحاب الخِلَع وحاصل خرج الباشا فقد وقفوا للخدمة. وبعد الفراغ من تناول الطعام نهض الباشا من مكانه وجلس على سجادة السلطان سليم ونهض كذلك جميع البكوات وانتظروا غسل أيديهم، وأثناء ذلك أومأ كتخدا البوابين إلى رئيس فرقة الموسيقى العسكرية حتى يقرع الطبول وصنوجها، وأشار رئيس فرقة الانكشارية لرئيس فرقة المدفعية فى برج القلعة فأطلقت المدافع أربعين طلقة ترددت أصداؤها فى جبل الجوشى.

ومن ناحية أخرى هجم رئيس خدم موائد الباشا مع مائتين من رجاله على ثلاثة آلاف صحن، وبعد الفراغ من ذلك رفعت الصحون وجاء فراشو الديوان بالأباريق النحاسية التى تشبه الذهب وتعود إلى عهد السلطان فرج وقلاوون وقايتباى وقبلوا ما بين قدم الباشا ووضعوا منشفة على ركبته، وقدم إليه أحدهم الصابون المعطر فغسل الباشا يديه وغسل الجميع أيديهم كذلك على هذا النحو، واستكان كل فى مكانه وتلى الدعاجى افندى[1] قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، وعندما ذكر اسم النبى ﷺ وقف جميع الأعيان والأشراف إجلالا وإعظاما، ولما ذكر سلطان آل عثمان مرتين وقفوا كذلك، ثم أنهى الدعاء وبينما كانوا يمسحون وجوههم بأيديهم وقف جميع البكوات وتقدموا نحو الباشا وهو على السجادة وصافحوه فصفق جاويشية الديوان، ثم صافح الباشا أغوات الفرق السبع، ثم صافحه قدماء الفرق وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا، ثم نهض جاويشية الديوان بين جملة أعضائه وسلموا جميعا على الباشا ومضوا إلى بيوتهم.

ودخل الباشا «حجرة العرض»، وجلس على كرسيه فى حجرة قايتباى على رأسه العمامة وبدأ الكتخدا بتقبيل يده فخلع عليه الباشا خلعة من الفرو وجلس ثانية على كرسيه، كما خلع الباشا كذلك ثوبا من صوف وقماش على كل من الشهر حواله وأفندى الديوان والإمام أفندى والمؤذن أفندى والمقابله جى أفندى وكتخدا البوابين وكبير رؤساء البوابين وأغا البريد وأمن بيت المال والحاصل خرج أفندى وأحد عشر من

(١) دعاجى افندى: القائم بالدعاء.

أصحاب الرتب العالية ورؤساء البوابين بحسب درجاتهم وأغوات واجب الرعايا ورئيس المتفرقة وأتباعه ورئيس فرقة الدلاة وأتباعه، ورئيس فرقة الكونكليان أى المتطوعة وأتباعه ونائب نفقات الباشا ورئيس الطهاة ورئيس فرقة الموسيقى العسكرية مع أتباع، وكاتب الخبازين وكاتب بيت المال والكلارجى باشى أى رئيس مخارن طعام قصر الباشا، وسقائى ركاب الباشا وشُطاره ورئيس القائمين على خدمة موائد الباشا وبك اسطبل الباشا مع رجاله وأمين الشعير، وكتخدا الاسطبل ورئيس السراجين ورئيس الجنائب ورئيس الحمالة ورئيس الحَمَّارة ورئيس سائسى الخيل ورئيس حاملى المشاعل ورئيس العكامين وهؤلاء جميعا قبلوا يد الباشا وحظوا بعطفه ورضائه.

أما رئيس فرقة الموسيقى العسكرية ووكيل نفقات الباشا ورئيس الطهاة ورئيس القائمين على موائد الباشا ورئيس حاملى المشاعل هؤلاء الست شرفوا بنيل خلعة من الباشا.

وفى ليلة العيد استمرت فرقة الموسيقى العسكرية تعزف مقطوعاتها حتى مطلع الفجر وزين رئيس خيامية الباشا ميدان القصر بالسرادقات وكان يقوم بالخدمة فيها مائة وخمسون من الخدم، وطهى رئيس الطهاة فى خمسة أيام وخمس ليال خمسة عشر ألف صحن من الطعام وبذل جهدا حتى شوى كأنه كباب.

وحمل كذلك رئيس القائمين على خدمة موائد الباشا مع مائتين من رجاله آلافًا من الصحون، كما قام رئيس حاملى المشاعل بإنارة ميدان القصر فى ليلة العيد تلك بمائتى مشعل، كما أضيىء ديوان الغورى بآلاف القناديل، وقد منح هؤلاء خلعا فاخرة لقاء خدماتهم تلك، كما منح كل جاويش من جاويشية الموكب عشرة دنانير ذهبية وكذلك جميع الأغوات وانصرفوا.

- أغوات القصر:

وهم خواص الغلمان. وفى البداية قام شيخ الأئمة والمؤذنين بتقبيل يد الباشا ومن

بعده الخزينه دار أغا والسلحدار والجوقدار والنشانجى[1] والمهر دار[2] وكاتب الخزانة والكلارجى باشى ورئيس مقدمى القهوة وغلام المفتاح ورئيس صانعى عمائم الباشا ورئيس غسالى قصر الباشا ورئيس حاكة قفاطين الباشا ورئيس الحلاقين ورئيس الدلاكين ورئيس الحمامية وكبير حاملى المنشفة والشمعانجى باشى وهؤلاء العشرين من خدام الباشا قبلوا يده وانصرفوا، كما قدم فتيان صِباح فى ثيابهم الفاخرة لتقبيل يد الباشا، ثم جاء بعدهم سبعون أو ثمانون من طواشية الزنوج حاملين الهدايا وقبلوا يد الباشا، ومن بعدهم قام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية الخاصة بقصر الباشا مع ثلاثين من رجاله بتقبيل يد الباشا. بعد ذلك خلد الباشا إلى الراحة وبعد الظهر أقبل بعض الأعيان والأشراف لمصافحته.

وفى صبيحة اليوم التالى من أيام العيد قدم كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغوات التراجمة وبدأ أربعون من قدامى المتفرقة بزف التهانى إلى الباشا بالعيد السعيد وقبلوا جميعا يده. وفى أثرهم قدم أغوات قصر الباشا وعليهم أبهى الثياب ووزعوا على الحضور مناشف القهوة وخرجوا، وفى أثرهم دخل من قدموا القهوة فى فناجين غاية فى جمالها وزخرفها وانتظروا لأخذ الفناجين، ثم أحضر الخدم المناشف المنقوشة ووضعوها على ركبتى جميع الضيوف وانصرفوا، وفى عقبهم أحضر الخدم الكاسات المذهبة والمزخرفة وفيها الأشربة المعنبرة وشراب الليمون والتمر هندى وما إلى ذلك من صنوف المشروبات وقدموها فى كاسات إلى الأعيان، وبعد أن شربوا ما فيها أمسكوا مناشفهم ومسحوا أفواههم، ثم دخلت جماعة من الخدم وفى يدهم أوعية العطور وماء الورد ونضحوا هذه العطور على أيدى جميع الأعيان وانصرفوا، وجاءت مجموعة أخرى من الخدم ومعهم مباخر العود والعنبر حتى غمروا بعبيرها جميع الحضور. ولم يكن من الجائز عند تقديم البخور ستر الرؤوس بالشال حيث إنه حدث فى بعض المرات أن طعن من يلبس الشال بعض الحضور، والبعض بمجرد أن شربوا القهوة شكوا فى أن يكونوا قد دسوا لهم السم فيها.

(١) النشانجى: الذى يتولى التوقيع بطغرا السلطان على ما يصدر من أوراق رسمية.

(٢) مُهر دار: حامل الخاتم.

ثم انصرف قدامى فرقة المتفرقة وجاء قدامى الجاويشية وهؤلاء جميعا شملهم الباشا بكرمه على نحو ما شمل به من قدموا قبلهم. ثم قدم بعد ذلك قدامى السباهية وحملة البنادق والمطوعة وكرم كل منهم على حسب رتبته وانصرفوا.

ثم قدم رؤساء شاويشية الانشكارية لـلقاء الباشا ودخلوا عـليه قائلين «جئنا لنزف التهنئة بالعيد لمولانا السلطان» وقبلوا يد الباشا ووقف كل منهم فى مكانه وألقوا كلمات التحية والإطراء على الباشا. وهؤلاء كانوا يحظون بمزيد من رعاية الباشا، إذ إن للانكشارية فى مصر مرموق المكانة ومن متقاعدى الانكشارية ممن شغل مناصب كتخدا الانكشارية ورئاسة الشاويشية وقيادة الجيش من يملكون آلاف الأكياس وهم واسعو الثراء إلى حد جد بعيد. وقد انصرفوا بعد أن طيب الباشا خاطرهم، وبعد ذلك قدم رئيس شاويشية العزب واستأذن فى الدخول على الباشا فدخل وفى معيته قدامى فرقة العزب وقبلوا يد الباشا وانصرفوا بعد أن أكرمهم الباشا دون أدنى تقصير.

أما جان بولاد زاده حسين باشا فقد كان يدعو فرق العزب والانكشارية للمثول بين يديه ليهنأهم بالعيد السعيد، وكان ذلك من وقت فى المجاملة. ولشهرة هاتين الفرقتين فإنهما كانتا خليقتين بكل تعظيم.

وقدم بعدهم بعض المشايخ ودخلوا إلى مجلس الباشا قائلين: «عيد شريف مبارك يا مولانا السلطان» ثم انصرفوا. وبعد ذلك طلب الباشا جواده ومضى فى موكب عسكرى وسط عزف الموسيقى العسكرية. هذا هو عرف مصر وما ذكرناه خاصا بموكب العيد.

وفى العيد يلبس جميع الأعيان والأشراف فاخر ثيابهم ويتزاورون جماعات جماعات ويتبادلون التهانى بالعيد، وهذا فيهم فطرة إلهية كما أن ذلك بأمر السلطان وفى تلك المناسبة، لا يشرب أى مشروب فى القاهرة إلا بوزة الأرز التى يسمونها «السوبية» وقد سبق الحديث عنها آنفا. إلا أنهم فى تلك الأيام يجهزونها قبل ثلاثة أو أربعة أيام ويضيفون إليها السكر والقرفة والقرنفل. وهى شراب مقو نافع مرطب لا وجود له إلا فى مصر.

وتدوم مظاهر الاحتفال والبهجة فى العيد الشريف ثلاثة أيام بلياليها.

وفى ميادين الروملى وقره ميدان وميدان حارة أمير اخور وميدان مصر العتيقة وبولاق وخارج باب الناصر وحى عابدين وعدة مئات من ميادين القاهرة تنصب آلاف الأراجيح التى يركبها الصبيان والفتيات.

لنذهب إلى مكان العيد وفيه الأراجيح نشهد وما مرآة الزمان أبدت.

أى يخرج من يخرج لمشاهدة الجمال والترويح عن نفوسهم.

وإذا ما شاهد قريب أو غريب حسناء اقترب منها وزف إليها التهانى بالعيد واستطاع أن يقول لها كل ما يريد. وهذا فى عرف أهل مصر ليس عملا شائنا.

وثمة شىء يحمل فى طياته العبرة وهو أن مصر فى أيام العيد تلك يكثر بها الأوباش والرعاع إلا أن النساء والأطفال يسيرون زرافات زرافات ولا يتعرض لهن أحد بأذى فالأمن مستتب تماما.

وإذا ما وجد من يسير فى الطريق العام ثملا قبض عليه وانهالوا عليه ضربا بعصيهم وركلوه بأرجلهم. فظهور الشخص وهو ثمل شىء معاب كثيرا. وإذا ما شوهد مضوا به إلى الشرطة فينفوه إلى قبرص* أو إلى قلعة صاى على أطراف بلاد الفُونج . إن السير فى الطريق العام فى حالة سكر مما يثير غضب الناس ونفورهم.

وفى العيد الشريف يتزاور الناس ويركب الفتيان على جيادهم وهم فى سراويل حمراء متجولين من قرية إلى أخرى. واللسان يعجز عن وصف هذا العيد الشريف وموكبه.

الموكب الخامس وهو موكب عيد الأضحى

وفى عيد الأضحى من يوم عرفة إلى آخر الأيام الثلاثة التى تتلو يوم عرفة يكبر المشايخ والدراويش إلى وقت العصر ويتزاورون قائلين لبعضهم البعض: «يسر الله تعالى عرفات فى أيام التشريق» ويتصافحون.

ولما كانت الولاية على مصر لكتخدا إبراهيم باشا نحرت ٥٠٠٠٠ من الغنم والجاموس والجمال وهذا مدون فى دفتر أمين الغنم.

ويزدحم الناس فى المدينة وكأنهم البحر وهكذا تكون الحال فى عيد الأضحى وتعم فيه البهجة أكثر مما تعم فى عيد الفطر. وهذا ما يعجز عنه الوصف.

***

الفصل الثانى والخمسون

الموكب السادس للأعياد طبق ما جاء فى قانون مصر

وهو موكب دخول الباشا مصر

سبق أن تحدثنا عن موكب الباشا هذا، عند ذكر مواكب جند مصر وطرقاتها ورتبها وعدد أفراد فرقهم العسكرية ومرتباتهم السنوية إلا أننا سوف نذكر هنا ألزم لوازم الباشا فى هذا الموكب وكل أحواله.

يسمون هذا الموكب «موكب الاستقبال». وعندما يكون الباشا فى طريقه إلى مصر يمضى الجاويشية من ولاية إلى أخرى لحشد الجند من جميع الأرجاء قبل مقدم الباشا إلى مصر بشهر واحد، فى مدينة القاهرة وذلك لاستعراض عظمتها وضخامتها ويحتشد مائة ألف من الجند يمثلون جيشا جرارا كأنه البحر.

وإذا ما تأخر وصول الباشا فإن الخلل يلحق بتجارة الشهر حواله[1] . وألزم لوازم الباشا هى أنه يرسل السعاة واحد تلو الآخر إلى الشهر حواله ليعرفه بكل موضع يبلغه الباشا وموعد وصوله ويشد ذلك من أزره ومن أزر القائم مقام ويأمنان القيل والقال.

كما ينبغى أن يأتى مبعوث الباشا من غزة ليبلغه أن الباشا سوف يصل فى يوم كذا فى شهر كذا إن شاء الله الرحمن. وهذا من ألزم لوازم الباشا. لأنه فى ذلك اليوم يخرج جميع أغوات الأوجاقات العسكرية فى مصر حاملين الهدايا والخيام لاستقباله.

ويحضر كتخدا الجاويشية مع سرادق كبير، ومعه على خمسن جملا محمله بماء النيل صندوق من سكر النبات ومائة وعاء تحمل الأشربة المتنوعة وكميات ضخمة من الفاكهة وعشرين جملاً تحمل الخبز الأبيض الخاص والسُوريك[2]. وما إلى ذلك من صنوف الطعام والشراب. بالإضافة إلى جواد مطهم عليه سرج مرصع بالجواهر وعنان ذهبى وسيف مذهب ذو حدين ودبوس مرصع وقباء مقصب وطواشى وثلاثة أكياس من النقد. ويهيئ كتخدا الباشا كل ذلك لاستقبال الباشا.

(١) الموظف المسئول عن إدارة الشئون البلدية بالمدينة.

(٢) السُوريك نوع من الفطائر.

أما التحف والهدايا التـى تقدم إليه بعد بلوغه القاهرة، فتكون تـبعاً لإسم الباشا وما عُرف عنه وجرأته فهم مهرة فى أعمال الطرافة والنقش. وما أن يرووا الباشا حتى يدرك إن كان عسلاً أم سمناً. أما سُماً وله طبيعة الماء البارد. فإذا ما وضُع على المحك. عرفوا عياره الذى يعاملونه تبعاً له.

ثم يمر كتـخدا الجاوشية ومعـه مائتان من لابسى الـعمائم المجوزة، وثلاثـة مائة من لابسى الـ «طاس» وهم جـاوشيه. أصحاب مكر وسوء طوبه وقد شبّـع كل واحد منهم أربعين أو خمسين باشا (ذوى منطق وعقل أرسطو).

وثم جاء رئيس المتفرقة بهداياه مثل كتخدا الجاويشية إلا أن جواده لم يكن له سلسلة من ذهب ولكن جميع هداياه فاخرة ومضى وفى معيـته مائتان من مشاة المتفرقة حاملين خيامهم.

ثم كان الدور على رئيس التراجمة وهداياه أدنـى درجة من سابقيه ومضى معه عشرة من الجلادين.

ثم خرج رئـيس جاويشيـة الانكشارية ومعـه مائتان من مـلازمى الانكشاريـة وعلى رؤوسهم عـمامة اللباد والـصوف لاستقبال الـباشا. إلا أن هؤلاء لا يقدمـون أى هدايا للباشا. ولأن كل ملازمى الانكشارية يسيرون على الأقدام يتقاضون من الباشا ألف باره فى اليوم ورئيس الـشاويشية يتقدم الباشـا مترجلا ويتقاضى راتبا يـوميا قدره ألف باره. ويمنح سقاء الانكشارية ثلاثمائة باره - كما ينال مشاة المتفرقة ثلاثمائة قرش.

وخامس من مضوا لاستقبال الباشا هو مسلمه وقد أعد كذلك من أجل الموكب ثلاثة احمال من حمـول الجمال ومضى ومعه الأحذيـة والخفاف الخاصة بأغوات قصـر الباشا وقباء من فرو للباشا وكـنانة وسيفا مرصعين بالجواهر وسراويل مخـملية حمراء وعمامة سليمية وريشتـان وحذائين شركسيين وسرج محلى بالجوهر وسـلـسلة من ذهب وعمود وجواد مطهم.

وكان كتخدا القائـم مقام سادس من خرجوا لاستقبال الباشـا وقد مضى ومعه جواد مطهم سرجه محلى بالجواهر.

وصل هؤلاء من القاهرة إلى مدينة الصالحية فى اليوم الرابع ومكثوا فيها وانتظر جميع الجند مقدم الباشا لأنه إذا ما تجاوز الباشا غزة فإنه يعبر صحارى العريش والقطية وأم الحسن وكلها صحارى مجدبة موحشة والعياذ بالله.

إلا أن مسلم الباشا مضى من الصاحية إلى العريش ومعه الهدايا مع ألف من فرسان كاشف الشرقية والشهر حواله لتقديم هداياهم إلى الباشا.

وفى تلك الليلة أقام كاشف الشرقية وليمة للباشا وغادر الباشا العريش فى تلك الليلة ووصل إلى جسر ( )[1] فى ست ساعات واستراح الباشا فى ذلك المكان وقدم عليه فى هذا الموضع كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس التراجمة وكتخدا القائم مقام ومعهم كل هداياهم والتقوا بالباشا وقدموا له هداياهم وقَبِلَهَا.

إلا أن رئيس الانكشارية ظل فى الصالحية وفى ذلك الوقت تناول الباشا الفطور ثم تابع سيره إلى الصالحية وعندما اقترب منها وقف رئيس شاويشة الانكشارية مع مشاة الملازمين وقبلوا الأرض فالتفت إليهم الباشا وتقدموا نحوه ومضى رئيس شاويشية الانكشارية مترجلا وفى قدمه حذاء أحمر وحول خصره حزام. إلا أن عبدى باشا كبير الملاحين والذى كان بلغ من الكبر عتيا سمح له بركوب الجواد ولم يكن هذا بصفة رسمية وإنما بصفة ودية ولكنه اعتذر قائلا: إننا فى فرقتنا فى الأستانة كنا نخاف من ركوب الخيل.

فقال الباشا أنا الوزير المعظم لقد كنت بنفسى ضريح حاجى بكتاش ولى قبل أربعين عاما ولقد أذنت لك فامتط صهوة الجواد.

وعندئذ كان من اللازم أن يقبل ركبة الباشا ولقد أنقذنى فى مصر كونى من مسنى فرقتى ولكى لا يتهمونى بخرق القانون التمست العذر، وركب الشاويش الجواد بمساعدة ستة من الجند وأراد الباشا أنى تفكه فقال له لقد تقدمت فى السن بحيث لا تستطيع ركوب الخيل إلا بمساعدة سبعة من الرجال. فرد على الوزير قائلا: ولكن ليس بمقدور عشرين من الرجال أن ينزلونى عن جوادى. فضحك الباشا ومنحه أربعة وسبعين دينارا من ذهب وعلى هذا النحو دخل الباشا مدينة الصالحية فى موكب عظيم ونزل فى سرادق عظيم وجلس على كرسيه وكان ذلك أول جلسة للديوان يعقدها فى هذا السرادق. واستمع الباشا إلى بعض القضايا الهامة وفصل فى بعض المنازعات.

(١) بياض فى الأصل.

وخاف المصريون من أحمد باشا الدفتردار فى هـذا المكان ولم يقبل حبة قمح من أحد وتصدق كل أحد حسب استعداده ومقدرته وفصل فى الدعاوى مثل القاضى عسكر.

وعندما نزل الباشا إلـى حجرته نحر مائتين من الغنم وخمسـين عجلا وعشرة جمال والتهمها البدو والفقراء المعدمون وغادر البـاشا الصالحية وعندما بلغ «أم القُرين» وزعت الهدايا على جميع الجند كأنها فيضان النيـل، وأقام كاشف الشرقية مأدبة عظيمة للباشا، وبعد الفراغ من الطعام امتطى الباشا صهوة جواده المطهم وبلغ قصبة «أم القُربن»، وأقـام هناك فى سـرادق جميل عقد فـيه الديوان كذلك ونـال الهدايا من أغوات الأوجـاقـات السـبعـة. وسوف نصـف هذه الهـدايا عند حـديثنـا عن قانـون مصر فيـما يخـتص بالتشريفات.

ولقد خرج أهل أم القـرين لاستقبال الباشا عندمـا اقترب منها الباشا، كمـا استقبله كذلك الروزنامجـى وكل أرباب الديوان وبكوات الشراكسة وأغوات الأوجـاقات السبعة وقَبَّلَ الجميع يد الباشـا، وانعقد الديوان فى مدينة بلبيس كذلك، وحـيث إنها تعد مقرا لكاشف الشـرقية أقام وليمة عظيـمة للباشا أنفق عـليها خمسة عشر كـيسا ودامت هذه الوليمة أربعة أيام. وفى هذا الديوان أصبح شيخ العربان عايد (صاحب الدرك)، ولكى يتم عبور عسـاكر الإسلام فى سهولة ويسر ثبت هـذا الشيخ فى منصبه كرئـيس لقبائل عايد ونال خلعة فاخرة. وقد أحضر خمسة جياد فارهة .

ثم غادر الباشا أم القـرين وفى طريقه إلى «الخانكاه» أقبل عليـه أمير الحج والدفتردار وأرباب الديوان وتوجه إلى «الخانكاه» فى موكب عظـيم وهناك عقد ديوانا عظيما ولأنها أرض كاشف قلـيوب أقام كاشفها الولائـم العظيمة للـباشا ومن معه وقدم إليـه خمسة برازين يصل ثمن كل واحد منها إلى ألف قرش، وفى هذا الديوان خلعت خلعة فاخرة على شيخ عرب الدشيـشة وثبت فى مشيخته، وجاءه الكثير من أعـيان القاهرة، والتقوا مع الباشا، وعندئذ قـدم القائم مقام فى موكب عظيم وقبل يد البـاشا وقدم إليه الهدايا من الجواهر، وقدم للقائم مقام القهوة والشراب والبخور، ثم عاد ثانية إلى القاهرة وفى معيته الشهر حواله. وقدم الكثير من أعيان القاهرة كذلك لتقبيل يد الباشا.

ذكر موكب العادلية والولائم الربانية
والديوان العثمانى وأفراح القاهرة المعزية

وفى اليوم التالى قدم الباشا إلى العادليـة فى موكب عظيم استغرق خمس ساعات، ونزل فى سرادق سلطـانى غاية فى الفخامة والأبهـة، وعفر كبير معدى السمـاط جبينه على قدم البـاشا ودعى الباشا إلى المأدبة قائـلا: نحن عبيد فى خدمة مولانـا السلطان، فليتفضل مولاى إلى الطعام.

وجلس البـاشا على رأس الـسماط وعلى يمـنته أمير الحـج وعلى يسرتـه دفترداره، وجلس الأمـراء وبكوات الشـراكسة وأغوات الأوجاقـات السبعـة وسائر قدامـى الفرق العسـكرية يتـناولون الطـعام، وعقب الـفراغ من ذلك دعـى شاويشيـة الموكب جمـيع الأغوات لحضـور الديوان واعتلى الـباشا منصـة العدل فى العـادلية وعزفت الموسـيقى العسكرية وأقيـمت الدعاوى وفصل فى الخصومات، ثم رفع الديـوان على أن يعقد فى اليوم التالى. ونادى شاويشية الموكب فى الحضور ونبهوا عليهم إلى أن الإقامة ثلاثة أيام وثلاث ليال.

وقدم أهل القـاهرة إلى ساحة العادلـية بخيامهم صغـيرة كانت أو كبيرة، مـستأجرة كانت أو مستعارة وأقامـوا خيامهم تلك ومكثوا فيها. وأقيـم فى هذه الساحة عدة آلاف من الخيام فأصبح كذلك أشبه شيء بمعسكر عظيم للجيش، وفى تلك الأيام لم يبق أحد فى بيـته بالقاهرة وازدانـت ساحة العادلـية والطوبخانة وسـاحات سبيل علام والـغورية بالخيام والسرادقـات المزينة وكأنها روضة ورد يغمـرها مظاهر السرور والبهجـة ليل نهار وازدانت كذلك بآلاف القناديل فأصبحت تلك الليالى كأنها ليلة القدر، أما نهارها فنهار العيد. وأقيـمت الألعاب الناريـة فى سماء العادلـية وأطلقت آلاف المدافع والـبنادق من الخيام هز دويـها الأرض والسماء، وعلق علـى أعمدة الخيام والسرادقات مـا يقرب من ثلاثة آلاف قـنديل، وشكـلت هذه القنـاديل صورا جمـيلة كالشـمس وخاتم سلـيمان والقصور وبدت كأنها نجوم.

وأمام سرادق الباشا ربطوا سوارى السفن حتى بلغ ارتفاعها ذروة السماء وعلقوا فيها ما يتراوح بين ٤٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠ قنديل فبددت أنوارها ظلام الليل إلى نهار.

وقدمت الهدايا إلى الباشا فى العادلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال وكانت الهدايا بالقدر الذى ينوء خدام الموكب عن حمله وقدم كل بك من البكوات جوادا ذا سرج مزين بالجواهر أما دفتردار القائم مقام فقد قدم جوادين زين سرجهما بالجواهر وسلسلتين من ذهب. كما منح الباشا هدايا نفيسة أخرى.

وقدم أغوات الأوجاقات السبعة والأغوات الزنوج المصاحبون للسلطان وبكوات الشراكسة والروزنامجى أفندى وموظفو الإدارات السبعين والأمناء السبعون والكشاف السبعون والملتزمون الذين لا يحصون كثرة الجياد والطواشية وغير ذلك من الهدايا إلى الباشا. كما وزع كتخدا الباشا المنح والصدقات على خمسة وعشرين أغا من الأغوات أصحاب المراتب ورئيس من يسوسون الخيل ورئيس العكامين.

وجملة القول أن كلا من خدام الباشا ممن لهم لقب «باشى» أى الرئيس قدم المصريون إلى كل واحد منهم التحف والهدايا.

وكان جملة ما قدم إلى الباشا من هدايا مائتان من الجياد المطهمة ذات السروج المزدانة بالجواهر ومائتان أخرى سروجها عادية.

كما نال كل من الخمسة وعشرين من أصحاب المراتب جوادا هدية.

وعندما وصل أمراء الإسطبل العادلية قادمين من الصالحية كان الباشا والكتخدا مشغولين بتلقى الهدايا والنفائس.

وإذا ما تعرضت بالوصف للعادلية كما رأيتها لاصبح كتابى ككتاب ابن جرير الطبرى. وكانت جميع الضيافات والولائم فى العادلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال من صلب مال الباشا، وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم. وتكلفت الولائم أربعين كيسا واشترى رئيس العطارين عنبرا بخمسة آلاف باره وعودا بألفى باره وحاسبه الدفتردار على ثمن ذلك. وهذا فى الواقع إسراف فى الإنفاق على الولائم. وكانت كل الأطعمة عبارة عن حلوى وطيلة الثلاثة أيام من أولها إلى آخرها، ولم يشرب أحد ماء وإنما كان يشرب أنواعا من الشراب.

وكم كان ينفق أهل القاهرة فى تلك الأيام على مجالسهم الخاصة وكأن كل منهم ورث سبعة من الأثرياء. وبعض الأعيان من أنفقوا ألف ألف قرش على الألعاب النارية. ومنهم من كان يطلق كل قذيفة بأربعين قرشا.

ومن عجب أن كواكب القاهرة منسوبة إلى كوكب الزهرة والناس يتعللون بذلك طلبا للبهجة والسرور. وأهل القاهرة منعمون ولله الحمد، وأقلهم راتبه يتراوح بين خمس إلى ست يارات، وحتى للنساء منهم لهن رواتب ومعاشات. إن وفرة المال هى السبب فى سفاهة الرجال، ففى المثل التركمانى: (إذا ما زاد السمن لدى العربى فإنه يبحث عن وسيلة يضيع بها هذا السمن).

ويحرص المصريون على إلحاق لفظ الغنى والمغنى بأسمائهم.

ذكر دخول وزراء مصر إلى القاهرة قادمين من العادلية لأول مرة

وفى منتصف الثلاثة أيام خلع المصريون وجميع أغوات الباشا خيامهم وعادوا إلى القاهرة بخيامهم وأمتعتهم وأرسل إلى الشهر حواله إلى أغوات المراحل، وتخفف كل شخص من ثيابه الثقيلة ولبس ثيابا خفيفة لطيفة نظيفة، وبقى فى كل بيت من بيوت الأغوات خادم ومضوا إلى موكب الباشا فى العادلية.

وفى صباح اليوم التالى أدى الباشا صلاة الفجر مع أغا الانكشارية وأغا العزب وأغوات الأوجاقات السبعة، ثم تناولوا طعام الفطور، وجهزت صفوف الموكب على الفور، وأصبح الجند على أهبة الاستعداد للتحرك ودعو بالخير لعزيز مصر.

وعندما ركب الباشا جواده هتف جميع الجاويشية بحياته قائلين: أطال الله عمر سلطاننا وأيده وأدام دولته. وأخذوا يصفقون. وفى ساعة السعد بإذن من رئيس المنجمين سيقت الجياد ومر الباشا بجواده من أمام قبر طومانباى فى العادلية وقرأ الفاتحة ترحما عليه، ثم عاد إلى صفوف المواكب وعندئذ عزفت الموسيقى العسكرية وتردد أصداء عزفها فى كل الجهات وبدأ الموكب فى التحرك، ومضى الجاويشية فى ثياب مزركشة على جيادهم وقد تحلت أيديهم من فضة وتحلت رؤوس جيادهم بالريش قارعين طبولهم

واصطفت صفوف الموكب ودخل شاويشية الموكب بين العسكر ونادوا فيهم بالمحازاة يمينا ويسارا، وتحرك موكبهم، وكان الصوباشى قد تقدم الصفوف لتمهيد الطريق لسير الموكب مع سبعمائة من رجاله. مضت فرقة قوامها مائتان من جند الباشا التتار مدججين بالسلاح حاملين الأعلام، وبعدهم موكب رئيس الدلاة ومعه ثلاثمائة ممن لبسوا جلد النمر وعلى رؤوسهم القلانس وتيجان فرو السمور حاملين الأعلام، وفى أثرهم موكب أغا الكوكليان أى المطوعة وهم كذلك فى بزة الدلاة مروا حاملين الأعلام إلا أنهم أكثر زينة من الدلاة، بعد ذلك موكب الـ «دش كلارجيان» أى القائمين على المخازن الخارجية للطعام وهؤلاء كذلك مروا رافعين الأعلام إلا أنهم مضوا حاملين أسلحتهم، ثم موكب موسيقى الخيمة ومر هؤلاء وعلى رؤوسهم بيض العمائم رافعين بيض الأعلام.

ثم موكب غلمان صراجى القصر وكانوا كذلك مدججين بالسلاح راكبين جيادهم المهمة وفى أيديهم الأعلام المرفوعة.

بعد ذلك مضى موكب مشاة المتفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الأعلام وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا، مضوا وعلى رؤوسهم القلانس رافعين صفر الأعلام. إنهم أغوات كُمَّل.

ومن بعدهم موكب رؤساء البوابين وهم يرتدون قباء فرو السمور وفى أثرهم عشرون أو أكثر حاملين الحراب ورءوس النمور، ولأنهم أصحاب امتيازات فقد تقدموا الصفوف، وبذلك انتهى موكب أغوات الباشا بهم وبدأ موكب جند مصر فى التحرك يتقدمهم موكب الجاويشية وعليهم قباء السمور الفاخر وعلى رؤوسهم المجوزات راكبين الجياد، ولم يمر صغارهم خلفهم، إذ إن قانون السلطان سليم يقضى بأن يكون خدام هؤلاء من القواسين.

ومن بعد موكب السباهية ولهؤلاء أعلام خضر وسراويل حمر وطوال الرماح وخلفهم مضى صغارهم مثنى مثنى متحارين وفى يدهم الحراب. كما مر مائة من چورباجيتهم مثنى مثنى ولكن لم يكن فى يد هؤلاء عصى وتقدمهم القواسون حاملين

العلم (الكاويانى)، وهؤلاء الجورباجيه معروفون بأنهم يتبعون أغوات السباهية وخلف كل واحد منهم مضى عشرة أو عشرون غلاما مدججين بالسلاح ثم تبعهم مائتان من جاويشيتهم يلبسون العمامة المعروفة بالمجوزة وفى أيديهم عمدهم وخلفهم لم يمر صغار لأن هؤلاء فرقة شاويشية السباهية وبعد هؤلاء مر اثنان من وكلاء السباهية وخدامهم ومر هؤلاء وهم مدججين بالسلاح، حاملين عصيهم، ثم مر كتابهم مع صغارهم.

ثم مضى أغا السباهية وأمامه اثنان من حملة السيوف ويحيط به أربعون أو أكثر من مشاة القواسين، وخلفه أربعون أو أكثر مدججون بالسلاح حاملين خضر الأعلام والحراب الطوال ويرتدون أبهى ثيابهم ويقرعون طبولهم السلطانية ومثلهم مضى موكب سباهية حملة البنادق، ثم جند السباهية، ومعهم الكتخدا وكتابهم وأغواتهم قارعين الطبول، إلا أن الفرق بينهم وبين فرقة السباهية هو أن لون أعلامهم أصفر.

ومن بعد هؤلاء مضى موكب سباهية المطوعة وهؤلاء كذلك مثل السالف ذكرهم مروا متحازين مدججين بالسلاح لابسين حمر السراويل وفى معيتهم جاويشتهم ووكلاؤهم وكتابهم وأغواتهم قارعين طبولهم، وهؤلاء جميعا حملوا حمر الأعلام وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من فرق الجند الأخرى.

ومن بعدهم موكب بكوات الشراكسة ومر هؤلاء مدججين بالسلاح على جياد سروجها محلاة بالجواهر على رءوسهم العمامة المعروفة بالبريشانى وخلف كل واحد منهم أربعون أو أكثر من غلمانهم الصغار فى ثياب من مخمل حاملين عصيهم. إلا أنهم بلا أعلام ولا طبول.

ثم موكب بكوات مصر وهؤلاء جميعًا مضوا لابسين قباء من فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم البريشانى يتقدمهم أربعة من شطارهم عليهم بيض العمائم وحريرى الخلع وفى أيديهم الطبر، وبجانب البكوات ما يقرب من أربعين من قواسيهم وخلفهم ما يقرب من مائة وخمسين من أغوات القصر فى ثيابهم المزركشة، وكل منهم مدجج بالسلاح وهؤلاء لا أعلام لهم ولا طبول.

ثم موكب رؤساء البوابين من ذوى الرتب وهؤلاء لطول مدة خدمتهم للباشا أصبحوا خاصته وندماءه ولذا وعدوا بدرجة أغا ومروا متحازين عليهم قباء فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم البريشانية مثنى مثنى يتقدمهم رئيس البوابين وجنابهم وأغوات القصر وهؤلاء مروا عشرة عشرة أو عشرين عشرين وفى معيتهم الصراجون والخدام. إنهم سبعة وعشرون من رؤساء البوابين ومناصبهم أعلاها منصب «سردار» (أى أمير الجيش) يرقى إلى مسلم ثم إلى شهر حواله، و «صاغ وزير كتخدا» (أى الوكيل الأول للوزير، و«صول وزير كتخدا» (أى الوكيل الثانى للوزير) وله رتبة الشهر حواله، «أغا الرسالة» و «أمين المخازن» و «أمين بيت المال» و «أمين الشعير» و«الحاصل خرج» و«وكيل الخرج»، و«أغا السويس»، و«أغا دمياط» و«كاتب الحواله» و «أغا رشيد» و«أغا الإسكندرية» و«أغا المنزلة» و«بك الإسطبل و أمين جمرك بولاق» و«أمين دار الضرب» و«ناظرها» و«المقابلة جى» و«الروزنامجى الصغير» و «أمين الدفتر» و«جاويش السلام» و«كبير رؤساء البوابين» و«أغا بنى سويف» و«أغا المنيا» و«أغا منفلوط» و«أغا جرجا» و«رئيس طائفة البوابين» و«كتخدا البوابين».

وهؤلاء الأغوات السبعة وعشرون لبسوا العمائم البريشانية وخلع السمور ومروا مثنى مثنى، أعقبهم من مروا رافعين الطوغات والأعلام لابسين ثيابهم المزركشة ثم مرت تسع جنائب عليها سروج مرصعة بالجواهر ولها سلاسل من ذهب.

إنها جنائب يساوى كل منها خراج بلاد الروم ومرت بين الحين والآخر جنائب مثلها عليها من لبسوا العمائم المجوزة والسراويل الحمر وفى أقدامهم الخفاف الشركسية ثم مر أغا بكوات الإسطبل مع رئيس طائفة البوابين وعليهما العمامة البريشانى ومر الإثنان سيرًا على الأقدام ومر كتخدا البوابين وأغا السلام على جواديهما أما أتباعهما فمروا مشاة وعلى رءوسهم العمائم البريشانية.

ومن بعد مر موكب جند عزب مصر حاملين الأعلام الحمراء المنسوجة بالذهب يتقدمهم أطفالهم ثم كبارهم ثم فتيانهم ثم رؤساء مشاتهم وخدامهم وهم جميعًا غزاة مدججون بالسلاح لبسوا جلد النمر وحملوا تروسًا من ذهب وعلى رءوسهم ريش الصقور وكانوا يحملون بنادقًا كأنها المدافع.

وعلى بعد مائة قدم يتقدمهم من يصعد الدعاء المحمدى وردد جميع غزاة المسلمين «الله الله» تردد أصداؤها فى جميع أرجاء القاهرة. ومروا على هذا النحو ولكن بلا طبول ومر جاويشيتهم رافعين الأعلام.

ثم موكب الانكشارية يتقدمهم صغارهم وأطفالهم بوجناتهم الوردية ماشين وقد ازدهرت أرواحهم وابتسمت وجوههم، ثم مرت فصائل الدّلاة و من بعدهم رؤساؤهم المسنون وعلى رءوسهم القلانس كلها من الصوف المخيط بالذهب، ثم مر مسنوهم وعليهم جلود النمر وعلى رءوسهم ريش الرخم.

ومن بعدهم مر متقاعدو الأوده باشية مدججين بالسلاح وعلى أكتافهم التروس المذهبة، مروا حاملين بنادقهم الثقيلة ومن بعدهم مر مسنوهم أفواجا أفواجا رويدًا رويدًا يتوسطهم جاويشية الموكب والبوابون و السقاءون يرتدون سود السراويل.

وعلى بعد مائة قدم أمامهم صَعَّد داعى الدعاء الصيحات الإسلامية وردد الجند من أعماق قلوبهم الله الله هز دويها الأرض والسماء حتى استولى العجب والدهشة على جموع المتفرجين. ومضى الأبطال جميعًا كأنهم الغزلان أو طاووس إرم وهؤلاء هم صفوة جيش المسلمين فكل جند المدفعية والجبه جية وجند مركبات المدفعية وفرقة موسيقى القلعة يمرون جميعًا فى موكب الإنكشارية ومجموعهم ٧٣٣٨ من الجند الأشداء ولكن هؤلاء لهم قوة وشهرة عشرين ألف جندى.

وهؤلاء كذلك مروا بلا طبول مشاة رافعين أعلامهم الكبيرة وانتهى بذلك موكبهم أما إذا مضى مائتان أو ثلاثمائة مع قائد إلى الحرب فإنهم يقرعون الطبول.

مر كذلك جند مشاة الإنكشارية مشاة ثم تحرك موكب أغا الإنكشارية وأغا العزب يتقدمهم چورباجيه العزب على جيادهم يلبسون فرو السمور وأمامهم (جدا لرى) وخلفهم غلمان يلبسون حمر السراويل، وعلى يمنتهم چورباجية الإنكشارية مضوا على جيادهم عليهم قباء فرو السمور والصوف أمامهم (جدالرى) وعبر جاويشيتهم القدامى ورؤسائهم، وعلى يسرتهم العزب وعلى يمنتهم الإنكشارية، مروا متحازين ورئيس الجاويشية بجانب الباشا وقد لزم موظفو بيت المال إدارتهم، ومر فقط كتخدا العزب

وكتخدا الإنكشارية متحازبين وكذلك أغا الإنكشارية، وأغا العزب تلاهما صغار مدججين بالسلاح، ثم تحرك ملازمو الإنكشارية وهم أربعمائة على رءوسهم القلانس المزركشة ذات الريش معلقين السيوف فى وسطهم، ومضوا مشاة بلا بنادق، ومن بعدهم شطار الباشا وهم فى ثياب مزركشة وفى يدهم الطَّبر وعلى رءوسهم خوذات مذهبة مروا على جانبى الباشا حاملين الطوغات، وعلى رأس رئيس الشطار عمامة بريشانية ذات ريش ملكى، وقام رئيس الشطار هذا بتوزيع ما فى جيوبه من عملات ذهبية وفضية صدقة على الفقراء، ورئيس سقائى ركب الباشا على يمنته بسرواله الأحمر وقلنسوته المزركشة وحملة البنادق كذلك لابسين حمر السراويل والقلانس حاملين ذيل ثوب الباشا الذى ركب جواده مزين السرج بالجواهر، وقد لف حول وسطه جعبة محلاة بالجواهر ولبس سروالاً من المخمل وفى قدمه الخف الشركسى وعلى رأسه العمامة السليمية التى علق عليها ريشتين سلطانيتين، وعلى يمنته ثمانية من الجلادين وعلى يسرته سار الصوباشى والمحتسب أغا وهما فى أبهى مظاهر العظمة والأبهة وعندئذ لوح الباشا بالسلام على يمنته ويسرته ووزع عطاياه على الفقراء والناس قاطبة الغنى منهم والشحاذ، الشاب منهم والشيخ رفعوا أصواتهم بالدعاء له قائلين:

«حفظك الله يا والى مصر»، «حفظك الله يا عزيز مصر»، «حفظك الله يا متولى مصر»، وفى أثر الباشا مضى خدمه فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم السيوف المرصعة بالجواهر وعلى رءوسهم القلانس الحمراء المزركشة.

وخلف الباشا كتخدا الباشا وافندى الديوان وهما فى قبائين من فرو السمور وعلى رأسهما العمامة البريشانية، ويتلوهم اثنان وعشرون من خدام الباشا من أصحاب المراتب وغيرهم، وهم جميعًا على الجياد لابسين الطيلسان المحمدى ومر جاويشية القصر وسط أغوات القصر مصطفين حسب درجاتهم ثم مر رئيس موسيقى القصر مع أربعين من رجال فرقته، ثم مر الخزينة دار ورئيس مؤذنى القصر جنبًا إلى جنب، ثم مر العلم واللواء وفرقة الموسيقى العسكرية يدقون الطبول كأنها الرعود، ومن بعدهم مضى صراجو أغوات القصر ثم رئيس السقائين مع أكثر من سبعين من رجاله على جيادهم

المزينة بالورود رافعين خضر الأعلام، ثم مر حملة المشاعل بمشاعلهم المزينة بشتى الألوان يتراقصون ويصفقون صائحين: «الله ينصر السلطان»، وعندما دخل الباشا القاهرة على هذا النحو اصطف لاستقباله فى ميدان الروملى جميع السباهية وفرق حملة البنادق والمطوعة والشراكسة ومشاة المتفرقة وهنأوه بسلامة الوصول فحياهم وانصرف جميع الفرسان إلى ديارهم وعندما خَطَا الباشا من باب العزب قائلاً: بسم الله، نحر العزب مائة من الكباش وأراقوا دماءها تحت حوافر جواد الباشا وبسطوا أكفهم بالدعاء له بكل خير، وسار العزب والإنكشارية بجانب جواد الباشا حتى دخل قصره وسط مظاهر الجلال والعظمة وعندئذ ذبحوا مائتين من الخراف وتعالت أصواتهم بالدعاء للباشا وقرأ الباشا الفاتحة وعندما ترجل عن جواده صفق جميع الجاويشية والموضع الذى نزل فيه الباشا عن جواده هو الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم فاتح مصر فجلس الباشا فيه قليلاً تبركا وتيمنًا.

ثم صعد الباشا سلما حجريًا من خمس وعشرين درجة يفضى إلى قاعة ديوان قايتباى ناطقا باسم الله وعلى يمنته الكتخدا وعلى يسرته كتخدا الجاويشية والجاويشية يدعون الله للباشا قائلين: «بارك الله ثبت الله قدمكم وأدام دولتكم»، وفى التو أشار رئيس جاويشية الإنكشارية بمنديله إلى القلعة فأطلقت المدفعية أكثر من أربعين طلقة من برج الطوبخانه وعزفت الموسيقى العسكرية مقطوعة صغيرة.

ونادى كتخدا الجاويشية قائلاً: «هل من صاحب مظلمة أو مصلحة»، وعندئذ لزم الصمت كل من فى الديوان ثم تقدم نحوه ستة من مكة والمدينة يتقدمهم من يطلق عليه مصطلح «صاحب المصلحة» وقال: «مرحبًا بمقدمك يا وكيل السلطان خادم الحرمين الشريفين». وسلمه تقريرًا يتعلق - ولابد - بشئون مكة والمدينة فتسلمه الباشا قائلاً: بسم الله، وخط بالقلم مستصوبًا وأصدر أوامره وتوصياته فى تلك المسألة بوصفه وزير مصر ووكيل السلطان العثمانى خادم الحرمين الشريفين، لذا أنشأ فى ديوان مصر إدارة مهمتها النظر فى أمور الحرمين الشريفين وكان ذلك أول أمر بت الباشا فيه فى ديوان مصر. ثم دعا داعى الديوان وتليت الفاتحة، ثم قبل الأعيان والأشراف جميعا يد الباشا وجددوا له

البيعة وعندئذ عزفت فرقة موسيقى القلعة فى ميدان القصر إحدى المقطوعات الموسيقية ونالوا من الباشا منحة قدرها ألف پاره وانصرفوا. وقبل جميع أرباب الديوان يد الباشا طيلة ساعة.

وبعد ذلك قرأ داعى الديوان الفاتحة وأخذ كَتْخُدَا الجاويشية ورئيس فرقة المتفرقة بيد الباشا ليرفعاه من جلسته على سجادة قايتباى. ثم صافح الباشا جميع أرباب الديوان وصفق جميع الجاويشية وسلموا على الباشا، ثم دخل الباشا حجرته وتفرق جميع الحضور.

وفى تلك الساعة بالذات تلا أربعون من القراء سورة «الأنعام» فى قاعة ديوان الغورى وقد جرت عادتهم على قراءتها كل صباح هناك. وبعد أن مضى الباشا إلى الحجرة التى جلس فيها على كرسيه وتخفف من بعض ملابسه لكى ينعم بالراحة قدم على الفور جاويشية الفرق السبع وطالبوا الباشا بمنحهم.

ولقد أعطى جان بولاد زاده حسين باشا كيسين إلى فرقة الإنكشارية، كما أعطى كيسا إلى كل فرقة من الفرق السبع وبذلك يكون إجمالى ما دفعه لهم تسعة أكياس.

وما ذكرنا من أوصاف موكب استقبال الباشا كان خاصًا باستقبال جان بولاد زاده حسين باشا. لأن من ولى بعده من الوزراء أكثروا من اتخاذ الحجاب.

واستراح الباشا فى تلك الليلة. وبمقتضى قانون السلطان سليم كان لابد من تقديم ثلاثة آلاف صحن من الطعام لأرباب الديوان صباحًا مرتين فى الأسبوع. وإذا لم يقم الباشا هذه الولائم وأضاف نفقاتها إلى الخزانة أو إلى ماله الخاص فإنه يطالب بها عند خلعه. ويطلبون من الباشا اثنين وتسعين كيسا فى السنة بواقع كيسين لكل وليمة.

وبعد الفراغ من تناول الثلاثة آلاف صحن من الطعام وبعد إحقاق الحق فى عدة دعاوى دفعت مرتبات الفرق المختلفة فى مجلس الباشا وعلم المستحق من غير المستحق، والديوان فى ذلك اليوم على هذا الحال، وقدم أعيان القاهرة زرافات زرافات للتبريك ودام الحال*على هذا ثلاثة أيام والناس يأتون لزف التهانى للباشا كأنهم البحر.

أما ما كانوا يـقدمونه من هدايا إلى الباشا فلا يعلم عددهـا إلا الله، وإذا ما رغب الباشا عن هذه الهدايا فهذا منه تصرف غايـة فى الحكمة والسداد، لأنه إذا ما قبلها لقاء أداء مصلحة ما ولم يؤد هـذه المصلحة طالبوه برد تلك الهدايا عنـد عزله وجملة القول أننا تحدثنا عن الموكب الخامس لمصر بناء علية تلك المراسم.

رسالة تحذير لوزراء مصر بشأن التشريفات

وبعد الموكـب سالف الذكر إذا ما أخـطأ الباشا التـصرف وخلع على أهـل المناصب خلعًا أكثر من التى أرسلت من قبل السلطان فإن هذه الخلع الزائدة تكون من صلب مال الباشا وهذه نفقات باهـظة تكون وبالا على الباشا حين عزله. وينبـغى عليه التحرز من ذلك تمام الاحتراز.

فعندما أصبح كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر قسم هذه الخلع ثلاثة أقسام متنوعة الأعلى والأوسط والأدنى. والخلـعة من القسم الأعلى كانت تساوى ألـفى بادة والخلعة من القسم الـثانى تساوى ألف پارة، أما القســم الأدنى فخلعته تساوى خمـسمائة بارة، وجعل يهوديًا رئيسًـا لصانعى الخلع فصنع له ستة آلاف خلـعة فى العام وبمجرد أن قدم الباشا إلى مصر جدد البيعة لجميع أصحـاب المناصب والكشاف والأمناء فبلغ عدد الخلع التى وزعها عليهم من قدوم الموكب من الصالحية إلى العادلية إلى القصر ١٠٤٥ خلعة، منها خلع من مـال السلطان وأخرى من صلب مال الباشا وكان مـن اللازم التحكم فى ذلك وبقدر ما مـنح من خلع أقر فى المنـاصب، وفى خلال سبعة أيام وسـبع ليال كان الباشا قد أنفق ألف ومائتى كيس (قبل الشروع فى المعركة).

وصية إبراهيم باشا لوزراء مصر

ويقول إبراهيم باشا:

الباشا الحكيم ينبـغى عليه أن يقيم وليمة لجميع أعيان البـلاد وبعد الفراغ من الطعام يشاورهم فـى الأمر ويسأل عما إذا كان فى ذمـة الباشا الأسبق من مـال ويعرف ذلك. وإذا ما ثبت له ذلك استـدعى إلى الديوان كل من كتخدا الباشا المخـلوع والشهر حواله وافندى الديوان ومـسئول بيت المال ووكيل مـصروفات الباشا وكل أولى الأمـر وسألهم

عما تبقى فى ذمة الباشا السابق، بقدر السنوات التى قضاها فى الحكم، من أموال القرى المحلولة والخزانة طِبق سجلات الروزنامة ويسأل كل ما يطير فى السماء ويدب على الأرض ويسبح فى البحر.

ولكى لا (   )[1] الباشا يمضى إلى الباشا المخلوع وفى معيته مسنو الجاويشية وقد ساء أدبهم واستبدوا برأيهم وثارت ثائرتهم، ومسنو جميع الفرق العسكرية، وكتخدا الجاويشية، وكل وكلاء الفرق العسكرية، ويدخلون على الباشا المخلوع دون مراعاة ما كان له من حقوق عليهم سابقًا، ويسلمونه دفتر الروزنامة قائلين: تبقى عندك قدر مائة كيس من مال السلطان. فإذا ما قال الباشا المخلوع: سوف ألتقى بأخى الباشا غدًا وإذا ما كنت مدينًا أديت ما على من دين. أمهلوه.

أما إذا أنكر واستكبر فينبغى عليهم أن يحبسونه فى قصره أسفل المدينة أو قصر يوسف يحاصره چورباجى من كل فرقة فى عدد من رجاله وينبغى ألا يتعرض له أحد بأى أذى لأنه حدث ذات مرة أن جزءا من قصر «قوجه مصطفى باشا» انهدم نتيجة هجمات الجند فالتمس مصطفى باشا عطف السلطان فقرر إبقاءه فى مصر ثانية، ودخل القاهرة فى أربعين يومًا فأعمل السيف فى عدة آلاف من جند مصر حتى إنهم لقبوه بقاتل الجند ولهذا السبب يحبسون الباشا ويحرصون على سلامته.

أما إذا رق له الباشا الجديد وقال: إن هذا المال فى ذمتى فإن ذلك يقيد فى السجل المحمدى فى حضور قاضى العسكر وشيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة وكبار الأعيان والأشراف، ويحصل الباشا ما تبقى وعندما يخلع الباشا يحاسبونه على ذلك.

أما إذا قال الباشا إنى لا أتحمل ما على الباشا المخلوع أى إذا قال إنه لا يستطيع أن يسدد دينه. يعرض الباشا أمره على الأستانة قائلاً: إن فى ذمة فلان باشا الوزير الأسبق عليه دين (بقايا) للخزانة السلطانية وهذا ما يسبب عجزًا فى الخزانة. والأمر لمولاى السلطان.

وعلى هذا النحو يبعث بتقريره إلى الإستانة. وفى خلال أربعين يومًا أو أكثر يصل الأمر السلطانى مع أحد رؤساء البوابين أو أحد القواد وفيه: «أنت وزير مصر وعليك تحصيل ما فى ذمة الباشا المخلوع من مال السلطان».

(١) بياض فى الأصل.

وإذا ما صدر الفرمان السلطانى بذلك، حُبس الباشا المخلوع وكبار أغواته فى برج يوسف وباعوا كل أمواله وممتلكاته فى المزاد، فيخلو وفاض الباشا وأتباعه ويدوم حبسهم ثمانية أو تسعة أشهر وقد يمتد سجنهم إلى عام ويصبح الباشا فى حاجة إلى الدوانق[1]، ويطلق سراحه بعد سداد ديونه وينقل إلى قصر أو يبقى فى ذلك القصر تحرسه فرقة من الجند.

يأتى بعد ذلك المدعون وأصحاب المظالم والشكاوى من كل صوب يطلبون ما أخذه الباشا المخلوع من رشوة دون مراعاة لمصالح المسلمين وانحرافا عن جادة الشرع الشريف.

فأما أن يعينه وزير مصر ويصونه قاضى العسكر ويدفعان لكل واحد من المدعين جزءًا من الشىء لإصلاح ذات بينهم. أو أن يحرص الباشا والقاضى عسكر والفرق السبع المدعين فتسوء حالة الباشا المخلوع وأغواته إلى أبعد حد فيطوفون بهم من مكان إلى مكان للتشهير بهم.

- خلاصة القول:

إذا كان الباشا عاقلاً ومدبرًا - حاسب المصريين قبل أن يحين عزله بخمسة أو ستة أشهر وألا يعتمد عليهم فى حساب ما عليه من ديون بل يراجعها مع الأستانة وعند خلعه يصدر فرمان سلطانى مع المسلم أو كتخدا الباب يجىء فيه: «أنت يا فلان وزيرى على مصر إذا ما وصلك فرمانى هذا عليك أن ترسل إلى الأستانة الوزير فلان معززًا مكرمًا» وعندما يصدر فرمان على هذا النحو فإنه - والعظمة لله - لا يفارقون الباشا المخلوع لشهر أو أكثر حبًا فيه ومجاملة له إذ إنه فى طريقه إلى الباب العالى ومن المؤكد أنه سيصبح صدرًا أعظم. ولا يجترئ وزير مصر ولا القاضى عسكر ولا جند مصر على الفصل فى ديونه ولا يستطيع أحد القول بأن حبة واحدة بقيت فى ذمة الباشا المخلوع وفى خلال أشهر أو أكثر عندما يهيئ الباشا أمتعته يأتيه مائتان أو ثلاثمائة بغل أو جمل وما يقرب من ألف من الجياد والطواشية ومال لا يحصى كثرة حتى إن الهدايا التى تأتى

(١) الدوانق: وحدة النقد العباسية ومفردها دونق.

الباشا عند عزله تكون بقدر الهدايا التى تقدم إليه حين توليه على مصر فقد تسلم إبراهيم باشا ألف كيس حين عزله، وبينما كان فى طريقه معززًا مكرمًا إلى الأستانة أسندت إليه ولاية الشام.

الموكب السابع لمصر حينما يعزل الباشا ويخرج مكرمًا

وهذا الموكب مثل موكب دخوله القاهرة بل إنه من الوزراء من تزاد له المواكب.

أما ـ والعياذ بالله ـ إذا ما عزل الباشا عن مصر منكوبًا ولم يظهر له صديق فى الأستانة خرج إلى العادلية بلا تعظيم وبلا تكريم مع أتباعه ويمضى إلى الأستانة محزونًا كاسف البال.

وينبغى للعقلاء من وزراء مصر أن يأخذوا العبرة من هؤلاء فعندما يتولى أمور مصر يتوخى الحكمة وسداد الرأى ويلزم جانب الحيطة. وعليه أن يطلع على كافة أحوال من سجنوا من الأمناء والملتزمين والكشاف المفلسين ويسعى فى إطلاق سراح كل منهم وعليه أن يفتش عن الأموال المطلوبة ممن سجنوا لدى الفرق السبع ويطالب بذلك المال.

وهذا ألزم ما يلزم الباشا العاقل فى البداية حتى إذا سألنا عنه حين عزله لا نُفَاجَأ بأنه فى السجن! يقولون له: كان ينبغى لك التحرز وقت توليك الحكم، ما الذى منعك عن عدم الاحتياط؟

– ومن ألزم لوازم الباشا كذلك أن يسأل من تبقت غلال فى ذمته وأن يساعد المظلومين والمقهورين على استرداد حقوقهم من ظالميهم ويرشق أكباد الظالمين بالسهام ويقتص منهم، ويتجاوز عن جرائم بعضهم ويعفو عنهم امتثالا لقوله ﷺ : «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا»، ويتصدق على كثير منهم ويعمل السيف فى بعضهم الآخر وهذا من ألزم لوازمه وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم.

– وعلى الباشا ألا يقبل رشوة من أحد لأنها تسترد منه عند عزله، وعليه ألا يثق بقول أهل الزيغ والفساد ويتصرف كيفما شاء دون أن يحيد عن صلاحه فينعم براحة البال.

- وعليـه كذلك أن يقوم كل شـهر بمحاسبـة الروزنامه جى وكل أهـل الديوان وأن يسجل كل ما يحصلونه. والسلام.

- وعلى الباشا أن يتخذ روزنامجى من أهـل الاستقامة والصلاح والثقة، إذ إنه عند خلع الباشـا يصبح في إمكان الروزنـامجى أن يعمل كافة حـيله الشيطانيـة ـ فلقد جاد إبراهيم باشـا على من يدعى عبد الرحمـن أفندى الروزنامجى بمائتى كـيس وعند عزل الباشا حسـب عليه ستمائة كـيس، وفى الوقت الذى تبقـى فيه لإبراهيم باشا سـبعمائة كيس لدى عبـد الرحمن الروزنامجى بإيـعاز من الأخير ادَّعُوا أنَّ فى ذمة إبـراهيم باشا ستمائة كيس. بيد أن جان بولاد زاده حسين باشا اتهم الروزنامجى بالخيانة، وقتله خفية بعد الطعام؛ فحمـد الله جميع أعضاء الديوان وكان جميع الأمنـاء والكشاف من ظلمه شاكين باكين.

- وهكذا فمن الحتم أن يكون الروزنامجى من أهل التقوى والصلاح.

وصية أوليا لوزراء مصر

اللهـم عافنا فقد انـخدع باشوات مصـر بمظاهر العـظمة فى مواكبـهم التى أسلـفنا وصفها، فدخلهم الـغرور، إذ إن من نهل من ماء النيل حكم حكم الجبـابرة المستكبرين فمصر هى أرض الفراعنة.

ولكن على الـباشا أن يألف الناس ويعاملـهم باللين والرفق، وعليـه الالتزام بحدود الشرع الشـريف. وعليه أن يسـند أمر الخزانة السـلطانية إلى كـتخدا الجاويشيـة ورئيس المتفرقة والدفتردار، وأن يلح فى كل ساعة على تحصيلها.

وعليه ألا يبـيع القرى المحلولة بل يجـب عليه أن يسجلها لأن الأوامـر ترد إليه من الأستانة مع بعض أغوات الباب العالى يطلـبون «الترقيات». ويلزمُ منح «الترقيات» إلى من يخـرج إلى الحج ومن يـذهب إلى خزيـنة اسطنـبول ومن يأتـون من مكة والمـدينة والذاهبين إلى القتال وكثير من أمثالهم.

وينبغى حصر القرى المحلولة بحيث يدفع سبعة آلاف أقجه كـ «ترقيات» حسب ما جاء فى قانون السلطان سليم. وهذا كله يطالـب به الباشا. ومعظم وزراء مصر لهذا السبب لا

يمنحـون الكشوفيات إلى الـكشاف المفلسيـن من مخزن يوسف وإدارة الروزنـامجى وهذا سبب اتهـامهم ومذمتهم. وعنـد خلع الباشا يطالـب بسداد مال السلطان و «الـترقيات». وعلى وزراء مصـر أن يرفعوا أيديهم عن أوقـاف الله، وألا يتعرضوا لهـا وألا يأخذوا من هذه الأوقاف مالا. وكل ما عليهم هو الإشراف عليها وتعميرها لتحسن العواقب.

وعليهم كذلك ألا يثقوا فى كلمة مفســد وألا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق. وألا يكونوا عونًا للمجرمين من طائفة جند «القاسمية وذى الفقارية» ومن والاهم وعليه محاسبة الإدارات الاثنتى عشرة فى كل عام ويُحكم الرقابة عليهم.

وجملة الـقول أنه يجب على الـسلطان ألا يحاسـب وزيره على الوسيلـة وإنما على الغاية والنتيجة، فـفى المثل التركى: «إذا كنت سوف تعطى فأعط الحاشـية لتعطى البك ليعطى الباشا».

وعملاً بهذا المثل فأعط السلطان تسعة ولا تعطيه عشرة من خلال أتباع الوزير.

ولا تأت إلى مصر فى جنـد كثير ويكفيك أن تأتى فى ثلاثيـن أغا وثلاثمائة حارس وإذا عقدت العزم أن تحكم مصر بالحديـد والنار وأحضرت عشرة آلاف جندى فإن ذلك قطرة فى مـحيط، وذرة فى شمس. وإذا جـئت بعشرين ألـف جندى فلا تسكـنهم فى المدينة فلا طاقة لولايتك بتحملهم لأن جميع قراها من مال الحكومة.

وجند مصر جميعًا فى خدمتك ورهن إشارتك فـاستخدمهم بسهولة، وعامل الجميع بيسر واعتدال، وإذا كنـت من أهل التقوى والاعتدال وعاملت النـاس بالحسنى، فسوف يتحصل لك فى العام ألفا كيس وإذا ما زاد عدد القرى المحلولة يتحصل لك ثلاثة آلاف كيس وتأتيك هدايا سنوية تقدر بألف كيس. ولكن شريطة أن تبسط جناح رعايتك على أصحـاب الشـأن ورجال الـسيـف وأهل الـكرم والـصادقيـن وأهل الوقـار وتجزل لـهم الصدقات، وإلا امتلأت مصر بمـن يتسلطون على العباد ويستبدون بهـم. وينبغى عليك أن تعقد أواصـر الألفة بينك وبـين الأمراء وأغوات الأستانـة ممن قضوا فترة طـويلة فى خدمة أكثر من سلطان وتولوا أكثر من وزارة. وثمة بيت فريد يقول:

لو لـم يكـن الـنـاس عـالـم بقلبـه ∴ ينبغى عليه أن يعيش بقدر المستطاع

وهؤلاء ممن تولوا المناصب ورغد عيشهم، أما حينما عزلوا لعنوا وحقروا وساءت أحوالهم.

الموكب الثامن وهو موكب وصول مقرر وزير مصر

عندما يصل هذا المقرر إلى مدينة بلبيس فإنهم يرسلون الخبر حتى يتجهز الجميع للموكب. وفى ذلك اليوم يُخطِر كتخدا الباشا جاويشية الموكب ليكونوا على أهبة الاستعداد، ويرسل وكيل مصروفات الباشا مطبخه إلى العادلية لتهيئة الولائم. وفى ذلك اليوم وفى تلك الليلة يكثر الهَرْج والمَرْج ويستأجر جميع أهل القاهرة الدكاكين حتى باب الناصر لمشاهدة الموكب. وفى صباح اليوم التالى يستأذن الكتخدا من الباشا للمضى على الموكب وفى معيته فرقة الموسيقى العسكرية وهى تعزف إحدى المقطوعات الموسيقية.

أما فى عهد إبراهيم باشا الكتخدا لأنه كان من اللازم إحضار من جاء بالمقرر السلطانى والخلعة الشريفة والسيف وسط مظاهر الأبهة والعظمة، أمر الكتخدا بأن يحمل جميع أفراد فرقة الموسيقى العسكرية وأغوات قصر الباشا كامل أسلحتهم وعندما ذهبنا لم يكن معنا إلا فرقة الموسيقى العسكرية.

وعند مَقْدِمِنا بمرسوم التثبيت (المقرر السلطانى) نبه علينا بأن نقرع الطبول، وفى البداية مر موكب التتار، والدلاة، والمطوعة، والقائمون على خدمة موائد الباشا، ثم موكب الصراجين، وموكب مشاة المتفرقة، وموكب رئيس البوابين، وموكب الكتخدا.

ثم خرج كتخدا الباشا مع كتخدا الجاويشية جنبًا إلى جنب وفى معيتهم رئيس المتفرقة والشهر حواله أفندى وأفندى الديوان وكتخدا البوابين وقد لبسوا جميعًا الثياب المزركشة ومعهم صغارهم وقد لبسوا كذلك أفخر ثيابهم وطافوا داخل شوارع القاهرة وخرجوا من باب الناصر، ولا وجود فى هذا الموكب لجندى واحد من جند مصر. وانتظر المصريون جميعًا فى الدكاكين الصغيرة فى السوق السلطانية وعندما بلغ الموكب العادلية وقف من جاء بمرسوم تثبيت الباشا - بقطع النظر عن كونه بك اسطبل السلطان، أو كتخدا بوابين، أو أغا من أغوات الصدر الأعظم - للكتخدا وبعد أن صافحه بسط

السماط وتناول الطعام جميع البكوات والأعيان. وبعد القهوة وإحراق البخور ركبوا جيادهم وتحرك الموكب على النحو الذى أسلفنا ذكره، ومضى كتخدا الباشا والأغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا جنبًا إلى جنب، وعندما مر دفتردار الأغا يحمل الخلعة الفاخرة والكتخدا يحمل السيف المرصع والأوامر السلطانية التى فى جيب الأغا والكيس الحريرى والصرة المخيطة بالذهب وبداخلها الفرمان السلطانى، عزفت الموسيقى العسكرية ودخل الموكب من باب الناصر وإذا ما رضى المصريون عن الباشا ازدحمت الأسواق السلطانية بهم لمجيئ فرمان التثبيت، وعندما صعد عدة (   )[1] على هذا النحو إلى قاعة ديوان الغورى بالقصر السلطانى بقلعة القاهرة قارعين الطبول، وصل الباشا إلى رأس السلم لاستقبال الموكب ثم وقف أسفل عرش السلطان سليم، وفى التو خرج الأغا الذى أحضر مرسوم التثبيت مع الصرة وهو يحمله فى يده وأخرج كذلك الفرمان والأمر السلطانى من الصرة المزركشة وقبلها ووضعها على رأسه وسلمها إلى يد الباشا فقبلها هو الآخر ووضعها على رأسه ووضعت الطغراء الشريفة مع البسملة وفض خاتمها. وعند إخراج الفرمان الشريف حفل ديوان الغورى بحشود من الناس قدموا لمتابعة ما يجرى بالديوان. ثم تلى أفندى الديوان الفرمان الشريف فى جرأة وجهارة وفى الأغلب يتضمن خير الدعاء للبرايا والرعايا وأحوال مكة والمدينة والخزانة وقول السلطان: لقد قررت تثبيتك فى هذه السهنة المباركة. فصفق جميع الجاويشية وعمت البهجة والابتسام وجوه جميع أرباب الديوان وفى التو تقدم الأغا الوافد نحو الباشا حاملاً الخلعة الفاخرة فى يده، ثم قبلها وألبسها الباشا وعندما ارتدى الباشا الخلعة صفق كل الجاويشية قائلين: «بارك الله لك فيها»، بعد ذلك علق الأغا الوافد السيف المرصع بالجواهر فى وسط الباشا والأغا تحت إبط الباشا وصعدا به سجادة السلطان الغورى وتليت الأوامر السلطانية بأعلى صوت للمرة الثانية، وبيض الجاويشية والأغوات الأوامر السلطانية ووزعوها لتنفيذ ما جاء فيها. وعندما انفض الديوان أطلقت مدافع القلعة سبعين طلقة وعمت البهجة والفرحة الناس جميعًا، وفى تلك الساعة حضر موسيقيو

(١) بياض فى الأصل.

القلعة وعزفوا إحدى المقطوعات العربية ومنحوا منحة قدرها ألف باره على الفور وانصرفوا.

وفى صباح اليوم التالى بُسط السماط فى الديوان، وحضره جميع أرباب الديوان وأصحاب المناصب العليا وثبتوا فى مناصبهم وطيبت نفوسهم بما خلع عليهم من خلع فاخرة، وانصرف كل إلى داره وعزف رئيس فرقة الموسيقى العسكرية للقصر مقطوعة موسيقية ونال هو ورجاله على الفور منحة قدرها ألف باره وأقمشة.

وبعد ذلك قدم أربعة وعشرون من أصحاب المراتب لزف التهانى إلى الباشا، ونالوا المنح منه، وفى هذا الديوان عزل بعض الأعضاء وأسندت مناصبهم إلى غيرهم، وحصل مال الكشوفية الخاص بالباشا من جميع أصحاب المناصب وحصل عشرة أكياس من كتخدا الجاويشية وعشرة أكياس من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس التراجمة وخمسة من الروزنامجى وستة من أغا الإنكشارية وأربعة أكياس من رؤساء الفرق العسكرية الخمس الأخرى وخمسة أكياس من كل من الصوباشى والمحتسب أغا نظير تثبيتهم فى مناصبهم وحصل ثلاثمائة وستون كيسًا ممن خلعت عليهم الخلع.

ووزعت عشرون أو ثلاثون كيسًا على أغا الباب العالى الذى جاء بمرسوم التثبيت وأغوات الصدر الأعظم ودفع ما يقرب من عشرة أكياس كذلك على الخيل والطواشية وسائر الهدايا الأخرى.

وأقام كتخدا الباشا وسائر أصحاب المناصب المآدب، وقدموا هداياهم إلى الباشا وأرسلوا بعض الهدايا إلى الأستانة. ونال بذلك الأغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا مائة كيس وهكذا ينتهى موكب مرسوم تثبيت الباشا فى منصبه.

الموكب التاسع

موكب إرسال خزانة مصر إلى الأستانة

بمجرد أن يصل مرسوم التثبيت الخاص بالباشا والذى أسلفنا الحديث عنه وتجدد جميع المناصب يوافق ذلك رأس السنة، ولذا يصبح لزاما على الباشا أن يحصل خزانة

مصر ويحظى ذلك باهتمامه ويبحث دفتر دار الباشا وكتخدا الجاويشية ورئيس فرقة المتفرقة وكتخدا الباشا والشهر حواله وكل أولى الأمر عما تبقى من أموال فى ذمة الأمناء والكشاف والملتزمين والولاة، ولا تنتهى عند تحصيل مال الثلث الأول والثانى والثالث والمال الصيفى والشتوى، بل يقومون بتحصيل الأموال المتبقية فى ذمة الأمناء العاجزين عن السداد ويكابدون فى ذلك عناء ومشقة لا مزيد عليها، ويقبض على الكشاف العاجزين عن السداد ويعلقون من أذرعهم فى بكرات فى ديوان الغورى ويصلبون وتجرى الدماء من عظامهم ويطرحون فى السجن.

ويحصلون المال السلطانى ويطلقون عليه اسم « الخزانة الكبرى» ونوضح الآن من أين تحصل هذه الخزانة.

بيان بجميع قرى مصر وإجمالى أكياس الخزانة وعددها ودراهمها والدوانق والأوقيات وثقل مثقال القمح والشعير

فى مصر ٧٦٠ مدينة و ٣٠٠٠ قرية و ٦٠ قلعة، وفيها كذلك ٢٤ محكمة على نحو ما سلف ذكره بالإضافة إلى ٣٦ محكمة فى ولاية الصعيد العالى.

يحصل سنويًا ٢٤ خزانة من جميع قرى الكشوفيات والأوقاف والأمناء والملتزمين وأوقاف السلاطين وأوقاف الحرمين والأعيان وغير ذلك من القرى. وهذا ما ورد فى سجلات «الغزالى» وسوف أتحدث عن كل منها فى حينه بمشيئة الله.

إلا أنه ثمة اثنتى عشرة خزانة خاصة بالمال السلطانى وهذا ما سوف نوضحه.

والخزانة الكبرى هذه تمثل المال السلطانى فى ديوان مصر والأستانة وينبغى أن تصل بأى وجه كان لصرف مرتبات عيد الفطر المبارك وتقدر هذه الخزانة بـ « ٢٢٠٠ كيس مصرى» فى كل كيس «٨٤٦ قرشا»، وكل قرش يعادل « ٣٠ باره»، وعلى ذلك فإن كل كيس يحتوى على « ٢٨٠٠٠ » باره، وكل باره تعادل دانقًا وكل دانق يعادل « ١٠ أثقال من الشعير»، والدرهم يعادل «٤ دوانق» ويعادل كذلك « ٤٠ ثقلا من الشعير»، والمثقال يعادل « ١٠٠ ثقل من الحنطة» بناء على هذا الحساب يزن الكيس المصرى( )[1] أوقية.

(١) بياض فى الأصل.

وفى الديوان يسطون بسطًا من الجلد المدبوغ ويحصيها ثلاثمائة من الصيارفة ويزنها الوزانون كلها وتلف كيسًا كيسًا ويختمها الدفتر دار أمام الباشا ثم تسلم إلى «الحاصل خرج»[1] فى ديوان الغورى يضعها الحاصل خرج فى صناديق من خشب الصنوبر (الأرز) بواقع ثلاثة أكياس فى كل صندوق ويسمر كل منها على حدة، وهذه الصناديق مبطنة من الداخل ومن الخارج باللباد ويغطونها كذلك بجلد العجل الرطب ويلفونها بحبل متين ثم يغطونها ببسط حمر. وعلى هذا النحو تجهز الخزانة ويحملها أحد البكوات الثراة المعروفين بشدتهم، ويصرف له نفقات سفره من خزانة السلطان ويؤكد عليه بضرورة التأهب لهذه المهمة.

ويتبعه أحد أغوات الإنكشارية عمن فى سبيلهم لنيل درجة كتخدا وقديم ثرى من كل فرقة من الفرق الخمس الأخرى وجاويش وبيرقدار ويصل إجمالى المكلفين بهذه الخزانة إلى اثنين وسبعين شخصًا يطيبون نفسًا بمايخلع عليهم من خلع سلطانية.

وإذا ما كانت غرة شهر رجب يبسط سماط ديوانى عظيم يدعى إليه جميع أرباب الديوان والعلماء والصلحاء والقاضى عسكر ونائب الديوان وشهود وكتاب السجل السلطانى ويحصى كتخدا الباشا الصناديق التى تكومت كالجبال فى الديوان صندوقًا صندوقًا فى حضور الباشا والعلماء وبك الخزانة ويسلمها إلى بك الخزانة وقادة الفرق السبع وعندئذ يوجه الكتخدا كلامه إليه قائلاً: لقد تسلمت منى ألف ومائتى (١٢٠٠) كيس من مال السلطان بالتمام وأخذت منك صكًا بذلك وهو الآن لدى. فليشهد الباشا بذلك.

ويسجل هذا فى السجل الشرعى ويدعو داعى الديوان وتقرأ الفاتحة. ثم ينزلون الصناديق من ديوان الغورى إلى ميدان القصر يحرسها مائتان من رجال الباشا مدججين بالسلاح راكبين البغال المزينة وقد جلجلت جلاجلها ويحمل الإنكشارية والعزب كل بغل صندوقين بهما ستة أكياس.

---

(١) الحاصل خرج: مُحَصِّل الخراج.

ذكر موكب خزانة مصر

وتبدأ المواكب فى المسير تتقدمها مواكب الباشا بمقتضى القانون ثم جند الفرق السبع المكلفين بإرسال الخزانة وعددهم سبعمائة، ويمر الموكب بمرأى من الباشا وهم رافعين الأعلام يقرع قادتهم الطبول ومعهم بك الخزانة وعليه قباء فرو السمور وعلى رأسه العمامة البريشانى ومن ورائه رجاله فى كامل زينتهم وسط عزف الموسيقى وقرع الطبول ويلوحون للباشا بالتحية بأعلامهم وطوغاتهم ويقول الباشا لهم: « أمضوا يسر الله لكم أمركم» وعندما ينزل الموكب من القلعة على هذا النحو ينخرط فيه، بمقتضى القانون، عشرة آلاف جندى ممن تجرى عليهم الرواتب (النظاميين) وعندما يطوفون شوارع القاهرة على مهل يصطف الناس على جانبى الطريق العام وقد احتشدت جموعهم لمشاهدة الموكب ويرفع الرجال أصواتهم بالدعاء قائلين: «إن شاء الله بالسلامة»، بينما تطلق نساؤهن الزغاريد ويمشى جند الإسلام يختالون كأنهم الطواويس والبهجة والسرور تعلو وجوههم.

وعندما يصل الموكب من باب الناصر إلى الموضع المسمى بالعادلية يلزم كل مكانه وتكوم كل صناديق الخزانة داخل خيمة بك الخزانة ثم يأتى على الفور الصيارفة وقدامى الفرق السبع ويتولون جميعًا عد الخزانة، بعد ذلك يمررون السلاسل فى حلقات الصناديق ويشبكون طرفى السلسلة بقفل ثم يغطونها بالبسط ويحيط بها الناس جميعا لحراستها ويحتشد كل الجند ويبقى المكلفون بالخزانة، ثم يسترون كل الصناديق بالبسط الحمر. ولفظ «سترك الله» جاء من هنا. وهذا اللفظ شائع على ألسنة المصريين. ويدوم بقاؤهم فى العادلية ثلاثة أيام وثلاث ليال وفى هذه الفترة تعم البهجة والسرور وتعزف الموسيقى العسكرية وهم يقومون على حراسة الخزانة وعند خروج الخزانة من العادلية تصدر الأوامر السلطانية إلى بك سبيل علام وكاشف قليوب وصوباشى المدينة بأن يلحقوا جنودهم بموكب الخزانة فى سهل العادلية وتضاء مئات المشاعل والقناديل حول الجند لحراسة الخزانة.

ولأن صوباشى المدينة مشغول بمهام الحراسة فى العادلية لا تكفى جنود «الديودار» أى حاكم القلعة لحراسة المدينة فيمضى كتخدا الإنكشارية فى ألف أو ألفين من رجاله مدججين بالسلاح إلى الغورية فيقومون بها حتى مطلع الفجر فى لهو ومرح ويؤنسهم ويطربهم مئات المغنيين والموسيقيين، ويختصون بحراسة الأشراف. ويتقاضى أفرادهم المكلفين بإرسال الخزانة مرتبًا سنويا يدفع مقدمًا.

يصدر بك الخزانة أوامره لكاشف قليوب بأن يمضى بجنوده مع الخزانة إلى كاشف الشرقية ويصبح الموكب فى هذا اليوم غاية فى أبهته وعظمته ويمضى جميع القادة المكلفين بالسفر من كل الفرق العسكرية.

الموكب العاشر

موكب الفرقة العسكرية المختصة بالخزانة

وفى اليوم الثالث لا وجود لرجال الباشا ولا لغيرهم من جنده، يقتصر هذا الموكب على قدامى الفرق العسكرية وأثريائها. إنه موكب غاية فى روعته وزينته، وكل من فيه من المسافرين مدججون بالسلاح أما من لا يسافرون يمضون بسيف فقط ويعود الباقون أدراجهم. بعد ذلك ينفخ بك الخزانة فى أبواق الرحيل وتقرع الطبول، وبعد أن يسلم كاشف قليوب الخزانة إلى كاشف الشرقية فى حراسة ثلاثة آلاف فارس يتسلم حجة شرعية بذلك يمضى بها إلى الباشا وعندما يسلم كاشف الشرقية الخزانة إلى باشا غزة يتسلم كذلك حجة شرعية يمضى بها إلى الباشا وعندئذ يطمئن الباشا ويهدأ بالا ويقول: «حمدًا لله الآن فقط سلمت الخزانة إلى البك ودخل بها حدود الشام». ويباشر الباشا مهامه الأخرى.

ما ينبغى أن نعلمه

ينبغى أن نعلم أن نفقات الخزانة التى تحوى ألفًا ومائتى كيس ومصروفات خلع الجند المكلفين بها ومأكولاتهم ومشروباتهم وعلف خيولهم وخيام القادمين بالبغال وأثمان الصناديق والترقيات التى تدفع إلى بكوات الجند القائمين بهذه المهمة لدى عودتهم إلى القاهرة ومرتبات أغوات الفرق السبع ورؤساء خدم القصر الثلاثة والجاويش والبيرقدار

والطبردار والحاصل ترقيات الثمانمائة شخص المكلفين بالمهمة والتى تتراوح بين أقجتين إلى ألف أقجة يوميًا إضافة إلى الخلع تصرف لهم جميعًا لدى عودتهم سالمين إلى القاهرة.

وبناء على حساب هذه النفقات فإن كل خزانة تحوى ألفى كيس بتمامها ولأن هذه الترقيات تصرف من الضرائب التى يحصلها الباشا فإن ذلك يمثل عبئًا عليه يقدر بـ (   )[1] مائة كيس.

وإذا ما أراد الباشا أن يدفع الترقيات طبق الموجود وغير الموجود ومن أدى خدمة ومن لم يؤد فإن الثورة تقوم عليه، وفى النهاية يتصالح أفراد الفرق السبع مع الباشا على أن يدفع لهم خمسة وعشرين قرشًا على كل أقجة ما لم يكن هناك قرى محلولة.

واتفق ذات مرة أن أحصاهم (   )[2] بغتة فكان بها ثلاثمائة شخص وجاءت التعليمات إلى إبراهيم باشا بأن يدفع المنح لثلاثمائة رجل.

هذا قانون السلطان سليم الذى سيبقى ما شاء الله.

الموكب الحادى عشر

موكب إرسال الباشا «منحة العيد» إلى السلطان

إذا ما وصلت بشرى وصول الخزانة إلى دمشق من بك الخزانة وأغوات الفرق المبعوثين يبتهج الباشا لذلك ابتهاجا لا مزيد عليه. وإذا ما حلت غرة شهر شعبان يبدأ فى إعداد خزانة منحة العيد (العيدية) ولا يشترك فى ذلك بكوات مصر ويقيد الباشا لهذا أحد أغواته من ذوى الوقار والمنزلة وأحد قواده الأكفاء ويجود بصدقاته على رجال أشداء أكفاء مدججين بالسلاح من فرق التتار والدلاة والمطوعة والمتفرقة وغيرهم من الفرق الأخرى إضافة إلى ثلاثمائة رجل آخرون من الشباب الأشداء المتفردين من الفرق السبع لهم القدرة على استعمال السلاح وركوب الخيل ويقرر لكل منهم ترقية قدرها أقجه لأن هؤلاء يمضون كأنهم ذاهبين للقتال ويتخطون الخزانة الكبرى ويصلون قبلها بخمسة عشر أو عشرين يومًا إلى الأستانة وهذا عليهم من الحتم.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وتضرب عملة ذهبية خاصة بالسلطان فى دار الضرب من أجل إرسال منحة العيد إليه ويتوسط هذه العملة حلقة من الفضة الخالصة ولا تدخل هذه العملة ضمن ميزانية الخزانة بل هى من صلب مال الباشا وتقدر بـ (   )[1] كيسا من العملة المصرية، وترفق بهذه الخزانة بما يقدر بثلاثمائة كيس من السلع النفيسة الواردة من بلاد اليمن والهند والحبشة وتحزم هذه الأمتعة فى صرر.

ترسل عشر صرر منها إلى والدة السلطان وخمس صرر لمحظيات السلطان وخمس لأبنائه وخمس لوالدة كتخدا السلطان وثلاث صرر لأغا السعادة واثنان لخدام الباب العالى واثنان للخزينة دار الرئيس، واثنان لكبير خدام قصر السلطان واثنان لكل سلاحدار وجوقدار وركابدار وأغا القصر القديم ورئيس حاملى الطبر، ورئيس مقدمى القهوة فى بلاط السلطان وهؤلاء جميعًا ممن لهم صلة بالقصر السلطانى.

كما يمنح الصدر الأعظم عشر صرر وعشرة آلاف دينار من ذهب ويمنح كتخدا الصدر الأعظم خمس صرر ويرسل إلى رئيس الكُتّاب ألف دينار وكل كاتب من كتاب التذكرة صرة وثلاثمائة دينار ذهبى، وصرة وثلاثمائة دينار ذهبى لكل من كاتم السر فى الديوان والروزنامجى أفندى وكتخدا بوابى الصدر الأعظم والخزينة دار ورئيس طائفة البوابين ورئيس الجاويشية كما يعطون صرة واحدة لكل من الدفتردار باشا وشيخ الإسلام وقاضى عسكر اسطنبول، إلا أنهم يمنحون لكل من شيخ الإسلام والدفتردار باشا خمس صرر وألف دينار من ذهب أخرى.

ويمنحون كذلك صرة لكل وزير من وزراء القبة السبعة[2].

وبناء على ما سبق ذكره يكون عدد الصرر التى توزع مائة وسبعين صرة.

إلا أن هذه الصرر لا تكفى فيرسل كتخدا الباب صورة من دفتره بأنه استلم مائة صرة وعلاوة على هذه الصرر وعيدية الصدر الأعظم التى تقدر بـ اثنى عشر ألفا من الدنانير الذهبية يرسل عشرة آلاف دينار أخرى كعيديات. ويصبح هذا وبالا عظيمًا على وزراء مصر.

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) اصطلاح يعنى: الوزراء الذين يجتمعون فى قصر طوب قابو فى المكان المعروف باسم تحت القبة للنظر فى أمور الدولة، لذا سموا وزراء القبة. محمد زكى پاك آلين، معجم مصطلح التاريخ العثمانى ٢/٣٠٧/١.

وبعد أن أرسل إبراهيم باشا خزانة منحة العيد إلى السلطان أرسل مع أحد أغواته وعشرين من رجاله خمسة جياد مطهمة إلى السلطان إضافة إلى مائة جواد أخرى لأعيان الدولة فى اسطنبول.

ومن عجب أنه علاوة على صرر منحة العيد المذكورة أعلاه وما أرسل من هدايا إلى أعيان اسطنبول أرسل إبراهيم باشا مع أحد رؤساء البوابين ثمانين ألف كيلة أرز ومائة ألف كيلة من العدس ومائة ألف كيلة من الحمص والفول وستمائة فردة من البن وألف قنطار من السكر وألف زجاجة من مختلف الأشربة المعطرة وخمسمائة زوج من الحصير الملون ومائة وخمسين من الطواشية إضافة إلى سائر التحف والهدايا من أجل أعيان الدولة ومائة كبش وغزال وعجل وحشى ومائة قفص من الببغاوات والنعام وشحنت كل هذه الهدايا فى السفن فى رشيد والإسكندرية لإرسالها إلى الأستانة.

ويسلم الباشا كل هذه الأموال إلى أغا الخزانة وعندما يمضى جند الباشا فى موكب غاية فى الزينة وهم مدججون بالسلاح يمضى كذلك كتخدا الباشا وأغا الخزانة جنبًا إلى جنب ويقيمون جميعًا فى سهل العادلية ويحتشدون فى خيمة أغا الخزانة وفيها يمنح كتخدا الباشا أغا الخزانة أربعة أكياس نفقة الرحلة وأربعة آلاف أقجة لكل من رجال الباشا ويقوم جند مصر وجند الباشا بحراسة الخزانة. وبما أنهم فى مقر إدارة بك سبيل علام وكاشف قليوب يحيط الخزانة ألفى فارس طيلة ثلاث ليال لحراستها ثم يودع أغا الخزانة الكتخدا ويدخل الأخير إلى القاهرة ثانية، ثم تمضى الخزانة إلى الخانكة ومنها إلى بلبيس فيتسلمها كاشف الشرقية، وفى غضون عشرة أيام يسلمها إلى باشا غزة وتصبح فى حمايته.

وبعد قطع المنازل وطى المراحل تصل هذه الخزانة إلى الدفتردار باشا فى الأستانة قبل العيد، ثم تعرض بعد ذلك على السلطان وتسلم إلى الخزانة السلطانية ويقوم كتخدا الباب العالى بتوزيعها فى وجوهها بموجب الدفتر، وبعد ذلك مباشرة فى منتصف شهر

رمضان يأتى المبشرون من جند مصر ويحظون بالخلع والترقيات. وفى الخامس والعشرين من شهر رمضان يسلم بك القاهرة الخزانة فى موكب عظيم ويسعد القادة بالخلع السلطانية ويقيمون فى قصر مخصص للوزراء، وتحصى الخزانة ويعد محتواها ويبدو أن هناك خمسة أكياس أو أكثر ناقصة حسبت على كتخدا الباب.

تصرف رواتب الجند بمناسبة حلول العيد، ثم يحصون عدد الجند القادمين مع البك المصرى وتصل الفرمانات إلى الباشا متضمنة عدد الجند القائمين بمهمة إرسال الخزانة وأنهم سلموها ويستحقون أن ينالوا «الترقيات»، وما عدا ذلك من الأسماء لاحق لهم فى أى منح. ولقاء وصول الخزانة الكبرى وخزانة منحة العيد إلى السلطان يصل الباشا مع أحد رؤساء الباب العالى السيف والقباء، فيمنح الباشا من يحمل إليه هذا القباء وهذا السيف خمسة عشر كاتبًا.

الموكب الثانى عشر

موكب وصول السيف والقباء

إنه موكب كبقية المواكب السابقة المفروضة، لا فرق بينه وبينها فى شىء. ولا يشارك فيه جند مصر، وكل ما فى الأمر أن جند الباشا يمضون إلى العادلية ويرسلون المطبخ إلى هناك قبل ذلك بيوم واحد، وتبسط الأسمطة ويطعم الطاعمون ويمضى كتخدا الباشا مع الأغا الوافد ويدخلان من باب الناصر فى موكب عظيم وسط جموع الناس ويصل إلى قصر الباشا فى القلعة، وفى الديوان تتلى الأوامر السلطانية ويجىء فيها:

«وصلتنى خزانتك أيها الوزير بالتمام ولقد أرسلت إليك سيفا وحلة فاخرة، فلتكن فى خدمة الرعايا والبرايا ولترعى أمور مكة والمدينة».

ويلبس الباشا الخلعة الفاخرة ويعلق السيف البراق فى وسطه فيزيده ذلك هيبة ووقارًا.

الموكب الثالث عشر

موكب الصرة المحمدية من مصر القاهرة إلى الشام

لم يكن لتلك الخزانة وجود فى قانون السلطان سليم ولكن صدر الأمر السلطانى بها فى عام ١٠٨٢هـ بمشورة الكتخدا إبراهيم باشا، ولأن السفر من إستانبول إلى المدينة مع أمين الصرة كان أمرًا عسيرًا فقد تقرر تسليم الصرة إلى أمينها فى موضع (   )[١] على مسافة عشرين منزلاً بين مصر والشام وقد استحسن أن يسافر بها أمين الصرة ووالى الشام (   )[٢] بخفة إلى استانبول لتسليم الصرة إلى الشخص المكلف، وفى الخامس عشر من شهر رمضان المبارك تخلع خلعة فاخرة للأغا المدبر الذى سيكون مع الصرة سردارًا لها، وتمنح ألف پارة كل من أغوات الباشا الثلاثمائة الشجعان الأبطال الذين يؤلفون عشرة طوابير، وألف پارة لكل بطل من المائة المصريين المدججين بالسلاح. ولكن ليست لهم ترقية ميرية، لأن هذا السفر خدمة سخرة يكلفونها من أوجاقاتهم.

يمنح أغا الباشا كيسًا لنفقات الطريق وفى حضور كل العلماء والصلحاء والأعيان يتسلم الباشا بيديه اثنتين وستين ألف سَكّة تزن مثقالاً كاملاً من الذهب البندقى ـ والمثقال يزن مائة حبة حنطة ـ، فقد قطعت هذه القطع الذهبية على أن تزن كل مائة قطعة منها مائة وستة وعشر درهمًا كامل العيار تام الميزان. إن وجد فى قطعة منها نقص مقدار حبة قمح، وعَرَض شريف مكة وشيخ الحرم بالمدينة بأن صرتهم جاءت ناقصة فى هذا العام، فإن هذا يحدث اضطرابًا فى أحوال وزير مصر. فلذا تحضر هذه الخزانة من الذهب الخالص النظيف الطاهر. وتحمل هذه الخزانة على بغال الباشا من ميدان السراى، ثم يمر رجال الباشا والمعينون لمرافقتها من المصريين أمام الباشا دون أن ترافقهم الفرقة الموسيقية. فقط تقرع طبول أغا الباشا وسردار الخزينة دار، ويجتازون القاهرة شاقين طريقهم فى بحر متلاطم من البشر، ثم يتوقفون فى العادلية، وهناك تُسلم إلى أمين الصرة، ويأخذ أغا الباشا الحجة الشرعية، وفى اليوم الخمسين يدخلون مصر مرة ثانية.

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

الموكب الرابع عشر للخزانة
(موكب الكسوة السوداء للكعبة)

سلف وصف الكسوة الشريفة غير مرة، وهى كذلك إحدى الخزانات السلطانية. إلا أنها ليست من أوقاف آل عثمان. إنها أوقاف شجرة الدر فى عهد سلاطين الأكراد، ولم تكن من قبل لأحد الملوك بل استأثرت بها شجرة الدر.

والآن هناك عشرة قرى معمورة بالقرب من القاهرة، يتحصل منها سنويًا مائة وسبعون كيسًا، يشترى بها ناظر الكسوة سبعين قنطاراً من الحرير وثلاثة قناطير من الفضة الخالصة. وفى شهر المولد يبدأ مهرة الصناع فى صنع الكسوة وفى شهر رجب يقوم ناظر الكسوة بعرض نماذج للكسوة الشريفة على الباشا، وإذا كانت غاية فى دقة الصنع خلع الباشا الخلع الفاخرة على ناظر الكسوة وصناعها المهرة. وإذا كانت على العكس من ذلك أغلظ عليهم اللائمة وأخذهم بشديد العقاب.

ومن غرة شهر شوال تبلغ الباشا البشرى بالانتهاء من صنع الكسوة الشريفة، فيأمر بإعداد الموكب. وعدد الجند فى هذا الموكب قليل ويقتصر على كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وناظر الكسوة وأمينها ودراويش مائة وسبعين طريقة صوفية.

وقبل الموكب بيوم يحضرون الكسوة الشريفة إلى الباشا فيزنها ويفحص ما فيها من أشغال الصرمة والحرير ويحاسب ناظر الكسوة على ذلك. وإذا وجدها الباشا على خير ما يرام ألبس ناظرها خلعة، أما إذا نقص من خيوطها الذهبية شيء أخذ من ناظر الكسوة عدة أكياس ليعفو عنه.

وفى صبيحة اليوم التالى تخرج الكسوة الشريفة من جوسق يوسف حيث إنها تصنع هناك و يثبتونها على إطار من خشب فى حجم الباب الشريف للكعبة خارج باب الوزير لقياسها وهذا الإطار الخشبى يقام على أوتاد يصنعه أهل المغرب. وستار الباب الشريف غاية فى ارتفاعه وبما أن باب القلعة لا يتسع له يفتحون هذا الستار خارج باب القلعة.

ويحملون مع الكسوة عشرين لفافة سوداء لكسوة الكعبة وعشرين لفافة أخرى من الحبال الغليظة وردية اللون لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة، وثمانية صناديق تشبه النعوش تحمل عليها الأجزاء الثمانية الخاصة بأحزمة الكعبة والتى يبلغ طول الواحدة منها عشرين ذراعًا وكذلك تبسط سترة مقام إبراهيم - عليه السلام - على إطار خشبى ويزينون كل ذلك.

يتلقى جميع المشايخ الخبر بذلك ويبدأ الموكب فى التحرك من باب الوزير إلى مشهد الإمام الحسين، وتمضى حبال الكعبة فى المقدمة ويتصدق بعض الناس على حاملى الكسوة من المغاربة، ويقتربون منهم ويمسحون بوجوههم الكسوة تبركًا وتيمنًا. وكل لفافة من هذه اللفائف يحملها مغربى على رأسه وذلك اليوم يوم المغاربة.

يحضر هؤلاء المغاربة الكسوة وهم يرددون (لا إله إلا الله محمد رسول الله). والكسوة بتمامها سوداء لذلك تسمى الكسوة السوداء لبيت الله. وبعد الكسوة تمر الصناديق التى تشبه النعوش والبالغ طول الواحد منها عشرة أذرع وبها أحزمة الكعبة وهى مزدانة بالذهب حتى إن من يشاهدها تبهر نظره.

وفى هذه الكتابة الذهبية لهذه الأحزمة آية كريمة هى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ [النور: ٣٦]، وكلها مذهبة وليس فيها ألوان. وعرض الحزام من هذه الأحزمة ذراعان، أما طوله فعشرون ذراعا. ويحمل المغاربة كذلك هذه الأحزمة الثمانية، ويمضى خلفهم الجند حتى لا يصيبهم أحد بسوء ويمضون إلى ميدان القصر لعرضها على الباشا. وعندما يراها الباشا يمسح وجهه عليها ويدعو لهم بالخير ويثنى عليهم ويأمرهم بالمرور أمامه تباعًا ثم يبتهل شيوخ مائة وسبعين طريقة صوفية وما يربو على أربعين ألف درويش ذاكرين الله، ويقرعون الطبول وينفخون فى الأبواق، ويغيب الصوفية فى نشوة، ويمر الموكب والجميع يوحدون الله ويذكرون ويشكرون بصوت رخيم، وهؤلاء المشايخ العشرة آلاف يحملون أعلامهم موحدين الله ويستغرق مرورهم أربع ساعات.

ثم تمر بعد ذلك كسوة مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهى كذلك مزدانة بالذهب ويحملها رجل على رأسه فى صندوق مغطى وتكون هذه الكسوة غاية فى دقة الصنع ولا يخفى على الصوفية أن يشاهدونها.

ثم يأذن الباشا لنساجى الكسوة الشريفة الأربعين ويمرون مثنى مثنى أمامه ويخرج وراء هؤلاء بالتبعية كل من فى مصر القاهرة من صناع الحرير والمخمل وفى هذا الموكب يجرح كثير من الناس لشدة الازدحام. لأن الناس يجتمعون مزدحمين على جانبى الطريق لمشاهدة الكسوة الشريفة وكسوة مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويمسحون وجوههم على الكسوة الشريفة تبركًا. ويتفق أن أحدا كان يمس بطرف عمامته الكسوة فسرق منه أحد الرعاع عمامته.

وبعد مرور مهرة صناع الكسوة يبدأ مرور جند أمير الحج وهم كذلك يحملون أسلحتهم ويمرون مثنى مثنى. ويخرج المغاربة حاملى كسوة باب الكعبة الشريفة مهللين مكبرين.

إنها كسوة باب رائعة مزركشة مختلفة الألوان والزخارف، طولها عشرة أذرع تنسج فيها بخيوط الذهب عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وبعد مرورها يمر المحمل الشريف على جميل جميع مخضب بالحناء.

ولما كان جان بولاد زاده عزيزا لمصر جدد كسوة الكعبة بالذهب فأصبحت كأنها النور الإلهى.

وجملة القول أن اللسان يعجز عن وصفها. وفى هذا العام يمر المحمل فى هذا الموكب العظيم وفى وقت آخر يمر مع أمير الحج، وبجانب هذا المحمل يمشى عدة آلاف من العكامين وحاملى المشاعل وهم يقرعون الدفوف والطبول صائحين بقولهم (الله ينصر السلطان) ويمضى رؤساء الحرفيين ثم ناظر الكسوة وكتخدا أمير الحج وأمين الكسوة وقد لبسوا ما خلع عليهم الباشا من خلع، ويتبعهم أغوات القصر حاملين سلاحهم وهم كاملى الزينة وخلفهم كذلك فرقة موسيقى أمير الحج وهم يقرعون الطبول ويَصْطَفُّ الناس لمشاهدة هذا الموكب فى حشود وحشود.

تصل الكسوة الشريفة إلى مقام الحسين وهنا توضع الكسوة الشريفة وغيرها من الأمتعة ويحتشد العلماء هناك سبع ليال محتفلين بذلك ويقيسون أستار وحبال الكسوة الشريفة. ولأن محيط مشهد الإمام الحسين رضى الله عنه يماثل محيط الكعبة الشريفة يحيطون أعمدة مشهد الجامع بالكسوة الشريفة ويقيسونها بناء على ذلك ثم يرسلونها إلى الكعبة فتكون مناسبة لحجم الكعبة تمامًا.

إن أوقاف هذه الكسوة أوقاف عظيمة عجيبة. وفى الزمان الخالى كان تبابعة اليمن يكسون الكعبة المعظمة كل عام بحصير منقوش والتبابعة هم ملوك اليمن. ومن بعد كساها هارون الرشيد العباسى بالحرير، ثم كساها الخليفة المأمون بالحرير الأحمر. وفى المرة الرابعة لما ملك ملوك الترك مكة كان لأحد ملوكهم وهو أيبك زوجة تسمى شجر الدر كست الكعبة بالحرير الأسود وخصصت لذلك أوقافا وهذه الأوقاف قرى مُسَلَّمة معفاة من الضرائب ومن يعين ناظرًا للكسوة ملتزم بمائتى كيس من العملة المصرية.

إنها قرى غاية فى كثرة خيراتها. إلا أنه عندما فتح السلطان سليم مصر أضاف إليها أوقافا أخرى.

وذلك الحزام المذهب للسلطان سليم، أما كسوة الباب الشريف فمن أوقاف السلطان سليمان، أما الميزاب الذهبى فمن أوقاف السلطان أحمد وتجديد مقام إبراهيم فى كل عام هو وقف السلطان إبراهيم. رحمة الله عليهم أجمعين. حقًا إنها أوقاف تليق بعظمة السلاطين وهذا الموكب موكب لا يكون لملك عظيم وهو يستحق المشاهدة.

الموكب الخامس عشر

موكب أمير الحج وخزانة نفقات مكة والمدينة والحجاج

هذا الموكب كذلك موكب عيد لأهل القاهرة وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال يشكل موكب أمير الحج وقبله بخمسة أو عشرة أيام يستأجر المصريون الدكاكين بخمسة أو عشرة قروش ويسكنونها مع أطفالهم وذويهم ومعهم أطعمتهم وأشربتهم لأن مرور هذا الموكب والمحمل الشريف من الصباح إلى العصر. لذا يقيم جميع الناس فى الدكاكين ومعهم أطعمتهم وأشربتهم.

يزين المحمل الشريف فى حارة مشهورة، ويخرج فى عظمة وجلال، وقد بقيت هذه العادة منذ عهد السلطان بيبرس، والمحمل الشريف فى أول الأمر لم يكن يخرج على هذا النحو من المراسم فجعل له السلطان بيبرس هذه الصفة رحمه الله.

وفى ليلة الموكب بعد العصر يحضر كتخدا أمير الحج وجميع مشاهير المشايخ والعلماء وجند أمير الحج وعدة آلاف من المتصوفة قارعين طبولهم مع مائة من الجمال ومئات البغال وجمال السبيل التى تسمى جمال الصحابة وهى تحمل آلاف القرب المملوءة بالماء العذب والمحمل الشريف إلى قره ميدان فى موكب عظيم، وفى صُفَّة سبيل الظاهر بيبرس ينزلون المحمل الشريف ويضعونه هناك وبجانبه، يقيم كتخدا أمير الحج خيمته ويقيم فيها، كما يقيم جند أمير الحج وسائر الشيوخ الخيام والسرادقات ويمكثون فيها. ويعقلون الآلاف من الجمال صفا صفا فى قره ميدان ويخطرون الباشا بوصول المحمل الشريف إلى قره ميدان، وفى التو يقيمون ظلة للباشا على مصطبة بك الإصطبل (أمير آخور) وفى هذه الليلة يكون الجميع تحت إمرة كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة، ويصعد آذان المغرب وبعد أداء الصلاة تزين كل الخيام والسرادقات التى فى الميدان بآلاف المصابيح والمشاعل فيصبح الميدان مغموراً بالنور.

يأتى عدة آلاف من الشيوخ والفقراء من أهل المدينة ويحتشدون حول المحمل الشريف ويبتهلون إلى الله حتى مطلع الفجر ويبسط الباشا عشر موائد لهؤلاء المشايخ لأنهم ضيوفه وعليه إكرامهم، ويرسل رئيس خدام سرادقات الباشا نصف أوقية من البخور وتشعل النار فى المباخر ويحرق فيها البخور وينثر ماء الورد على جميع الشيوخ والمتصوفة ويتلون المولد النبوى حتى مطلع الفجر، ويختمون القرآن فى كل مكان ويبتهلون إلى الله، وفى الصباح تقرع طبول كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة وترفع جميع الخيام والقناديل ويحملون الجمال بأمتعتهم ويقفون على أهبة الاستعداد.

وفى وقت السحر يقدم جميع أرباب الديوان والبكوات الشراكسة ويجلسون على الكراسى فى سرادق الباشا المزين. وكل من يلحقون بخدمة الحجاج من الجورباجية

والقواد والجاويشية وحاملى الأعلام وحاملى الطبر والقلجدار والأعيان والأشراف رؤساء سقائى قافلة الحج يزينون رءوس الجمال وتصبح وكأنها التنانين ذات الرءوس السبعة وتزدحم ساحة قره ميدان براكبى الهجين من الحجازيين والناس يطوفون بجمالهم.

ويزين كل جمل بما يزيد على خمسين علمًا منقوشا والمحفات المزخرفة والهوادج وتطوف فى الميدان وينفخ فى الأبواق وتقرع الطبول فى أرجاء الميدان وتخرج الكسوة السوداء المزينة فى قره ميدان، ثم يقدم القاضى عسكر أفندى ونوابه الأربعة والعشرون وكل أتباعه وعلى رأس كل منهم العمامة المعروفة بـ «عرفى» ويجلس قاضى العسكر بجانب الباشا فى صدر سرادق الباشا المزين وينتظرون كلمة أمير الحج ثم يأتى عدة آلاف من أتباع سيدى (   )[1] الساداتى فى موكب حاملين اللواء النبوى الشريف وتأتى مواكب قاضى العسكر والشيوخ والأئمة والخطباء وشيوخ البكرية والساداتية وينزلون فى سرادق الباشا ويجلسون خلف القاضى عسكر ويكتظ قره ميدان بجند الأوجاقات السبعة. ثم:

موكب أمير الحج باشا

على الرغم من أنه من أمراء مصر القاهرة إلا أن له طوغان وبدو الصحراء يسمونه «سلطان البر» ويصرف له من قبل السلطان ستة وثلاثون كيسًا نفقة السفر. ولأمير الحج قرى عظيمة الخيرات خاصة به، ويتحصل له كذلك منها أربعون كيسًا، وله علوفة سنوية من ديوان مصر قدرها اثنى عشر كيسًا.

وحقيقة الحال أن أمير الحج له مرموق المكانة فى مصر حتى إن وكيله (الكتخدا) يضع فوق عمامته المجوزة ريشة كوزير مصر، لأنه وكيل السلطان.

يمنح أمير الحج مائتا جمل من المال الحكومى ويشترى كذلك ألف جمل من ماله الخاص ولا يكفى ذلك فيمده أصدقاؤه بالعون فيتحصل له كذلك خمسمائة جمل حتى يبلغ عدد الجمال التى يملكها ألفى جمل لأن كل حجاج مصر فى حاجة إلى معونته ويمنح كذلك خمسمائة جندى من الأوجاقات السبعة دفعت أجورهم ونصفهم يحملون

(١) بياض فى الأصل.

المعونات إلى جدة فى بحر السويس ويذهب النصف الآخر فى مَعِيَّة أمير الحج ويقومون على حراسة قواده ويبقون فـى مكة. وثمة خمسمائة جندى آخرون يسمونـهم بالسبعين (يتمشلـى) وهؤلاء كذلك يذهبون ويعـودون مع أمير الحج وعندما لا يـكون أمير الحج حاضرًا ثمٍ يـظهر أثناء عزف المـوسيقى فالجند الـذين فى قره ميدان يـنقسمون طائـفتين ويَصْطَـفُ العزب فى جـانب والإنكشاريـة فى جانب آخر لأداء الـتحية، وفـى جانب سباهية الأوجـاقات السبعة وهم فى ثـيابهم المزركشة وعلـى خيولهم الفارهة مـدججين بالسلاح ينتظرون تحية أمير الحج.

أما أمير الحج فـيمضى بين الصفين فـى موكب ويلوح بالسلام إلى الجانـبين وتعزف الموسيقى العسكرية فينزل الباشا إلى السرادق ويتقدم جميع البكوات ويجلس أمامهم، ثم تطلق المدافع تحية ويطوفون بعلم رسول الله ﷺ والمحمل الشريف على الجمال فى ذلك الميدان ثم يتقدم أمير الحج إلى الباشا وعندما يقولون للباشا إن أمير الحج جاء وكل الجند والموكب فى انتظار تشريفه، ينضم الباشا إلى الموكب ويمضى أغوات واجب الرعايا فى المقدمـة مشيا، أما رؤسـاء البوابين فـعلى الجيـاد مع خدامهم وعـلى رءوسهم العـمامة البريشانى مع جاويشية السلام وكتخدا البوابـين ورئيس التراجمة ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية وهم جميعًا على جيادهم، ثم يمـضى الباشا يرتدى قباء فرو السمور وعمامته المعروفة بـ «سليمى» وخلفه السلحدار و الجـوقدار وهم بسراويلهم وخفافهم الخاصة بهم مع أربعة وعشـرين من أغوات الداخل أصحاب المـراتب وهم على جيادهم ويـحملون سيوفهم.

ينزل الـباشا فى سرادقه المـزين فى قره ميـدان وعندئذ يصـطف له عامة الجاويـشية وعندما يجلس فى مكانه يبدأ أمير الحج بتـقبيل يده ويجلس هو الآخر فى مكانه، وبعد أن يتجاذب معه أطراف الحديـث يدعو الباشا بقية الأعيان لمجلسه، وعـندما يسأل الباشا أمير الحج عما إذا كان قـد أخذ كُلٌّ نفقاته ونفقات صرر شرفاء مكـة المكرمة وغير ذلك من نفقات يـجيب أمير الحج قائلاً: تسـلمتها كاملة غـير منقوصة، وعندئذ يـأمر الباشا المولا افنـدى قائلاً اكتب ذلـك فى السجلات ويـطرح الباشا الـسؤال ثلاثة علـى القواد المكلـفين برعايـة الحج عن أخذهم المـهمات والمأكولات والمـشروبات والجمال والـبغال

ومرتبات عام مسبقا فيجيبونه كذلك قائلين: تسلمنا ذلك وسجلناه، وعندئذ يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه فى السجلات، ثم يخلع على أمير الحج خلعة مذهبة، وإذا كان مقربا إليه مختصًا به يلبسه فرو السمور، كما يخلع على الكتخدا ومحافظ القلعة وقواد الأوجاقات السبعة وحاملى اللواء وجاويشية المحمل وقاضى المحمل وإمامه والمؤذنين وأغا بيت المال من أغوات الباشا، وكاتبه، فيكون عدد من يخلع عليهم مائتين وعشرة ممن اشتركوا فى هذا الموكب.

ثم ينهض الباشا من مجلسه قائلاً: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويترك فرسه ويمضى على النعلين حتى يصل إلى الجمل الذى يحمل المحمل ويمسح بوجهه وعينيه المحمل الشريف ويقول: (بسم الله) ويمسك بالزمام الفضى للجمل ويطوف هذا الجمل فى الميدان غير مرة وبذلك يكون جَمَّالَ رسول الله ﷺ ويقوم بخدمته ويأمر جميع البكوات بالسير معه حفاة ويصعد العسكر صيحة عالية قائلين: (شفاعة يا رسول الله) ويرتفع دعاؤهم إلى عنان السماء ومن يرى الباشا على تلك الحالة وهو على صورة الجمال يبكى فلا يبقى فى الروح بقية.

ثم يوجه الباشا حديثه إلى أمير الحج قائلاً: إن مكة والمدينة لسلطان آل عثمان وهو خادم الحرمين الشريفين وأنا فى يومى هذا وكيله وعبده المملوك وبمقتضى وكالتى سلمتك المحمل الشريف وأنا أستودع الله الحجاج السالمين الغانمين وقد عهدت إليك بهذا. هل تسلمت المحمل الشريف؟ فيجيبه أمير الحج قائلاً: نعم تسلمته وبمجرد أن يتسلم منه الزمام الفضى للجمل فى يده يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه فى السجلات. ثم يجلس الباشا تحت ظلته. وبينما يسير أمير الحج المحمل الشريف تبدأ المواكب فى التحرك والحاضرون فى هذه الساعة يقيدون فى دفاترهم ما شاهدوه ويرفعون أصواتهم بالدعاء والحمد والثناء وتبدأ المواكب فى الانسحاب، ويودع أمير الحج الباشا ويمتطى صهوة جواده ويولى وجهه شطر الحجاز.

عبور ما تحمله القافلة من أمتعة مع أمير الحج

يمضى آلاف الجمالة والعكامين وحاملى المشاعل بجمالهم ، ثم تمضى الجمال التى تحمل قرب الماء، ثم تمر فرق الجبه جيه والعزب مع ستة مدافع ضخمة على المركبات وهم ثلاثمائة جندى، ثم يمر بعد ذلك جميع أمتعة وخيام أمير الحج.

ذكر سبب المحمل الشريف وذكر كبار المشايخ

وإذا سئل عن أصل إحضار المشايخ المحمل الشريف قلنا: إن الظاهر بيبرس من سلاطين الشراكسة هو أول من سن قانونا بخروج المحمل الشريف إلى العادلية فى موكب عظيم، وفى ذلك العهد كان سيدى الشيخ مرزوق كفافى قطبا عظيما من أقطاب التصوف، وكان آنئذ على قيد الحياة، وأخذ المحمل من يد الظاهر بيبرس، وبينما كان يطوف به صاح قائلاً: «أنا لويس وأنا لويسى وكيسى»، وذهب بالمحمل الشريف إلى الكعبة على النعلين ودخل المدينة المنورة وزار الروضة المطهرة ودخل الشبكة النبوية الشريفة وعندما خرج رأوا على رأسه عمامة جمال مزينة بالجواهر ثم عاد بالمحمل إلى مصر على النعلين كذلك وكان طوال حياته يمضى إلى مكة فى صحبة الدراويش وكان أول من ذهب بالمحمل الشريف وأصبح ذلك قانونًا مرعيًا.

أخذ مصطفى أفندى المحمل من يد الشيخ كفافى وأحضره إلى العادلية حتى وقت الغروب وهذا أقدم من القانون وفى يومنا هذا المحمل الشريف لمشايخ الصوفية.

والسبب فى قيادة الصوفية للمحمل هو أنه ليس فيهم أحد من طائفة الجند، إنهم جميعًا من المتصوفة ولو كان فيهم أحد من طائفة الجند يبايعهم ويسير فى أثرهم، فقد قال النبى (صلى الله عليه وسلم): «الفقر فخرى». (بيت):

والله إننا لنفخر بفقرنا فى كبرياء ∴ لذلك نسير فى صفة الفقراء

وفى مصر ١١١٧ طريقة صوفية ولكن أكبرها مائة وأربعون وهذا ما سبق ذكره فى حديثنا عن التكايا والدراويش ولا حاجة إلى مزيد من القول فى هذا الصدد. ولكن هؤلاء المائة والأربعون طريقة لهم ثلاثمائة وستون (٣٦٠) تكية. وأعظم هذه الطرق عددا هى الطريقة الأحمدية. فصوفية سيد أحمد البدوى لا يدخلون تحت حصر، فقد انتشرت هذه الطريقة فى مصر كما انتشر المذهب الشافعى فى مصر وكردستان، أما عبد القادر الجيلانى فقد انتشرت طريقته فى الهند وبغداد، أما طرق الخلوتية والمولوية والجلوتية والبكتاشية فانتشرت فى الأناضول. كما انتشرت طرق الواحدية والحيدرية والشمسية والبكتاشية والقلندرية فى إيران.

ويلى الطريقة الأحمدية فى كثرتهم بمصر أصحاب الطريقة البرهانية ولا يعلم عددهم إلا الله والصوفية إذا ما التقوا يعرف كل منهم طريقة الآخر.

وفى بداية موكب المحمل الشريف يمضى متصوفة الطريقة المطاوعية وهم فى نشوة وفى أيديهم الرماح والسيوف والتروس وهم ألفا متصوف فى موكبهم يقرعون الدفوف والطبول وينفخون فى الأبواق رافعين ما يزيد على خمسمائة علم وهم يهللون ويكبرون ويهجم بعضهم على بعضهم الآخر، وكأنهم فى حرب ويمزق بعضهم ثياب البعض ويمرون وهم يوحدون الله.

ثم يمضى بعدهم دراويش الواحدية والحمزوية والبيرامية والصعودية والعشاقية والمولوية والشمسية والولدية والعبائية والعلوية والويسية والساداتية والبكرية والأدهمية والعباسية واليسوية والبرهانية والدسوقية، وهؤلاء آلاف من الدراويش يرفعون أعلامهم ويمضون طريقة طريقة وشيوخهم على جيادهم ويزينون جوانبهم الأربعة بالأعلام وهم يوحدون الله ويبتهلون قارعين طبولهم ودفوفهم وتملأ أصواتهم جنبات القاهرة وفى هذا الموكب عدد دراويش الدسوقية والبرهانية ليس بالكثير ولهم رايات بيضاء وسوداء، ويمضى بعدهم صوفية طريقة حسن الراعى والطريقة الرفاعية والسعدية والأحمدية وهم يربون على العشرين ألف درويش، وهم من مختلف الطرق الصوفية، ويعجز كُتّاب الدينا حصر أوصافهم.

أما ألوية الأحمدية فحمر ومشايخهم يمضون فى وسطهم على جيادهم وأمامهم آلاف من الدراويش مشغولون بالابتهال ويمضون وهم يقرعون آلاف الطبول والدفوف ويدقون الأجراس، ويتلوهم دراويش طريقة عبد القادر الجيلانى ومنهم عدة آلاف من المجاذيب يمضون حُفَاةَ الأقدام حاسرى الرءوس.

ثم يأتى الدور على متصوفة طريقة مرزوق كفافى الكَلشنية، والطريقة الإمبابية والشناوية والكميلية، والطريقة النقشبندية والروشنية، وطريقة نعمة الله، والطريقة النوربخشية والطريقة السعودية والليثية والفارضية والزينية والفنائية واليمنية والجنيدية والإدريسية والعبائية والشاهينية والجيوشية والجهينية. وهؤلاء من أتباع الطرق الصوفية

كل منهم يوحد الله حسب مراسم طريقتهم القديمة، وهم كذلك يقرعون الطبول والدفوف ويدقون الأجراس وينفخون فى الأبواق وهم فى حالة من النشوة والجذب.

بعدهم يمضى دراويش الطريقة اليمنية وهم مجاذيب يمضون حفاة عراة حاملين السيوف والطبر والعمد والترس وسيوفًا من خشب، ولهم أعلام مختلفة ولكنى لم أسمع توحيدهم.

ويمضى بعدهم أصحاب الطريقة الفنائية ومعظمهم ممزق القميص حافى القدم حاسر الرأس وبعضهم يلبس خرقة من صوف تزن الواحدة منها أربعين أوقية أو أكثر وبها جيوب متنوعة فمأكولاتهم ومشروباتهم وأباريق قهوتهم وبنهم وتبغهم وكل ما يحتاجون إليه يحملونه فى هذه الجيوب وكأن الواحد منهم حجرة متنقلة. ومعظمهم دراويش معدمون ينامون حيثما شاءوا ولا يملكون الدانق، وفيهم من لهم ألف رقعة فى خرقتهم.

وبعضهم يمضون وعلى رءوسهم آنية مائلة ويحملون الطبر والرمح المذهب والعصى المزينة ووضعوا على رءوسهم عمائم الفنائية ذات الذوائب كأنها حمل بعير وقد ازدانت بالخرز وعلى أوساطهم جلد منقوش عليه حزام مزين بأحجار ذات ألوان.

وقد أعجبت بنفخ صوفية العجم فى أبواقهم ومن الحق قولنا إن الاستمتاع إلى نافخى الأبواق من اليمن ينفخ الروح الأبدية فيمن يلقى السمع إليه.

ويمضى دراويش الفارضية والشاهينية والجيوشية والجهينية واليسوية وهم ينشدون قصائد (   )[1] والأشعار العربية.

وهذه الطرق سالفة الذكر خاصة بمصر، ولم تكن لها الشهرة فى بلاد أخرى.

وبعد ذلك يمر دراويش الطريقة الخلوتية وهم يذكرون الله فى رعاية للتقاليد والمراسم الخلوتية، وبعدهم دراويش الطريقة الخواجه كانية أى الطريقة النقشبندية التى ينتهى نسبها إلى سيدنا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ومعظم دراويشها من الأوزبك وهم ينطقون بالتوحيد فى تضرع وخشوع رافعين راياتهم، ولكن ليس لهم طبول ولا دفوف

(١) بياض فى الأصل.

ولا أجراس ولا أبواق، وعندما يمرون لكل منهم أسلوبه فى التوحيد تنشق مرائر الناس ويبلغ منهم العجب مبلغه وفى هذا اليوم يغمر النور طرقات مدينة القاهرة وأسواقها.

ثم يأتى الدور على دراويش طريقة عمر الروشنى وطريقة الشيخ إبراهيم اليُلْشَنى وهم كذلك بلا طبول ولا دفوف ولا يرفعون أصواتهم، وعليهم خرقتهم وقد لفوا على رءوسهم الشيلان الكشميرية واللاهورية والبهارية ويمرون يذكرون الله ومعهم شيخهم چلبى أفندى على صهوة جواده رافعين الأعلام.

وعندما يقترب دراويش الطريقة البكتاشية من معسكر الإنكشارية الذى يتولى مهمة رعاية المحمل الشريف يمضى ماثتان من الصوفية وعليهم خرقتهم البيضاء النظيفة وهم حفاة الأقدام حاسرو الرءوس وعليهم اثنتا عشرة علامة رمزًا للأئمة الإثنى عشر والأئمة الراشدين وهم على وعمر وعثمان وأبو بكر العتيق وعليهم ندوب جراح عشقهم لشهداء كربلاء وعلى أذرعهم وصدورهم جراح لمقتل الحسين، وأجسامهم قوية وعيونهم مكتحلة، وصدورهم عارية ويمضون موكبًا من الدراويش مرددين اسم الله، وبعدهم تمر أطفالهم يحملون العمد وعندما يمرون خلال السوق ينشدون أبياتًا وقصائد فى مدح النبى ﷺ والخلفاء الأربعة ـ رضوان الله عليهم ـ فينشدون:

أصبح قبلة أهل الصفا وجه محمد
أصبح محراب أرباب القلوب حاجب محمد
حلقة سلسلة الجنون فى رقبتى
من حب ذؤابة محمد ذات العبق

ويرددون ذلك الشعر فى عشق المصطفى ﷺ وهم مارّون.

الموكب السادس عشر
وصول حملة المشاعل والعكامين
من القاهرة إلى بلبيس فى ثمانى ساعات
وادعاؤهم - فى ديوان مصر القاهرة -
أن المحمل الشريف لهم يحملونه مع علماء مصر

وبعد مرور هؤلاء يسمع صوت مرتفع صادر عن عدد عظيم من الجند من سمعة ركع على رُكْبَتَيه وقد استولت عليه الدهشة فينبع من كبده النجيع وتنهمر الدموع من عينه مثل «جيحون»، ويرتفع صوت الطبول والدفوف والأبواق إلى عنان السماء، أما أصحاب هذا الصوت فيأتون رويداً رويداً بينهم عكامون وخيامون لخدمة سبعين ألف حاج ويقول جمع غفير بينهم (الله ينصر السلطان، إن شاء الله بالسلامة) ويمضون وهم يوحدون الله.

إن الإنسان لتأخذه الدهشة والعجب للصوت الحزين لهذه الطائفة. ويمرون حاملين المشاعل على أكتافهم وهم مبتهجون وبينهم اثنى عشر من رؤساء حملة المشاعل لقادة الأوجاقات السبعة وأمير الحج ومحافظ القلعة ورؤساء السقائين وهم يحكمون مصر القاهرة وهم قادة عدة آلاف من حملة المشاعل ولهم السيطرة على جميع من يحملون المشاعل ويقولون إن سلسلتهم تنتهى إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وهم أصحاب امتيازات عظيمة وهؤلاء الرؤساء الإثنا عشر يخرجون من باب الناصر بالقاهرة، ويبلغون بلبيس فى أربع وعشرين ساعة ويمرون بالمحكمة ويطلبون الحجة الشرعية، ولا يتوقفون قط، ويغادر بلبيس ألف رجل ويعودون فيجدوا الحجة قد كتبت، وبعد الوداع يمضون إلى القاهرة، وعندما يبلغونها تكون بعض جيادهم قد نَفَقَتْ.

وعندما يدخل حملة المشاعل هؤلاء القاهرة وقت العصر فاليوم يوم للغبطة والفرحة فيدقون الدفوف قائلين: «الحمد لله بالسلامة» ويدخلون من باب الناصر فى صخب وضجيج حتى يصلوا إلى رئيس شطار قصر الباشا فيخلع الباشا عليه خلعة فاخرة وبمقتضى الفرمان الشريف يصبح رئيسا للمشعلجية، ويوليه رئاسة المحمل الشريف ويصبح مبعوث رسول الله ﷺ، ويرقى الجميع إلى قادة وضباط.

وإذا ما أراد أحد أن يكون من حملة المشاعل طلب الإجازة نظير قرش واحد ولكن منهم من يموت من فرط ما يبذل من جهد فى عمله، وكثير منهم لا يستطيع العودة إلى مصر ويبقون فى الطريق وهم يستوفون شهرًا بتمامه، ثم يعودون ويلبسهم الباشا الخلع ويمضون إلى أقصى المدينة ولا يتوقفون قط ويطوفون بالقاهرة وبعد الغروب يعودون إلى بيوتهم، وفى تلك الليلة يقوم خدامهم بتدليك أجسامهم بالزيت فيشعرون بالراحة ثم ينهضون ويضعون فوق رءوسهم طرة مزدانة بالجوهر ويرقصون، وهذا من عمل المهرجين، ويتأهبون لأن يكونوا رؤساء حملة المشاعل.

وفى يوم الموكب هذا يخلع عليهم الباشا خلعة أخرى ويمضى أمام المحمل الشريف كبار المشايخ وعلى وجوههم مظاهر البهجة والسرور.

ولحملة المشاعل هؤلاء مع الشيوخ مشاحنات كثيرة فى عهد إبراهيم باشا؛ فقد قال المشايخ: منذ صدور قانون السلطان بيبرس ونحن نتولى مهمة إرسال المحمل الشريف.

فقال حاملو المشاعل: إذا ما حملتم المحمل الشريف إلى الكعبة على هذا النحو لاستحال عليكم ذلك؛ بارك الله لكم أما إذا ما بلغتم به باب الناصر فحينما تجتازونه سلمونا المحمل ولينعم كل منكم بالبقاء فى القاهرة، أما نحن فسوف نذهب به إلى مكة والمدينة ونعود به. إن سلطان مصر جعل المحمل لأمير الحج وهو يختار من بيننا، وقد خلع علينا وكيل السلطان ونحن نتقدم موكب المحمل.

وفى آخر الأمر حكم بعض الرجال المنزهين عن الأغراض بأن يبقى جميع المشايخ والصوفية فى القاهرة. ومنحوا حملة المشاعل الجواب الشافى، وقيد ذلك فى السجلات، وأصبح ذلك حجة أكيدة فى يد حملة المشاعل وتسلموا المحمل الشريف، ومضوا به وهم يرددون قولهم هاتفين «الله ينصر السلطان» وهذا ما تنشق له مرارة الإنسان تأثرًا به.

وتقع خلفهم ضجة عالية ويسمع صوت مخيف كأنه صوت هاتف ربانى، وبينهم من ينتسبون إلى مائة وأربعين طريقة قد رفعوا آلاف الأعلام والرايات ويجتمع جميع مشايخ الصوفية وبجانبهم خلفاؤهم ونقباءهم وجاويشيتهم، ويعبرون موحدين الله، ويحيطون المحمل الشريف بآلاف من أعلامهم وهم فى جلبة وضجة كأنما الثورة قامت فى القاهرة.

أما جمل المحمل فيكون فى كسوة مزركشة يمشى متبخترا كأنه طاووس روضة الجنان ويمسح آلاف من الناس المحمل الشريف بوجوههم ومن لا يستطيع الوصول إليه يلقى عليه عمامته أو منديله يلمس بها المحمل ثم يجذبونها مرة أخرى يمسحون بها وجوههم وأعينهم تبركًا وتيمنًا.

أوصاف المحمل الشريف

المحمل الشريف هو هودج النبى ﷺ وفيه خرقته الشريفة ومسواكه وخفه وإبريق وضوئه وهذا الإبريق من الحصير المطلى بالقار من داخله ومصحف وغير ذلك من الضروريات. وكانت تركبه السَّيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ.

والآن هذا الهودج يشبه الهودج الذى كانت تركبه السيدة عائشة - رضى الله عنها - إلا أن سلاطين السلف وآل عثمان جعلوه مربعًا عليه قبة من الحرير وذلك تبركًا وتيمنا.

وأعلى هذه القبة كرة ذهبية مثقوبة تحمل علمًا مذهبا. وفى أركانه الأربعة كرات ذهبية كذلك وهو بتمامه مكسو بالحرير عليه أزرار مذهبة ذات زخارف وقد كتب عليه عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ويمضى خلف المحمل الشريف جوقة موسيقية بطبولها وأبواقها وأجراسها على الجمال، وإذا ما كان هناك من علية القوم مَنْ يشاهد المحمل فى بعض الدكاكين مر كل المشايخ بالمحمل أمام الدكان الذى فيه هذا الشريف، وأبطأوا فى سيرهم حتى إذا ما واجه المشايخ هؤلاء الأشراف يتلو جميع المشايخ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ... إلى قوله: تَسْلِيماً... ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويمضون ويكررون ذلك أمام دكان أى شريف يشاهدونه فيه؛ ولذلك فالمحمل الشريف منذ خروجه فى الصباح من (قره ميدان) وحتى وصوله إلى باب الناصر فى وقت العصر، ومن باب الناصر حتى العادلية وهم يوحدون الله فتصبح القاهرة نورا على نور من توحيدهم. وقبل الغروب يسلم جميع الدراويش المحمل لأمير الحج، ويودع جميع المشايخ أمير

الحج ويعـود كل إلى منزلـه. وبأمر أمير الحـج ينادى المنادون بـأن المحمل سيبـقى فى العادلية ثلاثة أيام لتجهيز الأمتعة.

وبهذا يبلغ الحديث عن موكب أمير الحج منتهاه.

الموكب السادس عشر

موكب وصول الخزانة من مصر إلى مكة والمدينة

وخزائن وصرر شيوخ البدو على طريق الحج

منذ صدور قـانون السلطان سليم وهذه الخزانة عبـارة عن الصرر والعطايـا والكسا والنفقات لمشايخ البدو من أهل التقوى على جانبى الطريق من القاهرة إلى مكة.

وأول هؤلاء المشايخ على الطريق من القاهـرة على السويس مشايخ آل صفر وآل بنى عابد وآل بنى صالح فى جـهات العقبة، وآل بنى شاهين عند بلـوغ مدينة «مدين» التى بناها شعيب ـ عليه السلام ـ، وآل بنى زيد عند يَنْبُعُ البرة.

كما أن لكثير مـن الأعراب صررا وفى كل عام يوزعها أمير الحج بـنفسه على هؤلاء المشايخ شريـطة أن يحضروا المأكولات والمشـروبات والجمال القوية علـى طريق الحجاج المسلمين الذين يتزودون منها ويقدمـون لهم المدد من منزل إلى منزل ويكونوا أدلاء لهم فى الطريق فى مقابل أن يمنحهم أمير الحج الصرر والمنح.

وعلى الرغـم مـن أنهم يقصـرون فى خدمة الحجيج فى هذه الأيام إلا أنهم يتسلمون رواتبهـم بالتمام. وإذا ما أنـقصوهم شيئًـا قطعوا الماء عـن طريق الحجاج وألقـوا جثث الحيوانات فى آبـارهم وسدودها بإلقاء الحجارة فيـها وأغاروا عليهم من جمـيع النواحى وخرج عليهم اللصوص من كل صوب ناهبين وسالبين أمتعة الحجاج فلا يمرون بسلام.

ولهذا السبب يخـصص لهؤلاء خزانة فى ديوان مصر لصررهـم ومنـحهم وكسوتهم، ويسلمها كتخدا الباشا أمير الحج فى موكب عظيم من جند الباشا فى العادلية ويتسلم منه الحجة بذلك. وفى اليوم التالى:

الموكب السابع عشر

موكب خزانة الصرة ونفقات تعمير الحرمين الشريفين

وهذا كذلك قانون منذ عهد العباسيين والسلطان قايتباى، إلا أنه عندما فتح سليم خان مصر زاد من إحسانه لشريف مكة فى «صك الأمان» واعتبر صرر ومنح وكسوات ونفقات تعمير الحرمين خزانة مصرية. والواقع أن أمير الحج يقسم هذه الخزانة بنفسه على جميع الأشراف.

وإذا ما نقص منها دينار واحد ـ اللهم عافنا ـ رفع جميع الأشراف الأمر إلى السلطان قائلين: «إن صدقة السلطان سليم وأجداده العظام لم تصلنا كاملة».

وعندئذ تنهدم الدنيا فوق رأس وزير مصر.

وبعض ظرفاء الأشراف يقولون: «وصلنا خراج الترك وهو حقنا على آل عثمان» ولا يقولون إنه صدقة السلطان، بل يقولون: «نحن نتلقى خراجهم». إن فيهم أسفه السفهاء.

جملة القول أن لهؤلاء صررا ومنحا مقيدة لهم فى ديوان مصر، ويسلم كتخدا الباشا أمير الحج هذه الخزانة فى العادلية فى موكب عظيم من رجال الباشا ويأخذ منه حجة بذلك ويسجلها فى سجلات شرع رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

الموكب الثامن عشر

خزانة النفقات اليومية للجند المعينين مع أمير الحج ووصولهم الأراضى المقدسة وعودتهم فى مائة يوم وعشرة أيام ومصروفات هذه الرحلة

فى قانون مصر أن بين القاهرة ومكة المكرمة ستًا وثلاثين مرحلة ويقيم الحجيج عشرين يومًا فى مكة ويمضون إلى المدينة المنورة فى عشرة أيام ويمكثون بها يومين ويعودون إلى القاهرة فى ستة وثلاثين يوما وجملة ذلك مائة يوم وأربعة أيام، مع أيام استراحتهم فالمدة مائة يوم وعشرة. أما من يشاء المجىء إلى السويس ويدخل القاهرة فى يومين يكون ذهابه إلى الأراضى المقدسة من مصر وعودته إليها فى مدة مائة يوم.

جملة القول يخصص مائة وعشرون ألف دينار من ذهب لتغطية النفقات اليومية فى كل مرحلة والتى تصل اليومية منها إلى ألف دينار حتى لا يثقل أمير الحج على الحجيج بمشقة السفر وهى خزانة كبيرة أخرى.

بيد أنه فى عهد إبراهيم باشا خفضت هذه الخزانة عشرة آلاف دينار ذهبى بحجة أنها نفقات باهظة غير معقولة، ولأنهم لم يراعوا قانون السلطان سليم، أقام حجاج مصر يومين فى المدينة ولم يستطيعوا البقاء فيها اثنى عشر يوما مثل حجاج الشام وزاروا قبر المصطفى (صلى الله عليه وسلم) فى عجالة وعادوا إلى مصر.

وثمة خزانة أخرى تجهز لأمير الحج لجنده ومأكولاتهم ومشروباتهم تحمل على ألف جمل وإذا ما منح ألف وخمسمائة أصبح الحجاج المعسرون فى راحة. لأن طريق الكعبة هذا يسمى «طريق ذبح الجمال» لأن أهل البصيرة يركبونها فى(   )[1] بمكة وهم يتوبون من الذهاب إلى مكة. ومن له القدرة والقوة مضى على صهوة جواده أو على النعلين.

جملة القول أن كتخدا الباشا يسلم أمير الحج (   )[2] ألف دينار من ذهب كنفقات يومية للحجيج، وذلك بموكب عظيم من جند الباشا، ويطالب كتخدا الباشا أمير الحج بالحجة لإبرازها عند الضرورة، ثم يعود إلى القاهرة.

الموكب التاسع عشر

وهو موكب خزانة الأوقاف والتى تسلم لأمير الحج

يتحصل من أوقاف جميع السلاطين والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان والخيرين من العوام والخواص عدة مئات الآلاف من الدنانير الذهبية وآلاف من قطع الثياب كالسراويل والقمصان، وهذا ما لا يعلم حصره إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه هى إحدى خزانتين ترسلان من القاهرة إلى مكة. إلا أن هذه الخزانة لا ترسل فى موكب ويقتصر الأمر على أن يسلمها ناظر الأوقاف إلى أمير الحج ويتلقى منه الحجة بذلك.

وإذا ما كتبنا عن أحوال أمير الحج على حد علمنا لاقتضى ذلك منا أن نكتب مجلدًا ضخمًا.

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

الفصل التاسع عشر

مواكب الجند المكلفين بالذهاب إلى الأراضى المقدسة من الأوجاقات ومظاهر عظمتهم

وفى هذا الموكب لا وجود لجند الخزانة أو لجند من أتباع الباشا. إنهم الجند المنوطون بالحج وعلى هذا يثبت الجند المنوطون بهذه المهمة من الأوجاقات السبعة ويمرون أمام الباشا.

وفى صباح اليوم الثالث لمواكب الخزانة ـ والتى سلف الحديث عن أوصافها ـ فإن هؤلاء الرجال السبعين المنتمين إلى الأوجاقات السبعة يخصص لهم مائتا رجل بأتباعهم لأن طريق الكعبة طريق مبارك فيصبح مجموعهم ألف رجل فى أتم زينة وسلاح . وهؤلاء الجند مكلفون بالذهاب بالحجيج والعودة بهم. ويحكم هؤلاء وهم ألف من صفوة الجند سبعة قادة من الأوجاقات السبعة وسبعة ممن لهم رتبة الكتخدا وسبعة من الجاويشية وسبعة من حاملى الرايات وسبعة من حاملى الطبر وسبعة من رؤساء خدم قصر الباشا وسبعة من الجورباجية. وهؤلاء يقيمون سنة فى مكة للمحافظة على الأمن فيها.

يمر هؤلاء الألف وهم من صفوة الجند كل منهم مع فرقته وأغواته وچورباجيته على مرأى من الباشا وهم مدججون بالسلاح ويتدفقون كالموج من أحد أبواب القصر ويخرجون من باب آخر زرافات ويقرع كل أغا منهم طبلة ولكن ليست لهم جوقة موسيقية عسكرية خاصة بهم ويهرع جميع القادة والچورباجية والجاويشية ومن لهم رتبة الكتخدا إلى قاعة ديوان الغورى حيث يشرفون بتلقى الخلع السلطانية ويوزع عليهم سبعون خلعة، وبعد الدعاء والثناء يلقنهم الباشا أوامره ويودعونه داعين له، ثم يلتحقون ثانية بالمواكب وخارج باب الوزير يصطف مئات الآلاف من الناس لتشييع الجند الذاهبين إلى الأراضى المقدسة ويصبح موكبًا خاصًا يجل عن الوصف.

وفى هذا الموكب يأتى اثنا عشر جاويشًا من جاويشية وزير مصر بدروعهم الفضية لتجهيز هذا الموكب وهم كذلك من صفوة الجند. وهذا الموكب كغيره من المواكب لا يمضى فيه الأثرياء من الأعيان إلا باختيارهم.

ولكن رعاية للحجاج يركب السادة والفقراء جميعًا ويكون موكبًا مزينًا يجل عن الوصف. وفى هذا الموكب يعبر الجنود أفواجًا أفواجًا بالخيول العربية الأصيلة والإبل والنوق المزينة بالقطع التى لها ألوان طاووسية.

ويعرف من هذا أن هؤلاء هم جنود الحج. ويكون أمير الحج قد ذهب مقدمًا ومعه ستة قطع من المدافع، وذلك لعدم وجود مدافع فى هذا الموكب، وتمر هذه الطائفة من الجنود من مصر وهم يطلقون الأعيرة النارية ويهللون ويكبرون ابتهاجًا وسرورًا ومن شدة ازدحام الجند لا يستطيع أى رجل أن يخطو خطوة فى طريق موكب الحج. ويصل هؤلاء الجند على هذا النسق إلى العادلية ويضعون خزينة الصرة ويضربون خيامهم، ويودعون الباقين فى مصر ثم يبقى منهم من يبقى ويسير من يسير، وحينئذ يقوم أمير الحج بإرسال الصرة إلى بركة (الحج) ثم يرتحل هو فى اليوم التالى، حيث يصل هو وجملة حجاج المسلمين إلى البركة بعد أربع ساعات ويمكثون هناك.

الفصل العشرون

فى بيان الموكب البهيج لجند أزلم وخزائنهم ومصاريفهم

عندما يتجه الحجاج المسلمون من مكة إلى مصر، يتم تعيين سبع فرق من جنود المسلمين لإمداد حجاج مصر فى تلك الناحية، وتعد قلعة أزلم بمثابة نصف الطريق بين مكة المكرمة ومصر (القاهرة). وهو عبارة عن ثمانية عشر منزلاً، ويذهب جملة جنودها إلى أزلم، والقلعة من خيرات السلطان الظاهر بيبرس رحمه الله، لها خيرات عظيمة يعجز اللسان عن وصفها. و يُكلف الباشا أحد الأمراء الشراكسة فى مصر بالسفر إلى أزلم ويخلع عليه خلعة ويختار ثلاثمائة من الجنود المنتخبين من كل فرقة من فرق مصر السبع، وليس لهؤلاء الجند درجات للترقى، حيث إنهم يُسَخَّرون لأداء هذه الرحلة. ويتم صرف أربعين كيسًا من المال السلطانى لطعامهم وشرابهم وحمايتهم وخيامهم ومعسكرهم. ويُعطى للمائتى ألف جندى ألف رأس من الإبل لنقل متاعهم وأغراضهم الثقيلة. ويقوم أغا الحسبة بتجهيز الإبل بالمؤنة اللازمة وتحسب كافة مصاريفها على نفقته. ومؤنتهم هى البقسماط والجبن الحلوم والعسل والزيت والقهوة والأرز والفول والشعير وغيرها من المؤن.

ويُعين معهم ستة مدافع سلطانية، وفرقة من المدفعية ورئيس فرقة الذخيرة وفرقة من سائقى عربات المدافع، وبذلك يكون جملة المكلفين بتلك الرحلة خمسة آلاف رجل مسلح مع خدامهم، وخمسة آلاف تاجر وهؤلاء يذهبون مسلحين لأنه يوجد مضيق ضيق ومخيف غاية فى الخطورة يُطلقون عليه مضيق العقبة.

وذات مرة قام العربان بحصار جند أزلم هناك وقُتل منهم بأسنة الرماح عدة مئات ويذهب هؤلاء الجنود فى تمام التسلح والانضباط حيث يجلبون الأموال الزائدة، وفى حالة عدم وصول هؤلاء الجند إلى الحجاج. فمن المؤكد أن الحجاج لن يصلوا إلى مصر بأمن وسلام. هذا بالإضافة إلى أن التجار يجلبون ألفين أو ثلاثة آلاف حمل بعير من الفول والشعير والبقسماط والزيت والعسل والأرز والدقيق، بل حتى لبن العصفور يأتون به معهم، كما يجلبون معهم مائة جمل محمل بمياه النيل كهدايا.

ويرسل كل شخص إلى أصدقائه عدة آلاف علبة من سكر النبات والحلويات والزلابية والزبادى. لذلك يعتبر لقاء الحجاج بجنود «أزلم» كعودة الروح إلى الجسد الهامد نظرًا لأن جملتهم يكونوا منهكين وضعفاء، وفيهم المرضى والعجزة من عناء السفر، وإبلهم وخدمهم منهكين أيضًا.

وعندما يقوم الأشخاص بإعلام الباشا الوالى بفائدة الجند فى الرحلة للحجاج. يتم التنبيه على كافة التجار والجمالين وكان يُهتم غاية الاهتمام بزيادة عدد الجند.

وعندما صدر الفرمان بخروج هؤلاء الجنود المكلفين بالخروج للرحلة، خرج الموكب فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة إلى القصر وهو موكب يتكون من خمسة آلاف جندى من الجند المنتقاة. ويخرجون فى حضرة الباشا الوالى فرقة فرقة وهم يعزفون ويبتهلون، ثم يحضر سبعون سردارًا وكتخدا وجملة أصحاب المناصب العليا فى حضرة الباشا الوالى، الذى ينعم عليهم بالخلع السلطانية ويوصيهم باحترام الحجاج المسلمين، ثم يخرج الموكب من القصر على دقات الطبول، ثم تجتمع كل فرقة مع كافة الجنود ويُطلق عليهم حينئذ «موكب الفرح».

ويخرج الموكب العظيم جماعات جماعات من مصر بين مئات الألوف من الرجال يشاهدونهم ويدعون لهم بالخير قائلين: «ينصركم الله يا عساكر الفرح» وعندما يصل الموكب إلى الحجاج يطلقون عليه «موكب الفرح» لأنه به أفراح وتُعزف الموسيقى أثناء مشاهدة الأهالى له، وتُطلق البنادق، وتنطلق الأدعية المحمدية للموكب، ثم يخرج الموكب من باب النصر، ويمكث فى العادلية ثلاثة أيام، ويأتى آلاف التجار بأمتعة كثيرة ويظلون هناك، وفى اليوم الثالث فى وقت الشفق تُطلق قذائف المدفعية ويُنفخ فى البوق، وتُعزف الموسيقى، ويصل الموكب فى الساعة الرابعة إلى منزل البركة. ويمكثون هناك ثلاثة أيام، وبعظمة الله يأتى سبعة آلاف أو ثمانية ألف حمل بعير محملة بالمأكولات والمشروبات من الشرقية والقليوبية والبحيرة ودمياط ورشيد، وحينئذ يقوم «حاكم أزلم» بإطلاق قذائف المدفعية، ثم يقطعون المنازل ويطوون المراحل حتى يصلوا فى اليوم العاشر إلى قلعة العقبة ويمكثون هناك لمدة يوم، ويقومون بتحميل كافة الإبل بالمياه، وعندما يدخلون إلى صحراء قلعة «أزلم» فى اليوم الثامن تنطلق قذائف المدافع وطلقات البنادق المتتالية، ويقوم التجار والجنود بنصب خيامهم فى مكان يبعد ساعة عن القلعة ويقوم كل شخص بإخراج ما معه من متاع وينشره على جانبى طريق الحجاج.

وفى صباح اليوم التالى يخرج أمير أزلم مع ثلاثة آلاف جندى وأغا أزلم مع ثلاثمائة جندى لاستقبال الحجاج، وفى وقت المساء يفد حجاج البحر أيضًا ويسلمون على أمير الحج. وبمجرد وصول الموكب العظيم إلى قلعة أزلم تنطلق طلقات المدافع، وبعد ذلك يمكث كافة الحجاج فى صحراء أزلم يجددون نشاطهم، حيث يمكثون هناك ثلاثة أيام ويتركون إبلهم المنهكة المتعبة ويؤجرون رواحل جديدة بدلا منها.

ويشترى كل شخص كافة الأمتعة وقطعان الإبل الصغيرة، ولكن يتعرض الحجاج والجنود المنهكين المتعبين لقطاعى الطرق واللصوص والنشالين الماهرين فى السرقة مما يجعل هؤلاء الحجاج وهؤلاء الجنود يتعرضون لمشقة فى هذا الطريق. حيث يقوم هؤلاء

اللصوص بنهب أموالهم والإغارة عليهم ليلاً ونهاراً مثلما قام هؤلاء الملاعين بقتل جان بولاد أوغلو وقره يازيجى وسعيد عرب، فيكون هؤلاء اللصوص بمثابة من ألقى الذئب الجائع إلى القطيع، ولم يقم ابن رشيد بقتل الحجاج فى طريق الشام فى عهد قره على باشا، ويحتاج الحجاج الغافلون فى أزلم إلى النقود الحمراء، أما العقلاء منهم فهم على بصيرة، ولما كانوا أصحاب حوائج، لذا يجب أن ينتبه الحجاج غاية الانتباه فى أزلم.

وفى السنة الماضية قام هؤلاء اللصوص بسرقة سرج أمير الحج من على جواده، ووجد خدام الأمير السرج فى منزل شخص يسمى نواطر واكتشفوا أنه ليس سرج الأمير المسروق بل يشبهه تماماً فقاموا بأخذه ووضعه مكان سرج الأمير من خوفهم، وتستروا على الموضوع، ويوجد لصوص بهذه المهارة كثيرين جداً، لذا يلزم الاحتياط جداً، ويذهب رجال من الفرقة السابعة مع الهجانة للإخبار ببشارة الحجاج القادمين إلى مصر ويخبرون بمن مات ومن هو على قيد الحياة، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة فى أزلم يقطع الحجاج المنازل فى طريقهم إلى مصر.

الفصل الواحد والعشرون

فى بيان موكب العقبة ومصاريف الجنود والخزينة

يتم تعيين ألف جندى من الفرقة السابقة، ويُعين أيضاً أحد الضباط الكشافين والمتفرقة المعزولين مع ثلاثمائة جندى كقائد عام على العقبة، ويكون عددهم جميعاً ألفى جندى ولكن ليس لهم درجات ترقى، ويؤدى القائد العام خدمته فى مقابل منحه عند عودته درجة كاشف أو أغا وذلك عند وصول الحجاج بسلام، ويعطى للحجاج ألف بعير للإمداد وألف بعير أخرى للمؤن لزوم الطعام والشراب، ويُعطى أيضاً ستة مدافع وغرفة من الذخيرة والمدفعية وغرفة من سائقى عربات المدافع، وكافة المؤن اللازمة. كما يُعطى لهم عشرة قناطير من البارود الأسود، وأربعين كيساً من النقود المصرية، ويخرج جنود العقبة من مصر فى نفس الوقت الذى يصل فيه الحجاج المسلمون إلى قلعة أزلم، ويتقابل الحجاج معهم فى قلعة العقبة.

وبعد ذلك أى فى اليوم العشرين من شهر محرم الحرام يدخل ألفا جندى بلا سلاح من إحدى أبواب قصر الباشا الوالى فى القلعة، وعند مسير الموكب من أمام الباشا الوالى يقوم سبعون رجلاً من الأغوات والأمناء والجاويشية بارتداء الخلع الفاخرة، ويحصلون على الدعاء من الوالى ويخرج الموكب من القلعة ويخرج مع الموكب من جاءوا للمشاهدة من المصريين ويخرجون جميعًا من باب مصر، ويمكثون ثلاثة أيام فى العادلية، ويأتى إلى هناك أيضًا من البلدان المجاورة خمسة أو ستة آلاف ناقة وبغل وحمار، وستة آلاف أو سبعة آلاف تاجر بلا سلاح يجلبون معهم الطعام والشراب، وعلى الفور يرسل أعيان مصر مع مماليكهم ثلاثة آلاف حمل بعير من مياه النيل، وذلك لعدم وجود مياه فى صحراء العقبة بدءًا من العقبة وحتى منازل ثنيات عجرود، وتكون جملة أحمال التجار من غلال الشعير والفول والسكر والعسل والزيت، كما يجلبون إبلاً زائدة عن العدد ليست محملة بشىء، ومهما كان فى مصر من حمالين وإبل فإنها تخرج كلها عن بكرة أبيها فى تلك الرحلة، ثم بعد ذلك يقوم أمير العقبة بإطلاق المدافع من العادلية، والحكمة من الذهاب إلى العقبة أنه فى شهر المحرم عام ١٠٨٩هـ، عندما كان عبد الرحمن باشا واليًا على مصر، وصل أمير العقبة بكم هائل من الخزائن إلى مضيق العقبة، فجاء من ناحية الشام حثالة مقاتلى بنى زهد وبنى رشيد وآل عمور، وتحاربوا مع جند القلعة وكانت حربًا عظيمة، وأطلقت المدفعية قذائف متتالية وقتل من العربان العرايا مائة شخص واحتل العربان مضيق العقبة ومكثوا فيه فما كان من أمير العقبة إلا أن تصرف بحكمة، حيث عاد من العقبة ومكث فى واد منبت مياهه وفيرة وأقام المخافر على الطرق البرية للجهات الأربعة للمكان وبعد ثلاث أيام بلياليها وصل الخبر إلى حضرة عبد الرحمن باشا بأنه قد حل العقاب الأليم برءوسنا فى العقبة، فقام بجمع الديوان السلطانى، وتحير أعضاء الديوان من حكمة الخالق فى هذا، وقال الوزير صاحب الدولة إن حال الحجاج دائمًا ما سيكون مضطربًا فى العقبة إذا لم يأتِ لهم أمير العقبة بمدد.

وعلى الفور استدعى الوالى عامل الخزينة وأمره بأن يصرف لهم أربعين كيس من النقود المصرية على سبيل المحبة، وأخبر بذلك جاويشية الموكب وسائر العربان والفرقة السابعة، وعلى الفور يقام اللواء الأبيض المحمدى فى فناء قصر الباشا الوالى، وفى اليوم التالى فى وقت العصر يمر الموكب من أمام قصر الباشا وهو موكب مكمل مزين يتكون من خمسمائة جندى منتخبين، فيقوم الباشا الوالى بإلباسهم الخلع الفاخرة لابتهاجه وصفائه من الموكب ويُعلّق على رءوسهم الطرة السلطانية، ويعبر الموكب من مصر ثم يمكثون فى العادلية حتى الصباح، ثم يخرج إلى العادلية ألف ومائة أو مائتين شاب ممن يقولون نحن لها، ويصل بعدهم ثلاثة مدافع شاهانية وتضرب طلقات المدافع إعلامًا بوصولهم، ثم يصل ألفا رجل من الجنود المهاجمين إلى العقبة فى خلال أربعة أيام وليال، ويأتى جملتهم فى مكان ما، ثم ينتشر الجنود المشاة على الجبال والأحجار، وعندما يرى العربان الأمر على هذا النحو يلوذون بالفرار بناء على المقولة التى تقول «فرارًا على توالى الكثرة» لا سيما بعد وصول الجنود البحرية أيضًا، وبذلك يستطيع جملة جند المسلمين أن يتخطوا العقبة ويتقابلوا مع الحجاج المسلمين فى الناحية الأخرى، غير أنهم يكونون فى غاية التعب.

وعندما يرى الحجاج الجنود فى العقبة فإن هذا يكون بمثابة تجديد الروح لهم، ثم بعد ذلك تُرسل البشارة مع مبشرى الجبل إلى الباشا الوالى بسلامة وصول الحجاج، حيث يصل حاملوا البشرى إلى الباشا فى اليوم الرابع من خروجهم، وعندما يعلم الوالى بهذا يبتهج ويمنح حاملوا البشرى كل واحد منهم خمس أقجات ويهبهم الخلعة والصرة.

ثم يقوم الحجاج المسلمون بتبديل الإبل التى بقيت فى العقبة، وبذلك يغتنمون أقوات الدواب والأموال المصرية، ويتجه الحجاج بعد ذلك إلى مصر فى تأن وتؤدة وبينما هم فى الطريق يطلب أعضاء الديوان صدور الفرمان الذى يجيز لهم الخروج لاستقبال موكب الحج، وفى تلك الأوقات تبقى ستة أكياس من الأموال المصروفة إلى الباشا.

فصل فى المواكب المتفرقة

يخرج كل أغا مـن أغوات الفرق السبع بخيـامه ومؤنته فى موكب يـدقون الطبول، وينصـبون الخيام فى الأوديـة والأراضى الفضاء الـواقعة من باب الـنصر وحتى الـبركة ويمكثون هـناك فى بادئ الأمر يمكـثون فى قصر شاد بك لـتحصيل الجمـرك، ثم يمكث بعدهـم كتخدا (أمين) الجـنود العزب فى الـطوبخانـه ويمكث أغا التـوفكجية (حـاملى البنـادق) فى سبيل عـلام ويمكث أغا المتطـوعين فى مصطـبة أبو جاموس ويمـكث أغا صانعى البنـادق فى سبيل محمـد أغا ويمكث أغا الشركس فـى مصطبة ( )[1] ويمكث رئـيس المتفرقـة وكتخدا الـوالى وكتخدا الجـاويشية ورئيـس الديوان فى الـبركة ينـتظرون جـميعًـا قدوم موكـب الحجاج، إلا أن لـواء الإنكشـارية يمكـث فى الأرض الصحراء البعيدة عن البركة فى خمسمائة أو ستمائة خيمة.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

الفصل الثانى والعشرون
فى بيان قدوم موكب أمير الحج من الكعبة
إلى منزل البركة وقضائه تلك الليلة هناك

فى الخامس والسادس والسابع من شهر صفر تبدأ مسيرة طليعة الحجاج ولما يصل أمير الحج بالمحمل إلى موضع يسمى دار الحمراء، ينقل الخبر إلى كتخدا الباشا فى بركة الحج.

فصل فى بيان محلة الأكواب الشهيرة عظيمة الخيرات

يمكث أغا تحصيل الخراج فى مكان يسمى الأكواب بسبعين أو ثمانين خيمة من الجنود المتطوعة، وذلك قبل ورود موكب الحج بثلاثة أيام، وبالرغم من أن مصر يوجد بها ألف سقاء ماء ممن يشتغلون بالسقى على الإبل والحُمر، إلا أنهم جميعًا يأتون مع أغا تحصيل الخراج، ويقومون بملئ الأحواض والصهاريج والأكواب وأسبلة الخير التى أنشأها الوزراء، ثم يقومون بنقل هؤلاء الحجاج الضعفاء المنهكين من عناء السفر على تلك الإبل والجياد من البركة ويقف جند الوالى من التتار والشباب المتطوع وجنود المتفرقة على طريق الحجاج، ويقدمون ماء النيل لهؤلاء الحجاج العطشى، ويجتمع الحجاج الجوعى على مائة حمل جمل من الخبز وألف حمل جمل من الألبسة وألف قميص ومائة شاه، ويدفعون عطشهم بشربهم ماء الرحمة. ويقدمون الألبسة لكافة الحجاج العرايا، ويدعون لهم بالخير.

ويوجد لأعيان مصر ألف جمل محملة بالمياه، وإذا حدث ولم تُرسل تلك المياه فى هذا اليوم مع أغا تحصيل الخراج، فإن معظم الحجاج سيصاب بمرض الحكة، وتلك الأيام تعتبر فى حكم مسئولية ومهمة كاشف قليوب، حيث أنه مكلف بحفظ وحراسة الحجاج لمدة ثلاثة أيام بلياليها فى دار الحمرا على طريق الحج، حيث تقوم فرقتان من العربان كل فرقة قوامها مائتى جندى بحماية الحجاج من أولهم لآخرهم، أما بقية الحجاج الآخرين الضعفاء الذين بقوا فى الطريق فقد يتعرضون لنهب أشقياء العربان. هذا بالإضافة إلى أن أى ضرر يصيب الحجاج فى تلك الأيام يكون مسئولية كاشف قليوب، وذلك لأن تلك النواحى تعد حدود المنطقة.

ويقوم الكاشف بانتظار النوبة كل ليلة فى خيمة أغا تحصيل الخراج، وعلى هذا يُطعم العامة من مال الباشا لمدة ثلاثة أيام، ويعطى لهم الثياب والسراويل والقمصان، ويتم حفظ الأماكن التى يستقر بها كل الأمراء وكل أغوات الأوجاقات ويسير الحجاج على ذلك فى موكب بهيج، والبعض يدعو الحجاج إلى خيامهم ويضيفونهم، وينشر كل أغا سبعة أو ثمانية أكواب من المياه أمام خيمته ويقومون كل ليلة بإضاءة ألف خيمة بمائة ألف قنديل، ويصل صدى صوت طلقات المدافع والبنادق إلى صحراء سبيل العلام، ويقوم أمير العبيد الموجود فى سبيل العلام بصرف مصاريف كثيرة، حيث يقوم بحراسة الحجاج لمدة ثلاث ليال، ويُعد استقبال الحجاج ثلاثة أيام ولياليها بمثابة الثواب، لما فيه من العيش والعشرة والمتعة والصفاء، وهذا هو ما يتردد على ألسنة الناس.

كما أنه عالم مختلف ويقول أهل مصر عن هذا الاستقبال العربى «جند حجاج الصفا» وفى المكان الذى سيصل فيه أمير الحج فى البركة، ينتظر أمين الديوان بعد استئذانه من الباشا الوالى، ثم يقوم أمين الديوان باستدعاء أغا العزب فى المطبخ السلطانى ليتناول ضيافته، ثم يستدعى بعده أغا السباهيه أى (الفرسان) ثم أغا المتطوعين ثم أغا التوفكجيه، ويأكل الجميع من هذا الطعام، ويحصل كل واحد منهم على جواد عربى أصيل، ويصلون إلى خيامهم فى البركة، وعند منتصف الليل يمتطى جميعهم الجياد ويسيرون مع ألف من أعيان مصر بألف شعلة، ويمتطى أمين الوالى وأمين الديوان ورئيس المتفرقة وأمين الجاويشية وسائر الأغوات والباشوات الجياد وتصبح ظلمة الليل ضياء منيرًا بفضل مشاعلهم، وعلى هذا الحال يسير الباشاوات حتى ظهور راية أمير الحج وظهور المحمل الشريف عند مصطبة الأغا وتدق الطبول لقدومهم ويتقابل كافة الأعيان مع الأشراف فيتبادلون التهنئة ويتعانقون ويقبل بعضهم بعضًا ويرفع الأذان المحمدى، وبعد أداء صلاة الفجر يتناولون القهوة ثم يمتطون الجياد.

ويتقابلون مع جملة المشتاقين الذين خرجوا لاستقبالهم، ويظلون هكذا حتى يصلوا إلى البركة فى موكب عظيم، ويتناولون مائدة عظيمة، ويقوم أمين الباشا الوالى بإهداء أمير الحج جوادًا مزينًا مكملاً ويمتطى أمير الحج الفرس ويذهب إلى خيمته، ويأخذ على أغا كتخدا عبد الرحمن باشا بجواده المزين إلى مصطبة الأغا حيث يمتطى أمير الحج هذا الجواد وعندما يصل إلى البركة ينزل فى خيمته، ولا يقوم كتخدا الباشا الوالى بضيافته،

بل يضيّفه «نيشلى» على فى ضيافة عظيمة، ويذهبون بعد ذلك إلى مصر مع موكب الباشا الوالى، ويظل الباشا أمير الحج فى البركة تلك الليلة، وتنطلق المدافع والبنادق العظيمة ابتهاجًا وسرورًا، حتى حجاج القصبات الأخرى يظلون فى البركة فى تلك الليلة.

وفى اليوم الخامس والسادس والسابع من شهر صفر يدخل حجاج مصر وسائر حجاج الديار الأخرى إلى مصر. وبذلك تكون جملة رحلاتهم مائة وعشرة يوم، ويقوم أحد أمناء إبراهيم باشا بالذهاب إلى مكة فى أربعة عشر يوم ويلحق بالحجاج وهم على جبل عرفات ويحج معهم، ويأخذ الرسائل من شريف مكة ويقوم بالسعى والطواف فى مكة، وفى اليوم التالى أى فى اليوم الخامس عشر من رحلته يعزم الخروج إلى مصر ويصلها بعد أربعة عشر يومًا وبذلك يكون الإياب والذهاب مع الحج فى مقدار شهر. وهذا يعنى أن الحج من مصر قريب وآمن، ويقضى أمير الحج ليلته فى البركة، وتنصب الموائد العظيمة للأعيان والأغوات وأغوات البلوك وكتخذا الجاويشية الذين خرجوا لاستقبال الحجاج، وتنطلق فى تلك الليلة طلقات المدافع والبنادق ابتهاجًا وفرحًا، وفى صباح اليوم التالى يأخذ أمير الحج المحمل الشريف ويتقدمه أعيان مصر الخارجون لاستقباله ويمرون على خيام أغوات الفرقة السابقة المقامة على الطريق، ويسلم الحجاج على كافة الأغوات ويعبرون وعندما يكونون بالقرب من باب النصر يظهر موكب عبد الرحمن باشا، فيتركون الموكب ويمتطون الجياد، وعندما يصلون إلى المحمل الشريف ينزلون من على الجياد، ويسيرون مسافة أربعين أو خمسين خطوة حتى يصلوا إليه ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وتُعزف الموسيقى العسكرية ثم يقوم عبد الرحمن باشا بإهداء الباشا أمير الحج الخلعة الفاخرة من فرو السمور. فيقوم أمير الحج بتقبيل الأرض، ويستقر الباشا فى العادلية، ويصلون جميعًا إلى باب النصر، ويقضى أمير الحج ليلته ضيفًا فى جامع جان بولاد، ويسهرون الليل حتى الصباح، وهم يتلون المولد الشريف، وهذا المولد الشريف الذى يتلونه هو أول مولد يُتلى فى مصر، ثم مولد الشيخ البكرى والشيخ الكلشنى ومولد السادات، وستحرر تلك الموالد فى موضعها،

ولكن فى مولد جان بولاد هذا يقوم أمير الحج بإعطاء ألف قرش للعلماء فى نظير تلاوتهم للمولد، وفى صباح اليوم التالى وهو اليوم السابع من شهر صفر تمتلئ أسواق مصر بالأهالى، حيث ينتظرون قدوم أمير الحج من الحج الشريف.

(تابع) الفصل الثانى والعشرون

فى بيان قدوم أمير الحج من الحج

هذا الموكب أحد مواكب العيدين فى مصر، ويُذكر هذا الموكب عندما تذهب النساء لمشاهدة الموكب، وتُؤجر الحوانيت الواقعة على الطريق العام الذى سيسير فيه الموكب قبلها بشهر، حيث يقوم كافة الأهالى حتى الفقراء منهم للخروج لاستقبال الحجاج نظرًا لأن العلماء والمشايخ والصلحاء والأئمة والخطباء الذين يُعدون بمئات الآلاف فى أقاليم مصر السبعة يعتبرون الخروج لاستقبال الحجاج فرضًا، من هنا يخرج كل الأهالى وينتشرون فى الحوانيت والأسواق والطرق، ويخرج المشايخ والفقراء براياتهم وسناجقهم لاستقبال الحجاج، ولا يخرج جنود الإنكشارية وجنود العزب فى هذا الموكب، ويمر فى بداية هذا الموكب أمير الحج ثم لواء التفكچية وبعدهم المتطوعة ثم الشراكسة ثم الجاويشية. ثم جنود المتفرقة. ثم يمر بعدهم أغوات خمس فرق عسكرية على دقات الطبول، ثم يمر بعدهم أمير الحج بالجنود الذين احترقت وجوههم وعيونهم من شدة الحر، ثم يمر بعدهم مائتين وخمسين جنديًا إنكشاريًا، يعلقون السيوف على خصورهم والدلايات على رءوسهم، ومعهم الجند المعروفون بالجند الملازمين لجنود الإنكشارية، ثم يمر من بعدهم كافة أمراء مصر من الشراكسة على الموسيقى العسكرية، ويكون الأغوات حينئذ بلا سلاح ومزينين، ثم يأتى من بعدهم إحتياطيو الباشا أمير الحج. وبعدهم طائفة الشطار ويكون المحمل الشريف أمام أمير الحج. ويدخل أمير الحج من باب النصر بالموكب العظيم على دقات الطبول وصيحات التهليل، ويعبرون فى حضور كافة أهل مصر. ويقوم أمير الحج بسحب الجواد فى الميدان فى حضور جملة الأمراء والكرام وأعيان الديوان ذوى الاحترام، وينزل الباشا الوالى بالجنود من القصر، وعندما يصل الباشا إلى باب القصر يقوم أمير الحج بتقبيل الأرض، ثم يسلم المحمل إلى يد الباشا الوالى، حيث يقوم الباشا الوالى بالدوران والسير ثلاث مرات بالمحمل ويُدون فى

السجل الرسمى أن المحمل الشريف تم تسليمه إلى الباشا الوالى ثم يقوم الوالى بتسليم المحمل إلى الكتخدا، ويقوم الكتخدا مع جنود الوالى بنقل المحمل فى موكب مزين من باب العزب إلى باب الوزير.

وتبرك ناقة المحمل أمام باب القلعة ويتم تسليمه إلى ناظر الكسوة حيث يقوم النساجون بحفظه حتى السنة التالية، أما جمل المحمل فيُنقل إلى بلاد الريف على يد الأميراخور(١) ليرعى هناك مع بقية الإبل الأميرية حتى السنة المقبلة. ثم يذهب كتخدا الباشا بعد ذلك إلى خيمة الوالى فى قره ميدان ويقوم الأهالى بالدعاء بالخير لأمير الحج، ويُعطى أمير الحج خلعتين فاخرتين فيقوم أمير الحج بتقبيلهم ويجلس فى المركز، ثم يُمنح قادة الفرقة السابقة والجاويشية، والحاصل أنه تُقَدم الخلع إلى سبعين أغا من أغوات الأوجاقات ويذهبون كلهم إلى منازلهم ما عدا أمير الحج، ثم يقوم أمير الحج إطلاع الباشا الوالى على رسائل أهالى مكة والمدينة واليمن وشيخ الحرم المدنى وشيخ الحرم المكى وأشراف مكة، وتتم قراءة تلك الرسائل فى ديوان الأوطاق فى قره ميدان، ثم يقوم الدفتردار والروزنامجى بكتابتها فى السجل الرسمى.

ويصدر الفرمان بأن يقوم أمير الحج بعرض الحساب على الوالى الباشا ويكون ذلك فى حضور جملة أرباب الديوان، ويوفى أمير الحج حقه فإذا كان له شىء يأخذه، وإذا كان عليه شىء يدفعه، وبعدها يستأذن أمير الحج فى الذهاب إلى بيته، ويذهب معه لتوصيله جملة أغوات الباشا الوالى حيث يكون كتخدا البوابين قائدًا عليهم، فيكون موكبًا عظيمًا مع أمير الحج ويعطى أمير الحج للجنود الذين أتوا معه إلى بيته كيسًا من النقود ويعطى الجنود الملازمين لهم مائة قرش، وبذلك يخلو باله ويستريح، وفى صباح اليوم التالى يقوم أمير الحج كما هو معهود فى قانون التشريفات بتقديم الهدايا للكتخدا وإلى أصحاب المراتب الإثنى عشر وهى عبارة عن عشرة أكياس من الهدايا الهندية القيمة، وعشرين شمعة من العنبر وصرة مسك وعنبر وعشرين أوقية من العود التوتى، والبنزهير وعشرة قرون زبادى حلبى وعشرة طواشى حبشية وعشرة حسان حجازية وكيس

---

(١) الأميراخور: أمير الإصطبل.

من الهدايا، وسنحرر ذلك فى فصل التشريفات بمشيئة الله، وتأتى هدايا أخرى من أغوات البلوك السابع، والحاصل أن الهدايا التى تأتى من الحجاج تصل فى جملتها إلى عشرين ألف قرش، وتأتى هدايا أخرى تقدر بعشرة آلاف قرش من أشراف وأعيان مكة والمدينة ومن أمير جدة وتقدر كلها بعشرة أكياس، هذا ويحتاج وزراء مصر إلى كل تلك الهدايا، وتكون جملة الصرر والهدايا فى يد وزير مصر، لذا يلزم أن يكون وزير مصر من المشاهير، ومن هنا يكون الموكب قد بلغ تمامه بدخول أمير الحج مصر.

الفصل الثالث والعشرون

فى بيان موكب خزينة الصقر

يذكر قانون السلطان سليم فى مصر بأنه على الباشا الوالى أن يقوم بإهداء الخلعة الفاخرة لأحد الأمراء الشراكسة أو أحد الكشافين، وذلك مقابل أن يجعله موظفًا ومسئولا عن خزينة الصقور التابعة لخزينة مصر العمومية، ويكون تحت إمرته سبعمائة رجل من مُربى الصقور، وجملة هؤلاء معافون من الضرائب، وذلك لأن اصطيادهم تلك الصقور والنسور إنما يكون فى الأماكن الوعرة الخطيرة، وبعد اصطيادهم يقوموا بتسليمها إلى رئيس خزينة الصقور، ولا يخفى علينا أن صيد الصقور إنما يكون فى الجبال الشاهقة الارتفاع، ويمكننا القول بأنهم فى تلك المهمة يكونوا قد التحموا بالسماء، ولا يوجد بمصر غابات وجبال شاهقة لذا لا توجد تلك المهنة فى مصر.

ولو جُلبت الصقور إلى مصر فإنها لن تعيش فيها لأنها طيور تعيش على التحليق والرعى ولا يكون هذا إلا فى الغابات لأن مصر بلدًا ساحلية لا تقف الصقور المهاجرة بها.

كما أن الإنسان يعيش بلا كدر ∴ فإن الصقر لن يقف فى ضرر

ومضمون البيت أن مصر لا توجد بها صقور، وأن موسم الربيع الذى يأتى منه صيادى الطيور للتدريب عند قناطر الغورى، يكون هذا الوقت هو وقت موسم الصيف بالنسبة للصقور المهاجرة، وتتم ترقية هؤلاء المدربين من البلوك السابع، حيث يتم تدريب كل مائة على حده ويكون منهم مائة شخص فقط تابعين لرئيس صيادى

الصقور، أما السبعمائة الآخرين فيكونوا رؤساء على صيادى الصقور العرب. وجملتهم ألفى رجل، وتمر مواكبهم فى حضرة الباشا الوالى ويكون عبورهم بلا سلاح. حيث يعبر صائد الصقور العربى راكبًا علـى حمار وفوق رأسه صقر وعلى ذراعه صقر وعلى يده صقر ويخرج منهم على هذا المنوال سبعة عشر شخص، وفى هذا الموكب يُمنح رئيس صيادى الصقور والكتخدا وعشرة أغوات الخلع الفاخرة. ويلاحظ أن الموسيقى العسكرية لا تعزف فى هذا الموكب نظرًا لأن رئيس صيادى الصقور ليس بأمير، ولكن تُدق الطبول فقط أثناء عبوره، ويمكث هذا الموكب فى العادلية ولا يوجد به جنود لذا لا يعد موكبًا عظيمًا، إلا أن كافة مصاريفه تعرض على الخزينة. وذلك لأن مأكل ومشرب وملبس ودواب هذا الموكب وكافة مصاريفهم تُعد خزينة بنفسها، ويقوم هذا الموكب بقطع المراحل وطى المنازل من هناك حتى يصلوا إلى دار السعادة، ويُعرضون على الصدر الأعظم والسلطان صاحب السعادة، ويمر الموكب فى حضور الأمير ويتم تسليم كافة الصقور إلى رئيس مربى الصقور، ويُمنح الخلعة السلطانية، ويقوم بتسليم الأمراء بعض الصقور كهدايا لهم، وعندما تحوز خزينة صيادى الصقور رضا السلطان يأمر أحد الخاصكية أو أحد القابجى باشى بتصفيتها، ثم يأخذ السلطان الخبر بأنه لا يوجد بها شيء، ويعود جملتهم إلى مصر، وينالون الترقيات والتى يستحقونها من الباشا الوالى.

الفصل الرابع والعشرون

فى بيان موكب قدوم البنطال والسيف والقفطان إلى وزير مصر

يقوم الجنود بتفتيش خزينة الصقور بناءً على الأمر السلطانى الذى يأخذوه وما يجدوه بها يقوموا بتصفيته، إلا السيف والقفطان والبنطال، فيسمح السلطان بإرسالهم إلى وزيره فى مصر. حيث يقوم خمسة عشر رجل بقطع المسافات وطى المراحل فى طريقهم إلى مصر وعندما يصلون إلى بلبيس يقوم رجل منهم بالتوجه إلى كتخدا الوالى، حيث يأمر الوالى بتجهيز المطبخ خانه فى العادلية، وفى صباح اليوم التالى يغادرون كلهم ويعبرون من مصر مع كتخدا الوالى الباشا ولا يوجد فى هذا الموكب سوى جاويشية الديوان وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغا الترجمة وبالرغم من ذلك يكون موكبًا فخمًا، ويسيرون على هذا النحو حتى يصلوا إلى العادلية ويتناولون طعامهم ثم يمتطون جيادهم ويسيرون فى موكب ويدخلوا من باب النصر برفقة الأغا وكتخدا الوالى. ويكون عبورهم على موسيقى المهتر والموسيقى العسكرية البسيطة وهم يرددون «الله ينصر السلطان» ويتسلم الباشا الوالى الرسالة الموجودة مع الأغا ويقبلها ويضعها فوق رأسه ثم يعطيها لرئيس الديوان ليقرأها، وبعد معرفة ما فيها يقوم الأغا بإهداء الباشا الوالى الخلعة السلطانية والبنطال القطيفة الخاص بصائد الصقر الأحمر ويتمنطق بالسيف، وتخلع الخلع الفاخرة على سبعين شخص من أغوات الفرق السبع وجاويشية الديوان كما هو متبع فى قانون مصر، ويدعون للباشا بطول العمر وبهذا يبتهج الجميع وتأتى الموسيقى العسكرية إلى القلعة وتعزف بشكل جميل، ثم بعد ذلك يُحصلون الأموال ويُعطى عشرة أكياس للأغا القادم مع الموكب ثم يعودون بالغنائم إلى دار السعادة.

الفصل الخامس والعشرون

فى بيان دخول قاضى مصر وموكب العلماء

من المؤكد أن قضاة مصر يُعزلون عند وظائفهم وهم فى الستين من عمرهم ويخرج لهم موكب أيضًا، حيث أنهم عندما يصلوا إلى المكان القريب من مصر والمسمى الخانكة

يقوم وكيل الخراج بإرسال المطبخ إلى العادلية، وفى اليوم التالى يخرج إلى العادلية كتخدا الوالى وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس المترجمين وكافة جنود الوالى والعلماء والصلحاء والأشراف والأئمة والخطباء والمشايخ لاستقبالهم ويكون فى هذا الموكب مائتين من ملازمى جنود الإنكشارية، وينتظر الجميع عند باب القاضى، ولا يوجد فى هذا الموكب أى جنود سوى المائتين جندى إنكشارى المذكورين، وذلك لأن كافة من فى الموكب علماء.

ويقوم كتخدا الوالى بضيافة حضرة القاضى، ويمتطى الجميع الجياد، ويعبر الموكب أفواجًا أفواجًا كلٌ على حسب طبقته، حيث يعبر كتخدا الباشا مع كتخدا الجاويشية ثم يعبر جملة العلماء، ويركب القضاة الخيل المزينة وهم هنا ليسوا فرسان الخيل بل فرسان البلاغة والفصاحة، فصحاء اللسان بديعى البيان حفاظ الكتاب الكريم قال فيهم رسول الله ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[1]، فمنهم الأئمة والخطباء والمشايخ والسادات والبكرية ثم مفتيو المذاهب الثلاثة، ثم يأتى بعدهم أغا ملازمى جنود الإنكشارية المشاة، ثم جنود إنكشارية باب القاضى عسكر، ثم المدرسين ثم المحدثين ثم القضاة ثم قسَّام الجند ثم نائب الديوان ثم جملة السادات الكرام، ثم نقيب الأشراف ثم جملة علماء الجامع الأزهر وكبير محضرى المحاكم وكتخدا قاضى مصر ثم شيخ الإسلام الحنفى مصطفى افندى البلوى، ويسير هذا الموكب العظيم على دقات الطبول الأربع والعشرين، والنفير حتى منزل كتخدا الباشا الوالى ويأتى الكتخدا إلى القصر ويبلغ الوالى سلام القاضى مولا مصر، وفى نفس اليوم يخرج المولا لمقابلة الباشا الوالى.

---

(١) الحديث ليس بلفظه هذا، إنما أخرج ابن ماجه فى سننه من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قوله: «.. إن العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ لم يورثُوا ديناراً ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ». سنن ابن ماجه المقدمة (كتاب السنة) (١٧)، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص٨١. حديث رقم ٢٢٣.

فى بيان موكب مولا مصر

فى اليوم الذى يذهب فيه حضرة المولا إلى قصر الباشا الوالى مع طائفته الخاصة يمر محضرو المحاكم الأربعة وعشرين سيرًا على الأقدام مثنى مثنى فى أيديهم العصى، ثم يسير من بعدهم جاويشية الديوان مثنى مثنى على الخيول العربية الأصيلة المزينة، ثم يسير من بعدهم نواب المحاكم الأربعة وعشرين على جيادهم العربية الأصيلة المزينة ومعهم خدامهم مترجلين ثم من بعدهم المحضرين المحليين مترجلين، ثم من بعدهم جنود الإنكشارية أصحاب الخيام يرتدون على رءوسهم العمامات السوداء، ثم ضباط الإنكشارية الذين يُطلق عليهم (چوربجى) ومن بعدهم كتخدا المولا وبجانبهم رئيس محضرى القابجى أصحاب الطربوش من لواء القابجى بإستانبول، ثم يمر من بعدهم نائب الباب ونائب الديوان على جيادهم جنبًا إلى جنب، ثم القضاة الأربعة، ثم القاضى عسكر على الفرس العربى الأصيل وعلى رأسه الطرة وبجانبه الموظف المختص بمسابقات الوالى، يرتدى على رأسه الطربوش وعشرة من مختصى مسابقات الوالى ويكونوا مترجلين، وعندما يصل الموكب إلى القصر يخرج الباشا الوالى إلى القصر ويتقابل معهم ويقدم لهم مائدة عظيمة، بعدها يدور الحديث فيما بينهم وبعد ذلك يمنح الباشا افندى الخلع من فرو السمور ويتصافحان ويُمنح الكتخدا أيضًا الخلعة الفاخرة ويُمنح نائب الباب والباشا المحضر الخلع الفاخرة، وبعد القهوة والبخور يتجولون حتى يصلون إلى القصر مع توابعهم، وهذا هو موكب القاضى عسكر وليس لهم أى مواكب أخرى حين عزلهم.

الفصل السادس والعشرون

فى بيان موكب أمير جرجا

يأتى كافة الأمراء والبكوات والكشافون إلى ديوان مصر لمناقشة حساباتهم، بعد قطع النيل، من هؤلاء الأمراء أمير جرجا الذى يأتى فى موكب عظيم لا يمكن التعبير عنه أو وصفه، ويقول العربان عن حاكم جرجا إنه سلطان الصعيد العالى وحاكم البر الوالى، ويمكننا القول أن غنيمة مصر كلها تأتى من الصعيد، حيث يحتاج إليها كافة أهالى

مصر. وفى يوم الموكب يـنزل الباشا الوالى إلى قره ميدان، ويستطـلع الوالى من قصره عن مجىء حاكم جرجا، ولحب أهل مصر لهذا المـوكب فإنهم يخرجون لاستقباله وهو موكب عظيـم لا يمكن التعبير عنـه، وحاصل الكلام أن هذا الموكب كغـيره من المواكب الأخرى المذكورة فيما سبق إلا أن هذا الموكب يختلف عن غيره من المواكب بوجود ثلاثة آلاف جندى من التوفنكجية السود المشاة وألفـى فارس عربى بالعمامات وألفًا من صبيان الواحات الذين يحاربون فـى بلدتهم وفى بلاد الفونج ويجلبون البـنات والصبيان السود الذين يقعوا غنيمة لهم.

وعند قدوم أمير جرجا تدق الطبول الحبشية وتُـعزف الموسيقى ويُنفخ فى النفير إيذانًا بقدومه، ومـن المعلوم أن جرجا لا يتم بـها الضبط أو الربط إلا فـى وجود عشرة آلاف جندى وألف مقاتل رومـى، ولأمير جرجا حصة فى الإقليم وحكومتـه نافذة وملكه فى مملكة كبـيرة، وتُعد جرجا هى منبع مـياه مصر، وبعد مرور موكب أميـر جرجا يمر من بعده المهترخانه (الموسيقى العسكرية) ويأتى أمير جرجا إلى حضرة الباشا الوالى فى معية مائتين من خواص غلمانه غير المسلمين.

وتعزف الموسيقى العسكرية وعندما يصـل حاكم جرجا إلى حضرة الباشا الوالى ينزل من على جواده ويتحدث معه الوالى بكلمات ثم يُـنعم عليه بالخلعة، ويتم الإنعام على أربعة وعشرين كاشفٍ والـدفتردار والكتخدا وعددهم سبعة وسبعـين بالخلع الفاخرة ثم يقوم الباشـا الوالى بمخاطبة الدفتـردار والروزنامجى ويصدر الوالى أمـره بالإطلاع على حساب أمير جرجا، ويتم تعيين أغا لتحصيل الأموال.

وبعد ذلك يخرج أمير جرجا، حيث يذهـب الموكب مع أغا الباشا إلى قصر الأمير، وفى اليوم التالـى يقوم الأمير بإرسال الهدايا إلـى الباشا وبيانها كالتـالى: أربعون فرسًا عربيًا أصيلاً وعشرة نبال وعشرة طواشـى وعشرة أكياس وخمسـة آلاف أردب من الشعير وثلاثـة آلاف أردب حـنطـة وهدايـا أخـرى قيمـة مماثلة لها، ويُـعطى لكتخـدا الباشا ثلاثـة أكياس مـن المـال وثلاثة طواشى وخمسـة جياد عربية أصيلة وتُعطى هدايا أخرى

إلى أصحاب اثنى عشر مرتبة كلٌ على حسب مرتبته لا يقبل الزيادة أو النقصان، وبعد توزيع الهدايا يقوم أمير جرجا بإظهار حسابه ثم يُحصل ما تبقى فى زمته من الأموال الأميرية.

الفصل السابع والعشرون
فى بيان موكب الأسطول الهمايونى

يكون هذا الموكب فى حالة فتح إحدى القلاع فى إحدى الإيالات أو فى حالة مولد أو ختان أو زفاف أحد الأمراء أبناء السلطان أو فى حالة جلوس السلطان على العرش، حيث يفد من الآستانة أحد أغوات السلاح أو أغا أو أحد أغوات الخاصكية أو رئيس البوابين، وعند وصول الأغا القادم من الأستانة إلى بلبيس يُرسل أحد الأشخاص إلى كتخدا الوالى بإرسال الخبر إلى مطبخ العادلية وإلى جنود الفرق السبع، وكما هو معتاد أيضًا يذهب كتخدا الوالى مع الجنود بصحبة المهترخانه إلى العادلية ويخرج الموكب من باب النصر، وتُنصب الموائد ويتم تناول الطعام ثم يمر الموكب ويضم الأغا القادم وكتخدا الوالى، داخل مصر على دقات الموسيقى العسكرية ويخرج الباشا الوالى لمقابلتهم عند ديوان الغورى، وتُقرأ الفاتحة فى الديوان ثم يُقرأ الفرمان الشريف، ويقوم كل جاويشية الديوان بالدعاء ثم يصدر الوالى فرمانًا إلى الصوباشى بأن يامر الدلالين بأن ينادوا فى الناس لتنصب الأفراح أربعين يومًا وليلة بمناسبة الخط الشريف. ويُمنح الأشراف الخلع الديوانية وتُطلق المدافع من القلعة وتعزف الفرقة العسكرية الموسيقية بجوار القلعة، بعدها تُزين مصر أربعين يومًا وليلة أو عشرين يومًا وليلة على حسب ما يرد فى الخط الشريف وتكون زينتها غاية فى الجمال لا يستطيع اللسان أو القلم وصفها، ويظهر فى تلك الأيام ويكون ظاهرًا للعيان مَن فى مصر مِن أصحاب رءوس الأموال والأعيان والمنعمين ورجال الدولة حيث يقوم كل شخص بإظهار ما عنده من زينة وجواهر وتزيين القلعة والحوانيت ويُقال عن مصر حينئذ أم الدنيا وعروس الدنيا، حتى أن الفقير إلى الله[1] كان فى مصر فى هذه السنة فى عهد الكتخدا إبراهيم باشا ورأيت الإحتفالات

(١) يقصد المؤلف نفسه.

المبهجة التى تمت بمناسبة فتح قلعة قمانجه فى عهد السلطان محمد خان وتحيرت كثيراً لتلك الأوصاف، وكانت لياليهم تجل عن الوصف، فى نفس الوقت تكون هناك مشكلة بالنسبة للجنود القائمين على الضبط والربط فى مصر حينئذ، ودائمًا ما يُقال ما لى أبالى لأن مصر فى تلك الأيام تكون أم الدنيا وهى هبة النيل إنها جلجلة مصر وطنطنة مصر.

حقيقية إن إستانبول مدينة كبيرة إلا أن أهلها على ضبط وربط، أما طائفة الجند فى مصر يرفعون القيد عن الغنى والفقير والشاب والشيخ، وسرعان ما يتشاجرون كالخيل الشرس، فكلهم مجبولون على الشقاوة، ولا يستطيع أحد أن يسيطر على خدامه ومماليكه وأهله وعياله. حيث يقومون بامتطاء الجياد غير المروضة يكون كل شخص فى عالمه الخاص يلهو ويلعب، الكل فى حالة فرح وابتهاج، ولكن فى حالة فتح إحدى القلاع على يد الوزير الأعظم تكون الزينة والاحتفالات اثنتى عشرة ليلة فقط.

وإذا ما فتح القائد العام قلعة عظيمة تكون الإحتفالات عشرة أيام وعشر ليال أو سبعة أيام وسبع ليال، ويكون الناس فى مصر سعداء بهذا القدر والإقليم الأصلى المشهور فى ذلك الإقليم الآخر وجزيرة القاهرة، حيث يميل أهالى مصر إلى اللهو واللعب والموسيقى والغناء وأهلها كثيرون جداً، ولأنهم يملكون أموال فرعون فإنهم يصرفونها فى اللهو واللعب والموسيقى والغناء. وبالرغم من أن عزيز مصر غلب زليخة إلا أن أهل مصر ما زالوا منذ ذلك الوقت وحتى الآن مغلوبين لمخدوميهم فهم دائمًا يميلون للشقاوة والظرف. وإذا ما لاحت لهم الفرصة يبتهجون إبتهاجًا عظيم حتى الاحتفالات التى قام بها الكتخدا إبراهيم باشا فى قره ميدان بسبب فتح قلعة قمانچه أنفق على من يقومون بالألعاب النارية فى تلك الإحتفالات عشرون كيسًا من النقود المصرية فى مصر بلد المعرفة ويضاء فى قره ميدان مائة ألف قنديل تجعله بمثابة ميدان النور ـ حفظك الله تعالى ـ.

الفصل الثامن والعشرين
فى بيان خزينة مصاريف شموع وبخور
وعود العنبر الخاص بموكب مكة والمدينة

يتم ترتيب هذا الموكب بعد موكب الخزينة المارّ ذكره، ولا يوجد فى هذا الموكب جنود من الأساس، إلا أنه يوجد بهذا الموكب رئيس عمال المسك ومحصل خراج الباشا الوالى وهؤلاء يقومون بجمع الشمع الكافورى والشمع الدهن الململَع، وبالرغم من وجود هذا الكم الهائل من الحمالين فى بولاق إلا أنهم جميعًا يشتغلون بجمع الشمع، ويحضر الحرفيون قنطاراً من الشمع الأبيض الكافورى من الشمع خانه على الأوانى الخاصة به فوق رءوسهم، حيث يوجد فى تلك الأوانى البخور والمسك والعنبر وخمسين وعاء ضخمًا من ماء الورد المعطر وخمسين شمعة من العنبر وإثنى عشر ألف قنديل وهذا كله خاص بمصر، ويوجد بكل قنديل زيت يحترق، ويتم جلب ألف قنطار من الزيت المعطر كل عام من أرض المغرب يشبه كثيراً ماء الحياة وتُحمل هذه الأشياء إلى الديوان بواسطة الحمالين، ويخرجون فى هذا الموكب العظيم فى حضرة الباشا الوالى فى ديوان الغورى داعين، «الله ينصر السلطان» حيث يحمل كل الحرفيين الأوانى الخاصة فوق رءوسهم بخلاف الخمسمائة صينية المحملة بالشمع والعنبر وما ذكر، ويقوم الباشا الوالى بكسر عدة شمعات ثم يخلع الخلع الفاخرة على رأس كلٍ من حامل المسك ومحصل الخراج والشَمَّاع، ويأتى ناصبو الفخاخ ويمرون جميعًا، ويتم تسجيلهم فى دفتر الأحوال اليومية، ويظهر رئيس عمال المسك فى مكان على يمين الباشا الدفتردار، ويتم تحصيل تلك الصناديق وحفظها حتى يتم تسليمها إلى قبطان السويس فى حضرة الباشا، وتُؤدى أجرتها من الجانب الميرى، وهذا أيضًا من الخزينة.

الفصل الثانى والعشرون
فى بيان أحوال الطعام والشراب
الذاهبة إلى المطبخ السلطانى
ومخزن الطعام والشراب الخاص

عند تحصيل هذا المال السلطانى لا يسير موكب للجنود المصريين إلا أن وزير الأمراء المصريين يقوم بإلباس أمير مخزن الطعام والشراب السلطانى خِلعة.

ولا يؤمر أى شخص بهذا سوى أمين مخزن الطعام والشراب السلطانى ومعه خمسمائة رجل يقومون بتحصيل المأكولات من قضاء فرسكور ومدينة المنزلة وبندر دمياط وقضاء برميجال وبندر رشيد، حيث يقومون بإحضار مائة ألف أردب أرز خمس مرات من الأماكن التى يُجمع فيها الأرز والشعير، وألفى قفص سكرى وعمادى، وثلاثمائة فرد من القهوة ومائتى ألف أردب عدس ومائتى ألف أردب حمص ومائة حفنة من الحنة وخمسمائة زنبيل تمر ناضج وسائر المأكولات.

وتوجد بمدينة رشيد مخازن أميرية، وتتجمع كلها وتُدخر مع العمل، وفى ناحية الأستانة يأتى خليفة من خواص الحلوى خانه وبالرغم من وجود شجر الخيار والحمص والليمون فى مدينة الفيوم وفى كل حدائق وبساتين مصر إلا أنه يتم جمعها بمعرفة الميرية، ثم يقوم دفتردار الخزينة بجمع تلك المحاصيل من مدينة الفيوم مع الماء المعطر وماء القاضى وماء الورد من العطريات والدهنيات ومائة قنطار من الورد المسك وبعض الزهور التى تنبت فى مصر مثل النيلوفر والليمون والبنفسج ويجلبون من المعاجين سبعين نوع من المعاجين المسكة المبهجة مثل الترياق الفاروقى وفاروق الأربعة ومعجون العقرب ومعجون السقنقر البرى ومعجون التمساح الأبيض الذى إذا وضع فى العين يجلو البصر.

الفصل الثالث والعشرون
فى بيان السبعة آلاف قنطار من البارود الأسود
المأخوذة من خزينة مصر بناء على القانون السلطانى

لا توجد فى مصر مواكب عسكرية سوى مواكب عمال الذخيرة وعمال البارود وصنّاع الطلقات النارية، وفى زاوية من قصر الباشا الوالى يوجد مقرين لصنع الذخيرة المعروف بالبارود خانه، يوجد بكل مقر منها أربعين شاب يتجولون به ليل نهار ويطلقون الأعيرة الناريه، يا له من مشهد عجيب، ولكنه ملعون فى نفس الوقت مثل البارود، وعندهم البارود مكتمل، ويقومون بإظهار كفاءة البارود للباشا الوالى فى الديوان، حقيقة إن البارود المصرى أعلى فى الدرجة من البارود البغدادى لا سيما وأن مادته المعدنية لطيفة فهى بيضاء مثل حجر الطاحونة.

وتوجد سبعون كرة بارودية أميرية ويكون الملتزمون مكلفين بهذا العمل، ففى كل أسبوع يتم جلب مقدار حمولتين بعير من مادة البارود السماة (الكهرجله) وتدق الطبول وتُعد الطبول لذلك، حيث يتم تسليمها لرئيس دار الذخيرة، ويقوم العمال المكلفون بإحضار مادة البارود بعرضها على الباشا الوالى ليعاينها فإذا أعجبته يقوم الوالى بإهداء رئيس دار الذخيرة ورئيس الفرق العسكرية والأمناء الخلع الفاخرة، وتوضع السبعة آلاف قنطار من البارود فى الأجولة الخاصة بها والمصنوعة من الصوف فى البارود خانه بالقلعة حيث يُشد عليها بجلود الإبل وتُحمل على ثلاثة آلاف دابة وثلاثة آلاف ناقة ويسير فى موكب ويتم التنبيه على الحدادين ونافخى الكير والمدخنين بأن موكب الذخيرة سوف يمر ويُنبّه عليهم بعدم إشعال النيران فى طريق الموكب وتنطفئ نيران حوانيت الحدادين وغيرهم. كما لا تشتغل النيران فى الخانات الموجودة على الطريق الرئيسى فى ذلك اليوم، بل إن الأشخاص يخرجون من بيوتهم فى ذلك اليوم فالخطر محقق، فبضعة آلاف دابة تسير محملة بالبارود، وتبدأ الأحمال فى السير أفواجًا أفواجًا ويسير بجانب كل فوج شخص يمسك بيده عصا إذا ما وجد أى نيران يطفئها على الفور، ويمر أيضًا موكب آخر به ستة آلاف قنطار من فتيل القطان ويتم تحزيم تلك الحمولة أيضًا وتحمل

على الدواب والإبل ويسير بجانب هذا الموكب ثلاثة آلاف من البربر فى أيديهم العصى ينبهون الفلاحين بعدم إشعال النيران فى ذلك اليوم. حتى أن مفلسى أغوات الباشا الوالى كانوا يحلفون قائلين: «لقد خرجت بثلاثة إحتياطى وأحدهم يقول لقد خرجت بستة إحتياطى» ثم يسير بعدهم موكب البارود، وبينما هم سائرون ينبهون الأهالى بخطورة البارود الأسود وأنه مثل البلاء الأسود إذا انفجر، ثم يعبر رئيس عمال الذخيرة بخلعة فاخرة وحوله خمسين غلام من خواصه، وتدق الطبول أثناء سير الموكب، وعندما يصل الموكب إلى بولاق تملأ السفن ومن هناك إلى رشيد ومن رشيد إلى الإسكندرية ثم يُحمل البارود على السفن المسماة قادرجه، ويأخذ القبطان الحجة لمسيره بالبارود وبذلك يكون الخلاص، وهذا أيضًا أحد خزائن مصر والسلام.

الفصل الرابع والعشرون
فى متحصلات شيخ مصر
والستة والأربعين قاض فى ولاية مصر

فى زماننا هذا يتم تحصيل أموال زائدة، حيث يحصل لمولا مصر سنويًا ثلاثمائة كيس وهذا مقام القضاة، ثم يأتى بعده قاضى مكة ثم قاضى إستانبول وهذا طبقًا لما جاء فى قانون السلطان محمد خان.

الفصل الخامس والعشرون
فى بيان خزينة مصر من أوقاف السلاطين الماضية
وأوقاف الوزراء وأعيان وأشراف القضاة

عندما فتح السلطان سليم مصر كان خيره بك وزيرًا عليها، وكمال باشا زاده أحمد افندى قاضى العسكر بها. وتحرر بقلم الغزالى فى سجل مصر الخاقانى أن مصر كان بها سبعة وسبعين ألف وقف لله تعالى، يعمل على إدارتها إثنى عشر ألف موظف ويؤمر كل قاض يأتى إلى مصر بأمر السلطان بالتفتيش وعمل فحص لتلك الأوقاف ويبلغ أدنى حد للأوقاف فى السنة الواحدة ما بين مائة وألف قطعة ذهبية، ولتلك الأوقاف قرى وأرزاق وأفدنة مرتبة يعمل عليها مديرون، كما يوجد لها أموال أميرية، وعلى ما سجله الغزالى فإن تلك القرى تحصل لمصر ثلاث خزائن وهذا مسطور فى دفتر خانه مصر.

الفصل التاسع والعشرون

فى بيان الذى يُتحصل من الأموال المصرية

أقر قانون السلطان سليم فى مصر أنه فى مكالمة السلطان مع الولاة المصريين يُحصل أربعمائة وسبعين كيس من الأموال المصرية، ويُخرج معه عند السلطان كل يوم ألف عملة للتصدق على الفقراء، ويكون مجموعه السنوى تسعون كيس وبخلاف ذلك يأتى إلى مصر كل سنة على سبيل الهدايا مقدار خزينة من المجوهرات والهدايا القيمة التى توزع على الفقراء، كما يحصل أيضًا خزنتين من الأموال سنويًا، وعندما كان الفقير إلى الله[1] فى مصر أيام وزارة الكتخدا إبراهيم باشا أمر بتحصيل ثلاث خزائن لمصر، وكان الوزير الأعظم كوپرلى دده أحمد فاضل باشا هو حامى تلك الخزائن القادمة من الأستانة، وعندما ظهر الطاعون فى مصر أعطيت التطعيمات تسع مرات فى ثلاثة شهور فى إحدى القرى، وفى النهاية لم يُعَمِّر هذا الرجل ولكنه كان مثال الكرم مثل حاتم الطائى ـ رحمه الله ـ، وتصرف أحد الخزائن الثلاث على الطعام، والإثنتان الباقيتان تبقيان له.

الفصل الثالث والثلاثون

فى بيان الخزينة التى يحصلها وزير مصر للأغوات أصحاب المراتب الثلاث والعشرين

إذا ما كان الكتخدا رجلاً بصيرًا بالأمور مدبرًا فإنه يُحصل ألف كيس من المال، أما إذا كان غير أهل لذلك فإنه يفتح فمه للهواء ويُحَصل من المدينة وما حولها خمسمائة كيس فقط، وعندما كان الفقير إلى الله[2] فى مصر كان الوزير الأعظم بها درويش محمد باشا وأخبرنى بأنه أثناء وزارته لمصر جمع منها خمسمائة كيس من المال. وتحصيل خزنتين من المال لكلٍ من أمين الديوان والكاتب والكتخدا والخزينه دار وأغا الرسائل وأغا دمياط وأغا السويس وأغا رشيد وأغا الإسكندرية وأغا بنى سويف وأغوات المنيا ومنفلوط وجرجا يُحصل لهم جميعًا خزنتان كما يُحصل خزنتان أخريان لغير الأغوات، والخمس أغوات من العبيد السود.

(١، ٢) يقصد المؤلف نفسه.

الفصل التاسع والثلاثون

فى بيان الخزائن المحصلة من الأمراء الخمسة وعشرين فى مصر وأمراء الشراكسة الأربعين وسائر الأعيان

بعد أداء كافة الأموال الأميرية فى إيالة مصر وتسجيلها فى سجل الروزنامه ويُحصل الفائض منها وهو خمس الخزائن لجملة أعيان مصر على أن يحرر هذا فى دفتر الأحوال اليومية، والحق أنه يُحصل أزيد من هذا، حتى أن الكتخدا إبراهيم باشا عندما كان فى منصب عزيز مصر حُصلت ثلاث خزائن من قرى مصر للأشراف فضلاً عن الأعيان ومجاورى السلطان القاطنين فى إستانبول فلما عرض عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا الأمر على إبراهيم باشا، واستدعى عبد الرحمن افندى الروزنامجى وسأله لمن هذا المال بعد أداء حق السلطان فقال عبد الرحمن افندى «والله يا سلطانى تبقى خمس خزائن تُحصل للأعيان والأشراف والأمراء».

ثم قام إبراهيم باشا بتحرير ثلاثة آلاف عبد لمكة وفى حج عام ٨٢-١هـ عُزل الشريف سعد وأصبح الشريف بركات شريفًا على مكة بدلاً منه، وبهذا الترتيب تم تحصل ثمان خزائن من مصر فى تلك السنة. ولما كشف عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا السر للسلطان، أمر جان بولاد زاده بقتله.

الفصل الرابع والأربعون
فى بيان تحصيل ثلاث خزائن أخرى
للحرفيين من خزينة مصر

وجملة قرى إيالة مصر وإيالة الصعيد ألف قرية تنقسم إلى أربعة أقسام: القسم الأول منها يُعطى جملته للأموال الأميرية السلطانية، وهى ما يعرف بالبدل، القسم الثانى القرى الكشوفية، القسم الثالث القرى الموقوفة، والقسم الرابع القسم الخاص بالكشاف والأمراء والملتزمين، إلا أنه يتم تحرير فائض تلك الخزائن لأصحاب هذه القرى، ولتلك القرى شيخ بلد وكتّاب وشهود وأقباط ويتم تحصيل خزينة لهم تحرر فى السجل.

الفصل الثامن والأربعون
خزينة مصر

بالرغم من وجود رعايا وبرايا من الرجال بلا حد ولا حساب فى قرى الإيالات المذكورة فيما سبق، إلا أنهم يقومون بزراعة أرض مصر ويحصدونها سبع مرات فى السنة الواحدة ويُجنى منها سبعون نوعٍ. وأرض منبتة كهذه ورجال مجتهدون، ولا يوجد فى الدنيا فلاحين وقوم جبارين ومَردة مثلهم، ويحصلون المال لأنفسهم بأى وجه كان سواء كان طائرًا فى السماء أو سابحًا فى البحر أو سائرًا على الأرض، ويعطون العُشر (المال الميرى) لأغواتهم ونظارهم وملتزميهم وكشافيهم ويبقى لهؤلاء الرعايا خُمس الخزائن بعد تصفية كل الديون ويحرر هذا فى سجلات مصر، وبذلك يكون متحصل هؤلاء الرعايا ثلاث وخمسين خزينة.

الفصل الخامس والخمسون
فى بيان الخزينة المحصلة من طائفة التجار
فى بنادر مصر السبعة

فرض الكتخدا إبراهيم باشا لكلا من رشيد والإسكندرية كيسًا من المال كالتزام يومى لهم، وفرض لبندر دمياط التزام سنوى مائة وأربعون كيس وفرض لبولاق وباب النصر ومصر القديمة والبساتين والمعادى مائة وخمسين كيس كالتزام سنوى عنها، وفرض بندر السويس ثلاثمائة كيس يقولون عنها أمانة الربيع، وبعضهم كان يُحصل خمسمائة كيس، وعلى هذا الحساب يتم تحصيل خزينتين لمصر من البنادر السبعة الموجودة بها وجملة حسابهم سبع وخمسين خزينة.

الفصل الستون

فى بيان الأموال التى تحصلها خزينة مصر

من التجار القادمين إلى البنادر السبعة

يأتى جميع التجار من كافة أقاليم الدنيا السبعة من العرب والعجم والهند واليمن ويجلبون الأمتعة والبضائع ويبيعونها ويُحصلون من ذلك ثلاث خزائن لمصر.

الفصل الخامس والستون

فى بيان تحصيل خزينتين لمصر من الحرف

البالغ عددها مائة وسبعين حرفة

ويقولون إن الحجاج المسلمون القادمون من الديار الإسلامية للأقاليم السبعة يصرفون ثلاثة خزائن مصرية وقد حرّر هذا العافون الواقفون..

الفصل الثالث والسبعون

فى بيان خزينة الحبوب الواردة

إلى أنبار يوسف ـ عليه السلام ـ فى مصر

هذه المخازن موصوفة فى أوصاف مصر القديمة وهى من بناء سيدنا يوسف، وقد ورد ذكر لسبب بناء تلك المخازن فى آيات سورة يوسف، وإذا دخل معه السجن فَتَيَان، وللرؤية التى رآها الملك الريان الواردة فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]، نزلت تلك الآية عن سيدنا يوسف على طريق القياس ومصرح بذلك فى جميع التفاسير ولكننا حررناه هنا على سبيل الاختصار حيث رأى الملك الريان رؤية قصها على سيدنا يوسف، ففسرها سيدنا يوسف بأنه سوف تكون سبع سنوات قحط، وأمر ببناء تلك المخازن. وبينما العمل جارٍ فى بنائها، توفى الملك وبمرور الأيام أوتى سيدنا يوسف الخلافة والنبوة، ومسطور أن سيدنا يوسف هو من قام ببناء تلك المخازن وهى أربعة وما تزال

تعمل حتى الآن، وفى كل سنة يقوم جملة الأهالى وأغوات الفرق السبع والباشا والقاضى بزيارتها والدعاء عند أبوابها، ويقوم أمين تلك المخازن بنصب الرايات عند بابها وينصب مائدة عظيمة للوالى الباشا ويعطى لأمين المخزن جوادًا عربيًا أصيلاً له جراب مجوهر وثلاثة أكياس من المال وثلاثة طواشى وألف أردب من الغلال ويُحسن عليه بالخلعة الفاخرة.

وينبه عليه بالاستقامة، وبعد العصر تنتهى المأدبة ويُعين أغا الباشا الوالى ناظرًا على تلك المخازن ويُمنح أيضًا جوادًا عربيًا أصيلاً مزينًا وخلعة فاخرة.

ويُمنح چورباجى الأنبار وكيالها وكاتبها وجملتهم ثلاثة وعشرين شخص الخلعة الخاصة بعزيز مصر، ثم يذهبون إلى منازلهم بعد أن يتبادلون التحية وتُنصب الراية ويعم السرور جملة أهالى مصر، ويقوم كافة تجار مصر ومحتكرو السلع بإخراج الغلال من المخازن ويوزعونها ويبكون لأنهم يبيعونها بسعر زهيد، ويمكننا القول بأنه فى حالة عدم امتلاء تلك المخازن سيحدث القحط فى مصر أم الدنيا حيث يحتاج لهذا المخزن ٤٧ر٧٠٠ شخص من جملة طائفة جنود مصر والأيتام والمتقاعدون، وطائفة النساء والطواشية والجوالى وطبقًا لتسجيلات بيرام باشا يحتاج إلى أنبار يوسف هذه مائة ألف شخص لستة عشر مرة[١]، ويوجد للجنود عليق وجرايات بها، إذا لم يحصل الجنود عليها فى خلال شهرين تضيق الدنيا على رأس والى مصر أم الدنيا.

وتمتلئ مخازن يوسف المذكورة من بركات وخيرات إيالة جرجا وإيالة أعالى الصعيد، وكتّاب تلك المخازن يعدون أقلام مختلفة، فى أيديهم سبعون خليفة وسبعون تَرّاسًا وسبعون كحالاً وسبعون مُغَربلاً، حيث يقومون بغربلة غلال الجنود بها وينظفونها، وكل هؤلاء هم جملة خدام المخزن، ولكن كتابهم يحسبون حسابات المخازن قيراطًا قيراطًا، ويأتى كل عام إلى مخزن يوسف من غلة الحنطة ثلاثة آلاف أردب ومن غلال الشعير

(١) يعنى ستة عشر ضعفًا.

(   )[1] ومن غلال الفول (   )[2] أردب، ولو اقتضى الأمر بيع تلك الغلال بالمزايدة فى السوق السلطانى فإن هذا يحصل لمصر ثمانِ خزائن، وفى حالة عدم فيضان النيل - اللهم عافنا - فإن كافة العباد يطلبون هذه الخزائن الثمانية من الباشا الوالى وبهذا تحقق أنهم ثمانِ خزائن بالضبط، ويُطعم من مخازن يوسف غير بنى آدم الطيور التى تطير فى السماء، حيث تأكل الطيور غلال الفول الموجودة فى المخازن فى حالة عدم وجود سقف للمخازن.

ودائمًا ما تمتلئ تلك المخازن وتفرغ، ثم تمتلئ مرة أخرى، إنها دورة الدهر، وجملة أهل مصر يتكففون منها، وعندما كان الفقير إلى الله[3] فى مصر لمدة ثمان سنوات كان له نصيب من أنبار يوسف، ويقومون بتولية منصب ناظر أنبار يوسف لأشخاص غير مؤهلين لذلك ونظرًا لعدم النظر فى حساب هؤلاء الأشخاص شهر بعد شهر فإنه ينكسر وينحبس، والوزراء الذين يحترزون من هذه الأشياء الثلاثة يخرجون من مصر بسلام. ولم يأتى مصر حتى وقت قريب وزير مدبر ذو بصيرة مثل الكتخدا إبراهيم باشا. وعصره كان العصر المنفرد فى علم الحساب، وكانت الإيرادات والمصروفات مع بعضها فى تلك المرتبة وجُمع على هذا القدر ألف أقجه يوميًا، ووضعت كافة السجلات فى صندوق ذو سياج فضى ورُبطت إلى خزينة مصر، ثم عُزل الكتخدا بعد ذلك ووصل إلى العادلية بسلام، ولكن بعد شهرين دخل حضرة حسين باشا جان بولاد زاده إلى مصر ودعا الكتخدا إبراهيم باشا للمحاسبة، وظل فى ذمته من بقايا خزائن يوسف مائتين وسبعين كيس فلما طالبوه بسدادها أداها فى طرفة عين. لقد كان رجلاً منعمًا، وبقى فى ذمة الأمناء والكشافين والملتزمين ثلاثمائة كيس لإبراهيم باشا، ولم يستلم حسين باشا مهمته على دين إبراهيم باشا، وقال إنه قادر على تحصيل ماله فقط وقال ينبغى أن يكون مكانه رجلاً يقدر على تحصيل تلك الأموال.

ووضع إبراهيم باشا على بقايا الكتخدا وعُين إبراهيم باشا متصرفًا على الشام، وأصبح مخزن يوسف على الأرض لا سيما وأن اللصوص كثيرون والمستقيمون قليلون وأصبح المخزن فى ذمة الله ليستره الله، وخلاصة الكلام أن هناك من يقولون أن مصر أم

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) يقصد المؤلف نفسه.

الدنيا، حقًا إنها تطعم جميع الأمم، ويقولون أيضًا أن لو خرب العالم تُعمره مصر، ولا يعجز اللسان عن وصف جمال مصر وأحوالها وأطوارها، إلا أن الفقير إلى الله قليل البضاعة كثير السياحة حضر إلى القلعة، واجتهد أن حرر كل ما رآه فى مصر ولا يترك شيئًا، ولم يترك شيئًا إلا وذكره، فحرر أوصاف مصر، ولم يترك مقدار القطرة بالنسبة للبحر أو الذرة بالنسبة للشمس إلا وذكره.

وذكرنا أن جملة الخزائن المصرية المشروحة على المنوال المذكور ثمانين خزينة هى جملة خزائن مصر منها ما هو بموكب ومنها ما هو بدون موكب، فى كل خزينة منها ألف ومائتى كيس، وكما أن مصر هى أم الدنيا فإن كل تلك الأموال تكون مِلكًا للسلطان ـ أيد الله خلافته إلى انقراض الدوران، على رتبة آل عثمان ـ وتكون جملة مواكب مصر ومنها موكب دخول وخروج وزير مصر وفيضان النيل ومواكب الخزينة وهى خمسة وثلاثون خزينة ويوجد أيضًا موكب يستمر عشرة أيام فى السنة حين ذهاب السلطان إلى أنبار يوسف وموكب ذهابه لأداء الجمعة الأخيرة من رمضان فى جامع عمرو بن العاص بمصر العتيقة، ومن المواكب التى لا تدخل فى هذا الحساب أيضًا موكب ذهاب وزير مصر مرتين أسبوعيًا إلى قدم النبى والبساتين وأم القياس وقصر الغورى وقصر العينى والسبتية وقايتباى والشيخ الجيوشى والعادلية والمطبخ خانه وقد تحرر هذا فى تشريفات السلطان سليم خان وكتبت كلها فى مواضعها.

الفصل الثانى والخمسون

فى تشريفات قوانين عوائد وزراء مصر

يُطلق على الخاصة الهمايونية للباشا اسم الكشوفية الرئيسية، وهى أربعمائة وثمانون كيس، كما يتم تعيين ثلاثة آلاف باره يوميًا أى تسعون كيس سنويًا من نفقة السلطان للتصدق بها على الفقراء ويقوم أمين بيت المال بإدارة بيت مال الباشا بخلاف بيت مال الانكشارية. أما الباشا فيدير جملة بنادر مصر السبعة وكذا أموال من توفوا ولا وارث لهم فى القرى وكذا معاشات الجند الذين لا وارث لهم، ويعطى أغا إنكشارية مصر للباشا الوالى ستة أكياس من المال، يأخذ الأغا من بيت مال الإنكشارية عشر أكياس

وتوجد سبع نظارات تحت إدارة أغا الإنكشارية، كما أن نظارة السليمانية والدشيشة الكبرى، حيث يصل إلى مكة والمدينة كل سنة أردب (   )[1] من الغلال من أغا الإنكشارية.

ويأخذ أغا الإنكشارية اثنين وعشرين كيسًا من الوالى الباشا لتقديمها إلى عربان الدشيشة الكبرى ويعطيها لشيخ العرب صقر، فيقوم شيخ العرب صقر مقابل هذا بإعطاء الوالى الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة خيول عربية أصيلة وخمسين جملاً، ويُعطى كيسًا لكتخدا الباشا الوالى وكيسًا للأغا لكونه فى حكم أغا الإنكشارية.

وتُنقل الغلال إلى السويس من عنابر بولاق بمائة ألف جمل ثم تنقل من هناك إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا الوالى يقوم كتخدا الجاويشية بتقديم عشرة أكياس له وجواد عربى أصيل مرصع ومزين بسرج فضى وذلك فى الصالحية، كما يقدم له هدايا أخرى قيمة ويقوم رئيس الجنود المتفرقة بتقديم ثمانية أكياس سنوية للوالى، ويعطى كتخدا الباشا كيسين ورئيس الديوان عشرين ألف پاره، كما يقوم رئيس الجنود المتفرقة بإعطاء سبعة آلاف پاره لأى محافظ قلعة يُعزل أو يتقاعد وذلك لكونه من لواء الجند المتفرقة وذلك على حسب قانون السلطان سليم، وتُسند نظارة خان الباشا الوالى الموجودة فى رشيد لرؤساء الجنود المتفرقة، ويأتى من تلك النظارة ثلاثة أكياس، ويقدم رئيس عمال المسك للباشا الوالى جواد مزين وذلك عندما يأتى إلى مصر، ولأن رئيس عمال المسك لم يقم بتقديم هذا الجواد لإبراهيم باشا، بل قدمه إلى قاضى مصر لدى وصوله ويقدمه له رئيس المسكية ويحسب من كشوفيته ويُلزم بتقديم ثمانية آلاف پاره ويسلمها للباشا الوالى ثم يعطى لخازن الوالى الباشا عشرة آلاف، وخازن الكتخدا أربعة آلاف، وكيسًا واحدًا لكتخدا.

ويؤخذ من رئيس عمال المسك زيت الشمع حيث يُقدم للباشا والكتخدا وسائر نواحى المدينة كما تؤخذ منه كمية من قناطير شمع العسل والبخور والعنبر إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا إلى مصر يقيم فى العادلية ثلاث ليال وثلاثة أيام، وتُسلم كمية البخور والعنبر والمسك إلى أمير السماط، ويأخذ أجرته من الأموال الأميرية ويأخذ الباشا كيسًا من المال كلما جدد مقام رئاسته عمال المسك «مسكجى باشى»، ويُعطى

(١) بياض فى الأصل.

الباشا هدايا مـن أمين العنبر عندما يصل إلـى مصر عبارة عن سبعة عشر كـيسًا وسبعة طواشى وثلاثة جياد غـير مزينة. وذلك محسوب على الجواد الذى يُعـطى لقاضى مصر عند قدومه إليها، ويُعطى كتخدا الباشـا الوالى كيسين وفرس وطواشى وتكون جملة ما يدفعه تسعة عشر كيسًا.

ولكن أمـين الأنبـار يأخذ ثلاثة آلاف پاره، ويأخذ رؤساء الغـلال عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خـمسين قرشًـا لكل واحد مـنهم، ويُعبّـرون عنها بـلفظ الكَـرَّتين أى فى الذهاب الثانى لهم يأخذون خمسة أو عشرة قروش ويكون جملة ذلك خمسون كيسًا.

ولو أُخذ المال منهـم جميعًا تكون جملته مـائة كيس ولكن طائفة العـبيد لا يرتضون ذلك وتحدث بينهم ضجة، هذا بالإضافة إلـى أن هذا المال يحصل من غلال العبيد وهم لا يوافقون على ذلك، ويكون أحد أغوات الباشا ناظرًا للمخزن ويقوم هذا الأغا بتقديم ثلاثة أكياس كشوفية وطواشى للباشـا الوالى، ويأخذ الأغا الناظر أيضًا من أمين المخزن كيسين إما على سبيل الهدايا أو على سبيل العيدية.

ويلزم فى الرجـل الذى سيكون أمين الأنبار أن يكـون متعقلاً فى عقلـية أرسطو فى علم الكتابة، فهو مسئول عن جملـة حساب الغلال حين عزله، ويؤخذ من كل شخص أقچة أو أقچـتين كحساب عن الخاتم ويـجلبون هدايا عـديدة، أما أغا الرسائل فـيعطى للباشا الوالى خمسة وعشرين كيسًا ويحـصل هو من أربعين إلى خمسين كيسًا، ويُعطى لكتخدا الباشا ثلاثة أكياس ويعطى لأمين الديوان والخازندار كل واحد منهم عشرة آلاف پاره، ويأتى إلى كتخدا الباشا كيس مـن الأموال من أغوات دمياط ورشيد والإسكندرية والمنيا وجرجا كـلٌ على حده، وقد حررنا الهدايا الـكشوفية التى يجلبـها أغا جرجا فى موكب أغا جرجا، وتوجد كـشوفية أخرى لرئيس الديوان تبلغ خمسـة عشر كيسًا على حسب القانون، يأخذ مـنها كافة الأمناء، والملتزمون والكشافـون، ويأخذ رئيس المراتب والمناصـب فـى القصـر أربعيـن پـاره، ويأتى سنويًا أربعين جوادًا كهدايا، ويأتى عشرون عُدّة حصـان، ويحصل سنويًـا لكتخدا البـاشا الوالى من الأمانـات السبعة ومن كـافة الكشاف والملـتزمـين والبكوات ومن القرى المـباعة أربعمائة كيس من المـال، وعند قطع

النيل توجد كشوفية أخرى عبارة عن أربعن عُدّة حصان وخمسين فرسًا وجملة المحصول السنوى الذى يُحصل من البنادر السبعة المجاورة للمدينة ومن جملة الأمانات ومن أمين الصرة ومن أمين الخردة ومن الضرب خانه (دار سك العملة) مائتى كيس.

ويقوم أمين الخردة بتعيين الخبز واللحم، وتأمين كافة ما يلزمهم ويلزم دوابهم، ويأخذ الأغوات الداخلين للمدينة ثمانية عشر ألف پاره من ناظر الضرب خانه أما الصرّاجون فيأخذون عشرين قرش على مدار ثلاثة شهور من رئيس الصرافين.

ولكل من وزارتى جمرك الربيع والكتاب السماسرة اليهود والصرافين وخازن المدينة وصراجى المدينة حوالات خاصة بهم. وقد تحررت حوالاتهم فى مواضعها.

وجملة خدام الديوان والكيسه دار وكيسه دار رئيس الديوان اثنين وثلاثين شخص، ولكل منهم يوميًا أقچتين من المال الميرى إلا أن إبراهيم باشا ألغى هذا. كما توجد حوالات من البرسيم والحشائش فى حدود الملتزمين والأمناء والكشافين بمقتضى قانون الأغوات أصحاب المراتب الأربعين لكتخدا الباشا، ويوجد أيضًا أربعين كيس لجملة أمناء وكشافى وملتزمى خزينة دار الباشا.

ويتحصل سنويًا أربعمائة كيس لأمير آخور الواح الباشا. ويقوم بإحدى الضيافات بإهداء الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى وجواد مُزيّن وكافة التبن وأعلاف الخيل والإبل هى مسئولية أمير الآخور. ويقدم للباشا سنويًا مائتى جواد عليهم القماش والصوف.

وبذلك تتم كافة الخزائن والمواكب بناء على قانون مواكب الخزينة ويكون تمامها فى شهر يوليو الموافق شهر توت بالحساب القبطى ولا يبقى فى السنة من الخزائن والمواكب إلا موكب مولد السيد أحمد البدوى.

محتـوى المجلد الأول

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي



تصنيف الرحالة العثماني

أوليا چلبي

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

راجعها وأكمل مواقفها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلد الثاني



منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

الرحلة

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثمانى

أوليا چلبى

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصرى وآخرون

راجعها وأكمل مواقفها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلد الثانى



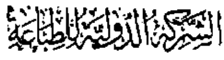
جميع الحقوق محفوظة للناشر



دار الآفاق العربية
نشر - توزيع - طباعة
٥٥ ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩
تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
EMAIL:Daralafk@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٤١
الترقيم الدولى : 1- 126 - 344 -944

الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م

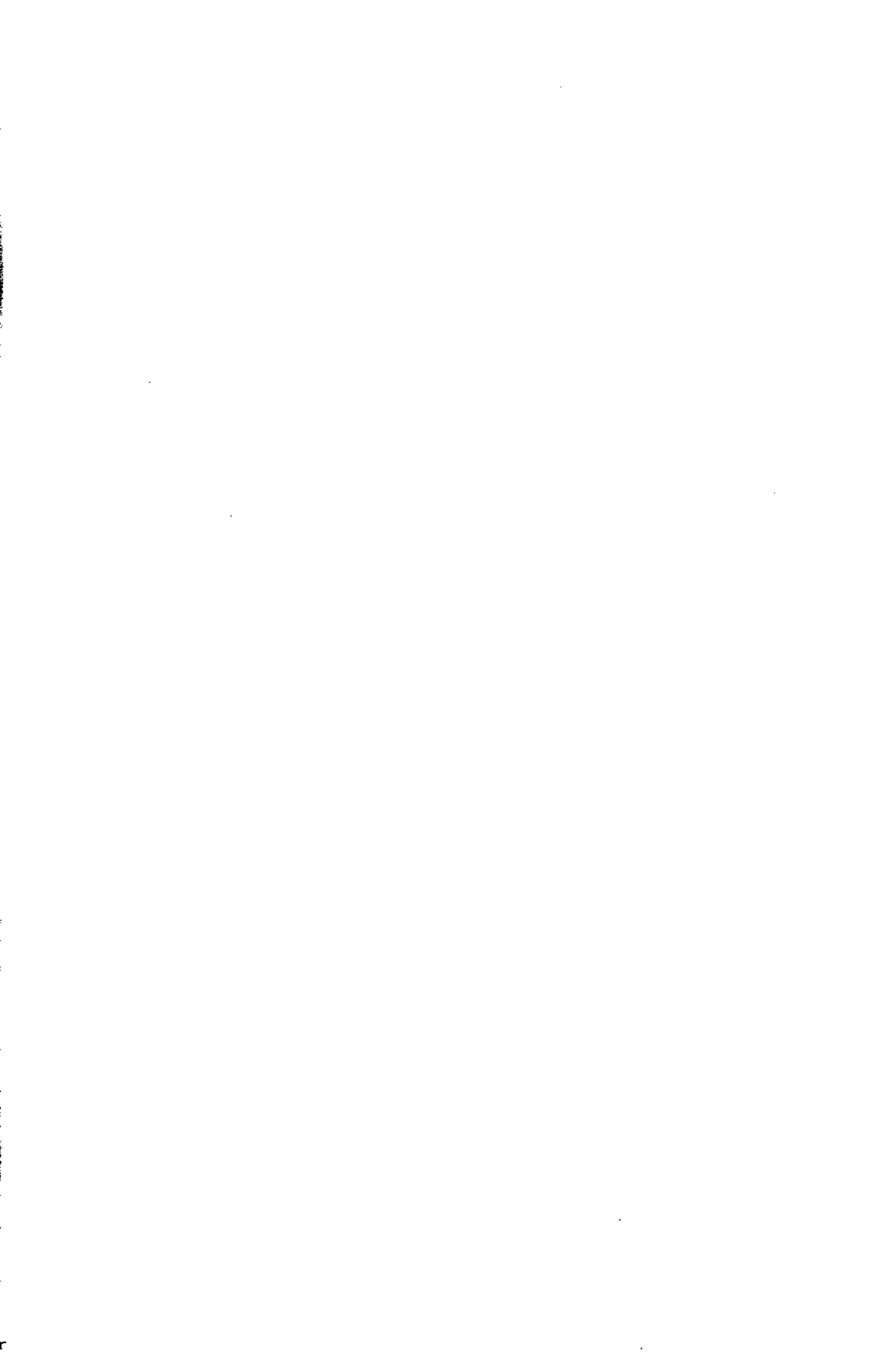


المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤ :
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الإهـــــــداء

إلى الصديق البحرينى
الدكتور سمير فخرو
أحد الأعمدة الأساسى
فى النهضة العربية المعاصرة

محمد حرب



الفصل الثالث والخمسين
فى بيان مواكب مشايخ منبع الأسرار
وقطب الأبرار القطب العلوى السيد أحمد البدوى

لأننا كنا فى بداية السنة القبطية وبقى على قطع النيل ستون يوم، وفى اليوم الذى تسقط فيه أول نقطة فى النيل يكون هذا متوافقًا مع ميلاد عالم الفقراء السيد أحمد البدوى، ويقوم أتباعه من الفقراء بالتجول فى الأسواق يعلنون عن قدوم مولد السيد البدوى (بالدفوف والطبول) ويقرأون القصائد ويوحدون وبعد ذلك يتبقى على قطع النيل خمسة وخمسين يومًا، ويتم إخبار كافة مشايخ ودراويش مصر فى ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ بميلاد مشهور الآفاق القطب على الإطلاق السيد أحمد البدوى، ويتجول فى بداية الشهر المذكور ما يقرب من خمسة عشر ألف أو عشرين ألف من فقراء ومشايخ مصر بآلاف الرايات والسناجق فى الأسواق وهم يطبلون على الدفوف والنقارات والطبول وينفخون فى الصور وحينئذ ينشغل سبعمائة شيخ بالتوحيد، حيث يسير موكب عظيم من الفقراء والمشايخ فى جماعات وصفوف إلى قصر الباشا الوالى وهم يرددون «يا رزاق» وعندما يصلوا إلى قصر الباشا يقوموا بالتهليل، ويظل المنكرون لذلك فى حيرة وتعجب من هذا المشهد.

بعد ذلك يخرج كافة المشايخ لمقابلة جان بولاد زاده حسين باشا أمين الديوان العالى، يرجونه استصدار فرمان ببدء مولد أحمد البدوى، وبعد الدعاء والثناء، يصدر الفرمان لخليفة البدوى بأن يقوم هو وكافة المشايخ بالتوجه بالسفن مع كافة الفقراء من بولاق فى موكب عظيم، حيث يتجهون إلى الغربية ويُخطر حاكم الغربية حسن بك وحاكم المنوفية ميرزا كاشف بأن يقوم الجنود بحراسة كافة المشايخ والفقراء الحاضرين فى الموكب لمولد السيد أحمد البدوى وينبه عليهم بأن تكون جنودهم فى حراسة خيام هؤلاء القادمين للمولد، وإذا ما صادف أحد الجنود أى مشقة من أشقياء العربان يحمل نبوت أو عصا أو سلاح فيقوم الجنود على الفور بقتله، ويحرر الأمر الشريف ويعطى للمشايخ ويقوم كبار المشايخ بالدعاء بالخير للباشا الوالى، ويقوم الباشا الوالى بإعطائهم خمسين سفينة

يركبها الفقراء الذاهبين لحضور مولد السيد أحمد البدوى، ويأخذون من المحتسب خمسين قنطارًا من البقسماط والبصل والجبن الحلوم، ويقوم الباشا الوالى بالإحسان على قبر أحمد البدوى بقطعتين من القماش الأخضر وكيلتين من العود وسجادة من الإبريشم، وشمعتان من شمع العسل تَزن الواحدة خمسين أوقية، وخمسون عملة ذهبية لختم القرآن الكريم خمسين مرة.

وبناءًا على قانون التشريفات يقوم الوالى بتوديع كافة المشايخ وينزل إلى ميدان القصر ويقوم شيخ الجلادين بقراءة المولد أمام جميع أهل الديوان فى ميدان القصر، ثم بعد ذلك يذهب كافة العاشقين الصادقين مع جملة الفقراء المجاذيب من المدينة وهم يقولون «حى» «هو»، ثم يسير الخليفة (خليفة البدوى) فوق الجواد محييًا عن يمينه وشماله، ويكون شيخ المشايخ الشيخ مصطفى الروملى خليفة حضرة الشيخ مرزوق الكفافى قائدًا لكافة المشايخ، ويعبر الموكب حيث ينادى الدلالون أن مولد البدوى يوم كذا القادم، وينزل موكب الشيخ الخليفة عند تكية الشيخ مرزوق الكفافى، وهنا يذهب كل العاشقين إلى ديارهم، وبهذا تُعلن بداية مولد الشيخ البدوى، وبعد ذلك بعشرين يوم.

أوصاف موكب مولد الشيخ إبراهيم الدسوقى

هذا أيضًا موكب عظيم، حيث يسير عدة آلاف من الفقراء والمشايخ على دقات الطبول، ويرفعون الرايات، حفاة الأقدام عراة الرأس يقولون: «يا رزاق» ويعبر موكبهم بالذكر والتهليل وهم فى خشوع وخضوع متأدبين بآداب رسول الله ﷺ، ولا يوجد فيهم ملاميون أو مجاذيب، حيث أن تلك الطريقة هى الطريقة البرهانية الطريقة السلطانية، ويكون هذا الموكب على نفس نسق الموكب السابق، حيث يذهبون إلى قصر الباشا الوالى ويستأذنون منه، ويعبر موكبهم وهم يوحدون، وليس لهذا الموكب عطايا مثل الموكب السابق ولكن وزير مصر يقوم على سبيل المرحمة بتقديم قطعتين من القماش الأخضر وأوقية من عود البخور، هبة من وزير مصر حيث أن قانون التشريفات فى مصر ليس به منح أو عطايا لهذا الموكب، وشيخ هذا الموكب هو الشيخ شرف الدين ويسير بموكب عظيم، ثم يسير المشايخ إلى منازلهم ويذهب كل شخص إلى داره، وبعد

تلك المواكب الخاصة بالموالد تكون كل ليلة فى مصر مولدًا للنبى وبذلك يكون ثلاثمائة وخمسة وستون مولد نبى، ومن تلك الليالى ليلة الإسراء وليلة القدر وليلة العيد الأكبر، وتكون كل تلك الموالد بفرمانات من الوزير، حيث يصل عدد تلك الفرمانات إلى اثنى عشر، وينادى الدلالون بها. من تلك الليالى ليلة مولد أحمد البدوى وليلة مولد إبراهيم الدسوقى وليلة موكب أمير الحج وليلة السابع من شهر صفر وليلة مولد الجانبولاديه عند باب النصر، وقد تحرر هذا فى مواكب الحج، وهذا أيضًا يكون بفرمان من الوزير، ورابع تلك الموالد.

أوصاف مولد حضرة الشيخ البكرى

فى ليلة الإثنين الموافق الثانى عشر من شهر ربيع الأول تُزين مآذن مصر بمائة ألف قنديل لعدة مرات، حتى أن المدينة تصبح مضيئة تمامًا، ويُقام فى تلك الليلة على جانب بركة الأزبكية مولد الشيخ البكرى، حيث تُقام الموائد قبلها باثنى عشر يومًا وليلة لجملة أعيان مصر، وتكون تلك الموائد لكل طبقة من الأعيان على حدة، فليلة للأئمة والخطباء وليلة للعلماء والصلحاء، وليلة للمشايخ الشرفاء وليلة لأعيان الأشراف، وليلة لنقيب الأشراف وليلة مشايخ المذاهب الأربعة وليلة للمدرسين وليلة للقضاة وليلة لقاضى مصر، وليلة لوزير مصر، وفى حالة ما إذا كان لا يقوى على السير يأتون هم إليه محبة منهم، لا سيما وأنها تكية عظيمة، وليلة لكافة الأمراء المحمديين، وينسحب الشيخ أبا بكر ويأتى بالإحسان والهدايا الكثيرة الوافرة ويأخذ منها الخاص والعام، ولا تبقى مياه فى بركة الأزبكية، حيث يمكث كافة المشايخ والأعيان فى الخيام فى مساحة ألف فدان فى الصحراء الشاسعة، ويجتمع فقراء مائة وأربعين طريقة وينشغلوا بالذكر والتوحيد كما يُؤسس سوقًا فى جهة منها، وتُباع الأطعمة والمشروبات، وتكون أسواقًا كثيرة.

ويقوم أصحاب المنازل الواقعة على الجوانب الأربعة لبركة الأزبكية بإنارة مائة ألف قنديل عدة مرات، وتُطلق الأعيرة والألعاب النارية والفشنك وتقرع الطبول وتعزف الموسيقى، بما تعجز الألسنة عن وصفه، كما تُزين التكايا بالقناديل وتموج كل النواحى بالبشر وكأنها البحر، ويأخذ بنى آدم الذوق والصفا من هذا المشهد، وفى تلك الأثناء

يستعد الشيخ لقراءة المولد النبوى فى حضور العلماء والصلحاء والمشايخ على ضفاف حوض القاضى الأعظم، ثم يقوم بتلاوة التواشيح الدينية بنغمة حزينة، ويقرأ كافة الحضور المولد النبوى، ويقوم سبعون أو ثمانون خادم يرتدون البناطيل الحمراء بإشعال أعواد العنبر الخام، وتتعطر رءوس العاشقين من رائحة المسك والعنبر، ويُوزع عليهم سكر النبات والمشاريب ذات المسك والمعطرة فى أوانى مزينة، ويُقرأ المولد الشريف ثلاث مرات ويُحسن على الموشحين والقارئين بالهدايا فى الصباح، ثم يتوجه كل شخص إلى وجهته، والحاصل أن اللسان يعجز عن وصفه، وفى تلك الليلة أيضًا يكون مولد:

مولد تكية الشيخ إبراهيم الكُلْشَنِى

يقام هذا المولد ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول ومن الصوفية من يذهبون إلى مولد سيدى الشيخ البكْرِى ويمضى البعض الآخر إلى مولد سيدى إبراهيم الكُلْشَنِى وهناك من يذهب إلى مولد البكْرى، ثم يأتى إلى مولد إبراهيم الكَلْشنى.

إلا أن مولد الكُلْشنى هذا ليس مولدا للفلاحين ولا العوام من الناس بل هو لخواص الخواص، ويحضره جميع الأتراك وطوائف الجند وأرباب المعرفة والمتصوفة والظرفاء والشعراء. ولا يحضره الغرباء ولا الجهال.

وبعد العشاء يبسطون السجاجيد الحريرية الخضراء النفيسة فى الحرم المجلو والمصقول أمام الضريح المنير والمعطر لسيدى الشيخ العزيز، ويأتى الصوفية زرافات زرافات وبعد أن يؤدى جمع حاشد من الناس صلاة العشاء يشكل جميع المتصوفة حلقة طبق المراسم الكُلْشَنِيّة وتتلى سورة «المُلك»، ويتلو جميع الصوفية الأوراد والأذكار فى صوت واحد وبقلب واحد وبينما ينشغل عشرون بالذكر فى جانب وعشرون آخرون فى جانب آخر يقع بعض الصوفية فى حال الوجد فينهضون ويبدأون فيما يعرف بالسماع، ويدور جميع المتصوفة حول أنفسهم، وتصدر عن الذاكرين أشعار وأنغام شتى مختلفة المقامات الموسيقية، وهى كثيرة يصعب حصرها، وتختلط اثنتا عشرة حلقة من حلقات المتصوفة بعضها ببعض متصادمين وقد امتلأت قلوبهم بصفاء المحبة فيقعون فى حال الجذب كما

يقعون فى حـال الوله وهم فى دورانهم، ويتغنـون بالمنظومات الدينيـة فى صوت حزين والتى تسمى الواحدة منها «إلهى» ويداوم الذاكـرون على ترديد كلمة «اللهم» فى ارتفاع وانخفـاض من سمعـها وكان مكـدودًا مهمومًا كـاسف البال ـ دب فـيه دبيب الحـيوية والتفاؤل، والله أعلم.

وجملة القول أنـه على هذا النحو ينشد اثنـى عشر فصلا من التوحيد الـسلطانى فى اثنى عشر مقامًا ليـست لواحدة من الطرق الصوفية المائة وأربعين، وربمـا كانت للطريقة المطاوعية أو الطريقة البرهانية.

وبعـد هـذه الـفصول يخـرج «جلبى أفـندى» من خـلوته فيـحيه جمـيع الصوفـية ويتقدمـون لتقبيـل يده، فلا يأذن بذلك إلا لمـن بايعـه وتشـرب تعاليمـه، وأصبح موضع سره ومن أهل طريقته؛ ولذا يقبل كف يده اليمنى.

و«جلبى افندى» هذا لا يغادر حجرته قـط ولا يختلط بأحد من عوام الناس. إلا أنه يخرج مرة واحدة فـى العام هى ليلة المولد. وهـو يمتنع دوما عن الكـلام صوام النهار قوام الليل دائمًا فى طاعة وعبادة منقطع لتلاوة القرآن الكريم.

ولكى يتعيش يشتغل بالخطاطة فهو جميل الخط، إنه يخط بعض الرسائل يرسلها إلى بعض المتصوفة تبركا على سبيل الهدية.

وسبب خـروجه يوم المولـد هو أن بعض المتـصوفة يبـايعونه ويدخـلون فى طريـقته وبعضهم ممن لديه الاستعداد للإقامة فى التكية طيلة أربعين أو خمسين سنة يتلقون على يده كيف يصبحون أصحاب سجادة فى بلد آخر. كما أن بعض المتصوفة يشرفون بلقائه مرة فى العام ويظفرون منه بخير الدعاء.

يجلس المتصوفة على السجادة الموجودة على يمنة المحراب فى سكون وخشوع وبعـد أن يفرغـوا مـن التوحيـد والذكـر يصـعـد المنبـر عالـم فاضل لـتلاوة الأوراد ويـردد الموشحـات فـى صـوت واحـد، ثـم يبـدأ ذلك الشيخ الـفاضـل فـى قـراءة «مولد سليمان جلبى»[1] فى صوت رخيم فـى اثنى عشر مقاما، ويـحيون الليلة حتـى مطلع الفجر وهم على تلك الحال.

وعندما تحل لحظة ولادة النبى وتذكر مولد خير الأنـام ينهض المتصوفة جميعا إعظامًا وإجلالا وينشدون هذه الأبيات فى صوت حزين:

ألم يكشف جـمالك الدُّجَى يا رسول اللـه

ألـم يـبلـغ كـلام حـبـيـبك ذروة الـعـلـى

ثم يبدأ خدام المتصوفـة الكَلشنيين فى توزيع أنواع الحلوى عـلى الحضور من الأعيان والأشراف، وبعضهم يوزع لفائف النُّقْل والأشـربة المعطرة، وفى أثر ذلك توزع فناجين القهوة والشاى واللبن والفالوذج والسحلب هنا وهناك.

وبعد ذلك ينثر الصـوفية ماء الورد وما أشبه على الحضور، ويحرقـون العنبر والعود فى المباخر فينتشى الصوفية من شذاها.

وبذلك نكون قـد انتهينا من ذكر مولـد آخر، ويذهب من يذهب ويبقـى من يبقى، ويبدأ الصـوفية فى تلاوة التوحيـد ثانية وبعد الفراغ مـن تلاوته يتلون العشـر الشريف: «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

وبعد الدعاء يـتوجه بعض الصوفية لزيـارة سيدى الشيخ العزيز فـى داره ثم يذهبون إلى منازلهم.

وجملة القول أنها تكية طريقة طاهرة يعجز اللسان عن امتداحها والسلام.

وفى ليالـى هذا الشـهر يزين فاعلو الخير المنارات بالعمائم والمـناديل والأقمشة لقراءة المولد، ويعلم مـن ذلك أن ثمة مولد سوف يتلى تـلك الليلة فى ذلك الجامع فـيحتشد الناس جميعًا فيه. وفى تلك الليلـة توصل الحبال من دار إلى دار فى الحارة وتعلق فيها القناديل، كـما تزين المقاهى والحوانيـت بالقناديل كذلك. وهـذا ما لا وجود له إلا فى القاهرة.

---

(١) منظومة تركية هى الأشهر عند الترك فى مدح الرسـول محمد ﷺ، تعرف بـ «وسيلة النجاة» وقد نقلها نظمًا وشرحها وعلق عليها الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى، ونشرت بالقاهرة ١٩٨١.

ومن الحق قولنا أن مصر نادرة الزمان.

ومن الناس من يتلو الموالد فى المنارات وأيًا كـان عدد من يتلون المولد فإنهم يأخذون العمائم الحريرية الموجودة فى المنارات. وثمة منارات تتسع الواحدة منها لاكثر من أربعين رجلاً، لأن كلا منهـا بنى طبقة فوق طبـقة كأنها البرج وكل طـبقة منها تتسـع لخمسين رجلاً.

ويردد أكثر من أربعين من البدو المولد حتى مطـلع الفجر للحصول على صرة وتبلغ أصواتهم عنان السماء.

أوصاف مولد سيدى أحمد الرفاعى

إنه برهانى الطريقة، يقام هذا المولد فى لـيلة الجمعة الأولى من شهر رجب، والتكية الرفاعية تكية عـظيمة عند جامع السلطان حسن فى حارة «صـانعى الرماح»، وقد سبق وصفها ضمن حديثنا عن التكايا فى القاهرة.

وهذا المولد ليس مزدحما إلى حد ما، ويحضره حشد من أهل التقوى والصلاح من ذوى الكرامات. يا له من ملتقى لخواص الخواص.

أوصاف مولد سيدى عمر بن الفارض

تكية عظيمة فـى سفح جبل الجوشى الواقع جنوب القاهرة، يقـام فيها المولد مرة فى العام يحضره مائتا ألف من الناس.

وتجتمع كلمة علماء مصر على أنه فى ذلـك اليوم تحضر روح النبى (صلى الله عليه وسلم) لأنه وقت إقامة هذا المولد يعم الضـياء، ويخطف البرق فى داخل الجامع، وهذا ما لا حدوث له فى جامع آخر.

وما أن يصل متكبر أو متـجبر إلى هذا المولد حتى يتعلق قلبه بـهذه التكية. و يتوافد على هذه التكية جميع المتصوفة والمساكيـن والغرباء وفى ليلة المولد تلك تتجلى كرامات بعض المتصوفة.

كرامات الشيخ محمد اللبنانى

بينمـا كنت أجلس مع إمام الـدفتردار أحمد باشـا داخل محفل المؤذن نهـض الشيخ

محمد اللبنـانى وهو من أصحاب الكرامات واتجه بالخطاب إلى إمـام الباشا وسط حشد من الناس قائلاً: «يا إمام الوزير إنزل بالعَـجَل إلى مصر، روح إلى الروم بالسلامة» ثم انزوى هذا الدرويش أسـفل العمود الذى اعتكف تحته منذ سبع وأربعيـن سنة وكل من سمع هذا من قوله قال: انزل يا إمام انزل.

فمنهم من ظن أن الإمام سيموت، ومنهم من ظن أن المحفل الذى يجلس فيه سوف ينهار.

فخاف الإمام ونزل أما أنا فلم أحرك ساكنا قط ولبثت فى مكانى رابط الجأش.

وفى اليوم الـسابع خُلع أحمد باشا الدفتردار وإمامه وعمت الثورة القاهرة. ولعل هذا كانت نبوءة الشيخ اللبنانى.

أى أن تكية عمـر بن الفارض تلك بها الـعديد من أصحاب الكرامـات ممن لا سبيل إلى امـتداحهم أو وصـفهم. و هـذه التكيـة زاوية اعتـكاف أهل الحـال ممن يتحـدثون بالتخاطر ويصلون إلى هذه المرتبة بـالرياضات والمجاهدات. إنهم صوامون يفطرون مرة فى الأسبوع وهم أناس أطهار أبرار.

وأثناء مقامى فى القاهرة (فى كل يوم جمعة عـقب الصلاة رأيتهم يقيمون شعائرهم) ويحتشد آلاف من النـاس وكنت فى ذلك اليوم بالذات ألتقى بهذه الـطائفة الخاصة وكم شاهدت لبعضهم مـن كرامات. وطيلة إقامتى فى القاهرة لم أتخـلف عنهم قط فى يوم جمعة، لأنى كنت أكتسب من ذلك صفاء الروح وأقف على مختلف أسرار أحوالهم.

وفى يوم الجمعة فى تلك الـتكية تنشد القصيدة «التائية» لعـمر بن الفارض، وعندئذ يغيب المتصوفة فى نشوة الوجد ويضربـون الأعمدة برءوسهم فلا يصيبهم من ذلك أذى بإذن اللـه. ويتبارى الـعديد من أصـحاب الصوت الـرخيم فى تـلاوة العشر الـشريف وقصائد مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم).

إنها تكية يستجاب فيها الدعاء والمولد المقام فيها مولد يحضره جميع المتصوفة.

مولد أبى السعود الجارحى

ثمة بلدة تقع بين مصر العتيقة ومصر الحديثة يقام فيها المولد فى يوم الأربعاء من كل أسبوع إلا أنه يزدان بمئات الآلاف من القناديل، وتهتز السماء والأرض من دوى التوحيد طيلة ثلاثة أيام بلياليها حتى مطلع الفجر.

ولأن هذه البلدة تبعد عن جنوب القاهرة بثلاثة آلاف خطوة يمضى إليها مائتا ألف على ظهور الحمر، فيمتلىء ذلك الوادى بالحمر ويتزاحم الناس فيه وكأنهم في موسم الحج. ولأن سيدى الشيخ أبى السعود الجارحى قريب عهد بهم فهم يذكرون عنه الكرامات ويحتفون احتفاء لا مزيد عليه بمولده.

لقد عاش الشيخ أبو السعود فى عهد السلطان سليم وهو القائل: «تعال يا سليم اجلس على تخت مصر».

مناقب الشيخ الفانى

وثمة من عمر وشرف بصحبة الشيخ أبى السعود الجارحى واتفق أن أتوا به إلى مجلس جان بولاد زاده حسين باشا وقبل الباشا يده الشريفة، ونال منه خير الدعاء إنه الشيخ الفانى (بير فانى)، وهو ليس من أهل القاهرة بل هو من المنوفية، وبما أنها تمتاز بجو لطيف فقد عمر طويلاً، ولقد ظفر بدعاء سيدى الشيخ أبى السعود فنبتت أسنانه اللبنية فى فمه وكف بصره، وصارت عيناه وكأنها قديد، وكان يبكى كالأطفال قائلاً: إننى جائع منذ ساعة.

ها هو من يعمر ببركة دعاء سيدى الشيخ أبي السعود له. ولله الحمد أنى شرفت بتقبيل يد هذا الشيخ الهرم الذى شرف برؤية صباحة وجه الشيخ أبى السعود الجارحى وبلغ السبعين بعد المائة من سنيه، وظفرت منه بخير الدعاء.

ولأن الشيخ أبى السعود أحد أقطاب الصوفية العظام يقام له مولد عظيم.

مولد الإمام الشافعي . رحمة الله عليه

يمضى آلاف الناس لزيارته كل ليلة سبت ويختمون القرآن الكريم مئات المرات حتى مطلع الفجر شريطة أن يقوم بذلك شيوخ المذهب الشافعى. وهناك من لم ينقطعوا عن حضور هذا المولد منذ أكثر من أربعين سنة وهم كثرة.

وفى كل عام تقام سوق عظيمة ثلاثة أيام بلياليها فتصبح بليدة الإمام الشافعى بحرا زاخراً من البشر. وكم من أناس دفنوا تحت الضريح العالى ممن استشهدوا فى شدة الزحام ولا حاجة لنا للإسهاب فى هذا الباب.

وليعلم إخوان الصفا أنه ليلة إقامة المولد فى أيامنا تلك يختم القرآن الكريم أربعمائة وثلاث وعشرون مرة لأنه فى تلك الليالى يجتمع الآلاف من حفاظ القرآن الكريم ويقال إنه فى إحدى السنوات على عهد إبراهيم باشا ختم القرآن سبعمائة وأربعين مرة، كما يقال إن أرواح جميع الأقطاب والأولياء تحضر فى تلك الليلة داخل الجامع لذا وقبل بدء المولد بخمسة أيام أو أكثر يستأجر أشراف القاهرة وأعيانها المنازل فى بليدة الإمام الشافعى بخمسة أو عشرة قروش، ويأتون بأهلهم وعيالهم وأطعمتهم وأشربتهم ويمرحون وينعمون. ويأتى التجار بمئات من خيامهم لبيع الأطعمة والأشربة وبذلك تقام سوق عظيمة. تزين مئات الخيام من خيام الزوار بالقناديل كما تزين جميع المنارات وأسطح المنازل بمئات الآلاف من القناديل فتبدو المدينة فى كامل زينتها. وبذلك ينتهى حديثنا عن مولد الإمام الشافعى.

وقبل أن ينفض جمع المجتمعين ينطلقون إلى مولد سيدى أبى الليث على مقربة من الإمام الشافعى.

مولد تكية سيدى الشيخ أبى الليث

وهو يشبه مولد الإمام الشافعى إلى حد بعيد، يحضره المؤلفون والمصنفون ومعهم آثار عبقريتهم ويلتقى فيه شيوخ الإسلام على المذاهب الثلاثة وتعرض جميع المؤلفات والرسائل على أهل العلم والفضلاء لقراءتها، وإذا رأوا مؤلفا قيما ختموه ووقعوا على صفحات الكتاب مجيزين بذلك تلاوته وتداوله.

ويضعون هـذه المؤلفات ليلـة أو أكثر فى الصنـدوق الذى يعلو ضريـح سيدى «أبى الليث» واتفق أكثر من مرة أن أخرجت تلك المؤلفات من موضعها فى الصندوق ولوحظ أن بعض مواضع فيـها قد شطب وبعض مواضعها الأخرى صُـوِّب، كما وجدت رسالة فى العقائـد لأحد المؤلفين محترقة داخـل الصندوق ووجدت النسخة الأخـرى منها فى الصباح ـ محـترقة ـ وقد حدث ذلك فى عهد أبـى النور محمد باشا. فأبـو الليث إمام همام يحتشد فى تـكيته العلماء والصلحاء والحفاظ يختـمون القرآن الكريم آلاف المرات طيلة ثلاثة أيام بلياليها حتى مطلع الـفجر. وهكذا تكون موالد أعاظم العلماء. وهذا ما يعجز عنه الوصف.

بعد ذلك يمضى المتصوفة إلى الشيخ عقبة.

مولد سيدى الشيخ عقبة الجهينى - رحمة الله عليه -

لحق بهذه التكية الخراب على نحو ما أسلفنا ذكره، لذا تعذر إقامة مولده لفترة، وفى عام ١٠٦٣ رأى خاصكى مـحمد باشا المشهور بأبى الـنور محمد باشا الشيـخ عقبة فى منامه؛ فجدد هذه التكية وبنى بها جامعًا شامخًا وسبيلاً وساقيتين ومطبخًا ومهبطا للنور فوق ضريـح الشيخ، وأنـفق على بـناء ذلك مائتـى كيس مصـرى، وجعل لهـا أوقافًا عظيمة، وأوقـف على إقامة مولده ألف قـرش فى كل عام، وعين لها نـاظرًا من فرقة الإنكشارية.

وهذا المولد مولد سلطانى كغيره من الموالد السالف ذكرها يقام فتطيب به روح سيدى الشيخ عقبـة الجهينى العامرى. ولكثرة ما لـهذه التكية من أطعمة وأشربـة ترد إليها من أوقافها توزع على العلماء والصلحاء والمتصوفة.

وفى سفح جبل الجوشى:

مولد الشيخ شاهين (قدس سره العزيز)

موضع نزه يستحق المشاهدة يقام فيه كذلك المـولد يوما وليلة، ولأنها تكية واقعة على ربوة قائمة فهى ضيقة، لذا فهى ليست كثيرة الزحام إلا أن المولد الذى يقام فيها مولد عجب.

مولد الشيخ الجوشى

تكية عالية قائمة على قمة جبل المقطم، تبدو مدينة القاهرة من هذا الجبل تحت القدم، تضرب الخيام على قمة هذا الجبل يوما وليلة لإقامة مولد عظيم، وقد شيد هذا الجامع وأوقف عليه أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى وزير المستنصر بالله العباسى وسمى الجبل الجوشى نسبة إليه أما اسمه فهو «جبل المقطم».

مولد أثر قدم النبى

إنها تكية واسعة بها جامع كبير وقبة عالية أسفلها أثر قدم النبى، وكل هذه الأبنية من إنشاء إبراهيم باشا الدفتردار. وقد سبق لنا أن وصفناها. ويقام فيها كذلك مولد عظيم يدوم يوما وليلة وفيه تتعالى الأصوات بالدعاء لصاحب الخيرات - إبراهيم باشا الدفتردار.

مولد الشيخ السادات

يقام هذا المولد فى التكية التى دفن فيها أجداده العظام فى الموضع الذى يسمى (   )[1] فى القرافة الكبرى وذلك فى منتصف شهر شعبان، وتقام الخيام والسرادقات فيها ثلاثة أيام بلياليها، ويتوافد عليها البكوات من مريديه، ويزينون منارة الجامع وجدران التكية وأبوابها، وجميع الخيام بمئات الآلاف من القناديل، ويأتى جمع غفير من الناس وتوزع الأطعمة على الغادى والرائح. إنه مولد عظيم وهو واحد كألف، يحتشد فيه مئات الآلاف من الرجال والنساء والكبار والصغار، وذلك فى صحراء مترامية الأطراف، ويمضون هنا وهناك للزيارة، ذلك أن ثمة أضرحة لكثير من الصحابة الكرام والأولياء فى تلك النواحى.

كما دفن فى هذه الجهات من أبناء الأنبياء «بنيامين ابن سيدنا يعقوب عليه السلام» و«افرايم» بن يوسف الصديق الذى ولد فى مدينة الفيوم. وغيرهم الكثير. وسوف توصف هذه المزارات فى حينه.

(١) بياض فى الأصل.

ذكر مناقب الشيخ السادات (أبو التخصيص)

وسيدى الشيخ السادات أبو التخصيص شيخ رفيع المنزلة، لذا لا يتخلف أحد من العلماء والصلحاء والأعيان والأشراف عن زيارته قط، فهم منجذبون إليه إلا أنهم عندما يحضر إلى تكية أجداده ليلة المولد يأتى وفى معيته ألف أو وألفين من المشايخ الكرام ويستوى الشيخ أبو التخصيص على سرير خلافته، وقد أصبح الضريح نورا على نور من مئات الآلاف من القناديل وشمع الكافور، وعندما يتلو ألفان من المشايخ أوراد السادات فى صوت واحد يغيب المرء فى نشوة الوجد، وينصرف عن الدنيا وما فيها، ويغمر النور وجهه وقلبه، وفى تلك اللحظة يسأل الشيخ عن اسم أو من قبل يديه فيكنيه بكنية ويلف عمامة الرضا ـ التى يبلغ طولها أكثر من ذراعين ـ حول عنقه وبذلك يمنحه الإجازة ويعتبره فى عداد المتصوفة.

وفى كل مولد يقام يلف الشيخ عمامة الرضا حول عنق أكثر من ثلاثة آلاف رجل ويخلع على كل واحد منهم لقبا. يا لها من حكمة عجيبة. وليس لأحد أن يتنازل عن كنيته التى منحها الشيخ له، وفى عهد خلافته لم يخلع لقبا واحداً على شخصين وهذا سر إلهى عجيب وكان يخلع هذه الألقاب على مريده بإلهام ربانى، وقد منحنى كنية هى «أبو الصفا» وببركة نفسه المبارك أنعم بالصفاء والطمأنينة، وقد لف حول عنقى شالا كشميريا ومنح بعض الأشراف كذلك الشال اللاهورى والشال الكيلانى ودعا لنا بكل خير.

وكان الشيخ إذا ما رأى شخصا كناه بكنية منذ عشرة أعوام ناداه بكنيته قائلاً:

يا أبا الوفا أو يا أبا العال. فما أقوى حافظته التى لها مرتبة القداسة، وكان إذا خلع عمامة الرضا على شخص وجاء إليه هذا الشخص ثانية خلع عليه أخرى وهذا بذل عظيم للمال كذلك.

وجملة القول أنه لا يمكن الوقوف على حقيقة أمر هذا الشيخ بأى حال من الأحوال.

وفى كل عام يمضى كل من هؤلاء السادات بثلاثمائة من الجمال وأكثر من خمسمائة خادم إلى الكعبة الشريفة ويتصدقون بجزيل الأموال ويعودون بسلام.

إنها طائفة مؤدبة وعظيمة الثراء وليس فى طبعها التباهى، إلا أنهم يقيمون مولدا عظيما مرة فى العام يشرف بحضوره كثير من المريدين والأحباب.

مولد الشيخ البكرى

فى يوم الخماسين من شهر يوليو يقام مولد عظيم فى تكية أجداد الشيخ البكرى الواقعة أسفل ضريح الإمام الشافعى. ويواكب هذا المولد مولد الشيخ السادات وتوزع فيه الصدقات ويغنى جميع أهل القاهرة عن السؤال وتضرب فيها كذلك الخيام والسرادقات وتقام الأسواق ويضاء الجامع ومنائره وقاعاته بمئات الآلاف من القناديل مما يجعل الليل نهارا، ويحيون المولد حتى مطلع الفجر ويتلى مرات ثلاثا. إنه مولد عظيم.

مولد أم القياس

سبق أن أشرنا أثناء الحديث عن أوصاف أم القياس إلى أنه عندما تقوم كتيبة من الإنكشارية بتطهير حوض أم القياس تعم البهجة سبعة أيام وسبع ليال، وفى الليلة الثامنة يمضى العسكر وفى ليلة الجمعة يقام مولد عظيم وفى الصباح ينتهى رئيس الجاويشية من إقامة المآدب.

المولد الثانى لأم القياس

بعد ذلك فى ليلة سقوط النقطة إلى النيل (ليلة وفاء النيل) يقام المولد الثانى لأم القياس، ويحضره جميع أشراف وعلماء وصلحاء القاهرة ويقيم وكيل مصروفات الباشا السماط ثلاث مرات من صلب مال الباشا احتفالا بالمولد الشريف، وينتظر جميع العلماء زيادة ماء النيل. وتعهد مهمة إقامة هذا المولد إلى رئيس التراجمة إلا أن نفقاته من صلب مال الباشا.

مولد المحمودية

يقام هذا المولد فى جامع المحمودية وهو على مقربة من السلطان حسن.

وبالقرب منه:

مولد أمير أخورية

يقام فى جامع أمير أخورية.

مولد السادات

ثمة مولد آخر لشيوخ السادات ويقام هذا المولد داخل الأزهر.

مولد السلطان قايتباى

يقام هذا المولد خارج القاهرة وهو كذلك مولد عظيم وتوزع من مبرته الأطعمة على الفقراء والمحتاجين والمقتدرين كذلك، ويقام هذا المولد مرة فى العام ويحتشد فيه خلق كثير.

مولد إبراهيم الكلشنى

يقام فى تكية الكلشنية فى بولاق وسوف نذكرها فى حينها.

مولد الشيخ الطشطوشى

وهو مولد آخر لأتباع الطريقة البكرية، وهو كذلك مولد عظيم بالقرب من السلطان الشعراوى.

مولد الشيخ الشعراوى

إنه كذلك مولد عظيم لجميع العلماء الكبار. وجامعه ضيق، لذا لا يتسع لخلق كثير إلا أنه فى هذا المولد تغمر الجامع روحانية عجيبة.

مولد الشيخ الحنفى

وفيه كذلك يحتشد خلق كثير

مولد الشيخ الخلوتى

بالقرب من قنطرة السنقور، إنه كذلك مولد المشايخ إلا أنه ليس عظيم الزحام كغيره من الموالد.

مولد النبى المقام فى تكية سيدنا الحسين

قبل سبعين عاما عطلت إقامة هذا المولد بإيعاز وإغواء من المنكرين، بعد ذلك فى عام ١٠٨٩ ذهب جميع الأشراف إلى مجلس عبد الرحمن باشا وبسطوا إليه الرجاء بإقامة المولد الشريف فى المشهد الحسينى فى هذه السنة المباركة. فوقع ذلك موقع القبول لديه وأصدر أوامره إلى الصوباشى والمحتسب وقاضى العسكر فى صورة مرسوم وجاء فيه:

(لتُضَاءُ القناديل فى جميع المنائر ليلة عاشوراء (أى الليلة الثانية عشرة من شهر المحرم ولتزين جميع الأسواق والحوانيت ليل نهار بالقناديل كذلك) وأمر الدلالين أن ينادوا بذلك ولإقامة المولد داخل المشهد الحسينى قدم عبد الرحمن باشا ستة آلاف باره وعمامة خضراء وأوقية من العود وقنطارا من شمع الكافور.

وإلى الآن يقام هذا المولد من أوقاف عبد الرحمن باشا وجميع الأشراف وأهل القاهرة يدعون له بالخير.

قاعدة حسنيات القاهرة

بحلول اليوم الحادى عشر من شهر محرم ليلة مولد الإمام الحسين يجتمع عدة آلاف من يهود القاهرة، كل ثلاثة فى مكان وفى أيديهم زنابيل، وأثناء بيعهم ما فيها من عطور وبخور يصيح الثلاثة فى صوت واحد وتبلغ صيحاتهم عنان السماء وتتردد داخل الأسواق والحوانيت. وهذه عادة قديمة، ويعطر بخورهم وعطورهم القاهرة حتى الثانى عشر من شهر محرم. إنها ظاهرة ذات مغزى.

وعلاوة على هذه الموالد يقيم أصحاب الخيرات عدة آلاف من الموالد فى بيوتهم ومساجدهم وزواياهم. وإقامة المولد الشريف فى جميع البلاد فى شهر ربيع الأول ولكن فى القاهرة يقام آلاف الموالد فى جميع شهور السنة ويحتشد فيها كثرة من الناس.

وفى بعض الأحياء يقام فى الليلة الواحدة أكثر من خمسة موالد. ويبذل أهل القاهرة المال الجزيل لفرط محبتهم للنبى ﷺ، لذا أصبح لهم ذائع الصيت بإقامة المولد الشريف.

وبعض الموالد سالفة الذكر يقام بمرسوم من الباشا وبعضها الآخر يقام حسب مراسم الشيوخ ولقد عرفت مئات الموالد غير التى تحدثت عنها ولكن تعذر على الحديث عنها كلها، لذا اكتفيت بما ذكرت منها. وحضرت معظم الموالد الشريفة المقامة خارج القرى والقصبات والتى تقام طبقا لمرسوم الباشا وسوف نذكر كل منها على قدر طاقتى فى موضعه.

الفصل الرابع والخمسون

الأماكن النزهة التى يرتادها أهل القاهرة العام منها والخاص

ـ بلدة البساتين:

بلدة عامرة تقع جنوب القاهرة على بعد ساعتين، وهى تحت إدارة نقباء الأشراف وبها حديقة قريبة من ساحل النيل كأنها الجنة. يتوسط هذه الحديقة قصر شامخ كأنه قصر الخورنق، وفى وسط هذا القصر حوض لطيف. إنه موضع نزه جميل به عدة قاعات علوية ومطبخ وسواق. إنه موضع تنشرح الصدور لرؤيته.

ـ مُتَنَزَّه قدم النبى:

من خيرات إبراهيم باشا الدفتردار، وهو أثر جد عظيم ينتشر به القصور والقاعات، وبه مطبخ وتكية عظيمة الاتساع وزوايا وسواق. وهذا كله من إنشاء إبراهيم باشا وقد ذكرنا تواريخ كل هذا سلفا.

ـ مخازن يوسف (أنبار يوسف):

مكان عجيب غريب

ـ متنزه أم القياس: سبق وصفه.

ـ متنزه الروضة:

فى جزيرة أم القياس كذلك، وهى حديقة انتقلت ملكيتها من يد حاكم إلى حاكم آخر وبداخلها حوض عظيم ويتوسط هذه الجزيرة قصر جميل شامخ يعبر إليه على جسر وبه قاعات متصلة جديرة بالمشاهدة.

ـ مصاد جبل الهرمين:

يسميه الناس «جبل الأهرام» ويسميه عوامهم «جبال فرعون»، أما فى اللغة القبطية فتسمى هذه الأهرام «أهرام برابى» وجاء فى تاريخ «ابن جلال» أن أول من بنى هذه الأهرام «برابى بن درمشيل بن مخويل بن خنوخ بن قاين» ولذا تسمى «بأهرام برابى» وتقع هذه الأهرام فى الجانب الغربى من النيل وهى جبلان كبيران وجبل صغير، وعلى مقربة منها يصاد الغزال والثور الوحشى والذئب والأرانب وما أشبه.

وسوف نبين فيما بعد من بنى هذا الطلسم ولأى سبب بناه.

ـ مراعى أمير آخور:

تقع فى منطقة الجيزة عند حدود امبابة. إنها واد ذو زرع ترعى فيه خيول أهالى القاهرة ووزيرها. إنها موضع مخضوضر ينشرح له صدر من يراه. ولكن ما فيها من زرع من غرس الإنسان. فبذور العشب المسمى «بالبرسيم» إذا بذرت فى ليلة نمت فى صبيحة اليوم التالى فبلغت فى الطول إصبعين وفى اليوم الثالث يمكن للدواب أن ترعاها وجميع خيول القاهرة ترعى هذا العشب والذى يعرف فى بلاد الترك بـ «يونجه»، وتضرب طائفة الجند وأمير آخور خيامهم فى هذه البقعة لرعى خيولهم ثلاثة أشهر بتمامها، وهناك ينعمون كذلك بالراحة والمتعة.

إنه سهل فيه مروج ورياض وأمير آخور الباشا حاكم مطلق عليه بتفويض من الباشا ومهمته تتبع اللصوص والضرب على أيديهم وإعمال السيف فيهم.

ولأن هذه المنطقة تدخل فى حدود أولاد خبير يأتى منهم كل ليلة ألف من فرسان البدو ـ بخيولهم لحراسة جياد الباشا وغيرها من جياد طائفة الجند.

ويتعين على الأمير آخور أن يقيم للباشا سماطا عظيما، وأن يهدى إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد أحدها ذا سرج مرصع بالجواهر، فيخلع الباشا عليه خلعة من فرو السمور. كما يقدم الأمير آخور جوادا إلى كل من كتخدا الباشا والخزينة دار ويوزع الهدايا كذلك على سائر رجال الباشا. ولأن عوائد وضرائب أمير آخور القاهرة والكتخدا معا ينص القانون على تعيين « أمير أمراء» الشام من بين أمراء آخور القاهرة.

ويتحصل لأمير آخور مائتا كيس من بيع العشب بالإضافة إلى دخل آخر من مصادر أخرى يقدر بمائتى كيس كذلك.

ويُهدى الباشا ألفا من الجياد فى العام يلزم بأن يمنح الأميرآخور قماشا من صوف على كل جواد من هذه الجياد الألفين.

وقياسا على ذلك فإنه بقدر ما تكون الأموال المتحصلة لأمير آخور وبقدر ما يكون شخصًا ذا وقار فإنه يتقاسم الربح مع الكتخدا.

متنزه قصر أبى العين الظاهر بيبرس

تكية بكتاشية على ضفة النيل وهى متنزه طيب النسيم وقد سبق أن وصفناها ضمن وصفنا للتكايا إلا أنه عندما شيد إبراهيم باشا قصرا شامخًا فى أحد أركان هذه الحديقة أرخت له بهذا البيت:

يا أوليا نظمت هذا التاريخ وقلت داعيا
ليبق هذا القصر عاليا
سنة ١٠٨٢

ويتصل بهذا القصر قصر آخر شيده عبد الرحمن باشا وأرخ له زكى خليل أفندى فقال:

قال تاريخه زكى الداعى بالبركات
هذا القصر ما يسمى بقصر الجنات
سنة ١٠٨٨

وقال آخر:

قال فى تاريخ هذا القصر العظيم
يا له من قصر فريد تنشرح له الصدور فى الصميم
سنة ١٠٨٨

وعلى ضفة النيل أربعون موضعا لأشجار الجميز فى ظلالها مصاطب وكل منها موضع ظليل يشرح الصدور.

ـ متنزه طوب آتان (أى مطلق المدفع) وحديقة العجم، وحديقة الفرنجة، وحديقة رمضان بك فى طريق بولاق، وحديقة محمد چلبى صاحب العيار، وحديقة حسن بك.

وإضافة إلى تلك الحدائق سالفة الذكر هناك ١٧٠ حديقة أخرى مفتوحة للعوام والخواص وكأن كلا منها حديقة إرم ذات العماد.

ـ متنزه «جميز العبد»:

على ضفتى الطرف الشمالى للخليج الذى يخترق مدينة القاهرة بقعة مكسوة بأشجار الجميز، يتسع ظل كل منها لألف كبش. وكل منها موضع ينشرح له الصدر وكل من

هـذه الأشـجـار تمد أغصانها على النيل وظلالها لا يجعل لقيظ الشمس أى تأثير وظلال هـذه الأشـجـار ملتقـى لإخـوان الصفاء والأحـبة ذوى الوفاء، يجـتمعون فيه لـلراحة والاستجمام.

ـ متنزه قصر السبتية ببولاق:

متنزه به كثيـر من القاعات والظلات والحجرات الخاصة بالـباشاوات وبعض الأعيان وإذا ما قدم الباشاوات من الأسـتانة إلى القاهرة بحراً أو أقيم موكـب أم القياس احتفالا بقطع النيل فإن هذه المواكب كانت تخرج من قصر السبتية هذا.

وفى أحد أطراف سـقف هذا القصر تاريخ الـسلطان (　　　　)[1] مشيده وهو: (إنه من بناء االمعز الكريم العالى السيد محمد البدرى بن أبى البقا ولد المعز المرحوم سيد يحيى الجيعانى سنة ٦٨٧).

ـ حديقة رضوان بك:

تسمى بحديقة الرضوانية وهى حديقة كجنة رضوان، وليس لها من نظير فى مصر.

ـ متنزه التورلجية:

يقع هذا المتنزه خارج قنطرة الليمون على ضفة خليج الشيخ البكرى.

ـ متنزه الطوبخانه:

إنها زاوية لا وجود لمثلها فى القاهرة ولا فى المدائـن بناها وزير السلطان قايتباى عند خروج سيده إلى الحـج وعودته. ولهذه الزاوية قبـة منقوشة تناطح الجـوزاء وترتفع عن الأرض بمقدار اثـنتى عشـرة درجة من الحجر وأبـواب هذه القبـة وجدرانها مـن الرخام الطبيعى والأحجار الصماقية الملونة وأحـجار اليشم والحرقانى واليرقانى وأحجار أخرى. وكأنها الأحجار التى فى قبة الصخرة بالقدس.

والخـط الكوفـى الذى بداخلها وأعمال النحت والزخرفة الرائعة على الرخام والتى لا يخلو منها موضع فى القبة يعجز عنها مانى وحسان وبهزاد وارزنك.

ومن الحق قولنا إن ثمة أساتذة عظام عاشوا فيما مضى من الأيام الخوالى.

---

(١) بياض فى الأصل.

وعلى يسرة هذه القبة العالية مرعى وكأنه الجنة وعلى يمنتها قاعات ودور للضيافة. توزع الأطعمة على الغادى والرائح.

جملة القول أنها موضع نزه تنشرح له الصدور.

ـ متنزه البشبكية:

إنها ساحة للفروسية والرماية بالسهام، وفيها عدة قاعات ومطابخ وأحواض.

وفى الجانب الجنوبى منها فى الجبال على بعد ساعة.

ـ مصاد عين موسى:

إنها العين الواقعة فى جبل بجاميم والتى كانت موضع عبادة موسى ـ عليه السلام ـ إلا أن ماءها أميل إلى الملوحة وليس ماءً عذبًا كماء النيل. ويزور البدو هذا الموضع قاطبة. كما يأتى إليه بعض جند مصر بأسلحتهم وخيولهم لصيد الغزلان واللصوص من البدو.

ـ متنزه عين شمس:

ذكر آنفا وكان يتصل بمدينة عين شمس مدينة تسمى «الفرما» وكان لها قلاعا مبنية باللبن من ثلاثة طوابق، تمتد إلى البئر التى حفرها المسيح ـ عليه السلام ـ فى المطرية. ولقد تخربت هذه المدينة بأكملها ولم يبق منها إلا مسلة من الحجر.

وعن سبب خراب هذه المدينة يحدثنا مؤرخو العرب فيقولون: إنه عندما قدم سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ للقاء ابنه يوسف الصديق نزل ضيفا فى عين شمس ومدينة الفرما على سبعين من أشرافها الأثرياء لم يكرم وفادته أحد منهم، لذا دعا يعقوب الله على هذه المدينة فلحق بها الخراب.

وفى النهاية التقى سيدنا يعقوب بيوسف الصديق فى مدينة الفيوم بعد فراق دام ستة عشر عاما فارتد إليه بصره. وأوصى يوسف أن ينقل جثمانه بعد وفاته ليدفن فى جبل حبرون بجبل الخليل.

ـ متنزه قصر الغورية:

شيده السلطان الغورى وهو يبعد عن النيل. ووقت الفيضان يصبح هذا القصر وسط الماء. وأسفل هذا القصر قاعة عظيمة وفيه عدة غرف ولكن ليست له آثار أخرى.

ولكن على مقربة من هذا القصر حدائق كحدائق الجنة بها قبة عالية ذات زخارف مثل قبة الطوبخانه إلا أنها لجامع، إلا أنها تشبه قبة الطوبخانة تمام الشبه.

ـ متنزه ومزار «بئر المطرية»:

إنه مكان تعبد المسيح ـ عليه السلام ـ فى حدائق فى الجانب الشمالى من القاهرة على بعد ساعتين منها. وعندما كانت مصر فى حوزة اليونان كان فى هذه البقعة الكثير من الأبنية العظيمة. ولم يبق منها الآن إلا قاعة وزاوية. وفيها حوض من نزل فيه وكان به علة تم له الشفاء منها.

وجاء فى التواريخ وتواريخ اليونان أنه عندما هاجرت السيدة مريم مع ابنها المسيح عيسى من مدينة نابلس هبطت هذا المكان فطاب لها مستقرا ومقاما.

ويزعم النصارى أن المسيح عيسى وأمه السيدة مريم هما اللذان حفرا هذه البئر ليغتسلا وأنهما أقاما هذا الحوض. وهذا القول صحيح لا يتجافى عن الصواب، إذ إن جميع آبار القاهرة ماؤها أميل إلى الملوحة إلا أن ماء هذه البئر عذب بفضل معجزة المسيح ـ عليه السلام ـ.

وتسحب الثيران الماء العذب من هذ البئر بالدواليب لرى الحدائق المحيطة به من كل جانب. وكانت أشجار البلسم والبَلَسَان[1] تملأ هذه الحدائق وكانت هذه الأشجار من غرس يد المسيح ـ عليه السلام ـ، ولم يكن لها من وجود فى بلد آخر. وكانت يستخرج منها الزيوت ويحتفظ بها الملوك فى خزائنهم تبركا.

وإذا ما تسمم أحد وتناول من هذا الزيت مقدار قيراط نجى من الموت. وإذا لدغت أحد عقرب أو أفعى أو حية ودهن موضع اللدغ بزيت البلسان هذا أو لعقه نجى كذلك من الموت المحقق. وإذا دهن بهذا الزيت موضع ألم سكن هذا الألم.

---

(١) البَلْسَمُ: جنس شجر من القرنيات الفراشية، يسيل من فروعها وسوقها إذا جُرِحتْ عُصَارَةٌ راتنجيّة، تستعمل فى الطب.

والبَلَسَانُ: شَجَرٌ له زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد يستخرج من بعض أنواعه عطر.

وهذا الزيت معروف لـدى النصارى فى القرى، وإذا لم يتناول منـه النصرانى أو لم يدهن به جسـمه لا يعد نصرانـيا حقا. ويأتى النصـارى من كل فج عميق إلـى المطرية لزيارة هـذه البئر والاغتسـال فى حوضها، وهـم يقطفون أوراق شـجرة مريم ويقـدمها البعـض إلى البعـض هدية فى مخـتلف الولايـات، كما يحتـفظون بهـذه الأوراق بين صفحات الكتب.

إلا أنى لم أشاهد بها أشجار البلسم والبلسان تـلك فسألت سدنتها فأجابونى بقولهم إنها جفت وتيبست منذ أن دخلت مصر فى حوزة العثمانيين.

ولكن أشجار البلسـان منتشرة على طرق الكعبة الآن ويستخرج مـنها الأهالى زيوتها ويبيعونها فى جرار للحجيج.

ـ فوائد ماء بئر المطرية:

عندمـا يفيض الـنيل وتجرى مـياهه خضـراء اللون، ثم يـحمر ماؤه عـندئذ يمـتنع الباشاوات والـذواقة عن شرب ماء النيـل. وسبب ذلك أن الماء الأخضـر الذى ركد فى الترع والخلجان منذ العام الماضى يظهر فيه الـسم الزعاف وعندما يأتى فيضان النيل يدفع هذه المياه من الخلجان فتمر من القاهرة.

والتى إذا ما شرب أحد منها ابتلى بالمرض، لـذا يمتنع الباشاوات والأعيان من شرب ماء النيل هذا طيلة شهر، ويشربون من بئر المطرية ذات الماء الزلال. إنها بقعة طيبة النسيم.

ـ متنزه البئر المعظمة:

حفرهـا موسى ـ علـيه السلام ـ، وإن كـان بعض الأطبـاء يصفون مـاء بئر المطـرية بعذوبته وفوائده إلا أننى لم أشرب منها.

ـ متنزه بركة الحج:

بقعة يقيم فيها حجيج مصر ثلاثة أيام وثلاث ليال عند خروجهم للحج يتزودون منها بمئات الآلاف من القرب المملوءة بمياه النيل. إنها خيرات عظيمة عجيبة، فقد شقوا بركة الحج هذه من النيل فكـأنها بحيرة عظيمة. وهى تبعد عن الـقاهرة بمقدار أربع ساعات. وبعض وزراء مصر وأعيانها يسافرون عبر هذا الطريق ومنه يعودون إليها.

ـ متنزه قلعة سبيل علام:

يتناوب عليها أحد أمراء مصر فى خمسمائة من جنوده مرة فى الشهر لحراسة المترددين عليها. إنها مصاد وميدان للرماية وميدان للتحطيب، أما للبدو فهى مكان للسطو على الناس. وقد جردوا من يسمى «پيريار ولى» من ملابسه وجعلوه مثل بهلوان تكية (كولشنجيلر) أى تكية المضحكين.

إلا أنه سهل طيب النسيم وشهرته فى القاهرة باسم «سهل سبيل علام»،

فبينما كان السلطان سليم فى طريقه إلى القاهرة دارت رحى الحرب السادسة بينه وبين السلطان طومانباى فى سهل سبيل علام هذا. وقد استشهد فى هذه المعركة سنان باشا الطواشى الصدر الأعظم، كما استشهد سبعة آلاف من جند العثمانيين وثلاثة وعشرون ألفا من جند المصريين.

والآن ما يسمونه مقابر الشهداء فى سبيل علام مزار يزوره عوام الناس وخواصهم وثمة غرف وقاعات عدة وسواق فى قلعة سبيل علام يسكنها من يتولى الحراسة عليها من أمراء الجند. وفى جانبها الشمالى حدائق ومروج. وبها كذلك جامع ذو قبة ومنارة تركية الطراز وسبيل ومصاطب. والجامع بنى بتمامه من الحجر ويصعد إليه بسلم من ست درجات.

وعلى يسرة محرابه تاريخ مكتوب بخط جلى هو:

أقام هذا الجامع الشريف
وهو مثل كتاب كارنامى كله حسنات
مير أكرم حسن بك
رفعه الله رافع الدرجات
وهذا التاريخ لهذا الجامع المنور
جامع الحسنات باهر النور

سنة ١٠٦٣

إنه جامع مزين يشتمل على ستة أعمدة ولكن لا حرم له.

ـ متنزه العادلية:

واد يقع بين القاهرة وسبيل علام، يبعد ساعتين عن القاهرة، كان فى الزمان الخالى مستقرا لقبائل «السعادلية»، أقام به طومانباى جوسقا كان يعقد فيه الديوان لإقامة العدل والميزان بين الناس، لذا سمى هذا الوادى بـ «العادلية».

إنها بقعة طيبة النسيم تنشرح بها الصدور. إذا ما زارها عليل وجد الشفاء.

سبق الحديث فى عدة مواضع عن المعارك التى دارت رحاها بين السلطان طومانباى والسلطان سليم والتى على أثرها قبض سليم على طومانباى وصلبه على باب زويلة فوضع بذلك حدا للفتن والاضطرابات فى مصر. ثم أنزل سليم طومانباى من المشنقة وصلى عليه صلاة الجنازة وأمر بدفنه فى ضريحه بالعادلية.

ولما كان طومانباى سلطانا من أهل التقوى والصلاح، حافظا لكلام الله لم يصادر السلطان سليم أوقافه بل زين ضريحه بالأنوار وكان يزوره فى كل مرة يأتى فيها إلى العادلية.

وطومانباى مدفون فى تابوت من الرخام تحت قبة عالية ترتفع إلى عنان السماء وعلى الجوانب الأربعة لتابوته الرخامى نقشت آية الكرسى وتاريخ هو:

(تحريرا فى سنة ستة وتسعمائة).

وبوفاة طومانباى دالت دولة الشراكسة. ولقد كان سلطانا صاحب خيرات له الكثير من المؤسسات الخيرية، فالخان والزاوية والتكية والمبرة والسبيلان والساقية والمطبخ والغرف والقاعات المتعددة الخاصة بالباشاوات والقصور والأبهاء التى تشبه القلاع وما حولها من دور للضيافة كلها من خيراته رحمة الله عليه.

وهناك العديد من المتنزهات فى مختلف أنحاء القاهرة، إلا أن ما ذكرته هو ما زرته وشاهدته بعينى، لا ما سمعت عنه واجترأت على وصفه والله المستعان. إلا أن ألطف وأجمل هذه المتنزهات كان تكية «أثر قدم النبى».

الفصل الخامس والخمسون
فى أغرب غرائب مصر وطلاسمها وعجائبها وحِرَفِ أهلها

سوف أتحدث عن لون بشرة شعب مصر، أم الدنيا، وحرفه بقدر وقوفى على حقيقة أمرها.

ومصر التى تحدثت عنها آنفا على وجه التفصيل هى «مصر القديمة» أى مدينة «الفسطاط» التى كانت عامرة فى الزمان الخالى. ومصر الحديثة ليست أحد أحيائها.

فقد أرخ علماء العالم بقولهم: إن حدود مصر تمتد من رشيد ودمياط والإسكندرية إلى إبريم وقلعة الصاى فى مسافة غاية فى عمرانها تقطع فى ثلاثة أشهر على ضفاف النيل حتى إن الرسائل كانت تسلم من يد إلى يد فتصل من رشيد إلى أسوان وأسنا والمنيا والصعيد العالى. فكانت مصر العتيقة مدينة مستبحرة العمران تتقارب قصورها العالية على ضفتى النيل بحيث يستطيع الديك أن ينتقل من سقف إلى سقف ويصل من مدينة بولاق ومصر العتيقة إلى مدينة «مقدونية» وهى موضع أثر قدم النبى ﷺ.

وكان أحد فروع نهر النيل يمتد من شمال مدينة القاهرة إلى عين شمس بمسيرة ست ساعات مستبحرة العمران على ضفتى النيل، كما أن أحد فروعه كان يبلغ مرحلتين من القاهرة حتى الفيوم وما بين ذلك حدائق وبساتين ولا يخلو موضع فيها من زرع. وهذا مما يجعله فى النظر أحسن وأجود الأقاليم، كما أنه أكثر الأقاليم خيرات وأكثرها قرى.

وفى جوف هذه الأراضى من أرض مصر كنوز عظيمة ودفائن جسيمة. يقول مؤرخ العالم الشيخ المقريزى: إنه لا يخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم.

وفى أيامنا تلك يعثر على أكثر من كنزين فى كل عام. وهذا ما يبين إلى أى حد بعيد كانت ضفة النيل معمورة.

وقد نزلت فى شأن مصر آيات قرآنية على الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول عز من قائل: ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦** ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٦]، وقد فسر المفسرون هذه الآية بقولهم أن المقصود منها أرض مصر ونهر النيل.

وقد دعا موسى ـ عليه السلام ـ على مصر وشعبها بسبب ظلم فرعون وسوء ما صنع فتبدلت من عمرانها بخراب ومن بساتينها بتراب. وفى ذلك يقول عز من قائل: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وعلاوة على خراب مصر بعد عهد فرعون يقول الحكماء: إن مصر وإن كانت قد تخربت سبع مرات فلا شك فى أنها عمرت كذلك سبع مرات.

أما محيى الدين بن عربى فيقول فى كتابه «الفتوحات المكية»:

«إن مصر بعد عام ١١٠٠ سوف تعمر إلى حد أن ذراعا من أرضها فى منطقة صحراوية أو منطقة تعلوها القمامة سوف يباع بألف دينار من ذهب، وسيأتى إليها «ابن كعب» من سلاطين آل عثمان فتطيب له مستقرا ومقاما ويتخذها حاضرة لملكه، وسيدور الفلك بما يحدث بها من أثر فيشيد شعبها المدن فى الصحراء حتى حدود مكة والمدينة ويجعلونها مروجا وحدائقا، وسيظهر بها أنهار كأن مياهها ماء الحياة فتصبح كل أكنافها رياضا وغابات وتظهر فيها الضوارى. وسيجرى بحر السويس من مدينة (بلبيس) ويصب فى البحر الأبيض، وسيفتح طريق بين غزة وقبرص تسير فيه القوافل، وسيجرى بعض الملوك ذوى الهمم ماء النيل إلى جبل الجوشى فى مصر، وسيتفجر الماء الحار فى ثلاث آبار فى القاهرة».

هذا ما ذكره ابن عربى فى كتابه «اللهم يسر يا ميسر».

ـ عجيبة:

والواقع أن ذوى السن من أهل القاهرة يقولون: إننا منذ سبعين عاما لم نكن نعرف فى مصر الحدائق ولم نشاهد إلا حديقة قايتباى فى «قره ميدان» وأشجار النبق والجميز هنا وهناك خارج القاهرة. ولم نعرف غيرهما فاكهة، والآن ينمو فى مصر عشرون نوعا منها ويهطل المطر فى العام وكأن قطراته الجوز وقد لا يهطل قط.

ولم نعرف فى مصر أحد يلبس الفرو فكان لبسه عيبا إلا للبكوات. ولم يكن يحل موسم الشتاء. أما الآن فيشتد برد الشتاء ويغزر المطر فصرنا نرتدى الفرو ليقينا شدة البرد.

وفى عهد كتخدا إبراهيم باشا اتفق أن نزل الثلج فى الصباح على مجرى العادة فجعل الأرض بيضاء وفى تلك الأوقات كذلك كان البَرَد ينزل وكانت الحبة منه تزن أكثر من ثلاثين درهما وعندما كان أبناء العرب يرون الثلج يسأل بعضهم البعض قائلا: إش هذا؟

وكان بعضهم يقول: «إن القطن نزل من السماء»، أما الترك فكانوا يحمدون الله ويأكلونه. وعندما كان العرب يمسكون الثلج بأيديهم كان يحرقها كأنه النار فكانوا يقولون: «هذا مثل القطن ولكن ناره قوية».

وعندما كانوا يشاهدون البَرَد يقولون: «وقع من السماء بيض الدجاج».

وحمدا لله فقد اعتدل جو مصر يوما بعد يوم ومضت شدة الحر وهطل غيث الرحمة مما غمر مصر بالخير فما وجد مثلها على وجه الأرض. وأصبحت «أم الدنيا» كأنها العروس فى زينتها، وبدأ المفتونون بها الاحتيال لصيدها.

أصل تسمية مصر «بأم الدنيا»

تضم مصر ما فى أنحاء الدنيا من جميع المخلوقات والملل الاثنتين والسبعين، واللغات المائة والأربعين، والله يبسط الرزق لهذا القدر من المخلوقات كرامة لمصر ولذلك تسمى بأم الدنيا.

وإذا ما ذهبت إلى أى مدينة فى مصر ونظرت فيها نظرة تأمل فلن تجد أحدًا يتجاوز الآخر من شدة الزحام، وفى الطريق العام لا يمكن أن تسمع إلا عبارات مثل: «ظهرك وجنبك، ووِشّك ويمينك، ويسارك» ولا يمكنك المرور بسهولة من داخل الأسواق من شدة ازدحامها بالخيول والبغال والجمال والحمير والسائقين.

وأهل مصر جميعا من الفلاحين الكادحين، لذا يعملون مثل «فرهاد» مما يعود بالنفع على مصر. ويسمونها أم الدنيا لأنها تطعم هذه الدواب والمخلوقات كافة وتطعم الدنيا بأسرها وكأنها أمها وتصدر كل سلعها إلى جميع أرجاء الدنيا.

وإذا ما قحطت الدنيا بأسرها والعياذ بالله فإن مصر تطعمها كأنها أم.

أما إذا قحطت مصر ـ حفظها الله ـ فإن جميع بلدان الدنيا تعجز عن إطعامها، ففى مصر أكثر مما فى الدنيا بأسرها من دواب ومخلوقات، كما أن أهلها كذلك لا يقعون تحت حصر. ومن ظلم وعسف جندها أصبح أهلها كقوم فرعون، ولأنهم يالغوا فى إظهار اسم «يا قهار» فقد حقر أهلها وذلوا واستحوذ جند السلطان على كل خيراتها وبقى الفلاح ذليلاً.

وفى شأن مصر وشعبها قال «كعب الأحبار» ـ رضى الله عنه ـ مصراعا على لسان مصر هو: «خلق الله الغنى بمصر فقال الذل أنا معك».

والواقع أن الضعاف والفقراء والأذلاء من أهل مصر كثرة كاثرة، حتى إنه فى عام (   )[1] على عهد عبد الرحمن باشا على الرغم من كثرة الغلال لسوء تصرف الحكومة احتكرها الأغنياء فقحطت مصر قحطا عظيما لدرجة أن بعض الفقراء أكلوا الميتة، والبعض كان له قميص واحد يشترك فى لبسه مع زوجته، فكانت تلبسه نهارًا ويلبسه هو ليلاً.

وكانوا يعيشون على عشرين حبة من الفول فى اليوم. إلى هذا الحد كان الفقر وكانت كثرة الفقراء. لأنه عندما تحصل الخزائن من الرعايا والبرايا وهى إحدى وثمانون خزانة كان مئات الآلاف من الناس يفلسون ويخلو وفاضهم. وهذه الخزائن المذكورة كانت تحصل بعد خمسة وسبعين يومًا من الحصاد. وباستثناء الماعز والأوز والحطب كانت ضريبة الجمرك تحصل على كل ما يطير فى السماء ومايدب على الأرض وما يسبح فى الماء وكل الأشياء «مقاطعة» حتى إن الفقراء المعدمين ممن هم فى أمس الحاجة إلى الفلس الأحمر يؤدون الضرائب للحكومة وهم مقاطعة.

ـ عجيبة أخرى:

ومن عجب أن بعض الفلاحين كانوا يسوقون أسرابا من الأوز فى شوارع القاهرة لبيعها وفى هذا الزحام كان الناس يدهمون بأقدامهم أسراب الأوز هذه فيجعلونها وكأنها رمال، ولكن لم تكن تفرض عليها ضريبة، وما عدا ذلك كانت تفرض عليه الضرائب والعُشر السلطانى.

(١) بياض فى الأصل.

ـ إحدى العجائب المضحكة ممن تحصل منهم الضرائب:

وكثير من الفلاحين يقيمون لهم أكواخا على ضفة الخلجان ويسكنونها، وإذا ما أراد أحد أن يشترى أوزة أو بطة كان يمضى إلى سكان هذه الأكواخ وإذا ما قالوا لأحدهم يا حاج أعطنا أوزة أو بطة. كان العربى يلبس القرعة التى بجانبه على رأسه ويمسك فى يده أربعين باعا من خيط الكتان ويقفز فى الماء ويبقى من يطلب البطة على الشاطئ ويسبح العربى فى الماء ويقترب من الأوز والبط ويندس بينهم ويربط أقدامهم بالخيط الكتانى الذى فى يده فلا تشعر به هذه الطيور لأن ما يطفو بجانبها قرعة والعربى يراقب الطيور من ثقب القرعة ويقيد أرجلها ثم يخرج إلى الشاطئ ويسلم طرف الخيط إلى من يطلب الأوزة فيقبض هذا الشخص على الخيط بيده ولا يجعله ينفلت منه ويجذبه رويدا رويدا حتى تقترب الطيور من الشاطئ، وعندئذ تدرك الطيور المسكينة ما وقع لها، فترفرف بأجنحتها. وتأخذ منها ما تريد من الطيور السمينة وتدفع پاره واحدة ثمنا لكل أوزة منها وتطلق النحيل منها.

وهذا العربى المذكور يلتزم بهذه الطيور ويؤدى ما عليه من ضرائب، وإذا ما صاد هذه الطيور غيره غرم. وكل ما يهرب من هذه الطيور المطلوقة يعود حتما إلى هؤلاء الفلاحين وكأنهم سحروا من قبل هؤلاء الفلاحين. وكم لهم من حيل وألاعيب شيطانية.

ـ من عجائب الغرائب:

وعجيبة أخرى من عجائب الزمان هى أنهم يدفنون عشرة آلاف بيضة فى روث الخيل وبعد عشرين يوما يخرج منها عشرة آلاف فرخ تبدأ فى السير فيحار لذلك عقل الإنسان وهذا أمر غريب عجيب. إلا أن هذا العمل لا يقتدر على القيام به كل أحد، فهناك قرية تسمى «برمة» وهى إحدى قرى سليمان بك أحد قادة الجند فى مصر فى قضاء «أبيار» بها من توارثوا هذه الحرفة أبا عن جد وتفريخ الأفراخ فى روث الخيل عمل اختصوا به دون غيرهم.

ومن يريد أن يفرخ الأفراخ بهذه الطريقة اصطحب منهم رجلاً يذهب معه حيثما أراد وهناك يشرع فى بناء فرن خاص بتفريخ البـيض، وهذا الفرن فرن كبير يشبه فرن الخبز، تعلـوه قبة وأسفله فـراغ، وداخله مقسم إلـى خانات، تفرش الواحـدة منها بطبـقة من الروث الناعم غير المحترق بـسمك إصبعين ثم يضع فى كل خانة خمسـين بيضة وينظر فى كل بيضة خلال نـور الشمس، فإن كانت البيضة طازجة وضـعها فى الفرن، أما إذا كانت فاسدة استبعـدها، إذ إنها تنفجر من حرارة الروث وتفسد بقـية البيض فلا تخرج منـه أفراخ. لذا يضـع البيـض الطازج وهو يـعرف أى بيضـة تفرخ ديـكًا وأيها تـفرخ دجاجة، ثم يغطى هذا البيض كذلك بطبقـة من الروث بسمك إصبعين ويضرم تحته نارا هادئة خفيفة تكفى لحرق الروث ولا تحرق الحطب وتدوم الحال على ذلك ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع يتجرد الـرجل من ثيابه ويدخل الفرن وهو يقوق كالدجـاجة ويقلب البيض بأكمـله وفى يده قفاز مـن ريش الدجاج وبه يقـلب الخمسين بـيضة التى فى كـل خانة ويضع بينهما ريش الدجاج ويحرق أنواعا من البخور يبخر بها البيض، ثم يخرج ويغلق فوهة الفرن.

ولم يطلع أحد على هـذا العمل، إلا أننى بقيت فى هذه البلدة اثـنين وعشرين يوما واطلعت على ذلك بعينى رأسى. وفى خلال العـشرين يوما دخل الرجل القائم بتفريخ البيض الفرن ثلاث مرات وقلب جميع البيض.

وقبـل أن تتم الأيام الـعشرون بـدأت الأفراخ فى الخروج مـن البيــض كأنها الجـند وأخـذت تنبـش الـروث الموجود داخل الفرن وفى التو أخرجها الرجل من الفرن، إذ إن فـى الروث بيـض لم يفرخ بعد ولكيلا يـفسدونه أخرج الأفراخ التى خرجت لتوها من البيض.

وتسير الدجـاجات التى ـ احتضنت بـيضها حتى أفرخ، وخرج مـنه صغارها ـ وراء الأفراخ التى خرجت من البيض بالطريقة المذكورة أعلاه.

ولحكمة لا يعلـمها إلا الله فإن لحم هذا الدجاج الذى خرج مـن الروث ليس له من لذة الطعم ما للذة لحم الدجاج الذى حضن بيـضه الدجاج. وهى ثقيلة اللحم والشحم

والحدأة عدو لدود للأفراخ ولهذا يقوم الصبيان على حراستها وإلا اختطفتها الحدأة جميعًا فى يوم واحد. وليس فى مصر طائر فى سمائها يؤذى إلا الحدأة.

- بيع الدجاج بالكيلة فى مصر:

وتعبأ هذه الأفراخ فى الكيلة وتباع الكيلة منها بخمس أو عشر پارات. ولله الحمد فقد شاهدت الدجاج وهو يباع ويشترى بالكيلة فى مصر. والكثرة الكاثرة من الدجاج الذى يباع بالكلية حكومى، حيث يعهد (الكلارجى باشى) أى القائم على مخازن الطعام الخاصة بقصر الباشا - على أحد الأغوات بتفريخ عدة آلاف من الأفراخ ويذبح منها خمسمائة دجاجة يوميًا فى مطبخ الباشا لتقديمها إلى أتباعه وحاشيته.

ومن لا يرى هذا القدر من الأفراخ التى أفرخت لا يعرف إلى أى حد كانت براعة هؤلاء الفلاحين فى مصر، وهذا فى الواقع ما لا يدركه عقل. يا له من سر عجيب.

مما ينهض دليلا قاطعا على أن الله يخلق ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته.

- أمارة على إعجاز الخلق:

فى المنطقة المسماه «بسبيل علام» أنواع من الحجارة الملونة، ولحجر سبيل علام ذائع الشهرة فى مدينة القاهرة، وفى تلك الصحراء أنواع من أحجار الياقوت والماس التى يصل ثمن الحجر منها مائة قرش وخمسمائة قرش. كما تكثر بها الأحجار التى تسمى بعين السمك وعين الهر والتى يباع الواحد منها بخمسة أو عشرة قروش.

وفى بعض الأوقات التى تشتد فيها الرياح فتتشتت الرمال فتتكشف عما لا يحصى كثرة من هذه الأحجار.

ويقوم الحكاكون بحك هذه الأحجار الخام ويصقلونها ويشكلونها فتباع بباهظ الأثمان بعد أن كانت بلا قيمة. ويعثر على أحجار أثمن من الماس ومن ياقوت «بدخشان»(١).

ومؤرخو مصر وعلماءها يزعمون أن «شداد بن عاد» بانى إرم ذات العماد هو مشيد سبيل علام، وهذا ما اجتمعت عليه كلمتهم.

والواقع أنه فى سبيل علام هذه أسس لأبنية عظيمة هنا وهناك. وعندما خُلع إبراهيم

(١) بدخشان: ويقال بذخشان الآن فى أفغانستان، وهى بلاد خصبية مشهورة منذ القدم بأحجارها الكريمة لا سيما معدن الياقوت واللازورد. انظر: بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترنج ص٤٨٠ وما قبلها.

باشا مكث فى صحراء سبيل علام سبعة وسبعين يومًا. وكان خدامه يجمعون الأحجار من سبيل علام لكى يلعبوا لعبة «المنقلة»، وكان بعضهم يقدم ما يعثر عليه من أحجار إلى الحكاكين ليصنعوا منها فصوصا لخواتمهم، حتى أصبح جميع الخدام - يلبسون الخاتم فى أصابعهم.

إلى هذا الحد كانت توجد أحجار كريمة ثمينة فى صحراء سبيل علام.

- تأثير أحد الأحجار العجيبة:

وفى سبيل علام هذه حجر ثمين أصفر اللون، يأتى أطباء الفرنجة على الدوام فى هذا القيظ للبحث عنه. ومن خواص هذا الحجر أنه:

إذا أمسك أحد هذا الحجر بكلتا يديه شعر بالغثيان وقاء ما فى بطنه وطالما لم يطرح هذا الحجر من يديه لا ينقطع عنه الشعور بالغثيان. إلا أنه يخلصه من جميع ما فى جوفه من أخلاط مثل الصفراء والسوداء ولا يبقى فى معدته شىء وبذلك تنظف.

- من خواص أحد هذه الأحجار:

ثمة حجر ملون مثل الخرز يوجد فى المناطق الفضاء من سبيل علام، وهذا الحجر إذا ما ربطته المرأة فى خصرها وقت الجماع لم تحمل من أى شخص، ولذا يكثر هذا الحجر لدى بغايا «باب اللوق» فى القاهرة. حتى إن والدتى حينما ولدتنى تمزق فرجها بسبب كبر رأسى وخروج هذا الرأس بصعوبة، لذا كانت تستعمل هذا الحجر الموجود فى سبيل علام خوفا من أن تحمل ثانية فكانت تعلقه فى خصرها أثناء الجماع مع والدى. وهذا الحجر غير المبارك كان لدى والدى.

أرض مصر التى تثير العبرة

كان البدو فى مصر يأكلون الفئران وهذه حقيقة. ولكن أى نوع من الفئران كانوا يأكلون سنوضح:

فى مصر نوع من الفئران يسمى «فأرة الغيط». إنها مخلوق منظره يثير الضحك، تخرج هذه الفئران من جحورها عندما يغمر فيضان النيل أرض مصر كلها وعندئذ تخرج جميع النساء والغلمان إلى الصحارى لصيد الفئران على الشواطئ التى غمرها ماء

الفيضان ويملئون بها الـغرائر ويذبحونها فى منازلهم ويتناولون لحمـها ويبيعون جلودها، وهى غاية فى سمنها. وذيلها قصير ونوع منها ذيله طويل، وشفتها العلوية مشقوقة مثل شفة الأرنب. إنها فأرة غبراء، زنة الواحدة منها مائة درهم، ومنها ما يزن رطلاً.

وهذا الحيوان يتكاثر فى الأرض بأمر الله ولا يربيه أحد. حتى إنه يكوم أرضه أكواما أكواما، فيعرف الصيادون من ذلك أن ثمة فأر بـها فيحفرون جحره ويخرجون ما به من فئران ويأكلونها.

ولحكمة لا يـعلمها إلا اللـه فإن بعض هذه الفئـران فئران إلى وسطهـم أما ما تحت وسطهم لا يـفترق عن التراب، بـل هو تراب مخلوط بالـدم. وهناك فئران علـى هيئة تراب تنفخ فيها الـروح فيما بعد وتصبح لحما، أما إذا أخرجت قـبل ذلك من جحورها وتعرضت للهواء نفقت، إذ إنها لم تكتمل نموا.

سألت عنها العرب، فقالوا: إنها تتولد من الماء فى أربعين يوما.

وسألت قائلاً: هـل تتزاوج هذه الفئران؟ فقـالوا: نعم إنها تتزاوج، إلا أنـها لا تلد وذلك بأمر الله.

ثم سألتهـم عن نفعها، فقالوا: إن لحمـها سريع الهضم ومن أكلـه سمن، وهو جد مقو للباه.

وتلك حكمة عجيـبة كذلك، بيد أن طائفة المعتزلة من ضعافـى العقول ينكرون هذا من خلق الله، ولكنى رأيت ذلك بعينى رأسى وقد دفعت خمس پارات ثم عشر للعربان الذين يخرجون هـذه الفئران من جحورها، فرأيت أن نصفـها ذو روح والنصف الآخر من تراب وبعضها ممـا نصفها دم ونصفها تراب ليس لها روح. وهـذا من عجيب صنع الله. أوليس هـذا عبرة لمن يعتبر من بـنى الإنسان؟ ، وحسبنا قولـه عز من قائل ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً...﴾ [المؤمنون: ١٤].

دليلا قاطعا على ذلك. ومن لم يسلم بآراء ومعتقدات المعتزلة ويقر آراء أهل الشريعة يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ويقصر عن القول.

ذكر آصرة القربى بين الإنسان والنخل وشجر الجوز الهندى الأسود

فى كل عام فى قرى مصر يضعون سعفة من نخلة ذكر فى قلب النخلة الأنثى وذلك لإتمام عملية التلقيح بين النخلتين. وفى هذا العام تثمر النخلة الأنثى أكثر من خمسة عشر عرجونا[1].

وإذا لم يصنعوا ذلك لا تثمر النخلة الأنثى.

والنخلة الأنثى تحيض مرة فى الشهر وهى كالإنسان لها قلب فإذا ما قطعته جفت، أما إذا قطعت سعفها نمى غيره وازدادت النخلة طولاً.

ويسمون قلب النخلة «قلب البلح» وهو شيء لذيذ الطعم مقو للباه، ويستعمله الرجال فى مصر الذين عجزوا عن الباه، إنه فى لون الجبن وطعم اللبن، وتوجد هذه المادة بين ألياف السعف فى رأس النخلة.

ويقولون إن ثمة قربى بين الإنسان وهذه النخلة، فعندما خلق البارى آدم عليه السلام من قبضة من تراب خلق مما تبقى من التراب النخل وشجر الجوز الأسود الهندى وشجر الوقواق، وما تبقى من التراب خلق منه «يبروح الصنم» أى عبد السلام وهو عشب له شعر ولحية كالإنسان، ومنه الذكر والأنثى، فهو عشب له صفات بنى الإنسان. ويقولون إن هذا العشب خلق كذلك من التراب، «يفعل الله ما يشاء».

ـ أكلة الثعابين الحية:

ومن عجب أن فى مصر قوما يأكلون الثعابين وهى حية، وإذا ما ظهر ثعبان فى منزل أحد جاءوا بأحد من أكلة الثعابين هؤلاء ونفخ فى مزماره، فتتجمع حوله جميع الثعابين فيصارعها ويقبض عليها كلها، ويضعها فى مخلاته ويمضى بها، وبذلك تكون النجاة من هذه الثعابين.

ويقترب هؤلاء من أحد الأشخاص ودون أن يدرى هذا الشخص يخرجون من جيبه وحصنه العقارب والأفاعى وقد يخرجون من جنب أحد الأشخاص التفاح والخوخ والعنب فى غير موسم هذه الفاكهة. وفى بعض الأحايين يخرجون من حضن بعض

(١) العُرْجُون: العِذْق. وهو من النخلة كالعنقود من العنب. والجمع عراجين. المعجم الوجيز ص٤١٢.

الناس نـارا أو ماء، كما يطـلبون علـى أحد أن يظهر لـهم عمامتـه وعندما يـرفع هذا الشخـص العمامة عن رأسـه يتدفق الماء مـن عمامته أو يـخرج منها عقـرب أو أفعى، فيطرح الرجل عمامته أرضا ويولى مدبرا حاسر الرأس بلا عمامة.

وكان إبراهيم باشا رحمه الله تروق له مثل هذه الدعابات، إلا أنها فى الحقيقة مهارة تصل إلى درجة الإعجاز.

ـ جماع فلاحى مصر للتماسيح:

سلـف الحديث عـن جماع فـلاحى مصـر فى أسوان للـتماسـيح فى حـديثـا عن المخلوقات التى تعيش فى النيل.

ـ شجرة الجميز العجيبة:

شجرة الجميز فى مصر شجرة ضخمة لا وجود لشجرة أضخم منها وهى تشبه شجرة «الدلب» فى بلاد الترك. وتمتاز شجرة الجميز بضخامتـها وظلها الظليل ونسيمه العليل. وأثمارها وطلاسمها على النحو التالى:

إذا ما ظهـرت هذه الشجرة فى بـستان أحد، اتفق صـاحب الحديقة هذا مـع بعض الأشخاص ويحمل فأسا ويدخل حديقته ويتسلق شجرة الجميز ويضربها مئات الضربات بفأسـه وإذا ما تجـرحـت الشجـرة يأتـى الأشخـاص الذين اتفق معهم، ويقولون له لماذا أقدمت على قـطع شجرة حية غضة مثل هـذه. فيقول الرجل: إنها ملكـى وإن أقطعها وهى بداخـل حديقتـى وهى لا تؤتى أكلا والمـرج لا ينبت فى ظـلها ويجـب علىّ أن أحرقها.

فيقـول الرجال تحت الشـجرة: أتقطع شـجرة فى هذا الجمـال، ما أجمل غصـونها وأوراقها، ويبسطـون إليه الرجاء ألا يقطعها حـتى تؤتى ثمارها وعندئذ يـجرى ما يشبه الدم من الثقوب التى أوجدها الرجل فيها بفأسه، فيكرر الرجال الرجاء إليه ويقسمون له أنهم يـضمنون أن تـثمر هذه الـشجرة سبـع مرات فى العـام ويأخذون الفـأس من يده ويطرحونه جانبًا ويحـيطون جميعا بالشجرة ويحتضنوها ويـحضر أناس آخرون ليشهدوا على ذلك. ومن بـعد تخرج هذه الشجرة الثمـار من تلك الثقوب التى أحـدثها الفأس فيها سبع مرات أو أكثر فى العام.

وثمار الجميز تشبه التين، ولكنها تختلف عنه بعدم وجود جلد داخلها فداخلها فارغ، وتزن الثمرة منه عشرين أو ثلاثين درهما. إنه فاكهة لذيذة الطعم، سهلة الهضم، ومنها الأحمر والأصفر والأبيض.

ومن عجب أن أغلب الثمار تنمو على غصون رقاق، ولكن ثمار الجميز تنمو فى جذع فى غلظ ثلاثة رجال ضخام. والجميز يثمر بهذه الطريقة بحيث لا يخلو موضع فى جذعه من الثمار. إنها شجرة موفورة المحصول.

ـ فوائد ثمار الجميز:

وفى الطب يعد الجميز ذو طبيعة معتدلة، فإذا ما تناولت ثلاث ثمرات من ثماره وشربت عليها الماء قوى نظرك. وإذا ما أصيب أحد بالإسهال وعصر أوراقه الخضر وشرب عصيرها، زال عنه الإسهال، وكم لقشور جذعها الخضر من خواص، والأطباء يعرفون من خواصه الطبيعية أكثر مما ذكرنا.

إنها شجرة تستحق المشاهدة.

خاصية أرض مصر

فى مصر يدفنون قرن الماعز فى الأرض ويروونه وبعد عدة أيام تنبت منها غصون خضر.

صناعة النشادر

تصنع النُّشَادر فى مصر من فضلات الإنسان، وله مصانع عجيبة سبق وصفها فيما تقدم.

عملية إنضاج العنب

عندما يكون العنب حُصْرُمًا يشعل فلاحو مصر الكبريت ويبخرون به هذا الحُصْرُم فينضج قبل أوانه بشهر. وهذه حيلة شيطانية عجيبة.

عملية إنضاج الشمام والبطيخ

يسمى الفلاحون زبل الحمام «برأس المال» وكانوا يـضعونه فى جذور البطيخ والشمام فتنضج قبل الأوان بشهر وتمتلء ماء.

ـ ميزات أحد الحيوانات العجيبة ـ

ثمة حيوان صغير يـشبه ابن عرس يعيش فى مناطق زراعة قصـب السكر فى مصر، منظره يبعث على الضحك. حتى إنه يربى فى بعض المنازل، وهو حيوان أليف يكثر فى حدائق الفيوم. والمكـان الذى يعيش فيه هذا الحيوان لا تقربـه الأفعى ولا الحية وتهرب من رائحتـه. فهذه الرائحة التـى تصدر عن هذا الحيـوان تهلك الأفاعى، إلا أنهـا تفيد الإنسان. يا لها من حكمة عجيبة.

ذكر معدن الذهب

على بعد ساعتين مـن القاهرة وفى الجهة القبلية لها خلف جـبل الجيوشى تقع جبال عين موسى والتـى تـسمى «بجبل بجاميـم»، وبها تكوينات جيرية حـمراء اللون وإذا ما أحرق هذا الخام استخرج منه الذهب. إلا أنه لندرة الحـطب فإن نفقات عملية استخراج الذهب تكون باهظة فلا يتحصل للقائمين بهذا العمل أى ربح.

وفى خلافة الحاكم بأمر الله استخرج الذهب طيلة سبع سنين، ثم سدت هذه المناجم وآثارها لازالت موجودة إلى يومنا هذا.

وتوجد مناجم الفضة فى جبل جالوت غـرب القاهرة، وتوجد كذلك مناجم للذهب فى شرق مصر فـى جبل المقطم المعروف بـجبل الجوشى. وتوجد منـاجم «الزمرد» فى ولاية الصعيد، ويوجـد معدن النطرون فى أرض البحيرة، ويوجـد ملح البارود فى كل قراها، كما يستخرج الملح من جميع بحيراتها.

مدينة عين شمس

كانت مدينة عظيمة فى شمال القاهرة بالـقرب من المطرية، تبعد ساعتين عن القاهرة وهى الآن منـطقةخربة، وكانـت هذه المدينة حاضـرة البلاد فى الزمان الخـالى ولا تزال بعض آثار أبنيتـها العظيمة ماثلة للعيـان إلى يومنا هذا. وفيها «مسلة» سـامقة كالتى فى «آت ميدانى» أى ميدان الفروسية فى اسطنبـول. يبلغ طول هذه المسلة مائة ذراع، وعلى

جوانبها الأربعة نقوش باللغة القبطية، وفى ذروتها صورة فارس يمتطى جوادًا وعلى رأسه العمامة المجوزة وفى ذلك إشارة إلى مقدم السلطان سليم إلى مصر.

وعلى الجوانب الأربعة لهذه المسلة نقوش وزخارف كنظيرتها الموجودة فى ميدان الفروسية باسطنبول.

وفى مدينة عين شمس هذه كثير من الطلاسم المعقدة والتى لا وجود لها فى أى بلد آخر، ولم تفك رموز هذه الطلاسم إلى يومنا هذا، وكل من بذلوا الجهد الجهيد لفك رموزها والوقوف على أسرارها دفنوا فيها.

وفى مجمل حديث مؤرخى مصر عن مدينة عين شمس امتدحوا قصرا كان بها فقالوا:

إن لهذا القصر مائة وثمانون نافذة وكانت الشمس إذا ما دخلته من إحدى نوافذه تجعل داخله منيرا ولذلك سموه «قصر عين شمس».

وفى رواية أخرى أن ثمة ملكة كانت تسمى «عين شمس» هى التى أقامت هذا القصر.

وعلى هذا القصر كانت تكمل الشمس مائة وثمانين منزلاً وعندما تأتى إلى منزلها الأول تعود. وآثار أبنية هذا القصر ظاهرة إلى الآن، وكان بها كذلك قلعة عظيمة لا تزال أسس جدرانها ماثلة إلى يومنا هذا.

جبال الأهرام وهى من عجائب الغرائب

تقع جبال الأهرام فى قصبة الجيزة على بعد ساعتين من الساحل الغربى للنيل.

وهى ثلاثة جبال، لا وجود لبناء أقدم منها على وجه الأرض، ولا وجود لما هو أعلى منها فكأنها «جبال قاف».

إنها جبال غاية فى عظم أبنيتها، وكل هرم منها صنم، ويسمى الهرم الأول «جبل بلبهث»، ويسمى الأوسط «جبل مهلوية»، أما الأخير فيسمى «بجبل أبى الهول» وكم من آلاف الروايات والأقوال وردت فى شأن هذه الجبال التى هى من صنع بنى الإنسان، فبعض المؤرخين يذهب إلى أن مشيدها هو «عاد بن شداد»، والبعض الآخر يذهب إلى أن الملك «سوريد» هو الذى أقامها بإيعاز من الكهنة لتكون مقبرة له. وبعد الانتهاء من

بناء هذه الأهرام الثلاثة ملأها بكنوزه وخزائنه، كما نقل إليها جميع كتب تعاليم سيدنا إدريس، وجميع الأسلحة ووكل بها إلى بعض من يصنعون الطلاسم، وغطاها بالحرير، كما شيد كذلك مدينة عظيمة على شاطئ النيل ليسكنها سدنة هذه الأهرام.

وفى فصل الربيع من كل عام يأتى الناس من كل فج عميق ويطوفون حول الأهرام كطواف المسلمين حول الكعبة.

أما ابن جلال فيقول: إن هذه الأهرام كانت تسمى فى اللغة القبطية «برابى» لأن أول من بناها هو «برابى بن درمشيل بن مخويل بن خنوخ بن قاين» لذلك سميت باسمه.

ومن الناس من يقول: إن ثمة ملكة كانت تسمى «دلوكه» كانت تحكم قبل فرعون وهى التى بنت الأهرام، ولأن هذه الملكة كانت من الفراعنة سميت هذه الأهرام «جبال فرعون»، ومع مرور الأزمان جاء ملوك من نسل هذه الملكة رمموا هذه الأهرام باعتبارها أبنية شيدتها جدتهم. ونفهم من ذلك أنه ربما تكون هذه الأهرام من بناء هذه الملكة المسماة «دلوكة».

والبعض يقول إنها من بناء «تدوره جادو» ودفن كهنة أشمون وأتريب وصاى مع تواريخهم داخل هذه الأهرام.

أما على ضوء ما ورد فى تاريخ «الشهابى» فإن أول من بنى هذه الأهرام هو الملك سوريد بن شهلوق بن شرباق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال.

وثمة باب مطل على الناحية الشمالية للهرم الواقع فى الجهة الشمالية وبداخل هذا الباب وعلى الأحجار فى الناحية اليمنى نقوش باللغة العبرية جاء فيها:

(أنا بانى الأهرام وقد أتممت بناءها فى ستة أعوام، أيستطيع من يجيئون من بعدى هدمها فى ستمائة عام والهدم أيسر من البناء. وقد غطيتها بالديباج، أيستطيع الملوك من بعدى أن يكسوها بالحصير).

وعندما هبط الخليفة المأمون مصر قادمًا من بغداد عقد عزمه على أن يكشف عن كنز الأهرام وبذل الهمة طيلة سبعة أشهر، فكوم حولها الحطب وأضرم فيه النار وسكب عليها الخل وضربها بأحجار المنجنيق الضخمة فهدم قدر عشرين ذراعا منها فعثر على جرة مرصعة بالزمرد بها ألف دينار من ذهب، وكل دينار يزن أوقية، كما عثر على حجر يضم نقوشا جاء فيها:

«يا من تتوق نفسك إلى فتح هذا القبر للكشف عما به من دفائن، مهما بذلت من جهد جهيد وأنفقت من مالك الكثير لتحصل على المال الجزيل ومهما ازددت طمعًا فسوف ترحل عن تلك الدنيا الفانية».

وحينما شاهد جند المأمون هذا الكلام (أصيبوا بخيبة الأمل)، إذ إنهم بعد أن كابدوا شتى صنوف العناء طيلة سبعة أشهر فى هذه الصحراء المترامية الأطراف وأنفقوا من المال ما أنفقوا لم يعثروا إلا على ألف دينار من ذهب.

سبق أن أشرنا إلى باب فى الناحية الشمالية بداخله حجر كتب عليه:

«أيستطيع ملوك الأجيال التى تأتى من بعدى أن يكسوا الأهرام بالحصير» فخالها المأمون رموزا وأمر بها فكسوا نصفها بالحصير المصرى وعندئذ عصفت ريح صرصر عاتية أذرت برجاله وحصيرهم فى الهواء، فوقع الجزع والهلع فى القلوب.

ونزولا على سداد رأى «حسين بن سهيل» وزير المأمون نفضوا أيديهم من هذا العمل ومضوا إلى حال سبيلهم.

وإلى الآن تبدو المواضع التى انهدمت فى عهد الخليفة المأمون. وعندما شرع يوسف صلاح الدين يجدد بناء قلعة القاهرة نزع الأحجار من جبال الأهرام وشيد بها قلعة مصر الداخلية والقلعة القبلية. وجاء من الحجارة التى نزعها من جبال الأهرام ومواضع الحجارة التى انتزعها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا.

ذكرت أن بانى الأهرام هو الملك «سوريد» وهو القائل «لقد بنيت هذه الأهرام فى ستة أعوام فهل يستطيع من يجىء بعدى من الملوك هدمها فى ستمائة عام» وإنى أفند زعمه فأقول إننى لو لغمت هذه الأهرام بمائة قنطار من البارود الأسود وستة صناديق من

لغم قلعة قباندية فسوف تنسفها جميعا وتجعلها رأسا على عقب وفى تلك الساعة لن يبقى لها من قرار على وجه الأرض.

لكن فى الواقع إننى ما رأيت على وجه الأرض أبنية عظيمة مثلها، ولله الحمد إنه فى عهد إبراهيم باشا بينما كنا نرعى خيولنا بجوار الأهرام لبثنا أكثر من خمسة أيام للراحة والاستحمام ثم مضينا إلى هناك عدة مرات للفرجة فبلغ منى العجب مبلغه وفى إحدى المرات اتفق أن كان معنا خمسة وأربعون رجلا من رجال الأمير أخور (أى بك الأصطبل) وبهلول أغا وغيرهم وأحضرنا معنا المشاعل والقناديل وقمنا بإزالة ما على الباب الشرقى للهرم الأكبر من رمال تراكمت وعندما دخلناه متعوذين باسم الله نظرت فى البوصلة والساعة ومشينا فى داخله سبعة أقدام ناحية الجنوب فى ممر واسع يعلوه عقود حجرية ترتفع عشرين ذراعا وكان اتساع الممر عشرة أذرع.

وعلى جانبيه عدة كهوف وقاعات وقباب من الحجر مزدانة بنقوش ذهبية وكأنها خرجت لتوها من يد «بهزاد»، وكانت كل حجرة تغص بعظام وجماجم الآدميين وكل جمجمة منها تتسع لمائة كيلة من القمح، وكم كان هناك من جماجم مختلفة الأحجام بين كبيرة وصغيرة لا يعلم عددها إلى الله.

وثمة عظمة رفيعة مكسوة بالجلد وهى بمقياس شبرى سبعون شبرا وغير ذلك عظام كثيرة وفى أحد هذه الكهوف العظيمة دفنت كثير من الجثث المحنطة وعدة مئات من الطيور المحنطة بطول سبعين قدما أو أكثر تنبعث منها رائحة كريهة قاتلة كرائحة زبل الغراب وجميعها معلقة من مناقيرها على الصخور. واصطدمت قناديل بعض الرجال بها فاحترقت أجنحتها وريشها فأصاب بعضها وجوهنا، وفى تلك اللحظة تقهقر بعض رفاقنا بقناديلهم خوفا من أن ينالهم أذى، ولكنى بقيت مع الخمسة والثلاثين رجلاً وسِرنا ساعة بكاملها ناحية القبلى بالاستعانة بالبوصلة فوصلنا إلى قاعات ـ غاية فى الفخامة والزخرف، وفى كل منها جثث محنطة لآدميين منها الراقد ومنها الجالس وأطول هذه الجثث لأناس من رجال يوم القيامة وإلى جانب هذه الجثث حصير بال وليف النخيل المغطى بالرمال وتقدمنا من ذلك الموضع ما يقرب من خمسين قدما فى

ارتفاع وانخفاض فوجدنا حوضا كبيرا ممتلئًا بالماء الصافى وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحوض جلست طيور مخيفة تخلع القلوب ببشاعتها تشبه العقبان والأوز وعندما رأتنا بسطت أجنحتها فسمعنا ما يشبه الرعد وكأنما سالت أدمغتنا من آذاننا وعرت الخفافيش ملابسنا وقال حملة المشاعل: إن المشاعل على وشك الإنطفاء وجملة القول أننا عندما شاهدنا أجنحة العقبان خلعت قلوبنا من الهول والفزع وما استطعنا أن نحرك أقدامنا بخطوة واتفقنا على العودة فهبت ريح عقيم من جانب هذه الطيور لها إيذاء ريح الشتاء قارصة البرد، وقلنا كيف يكون مصيرنا إذا ما انطفأت مصابيحنا ومشاعلنا، ولدى خروجنا إذا بنا نرى أن لكل خفاش من تلك الخفافيش فراشة فى حجم الحمامة كانت أجنحتها تصطدم بمشاعلنا ووجوهنا.

وعلى أية حال خرجنا ولدى عودتنا التقينا برفاقنا الذين فروا من قبل وجعلوا يهزأون بنا ويضحكون من وجوهنا الملطخة. ويعلم الله أننا خرجنا سالمين وقد بلغ بنا الجهد مبلغه وأنهكنا التعب والإعياء، إلا أننا شاهدنا أشياء عجبًا ولا يعلم أحد ما وراء هذا الحوض إلا الله. وهكذا شاهدنا الهرم الأكبر فما رأينا خزانة ولا كنزًا وإنما رأينا جثثًا محنطة دفينة.

إلا أن هذا الهرم طلسم ما فى ذلك شك أو ريب لأننا بهتنا عندما بلغنا هذا الحوض المذكور وعندما خرجنا من الهرم كان قد بلغ منا الإعياء مبلغه ولما تنسمنا الهواء دبت الروح فينا ـ لا يسر الله لنا دخوله ثانية ـ، بعد ذلك تناولنا الفطور وشربنا القهوة فى خيامنا وطوفنا حول الأهرام الثلاثة.

ويبلغ كل هرم من الهرمين مائتى قدم طولاً وعرضًا وعلى هذا الحساب يكون محيط كل واحد منها ثمانمائة قدم وبعض الأحجار فى قمته يصل حجمها إلى مائتى باع.

وفى الجانب الشمالى من الهرم الأكبر الباب الذى دخلنا منه، أما أبواب الأهرام الأخرى فغير ظاهرة. إلا أن هرم أبى الهول غاية فى صغر حجمه إلا أن كلا من الهرمين الآخرين يناطح الفلك. إنها جبال مخروطية الرأس وقد تسلقت الهرم الذى دخلته إلى قمته فكانت ميدانا يتسع لإقامة خيمة ذات عشرة خزائن. وفى بعض الثقوب

الموجودة فى الأحـجار عثرت على أوكار الـشواهين والصقور والحـمام والحدأة، وبدت القاهرة كلها تحتى. إنها جبال عالية إلى هذا الحد البعيد.

وحول هذه الأهرام العديد مـن الأبنية المطلسمة مبنيـة بالحجر الأسود وإذا ما ذكرت أوصافها لَمَسَّت الحَاجَةُ إلى كتابة مجلد بتمامه.

تتمة الحديث عن الأهرام

عندما ذهب المبعوث الذى أرسله المقوقس إلـى الرسول صلى الله عليه وسلم شرف بالدخول فى الإسلام وهـذا المبعوث هو «ذو النون المصرى» الذى ولـد فى شرق إخميم بالصعيـد العالى وكان فريد دهره فى فصـاحته وإبانته، وبعد أن فتـحت مصر دخل ذو النون هذا الأهرام بإذن من عمرو بن العاص وقرأ ما بداخلها من نقوش عجيبة وترجمها إلى اللغة العربية وهذه النقوش هى:

احـــذر الـــعـــبـــيـــد المـــعـــتـــقـــيـــن
والأحــــداث والجـــنـــد المتـــعـــبـــديـــن
والـــنـــبـــط المـــســـتـــعـــربـــيـــن

ونص آخر جاء فيه:

يـــقـــدر المـــقـــدور
والـــقـــضـــاء يـــضـــحـــك

أما الهرم الأصغر الذى بناه «قليمون الحكيم» قبل الطوفان ففيه بيت مكتوب هو:

تدبر بالنجوم ولست تدرى ∴ ورب النجم يفعل ما يريد

ذكر عجائب الأشكال الطلسمية لأبى الهول
والذى يسمى فى العبرية «بلميب»

رأس كبير من حجر أبيض فى حجم قبة الحمـام، يقع كذلك فى الناحية الشرقية من الهرم الأصغر. ولا وجود لمعالم أخرى لجسم التمثال بخلاف الرأس والجزء الذى خلف الرقبة. فـهذا التمثال عـبارة عن رأس ليس إلا، ولهـذه الرأس وجه متجه نـحو الشرق وحاجب وعين وأسنان وأذن وشفتان وعنق. وهى تتسع لمجلس مائة رجل.

وقد صنع هـذا التمثال أحد عـباقرة السلف، وقـد صنع بضربات فـأسه هذا الرأس وكأن له روحا وكان هذا الـرأس يبتسم، وأظهر الصانع ذوائب هـذا الرأس وكأنه عمل السحر المعجز واستعرض مهارته وبراعته في ذلك.

وفى الزمان الخالى كان هذا الرأس يتجاذب أطراف الحديث مع الغادى والرائح، فقد كان طلسما. فكان يستنبط الأسرار والغيبـيات فيتنبأ بمن سوف يعتلى عرش مصر ووقوع القحط والـغلاء وتفشى الطاعـون وسقوط المطر واحتبـاسه ومقدار فيضان الـنيل وعدم فيضانه وما يحدث وما لا يحدث وكل الغيبيات الخمس.

وعندما ترامت إلى سيدنا موسى الأخبار عن مكاشفة أبى الهول للأسرار الغيبية جاء إليه ـ عليه الـسلام ـ وبعد حوار طويل قال سيدنا موسى عليه الـسلام لأبى الهول:

إنك قادر على نطق كل الكلام، فآمن بحق رسول الله، فقال أبو الهول:

إننى لا أومن إلا بإدريس ـ عليه الـسلام ـ وعنـدئذ دخل موسى غَضَبٌ لا مزيد عليه فانهال عليه ضربا بعصا فى يده محطـما أنفه وفاه، وقال له: اسكت يا ملعون. ومضى وإلى الآن منذ عهد سيدنـا موسى لم يتكلم أبو الهول، كما أن أنفـه وفمه محطمان من ضربات عصاه.

إنه أثر عجيب من صنع الإنسان، وفى رواية أخرى أنه من صنع السحرة.

لكن الـناس يقولون: إن امـرأة سرق منها مـال كثير، فـسألت هذه المرأة أبـا الهول قائلـة: مـن سرق مالـى؟ فقال: إن فلانـا هو الذى سرقه، فانطلقت المرأة فى الحال إلى القاضى وكبس بيت الرجل؛ فوجدوا أموالها غـير منقوصة، فمضى الرجل السارق إلى أبى الهول وصعـد رأسه وتغوط عليها، فبطـل أثر الطلسم منذ ذلك الحـين وسكت عن الكلام.

إلا أن رواية موسـى ـ عليه الـسلام ـ صحيـحة، إذ كان من أولـى العزم وبمعـجزة ضرباته أصابه البكم والصمم. وأبو الهول الآن رأس يأتى الناس لمشاهدتها.

وعلى مقربة من رأس أبى الهول موضع آخر يـستحق المشاهدة. إنه باب دير قد سد بالرمال والغثاء، ولكن فى العقد الذى يعلو يـمنة بابه العديد من النقوش المحفورة على

الرخام. وعلى الرغم من براعتى فى قراءة شتى الخطوط إلا أننى لم أر خطا يشبه هذا فكان من المحال قراءة حرف من حروفها.

طلسم أبى الهول

جاء فى تاريخ ابن جلال أنه عام ٧٨١ كان هناك من يسمى «محمد الصوفى» يسكن خانقاه الصلاحية وكان شخصا متعصبا إلى حد جد بعيد، زاد فى تحطيم أنف وفم أبى الهول مدعيا أنه صنم وقد فعل ذلك دون مراجعة القاضى والاستئذان منه واتفق أن عصفت ريح شديدة فى هذا اليوم فغمرت مزارع الجيزة بالرمال واستحال زراعة الغلال والبرسيم، فمضى أهل الجيزة بمحمد الصوفى هذا إلى القاضى، وصاحوا قائلين: إنه غمر مدينتنا بالرمال، وعندما استجوب محمد الصوفى قال: لقد نهيت عن المنكر.

وما أن سمع الأهالى ذلك منه حتى مزقوه كل ممزق ودفنوه إلى جوار أبى الهول.

وإلى يومنا هذا من أتى لمشاهدة أبى الهول رجم قبر هذا الصوفى الضال.

نعم الله على مصر

لا وجود للجراد قط فى أرض مصر، وإذا ما جاءها من بلد آخر هلك، حتى إنه فى عهده (صلى الله عليه وسلم) أصاب الجراد مكة والمدينة، وأخطر الصحابة النبى (صلى الله عليه وسلم) بما أصابهم ورغبوا إليه بأن يدفع عنهم شرّ هذا الجراد، فبسط صلى الله عليه وسلم يده ودعا الله قائلاً: اللهم ادفع هذا الجراد إلى كنانتك مصر. فقال الصحابة (رضوان الله عليهم): يا رسول الله إن خيرات مكة والمدينة تأتى من مصر، فإذا بلغ الجراد مصر وأتى على محاصيلها وقع القحط والغلاء. فقال صلى الله عليه وسلم: إن مصر فى حمى الله فإذا ما نظر إليها أحد بعين الازدراء والتحقير وظلمها وعاث فيها فسادا هلك.

وهذا واقع لا مراء فيه، فإلى الآن لا وجود للجراد فى مصر لأنه إذا بلغها هلك وللجامع الأزهر طلاسم تمنع دخول الحمام والذباب والأفاعى والحيات وغيرها من الهوام، ومفعول تلك الطلاسم مستمر إلى الآن.

ـ طلسم آخر (السفينة الحجرية):

ثمة قلعة عتيقة تقع داخل قلعة الكبش بمدينة القاهرة، بالقرب منها زاوية السلطان «جاولى» وأسفل سلم هذه التكية حوض من الرخام الأخضر قطعة واحدة وهو مستطيل الشكل يشبه السفينة. وفى الزمان الخالى كان يركب هذه السفينة الحجرية أربعة أشخاص يعبرون فيها النيل ذهابا وإيابا، وإذا ما ركب فيها خمسة غرقت وقد جعل لها الكهنة القدماء طلاسما على هذا الأساس، وقد عرف الناس طبيعة هذه السفينة فكانوا يخافون ركوب أكثر من أربعة فيها، وكان من يركبونها يمضون فى سرعة البرق الخاطف.

وإلى عهد «كافور الإخشيدى» كانت تلك السفينة تغدو وتروح فى النيل فى طرفة العين. وذات يوم عندما علم كافور الإخشيدى أن هذه السفينة من الحجر والحجر من طبيعته أن يرسب فى الماء فصاح قائلاً: كيف إذن لسفينة من الحجر أن تغدو وتروح منذ مئات السنين فى النيل وهى تحمل أربعة رجال ما السر فى ذلك يا ترى؟

فأمر رجاله بشد السفينة من النيل إلى اليابسة فشاهد طلسما أسفل هذه السفينة وكان عبارة عن سطر باللغة العبرية وصورة سمكة وصورة شعير ولا شىء سوى هذا فاستدعى جميع علماء مصر فما استطاعوا فك رموز هذا الخط. ثم أعادوا السفينة الحجرية إلى شاطئ النيل وركب فيها أربعة أشخاص ودفعوا بها فى النيل فغرقت بمن بها. وربما تكون غرقت بسبب بطلان تأثير طلسمها عندما أخرجوها إلى اليابسة أو أن يكون أحد قد تعلق نظره بها فحسدها.

وهذه السفينة الحجرية المذكورة موجودة إلى الآن أسفل سلم زاوية السلطان الجاولى وهى حوض مملوء بالماء الزلال ليل نهار وتشرب منه دواب الغادى والرائح، ومع ذلك يظل ممتلئًا، ولا يعلم من أين يأتى ماؤه. ولوقوع هذا الحوش على الطريق الرئيسى لبولاق فهو يسترعى نظر المارة. وعلى الجوانب الأربعة لهذا القارب كتب ترتيب ديوان سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ وكتب أسماء كل ذى روح من إنس وجن وحيوان وطير وكأن هذا الخط خط بهزاد وشاه قولى. إنه ديوان يستحق المشاهدة يخلب لب من

يشاهده، ويتسع لعقد مائة ديوان فى آن واحد. وحكم الإنس والجن والوحش والطير لم يدم لسليمان. تلك هى الدنيا التى لا تدع شيئًا إلا ما سوى الله. اللهم يسر.

من خواص أحجار مصر

ثمة حجر لامع يضرب لونه إلى الحُمرة يوجد فى الجبل الأخضر بمصر، إذا ما وضع هذا الحجر فى أفران الخبز أكسب الخبز حمرة وعجل بنضجه. إلا أننى لم أشاهد ذلك ولكن نقلت ذلك عن بدو البهيجة وحنادى عندما ذهبت لتسجيل أسماء حجاج المغرب بتكليف من إبراهيم باشا فى حوش عيسى، كما قالوا إنه يوجد كذلك لدينا فى «عز الدين».

طلاسم أم القياس

على الجوانب الأربعة لحوض أم القياس خط غريب عجيب بتأثيره ما إن يحل شهر «توت» القبطى إلا وتسقط النقطة فى بداية هذا الشهر ويفيض النيل.

ـ طلسم آخر:

أقام سيدى الشيخ البطرانى هيكل تمساح فى حوض أم القياس ورسم على صدر هذا التمثال طلسما، ومنذئذ لا تمر التماسيح من أم القياس، وإذا ما مر تمساح مع فيضان النيل انقلب على ظهره ونفق. وفى تلك الأماكن يبتلع التمساح من خوفه الحجارة فيثقل إلى أن يمضى فيضان النيل وتصفو مياهه ويهبط التمساح إلى قاع النيل ويعيش على الطين طيلة ثلاثة أشهر ثم يعود من أم القياس وينجو بذلك من الطلسم.

من تنبؤات المنجمين

ثمة دير عظيم عند باب القصر بمدينة القاهرة، وهو الآن مدرسة، وصنع كهنة السلف فى هذا الدير وجها من النحاس عليه نقاب مذهب، ونبى آخر الزمان يكون صاحب هذا الوجه وسيكون لأمته ملك مصر يقيمون فيها العدل، ومن سيفتحها من الرجال بعده ﷺ عام ١٨ هو عمرو بن العاص وزير الفاروق عمر بن الخطاب هذا ما ورد ذكره على الرخام الأبيض لصورة شخص ذى خرقة صفراء فوق جمل أبيض وعلى صورة سيدنا محمد ﷺ كتب على الرخام الأبيض آية من الإنجيل باللغة اليونانية معناها هو :

أن هذا الرجل من أبناء آزر وهو نبى واسمه محمد يملك الدنيا والآخرة.

ولكن عندما حاصر عمرو بن العاص مصر طمس النصارى صورة سيدنا عمر المنقوشة على الرخام.

طلاسم القلعة الداخلية

فى قاعة ديوان قلاوون بالقلعة الداخلية ثمانية وأربعون عمودا ينتهى كل منها بطلسم عظيم وقد سبق ذكر ذلك فى مجمل حديثنا عن أوصاف القلعة الداخلية.

وفى مصر مئات الآلاف من العجائب والغرائب رأيت منها مئات تخلب لب من يشاهدها والله أعلم.

ذكر ما فى مصر من أطعمة وأشربة ونباتات وثمار لا وجود لها فى بلاد الترك

فى مصر سبعة عشر نوعا من التمر لا وجود لها فى بغداد ولا البصرة ولا الإحساء فهى لا وجود لها إلا فى مصر وحدها وهى غاية فى لذة الطعم.

النوع الأول: وهو التمر الأبيض ومنه ثلاثة أنواع، منها نوع مستطيل يشبه تمر بغداد ذى النواة وهو كالسكر وهو كذلك رطب يذوب فى حنك الإنسان.

النوع الثانى: وهو أقصر منه ونواته فى حجم حبة القمح وهو كذلك رطب مثل ثمار المشمش.

والنوع الثالث: أبيض عادى تنبعث منه رائحة المسك.

إلا أن هذه الأنواع الثلاثة من التمر تجف من شدة الحر، ولا تحتمل النقل من بلد إلى آخر لأنها طارجة رطبة، تباع رطبة طارجة ولكن لا تباع على النطاق الأوسع.

وهناك «**التمر الأصفر**» وهو كذلك له أنواع وهو غاية فى لذة طعمه وهو لا يجف طالما كان نظيفا ويباع طارجا.

وهناك كذلك «**التمر الأحمر**» وله أنواع خمسة منها نوع بلدى وهو تمر نظيف لطيف يرتوى بماء النيل فى مدينة القاهرة ومنه ما يسمى السلوانى والمدنى والحموى والشامى والبستانى والرطب منه غاية فى اللذة وهو مقو. وعلاوة على هذه الأنواع هناك نوع

بنفسجى اللون ينضج فوق نخيله فيصبح مثل «المصطكا» وهو غاية فى اللذة.

و«**التمر الأسود**» ثلاثة أنواع، منها نوع جاف ثماره كالحصى، يضعونه فى جلود الإبل ليحمل إلى القاهرة وغيرها من البلاد، ولو ترك فى موضع خمس سنوات لما فسد ولا تستطيع الفأرة أن تأكله. وفى البلاد الأخرى ينقع فى الماء ويؤكل فهو غاية فى اليبوسة.

وهناك نوع من التمر هو «التمر الصعيدى» ومنه نحو عشرة أنواع. كما أن التمر الأسوانى لذيذ الطعم. وفى مناطق أسوان والشلال هناك «تمر العاص» ونخلاته تنمو من نواة واحدة حتى تناطح السحاب، وتمر العاص هذا ينفرق عذقا عذقا، وأوراقه مفلطحة وثمرته تزن سبعين درهما أو مائة وهى فى حجم قبضة اليد، ونواته مفرغة يضعون فيها الفلفل، وثماره ليست لذيذة الطعم يأكلها الفلاحون، ويملأون زنابيلهم بتمر «الطين» ويحملونها من ولاية إلى ولاية.

وهناك «التمر القدرى» وهو نوع من التمر يشبه التمر «العقيق اليمنى» وهذا النوع صغير الحجم، لذيذ الطعم إل أبعد حد، ويصدر بكميات ضخمة فى زنابيل إلى اسطنبول وسلانيك وغيرها من البلاد.

ونوع آخر من التمر يسمى «التمر البرلسى» وهو تمر أحمر اللون كبير الحجم مستدير الشكل لا يقبل الناس على أكله، وهو رطب يضعونه فى الجرار ويصنع منه «الكامخ» فيصبح غاية فى لذة الطعم، ويفصلون حامضه عن طارجه ويصنعون منه الخل.

والخل يصنع كذلك من جميع التمور إلا أن الخل المصنوع من هذا النوع غاية فى الجودة.

كامخ البصل

ورائحة كامخ البصل فى مصر تكاد تقضى على الإنسان، إلا أنه يفيد الفلاحين كثيراً فهو طارد للبلغم.

الجبن القديم

يضعون الجبن فى الملح ويظل فى الجرة خمسة أشهر أو أكثر وعندما تفتح هذه الجرة تنبعث منها رائحة إذا ما شمها تركى تعلق بأذيال الفرار فهى رائحة تكاد تكون قاتلة. أما العرب فيحضرون جرار الجبن القديم ويقطعون الخبز ويضعونه فى ماء الجبن وفيه الديدان وكأنها «خشاف» ويضعون فيه الديدان المسلوقة ويأكلونه ويدعو بعضهم بعض إلى هذا الطعام.

الليمون (ترياق السموم)

إنه ليمون صغير مستدير أصفر، إلا أنه مملوء بالماء الصافى، وتباع المائة ليمونة منه بياره واحدة، إلا أنه ترياق للسم وينقذ حياة المسموم.

الليمون الحامض

وهو كذلك موفور فى مصر، ويأتى على مصر أحد العاملين فى مصنع الحلوى بالأستانة لعصر كميات من هذا الليمون وصنع مئات الزجاجات من الشراب المسك للسلطان.

وهناك «النارنج» إلا أنه حامض، والليمون الحلو كثير، وهناك التين والرمان وسبعة أنواع من العنب والخوخ والمشمش، ولا وجود للمشمش «اللوزى» وهناك البرقوق والزيتون إلا أنهما قليلان، وتأتى الكمثرى والسفرجل بكميات ضخمة من الفيوم. وتأتى السفن من طور سيناء إلى السويس محملة بالتفاح والكمثرى والسفرجل وتحملها الجمال إلى القاهرة لأن التفاح فيها قليل، أما الموز فموفور، أما الجميز فهو وفير جدا ولا تنمو ثمرته على الأغصان وإنما على الجذع الضخم، إنها شجرة عجيبة، لها ثمرة تشبه ثمرة التين، والأبيض والأصفر والأحمر منها غاية فى لذة الطعم، وإن كانت تبدو فى هيئتها كأنها ثمرة تين إلا أن داخلها مفرغ ولا بذرة فيها. وتنمو المائتان والثلاثمائة من شجرة فى موضع واحد، ويباع محصول مائة شجرة بياره واحدة. وهو فى جَنْبِه مشقة يصعد الناس شجره بسلم قبل أن ينضج ويختنون كل ثمرة بسكين فتنضج الثمرة لذيذة الطعم وإذا لم تختن الثمرة فهى لن تكون لذيذة. إنها ثمرة لها رائحة المسك، سهلة الهضم ومقوية.

ولكى لا يأكل العصفـور هذه الثمار يحيطون الجذوع المثمرة بشبـكة صيد فتأمن من الطيور، وظل هذه الشجـرة بقعة طيبة النسيم لا تنفذ إليهـا حرارة الشمس ومن استراح فى ظلها شعر بالنشاط وكأنه لم ينم.

فاكهة النبق

فى حجم ولذة ثمرة الـ «الج» فى تركيا، إلا أن الثانية داخلها ست بذور فى حين أن فى النبق بذرة واحدة، وهى تنمو فى موسم الـشتاء وثمرة فى حجم ثمرة الجوز، ومنها الأحمر والأصـفر والوردى، وهى شـجرة مرتفـعة تعمـر طويلاً وفى تـكية «منـصور الأنصارى» بمصر القديمة شجرة نبق سامـقة عمرت ألف عام وتؤتى أكلها فى كل وقت نواة النبق كنواة الكرز ولذلك يسمون كرزنا النبق وطبيعته قابضة.

فاكهة (   )[1]

إنها فاكهة عجيـبة فى لذة تمر طرابيزون فى بلاد الترك ولكنـها لزجة فى فم الإنسـان كأنها الغراء، إلا أنه لذيذ مقو وأشجاره سامقة.

الخيارشنبه

أشجارها تشبه شجر الجوز وأوراقها كذلك تشبه أوراقه، وله أزهار صفراء.

ثمارها طويلة كالسوط يبلغ طولها ذراعا أو ذراعين، وهى تشبه الثعبان فى طولها وفى أول نموها تكون خضراء وعند نضجها يسود لونها وبداخلها عقد من العسـل الأسود.

يضيفـها الأطباء إلى المعاجيـن، فهى ملينة، كمـا يصنع منها المربـى وبعض الأدوية الجيدة. وعندما تكون الـثمرة ما زالت زهرة صفراء يصنعون منهـا الخميرة والمربى. إنها فاكهة مفضلة لدى العوام من الناس وخـواصهم. إلا أن كل أشجارها تحتكرها الحكومة وأصحابهـا لا يستطيعـون قطف ثمرة من ثمـارها فهى أمانة عـندهم للحكـومة وتدفع لأصحابها أقجة واحدة عـلى السبعة عشر حملاً منها، وثمـارها تحت تصرف الحكومة، وتصدرها للملوك الأستانة، وتحصى ثمارها ثمرة ثمرة وهى ما زالت فوق أشجارها ويقيد ذلك فى دفاتر حتى إذا ما نقصت منها ثمرة غُرِّم صاحب البستان.

---
(١) بياض فى الأصل.

شجرة السرو

وهو فى مصر كثير ، كما توجد شجرة «دلب الفسدق» وهى موجودة فى حديقة «نقيب الأشراف»، وشجرة «الصنوبر» وهى كذلك موجودة فى حديقة نقيب الأشراف ولا وجود لسواها.

شجرة الجوز

شجرة فى حقل نذير أغا فى عمق قلعة الكبش ولا وجود لسواها ولكنها تكثر فى مدينة الفيوم.

شجرة السبحة

قريبة الشبه من شجرة الجوز إلا أن أوراقها صغيرة، تنمو على غصونها التى تشبه السبحة. وتثقب ثمارها عندما تنضج وتصنع منها السبح، ومن يشاهدها يعجب لإبداع الخالق قائلاً: سبحان الله الذى خلق هذه الشجرة المستديرة التى تصنع منها السبح لذكر اسمه.

شجرة السنط

أشجار سامقة فى غلظ رَجُلين، أوراقها كأوراق شجرة الكرز إلا أنها لا تؤتى ثمارًا. تصنع السفن من خشبها وتحرق وقودا، ولا رماد لها، وجمارها حمر. إنها شجرة صلبة، تستخدم أوراقها لعلاج الإسهال، فتدق فى الهاون وتخلط بالعسل وإذا ما تناول شخص خمسة دراهم من هذا الخليط على الريق شفى من الإسهال.

وأخشابها غاية فى الصلابة حيث تصنع منها سفن تعمر مائة عام فى البحار. وبعض الأبنية العتيقة التى مضى على بنائها ألف عام أو أكثر أسسها من هذا الخشب. ومن ثم لا وجود لأشجار فى صلابة السنط والبقس، ومن الناس من يسميها «أشجار العالم الجديد»، إلا أن جو مصر يغير لونها.

شجرة الساج

ليست شجرة كبيرة، أوراقها كأوراق شجرة الكرز وهى دائمة الخضرة، تكثر على ضفاف النيل وهو شجر يقبل أهل مصر على زراعته، إلا أنه لا يؤتى ثمارا.

شجرة الحناء

شجرة فى حجم شجرة البرقوق التى فى بلاد الترك، ولها نوع خاص من النَّوْرِ زكىٌّ الرائحة، ويقدمها البستانيون هدية إلى الأعيان، ولكن ليس لها ثمار، إلا أن رائحتها تهب الروح. وهى ليست الحناء التى تستعملها النساء.

شجرة الحناء (حناء يد وقدم النساء)

تكثر فى مدينتى بلبيس والقرين، إنها أشجار قصار، ترتوى على الدوام بماء السواقى ويجمعها النساء والأطفال فى موسم حصادها يقطفون أوراقها وتطحنها الطواحين وتصنع منها الحناء فتصبح فى لون الياقوت الأحمر. وكنت أُسَرُّ عندما أشاهدها فى كعب العجائز من نسائنا.

شجرة الصفصاف

وهى كثيرة، وأوراقها مفيدة لمرضى اليرقان، فتسحق أوراقها فى هواوين خشبية لاستخلاص مائها، وإذا شرب مريض منه كأسا فى ليلة مقمرة شفى من اليرقان فى الصباح.

شجر الحور

يوجد فى البساتين هنا وهناك.

وشجر «العُلْكِ الأسود» منتشر هنا وهناك كذلك.

شجر التوت

وثماره منها الأبيض والبنفسجى والأسود الحامض، إلا أن أشجار التوت المحيطة بقصر ذى الفقار بك أمير الحج على ضفة بِركة الفيل لا نظير لها فى الدنيا، بأسرها وجذعها فى غلظ أربعة أشخاص وأغصانها تظل ما حول القصر وتحت جميع أغصانها أكثر من أربعين عموداً وظِلالُها كأنها قاعة ديوان عظيمة. وعلى مصطبة تلك الحديقة مكان يتسع لتناول ألفين طعامهم. وثمارها لذيذة الطعم كأنها اللؤلؤ، وهى غزيرة العصير.

ومجمل القول أنه لا وجود لمثل ثمار هذه الحديقة فى الدنيا.

شجر الآس

إنه كثير إلا أنه لا يثمر كآس حلب.

شجر (اتله)

أوراقها كأوراق شجـرة السرو إلا أن خشبها ليس مـثقوبا كخشب الســرو، كما أنها كذلك لا تثمر، ويستخدم خشبها فى أعمال البناء، كما تستخدم حطبًا.

شجر التمر الهندى

ينتشر هنا وهناك فى الحدائق، وهو يثمر.

شجر الجميز

ذكر آنفًا.

شجرة السيسبان

إنه نوع من الأشجار الصغيرة التى لا تعمر طويلاً، يزرع حول حقول قصب السكر، ولِنَوْرته رائحة إذا ما شمها الفأر أو ابن عرس لـم يدخل حقل القصب ليأكله، ويضاف فحم هذه الشجرة إلى البارود.

وكم من أشجار أخرى توجد فى مصر إلا أن الكلام بذكرها يطول، لذا اكتفينا بذكر ما سلف من أشجار.

***

الفصل السابع والخمسين
ذكر النباتات المأكولة فى أرض مصر

ـ المـوز:

شجر عجيب، إذا قلت إنه شجر فليس بشجر، لكن طوله كطول الشجر، يطول فى كل عام بمقدار قامة شخصين، وجذعه فى غلظ الرجل، وداخله مملوء بالماء، وهو يطرد ماء الاستسقاء على نحو ما قيل عنه. وأوراقـه فى حجم اللحف والبسط وتشبه الأعلام الخضر وبين أوراقـه إلى ذروته عناقيد الموز، وفى كـل عنقود ما يقرب من مـائتى ثمرة منضدة بعضـها فوق بعض وعندما ينضج يـصبح وكأنه قطعة من الماس وعـندئذ يقطف للأكل ويكون الموز أخضر فى بداية نموه. وعلى الـرغم من أنه قريب الشبه من الباذنجان إلا أن ليس به بذور، بل إن ثمرته ممتلئة بالمعـجون وهو مقو، وقشرته تسلخ من أعلى، وإذا ما أكل مع السكر كان أكثر لذة فى طعمه. وإذا ما تناول منه الإنسان خمس ثمرات أصبح فى غنـى عن أكل اللحم وهو مشـبع سهل الهضم، وثمـرته غنية بمنافعـها فهى تقوى البدن وتزيد من المنى وتقوى الإبصار.

ويقال إنهـا خلقت كرامة لسـيدنا أويس[1] رضى اللـه عنه فعندمـا استشهد السـنّة الشريفـة للرسول ﷺ فى غزوة أحـد، وتناهى إلى سمـع أويس ذلك الخبر قام بـخلع أسنانه الاثنين والثلاثين محبة فى رسول الله ﷺ وهو يقول: أهذه السـنّة التى استشهدت أم تلك وعـندما طرح أسنـانه على الأرض نبـتت هذه الأسنان مـوزا بقدرة الله تـعالى وانتشر الموز من اليمن إلى سائر البُلْدَانِ الأُخْرَى.

---

(١) هو أويس القرنـى خير التابعين كان بـراً بأمه، مؤثرا للعزلة وخـمول الذكر يستخفى مـن الناس حتى لا يعرفوا حاله مع الله وكان ـ رحمه الله ـ مجاب الدعوة، أمر النبى ﷺ ـ عمرـ رضى الله عنه ـ إذا لقيه أن يستغفر له، فـلما لقيه عمر فى خلافته ذكر له مـا كان من قوله صلى الله عليه وسـلم فاستغفر له. والخبر فى صحيح مسلم، كتاب الفضائل(١٠١) باب من فضائل أويس القرنى رضى الله عنه. والحكاية الواردة هنا عن أويس وإن لم تكن مـستبعدة فى حق من يأخذه الحزن لفقد عزيز؛ فـقد حلقت الخنساء شعرها حزنًا وكمدًا على أخيها، فما بالنا والأمر متعلق بالحبيب ﷺ إلا أن هذا قد يكون من قبيل كلام القصاص؛ فإنه لم يلق النبى ﷺ ، وهو فى عداد التابعين ولم يدرك أحدًا.

هذا ما رواه علماء اليمن وأجمعوا عليه.

إلا أن شجرة الموز تنبت من الأرض كقصب السكر وتثمر مرة واحدة ثم تقطع، هكذا خلقت. وتكثر أشجار الموز فى بيروت، تحتكرها الحكومة ولها ناظر خاص، كما أنه يكثر فى دمياط والقاهرة.

ـ الخيار:

يزرع بكثرة ولكن تمس الحاجة إلى استيراد بذوره من الشام كل عام، لأن بذور الخيار التى نمت فى مصر السنة الماضية أثمرت عجورا، ولذلك تستورد بذور الخيار من الشام فى كل عام.

ـ العَجّور:

يشبه الخيار كذلك ولكن ثمرته عوجاء.

ـ القثاء:

وهى كذلك أحد أنواع الخيار، وهى مرطبة، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم.

ـ البطيخ الأصفر:

أى الشمام، هناك سبعة أنواع منه فى مصر وهو يزرع ويحصد ثلاث مرات فى العام، وهناك الشمام الأخضر والذى كان فى بدايته يسمونه «دوميرى»، وهو مستدير ولذيذ الطعم وثمة نوع آخر يسمى «الشلابة» يزرع فى أراضى الخانكة وهو لذيذ الطعم غاية فى امتلائه بالماء.

ـ البطيخ:

يزرع بكثرة فى جميع المدن، إلا أنه صغير الحجم، ولكن بطيخ البرلس كبير وقشرته رقيقة وداخله نسيج أحمر ياقوتى ممتلئ بالماء.

ـ البطيخ الأزرق:

وهو كذلك أحد أنواع البطيخ، إلا أنه فارغ الداخل ويطرحونه فى البرية فى بلاد الترك غير أنه يباع بدينار ذهبى فى بعض أحياء مصر، إذ إن جو مصر يجعله يهب الحياة فإذا ما أصابت إنسان حمى محرقة وشرب فنجانين من ماء هذا البطيخ الأزرق أصبح

جسمه كأنه قطعة من ثلج، يا لها من حكمة عجيبة. وفى تذكرة داود ذكر لفوائده التى يعجز الوصف عنها، ولا وجود لهذا البطيخ إلا فى مصر.

ـ البطيخ (عبد اللاوى):

وما يعرف بعبد اللاوى يشبه الشمام فى طعمه. إنه شىء عجيب عندما يستدير ينقسم رأسه إلى جزئين أو ثلاثة ويصبح كل جزء منها كأنه ثعبان أرقط، وفيه بذور تشبه بذور الشمام، إلا أن طعمه يميل إلى الحموضة قليلاً وطبيعته مرطبة وهو مدر للبول وبما أن له هيئة الثعبان يأكله الإنسان متكرها.

وقد جاء فى كتب الطب إنه خلق بفضل معجزة الرسول ﷺ والسبب هو:

حكاية

يحكى أن كفار قريش ذَهِلُوا عند ظهور النبى صلى الله عليه وسلم فبالغوا فى مهانته إلا أنهم عجزوا عن الانتقام منه، فلجأوا إلى الحيلة والمكيدة فأحضروا صندوقا فيه عقارب «كاشان» من بلاد الفرس وهى عقارب تنفذ إبرتها فى الحجر، والعقرب الكاشانى فى أيامنا تلك له واسع الشهرة فى شتى أنحاء الدنيا.

ثم أحضر ملاعين قريش هذا الصندوق وبعض الهدايا إلى الرسول ﷺ حتى تلدغه العقارب عند فتحه للصندوق. فقال ﷺ: ما هداياكم تلك. فقالوا: يا محمد إن هدايانا نوع من الشمام ظهر حديثًا لا علم لنا باسمه.

فقال الرسول ﷺ: سموه «عبد اللاوى» فقد كان ﷺ يحب الشمام كثيرا، وهم الرسول ﷺ بفتح الصندوق أمام رهط قريش ذاكرا اسم الله تعالى فأصبحت العقارب الموجودة فى الصندوق «عبد اللاوى» فأكل منها ﷺ قائلا: بسم الله ووزع منها على صحابته ورأى كفار قريش هذا فآمن منهم سبعون فى التو، أما بقيتهم فقالوا: يا محمد إنك لساحر. ومضوا وبقوا على ضلالتهم. ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وتلك هى معجزة «عبد اللاوى» وهذا هو السبب فى أنه على هيئة الأفعى والعقرب. ولا وجود له إلا فى مصر.

ـ العجور الأخضر:

وهو كذلك مثل عبد اللاوى إلا أنه أخضر وأشكاله معوجة مثله كذلك، وفيه بذور، وطبيعته مرطبة، وطعمه لا يشبهه طعام آخر. يسمى فى بلاد الترك «القرع المصرى» ويسمى فى مصر «القرع التركى». إنه قرع مستدير ينتشر بين فقرائنا، ومنه قرع الماء والقرع الأفرنجى وقرع الألواح وهى كثيرة.

ـ حب اللليد[1]:

ينمو على ضفاف النيل وهو يشبه الحمص ويميل لونه إلى الصفرة وهو بقل لذيذ ومقو.

ـ قصب السكر:

يزرع بكميات ضخمة فى جميع القرى وهو محصول عظيم.

ـ القلقاس:

نبات أسود يشبه فجل بروسه يأكله الفقراء وطعمه لذيذ مثل «أبى فروة»[2].

ـ القنابيط:

يشبه الكرنب، لكن له أزهار صفر.

ـ التين الأفرنجى (الشوكى):

أشجاره خضراء والواحدة منها طول رجلين وهى تشبه الكف يلتصق بعضها ببعضها وأوراقها سميكة كالكف وعلى أطراف أوراقها الخضر تنمو عشرات من ثمار التين ومنه الأصفر والأحمر وتكون مغطاة بالأشواك. ويستخدم دواء كالتين، إلا أن طعمه لا يشبه طعم الفاكهة وهو مقو للغاية.

ـ لوز النبى:

شجر قصير كشجر السمر وفى كل شجرة لوزتان أو ثلاث، وهو يشبه اللوز فى طعمه. وقد خلق هذا النبات كرامة للرسول ﷺ عندما قدم إلى الشام للتجارة، وهو يكثر فى أرض مصر. إنه مقو ولذيذ.

(١) يقال له حب العزيز.
(٢) أى الكستناء.

ـ الملوخية:

عشب أخضر يشبه النعناع، يطهى كالسبانخ، يسميها بعض الظرفاء «ملوكية» لشدة حبهم لها أى أنها طعام الملوك. إنها سريعة الهضم مقوية وهى طعام الزنوج وهى مفيدة للطواشية.

ـ البامية :

نبات فى حجم رصاصة البندقية، وجلد ثمرتها شائك ولكن إذا طبخت زالت أشواكها. عندما تطهى مع اللحم ويضاف إليها عصير الليمون كانت طعامًا عظيم الفائدة. وبداخل ثمرتها بذور تشبه بذور العدس، والبعض يطبخها بالثوم والماست، إنها طعام عجيب لذيذ.

ـ الثوم:

نبات ضار وسم زعاف، لذا لا يقبل عليه الناس والكل يستخدم الثوم التركى ولا وجود لشيء أرخص من البصل والملح.

ـ الكتان:

يزرع بكثرة، إلا أن أجود أنواعه التى تزرع فى الفيوم والنهارية، وتباع الكرة من خيطه بخمس عشرة پاره. إلا أن قماشه لا يتحمل، ويلبس قميص الكتان شهرين فقط.

ـ النيلة:

عشب لونه بين الزرقة والخضرة، عندما يكتمل نموه يطهى فى أوان كبيرة، ثم يدق بالمطارق الخشبية فينضح ماؤه فيؤخذ ماؤه ثم يوضع على النار حتى يغلى وترسب زبدته فى قاع الإناء ثم يحول إلى أقراص ويباع لبائعى الأصباغ. وتباع الأوقية منه بأربعة قروش، ويقال إن هذا العشب لا وجود له فى بلاد الهند.

ـ البرسيم:

عشب ينبت فى اليوم التالى من زراعته بمقدار شبر، وهو مرعى جميع المواشى ولولاه لما كان فى مصر مرعى.

ـ القصب الريحانى:

قصب طويل، رقيق فيه عقد، يصنع منه غليون التبغ.

ـ الحصير المصرى:

وهو من شتى الألوان، ويصنع منه حصير الفيوم والبحيرة وتباع الواحدة بأربعين قرشا أو أكثر، وهذا الحصير لا وجود له إلا فى مصر وحدها دون غيرها من البلاد، وبعض الصناع المهرة يصنعون حصيرا وكأنه سحر معجز.

ـ الترمس:

نبات مستدير مفلطح يشبه الفول، ينقع فى الماء المملح ويؤكل، والبعض يطبخه والبعض يطحنه ويصنع منه دقيقا يمسحون يديهم به بعد الفراغ من تناول الطعام ويغسلونها بالماء فهو يزيل الزهمة من اليد. وتستعمله جميع عائلات مصر بديلا عن الصابون فى غسل أيديهم بعد الطعام فهو ذو رائحة زكية. وبعض السمان يدخلون إلى الحمام ويمسحون جسمهم كله بهذا الترمس فيزيل ما علق بأجسامهم من أوساخ ويجعل أجسامهم ناعمة وكأنها الفالوذج، ولذا فإن جميع حسان مصر يمسحن أجسامهن به فى الحمام إلا أنه ليس من أدوات الاغتسال.

ـ الغاسول:

أحد أنواع الصابون وهو نبات ينمو على ضفاف ترعة «الناصرية» المؤدية إلى الإسكندرية، يكوم هذا النبات تلالاً تلالاً فى مكان واحد وتضرم فيه النار فيتحصل من ذلك رماد يصنع منه الزجاج بمشيئة الله.

وقد لا يحرق فى النار ويسحق فى هواوين، ثم يخلط بالطين ويشكل على هيئة أقراص تغسل بها الملابس فتبدو لها رغوة كالصابون تنظف الملابس وتجعلها ناصعة البياض، إلا أنه لا يصلح لغسيل العمائم والقمصان الرقيقة.

والسر العجيب أنه عشب يحرق فى النار فيصير زجاجًا ويخلط العشب بالتراب فيصبح صابونًا. إنه ما يعرف «بالغاسول» يفعل الله ما يشاء.

ـ الحِلبة:

حبة مثـل حبة العدس، توضع فـى صرر من البَز وتنقع فـى الماء فتنمو كأنـها شعر العـرب وتصبح بيــض الأفنـان يأكلـهـا الصبيان، كما يصنعـون منها حساء. وطعمها لذيذ للغاية.

وفى مصر القمح والـشعير والفول والحمص والعدس والقطـن والأرز والـسمسم أكثر منه فى البلاد الأخـرى وأرز مصر ألذ من أرز الهند، وروان وبيلان وحبـته أكبر، ويقال إن أرز المنزلة وفراسكور لا نظير لمثلـه على وجه الأرض وليس فيه حصى، وأجود أنواع الأرز فى مصر هو الأرز السلطانى الأبيض.

ـ النطرون:

شىء يشبه المـلح، لندرة الحطب في مصر يضـعون هذا النطرون إلى الطعـام فينضج اللحم وغيره فى طرفة العين، إلا أن أعيان مصر لا يقبلونه، وعلى الرغم من أنه ينضج الطعام بسـرعة إلا أنه يسبب تورم الخصـية لمن يستعمله فـيمشى يتبختـر وكأنه صاحب الدولة، ولـذا فأغلب أهـل مصر مصابـون بتورم الخصـية ويسميـهم الظرفـاء أصحاب الدولة، وأثناء الكلام إذا قـلت لأحد المصريين «بخ بخ يا صاحب الـدولة» دخله شديد الغضب لأن ذلك يعنى ـ بأسلوب مهذب ـ أنه متورم الخصية.

ثمة ثلاثة أديرة لـلقبط تقع على صخور قـائمة فى الجانب الغربى من كـشوفية طَرَّانَة بالبحـيرة، أمام تلك الأديرة الـثلاثة بحيرة عظـيمة يأتى كل النـطرون منها محـملا على الجمال، وهو الآن تحـتكره الحكومة. وقد بقـى هذا النطرون من أموال قـارون على وجه الأرض. والنطرون شىء عجيب، وإذا سقط الفرس أو الـبغل أو أى شىء آخر فيه ابتلعه النطرون، ولا وجود له إلا فى مصر دون غيرها من البلاد، ويصدر منها إلى جميع أنحاء العالم، ويستخدم فى بلاد الترك فى مصانع الزجاجات فهو يصهر الزجاج فيجعله كالماء.

وفى مصر تلد الشاة ثلاث مرات فى العام، ولا تقل الخضروات فيها قط فى صيف أو شتاء.

ذكر الأشربة المصرية

ـ السوبيا:

أى بوزة الأرز التى سبق وصفها فيما تقدم.

ـ المارة:

بوزة تصنع من القمح إلا أنها مشروب لعين مسكر للغاية.

ـ البريريس:

شراب يصنع من الزبيب الأسود يضاف إليه السكر والتوابل.

وعرق التمر وماء العسل ليسا كمثلهما فى بلاد الترك، وهما مسكران للغاية لعنهما الله.

ـ خمر البالجو:

ينقع الحشيش مع العسل التركى ويتخمر ليلة ويصفى فى الصباح بمنخل فيصبح خمرا خضراء اللون من شربها لم يميز رأسه من قدمه.

ـ ماء الأسرار:

خليط من الحشيش مع حلوى خليل الرحمن، ينقع فى ماء الورد يومين فيصبح براقا ويخرج منه غثاؤه ويباع فى كؤوس فى ميدان الروملى، ومن شرب منه كأسا أفشى ما فى طويته من أسرار.

ـ عصير العرقسوس:

تستورد جذوره من بلاد الترك وتسحق فى هواوين وتنقع فى الماء ليلة ثم تصفى فى مخلاة خيل جديدة فتقطر قطرات حمراء صافية تشرب. إنه مشروب غير مُسْكِر.

وقد ذكر داود فى تذكرته سبعين فائدة له ومن أعظم فوائده أنه يطهر المثانة ويدر البول، كما أنه طارد للبلغم، فالبلغم فى جسم أهل مصر كثير كماء النيل، كما أنه خافض لدرجة حرارة الجسم ويقول داود فى تذكرته كذلك: إنه لولا شرب المصريين

للعرقسوس لأصابهم الجذام من شدة الحر، فالمصريون جميعا يشربون العرقسوس فى الغدو والآصال.

فى الواقع أنه مشروب عظيم الفائدة حقا.

ـ عصير التمر هندى:

إنه كذلك مشروب لا وجود له إلا بمصر لا وجود له فى غيرها، وهو غير مسكر إلا أنه منشط للكبد ومدر للصفراء وطعمه يميل إلى الحموضة.

والأشربة فى مصر كثيرة، أما ما ذكرناه منها فهو مبلغ علمنا بأنواعها.

***

الفصل الثامن والخمسون

ذكر ما لا وجود له فى مصر من حرف وأطعمة ونباتات وغلال

إن عدد المصابين بالرمد فى مصر ما لا يعلمه إلا الله فى حين أنه لا وجود لكحال ماهر فيها، وجيادها كثيرة فى حين أن لا وجود فيها لبيطار، ومرضاها كثير فى حين أنه لا وجود لطبيب يعالجهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتى تمزقت ولا يجد له جراحًا، ورجالها كثير فى حين أنه لا وجود لحاكم يحكمها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين أنه لا وجود لمن يتفوه بكلمة طيبة، وجندها كثرة فى حين أنه ليس لهم ضابط ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لا وجود لمحاسب ذى ضمير. وهذه العبارات أصبحت أمثالا تضرب فى مصر وهى تدور على ألسنة الناس.

ـ ما لا وجود له فى مصر من مأكولات وحبوب:

ومما لا وجود له فى مصر من المأكولات والحبوب هو الدوسر والمعلس واللازوط والجلبان والعليق والزعفران والبندق والفستق والكرز، والكرز الحامض والبشملة والفاكهة الجافة والفراولة والقرانيا والمشمش والقسطل.

ـ ما لا وجود له فى مصر من أشجار:

ولا وجود فى مصر لشجرة واحدة من أشجار الأرغون والدلب والحور وشجر الشذا والغضا والبقس والقرانيا والعرعر والزيزفون البرى والسندر والأرز وشجر الملح والبلوط والللاب والبندق والصفصاف، وتمس حاجة مصر إلى ما يأتى من بلاد الترك من أخشاب البناء فى السفن. ولقلة الحطب فى مصر يباع الحمل منه الذى يزن ثمانين أوقية بأكثر من عشرين باره، وفى بعض أحياء مصر تباع الأوقية ببارة فى دكاكين العطارين وكأنها توتيا. ويستورد التجار الحطب من تركيا ولا يدفعون عليه المكوس. ولذلك فإن جميع أعيان مصر وأثريائها يحرقون روث الماشية وجميع أهلها يحتاجون إلى البراز.

ـ بيان ما لا وجود له فى مصر من معادن:

فالحديد والنحاس والرصاص والقصدير والفضة والزئبق لا وجود لها فى مصر.

ـ أما المعادن الموجودة بها فهى:

الذهب ويوجد فى جبل «بجاميم» بعيون موسى، إلا أنه قليل الفائدة، والزمرد وهو متوفر فى ولاية الصعيد العالى ويقوم باستخراجه «على بك الجرجوى»، والذهب الخالص فى أرض النوبة. وعلى ضوء ما أورده العلماء والمؤرخون إن ثمة سبعمائة منجم للذهب فى ولايات الجبل الأخضر وأوجله وجزيرة مصر، والكثرة المطلقة من هذه المناجم توجد فى ولاية الزنوج بين أناس من الناس كالبهائم، وفى ولاية «ماى بورنو» يبادلون حمل بغل من الذهب بمثله من حمل الخرز. وقياسا على ذلك إن الذهب لديهم شىء لا يرغب فيه.

ويوجد فى مصر كذلك الجبس، وقد أسلفنا ذكرا لكثير من المعادن، بيد أنه فى مصر آلاف من المعادن التى لم تكتشف بعد.

ـ أنواع الأزهار فى مصر:

إن أول حديقة أنشأت فى مصر للتى فى جزيرة الروضة قبالة مصر العتيقة ثم أنشأت بعد ذلك الحدائق العامرة حتى أنشأت حديقة «طوب اتان» أى مطلق المدفع، وهى حديقة كأنها جنة إرم ذات العماد ثم توالى إنشاء كثير من الحدائق وفيها الآن تكثر الورود والرياحين والبلابل، ويستخلص ماء الورد من وردها وهو ذكى الرائحة.

وأزهار القرنفل والبنفسج والياسمين الفل والريحان والريحان المكى والريحان اليمنى والريحان الحنائى والصدف والنرجس والخيرى والنمام والحناء والزنبق والسنبل وزهرة قرن الغزال والمسك التركى والورد الأبيض كلها أزهار حديثة عهد بزراعتها فى مصر.

والشقائق والزرين (زهر أصفر طيب الرائحة) أكثر الزهور انتشارا فى مصر.

وما نعلمه فهو تلك الزهور فكل من أراد أن يزرع نوعا من الزهور زرعه، إلا أن أهل مصر ينقصهم الذوق والنظافة فهم لا يهتمون قط بهذه الأزهار. وهم لا يزرعون أرض النيل أزهارا بل يزرعونها بما يعرف بعشب الروح وهو القمح الذى ورد فى شأنه

آيات كريمة، وهم الآن يزرعونه مما يعود بالرخاء على مصر.

بدع حكام مصر

إذا ما توفى يهودى فى القاهرة يصطحب جميع اليهود بعض جند الصوباشى ويحملون آلاف المشاعل ويحمل جند الصوباشى كامل أسلحتهم ومع دخول الليل يمضى أهل اليهودى المتوفى بجثمانه لدفنه فى مقابر اليهود بالقرب من البساتين وينفقون فى ذلك ثلاثمائة قرش.

ودفن اليهود نهارا ممنوع منعا باتا، ولليهود عذاب أليم اللهم زده.

وهناك العديد من جبانات النصارى منها جبانة بالقرب من مصر العتيقة، وتشييع جنائزهم فى أى وقت.

***

الفصل التاسع والخمسون

ذكر اعتدال جو مصر وبدع ومحاسن شعبها قدر المستطاع

إن ماء أم الدنيا مصر وهى شوق الملوك من ماء النيل، وليس بها نهر آخر، وقد أسهبنا فى وصفه وإحصاء محامده فيما سبق. وجوها معتدل لطيف إلى حد جدّ بعيد، فلا يصاب أهل مصر بالحمى. سيما وقد ذكرنا آنفا أن جو القلعة الداخلية يشرح الصدور، وتنتشر بها الحدائق والرياض والأحواض والشادروانات، ويتردد فيها تغريد البلابل مما يبهج النفوس وهذا ما لا وجود له فى القلعة العليا. إلا أن جوها طيب فإذا ما مرض جنوب المدينة صعدوا به إلى القلعة العليا (أو إلى أعلى القلعة).

والقلعة العليا مصحة للمدينة، والأبنية فى الجهة القبلية للمدينة متلاصقة، لذا فطرقها ضيقة مظلمة ولذلك فعلى سطح كل بيت «عبّار هوائى» لإنفاذ الهواء إلى داخل البيت ومنافذ الهواء هذه من اختراع ابن سينا على ما يقال. وقد صنع ابن سينا هذه المنافذ بعلم السميا وكان يبيع كلا منهما بدينار من ذهب على قدر استطاعة كل أحد، وكان كل منهم يضع هذا العبار فوق سطح بيته ليدخل منه الهواء فيتنسمه أهالى القاهرة.

ولهذا السبب فإن جو الجهة القبلية للمدينة غير متقلب فى اليوم الواحد تهب عشر رياح.

ـ ريح (تياب):

ولكن ريح (تياب) تهب من جهة ( )[1] وتسمى ( )[2] فى بلاد الترك.

إنها فى مصر راحة للأرواح، وهذه الرياح لا تبرد جرار وقلل الماء فى مصر.

ـ ريح المليس:

وتسمى فى بلاد الترك «الودس» وهى وإن كانت حارة التأثير إلا أنها تجعل الماء كأنه قطعة من ثلج.

ـ ريح «مزكب»:

وهى رياح مثيرة للرمال والأتربة، تملأ القاهرة غبارا وترفع ثياب جميع الناس، ومن شدتها تأتى بجميع سفن الحجاج من جدة إلى مصر مما يعود بالخير على البلاد.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

والجهات الخارجية للقاهرة طيبة النسيم، وإذا ما هبت رياح «بويراز» ورياح «لودوس» خمسة أشهر جاءت السفن من بلاد الترك مما يعود بالرخاء على مصر.

كما أن الرياح التى تسمى «بويراز» تأتى بالحجاج من السويس، وتحمل الحجيج إلى جدة وينبع مما يعود بالنفع والخير على مكة والمدينة. وإذا ما هبت الريح المعروفة بلودوس خمسة اشهر وهى أشهر الشتاء جاءت سفن الحجاج والتوابل من جدة وينبع إلى السويس مما يعود بالخير والرخاء على مصر، وتمضى هذه الرياح ثانية بالسفن إلى بلاد الترك. ولهاتين الريحين عظيم الفائدة لمصر وشعبها.

وفى وسط القاهرة يطيب الجو، كما أن أجواء جبل المقطم أى الجوشى ومصيف قايتباى وسهل العادلية وسبيل علام والمطرية وبركة الحاج غاية فى اعتدالها.

أما الجهات القبلية للمدينة فتوجد البرك وعلى حوافها صور سلاطين وملوك السلف، وجوها كذلك يشرح الصدر. ولكن داخل المدينة وكالات وربوع وهى منازل من خمسة طوابق أو أكثر، وفى أيام هبوب «رياح الخماسين» والعياذ بالله فإن لون وجوه الفلاحين، من ألم البّق والبراغيث والقمل والبعوض والذباب والرائحة الكريهة، تصبح وكأنها وجوه أناس مصابين بالصرع، والسبب فى ذلك هو أنه لا وجود فى مصر لقنوات الصرف، بل آبار وفى أيام هبوب الخماسين على الخصوص تكسح المراحيض وهذه القنوات فتفوح الروائح الكريهة والعفنة، إلا أنهم يخبرون أهالى الأحياء بذلك ليهرب الأشخاص ذوو الحساسية بأطفالهم ممن هم فى سن خمسة أو ستة أشهر إلى حى قايتباى أو داخل القلعة أو غير ذلك من القرى.

وبسبب هذه الروائح الكريهة فى تلك الأحياء ينتفخ أعلى مخ الطفل وينفتح فيه ثقب يخرج منه مخ الطفل وقد أحمض كالبوزة فيموت الطفل.

وجملة القول أن رياح الخماسين تلك ضارة للغاية، وسميت هذه الرياح بهذا الاسم لأن الله ابتلى بها بنى إسرائيل بخمس مصائب فى خمسة أسابيع.

وبعد أن تفشى الطاعون وعم القحط وانتشرت الأفاعى والعقبان طيلة خمسين يومًا ثم دفع هذا البلاء بفضل دعاء موسى ـ عليه السلام ـ. وعندما تحين الأسابيع الخمسة تلك يسارع أهل مصر إلى توزيع الصدقات، فى حين أن الدنيا تنهدم فوق رءوس

المسنين وتستولى عليهم الكآبة، أمـا الباشاوات فيسرون سرورا لا مزيد عليه إذْ إن بعض القرى تصبح محلولة فتكون من نصيبهم.

وفى جو الخماسين السيء لا يلامس ذوو الحساسية نساءهم، ففى تلك الأيام تضعف أجسامهم وتقل قوة نـطفتهم. أما إذا عيل صبرهم ولامسوهن ولـدت لهم أطفالا عمى مجذومين وذوى نمو غير مكتمل وعرج.

وهـذه الأيـام المنحوسة فى مصر توافق أيام الربيع فى بلاد الترك، بيد أنها فى مصر أيام الجحيم. ولا يهب نسيم الصبا فى العـريش نحو القاهرة ولا يهب منها كذلك ريح سام.

وإذا ما هبط مصـر شخص من بلد آخر طابت لـه مستقرا ومقاما وتعـود على جوها وصـح جـسمـه، فبركـة دعاء يوسف الصديـق ـ عليه السـلام ـ يصبح الغريـب موفور العافية عظيم الثراء إلا أنه لحكمة لا يعلمها إلا المولى ـ سبحانه وتعالى ـ فإن أعين أبنـاء الغربـاء الـذين يتوافـدون على مـصـر تصـاب بالرمـد وكأنها عـين ابن الـعبد وهذا ما يتحتم حدوثه. يا لها من حكمة عجيبة. وبأمر الله عندما يولد أطفالهم يولدون ضعاف البصر.

والكثرة الـكاثرة من أهل مصر يـضعون ملح النطـرون فى طعامهم، لـذا يصابون بتورم الخصـية وهنا تبدو نـسـاؤهم وكأنـها حوامل. وتـتورم أرجل فلاحيهـم كأنها القرب.

يحكى علماء مصر أنه عندما أرسـل يزيد رأس الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلى دمشق، ثم أرسله إلى عامله على مصر والـذى كان يدين له بالولاء، فوضعه فى جامع السلطان حسن بميدان الروملى، وجعل اليزيديون ـ الذين كانوا ينتشرون فى مصر آنئذ ـ يركلـون الرأس الشريـف بأرجلهم، وكـان كل من ركل رأس الحسـين برجلـه تورمت وأصيبت وكأنها القربة ومن فى مصـر الآن من ذوى الأرجل المتورمة كالقربة من سلالة هؤلاء اليزيديين.

وهذا ما رواه علماء مصر.

- تفشى مرض الجذام بين المصريين:

وفضلا عن تورم أرجل هؤلاء تورمت وجوههم وأجسامهم، وأغلب فقرائهم وغيرهم مصابون «بالجذام» فى وجوههم وعيونهم وأجسامهم. ويسمى هذا المرض فى بلاد الترك «بالجرب الأفرنجى» وهو مرض متفش فى مصر ولا يسبب أى حرج لمن يصاب به، ويخالط فلاحو مصر المصابين به ممن تآكلت أطرافهم قائلين لهم: أهذا جذام. حتى إنهم يتناولون معهم طعامهم ولا يخافون قط من هذا المرض لأنه أكثر الأمراض انتشارا فى مصر إذ إنه لا وجود فيها لمستعمرات لهؤلاء المجذومين على حين أنها توجد فى سائر البلدان الأخرى حتى لا يقيمون فى داخل المدينة. ويتصدق أهالى الولايات بأموال زكاتهم على هؤلاء المرضى وذلك امتثالا لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، أما فى مصر فلا يجدون من يتصدق عليهم بحبة قمح.

- سبب تفشى الجذام فى مصر:

والسبب فى انتشار الجذام فى مصر هو إباحة الدعارة فيها، فبغاياهم يسرن فى الطرقات أسرابا أسرابا.

والمصريون قوم سمر البشرة، متوسطو الطول، أما فلاحو القرى فمنهم أشخاص ضخام الجثة وكأنهم دابة الأرض. ولسانهم عربى إلا أن كلامهم ليس فى بلاغة فلاحى مكة والمدينة وبغداد ودمشق، ولأنهم قوم فرعون الجبابرة فهم يحرفون الكلام فبدلا من أن يقول أحدهم للآخر «تعال اقعد» يقول «تعقعد» وذلك من قبيل تخفيف الكلام، وهم يسمون الخبز «رغيفا» و «شيلواقا» ويسمون الماء «موى»، ويقولون «دى» بدلا من هذا. ولهم غير ذلك من ألفاظ مهملة محرفة.

ومن فصيح أشعارهم هذه الأبيات:

ياسين ياسين يا غزال ياسين ∴ أنت الورد وأنت النسرين

بالله قل من هجرانك وارحم أنا ∴ الغريب المسكين

يا روحى يا قلبى يا بعدى ∴ يا قمرا يحيى لعندنا المحبوبين

إلا أنهم على المذهب الشافعى القويم.

أسماء فلاحى مصر

ولفلاحى مصر أسماء منها: جاد الله ، حيا الله، عبد الخالق، عبد الصمد، عبد الغفور، حمى الله، هاشم، طه، ياسين، مرزوق، حمد الله، حمد، شرابى، طاهر، عبد الحى.

وهذه الأسماء المذكورة أسماء العوام، أما أسماء الخواص فسوف نذكرها فى حينها.

- طوائف أهل القاهرة:

وينقسم أهل القاهرة إلى طوائف منهم طائفة «التجار» وهم قوم ثراة، والكثرة الكاثرة من أهلها من الحضر، وهم يعيشون فى رغد وسعة، ومنهم طائفة «الحرفيين» وهؤلاء يعيشون فى كفاف. وطائفة منهم هى «الترك» يشكلون طائفة الجند وأغلبهم من مماليك من الأبخاز والجراكسة والجورجيين والروس وزنوج العرب وهم جند أتراك غاية فى بهاء ثيابهم واكتمال أسلحتهم.

وطبقا لما جاء فى قانون السلطان سليم لم يكن يسمح بتجنيد «مستوى القدم» من فلاحى مصر.

ويرتدى كل ثيابا قدر ما يستطيع ويلبسون الصوف الحورانى والسراويل الحمر، أما الحرفيون إذا ما ارتدى أحدهم هذه الثياب وقع تحت طائلة العقاب. والصناع يرتدون فاخر الثياب وأنواع الحرير إلا أنهم لا يرتدون السراويل وصيفا وشتاء يتجولون عراة السيقان وكم من مئات الآلاف من فلاحى مصر يمشون عراة.

وجميع أهل القاهرة لا يلبسون السراويل، أما علماؤها فيلبسون العباءة.

ذكر نساء مصر

وجميع نساء القاهرة لا يلبسون السراويل، أما النساء التركيات هن اللاتى يلبسنها ويلبسن على شعورهن قلانس مخيطة بالذهب والفضة وعليها ريشات، ويلبسن الأطواق والقرطة والخلخال والمعاضد والمناطق المرصعة، ويلبسن القباء الحريرى المزركش وفوقه قباء من قماش مموج أبيض وإزار أسود. ونساء الأعيان يلبسن القلانس التى تسمى «سلامية» وفى أقدامهن الخفاف الصفر والنعال المزركشة الخفيفة ويركبن

حمرهـــن ويتجـولـن فـــى الطرقات فيـنضح منـهن شذا المسـك والعنبـر فى الأسواق السلطانية.

وفى كل بلاد الدنيا ثمة حسان لا نظير لهـن فى حسنهن وجمالهن، ومن عجب أنه ليس بين نساء القـاهرة حسان، وبعض الأثرياء يتزوجون من بنات قـبائل بهجة وحنادى والحضرى، ومنهـم من يستقدم العذارى الحـسان من بنات الترك والتـى تساوى الواحدة منهن خزانـة مصرية، فهن حسناوات فاتـنات ينطبق عليهن قـوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، كما أن الغلمان الصباح يأتون من خارج مصر، أما ما فيها منهم فهم لا يعمرون طويلاً. وإذا ولدت إحدى الجميلات فى مصر رمدت ـ عينها، وللحضر بنات رشيقات القوام كأنهن أمهاتنا.

اسماء نساء مصر

اسماؤهـن: مريم، حواء، عذراء، صفـاء، ورقاء، وردة، امهان، كلثـوم، رابعة، رقيـة، زينب، ستيتة، زلـيخا، زالحة، صـالحة، دمريـة، عجيـبة، شناس، طـاهرة، وسامعة، ماهية وأسماء أخرى مستطرفة وحسبنا هذا القدر.

وللجوارى الحـبشيات أسماء تـثير العجب منـها: خسيسة، قسـيسة، نفيـسة، فتنة، أشمينة، شمسيـة، شمونة، ريحانة، هدية، وردية، حمراء، قمراء، عـمبرية، جميلة، وأسماء كثيرة من هذا القبيل إذا ذكرناها ألقى علينا اللوم.

أما خارج القاهرة فى الـقرى والبليدات فثمة حسان صعيديـات وبدويات لهن عيون الظباء ووجوه منيرة يقصر اللسان عن وصف جمالهن.

ـ طقوس ومراسم زواج الفلاحين فى مصر ـ

للفلاحين تقاليد مرعية توارثوها عن أسلافهم، فإذا ما شاء واحد منهم أن يزوج ابنته مسلما فهذه الزيجة تتم وفق أصول وطقوس مرعية.

اتفق أن كانت هناك ليلة زفاف فاجتمع ما يقرب من ألفى شخص من أهل العروسين وأقاربهم وعقب وليمة عظيمة طعموا فيـها الملوخية والقلقاس والجبن خرج فتى من أحد جوانب الساحة وعلى رأسه شال الإنكشارية وفـى وسطه منطقة وفى إحدى يديه سكين

وفى يده الأخرى فأس وأخذ يصيح ويضرب الحاضريـن فجرح كثير منهم وحطم بعض ما لديهم وكان هذا الـشاب وكأنه ثمل وكان إذا ما تكلم أو أقدم عـلى عمل شىء يقوم بعض الحضور ويقبلونه ويجلسـونه فى ركن، ولعله كان ابنا لأحد المجرمين، ثم قام ثانية وصاح قائلا: «أين سيـدنا» وبحث عمن يتزوج ليقـتله فتقدم إليه من يتـقدمون بالرجاء وقالوا له: «ما فى بالى يا عينى».

وقبله من فى المجلس وأغمدوا سكاكينهم ومضى.

وعندما ذهـبت العروس الجميلة تـلك لتلتقى بزوجـها جلست فى ركن بيـن مظاهر الأبهة وأقبـلت بعض صديقاتـها قائلات: «الحمد لله فـقد جاء معشوقك» لـقد غضب وبحث عنك فلم يـجدك، ولابد أنه قد بسط لسانه بالسوء وعنـدئذ وقفت العروس هى الأخرى وقالت: عجبـا إن معشوقى إذا ما أراد أن يقتلنى فأى ذنـب كان منى، قال إنه سيقدم عشرة أكياس صداقا واطلع الحضور علـى ما أنفق منذ شهر أو أكثر من دفتر فى يده. وكل منهم كان يتباهى بما قدم إلى ابنته من صداق.

وأمسـك مـن يريـد الزواج بسكين معقـوف ومشى غاضبا بين جموع الحاضرين وقال إنه أنفق مالاً كثيرا وإذا مـا وجد من يحبها فسوف يقتلها، ثـم ظهرت العروس من أحد أطراف تلك الساحة ففر طالب الزواج هذا واختفى فى ركن ولم يعد له من أثر وجاءت العروس فـى زى آخر وقد لبسـت ثوبا أحمر فخـرج بعض الناس لاسـتقبالهـا وقالت العروس:

إن بينـى وبين فلان عـداء وشاء أن يقتلـنى وقد قدم إليـه أبى وأمى هذا الـقدر من أكياس الجوهر والأوانى الذهبية وعرضت ذلك عـلى جميع الحضور فعرفوا من ذلك أن فلانا قدم كل ذلك لهذه العذراء، وكانت الفتاة إذا ما سكتت لقنها أقاربها، ثم أخرجت العروس سكينـها ومضت وجاء من يريد الزواج فى ثوب آخر وزعـم أنه قدم مالا جما لوالديها وعمتهـا وخالتها وهدايا أخرى كثيرة، ثم جاءت العـروس فى سروالها الأحمر والخنجر معلق فى خصـرها وكأنها جندى فأمسكت الخنجر وبحثـت عنه ثم جلست فى خيلاء وتكلمت كلاما تقدم فيه النـصح ومضت، ثم قدم طالب الزواج وفى إحدى يديه

عصا وفى الأخرى سبحة وهز رأسه ووحد الله كثيرا ثم مضى وحاصل الكلام أنه فى تلك الليلة الطويلة حتى مطلع الفجر غير العروسان ثيابهما عشر مرات ومضيا وقدما واشتجر بينهما الخلاف غير مرة وفى النهاية انحنت العروس على ركبة من تريده زوجا وتبادلا القبلات ثم رفعت مئات المشاعل وقرعت الطبول كما أضيئت القناديل فى تلك الساحة وغمرت البهجة الجميع وارتفعت الأصوات من كل جانب بإنشاد القصائد والتغنى بالمواويل وفى هذه الأثناء ظهرت المشاكل من جهة أخرى. مضت العروس على صهوة جواد مرصع السرج وهى فى قباء من السمور وهى فى كامل زينتها وفوق رأسها تاج فرعونى عليه ثلاث ريشات متفرعة وهى مكشوفة الوجه وهى تلوح بالسلام إلى من اصطفوا على جانبيها ووقف الفلاحون جميعا وردوا عليها السلام وعلى جانبى العروس اصطف مئات من النساء والصبيان يحملون الشموع ويصيحون قائلين: «الله ينصر السلطان» ومضوا بالعروس وفى يديها منديل وعلى رأسها التاج الفرعونى ويقف جميع الفلاحين إذا ما لوحت العروس لهم بمنديلها.

وصف تاج العروس الفرعونى

قلنسوة من جلد الجمل المدبوغ فى حجم القدر وكل زاوية من زواياه الثمانية مخيطة بالذهب وفى سالف الزمان كان بين زواياه مرصعًا بالدر والآن مواضع هذا الدر ظاهرة، وداخله مكسو بمخمل صفيق وهو وردى اللون وحتى قمته حجر سيلانى فى حجم التفاحة وأطرافه مزدانة بالعقيق والحجر اليمنى، إنه تاج عجيب.

نزلت العروس عن جوادها فى تلك الساحة ونادت من يطلب الزواج منها قائلة: أين من يطلب صاحبة المقام العالى. فجاء وكر وفر أمامها فحملت العروس الخنجر المعقوف وأمسكت بلحيته وجذبتها إلى أسفل وعندما همت بذبحه جاء من أصلح ذات بينهما وأصلحوا بينهما مع الاتفاق أن يبنى الزوج لها بيتا أو ينشىء لها بستانا أو يبتاع لها عدة جوار أو يقدم لها عدة أكياس وشهد جميع الحضور على ذلك وعندما قرأت الفاتحة خطف الزوج زوجته من بين الحاضرين وفى التو خلع التاج عن رأسها فى حجرة ثم افتضها، فسال الدم منها، وأطْلَعَ دمها على والديها وقومها فعرضت العروس شكواها

ببعض كلمات وهذه فخر لوالديها على أن بنتهما ظلت عفيفة لم يلمسها أحد من قبل قط، ففى العرب وخصوصا لدى فلاحى قبيلة الحضر يصعب وجود فتاة عذراء، فعمر قلب والديها وأقاربها بالطمأنينة ورفعوا عن رأسها التاج الفرعونى، كما أطلع أبوها وأمها هذا الدم على الحاضرين ودعوا الزوج إليهم وسألوه لماذا سفك كل هذا الدم فأنكر أن يكون فعل ذلك فقالت العروس: انظروا إلى ملابسه تجدونها ملطخة بدماء بكارتى، وعندئذ نظر جميع الحضور فى ثياب الزوج فرأوا آثار الدماء عليها، فتعلقت العروس بعضو زوجها وتعلق الأب والأم بوسط الزوج وطالبوه بأن يدفع دية ذلك الدم المسفوك، ثم أصلح المصلحون بينهم وقدم الزوج هداياه إلى أبيها وأمها دية لهذا الدم المراق، وعندما طالبا بالمزيد حضر والد الزوج وأمه وأقرباؤه واحتدم الخلاف بينهم، وقالوا سلبتم ابننا كل ما يملك دون حق وشهد على ذلك الحاضرون وتدخل من أصلح ذات بينهم وقدمت الهدايا إلى والدى العروسين وأقربائهم ليلزما الصمت وتم الصلح بينهم وتراضوا جميعا وجلسوا فى مكان واحد وعمت البهجة والسرور نفوسهم حتى مطلع الفجر وأطلقوا البنادق وغنى المطربون وعزف العازفون بما أدخل البهجة حتى على روح فرعون الخبيثة وكان الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث عن الجماع.

هذه هى عادات الفلاحين الحضريين وطقوس الزواج عندهم.

إلا أنهم لا يسمحون بتزويج بناتهم من الغرباء ويحافظون على ذلك التاج الفرعونى.

أوصاف الاحتفال بختان البنات

يعتاد الفلاحون على الاحتفال بختان بناتهم، فيقيمون حفلا بهيجا عند ختانهن وكأنه عرس عظيم، وتركب آلاف النساء الحمر فى موكب عظيم ويمضون بالبنت إلى الحمام ثم يمضين بها ثانية إلى بيتها وفى تلك الليلة تحضر النساء الخافضات وعندما يقطعون بَظْرَ البنت يقام حفل وكأنه العرس.

وقد بقى هذا الختان من عهد سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فعندما كان فى مكة أرسل إليه الملك طوطيس ملك مصر جارية وهى أمنا هاجر. فغارت منها أمنا سارة فقطعت الشحمة الزائدة فى فرج أمنا هاجر، ولكن لحكمة لا يعلمها إلا الله أصبح جماعها لذيذا. ومنذ ذلك الزمان وعادة ختان البنات عند العرب وهى مأخوذة عن أمنا هاجر وقد ولد إسماعيل عليه السلام لهاجر.

وصف الاحتفال بختان الصبيان

إنها أجمل العادات فى مصر لأن الناس جميعًا من فقراء وأغنياء إذا ما ختنوا أولادهم اتباعا لسنة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعاون بعضهم بعضا فيجمعون عشرة أو خمسة عشر أو عشرين طفلا ليذهبوا بهم إلى الحمام فى جوقة موسيقية وقد حملوا عليهم الذهب والفضة وأركبوهم الخيل وعلى رءوسهم جميعًا ريشات سلطانية يتقدمه جنائب عليها السروج المرصعة ويتقدمه كذلك مسنو الحى والأحياء المجاورة وقد حملوا السلاح وازينوا ويمضون صفا صفا وهم يتبادلون الفكاهات، كما يمضى بينهم من يحملون القناديل والأعلام ثم يركب الجراح جواده يتقدمه صندوق به جميع آلات الختان يحملها رجل على رأسه ويمضى مساعد الجراح وعليهم مناشف من الحرير سيرا على الأقدام، وقد ركب الصبيان الذين سيختنون العجول والحمر والخيل ويستعرض المضحكون المضحكات ويطوفون الأسواق بهؤلاء الأطفال على هذا النحو على نغمات الموسيقى العسكرية والأغنياء والفقراء على تلك الحال. ويدوم هذا الاحتفال ثلاثة أيام بلياليها فى صخب وجلبة وتقام الولائم وفى كل ليلة فى مدينة القاهرة تعم البهجة فى مائة مكان وتقام الاحتفالات وتتلى الموالد، وتزدان شوارع القاهرة وأزقتها بآلاف القناديل وتوزع الأطعمة وينادى المنادون من قبل الصوباشى طوال ثلاثة أيام بأن تظل المقاهى وما حولها من حوانيت الأطعمة والأشربة مفتوحة حتى مطلع الفجر، ويستمر البيع والشراء.

وخيرا يفعل الناس علما بحديث رسول الله ﷺ وهو: «أعلنوا الزفاف ولو بالدفاف»[1].

فما فى مصر من هذه الأبهة لا وجود له فى ديار أخرى.

فضائل أهل القاهرة

إذا ما مرض أحد فى القاهرة قدم عليه جميع أهل الحى لزيارته وتقديم الهدايا إليه، وإذا توفاه الله أخطروا أمين بيت المال وجهزوه وكفنوه ووقف جميع أهل الحى عند بابه وغسلوه وهم يسبحون ويوحدون، ويضعونه فى النعش ويزينونه بماء الورد والريحان ويقوم جميع العلماء والصلحاء والمشايخ بالتوحيد والتسبيح ويدخلون نعشه فى الجامع الأزهر ويصلى عليه جمع غفير ثم يمضون به إلى القرافة أو إلى الموضع الذى يسمى «زاوية الجنازة» أى سبيل المؤمنين بميدان الروملى وهناك يصلون عليه ويذهبون به إلى مقابر الإمام الشافعى أو مقبرة من المقابر الاثنتى عشرة. وأفضل هذه المقابر مقابر أخى يوسف فى سفح جبل الجوشى أو مقبرة الشيخ عقبة. أما الفلاحون فيدفنون بالقرب من مصر العتيقة فى القرافة العتيقة. ولما كان فرعون صوباشيا أحاط هذه القرافة بسور وكان يحصل ضريبة على كل ميت يأتون به لدفنه فيها.

ويمضى الفلاحون فى جنائزهم رافعين الأعلام، ويتبعهم نساؤهم وهن على الحمر وفى أيديهن مناديل يلوحن بها وقد كشفن عن وجوههن ونشرن شعورهن نائحات باكيات.

ونعوش هؤلاء الفلاحين مسنمة كنعوش النصارى يحملونها على سلالم متحركة إلا أنهم يمعنون فى تزيينها وبذلك يكرمون موتاهم ويقيمون عليهم صلاة الجنازة على الأصول الشرعية.

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب النكاح، باب ما جاء فى إعلان النكاح حديث رقم ١٠٨٩، وابن ماجة فيه حديث (١٨٩٥) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٧/ ٢٩٠ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولفظة: «أظهروا النكاح واضربوا عليه بالغربال».

فضيلة أخرى لأهل القاهرة

ولأهل القاهرة عادة أخرى مستطرفة ففى ليلة جمعة يمضى مئات الآلاف من النساء والرجال إلى الاثنتى عشرة قرافة فتصبح وكأنها بحر من الناس وهناك من يختمون القرآن الكريم ويتلون سورة «يس»، ويوزعون الصدقات على الفقراء.

وجميع الأضرحة مبنية بالحجر وتحتها مخازن يسمى الواحد منها «فسقية» ويسمى الواحد من هذه الأضرحة «بيت الحزن» ولها نوع خاص من الأبواب وهى موصدة بالتراب، تفتح عند الدفن. وتتسع الفسقية الواحدة لدفن مائة أو مائتين إلا أن الجثث لا تغطى بالتراب وإنما توضع فى أكفانها بعضها يتعفن وبعضها يتيبس ثم يسدون الباب بالجصّ الخرسانى. ففى مصر كثير من لصوص المقابر الذين يسرقون الأكفان. حتي إنه فى عهد جان بولاد زاده حسين باشا وضع بعض لصوص المقابر على الخاذوق فى ميدان الروملى وخنقوا بالأكفان التى سرقوها وذلك لتطهير الدنيا من شرورهم.

وعلى كل قبر يحفرون تاريخا بماء الذهب يصففون قبابا مكشوفة وينثرون فوقها الحب ويضعون الماء للطيور. ويضعون كذلك على قمة كل قبر الآس والريحان وفى تلك الأيام تمضى النساء إلى القرافات دون إذن من أزواجهن، كما أنه لا يحق لزوج أن يسأل زوجته إلى أين أنت ذاهبة، إذ إن زواجهما انعقد شريطة ذلك.

وفى غير ذلك لا يستطيع زوج فى القاهرة أن يسأل امرأته أين كنت، إذ إن عزيز مصر وقع تحت سطوة «زليخا» ومنذ ذلك الحين والرجال فى مصر مغلوبون على أمرهم تحت تسلط زوجاتهم. وهذا هو عرف مصر وما جرى فيها مجرى العادة.

وما من قوم يحبون موتاهم ويخلصون لهم إلى هذا الحد إلا فى مصر.

مصدر رزق فقراء القاهرة

يستطيع المصريون أن يفيدو من كل ما فى الوجود ويصنعونه للكسب منه.

- حرفة مستطرفة -

وفى ليلة مولد الإمام الحسين فى شهر المحرم بمدينة القاهرة يجتمع آلاف من يهود القاهرة كل ثلاثة منهم فى موضع وفى أيديهم زنابيل كبيرة يحرقون أنواعا من البخور ويبيعونها وأثناء ذلك يرفعون أصواتهم الرخيمة بالغناء، وثمة نوع من البخور يبيعونه لا مثيل له. ويقال إن هذه العادة بقيت فى القاهرة منذ نقل رأس الحسين إلى مصر وعهد السيدة نفيسة.

ـ متسولو القاهرة:

ولكن المتسولين الذين لا عمل لهم فكثير فى القاهرة، ففى القرافات المذكورة ليلة الجمعة وليلة الإثنين لا يسلم أحد من هؤلاء المتسولين الجبابرة. وبعضهم يقترب من أحد الأعيان وبعد أن يلقى السلام عليه يتملقه بمعسول الكلام إلى أن يصل معه إلى بابه.

وهنا وبأسلوب لا يخلو من القحة والوقاحة يقول له المتسول: «أعطنى يا سيدى نفقة أهل بيتى»، أما إذا كان المار فقيرا فلا يسمح له الشحاذون بالسير فى السوق.

حادثة

اتفق لى ذات يوم أن أردت قضاء حاجتى فدخلت مرحاض جامع السلطان حسن وأغلقت على بابى ولا شعور لى بأحد وبينما كنت أقضى حاجتى فتح على الباب متسول ومد إلى يده قائلا: «أعطنى صدقتى يا سيدى» وعلى الرغم من أننى لم أكن قد تطهرت بعد سارعت إلى إعطائه فقال لى المتسول: «زادك الله نجاسة» وانصرف؛ بعد ذلك تطهرت وخرجت وتوضأت وصليت فى جامع السلطان حسن ثم التقيت بصديق حميم وقصصت عليه ما وقع لى. فقال لى ذلك الصديق: بالله أمجنون أنت؟ أصلحك الله، أيلطخ أحد يده بالنجاسة هكذا فقلت له: إذا ما فتح أحد باب المرحاض هكذا وعورتك مكشوفة فذلك أمر الله، أكان يطلب نقودا؟ فقال هذا الصديق: أكان هذا الرجل أصفر اللحية، متوسط القامة، مسطح الجبهة، مستدير الوجه، تترى السحنة يشع من وجهه النور؟. قلت: نعم، إنه تترى السحنة، أصفر اللحية. فقال لى أيها الظالم إنه قطب من أقطاب صوفية القاهرة وقد ظهر لك فى بيت الخلاء ليختبرك فلما نظرت إليه نظرة ازدراء واحتقار ومسحت يدك بالنجاسة، ولذلك دعا الله عليك بأن يزيدك نجاسة. ولما قال لى هذا شرد عقلى وطاش صوابى وبعد مرور شهرين على تلك الواقعة أصبت بمرض «الزحار» وتحققت دعوته على بقوله: «زادك الله نجاسة». ولكنى ولله الحمد تصدقت فشفانى الله من هذا المرض.

فكم من فقراء مصر من المغمورين من لهم عظيم المنزلة عند الله.

لا تحسبن أن كل غابة خالية ∴ فربما استتر نمر فيها

وصف الملامين

فى القاهرة آلاف من حاسرى الرءوس من المجاذيب، منهم من يأخذ النقود ومنهم من لا يأخذ، ومنهم من يأخذ الخبز ومن لا يأخذ، ومنهم مَنْ لا يتكلم البتة ويمضى صامتا ولكن إذا تَلاَ القرآن الكريم أذاب أكباد من سمعه، وبعضهم يأخذ الكسوة وكل منهم له أطوار وحركات خاصة، وبعضهم يعتم بعمامة من الصوف وكأنها وعاء الماء المغربى التى لا يستطيع شاب أن يحملها فهى عمائم تزن الواحدة منها ثمانين أو تسعين أو مائة أوقية. ومنهم من يتخذ عمامة من ليف النخيل وهى كذلك فى حجم قبة الحمام إلا أنها خفيفة الوزن ويسمون من يلبسها «أبا الليف»، ومنهم من يتجول عاريا تمامًا كمن ولدته أمه.

وهؤلاء الدراويش لا يحصون كثرة كما أن الفقراء والمجاذيب والملاميون كثير لا يقعون تحت حصر، وهم إذا ما دخلوا الحمام تستروا بالمناشف وإذا ما خرجوا مشوا عراة بين الناس. وثمة حديث قدسى ورد فى شأن هؤلاء يقول عز من قائل: «أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى». أى إنه لا يجوز التعرض لهم، لأنهم اختاروا الفقر والفاقة ولا علم لأحد بحالهم إلا الله، ويقول صلى الله عليه وسلم: «الفقر فخرى». لذا فهم يرددون قولهم:

تالله إننا لنفخر بالفقر ∴ لذلك نمضى فى هيئة الفقراء

إلا أن معدميهم كثير لا حَبَّةَ لهم ولا جُبَّة.

المجاذيب الإلهيون

ومن أعظم هؤلاء الشيخ «إسماعيل الصنافيرى» فى حى (   )[1]على طريق بولاق، وكم من كرامات له أظهرها. اتفق ذات مرة أن ذهبنا أنا وصهر أحمد باشا

(١) بياض فى الأصل.

الدفتردار وأحمد أغا المهردار والجاشنكير الرئيس وبعض الإخوان والأصدقاء واشترينا عدة أوقيات من الرمان لتقديمها هدية له وكان يسكن فى إحدى وكالات الحُمُر، ولما قدمناه عليه وجدناه يفترش التراب وعلى ظهره خرقة بيضاء تغطى أكمامه أما ما تحت عورته فكان عاريا. ومن بجانبه من الدراويش دعونا لنجلس بجانب الشيخ فجلسنا دون أن نقرأ عليه السلام وكل منا جذب انتباهه خاص من شأنه ووضعنا الرمان أمامه فتناول منها رمانة وهو راقد فى مكانه، ثم قدم إلى كل منا رمانة كما قدم إلى دراويشه، ولكن ما أتيناه كان تسع رمانات فى حين أنه وزع منها ثمانى عشرة رمانة. ثم أعطى كلا منا قطعة من حجر، كما أعطانا حجراً كبيراً وقال لنا: «أعطوا هذا الحجر للباشا وليعطيه إلى جنده وليرحل من مصر إلى بلاد الترك، وليأت من بغداد وليأت من بغداد» ولم يقل غير ذلك ولا دعا ولا أثنى، فنهضنا ومضينا إلى قصر الباشا، وقدمنا إليه الحجر المذكور وأخبرناه بما قاله الشيخ الصنافيرى. فقال الباشا: سبحان الله. ووضع الحجر بجانب كتبه، وفى اليوم التاسع عمّت الثورة والتمرد، وأسقط الجند أحمد باشا وقدم عبد الرحمن باشا من بغداد، وأصبح واليا على مصر. ولعل قول الشيخ «ليأت من بغداد ليأت من بغداد» إشارة إلى مجئ عبد الرحمن باشا من بغداد. والله سبحانه وتعالى أعلم. فهذا ما وقع.

***

الفصل الستون
العلماء المستجابة دعوتهم فى مصر وشيوخها وفضلاء الدهر فيها وأئمتها وخطباؤها

ـ الشيخ على الشمرلسى:

قطب علماء وصلحاء ومشايخ القاهرة وشيخ شيوخها وأعقلهم. إنه أهل ورع وأهل حال وهو من بليدة فى مصر تسمى «شمرلس». إلا أنه ولد أكْمَهَ[1] بأمر الله، ولكنه كان يلقى دروسه فى الجامع الأزهر فى أربعة مواضع وكان له اثنا عشر ألفا من التلاميذ وكان فريد دهره فى علمه، كما كان يدرس مرتين فى داره وهو من العلماء العظام المتبحرين الذين تحل على يديهم المعضلات. وهو ولى من أولياء الله ما فى ذلك شك، وقد اطلع على مسائل الشرع فى الكتب الأمهات وكان يشير إلى المسألة من المسائل ويعين موضعها فى الصحيفة والسطر. وأحمد الله أنى شَرُفْتُ بصحبته فهو فريد دهره فى فضائله وكراماته.

ومن كراماته أنه:

إذا سلم عليه أحد مرة واحدة فى عمره وأراد التعرف عليه كان يسأله عن اسمه وقريته واسم أبيه، حتى إذا ما قدم هذا الرجل عليه بعد خمس أو عشر سنوات وسلم عليه رد عليه قائلاً: وعليك السلام يا ابن فلان. ومن باب أولى إذا ما سلم عليه أحد من تلامذته رد عليه السلام قائلا: وعليك السلام يا ابن فلان. فهو يعرف أسماء تلامذته أجمعين.

ـ الشيخ أحمد العجمى:

كان فريد دهره فى علم الحديث، إلا أنه ليس ضريرا، وجاء على لسانه أنه كان يحفظ سبعين ألف حديث مما فى الكتب الأمهات القيمة مثل البخارى ومسلم، فقد كان أعجوبة دهره فى قوة حافظته.

---

(١) الأكمه: الأعمى. كَمِهَ من باب تَعِبَ كَمَهًا : عَمِيَ.

ـ شيخ الإسلام بولوى مصطفى افندى:

كان شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية، وطلب الصدر الأعظم كوپرلى منه استصدار فتوى بقتل دلى حسين باشا لفشله فى فتح قلعة «قندة» فى جزيرة كريت فقال بولوى افندى: أأفتى يا سيدى الوزير بقتل دلى حسين باشا؟ ولو كنت أنت قائداً ضعيف الشأن مثله ومضيت إلى جزيرة كريت ووفقت إلى فتحها وثبت تقصير حسين باشا حينئذ لا أستطيع كذلك أن أفتى بقتله، لأن الفتح والنصر من عند الله.

فقال الوزير كوپرلى: أنت لم تقطع برأى وقُلْتَ الله أعلم، إنك صاحب سجادة الآن.

فقال بولوى أفندى: حبذا أن أعزل نفسى من التصدر للفتوى وخرج من مجلس كوپرلى فأرسل بعض الأشخاص فى أثره إلا أنه لم يعد، ولم يصدِّق بعدها على فتوى قط. وعندما أسندت الفتيا إلى «أسيرى محمد أفندى» أصدر فى التو فتوى بقتل دلى حسين باشا فسجنوه فى قلعة «يدى قلة» وقتلوه فيها. ونفى بولوى أفندى إلى مصر وأسند إليه قضاء الجيزة ليعيش منه، وقد أذاع علم الفقه فى القاهرة وأصبح جميع علماء القاهرة من زمرة الفقهاء. وكأنما كانت داره مدرسة وكان حاتمى الكرم يقدم الطعام مرتين لجميع تلامذته، كما كان صالحا صاحب وقار.

ـ الشيخ عبد القادر افندى:

من بغداد وهو تقى ورع متضلع من شتى العلوم والفنون، بينما كان كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر قرأ عليه بين شواغله الكثيرة صحيح مسلم والبخارى وتفسير ابن جرير الطبرى. وكان فى زمانه بحر المعارف بل النعمان الثانى، وله أشعار بالفارسية والتركية تخلص فيها بـ «قادرى».

ـ الشيخ عبد القادر المغربى:

وإن لم يكن واعظ منبر إلا أنه حينما كان يعظ تلاميذه فى الأزهر كان جميع تلامذته يفيدون كثيرا مما يقول، إذ كان لكلامه عميق أثر فى النفوس.

- **الشيخ أحمد المرحومى:**

وهو من محلة المرحوم فى المنوفية، وهو من تلاميذ أستاذنا الشيخ «على الشمرلسى»، بيد أنه سلك طريق التصوف وكان له العلم اللدنى، أطال الله فى عمره.

- **الشيخ يحيى المغربى:**

كان يناظر «وانى[1] افندى» فى مجلس السلطان محمد الرابع[2] وأفحمه فى علم الحديث وعلم التفسير، وكان يتقاضى من خزانة مصر مائة أقچة يوميا منحة من السلطان وكان يلقى دروسا عامة فى الأزهر، وكان صاحب دعابة.

- **الشيخ السادات أبو التخصيص:**

سبق ذكره عند الكلام على مولده الشريف. لم يكن عالما ولا فاضلا، إلا أنه كان عاملا وثريا، عُرف بصلاحه وتقواه واشتهر بكرمه.

- **الشيخ السادات على أفندى:**

هو الأخر الأكبر للشيخ أبى التخصيص.

- **الشيخ محمد البكرى:**

من النسل الطاهر لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه -، إنه مرشد كامل، عامل فاضل للسجادة البكرية. وكان صاحب حال فى علم الأسماء، وكان كريما زاده الله كرما.

- **ابن الشيخ چلبى أبى المواهب:**

كان زاهدا عابدا وهو الابن الأكبر للشيخ العزيز.

- **الشيخ چلبى زين العابدين:**

أصغر أبناء الشيخ العزيز إلا أنه كان ألْمَعِىَّ الذهن معروفا بالدعابة والظرف، وأهل القاهرة جميعا يحبونه.

---

(١) عالم عرف عنه تصلبه فى التعصب على أهل الأديان الأخرى وعلى المتصوفة. وهو غير وانى المعروف المولوى الفقيه الذى نقل صحاح الجوهرى إلى التركية. معجم الدولة العثمانية ص١٥٤.

(٢) السلطان العثمانى، حكم أربعين عامًا، وكانت وفاته سنة ١٦٩٢.

- الشيخ سيد برهان الدين:

وهو من قصبة فى لواء حميد ببلاد الترك، يسكن القاهرة منذ ثمانين عاما، وهو نقيب الأشراف، وعلاوة على أنه يوزع الصدقات والأطعمة على الغادى والرائح كان يوزع على الدوام خرقة على كل ضيف وكل فقير. إنه شيخ عظيم حاتمى الكرم.

- الشيخ سيد إبراهيم چلبى أفندى:

وهو ابن سيد على ابن الشيخ على الصفوتى بن سيد حسن ابن سيدى الشيخ إبراهيم الكُلْشنَى. وحسبه هذا شرفا فى نسبه وحسبه، ومن رأى وجهه الشريف مرة أحبه وتعلق به تعلقا شديدا وتلقى عنه تعاليم التصوف وأصبح من دراويش الكلشنية، لأن وجهه الشريف منور كمذهبه. إلا أنه كان على الدوام معتزلا، وهو صالحٌ كالصالحين من السلف. وكان على الدوام قابعا فى ركن العزلة، يخرج مرة فى العام ويمضى إلى تكيته ويخرج إلى المولد، وهو لا يغادر داره قط ولا يختلط بأحد من الناس والنفوس تنجذب إليه.

- الشيخ محمد كيسودار:

كان من قبل على الطريقة القادرية وكان يعرف بصاچلى محمد افندى (أى محمد افندى ذو الغدائر)، وفى ليلة مولد الكُلشنى عندما نظر إليه لم يتحمل جاذبيته فتطايرت غدائرهُ وخرج عن الطريقة القادرية ودخل الطريقة الكُلشنية وزوّجه الكُلشنى من كريمته فأصبح صهرًا له.

إنه درويش (إباحى المشرب) له التبحر فى شتى العلوم، له أشعار كثيرة بالعربية والتركية، كما كان وفير المؤلفات ومليح الخط، حسن العشرة لين الجانب، لبقا فى الحوار، كما كان أهل كرم وسخاء، يحج بيت الله الحرام مرة كل ثلاثة أعوام، وغالبا ما كان يمضى إلى مكة سيرا على قدمه.

- الشيخ على الخراشى:

من بلدة تسمى «خراش» نسب إليها، أما اسمه الحقيقى فهو (   )[1]، وهو محدث ومفسر مرموق المنزلة بين المحدثين والمفسرين، وهو يحفظ عن ظهر قلب صحيح

(١) بياض فى الأصل.

مسلم وصحيح البخارى والقاموس للأخترى والصحاح للجوهرى، وفصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى، وعلاوة على ذلك كان يدرس شتى العلوم فى الأزهر وله تلاميذ يربون على الألف. وكان واسع المحفوظ، وهو شيخ القراء فى الجامع الأزهر.

وتلاميذه الذين يَرْبُونَ على الألف يقرأون القرآن الكريم بالقراءات المختلفة. إلا أنه حينما كان يلقى دروسه يكون منفعلا كالشرارة فياضًا، وكل من يلقى السمع إلى دروسه تنقش فى ذهنه، كما ينقش فى الحجر، ولا تمس حاجته إلى أن يسمع الدرس ثانية.

ـ الشيخ العياشى:

تتلمذ للشيخ على الشمرلسى، وكان يلقى الدرس العام فى جامع السلطان المؤيد، وكان صاحب فصاحة وإبانة، كما كان كريما بكلامه، تقيا ورعا. ولأنه كان يتكلم اللغة التركية انعقدت أواصر الصلة بينه وبين العلماء العثمانيين مما أثار عليه حسد الحاسدين، إلاأنه كان حليما صبورا هادئ الطبع.

ـ الشيخ (   )[1] العبارى:

أهل تقوى وورع، عالم عامل فاضل، اعتكف فى عقر داره بزاوية (   )[2] بالقرب من سوق الصليبية[3]، وقد تنبأ بإسقاط أحمد باشا. وهو لا نظير له فى مصر.

ـ الشيخ أحمد الأسكندرانى:

وهو من أكمل الكمل فى مصر، رخيم الصوت وليس بد من وجوده عند إقامة مولد النبى فى شهر صفر، فهو عندما ينشد الآلاف من القصائد فى مدح الرسول ﷺ وتائية عمر بن الفارض بصوت مرتفع جهورى يدخل الصوفية فى نشوة الوجد كأنما أصابهم الصرع. إن فى أنفاسه شيئًا عجيبًا يوقع من يلقى السمع إليه فى الوله والحيرة. لقد نال الفيض من الشيخ «على العريانى» وهو صالح من صلحاء الأمة ويزور بيت الله الحرام مرة كل عامين أو ثلاثة، وقد ذهب ذات مرة فى قافلة من عشرة أو خمسة عشر جملا، وبعد الطواف مضى إلى قبر المصطفى ﷺ فى المدينة المنورة، وبينما كان يقف قبالة المقصورة الشريفة صاح بأعلى صوته قائلاً: الغوث يا ملاذ العاجزين، وكنت حاضرًا

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) أحد أحياء القاهرة ولا يزال قائمًا إلى الآن بقسم الخليفة.

آنذاك فدخلتنى الدهشة والوله والحيرة. وفى طريق عودتنا إلى مصر كنت معه رفيق الطريق وكان معنا أمير الحج أوزبك بك فكنا نطيب نفسا بالاستماع إليه وهو ينشد القصائد فى مدح النبى ﷺ، وكان إذا ما تسلل السأم إلى نفوس الناس من مشقة الطريق كان سرعان ما يزول حينما يستمعون إلى قصائد الشيخ الأسكندرانى فى مدح خير الأنام ﷺ، فكان كل منهم يدعو له بالخير ويقبل يده. إنه عالم نحرير.

ـ الشيخ بكرى زاده أفندى:

إنه سليل أسرة عريقة، فهو من نسل أبى بكر الصديق رضى الله عنه. كان راسخ القدم فى علم القصائد والمدائح النبوية، حتى إنه نظم قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تتلى فى ليالى رمضان بين صلاة التراويح بدلا من التسبيح. وكان من أعاظم العلماء والفضلاء ذوى الاحترام.

ـ نقيب الأشراف السيد محمد أفندى ابن السيد برهان الدين افندى:

وهو ابن المرحوم برهان الدين افندى نقيب الأشراف، إنه عالم فاضل من تلاميذ المدرسة السليمانية[١]، وكان مليح الخط، انتقل والده برهان الدين من دار الفناء إلى دار البقاء وهو فى المائة وأربعين من سنيه. وعندما آلت إليه أملاك أبيه على ضفاف بركة الفيل وجدت الحُجج والوصايا لدى الشيخ، وفى ذلك الوقت كان جان بولاد زاده واليًا على مصر، وطعن فى صحة هذه الوثائق وأسند مدارسهم وقضاء تكيتهم إلى شخص آخر، واضطر الشيخ إلى التنازل عن ملكيته لبلدتى البساتين والفرزدق؛ لأن الاحتفاظ بهما يكلفه ضرائب باهظة لا قبل له بسدادها، ونزلت به كثير من الشدائد وفى النهاية عندما عزل جان بولاد زاده حسين باشا طالب الشيخ باسترداد حقه؛ فاسترد منه الكثير، وتم الصلح بينه وبين جان بولاد زاده ومضى الشيخ إلى قلعة الإسكندرية ليتوجه منها إلى الأستانة فوصل إليها وفى معيته الجند المصريين الذين كلفوا بفتح «قمانچه» بعد أن عادوا سالمين مظفرين فأصيب بالحمى المحرقة التى أحرقت جسده الرقيق ولم يطفئ نار حرقة هذه الحمى ماء أربعين نبعا فانطوى دفتر عمره واحترق. وانحنت ظهور مريديه حزنًا عليه، ودفن فى ضريح الأمير البخارى خارج باب أدرنه[٢].

(١) المدرسة السليمانية: نسبة إلى السلطان سليمان القلنونى، ومقرها إستانبول.

(٢) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

ـ الطبيب يلونى زاده:

كان يدرس لطلبة مستشفى قلاوون كتاب «قانون الشفاء» و «تذكرة داود» يومين فى الأسبوع، وكأنه فيثاغورث علم الطب، وكان من أهل التقوى والكرم، من مضى إلى داره وشرف بلقائه جَسّ نبضه وأعطاه الأدوية والمعاجين من الأطعمة والأشربة كان طبيبًا له البراعة فى الطب، ندر نظيره فى مصر.

ـ الشيخ (   )[2] خطيب الجامع الأزهر:

إنه رجل أهل تقوى وعبادة.

ـ الشيخ شاهين خطيب جامع الدهيشة:

شيخ من أهل التقوى والورع، ولوعظه عميق الأثر فى النفوس.

وهناك **الشيخ «سيد أحمد جزى»**: خادم المحكمة.

و**«سيد تاج الدين»**: خادم المحكمة كذلك.

و **«إسحق زاده»** قاضى العسكر وهو من علماء الترك الذين تضلعوا من شتى العلوم.

و **«خصم عبد الباقى أفندى»**: قاضى العسكر وهو كاتب وصاحب سلوك من فضلاء الدهر بلغ من تقواه أنه لم يصل صلاة فى غير وقتها قط طوال حياته.

وقاضى العسكر **«كبيرى زاده»**: وهو رجل ديِّنٌ واسع العلم بأحكام الشرع الشريف.

و **«تذكرجى أفندى»** قاضى العسكر: وهو واسع المعرفة بالتواريخ وهو نَحْوِىٌّ إمام، وعلى علم بتحصيل المال.

«عشاقى زاده» قاضى العسكر: وهو من السادات الكرام، نزيه، لا يخشى فى الحق لومة لائم ولا يحيد قيد أنملة عن جادة الشرع الحنيف، كان قاضيًا رابط الجأش ثابت القدم.

«حفظى أفندى»، قاضى العسكر وكان حافظا لكلام الله وشاعرًا واسع العلم بشتى العلوم الدينية.

---

(١) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

(٢) بياض فى الأصل.

وبين هؤلاء الذين أسلفنا ذكرهم آلاف ممن كانت لهم قدم راسخة فى شتى العلوم والفنون.

وإذا ما حاولنا أن نعرف بشىء من كرامات وفضائل هؤلاء العلماء لاقتضى ذلك منا تأليف مجلد قائم بذاته، لذا عرضنا لذلك على وجه الإجمال وبقدر ما أتيح لنا من سياحاتنا فى تلك البلاد فالمعذرة متسعة لنا فى هذا الخصوص. ولكن لا شك فى أن لكبار المشياخ كرامات وقدرة على مكاشفة الغيبيات.

ـ كرامات صبيان الغربية ـ

حينما كان كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر نَبَّهَ على جميع معلمى الكتاتيب بالدعاء من أجل حملة «قمانچة» وكانو يجتمعون مرتين فى الأسبوع فى الجامع الأزهر للدعاء، وبعد ذلك ـ بناء على أمر الوزير ـ بدأوا يدعون الله فى جوامع السلاطين ولما طالت مدة فتح «قمانچسه» وتأخرت وصول بشائر الفتح دب دبيب اليأس فى نفوس الناس فتقاعسوا عن الذهاب إلى المساجد للدعاء.

واتفق ذات يوم أن كان إبراهيم باشا يتجاذب أطراف الحديث مع إسحاق زاده قاضى العسكر فى مصر فقال له الباشا: إن معلمى المدارس الابتدائية طوع أمرك فنبه عليهم بأن يداوموا على الدعاء للفتح. فقال قاضى العسكر: لا بأس فلنذهب إلى المحكمة ولنستدع جميع معلمى المدارس ولنضرب كلا منهم أربعين أو خمسين عصا على ركبتهم، إذ إنه لا وجود للفلكة فى البلاد العربية، ولأن جميع الفلاحين لا يلبسون سراويل فإنهم إذا ما ضربوا على أرجلهم انكشفت عورتهم، لذلك يضرب الفلاحون على ركبهم وإليتهم بعصا من شجر الشوحط[1]. فضرب المعلمون الفقراء ضربا مبرحا على إليتهم وركبهم وعادوا إلى مدارسهم وهم يئنون من شدة الألم فجعل هؤلاء يضربون الصبيان بعصا الشوحط على نفس الموضع الحساس من أجسامهم فجزع الصبيان من الألم وبعد العصر خلدوا إلى الراحة فتملأ بعض الصبيان فى موضع وأثناء لعبهم تنامى إلى علمهم أن ضربهم إنما كان بإيعار من الباشا وقاضى العسكر فجعلوا يدعون الله عليهما، فقال بعض المنصفين منهم: إن الباشا يتصدق علينا فلا ينبغى أن ندعو الله

(١) الشوحط والنَّبعُ والشَّرْيانُ شجرة واحدة، ومنه تصنع القِسىّ والسهام. لسان العرب (شحط).

عليه، أما القاضى فهو رجل خسيس لئيم، كـما أنه ضرب معلمينا ضربا مبرحا ولذلك ضربونا، فتعالوا نصلى صلاة الجنازة على قـاضى العسكر. وجاءوا بخرق جعلوها على هيئة الجثة ووضعوها على محفة من الخـشب ولما رأى مئات الآباء ذلك من أبنائهم منهم من ابتسم ومنهم من ضحك حتى استغـرب ومنهم من قال لا إله إلا الله، وبينما كانوا يمرون بالأسواق السلطانية سألهم أهل السوق قائلين:

«اش هذا يا صـبيان» فقالوا: إنـها جثة قاضـى العسكر. فـأغلظ لهم القـول بعض الأهالى، والبعـض الآخر لم يكترث. وعلى هذا الـنحو اجتمع جميع الـصبيان خارج المدينة فى موضع فوق الرمال وصلوا صلاة الجنـازة على تلك الخرقة ودفنوها إلى جانب الإمام الشافعى.

ومن ناحية أخرى اشتكى قاضى العسكر ألمـا فى قلبه وأسلم الروح فى صبيحة اليوم التالى، وبينما كـانوا يدفنونه إلى جانب الإمام الشافعى فى نـفس الموضع الذى دفن فيه الصبيـان خرقـتـهـم ظـهـرت قطع منها من الأرض فدفنوها ثانـية والقاضى عسكر فى ذات الموضع.

سر آخر عجيب

والصبيـان الاثنى عشر الذين جعـلوا تلك الخرقة علـى هيئة قاضى العسـكر وصلوا عليها صلاة الجنازة وحملوها كانوا نجبـاء وهم الآن ومنذ ذلك اليوم بُكْمٌ، كما أصبحوا عُرَاةً مجاذيب يهيمون على وجوههم فى صحارى مصر وأراضيها الخَرِبَة. إنه لَسِرٌ إلهى عجيب.

وقد أخذ إبراهيم باشا الخوف مما وقع وأدرك أنه هو السبب فى ضرب هؤلاء الصبيان فتصدق على جميع مـعلمى وصبيان المدارس حتى أصبح شحاذهم غنـيا يعيش فى سعة ورغد.

الفصل الحادى والستون

ذكر أولياء نعمتى من البكوات والأعيان سليلى الأسر العريقة

منهـم أمير الحج (اوزبك بـك أبو الشوارب) وهو رب أسرة عـظيمة وله مـن الجند خمسمائة. إنه بك.

و(نووه لى بك) وهو رجل شجاع ثرى.
و(قنصوه بك) وهو ابن أحد جند مصر، وهو من أهل التقوى والعلم.
و (على بك الملقب) إنه رجل محبوب، طيب المعشر.
و(رمضان بـك) الذى تولى قيادة الجند فى حملة «قندة» وحارب النصارى حربًا شعواء بالقرب من «خانيه» ووقع فى الأسر.
(قاسم بـك) أى قاسم باشا زاده بشيكطاشلى، وهو واسع الشهرة فى البطولة والشجاعة، وله خمسمائة من الجند الشجعان المدججين بالسلاح.
و(عبد الله بك) تولى منصب الدفتردار مرتين، وهو ذو علم، وهو بوسنوى الأصل.
(ذو الفقار بك) كان من الأبخاز، تولى حكم جرجا فأعاد الأمن والأمان إلى الصعيد.
و (دولاور بك) كان كذلك من الأبخاز، تولى حكم جرجا فى عهد إبراهيم باشا، وكان رجلا معروفا بكرمه وسخائه وتقواه.
و (عوض بك) بما أنه تولى رئاسة خزانة «خاصكى محمد باشا» أصبح بك وهو جورجى الأصل.
(جان بولاد زاده) الذى كانت له قيادة الجيش فى «قمانجسه».
و (سليمان بك البوسنوى) تولى هو الآخر قيادة الجند فى قمانجسه.
و(حسين بك الدفتردار) وهو من الأناضول، إنه رجل طيب المعشر.
و (قيطاس بك) إنه رجل سديد الراى حسن التدبير، شركسى الأصل.
و (يوسف بك) أمير الحج، وهو شركسى الأصل كذلك.
و (بقلاجى محمد بك) إنه رجل بصير بالأمور وهو بوسنوى الأصل، شجاع بطل.
و (بيقلى محمد بك) بوسنوى الأصل ولكنه ليس كثير الأتباع.
و (جندى محمد بك) تربى فى قصر السلطان، وسجن فى جزيرة «الم» لدخوله فى زمرة المتمردين.
و (كور عمر بك) أى عمر بك الأعمى وهو جورجى الأصل تربى فى قصر السلطان، وفقئت عينه وهو يلعب الجريد، أسندت إليه بكوية القاهرة فى عهد محمد الرابع.

ومن البكوات الجدد (إبراهيم بك) وهو كردى الأصل، بينما كان يشغل منصب كتخدا فرقة العزب أسند إليه جان بولاد زاده حسين باشا جدّة فعمرها.

(موسى بك) وهو من أبناء جند مصر، عندما كان يشغل منصب كتخدا لقاسم بك منحه عبد الرحمن باشا إيالة جرجا بتوصية من أحمد باشا الدفتردار فعمرها.

و (محمد بك الحبشى) وهو جورجى الأصل، بينما كان يشغل منصب كتخدا فرقة الإنكشارية، لم يقبله الجند فمنحه عبد الرحمن باشا حكم أحد الألوية، وظل فى منصبه طويلا ولم تكن له الحنكة فى الحرب، وتقاعد فى المدينة المنورة، وعاد إلى بلاده.

و (چنار مصطفى بك) حينما كان كتخدا الجند الإنكشارية تحالف مع المتمردين لإسقاط أحمد باشا. وفى عهد عبد الرحمن باشا ثار جميع مُسِنّى الإنكشارية، وقالوا: إننا لا نريد فى طائفتنا رجلا يمالئ المتمردين ويعينهم؛ فتجاوز عبد الرحمن باشا عن أخطائه وما بدر منه وأسند إليه بكوية اللواء وأصبح أميرا على جدة، وكان أرمنّى الأصل يبيع الخفاف فى مدينة «إزمير»[1] إلا أنه شرف باعتناق الإسلام وأصبح من ثراة القوم.

و (حسين بك) لأنه تولى منصب كتخدا جاويشية عبد الرحمن باشا أسندت إليه بكوية المنصورة، إنه من الأناضول وهو صاحب فصاحة وإبانة وكرم حاتمى.

وولى نعمتى (قوجه مصطفى أغا رئيس الإنكشارية) وهو من قسطمونى[2]، إنه تقى صالح.

(مظلوم على أغا) قدم من الأستانة بفرمان السلطان وتولى رياسة الإنكشارية مدى حياته، (قونداقجى مصطفى كتخدا وذو الفقار كتخدا وحسن كتخدا وحبشلى كتخدا ومحسرم كتخدا وكنعان كتخدا وقاريغدى على جاووش وسليم جاووش وكمجى جاووش وجلبى جاووش وبكر جاووش وحسين جاووش وشريف جاووش الذى شنقه عبد الرحمن باشا، وسليم أفندى وبكر أفندى ودلى حسين أفندى ورجب افندى وقره

(١ ، ٢) موضعين بالأناضول.

قبوجى زاده عبد اللــه افندى وأبوه قره قبوجى أغا و(عبد الرحمــن أفندى الروزنامجى، وإبراهيم أفندى كاتب الأيتام، عمر أفــندى كاتب الأرزاق، وحسين جاووش زاده جلبى أفندى كــاتب الجاويشــية، وأحمد چــلبى افنــدى دلال القرية، حــسن أغا رئيــس فرقة العزب، وشعــبان أغا رئيس فرقة المــتفرقة ويوسف أغــا الترجمان الرئيــس، وأحمد أغا كتخدا العــزب وسيد حنفى الجاويش الــنقيب، وقوجه حسيــن جاووش ومرزا كاشف، ومسعود أغا وعبد الــرحمن أغا وقوجه خليل نديم السلــطان مراد وداود أغا شيخ الحرم ومحمد أغا ترجمان العجم ولا لا ياقوت) هؤلاء الأغوات سالفو الذكر كانوا من رجال وزراء سلاطين آل عثمان وكم من آلاف سواهم، إلا أنهم أولياء نعمنا.

وبك الشراكــة سليمان بك وعبد الرحمــن باشا، وسليمان بك ابن الخزينة دار على أغا وأخوه كــوجوك شاهين أغــا وبيوك مصطفــى افندى كاتب الإنــكشارية، وسلــيمان الجورجى كاتــب الإنكشارية كذلك وســليم كتخدا وإســماعيل الكاشف وحــموه قوجه حسن أغــا ومحمد الكــاشف كاشف البحــيرة وقره على الــكاشف وأحمد أغــا كاشف الشرقية وجالق مصطفى أغا . . إلى آخره).

* * *

الفصل الثانى والستون
ذكر أقاليم مصر فى ضوء علم النجوم والهيئة والاسطرلاب ومساحة البلاد وطول نهارها وطالعها والمسافة بالميل بين السماء والأرض ومساحة العالم بالميل

تَفكَّرَ الحكماءُ القدامى فى آلاء الله وكتبوا عن أحوال العالم، فقد قيل «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذات الله» لذا تفكروا فى آلائه ـ سبحانه وتعالى ـ ووقفوا على جميع أسرار الكون بقوة العلم وطول العمر؛ فقالوا: إن المسافة بين الأرض والسماء ٣٥٦ ميلا وبناء على هذا الحساب فإن محيط الدنيا ٢٠١٦٠ ميلا تقع فى البحر المحيط، وتقع جزيرة مصر داخل هذه الدنيا. وطول قطر هذه الدنيا من الشمال إلى الجنوب ٦٤٠٠ ميل.

يقول ابن الوردى فى صحفه: إن بطليموس الحكيم قَدَّر محيط الأرض بـ ٢٠١٦٠ ميلاً (أى ٨٠٠٠ فرسخ)، والميل يساوى ٣٠٠٠ ذراع مكى والذراع المكى ٣ أشبار، وكل شبر ١٢ إصبعًا وطول كل إصبع يساوى ٥ حبات شعير ونحن نقدرها بـ ٧٦٣٦ ميلا (أى ٢٥٤٥ فرسخا) وثلث، والمساحة الكلية لسطح الأرض ١٣٢ ألف ألف ميل و ٦٠٠ ألف و ٢٨٨ فرسخا.

وهذه الأقوال المذكورة هى أقوال صحيحة لبقراط وسقراط وفليقوس وبطليموس وهم الذين أحاطوا بعجائب العلوم وغرائبها، وملكوا ناصية شتى العلوم والفنون وكتبوا ما كتبوا بقوة العلم دون أن يتجولوا فى الأرض من أقصاها إلى أقصاها، ودون أن يكون علمهم عنها علم اليقين، وقالوا: إن محيط العالم ٢٠١٦٠ وكان ذلك بناء على أعمال عبقريتهم.

ولفظ «فتحنا» فتاريخ سنة ٨٨٩ حينما ضرب السلطان بايزيد ولى[1] الحصار على قلعة «كرمان» قدم عليه راهبان التقيا به وبـ «قره شمس الدين السيواسى» وزفا إليه البشرى بأنها ستفتح فى يوم كذا وساعة كذا ودقيقة كذا. وهذان الراهبان أحدهما كان

(١) هو السلطان بايزيد الثانى العثمانى، اشتهر بلقب ولى بسبب تصوفه.

يسمى «بـادره» والآخر «بطريق قولون»، وقولـون هذا من أهل البرتغال أمـا بادره فمن أهل أسبانيا وقد عين لـهما السلطان با يزيد خدما وشاء الله أن تفـتح قلعة «كرمان» فى نفس اللحظـة التى عينها هذان الراهبان وجـاءت البشرى بتسلم مفاتيـحها. هذا ما وقع فعلا. وتاريخ فتح هذه القلعة كان لفظ «فتحنا» ومن بعد كرم هذان الراهبان بما لا مزيد عليه من تكريم. ثم سُئل هذان الراهبان كيف عرفا من سيفتح هذه القلعة فأجابا:

أنهما عرفا ذلك بفضل من علم الرهبان والعلماء النصارى، وقالا: لنا أكثر من بشارة نزفها إلى مولانا السلطان. إن ابنك سليم والى طرابزون سوف يكون له ملك مصر، كما سيكون له مـلك مكة والمدينة، وسيمـلك ابنه سليمان «التـفاحة الحمراء»[1]. وإن طالع الدولة العثمانية لطالع سعيد وستكون الدنيا بأسرها فى حوزتكم، ولكن لنا بشارة أخرى عظيمة لسلطاننا كذلك وقال «قولون» أنت يا مولاى أعظم السلاطين كافة، يسر الله لك الملك، بينما كنـت أطوف فى الآفاق منذ مائة وأربعين عاما وبادره هـذا يطوف منذ مائة وخمسة عـشر عاما وطيلـة هذا العمر المديـد طوفنا فى العـالم سبع مرات. وعبـرنا من خارج مضيق «سبتة» غربـا سبعة آلاف ميل بفضل قوة العلم فاكتشفـنا ما يـسمى «العالم الجديد»: وفيه ما لا وجود له فى عالمنا هذا ، ففيه أنواع من الحيوانات و الجبال والحدائق وأناس لا يعرفون الحـشر ولا النشر، والذهب فى كـل أنهارهم والمعادن فى كل جـبالهم وسهولـهم مروج وجو بلادهم لـطيف، إنها أرض بكـر لم تطأها قـدم يسر الله فتـحها لسلطاننا. تلك هى البشرى التى أزفها إليك يا مولاى السلطان.

فقال الســلطان با يزيد: لابـد لنا من فتح مـكة والمدينة وإحكـام سيطرتنا عـلى هذا العالم وليس من اللازم أن نتجاوز البحر إلى تلك البلاد البعيدة.

وعندما قـال السلطان هذا من كلامـه ودعه الراهبان بتقبـيل يده ثم انطلقا إلـى البابا وأطلعاه علـى أوصاف الدنيا الجديدة فقـدمت لهما أسبانيـا اثنتى عشرة سفيـنة وبسطت سيطرتهـا على هذه الدنيا الجديـدة، ثم ملكتها انجلـترا بعدها، ثم آل ملكـها إلى ملك هولندا وللـدنيا الجديدة الآن اثنى عشر مـلكا ومنذ تاريخ «فتـحنا» (أى عام ٨٨٩) إلى

(١) اسم كان يطلق على روما قديمًا.

يومنا هذا أقيمت ففيها ٣٠٦٠ قلعة ويتناحر الملوك فيها من أجل الاستيلاء على معادنها حتى إننى بعد أن فتحنا «أويوار» وصلت بلاد الألمـان برفقة السفير «محمد قره باشا» فى طريقنا إلى إمبراطور النمسا وصلنا مدينة تسمى «لونجاط» على شاطئ البحر المحيط، وكانت سفن الدنيا الجديدة ترسو على ذلك الشاطئ وفى كل منها ثلاثة آلاف رجل وكان بين من على ظهر هذه السفن أناس من الدنيا الجديدة قصار القامة يلبسون الريش فكلفت تراجمة النمسا بسؤالهم عن الدنيا الجديدة فما كان منهم إلا أنهم سبوا الراهبين «بادره» و «قولون» اللذين أفعما دنياهم الهادئة الآمنة بالطامعين فيها والذين يحاربونهم على الدوام لإبادتهم وقصف أعمارهم.

ومحصلة القول أن الراهبين بادره وقولون ، بفضل العلم وتطوافهما فى الدنيا، بذلا الوسع فى الاطلاع على آلاف من كتب التاريخ وراجعا كتب الأطالس والهيئة وقضيا عمرهما فى السياحة والتطواف وكتبوا عما وقفا عليه من حقائق هيئة العالم.

ووصل هذان الراهبان إلى تلك البلاد التى لم يصل إليها كل من فليقوس وبطليموس فى الزمان القديم على شدة الحر والبرد وما يكتنفها من مهالك ومعاطب بعد أن ساحا فى الأرض مرات ومرات شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وذكرا أن مساحة العالم ٨٧٠٠٠ ميل كما ذكرا أنهما لم يبحرا فى شواطئ البحر الأبيض ولا البحر الأسود بل أبحرا حول هذا العالم الجديد عبر المحيط.

وقد رسم ملاحو العالم كافة خرائطهم فى ضوء ما كتبه الراهبان بادره وقولون ويبحرون فى البحار معتمدين كل الاعتماد على هذه الخرائط، فقد اكتملت لهذين الراهبين آلاف التجارب ونجت السفن فى البحر المحيط بفضل ما كتباه ووصلا إلى جميع موانى الدنيا وحملا من أحجارها ومعادنها وكتبا عن اعتدال جو تلك الموانى كما كتبا عن جبالها وأحجارها وأجوائها ومنبع كل نهر فيها. اتفق جميع علماء الهيئة رأيا على أن مساحة الدنيا القديمة ٨٧٠٠٠ ميل على نحو ما قال بادره وقولون ، وكل ميل يساوى ٤٠٠٠ ذراع أسود، والذراع يساوى ٢٤ اصبعا، وكل ميل يساوى ٤٠٠ قدم، والفرسخ يساوى ١٢ قدما (أى مسيرة (   )[1] ساعة).

---

(١) بياض بالأصل.

وقد قسم حكماء السلف وجه الأرض إلى سبعة أقاليم بعلم الاسطرلاب:

ـ الإقليم الأول:

يقع كذلك فى جزيرة مصر ويمتد إلى منبع النيل عند جبل القمر.

والإقليم ـ بعلم الاسطرلاب ـ عبارة عن خط يمتد من الشرق إلى الغرب فتكون جميع المدن الواقعة على هذا الخط لها نفس الأرض ونفس طول النهار.

وثمة إقليم آخر يقع على حدود بلاد الحبشة جنوب جزيرة مصر وهذا الإقليم الآن فى حوزة البرتغاليين ويسمى فى علم الهيئة «مدار الجدى» ويطلقون على نهاية الإقليم الثانى اسم «خط الاستواء». هذا ما اصطلح عليه العلماء.

أما عرض الإقليم الأول فـ١٢ درجة و ٤٠ دقيقة. ومن خط الاستواء جنوبا يتبقى جزء من العالم وهذا الإقليم بما أنه غير معمور لشدة الحر فيه لم يعده العلماء إقليما. لان هذه الجهات هى البحر المحيط وبه بعض الجزر. وعند بطليموس أنه وراء خط الاستواء بـ ١٦ درجة و ٢٥ دقيقة بعض البلدان المعمورة بالقرب من ولاية الزنوج وأقاليم الحبشة ولكن فى الوقت الذى لا يطيق فيه الإنسان شدة حرها تكثر فيها الفيلة والقردة.

حتى إنه فى شهر يوليو من عام ٨٣ عندما كنت فى سياحتى بفونجستان وحرها جد شديد تجاوزت خط الاستواء جنوبا قاطعا المنازل طاويا المراحل طيلة سبعة وعشرين يوما فارتفعت ربع دائرة فوجدت بالحساب أن طول النهار (   )[1] ساعة و ١٦ درجة و ٢١ دقيقة.

أما وسط الإقليم الأول فمن المتفق عليه أن عرضه ١٦ درجة و ٣٧ دقيقة، وطول نهاره ١٣ ساعة.

ـ الإقليم الثانى:

يبدأ من خط عرض ٢٠ درجة و ٢٧ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة و ١٥ دقيقة، ووسط هذا الإقليم خط عرض ٢٤ درجة و ٤٠ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة.

---

(١) بياض بالأصل.

- الإقليم الثالث:

يبدأ من خط عرض ٢٧ درجة و ٣٠ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة و ٣٥ دقيقة، ووسطه من خط عرض ٣٢ درجة و ٣٧ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة وربع.

- الإقليم الرابع:

يبدأ من الإسكندرية ورشيد ودمياط وجزيرة مصر تقع فى الأقاليم الثلاثة.

ولنوضح أوصاف الأقاليم الأخرى على هذا النحو التقريبى:

أما بداية الإقليم الرابع فمن خط عرض ٣٠ درجة و ٤٠ دقيقة، وطول نهاره ١٣ ساعة، ووسطه عند خط عرض ٣٦ درجة و ٢٢ دقيقة، وطول نهاره ١٤ ساعة.

- الإقليم الخامس:

بدايته من خط عرض ٣٨ درجة و ١٥ دقيقة، وطول نهاره ١٥ ساعة، ووسطه من خط عرض ١٤ درجة و ١٥ دقيقة وطول نهاره ١٥ ساعة ونصف.

- الإقليم السادس:

يبدأ من خط عرض ٤٣ درجة و ٢٢ دقيقة وطول نهاره ١٥ ساعة وربع، ووسطه من خط عرض ٤٥ درجة و ١٢ دقيقة وطول نهاره ١٦ ساعة ونصف.

- الإقليم السابع:

يبدأ من خط عرض ٤٨ درجة و ٢٩ دقيقة وطول نهاره ٢١ ساعة ووسطه عند خط عرض ٤٨ درجة و ٢٩ دقيقة وطول نهاره ١٢ ساعة وربع.

حتى إنه فى عام ١٠٧٦ عندما خُلع «محمد كَراى خان»[١] وفرّ إلى داغستان رعيت حق الخبز والملح ومضيت إلى إقليم ملك «قره بوداق»[٢] وشاهدت أنهار طرخوى وقوون واندرى وبلغت «دمير قابو»[٣] ومن هناك ركبت السفينة ووصلت بسلام إلى قلعة الترك فى موسكو فى ثلاثة أيام بلياليها فى بحر الخزر، ثم سلمنى بكوات الشراكسة فى «رهن» وقادة قلعة الترك فى موسكو أوراقا، ثم توجهت إلى ملك موسكو فمضيت شمالا على ساحل بحر الخزر طوال ستة أيام فى ولاية «قازان» ومنها اتجهت

(١) أحد خانات القرم، أى: حكامها. (٢) موضع فى آسيا الوسطى. (٣) الباب الحديد.

شمالا إلى صحراء «القبجاق» وولاية «الأطر» علـى ساحل بحر الخزر، ثم تابعت السير شمالا حتى اجتزت صـحراء «هيهات» فى واحد وعشرين يومًا فـبلغت ولاية «هشدك» وهى بلاد عظيـمة على ضفاف نهر «أدل» وهـى تتبع موسكو وسكـانها ٧٠٠ ألف من المسلمـين لهم مساجـدهم ومدارسهم ولكن لـيس لجوامعهم مـآذن وهم يؤدون الخراج لموسكو وقـدره دينار ذهبى على كل شـخص فى العام. وجُبتُ بلادهـم فى برد قارص طيلة سبعة أشهر وعبرت إلى الضفة الأخرى لنهر «أدل» فبلغت القلعة المسماة «يوانجسه» وطول النهار هـناك إحدى وعشرون ساعة ونصـف ساعة، ولم يكن سكان هـذه القلعة يؤدون صلاة العشاء وكنت مثلهم وفيها عـلماء فضلاء، إلا أن لسانهم هو لسان موسكو وهم يتلون القرآن الكـريم ويقرأون معانيه بالروسية وقد ترجـموا كتاب «عماد الإسلام» إلى اللغة الروسية وترجم بعضهم جميع كتب الفرائض والفقه.

وجل الإقلـيم السابـع يمتد فـى مملكة مـوسكو وبلاد فـغفور[1] وبولندا ودانـصقة وقراقووجه وأسفج[2] تقع جميعهـا فى الإقليم السابع. بيد أنه لشـدة البرد فى موسكو يقل العمران فيها وتشكل صحارى هيهات مـعظم مساحة موسكو، كما أن تتار القلموق خرّبوا الكثير من المناطق العامرة وعاثوا فيها فسادا.

وبينما كنت أتجول فى المنطقة بين نـهرى «أدل» و «جالق» اكتشفت أنها تقع عند خط عرض ٣٦ درجة وطول نهارها ٢١ ساعة ونصف.

وعندما كنت أعد حساء الكرنب ظهرت الـشمس فى وسط الفلك ولم يكن لحرارتها تأثير فيها والحاجة فى هذه المنطقة ماسة إلى ارتداء فَرْوَيْنِ فَهِىَ أماكن قارصة البرد.

ومسلمو الهشدك ونصارى الموثق غاية فى البلاهة، ولا شجاعة لهم، ولا وجود قط للحـدائق والبساتيـن فى هذه البلاد، ولكـن الحيوانات والطيـور والمراعى كثيرة فـيها، وأراضيها جد خصـبة وقد تكلمت مع كثير مـن رحالة موسكو وقسيسيهـا وسألتهم عن بلادهم فقالوا:

---

(١) لعله يقصد الصين.
(٢) أسفج: السويد.

نحن من سكان جزيرة تسمى «وقولون» فى البحر المتجمد فى نهاية الإقليم السابع ومياه بحرنا تتجمد ستة أشهر فى السنة ولا تطلع الشمس طيلة ستة أشهر فبلادنا مظلمة وليلنا ساعتان ونهارنا ٢٢ ساعة.

فسألتهم عن المسافة بين بلادهم ونهر «أدل» فقالوا: لقد خرجنا من بلادنا منذ أربعة أشهر ووصلنا لتونا.

وهم بالفعل وصلوا لتوهم ومعهم من سن السمك وفرو السمور ووجوههم قد تمزقت من شدة البرد. ولموسكو وراء الإقليم السابع أرض معمورة كما هو الشأن وراء خط الاستواء.

وقد ذكر القرطبى فى كتابه «المسالك» أن:

الإقليم الأول: يمتد من سواحل بلاد الصين على وجه التقريب إلى داخل الحبشة حتى جزيرة «الوكة»، وينتهى بجزيرة العرب واليمن وساحل المغرب وأشهر مدنه هى عمان وحضرموت وصنعاء اليمن.

- الإقليم الثانى:

يمتد من الجانب المذكور إلى بلاد اليمن والهند ثم يمتد إلىّ بحر الحسا والبصرة وتهامة وجزيرة العرب واليمامة وبحر هجرين والحجاز ومكة والطائف والمدينة والبحرالأحمر ثم إلى بلاد المغرب وبحر المغرب.

- الإقليم الثالث:

يمتد فى بلاد الصين والهند وقندهار وبلاد السند من الشمال ويمر من كَابُل وكرمان وجيرون وسجستان وسواحل قصره ثم يقطع مدينة اصطخر وسابور ومهربان وشيراز وسبقير وبور وأهواز والعراق وواسط والكوفة وبغداد وانبار وهيت ثم دمشق وحماة وحمص وسور عكا والرملة وساوه وطبرية وغزة وبيت المقدس وعسقلان والمدائن والقلزم سلمية ثم إلى أسافل أرض مصر ثم يمر بالفرما وتنيش ودمياط ورشيد والإسكندرية والفسطاط والفيوم وبلاد رقية ويجتاز أرض إفريقيا وينتهى عند بحر

المغرب. أما بلاد طرابلس وتونس والجزائر وطنجه وفاس والأندلس وقرطبة ومراكش تقع فى الإقليم الثالث.

- الإقليم الرابع:

يمر من بلاد السند وخراسان وسمرقند وبلخ وبخارى وهيران وأصفهان وسرخس وطوس وزابلستان ونيسابور ونهاوند وديلور وحلوان ونصيبين والموصل وخجند وقزغان وقالى وقلا والرقه وتبرجك ثم يمر بعد ذلك بدمشق فملاطيا وحلب وقيصرية وأنطاكيا وطرابلس الشام وطرسوس وأدنه وعمورية وسلفكه وجزيرة قبرص وجزيرة كريت وجزيرة كورسيكا وجزيرة مسنه والبرتغال.

وفى أقصى الغرب أسبانيا وجنوز وفرنسا تقع فى الإقليم الرابع. وعلى بعد ٧٠٠٠ ميل من سواحل فرنسا تقع الدنيا الجديدة إلا أن العلماء لا يعدونها إقليما.

- الإقليم الخامس:

يبدأ من بلاد يأجوج ويمر بالصين والختا والختن وبعض مدن بلاد خراسان ويمر بخرشنبه كما يمر بوسط الأناضول ومن قرمان إلى أداليا ومنها إلى البحر الأبيض ويمر برأس قلاوره والبندقية ودور دوشقة وينتهى ببحر الألمان وقبالتها الدنيا الجديدة على بعد ٧٠٠٠ ميل.

- الإقليم السادس:

يمر ببلاد ترجانه دون الوصول إلى بحر الخزر وطبرستان وينتهى ببحر المغرب ونهاية هذا الإقليم هو القسطنطينية وأواخر بلاد الإفرنج.

وقال حكماء السلف:

إن اسطنبول تقع فى الإقليم السادس. إلا أنها تقع فى أواخر الإقليم الخامس لأن القسطنطينية تقع عند خط عرض ٤٠ درجة.

والحقيقة الظاهرة ظهور الشمس أن طول نهارها ١٥ ساعة.

ـ الإقليم السابع:

يمتد من الجانب الشرقى وينتهى فى الشمال عند سد «يأجوج» فى بلاد الترك والصقالبة وموسكو وهولندا ودوقانقيز والدنمارك وألمانيا ولونجاط، وعلى بعد (   )[1] ميل قبالتها تقع جزيرة الإنجليز، كما تقع قبالتها الدنيا الجديدة على بعد ٧٠٠٠ ميل.

ـ ذكر الأقاليم السبعة على نحو آخر ـ

الإقليم الأول:

به ٢٠ جبلا، و ٣٠ نهرا عظيما، وسكانه سود البشرة أما أهل السودان فهم بيض البشرة وهذا الإقليم كذلك يمتد فى جزيرة مصر.

ـ الإقليم الثانى:

به ٢٧ جبلا و ٢٧ نهرا عظيما، وسكان هذا الإقليم كذلك سمر البشرة وطائفة منهم دميمة وجوههم، ويمتد هذا الإقليم كذلك بمصر على ضفاف النيل.

ـ الإقليم الثالث:

به ٣٣ جبلا و٢٢ نهرا عظيما. وجميع الأنهار التى تجرى فى جزيرة مصر تتشعب عن النيل ويمر هذا الإقليم كذلك بجزيرة مصر وهى جزيرة متراحبة الأرجاء لها نصيب فى هذه الأقاليم الثلاثة ويحكمها سبعون ملكا ومساحتها ١٨٠٠٠ ميل وينبع النيل من داخل هذه الجزيرة ويصب فى البحر الأبيض شمال مصر عند مينائى دمياط ورشيد، ومن منبعه إلى مصبه مسيرة ثمانية أشهر، ولا وجود لنهر يجرى مثل هذه المسافة الطويلة.

ـ الإقليم الرابع:

به ٢٥ جبلا و٢٢ نهرا وجميع سكانه بيض البشرة.

الإقليم الخامس:

به ٣٠ جبلا، ١٥ نهرا عظيما وجميع سكانه بيض الوجوه.

---

(١) بياض فى الأصل.

الإقليم السادس:

به ١١ جبلا و ٤٠ نهرا، أطول هذه الأنهار نهر «الطونة» ومساحة منبعه ١١٠ مرحلة، وينبع هذا النهر من ألمانيا ويصب فيه ٧٠٠ نهر، وله خمسة فروع تصب فى البحر الأسود منها فرع عند مضيق «كلى» وآخر عند مضيق «طوجله» وآخر عند مضيق «سلونه» وآخر عند سفح التلال الخمسة والأخير عند مضيق «قره خرمن».

وتبحر السفن الشراعية فى هذا النهر حتى بودابست وبراغ وألمانيا. إنه نهر عظيم وحمدا لله فقد تأتى لى أن أطوف خمس مرات على ضفافه من المنبع ببلاد الألمان حتى المصب فى البحر الأسود.

ـ الإقليم السابع:

به ١٠ من شوامخ الجبال أعظمها «جبال البرز» على مقربة من داغستان ولا وجود لجبل مرتفع كهذا فى الربع المسكون من العالم، ولم يصعد إلى قمته مخلوق من البشر وفيها غيلان وضوار ويستوطن جوانبه الأربعة خمسة سلاطين. إنه جبل عظيم إلى هذا الحد البعيد. وبهذا الإقليم ٤٠ نهرا منها على سبيل المثال نهر «قوبان» العظيم الذى ينبع من جبال البرز ويخترق داغستان وبلاد الشركس والجهة القبلية من صحراء «هيهات» فى بلاد الشركس ويصب فى البحر الأسود أسفل قلعة «تمر» فى الجزيرة المسماه «طمان» وكذلك عند مضيقى «خون» و «يلشكة» وتجرى فيه بوارج عملاقة.

وهناك فى هذا الإقليم كذلك نهر الترك الذى ينبع من الجبل نفسه ويخترق ولاية داغستان ويصب فى بحر الخزر أى بحر كيلان أسفل قلعة الترك بموسكو على مقربة من «دمير قبو» فى الشمال. إنه نهر ماؤه عذب فرات وسكان هذا الإقليم حمر البشرة، شجعان.

والإقليم السابع به ١٠ جبال و٤٠ نهرا، أطولها نهر «أدل» العظيم. إن ماءه ماء الحياة وعرضه ٤٠ ميلا ويبلغ فى بعض الجهات ٦٧ ميلا، وعمقه ٣٤ باعا وجميع سكان هذا الإقليم بيض البشرة.

وليعلم إخوان الصفاء أنى قضيت فى الترحال إحدى وأربعين سنة ورأيت بأم عينى أن أطول الأنهار هو نهر «إدل» يليه فى الطول نهر «جايق» ثم نهر الطونة ثم نهر شط العرب ثم نهر النيل المبارك فى مصر الذى يصبح كأنه البحر فى شهر يوليو من كل عام بيد أنه فى بقية أوقات السنة يكون فى حجم نهر «دياله» القريب من «بغداد» أما نهر «إدل» هذا هناك العديد من الترع تتفرع منه وتجرى بجانبه.

وفى ضوء علم الهيئة وطبقا لما دونه الرحالة وعلى حد قول العالم الجهبذ «بطليموس» إن على وجه الأرض ٢٠٠ نهر عظيم و ٤٤٠٠٠ نبعا جاريا.

ويروى العوفى عن ابن عباس قوله: إن على وجه الأرض أنهارًا تتفاوت طولا بعدد ما فى جسم الإنسان من شرايين، ولو لم تجر هذه الأنهار على وجه الأرض لتمزقت الدنيا قطعا قطعا، وما كان فى الإمكان أن يسكنها مخلوق. وهذا هو الحق فقد قال عز من قائل ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الانبياء: ٣٠].

ويقول ابن إسحاق: على وجه الأرض ١٤٨ جبلا علاوة على مئات من الجبال الأخرى ولكن ما يعنينا منها شوامخها، والتى قال الله فى شأنها فى كتابة العزيز ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى: ١٢] ومقاليد فى اللغة العربية بمعنى أقفال وإذا لم تتشابك الجبال وتحكم الأرض وكأنها الأقفال لما كان لوجه الأرض من قرار.

وصف الأقاليم السبعة من منظور آخر

الإقليم الأول:

طوله من الشرق إلى الغرب ١٢٥٠ فرسخا، وعرضه ١٩٠ ويضم هذا الإقليم ١٠٠٠ مدينة، ٥٠ منها من كُبْرَيات المدن تقع معظمها فى أقاليم الزنوج ومنها الحبشة واليمن وصنعاء وبحرانة وطغار وحرش وجزيرة سرنديب والهند وميناء الصين ومدينة فارس ومراكش فى المغرب والسودان والفونج وبورنو.

الإقليم الثانى:

يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٢٤٠٠ فرسخ وعرضه ١٣٦، وبه ٢٧ جبلا من شوامخ الجبال و ٣٦ واديا، و ٢٠٠٠ مدينة ٥٠ منها مدن عظيمة ويمتد من خجند

والهنـد والسند، والمنـصورية والحيرة وكِـنْدَة والجزائر ونجد ويـثرب إلى الحجاز والـبحر الأحمر وأرض البربر وأفريقيا وأرض مصر وأرض بغلبه[1].

- الإقليم الثالث:

طولـه ٢٩٢٥ فرسخا وعـرضـه ٩٠ فرسخـًا، وبـه ٣٠٠ مـدينة منـها ٢٠٠ من كبريـات المدن ويبدأ من شمـال الصين حيـث موغان وقندهـار ويضم كابُل وزابلـستان وسيسـتان وكرمان وفارس وسواحـل بحر عمان والبـصرة والإحساء واصطخـر وشيراز ونيسابور والأهواز والعراق وبغداد والشام وفرحيـن والإسكندرية ومرقان وفرنسا وينتهى فى البكرية.

- الإقليم الرابع:

يبلـغ طوله ٢٧٠٠ فرسخ وعرضـه ١٠٢ فرسخ وفيه ٢٥ جبـلاً، و٣٢ واديا وعدد مدنه (   )[2] مدينـة ويمتد هذا الإقـليم من التـبت وخراسان وبلـخ وبخارى ويضم ملتان وطبرستان والديلم وقـزوين والرى وقم وكاشان وأصفهان وهمذان وحُلوان وشهرزور والموصـل ونصيبين وحـلب وأنطاكية وطـرسوس وعَمورية وجزيـرتى قبرص وكريت ومدينة البندقية وينتهى بألمانيا.

- الإقليم الخامس:

يبلغ فـى الطول ٢٥٥٠ فرسخا وفـى العرض ١٠٢ فرسخ، ويضـم ١٠٤٠ مدينة، ٧٠٠ منها مـوانئ، وفيه ٢٥ جبلا و ٣٣ واديا، والمدن الـواقعة فى جانبه الـشرقى هى كوره وكانج وكـاس وخوارزم والتبـت وأرمينيـا وبخارى وسمـرقند وخجـند وطشقـند وكولقند ودقند وسنجاب وقرمان وانطاليا وفى الجانب الغربى من بحر الروم النمسا وبها مدن بودين واسـتورغون وسيدوار واستونـلى بلغراد وبابـا وقومران وبانيق وسنـمارتين وبشتهـل وبراغ ولونجاط وأمستـردام. وفى الجانب المقابـل تقع جزيرة الإنجلـيز ووراءها بمسافة قدرها ٧٠٠٠ ميل تقع الدنيا الجديدة.

---

(١) لعلها: بعلبك.

(٢) بياض بالأصل.

الإقليم السادس:

يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة طولها ٢٣٨٠ فرسخا وعرضه ٩٠ فرسخا به ٣٠ واديا و ١٠٧٠ مدينة، سبعمائة من هذه المدن مرافئ. ويمتد هذا الإقليم من سد «يأجوج ومأجوج» وشمال خراسان وجزء من خوارزم ونواحى أذربيجان وأرمنيا والأخلاط والرمية الكبرى وينتهى بالأندلس.

- الإقليم السابع:

يمتد من المشرق إلى المغرب بمسافة قدرها ٢٢٠٠ فرسخ وعرضه ١٤٠ فرسخا، وفيه ١٠٠٠ مدينة، جلها كان يقع فى ولاية «فغفور»، ويضم هذا الإقليم مدن قزاق ومغول ويوغول وموسكو وصحراء القبجاق والقرم وقزاق لـه، و جه، ودانسقه والسويد وهولندا. وفى الجانب المقابل تقع جزيرة الإنجليز وهى جزيرة عظيمة تمتد أراضيها فى الإقليمين السادس والسابع، ومساحتها ٨٠٠٠ ميل وحاضرة ملوكها مدينة «لندن» وقد زارها والدى الدرويش «محمد ظللى» فى عهد السلطان أحمد أما أنا فما زرتها.

ولقد تأتى لى بلوغ مرفأ «الونجاط» العظيم الذى يقع قبالتها ولم يتيسر لى العبور إليها اللهم يسر بالخير.

أما جزيرة مصر فأكبر من جزيرة الإنكليز. إنها جزيرة متراحبة الأطراف تبلغ مساحتها ١٨٠٠٠ ميل، ولم يخلق الرحمن جزيرة مثلها على وجه الأرض، وفيها خمسة عشر ملكا لهم سكة وخطبة وسبعون أميرا وبها ١٠٧٠ مدينة، ٧٠ منها مرافئ عظيمة.

وتضم السودان دنقلاب وفاس ومراكش وقرطبة وطنجة والجزائر وتونس وطرابلس والإسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة المحروسة، وجزيرة مصر هذه أعظم جزر الدنيا عمرانا عمرها الله.

- حاضرة ملك مصر:

وحاضرة مصر تقع وسط الإقليم الثالث عند خط عرض ٢٧ و - ٣ دقيقة، وطول نهارها ١٤ ساعة ١٣ درجة و ٤٥ دقيقة وهى بلد حار.

ولأنها بنيت وقت طلوع المريخ فى برجه لا تنقطع فيها الفتن والحروب. إلا أن طالعها غاية فى قوتها والنصر حليفها على الدوام.

سر إلهى فى مصر

ثمة سرٌ إلهى فى مصر هو إذا ما كانت هناك حادثة غير متوقعة على وجه الأرض شاع خبرها على ألسنة الناس فى مصر، وبعد خمسة أيام أو أكثر تقع هذه الحادثة التى كثر فيها القيل والقال.

فعلى سبيل المثال سرت شائعة ذات يوم مؤداها أنه قد تم فتح «قمانجسه» وبعد أربعين يوما جاء أحد أغوات الوزير عام ١٠٠٨ من قمانجسه حاملا بشرى النصر وتحقق ما قاله الناس فى هذا الشأن.

وفى شهر (   )[١] من عام (   )[٢] شاع بين الناس أن الوزير قد مات وبعد اثنين وعشرين يوما ورد نعى الوزير الأعظم «كوپرلى أوغلو».

واتفق ذات يوم أن ظهر درويش من أهل الله وجعل يطوف صائحًا: «وقع الباشا وقع الباشا» وبعد أسبوع أسقطوا أحمد باشا الدفتردار.

وهذا بفضل تأثير نجم (   )[٣] على مصر مما جعل كل حادثة تذكر قبل وقوعها بأربعين يوما على وجه الأرض، وهذا أثر ذلك النجم كما أنه من تأثير من فى مصر من دراويش ومجاذيب وأمناء ونُقَبَاء موكلون بمصر.

وبين سكان القرافات الكبرى الاثنتى عشرة الواقعة فى جوانب القاهرة الأربعة دفن مئات الآلاف من كبار أولياء الله، وكثير من أبناء الأنبياء، وربما الأنبياء ومئات الآلاف - غيرهم من أعاظم المشايخ من صلحاء الأمة، وبفضل من روحانياتهم فإن كل ما يقع على وجه الأرض يصبح حديث أهل مصر قبل وقوعه بأربعين يوما.

* * *

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

الفصل الثالث والستون

الأضرحة المنورة لسلاطين السلف والعلماء والمشايخ والقضاة وكبار أولياء الله والصحابة الكرام والأئمة المجتهدين فى قرافات مصر

فى الجانب الشرقى من مدينة القاهرة جبل يسمى «المقطم» لما كان هذا الجبل موضع تعبد سيدنا موسى وهارون والمسيح - عليهم السلام - فقد وردت فى شأنه أحاديث صحيحة عن النبى ﷺ وقد رغب أمته فى فتح مصر.

وبعد الفتح فى عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه دفن ١٧٠٠٠ صحابى جليل فى ظل هذا الجبل والآن يسمى العوام هذا الجبل «جبل الجوشى».

وعندما تبزغ الشمس فى الآفاق يمتد ظل هذا الجبل على مدينة الفسطاط أى مصر العتيقة على ضفة نهر النيل. وقد دفن فى ظل جبل المقطم هذا الكثير من أمة المصطفى ﷺ الذين وعدوا بالجنة وقد ورد عدد من الأحاديث الصحيحة فى هذا الصدد.

- سبب تسمية جبل المقطم بهذا الاسم:

ولفظ «المقطم» مأخوذ من «القطم» وهو القطع فسمى هذا الجبل بالمقطم لما كان منقطع الشجر والنباتات.

وجاء فى رواية أخرى أن أحد أبناء سيدنا نوح - عليه السلام - كان يسمى «المقطم» سكن هذا الجبل فسمى باسمه. إنه جبل تغمره الأنوار وكل كهف فيه مفعم بالنور بفضل أولياء الله.

ذكر اضرحة أولياء الله والمشايخ والصلحاء الكائنة فى جبل المقطم والتى زرتها أثناء تطوافى فى مصر

فاتح مصر أبو عبد الله عمرو بن العاص بن هشام بن سُعَيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر رضى الله عنه وقد بشره ﷺ بفتح مصر وقد توفى عام (   )[1] بعد أن فتح مصر ودفن فى سفح جبل المقطم.

---

(١) بياض بالأصل، وقد اختلف فى تاريخ وفاة سيدنا عمرو بن العاص - رضى الله عنه - والذى عليه المحققون أنه مات سنة ثلاث وأربعين. انظر: الإصابة (٥/ ٣).

ضريح «أبي نصرة الغفاري» من الصحابة الكرام، تلقى الإجازة من سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ بين يدى النبى ﷺ، وهو أول من صنع الإكاف وتنتهى به سلالة صانعى الإكاف، عمر أبو نصرة الغفارى هذا مائة وسبعين عاما وقد هبط مصر مع السيدة نفيسة رضوان الله عليها وتوفى فيها وقبره بجوار قبر عمرو بن العاص. إنه أحد صحابة رسول الله ﷺ ولكن وقع الخلاف فى اسمه فهو عند البعض «حميل»، وقال البعض الآخر إن اسمه «ارعره» إلا أنه اشتهر بأبى نصرة الغفارى رحمه الله.

ضريح عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى[1] صاحب رسول الله ﷺ، وإن زيارته لأمر عظيم.

سيدنا «يامن» ابن سيدنا يعقوب وأفرايم ابن سيدنا يوسف الذى ولد فى الفيوم وسيدنا صارم بن يهوذا ابن سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ.

وجاء فى بعض التواريخ أن الصحف أنزلت عليه وأصبح نبيا.

وقبر أمنا هاجر ـ رضى الله عنها ـ وقبر الملك الريان وقبر الحسناء زليخا، وقبر عزيز مصر، كل هذه القبور تقع فى سفح جبل المقطم تحت قبة سيدنا ابن يامن ـ رضى الله عنه ـ، ويزورها خواص الناس وعوامهم.

وقبر عبد الله بن سلامة السلمى وهو من صحابة رسول الله ﷺ، ومزار مسجد سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ على جبل المقطم وقد سكن هذا المكان سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ مع أمه السيدة مريم وهذا الموضع يزوره جميع النصارى كل عام. وقد رمم ابن طولون هذا المسجد وضريح ابن يامن أخى يوسف الصديق عليه السلام، والآن كل هذه الأبنية تحمل تاريخ ابن طولون.

«تنور فرعون» فوق جبل المقطم تبدو آثاره للعيان إلى يومنا هذا، وفى عهد القبط كانوا يزورونه ويعظمونه. وعلى مقربة منه وادى المستضعفين ووادى الملك ووادى الليلا ووادى الدجلة وهى وديان تقع جميعا فوق المقطم والمسافة بين هذه الوديان وعين

---

(١) الإصابة (٤/ ٥٠ ـ ٥١).

موسى مسيرة ست ساعات يتصيد فيها أهالى مصر الظباء والأرانب وهى أماكن نزهة.

«مزار مسجد سيدنا هارون» أخى موسى عليه السلام، أنشأ هذه الزاوية فيما كان وزيرا لموسى، وقد عمرها ملوك السلف، وهى عامرة إلى يومنا هذا وتزار. وعلى عتبتها العالية تاريخها ونصه «أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة وزير ابن جعفر بن العراب».

«مسجد سيدنا الزبير ومسجد الصخرة»: زاوية عظيمة فى غار منحوت فى الصخر إلا أنها لا تحمل أى تاريخ.

مسجد الديلمى، وهو زاوية عتيقة بنيت على الطراز القديم. مسجد الشريف الجرجانى. وكل هذه الزوايا زوايا معمورة فى سفح جبل الجوشى.

ومسجد «المعروف» وهو معجزة سيدنا موسى عليه السلام، لا وجود لمسجد مثله بناه إنسان. إنه معجزة حقا وهو فى سفح جبل الجوشى وهو أحد زوايا القاهرة التى تحير الألباب.

ومسجد محمود وهو دار قديمة للعبادة، ومسجد الولوه وهو يحمل تاريخ ترميمه عام (٤١٦)، وقبر شقيق الراعى، وقبر سيد الراعى، وكانا أخوين من صحابة رسول الله الكرام وكانا يرعيان الغنم التى اغتنماها عند فتح مصر وبينما كانا يرعيان غنمهما وافاهما الأجل فى ليلة القدر، وصلى عمرو بن العاص عليهما صلاة الجنازة ودفنا بجانب مسجد «الولوه» والآن فى كل عام فى ليلة القدر يغمر النور ضريحهما عليهما رحمة الله.

وعلى حد قول الشيخ القعقاعى إن مسجد ولوه ومسجد محمود مسجدان قديمان يستجاب فيهما دعوة الداعى وفيهما روحانية عجيبة ولا ينقطع عنهما المتصوفة وأهل التقوى والصلاح.

وقبر عبد الله بن الحارث الصحابى الجليل، وكانت وفاته بعد أن بلغ المائتين من سنيه وقد دفن فى أطراف جبل المقطم، وقبر عبد الله بن حذافة السهمى بجوار ضريح «هاجر الحبشية» وتوفى فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه. وقبر أمير الروم عبد الله بن

حذافة (مات فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه)

ـ ضريح الشيخ عقبة بن عامر الجهنى ـ رضى الله عنه ـ:

وكنيته «أبو حاملة» وعند البعض أنه «أبو سيد» وعند البعض «أبو عمر» وعند البعض الآخر «عامر»، استشهد فى فتح مصر عام (٥٨) وكان عالما بالفرائض، فقيها، شاعرا، صاحب فصاحة وإبانة، وما خطه بيده من كلام الله العزيز بأمر الخليفة عثمان ـ رضى الله عنه ـ مازال محفوظا بجامع عمرو بن العاص.

وقبره فى القرافة الكبرى فى ظل جبل المقطم، وقد تخرب ضريحه على مر الأيام.

وفى عام ١٠٦٦ رأى كل من أبى النور خاصكى محمد باشا سلاحدار السلطان محمد الرابع وواليه على مصر، وإمامه نوح افندى فى المنام الشيخ عقبة يقول لهما: ارفعا عنى تراب المذلة هذا وعمرا قبرى عمر الله لكما الملك.

فهب محمد باشا وأمامه نوح افندى من نومهما وقص كل منهما على الآخر ما رآه فى منامه، وشرعا يُعمران فى التو ضريحه، فأقاما على ضريحه جامعا عاليا وتكية ومبرة وسبيلا وساقية ومكتبا للصبيان وحوضا ومنازل لخدام هذا الجامع وخمسين غرفة للدراويش، كما أحاطا كل ذلك بسور حجرى كأنه سور القلعة؛ فأصبح ضريح الشيخ عقبة وكأنه سد متين وحصن حصين، ويوزع منه الطعام على الغادى والرائح من السابلة.

كما خصصا له أوقافا كثيرة، ولأن ثلثى هذه الأوقاف لآغا الإنكشارية فهى أوقاف عظيمة العمران. ولقد أُنشِأت قبة جميلة فوق ضريح الشيخ عقبة، وكأنها قبة الفلك، وهى قبة من حجر إلا أنها غير مكسوة بالرصاص ويهبط إليها بسلم من درجتين فى الجانب الأيمن من الجامع، ويتوسط هذه القبة تابوت مغطى بالحرير الأخضر المزركش دفن بداخله الشيخ عقبة، إنه ضريح مزين يعلوه شمعدانات من فضة وثريات من ذهب.

وفوق رأس الشيخ عقبة عمود من الرخام الأبيض كتب عليه بماء الذهب واللازورد ما نصه:

(هذا مقام العارف بالله تعالى الشيخ عقبة بن عامر الجهينى من أصحاب رسول

الله ﷺ ـ رضى الله عنه ـ. جدد هذا المكان المبارك الوزير محمد باشا سلحدار السلطان محمد الرابع دام بقاه فى سنة ست وستين وألف).

وعلى جدران قبلة هذا الضريح المنور كتب بالخط الكوفى على حجر أبيض قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

لكم هى خيرات عظيمة.

مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها:

دفنت في حى منفصل بجنوب القاهرة، إنها مبرة عظيمة وخير عميم، ولها جامع وضريح يغمره النور دفن فيه سائر خلفاء بنى العباس رحمة الله عليهم أجمعين. وعلى عتبة القبة العالية لهذا الضريح كتب بخط جلى بالسليو واللازورد ما نصه:

(هذا مشهد الحسنية للسيدة نفيسة . بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنه حميد مجيد (وقوله عز من قائل): ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] (احتوى هذا المكان على جامع خطبة المسلمين ومشهد السيدة الحسنية البضعة النبوية ابنة السيد الحسن ابن آل زيد ابن السيد الحسن ابن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليهم أجمعين، مولدها سنة خمسة وأربعون ومائة وقدمت مصر سنة ثلاثة وأربعين بعد المائة وقد انتقلت إلى رحمة الله تعالى فى شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين ومائتين فى أيام مولانا السلطان الملك المنصور أبى النصر عبد العزيز أعز الله أنصاره).

وعلاوة على هذا التاريخ ثمة تاريخ آخر كتب بخط جلى باللازورد على ألواح مقاصير الجامع وهو:

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك مولانا المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز أعمر الله به بتاريخ شهر جمادى الأول سنة ست وثمانين ومائة).

والنزول إلى ضريحها الشريف من خلال سلم حجرى من ثلاث درجات، وباب ضريحها باب عال مطلى بالذهب ومزين بالجوهر، وتابوتها مغطى بغطاء من الحرير الأخضر المزركش، وعندما يدخل الزوار المسلمون هذا الضريح يجدونها مدفونة فى

تابوت مربع ذى زخارف يتوسط الضريح، وإذا ما وقعت عليه عين إنسان علت جسمه رعدة، وما اجترأ على النظر إليه فهى العرق الطاهر من سلالة النبى ﷺ .

وزوجها إسحاق بن جعفر الصادق وحول تابوتها مئات القطع من الأوانى والشمعدانات والمباخر والقناديل النفيسة المزدانة بكلمات الله؛ بالإضافة إلى ما لا يدخل تحت حصر من الثريات مما يجعل قبرها وكأنه متحف الصين، وهو مفروش بالبسط الحريرية النفيسة التى طالما كان يهديها ملوك السلف ووزراؤهم ووكلاؤهم تبركا، ويتلو القراء الختم الشريف مرة فى كل وقت من الأوقات الخمس. وداخل الضريح يفغم عبير العود والعنبر وجل زوارها من النساء يقدمن لها النذور فى كل مرة يأتين فيها إلى الضريح.

كما دفن مع السيدة نفيسة ولدان من أبنائها هما القاسم والطيب، ولقد قالت لهما وهى فى النزع الأخير: أتثنيان معى إلى الدار الآخرة؟ فقال الطفلان الصغيران: نعم يا أماه نأتى فقالت لهما: اذهبا وسلما أمانتكما وعندئذ فاضت روحهما وامتثلا إلى قوله تعالى ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر:٢٨]، والناس يزورونها ليل نهار ولا ينقطعون عن زيارتها قط، يقام مولدها مرة فى العام فى الليلة الثالثة من شهر ربيع الأول فيتوافد على ضريحها مئات الآلاف.

وثمة قبة أخرى على الجانب القبلى للضريح المنورة للسيدة نفيسة وهذه القبة هى مثوى لأبناء السيدة نفيسة الكرام وخلفاء السلف من بنى العباس وهم:

ـ سيد يحيى بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين:

يقول القعقاعى عنه: إنه أخو السيدة نفيسة، وهو مدفون فى هذا الضريح، وقد كتب بخط جلى على جوانب تابوت من الرخام: (قبر أشراف الحجار سيد قاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل واسمه إسماعيل الديباج بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ.

ـ قبر أبى محمد يحيى بن قاسم بن محمد العلى بن الحسن بن على بن أبى طالب:

قال الكِنْدِى: «قدم راس زيد بن على فى جمادى الآخر سنة اثنين وعشرين ومائتين».

ـ مشهد رأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ـ كرم الله وجهه ـ:

دفن هذا الرأس تحت قبة عالية أمام محراب جامع «النبر» سنة خمس وأربعين ومائة، ويزوره الخواص والعوام ويحمل هذا المشهد تاريخا هو:

(أقام هذا البناء العلامة رضى الله عنه)

ـ مشهد رأس محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما:

جاء فى رواية أن محمد الأكبر هذا ولى مصر فى خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وبسبب ما كتبه «مروان الحمار» كاتب عثمان خلافا للأمر قتل محمد الأكبر فى مصر مما كان سببا فى مقتل عثمان رضى الله عنه. ومشهد محمد الأكبر هذا يقع فى رملة خارج الجانب الغربى للقاهرة وقد تخرب وعلى الرغم من أن الناس كافة يعلمونه إلا أنه لا يزار كثيراً، والتاريخ المكتوب على بابه هو: (بناء علامة العصر).

ـ مشهد السلطان الإمام زين العابدين ابن الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ:

يقع هذا المشهد على مقربة من مشهد محمد الأكبر وهو بناء عظيم كأنه القلعة شيده المستكفى بالله من بنى العباس على رملة، إنه بناء عظيم يضم غرفا للبوابين وحراس القبور ومشايخها. وفى غرة كل شهر يقام مولد عظيم فتغص أركان هذا الضريح بما يربو على الأربعين ألف من الناس. إنه قطب عظيم وهو مدفون فى قبر عال تناطح قبته الفلك. ويحيط بالضريح أعمدة من الرخام تحمل مبنى عظيما وإلى جانب الجهة القبلية للقبر الشريف زاوية ذات قبة عظيمة. وعلى أطراف الحرم مصاطب جانبية عليها أعمدة عالية من الرخام تحمل سقفا ذا زخارف. ويتوسط الحرم عدة نخلات وشجرة نبق عظيمة وعلى الجوانب الأربعة لباب الحرم حجر سماقى أخضر مصقول، ومصراع الباب من قطعة واحدة من السماقى الأخضر لا وجود لمثله فى بلد آخر. إنه باب عال من قطعة واحدة وعتبته عالية وله شهرة واسعة لدى رحالة العالم.

وباب الضريح هذا يطل على الجهة الشمالية وعلى عتبته العالية ألواح تحمل تاريخا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا مشهد الإمام على بن زين العابدين ابن الإمام الحسن ابن الإمام على بن أبى طالب بن عبد المطلب ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ سنة إحدى وعشرين ومائة بعد الهجرة النبوية).

وهذا التاريخ كذلك منقوش بخط كوفى على الرخام الأبيض للتابوت الشريف.

ومن عجب أنى فى عام ١٠٥٦ حينما وصلت إلى بغداد زرت( )[1] زين العابدين وهو كذلك ضريح عظيم، وبعد ذلك فى عام ١٠٨٢ بلغت البقيع بالمدينة المنورة بعد أداء مناسك الحج وزرت الإمام زين العابدين بجوار سيدنا العباس ـ رضى الله عنه ـ والضريح المدفون فيه جثمانه الشريف حير ألبابنا وتلا كل منا سورة «يس» على روحه الشريفة، واستمد البركة من روحانيته تقبل الله دعاءنا آمين.

وفى مصر أم الدنيا آلاف من أرواح الأنبياء والأولياء وصحابة رسول الله ﷺ ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ إلا أننى سوف أذكرهم حسب زيارتى لأضرحتهم:

ـ مزار يشكر ـ رضى الله عنه ـ:

كان من أهل التقوى والصلاح وهو مدفون فى حرم جامع أحمد بن طولون فى جبل يشكر، وهو موضع عبادة ومزار عتيق.

ـ ضريح الشيخ العلامة الزاهد أبى محمد عبد الله بن وهب بن مسلم:

صاحب مالك بن أنس وضريحه يقع خارج باب الصفا فى الجهة اليمنى على بعد مائة قدم من الباب الجديد فى الجهة القبلية. إنه عالم عظيم من العلماء الأئمة أخذ العلم على مالك بن أنس وابن أبى ذؤيب وحيوة بن شريح والليث بن سعد ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ.

(١) بياض بالأصل. لعله فى هذا الموضع توجد كلمة ضريح.

ـ ضريح القاضى بكار رضى الله عنه:

إنه ابن قتيبة بن أسد بن عبد الله بن بشير بن أبى بكر بن الحارث مولى رسول الله ﷺ ، ولى القضاء فى مصر وكان محدثا جليلاً دفن فى (   )[1].

ـ ضريح الشيخ جزعل:

وهو من العلماء المتبحرين.

ـ ضريح الشيخ آتى:

كان أهل تقوى وصلاح، محبوبا بين الناس، رحمة الله عليه.

ـ ضريح الخير بن نعيم بن مرة:

وكنيته أبو إسماعيل وكان من فضلاء المحدثين.

ـ ضريح فاطمة بنت عبد الحميد بن عمر بن حمزة:

توفيت رحمة الله عليها عام تسعة وسبعين ومائة.

ـ ضريح طباطبا أبى محمد عبد الله بن أحمد بن على بن الحسن بن إبراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رحمة الله عليه ـ، بالقرب من السيدة نفيسة وعلى مقربة منه قبر فرج وهو عبد الشريف طباطبا وقد توفى قبل طباطبا.

ـ قبر الأربعين:

وعلى حجر تابوته كتب بخط جلى : (يحيى بن بكير هو صاحب الموطأ).

ـ قبر نفالة عبد الرحمن:

من أبناء سيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ فقد تزوج عثمان من أم كلثوم ابنة المصطفى ﷺ فولدت له نفالة هذا وهو مدفون بجانب السيدة نفيسة.

وقبر عبد الله بن رواحة وقبور أشراف مكة كلها فى ساحة جامع «الست» على مقربة من السيدة نفيسة.

---

(١) بياض بالأصل.

وقبر أبى الجيش على بن أحمد بن طولون ومولده سنة ثلاث وعشرين ومائتين واستشهد ـ رحمه الله ـ فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وهو مدفون فى قبر عال فى رملة بجوار «محمد الأكبر» بن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ.

وقبور الشريف الجارودى والبكرى والمقرى، وهؤلاء كانوا من الوعاظ ذوى الشأن فى موضع واحد. وعلى مقربة منهم قبر «صغير الكاتب» وهو مزار عظيم.

وقبر الشريفة فاطمة ابنة محمد بن عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ، وهو مزار لعوام الناس وخواصهم ولوقوعه على الطريق العام لا يخلو من الزوار قط ولا ينقطع النساء عن زيارته البتة.

والشيخ «الجامى» قدس سره مدفون فى قبة فى صحراء قايتباى، والشيخ «أبو بكر الأدفوى» وهو من أجلة العلماء وشيوخ القراء، وقبره على مقربة من مشهد الحسين، والشيخ الفقيه «أبو القاسم عبد الرحمن ابن الشيخ أبى بكر الأدفوى» من العلماء المحدثين، وكتب على قبره الشريف: (توفى الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن فى شهر ذى القعدة سنة سبع وعشرين وأربعمائة) وهو مدفون فى طرف قبر أبيه وقبرهما معروف لدى الناس بقبر الجولانيين.

والشيخ الإمام أبو إسحاق بن إبراهيم بن سعيد الجبال الحافظ ـ رحمه الله ـ مدفون فى سفح جبل المقطم، والشيخ أبو الحسن بن الرفا المصلى مدفون مع أبنائه على مقربة من الجامع العتيق وقبره يزار.

والسيد محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الإمام بكر بن زين العابدين ابن الإمام الحسين، مدفون بالقرب من السيدة نفيسة.

وضريح السيدة «زينب بنت يحيى بن الحسن بن على بن أبى طالب» ضريح عال بالقرب من قنطرة السبوع على طريق مدينة بولاق غرب القاهرة، والكثرة الكاثرة من زوارها نساء وعلى باب جامعها تاريخ مرقوم وهو تاريخ وفاتها، إلا أنه كان شديد الارتفاع فتعذر على قراءته ولذلك لم أذكره.

أما المشهد المعروف «بالست آسيا» ابنة مزاحم بن الرضا بن سهسون بن خاقان وكيل ابن طولون أسفل قلعة صلاح الدين بالقاهرة وتزوره النساء وزيارتهن فى يوم الأربعاء حيث تجتمع فيه منهن حشود.

وبالقرب من مقام الست آسيا هذا قبر الشيخ أبى الحسن مالك بن سعد بن مالك الفاروقى قدس سره، وقبر ميمونة العابدة أخت رابعة فى العبادة مدفونان فى ظل جبل المقطم، وقبر أشهب صاحب مالك بن أنس بالقرب من السيدة «أمينة»، وضريح هند بنت عبد الرحمن بن عوف والزهرى وهو ضريح عظيم يقع على طريق الإمام الشافعى وأكثر من يزوره النساء.

وقبر الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ـ الذى كان كاتب السلطان ـ على مقربة من بركة الحبش، وكانت وفاته عام ٢١٤، وأبو عبد الله محمد بن عبد الحكم ابن أعين كان قاضى مصر وتوفى عام ٢٦٨ ودفن فى سفح جبل الجوشى.

وضريح السيدة الزاهدة العابدة فاطمة بنت جعفر الصادق فى الجهة القبلية لقايتباى، و «بشرك بن سعد الجوهرى» جد أولاد الجوهرى ومحمد بن إسماعيل المقرى المعروف بالحداد صاحب القراء والمحدثين مدفونان فى القرافة الكبرى.

وقبر الشيخ أبى بكر الدقاق أحمد بن المنصور فى سفح جبل المقطم.

وقبر القاضى عبد الوهاب بن على بن نصر البغدادى المالكى وقبر الإمام أبى عمرو عثمان بن سعيد صاحب الرواية، تولى القضاء فى عهد عبد الحكم بن محمد الأنصارى و «توفى عام ١٩٧» وهذا ما كتب على تابوته فى القرافة الكبرى ـ ضريح كافور الإخشيدى المملوك الأسود الحبشى مولى الإخشيد فى القرافة الكبرى، وقبر الوزير أبى الفضل جعفر الفرات وزير كافور الإخشيدى فى مصر وأبوه المقتدر بالله، والشيخ أبو الحسن الوراق السالم من كل الشبهات بجوار قبر الإخشيدى.

وقبر الشيخ أبى الحسن على بن محمد بن سهيل الدينورى المتوفى عام ٣٣١ بالقرب من أبى الليث.

وقبر الشيخ الفقيه أبى عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد رضى الله عنه المتوفى عام ١٩١ بالقرب من القاضى بكار.

«قبر أبى بكر الإصطبلى قدس سره، وصالح المبتلى المتوفى ام ٥٤٠»، ووزير مصر والشام «المتوفى عام ٥٩٦» مدفون فى ضريح عظيم على مقربة من ابن يامن وهذا ما كتب على أطراف تابوته الرخامى المربع: (ولم يأتِ وزير عظيم مثله فى عهود ملوك وسلاطين السلف).

وقبر الفقيه مجلى أبو المعالى لم يأت مؤرخ مثله منذ عهد إدريس - عليه السلام -، حتى إن «حمزة نامه» أحد المؤلفات التى جاد بها قلمه. وقبره الآن يزار، وإذا ما نسى إنسان شيئا مضى إلى قبره وأكل ما أكل فى يومه سبع حبات من العنب الأسود طيلة أيامه كان له عقل أرسطو وأصبح أبا الكلام. وقد توفى عام ٥٥١ ودفن بالقرب من الإمام الشافعى مع سيدى محمد البوصيرى صاحب قصيدة «البُرْدَة».

وقبر جُحَا وكان من حمقى العرب مثل «نصر الدين خوجة» وهو مدفون مع أبى المعالى فى مكان واحد. والشيخ غنايم الشامى وقد ذكرت كراماته الباهرة فى طبقات الشعراوى، وهو مدفون فى قرافة المجاورين.

وأحمد بن طولون المتوفى عام ٢٧١ مدفون فى مدينة الفسطاط وهى مصر القديمة إلى جانب عفان أبى سيدنا عثمان - رضى الله عنه -، وعلى أطراف تابوته تواريخ مكتوبة بخطوط مختلفة. والدعاء مستجاب عند قبره.

ومشهد زوجة سيدنا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أم محمد الأكبر بن أبى بكر. واسمها «أسماء بنت عميس الخثعمية». كان قد تزوجها جعفر بن أبى طالب المعروف بجعفر الطيار فولدت له عبد الله وعونا ومحمدا، ثم تزوجها سيدنا أبو بكر الصديق بعد قتل جعفر الطيار فولدت له محمد بن أبى بكر، ثم تزوجها بعده سيدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وعندما تزوجت أسماء من سيدنا على صار محمد ابنًا لزوجته. حتى إنه قد جاء فى أحد التواريخ أن محمد بن أبى بكر قاتل بجانب سيدنا على فى موقعة «صفين» أسفل قلعة «جعبر» على ضفة نهر الفرات.

ولما كان فى الجانب المقابل السيدة عائشة بنت الصديق وهى أخت محمد بن أبى بكر بذل كل وسعه فى إصلاح ذات البين ولكن عبثا ونشبت حرب ضروس.

ولا يخفى على إخوان الصفا وخلان الوفا أن الجوانب الأربعة لمصر القاهرة أى الفسطاط وهى مصر القديمة، ومدينة بولاق وما يقرب من الإمام الشافعى ومصيف قايتباى فيها اثنتا عشرة قرافة دفن فى وادي سكونها مئات الألوف من أبناء الأنبياء، وربما الأنبياء وكبار الأولياء والأئمة والصحابة الكرام وملوك السلف.

إلا أنه بتعاقب الأيام منذ هبوط آدم ـ عليه السلام ـ ومنذ طوفان نوح ـ عليه السلام ـ وهو آدم الثانى تعرضت أم الدنيا للعديد من الحوادث فأصبحت حينا عروسا فى شرخ شبابها وفى حين آخر أصبحت خرابا يبابا، وكم من مقابر للأنبياء ومشاهد لأولياء انهدمت وانمحت آثارها.

إلا أنه منذ دخولها فى حوزة الإسلام أصبحت عروسا من جديد وعمرت. ولقد مسحت وجهى على أعتاب تلك الأضرحة وكنت أقرأ على أرواح أبناء الأنبياء وكبار الأوليلء الطاهرة سورة يس أو الفاتحة على الأقل، وقد وقعت الهيبة والخشوع فى نفسى عند زيارتها. وقد قرأت كلام الله العزيز الذى تمس إليه حاجة أرواح جميع الموتى واستمددت العون والروحانية منهم، وما زرته من تلك الأضرحة أذكره قدس الله سرهم ونفعنا بسرهم.

وفى الساعة التى دخلت فيها مصر عائدا من الحج للمرة الأولى خرجت من قصر القاهرة وتقدمت جنوبا سيرا على الأقدام وسط المقابر ألفى قدم فى طريق رملى وفى منتصف قصبة واجهت:

مشهد شيخ الشيوخ، الإمام الهمام، العالم العلامة، منهاج السالكين ومطلوب الطالبين الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ.

حمدت الله أنى مسحت وجهى على عتبته ودخلت ضريحه وختمت القرآن الذى كنت قد نذرته ووهبت ثواب ذلك لروحه الشريفة، وتصدقت على الفقراء وسألت الله القبول.

والإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ مدفون فى قبر ترتفع قبته إلى عنان السماء وهى قبة حجرية زرقاء الداخل، وداخلها مكسو بصنوف من الأحجار القيمة. وهى مزدانة من الداخل كذلك بالعديد من الثريات والقناديل النفيسة، وقد كتب فيها بخطه كثير من الرحالة الصوفية، وقد كتبت أنا على لوح مذهب الفاتحة. وهذه القبة مزينة إلى ذروتها بشتى التحف والبللور والزجاج الفاخر.

وفى الجهة القبلية من هذا الضريح محراب بديع الصنع مذهب ومزدان بالصدف وكأنه السحر الحلال ومفروش بالبسط الحريرية.

وهذه القبة المالية مكسوة بالرصاص. إلا أنه لا يشبه رصاصنا التركى الذى يبلغ طول اللوح منه ثلاثة أذرع. إنها رقائق من الرصاص يضرب لونها إلى الصفرة، ويقال إن بها ذهبا. وعلم هذه القبة من النحاس الأخضر، ويعلو هذا العلم قارب من النحاس الأخضر ويملأ خدام الضريح هذا القارب على الدوام بالقمح والشعير، وتحط الطيور لالتقاط الحب وفى الجوانب الأربعة للقبة شبابيك من النحاس. وقد دفن خارج الضريح مئات الآلاف من العلماء والصلحاء والأئمة والخطباء ومشايخ السادات والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان، ولا يعرف عددهم إلا علام الغيوب.

وبما أنها مقبرة عظيمة من أولها إلى آخرها يوصى كل شخص بأن يدفن فيها وبنى له ضريحا هناك.

والإمام الشافعى مدفون فى تابوت فى الجهة الشمالية لنوافذ الضريح، وهذا التابوت مغطى بحرير مزركش أخضر، وأركانه الأربعة مزينة بكرات من الفضة الخالصة.

ويحيط بالتابوت سياج من خشب «الصبا» وذلك لمنع العوام من تقبيل تابوته وما يترتب على ذلك من تأذى روحه.

وعند قدم هذا التابوت وعند رأسه شمعدانات ذهبية فى طول قامة الإنسان، وفى كل منها شمع كافورى. وزين التابوت بأعلام مختلفة الألوان، وعند رأسه الشريف عمود اسطوانى الشكل من الرخام الأبيض، طوله طول قامتى إنسان. كتب على هذا العمود بخط الثلث المذهب على خلفية لازوردية ما نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم). ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ .[النجم: ٣٩، ٤١] هذا قبر السيد الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد زيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف جد النبى ﷺ . ولد ـ رضى الله عنه ـ فى سنة خمسين ومائة وهى السنة التى مات فيها أبو حنفية وتوفى سنة أربع ومائتين).

ومدة عمره أربع وخمسون سنة، وكان فى كل يوم من أيام حياته يؤلف كتابا.

ولد فى مدينة غزة وظل فى رحم والدته أعوامًا ثلاثة. ولما انتقل النعمان بن ثابت وهو الإمام الأعظم من دار الفناء إلى دار البقاء لم يكن قد ولد الإمام الشافعى وظل فى رحم أمه ثلاثة أعوام وفى الساعة التى حضرت فيها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الوفاة ولد الإمام الشافعى. ولما بلغ السابعة تلقى العلم على يد الإمام محمد والإمام مالك ـ رضى الله عنهما ـ وجلس منهما مجلس التلميذ.

والآن عند قدمه الشريفة دفن اثنان من زملائه من تلامذة الإمام محمد ولهما روحانية عجيبة واسمهما الشيخ محمد والشيخ سيد عبد العزيز.

وفى الجهة الغربية من هذا الضريح كذلك دفن السلطان محمد الكردى مشيد هذا الضريح والإمام الشافعى كانت بينه وبين هارون الرشيد من بنى العباس صحبة وصدرت له الكثير من المؤلفات فى بغداد.

ووالدته السيدة شمسة ملكة مدفونة فى هذا الضريح كذلك. وعلى باب الضريح ثمانون خادمًا لإرشاد من يقدمون للزيارة. وعلى عقد عتبة الضريح العالية كتبت آية من آيات الذكر الحكيم من سورة الحجر على لوح من خشب الجوز الأسود وهى:

(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ...﴾ إلى آخر الآية [الحجر: ٤٦ ـ ٤٧].

وخارج باب الضريح العالى أضرحة لا يعرف عددها إلا الله ـ تعالى ـ إلا أن الأضرحة التى زرتها هى ضريح الشيخ أبى الحسن البكرى وضريح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى وضريح الشيخ نجم الدين حب الشالى العجمى، وضريح الشيخ فرحان

الحسنى، والشيخ إسماعيل المؤذن وهو زميل الشافعى، والشيخ شيبان الراعى قدس سره العزيز.

وقد زرت أكثر من هؤلاء إلا أننى لم أذكرهم لعدم علمى بأسمائهم.

والإمام الشافعى حى مستقل يسكنه ٢٠٠٠ نسمة، وبه ٦٠٠ منزل متصل. ومن نافذة كل منزل تتدلى مئات الزنابيل الصغيرة. وإذا مر بعض الزوار حركت نساء المنزل وصبيانه تلك الزنابيل المدلاة طلبا للصدقة فيضع رجل الخير فى الزنابيل باره أو منقر أو رغيفا فتجذب هذه الزنابيل إلى المنزل ويرفع الدعاء للمتصدق. وتلك عادة معهودة.

وفى الطريق العام كذلك يتصدق على الفقراء والمعدمين.

وفى قصبة الإمام الشافعى جامع لأحد سلاطين السلف ومدرسة وحوض وساقية و ٧ تكايا وعدة قاعات ومبرتان و ٧ زوايا و ١٠ دكاكين. وهذه الخيرات والحسنات معظمها للسلطان محمد أكراد والملك الكامل.

وعلى مسافة ساعة فى آخر قرية البساتين على بركة الحبش المتفرعة من النيل أقام ساقية كأنها البرج تجلب الماء إلى حى الإمام الشافعى بأقواس كأنها قوس قزح فما أعظم ما صنع من خير.

وفى كل ليلة سبت يتوجه كل من فى مصر القاهرة من أهل التقوى والصلاح إلى الإمام الشافعى زرافات زرافات قارعين الدفوف، ذاكرين اسم الله ـ تعالى ـ، حاملين آلاف القناديل والفوانيس والمشاعل، منشدين قصائد النفس والقصيدة التائية ونعت الإمام الشافعى وحتى مطلع الفجر يتقاطر على الإمام الشافعى خضم من البشر. ومنهم من لم يتخلفوا عن زيارة الإمام الشافعى منذ أكثر من سبعين عامًا، وهم أناس مستجابة دعواتهم. وفى داخل الضريح المفعم بالأنوار لكل منهم مقر معلوم، يقيم فيه للعبادة وقراءة المولد الشريف. ويتجمع فى هذه الليلة عدة آلاف من العميان حافظى كلام الله ويقرءون الختم الشريف ستمائة مرة وربما ألف مرة. فما فى مصر من حافظى كلام الله لا وجود لمثلهم فى غيرها. وهذا ما يجرى مجرى العادة منذ قديم فى كل ليلة سبت وله الدوام إلى ما شاء الله.

وفى العام يقام مولد عظيم لمرة واحدة ويحتشد مئات الآلاف فى مقابر الإمام الشافعى ورملته ومبراته وتزدان جميع المنائر والقباب والكوات بالقناديل ويدوم احتشادهم يومين وليلتين.

وخارج نوافذ ضريح الإمام الشافعى المطلة على الناحية الغربية دفن الشيخ البكرى رضى الله عنه، أجداده وسبعون من الأقطاب سوف نتحدث عنه فى موضعه ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

وعلى مسافة قدرها مائتا قدم جنوب ضريح الإمام الشافعى:

ضريح الشيخ الفقيه، الإمام الزاهد، سيدى الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبى الحارث ـ رضى الله عنه ـ.

كان شيخ إسلام الديار المصرية ومفتى الثقلين، وهذا القطب العظيم مدفون كذلك فى ضريح ذى قبة شاهقة العلو فى القرافة الكبرى، وهناك جامع ومدرسة وتكية وأسبلة ومبرة وزاوية وما يقرب من ٢٠٠ منزل للفقراء وسكانها يطلبون الصدقة بالزنابيل.

وهناك كذلك أضرحة للعلماء، وضريح الإمام الليث لا يبلغ مبلغ ضريح الإمام الشافعى فى اتساعه ورحابة أرجائه إذ إنه لا يتسع إلا لخمسمائة شخص. ويتوسطه تابوت مربع مغطى بالجوخ الأخضر وهو مدفون فيه. والضريح مزين ببعض القناديل والثريات وفيه يجتمع جميع فقهاء القاهرة وعلماؤها لتلاوة القرآن الكريم ولا يأتى غيرهم.

وعلى ضريحه تاريخ مسطور هو : (أمر بإنشاء هذا المرقد المبارك الشريف بفضل الله تعالى سيدنا ومولانا الدنيا والدين السلطان الملك قنصوه الغورى فى سنة عشرين وستمائة).

وعلى الجانب الأيسر من باب الضريح المعلى لوح من الرخام الأبيض طوله طول قامة إنسان كتبت عليه آية من آيات الذكر الحكيم هى: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [التوبة: ٢١]، كما كتبت تحت هذه الآية سورة الإخلاص وأسفلها سطر تاريخ هو: (اثنان وسبعون وسبعمائة).

ولقد زرت هذا القطب وتلوت سورة «يس» ابتغاء مرضاة الله ووهبت مثوبتها روحه ورجوت منه الشفاعة وليتقبل الله.

وإلى جوار الإمام الليث قبر داود باشا وهو من وزراء السلطان سليمان، وتاريخه عام ٩٥٦ وفى الجانب الشرقى لهذا الضريح، على بعد ألف قدم، فى منتصف الطريق إلى جبل المقطم، فوق أكمة عالية مرقد القطب الزاهد، صاحب الكرامات، غياث الواصلين، مطلوب الطالبين الشيخ شاهين رضى اله عنه، وكأنه شاهين قنع بصيده، واستقر فى رأس جبل قاف، وضريحه لا يخلو من الزائرين يصيد قلوبهم بالعشق، وأضرحة كل المدفونين فى القرافة الكبرى تبدو وكأنها تحت منقار هذا الشاهين. إنه ضريح طيب النسيم، وله جامع وتكية يسكنها المتصوفة ومبرة وسبيل وهو مدفون فى الجهة اليمنى من جامعه مع أولاده العظام وخلفائه الكرام وأكبر أبنائه الشيخ محمد العنقاء مدفون فى الجانب الأيمن، أما أصغر أبنائه الشيخ عبد الله العقاب فمدفون فى الجانب الأيسر وألقاب خلفائهم كذلك مشتقة من أسماء الطيور ، إنهم متصوفة معتكفون فى ركن العزلة يسمون الطريقة الشاهينية. وجميع نفقاتهم من فضله فلا تجرى عليهم مرتبات من جهة، وهم متوكلون على الله، والله يبسط الرزق لهم وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وقد وردت هذه الآية الكريمة فى شأن المتوكلين عليه ـ سبحانه وتعالى ـ.

ضريح الشيخ إدريس بن العباس والد الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ:

إنه ضريح صغير فى مصر القاهرة بالقرب من بيت المولوية. وقد رأيت فى أحد التواريخ أن الشيخ إدريس بن العباس مدفون فى غزة لأن الإمام الشافعى ولد فيها ولما توفى والده ـ الشيخ إدريس ـ ارتحلت والدته إلى بغداد ثم إلى المدينة، وهناك تلقى الشافعى العلم على يد الإمام محمد والإمام مالك. وقد أكد مؤرخو مصر بالتواتر أن وفاته كانت فى مصر ولقد زرته ـ رحمة الله عليه ـ.

وفى طريق القصر العينى داخل باب جمال الدين ضريح الشيخ عبد الله العراقى وهو ضريح صغير، وبالقرب من درب الكنيسة ضريح الشيخ أبى بكر معرف القوم وهو مزار عظيم.

وفى الطريق بين جامع الخاتونية والسيدة نفيسة مشهد قبر الطويل وهو مقام لا قبة له ولا تكية، وجوانبه الأربعة فى الطريق العام، ولأنه قبر طويل يصل طوله إلى عشرين قدما سمى بالقبر الطويل، وجاء فى إحدى الروايات أن أربعين من الصحابة الكرام مدفونون فيه لذلك سمى عند البعض بضريح الأربعين.

وعلى مقربة منه قبر الشيخ أبى بكر السليمانى، وعلى مقربة منه مرقد الوزير سلطان ناصر الدين. أدرك هذا الوزير عهد السلطان سليم، وكان عمره مائتا عام، ودخل فى طاعته مع خيره بك، وقد سعى السلطان سليم فى جنازته ودفن بالقرب من القبر الطويل.

مقام سيدنا موسى - عليه السلام -

داخل القاهرة، على مقربة من باب الناصر بجوار جامع جمال الدين، يقع هذا الضريح على الطريق العام، ويهبط إليه بسلم من ست درجات، إنه زاوية ذات ثلاث قباب ومحراب وضريح، وهو موضع يستجاب فيه الدعاء.

وعلى مقربة من قنطرة الدكة شمال بركة الأوزبكية ضريح الشيخ حسن الشاذلى، وهو صاحب «حزب البحر» وهو مدفون فى جامعه. ويقرأ «حزب البحر» لمعظم المصابين بالصرع طيلة أربعين يوما فيتم شفاؤهم بمشيئة الله. وشهرته طبقت الآفاق وتوفى عام ٦٥٦ رحمه الله. وبالقرب منه قبر الشيخ ساكنية وهو مدفون كذلك فى جامعه.

ضريح الشيخ مرزوق كفافى

يقع بالقرب من قصر قاضى العسكر، إنه قطب عظيم على الطريقة الأحمدية. التقى بالسلطان سليم عند فتح مصر، وقد شاد جرجلى على بك جامعا وقبة فوق ضريحه، ولأنه عاصر أبا السعود الجارحى وهما اللذان قالا للسلطان سليم «تعال إلى مصر».

إنه قطب عظيم له كثير الأتباع من المتصوفة، وهم يسمون الطريقة الكفافية، وينسبون إلى الطريقة الأحمدية. وضريحه يزوره الناس خواصهم وعوامهم. وقد دفن معه ثلاثة من خلفائه، وفى الجوانب الأربعة لقبته عدة مئات من الحراب المذهبة والقلانس والطبول والأبواق والشارات.

وبالقرب مـن قنطرة الليمـون ضريح الشيخ محمـد العنانى، وعلى مـقربة من درب الجماميز قبر الشيخ صفى قدس سره. إنه قطب عظيم وأتباعه من المتصوفة لا يحصون كثرة، ويوزع من قبره الأطعمة على الغادى والرائح، وهو مدفون كذلك فى جامعه وفى حرم تكيته شجرة نبق عظيمة.

مزار الشيخ الشعراوى

يوجد بالقـرب من باب الشعرية، وهـو من الأقطاب، ومدفون فى جامعه، ومناقبه لا تقع تحـت حصر، ومؤلـفاته تربـو على ألف مـجلد ومنـزلتها لا تـسامى فى عـلم التصوف. وكتاباه «طبقات الشعراوى» و «ميزان الشعراوى» زينة الدنيا.

وضريحه يزوره العوام والخواص.

مزار السلطان أيبك التركمانى

يوجد فى حى الخلالين بالقرب من سوق الغنم، وهو على الطريق العام، ولا قبة له إلا أن ـ جوانبه الأربعة محاطة بجدران من الرخام الأبيض. وعلى الرخام كتابات بنمط من الخط الكوفى يعجز علماء فاس ومراكش عن قراءتها، وهو خط بديع الزينة.

والسـلطان أيبك هـو زوج شجرة الدر التى أوقفت الكسوة السوداء الحريـرية للكعبة، وكان لها الملـك فترة من الزمن، وكانت ملكـة عظيمة الشأن. واقتضت حـكمة الله أن يكون الملك لأيبك عـلى أثر تفشى الثورة. واتفق ذات يوم أن نقـمت شجرة الدر على أيبك، وبـينما كان أيبـك يغتسل فى الحـمام انتهزت شـجرة الدر هذه الفرصـة فأمرت جواريها بـأن يعملن السيف فـيه فى غفلة منه وقد أثخنته الجراح فى عـدة مواضع من جسمه ولما كانت شجرة الدر سفـاحة تحب رؤية الدماء كـانت تسترق النظـر إليه وهو يضرب بالسيوف من ثقب زجاجى فى أعلى قـبة الحمام، بيد أن أيبك التـركمانى كان شجاعا فـجذب السيف من يـد إحدى الجوارى وكان عارى الجســم تماما، وما أن رأت شجرة الدر أيبك يثخن القتل فى جواريهـا وينجو بادرت بالفرار بكل ما أوتيت من قوة من فوق قبة الحمـام فهوت بها لفرط بدانتهـا وسقطت أمام أيبك التركمـانى مدرجة فى دمائها وسـرعان ما قتلها أيبـك وهو يصب عليها الـلعنات. ومات أيبك كذلـك متأثرا

بجراحه، وهو مدفون فى هذا المكان ودفنت شجرة الدر مع من قتل أيبك من جواريها داخل الجامع الذى فى ذلك المكان.

إلا أن قبر شجرة الدر معمور وله كثير من الأوقاف، فقد كانت شجرة الدر امرأة تتقلب فى أعطاف النعيم، ولم يحظ أى سلطان من سلاطين السلف بكسوة الكعبة الشريفة بالحرير الأسود، ولكن هذا تيسر لشجرة الدر، وخصص فى كل عام مائة وسبعون كيسا من أوقافها للإنفاق على هذه الكسوة التى ترسل إلى مكة المكرمة. وهذه الكسوة ينسجها ثلاثمائة نساج من الحرير والذهب فى جوسق يوسف وهى جديرة بالمشاهدة.

ومزار القاضى (   )[1] فى القرافة الصغرى، وهو قطب عظيم.

قبر المستنصر بالله

أول من كان له الملك فى مصر من خلفاء بنى العباس. لقد استشهد آل عباس عن آخرهم على يد هولاكو التترى وأعمل السيف فى أهل بغداد جميعًا وعندما سوى أبنية بغداد بالأرض هدما وجعلها خرابا يبابا كان المستنصر بالله فى بادية العرب فكتبت له النجاة، ولما أفضت الخلافة فى مصر إلى الظاهر بيبرس دعا المستنصر بالله إلى مصر وفى عام ٦٥٩ كانت الخطبة والسكة باسمه، ثم رد مصر إلى الظاهر بيبرس وتوجه بيبرس إلى دمشق فى معية الخليفة المستنصر، ومضى الخليفة منها إلى بغداد حاضرة أسلافه واستقل الظاهر بيبرس بمصر ودمشق وحلب، إلا أن السكة والخطبة كانت باسم خلفاء بنى العباس. ولما بلغ المستنصر بغداد تنفس العباسيون الصعداء، وقدم المتوكل على الله إلى مصر، وهو الخليفة العباسى السابع عشر، وسكن القصر الذى بنى للمستنصر فى قلعة الكبش، فكانت الخطبة والسكه باسمه، إلا أن مقاليد الحكم كانت فى يد الظاهر بيبرس، ثم توفى المتوكل عام ٦٦٦ وهو مدفون فى ضريح ذى قبة أمام قبة السيدة نفيسة.

---

(١) بياض بالأصل.

مشهد الحاكم بأمر الله

كان فى طور الطفولة فى البادية على عـهد هولاكو، وفر إلى مصر، وظل فى قلعة الكبش فى مصر خليفة طوال إحدى وأربعين سنة، واشتهر بالسفه فى سلوكه، حتى إنه أنشأ مرصدا فوق الصخرة التى أمام قدم النبى لـيجعل الليل نهاراً والنهار ليلا فإذا خرج أحد فى وضح النهار من داره قتله، فكان النـاس ينامون نهاراً على أن نهارهم ليل وإذا ما حل المساء ازدانت القاهرة بالمصابيح واشتغل الناس بالبيع والشراء وكأنه النهار.

ولقد أمهله الله إحدى وأربعين سنة على هذه الأحوال الغريبة والأطوار العجيبة وفى آخر الأمر قتلته أختـه فى إحدى القرى ودفنوه إلى جوار السيدة نفيسـة، واستقر جثمانه هناك إلى يومنا هذا.

وقد أقام الحاكم بأمر الله الجامع الكبير الموجود فى باب الناصر، وملأ الجامع الأزهر بروث الخيل ودعا الناس إلى جامعه وعين لكل منهم رغيفًا وصحنا من الحساء، إلا أنهم صدوا عن جامعه، وتـابعوا دروسهم وصلاتهم وسط الروث الذى كـان موجود بالجامع الأزهر، إلى أن أهلكه الله فطهروا الجامع الأزهر وهو إلى يومنا هذا يغص بطلبة العلم، ولا يؤم جامـع الحاكم الآن إلا قلة من الـناس، لأنه بنى ظـلما ولا تطيب الـصلاة لمن يصلون فيه.

قبر الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله سليمان

استوى على عرش الخـلافة عام ١٢ وأدركته الوفاة فى عهد الملك الـصالح ابن الملك الناصر بالطاعون عام ٧٥٣ ودفن كذلك بجوار السيدة نفيسة.

مشهد المقتصد بالله بالقرب من السيدة نفيسة

مشهد المتوكل على الله محمد بن المقتصد بالله أبو بكر

تولى الخلافة عام ٧٨٥. آلت الخلافة إلى السلطان برقوق الشركسى وطالب بالسـلطنة لذا خلـع المتوكل وحـبسه فى قلـعة الجبل، وبـعد ست سنوات أطـلق سراحه وجـعله خليفة.

وفى عام ٧٩٧ كانت الخلافة لبايزيد فى بلاد الروم (الأناضول) فأرسل رسولا إلى المتوكل تبركا وتيمنا واستأذن منه فى تجديد البيعة، وأرسل المتوكل كذلك إلى السلطان بايزيد يلدريم سجادة ومصحفا وجوادا وشاة ومرسوما. وعندما توثقت الصلة بين المتوكل وبايزيد يلدريم خان استقل الأخير ملكا، وأغار كالصاعقة على بلاد الكفر، وقرأت الخطبة باسمه فى سبعمائة مكان.

ومن ناحية أخرى دام حبس المتوكل على الله وعزله وعودته إلى الخلافة خمسا وأربعين سنة، ثم توفى فى عهد السلطان فرج بن برقوق ودفن كذلك بجوار السيدة نفيسة ـ رحمها الله ـ.

والواثق بأمر الله عمر بن إبراهيم بن المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله دفن فى قبر عظيم بالقرب من السيدة نفيسة عام ٧٨٨.

مشهد المقتصد بالله داود بن المتوكل على الله محمد

أتته الخلافة عام ٣٢، حمل على دمشق مع السلطان جقماق وفتحها، وعندما عاد إلى مصر منصورا مظفرا توفى المقتصد بالله عام ٨٤٥ ، وسعى حقماق فى جنازته حاملاً جثمانه على كتفيه حتى السيدة نفيسة وهو يبكى أحر بكاء، ودفنوه فى ضريح الخلفاء أمام السيدة نفيسة لأن هذا الضريح كان المثوى المبارك لخلفاء بنى العباس العظام، وفى ذلك المقام الشريف دفن مئات من ملوك السلف وآلاف من الأمراء أمحت آثارهم فيه.

مشهد المستكفى بالله سليمان بن المتوكل على الله محمود

آلت إليه الخلافة بعد أخيه المقتصد، ولم يمهله الموت إلا تسعة أشهر وسعى الملك الظاهر جقماق فى جنازته ودفن إلى جوار أخيه المقتصد بالله بالقرب من السيدة نفيسة.

مشهد المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد

دامت له الخلافة خمسة وعشرون عاما وتوفى عام ٨٨٤ وسعى فى جنازته السلطان قايتباى ودفن كذلك فى السيدة نفيسة، وعندما فتح السلطان محمد اسطنبول بلغه نعى

المستنجد باللـه فأخذه شديد الأسى وأرسل برهان الدين المغولى خـليفة آق شمس الدين ومعه سترا مزركشا من مال الغزو وبه ستر تابوته الشريف وهو مستور إلى يومنا هذا به. إنه ستر بديع الصنع منقطع الشبيه.

مشهد المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله

آلت إليه الخلافة عام ٨٨٤، وبقى فيها تسـعة عشر عامًا، وفى عام ٩٠٣ على عهد السلطان قايتباى توفى السلطان الناصر محمد[١] والمتوكل فى اليوم نفسه ودفنوا المتوكل بجوار السيدة نفيسة، أما السلطان محمد فدفنوه فى مصر العتيقة.

إلا أن المتوكل هذا كان خليفة بلغ من الكبر عـتيا حتى إنه أدرك عهد السلطان سليم فاتح مصر وطابت صحبته وانعقدت بينهـما أواصر الألفة واصطحبه إلى اسطنبول ونزل المتوكل ضيفـا على قصر بيرى باشا، وقضى الـله بأن يموت السلطان سلـيم، فانعقدت بينه وبين سليمان مودة وألفة.

نمى إلى المتوكل نعى أبيه من مصر فأذن له سليمان بأن يكون خليفة فى مصر، وقبل يده أمام الشيـخ أبى السعود، وعين بلاق مصطـفى باشا قائد أسطول عظـيم، فقدم مع المتوكـل من اسطنـبول إلى الإسكنـدرية وألقت الـسفينـة مرساتها بـعد سبعـة أيام فى الإسكندرية ودخل القاهرة بعد ذلك بيومين واستقبله داود باشا والى مصر ومضى به إلى قلعة الكبش فى مـوكب عظيم حيث عرش أسلافه واستوى المتوكـل على سرير الخلافة ودامت خلافته ثلاثـة وعشرين عاما وأدركته الوفاة عام ٩٠٥ فـى عهد داود باشا ودفن بجوار السيدة نفيسة.

وبوفاة المتوكـل هذا انقرض من كانوا بمثابـة خلفاء بنى العباس فـى مصر، وعددهم سبعة عشر خليفة ودامت خلافتهم (   )[٢] سنة.

إلا أن خلفـاء مصر من بنى الـعباس كانوا فـى منزلة شيـخ الشيوخ وكانت الخـطبة والسكة باسمـهـم إلا أن أزمـة الحكـم كانت فـى يـد سلاطيـن الجراكسة وكانوا يدبرون

(١) مات مقتولاً فى ١٥ ربيع الأول سنة ٩٠٤هـ، والله أعلم.

(٢) بياض فى الأصل.

كل الأمور أما هؤلاء العباسيون فكان لهم القول دون العمل وكانوا يبايعونهم ولهم منزلة رفيعة.

ومشهد المستمسك بالله كذلك بالقرب من السيدة نفيسة

مراقد سلاطين مصر بداية من صلاح الدين يوسف بن شاد الكردى من آل أيوب سبعة سلاطين، وفى عام ٥٧٢ عندما كان صلاح الدين يوسف وزيرا لنور الدين الشهيد فى دمشق استقل بملك مصر، وأوجس خيفة من نور الدين الشهيد فبنى قلعة مصر الداخلية والخارجية وأحاط القاهرة بسور يبلغ طوله تسعة وعشرين ألفا وثلاثمائة ذراع، وأقام بالقرب من الإمام الشافعى مدرسة.

وفى عام ٥٧٥ دارت رحى الحرب بينه وبين الصليبيين فى مرج العيون وألحق الهزيمة بالفرنجة. وفى عام ٥٨٩ دفن بالقرب من جامعه فى القاهرة.

يقول البعض إنه دفن فى دمشق وهذا مجاف للحقيقة وتاريخه مطبوع فى ذاكرتى.

مشهد الملك الكامل

دفن بجوار دار الحديث بمدينة القاهرة، وله كثير من المؤسسات الخيرية فى الإمام الشافعى.

مشهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون

ضرب الحصار على عكا أربعة وأربعين يوما وانتزعها من يد الأسبان، وبعد انتصاره قفل راجعا إلى مصر وكانت وفاته فيها، وهو مدفون فى ضريح ذى قبة فى ساحة جامعه.

ومشهد الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى سقف جامعه، أما أخوه الملك الأفضل فكانت له الخلافة (الملك) قبل الملك العزيز إلا أنه خلع لخسته ودناءته ونُفى إلى دمياط، وفيها كانت وفاته، وحملوا جثمانه إلى القاهرة حيث دفن إلى جوار أخيه الملك العزيز عثمان.

قبر الأشرف الأيوبي

سماه المصريون العبد الدمشقي، ولأنه كان كَسلا جهولا كثر من يناشبونه العداء من كل جهة، وفي عهده تنازل عن القدس للأسبان والفرنجة صلحا. وفي عام ٩٣٥ توفي في دمشق وهو في الستين من عمره وحمل جثمانه إلى مصر ليدفن في جامعه.

مشهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد

أدركته الوفاة في مدينة المنصورة وهو مدفون في ساحة جامعه بالقاهرة. وقد أقام مدارس للمذاهب الأربعة في «بين القصر»، كما أقام قلعة جزيرة الروضة إلا أن فيضان النيل خربها، إلا أن آثار أبراجها ما زالت ماثلة للعيان في ناحية أم القياس في الجهة المطلة على الجيزة.

مشهد الملك المعظم طوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب

وطوران شاه هذا كان أميرا للجيش في حصن كيفا عندما توفي والده نجم الدين أيوب في مدينة المنصورة، وكان طوران شاه في حرب مع العجم. وطوران شاه ابن شجرة الدر زوجة نجم الدين أيوب، وبعد أن توفي نجم الدين كتمت شجرة الدر خبر وفاته عن الناس بحسن تدبيرها وسداد رأيها، وأبلغت نعيه ابنها الملك المعظم طورانشاه سراً، فقدم مصر على عجل وبلغ القاهرة في أربعين يومًا، وعندئذ أميط اللثام عن وفاة والده وبايع جميع الأعيان الملك المعظم، واستقل بملك مصر، وعندئذ سرعان ما استولى الصليبيون على مدينة دمياط.

وفي عام ٦٤٨ أباد طوران شاه الفرنجة عن آخرهم وفتح دمياط ثم عاد إلى القاهرة وشق مماليكه عصا الطاعة وقتلوه في قصره.

دامت سلطنة طوران شاه سبعين يوما ودفن بجوار أبيه في القاهرة ودالت به دولة الأيوبيين وأفضى الملك إلى أمه شجرة الدر، ودام حكمها سبعين يوما كذلك، ثم أفضت الخلافة إلى زوجها أيبك التركماني وقد ذكرنا وقائعهما آنفا.

ثم آل ملك مصر إلى مماليك نجم الدين أيوب وعصره بداية عهد المماليك.

وفى الطريق بين دمشق ومكة المكرمة بـركة الملك المعظم طوران شاه وهى من خيراته ولا نظير لها فى طريق عام. حقا إنه ملك خير معظم.

والملك أسد الديـن شيركوه شاد الكـردى دفن بجوار جامـع الأشرفية فى مـصيف قايتباى، **والسلطان المؤيد من عند الله** مدفون فى ساحة جامعه بالباب الحديد.

وفى الباب الحديد الأضرحة الأربعون وهى أسفل جامع السلطان المؤيد، إنها أضرحة عظيمة خلف الباب الحديدى، وهى الآن مقام شريف لا يخلو من المتصوفة.

وعلى مـقربة من جـامع المؤيد ضـريح الملك المظـفر أبى السـعادة خامس سـلاطين الجراكـسة وكان ملكا عادلا.

وفى القرافة المـنحوتة ضريح الملك الظـاهر أبى الفتح التترى، وهـو سادس سلاطين الجراكـسة ووفاته كانت عام ٨٢٤، وعلى عتبة ضريحه العالية تاريخ تعلوه عبارة: (فاتح حلب الشهباء) والملكَ العزيز ابن الملـك الأشرف، وكذلك الملك جمال الدين، مدفونان إلى جوار المـلك الأشرف فى جامع الأشـرفية. والملك الـعزيز عماد الدولـة بن صلاح الدين يوسـف مدفون بجوار الإمام الـشافعى. والملك مـعز الدين من ممالـيك آل أيوب مدفون فوق سد على طريق مصيف قايتباى وفاته كانت عام ٣٦٥. وبانى الجامع الأزهر من صلب مال المعـز لدين الله هذا، وفى عام ٣٦١ خرج المعز لديـن الله هذا من بلاد المغرب متعللا بالجـامع الأزهر وانتزع مصر من يد الإخشيديين وقهـر أناسًا من شعبها، ولأن أهل مصر القاهرة عتاة جبابرة أرضىّ المذهب سميت القاهرة المعزية.

وأزهـر مـاى بورنـوى مدفـون بالقـرب من جامع الأزهر، وأخو يـوسف صلاح الدين الذى بنى قصـور الوزراء هو الملك سيف الدين بن أبى بكـر بن أيوب، ولكن بما أنه كان عاشقا ولـهـان دخله الغضب ذات يوم وضرب تحت أذنه بقبضته فجرى الدم من أسفـل أذنـه ومـات، وهو مدفون بجوار عمر بن الفارض وقد انـهدمت بعض جوانب ضريحه.

مشهد طومانباى والسلطان محمد ابن السلطان الغورى

إنه السلطان طومانباى الذى حارب السلطان سليم، ولقد لقى السلطان الغورى حتفه فى حربه مع السلطان سليم، فخلفه ابنه السلطان محمد وهو قاصر، وما كانت له الحنكة والدراية بفنون الحرب، ولذلك تمرد عليه الجند وخلعوه وأحلوا محله السلطان طومانباى.

وقد سبق لطومانباى أن حارب سليما فى اثنين وأربعين معركة إلا أن الهزيمة لحقت به فى النهاية وولى هاربا وقبض عليه فى جبال صعب بالفيوم بعون بعض عرب البحيرة وصلبه سليم على باب زويلة فانتهت الفتنة والفساد ولكن أدركت سليم الرحمة عليه فأمر بغسل جثمانه وشيعه حتى العادلية. وإلى جوار طومانباى دفن السلطان محمد بن الغورى، وفى عام ٩٢٢ كتب تاريخ وآية الكرسى على تابوته الرخامى.

مزار الشيخ ذى النون المصرى

دفن فى ضريح مستقل بالقرب من ضريح الشيخ عقبة الجهينى فى ظل جبل المقطم. ولد ذو النون المصرى فى شرق مدينة أخميم وكان قبطيا من خواص المقوقس ملك مصر، وقد أوفده المقوقس مبعوثا من قبله ومعه جاريتان إحداهما السيدة مارية وهى أم إبراهيم ابن النبى (صلى الله عليه وسلم) وبغلة وسيف.

وقد أهدى النبى (صلى الله عليه وسلم) السيف والبغلة المُسماه «دلدل» وهُما هدية المقوقس إلى سيدنا على كرم الله وجهه، والسيف الذى أهداه هو سيف المقوقس واسمه «ذو الفقار»، وأهدى إحدى الجاريتين إلى الشاعر حسان بن ثابت وقد أنجبت له ولده الأكبر عبد الرحمن بن حسان.

وعندما أوصل ذو النون هذه الهدايا إلى النبى ﷺ لم يَقوَ على كبت محبته للنبى ﷺ فأسلم من أعماق قلبه ودخل فى زمرة الصحابة الكرام وأصبح شيخا لمهرة الأطباء، وبلغ مبلغ فيثاغورث التوحيدى فى علم الطب، وكان عالما شاعرًا، وتلقى تعاليم التصوف على يد على بن أبى طالب، وتضلع من العلم اللدنى، وسلسلة الأطباء تنتهى إليه.

وفى عهد خلافة عمر نازعته نفسه إلى وطنه فمضى مع عمرو بن العاص واستشهد فى فتح مصر، ودفن فى تراب مسقط رأسه فكل شىء يرجع إلى أصله.

ضريح الشيخ أبى السعود الجارحى

يقع خارج الجهة الجنوبية لمصر القاهرة على مسافة ألف وستمائة قدم منها، وهى قصبة بها ما يقرب من ستمائة منزل وجامع وزاوية وتكية وسبيل. والشيخ الجارحى مدفون فى تابوت مغطى بالجوخ الأخضر، وهو داخل ضريح ذى قبة عالية وسط هذه القصبة.

والشيخ أبو السعود الجارحى أحد من نادوا سليم قائلين «تعال يا سليم إلى مصر».

ويحتشد جمع غفير من الناس فى ضريحه كل عام للاحتفال بالمولد النبوى. إنه مزار يؤمه العوام والخواص والنساء. ومن يمسح عتبته بوجهه هم العارفون بالله.

مشهد رأس الإمام الحسين

ابن الإمام على بن أبى طالب. رضى الله عنهما.

بالقرب من خان الخليلى

ولد فى اللحظة التى استشهد فيها سيدنا حمزة ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة أحد. ويقول بعض المؤرخين إنه ولد قبل الهجرة النبوية الشريفة وعاش ستة وخمسين عامًا.

تنازل الحسين عن الخلافة ليزيد بن معاوية عن رضاء وطواعية، ولأنه لم يبايع يزيدا وجه إليه قادته عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وغيرهم من دمشق، ونشبت الحرب فى صحراء كربلاء مع مائة ألف بلاء واستشهد أميران من أبنائه وأربعه أخوة وأولاد أحد إخوته وخمسة من أبناء عمومته، وعشرون ألفا من الصحابة الكرام فى يوم عاشوراء من سنة (٦١هـ) للهجرة وهم جياع عطاش، ثم استشهد الإمام الحسين وحملوا رأسه الشريف إلى يزيد فى دمشق فابتهج لذلك كثيرا وأرسل الرأس إلى معاوية بن جريج فى مصر، وقام هذا اللعين بالتمثيل به فى ميدان مصر القاهرة، وكل من ركل هذا الرأس الشريف بقدمه من جبابرة الفراعنة تورمت قدمه وأصبحت وكأنها القربة. والآن تورمت أقدام عدة آلاف فى مصر.

بعد ذلك قضى الله بأن تقطع إحدى النساء رأس أحد أبنائها ووضعته فى الميدان، واحتفظت برأس الإمام الحسين حتى إذا عزل عامل يزيد على مصر وتولى مكانه عامل

مؤمن ورع من محبى أهل البيت فأمر تلك السيدة بإظهار رأس الحسين، ودفنته فى مشهده الموجود الآن، ثم أولاه ـ المقتدر بالله ومن جاء بعده من خلفاء بنى العباس اهتماما عظيما فأقام عليه بناء عظيما وقبة ودفن الرأس الشريف فى تابوت مكسو بالحرير المزركش وسط هذه القبة. ويزدان هذا الضريح بصنوف المباخر وأوعية ماء الورد والشمعدانات والقناديل، وكأنه الجنة العالية والجامع السلطانى. وبما أن هذا المشهد فى حجم الكعبة الشريفة يلف حول أعمدته كسوة الكعبة الشريفة لقياسها.

إنه مشهد يزار ليل نهار. وفى سفح جبل المقطم المعروف بجبل الجوشى:

مزار سلطان العاشقين

سيدى الشيخ عمر بن الفارض الحموى المصرى

كنيته أبو حفص واسمه الشريف عمر، من قبيلة بنى سعد. وله قصيدة بليغة تسمى «التائية» يعجز فحول الشعراء عن قرض مصراع مثل مصراع فيها. حتى إن محيى الدين بن عربى فى دمشق أرسل إلى عمر بن الفارض يستأذنه فى أن ينظم لها نظيرة. فقال عمر بن الفارض لمحيى الدين بن عربى إن كتابك المسمى «الفتوحات المكية» نظيرة لهذه «التائية». إنها قصيدة بليغة إلى حد جد بعيد، وعندما ينشد المتصوفة بيتا أو بيتين منها كل يوم جمعة فى ضريحه يغيبون عن الوعى فى نشوة الوجد. إنه ضريح عظيم، وتكية عظيمة، ومبرة، وفيه متصوفة وجميع أوقافه من أوقاف الملك الكامل، لأن عمر بن الفارض توفى عام ٦٣٢ فى أواخر عهد الملك الكامل.

وفى كل يوم جمعة يَغُصُّ جامعه بالناس حتى إذا قدم أحد لم يجد له موضعا، ومع ذلك يجد له مكانا بأمر الله، وكرامة له، ويجسو كل منهم على ركب بعضهم خواصهم وعوامهم، ولا يستنكف أحد من ذلك وقد اجتمعت قلوبهم خواصا وعواما. يا لها من حكمة عجيبة. ولا وجود لمثل هذا الجو الروحى فى أى تكية أخرى ويقول جميع علماء مصر إن روح النبى (صلى الله عليه وسلم) تحضر فى كل يوم جمعة فى هذه التكية، كما تحضر أرواح سائر الأنبياء وهذا ما اصطلح عليه جميع مشايخ مصر. ـ رحمة الله عليه ـ.

مزار الشيخ الجوشى فوق جبل الجوشى

له جامع وتكية وعدة بيوت وهو مدفون فى ضريح صغير ذى قبة فى الجهة اليسرى من جامعه وهو ضريح جد بديع، أعلى جبل المقطم وهو على مسيرة يوم من مصر القاهرة فيما يحيط بها من الصحارى. وتحت هذا الجبل كهوف تربو على الآلاف بها عدة آلاف من المتصوفة وصلحاء الأئمة ممن لم يهبطوا القاهرة قط. وهم أهل حال وأصحاب مجاهدات قوامون ليلاً صوامون نهاراً، منهم:

الشيخ محمد الغمراوى الذى يجاهد نفسه ويفطر يومًا فى الأسبوع، فهو سلطان فى ركن عزلته، وردى البشرة.

والشيخ على المغربى يسكن كذلك إحدى المغارات وهو نحيل ضئيل، إلا أن زواره يقدمون له الطعام، والهدايا، ولا يصيبه منها إلا النذر اليسير، وهو مع ذلك لم يشاهد متبولاً ولا متغوطًا، وتفوح رائحة الزعفران من مغارته على الدوام ـ سلمه الله ـ.

وفى غار آخر كذلك الشيخ رجب شاه وانى الذى لم يخرج من غاره منذ ثمانية وأربعين عامًا قضاها فى التنسك وتلاوة القرآن، إنه زاهد زائع الصيت بتقواه، فقد جاءه أحد الرهبان وتجرأ قائلاً: «فلنعتكف أربعين يومًا بلا طعام»، وظلا فى الغار سبعة أيام بلياليها أراد الراهب بعدها أن يخرج من الغار لقضاء حاجة عرضت له فمنعه الشيخ رجب شاه وانى من الخروج من الغار، وسد خدامه باب الغار، فمكثا فى الغار. وفى اليوم الثامن عشر هلك الراهب من الجوع، وأخرجوا جثمانه من الغار، أما الشيخ رجب شاه فقد أكمل الأربعين يومًا بلياليها دون أن يتناول حبة من قمح. كان الشيخ رجب حافظًا للقرآن الكريم.

وبالقرب من ضريحه يوجد ضريح الشيخ معصوم البلغرادى وهو رجل عاقل من الشعراء البلغاء وله ملكة حسن الخط، كان يتعيش منها على الكفاف، كان مداومًا على صيام داود، كما يقيم كل من الشيخ محمد الفرسكورى والشيخ مردمى الطربزونى فى غار واحد، معتكفين عن الناس، ولا يعلم أحدٌ من أين يحصلان على قوتهما، سلمهما الله، ونحمد الله أن شرفنا بمقابلتهم والحديث معهم، ودعائهم لنا بالخير. وما عرفناه منهم من كلمات الأسرار لا يمكن البوح بها باللسان.

وهناك المئات من العارفين الذين يسكنون أركان تلك المغارات ونسأل البارى أن يرفع من قدرهم، ولو أننا قمنا بتدوين ما دار بيننا وبين كل واحد منهم لصار كتابًا مفصلاً.

وأسفل هذه المغارات يقع غار الشيخ عبد الله المغاورى، وهو غار عظيم موسوم بعموده الكبير الذى يشبه الجبل لو دخله شخص لتملكته الحيرة والدهشة من اتساعه، إذ يتسع لعشرة آلاف رأس من الغنم، وفى نهايتها ضريح عبد الله المغاورى وكان سلطانًا له قدرة على التسخير، فكان يذهب إلى الحج فى كل عام ويرى الآلام التى تتكبدها أمة محمد ﷺ فى الطريق من شدة الحر، وكان له صاحب من الجن، أمره عبد الله المغاورى بأن يخترق الجبال والكهوف الواقعة على الطريق بين مصر ومكة ويشقها لتخلص عباد الله من شدة الحر، فشق الجنى أولاً مغارة عبد الله المغاورى. حقيقة إن هذا الصنيع ليس من مقدور البشر، ولم ييسر البارى - عز وجل - إتمام هذا العمل، فقد توفى المرحوم الشيخ عبد الله المغاورى ودفن فى فناء هذا الغار، كما أن أربعين من كبار أولياء الله مدفونين معه فى هذا الغار لكننا لا نعرف أسماءهم الشريفة ولهم مريدون، ومكتوب على باب هذا الغار عبارة (أمر بإنشائه مولانا الملك المظفر الظاهر بيبرس) لكنها مكتوبة فى مكان شديد الارتفاع، وفى أركان هذا الغار يقيم المريدون جماعات جماعات.

وعلى مقربة من هذا الضريح توجد أضرحة أخوة يوسف الصديق يامن وابنه إفرايم وصارير بن يهودا وعزيز مصر وزليخة والملك الريان.

وعلى مقربة منها مقام النبى موسى - عليه السلام - وهو مكان للعبادة، وملحق بهذا المقام ضريح الشيخ عيسى أحد أبناء الشيخ عبد القادر الجيلانى، وهو رفيع المقام يسكنه بعض مريدى الطريقة القادرية.

وبحافة جبل المقطم - أى فى نهاية القرافة الكبرى - يوجد مزار الشيخ السادات المغربى، وهو تكية كبرى تضم جامعًا وتكية وعمارة وغرفًا للمريدين، إنها تكية عامرة، ومدفون فى مصر من أحفاد وأبناء الشيخ السادات أربعون شخصًا يقام لهم احتفال مرة كل عام فى النصف من شعبان حيث يفد مائتا ألف شخص بالخيام الصغيرة والكبيرة

ويمكثون هنـاك اثنا عشر يومًا بلـياليها، وفى الليـل يضيئون مئات الآلاف من الـقناديل ويذكرون الله، وقد توسط المكـان الشيخ أبو التخصيص «صاحب الـسجادة» يقدم الخبز للزوار ويعطى لكل واحد منهم كنية أى لقب. ثم يضعون على صدره الشال الكشميرى أو عمامة الرضا البيضاء، ويبايعونه لأن طريقتهم الطريقة الوفائية التى تنتهى برسول الله ﷺ، إنها تكية عظيمة قُدّس سره.

وبالقرب من هـذه التكية مزار أبو السـعود العشائر وقد ضم ولاة مـصر أوقاف تلك التكيـة إلى الأموال الأميرية ولهـذا خلت من المريديـن، وبجوار جامع السلـطان حسن يوجد ضريح الشيخ أحمد الرفاعى، والشيخ وكل أبنائه مدفونون فى هذا الضريح، إنها تكية عـامرة مريدوها كثيـر، وهم على الطريقـة البرهانية، وخلـفاؤُهم يعتمّون بـعمامة عباسية سوداء، ويحملون راية بيضاء، ولهم مولد عظيم يقام مرة واحدة فى السنة.

وبالقرب من سويـقة الدلال يوجد جامع قطب الآفاق وشيخ الـشيوخ على الإطلاق الشيخ شمس الدين الحنفى، وهو سلطان عظـيم مدفون فى قبة عالية بالجانب الأيمن من الجامع المذكور، وهـى تكية عامرة بالمشايـخ والمتصوفة. وفى فناء الجـامع شجرة سدر، وفى يوم الأربعاء من كل أسبوع يأتى الآلاف لزيارتها، قُدّس سره العزيز.

وفى الناحـية الأخرى من النيل المـواجهة لمصر القـديمة، والجانب الغربى مـن قصبة الجيزة يوجد ضريح الصحابى الجلـيل أبو هريرة - رضى الله عنه - الذى روى الأحاديث الصحيحة عـن النبى ﷺ، كان النبى ﷺ يحبـه حبًا شديدًا وقد لقبه النـبى بأبو هريرة لفرط حبه للقطط وقد قال النبى ﷺ : «حب الهرة من الإيمان»[1]، وأبو هريرة من قبيلة دوس، وعندما كان خالد بن الوليد قائدًا على غزوة الشام كان أبو هريرة قائدًا على قبيلة دوس المذكورة فى تلك الغزوة، وفتح القُدْس الشـريف مع عمر بن الخطاب وعندما كان

(١) ذكره الصّغانى فى كتاب الموضوعات برقم (٨٣) ص٤٧.

وقال الإمام على القارى فى كتاب «الموضوعات الكبرى» ص ١٨٢ - ١٨٣ بأن الحديث «موضوع كما قال الصغانى وغيره. وقد بسطت عليه بعض الكلام فى رسالة مستقلة لتحقيق المرام».

ووافقه أيضًا فى الحكم على هذا الحديث بالوضع الـعجلونى فى كتاب: كشف الخفاء ١/ ٤١٥، والشيخ محمد الحوت البيروتى فى: أسنى المطالب ص ٩٢.

يقاتل فى غزوة مصر مع عمرو بن العاص جرح فى خده وعبر إلى ناحية الجيزة واستشهد هناك، وقد بنى عمرو بن العاص ضريحًا له داخل بستان عامر بالنخيل والأشجار، وفى تكيته الآلاف من القطط والهرر، وفى مصر إذا ما ضاق أحد من هرته فإنه ينقلها إلى تكية أبو هريرة لذا لا يعلم عدد تلك القطط الموجودة هناك إلا الله، وهو الذى يطعمهم.

ذكر أوصاف مولد أبو هريرة

يقام المولد فى تكية أبو هريرة مرة واحدة فى السنة فى شهر يوليو، وحيث يصل كل الدعاة والصلحاء والأشراف بخيامهم وينصبونها فى الأماكن المعشوشبة من صحراء الجيزة ويذكرون الله ثلاثة أيام بلياليها ويشعلون مئات الآلاف من القناديل والفوانيس والمشاعل، ويحضر الزوار بالخيام وتحمل مئات الآلاف من الزوارق والقوارب الزوار بخيامهم، ويصبح الجمع عظيمًا وكأنه عيد خوارزم شاه. ولا يوجد تجمع كهذا فى أى مكان آخر فى شهر يوليو سوى فى هذا المكان، هذا بالإضافة إلى وجود عين فى الجانب الشرقى لنافذة ضريح أبو هريرة تتدفق منها المياه الصافية ويطلقون عليها «عين الهرة» لصفائها كعين الهرة، وقد نبعت تلك العين كرامة لأبى هريرة، ويشرب منها مئات الآلاف من القطط الموجودة فى تكية أبو هريرة ويدفعون بها جوعهم وعطشهم بأمر الله، ويعيشون عليها حيث لا غذاء لهم سواها، وفى شهر يوليو تجرى المياه فى تلك العين حمراء اللون لأنه عندما جُرح أبو هريرة فى غزوة مصر وسقط دمه على الأرض جرى الماء دمًا من تلك العين لمدة أربعين يومًا إلى أن فاضت روحه صار الماء أبيَضَ صافيًا مرة أخرى، وإلى الآن تجرى المياه فى هذه العين من شهر يوليو وحتى أيام المولد حمراء، وإذا ما شربت النساء والحائضات منه ينقطع عنهن الحيض، وفى أيام المولد تجرى المياه بيضاء بأمر الله، حيث يجتمع السادة والمتصوفة وحملة المشاعل عند هذه العين ويدعون الله فتجرى المياه بيضاء عذبة. فيشرب شيخ تكية أبو هريرة أولاً ثم يقوم بملئ الأباريق والجرار والأقداح ويقدم إلى وزير مصر وقاضيها ونقيب الأشراف ومشايخ الإسلام

الأربعة وسائر أمراء مصر وتُرسل هدايا لكل أعيان مصر، حيث يشربون منه، ومنهم من يشربها بنية الشفاء. كما يحسنون بها على المتصوفة والمريدين الذين يجلبونها إليهم، وتشرب كل أمة محمد من هذا الماء، وبالرغم من أنه يتم ملئ مئات الآلاف من الجرار والأباريق من مياه تلك العين إلا أنها لا تنقص قطرة واحدة، وفى اليوم الثالث للمولد تصير مياه هذه العين كماء الورد ويُرسل منها إلى الشام وحلب وبغداد والبصرة وإستانبول تبركًا، حيث يكون طعم المياه حينذاك مثل ماء زمزم وطبيعته مسهلة، وهو دواء لسبعين داء مختلف، من يشرب منه مرة لن يصيبه مرض حتى السنة المقبلة بل إنه لن يحتاج إلى طبيب، ولكن يجب أن يُشرب بنية خالصة، فإنه عندئذ يدفع الدم الفاسد من الجسد والأخلاط الموجودة فى الجسم والرعشة والبرص والجذام، وعادة ما تظل مياه العين المذكورة عذبة لونها أصفر براق حتى السنة التالية، ثم تتحول إلى اللون الأحمر فى شهر يوليو وتظل على ذلك أربعين يومًا بلياليها، حتى يوم المولد حيث تنقطع المياه الحمراء فيه، وتجرى المياه البراقة وكأنها ماء الورد، وهى تجرى على هذا المنوال إلى ما شاء الله، وفى هذا المولد الشريف يتم بيع ما يقرب من عشرة ملايين جرة وكوب وقصعة وذلك من أجل العين المذكورة، ولا يعلم حسابهاإلا الله ويُباع فى هذا اليوم أيضًا اللبن الرايب والسمن الجيزاوى، ولوجود جبال الأهرامات فى تلك المنطقة يقوم خمسة أو عشرة أشخاص من زوار تكية أبو هريرة بالتجمع فى مكان ما ويذهبون لمشاهدة جبال فرعون إما سيرًا وإما على ظهور الدواب.

عبرة

فى أيام مولد «أبو هريرة» وعلى مقربة من تكيته فى الجيزة تخرج من باطن الأرض مئات الآلاف من عظام الشهداء الذين استشهدوا معه وتتحرك تلك العظام، ولكنى لم أرَ ذلك بعينى بل سمعته من رجال ثقات، وعندما كنتُ أعبر النيل بالمركب إلى ناحية مصر القديمة شاهدت الأهالى يحملون فى أيديهم بعض العظام وقالوا إنها أعضاء الشهداء ونأخذها إلى بيوتنا تبركًا بها، وهذه حكمة إلهية للعبرة والعظة.

وعندما سألت بعض الرجال وعلماء الأزهر عن ذلك قالوا إن العظام تكثر حقيقة فى هذا اليوم ولا يعرف أصحابـها، والبعض يقول عن تلك العظام أنهـا عظام القبط الذين تحاربوا مع الصحابة وقتلوا فى تلك الحرب، ولأن قتلهم كان فى شهر يوليو فإن الأرض تلفظ عظامهم حتـى أن بعض القبط يحملون تلك العظام إلى منـازلهم، لا يعلم الغيب إلا الله.

وبجانب الخليج فى مـصر قبر الشيخ (   )[1] الخلوتى وهـو مدفون فى جامعه وله تكيـة ومشايـخ ومريديـن وعمارة، وتطل نوافـذ الجامع على مياه الخلـيج الجارية وبفناء الجامع شجرة سدر وحديقة بها أشجار، وقد ذكرت أوصاف الجامع سابقًا.

وبداخل السوق الـسلطانى على مقربة مـن باب النصر يقع قبر عـين الغزالى قُدّس سره، وبداخـل قصـر رئيس الحسبة بالقلعة العلوية يوجد قبر الشيخ عبد الله الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وهو مدفون فى تكيته.

ثم ضريح الشيخ (   )[2] ويقع داخل زاوية وزيـر السلطان الظاهر بيـبرس بقصر أغوات الباشا الوالى بالقلعة.

وعلى مقـربة منه تقع تـكية الشيخ عبـد القادر الجيلانى ومـدفون بها الشيـخ محمد الأنصارى، والشيخ أحمد المفتى، والشيخ عبد الله الـيمنى الزيلعى والثلاثة من الصحابة الكرام وبالتكية بعـض أتباع الطريقة القادرية، ويهب والى مصر لهـذه التكية مع أوقافها أوقتين من اللحم وعشر قطع خبز، كما يقدم الأغوات أيضـًا النذور لهذا الضريح.

وبفناء جامع سليمان باشا الخادم المجاور لغرف الانكـشارية بالقلعة الداخلية يقع قبر الصحابى سارية الجبل، وسارية من كبار الـصحابة الكرام كان قد سار على رأس أربعين ألف جندى لولاية العجم فى خلافة عمر بن الخطاب، وقد انهزم سارية على يد العجم فى قلعة نهاوند، وبينما كان عمر بن الخطاب يخطب الجمعة فى المدينة المنورة رأى بعين الباطن أن الـقائد سارية انهزم فـى بلاد العجم، فنادى وهـو على المنبر يا سـارية الجبل (ثلاث مرات) ثم أكمل الخطبة، فتبسم بعض الصحابة وتعجبوا مما فعل عمر لأنه ينادى

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

على سارية وبينهما مسيرة ثلاثة أشهر، أما بعضهم فقد ظن أن فى الأمر سرًا لا يعلمه إلا الله، ومن حكمة الله سمع سارية ومن معه نداء عمر عندما نادى عليهم يوم الجمعة فانسحبوا ناحية الجبل وقد جدد جند الإسلام نشاطهم خلف هذا الجبل وقاتلوا العجم وانتصروا عليهم ثم جاءوا إلى المدينة المنورة سالمين غانمين وأخبروا أهل مكة والمدينة بالصوت الذى سمعوه يوم الجمعة فطابقوا بين التاريخين فتطابقا فازداد الناس حبًا لعمر، وكان سارية ضمن الصحابة المرافقين لعمرو بن العاص فى فتح مصر وتوفى بها.

وبتكية الشيخ سارية الجبل سبعين من الصحابة الأنصار مدفونين معه منهم الشيخ داود والشيخ قاسم والشيخ يحيى والشيخ إسماعيل والشيخ (   )[1].

وبجانب ضريح السيدة زليخة يقع ضريح أمنا آسيا امرأة فرعون وبالرغم من أنها كانت امرأة فرعون إلا أنها بأمر الله آمنت بموسى فقتلها فرعون وتوفيت بكرًا، وبعض المفسرين يقولون بأنها ماتت بكرًا لأنها ستتزوج سيدنا موسى فى الجنة، وقد بنى الملك طوطيس أحد ملوك القبط قبة على ضريحها وكتب عليه تاريخه باللغة القبطية، وأكثر زوار هذا الضريح من النساء.

وبالقرب من قبر يامن أخو يوسف فى سفح جبل الجوشى يوجد ضريح عبد الله بن طاهر وهو من أكراد مدينة نصيبين، كان وزيرًا للخليفة المأمون عندما جاء من بغداد إلى مصر، عندما أراد الخليفة المأمون أن ينقب فى جبال الأهرام عام ٢٠٥هـ، لكى يستخرج الكنوز الموجودة بها، سقط حجر من الهرم الأكبر على عبد الرحمن بن طاهر فقتله ودفن بجوار ابن يامان. وقد بنى الخليفة المأمون قبة عظيمة على قبره والعديد من التكايا. وكتب على العتبة العليا للضريح: «أمير المؤمنين مأمون الزمان بن هارون الرشيد سنة ٢٠٥هـ».

---

(١) بياض فى الأصل.

وبقرية أبو صير الواقعة بالقرب من جبل الهرم الذى هدمه الخليفة المأمون يقع قبر الملك مروان الحمار[1] وهو أحد ملوك بنى أمية، وأنهم بفعل الأعمال غير الشرعية وقد تحارب على ضفاف نهر الفرات وقتل كل جنوده أما هو فقد فر هاربًا إلى الشام مقر حكمه، ولم يستطع الاستقرار بالشام ففر هاربًا إلى مصر وقد ظن أنه قد استقر فى مصر فى مأمن إلا أن أحد الجنود ويدعى عامر بن جرجابى قبض عليه وسلمه لعبد الله المازنى الذى قطع رأسه وعلقها على رأس طريق وقتل كل من كانوا معه وخرج موكب عظيم من مصر برأس مروان الحمار ومر الموكب برأسه من غزة والشام وحلب وعُرفة[2] حتى وصلوا إلى ملاطية وهناك سلموا رأس مروان الحمار إلى الملك الناصر على طاهر، وأقيمت الاحتفالات وذلك لأن الملك الناصر انتقم من خصمه وحمد الله على ذلك فقد انقطع نسل يزيد الأموى عند مروان الحمار وقد أرسل الرسائل لكل سلاطين الإسلام يذكرهم فيها أنه انتقم لدم الحسين، والآن يرقد نعش مروان الحمار فى قرية أبو صير تعلوه قبة منخفضة ويقوم بزيارته الذاهبون لمشاهدة الأهرام، وبعضهم يسبه ويقولون «مقام مذموم».

وبمصر القديمة يقع قبر الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من الصحابة الكرام رواة الحديث، دفن فى منزله بناء على وصيته أثناء فتح مصر.

وبالقرب من قبر الإمام الشافعى والإمام الليث يقع ضريح الشيخ جلال الدين السيوطى قُدّس سره العزيز، وقد ولد جلال الدين السيوطى فى مدينة مزينة هى مجمع

---

(١) هو مروان (الثانى) بن محمد بن مروان بن الحكم كان يكنى أبا عبد الملك، ولى أمور دولة بنى أمية سنة (١٢٧هـ)، وهو آخر ملوكهم، لقب بالحمار لا على سبيل السخرية أو الاستهزاء إنما على سبيل المجاز إشارة لقوة عضلاته وإعجابًا بصلابته، كما أن الحمار يمتاز بالصبر على الشدائد، وقوة الاحتمال.
انظر خبره فى: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على، ترجمة رياض رأفت ص١٤٥ وما بعدها ط. دار الآفاق العربية القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، والمعارف لابن قتيبة الدينورى بتحقيق ثروت عكاشة ط.٤ ـ دار المعارف ص٣٦٩، والجزء السادس والسابع من تاريخ الطبرى (فى مواضع متفرقة)، وغيرها.

(٢) هى: أورفه.

الفقهاء والمفسرين تسمى أسيوط تقع علـى شاطئ النيل فى صعيد مصر العالى، وللإمام السيوطى مؤلفـات تبلغ ٧٠٠ مجلد، وهو عالم ومؤرخ ومؤلفـاته مشهورة فى الآفاق، وضريحه الآن مزار للعام والخاص.

وعلى مقربة من جامع ابن طولون الواقع فى قلعـة الكبش التى يطلقون عليها «جبل يشكـر» يوجد ضريحـان داخل جامع الـسلطان الجولـى مدفون بهمـا السلطـان الجولى وأقاربه، وفى قبتـى الضريحين نوافذ تطل علـى بركة الفيل، والحوائط الداخلـية لهاتين القبتين مغطاة بالمرمر المصقول، المموج، وقـد كتـب على عتبته العليا تاريخ بنائه والآيـة الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] وعلى أطراف الأضرحـة المرمرية نقش بتاريـخ «سنة ثلاثة وسبع مائـة» على المرمر بخطوط قديمة.

وبالقرافـة الكبرى يوجد قبـر الشيخ سيد حـسين الأخلاطى، وهو سلطـان عظيم، وعندما خلت سجادته جاء ابن قاضى سماونـة أحد علماء السلطان يلدريم با يزيد، من بلاد العجم إلى مصر، علـى زمن السلطان فرج بن برقوق، ليصبح خليـفة للشيخ سيد حسين الأخـلاطى بإذن من السلـطان يلدريم با يـزيد، وكان يتقـاضى راتبًا يوميًـا يقدر بثلاثمائـة قطعة من العملـة المصرية، وابن سماونة هـو الشيخ بدر الدين بن مـحمد بن إسرائيل بن عبد العـزيز، وقد ذاع صيته بن علماء ومشايخ مصـر فى ذلك الوقت، فقد ألف كتاب جامع الفصـولين وكتاب عقود الجواهر، وهما من الكتب المعـتبرة القيمة بين العلماء والطلاب، وقد توفى ابن سماونة فى مصر ودفن فيها وقبره مستور بجوار ضريح أبى الليث بالقرافة الكبرى، وقبره الآن مزار للعام والخاص.

وبجـواره قبر إبراهيـم الكلشنى الصارجانـى، وهـو مـن شعراء السلطان محمد خان أبو الفتح، فقد توفى أثناء قدومه من الحج.

وبجوار قبر عمر بن الفارض يوجد ضريح المنلا عتيقى.

وعلى مقربـة من سويـقـة السباعـين يقـع ضريـح الشيـــخ حمودة، وهو مدفون فى قبة صغيرة.

وضريح الشيخ يوسف العجمى، وهو على مقربة من الجامع الأزهر.

وقبر الشيخ تاج الدين المتصل بسوق الغنم بالقرب من تكية السلطان دك كيز، والشيخ تاج الدين من المشايخ العظام وله آلاف الكرامات.

وعلى مقربة من منزل الشيخ البكرى يقع ضريح أولاد عنان قُدِّس سرهم جميعًا، وفى ناحية قنطرة السبوع خارج الباب الجديد ضريح الشيخ أبو البشر - رحمة الله عليه -، وضريح الشيخ إبراهيم اللقانى، وهما أفضل علماء مصر وقد درسا لعدة سنوات فى الأزهر، وتوفيا فى مصر بعد العودة من الحج عام ١٠٠٣هـ والشيخ بدر الدين القرافى والشيخ صالح البلقينى من أقارب الشيخ إبراهيم اللقانى، وهما مدفونان معه، وهما من كبار مشايخ مصر وضريحهما مزار.

وعلى يمين تكية الإمام الشافعى نجد تكية ابن الشيخ محمد البكرى وهو من نسل أبو بكر الصديق، وقد انتقل هذا الشيخ إلى دار البقاء فى شهر صفر من عام ١٠٩٧هـ عندما كان (   )[1] باشا واليًا على مصر، ودفن بجوار أجداده العظام وقد حضر جنازته مئات الآلاف من البشر، وقد خلفه على سجادته الشيخ أبو المواهب من أولاد مهترى، وقد جدد كل المتصوفة البيعة له، - عمره الله - وأصبح ناظرًا على كل أوقاف الشيخ زين العابدين كوجك جلبى، وله تكية عظيمة حفظه الله. ويحتفل فى نصف شعبان بمولد أجداده العظام.

وبالقرب من تلك التكايا وبجوار الإمام الشافعى يوجد ضريح الغازى كرتباى، والغازى كرتباى هو أحد الجنود الشراكسة الشجعان الذى أقسم أن يقتل السلطان سليم خان أثناء قتاله مع السلطان طومان باى فى صحراء العادلية، وخاض بجواده بين جند آل عثمان الذين كانوا كموج البحر، فصادف سنان باشا الخادم الوزير الأعظم وكان فى ذلك اليوم وشاء الله أنه كان يرتدى نفس لباس السلطان سليم ويمتطى جوادًا مثل جواده، فضلاً عن أنه كان قريب الشبه بسليم، فقام كرتباى بقتله فاجتمع عليه الجند

(١) بياض فى الأصل.

وقتلوه. ونـحمد الله أن كرتباى لم يقـتل السلطان سليـم، حقيقة كان كرتبـاى شجاعًا محاربًا رحمة الله عليه ويأتى كل شراكسة مصر لزيارة ضريحه.

وبالقرب من باب الحديد بوسط مصر يقع ضريح الشيخ إبراهيم الكلشنى وقد وصفنا تكيته، وتـاريخ وفاته (مات قطب الزمـان إبراهيم) سنة ٩٣٠هـ. درس علـم التصوف والتوحيد علـى الشيخ أبى السعود فى زمن الـسلطان سليمان، ولما جاء مـصر بنى تلك التكية بـكل أمواله وهو مدفون بها، وقد أخـذ الشيخ إبراهيم عن عمـر الروشنى وأخذ عمر عن يحـيى الشروانى، وهو سلطان عظـيم وقطب الآفاق الذى ملك العـلم اللدنى والعلوم الأخرى.

ودُفن بضريحه أيضًا ابن أحمد الخيالى المتوفى عام ٩٧٧هـ.

وبجانبه الشيخ ابن على الصفوتى المتوفى عام ١٠٠٥هـ.

وبجانبه ابن الشيخ حسن أفندى الذى توفى فى ١٠١٢هـ.

وقد خلفه فى الطريقة صهره محمد جلبى، المتوفى عام ١٠١٤هـ.

ويوجد أيضًا ضريح الشـيخ القرمانى وهو من خلفاء الشيخ الكلـشنى حينذاك وقبره ليس معلومًا.

بعده قبر الشيخ صاحب السجادة الشيخ محيى الدين الأدرنوى وقد بايع الشيخ على صفوتى فى مصر وصاهـره، ودفن فى التكية الكلشنية، كان غـارقًا فى العشق الإلهى، وكان أثناء التوحيد والذكر يردد أشعار العشق، فيثمل العاشقين.

ويقع قبر الشيخ البغدادى خارج مصر الـقديمة من ناحية الشرق، وهو وسط الرمال، ومغطى بقـبة عالية، وبالقرب مـن كنيسة يطلقـون عليها دير سنودة، كـان المقوقس قد طلب من عمرو بن العاص حين فتحه لمصر ألا يهدمها، ويقولون لو دخل تلك الكنيسة أى كائن حى غير البـشر والطيور يموت فى الحال، وإذا ما دخلها العـربان الذين يعانون من الآلام برءوسهم يتخلصون من آلامهم، إنه دير عجيب مطلـسم.

وعلى مسافة خمسمائة خطوة من هذا الدير على الطريق العام يقع قبر الشيخ حويدى ومؤلفاته لا تعد ولا تحصى، وله زاوية ومئذنة وقبتين. ويداوم أهل مصر على زيارته، وكراماته مذكورة فى كتاب طبقات الشعراوى قُدّس سره.

ثم قبر المولى على بن غانم المقدّسى بالقرافة الكبرى، وهو من فضلاء الدهر الواصلين إلى القطبية، فكان غواصًا فى بحر العلم اللدنى.

ثم قبر المولى بدر جلبى الواقع بجوار عمر بن الفارض وقد توفى وهو قاضٍ على مصر، وقبره مزار يزار.

ثم قبر المولى معروف أفندى وهو من طربزون، وهو مدفون مع علماء الروم بجوار عمر بن الفارض.

ثم قبر الشيخ الفاضل أمير التيره وى فى قرافة مصر الكبرى، وكانت وفاته فى عام ٩٨٧هـ، كان أمير التيره وى مصنفًا ومؤلفًا وخطاطًا، ترك ٤٢ مجلد بخط يده وتوقيعه وكلها موقعة بإمضائه، وهذه المؤلفات النفيسة موقوفة فى الجامع الأزهر وجامع المؤيد.

ثم قبر الشيخ سنان أفندى وهو من أكراد صوران العلماء، لم يقبل صدقة أو نذرًا أو طعامًا من أحد، قام بتعمير وترميم مسجد محلة الكردى فى مصر وعاش ودفن بها، وقد كان للشيخ الكردى مكانة بين مشايخ مصر، حيث كانوا يزورونه ويحتفلون بمولده مرة كل عام، ويجتمع بمولده أناس كثير.

ثم قبر المولى عبد الله أفندى بن محمود، توفى أثناء توليه قضاء مصر، ومدفنه بجوار الشيخ شاهين.

وبالقرب من جامع المرزبانية قبر الشيخ محمد بن محمد الشهير بـ «آلتى بارمق» افندى (أى الأصابع الستة) رحمة الله عليه، وهو إسكوبى ويعرف بـ «جقرقجى زاده» حتى إنه أثناء قدوم هذا العبد الحقير[1] من البوسنة مع ملك أحمد باشا مر بإسكوب ومكث يومان فى منزل آلتى بارمق افندى، وتحدثنا مع أقاربه وكانوا من أصحاب المعارف، ونحمد لله أن يسر لنا زيارتهم فى مصر أيضًا.

(١) يعنى المؤلف بالعبد الحقير نفسه، تواضعًا منه كعادة من يتكلم عن نفسه من أهل العلم والفضل.

وللشيخ محمد بن محمد مؤلفات كثيرة منها سيرة النبى ﷺ وهى سيرة ممدوحة بين السير، لقد كان شيخًا عزيزاً وبحراً للمعانى وهـو النعمان الثانى ومدفنه أمام قبلة جامعه حيث توفى عام ١٠٣٣هـ، كان العزيز المذكور بحـراً فى مختلف العلوم، عذب البيان، طلق اللسان.

ثـم ضريـح المولى ظهيـر الديـن الأردبيلى، الذى جـاء مـن تبريز إلى بلاد الروم فى عصر سليم الأول، وقـابله السلطان، ثم ذهب إلى مصر قـاصداً حج بيت الله الحرام، وقد قُتل مع أحمد باشا الخائن فى مكان واحد، كان المولى ظهير الدين الأردبيلى له باعٌ فى العلوم وله مائة مجلد من المؤلفات، وهذه هى الدنيا يموت الإنسان ويبقى اسمه، إنه الموت الذى يتساوى فيه الجميع السيد والفقير ولم ينجو أحد منه وليس له دواء.

إن أضرحة ومـزارات الأولياء والعلـماء والصلحاء فـى القاهرة لا تعـد ولا تحصى، ولكننا حررنا هنا ما ذهبنا إليه فقط.

ثم قبر المولى حسين باشا زاده افندى وابنه صاحب الحظ السعيد «كورلجة رستم باشا» وزير «بـودين»، توفى حـسين باشـا زاده وهو قاضٍ عـلى مصر، وقـبره بجـوار الإمام الشافعى، ومكتوب عـل العتبة العليا للضريح: «هذا مقـام حسين افندى فى دار السـلام سنة ١٠٢٣هـ»، كان المذكور من أرباب العلم والمعـرفة محبوبًا من الجميع، وكان يجزل العطاء فى منزله.

ثم قبر المولى محمد أهلى افندى أخو عـبد الرحمن افندى طبيب زاده، كان صاحب فيض فى كـل العلوم تولى منـصب قضاء مصر، ومدفنـه فى ساحة جامع مسـيح باشا ويزوره الذاهبون إلى الإمام الشافعى. وثمة شخص آخر باسم أهلى جلبى ولكنه مدفون فى رودس.

ثم قبر المولى عبد الباقى الشهيـر بطورسون زاده افندى، توفى وهو قاضٍ عل مصر، وقبره فى القرافة الكبرى على الطريق، وعلى مشهد قبره تاريخ وفاته.

ثم قبر المولى مصطفى بن محمد بن سليمان، وفد من مكة إلى مصر بعد آلام كثيرة وهو مدفون بجوار الإمام أبو الليث، قُدِّس سره العزيز.

ثم قبر الشيخ أبو بكر الكفوى الذي كان مصاحبًا للشيخ شاهين بمصر، حيث اتجه إلى طريق الحق، وهو مدفون بجوار الشيخ شاهين، كان شيخًا زاهدًا عابدًا متورعًا اشتهر بالكرامات.

ثم قبر مولانا الفاضل رضاى محمد جلبى، مخدوم المرحوم بيرى افندى قاضى قونيه دار الملك، وتاريخ ميلاد وضاى جلبى ١٠٠١هـ هو لفظ (رضا) لذا تخلص برضاى، تولى قضاء مصر ثم توفى، ورضاى جلبى حسيب نسيب، وأديب كامل ومؤلف ومصنف وشاعر وماهر له نصيب من كل الفنون، حافظ لقاموس النجوم والكواكب، كما كان متصوفًا خلوقًا، ومدفنه فى ساحة مشهد الإمام الحسين وقبره من الحجر. ويقوم الروم بزيارته وهم يقولون عنه إنه قبر فاضل.

ثم قبر مولانا جمالى زاده وهو من علماء الروم كان خادمًا لشيخ الإسلام على جمالى، كما كان صاحب السجادة فى الأناضول ومصر والعديد من الأماكن الأخرى، وتولى متصرفية الشرقية والغربية بمصر، ولكنه استقر فى القاهرة مصداقًا لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] وهو مدفون بجوار الإمام أبو الليث، رحمة الله عليه سنة ٩٦٨هـ.

* * *

فى بيان كرامات المرحوم والمغفور له
السلطان أعلم العلماء وأفضل الفضلاء
شيخ الشيوخ الشيخ على الشمرلسى

عندما دخل الحقير صاحب التقصير قليل البضاعة مصر فى عام ١٠٨٣هـ شرع فى زيارة الأولياء والأنبياء واجتهد فى مقابلة العلماء والمشايخ الكبار وقد تشرفت بمقابلة الشيخ الشمرلسى فى الجامع الأزهر تبركًا وتيمنًا به، فقبلت يده وكان لى نصيب من دعواته لى بالخير، وبدأت فى قراءة كتابه (قوهستان)، كان الشيخ الشمرلسى أعمى منذ ولادته، ولكن الفصاحة والبلاغة وطلاقة اللسان التى يمتلكها لم تكن حتى عند أفصح الشعراء محمد البوصيرى، وقد خدم الحقير الشيخ، حيث تتلمذت على يديه ثلاث سنوات، ولحكمة الخالق لزم الشيخ الشمرلسى الفراش فى السنة التى كان فيها عبد الرحمن باشا واليًا على مصر، ظل الشيخ لمدة شهرين طريح الفراش وكان كل تلاميذه يذهبون إلى بيته فى تلك الفترة، الكل يقبل يديه ويبدأ فى قراءة الدرس عليه، وسبحان الله كانت الدروس حينئذ أكثر من الأوقات الأخرى، فقد كانت كل أعضاء الشيخ نحيفة ضعيفة وكأنه قد وهبها كلها فى سبيل العلم، وكانت له قوة قدسية فكان يرى بمنظار قلبه، وكان الشيخ موصوفًا بالذكاء الحاد والفراسة والفطنة التى لا حد لها، من يراه لا يقول أنه ولد أعمى، حتى أن صهره القاضى منصور الذى كان متزوجًا بابنة الشيخ، وهى سيدة حافظة مثل رابعة العدوية، نقل إلى الحاضرين بالمجلس ما سمعه من زوجته ابنة الشيخ الشمرلسى أنها كانت تسمع والدها فى الليالى المباركة وهو يقرأ العلم فى حضور النبى ﷺ ويقول بلسان فصيح صريح: نعم يا رسول الله ويقول صحيح يا شفيع المذنبين، وفى أحد الأيام وبعد انتهاء الدرس كنا فى حضور الشيخ، فقال فى أى يوم سيخرج حجاج المسلمين إلى بركة الحج.

فأجاب صهره: لقد صدر الفرمان بخروجهم إلى البركة يوم الخميس الموافق ١٨ شوّال المعظم.

فقال الشيخ: يا قاضى منصور كم يومًا بقى على ذلك اليوم؟

فأجاب الشيخ: (   )[1] خطيب جامع القيسونية: بقى يومان فقط يا سلطاننا.

فنهض الشيخ من الفراش بعد أن كان طريحه لمدة شهرين ووقف على قدميه وأخذ يتحرك ويدور بلطف فى البيت مثل طاووس حدائق الجنة، وكأنه فى سماع خانه جلال الدين الرومى[2]، فتحير كل الحاضرين من ذلك، وتحيرت أنا أيضًا لما شاهدت، وقد تصبب الشيخ عرقًا بعد السماع، وقال لنا: أيها الأبناء لقد عادت لى الحياة وشفيت لأنكم بشرتمونى بخبر خروج الحجاج إلى البركة، وبذلك وجدت الدنيا والآخرة، ودعا لنا جميعًا بأن يغفر الله لنا وأن يمنحنا طول العمر، وابتهج بعض الحاضرين من ذلك قائلين الحمد لله لقد شفى الشيخ، وبعضهم انخرط فى البكاء، إلا أن الشيخ تحدث إلينا مرة أخرى وقال: أيها الأبناء لى رجاء عندكم؛ فى اليوم الذى سيخرج فيه أول موكب للحجاج أخرجونى ولا تحرمونى من رؤية موكب الحجاج فهذه الأيام هى أيام الحج الأكبر، ضعونى فى صندوق يحمله أربع حيوانات ثم سيروا بى من الجامع الأزهر

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) هو جلال الدين الرومى المولود فى بلخ عام ١٢٠٧م. كان أبوه بهاء الدين ولد من العلماء الأجلاء، صحبه جلال الدين فى رحلة الحج، وأثناء عودته مرّ بدمشق، واستقر به المقام فى قونيه وبها توفى أبوه عام ١٢٢٣م.

وقد اخذ جلال الدين الرومى التصوف عن الشيخ شمس التبريزى، وأسس طبقته الصوفية المعروفة بالمولوية، وقد بين طبقته هذه فى كتاب منظوم له بالفارسية يسمى (المثنوى). وتحلق حوله المريدون وانتشرت طريقته فى الأناضول، وكان دراويش المولوية موضع توقير رجال الدولة العثمانية حتى جرت العادة بأن يتولى رئيسهم تتويج السلطان العثمانى فى مسجد با يزيد.

وكان من عادة المولوية أنهم بعد صلاة الجمعة يقابلون شيخهم ويجتمعون فيما يعرف بـ «سماع خانه» أى: بيت السماع فيمارسون أذكارهم على أنغام المعارف وهم يرقصون بكيفية خاصة بهم وفى رأيهم أن السماع وما يصحبه من رقص إنما يرقق القلوب، ويسمو بالنفوس، ويثير الخوف عند التائبين، ويلهب قلوب المشتاقين.

انظر: معجم الدولة العثمانية: للدكتور حسين مجيب المصرى ص ١٤٢ ـ ١٤٣ (بتصرف) ط. أولى: الدار الثقافية، القاهرة ٢٠٠٤.

وليكن معكم تلاميذى الأحباء وكل العاشقين المشتاقين من المجاورين وطلاب رواق العراق وضعونى بالقرب من قرافة المجاورين فإنها طريق الأهالى وكل المسلمين المدفونين بها، وبهذا أشاهد موكب الحجاج كل عام وليكن ترابهم غباراً لى، وهذه هى وصيتى لكم لا تحرمونى من موكب الحجاج، فقال كل التلاميذ على الرأس والعين يا سلطاننا، وقد فرح كل الصادقين من كلام الشيخ، ثم قال الشيخ مرة أخرى أيها الأبناء لتخبروا على بك من أمراء مصر والشيخ المتبولى خادم ضريح إبراهيم العراقى بأن يكونوا معى أثناء مشاهدة الموكب، وذهب أحد التلاميذ إلى الاثنين ورجع إلى الشيخ الشمرلسى وقال له إن الاثنين مرضى وفى النزع الأخير، ويقولون أنهما لن يستطيعا الحضور لمشاهدة الموكب، فرد الشيخ قائلاً سيبرأون ويعافون بعد يومين بمشيئة الله وسيأتون معنا لمشاهدة الموكب، ولى رجاء آخر عندكم يا أبنائى أن تقرأوا ختمة شريفة أربعين مرة فى الجامع الأزهر وتهبوا ثوابها للمرحوم عبد الفتاح، وأن تقوموا بطبخ الحلوى يوم الجمعة وتقدموها للفقراء، فقد كان الشيخ عبد الفتاح من أقارب أستاذنا الشيخ الشعراوى وقد استولى على نظارة ميراث السيدة زهرة ابنة الشيخ الشعراوى فدعوت عليه، فقطع أربًا أمام باب العزب فى واقعة خلع الدفتردار أحمد باشا.

ثم جلس الشيخ على الفراش واتكأ على الوسادة، وبدأ تلاميذه يتحدثون عن هذا الشأن، وقد ظهرت له كرامة، ولحكمة الله فاضت روح الشيخ إلى بارئها فى نفس الوقت الذى تأهب فيه كل جنود مصر للخروج لموكب الحج فى اليوم الثامن عشر من شهر شوال، فصلوا عليه فى الجامع الأزهر كما صلى عليه جميع مشايخ مصر فى الجوامع، وبهذا تحققت وصية الشيخ فقد صلى عليه مئات الآلاف من الجنود ومثلهم من العوام والخواص والفقراء وكانت الجنازة تموج كالبحر، وقد حُمل النعش فى صندوق على أربعة حيوانات كما أوصى بذلك وقام مئات الآلاف من العلماء بالذكر والتوحيد، وحُمل الشيخ مع موكل الحجاج إلى قرافة المجاورين، وهناك انتهت رحلته واستقر بدار

لسقرار، وروحه فى أعلى عـليين فقد انتقل من دار لسفناء إلى دار لسبـقاء رحمة الله عليه تاريخ (   )[1] لسفاتحة سروحـه، ولحكمة الله توفى خُلٌ من لسشيـخ المدبوسى خادم ضريح إبراهيم اسعراقى وعلى بك تحقيقًا سكرامة لسشيخ لسشمرسسى.

وفى محـلة (   )[2] علـى باب لسلـوق يقـع ضريح لسـشيخ إسـماعـيل لسصنافيرى وهو من المتصوفة لسكرام، سم يـكن متكلفًا، بل خان عارى لسرأس، لا يتكلم مع أحد وسكنه عندما يـرى المحبين إليه يتحدث معهم ببعض لسكلـمات مبتسمًا، خانت خل خلمة من خلامه رمزًا، وقام لسقاضى جلال لسدين بـبناء زاوية وقبر سلشيخ لسصنافيرى فى حياته وفى عام ١٠٨٩هـ عندما خان عبد لسرحـمن باشا ولسيًا على مصر أشار لسشيخ لسصنافيرى بـبعض لسكلمات لسرمزية قـائلاً: سنموت فى هذا لسشهر»، وقـد خانت تلك لسعبارة إشارة ستاريخ غزوة آل عثمان على موسكو، ولسقبر الآن مزار يزار.

* * *

(١) موضع سطر خالٍ.
(٢) بياض فى الأصل.

الفصل الرابع والستون

فى بيان أسماء المحلات الموجودة على الطريق الرئيسى للسلاطين وكل الأعيان فى مصر

بمصر طريق عام كبير يبدأ من أدنى المدينة ويصل حتى القلعة الداخلية لمصر ( )[1] وتوجد طرق أخرى فى الأسواق السلطانية والمحلات تبلغ ( )[2] الف طريق عام، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من باب السيدة نفيسة وحتى باب النصر درب السلطان، ويطلقون اسم درب السلطان أيضًا على الطريق من سوق الحدادين وسوق أمير الحاجب وسوق الخيام وباب الحديد وحتى باب النصر، وينقسم الطريق عند بين القصرين إلى طريقين الأول ويتجه إلى باب الفتوح ويطلقون عليه درب الحاكم بأمر الله، والثانى ويبدأ من درب باب الشعرية ويتجه حتى خارج المدينة ويطلقون عليه درب الظاهرية، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من سوق الطيور وحتى الداخل درب العباسية، وسمى بهذا الاسم لأن كل خلفاء العباسيين الذين ملكوا مصر كانوا يسكنون فيه، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من درب باب الحديد وحتى باب سلامة قنطرة السبوع وبالقرب منه فى الناحية المواجهة للخليج يوجد درب سويقة الدلال وعلى مقربة منها يوجد درب قنطرة السنقور وسوق محلة عابدين ودرب باب الدباغين ودرب الشواريب ودرب الأوزبكية ودرب قنطرة الليمون ودرب الرطل ودرب باب اللوق ودرب الخراطين ودرب بين القصرين ودرب قاضى العسكر ودرب خان الخليلى ودرب خرطة الجمالية وخرطة الصاغة أى سوق الفضة ودرب الفحامين ودرب الغورى ودرب البندقانى وباب الذحوقة وسوق الشوائين وباب زويلة وخرطة الوالى، وللعبور من هذه الأماكن ينبغى أن يسلك المرء طريقًا مدته ساعة يطلقون عليه الآن طريق خرطة الوالى ويقع عليه سوق قرب السقائين والطلومبات والزجاج، ومن سوق الخياطين أى سوق صناع الخيام وسوق الخضار وخرطة الخليفة وسوق الطليون وسوق المغاربة وسوق الحنا وسوق قبر الطويل وسوق أمير الآخور وخرطة السقائين وخرطة النصارى وخرطة الموسكى وسوق الروملى والدرب الأحمر الواقع بقصر الباشا وحتى جامع الأزهر بطول ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة.

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

أوصاف بقية الطريق الرئيسى لمصر القاهرة وطوله ألفان ومائة خطوة

وهو الطريق الذى يمر من أمام خمام الشباهية بالقرب من مسكن الحقير[1] فى القلعة الداخلية بمصر، والذى يمر أيضًا من أمام قصر عوض بك ومن أمام باب مسعود أغا، حتى قصر برهان افندى النقيب ألفين ومائة خطوة، وطول الطريق من أمام جامع «آلتى بارمق» الذى يدنو من قصرنا وكذا من أمام قصر مسعود أغا وحتى قصر النقيب ألفين وثلاثمائة خطوة، وهذا يعنى أن هذا الطريق أزيد من الطريق الأول بمائتى خطوة والطريق من ميدان الروملى الواقع عند باب العزب أسفل قصرنا وكذا من قنطرة السبوع عند الباب الجديد وحتى منزل قيطاس بك الدفتردار ثلاثة آلاف خطوة بالتمام.

وبهذه الطرق آلاف الحوانيت والأسواق السلطانية، ولو قمنا بذكرها كلها سنكتب مجلدًا آخر.

أما الطريق العام المذكور فهو أشهر الطرق فى مصر وهو مزدحم، ولا شك فى أن لذكره فائدة كبيرة لذا ذكرناه، أما غير المشهور منها قد عزفنا عن ذكره تجنبًا للإطالة والملل واكتفينا بذلك.

* * *

(١) يعنى المؤلف نفسه.

الفصل الخامس والستون
فى بيان ذهابنا إلى مولد أحمد البدوى عام ١٠٨٣هـ
وزيارتنا دمياط ورشيد والإسكندرية وغيرها
من الطرق والقصبات والمنازل والأضرحة

لقد شاهدت بما تيسر لى جميع الأضرحة الموجودة بمصر القاهرة، وقمنا بزيارة ضريح المشهور فى الآفاق والقطب على الإطلاق حضرة أبو اليتامى السلطان السيد أحمد البدوى، وصلنا إلى السيد أحمد البدوى نطلب منه المدد فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الآخر عام ١٠٨٣هـ.

خرج موكب مولد أحمد البدوى فى جمع غفير من المشايخ والمتصوفة وهم يذكرون الله واتجهوا إلى صاحب الدولة، وقد ذهب الحقير على الفور إلى ميدان سراى الباشا وانزويت فى زاوية واشتغلت بالمشاهدة، كان متصوفة ومريدو البدوى - والعظمة لله - ما يزيد على عشرة آلاف شخص يسيرون بالطبول والدفوف ويحملون الأعلام والرايات وبعضهم يحمل آلات الحرب والبعض الآخر يحمل فى يديه النبوت وفى خصورهم التنورة يذكرون الله، ويحملون مئات الآلاف من الرايات والأعلام، فأصبحت القاهرة فى ذلك اليوم مثل الحديقة المثمرة، سار الموكب حتى ميدان القصر وعندما قال الخليفة الأول للمريدين اذكروا الله وكان ذلك فى حضور الباشا، ردد المريدون كلمة التوحيد، ورفعوا الرايات المطلية بالذهب على رءوسهم ودُقت الطبول والدفوف ونفخ فى النفير، وانشغل ما يقرب من ثلاثة آلاف وسبعمائة شيخ وما يقرب من عشرة آلاف مريد حاسرى الرأس بالتوحيد والذكر وأطلق المجاذيب الصيحات ودقت الطبول، حتى أن ميدان القصر أصبح كساحة الذكر، وأقسم برب الكعبة أن صدى أصوات المريدين وهم يرددون الله الله كانت تصل إلى عنان السماء حتى أن الملائكة فى السماء كانت تغبطهم على ذلك، وبعد الذكر قام نقيب المريدين بحمد الله والثناء عليه ثم صلى على النبى ﷺ وأثنى على الكتخدا إبراهيم باشا، ثم تقدم الجميع بعد ذلك إلى الباشا أفواجًا، ثم قام أبو الخير

إبراهيم باشا بمقتضى قانون البدو وفرمان السلطان قايتباى بتحرير رسائل إلى حسن أغا كاشف الغربية وعلى أغا كاشف منوف ورؤساء البلوكات السبعة وبقية الأغوات بأن يتأهبوا بكامل أسلحتهم للمولد الشريف، ويوصيهم بالحفاظ على ميدان المولد دون تقصير، ويوصيهم بمنع انتشار الخمر وأماكن شرب البوظة وخيام البغايا ومنع أشقياء العزبان والأشرار من الخروج إلى ميدان المولد.

وزيادة على المنحة التى يمنحها الباشا للمشايخ يقوم الباشا بإهداء ضريح البدوى قطعتين فن القماش الأخضر وبطمانين عوذ بخور وخمسين فثقالاً فن عنبر وسجادة حرير وأخرى إبريشم واثنان فن شمع العسل، ويعطى لكل رجل فائة بطمان فن الشمع، ويسلم الباشا ذلك كله إلى فصطفى الروفى خليفة البدوى فيقوم كل المشايخ بتقبيل يد الشيخ ويدعون له بالخير، ثم يبدأون فى التوحيد السلطانى فرة أخرى.

ويتعجب المفرطون من ذلك أشد العجب، وبعد الانتهاء من الذكر والدعاء للباشا يحملون كل الأشياء التى منحها الباشا لهم، ويقف رئيس الجلادين بعد ذلك فى ميدان القصر وينادى بصوت مرتفع مولد البدوى فى منتصف جماد الآخر، ويذهب كل المشايخ والشباب والمريدون إلى خلواتهم فى صفوف وترتيب كأنهم أمواج، وقد تحركت عواطفى لكى أشارك فى هذا المولد، ولكنى سألت نفسى بأى طريق سأقوم بتلك الزيارة الواجبة، وبعد المغرب جاءنى أحد الجنود الداخليين وقال لى تفضل يا سيدى إن الباشا صاحب الدولة يريدك، وعلى الفور ذهب الحقير إلى إبراهيم باشا وكان الحديث عن مولد السيد أحمد البدوى، وقد رأى الحقير أن هذه فرصة عظيمة اغتنمتها فقلت: يا سلطانى هلا أذنتم لنا بالمشاركة فى الدعاء بمولد البدوى، فوافق الباشا على مطلبى، وأصدر فرمانًا بخروج على كتخدا معنا، وأتى الكتخدا وأحسن على الحقير بمائة سكة[1]، وقد نزلت ضيفًا بمنزل إبراهيم أغا فى بولاق لمدة ثلاثة أيام بلياليها، وتجمع فى بولاق فى تلك الليلة آلاف العاشقين الموحدين، زينوا صفحة النيل المبارك بمئات الآلاف من القناديل

(١) السكة: العملة المضروبة.

والمصابيح، وانشغلوا بالذكر حتى الصباح، وفى صباح اليوم التالى أقام نقيب الأشراف وليمة عظيمة فى تكية إبراهيم الكلشنى فى بولاق، حضرها كل علماء وصلحاء ومشايخ مصر، خاصة قاضى العسكر، ومشايخ المذاهب الأربعة، وتناولوا الطعام واشتغلوا بذكر الله، وتصير تكية الكلشنى فى تلك الليلة مثل النور، وقد ذكرنا ذلك من قبل عند وصف الموالد، وبعد ذلك ينفض الجمع.

وفى صباح اليوم التالى يركب جميع مريدى البدوى وسائر مريدى الطرق الأخرى والبحارة فى اثنى عشر مركبًا تسمى مراكب العقبة، تتسع كل مركب منها لألفى رجل إنها مراكب تشبه القروانة، الواحدة منها أربعة طوابق الطابق الأسفل عبارة عن المخزن وبه الطعام والشراب وسائر المهمات واللوازم، والطابق الذى يعلوه خاص بالنساء، ثم الطابق الخاص بمشايخ المريدين، والطابق الذى يعلوه للفلاحين ومساعدى الربان والزوّار، لقد شُيد المركب طابقًا فوق طابق ومقصورة فوق مقصورة، ويستغرق كل فرد فى وجده وشوقه، وهذه المراكب المذكورة من أوقاف السيد أحمد البدوى وتُحصّل كل مصاريفها من وقف السيد أحمد البدوى، وتُزين صوارى تلك المراكب بالرايات والأعلام كما يقف المشايخ على جوانبها الأربعة يحملون آلاف القناديل والرايات، وبخلاف تلك المراكب المسماة العقبة، يستأجر آلاف الزوار والمشايخ حوالى مائتى قطعة من الزوارق والقوارب والسفن الصغيرة، حيث يزينون صفحة نهر النيل، وفى وقت الضحى يتحرك الموكب من مدينة بولاق باثنتى عشرة سفينة كبيرة تسمى «عقبة» وما يقرب من ستمائة أو سبعمائة مركب صغير تحمل جميعها حوالى أربعين ألف أو خمسين ألف شخص، ثم يُطلق الجنود الموجودون طلقة من البنادق وطلقة من المدافع، ثم تدق طبول خليفة البدوى، ويردد كل المريدين كلمة التوحيد، وتسير المراكب مع اتجاه النيل، ويُنفخ فى النفير.

وعندما يصل المريدون إلى المكان المواجه لإمبابه يقرأون الفاتحة، ويعقدون النية على الذهاب إلى البدوى، وفى هذه الأماكن بخلاف السفن استشعر الحقير الذوق والصفا مع

ثمانية مشايخ فتارة مع الشيخ مصطفى الرومى وتارة مع الشيخ عثمان الكلناسى والشيخ الإمبابى والشيخ أحمد القليوبى.

وشاهدت القصبات والبلدان المعمورة التى تشبه الجنان على ضفتى النيل المبارك، ودوّنّا أوصافها فمنها:

قصبة شبرا الواقعة على ساحل النيل فى مكان قريب من مصر القاهرة بثمانية أميال وهى قصبة عامرة آهلة بها ألف منزل وسبعة جوامع وأسواق وحمام، وتزينها بساتين النخيل، ويديرها رئيس فرقة من طائفة إنكشارية مصر، وتشتهر شبرا بالبطيخ والشمام والذاهب أو الآتى منها يشترى البطيخ، يحصل منها ألفى قرش سنويًا، وهى مركز الإنكشارية، ولها ملتزم.

ثم تقدمنا مسيرة عشرة أميال فبلغنا جزيرة بطن البقر، وهى عبارة عن رأس فى وسط النيل المبارك يتفرع عندها النيل إلى ذراعين، فقد قام سيف بن ذى اليزن بشق هذين الذراعين بعد عصر نوح ـ عليه السلام ـ، الذراع الأيسر منه يتجه ناحية الغرب، إلى بندر رشيد وطوله (   )[1] ميل أما الذراع الثانى وهو الأيمن فيتجه شمالاً إلى بندر دمياط وطوله (   )[2] ميل، وبين هذين الذراعين جزيرة عظيمة عبارة عن كشوفيتين؛ الأولى كشوفية الغربية والثانية كشوفية المنوفية، وهذه الجزيرة مزينة بآلاف القرى العامرة، بوسطها مقر كشوفية الغربية وعلى أرضها قصبة طنطا المدفون بها السيد أحمد البدوى، وهذه الرأس المسماة بطن البقر تقع فى أرض المنوفية وكل مراعيها أميرية، حيث يقوم رئيس فرقة الجبه جيه[3] بمصر بتجفيف الفروع والأخشاب الموجودة بتلك المراعى وتحويلها إلى فحم حيث يضعونه فى مصر على البارود الأسود، فتزداد قوة البارود، وقد سرنا من هذا المكان بالسفن فى ذراع النيل المتجه إلى دمياط، وعبرنا قنطرة الملك الظاهر الواقعة يمين أرض قليوب، وهى جسر عظيم به ألوان قوس قزح يعبره الذاهبون من مصر إلى قليوب وإلى المنصورة ودمياط، إنه صراط عظيم لم نشاهد مثله،

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) سلاح الذخيرة.

ثم مررنا بقرية مصرخيم الواقعة على ضفاف النيل، والشيخ عبد الله مصرخيم مدفون بها فى ضريح مغطى بقبة صغيرة بيضاء، وقد توقفت كل المراكب أمام هذا الضريح ودُقت الطبول وذكروا الله، ثم لمبحرت المراكب مرة أخرى، وهذا المكان هو الحدود بين الغربية والمنوفية، وتلاطم النيل فى هذا الموضع شىء ظاهر، وقد تحطمت بعض المراكب من شدة تيار المياه، وعبرنا ذلك المكان والكل يسأل الله أن نعبر طريقنا بسلام، ويصل ماء النيل إلى قمة اندفاعه، وفى وقت الغروب ترسو كل السفن على جانب النيل، حيث يكونوا فى مأمن من الإبحار ليلاً، وفى ذلك المكان قرية تسمى قرية العفريت، وهى قرية كبيرة تقع فى أراضى الغربية بها مائتى منزل وجامع، ويشتغل معظم الأهالى هناك بصناعة الأكواب، وبها قصر مشهور مثل حدائق إرم، قام ملوك مصر السلف بصرف خزينة على هذا القصر من خزائن مصر، وفى وقت قريب سكن هذا القصر شخص يدعى فضلى أغا، وفى أحد الليالى رأى فضلى أغا شخصًا عظيم الجثة يهجم على القصر، فظن فضلى أغا أنه لص فجمع الحراس وتسلحوا ونادى فيهم أن يهجموا على اللصوص وعندما أطلقوا النار وضربوا بالسيوف، أصيب أحد اللصوص ولكنه لم يمت، أما حراس فضلى أغا فقد أصيب بعضهم بالصرع وأصيب البعض الآخر باعوجاج فى يده وفمه وأنفه، وبالرغم من ذلك ظل فضلى أغا وحراسه يحاربون بشجاعة لمدة ساعة، ثم فروا هاربين من القصر، ثم سد أهالى القرية باب القصر بالطوب وظل على حاله حتى الآن، ولا يستطيع أحد أن يدخله، حتى عندما وصلنا هناك سألنا أهل القرية عن هذا القصر فقالوا: «إنهم فى بعض الليالى يرون قناديل تضىء فوق سطحه، ويسمعون صوت دق الطبول، وفى صباح تلك الليالى يجدوا على حوائط القصر منسوجات بيضاء وسوداء لا هى من صوف الإبل ولا هى من صوف الأغنام، إنها منسوجات لا مثيل لها فى الدنيا، إنه بلاء مسلط على قريتنا، ولكن لا ضرر منه على أولادنا وأهلنا».

أما فضلى أغا وجميع حراسه فإنهم يعيشون الآن بصحة جيدة، ولا يعرف أحد مقدار أمواله التى تركها فى القصر عندما فر هاربًا، فقد زادت الضعف وهذا ما نقله

أهل القرية لنا، ويخرج كل الزوار من المراكب وينزلون على شاطئها ويطهون الطعام، وقد أخذ الشيخ مصطفى الرومى عشرة نعاج وطبخها وقدمها للجوعى والمساكين مصداقًا لقوله - تعالى -: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨] فمما لا شك فيه أن هذا الجمع الكبير من الناس به المساكين والأيتام والفقراء حيث يتناولون الطعام جميعًا، وبعد الطعام والحمد والثناء يبدأ الذكر، وفى وقت العشاء تسكن الرياح ويطلق الشيخ مصطفى طلقة مدفع من سفينته فيسير الموكب وتُشعل آلاف القناديل فى المراكب وتطلق السفن قذائف المدفعية والبنادق الفشنك.

وقد مررنا فى تلك الليلة ببلدان وقرى عامرة بالحدائق والبساتين وكأنها حدائق إرم، وتزينت صفحة النيل المبارك بالسفن، ويتولى الملاحون توجيه السفن يمينًا ويسارًا حتى يتمكنوا من اجتياز هذا المكان بسلام، بينما الراكبون يذكرون ويرددون يا مولا يا فتاح، وعندما يقول الشيخ مصطفى خليفة البدوى اذكروا الله يا إخوان، يرد كل العاشقين والمشتاقين بكلمة التوحيد لا إله إلا الله ويبدأ المريدون فى التهليل فيصبح وجه النيل المبارك كله ذكرًا لله، ويُغمر ماء النيل فى النور ويُدهش كل الموحدون ويصيحون وقد غابوا عن الوعى من شدة الوجد، وعندما يستمع أهالى القرى الواقعة على ضفاف النيل، وتسير السفن على هذا النحو حتى صلاة الفجر وعند صلاة الصبح ترسو كل السفن على جانب النيل.

منزل قصبة التفاحية وهى قصبة عامرة تقع فى أراضى الغربية بها ثلاثمائة منزل وحدائق وبساتين نخيل وجامعين ذوى مئذنة رشيقة موزونة وما يقرب من أربعين أو خمسين حانوتًا وحمام، ولهذه القصبة ملتزم، بالجهة الجنوبية لها ضريح السيد داود العرب وهو مجاور لجامع باسمه، وللسيد داود العرب مولد كل عام يجتمع فيه أناس كثيرون، إنه شيخ عظيم فى منزلة السيد البدوى وله مناقب فى طبقات الشعراوى، ولو دخل قاتل أو لص أو مدين تكيته لا يستطيع الحاكم أن يقبض عليه، وذلك لأن المتهم الذى يدخل التكية لو ثبت فى حقه أنه مذنب فإنه يتوب بمجرد دخوله التكية، كما أن الدائن إذا دخل التكية يؤدى ما عليه، إنه سلطان عظيم قُدّس سره العزيز، ويقوم كل

الزوار بزيارة تكية الشيخ داود العرب ثم يركبون السفن مرة أخرى ويبحرون مقدار ثلاثين ميلاً حتى يصلوا إلى قرية مبهوم وقرية شبراتين وهما قريتان عامرتان بهما ثلاثمائة منزل وبساتين نخيل وجامع، تقع هاتان القريتان فى أراضى الغربية، ويمر الزوار من عليهما ويبحرون مقدار عشرة أميال.

أوصاف قصبة زفتى وتعنى فى اللغة العربية (   )[1] وترسو كل السفن على جانب النيل المبارك فى الجهة الشمالية لهذه المدينة ويخرج منها كل الزوار وينصبون آلاف الخيام على ضفاف النيل حيث يبيتون بها يومين ويأتى الجمالون والبغّالون وأصحاب الحمير من كل القرى لتأجير الدواب لتحميل أمتعة وأغراض الزوار، والمسافة بين زفتى والسيد أحمد البدوى خمس ساعات تقريبًا.

أوصاف مدينة زفتى

مدينة زفتى عبارة عن قضاء شريف يُحصل مائة وخمسين أقچة، تقع على ضفاف النيل تحت حكم حاكم الغربية ويتبعها سبعون قرية عامرة، يحصل لقاضيها سبعة أكياس من الأموال المصرية، وكل قرى زفتى إلتزام لعباس أغا الذى كان أغا للبنات قبل ذلك، ومدينة زفتى مدينة عامرة، بها خمسمائة منزل للفلاحين كما يوجد بها بساتين للنخيل وغلالها مشهورة وقمحها جيد وبها ثلاثة جوامع؛ الأول منها الجامع الكبير عند الميناء ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه مائة خطوة أيضًا، له مئذنة ذات ثلاثة طوابق وثلاثة أبواب، وبفنائه شجرة سدر، ويوجد جامع آخر بالقرب من الميناء وهو جامع صغير له مئذنة واحدة ذات طابق واحد، ويوجد جامع ثالث صغير بنائه حديث، وبخلاف تلك الجوامع توجد سبعة زوايا بالمدينة ولا يوجد بالمدينة مدرسة أو حمام، وبها خمسة وعشرين حانوتًا وستة مقاهٍ وبها الجاموس والأبقار البلدية، ولعدم وجود حمام بالمدينة يذهب الأهالى إلى حمام عباس أغا بواسطة القوارب، وفى الناحية المقابلة لزفتى

(١) بياض فى الأصل.

فى أراضى المنصورة تقع مدينة ميت غمر، وتعنى فى اللغة العربية (   )[1] وهى قضاء مائة وخمسين أقچة تقع تحت حكم حاكم المنصورة يتبعها (   )[2] قرية، يحصل منها سنويًا ستة أكياس والتزام هذه المدينة للأمير أبو السيف أحمد بك وهو من أمراء مصر، وتشتهر ميت غمر بسكرها ويكثر بها الرُّمان والتمر، وبساتينها ونخيلها ممدوحان، والمدينة تقع فى صحراء واسعة على ساحل النيل بها أربعة آلاف منزل معظمها مغطى بالطوب الجيرى، وتشتهر المدينة بأعيانها وعلمائها وأشرافها، فقد اشتهر العلماء الغمراويون فى كل أقاليم مصر، فبها المئات من المصنفين والعلماء والمؤلفين وبالمدينة تسع نواحٍ تتبعها، وبها خمسة وأربعون محرابًا منها تسعة جوامع جامعة فقط، أما الباقين فهى مساجد صغيرة، وهى على التفصيل؛ الجامع الكبير ويقع فى السوق وهو من بناء حماد بن بقر ويتسع لجماعة كبيرة، يبلغ طوله مائة خطوة وعرضه ثمانين قدمًا، وبه مئذنة رشيقة ذات ثلاث شرفات عند باب الجامع، يبلغ طول تلك المئذنة مائتين وخمسين قدمًا تقريبًا وفى أعلاها مكان للراية كما تعلوها قبة صغيرة تشبه الكوب، يعلو ذلك كله راية خضراء وحاصل القول أنها مئذنة غاية فى براعة البناء لا يمكن التعبير عنها، ومحراب المسجد ومنبره على الطراز القديم، وحول فناء المسجد وبداخله ستة وثلاثين عامودًا من المرمر الملون، وللجامع ثلاثة أبواب لكل منها سلم يبلغ خمسة أقدام لأسفل ينزل من خلالها إلى المسجد، ودائمًا ما يكثر العلماء فى هذا المسجد يدرسون ويتباحثون فى المسائل العلمية، كما يتواجد به أشخاص من أتقياء الأمة، أما الجامع الموجود عند رأس الميناء فهو جامع جديد ويتسع لأناس كثيرون، وبالقرب من المحكمة الجامع المعلق، وقد أسموه المعلق لأنه يصعد إليه بسلم حجرى يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر قدمًا ويدنو من الجامع حوانيت وميضئة للوضوء وحوض شافعى، إنه جامع غاية فى الجمال، وجامع آخر لم نعلم اسمه، أما المحاريب الباقية فهى مساجد صغيرة لا تعد جوامع، وبالمدينة سبعة مدارس، واثنا عشر مكتبًا للصبيان، وأسبلة فى سبعة أماكن بالمدينة وسبع وكالات تجارية وستمائة حانوت، ولا يوجد بها سوق مبنى بالطوب، إلا أن تلك الحوانيت المذكورة بها كل شىء، وتنتشر المقاهى بها

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

على ضفـاف النيل، وكان القرآن يُتلى فى كل دكاكين الحـرفيين، فيوجد هنـاك حَملة القرآن، وبها أيضًـا ما يزيد على ثلاثة آلاف مفسـر ومحدث إنها مقر العلمـاء التى تلى الأزهر الشريـف إنها ميت غمر، وبـها رجال عظام يقولـون عليهم علمـاء الغمراوى، والحمد لله أن ذهبنا إلى هذا العالم وهو يشرح تفسير ابن جرير ودعا لنا بالخير. ويشتهر أهالى ميت غمر بالذكاء، وهى بلدٌ هواءُه لـطيف وماءُه عذب، وعشاقها مشهورون فى الآفاق، حتى أنه فى بعض البلدان عندما يريد أحدهـم مدح محبوبته يصف عينها بأنها عين حوران وعين الغمراوى، والـعجب أن أهل مصر لا يضعون كُحْـلاً فـى أعينهم لذا تجد أعينهم جميعًا مشوشة، أما عين الغمراوى فهى ممدوحة بين الناس، وخلاصة القول إنها مدينة كثيرة الغلال.

فى بيان الأضرحة الموجودة بميت غمر

ضريح الشيخ عبد الله وهو مدفون فى قبة عالية فى المكان المقابل للمحكمة، ووسط بساتين النـخيل الواقعة فى الجانب الشـرقى خارج المدينة توجد أضرحة كُـلٌ من الشيخ محمد المنصورى والشيخ عز الدين الواعظ والشـيخ شجاع الدين الشنلوانى والشيخ سيد خلف والـشيخ سيد محـمد القصرى والشـيخ يونس الأحمدى والـشيخ محيى الـديـن والشيـخ إسماعيـل والسـادات الأربعيـن والشيـخ محمـد الهنـدى والشيخ أحمد الزنفلى ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

كما دخلـنا حمام المدينة ويُعَـدّ حمام ميت غمر مـن الحمامات السبعة المـشهورة فى مصر، بناءُه ومياهه وهواه فى غاية اللطف، أدينا صلاة الجمعة فى الجامع الكبير، وكان لنا نصيـب من دعوات أهل الحال، وركبنا المـراكب مرة أخرى ومررنا بقصـبة زفتى من الناحية المواجهة لميت غمر، وتوجهنا صوب ناحية الغرب مع مجموعة من الخيالة العرب وخمسة من الجنـود ومررنا بعشرين قرية عامرة بـحدائق النخيل والبساتـين ودخلنا قرية شرسنة ومكثنـا هناك فترة حيث تناولنا الطـعام، إنها قرية عامرة بها مائتـى منزل معظم أهلها من السادات الكرام، أجدادهم حضرة الشيـخ أبو العز والشيخ على المدنى والشيخ

رمضان الواحدى وكلهم راقدون فى أضرحتهم إلى يوم الدين، تقع هذه القرية فى أراضى منوف، بها جامع وتكية ودار للضيافة كثيرة الخيرات وهى التزام ليوسف أغا إغا الانكشارية من أغوات الكتخدا إبراهيم باشا. ويُحصل منها سنويًا ستة أكياس.

وفى الساعة الثالثة وصلنا مدينة العرش القديم المدينة العظيمة منوف، وكلمة منوف كلمة قبطية تعنى العدد ثلاثين، فقد بُنيت عدة قرى بعد طوفان نوح منها قرية الجودى الواقعة تحت سفح جبل الغورى بالقرب من الموصل، كما تم بناء مدينت بلبيس والعريش ومن بعدهم مدينة منوف فى أرض ساحان، وتقع المدينة فى صحراء تبعد ساعتين عن شرق النيل وساعتين عن غربه، ويقول المفسرون أن منوف مدينة القدماء، وهى المدينة المقصودة فى الآية الكريمة: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [القصص: ١٥] ويذكر المؤرخ المقريزى فى خططه ما نقله عن تواريخ القبط والتواريخ التى كانت موجودة أيام الخليفة المأمون وهى التواريخ الخاصة بإدريس عليه السلام ووجدها المأمون فى جبل الأهرام، أن فرعون موسى خرج من ديار الموصل فى أرض بابل وسكن فى مدينة منوف وترعرع بها، ثم أصبح حاجبًا على مصر ثم حاكمًا عليها، واتخذ منها عاصمة له، وعَمّرها أكثر مما كانت عليه.

وبداية عمران هذه المدينة كانت فى عهد بيظر بن حام بن نوح، فقد استأذن بيظر من جده نوح ـ عليه السلام ـ بعد الطوفان وجاء إلى جبال الأهرام المواجهة لمصر القديمة، وكان معه حماه الحكيم قليمون، فلم يجد بيظر وقليمون أى أثر للأبنية التى كانت عامرة قبل الطوفان إلا جبال الأهرام، وقد رأى بيظر وقليمون أن هذا المكان لا يصلح أن يكون سكنًا لهما، وسارا حتى بلغا الموضع الذى به منوف الآن، وبدأ فى بناء المدينة، وبيظر بن حام بن نوح هو النبى الذى وطأت قدمه مصر بعد الطوفان، وكان معه تسعة وعشرين شخصًا أى أنهم كانوا ثلاثين شخصًا وهذا سبب تسمية المدينة منوف، ومن يقول أن أصل كلمة منوف من ماف فهو غلط، وعمّر بيظر بعد ذلك مائة عام، وقد أنشأ بمدينة منوف الآثار الكثيرة ويعد بيظر بن حام هو أول حاكم على مصر فى التاريخ، وأول بناء له هو مدينة منوف هذه، واستخرج الكنوز الكثيرة من باطن الأرض

بناء على تعاليم حماه الكاهن قليمون، وبنى سبعمائة مدينة محصنة بالأسوار، ويبظر هو أول من شق الخلجان والأذرع من نهر النيل على أرض مصر بحساب الهندسة، وقد توفى بيظر والحكيم قليمون بعد السنة السادسة بعد ثمانمائة وألف بعد الطوفان ودفنا فى الهرم الواقع فى الجهة الغربية لهضبة الأهرام، وهما أيضًا أول من دفنا فى مصر بعد الطوفان، وأصبح ابنه مصرايم حاكمًا مكان أبيه وهو الذى قام ببناء مصر القديمة لذا سموها مصر على اسمه، واتخذ مصرايم مدينة منوف عاصمة له مثل والده وعمرها أكثر مما كانت.

بعد ذلك تولى عرش مصر دلوكه بنت زيباك، وكانت منوف فى عهدها عامرة للغاية حيث بنت قلعة لم يبنى مثلها فى ذلك الوقت، كان لهذه القلعة سبعون بابًا، وقد صُفِّحت كل الآثار بالرصاص والحديد والنحاس، وأصبحت دلوكه هذه ملكة على مصر بعد أن ظلت زوجة لفرعون عشرين عامًا، واتخذت من مدينة منوف عاصمة لها، وقد تزينت المدينة فى عهدها إلى أقصى درجة حتى أن كل الأسطح والأسقف كانت مغطاة بالفضة الخالصة، وكل زجاجها من النجف والزجاج والبللور، وبعد استشهاد يحيى - عليه السلام - أى قبل ميلاد الإسكندر بمائة وعشرين عامًا خرج بخت النصر[1] من مدينة الموصل، وضرب مدن الشام والقُدس ومصر ومدينة منوف عاصمة مصر وحوّلها إلى تراب، وأحرق بنى إسرائيل وبذلك انتقم بخت النصر لدم يحيى - عليه السلام - نظم:

خرّب بخت النصر مصر فلم يَبْقَ بها إيوان أو قصر

وبأرض جزيرة الغربية كشوفية أخرى هى كشوفية منوف، التزامها مائة وسبعون كيسًا، كان حاكمها ميرزا الكاشف يشتهر بالشجاعة والصلاح حيث كان حاكمًا على منوف وخمسمائة ناحية تابعة بها، وتحت إمرته ألف جندى من جنود الفرقة السابعة من جند مصر، كانوا يحصّلون الأموال الأميرية له ويقدمون كل عام مائة كيس من العملات المصرية، وهى أعلى حكومة، كما يتحصل لكل الملتزمين مائة حِمل من العملات

(١) هو بختنصر، والخبر فى المعارف لابن قتيبة ٤٦ - ٤٧ وغيره.

العثمانية، ويتحصل لكل مشايخ الفلاحين وأصحاب البلاد ألف حِمل من المال، وهذا مدون فى سجلات الأحوال اليومية.

ومنوف قضاء شريف به ثلاثمائة وعشرين قرية عامرة، يُحصّل من كل قرية منها للقاضى عشرة أكياس سنويًا، ويبقى للملتزم طرقجى زاده سبعة أكياس من كل قرية، ولأن منوف كانت مدينة العرش الفرعونى فإن فلاحيها كانوا عصاة وملاعين وبلا حياء ودائمًا ما يجمعون بعضهم لمحاربة الكاشف وقد هزمهم الكاشف وقتل بعضهم وحبس البعض الآخر.

عجيبة وغريبة

لقد ذكرنا أن أهالى منوف قومًا معاندين ملاعين، ولو أصدر الكاشف حكمه بقتل أحد أشخاصها يتجمع أهالى هذا الشخص المحكوم عليه بالقتل ويذهبون للكاشف ويلتمسون منه الرجاء بعدم قتل هذا المجرم وإنهم سوف يدفعون الدية، وقد عُرف عنهم أنهم منهم اللص والنشال وقاطع الطريق وصاحب اللموم أى الذى يشعل الفتنة بين الجند، وهؤلاء جميعًا ينبغى قتالهم.

وبمدينة منوف جند تحت إمرة الكاشف وأسماءهم تختلف عن أسماء الروم فمنهم الأمير أوزبك والأمير تيمور وتيمور طاش وتمرس وقنصوه وغورى ولاجين وقرصفاى وبولاد وكرتباى وشاهين وسيتال وجابة بذرى وجابة الذى وجابة وردى وأسد وسيفى وجانبولاط، ويسير هؤلاء الجنود دائمًا وفى خصورهم السلاح، كما أن لهم منازل عامرة ولم يتبقى بالمدينة من آثار الأوائل إلا سبعة عشر محلة وأربعين جامعًا.

من تلك الجوامع الجامع الكبير وهو جامع فسيح به أربعون عامودًا تحمل السقف، وله مئذنة، وثلاثة أبواب، وبفنائه شجرتى نخيل ارتفاعهما كبير وحجمهما كبير أيضًا، ولا يوجد مثلهما فى إيالة مصر كلها، وقد قيل أن هاتين النخلتين مزروعتان من أيام الملكة طوكه وأنها كانت تعقد الديوان عندهما.

وبالسوق جامع الصوين وبه ثمانية عشر عامودًا تحمل السقف المزين بالنقوش، وأسفل الجامع حوانيت، ولوجود الجامع فى السوق فإن جماعته كثيرة، وللجامع مئذنة

بديعة البناء. ثم جامع الشيخ موسى وهو جامع لطيف، وبخلاف تلك الجوامع توجد المساجد الصغيرة، كما يوجد بالمدينة أربعين مكتب للصبيان وثلاثة مدارس وسبعة وكالات وأربعمائة حانوت وبالرغم من عدم وجود سوق للقماش إلا أن كل وكالة من الوكالات السبع المذكورة بها حانوت لبيع الأقمشة، كما يوجد حمامان قديمان أحدهما من أيام فرعون، والحقيقة لا يوجد بناء يشبهه منذ خمسمائة أو ستمائة سنة، وبالمدينة أربعون سبيلَ مِيَاهٍ، وعند رأس الزاوية فى مواجهة جامع الصوين داخل السوق يوجد سبيل مياه، ماءه هو ماء الحياة، وبالرغم من أننى شاهدت كل هذا العمران بمدينة منوف، إلا أن أطلالها وأخنانها القديمة كثيرة، وهذا دليل على قدم المدينة، فالأخنان الموجودة فى الجهات الأربعة من المدينة لا توجد فى أى مكان آخر فى مصر سوى فى هذا المكان، حتى أن قصر فرعون غاص فى الرمال، ويقوم الأهالى بإلقاء القاذورات فى مكانه، وتراكمت تلك القاذورات فوق بعضها البعض حتى صارت كالجبل، وعندما يفيض النيل تأتى المراكب لمدينة منوف ويشترون البضائع والأمتعة.

يتميز طقس المدينة بأنه طقس لطيف، رغم أنها كانت مدينة الفراعنة، إلا أنه يوجد بها أشخاص من صلحاء الأمة.

مزار منوف

لأن مدينة منوف مدينة مذمومة، لم يستوطنها أحدٌ من كبار الأولياء، إلا بعض المشايخ وذلك للنص القرآنى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وهم: مقام الأربعين، ومقام الشيخ ليمان البجوى، ومقام الشيخ دالكون، وهو قبة صغيرة بالسوق، وهو سلطان عظيم، يقام له مولد كل عام ويقال إن كل أرواح الأولياء تأتى يوم مولد هذا الشيخ للزيارة، بل إن الأهالى شهدوا على أن يوم مولد هذا الشيخ يجدون دخانًا أخضر ينبعث من الضريح وينتشر فى كل طرقات المدينة وتنتشر الرائحة الطيبة فى كل الطرقات، ويقال إنهم لم يشاهدوا شخصًا رأى العين بل يسمعون صوت طرق نعال داخل الدخان، رحمة الله عليه، وقد قام الحقير بزيارته فأحسن عليه الكاشف بجواد كحيلانى.

وخرجنا من منوف مع عشرين خيالاً من العزب وسرنا فى اتجاه الشمال خمس ساعات حتى وصلنا بلدة طوخ النصارى وكل سكانها من القبط، وقد كانت مدينة عظيمة قديمًا ولا تزال آثارها ظاهرة للعيان، ولم يتبقى من منازلها إلا لمائة منزل فقط وثلاث أديرة، ولهذه البلدة مكانة عند كل القبط، فهى مسقط رأس الملك القبطى الملك طوطيس وهو مدفون فى أحد الأديرة هناك، وهذا الملك طوطيس هو الذى أهدى سيدنا إبراهيم أمنا هاجر والدة سيدنا إسماعيل، وقد ولد فى تلك المدينة للملك المقوقس الذى كان يحكم مصر أيام فتح عمرو بن العاص، ولهذا فإن كل القبط يعظمونها، ويزورونها مرة كل عام، والملك المقوقس هو الذى أرسل مع ذى النون المصرى البغلة والسيف وفتاتين من القبط إلى سيدنا محمد ﷺ، أهدى الرسول ﷺ فتاة منهما إلى حسان بن ثابت وأنجب منها حسان ابنه عبد الرحمن، أما الثانية وهى مارية فقد أخذها النبى ﷺ لنفسه وأنجبت له ابنه إبراهيم، وأهدى السيف والبغلة إلى على بن أبى طالب وهذا السيف هو ذو الفقار، وقد نظم العجم فى هذا السيف:

لا فتى إلا علىّ، ولا سيف إلا ذو الفقار

أما البغلة فهى دلدل. وبقرية طوخ النصارى مكان منخفض به آثار حوافرها، لأنها مشت فيه، لذا فإن كل القبط يأتون لزيارة هذه القرية، ملتزمها هو على افندى الروزنامجى فى إستانبول ويحصل سنويًا سبعة أكياس، وقد سرنا فى تلك القرية، ثم هرولنا فى المسير حتى نتمكن من الوصول إلى مولد أحمد البدوى قبل المولد بيوم، واجتزنا القرى العامرة فى خمس ساعات.

أوصاف قصبة طنطا

مرقد أبو الفتيان السلطان العلوى

وقطب الأقطاب السيد أحمد البدوى قُدّس سره

مدينة طنطا مدينة مباركة مدفون بها السيد أحمد البدوى، تقع فى مكان مرتفع بالصحراء فى أراضى الغربية، ملتزموها ثلاثة وهم مكلفون بجمع المحاصيل، ويحصّلون منها سنويًا عشرة أكياس ويقدمونها للجانب الميرى، وتعد المدينة بمثابة مركز

كاشف الغربية وهى مدينة آهلة بها ألف وخمسمائة منزل بدون حدائق أو بساتين، ويتبعها ستة محلات وبها ثمانية جوامع هى جامع السلطان قايتباى وهو جامع عظيم مثل القلعة من جوامع السلاطين السابقة، وبه ضريح السيد أحمد البدوى، لذا يعج الجامع بالناس ليل نهار، يبلغ طول فنائه مائة وعشرون خطوة وعرضه مائة خطوة، وللمحراب والمنبر على الطراز القديم، وبالجامع وفنائه ستون عامودًا من المرمر أربعة وعشرون منها داخل الجامع والباقون فى الفناء، على تلك الأعمدة قبوات عظيمة يعلوها السقف المزين بالنقوش والسطح مغطى بالجير وللجامع مئذنتين الأولى فى الناحية اليمنى وبها ثلاث شرفات، ويبلغ ارتفاعها مائتى قدم، وبهذا تكون تلك المئذنة أعلى من مئذنة جامع السلطان حسن فى القاهرة إنها مئذنة بديعة الصنع.

ويقع ضريح البدوى على مقربة من تلك المئذنة، أما المئذنة الواقعة فى الناحية اليسرى فهى مئذنة قديمة مثل البرج بها شرفتين ترتفع لخمسين قدمًا، بين كل قدم وآخر مقدار ذراع وهى منخفضة عن الأخرى، ولا توجد رايات فوق تلك المآذن، ولكن تعلوهما قبتين صغيرتين مثل القلنسوة البكتاشية.

أسفل هذه المئذنة المنخفضة صهريج كبير لسبيل مياه، يُملأ هذا الصهريج خمسة عشر راوية (قربة)، ويكفى ماؤه كل الزوار، وبالقرب منه صنابير مياه مظللة بقبة مثل قبة القصر، مغطاة بالكلس، إنه خيرات عظيمة، وعلى مقربة منه حوض مياه يطلق عليه حوض الشافعى وهو حوض عظيم مثل البركة، تحيط به المراحيض من جوانبه الأربعة، أما أعلى الحوض فتوجد غرف للطلاب والمريدين ولهذا الجامع أربعة أبواب اثنان منها جانبيان الأول للميضأة والثانى باب صغير عند حائط القبلة والباب الثالث باب القبلة وهو الباب الرئيسى وتعلوه لوحة مرمرية بيضاء كتب عليها (جدد هذا الباب المعظم الإمام المعظم مالك المماليك السلطان أبو النصر قنصوه الغورى خلد الله خلافته فى تاريخ ذى الحجة الحرام من إحدى وعشرين وسبعمائة) ولكن الجامع من بناء السلطان قايتباى، وقد اطلع الحقير ذات مرة على أوقاف الجامع، ولكل باب من الأبواب الثلاثة للمسجد سلم حجرى يرتفع ثلاثة أقدام.

أوصاف ضريح أحمد البدوى

يتصل ضريح البدوى بالباب الأيمن للجامع، وتوجد قبة عظيمة مطلية بالكلس الأبيض الذى يشبه اللؤلؤة ذات أعلام خضراء بين القباب الجانبية الواقعة فى الناحية اليمنى للجامع إنها قبة تكية القطب الربانى أحمد البدوى، بوسط هذه التكية ضريح البدوى وهو عبارة عن صندوق من خشب السرو مغطى بقماش من أستار الكعبة المرصعة بالنجوم المذهبة داخل سياج خشبى على شكل مصبعات، وعلى كل زاوية من زوايا الصندوق كرة من الفضة الخالصة، وفى وسطه عمامة خضراء أرسلها والى مصر أبو الخير الكتخدا إبراهيم باشا لتكون علامة على موضع رأسه المباركة.

وذهب الموكب الذى يضم مشايخ الطرق وخلفاء البدوى وعشرين ألف مريد على دق الطبول والتوحيد لإيصال القماش الشريف للضريح، وقام خليفة البدوى بلف القماش على هيئة العمامة عند رأس البدوى وسط التكبير، كما قاموا بلف الضريح بالقماش المنقوش والمشغول بالذهب والفضة، والأقمشة المزينة المطرزة بالذهب والفضة فى ضريح البدوى كثيرة، ولا يستطيع أى شخص من الخدم أو غيرهم أن يمد يده ليأخذ واحدة منها، وقد عمد الكثيرون إلى هذا ولكن أيديهم شُلّت عن الحركة ووضعت الهدايا التى جلبها الوالى وفرشت السجادة وأشعل بخور العنبر فامتلأت القبة بالرائحة الطيبة، وعلى شبكة الضريح توجد معلقات كثيرة قيمة كل واحدة منها تساوى خراج الروم، كما توجد تحف وأشياء ثمينة حول الضريح من جهاته الأربعة مثل الشمعدانات الفضية والذهبية التى يبلغ طول الواحد منها مثل طول الرجل، وشمعدانات نحاسية وأوانى فضية وذهبية ومباخر فضية وذهبية وأكواب فضية، والضريح من الداخل مزين بالخطوط الجميلة وهى من خطوط ياقوت المستعصمى والشيخ قره حصارى، وبالجوانب الأربعة توجد مئات الشموع الكبيرة، التى تزن الواحدة منها ثلاثة أو أربع قناطير، وكلها من هدايا ملوك الكفار وذلك لأنهم يعتقدون فى البدوى أيضًا، ويفرج عن الأسر من الزنزانات وتقطع سلاسلهم ويمنحون الحرية، ويُرسل سلاطين البلدان الإسلامية فى الأقاليم السبعة الهدايا والتحف إلى البدوى تبركًا، منها الجواهر والقناديل المرصعة والأكواب والأباريق الفضية، وكل هذه التحف

والأشياء الثمينة معلقة على زوايا الضريح، وبخلاف هذه الأشياء توجد أيضًا آلاف من الأشياء الملونة المعلقة على الحوائط التى زُينت بالخطوط الجميلة لكبار الخطاطين، حتى أن الحقير كتب آية: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] على لوحة خشبية بالخط الجلى ووضعتها بجوار المحراب.

وفى الناحية الموجود بها رأس البدوى يوجد حجر أسود عليه آثار قدم النبى ﷺ، لا يقع بصندوق الضريح بل خارجه، ويقوم الزوار بمسح وجوههم فيه، ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وبالجوانب الأربعة للضريح نوافذ ذات سياج نحاسى تطل على الطريق العام، والمحراب صغير، بناؤه غاية فى الجمال، مرصع بالأحجار الكريمة التى تشبه الصدف، وزينت القبة بالزجاج، وبالتكية دواليب محفوظ بها كتاب الله والأوانى مرصعة بالجواهر، وسجلات للأوقاف، ويطل باب التكية على فناء الجامع إلى ناحية الشرق وضلفتى الباب مزينتان بالحلقات والنقوش الفضية، وكلها من آثار أصحاب الخير وإطار الباب من على الجوانب الأربعة مزين بقطع القيشانى المنقوش، وعلى الإطار العلوى له لوحة مرمرية دائرية مذهبة منقوش عليها بالخط الجلى:

(أمر بإنشاء هذا المقام المبارك مولانا السلطان قايتباى عز نصره).

ومن يصلِّ ركعتين فى محراب هذا الضريح يحفظ من كل بلاء الدهر، ولا يستطيع أى خصيم أن يخاصمه أو يعاديه، ولا يرى الفقر وإذا ما التجأ صاحب دين أو لص أو صاحب دم بهذا الضريح فإن الحاكم لا يستطيع أن يتعرض له طالما أنه بداخل الضريح أما إذا بقى هذا الشخص بالداخل أربعين يوم وليلة بلا طعام أو شراب فإنه سيموت بالطبع، وإذا كان الملتجئ إلى الضريح يلوذ به وهو مظلوم فإنه سيجد الخلاص بإذن الله، حتى أنه قد تداين أحد الكاشفين من المال الميرى، وفر هذا الكاشف من جراء هذا الدين والتجأ إلى تكية السيد البدوى واعتكف بها، وقد أرسل الباشا الأغوات مرتين للقبض عليه ولكنهم لم يستطيعوا، وفى أحد الأيام أرسل الباشا أحد الأغوات المتفرقة ويدعى على أغا وكان رجلاً متجبراً، فأتى على أغا إلى ضريح البدوى وشتم الشيخ سلامة والشيخ أحمد وأخرج الفرمان وضرب به وجوههم وقال: لتخرجا الكاشف من

الضريح وإلا سوف أقبض عليكما وأرسلكما للباشا، فرد المشايخ: نحن؟ حاشا لله لن نستطيع إخراجه، ها هى المفاتيح أمامك خذها وافتح الباب واقبض عليه إن استطعت، فقال على أغا: أنتما اللذان ستفتحان الباب وتسلمانى الكاشف وإلا سأقوم بكسر الباب وإخراجه، وقد نصح الحقير على أغا بعدم كسر الباب قائلاً له: خذ المفاتيح وأخرج أنت الكاشف، وبعد ساعة كاملة من العناء لم يستطع على أغا أن يفتح الباب، فغضب وأمر خدامه بأن يخلعوا الباب وأخرجوا الكاشف من الداخل، فقال كل من فى المجلس حسبى الله وتحيروا لهذا الصنيع، حتى أنا تحيرت جداً، أما الشيخ سلامة فقال: اصبروا قليلاً وذهب إلى بيته، وركب الأغا المذكور وخدامه الخيول وذهبوا وعندما خرجوا من المدينة وهم بقرية طوخ النصارى أخذ على أغا يتأوه من شدة الألم ومات وذهب به خدامه إلى مدينة طنطا وهو ميت ودفن هناك، وقد أخبر الحقير الباشا بهذه الحادثة فعفى الباشا عن الكاشف، وتصدق بعشرة آلاف قطعة من المال على المريدين الموجودين بالتكية.

وتوجد حجرة خارج الناحية اليسرى للتكية، بها صندوق خشبى محفوظ به خرقة البدوى وعمامته الخضراء يحفظها بعض المريدين، ويقام لهذه الحجرة احتفال مرة فى العلم، تكون يوم الجمعة الأخير المتمم لمولد البدوى، حيث يقوم الشيخ عبد العال وهو ابن الشيخ البدوى بارتداء الخرقة والعمامة فى حضور المشايخ وآلاف المريدين وتدق الطبول والنفير والدفوف والنقارات ويخرج موكب عظيم به مئات الآلاف من الرايات ويكون كل جنود كاشف الغربية وكاشف المنوفية فى هذا الموكب ويدخل الشيخ عبد العال مدينة طنطا مع الموكب ممتطيًا جواده ويتجول بالمدينة، ثم يصلى الجمعة فى جامع الشيخ المدبولى بالمدينة ثم يذهب الشيخ مع الموكب إلى التكية حيث يحفظ الخرقة والعمامة ف الغرفة ثم يتفرق كل الزوار حيث يذهب كُلٌ إلى بلده.

أوصاف الخرقة الشريفة والشال

الخرقة من القماش الأحمر ولكنها ممزقة إلى قطع صغيرة، أما الدستار فهو شال من صوف الإبل وقد تمزق بمرور الزمن وتم ترقيعه حتى لا يُبلى، ولا يستطيع أى أحد أن

يرتديه سوى أبنـاء المشايخ، والخرقة تفوح منهـا رائحة للعنبر الخام، توضـع الخرقة بعد نهاية المولد فى مكانها وسط تكبير العاشقين المشتاقين ثم يذهبون.

عاش السيد أحمـد البدوى فى عهد (   )[1] مدة عمره (   )[2] سنة ووفاته سنة (   )[3] قُدّس سره العزيز، والحـمد لله أنه قد تسنى للحقـير زيارته وصلى عنده الصلوات الخمسة وقد ختم الحقير القرآن ثلاث مرات فى خمسة عشر يومًا بلياليها ووهب ثوابها للبدوى والحمد لله على ذلك.

اوصاف ضريح الشيخ عبد العال

يقع ضريح الشيخ عبد العال بجانب باب القبلة الرئيسى للجامع بمحاذاة ضريح السيد البدوى، ولا يوجـد أحد بالضريح غـيره، ويرقد الشيـخ عبد العال تحت صـندوق من خشب السرو مـغطى بالمخمل الأحمر، وعلى الـصندوق سياج خشبى مصـبع الشكل، والضريح من الداخل غير مزين بدرجة كبيرة.

ظل الشيخ عبد العـال خليفة للبدوى أربعين سنة فى حياته وأربـعين سنة بعد مماته، وكان صاحب سجادة، وله مـا يقرب من مائة وسبعين ألف مريد، عـاش مائة وعشرين سنة، وهو الذى عمّر مدينة طنطا، حيث كانت له قوة خارقة، قُدّس سره العزيز، وهو من مريدى الشيخ أحمد البدوى ولم يكن له نصـيب من العلم الظاهر بل كان له نصيب من علوم الباطن وارتحل عـن الدنيا إلى الآخرة مجردًا نظيفًا، وكان فى حـياته بمثابة ابن البدوى، حيـث فوض له البدوى كل الأمـور، وأبناؤه هم أصحاب الـسجادة الآن وكل الأوقاف تحت حكمهم، إلا أن نـظارتها منذ عهد السلطان قايتـباى فى عهدة ولاة مصر وعندما يحل واليًا جـديدًا يقوم باستدعاء هؤلاء المشايخ ويحاسـبهم عن تلك الأوقاف، حقًا إنها أوقاف عـظيمة بها أموال كثيرة حـيث تأتيها النذور والصدقـات من كل خلفاء ديار المسلمين وغير المـسلمين، ويطل باب ضريح الشيخ عبد الـعال على قناة الجامع أو على قبلته، على عتبته العليا لوحة مربعة كتب عليها بالخط الأبيض آية: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] وبجوار الضـريح مرقد خمسة من أبناء الشـيخ عبد العال لم نعلم أسماءهم، قُدّس سره العزيز.

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

فى بيان أولياء الله المدفونين بمدينة طنطا وهم على طريقة البدوى

أولاً: بيان الموجودين خارج المدينة:

الشيخ نـور الدين والشيخ عبد المجيـد شمس الدين والشيخ حسـن والشيخ عبد الكريم.

ثانيًا: بيان الموجودين داخل المدينة:

الشيخ سالم والـشيخ عبد العزيز والشيخ سـعد والشيخ السيد على الـبربرى والشيخ ركيل والشيخ السيد عبد الحق والشيخ السيد ذو النون والشيخ السيد عبد الله.

وبخلاف هؤلاء توجـد العديد من الأضرحة التى قمـنا بزيارتها ولكنها لمـشايخ غير معروفين، ولكل شيخ منهم ضريح، رحمة الله عليهم أجمعين.

وبمدينة طنطا أيضًا جامع الشيخ إبراهـيم المدبولى، وقد كان هذا الجامع قديمًا الجامع القديم بالمدينة، وقد تعبد فيه البدوى فترة طويلة ومقامه به الآن متهدم، وأحمد الله أننى قد أبلغت جانبولاط حسين باشا بذلك، فصرح لى بأن أقوم بمراجعة أوقاف هذا المحل، وقد تم ترميم الجامع من المال الفائض من أموال الأوقاف، وارتدى خليفة البدوى الخرقة الشريفـة والشال الخاص بالبدوى وأدى صلاة الجـمعة الأخيرة فى مقام الـبدوى الموجود به، إنه جامع قـديم تتوسط فنائه شجرة سـدر كبيرة، وقد بُنى هذا الجامـع على أربعين عامودًا ولا توجد به زينات كـثيرة، ومحرابه ومنبره على الطراز القـديم، وللجامع بابان جانبيان، وباب لمقام البدوى ومئذنة منخـفضة، وتنتهى الزيارات فى هذا المكان، وبذلك نكون قد انتهينا من أوصاف الجامعين أيضًا.

وبخلاف ذلـك يوجد ضريح بـين تلك الأضرحة وبـه حكمة عجـيبة، حيث تمـتلئ أرضيته بالرمال، وفى أيام مولد البدوى تتحـرك تلك الرمال ويخرج منها عظام بشرية، ويلتقى آلاف الأهالى لرؤيتها حتى أن بعض الـرجال يأخذون من تلك العظام، بعد ذلك تهب ريـاح قوية تتحرك عـلى أثرها الرمال مـرة أخرى فتختفـى العظام تحتهـا، ويقول البعض إن هذه العظام هى عظام مريدى أحمـد البدوى، ويقولون إنها تخرج أيام المولد

وتتحرك والبعض الآخر يقول إن تلك العظـام هى عظام الأشخاص الذين كانوا منكرين للبدوى ومنكرين لكرامته ومنكرين للذكـر والتوحيد بالدف والطبل، فدعا علهم البدوى قائلاً بأن لا يـرقد لهم جسد فـى التراب وبالتالـى تلفظهم الأرض فـى كل عام، والله أعلم، وقد شاهد الحقير بنفسه هذه العظام فى أيام المولد.

وبميدان الملعب زاوية كبيرة مثل الجامع لا توجد لها مئذنة ولكنها زاوية عامرة للغاية، ولا يوجد بالمديـنة مسجد يضاهيهـا، والزاوية من خيرات المرحوم عـلى بك الجرجاوى حتى أنها تعرف باسم مصطبة على بك، وأمام محراب الزاوية يوجد بركس عظيم قطره دائر ما دار ثلاثمـائة خطوة به أحواض لسقى الحـيوانات، يشرب منها معـظم الحيوانات كما يشرب منها كل الزوار ويجددون منها وضـوءهم إنها خيرات عظيمة، وبذلك يكون بالمدينـة أربعين محرابًا بـهذه الزاوية، منها اثـنان فقط جوامع جامـعة تقام بهمـا خطبة الجمعة، وقد ذكـرناها آنفًا، وما عدا هذين الجامـعين زوايا، وبمدينة طنطا حـمام صغير ومدرستين إحـداهما مدرسة السيـد البدوى وبها طلاب كـثيرون بها ما يزيـد على ألف شخص أعمى من حَفَظة كتاب الله يختمـون القرآن كل سبع أو ثمانى ساعات، وبجامع البدوى عمارة تقـدم الطعام مرتين فى اليوم للـمريدين والفقراء وعابرى السـبيل، حيث تقدم القمح مع حساء العدس وقطعة خبز وأئمة ومشايخ وخطباء الجامع ثمانمائة شخص يأخذون جرايـتهم ورواتبهم من أوقاف الـبدوى كما يتم طهو ثـلاثة أرادب قمح وأردب عدس وتذبـح بقرة وخمس نعـاج يوميًا فـى عمارة البدوى وتـقدم للفقراء والمـريدين والزوار خلال أيام المولد، وفى الأيام العادية يُطهى المقدار الكافى فقط ويقدم كله للفقراء والمريدين.

وبالمدينة سبـعة مكاتب للصبيان وثـلاثة أسبلة، وماء سبيل البـدوى مثل ماء الحياة، وكل الحوانيـت بالمدينة ثلاثـمائة حانوت ولكن فـى أيام المولد تزيد عـلى آلاف حانوت لكثرة الخيام الصغيرة والكبيرة التى تنصب فى المدينة، ولا يوجد بالمدينة محلات أقمشة، إلا أن بها سبع وكالات بها بضائع لتجار يفدون من اليمن والهند والسند والعجم والروم والعرب، والبـضائع فى تلك الوكـالات تباع بلا قيمـة لا سيما وأن بها كل الـبضائع،

وبالمدينة سبع مقاهٍ تعج بكثير من المداحين والمطربين والقواسين، ومدينة طنطا ليست وقفًا للسيد أحمد البدوى بل هى التزام للملتزمين، أما وقف البدوى فهو عبارة عن حصص من بعض القرى والبلدان الواقعة شمال طنطا مثل قرية قحافة وكفر النور وبها أفدنة وأرزاق بلا حساب، كما أنه لو توفى شخص ولم يكن له ولد فإن كل ثروته تؤول إلى وقف البدوى.

مناقب البدوى

عندما كان جان بولاط حسين باشا واليًا على مصر عام ١٠٨٣هـ كانت هناك طائفة تسمى أبناء العوار أشقياء قاطعون للطريق يقوم كل خمسمائة أو ستمائة خيال ملعون منهم بالنصب والسلب للقرى والقصبات المجاورة لطنطا، وذات يوم هجموا على قرية من أوقاف البدوى وهى قرية قحافة وأخذوا منها الإبل والبقر والغنم وقد علم حسين باشا بذلك وتأثر كثيرًا، وعلى الفور أخرج تجريدة مكونة من ألف رجل من الفرقة السابعة وعين عليهم قوجه مصطفى أغا من أمراء الشراكسة، هجم قوجه مصطفى باشا بقواته فجأة ليلاً على ابن العوار وتحاربت الطائفتان ولم يجد ابن العوار مجالاً فتحول كرّه إلى فرّ، والتجأ إلى تكية أحمد البدوى وقال أغثنا يا بدوى وتعقبهم الجند وحاصروا قصبة أحمد البدوى وتحصن ابن العوار في التكية يومًا وليلة وكأنه متحصن فى قلعة، وكان يصعد إلي مئذنة المسجد ويطلق النيران عل الجند، وكان اللصوص الموجودون معه ينادون من داخل التكية عل الجند «يا بدوى يا بدوى» فى تهكم وقد هجم أفراد التجريدة من كل نواحي القصبة بشجاعة فائقة، وفى تلك الأثناء فتحت أبواب الجامع والتكية وخرج العلماء والمجاورون وقالوا لقد اختفى الأشقياء وكانت كل أمتعتهم وخيولهم موجودة، أما الأشقياء فقد اختفوا وهم عارون فقال الجند ربما تكون تلك حيلة من الأشقياء ودخل الجند المدينة، واغتنموا كل أمتعة اللصوص وثلاثمائة جواد وثلاثمائة سيف ورمح ونبوت بخلاف الملابس.

وفى تلك الأثناء دخل رجل بيت الخلاء ليقضى حاجته وفيما هو بمفرده فى بيت الخلاء سمع صوت صدى أقدام تأتى من مجارى المراحاض، وقف الرجل ونظر فإذا بالأشرار المفسدين قد نزلوا إلى مجارى المراحيض فربط الرجل سرواله وهرول إلى القائد وأخبره فقام القائد بسد فتحة المجارى التى تخرج خارج المدينة ببناء خرسانى وأمر بدفع المياه الموجودة فى الحوض الشافعى إلى المجارى وجعل البقر يدور فى السواقى فامتلأت المجارى بالقاذورات وخشى الملاعين أن يغرقوا فى مياه النجاسة، وعلى الفور أظهر كل شخص منهم رأسه من فتحات المراحيض وعندما خرج الملاعين لم يكن هناك إمكانية للقبض عليهم والإمساك بهم لأنهم كانوا ملوثين بالنجاسة، وتم قتلهم بالسيوف والبلط والنبابيت وهم كالخنازير الملوثين وقتل منهم ثلاثمائة وخمسة أشخاص ثم نظفت الجثث من الروث والنجس وقطعت رءوسهم عن أجسامهم وأرسلت رءوسهم جميعًا إلى ديوان مصر فابتهج الوالى وأنعم على هؤلاء الجند وبذلك طهرت تكية البدوى من هؤلاء الأشرار، وهكذا غرق كل الأشقياء الذين نهبوا قرية قحافة من أوقاف السيد البدوى فى الماء النجس بالمهانة وسحبت رءوسهم وكان هذا من تصرف أحمد البدوى قُدّس سره العزيز.

وبقرية قحافة التى نهبها هؤلاء الأشقياء خليفة للبدوى وهو من أصحاب الكشف والكرامات وله فى كل ديار الإسلام أربعة آلاف خليفة ومئات الألوف من المريدين، وكل مكاسبهم وأرزاقهم من أوقاف البدوى، كما يحصل الفقراء العرب والروم والعجم الأموال من هذا الوقف، حيث يأتون مرة واحدة فى المكان الذى يكون فيه المولد، ويضعون تلك الأشياء التى جمعوها أمام الخليفة، وفى الليلة الأخيرة من المولد يصبح مائتين أو ثلاثمائة خليفة من خلفاء البدوى أصحاب سجادة، ويصل هؤلاء الخلفاء إلى ديارهم معززين مكرمين على دقات الطبول والصيحات والدفوف، ويخرج كل أهالى هذه الديار إلى استقبالهم بالتعظيم والتكريم وفى حالة عدم وجود تكية للبدوى فى تلك الديار الذاهب إليها الخلفاء ويبنى بها تكية عل الفور، حيث يسكن بها هذا الخليفة هذا بالإضافة إلى أنها تطيب خواطرهم كما أنها بركات البدوى.

أوصاف مولد السيد أحمد البدوى بصحراء طنطا

يوجد وادى بين قصبة طنطا ومحلة مرحوم يبعد عن المدينة بمقدار ثلاثة آلاف خطوة وقديمًا كان كل التجار وأهل الحرف يذهبون إلى هذا الوادى قبل قطع النيل بعشرين يومًا، وعندما كانوا يصلون إلى منتصف طريق محلة مرحوم ينصبون الخيام على جانبى الطريق وتنصب أيضًا آلاف الحوانيت والمقاهى، ثم يأتى جميع المشايخ البدوية وينصبون خيامهم بجوار تلك الأسواق الواقعة فى الناحية الشمالية للمدينة، حيث يقوم اثنا عشر خليفة من خلفاء البدوى بنصب خيامهم فى هذا الميدان، ويأتى كل المريدين وينصبون خيامهم على الترتيب المفصل الموجود عند البدوية، يكون الشيخ مصطفى الرومى فى المقدمة وهو من طريقة مرزوق كفافى والبدوية تنتهى عنده، ثم يليه الشيخ الإمبابى، ثم الشيخ الكالناسى ثم الشيخ الشناوى ويمكث مع عشرة آلاف مريد من مريديه، ثم الشيخ أحمد القليوبى ثم الشيخ عثمان ثم الشيخ الغمراوى وخلاصة القول أن كل الخلفاء يمكثون فى أماكنهم، وكل المشايخ الذين يأتون بعد ذلك ينصبون خيامهم فى المكان الذى يجدوه خاليًا، وخلف هؤلاء المشايخ يرابط ألف جندى مسلح من جنود كاشف المنوفية، يقومون بحماية الأسواق والمشايخ فيتجول كل الجنود ليلاً وإذا ما وجدوا أى لص أو قاتل قتلوه على الفور.

ثم بعد ذلك يبدأ مريدو اليمن والهند والحبش والعجم فى المجىء أفواجًا وكأنهم البحر، ويمكثون فى خيامهم فى هذا الوادى المعشوشب بخيامهم وسناجقهم وراياتهم، وبعد ذلك اعتبارًا من اليوم السادس يأتى كاشف الغربية بفرمان والى مصر مع ألفين من جنود مصر وألف خيال عربى وخمسمائة صبى من حملة النبوت والقواسين على دقات الطبول، رافعين الرايات، ويستعد كاشف المنوفية بجنوده أيضًا لملاقاة كاشف الغربية وتعزف الأقواس، ولا يوجد لكاشف المنوفية خمس طبقات من الموسيقى العسكرية مثل كاشف الغربية، وذلك لأن كاشف الغربية نال رتبة الباشاوية وبمقتضى قانون الظاهر بيبرس يتصدر كاشف الغربية كل الكاشفين ما عدا والى جرجا وذلك لأن مرتبة والى جرجا أعلى منه، ثم يتوقف كاشف المنوفية للسلام على كاشف الغربية ويمر الموكبان بين

خضم كبير من الناس كأنهم البحر، ويمكث الجميع فى خيامهم، وقد مكث الحقير أيضًا مع رفقته مع الموكب وسلم الحقير فرمانات الوزير إبراهيم باشا للكاشف حيث قُرئت فى الديوان وجاء فيها ما يلى: «إلى حسن أغا كاشف الغربية لتكن على بصيرة ويقظة حتى انتهاء مولد السيد أحمد البدوى الموجود بإيالتكم ولتحفظوا كل الزوار والتجار، ولتمنعوا أشقياء العربان من المجىء بالخيول إلى ميدان الملعب وأن تمنعوا أى شغب يقومون به»، فقال الكاشف سمعنا وأطعنا.

كما قدمت رسائل كتخدا الباشا وقرأت على الملأ وجاء فيها أن يقوم الكاشف بالإحسان على أوليا جلبى بِخَيل مُزين وكيس من النقود المصرية، وقد أحسن الكاشف عل الحقير بجواد فضى السرج مذهب الركاب وكيس من المال وخمسة آلاف عملة حالية كما أمر الكاشف بفرش خيمة لنا بجانب خيمته أقمت فيها ثلاثة أيام بلياليها، كما نزلت ضيفًا بمنزل خليفة البدوى لمدة عشر ليال، وبعد أن جاء الكاشفان إلى ميدان المولد ومكثا فيه واستتب الأمن هناك، قام كل التجار والزوار بإخراج أمتعتهم وبضاعتهم ليعرضوها وحيتئذ يتم البيع والشراء بشكل لا يمكن التعبير عنه، ويزين الجميع خيامه بآلاف القناديل والسناجق والأعلام بشكل لا يمكن وصفه، وقد كان بهذا الميدان الذى يقام فيه المولد صُفّة للبدوى يتعبد فيها خارج المدينة فى مكان لا يعرفه أحد يُطلق الأهالى عليها مقام السيد البدوى وهى مكان للتعبد وبها صارى اتفاعه ثمانون ذراعًا به خيوط يعلق بها القناديل التى يبلغ عددها أربعين ألف قنديل فتصبح الصفة وكأنها خيمة عظيمة ذات صارٍ مثل خيام الوزراء، وفى بلاد العرب يقولون على تلك القناديل إشارة، وللصفة أربعون خادمًا يشعلون كل ليلة عشرة قناطير من زيت السمسم، وقد وقف لها صاحب الخيرات فى خمسة عشر يومًا بلياليها عشرين ألف باره، ويضاء الميدان كله بآلاف القناديل الصغيرة والكبيرة، وعندما ذهب المشايخ لحضرة إبراهيم باشا للحصول منه على الإذن بإقامة المولد وذلك فى السنة التى كنا فيها هناك، قال لهم الوزير: أيها المشايخ الكرام لتكونوا على بصيرة فى هذه السنة ولتكن الأفراح والاحتفالات أكثر من العام الماضى، إنه مولد النبى، إنها شعائر الإسلام فقال كل المشايخ على الرأس والعين

يا وزير، وعندما شاع هذا الخبر على أفواه الناس اجتمع أناس كثيرون من أعيان وأشراف مصر والشام وحلب والعرب والعجم للاحتفال بمولد البدوى، وكانت هناك ثلاثة آلاف وسبعمائة خيمة وأوطاق بخلاف الخيام الصغيرة المصنوعة من الكليم وهى الخيام الخاصة بالعربان، وقد قام أصحاب الخير بوضع أسبلة المياه على رأس كل الطرقات لأن المياه فى هذا الميدان قليلة، ولم تكن الأسبلة تكفى هذا الكم الهائل من البشر الذى يقدر عددهم بمئات الآلاف والنيل المبارك يبعد عن هذا المكان بمقدار ساعة عند محلة مرحوم، ويحيط جند الكاشفين بهذا الكم الهائل من البشر ليلاً ونهاراً يقومون بحراستهم، أما أعيان مصر فحرسهم خدامهم، وذلك لأن اللصوص وأبناء الحرام يكثرون فى هذا الجمع ويكون موجوداً فى هذا الميدان كل يوم عشرة أو خمسة عشر ألف من العربان العرايا برماحهم ويكونون مثل الغابة.

فصل فى بيان اللاعبين وأصحاب المهارات فى مولد البدوى

يقوم مئات العارفين من الطريقة البدوية والطريقة السعدية بمسك قطع الحديد التى احمرت من شدة النيران بأيديهم، ويلعقونها بألسنتهم لتسكين نار الشوق التى عندهم، ولإظهار معرفتهم، وبعضهم يأكل قطع النار التى احمرت مثل العقيق الأحمر، والحاصل أنه يجتمع فى ميدان البدوى سبعة وسبعين فرقة من أصحاب الألعاب كلاعبى النار ولاعبى الحبل ولاعبى اليد ولاعبى خيال الظل، ولاعبى الخزف، ولاعبى السحر، ولاعبى القمار، ولاعبى الحمار، ولاعبى الطنبور، ولاعبى الديك، ولاعبى الطاس، ولاعبى القرد، ولاعبى الكلب، ولاعبى القدح، ولاعبى الكبش، ولاعبى المرآة، ولاعبى الثعبان، ولاعبى العين، ولو دونّا كل ما يقوم به كل لاعب سنكتب كتابًا مفصلاً، ويكثر اللصوص والنشالين، ويجب على كل من يكون هناك أن ينتبه ويكون على يقظة دائمًا، فمشهور عن اللصوص أنهم يسرقون الكحل من العين، أما لصوص مصر فعندهم من المهارة ما يجعلهم يستطيعون سرقة العين ويبقى الكحل مكانه.

ومن العجائب التى رأيناها هناك: أن الثعابين الموجودة مع لاعبى الثعبان كبيرة وضخمة للغاية، تخيف الإنسان، والعجب أن لكل ثعبان منها اسم إذا ما قام صاحبه بالنداء عليه، فإنه يأتيه، وإذا نادى على ثعبان ما باسمه وأخطأ ثعبان آخر وأتى بدلا منه، يعاقبه صاحبه، وقد أتى أحد الدراويش البدويين فى الميدان وأخرج ثعبانًا كبيرًا من جعبته، وعندما كان يناديه باسمه يتحرك، كأنه يفهم الكلام، وعندما يشير إليه بالرقص يرقص، وبينما كان هذا الدرويش يقوم بملاعبة الثعبان أمام الناس، جاء أحد مريدى البدوى، ونظر إلى الثعبان وقبض عليه بيده، ووضعه فى فمه وأكله، وعندما رأى الدرويش صاحب الثعبان هذا الأمر، أخذ يصيح ويقول أيها المسلمون، هل يجوز ذلك؟ لقد علّمت ثعبانى هذا طوال عشر سنوات كاملة حتى أصبح يفهم كل شىء، وأتعيّش منه أنا وأبنائى، فهو يغنينا عن السؤال، واحتكم الاثنان إلى القاضى، فقال الدرويش صاحب الثعبان، يا مولانا لقد ظللت أعلم ثعبانى هذا عشر سنوات، أتعيش منه أنا وأبنائى، ثم جاء هذا الرجل وأكله، فماذا أنا فاعل؟

فقال القاضى للرجل: لماذا أكلت الثعبان؟ فقال: يا مولاى وجدته ثعبانًا سمينًا لطيفًا، وكنت جائعًا.

فقال القاضى للدرويش: كم تريد ثمنًا لثعبانك؟

فقال الرجل: أريد عملة ذهبية.

فدفع الرجل العملة الذهبية، وسار وهو يمسح فمه.

عجيبة أخرى

كان يوجد أيضًا أحد الدراويش التابعين للبدوى يرتدى جبة صوف، يلعب بالديك فى هذا الميدان. كان هذا الديك ذا عرف أحمر على رأسه ودائما كان الديك يجلس على رأس هذا البدوى. وإذا ما جاء شخص وأعطى للديك بارة يقوم الديك بضرب جناحيه ويصيح، ولكن لم أستمع إلى صياحه. ثم يقول له يا فرخ وحد الله فيقول الديك بضرب جناحيه ثلاث مرات ويقول بصوت عال لا إله إلا الله محمد رسول الله. والله أعلم.

كان يقول لا إله بأجزاء الحروف ثم يقوم الديـك بالرقص على الأرض ثم يستقر مرة أخرى على رأس البدوى، شيء عجيب وغريب. لـذا يقولون على هذا البدوى أنه من أصحاب الكرامات ويجمع هذا الديك يوميًا فى هذا التجمع ما يقرب من ألف پاره.

وغير ذلك توجد العديد والعديد من العجائب والعِبَر. منها:

عبرة أخـرى

هى: أحد العـارفين بالسحر المـقبول وقد شاهدناه ومـعه شخص يدعى نـصر الدين الطنجاوى من بـــلاد المغرب، قام هذا الشيخ بدعوى الأعيان والكبـار الموجودين بالخيام لمشاهدته فى الميدان، واجتمع أناس كثيرون فكانوا فوق بعضهم البعض من كثرتهم. ثم قام هذا الشخص بوضع يده على صدره ثم قام بدق عصا فى الأرض وأخرج من جعبته عدة أشياء مستديـرة تشبه الكرة وكانت حمراء وأخذ يلعـب بها، ثم أخرج ثلاث كرات أخرى مختلفة من جعبته وظل يلقيها بيده ويمسكها وأظهر مهارة وغرابة فى لعبه.

ثم قام بدحرجة هذه الأشياء الدائرة أمام الحضور فمـنهم من يمسكها ومنهم من ينظر إليها ومنهم من يلقيها بقدمه ثم تجول الساحر فى الميدان وأخذ الكرة فى يده وأخذ يلقيها فى الهواء ويمسكها وكان قد ظهر من حافة الـكرة حبل فقام الساحر بإعطاء طرف الحبل إلى أحد المشاهـدين وقال له شد الحبل وكلمـا كان الرجل يشد الحبل يخـرج معه حتى تجمع على الأرض أحـبال كثيرة، والغريب هـنا أنه كيف يخرج هذا الحـبل من كرة فى حجم رأس إنـسان، إن الحبل الـذى كان يخرج منـها كان بمقدار حِـمل بعيـر. ثم قام الساحر بربط طرف الحبل فى العصى التـى ثبتها فى الأرض وقذف الكرة لأعلى فظلت الكرة معلقة فى الهواء وطرف من هذا الحبل مربوط فى العصى والطرف الآخر فى الكرة المعلقة ثم قام السـاحر بلصق يده على الحبل وصاح قائلاً إنزلى أيتـها الكرة الحمراء فلم تنزل الكرة، كرر ذلك ولم تنزل الكرة فنادى على بعض الرجال الشجعان وخدامه وقال لهم شدوا الحبل حتى تنزل، وحاولوا جاهدين ولكن الكرة لم تنزل، فقام الرجل بمسك الحبل وسحبه رويدًا رويدًا ولم تنزل، فتعـجب كل الموجودين وتحدث الساحر إلى الكرة بكلمات غيـر مفهومة وقال للحاضريـن يا أمة محمد إن الكرة تقول لـكم «لقد أظهرت

لكم الكثير، فلو قام كل واحد منكم بمنح الساحر پاره سوف أنزل وسأريكم الكثير والكثير إننا نتمنى من كل واحد منكم عملة واحدة فقام كل الأعيان الكبار بمنح الساحر الأموال حتى جمع عشرة آلاف پارة فقام الساحر بلصق يده على الحبل وهزه وقال أيتها الكرة لقد حصل المراد ليبارك الله فيما أعطانا والآن انزلى.

ولكن الكرة لم تنزل أيضًا فقال الساحر يا مسلمين إن الكرة لا تنزل لترجوها كلكم فصاح الصغير والكبير انزلى انزلى. وعلى الفور اتجهت الكرة يمينًا ويسارًا ثم نزلت على الأرض. فقام الساحر بوضع الكرة والخيط الحرير الرقيق فى جعبته بعد أن أظهر معارف كثيرة. يحتار العقل لكل منها. ولكنى قد أستطيع تفسير هذا بعقلى القاصر على أن تلك الكرة تكون مملوءة من الداخل بالندى وعندما يرى الندى الحرارة يتبخر فى الهواء ويقوم الساحر بإلقاء الكرة فى الهواء عندما يكون الحر شديد، وبعد هذا الوقت من الكلام وتحصيل المال يكون الندى الموجود بالكرة قد تبخر فتنزل الكرة، ولم يحط عقلى بغير هذا وقد قبل عقلى هذا، وعندما كنت فى مدينة (   )(1) الألمانية بعد فتح قلعة ليفار عام ١٠٧٣هـ لعب الساحر بالكرة وأظهر فيها براعة كبرى، كما أظهر هذا الساحر أيضًا معرفته فى ميدان البدوى، ولو أننا حورنا كل ما شاهدناه لجاء فى كتاب كبير.

تتزين كل أركان طنطا فى ذلك اليوم بالألعاب التى تتأرجح فى الهواء، ويركبها الصغير والكبير وذلك لأن يوم مولد البدوى يوم عيد. فهو بمثابة الليالى المباركة، كما يوجد فى أركان الميدان خيام العاشقين الصادقين يذكرون الله على دقات الطبول والدفوف والنقارات وبذلك تكون الاحتفالات فى كل ركن من أركان المدينة وتُطهَى آلاف القدور من الطعام اللذيذ يأكل منه كل الزوار، ولحكمة الله أنه لو قام شخص بجلب الخمر إلى المولد فإنها تتحول إلى خل بسر السيد البدوى. ولكن توجد المشروبات اللذيذة مثل العرقسوس والتمر هندى والديس. وفى تلك الأثناء يقوم كل مشايخ الطرق والمريدون بالدق على الطبول والدفوف ويرفعون الأعلام والرايات ويصيحون بذكر الله فيقوم كل المريدين بالذكر وهم يدورون ويسيرون على هذا المنوال

(١) بياض فى الأصل.

حتى يصلوا إلى ضريح أحمد البدوى يذهبون أفواجًا أفواجًا. وتكون الطرق مزدحمة جدًا حتى أن بعض النساء والصبايا يقعون تحت الأقدام ويموتون وأظن أن هذا الزحام لا يوجد بنفس الدرجة فى زيارة مكة والمدينة وأثناء الطواف. ويستمر هذا الزحام لمدة عشرة أيام بلياليها عند زيارة البدوى ويكون جمعًا عظيمًا كيوم الحشر فتتلاصق الأكتاف فيه وتصبح مدينة طنطا عبارة عن حلقة ذكر ما بين كلمة هو والحى القيوم وذكر الله ويصل صدى ذكر الله إلى عنان السماء.

ويقوم الأثرياء من الأعيان الكبار بفرش خيامهم بالسجاد والأبريشم والقطيفة والأطلس والقماش الهندى ويفرشون أيضًا الأرائك والمقاعد المزينة؛ كما يزينون تلك الخيام بالبساط والأسلحة والأوانى القيمة. ويضعون الأعلام والرايات أمام الخيام. ويشعلون آلاف القناديل والمصابيح ويتسامر أهل تلك الخيام ليلاً ونهاراً، ويدعون للسلطان بدوام دولته.

يزين كل المشايخ أيضًا خيامهم بمئات الآلاف من القناديل والأعلام والرايات ويقيمون فيها مشتغلين بالعبادة والذكر. والحاصل أن كل مرغوب موجود فى مولد البدوى. أما العارفون بالله فيفضلون الانزواء عن هذه الكثرة يأنسون بالوحدة بعيدًا عن أى عالم آخر حيث ينظرون إلى الدنيا بعين الإمعان ويجلون قلوبهم ويتطلعون إلى المتعة الدائمة فالدنيا فانية: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ففى نفس الوقت الذى يكون فيه أهل الظاهر نائمون فى غفلتهم يكون أهل الباطن من العارفين بالله مشتغلون بالتوحيد والتمجيد والذكر فى منتصف الليل ويُتلى المولد الشريف فى آلاف الأماكن ويقوم الذاكرون الشاكرون ذوى الصوت العذب بمدح الرسول ﷺ، فيملأ صدى أصواتهم المكان، فيثمل الرجال من شدة الشوق. ولأن آلاف القناديل والمشاعل تضاء فى تلك الصحارى تجعل الليل هناك نهاراً وتكون بمثابة العلامة فى الصحراء. وينشغل كل شخص بشىء فى تلك الليالى: (نظم)

عندما يتجلى الخلاق إلى عالم الأزل　　　يتسلى كل شخص بحاله

فتطلق آلاف الطلقات النارية فى السماء على أشكال وصور كثيرة فتجعل ليل مدينة

طنطا نـهاراً. ويبدأ إطلاق تلك الأعـيرة لمدة ثلاثة أيام بليـاليها. حيث ينـفق كل واحد منهم ألفى قرش على تلك الأعيرة وتحترق خيام كثيرة من جرائها وتعد تلك الأعيرة من القوانين القديمة، فقد حدث أن أتى السلطان قايتباى إلى مولد البدوى وأنفق أموالاً كثيرة وأقيمت الاحتفالات الكثيرة لذلك.

وخلاصة الكـلام أن الحقير سياح العـالم أوليا ساح فى الأرض واحدًا وأربـعين سنة تجول فى أراضى ثمانِ عشرة سلطنة ولم يتيسر له مشاهدة هذا إلا فى مصر. وقد شاهد احتفالات كثيرة منها احتفالات قطع النيل المبارك بمصر واحتفالات الجيش الهمايونى فى إستانبول واحتفالات الباشا القبطان فى سراى بورنو والاحتفالات عند فتح القلاع ومولد الأمراء وعودة السلـطان من الغزو. واحتفالات شـهر رجب وشعبان احتفـالات مصنع الورق فى إستانبول واحتفالات الفيضان واحتفالات أق بابا واحتفالات مصنع البارود فى إيالة بـودين واحتفالات قونـيه واحتفالات ملاطـية ومسيرة مديـنة البصان فى بـودستان واحتفالات حدائق صوادق بـكفة واحتفالات بندر حسن بالقـرب من العراق واحتفالات كيلانى ببلاد العجم واحتفالات مشهد الإمـام علىّ ويوم عاشوراء فى تبريز والتجمع فى يوم قتـل الحسين واحتفالات سليمان بك فـى بغداد، يسر الله لـلحقير رؤية كـل تلك الاحتفالات والتجمعـات ولكنها كلها بمثابة الجزء من احتفـال البدوى بل إنها لا تساوى احتفال يوم أو ليلة من احتفال البدوى.

ويأتى عـباد الله من بلاد العـرب والعجم والهـند والسند تـاركين أموالهم وأبـناءهم قائلين: يـا بدوى ويشدون الرحال إلـيه وينفقون كـثيرًا من الأموال ويأتـون إلى البدوى ويمسحون وجوههم بتكيته ويحتفلون به ولو قام شخص وجهه بتكية البدوى بنية خالصة لله فإنه يشفـى من كل الأمراض والآلام واضطراب الأبدان بإذن الله ويكـون ذلك بمثابة الحفظ له من كل الأمراض. وهذا مجرب والتجمـع الكبير الذى يفوق تجمع البدوى هو اجتمـاع الحجاج فى مِنى بـعد نزولهم مـن عرفات، حيث يـكون عددهم سبعـين ألفًا بخلاف الدواب والحيوانات، إنه تجمع كبير لا يُضَـاهَى، وثمة فائدة فى تلك التجمعات الكبـرى لا توجد فيما سـواها زوال الحجاب فيـما بين الله والعبـد، فيتوب العبـد توبة

نصوحًا لله فيعود كما ولدته أمه. والحديث الشريف دليل على ذلك: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[1] أى أن كل من يستأنس بربه فى هذا التجمع فى مكة والمدينة أو حتى عند البدوى فيجد ربه ويسأله التوبة يتوب عليه.

وقد قيل أن القطب الغوث يحضر كل عام فى مولد البدوى وقد شوهد عدة مرات.

وفى اليوم الثامن من مولد البدوى ينادى المنادون بين كل الزوار بأن مولد الشيخ محمد بن زين يوم الجمعة فى مدينة النهارية. وعندما يسمع الزوار هذا النداء يقوم بعض الزوار والتجار بفك خيامهم ويرحلون إلى مدينة النهارية. وفى تلك الأيام يتم بيع ألف حمل جمل من الحمص فى سوق المولد كما يباع آلاف القناطير من الحلوى وهذا ليس مبالغة وذلك لأنه قد جرت العادة أن يأخذ كل الزوار الحمص لديارهم من مولد السيد البدوى تبركًا، والحمص لذيذ للغاية وليس خاص ببلد معينة.

وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة يقوم الكاشفون والجند بالتجمع عند خيمة الكاشف وتقام لهم مائدة عظيمة يتناولون منها جميعًا ويُمنح كل جندى من الجنود الچورباجيه الموجودون فى محافظة الغربية جوادًا أو ناقة وذلك لأن كل شخص منهم خدم ستة أشهر كاملة ثم يعودون إلى بلدانهم. ثم بعد ذلك تقام مائدة كاشف المنوفية، ويمنح كل جندى من الچورباجيه أيضًا جوادًا وناقة وحجة شرعية بأدائهم الخدمة ثم يعودون إلى ديارهم. بعد ذلك يذهب كاشف الغربية والمنوفية مع جنودهم إلى ضريح البدوى، ويفتحون حجرة الخرقة ويقوم الكاشفان بإلباس خرقة وعمامة البدوى لخليفته ويسيرون به فى موكب عظيم من داخل المدينة إلى جامع المدبولى ويؤدون صلاة الجمعة هناك وعندما يهم الخليفة بالرجوع إلى الضريح يخرج كل الزوار لاستقباله ورؤيته. ويسير الخليفة بينهم حتى يصل إلى الضريح ويعيد الخرقة والعمامة مكانها. ويتسلم الحجة الشرعية التى تفيد أدائهما الخدمة أيضًا، ويقومان بزيارة الوداع ويتجهان إلى مصر، وبذلك يكون قد انتهى مولد البدوى، وفى هذا إعلان مولد البدوى ومن ثم تنتهى

(١) رواه الطبرانى بإسناد رجاله رجال الصحيح من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ.
انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ١٠/ ٢٠٠.

مسئولية الكاشفين فى الحماية والحرامة، وتكـون حينئذ فى يد المُسَلَّمين والقائم مقام لذا يبدأ لصوص العربان فى أعمال السرقة.

بعد ذلك يبدأ بقيـة الزوار فى حل خيامهم الكبيرة والصغـيرة وتوضع الأحمال على مئات الآلاف من الجياد والبغال والإبل والحمير، وحيـنئذ تكون ضجة كبيرة فى صحراء طنطـا فالكل يهـم بالرحيل ولا يـبقى فرد واحـد من الزوار هناك ولأن الحـاكم قد أذن للكـاشفين بالـذهاب من هنـاك فإن الزوار والتـجار يخشـون على أنفـسهم من تـسلط العربان، إنه يـوم عظيم الدهشة من شدة الاضـطراب التى تعترى المكـان فى ذلك اليوم ويرحل الجمـيع من هذا الوادى ولا يـبقى به أحد ويتجه هـذا الجمع الغفيـر إلى أماكن متفرقة، كما يرحل خـلفاء البدوى إلى مدينة طنطا لأنهم سيقومون بـإحياء ليلة السبت فى تكية البدوى حيث يكون المولد الشـريف ويقولون أن أرواح كل الأولياء تحضر معهم حينذاك. ويقوم كل المشايخ والمريدين بتلاوة ما يزيد على ألف ختمة شريفة، وفى اليوم التالى يقوم المشايخ والمريدون بزيارة الوداع. ثم يعتزمون العودة إلى منازلهم ثم يقوم كل مشايـخ التكية وخـدامها وخادم الضـريح بغسـل التكية والـضريح بماء الورد ويـقومون بتنظيف كل أحجار الـفناء ويفرشونه بالسجاد الإبريشم. وفى اليـوم التالى يقوم الأهالى بفتح ترعة خليج القرنين الموجودة على أراضى منوف، فيسير ماء النيل المبارك بعظمة الله إلى تلك الأراضـى التى كان بها المـولد فتغرقها المـياه تمامًا لدرجة تجـعل أى شخص لا يستطيع وضع قدمه فيها.

لقد شاهد الحقير آلاف العجائب والغرائب فى مدينة طنطا وقمنا بتوديع الشيخ سلامة والشيخ أحـمد خليفة البـدوى والشيخ جلبى وكل الأئـمة والخطباء والأحباء، وخـتمنا ختمة شـريفة فى تكيـة البدوى وطلبنـا المدد من روحه وزرنا زيارة الـوداع وقبلنا عتـبته وعقدنا النية على المسير لمدينة النهارية.

أولاً خرجنا من مدينة طـنطا وسرنا إلى ناحية الشمال لمسافـة أربعة آلاف وخمسمائة خطوة فى مكان فسيح حتى وصلنا محلة مـرحوم. وسبب تسميتها بهذا الاسم ما يلى:

بعد دخول هولاكو بغداد وتدميرها هرب أحد أمراء العباسيين إلى مصر واستقبله السلطان (   )[1] من سلاطين مصر وأنعم عليه بتلك المحلة وكانت مدينة كبيرة عامرة. وشاءت حكمة الله أن يموت هذا الأمير ودُفن بفناء جامعه هناك ووصل خبر وفاته إلى سلطان مصر. وفى اليوم الثالث من وفاته كان الأهالى يؤدون صلاة الجمعة فسمعوا فزعًا وجزعًا يأتى من قبر الأمير فذهبوا إلى القبر ليستطلعوا الأمر فإذا بالأمير يصرخ بالداخل وعلى الفور فتحوا القبر فوجدوا الأمير حيًا ووجدوا حيوانًا ينهش فى كتفه والدماء تسيل منه فقاموا بإخراجه وذهبوا به إلى قصره وعاش بعدها سبع سنوات ثم توفى فنقلوا نعشه إلى مصر وتم دفنه بجوار السيدة نفيسة. ومكتوب على الضريح السلطان المرحوم عز الدين بالله. وقد قام المنجمون بتبشير الأمير وهو فى حياته بأنه سوف يموت ويحيى لمدة سبع سنوات سيكون فيها خليفة. وقد أطلقوا على المحلة اسم محلة المرحوم. ومحلة المرحوم قصبة جميلة تتبع منوف بجزيرة الغربية وهى عاصمة كاشف منوف نظرًا لوقوعها فى وسطها ويقيم بها الجند بصفة مستمرة. أما مدينة منوف نفسها فهى العاصمة القديمة، وأحيانًا يقيم الجند بمنوف. ومحلة المرحوم قضاء شريف عبارة عن مائة وخمسين أقچة ويتبعها سبعون قرية. والمكان الذى يقام فيه مولد البدوى يتبع محلة المرحوم. وفى أيام مولد البدوى يذهب حاكم محلة المرحوم وقاضيها إلى هناك ويشرفون على المولد. ويتحصل من ذلك محاصيل كثيرة. ومحلة المرحوم مدينة مزينة بحدائق النخيل والبساتين تقع وسط صحراء فسيحة تبعد عن النيل ساعتين ولكن بحدائقها خليج متفرع من النيل يمر من أمام مدينة النهارية، توجد المياه بصفة مستمرة فى هذا الخليج صيفًا وشتاء. وتبحر به المراكب وينتهى هذا الخليج عند محلة المرحوم وعند فيضان النيل تزيد فيه المياه فيصب فى فرع دمياط. وبمحلة مرحوم ألفا منزل مغطاة بالكلس وخمس محلات وأربعين محرابًا اثنان منهما جوامع جامعة: الأول وهو جامع الخليفة المرحوم ويطلقون عليه جامع بغداد أو جامع المدرسة وهو مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سُلمية حجرية وللجامع بابان ومئذنة رشيقة لها ثلاث طوابق والجامع بدون فناء أو أعمدة، ولأنه جامع صغير لا توجد زخارف أو

(١) بياض فى الأصل.

زينات إلا تلك الزينات البنفسجية المذهبة على أركانه. والجامع الثانى موجود بالسوق وهو الجامع الكبير ويتسع لأعداد كبيرة من المصلين يبلغ طوله وعرضه مائة وعشرين قدمًا للطول وأخرى للعرض وبه قبوات تستقر على ثمانية وثلاثين عمودًا من المرمر. وسقفه بسيط ولا توجد به أى نقوش. ومنبره من الخشب وعلى الحائط الموجود فى الناحية اليسرى للمحراب يوجد هذا النظم لأحمد الخطيب الشافعى:

(سبح إن ترم تحريرًا عن قدره فاسأل به خبيرًا)

وهذان الجامعان هما جوامع الخطبة فى المدينة فقط والباقى زوايا. وبالمدينة سبع وكالات وثمان مكاتب للصبيان وحمام صغير ببدروم سراى الكاشف. وقد كان هذا الحمام قديمًا حمام قصر الأمير البغدادى ولكنه حاليًا حمام قصر الكاشف وبه نقوش مذهبة غاية فى الجمال، من صنع نقاش أعجمى. وبالمدينة مائتا حانوت وهى حوانيت على جانبى الطريق الرئيسى الذاهب من قصر الكاشف حتى الجامع الكبير، ويبلغ طول هذا الطريق ألف خطوة. والمياه كلها من الآبار ولكن لقربها من النيل يقوم بعض الأشخاص بجلب المياه من النيل إليها على الإبل وتوجد سُبل فى سبعة أماكن من المدينة. وأهلها محبوبون. وطقسها لطيف. وكل أجداد الأهالى بها من بغداد وبعض كتب تاريخ تسجلها على أنها محلة بغداد ومنوف، وبالمدينة حجر غريب ضخم يقع خلف سراى الكاشف ويقف هذا الحجر فى وسط حوض عظيم، ولا تستطيع مائتا جاموسة سحبه إنه حجر طاحونة دائرية، يوجد بوسطه ثقب كانت هذه الطاحونة قديمًا هى مصنع السكر الخاص بالأمير المرحوم. وطواحين السكر حاليًا لا تدار بالحجر بل تدار بعجلات الوابور وكلما تدور العجلة يسيل شربات السكر من فم الوابور ويأخذون هذا السكر ويغلونه ويحولونه إلى سكر بعمل كثير يحتاج إلى تفصيل.

مزار محلة المرحوم

أولاً ضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهرى خليفة البدوى. وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع خارج المدينة فى جهتها الشرقية. وضريحه مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سلميه حجرية، وهو تكية به روحانية. بجانبه زاوية، وكراماته مسجلة بالتفصيل فى مناقب الشعراوى، ولا داعى هنا لذكرها. وعلى مقربة منه يوجد ضريح الشيخ عبد

الله الواسطى وهو من بغداد. وعلى مقربة من مصطبة الجريد الواقعة أمام قصر الكاشف يوجد ضريح مدفون به شيخان هما الشيخ على العجمى والشيخ منصور الأندلسى وهذان الشيخان هما اللذان بشّرا الأمير بأنه سيموت ثم يحيى بعد سبعة أيام ثم يعيش سبع سنوات، وقد قام الأمير ببناء ضريح لهما، وقد تهدم الضريح، ولم يَبْقَ منه حاليًا إلا بعض أطلاله فقط، وهو مزار للعام والخاص، قُدّست أرواحهم.

وفى الجهة الجنوبية المقابلة لضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهرى يوجد ضريح أبيض مدفون به السيد عثمان الصيادى، وبالمدينة قبر الإخوة الثلاثة، وهم الشيخ علامة والشيخ ديان والشيخ عمر ولكل منهم ضريح بالقرب من بعضهم البعض، والمشهور عن تلك المحلة أن اللصوص لا يدخلونها، فأبوابها دائمًا مفتوحة، والعجيب فى ذلك أنه لو تجرأ لص على المرور من أمام تلك الأضرحة، فإن قدميه لا تتحرك، ويقع ضريح الشيخ السيد محمد العجمى بزاوية أبو حمزة بالسوق، وفد هذا الشيخ مع ابنه من بلاد العجم، وله مناقب كثيرة مدونة فى مناقب الأولياء، وبالمدينة أيضًا ضريح الشيخ سيدى يوسف وهو من طائفة الجند، وبالسوق ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن، وبالقرب من الجامع الكبير يقع ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن السويدى، وهو سلطان عظيم وفد مع ابنه أيضًا من كردستان من بلدة سويد، وقرأنا الفاتحة لكل شيخ منهم، وطلبنا المدد من أرواحهم الطاهرة، بعد ذلك حصلنا على البراءة من ميرزا أغا كاشف منوف، ومنحنا خمسة آلاف عملة ذهبية، وخمسة خيالين، ثم سرنا شمالاً من تلك المحلة لمسافة ثلاث آلاف خطوة، فبلغنا قصبة الأبيار، وسبب تسميتها بهذا الاسم، أن تلك المنطقة كانت فى عهد الملكة دلوكة بلا ماء، فقامت الملكة بحفر آلاف من آبار المياه، لذا سميت بمحلة الأبيار، ثم قامت الملكة بتسيير خليج من النيل إلى تلك المحلة، وهى مدينة عامرة، تقع فى أراضى منوف، ولها ملتزم، وقضاء شريف مائة وخمسين أقچة، ولها مائة وخمسين قرية تتبعها، يتحصل منها عشرة أكياس مصرية، وتقع تلك المحلة على ضفاف ترعة النيل، وبها الحدائق والبساتين، وقد أهملت بمرور الأيام، ولكن عندما كان الحقير هناك فى عام ١٠٨٣هـ كان العمران فى أربعين أو خمسين ناحية، عمّرها الله، وبها تسع محلات، وأربعون محرابًا، ثلاثة منها جوامع جامعة، والباقى مساجد صغيرة، تلك الجوامع هى: الجامع الكبير ويقع بالقرافة الكبرى على مقربة من

النيل، فى الجهة الشرقية للمدينة، وجماعته قليلة، وهو جامع كبير طوله وعرضه مائتى خطوة للطول والعرض، وبه ستون عمودًا تستقر عليها القبوات التى تحمل السقف، وسقف الجامع مطلى بالكلس، وللجامع ثلاثة أبواب، ومئذنة ذات ثلاثة طوابق، وعلى يمين المنبر توجد لوحة بيضاء مرمرية مكتوب عليها (رسم أيام السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه)، وعلى يسار المنبر لوحة مرمرية أيضًا مكتوب عليها (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، هذا الجامع إنشاء الفقير إلى الله تعالى وإلى رحمته وغفرانه أبو الحسن بن على بن أحمد الحسينى الحافظ جدد هذا الجامع المبارك العمارت فى شهر شعبان المبارك المكرم سنة تسعين وتسعمائة) وعلى يسار المحراب كتبت عدة آيات من سورة الفتح بالخط الجلى على لوحة مرمرية أيضًا. خلاصة القول أنه جامع يجاب فيه الدعاء.

وبالمدينة جامع صغير آخر بدون فناء هو جامع الشيخ أحمد البجم، وله مئذنة ذات ثلاثة طوابق، لا يوجد مثلها فى المدينة، وقد كتب على منبره ما يلى: (جدد هذا المنبر المبارك قطب الأقطاب أحمد البجم فى ذى القعدة سنة ١٠٣٢)، وبالسوق جامع يسمى جامع الزاوية، كان هذا الجامع قديمًا عبارة عن زاوية، وقد حولوه إلى جامع نظرًا لكثرة جماعته، وما عدا تلك الجوامع الثلاثة فمساجد، وبالمدينة مدرستين، وثلاث تكايا؛ هى تكية الشيخ أحمد البجم، وهو مدفون بفنائها، وبها غرف للمريدين، ولها أوقاف عظيمة، والشيخ أحمد البجم من صلحاء الأمة وفد من بغداد إلى هذه المحلة، وبالمدينة ثلاثة أسبلة، وحمام معطل، ومائتى حانوت والطرق الرئيسية لتلك المدينة مرسومة على هيئة لوحة الشطرنج، وهى طرق ضيقة، ولوقوع المدينة على ضفاف ترعة النيل فإن طقسها لطيف، وتشتهر المدينة بشجر الجميز، وزيت البزر، حيث توجد أشجار الجميز على ضفاف النيل، ترعى تحت كل شجرة منها ألف نعجة، ومن الأشياء المشهورة بالمدينة أيضًا الكتان والليمون والأُتْرُجّ، ويقيم أصحاب تلك المدينة على الجورباجى وطويل الجورباجى ونقيب الأشراف الموائد للفقراء، زادهم الله تعالى.

فى بيان أضرحة تلك المدينة

أولاً الواقعة داخل المدينة؛ ضريح الشيخ أحمد البجم وهو مدفون داخل جامعه، وهو سلطان عظيم، ظهرت له كرامات كثيرة، وعندما كان الشيخ السيد على بك واليًا على مصر، رأى كرامات كثيرة لأحمد البجم، فترك العرش والإمارة واستلم الطبل والطوغ من أحمد البجم وأصبح خليفة للمشيخة من بعده، وأنشأ هذا الجامع بالمال الحلال الزلال، وهو مدفون بجوار حضرة أحمد البجم، كان عاشقًا لله عظيمًا.

وقبر الشيخان رضوان وسيدى يوسف وهما من مماليك السيد على بك، أصبحوا مشايخ بعد تحريرهم من الرق، وقد ظهرت لهم كرامات كثيرة وكانوا أئمة للطريق وأضرحتهم بالقرب من قبر أحمد البجم، وبالجامع الكبير أضرحة كلا من الشيخ السيد أحمد العريان والشيخ السيد أبو الفتوح والشيخ على برجانى والشيخ السيد خليفة والشيخ السيد أحمد الحسينى رحمة الله عليهم أجمعين، وقد تجولنا فى تلك المدينة، ثم ودعنا كل الأحباء، وسرنا فى صحراء مستوية حتى وصلنا إلى المدينة القديمة مدينة نهاريّة.

أوصاف مدينة نهاريـة

كانت لمصر ملكة تدعى دلوكه، حكمت مصر قبل عشرين عامًا من فرعون موسى، أسست دلوكة هذه المدينة لروح والدها الملك ريباك ووقفتها له، وأسمتها مدينة ريباك، بعد ذلك تم فتح القُدس الشريف فى خلافة عمر، وجاء عشرون ألفًا من الصحابة الكرام إلى مدينة ريباك وحاصروها عشرين يومًا، ولكنهم هُزموا بأمر الله وقتل منهم سبعة آلاف شخص، بعد ذلك أرسل عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتح مصر والإسكندرية وريباك، وقدم عمرو بن العاص مع ثمانية آلاف جندى لفتح ريباك، وحاصر الجند المدينة وبعد سبعة أيام فتحها جند الإسلام، وقتلوا عشرين ألفًا من الكفار انتقامًا لروح الشهداء الذين قتلوا قبل ذلك، ولأن الدماء كانت تجرى مثل النهر أطلق على المدينة اسم نهاريّة.

وفى رواية أخرى: أن يوم فتحها كان يوافق يوم النحر بعيد الأضحى فأطلقوا عليها نحرارية، ونهارية ينطق غلط من لفظ نحرارية.

وفى رواية ثالثة: أن الحاكم بأمر الله أحد خلفاء بنى العباس تجول بمدن مصر كلها حتى وصل إلى مدينة ريباك، وأصدر فرمانًا بأن يكون الليل نهارًا والنهار ليلاً. وأنه لو خرج شخص من داره بالنهار سوف يشق بطنه، وامتثل كل أهل مصر لذلك امتثالاً لمعنى حديث شريف مفاده: «وجوب طاعة ولى الأمر أو من ينوب عنه من الأمراء ولو كان عبدًا حبشيًا مجدعًا»[1] فكان الأهالى لا يخرجون من منازلهم بالنهار، وعندما يحل المساء يكون بمثابة الصباح لهم، يخرج الجميع ويوقدون الفوانيس والقناديل ويبيعون ويشترون على أضوائها، وظل هذا الحال عدة أيام فى مدينة ريباك، لهذا أُطلق عليها نهارية، وهى كشوفية فى أراضى المنوفية تتبع كاشف منوف، وتُخرج سنويًا أربعين كيسًا من المال وقضاءها مائة وخمسون أقچه وبها (   )[2] قرية يخرج منها سنويًا ثلاثة أكياس، كان قضاءها ذا درجة عالية بين القضاء، حيث كانت مدينة عظيمة فى صحراء مستوية على ضفاف إحدى الترع التى انفصلت عن النيل المبارك، وتوجد حاليًا آثار لآلاف المبانى التى كانت موجودة بها، إلا أن المدينة هجرت بمرور الأيام حتى هجرها كل الأهالى وانتقلوا إلى مدينة الأبيار، لذا عُمرت مدينة الأبيار ولحق الخراب بمدينة النهارية منذ خمسين عامًا تقريبًا، وانهارت مدارسها وجوامعها وحدائقها، ولم يتبقى بالمدينة سوى سبعمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب، وتبدو المدينة وكأنها كبيرة إلا

---

(١) أخرجه مسلم من طرق عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أحدها فى كتاب الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار، حديث رقم (١٤٤٠). وباقى طرقه فى كتاب المغازى حديث رقم (٤٦٧٣ ـ ٤٦٧٥)، باب وجود طاعة الأمراء فى غير معصية ولفظه: «أوصانى خليلى (يعنى النبى ﷺ) أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا حبشيًا مجدع الأطراف». ورواه من حديث أم الحصين حديث (٤٦٧٦ ـ ٤٦٨٠).
انظر: صحيح مسلم بشرح النووى (٦/٢٦١ ـ ٢٦٣) ط. دار الغد العربى.

(٢) بياض فى الأصل.

أنها خربة، وبها أطلال كثيرة، ويوجد بها حاليًا تسعة محلات وأربعون محرابًا منها ثلاثة عشر مسجدًا جامعًا العديد منها معطل، فقد تعطلت بسبب ضمها للأوقاف الأميرية على يد الكاشفين، وسنذكر الآن الجوامع العامرة بها، أولاً: الجامع الكبير فى الجهة الشرقية للمدينة ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه سبعين خطوة وبناحية المحراب اثنان وثلاثون عمودًا مرمريًا وحول الصحن اثنان وخمسون عمودًا تحمل السقف، وهو سقف خال من الزينة، وسطح الجامع مغطى بالكلس، وبفنائه شجرتان من شجر السدر، وبوسط الفناء سبيل مياه، وفى الزاوية اليمنى للفناء المئذنة وهى من أربعة طوابق، وللجامع سبعة أبواب، ويتم النزول إلى الجامع من الباب الموجود فى الناحية اليمنى بواسطة سلم حجرى من سبع درجات، أما بقية الأبواب الأخرى فسلمها خمس درجات فقط، ومنبر الجامع من الخشب القديم، وعلى الحائط الموجود يسار المحراب لوحة مربعة مرمرية مكتوب عليها بالخط الجلى: (أمر ببناء هذا الجامع الشريف أبا بكر بن عبد الله العساكر المنصورة أعز الله أنصاره سنة سبع وستمائة) وبين المنبر والمحراب لوحة مربعة عليها كتابات لم نستطع قراءتها، ولكن عليها تاريخ سنة ثمانمائة وعلى الإطار العلوى للمنبر كتب ما يلى:

(أمر بتجديد هذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى فى شهر ذى القعدة سنة خمس وثمانين وستمائة).

وفى الناحية الشرقية للفناء ميقات شمسى على القبو فى غاية الجمال لا يستطيع أساتذة علم النجوم مثل بهرام وكوان وفيثاغورث وعلى قوشجى صنع ميقات مثله، إنه ميقات مشهور فى ديار مصر كلها، وهو مثل ربع الدائرة القطبية، محرر به القطر والميل، وقد كتب فوق هذا الميقات آية: ﴿ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥]، خلاصة الكلام إنه ميقات فى مرتبة السحر المبين، إن هذا الجامع جامع أنور يجاب فيه الدعاء.

وبالقرب من هذا الجامع جامع السيد ناصر الدين أبو العمايم، وجامع العجمى ويقع داخل السوق وهو جامع صغير وجامع الحنفى وهو جامع ذو مئذنة، وجامع سيد أحمد

السواح على ضفاف النيل ومئذنته فى وسط الفناء، وجامع الحاج منصور المغربى وهو جامع صغير، وما عدا تلك الجوامع مساجد، ولكن زاويتا الست رقية وبلال الحبشى فى غاية العمران، وبالمدينة وكالتان وسبيلان وثلاثة مكاتب للصبيان، وسبع مقاهى ومائتا دكان، وتنتشر مئات الدكاكين فى أيام المولد، وبالمدينة حمامان ولكنهما معطلان أيضًا.

وكل الأعمدة الحجرية الموجودة بالجوامع والمساجد والوكالات وأحجار العتبات من الأحجار تشبه المسلة الموجودة فى «آت ميدانى»[1] فى إستانبول، وكانت بالمدينة بعض العلامات الحجرية، إلا أن الظاهر منها الآن أساسها فقط، وعندما بنت الملكة دلوكة تلك المدينة قام الكهنة بعمل ثلاث مائة وست وستون طلسمًا بالمدينة، وقام الملك سوريد ببناء جسر عظيم على النيل أمام مدينة زياك، ولكنه هدم على يد بخت النصر وتظهر دعاماته عندما تنخفض المياه فى نهر النيل، وهى عشرين دعامة قوية بين كل دعامة وأخرى خمسين ذراعًا مكية[2] وقد تيسر للحقير رؤية تلك الدعامات ذات مرة، وتعبر السفن الذاهبة إلى رشيد من تلك الدعامات بحيطة وحذر، وهذه المدينة القديمة أبنية غريبة وعجيبة، كما تظهر تصاوير عجيبة وغريبة على الأحجار المختلفة على الحوائط، وطرقها على هيئة لوحة الشطرنج لأنها بُنيت على علوم الحكماء فى الزمن القديم، ولوقوع المدينة على نهر النيل فإن هواءها لطيف للغاية وبها قرى عامرة.

وحول المدينة سبعة آلاف فدان يتم زرعها، ونظرًا لهجرة الأهالى للمدينة فإن النسبة انخفضت حتى وصلت إلى ألفى فدان فقط يحصل منها خمسون كيسًا مصريًا وبقية الأراضى الأخرى خاوية، ويقام المولد بالمدينة مرة كل عام ويكون عشرة أيام بلياليها، يتجمع به رجال كثيرون، يبيعون ويشترون ليلاً نهارًا، حيث يُعمّر كل ركن من أركان

---

(١) اسم ميدان أمام مسجد السلطان أحمد كان الرومان البيزنطيون يستخدمونه ميدانًا لسباق الخيل، عمره بعد خراب السلطان محمد الفاتح وأصبح ميدانًا لسباق الخيل ومباريات أخرى، وكان الإنكشارية يحتشدون فيه معلنين الثورة. وفى القرن التاسع سُمّى بـ «ميدان السلطان أحمد».

(٢) الذراع المكى ـ ويقال الهاشمية ـ مقياس، طوله ٦٤ سنتيمترًا.

المدينة فى تلك الأيام، وتصطف الحوانيت على الطرقات، وتشتهر النهارية بكتانها الذى يفوق كتان الفيوم، لذا فالقماش هناك رقيق للغاية، ولهم خبز أبيض خاص بهم وعندهم نوعٌ من السمك يسمى شليه، كما توجد مصانع النشادر على ضفاف النيل فى مدينة النهارية، والنشادر التى تصنع هناك نظيفة خالية من الأوساخ والشوائب، ومن العجائب الموجودة بتلك المدينة أيضًا تلك الترعة التى قامت الملكة دلوكه بحفرها من أمام قرية الفرزدق وهى خاصة بنقباء الأشراف، وهى ترعة شقت من النيل تمر من أمام قرية النهارية، والعجيب فى تلك الترعة أنها حفرت بشكل يجعلها تجرى ناحية الجنوب بالرغم من أن النيل المبارك يجرى صوب الشمال حتى يصب فى البحر الأبيض عند رشيد، وتمر تلك الترعة من مدينة النهارية ثم مدينة الأبيار ثم محلة المرحوم وتنتهى فى بلد شيب، وإذا ما فاض النيل فإن المياه تزيد بها وتجرى نحو الجنوب حتى تصب فى نيل دمياط، أما فى الأوقات العادية فتزيد المياه بها وتقل على حسب المد والجزر، ويقولون هناك أن المياه موجودة بها بصفة مستمرة ولا تجف خمسة أو ستة أشهر مثل بقية الترع الأخرى وذلك لأن الملكة دلوكه دفنت طلسمًا أمام النهارية، ويجرى النيل على عكس تياره من تأثير هذا الطلسم، وهى على هذه الحال إلى ما شاء الله.

أوصاف مزار الأولياء بمدينة النهارية

أولاً الموجودون وسط المدينة: ضريح الشيخ محمد بن زين وهو ضريح ذو قبة منخفضة فى أحد أركان فناء جامعه، والضريح من الداخل لا توجد به زينات وزخارف كثيرة، والجامع أيضًا جامع صغير، ولكن المصلين به كثير، وبابه يطل على ناحية الشرق، وله مئذنة بيضاء ذات طابق واحد، وقبة الضريح مكسوة بالكلس الأبيض، ولهذا الشيخ مناقب مشهورة عند العرب والعجم إحدى تلك المناقب ما يلى؛ عندما أراد الشيخ محمد بن زين التوجه لأداء فريضة الحج، قال بعض خلفائه: فى أى يوم ستخرج إلى الحج؟ وكم ناقة تحتاج يا مولانا؟ فقال لهم أنا يمكننى أن أحضر ناقة، أما

أنتم فدبروا حالكم، وفى الصباح جاء أعرابى بناقة بيضاء جميلة إلى الشيخ وأعطاها له وقام الشيخ بتوديع الحضور فى المجلس وبينما كان الشيخ منشغلاً بالذكر بقوله يا حى يا قيوم يا قوى يا متين أخذته الناقة على ظهرها وهرولت به كريح الصبا حتى خرجت من المدينة، فتعجب المريدون من هذه الحال وأسرعوا خلف الناقة يبحثون عنها، وقد وجدوا الشيخ يؤدى صلاة الظهر والناقة باركة بجواره، وبعد الصلاة أرسل كل أحبائه إلى المدينة أما هو فجلس يذكر الله مع سبعة من الرجال، ثم ركب الناقة وعزم على المسير وعندما رأى كل الحجاج هذا تحيروا، حقًا إنه سلطان صاحب قوة خارقة.

وقد قطع هذا الشيخ المراحل وطوى المنازل حتى وصل المدينة المنورة فى أربعين يومًا، وسارت به الناقة إلى باب السلام، فقام الشيخ بتقبيل ضريح حضرة صاحب الرسالة ومسح وجهه بالروضة المطهرة، ثم قال الرجل وهو يقف أمام روضة النبى ﷺ : (يا رسول الله لقد أحضرت لك جملاً هدية وأتمنى أن تقبلها منى) وعلى الفور ظهر صدى من داخل القبر الشريف يقول: (يا محمد بن زين لقد قبلها الله أيضًا وشفاعتى لك، يا ابن زين إن ناقتك التى أحضرتها قد ماتت الآن لا تطعمها ولا تسقيها امتطيها واذهب إلى مكة وعرفات والمروة وبعد أربعين يوم سوف تذهب بك إلى النهارية لتدفنها هناك)، وعندما استمع ابن زين لهذا الصدى من القبر الشريف حمد الله وقال لقد قُبلت هديتى، وعندما خرج وجد الدراويش الموجودين بجوار الصفة يصرخون ماتت الناقة، فقال الشيخ محمد أيتها الناقة لقد سرت بى وأنت حية وسوف تسيرين بى وأنت ميتة بإذن الله، فركب الناقة الميتة قائلاً باسم الله وقال: (يا جمل قم بإذن الله) فنهض الجمل على قدميه وسار وهو ميت وذهب فى عشرة أيام إلى مكة وعرفات وأدى الشيخ الحج، وقطع المنازل وطوى المراحل، وفى اليوم الأربعين وصل إلى مدينة النهارية وهناك سكنت الناقة عن الحركة، فقام الشيخ بتغسيلها بيده المباركة ودفنها ثم أُنشئت بعد ذلك قُبة عليها أطلق عليها قبة ناقة الله ويزورها كثير من الناس، وقد شوهد ذلك كثير وشهد الذين ذهبوا إلى هناك بأنهم يسمعون ضجيج الإبل يخرج من القبر، وفى تلك السنة توفى الشيخ ليحشر تحت لواء صاحب الرسالة قُدّس سره العزيز.

وهذه المناقب قريبة العهد وأحمد الله أن الحقير تسنى له زيارة الضريح ومسح وجهه به وقرأ الختمة الشريفة هناك مرتين ووهب ثوابها لروح الشيخ، وقد رجوت شفاعته.

وضريح الشيخ السيد حسن القصرى بالقرب من جامع عطية البيه، وفى قبالته ضريح الشيخ حسين وهو فى زاوية صغيرة، وفى ضريح صغير يبعد عن قبلة باب الجامع بمائة خطوة قبر الشيخ إبراهيم قرانجة وفى مقابلته ضريح الشيخ ناصر الدين أبو العمايم، وهو مدفون بجانب جامعه الذى يشبه حدائق إرم، والضريح مزار للعام والخاص، وقد مُدحت أوصافه فى طبقات الشعراوى، قُدّس سره، وقبر الشيخ سيد على وحيش وهو مدفون فى ضريح صغير داخل جامع صغير يقع بالسوق.

ضريح الشيخ حسين العجمى، وفد هذا الشيخ مع ابنه إلى محلة المرحوم من ديار العجم وهو سلطان عظيم، وقبر الشيخ عثمان الحنفى بفناء جامعه على ضفاف النيل وهو ضريح صغير داخل الجامع، وبالقرب منه ضريح الشيخ بلال الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وهو ليس بلالاً الحبشى، فبلال الحبشى مدفون بالشام عند باب النعجة، أما بلال الأنصارى فهو مدفون بزاوية صغيرة بمدينة النهارية، ثم ضريح الست رقية ويقع فى زاويتها، وأكثر زواره من النساء، ثم ضريح الشيخ أحمد السواح وهو ضريح صغير فى الناحية اليسرى من جامعه.

ثانيًا: أما الأضرحة الموجودة خارج المدينة فهى: ضريح الشيخ نصر الدين أبو العلا، وهو شيخٌ كبير له مناقب فى طبقات الشعراوى وضريحه أبيض اللون يقع خارج المدينة فى ناحية القبلة وله جامع فخم مزين، وبالناحية الشمالية للمدينة ضريح الأولياء السبعة ويطلقون عليه مزار الأولياء السبعة لأن سبعة من الأولياء مدفونون به، وكلهم من نسل النبى يوسف، وعلى ضفاف النيل ضريح صغير للشيخ يوسف العجمى.

وعلى ضفاف الترعة الموجودة بمدينة النهارية على مقربة من المقهى ضريح على رفيعى وهو ضريح صغير وقد شاء المولى القدير أنه أثناء زيارة الحقير لهذا الضريح تهدم

جزء منه، وتم ترميمه على الفور بواسطة سبعة بنائين وعشرة عمال وعشرة قناطير من الجبس والكرج، ثم تلى الحقير ختمة شريفة فى ثلاث ليال بالضريح ووهب ثوابها لروح الشيخ ليتقبل الله، وبفناء الضريح شجرة سدر، ويعتقد التجار المغاربة الذين يأتون للنهارية لشراء الكتان فى الشيخ لأقصى درجة، ودائمًا ما يقومون بزيارته فلا يرون ضررًا فى رحلتهم، إنه سلطان عظيم.

ثم ضريح الشيخ عبد الله وهو ضريح صغير تحت شجرة سدر أمام باب وكالة الكاشف الواقعة على ضفاف النيل، وبالقرب منه ضريح الشيخ محمد الحجازى وهو خال الشيخ أحمد البدوى، سلطان عظيم من كبار الأولياء، وبمدينة النهارية آلاف الأضرحة لكبار الأولياء ولكن ما ذكرناه هو ما ذهبنا إليه فقط.

وركبنا مع رفقائنا القارب ومررنا ببلدة قلبية المقابلة لمدينة النهارية وهى بلدة عامرة بها مائة منزل على ضفاف النيل، وتقع تحت حكم عبد الرحمن أفندى أما قضاءها فثمانية أكياس، وبها جامع كبير بزاوية من زوايا فنائه ضريح الشيخ عبد السلام قلبيى وهو سلطان عظيم، وهو عم الشيخ محيى الدين بن العربى المدفون بالصالحية بالشام الشريف، أتى هذا الشيخ من المغرب ودفن فى هذه البلدة؛ وقد قمنا بزيارته وقرأنا القرآن عنده، وبالقرب من ضريح الشيخ السيد عبد الواحد، ضريح صغير فى فناء الجامع الذى أنشأه الشيخ عبد الواحد من ماله الخاص، ثم عدنا بالمركب إلى الناحية الأخرى من النهارية.

فى بيان مولد النهارية

يجتمع فى هذا المولد خلق كثير مثل مولد الشيخ أحمد البدوى؛ إلا أنه لا يضاهى ذلك التجمع الموجود بمدينة طنطا، ويوجد به كل العاشقين والصادقين ويجتمع التجار والزوار وأهل الصناعات والحِرف فى هذا المولد بخيامهم الكبيرة والصغيرة، وينصب التجار والصناع الخيام كحوانيت لهم، ولا شك فى أن وجود تلك الحوانيت فى مدينة النهارية ينعشها، وفى أيام هذا المولد تنشر أيضًا مئات الخيام والحوانيت والمقاهى على ضفاف النيل تحت ظلال الأشجار حيث يبيعون ويشترون لمدة عشرة أيام بلياليها، ولكون

هذا المولد على ضفاف النيل، فإن كل زواره وتجاره يأتون بالمراكب ويشكلون جمعًا غفيرًا يعجز اللسان عن وصفه، وفى اليوم العاشر اعتزم كاشف منوف العودة إلى مصر مع جنوده ودقت طبول العودة أما كل الزوار والتجار فقد عزموا على التوجه إلى مولد إبراهيم الدسوقى.

وقد ركب الحقير زورقًا مع مجموعة من خدمه، وسرنا أربعين ميلاً فى ترعة النهارية وشاهدنا على جانبى الترعة مئات القرى العامرة ذات حدائق النخيل والورود، ثم دخلنا نهر النيل الرئيسى من عند نهاية تلك الترعة عند بلدة الفرزدق، وقد شقت الملكة دلوكه ترعة النهارية من هذا المكان وبذلك جلبت الملكة مياه النيل إلى النهارية.

تقع بلدة الفرزدق فى أراضى الغربية بها مائتا منزل وجامع، وهى قرية نقيب أشراف مصر برهان الدين أفندى، عبرنا بلدة الفرصدق وسرنا نحو ثلاثين ميلاً فوصلنا إلى قصبة محلة صا ويطلقونا فى تلك النواحى محلة على القصبة، ومحلة صا تقع فى أراضى البحيرة بها مائتا منزل وجامع جديد بمئذنة وزاوية وعشرة دكاكين ومقهى، ودار للضيافة ويقيم الملتزم والأمين فى تلك الدار ويطلقون عليها المسافر خانه، ويقوم كل الأهالى هناك بتقديم بعض محاصيلهم ليتناول منها الضيوف والمسافرون، إنها خيرات عجيبة وقد أقام الحقير ليلة فى هذه الدار.

وفى الصباح ركبنا المراكب وسرنا نحو عشرين ميلاً فوصلنا إلى محلة أبو على وتقع على النيل فى أراضى الغربية ملتزمها هو عمر الجوربجى وهى قصبة عامرة يُحصل منها سبعة أكياس مصرية، قضاءها مائة وخمسون أقچه ويتبعها خمسة وأربعون قرية آهلة يحصل لقاضيها كل سنة ثلاثة أكياس، وهذه القصبة قصبة لطيفة وعامرة على ضفاف النيل تمتد من الشرق إلى الغرب، وبها ثمانمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب وهى للفلاحين، وبها تسعة محاريب من بينها جامعان؛ الأول منهما يقع بالقرب من المحكمة الواقعة على ضفاف النيل وهو جامع قديم به أربعون عمودًا من المرمر، وبفنائه شجرة سدر كبيرة مرتفعة جدًا تتدلى منها الأغصان، أما الجامع الصغير الموجود بالسوق فتقام به جماعات كثيرة، وما عدا تلك المحاريب فهى زوايا، وبالمحلة خمسون حانوتًا ودكان

وثلاثة أسبلة ومكتبان للصبيان ولا يوجد بها حمام، وبها دار لملتزمها عمر الجوربجى وهى مثل القصر المنيف، تمتلئ بالغرف والقاعات.

ومن هناك ركبنا الخيول وذهبنا إلى بلدة المجنون وهى بلدة عامرة على ضفاف النيل بها مائة منزل، فى التزام مصطفى أغا أغا الانكشارية فى مصر، عبرناها ثم اتجهنا ناحية الغرب فى أراضى الغربية، فوصلنا إلى قصبة إبراهيم الدسوقى.

أوصاف قصبة إبراهيم الدسوقى

سُميت هذه القصبة على اسم الشيخ إبراهيم الدسوقى لأنه كان يقيم بها، وهى من أراضى الغربية وتبعد عن النيل بمقدار خمسمائة خطوة، ملتزمها هو قيطاس أغا الشركسى وهى قصبة عامرة بها خمسمائة منزل وبها دار ضيافة ويحكمها شيخ العرب، ويمتلك ألف جواد ويوجد مشايخ من أبناء الشيخ الدسوقى الآن فى تكية الدسوقى، بها حدائق وبساتين كثيرة وستة جوامع وجامع من آثار السلطان قايتباى من سلاطين مصر يبلغ طول هذا الجامع من باب القبلة حتى المحراب مائة وعشرون خطوة، وعرضه مائة وثلاثون خطوة وبالجامع خمسون عمودًا مرمريًا تحمل الكمرات التى تحمل السقف، وهو سقف خالٍ من الزينة، المنبر ومحفل المؤذن من الخشب أيضًا، والمحراب قديم خالٍ من الزينة، نقش فوقه بالخط الجلى عبارة: (أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف السلطان قايتباى عز نصره).

والغرفة الموجودة أمام المحراب مدفون بها كبار الأولياء، ودائمًا ما يسطع منها النور، وللجامع أربعة أبواب اثنان منهما يطلان على القبلة والآخران يطلان على ناحية الغرب واحد منها باب للعمارة والثانى باب الميضأة، أما الباب الصغير المكشوف على حوض الشافعى فهو باب صغير ويدخل منه من يريدون تجديد الوضوء، والمكان من منتصف الجامع وحتى المحراب مرتفع يصعد إليه من مكانين بواسطة سلالم حجرية ترتفع لِستِّ خطوات، وعند الباب الموجود فى الناحية اليسرى من البابين المطلين على القبلة توجد مئذنة موزونة غاية فى الجمال صُنعت بدقة ومهارة تجعلها لا يوجد مثلها فى مصر وبقية

الديار الأخرى، ترتفع هذه المئذنة لمائة وخمسة أقدام وهى ثلاثة طوابق، إنها مئذنة تثير العجب، وأسفلها باب يتم الدخول منه إلى ضريح قطب الأقطاب الشيخ إبراهيم الدسوقى قُدّس سره العزيز حيث يرقد فى هذا الضريح مستغرقًا فى نور الله مرشد الناس السلطان العارف بالله الشيخ إبراهيم الدسوقى، ولم تكن قبة الشيخ إبراهيم الدسوقى مزينة بنفس الزينة الموجودة فى ضريح السيد أحمد البدوى وتوجد بعض المعلقات فقط بالضريح من الداخل لم يكن بها تكلف.

على أية حال لم يكن لضريح إبراهيم الدسوقى هذا الحظ من الزينة، وعلى الجوانب الأربعة للضريح مجموعة من القناديل ومئات الشموع والأعلام البرهانية، أما أرضية الضريح فهى أرضية من المرمر ليست مفروشة، ويطل باب الضريح على ناحية الشمال ويدخل منه الزوار إلى الضريح ويؤدون ركعتين بجوار المحراب ثم يذهبون، وبوسط تلك القبة قفص خشبى بداخله صندوق الضريح وهو مغطى بالصوف الأخضر كما توجد عمامة خضراء عند رأسه فهو حسيب النسب من العرق الطاهر والسادات الكرام، كان الشيخ إبراهيم الدسوقى معاصراً للبدوى وهم أبناء عمومة والبدوى كان من الدراويش الأميين، أما إبراهيم الدسوقى فكان سلطانًا مصنفًا مؤلفًا وله الآن مئات المجلدات والمؤلفات كلها كتب قيمة عن العلم اللدنى، وله أشعار بليغة وفصيحة وهى أبيات فى التصوف تقرأ بين المتصوفة، وله مئات الكرامات والمناقب المذكورة فى بعض مناقب الأولياء وطبقات الشعراوى، لم يشتغل الدسوقى باللهو واللعب مع الصبيان فى زمن صباه فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار وأصبح صاحب سجادة لآلاف المشايخ وأرشد آلاف الرجال، ولا يستمع أى شخص تارك للصلاة أو شارب للخمر من أهل الهوى إلى أبيات الشيخ الدسوقى إلا ويتوب على الفور ويصبح من أهل السلوك، وقبة ضريح الدسوقى مغطاة بالكلس الأبيض يعلوها علم كبير من النحاس الأخضر، لو حدثت أى مصيبة كبرى أو مات أى سلطان فإن هذا العلم النحاس الأخضر يميل ناحية الشرق أو الغرب من ناحية القبلة وبذلك يعلم جميع طوائف العربان الموجودين هناك أنه

قد حدثت مصيبة بتلك الديار التى مال العلم ناحيتها لذا يقول طائفة العربان وهم يصيحون يا دسوقى يا مولى النحاس.

وفى اليوم الذى استشهد فيه السلطان إبراهيم فى الروم مال هذا العلم نحو الغرب ولا يستطيع أحد أن يضع يده على هذا العلم، ودوران هذا العلم هكذا كرامة، وتلك كرامة أخرى حدثت فى ضريح الدسوقى عندما كان الحقير يقوم بزيارة إبراهيم الدسوقى رأى رجلاً يصيح داخل الضريح، إنه رجل من حجاج الروم وضع ألف عملة ذهبية فى حافظته وذهب لزيارة إبراهيم الدسوقى وبينما هو فى هذا الخضم العجيب من البشر قام لص محترف بسرقة الألف عملة ذهبية منه فصاح الرجل يا دسوقى هل هذا يليق بك؟ لقد زرتك وقلت فى نفسى: ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولكن سرقت منى أموالى الذهبية التى أنوى الذهاب بها إلى الحج الشريف، سُرقت منى على أعتابك هل هذا يصح؟ والله سأشتكى منك لله، وعلى الفور تجمع الناس عند باب الضريح حيث كان هناك رجل يرتدى عباءة سوداء وعيونه مكحلة ويمسك فى يده المسبحة، كان الرجل قد أصابته نوبة صرع سقط فى الضريح لا يستطيع التحرك ولكن لسان حاله كان يشير على بنطاله، حاول أحد خدام الضريح وأحد خدام الحقير إخراج جسد الرجل من الضريح ولكنهم لم يستطيعوا ذلك واستخرجوا من جيب بنطاله الألف قطعة ذهبية وردوها لصاحبها، فصعد الرجل على الفور إلى حرم الجامع وأعطى لكل حافظ من الحفاظ العشرة عملة ذهبية وذلك ليقرأوا ختمة شريفة لروح إبراهيم الدسوقى، كما تصدق بمائة عملة ذهبية على الفقراء الموجودين فى حرم الجامع، أما اللص فقد قضى ليلته فى فناء الجامع وهو جريح فقام بعض المشايخ بقراءة حزب البحر وبعض التعازيم عليه حتى شفى إلا أن يديه كانتا فى حكم المشلولتين وذهب الرجل على ذلك، وقد رأينا هذا الشخص فى الإسكندرية عندما ذهبنا إليها بعد ذلك فكانت يداه معوجتين.

خلاصة القول أن إبراهيم الدسوقى سلطان. وقد شاهد تلك الكرامة المارة الذكر مئات البشر عندما حدثت قُدّس سره العزيز.

وفى الناحية اليمنى لهذا الضريح يوجد لوح من المرمر عليه أثر قدم النبى ﷺ على أحد الحجارة، ومكان قدم النبى وضع ماء الورد يقوم كل الزوار بالأخذ منه ويمسحون به وجوههم ثم يقبلون الحجر الموجود عليه أثر قدم النبى ويطلبون الشفاعة وعند رأس الشيخ إبراهيم الدسوقى نقشت عبارة: (أمر بتجديد هذه الشبكة المباركة بهرام أغا ابن شيخ محمد) بالخط الجلى على لوحة مرمرية، وفى الناحية اليسرى لمحراب الضريح باب صغير يتم الدخول منه إلى حجرة صغيرة بها ضريح الشيخ سيد موسى بن الشيخ إبراهيم الدسوقى وليس بها أى زينة تذكر، بالإضافة إلى قبتين صغيرتين فى فناء الجامع، أما القبة الموجودة فى ناحية باب العمارة فمدفون بها بهرام أغا الذى قام بتعمير وترميم ضريح إبراهيم الدسوقى، والصفة الخارجية والسطح والقبة الموجودة على يسار هذه القبة مدفون بها حفيد إبراهيم الدسوقى وهو الشيخ عبد الله أبو الطيور ابن الشيخ موسى كان هذا الشيخ خليفة للدسوقى بعد وفاته.

وأبواب هذه القباب الصغيرة كلها مكشوفة ناحية الشمال، وبكل قبة منها نافذة أو نافذتان تطل على الحرم، وبعمارة هذه التكية أوعية كبيرة للغاية يوضع فى كل واحدة منها أيام المولد ثلاثة أو أربع من الجاموس أو عشر نعاج، ويطبخ فى أحد تلك الأوعية شوربة القمح كما يتم صنع عشرين ألف رغيف خبز وتقدم كل تلك الأطعمة للفقراء والمساكين ويقدم الطعام على هذا المنوال عشرة أيام بلياليها. أما فى الأوقات المعتادة فيتم طهى إناء واحد فقط من شوربة العدس والقمح وثلاثة آلاف رغيف وتقدم للفقراء والمساكين والطلاب، وذلك لأن غرف الطلاب والمريدين وهى تزيد على مائة غرفة تصطف على الجهات الأربعة حول فناء الجامع بها أناس يشتغلون بالعلم والطاعة والذكر وناظر تلك الأوقاف هو السيد يحيى من أبناء إبراهيم الدسوقى وابنه الشيخ سيد شريف الدين ودائمًا ما يقوم بالإنفاق على المريدين والمساكين ومنازل المذكورين تقع فى فناء الجامع.

وبتلك القصبة خانان وعشرة حوانيت ولا يوجد بها حمام أو مدرسة، وبها سبيل للمياه، بفناء الجامع، يشرب منه كل الزوار إنه ماء الحياة، عبارة عن صهريج مثل البحر

لا ينقص قطرة، والحوانيت المذكورة موقوفة على هذا السبيل وفى أيام المولد تُنصب آلاف الحوانيت والدكاكين من الخوص والغاب والكليم والخيام فى مكان المولد وبطول ساحل النيل ولا يعلم عدد تلك الحوانيت سوى الله حيث يأتى تجار الأقمشة من الهند واليمن ويستمر البيع والشراء عشرة أيام بلياليها، ويقدر هذا البيع والشراء بمئات الآلاف من القروش، وبخلاف الحوانيت فإن الطريق الرئيسى قد زين من على جانبيه بالمقاهى وبائعى الخبز وهو ما يضفى الجمال على الطريق بأكمله، وبكل مقهى من تلك المقاهى توجد الراقصات وأهل الغناء ومَنْ يعزف الرباب، كما تنتشر الأسواق فى فناء جامع إبرهيم الدسوقى وخارج الفناء وتباع فيها الأشياء القيمة.

وهذا المكان مكان جيد للبيع والشراء لأنه داخل المدينة ويزيد مولد إبراهيم الدسوقى على مولد البدوى بأنه يأتيه أناس كثيرون وذلك لوجود المدينة على ساحل النيل فيأتى الزوار فى ألفى مركب وسفينة وصندل وزورق من كل المناطق الواقعة على نهر النيل من الإسكندرية وحتى الصعيد وبذلك يجتمع أناس كثيرون فى مولد الدسوقى ويكون هذا الجمع كاليم، وترسو تلك السفن والمراكب على شاطئ النيل وقد تزين كل مركب منها بأربعين أو خمسين أو مائة أو مائتى راية وعلم كما يوجد بها آلاف القناديل، وبكل سفينة من السفن الجريم والعقبة الآلات والأسلحة، ويتم تجهيز المقاعد للضيوف القادمين، ويضاء كل ليلة مئات الآلاف من القناديل حتى وقت السحر وتطلق الأعيرة النارية والفشنك، وتدق الطبول فى كل النواحى، فتكون كل ليلة ونهار من تلك الأيام بمثابة عيد الأضحى.

كما يقوم أصحاب الخيام والحوانيت برش المياه أمام الخيام والحوانيت مما لا يسمح بوجود ذرة غبار واحدة، ويطيب النسيم فيحيى العاشقين، ويخرج العاشقون من المراكب والسفن وينتشرون على ضفاف النيل وينصبون خيامهم تحت أشجار النخيل ويطهون الأطعمة النفيسة، ويعيشون على ذلك ليلاً ونهاراً ويصبح مجلسهم مثل مجلس حسين بيقارا بسبب المطربين والعازفين ففى كل ناحية وزاوية تجد جماعة تجلس مع

بعضها يتسامرون أحيانًا ويذكرون تارة أخرى وبالرغم من ذلك يكون عدد الخيام فى مولد أحمد البدوى أكبر من عدد الخيام فى مولد إبراهيم الدسوقى، وذلك لأن حوالى أربعين أو خمسين ألف من الفلاحين والملاحين يرقدون فى السفن والمراكب، أما بالنسبة لعدد الرجال فمولد الدسوقى أكبر من حيث العدد والجمع به يكون مثل البحر، حيث يختلط الكتف بالكتف من شدة الزحام وتأتى السفن من كل البلدان بالطعام والشراب، وينصب مشايخ الطرق خيامهم فى أحد أطراف تلك المدينة على المراعى والأراضى الخضراء وينشغلون بالذكر فى كل ليلة حتى الصباح، ويصل صدى ذكرهم إلى عنان السماء.

وفرقة أخرى تركب السفن ليلاً وتصل حتى محلة أبو على ويطلقون الأعيرة النارية والفشنك وهم يهتفون باسم السلطان محمد خان، ويدقون الطبول ويسيرون مع النيل ثم يأتون إلى مركزهم ويستقرون به، أما طائفة العربان فإنهم يصفقون ويقولون: (الله ينصر السلطان) وتصبح خيامهم وأسواقهم بذلك أشبه بضجيج الهند كما يبقى فى كل سفينة ومركب ألفى رجل يقومون بالدعاء بالخير للسلطان وكل سفن المشايخ فى مولد الدسوقى مثل سفن المشايخ فى مولد البدوى أربع طبقات.

وفى اليوم الثامن من مولد الدسوقى وهو يوم الأربعاء ينادى الدلالون فى قصبة دمنهور بولاية البحيرة بالمولد الشريف فيذهب موكب عظيم به سبعمائة من المشايخ وعشرين ألف من الدراويش والمريدين بالكسوة الشريفة الخاصة بالشيخ الدسوقى ويضعونها على صندوق ضريحه وفى يوم الجمعة يخرج الموكب العظيم على دقات الطبول والتوحيد بوضع الكسوة على ضريح الشيخ إبراهيم الدسوقى، ويكون بهذا الموكب سبعمائة من المشايخ وأربعين ألف مريد ودرويش من مريدى الطرق البرهانية والرفاعية والجيلانية ويقومون بتجديد الكسوة على الضريح ثم يدعون للسلطان وكل سلاطين آل عثمان ولأصحاب الخيرات بالخير.

وفى ذلك اليوم يؤدى كاشف الغربية خدمة أيضًا، حيث يذهب كل الزوار والتجار

إلى أوطانهم بعد انتهاء المولد، وتفترق كل الجماعات عن بعضها البعض ويصبح ميدان دسوق وهو يضطرب بين ساعة وأخرى ولكن يبقى من هذا الجمع الغفير سبعمائة شيخ من الخلفاء، وبعد رحيل كل الزوار وانتهاء الضوضاء وسكون المكان، يذهب هؤلاء المشايخ ليلة السبت إلى جامع إبراهيم الدسوقى ويجتمع الصلحاء والمشايخ والدراويش فيكون المولد الشريف فى تلك الليلة المباركة ويحرقون العود والعنبر والبخور، وينثرون ماء الورد فى تكية الدسوقى، ويتناولون الأرز باللبن والسكر ويشربون المشروبات الممزوجة بالمسك، وهذه العادة من كل حسنات سيد مصطفى أغا مندلى زاده فى رشيد، ويقوم كل المريدين بإحياء تلك الليلة حتى الصباح فيختم مئات حفاظ القرآن الكريم ويجلسون جماعات جماعات يذكرون الله بذكر لا يخص أى طريقة، وبهذا التجمع روحانية وأسرار شوق لا يشعر بها سوى العاشقين فقط ولو استمع أى جاحد أو صاحب قلب متحجر لهذا الذكر فإنه سيتوب على الفور، إنه الطريق البرهانى وهو مشهور بين طرق أهل التوحيد.

ولا يستطيع أى مريد من أى طريق آخر القيام بهذا التوحيد الخاص بالطريق البرهانى، ويتحمله فقط القادرى والمطاوعى، وتعد تلك الليلة بمثابة ليلة الإسراء، بعد ذلك وفى صباح اليوم التالى يقومون بزيارة الوداع، ويستأذن كل المريدين من الخليفة وبذلك لا يبقى شخص واحد فى ميدان دسوق، حيث يركب كل المشايخ المراكب ويذهبون إلى ديارهم، وقد أدى الحقير زيارة الوداع هذه وختم القرآن وأهدى ثوابه لروح الدسوقى وطلب منه الشفاعة ليتقبل الله، ثم قبلنا يد الشيخ شرف الدين وسرنا لمسافة ثلاثة أميال فى نهر النيل فوصلنا إلى بلد مرقاص وهى فى أراضى البحيرة على ساحل النيل وهى عبارة عن قرية عامرة بها مائة منزل وحدائق النخيل، وينزل كل المشايخ فى تلك القرية حيث يحتفلون بمولد الشيخ أبو المجد بن الشيخ إبراهيم الدسوقى وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع فى حديقة نخيل وورود بجوار الجامع الكبير الموجود بالقرية حيث يحتفلون به ليلة واحدة، وللشيخ أبو المجد مئات المناقب والكرامات منها أنه أدى الحج ماشيًا سبعين مرة.

توفى عام (   )[1] أما الشيـخ إبراهيم الدسوقى فـقد ولد عام (   )[2] ومدة عمره (   )[3] وتوفى فى عهد (   )[4]، ويجتمع فى تكية الشيخ أبو المجد آلاف العاشقين الصادقين العارفين ويتسامرون يومًا ولـيلة، يقرأون فيها المولد، وتتلى فى تلك الليلة مئات الختمات الشريفة، ثم يركب الجميع المراكب، ويذهبون إلى بلادهم وقد قام الحقير بتوديع الشيـخ الشناوى والشيخ شرف الدين وحصل منهـم على الدعوات بالخير وركب المركب وأبـحر فى النيل حـتى وصلنا إلى بلـد الرحمانية المـقابلة لمدينـة إبراهيم الدسوقى وتقع بلدة الرحمانية فى أراضى البـحيرة وهى فى التزام قيطاس أغا الشركسى وهى قرية عامرة بها خمسمائة منزل وستة حوانيت وثلاثة جوامع ومئذنة واحدة ومصنع سكر وستة مقاهٍ ودار الضيافة بها عامرة للغاية وكأنها القصر العالى المنيف، وتشتهر تلك القرية بمزارع قصب السكر ويتحصل للملتـزم منها سنويًا من محصول السكر والمحاصيل الأخرى عشرة أكياس، وأحد الجوامع الثلاثة المذكـورة من بناء الـسيد نفيس ويوجد أمام محراب الجامع أربـعة أضرحة مدفون بها أربعـة من أبناء الشيخ سيد نـفيس وهم الابن الأكبر الشيخ سيـد محمد يليه الشيخ سيد سـليمان يليه الشيخ سيد مـحمود وكلهم من السادة الكرام وبخلاف تلك الأضرحة توجد أضرحة أخرى لكننا لا نعلم لمن كانت تلك الأضرحة وكلهـم خلفاء للطريقة الـبرهانية، والجامع جديـد وعامر قبته مطلـية بالكلس الأبيض وبه مئذنة وعلى منبره آية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] وقد قرأ الحقير فى هذا الجامع خـتمة شريفة لروح كل واحد من المدفونين فى هذا الجامـع، ثم ذهبنا إلى قصـر قيطاس أغا وركبنا الخـيول الكحيلانيـة مع حضرة الشيخ الـشناوى وسرنا على دقـات الطبول والدفوف إلـى مدينة دمنهور لحـضور مولد الشيخ أبو الريش.

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

المنازل التى مررنا بها فى طريقنا إلى دمنهور

عبرنا غربًا من بلدة الرحمانية حتى وصلنا إلى بلدة الداودية وهى قرية عامرة بها مائة منزل وجامع وبها ضريح الشيخ عطا الله السنهورى وهو بين الأشجار على الطريق العام وقد قرأنا الفاتحة لروحه ثم سرنا ناحية الغرب فى صحراء كبيرة فوصلنا إلى بلدة السنهورية وهى قرية تقع فى أراضى البحيرة فى وسط الصحراء بها ثلاثمائة وعشر منازل وجامع على هضبة مرتفعة ثم سرنا غربًا فى الصحراء على ضفاف ترعة الملك الأشرف فوصلنا إلى دمنهور.

أوصاف المدينة القديمة دمنهور

يطلقون عليها خطأ دمنهور من كلمة دم نهور وسبب تسميتها بهذا الاسم أنه عندما فتح عمرو بن العاص مصر فى عهد عمر بن الخطاب وبعدها بسبع سنوات أرسل عمرو ثلاثة آلاف جندى للبحيرة لتأمين مسيرة الحجاج المغاربة فقام الملك قوطيس القبطى أخو الملك المقوقس بحصار البحيرة ودارت الحرب بينه وبين جند المسلمين لمدة سبعة أيام صارت الدماء فيها مثل الأنهار فأطلق عليها بعد الفتح دم نهور وأصبح يقال عليها خطأ دمنهور، ولا توجد حكومة تملك إيالات كثيرة أكثر من دمنهور فى أقاليم مصر فتمتد حدودها حتى الجنوب إلى الصعيد وإلى طرابلس وإلى الجبل الأخضر وإلى الواحات ويلزم لها كاشفون ذوى جرأة وشجاعة يعملون على الضبط والربط لشتى صنوف الأهالى الموجودين فى تلك البقعة الواسعة.

ويحصل منها مائتى كيس وبها ثلاثمائة وستون قرية تابعة لها ولحاكمها خمسمائة جندى من الخيالة وخمسمائة مسلح بالبنادق وهذا أقل ما يكون بجانب حاكم إيالة دمنهور والسبب فى ذلك العربان العصاة الذين يأتون من الجبل الأخضر وهم قبائل الجندارى وهم يمتلكون عشرة آلاف جندى وقبائل بهجة ويمتلكون نفس العدد وقبائل البدو ولا يعلم عددهم إلا الله، وقبائل أولاد رجعيم ابن سيدنا سليمان وبها ثمانية آلاف بدوى، وقبائل بنى عون، وعندهم سبعة آلاف جندى وقبائل بنى نخمة وعددهم

ثلاثة آلاف، ويتصفون بالشجاعة، وقبائل الضعفا وهم ثلاثة آلاف رجل يقيمون فى أراضى البحيرة والفيوم حيث يتنقلون من مكان إلى مكان وهم قوم مطيعون، وقبائل أفراد وجوابى وربانسه وطرحونه طرفة وأولاد حسن ونداره وسمه لوس وطويلى وسعادى وجلامى وبنى قمامطة وبنى هداهد وعربان محاريب وعربان زرق وأولاد بنى وفا وهؤلاء وفدوا من المغرب واستقروا هناك وعندهم من الجند خمسة آلاف، وبخلاف هؤلاء يوجد مئات القبائل من العربان ولكن لاختلاطهم اكتفينا بذكر المذكورين فقط وهم عربان غرباء يحتاجون للغلال، وإذا ما جاء موسم الحصاد ينهبون الغلال بالرماح فينهبون القرى ويغيرون عليها ويأخذون ما فيها مجانًا، ثم بعد ذلك يذهبون إلى الصحارى التى يقيمون بها، لذا يجب أن يكون كاشف البحيرة حاكمًا ذا جرأة وشجاعة ومعه من الجند ما يكفيه، ولمدينة البحيرة محافظ على ألف جندى من جنود البلوكات السبعة لجند مصر وقائد للإنكشارية ورئيس لجنود العزب ونقيب للأشراف، ويوجد كاشف آخر تحت الكاشف الرئيسى للإيالة، أولاً كاشف روم بيه ويقيم فى مدينة حوش عيسى وكاشف طرانه وكاشف صيف درج وكاشف مجيلة وكاشف البحيرة المالحة، وقد استطاع أشقياء طرابلس الغرب أن يَغْصِبُوا الذهب بالقوة لمدة ستة وعشرين سنة.

وكل كاشف من الكاشفين المذكورين له خمسمائة أو ستمائة جندى وله راية وكلهم يمنحون الخلعة من كاشف إيالة البحيرة وليس من ديوان مصر، والحاصل أن كشوفية البحيرة عبارة عن حكومة لدى قضاء البحيرة ويحصل سنويًا ثلاثة آلاف قرش، حيث يوجد بقضاء البحيرة ثلاثمائة وست وستين قرية وستة نواحٍ هى نواحى طرانه والرحمانية وحوش بنى عيسى وصيف درج وناحية المدينة ومعظم أهالى تلك النواحى عصاة غير مطيعين، أما مدينة دمنهور فتقع على ضفاف ترعة الملك الأشرف فى وسط صحراء البحيرة على الناحية الشرقية لها وتبعد عن النيل بمقدار أربع ساعات وهى ناحية الرحمانية، أما الناحية الشمالية فتقع على ضفاف بحيرة مالحة يطلقون عليها ترعة الناصرية تبعد نصف ساعة عن النيل وعلى مسافة عشر ساعات بعد عبور عدة قرى عامرة توجد مدينة الإسكندرية، وطول مدينة دمنهور من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف

خطوة وبها خمسة آلاف وخمسمائة منزل مسقوفة بأسقف بنيت من الطين، كما توجد بها منازل للفقراء، وعشرين محلة وسبع وسبعين مصلى بالتفصيل على ما يلى: جامع الأمير عامر بمحلة المنيل الواقعة بالجهة الشرقية لدمنهور وهو جامع كبير وقديم وتقام به جماعات كثيرة وهو جامع فسيح يبلغ بالخطوة المتوسطة مائة خطوة بالتمام طولاً وعرضًا، وبه اثنان وثلاثون عمودًا من المرمر تحمل السقف المنقوش أما سطح الجامع فهو مغطى بالكلس، وللمسجد ثلاثة أبواب باب القبلة ويُنزل منه للجامع بواسطة أربع درجات سلمية والبابان الجانبيان أيضًا لكل باب منهم سلم يبلغ أربع درجات سلمية وتوجد مئذنة مربعة ذات ثلاث طوابق تقع خارج الجامع وهى بعيدة عن باب القبلة، وهى مئذنة مرتفعة بنيت بمهارة أظهر فيها صانعها مهارته وخبرته.

وبوسط فناء الجامع توجد شجرة سدر قديمة ولكنها تثمر نبقًا عجيبًا، ومحراب الجامع على الطراز القديم أما المنبر فهو من الخشب المحفور وعليه لوحة خطية وعلى باب المنبر توجد لوحة منقوش عليها بالخط الجلى المحفور على الخشب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم إنشاء هذا المنبر المبارك والجنابى العالى الأمراء الكبير عامر بن المرحوم الرابى إسماعيل بن عامر غفر الله والديه والمسلمين وكان الفراغ من هذا المكان سنة اثنين وسبعمائة).

وعلى الحائط الأيمن لهذا المنبر توجد لوحة بطول الحائط من المرمر الأبيض نقش عليها بالخط الجلى عبارة:

(تعمر هذا الجامع سنة أربع وخمسين وثمانمائة).

وعلى مقربة من هذا الجامع يوجد جامع صغير ذو مئذنة من طابق واحد هو جامع أبو السعود، وبالسوق جامع به عشرون عمودًا من المرمر يطلقون عليه جامع التوبة وجامع العرب، وهو جامع مزين من على حوائطه بالأحاديث النبوية المكتوبة على الحوائط بين المصابيح والمشاريق وله باب يطل على السوق ومئذنة موزونة ذات ثلاث طوابق، وله باب أيضًا على يسار المحراب وباب آخر للحرم أما محفل المؤذن فهو محفل فى غاية المهارة من حيث الصنع مرفوع على أربعة أعمدة مرمرية محيطة مقدار ذراع أى

أن العمود مثل الذراع لذا يخاف أى شخص يصعد إليه ومحراب الجامع قديم، على جانبيه عمودان مرمريان فى غاية الجمال، وبداخل المحراب نقش خطى بخط الثلث مكتوب على أرضية مرمرية وهو لآية قرآنية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

وأمام قصر الكاشف جامع المرحوم وهو جامع عتيق، وقد سمى بجامع المرحوم نظرًا لأن كل صلوات الجنازة تؤدى فيه، طوله وعرضه مائة خطوة، بديع البناء للغاية، وبه اثنين وثلاثين كمره تشبه الأعمدة تحمل السقف، وليس بالجامع قبة، وللجامع ثلاثة أبواب اثنان جانبيان وواحد للقبلة، وبوسط فناء الجامع شجرتى نخيل وشجرة سدر، تحت تلك الأشجار توجد صنابير على حجر أزرق يقوم أصحاب المذهب الحنفى بتجديد وضوئهم منها، ولهذا الحجر قصة وهى أنه كان قديمًا قبرًا لأحد ملوك القبط وعندما استولى العربان عليه ألقوا التابوت خارجًا واستخدموا مكانه كمرحاض (بيت خلاء) وعلى الجوانب الأربعة للحوض توجد نقوش خطية للكهنة القدامى وقد تجولت فى أقاليم مصر ثمانى سنوات ولم أرَ مثل تلك النقوش فى إسنا أو أسوان فهو حجر ملىء بالغرائب والعجائب، ويقول بعض أصحاب الحرف أنهم يعجنون هذا الحجر ويستخدمونه فى بعض الخزف والصناعات، ولا يوجد بهذا الجامع أى طلاءات بالكلس وليس له مئذنة.

وتوجد ثمانية أعمدة مرمرية على الجهة الجانبية على جانبى باب القبلة، أعمدة فى غاية الجمال لا يشبهها أعمدة، ولكن نظرًا لتوقف أوقاف الجامع فقد بقى الجامع معطلاً، وعلى منبره نقوش محفورة على الخشب نقوش عربية ونجوم وقطع القيشانى وأفرع نباتية، إنه منبر عجيب وغريب كاللوحة الفنية حتى أن بعض الرسامين سرقوا الصنعة منه، وعلى باب هذا المنبر لوحة بها نقش خطى مكتوب بالخط المحفور كتب بها عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين جدد هذا

الجامع المبارك العبد الحقير إلى الله تعالى الأمير الكبير الشريف عيسى بن الجناب العالى المرحوم المخدوم إسماعيل المرحوم الزينى أمير عامر عربان إقليم البحيرة أعز الله أنصاره ورحمه وكان الفراغ من ذلك فى شهر محرم الحرام سنة ٦٣ وسبعمائة بعد الهجرة النبوية).

وعلى مسافة خمسين خطوة من الناحية الشمالية لهذا الجامع جامع السلطان قايتباى ومرقوم عليه أنه جامع سيدى شعبان وهو جامع أنور له روحانية به جماعات كثيرة وله مئذنة ذات طبقة واحدة وبالجامع عشرة أعمدة مرمرية تحمل السقف المزين وعلى باب منبره الخشبى نقش خطى بالخط البنفسجى المذهب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك فى أيام مولانا السلطان مالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره فى شهر ذى الحجة الحرام سنة أربع وستين وثمانمائة بعد الهجرة).

وبالسوق جامع صغير هو جامع الشيخ أحمد الدواوى وبه مئذنة طويلة ذات ثلاث طوابق، وعلى مسافة سبعمائة خطوة خارج مدينة دمنهور من الناحية الشرقية جامع صغير ذو مئذنة منخفضة هو جامع أبو الريش وبفنائه شجرة سدر كبيرة وبالجبانة التى تقع خارج المدينة جامع العباس وبه مزار خالٍ ولكنه مزار للخاص والعام ويتم الآن بناء الجامع الجديد الذى أمر ببنائه أحمد أغا رئيس جنود العزب فى الميناء الواقع على ترعة الملك الأشرف وهو جامع صغير بنى بمهارة وإبداع ظاهرين وملحق به مئذنة مبهجة للقلوب اللهم يسر إتمامه بالخير.

وبمدينة دمنهور عشرة مآذن وهى العشر مساجد التى ذكرناها آنفًا، وباقى الجوامع الموجودة بالمدينة عبارة عن مساجد صغيرة، وبالمدينة سبع تكايا وأربعين مكتبًا للصبيان وأحد عشر سبيلاً وفى بعض زوايا المدينة توجد قباب لأسبلة صغيرة، وبالمدينة ثلاث مدارس وحمامان، أحدهما يقع فى فناء جامع المولى وهو حمام قديم وبناءه وهواءه لطيف أما الحمام الموجود بالسوق فهو حمام منخفض وهو حمام الشيخ أبو السعود وهو حمام صغير وبالمدينة ستمائة وثمانون حانوتًا وبها ثمان خانات وسبع مقاهٍ وسبعة

وأربعون مغـزلاً لنسيج الأقمشـة ومائتى حانوت لأعمال الـطلاء وسبعة مصانـع للطلاء أميرية.

هذا السـوق السلطانى مـغطى من أوله إلـى آخره من أعلى والـطريق العام بالمـدينة واسع، وكل منازلـها سواء كانت للفقـراء أو الأغنياء منازل عامرة ذات طـابقين، وكل مياهها من الآبار وبها نـسبة ملوحة وهناك مياه خاصة يستخدمونـها للشرب ويوجد بئر على طريق أبـو الريش يشرب منه أعيان وكبـار المدينة مياهه لذيذة وهـى عبارة عن ماء البرد وطقس المدينة ليس مرغوبًا فيه.

ولا يوجد بالمـدينة حدائق أو بسـاتين إلا أن أشجار النخيـل تحيط بجوانبـها الأربعة وتأتى معظـم فاكهة تلك المدينة من بـلدة صف درج وبالمدينة نوعٌ من الـعنب أجود من عنب الفيوم، ولأن أرض تلك المدينة مالحة إلى حد مـا فإن محصولها من القمح قليل، ولون بشرة الأهالـى هناك قمحية، ويتزاوج عربـان بهيجة وضارى من بعضـهم البعض وتتزيـن معظم الـنساء والفتـيات هناك بـالوشم الأزرق على أيـديهن وأذرعهـن وأيضًا بالكردان والخـلخال[١] الفضـى والذهبى وترتـدى النساء الأثـرياء هناك البـرقع الأسود ويرتدين الأقمصة الحريرية، ويرتدى الأعيان مـن الرجال الملابس الصوفية، أما فقراءهم فيرتدون الـفرجية[٢] المصريـة. والقماش فى دمـنهور من أكثر الـصناعات هنـاك شهرة خاصة الأزرق والأحمر الفاتح منه والكليم من أشـهر صناعات القماش فى دمنهور فهم يصنعـون كليمًا بطول أربـعين أو خمسين ذراعًا ويمكـن أن تستعمل أربعـين أو خمسين عامًا، كمـا تشتهر المدينـة بالزيت الحار أى زيت بـذر الكتان والخبز الأبيـض والباذنجان الكبير التى تبـلغ الواحدة منه مثل حجم رأس الإنسـان والملح والحـصير المتعدد الألوان، كما يوجد ببحيرة المدينة أنواع مختلفـة من الأسماك، وبقرية صفد أنواع كثيرة من الثمار والعنب الجيـد، والحاصـل أنها مدينـة كبيرة ولكن لـوجود اللصوص بها لا يسـتطيع

(١) الكردان: حُلى تزين الصدر وتلبس فى الرقبة كالقلائـد، والخلخال: تلبسه النساء فوق الكعبين وكلاهما مشهور معروف.

(٢) ثوب واسع من الصوف طويل الكمين.

الأهالى النوم فى راحة خشية اللصوص حيث يقوم الأهالى بحراسة المنازل ليلاً بالتناوب وهم مسلحون.

حتى أنه عندما كان الحقير هناك هجم اللصوص على منزل رئيس جنود العزب ودارت معركة كبيرة وسقط سبعة من اللصوص وفر الباقون ولكن بعد أن سرقت ناقة من النوق الموجودة بالفناء الخارجى للقصر، ويقوم مائتى غفير بحماية وحراسة المدينة كل ليلة حيث يحيطون بأطراف المدينة، ويجمع لهم سنويًا من الأهالى ألفى قرش، والحاصل أنه لو كان هناك حاكم شديد وجرىء فإن هؤلاء اللصوص لن يستطيعوا دخول المدينة، والسلام.

فى بيان الأولياء المدفونين داخل وخارج دمنهور

أولاً: بلدة الشيخ أبو الريش وتقع شرق مدينة دمنهور على مسافة سبعمائة خطوة، وبها مائتا منزل معظم ساكنوها من أبناء وأحفاد الشيخ أبو الريش وهم من السادات الكرام وبالبلدة جامع به منارة منخفضة ذات طبقة واحدة وبفنائه شجرة سدر كبيرة وفى فناء هذا الجامع دُفن بعض أعيان وأشراف البلدة وأحد أبواب الفناء يطل على القبلة والآخر يطل على جهة الشرق والجامع ليس مزينًا وكبيرًا إلا أن جماعته كثيرة لأنه لا يخلو من الزوار فى معظم الأوقات وبالناحية اليمنى للجامع يوجد ضريح متصل به وهو ضريح مقبب قبته متصلة بسطح الجامع مدفون فى هذا الضريح الشيخ القطب والغوث الأعظم على الإطلاق مرشد الطريقة وعين الشريعة الشيخ عطاء الله أبو الريش وهو من سلالة آل عباس قُدّس سره العزيز وهو مدفون فى هذا الضريح وجميع متعلقاته موجودة معه فى هذا الضريح أيضًا حول الفسقية، وقد وصل الحقير إلى هناك فى اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣هـ وكان يوافق يوم مولد الشيخ أبو الريش حيث ذهبنا عند الشيخ الشناوى إلى منزل صاحب السجادة الشيخ شمس الدين الدمنهورى وهو من أبناء الشيخ أبو الريش وكان شيخًا معمرًا يبلغ عمره ١٣٦سنة له وجه منير، فقمنا بتقبيل يديه ونلنا من دعواته بالخير.

والشيخ شمس الدين من الزهاد عاش تلك الفترة كلها يحافظ على صيام داود ولم يتناول خلال المائة وستة وثلاثين سنة أى لحوم قط ولم يأكل خبز القمح بل كان يزرع الشعير فى فدان أرض كان يمتلكه ويحصده بيده ويطحنه بيده على مطحنة يدوية ويأكل منه، كان من أهل الحال قضى عمره كله منزويًا فى ركن من أركان الوحدة منشغلاً بالتعبد والطاعة، وكان الشيخ شمس الدين يمنح كل شخص يأتى إليه رغيف خبز من الشعير تبركًا وتيمنًا وكان الرغيف الواحد بعشرين درهمًا، وعندما ذهب الحقير إليه أعطى له أربعة أرغفة فتناول الحقير واحدًا والشيخ الشناوى ثلاثة لبقية الحاضرين بالمجلس لكل شخص واحد أو اثنين، وقال الشيخ للحضور: يا إخوان إن لنا صلاة قضاء دين علينا لم نصلها منذ عهد طفولتنا، إن شاء الله غدًا وفى مولد جدنا الشيخ أبو الريش تأخذونى إلى المولد وليصلى معى ثلاثمائة شخص صلاة القضاء وهذه هى كل أموالى وهى حلال وهى ألف أقچة ولتكن عند الشيخ الشناوى لأنه رجل يعتمد عليه.

ثم قام الشيخ بتسليم ألف أقچة إلى الشيخ الشناوى وقال للحضور يا إخوان لتأتوا جميعًا غدًا صباحًا ولنتجمع كلنا ثم نذهب إلى مولد جدنا ونحن نذكر الله، فرد عليه كل الحضور بالمجلس: على الرأس والعين السمع والطاعة، ثم ذهبوا إلى منازلهم، وفى صباح اليوم التالى ذهب الحقير والشيخ الشناوى إلى منزل الشيخ شمس الدين ولكن الشيخ لم يخرج من الحرملك، وأرسل لنا مع أهل البيت القهوة وخبز شعير وبينما كنا نتناول الخبز والقهوة سمعنا أصوات نحيب وعويل من الحرملك، يا لهذا الفزع والجزع وقد خرج علينا الشيخ من الحرم بصعوبة بالغة وقد احمرت عيناه وكان العرق يتصبب منه ألقى علينا السلام فرددنا عليه السلام وقال: ليس هذا ما يدعو إلى الانفعال أو الحيرة فإنى لما دخلت الحمام واغتسلت قلت لهم إنى ذاهب إلى جدى ظنوا أننى سوف أتركهم وأرحل عن الدنيا إلى الآخرة لذا فزعوا وجزعوا، أما نحن الآن فسوف نذهب إلى جدنا ونحتفل بمولده وسوف نصلى مع كل الأحباب صلاة القضاء ثم ابتسم

الشيخ، فقال الشيخ الشناوى: يا سلطاننا إن كل مريديكم وأحبائكم ينتظرون بالخارج بالدفوف والطبول، كما ينتظر كاشف البحيرة مع جنوده بالسلاح، فقال لقد استعد الجميع ويجب علىّ أنا أيضًا أن أستعد بالتقوى وأمر بدخول ثلاثمائة درويش إليه ينشغلوا بالتوحيد والذكر، وكان للشيخ شمس الدين ناموسية فى أحد أركان المنزل دخل فيها وبدأ الذكر وبعد ساعة خرج الشيخ من الناموسية، والله أعلم أن الشيخ قد وصل إلى توجر وهو بتلك الناموسية لأنه عندما قال حى سقطت خيوط الناموسية على رأسه وعلى الفور قام الشيخ الشناوى وخليفته يرفعها من عليه فوجدوا الشيخ قد أَسْلَمَ الروح لربه امتثالاً لقوله: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] ومن العجب أن الشيخ توفى وهو يبتسم وجبينه ووجنته كحمرة الورد، فصاح كل المريدين وانتقل هذا الصياح إلى الحريم وتجدد المأتم لهم من جديد وأمر بتجهيز ثلاثة مواعين من الماء الساخن والكفن وماء الورد والبخور وجهزوا له كل الأشياء الخاصة بالموتى وقد خرج أهله وعياله وكريمته إلى الخارج، وقام الشيخ الشناوى بإعطاء ألف أقچة التى كانت أمانة عنده من الشيخ شمس الدين إلى ثلاثمائة رجل على حسب الوصية لإسقاط صلاة القضاء عنه، وقام الشيخ الشناوى بتغسيله وكان الحقير يصب الماء عليه وقد أطلق ابن الشيخ الشناوى البخور.

وتم تكفين الشيخ ووضع فى نعشه وسار مع جنازته ما يقرب من ألف شخص من الجنود وهم ينتحبون حتى وصلوا بالجنازة إلى جامع الشيخ أبو الريش وصلى عليه هناك قرابة الأربعين ألف أو الخمسين ألف جندى ووهبوا ثواب الصلاة لروحه، ثم دفن الشيخ الشناوى الشيخ شمس الدين فى فسقية الشيخ أبو الريش، وحتى الآن تفوح الرائحة العطرة من تلك الفسقية فتعطر رءوس العاشقين ولم يذهب كل الزوار إلى أى مكان فى ذلك اليوم بل ظلوا فى الجامع وفنائه وقد قرأوا الختمة الشريفة ثلاثمائة مرة ووهبوا ثوابها لروح شمس الدين كما قام الأهالى وأصحاب الخيرات بطهى الحلوى والفطائر ووزعوها على الزوار وأهل المولد على روح الشيخ شمس الدين، والحمد لله أنه قد ظهرت تلك الكرامات ورآها الحقير وأنه تقابل مع الشيخ قبل وفاته وخدمه، وإنما هذا

من فضل ربى، وفى ذلك اليوم أيضًا شرعت فى قراءة ختمة شريفة على روح الشيخ أبو الريش وانتهيت منها اليوم التالى بعد العصر وكان فى حضور كل الصادقين ووهبنا ثواب الختمة لروحه تقبل الله، رحمة الله عليهم أجمعين.

ولا يوجد حصر ولا حد لمناقب الشيخ أبو الريش، والروح المشتاقة لمعرفة تلك المناقب ترجع إلى طبقات الشعراوى وسترى إلى أى حد كان الشيخ أبو الريش سلطانًا عظيمًا، والشيخ أبو الريش والشيخ إبراهيم الدسوقى والشيخ أحمد الرفاعى من كبار سلاطين الطريق البرهانى، كان الشيخ أبو الريش عاشقًا لله مثل عمر بن الفارض لم يعمل للدنيا مقدار ذرة واحدة، لذا فإن قبورهم ليست مزينة ويوجد بضريح الشيخ أبو الريش باب يطل على الناحية الشمالية.

وبفناء ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ عاصم بن الشيخ أبو الريش وله كرامات كثيرة فقد أصبح خليفة صاحب سجادة بعد وفاة جده وبايعه أربعون ألف رجل وكان الشيخ عاصم مرشدًا للطريق، والشيخ عاصم مثل جده قبره ليس مُزَيَّنًا دائمًا هو عبارة عن صندوق مغطى بقماش أخضر وباب هذا الضريح أيضًا يطل ناحية الشمال.

وعلى مسافة ثلاثمائة خطوة فى الجانب الشمالى خارج ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ سيد عطية وهو أيضًا سلطان عظيم على الطريقة البرهانية وهو مدفون فى ضريح عالٍ، حوائطه مثل حوائط القلعة، وله كرامات كثيرة.

وتحت ظلال شجرة النخيل الموجودة بالسوق يوجد قبر الشيخ أبو هواث وهو ضريح صغير ولا توجد أى آثار أخرى بجانبه، ولو قمنا بتحديد كل أضرحة الأولياء والصحابة الكرام كل على حدة سوف نكتب كتابًا مطولاً فيه.

ولكننا سنكتفى بذكر أضرحة الأولياء المشهورين وهم الذين قمنا بزيارتهم: أولاً الشيخ محمد الأديب وهو سلطان كبير، وبجامع الجبانة الموجودة بجوار ضريح الشيخ محمد الأديب يوجد ضريح الشيخ السيد أحمد أبو العباس الشاطر قُدِّس سره وهو مدفون فى ضريح مقبب، وبجواره يوجد ضريح صغير للحاج محمد السيوفى وهو من الصحابة الكرام وهو رئيس صناع السيوف للرسول ﷺ، وبضريح متصل به يوجد

الشيخ على السقطى وهو خليفة الشيخ سُرَير السَّقطى، وبالقرب منه ضريح الشيخ على الطَّنجى، مسقط رأسه قلعة طنجة ويقال إنه أخبر الأهالى بطنجة أن كفار الأسبان سوف يستولون على القلـعة ويقتلون كل من بها لذا جاء الشيخ إلى مـصر. وبعد ذلك بعشرة أيام قام كفار أسبانيا بالهجوم على قلعة طنجة وقتلوا كل من بها.

وعلى مقربـة منه يوجد ضريح الشيخ نـاصر الدين الفاسى وقد أتى هـذا الشيخ إلى قاهرة المعز من مدينة فاس بالمغرب، واشترك فـى فتح مصر ضد الإخشيديين، ثم انتقل إلى دمنهور وتوفى بها وهو مدفون بجبانتها فى ضريح صغير.

ثم الشيخ الأمير محيى الدين بن السلطان ناصر الدين سلطان مصر، ترك هذا الأمير العرش والمُـلك وارتدى عبـاءة الفناء فى الله وقـد عاش فى الجبل الأخـضر حتى ألـفته الطيور الجـارحة والسباع وكل الوحوش المـوجودة فى الجبل الأخضر، حيـث سكن فى وادى هامون، بـعد ذلك ثم أصبح قـطبًا وضريحـه الآن مزار للخاص والعـام، وعلى مقربة منه ضريح الشيخ العجمى وبجانبـه ضريح الشيخة السيدة أم الشيخ إسماعيل فى ضريح متصل بضريحها مدفون الشيخ خضر، وبجوارهم ضريح الشيخ برهان الدين.

وكل الأولياء المذكورين فى أفنية الجوامـع: أولاً ضريح الشيخ محمد الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وضريحه بجوار البـاب الأيسر لجامع المنى وهو ضريح صغير، وقد وفد هذا الصحابى سفيـرًا من سيدنا أبى بكر إلى ملوك القبط وتوفى بـالمدينة ودفن فيها ويوجد تاريخ على مشهد القبر القديم.

وضريح الشيخ أبو الـسعود الدمنهورى ويقع داخل المدينة علـى يسار محراب جامع الشيخ الدمنهورى.

وضريح الشيخ مجاهد.

ثم ضريح الـشيخ شعبان الـواقع بالقرب من سـوق الخشب وهو ضريح صـغير فى الزاوية اليمنى لجامع الشيخ شعبان والجامع من آثار السلطان قايتباى، ولأن الشيخ شعبان مدفون به سمى على اسمه، إنه سلطان عظيم.

ثم ضريح الشيخ أحمد الداودى ويقع على يسار محراب جامع المحكمة بجوار سوق الخفاف إنه سلطان عظيم حتى لو كان هناك حق لشخص عند شخص آخر ولا توجد نية للوفاء بهذا الحق فيهب الاثنان إلى ضريح الشيخ داود ويحلف المدين وهو يطرق باب الضريح بيده بأنه ليس فى ذمته أى دين لهذا الشخص، والحقيقة أنه لو كان هناك أى سارق أو مديون لا يستطيع أن يحلف اليمين ويضرب الباب بيده، بل يعترف على الفور بجريمته، ومشهور فى مدينة دمنهور أنه لو حلف شخص ما بالباطل وتجرأ على طرق الباب فإنه يهلك فى لحظتها، وفى كل سنة يتم إحقاق الحق لآلاف الرجال فى هذا الضريح، فيأتى آلاف الرجال من النواحى والقرى المجاورة لإظهار حقوقهم عند هذا الضريح إنه ضريح عظيم، قُدس سره.

ومزار جامع قرقلر وضريح الشيخ أبو شهبة بالمدينة وعلى مقربة منه ضريح الشيخ صاحب الأنوار الشيخ أبو يعقوب وهو على الطريقة البرهانية وخليفة للشيخ الدسوقى وأحمد الله أننى ذهبت إلى كل تلك الأضرحة ومسحت وجهى بها وقرأت الفاتحة أو حزب وختمة شريفة لكل واحد منهم ورجونا البركة منهم، رحمة الله عليهم أجمعين، وقد أتممنا زيارتها.

وفى اليوم الأول من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣هـ ذهبنا لمشاهدة مولد الشيخ أبو الريش ولو أننا كتبنا ما شاهدنا كله فلن يكفينا هنا مجلد آخر، وهو مولد عظيم مثل مولد البدوى والدسوقى والشيخ محمد بن زين بالنهارية، والمولد الأقل منه من حيث التجمع فى دمنهور هو مولد الشيخ شمس الدين، ولا تقام فى هذا المولد احتفالات كبيرة مثل الموالد الأخرى نظرًا لقرب المنطقة من الصحراء ولكن يفد إليه رجال لا يحصى عددهم من البلدان المختلفة من فاس ومراكش وطرابلس والجزائر وإدفو وإسنا وأسوان والسودان، وتحضر قبائل بعلجة وسليمانى وحنارى إلى هذا المولد كما تقوم مئات القبائل الأخرى بجلب البضائع من البلدان المذكورة للبيع والشراء فى هذا المولد، ويمكثون فى صحراء دمنهور بخيامهم، ويجتمع أناس كثيرون ويكونون كالبحر لا يعجز اللسان عن وصف تجمعهم، وتباع هناك مئات الآلاف من أحمال الزيوت والنعاج

والماشية والحملان والصبيان السود وكل جنسية من تلك الأجناس المختلفة لها شكل ولون مختلف عن الآخر فقوم ماى بورنو عيونهم حمراء، وأفنو عيونهم صفراء ولكن بشرتهم تميل إلى الحمرة ومعظم هؤلاء يحضرون تبر الذهب ويشترون قماش الأقمصة، أما أقوام نجه نشكى فعيونهم بيضاء وبشرتهم سمراء جدًا، وكان يوجد فى خيامهم رجل كل جسده مغطى بالشعر وقد ذهب الجميع ليشاهدوه، وقد تقدم الحقير وشاهد هذا الرجل، وكانت أسنانه وأنفه مثل أسنان وأنف الكلب كان يبدو وكأنه كلب أصفر اللون، عندما كنا نتكلم كان يتبسم ولم يـر الحقير بنى آدم على تلك الهيئة، فسألت عن أهله وهو يعرف لغتهم حيث كان يوجد رجال من الواحات، فأجابوا قائلين وهم يقسمون على ذلك: أن هذا الرجل ابن أحد القرود ويقولون فى ذلك أن والدة هذا الرجل كانت تقوم بتكسير وتقطيع أشجار السندباد فى الجبل فخرج عليها قرد وجامعها وبعد عام ولد هذا الرجل بإذن الله وقد تحير الحقير جدًا وقال آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩] وسأل الحقير أيضًا مرة أخرى أيها القوم هل يكون هناك قرد بهذا الحجم فقالوا يوجد قرود فى حجم الحمار فينزلون إلى الطريق من على الجبل ويتعاركون معنا، يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته ولكن كل هؤلاء القوم عرايا ولا توجد عليهم أى سترة سوى سترة بسيطة عند مكان العورة، ولكنهم لو تحركوا تظهر عورتهم إنهم مثل الحيوانات، ومنهم رجال لم يشربوا المياه طوال حياتهم، وكلهم يشربون لبن الإبل ويأكلون خبز الذرة، أما قبائل بهيجة وجنادى والضعفا فيأكلون الخبز الأبيض (القمح) يشتهرون بالجمال فعيونهم مكحلة وكلامهم حسن ولكنهم اللهم عافنا يذهبون إلى سوق البغايا، وتنصب الأسواق فى هذا المولد ويتم البيع والشراء لمدة عشرة أيام بلياليها ثم يقوم الكاشف وكل جنده بالمسير على دقات الدفوف وبذلك يكون قد انتهى المولد ويحل كل الزوار والتجار الخيام ويقومون بزيارة أبو الريش زيارة الوداع ثم يذهب كل شخص إلى قصبته وقريته، وقد قام الحقير أيضًا بزيارة الوداع وأخذ من الكاشف عشرة رجال مسلحين وسرنا بهم إلى اتجاه الغرب لمدة خمس ساعات من دمنهور فى صحراء كبيرة فوصلنا إلى مدينة حوش عيسى القديمة ويطلقون على الحوش

(   )[1] لفظ حديث فى اللغة العربية، كانت هذه المدينة قديمًا مدينة عظيمة ولكنها غرقت تحت بحر الإسكندرية فخربت قراها.

والمدينة حاليًا ليست مدينة وفى أراضى البحيرة كاشف يطلقون عليه روم بيه، يُمنح الخلعة من كاشف البحيرة وعنده خمسمائة جندى من الخيالة وحكم هذا الكاشف يمتد حتى سبعين منزلاً أى حتى خليج كبريت ويتحصل لكاشفها ثمانية عشر كيسًا من الأموال المصرية، وقضاء مائة وخمسين أقچة ولكن نظرًا لعدم تحصيل أى شىء منها فى الوقت الحالى ألحقت بقضاء البحيرة، ويتحصل منها سنويًا ألف قرش، تقع مدينة حوش عيسى فى وسط صحراء مستوية، ففى عام ٧٢١ جاء أحد أمراء العربان ويدعى حوت عيسى إلى تلك المنطقة فأعجبه هواءها ومياهها فأسس تلك المدينة.

وكان هذا الأمير يمتلك عشرة آلاف ناقة ومئات الآلاف من الأغنام والجاموس والثيران ودائمًا ما كان يقوم بالاستيلاء على التبر الموجود بالمنطقة، وكان يحج كل عام بألف ناقة وكان يبذل النعم على الحجاج، ونظرًا لهذا فقد عمرت مدينة حوش عيسى وأقبل الناس عليها نظرًا لكثرة إنعام أميرها عليها ويمكن القول بأن أهل المدينة أصبحوا أثرياء ولم يبق بمنازلها أرض خراب، فقد كانت تلك الأرض أرض الإبل والغنم.

وفى عصر ابن عيسى المذكور قام كفار أسبانيا بهدم طريق ترعة الإسكندرية فلم يصل النيل إلى الإسكندرية، وبالتالى مات أهل المدينة من العطش وقد وجد الكفار فى هذا إعانة لهم على إسقاط المدينة تحت وطأتهم؛ فحاصروها. ولكن مئات الآلاف من عربان حوش عيسى هَبوا لنجدة الإسكندرية ووصل المدد إلى القلعة، وألقوا فريقًا من الكفار فى البحر، أما الباقون فقد ركبوا سفنهم وفروا هاربين وفى أثناء إصلاح الترعة كان ابن عيسى يقدم لأهالى الإسكندرية كل يوم ثلاثة جمال محملة بالمياه وبذلك أنقذ أهالى الإسكندرية من هذا العطش والهلاك المحقق، وبذلك ازدانت مدينة حوش عيسى بالعمران بمرور الأيام لقوة حاكمها الأمير عيسى ولكنها أهملت بعد ذلك نظرًا لظلم الكاشفين وكيد العربان وجورهم على الأهالى، وعندما زرنا هذا المكان كان بالمدينة ألفا

(١) بياض فى الأصل.

منزل بالطوب اللبن تقع بين أشجار النخيل وهى بيوت فلاحين ويسكن بها المغاربة، كما يسكنها بعض من قبائل بهيجة وضارى والحضرى، وقد كان يوجد بها قديمًا ألف وخمسمائة محراب للصلاة لم يَبْقَ منها الآن سوى أحد عشر محرابًا فقط ولكن بوسط المدينة يوجد جامع ابن عيسى لا يوجد فى أقاليم مصر مثله لقد شيد على قدر كبير من المهارة والحرفة وتأسس هذا المسجد من الحجارة المنحوتة فى غاية الإبداع كأنها مصنوعة بأيدى أمهر صناع فى حرفة الحفر، ولا يوجد جامع بخلاف هذا، وللجامع مئذنة عالية من ثلاث طوابق، وبالمدينة حمام هو حمام الأمير عيسى لا يوجد نظيره إلا حمام الأمير عثمان فى مدينة منفلوط، وبها خمسون حانوتًا ولكن كل شخص يقوم بالبيع والشراء فى منزله، لذا فكل الحوانيت الموجودة بها ثلاثمائة وستون حانوتًا وخلاصة الكلام أن معظم عمران مدينة حوش عيسى من خيرات الأمير ابن عيسى المذكور، ولا توجد بمدينة حوش عيسى حدائق أو بساتين إلا أشجار النخيل، وكل مياهها مياه آبار لذيذة الطعم لأن كل تلك الآبار بيضاء وتوجد ثلاثة آلاف منزل مبنية بالخوص والتراب والكليم والخيام بين غابات النخيل، كل أهالى تلك المنازل مسلحين ولا يستطيع أشقياء قبائل بهيجة وضارى التغلب عليهم أبدًا فهم قوم فى غاية الشجاعة ولامتلاكهم إبل وغنم بأعداد كبيرة فإنهم يشتغلون بمهنة نسيج الصوف والوبر، والناحية الجنوبية والغربية لهذه المدينة لا يوجد بها عمران ولم تكن عامرة أساسًا، وامتداد تلك الأماكن حتى طرابلس وفاس ومراكش والمغرب صحراء ولكن بالجبل الأخضر توجد بعض الأراضى الموجود بها أشجار، ومياهها وطقسها لطيف لا يمكن وصفه، ويقيم بتلك المناطق الآلاف من عربان القبائل.

مناقب المجاذيب

من المجاذيب المشهورين فى مدينة حوش عيسى الشيخ على البشبيشى والشيخة مباركة خاتون وهما شخصان لهما كرامات ويقال أنهم كانوا يشاهدون الشيخة مباركة فى الجزائر وتونس وأنه كلما يذهب الشيخ البشبيشى إلى أى مكان كانت تذهب

الشيخة مباركة إليه إن الخيل لا تستطيع أن تـلحق بها بل أنها كانت تذهب مع الجند فى الحملات.

فى بيان مدينة العقاب

سرنا خمس أيام بلياليها غرب مدينة حوش عيسى مع تجريدة من جند قبيلتى بهيجة وحنادى فوصلنا إلى مدينة خاوية، إنها مدينة تثير الدهشة والحيرة بها آثار كثيرة لأقبية وقباب لا يعلم عددها إلا الله إنها حقيقة مدينة العقاب فكلها بوم وغربان وفى شدة الشتاء يقيم بها المجاذيب والضعفاء والمغاربة، وهذه المدينة من بناء الملك خربتا بناها بعد الطوفان، ويقال إن معز الدين من ملوك الفاطميين قام بتخريب المغرب عام ٣٤٧هـ ويوجد بأطلالها حاليًا آلاف الأشياء والأحجار الكريمة، وتبتعد مدينة أوجليه التى يستخرج منها تبر الذهب بمقدار خمسة مراحل عن مدينة عقاب، ولكن الحقير لم يصل إليها وذلك لأن عربان الحناوى انهزموا ودخلنا مصر مرة أخرى سالمين غانمين وقد شاهد الحقير هذه المدينة ورجع الحقير مع سبعة أو ثمانية من فصافة إلى دمنهور، فى أربع ساعات، وأقمنا فى قصر الكاشف وفى اليوم التالى اتجهنا صوب الشمال من مدينة دمنهور مع جنود الفرقة السابعة وكل أعيان المدينة وكاشف البحيرة محمد أغا فوصلنا إلى بلد جبل قاسم بك، ومنها إلى بلدة بصطره وهى لمصطفى أغا الدمنهورى ومنها إلى بلد زرقون، ومنها إلى بلد زاوية الغزال، ومنها سرنا ساعتين فى قرى عامرة حتى وصلنا إلى بلد الناصرية، وبها مائتان وخمسين منزلاً وجامع ولها قرية عامرة من أوقاف السلطان الناصر، ومكثنا فى هذا المكان مع كل الجنود، وبدأ الجنود والرجال فى إصلاح ترعة الإسكندرية، وقد ظل الجند وآلاف الرجال يعملون لمدة أسبوع كامل حتى تم إصلاح الترعة وبدأت مياه النيل تصل إلى مدينة الإسكندرية مرة أخرى، وأقام الكاشف لذلك احتفالات عظيمة حيث ذبح أربعين شاة وخمسة من الإبل وذلك لأن وصول مياه النيل إلى الإسكندرية كان يعنى إحياء بندر مدينة الإسكندرية وبندر الإسكندرية يحصل سنويًا ثلاثمائة كيس مصرى وإذا تعطل الجمرك فإنه يؤمر بقتل كاشف البحيرة لذا يؤمر كاشف البحيرة بتعمير تلك الترعة، ويسجل لتلك النفقات أربعين كيسًا مصريًا سنويًا،

ويتم تسجيل ذلك فى محكمة قصبة فُوَّه، وأول من حفر هذه الترعة الناصرية هو الملك القبطى فلبطر فى عهد إبراهيم عليه السلام وقد تعرض هذا الملك للسيدة سارة مرتين فَشُلَّت يده وتاب واستغفر وآمن بسيدنا إبراهيم، وهذه الترعة من إنشاء هذا الملك، وقد شقت تلك الترعة من قرية دراور بأرض البحيرة بالقرب من قصبة فوه الموجودة على ضفاف النيل وتسير الترعة لمسافة منزلين ثم تصل إلى الإسكندرية وهو عمل شاق ليس فى مقدور البشر وتسير السفن فيها منذ ستة أشهر، وبمرور الأيام تعطلت الترعة وردمت فقام السلطان الناصر بجرف ما ردم منها وسير فيها المياه من جديد، لذا يطلقون عليها ترعة الناصرية. وعلى جانبى تلك الترعة يوجد بحر البحيرة، ويجرى النيل المبارك من بينهما وفى بعض الأماكن يزيد تلاطم البحر فتفسد جسور تلك الترعة الأمر الذى يجعلها تحتاج إلى خلق كثيرة لترميمها وتعميرها، عندما قام الملك «فلبطير» بإنشاء تلك الترعة فرشها كلها أولاً عن آخر بالمرمر الخام، ويظهر هذا المرمر حاليًا فى بعض الأماكن. حقًا إن همة الرجال تقلع الجبال، ويوجد خليج يطلقون عليه خليج الإسكندرية، لو لم يتم حفر هذا الخليج كل عام تقوم الأمواج المتلاطمة للبحيرات المرة الموجودة على جانبيه بقطع الجسور وبالتالى تغرق مئات القرى فى ولاية البحيرة، لذا تتم محاسبة كاشف البحيرة عن تطهير هذا الخليج كل عام، وبعد ترميم الترعة قام كاشف البحيرة بمنحنا عشرة آلاف باره وبراءة نظير خدماتنا، وأرفق معنا عشرة رجال مسلحين، ومنحنا سفينة وجميع اللوازم، وسرنا فى تلك الترعة قاصدين مدينة الإسكندرية. وحاصل القرى والمنازل التى مررنا بها حتى مدينة الإسكندرية، بلد سنتاو وتقع على ضفاف تلك الترعة وبها مائتا منزل وجامع وهى قرى عامرة، ويوجد بها ملتزم فى أراضى البحيرة، وبهذا البلد ضريح الشيخ أبو بكر الشنتاوى وهو ضريح صغير فى فناء الجامع الموجود على ضفاف هذه الترعة، وهو من كبار الأولياء المشهورين، واستكملنا سيرنا فى الترعة. فوصلنا إلى بلد برسيق، وهى قرى عامرة بها مائة منزل وجامع وحدائق النخيل ومنها إلى بلد نخل وهى قرى عامرة بها مائتا منزل وبتلك الناحية توجد ترعة الأشرفية. وهى ترعة كبيرة انفصلت عن قرى الرحمانية

الموجودة على ضفاف نهر النيل، وهى من خيرات السلطان الأشرف من سلاطين مصر لذا يطلق عليها الترعة الأشرفية وتروى تلك الترعة مئات القرى فى أراضى البحيرة وتمر بمدينة دمنهور، عبرنا تلك الترعة وسرنا إلى الأمام وتختلط تلك الترعة بترعة الناصرية عند بلد أبو خضر وتسير الترعتان حتى تصلان إلى الإسكندرية، وهما أيضًا من الخيرات العظيمة.

وعلى مقربة من بلد أبو خضر توجد بلد القراوى وهى عامرة للغاية وبها جامع ومن هناك إلى بلد القافلة وهى عبارة عن قرى عامرة بها خمسمائة منزل وجامع وأسفل منها بلد وسوس. وبها أيضاً جامع وثلاثمائة منزل وهى بلدة عامرة وأسفل منها بلد بُركه وهى قرى عامرة تضم خمسمائة منزل وجامع. وبها ضريح يعد مزاراً لم نعلم عنه شيئًا ولكننا قرأنا الفاتحة لروحه وعبرنا تلك البلدة وسرنا مع مياه النيل حتى وصلنا إلى البلدة الكبيرة روهب وتقع فى أراضى البحيرة وبها ألف وسبعمائة منزل وجامع سلطانى ومساجد وخان وأسواق ومقهى، ويقيم على ترعة الناصرية أمين للجمرك يُعين من قبل أمين الخوردة وتكون مدة إقامته ستة أشهر وبعدها تجف الترعة وتظل أعمال الجمرك معطلة ستة أشهر أخرى وتأتى كل سنة ألف مركب وسفينة لشراء البضائع من قرية الرويهب.

أوصاف بضاعة بلدة الرُوَيهب

إنها بضاعة من صنع الله القادر على كل شىء الذى لا نظير لصنعه والتى يبقى العقل حيرانًا أمام صنعته عز وجل، من ذلك نبات الغاسول الذى يُنطق خطأ قاسول وهو نبات قصير أصفر اللون ينبت فى صحارى قرية الرويصب وهو نبات ذو مشرط مثل نبات أم غيلان ينبت فى شهر يوليو فيقوم الأهالى بالخروج إلى هذا الوادى، لهذا النبات أوراق مثل مخالب الطيور الجارحة فيقومون بقطف الغاسول من تلك الأوراق، ويستخدمونه فى الاغتسال كالصابون ويقوم الأهالى بصب هذا الغاسول فى أوانى ثم يقطعونه أجزاء صغيرة، ويوجد تراب خاص بتلك القرية يقوم الأهالى بعجن هذا التراب ويقومون بوضع الغاسول فيه ويجعلونه كالخميرة، ثم يصنعونه على أشكال دائرية ويتركونه فى الشمس حتى يجف ثم بعد ذلك يأتى التجار ويشترون منه آلاف من

أحمال الإبل ويؤخذ منه إلى إسنا وأسوان وبلاد العرب بالسفن حيث يستعمله معظم الأهالى فى الاغتسال فإذا ما وضع هذا الغاسول فى إناء وأضيف إليه الماء يصبح كالصابون لذا يطلقون عليه غاسول من لفظ الاغتسال.

وللغاسول خاصية أخرى كبرى بخلاف الاغتسال وهى تنظيف الثياب.

والميزة الثانية للغاسول هى: أنه يمكن حرقه وأخذ الرماد الذى يخرج منه ويتم بيعه أيضًا حيث يقوم الأهالى بأخذ العشب إلى مكان مثل الجبل وينثرونه عليه ثم يحرقونه بالنار ويأخذون الرماد الذى ينتج منه ويجمعونه على بعضه البعض مثل الكرة ثم يقومون بنثرهِ أكوام أكوام إما فى المخازن أو على الأرض ثم يأتى التجار ويشترون منه بالقنطار حيث يباع منه مئات الآلاف من القناطير ويذهبون به إلى كل ديار مصر حيث يقوم التجار بطحنه فى المطاحن ثم يشعلون النار عليه مع وضع مادة النطرون عليه ويصنعون منه الزجاج والقناديل والزجاجات، وزجاج نبات الغاسول من أجود أنواع الزجاج من حيث الشفافية والجودة.

والميزة الثالثة للغاسول هى: استخدامه فى استخراج الذهب حيث يقوم التجار القادمون من بلاد الفرنجة بالذهاب إلى الرويصب ويشترون رماد نبات الغاسول ويذهبون به إلى بلادهم وعندما كان الحقير فى ألمانيا سأل مارجلين أمين دَارِ سَكٍّ الذهب بمدينة انكروس عن هذا الغبار فأجاب مارجلين: إنه غبار نبات يسمى الغاسول ينبت فى أراضى البحيرة من ديار مصر نحضره إلى هنا ونستخرج منه المياه الصافية ونستخرج منها الذهب، بعد ذلك نصفيه ونحصل منه على مياه الذهب الخالصة، حقًا إنه غبار ثقيل مثل الذهب.

والميزة الرابعة للغاسول: إنك لو أطعمت تلك النباتات للأغنام فإن أسنانها تصبح مثل الذهب.

والميزة الخامسة: أن تجار الفرنجة يأتون إلى الإسكندرية عندما يكون هذا النبات أخضر ويشترونه ويرسلونه إلى بلاد الفرنجة حيث يبيعونه إلى الساعاتى وصانع الأشياء الثمينة حيث يقومون بغلى الأشياء التى يستخدمونها فى صناعاتهم فى الكوكورد (الكبريت) ونبات الغاسول يطلون به الذهب وتزين به الساعات والتحف التى تصنع من الذهب والفضة.

الميزة السادسة وهى: خاصية تخص قرية الرويصب الموجود بها الشيخ الشاذلى باليمن وقد سمع الشيخ سيد عيسى أن الله قد منح الشيخ الشاذلى باليمن نبات القهوة فدعا الشيخ سيد الله بأن يمنحه هو الآخر نباتاً يدفع عنه الجوع ويقويه على العبادة وقد استجاب الله لدعائه حيث أنبت فى تلك الصحراء نبات الغاسول وملأ النبات كُلَّ الأراضى الصحراوية هناك وكانت رائحته تفوح فتعطر الرأس، وقد عاش الشيخ عيسى بعد ذلك مائة سنة كان يعيش فيها على نبات الغاسول، وكان قد عاش قبل ذلك مائة وخمس سنوات وبذلك يكون الشيخ قد عمّر مائتين وخمس سنوات، وقد فتح الشيخ عيسى طرابلس الشام مع السلطان برقوق ثم عاد إلى الرويصب مسقط رأسه وتوفى بها وقد أنشأ السلطان برقوق على قبره ضريحًا وتكية ويوجد الآن فى تكيته ما يزيد على مائتى مريد، كلهم يتعيشون على نبات الغاسول حيث يقومون بتخفيفه وطحنه ثم يصنعون منه الخبز وقد تناول الحقير منه قطعة خبز تبركًا، إنه خبز لذيذ الطعم يمنع الجوع.

والميزة السابعة: وهى خاصة ببذور الغاسول إذا ما أكلت فإنها تمنع الرشح والدم كما أنها مفيدة لمرض الذخير، ولكن خبزه أسمر وله طعم القصرة، ولم يتناول الشيخ عيسى طوال مائة سنة غير هذا النبات وله العديد من الكرامات إنه سلطان عظيم، كما يأكل أغلب أهالى هذه القرية هذا النبات حين الضرورة.

وحاصل الكلام أنه يتحصل لمصر جمرك كبير من هذا النبات، ولا يوجد هذا النبات فى أى مكان على وجه الأرض سوى فى البحيرة، وقد سرنا فى تلك المنطقة وشاهدنا فيها كل عجيب وغريب، وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى لوقون وبركة وهما قرى عامرة بهما مائة منزل وجامع، ومنها إلى كربون ومنها إلى معلق ومنها إلى عكريش البستلقون البيضة وقد كانت هذه البلدة مدينة عظيمة فى عهد القبابطة وآثارهم باقية بها حاليًا لا يمكن التعبير عنها باللسان، خرجنا منها وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى الجنان وقد سميت ببلد الجنان لكثرة وجود الحدائق والبساتين بها قديمًا، وحاليًا هى عبارة عن قرى عامرة بها ثلاثمائة منزل وحدائق النخيل تزينها، وكل القرى التى ذكرت تقع فى أراضى البحيرة على ضفتى ترعة الناصرية لمسافة عشر ساعات.

أوصاف البلد القديم دار الكهنة والحصن الحصين
وسد الإسكندر المتين الخاتم المجوهر
قلعة الإسكندرية

مدينة عظيمة وقيمة وقد حرر آلاف المؤرخون أوصاف قلعة الإسكندرية التى تشبه سد يأجوج، ولكن تواريخ القبابطة هى أوثق ما كتب فيها، فقد منح الله العلم لإدريس بعد هبوط آدم إلى الأرض، والقبط من ذلك الوقت وحتى يومنا هذا يحررون الوقائع والأحداث، وبالرغم من أنهم كفار إلا أنهم لم يصدر عنهم أكاذيب أو إرهاصات فى كل الأزمنة لذا فإن كتب تاريخهم هى أوثق التواريخ التى يعتمد عليها، وقد أتى الخليفة المأمون العباسى إلى مصر لشغفه بالتاريخ، ونقب فى جبال الأهرام وأخرج منها آلاف القطع من كتاب إدريس وكتاب دانيال وترجمها إلى العربية، كما قام بترجمة مئات التواريخ القبطية إلى اللغة العربية، وتذكر معظم تلك التواريخ أن مدينة الإسكندرية هذه أول الأمر بنيت بعد الطوفان حيث كان سيدنا نوح يميل إلى بيظر بن حام من أبنائه فدعا له بالكثرة والملك فتقبل الله دعاء نوح وأنعم على بيظر بالذرية الكثيرة وملكه ملك مصر، وقام ببناء مدينة الإسكندرية، واتخذ مدينة منوف عاصمة له، وكانت الإسكندرية فى تلك الأوقات تسمى رقودة، والألمان حتى الآن يقولون على الإسكندرية رقودة أما فى اللغة اليونانية فيطلقون عليها الكساندره ويقولون على بيظر أبو القبابطة لأن معظم القبط من نسله، فقد كان له ثلاثون ولدًا أكبرهم مصرايم، كان مصرايم هذا ملكًا على مصر من العريش وحتى أسوان والسودان، ثم توفى بيظر وهو أول من توفى فى مصر بعد الطوفان ودفنوه فى الهرم بجوار الملك هرمس وهو أيضا أول من دفن فى مصر بعد الطوفان وقد استقل مصرايم بملك مصر بعد وفاة والده وزاد من عمران مدينة الإسكندرية التى كانت من منشآت والده لحبه لطقسها ومائها وعندما أصبحت زلتاسنيث مأموم ملكة على مصر، قدم العمالقة إلى مصر واستولوا عليها والعمالقة من أولاد حام بن نوح ولكنهم نسل بليد، قاموا بتخريب مملكة القبط وعلى النقيض قاموا بتوسعة وإعمار مدينة الإسكندرية، وهم الذين أنشأوا الأحجار الكبيرة فى الإسكندرية

نظراً لأنهم كانوا ضخام الجثة، وقد خلفهم فى بناء الإسكندرية يعمر بن شداد وقد أنشأ يعمر المبانى بالأحجار القوية الكبيرة لذا يـقولون بناء شدادى على المبانى القوية، ثم بعد أن أتى جارود المؤتفـكى وهو بعد عهد سليمـان عليه السلام أنشأ أعمدة كـثيرة فى كل طرقات الإسكندرية ولا تزال آثار تلك الأعمدة والمـغارات ظاهـرة للعيان، وقد حكمت مصر بعد ذلك الملكـة دلوكة بنت زيباك وكانت قبل فرعون موسـى بعشرين عامًا، وقد اتخذت تلك الملكة منوف عاصمة لها، وقد عـمرت مدينة الإسكندرية أيضًا لأنها كانت تنتقل إليها لتغير الجو، وآثارها من على بعد مائة ميل فى البحر.

وطبقًا لما ذكره المؤرخ العالم محمد بن إسحاق فإن الإسكندر الأكبر قام بتعمير مدينة الإسكنـدرية ووسع فيهـا وعمرها وزيـنها بالعـلامات والطلاسم قـبل ميلاد النبى ﷺ بثمانمائة واثـنين وثمانين سنة، وقد أصبحت الإسـكندرية فى عهده مدينة عـظيمة لَمْ يُرَ مثلـها على وجه الأرض، ويـتفق هذا الـرأى مع رأى كل الأمم وأن الإسكنـدر الأكبر المذكور هو الإسكندر ذو الـقرنين ونسبه هو الإسكندر بن بنطى بـن نعمان بن تارخ بن يافـث بن نوح عـليه السـلام وعلى قـول آخر هو الإسـكندر بن داراب بـن بهمـن بن اسفنديـار، ويقال والله أعلم أن الخضـر عليه السلام كـان من جند الإسكنـدر حتى إنه ذهب معه ليأجوج ومأجوج ثم ذهب معه إلى الإسكندرية والمكان الذى التقى فيه الخضر مع سيدنا موسـى هو مكان التقاء النيل المبـارك بالبحر المتوسط بالقـرب من الإسكندرية والآية الشريفة: ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف: ٧٨] خير دليل على المكان الذى افترق فيه الخضر عن موسى، ويطلقون على المكان الذى افتـرق فيه موسى عن الخضر محلـة مرج البحرين وهى مضيـق بندر رشيد وهو مكان اختلاط النيل بالبحر، والمسافة بين هذا المكان والإسكندرية براً اثنا عشر ساعة وبحراً (   )[1] ميل، أما الإسكندرية فكان ملك على اليونانيين وقد عمر ألف سنة وعلى قول ستـمائة سنة وإنه حكم مـن القاف إلى القاف وأقام سد يـأجوج ومأجوج،

(١) بياض فى الأصل.

وقيل إنه نبى وهو ابن الملك مرزبا من أبناء يافث اسمه مرزبا ولقبه الإسكندر، وعلى قول آخر أنه بنى الإسكندرية بعد أن قام بخت النصر بتخريب مدينة منوف بمائة وعشرين سنة وكان اسمه الإسكندر بن فيش المخزونى، وقد سميت الإسكندرية على اسمه ونظرًا لوجود أربعة أشخاص باسم الإسكندر فتوجد اختلافات كثيرة بسبب ذلك، كما أن الأربعة عَمروا الإسكندرية ومرقوم على أبراج الإسكندرية تاريخ تعمير كل واحد منهم ويقال أن الإسكندر توفى عام ٨٨١ قبل ميلاد النبى ﷺ وهو عائد من بناء سد يأجوج ومأجوج وكانت وفاته فى ديار العجم، ونقل نعشه إلى الإسكندرية وهو الآن مدفون بدير مرقاب، والتواريخ اليونانية أيضًا من التواريخ المعتمدة، وذلك لأنهم دائمًا ما يهتمون بأمور الدنيا، وعلى قول اليونانيين أن الإسكندر هو بن الحكيم فيقلوس وقد ولد فى مدينة قوله بالقرب من سلانيك قبل هجرة النبى بثلاثمائة وخمس سنوات، وأنه أصبح ملكًا على الروم واستطاع أن يسخر لسلطانه الروم والعجم والعرب والهند والسند وقد استطاع أن يستولى أيضًا على إيران بعد هزيمة شاه العجم دارا على يديه فى منطقة قره دره بالقرب من قلعة نصيبين المجاورة لبغداد، وأمر الإسكندر بإسكان الشاه دارا وأهله وعياله فى سهول داراهيه بسنجق منتشه، وقد توجه الإسكندر بعد ذلك بألفى سفينة إلى الإسكندرية واستطاع الإستيلاء عليها من يد الملك سوريد من ملوك القبابطة وسار إلى مصر واستولى عليها أيضًا، وخضع القبط لطائفة العربان الأشرار لسلطانه وكان العربان يميلون له عن القبط، وقد أوقف الإسكندر مصر لدير ياصومنيه الموجود بالقسطنطينية، فقد كان يتم جمع ستة عشر مليون قطعة ذهبية سنويًا من مصر وذهب إلى الرهبان فى أيا صوفيا فى عهد عمر بن الخطاب كانت القُدس وطرابلس وصيدا وبيروت وعكا والرملة وغزة وتيه ودمياط ورشيد والإسكندرية وكل مصر تحت قبضة كفار الروم الإفرنج، بعد ذلك قام الملك الضال نقلديانوس أوتقيانوس بالقضاء على كل المسيحيين الموجودين فى مصر والشام وحلب وإنطاكية وخرب آلاف الكنائس وهذا الملك الضال الجبار هو آخر شخص من عباد الأصنام من قياصر الروم.

بعد ذلك أتى إلى الإسكندرية بالمال الذى غنمه من النصارى وقتله وزيره ويدعى جيلة وبذلك أصبحت الإسكندرية فى يديه ثم استولى على مصر وسار منها إلى بلاد العجم حيث تحارب مع شاه العجم شابور حربًا عظيمة انهزم فيها شابور وانتقلت كل خزائنه وأمواله إلى تيقانوس الذى نقلها إلى الإسكندرية وعمرها، استمر حكم تيقانوس عشرين عامًا، وقد رأى جزاء ما اقترفه من مظالم، فقد تناثر لحمه وأسنانه بدون سبب، ولما هلك تولى بعده ابنه دانيال، وعندما هلك هو الآخر تولى الملك قسطنطين الأكبر وشاء المولى القدير أن يعلو شأن دين الله فقد فتح النبى مكة سنة ٨ هجرية وقد سير خالد بن الوليد فى عشرين ألف جندى من الصحابة الكرام إلى الشام إبان حكم القيصر حزقيل وبأمر الله استطاع أن يُسخر الشام له، وقد ذهبت البشرى إلى رسول الله فقام بإرسال عشرة آلاف جندى إليهم وساروا إلى القُدس وكانت حينئذ فى يد الكفار والروم، وعندما وصلت الجنود إلى الشام كان عمرو بن العاص فى القُدس يشتغل بالتجارة، وبينما كان عمرو يستريح تحت ظل شجرة ظهر ثعبان فجأة وكان ثعبانًا ضخمًا وكان هناك رجل ينام بجانب عمرو هجم الثعبان عليه فقام عمرو فقتل الثعبان بفرع شجرة، فقال له الرجل لماذا قتلت الثعبان؟ فقال عمرو: لقد كاد أن يقتلك وأنت نائم وعندما رأيته قتلته وأيقظتك من النوم، فَهَمّ الرجل بتقبيل يد وقدم عمرو بن العاص، وسأله الرجل: من أى البلاد أنت؟ فقال له: أنا مكّى أتيت للقُدس للتجارة، وجميع أوقاتى مع ناقتى الصغيرة، فقال له الرجل: أنا أسكن فى الإسكندرية فى ديار مصر وقد أتيت للقُدس للزيارة مع الخواجة شماس والحمد لله أنك أنقذتنى من شر هذا الثعبان سوف أمنحك أموالاً وفيرة لذلك، لتذهب معى إلى الإسكندرية وسوف أمنحك ألفين عملة ذهبية وخيام كبيرة وصغيرة وسوف تعود إلى بلادك من مصر.

وقد ذهب عمرو إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام ونزل ضيفًا عند الخواجة شماس ولم يخلف الخواجة وعده مع عمرو فقد منحه عدة لبدات فاخرة، وشاهد عمرو المدينة مع الخواجة شماس وبينما كان يسير فى شوارع المدينة معه كان بعض الأهالى يلعبون لعبة

الكرة وقد جـرت حكمة الخالق أن تـسقط الكرة على رأس عـمرو وتستقر عـليه، وقد تعجب كل الحـاضرين من ذلك جدًا، فقد كان أهالـى الإسكندرية يؤمنون بتـقليد قديم عندهم وهو أنه أثناء لعب تلك اللعبة من تستقر على رأسه تلك الكرة يصبح ملكًا على الإسكـندريـة، فابتـسـم الأهالـى وقالـوا: هل يكـون هذا الـعربى المـكى ملـكًا عـلى الإسكندرية، وعلى الفور قام شماس بأخذ عمرو إلى منزله وبدأ يبحث عن طالع عمرو بعلم الإسطرلاب فوجد أن عمرو سيكون ملكًا على مصر، وفى النهاية أكرمه بأن أعطى له الأموال الـكثيرة ومنـحه عشرة من الإبـل محملة بـالمتاع وودعه إلى الحـجاز، وصل عمرو إلى مكة بعد أن قطع المنازل وطوى المراحل والتقى بأهله هناك وأعطى رسول الله الهدايا التى معـه وأعلن إسلامه وقد ذهب عمرو إلى رسول الله وقد بـشره الرسول بأنه سيكون أحد الـعمرين الذين سيفتحـوا مصر والإسكندرية، وأخذ عمرو يـذكر للرسول والصحابـة مدح مدينة الإسكـندرية وجمال مائهـا وهوائها، وقد ذكر الـرسول فى عدة أحاديث له ترغيبًا للصحابة فى فـتح مصر والقُدس والإسكندرية، وقد قام الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى المقـوقس ملك مصر مع الصحابى أبو حاطب بـن أبى بلتعة وذلك بعد غزوة الحديبـية عام ٦ هـ، ودعا الرسول ﷺ المقوقس إلـى دين الإسلام، ويُقال إن المقوقس امتثل للدعوة وأعلن إسلامه، وقد أرسل المقوقس رسالة إلى النبى ﷺ مع ذى النون المصـرى وأرسل مع الرسالة الـبغلة دلدل، والسـيف ذو الفقار، والجاريـة مارية، وثلاث جوارٍ من الـقبط، وعندما ذهب ذو الـنون إلى مكة وشاهد الـرسول ﷺ أعلن إسلامه وأصبح طبيب النبى ﷺ .

فى بيان فتح قلعة الإسكندرية

بناء على قول المؤرخين أن عمر بن الخطاب رضـى الله عنه قام بفتح القُدس الشريف من يـد الروم الـكفار فـى سنة ١٨ هـجريـة، ثم قام بـعد ذلك بـإرسال أربـعة آلاف وخمسمائة فارس وأربعـة آلاف جندى مشاة بقيادة عمرو بن العاص لفـتح مصر، فقطع ذلك الجيش المنـازل وطووا المراحل حتى وصلوا إلـى المنطقة الواقعة بـين رفح والعريش

فوصلهم هناك رسالة من عمر بن الخطاب يقول لهم فيها: «إذا كنتم قد دخلتم أرض مصر فسيروا على بركة الله وإن لم تكونوا قد وصلتم بعد فعودوا حتى تلاقوا الخوارج فى عمان» وعلى الفور قام عمرو بن العاص بسؤال الأهالى هل هذه المدينة ـ يقصد العريش ـ من أرض مصر، فقالوا نعم، فأرسل عمرو رسالة إلى ابن الخطاب يقول له فيها أنهم وصلوا أرض مصر وأنهم يعتزمون فتحها، وقام عمرو بن العاص بفتح عدة قلاع ثم حاصر قلعة الإسكندرية واستمر الحصار تسعة أشهر كانت حربًا عظيمة، وعندما توفى الملك حزقيل فى عام ١٩هـ وجد الكفار أنفسهم محاصرون فى القلعة من ناحية البحر فأرسلوا الرسائل إلى الروم يستنجدون بهم فى تلك اللحظة كان جنود الإسلام يدخلون القلعة من الأماكن التى تهدمت من أسوارها بفعل المنجنيق، وتم فتح تلك القلعة الحصينة يوم الجمعة من شهر المحرم عام ٢٠هـ وكانت الغنائم تنقل بالإبل فقد كان نصيب كل جندى أربعين ألف عملة ذهبية أما الأسرى وسائر الغنائم الأخرى فلم يكن يعلم حسابها إلا الله، وقد أرسل عمرو بن العاص الرسائل إلى عمر بن الخطاب بالمدينة يبشره بهذا الفتح العظيم، فقام عمر بن الخطاب بإرسال عشرين ألف جندى إلى عمرو مددًا له وقام عمرو بحصار مصر القديمة وقد ذكر ذلك بالتفصيل قبل ذلك.

فى بيان سبب دمار منارة الإسكندرية

دخلت الإسكندرية تحت حكم ملوك كثيرين، ثم دخلت الحكم الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب وآلت من بعد الخلفاء الراشدين إلى الأمويين وكانت الإسكندرية فى عهدهم فى غاية العمران فقد أصبحت كل الأمم المسيحية فى ذلك الوقت ضعيفة لضعف ملوكهم وتكالبهم على الدنيا وحرصهم عليها، لذا فتح الأمويون بلدانًا كثيرة، حتى أنهم أرسلوا الجيوش للقسطنطينية وأسبانيا وتسنى لهم فتح غالاطة فى استانبول ورومانيا وأسبانيا، إلا أن آخر ملوك الكفار سلك طريق الحيلة ضد عبد الملك بن مروان فقد أرسل هذا الملك رسالة إلى الشام إلى عبد الملك مع سفير من سفرائه، وبينما كان

عبد الملك يقرأ الرسالة أعلن هذا السفير إسلامه ورفع يده بالشهادة. وأصبح من المقبولين المحبيين لدى عبد الملك وكان لا يترك عبد الملك أبدًا، وذات يوم قال هذا السفير لعبد الملك بن مروان إن مدينة الإسكندرية مدينة عظيمة وبها كنوز كثيرة لا يمكن وصفها فقد حكمها مئات السلاطين وأقام فيها آلاف الكهنة الذين كانوا يعلمون شتى علوم الكهانة ودفنوا الكنوز بالطلاسم، فلو أنك اعتمدت عليّ بما أعلمه فسوف أستخرج تلك الكنوز وقد ذكر له أنه بتلك الكنوز الكثيرة يمكنه فتح البلدان ويصبح أعظم سلاطين الدنيا.

كان عبد الملك بن مروان طماعًا للغاية، كان لا يعلم أنه بهذا يُسلم مدينة الإسكندرية ليد الكفار لأنه لم يكن يعرف شيئًا فى فن الحيلة، فقد اعتمد على إسلام هذا السفير الأسبانى وأعطاه ألف رجل ليذهب إلى الإسكندرية، وعندما ذهب إلى هناك قام بهدم منارة الإسكندرية وأخذ مرآة الإسكندرية التى كانت طلسمًا عظيمًا من آثار الإسكندر موضوعة بالماء إذا ما دخلت أى سفينة من سفن الأعداء إلى ميناء الإسكندرية فإنها تحترق من تلك المرآة، وأساس هذه المرآة لا يزال موجودًا وظاهرًا عند مضيق القليون الذى يطلقون عليه شاطئ القرد الصغير.

ولوقوع هذا الميناء فى مكان معاكس فإن أى سفينة تضل الطريق وتصل إليه تتدمر تمامًا، ولو لزم الذهاب خلف القلعة يجب الاحتراس جدًا، بعد ذلك قام هذا اللعين باستخراج أربعين مليون عملة من المنار والخلاصة أنه خلال أربعين يومًا استخرج مئات الكنوز المدفونة، وملأ سفينته بتلك الخزائن وركب هو وجنوده وتركوا الإسكندرية خرابًا وفروا هاربين إلى ديار أسبانيا.

وقد وصل هذا الخبر إلى عبد الملك بن مروان فى الشام، فحزن حزنًا شديدًا وأخذ يلوم نفسه على ذلك، وأصدر الفرمانات بترميم وتعمير الأماكن التى هُدمت فى مدينة الإسكندرية وأنفق على ذلك الأموال الكثيرة، وبالرغم مما فعله الأعداء جعل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية أحسن مما كانت.

ولكن مع الأسف لم يكن موجود بها آثار الإسكندر أو طلاسم دلوكة أو علامات سوريد أو كنوز مصرايم ولم يعد هناك أثر لمرآة الإسكندر، واستمر الحال على ذلك ثلاث سنوات، وفى السنة الرابعة تمكن هذا السفير اللعين من جمع كل الكفار وخرج من أسبانيا بثلاثمائة ألف جندى وسفن لا تحصى قاصداً مدينة الإسكندرية ونزلوا بها واستولوا على قلعة الإسكندرية وأقاموا بها سنة ونهبوا بقية الكنوز التى كانوا قد استولوا عليها قبل ذلك، وملكوا بذلك أموالاً لا تحصى، وعندما تمكن من ذلك أمر بتحميل كل الكنوز والأموال على السفن بعد أن هدم كل الآثار العجيبة والطلاسم الغريبة الموجودة فى الإسكندرية وفر هاربًا بالسفن إلى أسبانيا وقام بنهب كل الأماكن التى كانت فى طريقه إلى أسبانيا.

وقد عمرت أسبانيا بهذا المال، ويطلقون على المدينة الكبيرة هناك المدينة الكبرى ويطلقون اسم قرطبه وطنجه على مدينتين تقعان فى المغرب، وقد عُمرت تلك المدن على أطلال مدينة الإسكندرية أى أن عمرانها كان على حساب خراب مدينة الإسكندرية، أما الآن فتوجد بالإسكندرية آلاف العلامات والآثار الظاهرة التى تدعو للعبرة، وعندما دخل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية هذه المرة أعلن أنها ستكون مدينة العرش لمدة سبع سنوات، وأعلن أنه اعتزم الانتقام من الأعداء، وفى غضون سنة جمع جنده وكانوا فى كثرة مثل البحر وسار بهم فى ألفى سفينة شراعية إلى أسبانيا وقام بفتح المدينة الكبرى بها وفتح مدينتى قرطبة وطنجة بالمغرب ومئات المدن الأخرى وغنم من الأموال الذهبية ثلاثة آلاف صندوق وبنى منها جامع بنى أمية فى مدينة الإسكندرية والشام الشريف وهو يشبه الجنة.

والطائفة المسلمة الموجودة بأسبانيا حاليًا هم أبناء جنود عبد الملك، كما فتح عبد الملك مدينة القسطنطينية بهؤلاء الجند وتصالح مع أهلها على أن يدفعوا خراجًا سنويًا يقدر بخمسمائة ألف قطعة ذهبية كل عام، ودخل جند الإسلام مدينة الإسكندرية سالمين غانمين بعد أن انتقموا من الكفار الظالمين، واستقر عبد الملك وسائر جند الإسلام سبع

سنوات كاملة بمدينة الإسكندرية، وبعـد أن آلت الإسكندرية إلى عدد من الملوك استولى عليها الكفار فى خلافة الظاهر بيبرس، لكـنه استخلصها منهم، وكم من مرة وهبها الله لعدد من الملوك ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فهذا يأخذها وذاك تؤخذ منـه، وذلك ينهزم، والعـقل قاصر وحائر أمام مـا يجرى، الله سبحانـه وتعالى الفاعل المختار، ولا يسأل عما يفعل، هذا ما جرت عليه إرادته الأزلية تعالى شأنه وعم نواله ولا إله غيره:

كم مـن عمل التـوى ... وكم من معوج استوى
إنـه العجـب العجـاب ... والبـنــاء برهـان ذلك

فى عام ٥٦٢ هجرى حينما كان المتقى خليفة للعباسيين تغلب عضد الدولة الفاطمى على قلعة الإسكندرية، أما الخليفة المتقى فَسَيَّر إليه جندًا تحت إِمرة أسد الدين شيركوه، وأمَّر ابن عم شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب على جيوش قصدت الإسكندرية، فاحتـشد جيش مصـر والشام فى موضـع واحد واستردوا الإسـكندرية من يـدى عضد الدولة صـلحًا فزفوا بـذلك البشرى إلـى نور الدين فـى دمشق، وأصبح صـلاح الدين الأيوبى حـاكم الإسكندريـة، وفى العام نفـسه اتحد عضد الـدولة مع الفرنْـجة وضرب الحصار على صلاح الـدين فى الإسكندرية، وشاور وزيره فى الصـلح مع صلاح الدين على أن يدفع لصلاح الدين خمسين ألف دينـار ذهبًا، فأعطى صلاح الدين الإسكندرية لعـضد الـدولة، كمـا أعطـى عضد الـدولة الـفرنجة الـذين قـدَّموا إليـه المدد نـصف الإسكندريـة، وفى هذا العام تم استيلاء الـفرنجة على مصر، وإلى عـام ٥٦٣ هـ ظلت مصر فى حوزة الفرنجة.

واتَّصل السلطان الغورى بالشاه إسماعيل الصفوى فأرسل إليه الغورى مددًا قوامه اثنا عشر ألف جندى من المُشَاة، وفى وادى (جلردر)[1] لاقى السلطان سليم بهذا العسكر فكانت الغلبة فى الوهلة الأولى لعسكر العجم. وبينما كانت الدائرة تدور على العثمانيين، أطلق إيَاس باشا وهو قائد الانكشارية ثلاثمائة مدفع دفعة واحدة وأعمل العثمانيون السيف فى العجم.

وبعد أن حمى وطيس المعركة سبع ساعات تعلق الشاه إسماعيل بأذيال الفرار وفى معيته سبع رجال ونهب العثمانيون ما فى الخزينة من المال، ووقعت تاجلى خاتون زوجة الشاه إسماعبل فى الأسر، وقد قدموها أمانة إلى جعفر چلبى، ولَمَّا رأى السلطان سليم الجند المصريين مجندلين فى سهل جلدر قال: (بسم الله النية على محاربة الغورى)، وعاد منصورًا مظفرًا من جلدر. وانطلاقه إلى قيصرية، بعث جندًا تحت إمرة فرهاد باشا إلى علاء الدولة حاكم مَرْعَش وهو من أولاد ذو القدر، فواجهه فحشد علاء الدولة مائة رجل من التركمان واحتدمت المعركة بين الفريقين سبع ساعات ولحقت الهزيمة بعلاء الدولة، وقدم الغنائم إلى السلطان سليم وقد تدحرجت أمام باب القصر كما تدحرج الكرات إذا ضربت بالصولجان فأرسلوا رءوس أبناء علاء الدولة وغيرهم إلى السلطان الغورى فى مصر مع رسالة جاء فيها: (نحن جند الإسلام نجاهد فى سبيل الله وقد رأينا وجوب القضاء المبرم على علاء الدولة حاكم مرعش الذى كان يقطع الطريق ويسلب وينهب، ولقد عملنا بالآية الكريمة: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانعام: ٤٥]. ولقد تخلص العباد من شرهم، وأن معونتك للقزل باش[2] لا يليق بمسلم، وعلى ذلك قامت الحجة فى المذاهب الأربعة ولدينا الفتوى وسوف ندخل مصر محاربين فى الربيع).

---

(١) وهو ما يعرف باسم چالديران.

(٣) القزل باش: معناها أحمر الرأس. وهو اسم يطلقه السنيون عمومًا على الشيعة من العثمانيين فى الأناضول هم وطائفة من التركمان والبدو، وكانوا يلبسون حمر القلانس وكانت عشائرهم على المذهب الشيعى. (بتصرف واختصار) معجم الدولة العثمانية ص١١١.

وفى عام ٩٢١ من القسطنطينية البلد الطيب خرج الجيش العثمانى إلى اسكودار بعد طى المنازل والمراحل، بلغ سهل مرج دابق على مقربة من حلب حيث حارب جالوت داود ـ عليه السلام ـ وانهزم جالوت، ونزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولحق السلطان سليم بثمانين ألف مقاتل بجيش الغورى الذى انهزم أمامه وفرّ الغورى إلى حلب ثم إلى دمشق وبعدها إلى مصر، ودخل سليم ظافرًا إلى دمشق، وقضى الشتاء فيها، وفى الربيع انطلق إلى مصر وعبر بجيشه وادى أمّ الحسن وغلب على مدينة بلبيس، وفى كمين أعدّه الغورى وفى جبال عباس انقض الغورى على جيش سليم بغتة فى السحر، ودارت المعركة إلى وقت غروب الشمس، وأسفرت المعركة فى النهاية عن قتل رءوس عسكر الغورى، ووجدت جثة الغورى بلا رأس على سجادة وقالوا إن الغورى زايل دار الغرور إلى دار بوار.

* خلاصة القول أن سليم قد بلغنا به غايته على وجه الإيجاز فيما يختص بفتح السلطان سليم لمصر ولقد تم له الفتح لمصر بعد أن خاض ستين معركة، وعين خيره بك واليًا لمصر وهو الذى استوزره الغورى من قبل، كما عين كمال زاده باشا قاضيًا للعسكر، وأجرى فى النيل ألف سفينة وبهذه السفن بلغ مدينة رشيد وبعد ذلك ضرب الحصار على قلعة الإسكندرية برًا وبحرًا، أما ما كان فى القلعة من جند الشراكسة فطلبوا الأمان وآثروا النجاة وقدموا مفاتيح القلعة إلى السلطان سليم، وتم له هذا الفتح عام ٩٢٣هـ وجعل سليم مصر ولاية ذات إقليمين ومنح إقليمًا لقبطان بحريته حسام باشا، وأمره بأن يحافظ على الموانى المصرية بأربعة سفن حربية وأمر أن تقدم كل قرية كيسين فى كل شهر فى الديوان، وقد حكم القبطان حسام باشا مصر، وفى ميناء الإسكندرية سفينتان حربيتان له، وكان على كل سفينة ترسو فى ميناء الإسكندرية وأبو قير، والإسكندرية القديمة أن تدفع دينارًا ذهبيًا وكان يتحصل من البلاد ثلاثون كيسًا، ولم يكن فى الأقاليم تيمار[١] ولا زعامات[٢] ومن قبل وزير مصر رفيع المنزلة،

(١) أرض زراعية كان سلاطين العثمانيين يمنحونها لمن يتعهدون بتقديم عدد من الفرسان للدولة عند قيام الحرب، وذلك حسب ما تغل هذه الأرض.

(٢) الزعامت: أرض زراعية كانت تقطعها الدولة للمحاربين، هى أكبر من التيمار.

وكان يتولى أمانة الجمارك فى الميناء، وكانت كل سفينة تدفع العشر الشرعى وكانت نتيجة المحاسبة مائة وخمسين كيسًا، وكان كيسان يوزعان على الأئمة والخطباء، ولكن بعض الوزراء كانوا لا يدفعون هذا الجمرك، وكان للجمرك حمالون من اليهود والروم والمسلمين وعددهم سبعون، وكان هؤلاء ينالون مرتباتهم من دخل الجمارك.

وفى قلاع الإسكندرية الخمس ألف جندى، وكانوا ينالون من الجمرك علوفة[1] قدرها أربعون كيسًا وباقيتها للوالى وكانت سفن للفرنجة تأتى إلى الإسكندرية والمتحصل منها مائة كيس، وكان نصيب العلماء فى العام خمسًا وعشرين كيسًا، وكان على شاطئ البحر قلعة أبو حور وكان يتحصل لها من ميناء الإسكندرية ومن سفن الإسكندرية ثلاثمائة أو أربعمائة پاره[2]، وكانت هذه السفن ترسو فى ميناء الإسكندرية، وكانت تثير النزاع والخلاف على الدوام وسكن القلعة سنان باشا.

أوصاف قلعة أبو قير

ويقول العرب إن أبو قير بنيت على صخرة فى البحر ولذلك تسمى بهذا الاسم، وفى إحدى الروايات أن أحد الأولياء هو أبو قير حمد الله مدفون فيها وسميت القلعة باسمه، ولكن يتردد على ألسنة الناس أنها تسمى أبو حور ولا وجود لأثر للقلعة القديمة. إن لها ميناءًا عظيمًا، وكان الكفار يجعلون من هذا المرفأ كمينًا لسفنهم وكانت سفن المسافرين الآتية من رودس تلجأ إلى هذا الميناء، وآخر الأمر تحدث والى مصر الطواشى للسلطان سليمان، فأمر السلطان بأن تنفق الأموال من الخزانة فجدد بها القلعة خادم سليمان باشا، وسليمان باشا هذا هو من جعل ثلاثة قبور فى مصر على طراز جوامع استانبول وكان وزيرًا مدبرًا صنع ثلاث مائة سفينة حربية فى السويس وجعل فيها عشرين ألف جندى مع خيولهم، وغادر السويس إلى بلاد الهند، وحارب مدن أحمد اباد وديو اباد وميناء حيدر اباد، وانتزعها من يد البرتغاليين واستولى على كثير من

---

(١) راتب كانت تدفعه الدولة كل ثلاثة أشهر قمرية.
(٢) پاره: بمعنى قطعة أو جزء فى اللغة الفارسية وهى أقل عملة عثمانية.

الغنائـم، وبعد سبعة أشهـر وهب هذه الموانى إلى ملـك الهند، وأخذ من ملـك الهند أموالا كثيرةً، وعادت السفن الحربية الإسلامية من الهند.

ومضى سليمان باشا إلى مكة المكرمـة فأدى مناسك الحج، ثم زار قبر النبى ﷺ فى المدينة، وشاع أن سفينة غادرت من جدّة إلى ينبع وبعد ذلك بنى قلعة أبو قير وهى قلعة صغيرة محيط جدرانها الأربعة ستمائة خطوة وهى مستديرة الشكل، ولها باب حديدى، أمامها خندق عليـه جسر وهذا الجسر يرفع فى كل ليلة، وعلى باب الـقلعة كتب بالخط الجلىّ (أمر بإنشاء هذه القلعة المباركة فى أيام مـولانا السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن سليم خان ابن با يزيد خان ابن محمد خان ابن مراد خان).

وبعد إنشاء القلعة بـعام، أقيم فيها جامع صغير، وله منارة غيـر مرتفعة كما أن فى القلعة مخزنًا لـلأسلحة ومخازن للغلال وصهاريج للماء، وفيـها ثلاث مائة جندى وفى داخل القلعة خمـسة دكاكين، ولا وجود بداخلها لخان ولا حمام، وقـد دفن فى القلعة أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلانى وقد دفن فى غار ينزل إليه بسلم حجرى من عشر درجات، واسمه أبـو قير حمد الله، ولذلك يـسمون هذه القلـعة قلعة أبو قيـر، وفيها سبعون مدفعًا، وبذلك لا يستطيع الفرنجـة دخول الميناء، ويوقد مصباح فى داخل القلعة كل ليـلة، وبها فـانوس عظيـم ويبدو على بـعد مائة مـيل، وخارج القـلعة مائـة بيت وعشرون دكانًا ومقهيان وثلاثة طواحين تديرها الخيل، ولكن لا وجود لحمام، وخارجها ميناء عظيم يحوى ألف سفينة وهذا الميـناء يأمن عصف الرياح، وعلى بعد ميل من هذا الميـناء جزيرة فـى البحر وقـد وصلتـها بأمر إبـراهيم بـاشا، وعلى هـذه الجزيرة قلـعة لحراستها، وقد بَلَغْتُهَا فى معية أهل رشيد وأهل الإسكندرية، وقد اكتشفنا صخرة كبيرة فى البحر، وبين قلعة أبو حور والنيل أرض واسعـة ولا تستطيع سفن الفرنجة أن تقترب وهى ترى جند المسلمـين عن بعد، فكانت ترفع الأعلام البيض مستـسلمة، ولما أطلقت المدافع من الـقلعة على سـفن الأعداء اشتعلـت فيها النار وغـرقت بمن فيها وأصـبحت مظهرًا للآية الشريفة فـى السفينة خرقها: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]. وأحرقت السفن وغرق كل من عليها، وانتقلوا إلى دار السعير.

واتفق أن أصيبت سفينة بمدفع فتخرقت السفينة وجعلت تميل يمنة ويسرة وأطلق بعض الألبان المدافع ففرح بذلك عمر أغا ورفع صوته قائلا الله الله، وكان اليوم يوم عيد الأضحى، وقال الناس لى إنى أنا كنت سبب هذا النصر، وفى اليوم جاء رئيس الجند وقدم خلعة لحارس القلعة كما منح الخلعة لجنود المدفعية ومنح حارس القلعة عطاء جزيلاً.

وجملة القول أن ميناء أبو حور ميناء عظيم، وقلعة أبو حور تعد من الأقاليم التابعة للإسكندرية ويحكمها صاحب القلعة وهو يحاسب محاسبة صحيحة، والإسكندرية ناحيته وهو نائب التسجيل.

ومن العجب:

أن فى هذه القلعة امرأة لها هيئة المجنونة وهى تبقى شهور الشتاء الست فى البحر وتضع رأسها على الشاطئ وكل جسدها فى الماء وبعض المواضع فتسيل منها الدماء، وبينما كان أحدهم يبحث عن الأسرى فى الشاطئ وجدوا هذه المرأة فقدموا إليها قطعة من خبز لتدفع به جوعها، ولكنها تخرج من البحر فى أيّام الصيف وتنام على الرمال الحارة وقد تفرق شعرها، ومن يشاهدها يذهب عقله، إنها بدينة مفرطة البدانة وقد دامت على هذه الحال ستين عامًا، ويقال إنها لا تكلم أحدًا قط، بل تظل صَمَّاءَ بكْمَاءَ وقد دعت لى فلما وصلت إليها أخرجت لى من جبتها رغيفًا أبيض وفى داخل هذا الرغيف عشر تمرات وثلاثة دنانير ذهبية فيا لها من امرأة عجيبة، وسمح حاكم القلعة بعشرة من الجند حاملى البنادق وشاهدت الصيادين وهم يصيدون السمك على الشاطئ.

وفى الناحية القبلية للبحر، حتى لا يغرق إقليم البحيرة، أقام إبراهيم باشا سدّاً بين الإسكندرية ورشيد، كما توجد مساكن للعرب، وقد جزتها ولكن شاهدنا ثمانية من الفرسان العرب وجرت دماءهم وقدم أهل الإقليم ونائبه وحملوهم إلى القلعة حيث دفنوا، أما من جرح بالرماح فحملوا أيضًا إلى قلعة أبو حور، ووصلت مع رفقائى إلى:

خان معديّة لَشْتُوم

وركبنا فى سفينــة وعبرنا إلى الجانب الآخر، فوجدنا خانًا عظـيمًا، وكان ثمة ضابط من قبل حــاكم البحيرة يراقب الــسفن القادمة ويفتــش القادمين والعائدين، وكــان يقيد اللصــوص منهم، وكان يتــولى هذه المهمــة خمسون أو ستــون من الجند، وهناك نــزلنا ضيوفًا فــى خان من أوقاف محمــد باشا فى رشيد وهــو خان عظيم وليــس بجوار هذا الخان صهريج من الماء العذب.

ويجبى الأغا من أصحــاب الجمال والخيول والبغال والحمير ثلاثة أكــياس يقدمها إلى كاشف إقــليم البحــيرة ولا تفضى هــذه الطريق إلى الإســكندرية والــسفينة هنــاك ملك لكاشف البحــيرة وهو على الدوام يرممها ويعمــرها. وثمة نهير إلى إقليم الــبحيرة حيث ينتهــى ببحيرة وهى بــحيرة تحيط بهــا أربعة قصور وماؤهــا مَالِحٌ، ولذلك سمــى إقليم البحيرة بالــبحيرة مائة وستين عامًا تغرق الــبحيرة ثمانين قرية، وفيهــا ألف قارب تصيد السمك، وقد أقاموا سداً متينًا أمام الإسكندرية حتى لا تصل مياه هذه البحيرة إليها.

ويروى الإسكندريــة الترعة الناصرية، ومــن الإسكندرية تمضى إلى هــذه الترعة آلاف الــسفن، واقتضت حكمة الله أن يقبض كاشــف البحيرة على المجرمين العرب الذين أغاروا على مــساكننا، وفــى الصباح وضعوا على الخاروق سبعة منهم، ومــضينا أربع ساعات فى أرض رملية حتى وصلنا شاطئ البحر كما تجولنا ساعة فى أرض ذات نخيل.

أوصاف إدكو

يقال لها فى العربية (   )[1]، وتقع فى ناحية ميناء رشيد، تغل مائة أقچه[2]، ومحصولها السنوى ثلاثة أكياس، إنها على ضــفة البحيرة فى مكان مرتفع، تضم أربعة آلاف بيتُ، سبعــة عشر محلة، وعشرين مــحرابًا، وستة جوامع إضافــة إلى المساجد، وبها ثلاث وكالات، وثلاثــمائة دكان، ولكن لا سوق ولا حمام فيهــا، وشوارعها غاية

(١) بياض فى الأصل.

(٢) عملة كانت تستخدم فى الدولة العثمانية منذ أول نشأتها سُكّت من الفضة.

فى الضيق تتسع لمرور اثنين بصعوبة بالغة وكل بيوتها تطل من الناحية القبلية على البحيرة إنها قصبة جميلة ضيقة، وكل مياهها مياه آبار إلا أن بها بعض الملوحة، وكل أهلها من وجوههم غاية فى الثقل ولون وجوه أهلها يميل للصفرة، وليس بها جمال لنسائها ولا رجالها، والفقراء فيها كثير، وفى الجانب الجنوبى منها تغرق البيوت، ولذلك غادر بعض أصحاب البيوت بيوتهم، كما يغرق الناس آخر الأمر، ومن الحق أن قوم البحر تتفاوت أحوالهم من يوم إلى آخر، والطريق إلى رشيد طوله ساعتان وعرضه ساعة واحدة، وثمة بساتين للنخيل، ومنها نخلات طوال الواحدة منها بطول قامة الإنسان، وكل نخلة تثمر مائة آقة من التمر الأبيض والأصفر والأحمر والأسود، ولها تمر لذيذ مختلف الأنواع، وهى بلد تكرم وفادة الغرباء ولكنهم يملكون جامعًا أبيض جميلا، وتبدو بها سبع منارات.

بيان من دفن فى أدكو من كبار الأولياء

فى غرب المدينة على شاطئ الخليج الشيخ سلامة، وأخوه الشيخ صنع الله والشيخ عبد الرءوف والشيخ عبد الخالق وهم فى ضريح أبيض جميل، وبالقرب منهم على شاطئ الخليج فى ضريح مرتفع الشيخ عبد الله المَغْرِبى، وعلى شاطئ الخليج خمسة أضرحة بيضاء هى مرقد الشيخ سلامة ابن الشيخ مجيب الدين وفى هذه الأضرحة الخمسة دفن أبناءه وفى الناحية الشمالية دفن الشيخ خلف، والشيخ محمد حميدى.

وفى الناحية الشرقية الشيخ سيد محمد چلبى وهو خليفة السلطان أحمد البدوى، وفى الناحية الغربية الشيخ محمود چلبى، والشيخ منصور، وعلى مقربة من جامع كرد بك الشيخ سيد إبراهيم، وجامع سيدى على الجبرتى، وهو مدفون كذلك فى الجامع، وفى ساحة الجامع الشرقى دفن الشيخ هارون نهاوى، وقبره يزار وبعضهم يقرأ على روحه (يس) وبعضهم يقرأ (الفاتحة)، وطلبنا المدد من روحهم الشريفة ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ، وعبرنا أرضًا ذات رَمْلٍ إلى الشرق، وبلغنا ساحل البحر

الأبيض، وفى الرمال علامات تدل على طريق رشيد وتابعنا السير. ووصلنا إلى رشيد من إدكو فى أربع ساعات.

أوصاف ميناء رشيد

وسبب تسمية المدينة برشيد أنه بعد الطوفان مَلَكَ مصر بيظر بن حام وأخوه الأكبر سام وقد دعا نوح بالخير لحفيده، وبعث بـه إلى مصر، وكانت له فيها ذرية، وأنجب فى مصر ذرية من ثلاثين ولداً، ولذلك سمى بأبى الأقباط، وانتشر كل ولد منهم فى مصر وبنا له مدينة وكان لـولد منهم اسم رشيد وبما أنه بنا هذه المدينة، لـذلك سميت المدينة باسم رشيد، إن النيل يصب فى البحر الأبيض عندها وهى مدينة عظيمة إنها عروس مصر، ولها حكم الإقليم، وقدره فى كل عام من ديوان مصر اثنا عشر كيساً، ولرشيد قائم مقام يتولى إدارة شئونها، وجميع السفن والحمالين تحت حكمه، وهو يقدم إلى الوالى سنوياً مائة وخمسين كيساً وراتبه عشرة قروش فى اليوم، وتحت رياسته مائة وخمسون من خدم الجمرك، وجميع القرى تخضع للالتزام، وفى المدينة أكثر من الفى سوق، ولا وجود فيها لبيت خرب، وجميع بيوتها ذات أسطح وهى من طابقين أو ثلاثة أو أربعة، وكل بيوتها مخازن للأثاث. ويصعد إلى أبوابها بسلم من الحجر، وفى الطابق الثانى أبواب، وفى هذه المدينة خانات لنزول الضيوف، وفى الطوابق العالية، النوم، وعدد بيوتها تسعة آلاف بيت وستمائة، وهى للمسلمين، وفيها أربعون محلة ومائتى محراب، وسبع محلات لليهود، ولكن لا وجود فيها لمحلات للفرنجة والأرمن والغجر، إلا أن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة.

وثمة محلة للقبط واليهود، وأعيان مصر يعتمدون عليهم ككُتَّاب لهم، مما سبق ذكره نتبين أن البيوت فى رشيد اثنا عشر الف بيت، وفى هذه المدينة تؤدى صلاة الجمعة، وفيها كثير من الجوامع، وفى الميناء جامع كبير يسمى جامع زغلول محمد، طوله مائة وسبعون خطوة، وداخل هذا الجامع مائتان وستون عموداً من المرمر على رءوسها قباب، وفى أطراف حرم هذا الجامع مائة وخمسون قبراً، وفى داخل الجامع أربعة محاريب للمذاهب الأربعة، وثلاثة محاريب كبيرة وواحد منها صغير، كما أن له قبة ومنبر صغير

من خشب، وشرفتان للمؤذن وله حَرَمَان صغيران، وفى وسط الحرم الأيمن سبيل، وللجامع ستة أبواب وله منارتان وهما عاليتان، ومن ثلاثة طوابق، وفيه مقصورة دفن فيها محمد زغلول وأربعة من أوجه رجال الإفْتَاء، إنه جامع واسع كان فى أول الأمر جامعًا صغيرًا، وتاريخه مكتوب على أعلى بابه وهو:

(أمر بإنشاء هذا الجامع الجديد السيد محمود).

وجامع العطار يصعد إليه بسلم حجرى يتألف من خمس درجات، وجامع (تق نهيمه) مبنى على ثمانية أعمدة من الرخام، وهو صغير يتسع لمائتى مُصَلٍّ، وله ثلاثة أبواب ومنارة، ويصعد إليه بسلم حجرى يتألف من خمس درجات.

وجامع عبد الله يتسع لمائة مُصَلٍّ، وهو غاية فى الصغر وله منارة قصيرة، وجامع الخواجة وهو جامع مرتفع، وله منارة وبما أنه على المرفأ يؤمه ناس كثيرون، ويصعد إليه بسلم حجرى يتألف من عشرين درجة.

وجامع الأمير أحمد أغا جامع مرتفع جميل وهو على شاطئ النيل وطرفاه على الطريق العام، ويصعد إليه من ناحيتين بسلم من الحجر، ويقع على شاطئ النيل وبداخله عشرة أعمدة من الرخام، وعلى باب قبلته:

(وعمر هذا الجامع الأمير أحمد أغا سنة اثنين وستين وألف).

وله منارة جميلة ومؤذن وإمام وخطيب، ويزدحم بالمصلين، وفى داخل الميناء جامع جمال الدين أغا، وهو جامع مرتفع ويصعد إليه من جانبين بسلم حجرى وهو جامع مرتفع.

وثمة سبعة مخازن ودكاكين على الطريق العام، وفى داخل الجَامِع اثنا عشر عمودًا من الرخام عليها سقف مزخرف، وله قبتان، وعلى القبتين تاريخ هو:

(أن عين العلا على الفعال، خاتم الجود من سما بالجمال. قلت تاريخ أنشا على الجمال جامع لمن اللطيف محكمًا بالجمالى سنة ١٠٧٤).

وهذا الجامع ليس له حرم ولكنه يزدحم بالمصلين ليلا ونهاراً، وله منارة قصيرة، وفى صُفَّتِهِ الداخلية قيشانى أرض المغرب فى بعض مواضع منها، وهو لصاحب الخيرات أحمد باشا وهو أحد الأثرياء، وقدم إلى رشيد من مسقط.

وجامع الزمين جامع تحتانى يزدحم بالمصلين له سقف منقوش مقام على أحد عشر عمودًا، وله ثلاث قباب، ومنارته قصيرة وهو جامع صغير.

وجامع العراقى يصعد إليه بسلم يتألف من خمس درجات، وبه عشرة أ عمدة تحمل سقفًا مزخرفًا، ومنبره من الخشب وله ثلاثة أبواب، ومنارته قصيرة ولا حرم له والعراقى مدفون على يسار المحراب قدس سره.

وجامع نَسِى يقوم على ثمانية أعمدة، وهو صغير، وثمة مساجد أخرى، وتبدو لها خَمْسٌ وعشرون منارة.

ثمة سبعون من الخانات ومنها خان (قول قران) محمد باشا، وهو يشبه القلعة، ويتألف من طوابق، وخان أحمد باشا، وخان أيبك، وخان قنا خان خواجه أحمد أغا، وخان قاسم بك، وخان مصطفى بك، وخان إسحاق أفندى، وخان سنان باشا، وخان على جمال الدين، وهى خانات مشهورة ويسكن كلا منها خمسين أو مائة أسرة، كما أن لها بابًا من حديد، وبها سبع مدارس، وسبعون مكتبًا للصبيان، وستة سبل وثلاثة آلاف وأربعون دكانًا، وسوقان، لها بابان من حديد، وفيها مائة دكان وكلها أبنية متينة، وفيها تباع الألبسة والأقمشة الفاخرة وفيها سوق لبائعى الجواهر، وسبعون مقهى ومائة طاحونة تديرها الخيل، وأربعون طاحونة زيت، وأربعون مصبغة وثلاثون مضربًا للأرز وستة آلاف وستون مخزنًا، وسبعون حانة، وتمتلئ كل منها بمدمنى الشراب وعشرة حانات للبوظة وخمسة حمامات وحمام الحاج نعمت الله نظيف طيب الهواء يأتى إليه ماء النيل بدولاب فيه، وخدام هذا الحمام ثيابهم نظيفة والدلاكون فيه ثيابهم نظيفة، وكذلك خدامهم، ولكن هذا الحمام جديد، ويقال إن الحمام القديم هو النافع وقد بنا السلطان سليم بها حمامًا، وهو حمام عتيق، وإذا وضع فى حوضه مصاب بالجذام شفى

بإذن الله بعد أربعين يومًا، وحمام البوستانجى حمام كبير، أما حمام خواجه عبيدى وحمام قوبدان باشا فحمَّامَان للخواص والعوام، وجو هذه المدينة يشبهه جو بلاد الروم، وفيها يهطل المطر بغزارة، وينزل الجليد والبرد لأن مدينة رشيد فى أول الإقليم الثالث، ولذلك فيه من الفتيات والفتيان من العرب من يتصفون بالجمال، ويتكسب أهل رشيد من التجارة، ونصفهم من أهل الحرف؛ ولذا فإن أهل هذه المدينة فى رَغَدٍ من العيش، ويقيم بعضهم للبعض الولائم فى كل ليلة، ويقيمون المولد الشريف فى الليلة خمس أو عشر مرات وفى الأسبوع يقيمون حفلات العرس أربع أو خمس مرات، ويباع خمسون رغيفًا من الخبز الأبيض ببارة واحدة، والرطل الإسكندرانى من اللحم ببارة، كما يباع قنطار السكر بعشرة قروش، ويباع أردب الشعير بمائة، ويأتى إليها ألف سفينة فى العام، وفى المدينة حدائق ذات بهجة وفيها تين وجميز وخوخ وليمون ونارنج، وعلى ضفتى النيل حدائق وبساتين وكل ما أنعم الله به على الإنسان موجود فى هذه المدينة، ويلبس أعيان المدينة فرو السمور والجوخ والثياب الفاخرة، أما الطبقات المتوسطة من أهل المدينة، وهم أهل حرف، فيلبسون الثياب ذات الألوان. والأغنياء يلبسون حرير دمياط والفرسكور الملون، والفقراء يلفون حولهم ثوب الإحرام وهم يعيشون فى كفاف ويكدحون، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة لهم بيوت صغيرة يقيمونها على الرمال، وليس فيها بعوض، أما نصف المدينة إلى شاطئ النيل ففيها بعوض يشرد النوم، ولذلك ينام كل واحد منا فى كِلَّة[1] دفعًا للبعوض، وأهل هذه المدينة يأمنون الذباب، وطول المدينة إلى تكية عبد القادر الجيلانى ألف وخمسمائة وعشرون خطوة، وعلى ضفة النيل قصور شامخة وفى النيل مرافئ يُنزلون فيها البضائع من السفن وجميع المنازل التى على ضفة النيل تطل نوافذها عليه، وشوارعها واسعة نظيفة وهى ستمائة وعشرة، أما أهلها

(١) الكِلَّةُ: ستر رقيق ذو ثقوب يرفع فوق السرير ليتوقى به من البعوض وغيره. انظر: المعجم الوجيز، ص٥٤٠.

فهم يحبون ويكـرمون الغرباء ولا يخرج النساء إلى الطريـق إلا إذا اضطرتهن إلى ذلك ضرورة ملحة، والناس يشعلون المصابيح ليلاً ويزورون ذوى قرباهم، وتجول النساء فى السوق يعد عيبًا كبيراً، وقد كتبت أوصاف هذه المدينة على حد علمى، ولو خضت فى التفاصيل لاقتضى ذلك منى مجلدًا فاكتفيت بما ذكرت.

قبور الأولياء داخل وخارج المدينة

فى وسط السوق السلـطانى بالمدينة قبر الشيخ سيد عـلى المحلاوى، وقد تحدث عنه الشيخ الشعراوى فى كـتابه (الطبقات)، إنه مدفون فى موضع بالـقرب من جامع الشيخ منصور، وله ضريحٌ عظيم، وبجواره قبر الشيخ عبد الله الصانت وضريح الشيخ محمد البرى والشيخ أحـمد طوقا وقبر الشيخ أحمد المـَغْرِبى والشيخ سيد عثمـان برهانى وقبر الشيخ سعيد سعد الله وقبر سيد محمد الشندويلى، وفى رشيد القديمة على شاطئ النيل وفى الرمل قبر الشيخ سلطان بالقرب من جامع فى كوم أفراح، وكل السفن التى تمر به يقرأ من بها له الفـاتحة، لأنه قطب عظيم ومناقبه لا تدخل تحـت حصر، وله تكية تزار وفى هذا الموضع كذلك دفن كبار الأولياء، وثمة نحو مائة قبر لم يتيسر لنا معرفة أسماء مَنْ فـيها، وفى هـذه الجهة مقـبرة رشيـد ولله أحمد أنى سـألت عن هؤلاء الأقـطاب فوجدتهم وقد مرغت وجهى على ضرائحهـم وعرفتهم رحمة الله عليهم أجمعين، وفى غرب رشيد حدائق ونخيل، وتجولنا فيها ساعة وامـتطينا خيولنا وكم من حديقة شاهدنا وفى بعض الحقول أكلنا ثماراً يانعة.

أوصاف قلعة رشيد

هى التى بناها الظاهر بيبرس خوفًا من الفـرنجة، وتقع على شاطئ النيل، وبعد بنائه لها بعام واحد وَسَّعها السـلطان قايتباى، وعلى بابها هذا التاريخ:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البرج المتين السـلطان المالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى عَزّ نصره سنة ثمانمائة).

وفى داخل القلعة دار للمشرف عليها ومخزن لـلقمح وصهريج يستمد ماءه من النيل وجامع قايتباى وأربعون بيتًا للجند، ومحيطها مائة خطوة، وكـل الأبنية التى فى داخل القلعة أقامـها قايتباى، وأقام على باشا بـناءًا مربعًا خارجها وهو قلـعة من طابق واحد وهذا البناء بناءٌ رصين، وفى كل ركن من أركـانه الأربعة برج وكل برج من هذه البروج قلعة حصينة ومـحيطها أربعمائة خطوة، وفى أرض كثيرة الوحـول لا خندق فيها، ولها باب من حديد يطل على الجنوب، وعلى الباب تاريخ يأخذ منه أن بانى القلعة هو على باشا وزير الرى العادل، وداخل الـقلعة ستون بيتًا للجند، وفى ركـن داخل القلعة دفن حسين كوردى وفى القلعة سبعون مدفعًا، ومخـزن أسلحتها عظيم، ولها مشرف، وفيها جنود، ينالون مرتباتهم من الجمرك.

وثمة قلعة تجاه نهر النيل وهى قلعـة أحمد باشا، وهى فى موضع كثير الرمال، وقد تخربت عـلى مر الأيام، وبعض آثـارها ما زالت ماثلة لـلعيان، ولها مـشرف وجنود، وبيوتها بين الـنخيل، ولكن عشرين منها قـد انْهَدَمَ، وبين النخيل بيت للـمشرف فيها، وعشرون بيت للفقـراء. وكانت قلعة معمورة قديمًا، وكانت مع قلـعة رشيد الواقعة فى مدخل مـيناء رشيد، وضـريح أحمد دده فى قـبر أبيض بـداخلها، وقد شـاهدت هذا الموضع كذلك، والسفن تجرى منحدرة فى النيل.

اوصاف بوغاز رشيد

وهناك يلتقى النيل بالبحر الأبيض، وهذا ما يسمونه موضع «مرج البحرين»، أما إذا عصفت الريح فإن السفن لا تجرى، وتبقى السفن فى البوغاز مدة شهرين أو ثلاثة، وقد أصبح هذا البوغاز بـحمد الله سدًا فى وجه الكفار وتحمل السفن حـمولتها، وإذا كانت حمولتها خـفيفة خرجت من البوغار وتـدفع السفن الجمارك، ثم تنشـر قلوعها وتجرى ويقول من عـليها توكلنـا على الله، وتدخل البحـر ولو كان البوغاز هكـذا على الدوام لخرب الكفـار رشيد، وإذا رأت سفينـة مدينة رشيد فيـنبغى أن تستـأذن فى الخروج من رئيس الميناء إنه ميناء صعب وكم من سفينة تغرق فى كل سنة.

ورئيس الميناء يتقاضى من كل سفينة أربعين أو خمسين قرشًا، وكما يقدم رئيس الميناء للوالى ألف قرش كشوفية، وفى كل سنة يجرد ما لديه ورئيس الميناء من الربّابنة ولا يعرف البوغاز شخص آخر سواه، ففى موضع يكون الماء فيه ضحلا وفى آخر يكون الماء عميقًا، وأما فى وسط البوغاز فطريق عام يحدده القرع العائم، وحينما يفيض النيل ويصبح كالبحر يدخل البحر الأبيض مائة ميل، ويَتَلَوَّن ماء النيل بالحمرة ويعرف من فيها أن مدينة رشيد قريبة والدعاء مستجاب فى هذا البوغاز، ويمضى بعض أهل الحال والسلوك فى قواربهم إلى هذا البوغاز ويتعبدون، ولأن مرج البحرين ورد فى القرآن كما أن موسى ـ عليه السلام ـ فارق الخضر فى هذا الموضع قال: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٧٨]، وفى البوغاز جزيرة بها ضريح موسى ـ عليه السلام ـ والخضر ولذلك يأتى إليها كثير من الشيوخ لزيارتهما، وفى هذا الموضع تلتقى الرياح، وهذا الموضع يبعد عن النيل بمقدار خمسين ميلا، وتعلم السفن فى النيل أن النيل يختلط بالبحر، وإذا ذاق من فى السفن ماء النيل ليلا ووجدوا ماءه عذبًا أدركوا أن البوغاز قريب، فلا تقترب السفن من الشاطئ، ولم أستطع عبور هذا البوغاز، ثم ركبنا خيولنا وبلغنا الإسكندرية بعد فى عشر ساعات.

وخلاصة القول أنه بحمد الله بلغنا الموضع الذى يختلط فيه ماء النيل بماء البحر وزرنا ضرائح كبار الأولياء وصلينا ركعتين فى القارب ودعوت الله أن يمكننى من زيارة مصر بأسرها لأنها جنة المأوى كما جاء فى الحديث الصحيح[1].

وقلنا آمين يا معين بحق حرمة سيد المرسلين فعدت ثانية إلى ميناء رشيد وودعت جميع رفاقى خصوصًا شيخ زاده عبد الرحمن أفندى والحاج نعمت الله ومندل زاده مصطفى أغا وسائر أرباب الطريقة وركبنا السفينة، وحملنا فيها كل المأكول والمشروب

(١) حدّث نبى الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار تخرج من أصلها (يعنى سدرة المنتهى) نهران ظاهران ونهران باطنان، أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». انظر: صحيح مسلم بشرح النووى (٩١٨/١) والبخارى فى المناقب (٣٨٨٧).

وهى سفينة تغدو وتـروح وهى محمَّلة بالعزب والمدافع، كما أن مَنْ فـيها من المسافرين يحملون الأسلـحة، ولأن جزر النيل بها سُفُنًـا للصوص وهم يغيرون بغتـة على السفن فيقتلون كل من فيها وينهبون أموالهم، فلا بد من أخذ الحذر منهم، فتوجهت إلى مصر فى سفينة مسلحة.

* * *

الفصل السادس والستون

أوصاف القصبات والقرى على ضفتى النيل

فى السفر من رشيد إلى أم الدنيا

مضينا فى النيل بريح طيبة تجاه كوم أفراح.

قرية عزبة المعدى

وبها مائة بيت وجامع دفن فيه الشيخ عثمان الطشطوشى، وفى أرض رشيد.

بلدة (حَدُيَة)

وبها جامعان وعدة دكاكين ولكن ليس فيها حمام، ولا خان فيها، وفى الجانب المواجه للنيل أرض ذات نخيل بها قبر صغير للشيخ جابر، وبالقرب منها ترعة عظيمة وهى تجاه رشيد وفيها سفن تختلط بمياه بحيرة البرلس ومن هذه البحيرة تمضى السفن إلى قلعة برلس وسوف نتحدث عنها فى موضعها وفى:

محلة الأمير

جامعان وعدة دكاكين ولهما منارتان، وثلاث مقاه عربية، وعبرنا إليها، وفى أرض الغربية:

قصبة شيرين برمبال

بها ألف بيت وأربعة جوامع وعشرون مسجدًا ومقهى وخمسون دكانًا وخانان وحمام، وفيها الكتان والحرير الفاخر، وجَوُّها غاية فى اللطف، وتجاهها:

قصبة ديبى

وفيها ثلاثمائة وستون بيتًا وخان ومقهيان ولكن المقهيين غاية فى القذارة، وهما للفلاحين وليس فيها حمام، وفى إقليم البحيرة على شاطئ النيل:

قصبة أدفينه

وهى التـزام، ولها ألف بيت وهـى مدينة معـمورة، ومنازلهـا عالية ومزينـة، وبها جامعان لهما منارتان جميلتان وخمســون دكانًا وخانان وثلاث مقاه، وليس فيها حمام، وفى قبالتها فى إقليم الغربية:

محلة مطويس

يتحصل منها فى العام ستة أكياس.

وثمة سبعـون قرية، إنها وقف مكة والمدينـة، وليست كشوفية، وهى الـتزام الشيخ البكرى، وبها ثلاثة آلاف بيت وخمسة جوامع وفى السوق جامع كبير يحمل سقفه اثنان وخمسون عمودًا من الرخام وسقفه مزخرف وطوله مائتا خطوة وعرضه مائة وخمسون، كما توجد بها سـبعون زاوية، وخمس منارات تظهر فى الأفـق وحمام وسبع وكالات، وسبل ومقاه، ومائتا دكان وأربعون طاحونة لـلزيت وعشرون طاحونة تديرها الخيل ولا وجود لسوق، وفيها قصر شامخ يسكنه الحاكم وأمامه قصر جميل على ضفة النيل ينزل به الضيوف والمجاورون، ويجمعون ثروة طائلة إنها بـقعة جميلة وعلى ضفة النيل زاوية مثل الجنـة ولأرزها وسكرها ذائع الـشهرة، وهذه البقـعة على مرتفـع من الأرض فهى لطيفة الهواء، وكل بيوتها تطل على النيل، وبعدها:

محلة جمشيره

وهى التزام وبها مائتا بيت وجامع، وعدة دكاكـين، ولكن ليس فيها حمام، وقبالتها فى إقليم البحيرة:

محلة فزاده

وهى تتبع قصبة ديروط، وبها مائتا بـيت، وبها كذلك جامع وعدة دكاكين ومقهى، ولكن ليس فيها حمام، والنيل فيها يجرى متعرجًا.

أوصاف محلة ديروط

كان لفرعون فيها ديـر كبير لذلك سميت ديروت وهى تابعة لالْـتزام سنديون، وبها ألف بـيت وأربـع منـارات وأربعون زاويـة وحمـام ووكالة وأربـعة مـقاه، وراقـصات جميلات، وخمسون دكانًا وحقول غزيرة المحصول، وقبالتها فى إقليم الغربية:

محلة سنديون

وهى قضاء يـدر مائة وخمسين أقجـه ويتحصل منهـا فى العام ثمانيـة أكياس، وفى ناحيتها ثمانون قرية ويسكنها بنى حـرام وبنى جزام، وينشب القتال بينهما على الدوام، وفى القرى ثلاثة آلاف بيـت، ولها كاشف صاحب خلعة، ولها جامـع ذو منارة جميلة وبها مائتا دكان، وخان، وليس فيها حمام وبعدها بميل فى إقليم البحيرة:

محلة عاطف

وهـى الـتزام وبـهـا ألـف بـيـت، وبــها جامع وعـشرون مسجـدًا وعدة أسواق صغيرة، وليس بها حمام، وبالقرب منهـا بلـد داود ومـن هذه البلد تجرى ترعة الناصرية إلى الإسكندرية.

أوصاف قصبة فوه

هى قضاء يغل مائة وخمسين أقجه وبهـا مائة قرية وخمس من القرى العامرة، وهى كاشفـيه يلبس كاشـفها الخلعـة من الغربيـة وبها أربعة آلاف بيـت واثنا عشر جـامعًا، وأربعون مسجدًا وأحد عـشر جامعًا ذا منارة وحمامان وخمس وكالات وثـمانية مكاتب للصبيان وستون دكانًا وأربع مقاه.

إنها مدينة عامرة تزدحم بالسكان وتجاهها جزيـرة صغيرة يحيط بها النيل من جوانبها الأربعة، ويـسمونهـا جزيرة الذهـب ولأنها كثيـرة المحاصيل سـميت جزيـرة الذهـب، وعسلها أبيض لذيذ وكأنها جزيرة تشبه الجـنة وفى حدائق نخيلها جامع جميل ذو منارة

وعلى مقربة منه قرية بها أربعون بيت وبعد هذه الجزيرة على مسافة ميل فى إقليم الغربية:

محلة شرف

وتضم نحو ألف بيت وجامع ومقهى وقبالتها فى إقليم البحيرة:

محلة شُرُم بك

وبها نحو ألف بيت وجامعان ومقهيان وهى قصبة كثيرة المحاصيل، وفى تجاهها فى إقليم الغربية:

محلة السالمية

وهى التزام وبها ألف بيت وجامع ذو منارة وعلى بعد ميل وفى إقليم الغربية:

محلة مالك

وبها خمسمائة بيت وهى التزام وبها دار للضيافة عبارة عن قصر عالٍ يسكنها صاحب القرية وفى كل ليلة يكرم صاحب القرية أربعين أو خمسين ضيفًا، ويعلف خيولهم لأنها محلة يمر بها كثير من الناس، وبها جامعان وأسواق صغيرة، ولكن ليس فيها حمامات والشيخ محرم والشيخ كنعان والشيخ رمضان دفنوا فى قبور بيض بها، وقد رسونا فيها بعشرين باره ونزلنا ضيوفًا ليلة وفى الصباح تابعنا سيرنا، وفى هذه المدينة وفى إقليم البحيرة:

محلة شموخذات

إنها قصبة صغيرة ملتزمها رشيدلى مندل زاده وبها ثلاثمائة بيت وجامع وبها قهوة وليس بها حمام ولا دكان، وعلى بعد ثلاثة أميال وفى إقليم البحيرة كذلك:

محلة الرحمانية

وهى فى التزام قيطاس أغا، وقد أوردنا أوصافها على التفصيل فيما كنا ذاهبين إلى البحيرة وتجاهها فى إقليم الغربية:

محلة إبراهيم الدسوقى

وقد أوردنا أوصافها سلفًا وعلى بعد تسعة أميال منها فى إقليم الغربية:

بلدة مرقاص

وقد دفن فيها إبراهيم الدسوقى وقد وصفتها من قبل وعلى بعد ميلين فى إقليم الغربية محلة:

أبى على

وقد ذكرت من قبل وفى قبالتها فى إقليم البحيرة محلة:

ديبى كبير

وهى التزام وبها ثلاثة آلاف بيت معمور وبها جامعان لكل منهما منارة، وعشرون مسجدًا وخان وعشرون دكانًا ومقهيان.

وقد تجولت فى النيل، وكنا ضد مهب الريح، فأنزلوا جميع الملاحين جانبًا، وجذبوا السفن بالحبال فبذلوا فى ذلك جهدًا عظيمًا، وتجاه هذه المحلة:

محلة شبراخيت

وتحتوى على ألفى بيت وجامعان وعشرة مساجد، ووكالة، وعشرة دكاكين وثلاث مقاه، وعلى قرابة ميل بإقليم البحيرة:

محلة شبرى ريش

وهى التزام، وبلد معمور جملةً دورها خمسمائة بيت، وبها جامعان وسبع زوايا، ووكالة وعدة دكاكين، ولكن ليس فيها حمام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

محلة ميت جناح

وهى التزام، وبها ألفا بيت وجامعان وعشرون مسجداً، ولكن ليس بها دكاكين ولا حمام وتجاهها فى إقليم البحيرة:

محلة مجالجسه

وهى التزام، وبها جامع واثنتا عشرة زاوية ووكالة ومقهى، وألف ومائتا بيت ولكن ليس بها حمام ولا دكان، وتجاهها فى إقليم الغربية:

محلة صالح

وهى التزام، ويقال إن بها قبر علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ وماؤها عذب وكان فى هذا البلد قديمًا قلعة عظيمة تسمى فى كتب التاريخ (ولاية صالح)، وهى الآن مقبرة فى سجلات المحكمة، وآثارها القديمة ماثلة للعيان، وبها ألفا بيت معمور وجامعان وعشرون زاوية ومقهيان ووكالة، وعلى بعد ميل منها وعلى ضفة النيل وفى إقليم البحيرة:

محلة كفر جديد

وهى التزام وبها مائتا بيت ليس إلا، وجامع ومقهى، وفى شمالها فى إقليم البحيرة:

محلة نَكْلَه

وهى التزام، وبها ألفا بيت معمور جميل، وثلاثة جوامع معمورة جميلة، وعشرون من المساجد، ووكالتان، وقصر شامخ هو دار ضيافة، ولا يقل عدد الضيوف فيه عن مائة ضيف فى كل ليلة كما أن فيها عشرون سوقًا صغيرةً كما أن بها مقهى، ولكن ليس بها حمام، وتجاهها فى كشوفية المنوفية:

محلة فرزدق

وتقع فى التزام نقيب الأشراف، وبذلك سبق وصفها من قبل.

وفى شمالها على بعد ميل وعلى ضفة الترعة النهارية ولأنها فى إقليم المنوفية سبق لنا وصفها، وهى على حدود إقليم الغربية، وعلى بعد ميل شمالا وفى إقليم البحيرة:

محلة إشليمية

وهى فى التـزام سفر أغا، وبها خمس مـائة بيت وجامع وست زوايا ومـقهى وعدة دكاكين وحمامات، وليس فيها وكالة، وفى إقليم البحيرة على بعد ميل منها:

محلة الطاهرية

وبها جـامع وسبع مائة بـيت، وهى قليـلة العمران، وعـلى بعد ثلاثة أمـيال وتجاه الطاهرية وفى إقليم المنوفية:

محلة كفر زياد

وهى التزام وبها خمـس مائة بيت جميل وجامع وخانان وعدة دكـاكين، وليس فيها حمام، إنها مرفق السيد أحمد البدوى، وعلى بعد ميل شمالا فى إقليم البحيرة:

محلة شابوز

وبـهـا ألـف بيـت وهـى التزام، وبهـا جامع واحد، وعلى بعد ميـلين شمالا وفى إقليم البحيرة:

محلة سلمون

وهى التزام سفر أغا وبها مائة بيت وجامـع وثلاثون مسجداً وخانان ومقهى، وسبع أسواق، وعلى بعد ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة كفر ناحه

وهى التزام سياوش أغا وبـها مقهى وألف بيت وجامع وليس فـيها حَمَّام ولا وكالة ولا دكاكين، وعلى بعد ميلين من جهة الشمال وفى إقليم البحيرة:

محلة ابو احمد

وهـى التزام وبـهـا خمسمائة وخمســون بيتـًا وجامع ومقهى وليس فيها حمامات ولا وكالات، وعلى بعد خمس درجات شمالا منها فى إقليم البحيرة:

محلة بحيرة

وهى فى التزام ذو الفقار أغـا وبها جامع ومقهى وأربعة دكاكين، وقبالـتها فى إقليم المنوفية على نهر النيل:

محلة زغيره

وبها جامع ومـقهى، وسبعمائة بـيت ولا وجود لما سوى ذلك، وعلى بـعد ميل فى إقليم المنوفية:

محلة طنوب

وهى فى التزام رضوان أغا وبـها ثلاثمائة بيت، وجامع بلا منـارة، ووكالة ومقهى، وعلى بعد ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة امروز

وهى التزام مصطفى أفـندى، وبها خمسمائة بيت وجامع ومقهـى، وعلى بعد ميلين شمالا منها وفى إقليم البحيرة:

محلة طَيَرْنَه

وهى التزام، وتروى من تـرعة سلطان شرف التى تروى ولاية أبـو جاموس، وأولها فى هذه المحلة، وبـها خمسمائة بيت معـمور، وبها جامع ولا عمران فيـها بعد ذلك. ومضينا شمالا ميلين، وفى إقليم البحيرة على ضفة النيل وجدنا:

محلة علقمة أبو الجاوى

وليس فيها سوى جامع، وبها ألفا بيت. وتجاهها، وفى إقليم المنوفية:

محلة تمالية

وبها ثمانمائة بيت معمور، وجامع، ومقهـى تجاوزناها بمسافة ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة جزى

وهى واقعة فى التزام محـمد أغا، وبها دار ضيافة عظيمة، وعلى بـابها مدافع وبها ألف بيت وجامع ومقـهى وليس يوجد شىء سوى ذلك ويجرى النـيل شرق هذه المحلة وهذه المدينة مرفأ، وهى على مسيرة مرحلة[1] من منوف وقبالتها فى إقليم البحيرة على ضفة النيل:

محلة طرَأنَه

وصاحبها ذو خلعـة وطبل وجند، وبها قبور من الجص، وليس فـيها حدائق، وبها جامع بلا منارة ومقهى، وفى هذه الناحية قاضى البحيرة ولها ستون قرية تابعة لها.

بيان معادن النطرون الطبيعى

إن ما يسـمونه النـطرون هو محـصول هذه الأرض، وهو يـخرج من صحـراء هذه الأرض إنهم يـحفرون الآبار ويـتعمقـون بمقدار باع أو بـاعين، فيمـتد عرقًا عـرقًا فى

(١) المرحلة: المسافة التى يقطعها السائر ما بين المنزلين.

الأرض، وجميع سكان هذه المحلة مأمورون بأداء هذا العمل، فيستخرجون عدة قناطير من النطرون، وأمام كوخ أمين النطرون يذرون النطرون كأنه ملح، ويأتى من بلاد الفرنجة التجار لشراء النطرون، فيشترون فى العام عدة آلاف من قناطير النطرون، ويتحصل منها فى العام سبعين كيسًا وهى التزام وأكثر علماء مصر يشغلون مناصب فى إدارات خاصة به لأنه مال جذل، وفى جميع الدنيا يذيبونه ويجعلونه كالماء ويضعونه على الصخر فينمحى بإذن الله تلك هى خاصيته، كما يوضع فى مصر غالبًا فى الطعام مثل الملح، وهو ينضج اللحم ولكنه من أكل منه تأذت عيناه وساءت نفسه وشحب وجهه وانتفخت بطنه كبطن الحامل، وفى مصر يضعون ذرة منه فى طعامهم لأنه ذو قيمة كالوقود، ولذلك فإن الطعام فى مصر يطهى سريعًا، أما أصحاب الأُسَر إذا طهوا به الطعام كالحطب طاب طعامهم.

وفى عصر الوالى قره مصطفى باشا ثار البكوات فنشبت الحرب واستشهد كثير من الجند وفى صحرائها دفن بالقرب منهم أتباعهم - رحمهم الله - وعلى بعد ميل شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة زاويه

بها سبعمائة بيت وجامع ومقهى، وفى شمالها فى إقليم البحيرة:

محلة ابو فشانه

وبها جامع ذو مناره وألف بيت جميل، وشمالها فى إقليم البحيرة سكن قبيلة بنى سلامة وبنى رجبان فى أرض رملية وهؤلاء القوم على ضفة النيل ويغيرون على السفن ولا يحاربهم إلا من كانوا يحملون السلاح، وهم شجعان، وقد بلغنا هذه المحلة وسمعنا نساء العرب وهن يضربن بالدفوف على رأس الجيش ويرقصن ويعزفن على الربّاب، وقيل لى إن فى إقليم البحيرة أرض رملية لا أمان فيها، والعرب ينهبون السفن التى ترسو على هذه المنطقة، لأنها أرض خالية موحشة، والمجرمون يركبون السفن على

أنهم صيادون وهم يُغيرون على السفن، ولـذلك يجب التحرز منهم. وقد تجاوزت هذه المنطقة سالمًا والحمد لله، وشمال هذه المنطقة فى إقليم منوف:

محلة اشمون جريس

هى التزام كـبير وبها جامعـان وعشرون مسجدًا ووكـالتان ومقهيان وعـشرون دكانًا وليس فيها حمام، وعلى بعد ميلين شمالا منها وفى إقليم المنوفية:

كفر جركس

وهى ليسـت محلة وبها ثـلاثمائة بيت وجـامع واحد ولا يوجد عمـران بعد ذلك، وسرنا أربعـين ميلا فى مهب ريح الجـنوب تجاه كفر جركـس وفى إقليم البحـيرة وعلى شاطئ النيل:

محلة قُطَه

والحق أن القطـط فيها كثيـرة وهى التزام ولم يَبْقَ مـن القرى والقصبـات سواها فى إقليم البحـيرة، وعلى بعد ميل منهـا الجسر الأسود وهو جسر له خندق، وشـمالها فى حكم كاشفية الجيزة وعلى بعد أربعة أميال وفى إقليم الجيزة:

محلة ام دينار

وقـد كشف السلطـان يوسـف صـلاح الديـن فيها عـن كنزٍ عظيم، ولذلك سميت أم دينار؛ وبهذا المال الذى استـخرجه من هذا الكنز بنى قلعة عظيمـة داخل القلعة كما تصدق بمال كثير فعمر مصر، وبها جامع ومقهى وترعة عظيمة، وهذه الترعة تمتلئ عند فيضان النيل فتـروى هذه الولاية، وتمر فيها سفن تحمل الغلال لأنـها ترعة كبيرة، وفى هذه الترعة مـعدية أميرية، وبها يعـبر أصحاب الحاجات من الجيـزة إلى منوف ويؤدون الأجر وتجاهها فى إقليم المنوفية:

محلة شراوى ومحلة دراوى

وبالقرب منهما مَحلات تقع فى التزام نقيب الأشراف فى مصر برهان الدين أفندى، وهى محلة معمورة لأنها قريبة من مصر وكثيرة المحاصيل فأهلها فى رَغَدٍ من العيش وبها جامعان ولكننا لا نعرف عمائر أخرى سواها وفى حدود منوف على شاطئ النيل بليدات وقصبات تتمم هذه المحلة، وعلى بعد ميل محلة تسمى:

بطن البقر

وهى فى نهاية جزيرة فى النيل، ويجرى النيل حولها، وهى جزيرة كبيرة وعظيمة، والنيل يجرى بين إقليم الغربية وإقليم المنوفية، وهى كشفيتان حكوميتان، وبها ألف وستمائة بيت وقرى وقصبات ومدينة عظيمة تتمها هذه الجزيرة هى محلة بطن البقر والنيل ينعطف يمنة ليجرى إلى ولاية دمياط، وينعطف يسرة ليجرى إلى ولاية رشيد، وعلى ساحل النيل الأيسر محلات وقصبات مررنا بها ولكنها رياض ونخيل وبين رشيد وبطن البقر خمسمائة ميل، وليس فى بطن البقر قرى، إنها أرض خالية سبخة وفيها أشجار ذات أشواك، وهى فى حكم جبه جى باشى، وفى تل يحرق أخشاب هذه الأشجار وتوضع هذه الأخشاب على الفحم والبارود الأسود، ولذلك فإن بارود مصر فى شدة بارود بغداد وانجلترا، وفى بطن البقر أربعون ضريحًا وهناك، يستجاب الدعاء، وفى الجانب الشرقى من بطن البقر فى الضفة المقابلة للنيل كشفية قليوب، وفيها:

بلدة بيت البارود

وهى فى حكم جبه جى باشى وفيها يحفظون أخشاب أشجار الشوك والفحم، وفى منطقة على بعد أربعة أميال فى إقليم القليوبية:

محلة شُبْرَا

وقد ذكرنا أوصافها من قبل، وفى الجهة المقابلة لها فى إقليم الجيزة:

محلة الوراق

وفيهـا جامـع ولا نعرف بيوتها، وعلى بعد أربعة أميال جنوبًا وفى أرض الجيزة مدينة امبابة .

أوصاف مدينة امبابة وهى عاصمة كشوفية الجيزة

ولكاشف امبـابة ثلاثمائة جندى، وهو حـاكمها، وهو يُحَصِّل مائـة كيس وعشرة، وبها قاضى الجيزة ونائبه، وبها بيوت معـمورة، كما أن بها ثمان جوامع وستون مسجداً ومائة وثـمانون دكانًا ولكـن ليس فيهـا سوق وبها سبـع مقاه، وسبل ومدارس وتـكايا وتكيتها معمورة، وفى محكمتها منح شيخ الإسلام مصطفى أفندى معاشًا مائة وخمسين أقجه، له ولنائبه الحكم فى هذه المحكمة العامرة، وكل هذه الناحية قرى منها:

اوسيم

إنها بلـدة كحديقة إرم، ذات نخـيل، ولهذه البلـدة حاكم من العرب اسـمه شجاع الدين سلـيل قبيلة خبيـر وهو خبير العربان، ولـه ثلاثمائة فارس، وهم يتـولون رعاية شئون الأمن فى تلك البلاد، فإذا ما تعلق مجرم بأذيال الفرار جاءوا به مقيداً، وجو هذه المدينة لطيف كما أن فتياتها وفتيانها يتميزون بروعة الحسن، ويجتمع فيها كل يوم سبت ألف إنسان فى سـوق عظيمة، وأصحاب الحرف فيـها كثير، ويصنعـون المآزر والأقمشة ذات الألوان والعمـائم والمروط، وفى كل عام يأتـى إلى هذه المدينة من يـزورون السيد البدوى ويجـتمع فيها أربعـون أو خمسون ألف إنسان فـى ثلاثة ليال، ويقيـمون مولداً عظيمًـا، ولا يتعلق به الوصـف، كما يقيمون الخـيام وحلقات الذكر ويـزورون الشيخ الامبابى، وهو مدفون فى جامع كبير على شـاطئ النيل قدسنا الله بسره العزيز، وحول ضريحه حديقة من نخيل، وتكية فيها مريدون يسمى الواحد منهم الامبابى وينتهى نسبه إلى السيد أحمد الـبدوى، وهؤلاء المريدون زهاد منقطعون عن الـدنيا منزوون فى ركن القناعة يـعيشون على الصدقات، ولأن أهل الحـرف فيها كثير ففضـلا عما فى الأسواق

يعرضون كذلك ما يصنعون فى الدكاكين خارج المدينة فى الخلاء، وسبعون داراً للصباغة أميرية، واثنتا عشرة وكالة وحمام وعشرون مكتبًا للصبيان وحدائق كثيرة، وأهلها يكرمون الضيف، ومقابل امبابه:

بـولاق

وهى مرفأ مصر، وقد وصلنا إليها من رشيد فى خمسة أيام، وهى مدينة كثيرة المحاسن، وركبنا خيولنا وجيادنا إلى القلعة الداخلية ومضينا مع نائب نِيْشِلى على كتخدا، وتجولنا فى أرجاء المدينة لقد زرنا رشيد ولكن بقى ميناء دمياط، وفى الصباح سوف نمضى إلى البرلس وقلعتها وقلعة دمياط وقلعة تيمه، وقد طوفنا فى هذه الأجزاء، وفى اليوم التالى فى السحر زرنا جميع القلاع هنالك وصدر أمر من الكتخدا بأن يمنحنى الوالى خمسين ديناراً من ذهب نفقة الرحلة، فقبلت يده، ودعيت له بالخير، ومضيت وودعت الكتخدا، ونلت منه أربعين ديناراً من ذهب وقماش من الجوخ، وفى هذا اليوم مضيت إلى مدينة بولاق، وهيئت لنا حاجتنا من المأكولات والمشروبات مع خمسين فتى فى السفينة، وركبنا السفينة مع هؤلاء الخدم ومضينا فى طريقنا.

* * *

الفصل السابع والستون
بيان ما شاهدنا من قرى ومدن وقصبات
فى طريقنا من مصر إلى قلاع دمياط والبرلس وتينه

خرجنا أول الأمر من بولاق ووصلنا بعد ثلاثة أيام فى طريقنا إلى رشيد، فوجدنا قبالة محلة الأمير ترعة عظيمة وهى ترعة البرلس، فوصلنا:

محلة عزْيه

وفيها سبعون أو ثمانون بيت كما أن فيها قبراً عاليًا دفن فيه الشيخ على الكومى، فتجاوزناها وعلى ضفة الترعة:

عزبة الحج

وتتألف من مائة وخمسين قرية، وبالقرب من جامعها مدفن الشيخ قشاشى، فتجاوزناها وفى الترعة سحب السفينة ملاحون من الضفتين فصادفتنا قرى تجاوزناها، وتقدمنا فى طريقنا وكان بحر البرلس علـى يُمْنَتِنَا وسُدَّت الترعة عند هذه المحلة إلا أنها تجرى فى بقعة أخرى فيها منبت للأرز، فخرجنا من السفينة وركبنا سفنا فى بحيرة البرلس، وعدنا إلى السفينة، وهذه الترعة تجرى عشرون ميلا إلى جانب بحيرة البرلس، ودخلنا إلى البحيرة وهى عظيمة طولها خمسون ميلاً وعرضها ثمانون ميلا إلا أنها بَحْرٌ ضَحْلٌ وفيها قارب للصيد، وفى نهاية بحيرة البرلس قلعتها ومن البوغاز يدخل إلى بحر واسع، وفى جنوبها فى إقليم الغربية البحر ليس شديد العمق، إنهم قدروا عمقه بقامة إنسان، وفيه علامات حتى لا تسير فيه السفن لأن فى البحر نخيل فتمر السفن بين هذا النخيل، وفيه السمك أنواع مختلفة، وبين بحيرة البرلس والبحر الأبيض رأس صغيرة، ومضيت فى البحيرة تدفعنا ريح تهب من الشمال الغربى إلى الشرق.

أوصاف قلعة البرلس القديمة

وهى بحيرة تقع فى إقليم دمياط، وتتبع إداريًا لبك دمياط، تؤدى سبعين كيسًا وللقلعة حاكم وذلك طبقًا لقانون السلطان سليم، وحاكم آخر وهو قاضٍ، ويتحصل له فى العام خمسة أكياس وفى ناحية منها سبعون قرية، وفى ناحية أخرى بلدة بلطيم، وقد بنى اسكندر اليونان قلعة البرلس، وفى العام الحادى والعشرين للهجرة، وفى خلافة عمر بن الخطاب كان عمرو بن العاص قائد جيش يتألف من ثمانين ألف رجل، وقد وجد فى الفتح صعوبة وشدة، وبينما وقف عاجزًا اقتضت حكمة الله أن يشرف بالإسلام هاموك أوغلى حاكم البرلس.

وبفضل منه تم الفتح للقلعة، وعلى مر الأيام تخربت القلعة من تأثير تلاطم الأمواج بها وفى عام ٩٢٣هـ جدد بناءها السلطان سليم، وهذه القلعة تحرس البحر إنها قلعة صغيرة مربعة ومحيطها خمسمائة خطوة، وفى كل ركن من أركانها الأربعة قلعة خربة، وبها باب حديدى يشرف على البحر وفى القلعة ثمانون جنديًا، وجامع بناه السلطان سليم ومنارته على باب القلعة وهى منارة صغيرة وتصل رمال البحر إلى القلعة الآن، وهى تغرق من يوم إلى يوم، وقد رأيت مواضع الهدم فى سورها وفيها أربعون مدفعًا وعتادها قليل ورئيس طوبجية القلعة من اللاظ، وفى جهاتها القبلية ثلاثمائة بيت وزاوية، ومقهى ودكان خباز، وليس فيها حمام ولا سوق، إنها أرض رملية تغيب القدم فيها ولكن جوها لطيف إلى أبعد غاية، والناس حولها ينعمون بتنسم النسيم العليل وبطيخ البرلس مشهور فى البلاد بجودته، وفيه نوعٌ يسمى البطيخ الماوى وهو ممتلئ فى جوفه بماء الورد، وثمة نوع آخر من هذا البطيخ إذا شرب المريض ملئ فنجان منه تم الشفاء له من مرضه، ومن يدمنون شرب الخمر يكرهونها وينصرفون عن شربها، ويشربون من مائه، ويخلطون ماء هذا البطيخ بملعقة من العسل ويشربونه شرابًا لذة للشاربين، ومن شرب قدحًا من هذا الماء صاح قائلا آه يا برلس، إنها خمر عجيبة وقد كتب داود الحكيم عن فوائد هذا البطيخ فى تذكرته، كما أن سمك البرلس وتمره المخلل مشهور بالجودة إنه على شاطئ الجزيرة، وفى الجانب الشرقى للقلعة وعلى بعد ثلاثمائة

قدم فى أرض ذات رمل ست آبار ماؤها عذب فرات، وأهل البرلس قاطبة يُحْضِرُونَ ماء هذه الآبار، وبالقرب من هذه الآبار ضريح الشيخ عيسى بن نجم بن إبراهيم الدسوقى، إلا أن هذا الضريح غاص وسط الرمال وهو يزار ويرفع الزوار الرمال عن هذا الضريح، ولكن لما آلت الولاية فى مصر إلى بولاد زاده أمر بنقل جثمانه جميع أهل رشيد ودمياط وسائر القرى والقصبات. وكانوا عدة آلاف كما جاء القاضى والأعيان والأشراف وتجمعوا وحملوا جثمانه وشاهد أولاده نقل جثمانه وسط ارتفاع الأصوات بـ «لا إله إلا الله»، وأطلق المريدون البخور مكبرين مهللين مما يذكر أن كفنه أبيض طاهر بعد مرور ستمائة وستة وثلاثون عامًا عليه فى القبر فأخذ العجب مأخذه من الناس أجمعين، وحمل تابوته إلى مرج مرتفع بالقرب من شاطئ البحيرة حيث دفنوه، والآن بنى له ضريح عظيم وجامع وتكية، وفضلاً عن ذلك فإن للناس فيه عقيدة راسخة فلا يخلو ضريحه ليل نهار من زوار، كما يقام له مولد فى شهر شعبان من كل عام ويحتشد فيه مائة ألف إنسان، ولله أحمد أن تيسرت لى زيارته، وقرأت سورة يس على روحه رحمة الله عليه، وقد نظمنا فيه شعرًا، بيد أن هذه الأشعار ضاعت بين أوراقى المتناثرة، ومن أجل زيارة القلعة تسلمنا من صاحبها مائتا قرش وجوادًا ومعنا أربعون من الرجال يحملون البنادق، وحملنا مأكولاتنا ومشروباتنا، ومضينا إلى ساحل الجانب الشرقى من بحيرة البرلس، واجتزنا بأرض ذات نخيل وقرى معمورة.

أوصاف قصبة بلطيم

محلة تتألف من بيت معمور فى أرض رملية، وهى التزام تتبع إقليم البرلس، ويسمون صاحب البلدة الحاج بلبل، وإنه رجل رفيع الشأن عامر القلب بالإيمان، وفى ناحية البرلس ثلاثة جوامع، وعلى ضفة البحيرة جامع كبير بناه السلطان منصور، ويقال إنه مدفون فى ركن من حرم هذا الجامع، ومساحة هذا الجامع مائة وخمسون خطوة وله منارة تحتانية، وهو مبنى على خمسين عمودًا، وبها عشرة دكاكين ومقهى، وليس فيها حمام ولا مدارس.

ضرائح قصبة بلطيم

فى جامع الشيخ أبى الفتح قبر دفن فيه هذا الشيخ، وفى ركن من أركان حرم هذا الجامع قبر الشيخ فتح بن عبد العزيز ابن الشيخ عيسى بن نجم، وقد سبق ذكر ذلك والشيخ عيسى وهو قطب عظيم له ما له من المناقب، إنه صاحب كشف وكرامات وطريقته وهى الطريقة البرهانية، وفى الجانب الشرقى لبلطيم وفى قبر صغير على ضفة البحيرة دفن الشيخ حسن الرفاعى، وقد ظهرت له الكرامات، وفى داخل المدينة على ربوة قبر الشيخ محمد العجمى وفى جانب البحيرة قبر الشيخ محمد البهلول، وبالقرب منه قبر الشيخ علام الله، وفى وسط المدينة قبر الشيخ أبو رواح الطويل قطب عظيم إلا أنه كان قصير القامة جدًا، وهو مدفون فى قبر صغير بالقرب من الشيخ محمد الخشوعى وقبره يزوره الخواص والعوام وجميع أهل البلد يتناقلون ذكر مناقبه إنه كان قطبًا عظيمًا له منزلة السرى السقطى وإذا ما شرب المريض بذات الجنب ماء الورد بجانب قبره شفى هذا الشخص بإذن الله رحمة الله عليهم أجمعين، وتجولنا نشاهد ما فى هذه المدينة، وانعطفنا شرقًا وبلغنا شاطئ البحيرة فى ثلاث ساعات ورأينا غابة من نخيل بين البحيرة وبين البحر الأبيض المتوسط، واقتضت حكمة الله أن يكون لمصر تمر البرلس، والنخلة من هذه النخلات سامقة تحمل عشرين عثكولا وتؤتى عشرين أُقَّةً من التمر فهى محلة التمر بتمام المعنى.

واجتزنا حتى بلغنا شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واتجهنا فى إقليم الغربية فواجهنا صحراء مترامية الأطراف أشبه شيء بمتاهة، وتسكنها فى الصيف قبيلة الحدية، أما فى الشتاء فتسكن هذه القبيلة فى تلك الأرض ذات النخيل إنهم قوم لانت عريكتهم وحسنت طباعهم ولو لم يكونوا على هذه الصفة لما استطاع أحد أن يمر فى أرضهم، ورأينا فى البحر سفينتين، تتبادلان قذف المدافع وإطلاق البنادق فأغارت سفينة الكفار على الشاطئ ونزلوا منها ودخلوا على القرية، ووصلت إليهم بخمسين فارس لمعونتهم وشددنا عليهم فتقهقروا وقد أمطرونا وابلاً من الرصاص، ولله الحمد أننا لم نصب بأذى فتنفس الصعداء كل من كانوا على شاطئ البحر، وأقاموا المتاريس، ولكن الكفار قذفوا

وأطلقوا علينا مدفعًا فرّقنا، وحاول الكفار أن يحرقوا السفينة إلا أنهم أخفقوا، ثم قدم من الصحراء سبعمائة أو ثمانمائة لنهب السفينة، فحملوا ما فى السفينة وانتشروا بما حملوا فى الجبال ودامت تلك الحال إلى وقت الغروب، وبعد المغرب أنار الكفار القناديل فى سفنهم، وأطلقوا المدافع حتى منتصف الليل، كما أطلقوا بنادقهم، وفى نصف الليل أحرق الكفار السفينة، فحزن كل من فى المحلة لذلك حزنًا شديدًا، وبعد ذلك تقهقرت صفوف المغيرين، أما الجرحى من المغيرين فقطعت رءوسهم ووضعت ناحية، وقد هلل المسلمون لذلك وكبروا، ولكن الكفار أطلقوا النار على المسلمين فما أصيب منهم أحد وبعد مطلع الفجر اشتدت الرياح، فبسط الكفار قلوع سفينتهم ونفخوا الأبواق، وعادوا أدراجهم بعد ما خسروا خسائر فادحة وخشينا وأحجمنا عن السير مخافة أن نتعرض لنهب العُربان فبحثنا عمن جاء لنا من دمياط بمدد ولو ثلاثمائة رجل وخمسة وسبعين قاربًا صغيرًا، ولم تصب هذه القوارب بأى ثقب ولله الحمد وقد سر الناس جميعًا بمقدم هذه القوارب، وعبروا عن ذلك بإطلاق المدافع، ومضوا إلى ميناء دمياط، ومضينا إلى دمياط فى حمى من الجند، وعبرنا نهر يمنى وهذا النهر يجرى إلى المحلة الكبرى، إن نهر يمنى هذا نهر كبير مثل نهر النيل وهو يروى مئات المدن، وفى هذه المحلة مصب النيل فى البحر الأبيض وتسير السفن فيه إلى حيث يخترق النيل بالقرب من سمنوط ونصف النيل يخلط ببحيرة البرلس بين البرلس ودمياط، ثم يجرى فى الصحراء من هناك وبعد خمس ساعات وباتجاه دمياط بلدة تسمى:

السنانية

وهى تقع على شاطئ النيل، وبها ثلاثمائة بيت معمور وثلاثة جوامع ومقهى، وكان فيها قلعة على عهد الكفار، وآثار ميادينها ظاهرة، وهى من أوقاف سنان باشا، وفيها أقام دلاور بك قصرًا، وجميع أهل دمياط يصطافون فيها.

وركبنا سفينة، كما ركب الجند السفن وأطلقنا على أبراج الكفار بنادقنا وسُرِرنَا سرورًا لا مزيد عليه، وبلغنا الجمرك، ودخلنا دمياط، وكان اليوم عيد الأضحى، وحررنا المحاضر وكتبت رسالة إلى والى مصر إبراهيم باشا.

أوصاف ميناء دمياط القديمة

أكثر المؤرخين الذين وصفوا هذه المدينة، فى أصح الأقوال لهم، أنه بعد طوفان نوح بنى هذه المدينة أحد أبناء أشمون بن مصرايم وكان اسمه دمياط، ولذلك سميت هذه المدينة دمياط، ومعنى دمياط بالسريانية قوة وقدرة، أما فى التوراة فاسم دمياط أرلش، وأما فى الزبور فاسمها الدردميه والبيطه وفراغه، وفى الإنجيل اسمها الخضرة، وفى العربية كذلك الدردميه، وفى القبطية دمياط، وبعد الهجرة بثلاثين عامًا، وبينما كان عمرو بن العاص واليًا على مصر، كان الأسود بن مقداد قائد ثلاثين ألف جندى، فضرب الحصار على الملك هاموكى فى قلعة دمياط، ودامت الحرْب سبعة أشهر بتمامها، إلا أن العرب يئسُوا من فتح القلعة، وكان للملك هاموكى ابن يسمى شيطا رأى النبى ﷺ فى المنام، فهب من نومه فى التو، فنزل من القلعة فى جوف الليل، ومضى إلى الأسود بن مقداد وأعلن إسلامه، ودله على المواضع التى يمكن الدخول منها إلى القلعة، فمضى إليها معسكر الإسلام ففتحت لهم القلعة بأمر الله ـ تعالى ـ، ووضع الملك هاموكى فى الأسر، واعتنق الإسلام أيضًا ابنٌ آخر يسمى كوريجل، وغنم المسلمون كل ما فى القلعة من نفائس، وأصبحت على الدوام مدينة جميلة طاهرة، وأرسلوا من غنائمها إلى عمر بن الخطاب ثلاثمائة صندوق من المال، وبينما كان نور الدين الشهيد خليفة قدم الكفار الأسبان إلى دمياط بألف سفينة واستولوا عليها وسيطروا عليها سبعة أشهر ثم أرسل نور الدين الشهيد وزيره يوسف صلاح الدين على مائة ألف من الجند إلى دمياط وفتح القلعة وأعدم أسري الكفار جميعًا، ثم عاد إلى دمشق مظفرًا يحمل ما يحمل من غنائم، وفى عام ٩٢١ استولي الفرنجة على دمياط، وكان الظاهر بيبرس خليفة على مصر ففتح القلعة، وأعمل القتل فى الفرنجة، ومن بعده فتحها السلطان سليم الأول، إنها مدينة عظيمة من أقاليم مصر تقع فى الجانب الشرقى من النيل، وهى الآن دار إسلام بيد إياس باشا ويعجز اللسان عن وصفها وهى سنجق لطيف فى إيالة مصر بمثابة الإقطاعية، ويقدم حاكمها إلى ديوان مصر عشرة أكياس فى العام، واثنى عشر كيسًا من الغرامات ورسوم نقل البضائع والأسواق، وفى مينائها

سفينتان حربيتان يسافر بهما رئيس القبطان باشا وقد ألحق هذا الإقليم مدة من الزمان بإقليم رشيد، وحينما يغادرها القبطان باشا مسافرًا يقوم مقامه فى حكمها مائة رجل، كما أن جمركها يحكمه حاكم من طرف الوالى وله أجر يومى قدره عشرة قروش، كما يأخذ من كل سفينة قادمة أو غادية قرش واحد ولكل سفينة عشرة قناطير من الحطب ويتحصل من جمركها فى العام مائتان أو مائتان وخمسون، لأن هذا النخل يتعرض للزيادة والنقصان من عام إلى عام، ولها حاكم شرعى يحصل على ثلاثمائة أقجه كراتب شهريًا، واتفق أن نال عشرين أو ثلاثين كيسًا، وقد قدمت خمسمائة أقجه صدقة فى عدة أحيان، ويحكم المدينة نائبان الأول النائب الخارجى والثانى منوط به قضاء فارسكور، وتحت حكم قاضى دمياط ست عشرة قرية لأن جوانبها الأربعة بحيرة، أما قضاء فرسكور فحواليها قرى، ويتحصل منها فى العام سبعة أكياس وللدمياط شيخ للإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف وقائد الانكشارية، وعزب وأربعة فرق من الشوربجية، وكثير من الأعيان والأشراف والعلماء والصلحاء والأئمة والخطباء والمشايخ والسادات والتجار، وهم كثرة، كما أن حفاظ القرآن لا يدخلون تحت حصر ولكن لا مكان لضرائح الجند بها. ويحرس هذه البقعة ثلاثمائة حارس فى كل ليلة إنها مدينة ذات مرفأ فيها الأمن وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلية هى جانب ريح الشمال إلى جامع المتبولى ألف ومائة خطوة وهو طول هذه المدينة وعرضها ثمانمائة خطوة، وفى بعض الجوانب ستمائة خطوة ولا وجود لسور محيط بالقلعة من جهاتها الأربعة، والحرس يحرسون فى كل ليلة وعلى شاطئ النيل قلعة صلاح الدين الأيوبى وفى طرفها رباط محاط بسور منخفض، ومحيطه مائة خطوة، وداخلها بيوت خربة وداخلها مخازن للغلال، ومفتاحها فى يد صاحب القلعة وفى هذه المدينة حدائق وبيوت جميلة سطحها من الجص ولكن البيوت فى رشيد أجمل منها وبيوت دمياط مبنية بأحجار مختلفة الألوان، وفيها إدارة شيخ البلد وأربعون محلة ومائة وخمسون محرابًا، وفى يوم الجمعة تتلى الخطبة، وفيها كذلك مساجد، وفيها جامع الفتحية وهو جامع كبير يستجاب فيه الدعاء، وهذا الجامع كان فى الأصل كنيسة فى قديم الزمان، وطوله تسعون خطوة

وعرضه أربعون خطوة، وفيه اثنان وتسعون عمودًا، وستة منهم من حجر الصوماق وكأنها من العقيق اليمنى، ولا شبيه لهذه الأعمدة فى البحر كل عمود منها يساوى خزانة مصر، وعلى هذه الأعمدة سقف حديدى مزخرف، وفى أطراف حرمه أربعة وستون عمودًا وهى من الرخام الذى يشبه البللور، وفى حرمه سبيل وصهريج ماؤه عذب فرات، وماء المطر يجتمع فيه وفى الحرم كذلك شجرة نبق وهى دوحة عظيمة وللجامع أربعة أبواب تطل على الحرم اثنان منها يفضيان إلى القبلة والآخران مفتوحان على الجهة الغربية، ومحرابه يقع فى ركن منه، لأن هذا الجامع كان فى الأصل ديرًا لليونان ولذلك يسمونه جامع الفتحية محرابه قديم الطراز ومنبره من الخشب وعلى باب منبره تاريخ هو آية شريفة هى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، أنشأ هذا الجامع الحاج شمس الدين بن محمد الطرابلسى المعروف فى شهر رجب الفرد سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وله منارة من ثلاث طبقات وهى منارة جميلة، وعلى باب قبلته تاريخ تعميره سنة ١٠٨٣، وقد عمَّره دَاوَرْ بك.

وأمام المحكمة فى وسط سوق مزدحم جامع البدرية، وطوله مائة وخمسون خطوة وعرضه خمس وخمسون خطوة، وله سقف يحمله خمسون عمودًا من الرخام، وفى وسط حرمه نخلة سامقة، وهى تساوى منارته فى الطول ومنارته من ثلاث طبقات وهى مزخرفة جميلة، وهذا الجامع تحتانى وله أربعة أبواب بابان للقبلة وبابان جانبيان، وفى حرمه حوض ذو صنبور وعليه لوحة مكتوب فيها، وفى أطرافه صنابير كتب على باب منبره: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

وعلى شاطئ النيل بالقرب من سوق الغلال جامع البحر، وطوله وعرضه مائة وثمانون خطوة، ويعلوه على أربعة وثمانين عمودًا سقف ملون مزخرف بألوان مختلفة، وله سبعة أبواب ومنارة من ثلاث طبقات.

وفى سوق الأرز جامع كبير بناه خواجه أمين الدين المعينى، وله قبة عالية ويصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولا يخلو من المصلين ليل نهار وكأنه جامع السلطان برقوق فى العادلية فى مصر، خالٍ من الأعمدة وعلى جوانبه الأربعة قباب

تشبه طاق كسرى ووسط الجامع مكشوف، مرصوف بالرخام وفى كل ركن من أركانه صفة عظيمة إنه جامع وسيع ومحرابه مزين بالأحجار الملونة، ومنبره أيضًا، وجوامع دمياط فيها من جوامع الأقطاب أكثر مما فى رشيد، كما أن فيها كثير من الزوايا.

ومن هذه الزوايا زاوية الأربعين فى السوق، كما يوجد مسجد يسمى مسجد القبانى، وقد بنى منذ فتح عمر لمصر، وفى الجانب الأيمن حول هذه الزاوية دفن أربعون من الصحابة وإلى جانب صناديقهم خشب منجور كتب عليه بخط جلى هذا التاريخ: (برسم العبد الفقير إلى الله تعالى القاضى شهاب الدين سنة عشرين وثمانمائة).

وفى هذه المدينة سبع مدارس وإحدى عشرة تكية وثلاثمائة سبيل ومن هذه السبل سبيل رضوان چورباجى، وهو فى الجمرك وقد بنى بالقيشانى، وكواته من النحاس الأصفر، ومشربته مقيدة بالسلاسل، ومشاربه مجلوة ومذهبة ولما كان صاحب هذا السبيل على قيد الحياة كان فى يوم عاشوراء يتصدق على أرواح شهداء كربلاء بالعسل فى ثلاثة أيام وبالسكر فى ثلاثة أيام أخرى، وقد أقيم على هذا السبيل مكتب للصبيان كأنه قصر عظيم وفيه ثلاثمائة صبى يتعلمون القراءة والكتابة، وفى كل سنة يتسلمون راتبًا، وعلى كواته تاريخ هو (حبذا هذا السبيل الذى ماءه كماء الحياة الذى أقامه إسماعيل رضوان سنة ١٠٨٦).

وفى داخل السبيل كتب تاريخ كذلك على القيشانى، وجاء فيه (بارك الله فى هذا السبيل فثمة ثمانون غيره).

كما يوجد أربعة حمامات وهى التى أقامها رضوان الشورباجى فى السوق، وثمة ثمانية عشر خانًا أولها خان مصطفى شورباجى وخان الحرمين، وخان مصطفى چلبى وخان الحويلية وخانان لـ (بيرى چورباجى)، خانان أيضًا للأرناؤط. وخان بن راجح، وخان عنبرى زاده وخانان لتكلى شورباجى، وخان ذو الفقار كتخدا القديم، وخان عباس وخان جعدى وخان بن فار المسمى صچان أوغلى، وخان طيناويه، وخان القفاصين، وخان القاضى، وعبد الرحمن باشا حينما كان متولى مصر بنى خانًا على ضفة النيل كأنه القلعة بإذن من كورجى ذو الفقار كتخدا، وقد جلبت جميع الأحجار

التى بنى منها هذا الخان من مصر ولا يوجد فى دمياط بناء من حجر ما عدا هذا الخان والجامع الكبير، وله بابان وبه مائة حجرة، كما يوجد اثنان وثلاثون مقهى فيها، أما فى السوق فعدد المقاهى ست وهو خان كبير وفى حرمه حوض ذو نافورة، وعلى جانبيه مقاه فيها عازفون ومداحون وراقصون وفى هذه المدينة مائتان وستون شارعًا وكلها شوارع واسعة نظيفة، وفى أطرافها أسواق سلطانية، وبها ألفان من الدكاكين، كما أن بها ثلاثمائة طاحونة تديرها الخيول، كما يوجد بها طواحين للزيت، كما يوجد ستمائة مصنع، كما أن فيها محلة لليهود ومحلة للقبط وسبع محلات للكفار، كما يروح الفرنجة والأرمن ويغدون ولا وجود فيها لسفراء الفرنجة كما أن بها سبع كنائس وأربعون حانة وستمائة بيت وبها مائة وأربعون مضربًا للأرز لأن دمياط أرْض الأرز، أما الحبوب التى ترد من الصعيد غالية الثمن وبها ثلاثة آلاف مخزن وبها ثلاثة آلاف صياد يصيدون السمك من دمياط ويصدر السمك المملوح المكبوس والبطارخ من دمياط إلى بلاد الروم وإلى بلاد الفرنجة، لأن هذه المدينة فيها أنواع كثيرة من السمك، وفى إدارة شيخ هذه البلدة آلاف الموظفين وحمدًا لله فليس فيها بيوت للدعارة كما هو الشأن فى باب اللوق، كما أن النساء فى هذه المدينة لا يخرجن إلى السوق وعندهن أن الخروج للسوق عيب كبير، وفى الليل توضع المصابيح فى المنازل، والشرطة فى النهار قليلون وأكثر الناس فلاحون، وهم كادحون قادرون على الكسب مقتدرون، والأعيان يلبسون الجوخ والحرير، والفقراء ومتوسطو الحال منهم يلبسون الثياب الملونة، والنساء يضعن على رءوسهن قلانس من الذهب الأحمر والفضة كما أن النساء يضعن على وجوههن سود البراقع كما ينتعلن نعالا زرقًا وإذا ما خرجت امرأة إلى الشارع نهارًا قتلت كائنة مَنْ كانت، ولكن يؤذن لهن فى السعى فى جنازة موتاهن من ذوى قرباهن.

إن أهل هذه المدينة أهل ذوق، ويقام حفل زفاف مرة فى كل ليلة فيرتفع الضجيج وفى أطراف هذه المدينة الأربعة ستة وستون من البساتين وحدائق رضوان، ونَوْرُ الليمون والسفرجل كثيف بحيث أن أحدًا لو مر من بينها لتنسم شذاها، وفى كل حديقة حوض وشادروان وحقيقة الأمر أن حدائق رضوان شورباجى وذو الفقار كتخدا كأنها حديقة

إرم، وجو هذه المدينة لطيف للغاية كما أن فتياتها وفتيانها غاية فى الحسن، كما أن أهلها يحبون الغرباء ويكرمون وفادة الضيف، وأهلها يتاجرون فى السمك والأرز والسكر وغير ذلك، ويجرى إلى وسط المدينة خليج عظيم ينشعب من النيل وعلى جانبى المدينة قصور شامخة تطل على الخليج نوافذها، كما أن بعض أصحاب هذه القصور يقفون فى النوافذ ويصيدون السمك كما أنهم يتصدقون على الفقراء كما أن الصبيان فيها يترددون ويسبحون فى هذه الترعة، ويتعانقون فى دعابة، وفى هذا الجانب قصور جميلة شامخة متعددة الطبقات، وأثناء فيضان النيل تتدفق مياهه إلى بعض هذه القصور، وبعض المنازل فيها زوارق لمواجهة ذلك ويركبون فيها ليمضون بها إلى حيث يريدون، وترسو هذه الزوارق عند السّفينة.

وفى الشمال من هذه المدينة على ربوة مقبرة وبرج مربع وهو برج مرتفع وفى زمان الكفار كانت جزيرة قبرص تبدو منه وإن كانت مشاهدة قبرص تمس الحاجة فيها إلى نظر جد حديد والأرز من أطيب المأكولات فى دمياط، ويورد الأرز من دمياط إلى سلاطين آل عثمان، وأرز المنزلة وفرسكور لا وجود لمثله فى العالم كما تشتهر دمياط بالسمك والبطارخ وإلى جانب ذلك الجميز والخبز الأبيض والحرير الملون والموز.

وفى بوغاز دمياط قلعة تشبه قلعة رشيد..

أوصاف قلعة دمياط العتيقة

بناها السلطان سليم الأول حين فتح مصر، وقد فتحها الأسود بن المقداد حينما فتح عمرو بن العاص مصر، ولم يَبْقَ أثر لهذه القلعة، وهى الآن مبنى متين تقع عند التقاء النيل بالبحر الأبيض، ومحيطها خمسمائة خطوة، وعلى جوانبها الأربعة بروج، ولها باب يطل على الجنوب، وفيها جامع السلطان سليم، وفيها رئيس من المتفرقة، وطبقًا للقانون، وفيها مخزن للأسلحة ومدافع وأربعون قذيفة، وخارجها فى الجانب الأيمن مدفع، ولا وجود لمثله والله أعلم. وهذا المدفع يقذف قذيفة تزن أربعون أوقية، ولا خندق حول هذه القلعة لأن الأرض حولها منخفضة وهى قريبة من الشاطئ، وسورها

منهدم فى كثير من المواضع، وقد ركبنا قاربًا ومضينا إلى حيث يلتقى النيل بالبحر، وصليت ركعتين ورفعت إلى الله كف الدعاء، ويقول علماء دمياط إن هذا الموضع هو الذى ذكر فى القرآن بـ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الرحمن ١٩)، هو الذى التقى فيه موسى - عليه السلام - بالخضر، ولكن ثمة جدال محتدم بين علماء رشيد فيما يتعلق بهذا الشأن، ولكن جاء فى تفسير السيوطى أن مرج البحرين المراد بالبحر فيه البحر الأسود، وبحر الخزر هو بحر كيلان، وبعضهم يقول أنه بحر الأبواب، وهو بحر ليس فيه مصب وهو ثلاثة أمثال البحر الأسود وهو بحر عظيم، ومرج البحرين المراد بهذين البحرين: هما البحر الأبيض الذى هو بحر الروم الذى يختلط بالنيل ولذلك يسمى بوغاز دمياط مرج البحرين، وبعضهم يذهب إلى أن بحرًا كبيرًا قد اختلط بنهر عظيم وهذا ما يسمى مرج البحرين، أما لقاء الخضر بموسى - عليه السلام - فكان على شاطئ النيل، وقد قدم الخضر فى سفينة، وفى هذا الشأن وقع الخلاف بين علماء دمياط ورشيد، أما قول علماء دمياط فهو القول الصحيح، وركبت بعد ذلك مع حاكم القلعة قاربًا وفى قبالة القلعة الشرقية القلعة الغربية.

أوصاف القلعة الغربية المقابلة للقلعة الشرقية

بناها فى عهد السلطان أحمد خان طواشى المتفرقة جعفر أغا حسبة لله، أما قلعة عبد الصمد فهى المشهورة إنها قلعة صغيرة، مستديرة، على شاطئ النيل، ومحيطها مائة خطوة وفيها برج متين، وقد ضمت إليها من بعد قلعة طابيه وهى أيضًا متينة الأركان وفيها خمسون مدفعًا، ولكن المدافع الكبيرة فى هذه القلعة، وهى تطل على البوغاز، ولها رئيسها وخمسون جنديًا وعملهم هو صيد السمك والحمام والسَّمَّان، وتقع فى أرض رملية ولها باب على الجهة القبلية، وفيها أربعون أو خمسون حجرة، وليس فيها متزوج وكل من فيها من العزب، وقد زرتها ووجدت أن عشرة من جنودها غير موجودين فسجلت أسماءهم وعرضتها على الباشا ومضيت إلى القلعة الشرقية من القلعة الغربية ودفعت أجرة انتقال عشرة قروش وركبت فى زورق إلى دمياط.

بيان الأولياء الذين عرفناهم فى زيارتنا فى مقبرة دمياط

عندما بعث الملك هاموك ابنه الشيخ لفتح قلعة دمياط وأسلم على يد الشيخ شطا والأسود بن مقداد، وبعد الفتح أمر الأسود بن مقداد الشيخ شطا بعشرة آلاف جندى وفتح قلعة شموم وقلعة البرلس وقلعة الدميره وفى العام نفسه حينما كان يفتح قلعة التينه أصيب بجرح وكلمة شطا شطا بمعنى قطعة قطعة ولذلك سمى الشيخ شطا، جاء فى رواية أن شطا موضع فيه رمل كثير كثير، وذلك لأنه دفن فى أرض ذات رمل وقد مات شهيد حرب، وصعدت روحه الشريفة إلى بارئها، وقد نقل جثمان الأسود بن مقداد إلى دمياط، ودفن فى ضريح على شاطئ بحيرة دمياط على مسيرة نصف ساعة من الجانب الشرقى إلى دمياط، ولأنه استشهد فى الخامس عشر من شهر شعبان يقيمون له مولدًا فى هذا اليوم، ويأتى الناس من دمياط والقرى والقصبات الأخرى أربعون أو خمسون ألف رجل ويقيمون فى الخيام ويمكثون ثلاثة أيام بلياليها يزورون ضريحه، ويأتى كذلك قائم مقام دمياط وأعيانها لزيارة هذا الضريح ويمكثون فى الخيمة ويمد سماط عظيم لمن ينعمون بأطايب الطعام ثلاثة أيام بلياليها، وينفق على ذلك من مال مصر، ويحاسب الوالى على تلك النفقات، وهذا قانون قديم، وضريح الشيخ شطا مربع الشكل وكأنه قلعة ومحيطه ثلاثمائة خطوة.

ويسكن فى هذا الضريح إمام ومؤذن وحارس القبور، وبجانب الضريح زاوية، وفى حرمه صهريج، وفى كل عام يحمل الماء من النيل على ظهور الجمال لملء هذا الصهريج بالماء وإذا ما فاض منه الماء أصيبت الجمال بالجرب وإنها لَحِكْمَةٌ عجيبة.

وجملة القول أن ثمة ضريحًا عظيمًا يزوره الناس خواصهم وعوامهم، وقد دفن فيه الشيخ أبو المداين والشيخ درغام وفى جامع الشيخ متبولى دفن الشيخ متبولى والشيخ سيدى فاتح أبو العطا، وبالقرب من جامع الفتحية ضريح ذى الجناحين، وبالقرب من البوغاز ضريح بين الموجتين، وبالقرب من المنظر بين الفرضين، وفى حديقة فى شمال المدينة ضريح للشيخ جمال الدين المولوى وفيه سماع خانه من عدة غرف ومطبخ،

وأرضها كأنها الجنة إنها تكية للقلندرية وفيها المريدون، وجميع أهل دمياط يأتون إلى هذه التكية لينعموا بالأنس والبهجة، وفى ركن من أركان هذه الحديقة قبر لأحد صلحاء خُرَامان وهو مستجاب الدعوة وصاحب سجاده وله آلاف العشاق، وبالقرب منه الشيخ سيد فتح الأسمر، وبجواره الشيخ سيد أحمد ابن الشيخ عبد السلام، وهو مدفون فى ضريح عال وبالقرب من السيد فتح ضريح الميدان الأخضر، وبالقرب منه مقام الشهدا، وبالقرب من خرط القنطرة رائد طريق الناس الشيخ أبو العباس، وهو قطب عظيم، ومزار صاحب الأديان وهو دار ضيافة للغادين والرائحين، وفى داخل التكية ويَسِمُونَ كل متعلقاته بالأسود وفى زاويته جمع كبير، ولا نِد للشيخ چلبى، إنه شيخ صالح عابد زاهد يلبس العمامة السوداء، وجميع المريدين فيها يلبسون السواد ويرفعون العلم العباسى الأسود، وبالقرب من الشريف عثمان الشربلزى والشيخ عباس والشيخ حسن الطويل وفى جامعه قبر الشيخ على العباسى وبالقرب منه الشيخ سيد محمد النعمانى وبجواره الشيخ كرمانى وبالقرب منه الشيخ على السقا وفى شمال جامع المتبولى على شاطئ النيل تكية فى حديقة كأنها حديقة إرم، وفى وسطها قبر دفن فيه الشيخ على منيط، وهو قطب عظيم من زاره خمس مرات شفى من مرضه بإذن الله، وعلى شاطئ النيل حدائق كأنها الجنات فى داخلها قصور وأحواض، وأشجار يجلس الأصدقاء فى ظلالها، إنها موضع يزوره أهل دمياط ويتنزهون فيه وبالقرب من هذه الحديقة الشيخ عبد الرحمن زلطى، وبالقرب من مسجد الفتح الشيخ مناوى وبجواره سيد أحمد شناوى، وهو من أقطاب الطريقة البرهانية وبجواره ستى الوالدة التى استشهدت حين الفتح، وهى من النساء الصالحات، ويجتمع عندها حشد من النساء فى كل يوم سبت لزيارتها، وبالقرب منها الشيخة ست شامية، وبالقرب منها الشيخ سيد أصيل، وبالجوار منه سيد عبد الله الشريف، وفى سوق اللبن الشيخ خثعم، وفى سوق السمك الشيخ شانه، وبالقرب من حمام رضوان الچورباجى الشيخ الخيشى وفى حارة المنشى الشيخ عمرو أبو العباس، وبالقرب منه الشيخ العصفراتى والخيشى وبالقرب منه الشيخ أبو عصيبة وفى غيطان الشعراء سيدى محب الدين يقام له مولد عظيم كل عام.

وفى بلدة المنيا دفن الشيخ إبراهيم أكبر المنياوى، وقرية المنيا بها مائتا بيت وحدائق وبساتين ونخيل، وفى شهر رجب من كل عام يقام له مولد عظيم، وفيه يحتشد خلق كثير، والمريدون من جميع الطرق يقولون لا إله إلا الله ويقومون بالذكر فى الحدائق ولا يمنعهم أصحاب الحدائق من ذلك، وبالقرب من الشيخ إبراهيم الشيخ مظلوم، وعلى الطريق العام حديقة فيها تكية صغيرة بها قبر صغير دفن فيه الشيخ مظلوم، ويقام له مولد كذلك فى منتصف شهر رجب، وبالقرب من جامع المتبولى الشيخ مسلمى، وبالقرب من حارة البركة الشيخ أبو الطيب، وبجواره الشيخ على الحداد، وفى حارة سيد أبو الفتح الشيخ أبو يوسف، وجواره سيدى سعيد، وفى قرب القنطرة الشيخ أبو النصر، وعلى مقربة من المرقب السبع بنات وضريح الأربعين وفى السوق فى مسجد العتبانى، وفى حارة المرقب الشيخ سلطان وإلى جواره سيدى على لويفه وفى جوار المنشية قبر الشيخ أبو قريه وبالقرب منه الشيخ حمام وعلى مقربة من خان الشيخ رضوان الشيخ عبد الغنى وبالقرب منه الشيخ شرباصى، وبالقرب منه الشيخ مفتاح وهو مدفون فى ضريح عظيم يقام له مولد عظيم كل عام، وبالقرب منه الشيخ خطاب وبالقرب منه قبر الشيخ زندان وبالقرب منه قبر الشيخ شربازى، وبالقرب منه قبر الشيخ محمد العراقى وقبالة دمياط على شاطئ النيل سيدى الشيخ شديد، وبالقرب منه سيدى عثمان الصياد - رحمة الله عليهم أجمعين - نفعنا الله ببركاتهم، وثمة قبور صغيرة وكبيرة لغيرهم ذلك أن أهل دمياط محبون للأولياء ولا وجود فى رشيد لضرائح مثل ضرائحهم لأن هذه المدينة مدينة قديمة، أما رشيد فأُنشِأت حديثًا، وقد غرق أهل رشيد القديمة فى كوم أفراح ولله أحمد أنى زرت ضرائح مائة ولى من أولياء الله فى دمياط وقرأت لكل ولى سورة يس وسورة الفاتحة واستمددت من أرواحهم العون لى، ولكنى ذكرت هؤلاء الأقطاب فقط حتى لا يطول بى الكلام، أما إذا شئت أن أعدد مناقب كل منهم لاستوجب ذلك منى مجلداً ضخمًا.

ثم أرسل لنا الباشا فرقة مِن مَنْ يحملون البنادق وعددهم خمسون، ومضينا مع عشرين ملاحًا نحمل طعامنا وشرابنا من دمياط، ووصلنا إلى حدائق الجانب الشرقى، وتجولنا بها فوق صهوات جيادنا نصف ساعة، ومضينا ثم انطلقنا إلى بحيرة تينة.

أوصاف قلعة تينة

مر بنا أن الشيخ شطا فتح قلعة تينة واستشهد فيها، إنها قرية مربعة الشكل فى كاشفية حاكم العريش. ومُحِيطُهَا خمسمائة خطوة. ولها باب تجاه القبلة، وبها أربعون بيت صغير، وجامع للسلطان سليم، وثلاثون مدفعًا ومخزن للذخيرة، ورئيسها من المتفرقة، كما أن بها مائة جندى، وليس لها حدائق على شاطئ البحر بل أرض رملية، ولا أمان فيها من اللصوص، اللهم عافنا، وقَلَّ الماء والخبز اللذان كنا نحتاج إليهما للمضى إلى دمياط وبحيرة المنزلة بحيرة كبيرة يصل طرفها القبلى إلى العريش، وطرفها الغربى بدمياط والتزامها فى العام عشرة أحمال من الأقجة، وبها أسماك جميلة الألوان.

وفى هذه الليلة نزلنا ضيوفًا على رئيس القلعة ورأينا جماعة من الناس نحلت أجسامهم يقتاتون بسمك بلا خبز، ودفعنا عشرة قروش لمشاهدة القلعة ومضينا إلى ضريح الشيخ شطا، وركبنا السفينة ووصلنا إلى نهاية البحيرة بعد ساعة، وأرسلنا من قبلنا واحدًا إلى دمياط فأحضر الخيل لنا فشاهدنا على الجانبين الحدائق المزهرة، ودخلنا دمياط، وأرسلنا إلى بيوتنا فى استانبول كثيرًا من الأرز والعدس والفول والحمص، وودعنا خليل شورباجى زاده ومحمد چلبى وأمثالهم. ونلنا من الباشا ثلاثمائة قرش وعشرين ثوبًا منقوشًا من ثياب دمياط ومائة منشفه، وحملنا طعامنا وأسلحتنا فى سفينة وتوكلنا على الله ومضينا إلى الكنانة.

* * *

الفصل الثامن والستون

وفى رحلتنا إلى مصر فى سفينتنا شاهدنا على ضفتى النيل الحدائق المبهجة وخرجنا أولاً من دمياط ومضينا مسافة قدرها ستون ميلاً ومقابل دمياط أرض خالية سبخة، ولا وجود فيها لعمران ولكن فى طرف دمياط حدائق من قصب السكر، وفى هذه الديار يسمونها القرى وبيوتها أكواخ ولا وجود فيها لبيوت فخمة، لأن فى أرضهم ينبت الأرز، وأرضهم أرض مستنقعات ولا تحتمل بناءًا ثقيلا، ولا تروى فيها أرض الأرز ولكن فيها القمح وليس فيها فول ولا حبوب لأنها أرض ذات ماء والأرز ينبت على الدوام فى الماء يا له من مشهد عجيب.

وفى هذه الأرض يفيض ماء النيل ولا ينقص وقد اجتزنا القرى التى فى أرض دمياط إلى فارسكور.

أوصاف منزل فرسكور فى مدينة فارس القديمة

إنه منزل بناه الملك فرسكور بن مصرايم، وقد عمر ألف سنة وملك مائة بلد، وكان له مائة ألف فارس جوادهم أبلق وألف فارس جوادهم أشهب، وهى إقليم التزام دمياط وقضاء يدر مائة وخمسون أقجه إلا أن هذا المبلغ يمنح غالبًا لقضاة دمياط وفى هذه الناحية قرى تزرع الأرز فيها كلها، وعلى ضفة النيل مدينة تبعد عنه مائتى خطوة وتقع على ربوة وبها ألف بيت وسبعة عشر محرابًا وست منارات وثلاثمائة دكان، وثلاث مقاه وحمام، ولكنها تخلو من السوق والعمارات والمبرات والسبل والمدارس، ولكن فيها ثلاثة خانات عظيمة، ويقام فيها سوق مرة كل أسبوع، ويتكسب أهلها من حياكة الثياب المنقوشة ولكل منهم طرز، وبها ثلاثمائة دكان تقدم المال إلى الملتزم إنها مقر لمن يصنعون الثياب المنقوشة وأرز وثياب فرسكور واسعة الشهرة.

وتينه التى زرناها تقع شرق البحيرة المذكورة، وجوها لطيف وبها كثير من النخل والحدائق، وبين دمياط والنيل مدينة جميلة وفى قبالتها:

كفر سليمان أغا

فى إقليم الغربية وبها جامع ذو منارة وثلاثمائة بيت وتجاهها فى إقليم الشرقية:

بلدة شرياز

وبها مائة بيت وجامع ومنارة وقرى معمورة، وفيها قبر دفن فيه الشيخ شرباز، وبهذه المحلة تتم حدود دمياط، وهى تحت حكم حاكم الشرقية وقبالتها فى أرض الغربية:

بلدة ميت ابو غالب

وبها جامع ذو منارة ومائة وخمسون بيتًا ومقهى، وعند هذه المحلة يتعرج النيل تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار وقبالتها فى أرض الشرقية:

بلدة راس الخليج

وهى التزام، وبها ثلاثمائة بيت، وبها جامعان، ووكالتان ومقهى وستة دكاكين، وقد دفن فيها الشيخ غزوان، والشيخ حسن أبو تقى الدين، والشيخ محمد عجمى وعلى بعد عشرين ميلاً جنوبها وفى إقليم الشرقية:

بلدة ميت ابو عبد الله

ويسمون القرية ميت وهى التزام وبها مائة بيت وجامع ذو منارة، وتجاهها فى أرض الغربية:

بلدة طهريه

وبها مائة وخمسون بيتًا وجامع وقبالتها فى أرض الشرقية:

بوشاط

وعدد بيوتها مائتان، وبها جامع ذو منارة. وفى المقابل منها فى أرض الغربية:

بلدة دِنْجِى

وبها جامع وفى جانب المنصورة بلدة أباذان.

اوصاف محلة مشاق

إنها التزام الكتخدا القونداقجى مصطفى وبها ستمائة بيت وجامع ومقهى ووكالة، وفيها أسواق صغيرة، ولا وجود فيها لحمام ولا سبيل، وتجاهها فى أرض الغربية:

مدينة المنصورة

وهى فى الجانب الشرقى، وقد عبرنا إليها، وتجاوزناها خمسين ميلاً وبلغنا مدينة سَرْسَه.

اوصاف محلة شربين

إنها محلة كبيرة فى إقليم الغربية وهى قضاء كبير يدر مائة وخمسين أقجه ويمنح قاضيها مرتبًا، وفيها أربعون قرية معمورة، ويتحصل منها أربعة أكياس وبها ألف بيت وسبعة وبها سبعة محاريب كما أن بها جامعًا كبيرًا له منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وبها كذلك خمسون مسجدًا ومدرسة وخمسون دكانًا، وأربعة مقاه يجتمع يوم الجمعة خلق كثير فى السوق وبجوارها:

كفر شربين

وبه مائة بيت وهو التزام، وتجاهه فى النيل جزيرة صغيرة وفى الجهة المقابلة حدود كاشفية المنصورة، وهى كاشفية معمورة قضاؤها يسمى قضاء مشاق، وقد سلف ذكر بلدة مشاق، وتقع هذه البلدة فى سهل منحرف فى شربين اجتزنا هذه المحلة إلى شربين، وقبالتها فى إقليم المنصورة:

بلدة بدرى

بها مائة بيت وجامع وهى التزام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة بترا

وبها ثلاثمائة بيت وجامع ومقهى وهى التزام وبعدها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة محلة برمبال.

اوصاف محلة برمبال

إنها التزام، وبها مائة بيت وقد سألنا شيخ البلدة عن مقدار ما تؤدى من مال للدولة فما عرف، وبها عدة جوامع ومقاه ومساجد وخانات ودكاكين، وإنها بلدة فى مهب الريح ولا أعرف حمامًا بها، وفى تجاهها فى إقليم الغربية.

بلدة دياسط

وفيها دفن الشيخ دياسط، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة الخيارية

وقد وجدت بها ثلاثمائة بيت وجامع ذو منارة جميلة وفى جانب الغربية:

بلدة تاش

وبها ثلاثمائة وخمسون بيتًا وجامع ومقهى، وفى شرقها ولاية دقهل.

أوصاف ولاية دقهل

مدينة المنصورة أول من بناها أحد أبناء نوح أبو القبابط بيطر بن حام الأخ الأكبر لسام، وابن بيطر هذا يسمى دقهل، ولذلك تسمى ولاية إقليم المنصورة باسم دقهل، ومن بعد استطاب جوها من سلاطين مصر الصالح أيوب فزاد فى عمرانها فأصبحت كأنها روضة الجنات، ثم قدم إليها الأسبان الملاعين بسفنهم فاستولوا عليها وأقاموا بها ثم أغار عليها الملك الصالح أيوب انطلق نحو غزة، ثم رجع فاستعاد مدينة دمياط، أول الأمر، ثم استولى على مائتى سفينة للكفار، وعسكر فى المنصورة معسكراً للكفار، وطوال سبع ليالٍ لم ينجو الكفار من الهلاك وهذا مسطور فى جميع التواريخ، ولذلك سميت مدينة دقهل بالمنصورة، وفى عام ٩٣٢ غادر الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب مصر الكنانة واتخذ المنصورة حاضرة لملكه، وعمرها ولم يَبْقَ الآن شىء مما شيده، وفى هذا العصر أقام له قصراً على شاطئ النيل وبقى منه الآن قصر صغير أمام قصر كاشف المنصورة، وقد وافاه الأجل فى المنصورة، ونقل جثمانه إلى مصر ودفن فى جامعه، وبعد ذلك بعام شب حريق فى المنصورة وأتت النار عليها بأكملها حتى صار المعمور منها كذَرَّة فى الشمس أو قطرة فى البحر، والآن يعمرها الناس والمخلوقات.

الحمد لله وحده علم بما فى مدينة الصالح أيوب أى مدينة المنصورة من ولايات مصر المحروسة من المساجد والوكائل والمدرسة والحمامات والأسواق وضرائح الأولياء نفع الله تعالى المسلمين ببركاتهم فى الدنيا والآخرة آمين يا معين، ولهذا ذكرنا ووصفنا مدينة المنصورة، إنها كاشفية أخرى فى مصر لكن مع كونها حكومة كبيرة والعرب يغيرون عليها من وقت إلى آخر لذلك منحت لأمراء مصر، وليس فى قراها زعامة ولا تيمار ولكن فيها سبعمائة وسبع وثمانون من القرى والقصبات والمدن، وكلها التزام، وهذه القرى المذكورة تقدم فى العام ثلاثمائة كيس إلى السلطان إنها قضاء شريف.

وفى هذا الإقليم:

قضاء ميت غمر

قدم مائة وخمسين أقجه، وهى قضاء شريف، وقد ضم هذا القضاء إلى المنصورة، ومنها يتحصل حوالى عشرة أكياس، وحاكم المنصورة يقدم المال الأميرى، وهو ملتزم يقدم فى الصيف والشتاء أربعين كيسًا، ويفيض له عشرة أكياس، وقد يقدم عشرين كيسًا ولهذه البلدة أربعة يفتون على المذاهب الأربعة ولها نقيب أشراف وقائد للانكشارية وعزب، ولكن الجند كثير، وعلى شاطئ النيل حدائق كثيرة وورود وريحان ورياض وتسعمائة بيت جميل وقصور فخمة وهى مدينة جميلة، ومن ظهر عليها على بعد ميل أظهر إعجابه بها، وبها ثلاثمائة محراب وفيها جوامع للسلاطين والعظماء والأعيان وبين السوق السلطانية والمحكمة والجامع الكبير، وهو جامع السلطان الصالح، وطوله مائة وثمانون خطوة وكذلك عرضه، وله سقف منقوش مقام على ثمانين عمودًا من الرخام، ومنارته من ثلاثة طوابق وله قبة، وعلى بابه الأيمن كتب عليه (تعمير رجب شورباجى سنة ١٠٨١)، إنه جامع عتيق، وعلى شاطئ النيل جامع الصغير وجامع المحمودية وجامع آخر على شاطئ النيل أيضًا طوله وعرضه مائة خطوة وعشرة، وله بابان جانبيان وباب للقبلة ومنارة على الطرز الرومى وهى من طابق واحد، وداخل الجامع خمسة عشر عمودًا وليس له حرم، أما على شاطئ النيل فله موضع فى جوانبه الأربعة صفف وهو موضع يستحق المشاهدة، ويجتمع الناس تحت ما به من أشجار الجميز والصفصاف وبعضهم يصيد السمك من إحدى مواضعه، وبعضهم يتوضأ وبعضهم يصلى، وبه دار شفا ومقهى يشرب فيها القهوة اليمنية، إنه مكان للراحة والمتعة وبعد الأذان والصلاة يثنون ويترحمون على محمود بانى هذا الجامع.

وعلى شاطئ النيل فى الطريق العام جامع يقال عنه «كاشف النيل»، وهو مرتفع أبيض وهو وقف متين وكان غاية فى العمران فى حياة صاحب الدويرات، وفى السوق جامع رضوانية، وجامع الحيدرية وجامع أمير على الفرحانى وجامع ريحانية وجامع الخطاى وجامع السادة الكنانية يقع على شاطئ النيل، بل فى جنوب المدينة وعلى شاطئ النيل والطريق العام جامع إدريس وجامع ابن قانصو، وجامع جعفر أغا كان فى الأصل

زاوية ثم أعيد بناءها لتكـون جامعًا. وفى نهاية الناحية الشرقية للمـدينة جامع مصطفى أغا الجديد، وهذه الجوامع سالفة الذكر عامرة بالمصلين، ولا نعرف جوامع أخرى.

الزوايـا

أما الزوايا فمنها زاوية الشيخ الملبـاوى وزاوية منية الدولة وزاوية الأمير حسن وزاوية ابن جعفر، وزاوية الغـرابى، وفى السوق زاوية المعلقى وزاوية ابن يـاسين وزاوية الشيخ ابن عامر وزاوية مقدم فرهاد والزاوية الحمرا، وقد صلـينا فى تلك المساجد التى سبق لنا ذكرها، ولا نعـرف غيرها وعلى شاطـئ النيل ست مدارس وسبـعون مكتبًا للـصبيان، وأربعون سبيلاً وحمّـامان ولا يوجد سواهما، كما يوجد ثمـانى عشرة وكالة أولاً خان أمير دلاور وخان الأمـير مصطفى وخـان المحمودية وخان الكـنانية وخان الأمـير أحمد وخان عورت وخان مالكى وخان ابن ياسين وخان الشـيخ عبد الوهاب وخان مسلمانى وخان القاضـى أحمد وخان النيـل وخان القفاصين وخـان خشب وخان حطيـبة وهذه الخانـات وكالات معمـورة، ولا وجود لمبـانٍ أخرى واثنـان وأربعون ربَعًـا فيهـا غرف للمريدين المتزوجين، وثمة أربعون أو خمســون خانًا يسمى كُلّ واحدٍ منها الربع، وسبع معاصر أى طواحين زيت، وخـمسة وسبعون طاحونة تديرها الجياد، وفـيها من المقاهى أربعون مقـهى ومائة وخمسون دكانًـا ولكن ليس فيهـا سوق قائمة بذاتها، ولـكن لكل شىء، ويقام سوق عظيمة مرة فى كل أسبوع يحتشد فيها أربعون ألف أو خمسـون ألف إنسان، إنهـا سوق القمح وسوق الـسمك، وسوق الخيل وســوق الغنم وسوق الفـاكهة وسوق الثـيران، وهـذه الأسـواق تـوجـد فـى أمـاكن أخرى وعورت بازارى تقـع على شاطئ الـنيل إنهــا سـوق عجيـبـة، وطـرق هــذه الأسواق غير نظـيفة أما بقـية طرق الأسواق فطـرق واسعة نظيفـة، وتظلل جمـيع الأسواق نخلات، فـيتألف منهـا سقف عليها، وبذلك تكون الأسواق طيبة الهواء عند اشتداد الحر وطول هذه المدينة على النيل ألف ومائة خطـوة، ولجـمالـهـا وجـمال جوها يتـميز فتيانها وفتياتهـا بالجمال، وأهلها يكرمـون وفـادة الغـربـاء، وفيهـا عظـمــاء الأعيان، فـهم يبذلون الـقرى للمـجاورين والمسافـرين فأمـام بـــاب دلاور الكاشــف يطعـم الفـقـراء لـيـــل نهار، كمـا أن قوجه

مصطفى أغا يكرم المسافرين والمساكين، وفـى المدينة ما لا يدخل تحت حصر من العلماء والمريدين والصالحين.

بيان بزيارتنا لكبار الأولياء

هذه ضرائح الـصالحين الشيخ شـرف الدين أقصرى والشيـخ الطميهى مـدفونان فى زاوية الشيخ ريحان كمـا دفن الشيخ سيدى علي الأسمر فى الجامع الـكبير، وثمة شيخ آخر سألت عنه فما وجدت جوابًا، وخارج المدينة فى جنـوبها قبر عظيم للشيخ كنانية، وقد دفن أربـعون من الأوليـاء فى مكان واحـد، كانوا قديمًـا من اللصـوص ولكن الله هداهم وأصبحوا جميعًا أولياء وعلى رأسهم قطب الأقطاب شيخ الطريقة الكنانية، ويقام له مولد مرة فى كل عام، ويجتمع فى مولـده حوالى أربعون ألف إنسان، وفي خيامهم يقام عـشرة أيام وعشر ليـال، وقد أغار لصوص الـعرب على ميـدان ملقه أثناء انـعقاد مولده، وقد نهـبوا السوق واستشهد كثيـر من الناس، وفي التو والحال ظهـر فى المدينة أربعون على رءوسهم العمامات الخضر يركبون الخيول الشهب ويحملون الرماح، فقتلوا هؤلاء اللصوص عن آخرهم، ثم غابوا عن العيون.

هذه مناقـب قريبة العهد لـم يَمْضِ عليها سوى سـبعين سنة، ومنذ هـذا الزمان لم يحضر أحد المولد، هذا ما مر بـسمعي هذا ما أمر (طورنا مصطفى بك) كاشف المنصورة واجتمع فى المـنصورة حشد كبير مـن الناس، وقد حضرت معهـم ولله الحمد وقد دفن الشيخ عبد الجليل الملباوى فى ضريح عظيم، وبالقرب من ضريح الشيخ الملباوى ضريح الشيخ ربيبه والشـيخ الخوّاص وإلى جانب المحكمة السيدة آسيه والـشيخ عريان والشيخ كليباني، ومـداح رسول الله الشيخ سيدي محمد كـميلى والشيخ منية الـدولة وقد دفنا بجوار جامع إدريس كما دفـن الشيخ طاهر والشيخ نصار والشيخ سند فـى الجهة القبلية من المدينة بالقرب من جامع الأمير مصطفى، والشيخ سعد والشيخ حسن دفنا فى جامع الخطائي ودفن بـجوار قبر الشيخ بهلول الـشيخ الموالى كيرلى محمـود أفندى، وهو من علماء الروم المشاهير فهؤلاء العلماء منهم من دفن فى ضريح ومنهم من دفن فى تكية، وقد زرت ضرائحهم ومررت وجهى الأسود على ضرائحهم رحمة الله عليهم أجمعين،

وقد تجولت فى هـذه المدينة وشاهدت كل ما فيـها وعقدت نيتى أن أزور مديـنة المنزلة، فركبت سفينة وانطلقنا إلى المنزلة.

وصف ما مررنا به من منازل فى طريقنا إلى المنزلة

رأينا تـرعة عظيمة فـى جنوب مدينة المـنصورة وبالقـرب من جامع مصطـفى أغا، ومضينا بالـسفينة فى ترعة صلاح الدين، وعـلى جانبيها ست وسبعـون قرية معمورة. ورأينا عزبة نزلنا عليها ضيوفًا.

أوصاف مدينة المنزلة القديمة

نزلنا فى دار الملتزم وتجولنا فيها لمشاهدتها، ويتفرع من هذه الترعة خليج على جانبيه بيوت معـمورة، على جانبى الـترعة حدائق وبساتـين، وعَبرها جسر من الخـشب على الترعة وعلى ضفّتيـها بساتين، وكل حديقة مساحتها عشرة أو خـمسة عشر فدانًا، وفى كل منهـا يطيب الليمـون والتمر والرمان والتـين، ولكن لا وجود فيها لـلقمح، والأرز الذى فى المنزلة لا نظير له فى العالم بأسره، إنه أبيض ولذيذ، والبحيرة على مسيرة ربع ساعة من شمال المديـنة، والترعة التى تروى هذه المدينة تصب فـى هذه البحيرة، وهى التزام تابع لـلمنصورة، ويحكمـها أى من قبل كاشف المـنصورة حينًا والباشا أغـا حينًا ويقدم الباشـا فى كل عام كشوفية قدرهـا ست أكياس، وهى قضاء يدر مـائة وخمسين أقچه ولقاضيها فـى كل عام خمسة أكياس، وفى ناحية منهـا قرى للأرز، ويحصل من جميع القرى ست وخمسون كيسًا، كما أن الصيادين يصيدون كل عام سبعة أحمال من السمك وبها ألف بيـت وعشرة محلات وسبعون محرابًا، وفيها ثـمان خطب وفيما عدا ذلك مساجد، والجامع الكبير فيها يكثـر فيه المصلون، وكان معبدًا قديمًا، وقد أنشأ هذا الجامع وزير صلاح الدين يوسف، وهو القعقاع الـتميمى، عندما فتح هذه المدينة، ولا تعرف جوامع أخرى بهذه المـدينة، وزاوية الشيخ إبراهيم السلمونـى زاوية معمورة وفى هذه المـدينة ثلاث مـنارات، ومدرسة وسـتة مكاتـب للصـبيان وسبـعة سبل وخـمس وكالات، ومائة دكان منها ثـمانون مفتوحة وبقيتها موصدة، ولا سوق فيـها وبها ثمانية مقاه، وسوق للعطارين فيها جميل، وتقام سوق كل سبعة أيام وهى سوق الخيل والغنم

والجمال، ولا وجود لسوق سواها لأنها ليست مدينة عظيمة، وأهلها فقراء إنهم يأكلون السمك ويتكسبون بصيده، وفيها سمك عجيب، وفى الشتاء تأتى الوحوش والطيور إلى الحدائق فيتصيدها أهل هذه المدينة، وتشتهر المدينة بالقمصان البيض، وأهلها مشهورون بالجمال.

ضرائح المنزلة

دفن الشيخ محمد العقابى فى زاويته، ودفن إبراهيم السلمونى فى زاويته وبالقرب من القرافة الكبرى قبر الشيخ طاهر، وبالقرب منه دفن القعقاع الوزير، وبالقرب من قبر الوزير القعقاع التميمى دفنت الست صالحة رحمة الله عليهم أجمعين ولها مناقب كثيرة كأنها رابعة العدوية، والشيخ شهاب الدين الأنصارى من الصحابة الكرام، وهو مدفون بالقرب من زاوية الخياطين، وقبر الشيخ محمد الشامى بالقرب من سوق العطارين رحمة الله عليهم أجمعين، وما أكثر مناقب الأولياء، ولكننا نزلنا ضيوفًا فى هذه المدينة مدة يوم وليلة.

ثم بعد ذلك ركبنا السفينة، وعدنا إلى الترعة التى جئنا فيها وقد بذل الملاحون الجهد الجهيد فبلغنا مدينة المنصورة، ثم ودعنا الأعيان فى تلك المدينة، وركبنا السفينة وقبالة هذه المدينة:

مدينة طلخا

وبها ثلاثمائة بيت وعلى ضفة النيل جامع ذو منارة، وفيها شيخ انهدمت مقبرته عند فيضان النيل فوضعوه فى تابوت على مرأى من الناس، ومضينا إلى:

بلدة الشيخ رمضان

وبها مائة بيت وهى بلدة صغيرة وناحية المنصورة:

بلدة ميت خميس

وبها مائة بيت وجامع، وتجاهها على حدود إقليم الغربية:

بلدة ميت الفرقا

وبها مائتا بيت وجامع، وفى إقليم المنصورة:

بلدة ميت ويش

وبها ثلاثمائة بيت وجامع، وفى إقليم الغربية:

بلدة ميت عساس

وإلى جانب إقليم المنصورة:

بلدة نَوه َسى

وكذلك فى حدود المنصورة:

بلدة ميت ثعبانيه

وفى جنوبها:

ميت المنية

وتجاهها فى إقليم الغربية:

مدينة لوط.

أوصاف مدينة لوط

إنها مدينة معمورة، وهى مرفأ لسمنوط، وهى على شاطئ النيل وتحوى ثلاثمائة بيت وهى قصبة جميلة والتزام، وكانت فى قديم الزمان مدينة قديمة وفيها آثار لقوم جالوط، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، ولقاضيها مرتب يقدم صدقة، وهو نائب الحاكم، وهذه المدينة تُدِرُّ فى كل عام خمسة أكياس، وقرى نواحيها تحوى اثنين وأربعين بيتًا وفيها ستة محاريب وثلاث خطب وفى مرفأها جامع علوى به أربعة عشر عمودًا عليها سقف، وله ثلاثة أبواب ومنارة منهدمة، وخان وحمام وستة مقاهٍ وخمسون دكانًا وسبعة سبل واثنا عشر مكتبًا للصبيان وعلى ضفة النيل محكمة.

وصف ضرائحها

الشيخ إسماعيل العَدْوِى وسيدى عبد الله الخلف وهما مدفونان فى مسجد الغدوى، ثم امتطينا خيولنا فبلغنا ضريح:

بلدة أبو على

وهى التزام الأمير مُصَلى أغا، وفيها نخيل وحدائق وثلاثمائة بيت وقرى معمورة، تجاوزناها فبلغنا:

بلدة قيطاس اغا

وبها مائتا بيت وجامع إنها قرية عامرة ولكن يسكنها قبيلة بنى حرام وهم أشرار. وتجاوزناها إلى الشمال واجتزنا بقرى لا نعرف لها اسمًا، كما عبرنا مرورًا ببلاد على شاطئ الترعة، وفى هذه البلاد كثير من البساتين، وعلى مسيرة ساعة من سمنوط:

محلة الكبير

وهى العاصمة الثانية لإقليم الغربية، وهى مدينة عظيمة، واسمها باللسان القبطى زيحان لوقوعها فى إقليم الغربية الذى يقع غرب إقليم الشرقية سماها الروم الغربية ومحلة الكبير جزيرة تقع فى النيل بين إقليم الشرقية والبحيرة، وهى كنانة الله ابتداء من مصر، ثم المحلة، ثم رشيد، ثم دمياط، ثم منية ومنفلوط وهذه مدن كثيرة، ولكن هذه المحلة ليست معمورة فى يومنا هذا، ولكن فى سبعين موضع من أرضها طلاسم، وعلى حد قول المقريزى إنها من بناء مصرايم بعد طوفان نوح وبناء على علم النجوم استطاب هذه المدينة مصرايم لطيب هوائها، وهذا ما حفزه على إنشائها، ولقد استولى عليها كثير من الملوك على مر العصور، وبينما كان الظاهر بيبرس كاشفًا لهذه المدينة استطاب جوها، وفى زمان ملكه جعل من هذه المدينة الحاضرة الثانية لملكه، وكان يسكنها، وتجرى إلى الآن ترعة إلى وسطها، وبالقرب من قصر الكاشف عليها ثلاث قناطر، وعند العشاء تعزف فرقة موسيقية عند هذه القناطر وذلك طبق القانون السلطانى للظاهر بيبرس، وينال أفراد هذه الفرقة الموسيقية رواتبهم من الكاشف، إن هذه الفرقة الموسيقية تعزف على الدوام لأن هذه المدينة هى حاضرة البلاد الثانية.

وأمراء مصر الذين فى درجة ميرميران وأتباعهم ألف وسبع فرق من المستحفظين وعليهم فى التزامهم أن يقدّموا مائتى كيس، وديوان مصر يختم بها حسابه، كما يُحَصِّلُ مائتين وخمسين كيسًا بعد المصاريف، وحاكمها صاحب منصب عالٍ وهو يرأس الأمراء

ما عدا أمير الحج والدفتر دار، ويتقدم فى سيره الأمراء والكاشفين لأنه حاكم العاصمة الثانية للبلاد، ويصبحُ بعد ذلك أميرَ الحجِّ.

وفى إقليم الغربية ثلاثمائة وسبعون قرية معمورة وبها قاضٍ شرعى، ولا منصب فى مصر أعلى من منصبه، وقد تصدق مراراً بمبلغ خمسمائة أقچه على رجال الدين، وطبق القانون يجب أن يتصدق بأربعمائة وتسعة وتسعون أقچه، وثمة محكمة فى كل من سمنوط، وشربين وهذه المحاكم داخل هذه المدن وخارجها، إنها مدينة كبيرة، وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف والأعيان والانكشارية والعزب والسردار والچاوش، وليس فيها قبو قولو سردار ولا سباه كتخدا، ولا آلاى بيكى ولا جرى باشى ولا أصحاب زعامت، إن كل قراها تدر المال السلطانى، إنها مدينة معمورة تجرى من تحتها الأنهار، وهى فى منزلتها بعد مصر، وبها قصور عالية كثيرة الطوابق، وبها بيوت كبيرة وصغيرة قديمة الطراز مُجَصَّصَة، وعلى ضفة الخليج قصور كبار الأعيان تطل نوافذها على الخليج.

وفيها بساتين وفيها سبعون محلة، ومائة وأربعون محرابًا، سبعون منها تؤدى صلاة الجمعة فيها، وبها جوامع للسلاطين والأولياء، وبالقرب من مالك بك جامع بالى بك، وهو جامع على ضفة النيل، أربعة أعمدة له في النيل، وقد بنى على هذه الأعمدة، وهو جامع علوى ويصعد إليه بسلم من اثنتي عشرة درجة، وله ثلاثة أبواب أحدها فى جدار القبلة، وهو يطل على الطريق المواجه لقصر البك، وله باب ينفتح على حوض وليس فى داخل الجامع أعمدة، وجوانب السقف مزخرفة ومذهبة، وهذا الجامع العلوى، تحته ستة دكاكين وله منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وقد كتب على باب منبره بالخط الجلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ..... ﴾ [الاحزاب: ٥٦].

وبعده على ضفة النيل جامع (الصفا) وهو غاية فى الحسن ومنظره الجميل غاية فى الروعة، وعلى ضفة النيل كذلك تجاه قصر البك جامع خواجه عطار وله سقف منقوش بشتى الألوان ويقوم على ثلاثة وثلاثين عمودًا، ومحرابه من الرخام، ومنبره من الخشب المنقوش، وله ثلاثة أبواب أحدها للقبلة وهو يطل على السوق وله بابان جانبيان يفضيان

إلى السوق وفى جانبه الأيسر منارة من ثلاثة طوابق وفى أعلاه تعتش الطيور وتفرخ بها، وفى السوق بناء جديد هو جامع مراد الشورباجى وسقفه على ثمانية أعمدة من الرخام، وقد دفن فى هذا الجامع من أولاد الصحابة مثل عبد الله بن الزبير، ولهذا الغرض بنى الجامع، ويعتقد أن من يزوره يحقق مراده، وجامع الصمصات مقام على عشرة أعمدة وله منبر صغير من الرخام، ولا وجود لمثله فى البلاد وله منارة عالية طولها مائة وسبع عشرة خطوة، وكل خطوة تعادل ذراعًا، والصعود إليها عسير، وقد صعدت هذه المنارة وأشرفت ببصرى على المدينة فرأيت مدينة إرم ذات العماد، وقد بدت فيها أربعون منارة، وفى سوق العطارين الجامع الكبير، وقد بناه الشيخ أبو بكر طرنجى ووسعه من بعد الملك الظاهر، وبذلك صار جامعًا كبيرًا وطوله وعرضه مائة خطوة، ومنبر هذا الجامع ومحرابه من الطرز القديم، وفى حرمه الكبير قبة وسبيل، وفى داخل الجامع وخارجه مائة عمود رخامى عليها سقف منقوش، وفى الركن الأيسر لحرمه منَارَتَانِ كأنهما برجان، وعلى باب منبره الخشبى كتب بالخط الكوفى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومقعد المؤذن على ستة قوائم رقيقة من الرخام، وهو من الخشب يشبه المقصورة.

ولا وجود لجامع أكبر من هذا الجامع فى هذه البلدة ويقام مولد فى كل عام بها يجتمع فيه مائة ألف إنسان، ومساحة الجامع طولا وعرضًا مائة وثمانية وخمسون خطوة، وله سقف على ثلاث وثمانين عمودًا وصحن الجامع غير مسقوف، والشيخ عبد الله مدفون فى ذلك الصحن الواسع، وبما أنه مدفون داخل الجامع فليس ضريحًا، ولكنه فى تابوت وفى هذا المكان شجرة نبق وقد ورفت ظلالها على حرم الجامع وخارجه، وهى تثمر أربع مرات فى العام الواحد منه فى حجم العين، وفى المدينة كذلك جامع الوزير يجتمع فيه جمع غفير من المصلين، وكذلك جامع ابن عباس الغمرى، وطوله وعرضه مائة وخمسون خطوة، ومنبره من خشب، وعلى يسرة محرابه كتابة، ويقول البعض إن هذه الكتابة من الزّبور وتحتها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ....﴾ [التوبة: ١٨]، وسقفه ذو ألوان يقوم على سبعة وثلاثين عمودًا وله ثلاثة أبواب، ومنارة

من ثلاث طوابق، صحنه بلا سقف، وفى الجانب الأيسر من جدار محرابه دفن الشيخ عباس غمرى، وجامع (تَعَبُّرْهَا) جامع صغير، وجامع الشيخ إبراهيم سقفه مقام على سبعة أعمدة، وهو جامع صغير مكشوف الصحن، وقد دفن فى حرمه الشيخ إبراهيم وعلى مقربة من هذا الجامع جامع الشيخ ديار وهو جامع صغير منارته قصيرة، وثمة جوامع كثيرة خلاف ما ذكرنا. ولقد رأينا كثيراً من الجوامع الجميلة، كما أن الزوايا لا تقع تحت حصر وفى هذا البلد تسع مدارس وسبعة دور من دور الحديث، وسبعون تكية، لأن جميع أصحاب الطرق الصوفية فى هذه البلدة، وجميع أهل هذا الإقْليم من أهل السنة، ومن التكايا تكية الشيخ عبد الرحمن المالكى، وتكية عبد الله درغام وإحدى عشرة تكية من تكايا السيد البدوى، والتكية البرهانية، وتكية صفافى، وتكية كميلى وهى تكايا معمورة، ومنها تكايا توزع فيها الصدقات ويبذل أصحابها فيها الصدقات وهم على قيد الحياة، وفيها مائة وعشرون مكتبًا للصبيان، وتوزع ثياب العيد على اليتامى، وبها مائتا سبيل، وبعض هذه المكاتب تقع فوق هذه السبل، وهذا هو قانون مصر. وبها خمسة حمامات، وبها صهاريج، ويوجد حمام للنصارى، لا يدخله المسلمون قط، وحمام بالى بك حمام لطيف، كما أن سبعة حمامات موصدة أما حمام الوفا فضريح، وبناؤه جميل وجوه معتدل، وحمامات القصور يزيد عددها على الألف، ويخرج المريدون مع الفجر إلى الخليج يستحمون فيه، وفيها سبعون خانًا، فى سبع عشرة منها يباع القمح والشعير والفول، وفى هذه البلدة تباع جميع الغلال، وبها ألفان وثلاثمائة وخمسة وأربعون دكانًا، وجميع أسواقها مغطاة، وكل السلع موجودة فى هذه البلدة. وبها ثمانية وأربعون مقهى وهذه المقاهى مفتوحة ليلا ونهارًا وفيها المطربون والمداحون وفيها يجلس أهل العلم ليل نهار.

وفى هذه البلدة مائتا طاحونة زيت وثلاثمائة وثمانون طاحونة تديرها الخيل وبها عشرة مخابز وكل بيت فى البلدة مخبز معين لها. ولا حاجة بأهل هذه البيوت إلى الأسواق، ولكن للغرباء والمسافرين عشرة مخابز وشوارع السوق السلطانية واسعة

نظيفة، لأن النيل يجرى فى وسط هذه البلدة ومعظم قصورها وبيوتها الجميلة على ضفة الخليج، وأعيان الإقليم يلقى بعضهم على بعض السلام من قصورهم ويصيدون السمك من الكوات، ويسبح الفتيان فى النيل، وكل بيوت هذه البلدة مبنية بالحجر، ولها جدران وأبوابها ذات مصراعين، وسطوحها مجصصة وليس فى المدينة أحجار بناء وإذا مست الحاجة إليها فى هذه البلدة حملتها إليهم من مصر السفن عند وقت فيضان النيل، لأن النيل فى فيضانه يغمر أقاليم مصر كلها وتصبح أراضى مصر فى ماء الفيضان جزراً، وثمة فرقة موسيقية تعزف فى دكان على الجسر، ونوافذ هذه الدكاكين تطل على النيل، ففى مصر ثلثمائة جسر بالقرب من سوق الغلال، وثمة دكاكين أخرى تطل نوافذها على الترعة وفى هذه المحلة مرفأ تأتى إليه السفن والقوارب بالغلال وثمة جسر فى جنوب البلدة على ترعة الصابونية يسمى جسر جعفر أغا إنه جسر عظيم من الحجر، وفى وسط صراطه كتب على لوحة مزبعة من الرخام:

تأمل ترى ما شاده الندن جعفر ∴ هو القاسمى مات إلى الخير يقصد
لقنطرة فيها يقول مؤرخ ∴ ثناء له فخر وعز يؤيد
سنة ١٠٧٣.

ولاعتدال جو هذه البلدة اشتهرت نساؤها بروعة جمالهن. كما أن الجند يلبسون فيها ثيابًا فاخرة. ويضع نساءها على رءوسهن قلانص من ذهب وفضة. كما يلبسن الحرير ويَسِرْنَ. وتشتهر هذه المدينة بالخبز الأبيض والطحينة والجبن أما صنعهم للسجاجيد الحريرية لا نظير لها فى العالم. إلا ما يصنع فى أصفهان كما يصنع المناشف وأنواع من الأقمشة الحريرية وفى هذه البلدة محلة لليهود ومحلتان للأقباط وبها ألف بيت وسبع كنائس. وفى سجل شيخ البلد أن تعداد أهل هذه البلدة سبعة آلاف وهى تصدر القطن وهو من أهم حاصلاتها. إن ذكر ما لا قيمة له مَمْلُولٌ. ولذلك اكتفينا بما ذكرنا. فخير الكلام ما قل ودل.

أوصاف ضرائح المحلة الكبرى

وقد ذكرنا من قبل كبار الأولياء الذين دفنوا فى الجوامع وعند باب المحلة عند نهاية الطرف الغربى للمحلة دفن الشيخ عبد المجيد الشامولى وضريحه تطل نوافذة على الطريق العام، وقد كتب على عتبة بالخط الجلى: (أنشأه السيد بن الحسين سيدى عبد الوهاب وسيدى عبد المؤمن أخيه سيد عبد المنعم).

زيارة ضريح المولى عبد الباقى بن محمود بن عطاء الدين حمالى زاده

هو متولى مدينة مصر، وكانت له هذه المحلة الكبرى ومات وهو مدفون عند رأس الجسر الذى على ترعة الصابونية فى ضريح على الطراز الرومى وقد كتب عليه تاريخ؛ ولأنه على الطريق العام يزار ضريحه، وكان فصيحًا ناصع البيان لذلك وردت ترجمته فى تاريخ المقريزى، وعلى مقربة منه على رأس الجسر ضريح المُلا على بن سنان، وفد من مدينة أسبارطه، وكان من علماء السلطان أحمد وعلى ضريحه تاريخ هو فى سنة ١٠٢٩ قدسنا الله بسره العزيز رحمة الله عليهم أجمعين، وعلاوة على ذلك آلاف من الضرائح، وقد مرغت وجهى على عتبته، والضرائح التى زرتها فى هذه البلدة سبعة وأربعون وقد شرفت بزيارتها ولله أحمد أنى نلت من حسن أغا الكاشف عشرة قروش وجودًا، وبعض ما يصنع فى المحلة، وودعت أحبتى وخلانى وبعد ساعتين، بلغنا قصبة سمنوط، وعبرنا النيل إلى إقليم الشرقية فبلغنا:

ميت أبو الحارث

وتجاهها فى إقليم الغربية:

ميت أبو صير

وفى المنصورة:

ميت بورو

وتجاهها بلدة بنيا، وفى المنصورة كذلك بلدة المنظرة، وفى الغربية بلدة ميت بدر وفى المنصورة أيضًا ميت دمسيس، وفى الغربية بلدة شوبران، وفى المنصورة كذلك ميت أشنى.

أوصاف قصبة شنباط[1] الكبيرة

تقع فى إقليم الغربية، وبها مائتا بيت وعدة جوامع ومساجد وأسواق صغيرة ومقاه، وهى مدينة كثيرُ رجالها ونساؤها، وقد نزلت ضيفًا على دار ضيافة فيها ذات ليلة، وفى الصباح مضينا إلى المنصورة فبلغنا بلدة:

شرنجى

وقبالتها فى الغربية بلدة:

دهنور

وفى المنصورة مدينة ميت غمر العَظِيمة وقد أسلفت ذكرها، وتجاهها فى إقليم الغربية قصبة:

زفته

والتى سلف ذكرها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة بلدة:

معصره

وفى الغربية قبالتها فى بلدة:

مسيد

وبجوارها بلدة:

وصيد

وفى المنصورة بلدة:

ميت العز

وفى الغربية:

ميت الحارون

وفى المنصورة بلدة:

الصفين

وقبالتها فى الغربية بلدة:

تفهنى

وللشيخ داود العزب فيها ضريح عظيم، والذى ظهرت له كرامات ومعجزات ذكرت فى الكتب وفى كتاب طبقات الشعرانى أنه قطب عظيم له منزلة عبد القادر الجيلانى، وجنيد البغدادى وأحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى. ومضينا إلى هند يمنه، وفى إقليم المنصورة بلدة:

سندى

وقبالتها فى إقليم الغربية بلدة:

ميت برى

وفى المنصورة بلدة:

اشبون

وفى المنصورة كذلك:

كفر مويش

وقبالتها فى إقليم الغربية بلدة:

مِلَلّو

وفى المنصورة بلدة:

بنهى

وتجاهها فى الغربية بلدة بطاى وفى المنصورة بلدة رَمْلى، وتجاهها غربًا:

كفر ابو الطواقى

وفى إقليم القليوبية:

ميت عطار

وهى بلدة عظيمة كأنها قصبة وفيها تجمع حدود أربعة سناجق وهى سنجق الغربية وسنجق المنصورة وسنجق المنوفية وسنجق القليوبية. والسناجق الأربعة تسمع آذان ميت عطار لأن حدود كل منها متقاربة، وفى آخر إقليم الغربية بلدة:

سيدى خضر

وفى أول حدود المنوفية بلدة:

العطف

وآخر حدود الشرقية بلدة:

طحلة

وفى أول حدود إقليم القليوبية بلدة:

دجوى

وهى التزام أوزبك بك، واقتضت حكمة الله أن تكون قرى الحدود هذه مجتمعة فى أرض واحدة ودخلنا الحد الأيمن لإقليم المنوفية، ودخلنا الحد الأيمن لإقليم القليوبية، وفى إقليم منوف بلدة:

ميت عفيف

وهى تجاهها بلدة دجوى.

وبلدة طنط

تتبع قليوب، وتجاهها فى المنوفية:

بلدة برِشمس

وفى إقليم القليوبية بلدة:

برشوم

وتجاهها فى المنوفية بلدة:

أبو شعرا

وتجاهها على ضفة النيل بقية القليوبية.

أوصاف قصبة القليوبية

وقد كتب عنها المؤرخ أبو المال كثيرًا، وجاء فى تواريخ القبط أن أول من بناها هامان وزير فرعون، وقد تبقى فيها أساس قصره وبستان، وباب من أبواب بستانه، ويسمونه بئر هامان وماؤه عزب والسواقى تدور فى اثنى عشر موضعًا فيها، وهذه السواقى تروى ما فيها من مزارع قصب السكر، ويزعم القبط أن فى مائها شفاء المريض، وقليوب

كاشفية، وقد سبق أن قلنا إن مائتى كيس تتحصل منها، ويتبعها مائتان وثمانون قرية ويحصل من هذه القرى بعد المصروفات مائة كيس، إنها قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وكانت تغل مدة من الزمن عشرة أكياس ستة وسبعون من قراها، ولقربها من مصر ليس لها من يتولون الإفتاء على المذاهب الأربعة كما تخلو من نقيب للأشراف، ولكن فيها قائد للانكشارية والعزب، وقديمًا كان يوجد فيها ألف حديقة، والآن فيها ثلاثمائة بستان كما أن فيها ألفى بيت وأربعون محرابًا، وسبع خطب، وبالقرب من السوق السلطانية جامع قديم ويتسع لآلاف المصلين، وله سقف يقوم على أربعين عمودًا، ومنارة تتألف من ثلاث طوابق، ولم نشاهد جامعًا آخر، وفيها عشرون مكتبًا للصبيان وثمانية خانات وسبعة مقاه، ومائتا دكان. وركبنا زورقنا الذى جرى بنا فى النيل، وبعد سبعة أميال بلغنا بلدة شبرا التى سبق ذكرها، وهى فى نهاية حدود إقليم القليوبية، وبعدها حدود مصر وتجاهها فى إقليم المنوفية محلة تسمى بحر، وبها تتم حدود المنوفية، وآخر حدها:

بلدة السروى

وهى على بعد أربعمائة ميل من دمياط وعلى شاطئ النيل تقع مدن صغيرة معمورة وقد شاهدت معظم الجوامع المشهورة والكبيرة، والزوايا والمدارس والوكالات المعمورة والمزينة والحدائق والترع واستمعت إلى ألحان البلابل الجميلة فى البساتين، ووصفت مزارع النخيل والحدائق، واكتفيت بذلك حتى لا يطول بنا الكلام وليس على نيل دمياط قرى مثل ما على نيل رشيد، وعلى نيل رشيد توجد مدن كثيرة ولا وجود لعمران فى إقليم البحيرة وأكثره صحراء. ثم مضينا إلى محلة شبرا. وفى الشهر الثالث دخلنا مصر والتقيت مع الكتخدا إبراهيم باشا. وقدمت إليه ما استطعت تقديمه من هداياى فتقبلها منى. وتجولت وشاهدت الديار وتعرفت أحوال الرعايا والبرايا. وسألت ملتزمى الكاشف. ومضينا إلى صحراء البرلس وطعمنا. ونلنا من خضر بك خلعة حسنة وجوادًا. والله عالم السر والخفيا، وخضر بك وزير منير الضمير وسخى جواد وقد تشرفت بالتحدث معه فى الليل والنهار، وقال ذات ليلة أثناء حديثى معه إنه تجول فى البلاد شبرًا شبرًا وسوف أبعث بك إلى حاكم جرجه فقال لى لا تنسى دعاءنا لك بالخير وأمر رفعت أفندى رئيس الديوان أن يكتب لحاكم جرجه أن أوليا جلبى صديق حميم وأخٌ كريم فإذا وصل إليك وأراد التجول فى البلاد فهيء له السبيل.

وأمام مدينة أسيوط غرقت سفينة أميرية تحمل ألف أردب من الغلال. وقد كتب أمراً بالتحقيق فى هذا وأصدرت الأوامر إلى جميع الكاشفين والملتزمين بذلك. وانتهزت هذه الفرصة وخرجت بعد أن قبلت يده. ورجوت إليه أن يكتب رسائل إلى حاكم الفونج. وسألت من رجال الديوان فى مصر. هل فى الإمكان أن أمضى. فقالوا نعم هذا فى الإمكان ولكن الحَرّ كان شديداً والطريق غير آمنة. وقالوا إن هذه السَّفْرَةَ صعبة شديدة ولكن سوف تمضى فى خير وأمان بمشيئة الله. وكتبت الرسالة لى فكانت أمراً إلى حاكم جرجة.

إن ملك الفونج كان راسخ العقيدة فى الشيخ البكرى، والشيخ محمد، ونلنا منه سبعة رسائل لِنَنَال بها الهدايا، فنلنا جواداً وبساطًا طاهراً، وعشرة كؤوس وثلاثة قسى وكانت ترسل الهدايا ورسائل الصداقة من مصر إلى الجزائر وتونس وفاس ومراكش وبلاد البربر وبلاد الفونج والسودان وبلاد الحبشة واليمن ومكة والمدينة والبادية العربية وكذلك بلاد المغرب.

فقد وصل إلى سفير اليمن فرمان كما أعطى لى رسائل ورسائل مودة، ومنذ عهد السلطان سليم الأول قدم مصر سبعون وزيراً، لأن الحل والعقد كان فى يد الكتخدا لأنه كان وكيلاً يحكم كل شىء برأيه السديد، إلا أنه مع وفور عقله كان يتشاور مع من تقدمت بهم سنهم ليأنس برأيهم، ويعمل به، وكان يكرم كلاً منهم حسب مرتبته، وقد أعطانى أوراقًا لأسلمها لحاكم جرجه وبلاد الفونج، كما أعطانى مصاريف السفر وجواداً، ووصلت إلى الباشا فى اليوم الثالث، فأبلغت حاكم جرجة خبر غرق سفينة الغلال، وبلغت أوامره للكاشفين وغيرهم، ونلت من ملك الفونج رسالة وهدايا، فنلت منه نقوداً وجواداً وتخت شباب وقد أعطيت خدامه عشرة قروش، ودعوت له بالخير وقبلت يده وقلت إلى الملتقى بمشيئة الله، وقرأت الفاتحة، وخرجت وودعت كل الأصدقاء والأحباب ومضينا متوكلين على الله.

* * *

الفصل التاسع والستون
ما أصدر والى مصر إبراهيم باشا وما كتب من رسائل ألف وواحد وثمانون رسالة إلى حاكم الصعيد أوزبك بك والى كاشف الواحات وكاشف ولاية أبريم وحاكم ولاية بربرستان وملك بلاد الفونج وملك قاقان، وما زرنا من قرى وقصبات يسر الله لنا زيارتها

وإذا أراد الله شيئًا يسّر أسبابه فركبنا خيولنا المطهّمة وبدأنا سياحتنا وتحركنا من مصر أم الدنيا، وبعد أن قطعنا فى الصحراء ساعتين جنوبًا بلغنا بلدة البساتين وكانت تابعة لالْتزام نقيب الأشراف وفيها سبعمائة بيت، وثمانية محاريب وثلاث خطب، ووكالة وعشرون دكانًا، ويحيطها من جوانبها الأربعة البساتين، ويقدم إليها الأعيان من مصر للنزهة، إنها جميلة بها الورود والرياحين وفى وسطها قصر يوسف، والمتنزهون ينعمون بالمتعة على حافة حوضها.

ومضينا إلى الجنوب مدة نصف ساعة وهناك على النيل مرفأ قديم وبعيد عنه جميع أهل الصعيد، وثمة موظف للدولة يحصل رسوم الجمرك من شاطئ النيل، فبلغنا:

قصبة موخنان

وتقع على مسيرة ربع ساعة من النيل فى الصحراء، وبها حدائق وبساتين وهى تابعة لكاشفية الجيزة وبها خمسمائة بيت وجامع ومقهيان وعشرة دكاكين، ولا يوجد فيها الحَمَّام إنها قصبة معمورة، ويحكمها نائب الجيزة منذ عهد السلطان سليم تتبع هذه القصبة شيخ العرب خبير أوغلو وهى أرض ذات بساتين ونخيل: وقصر خبير أوغلو دار ضيافة، ويطعم فيها الغادى والرائح، ومن سلموا قايتباى وكرت باى مقيدين للسلطان سليم من هذا البلد، وقد عبر أحد عشر ألف النيل ومضوا إلى السلطان سليم، وظلوا فى خدمته ولذلك أعفوا من الضرائب، وهم الآن مطيعون منقادون فلما أغار على مدن إقليم البحيرة ألف وأربعون ألفًا من مجرمى عرب بهيجة والهنادى منهم أربعون ألفًا للنهب والسلب، ولما علم بذلك وزير مصر ألف جيشًا من خمسة آلاف فارس وانطلقوا

إلى إقليم البحيرة، وفى أول الأمر واجه كل جندى جنديًا فمزق عرب خبير أغلو، صفوف من واجهوهم، كما أن جنود مصر ألحقوا الهزيمة بعرب الهنادى فتم القضاء على ستين ألفًا منهم، واختلطت جثثهم بالرمال وتدحرجت رءوسهم من ضربات السيوف، وأصيبت منهم غنائم تفوق الحد والحصر، كما أن رجال خبير أوغلوا غنموا ألفى جمل وجاءوا بها فى يوم وليلة من الصحراء، وقدموها هدية إلى إبراهيم باشا فامتلأت مصر بالجمال، ونال خبير أوغلو مكافأة له على ذلك خلعة آصف، وهى رمز للمقاتل الباسل، وقد أكرمه إبراهيم باشا وضيفه ذات ليلة، وفى الصباح، أرسل إلينا خمسين فارسًا، ومضينا سبع ساعات على النيل وبلغنا منزل:

قهوه خانه

وهو أرض واسعة فيها قلعة ذات باب كبير وفى نهاية بابها الكبير مقهى، وهى موضع لاستراحة المسافرين، وبها دكان، إنها دار ضيافة فى الطريق إلى الفيوم وبنى سيف ولا عمران فيها، ومضينا إلى الفيوم بعد سبع عشرة ساعة، وهى أرض ذات رمل كثيرة الأفاعى والحشرات، وليس بها أمان، إنها حدود خبير أوغلو زاده، وهى حد بلدة بنى سيف، ويجتمع أهل القرى فيها كل أسبوع، وهذه القهوة فى سوق عظيمة، وقد اجتزت هذا الموضع، وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلية أرض ذات نخيل وفيها قرى معمورة واجتزنا فى ست ساعات إلى:

منزل بلدة دلى حسين باشا

وتقع على شاطئ النيل على ربوة فى حدود بنى سيف، وبها مائة بيت وجامع وساقية وآبار، فاستقبلنا حسين باشا زاده نوح وضيفنا ليلة فنعمنا بالراحة، وسرنا متجهين جنوبًا نحو النيل، واجتزنا كثيرًا من القرى المعمورة على شاطئ النيل، كما اجتزنا:

بلدة زاوية وبلدة قوما دير

وبعد سبع ساعات بلغنا:

بلدة ميمونة

وهى على حدود بلدة بنى سيف، وفى التزام كاتب تذكرة الوزير الأعظم إسحاق أفندى، وبها جامع وعدة أسواق وقصر عالٍ هو دار ضيافة فاجتزتها نحو الجنوب واجتزنا قرى عامرة.

أوصاف مدينة سيف بن ذى يزن

ولذا سميت المدينة ببنى سيف، وفى نواحيها تسكن قبيلة من عرب بنى سيف إنها كاشفية فى أرض مصر، وهى الآن كشوفية، ويتبع كاشفها خمسمائة فارس وخمسمائة جندى مصرى، وبها مائة وأربعون قرية، ويحصل من هذه القرى مائتا كيس وخمسة، و(   )[1] أردب من الغلال وتودع ديوان مصر، وعين من قبل الباشا أغا للتحصيل، ويوزع الباشا على كل أحد أردبين من القمح كما أن أغا يأتى من طرف الباشا للتحصيل سريعًا وبها قاض شرعى يحصل منها على مائة كيس فى العام، وتحت حكمه مائة وأربعون قرية، وثمة انكشارية وقائد وعزب الشورباجى وشيخ الإسلام ونقيب وأعيان كبار، تقع المدينة فى سهل فى أرض تبعد عن النيل بخمسمائة خطوة وهى ذات بيوت جدرانها مثل جدران القلاع تحيط بها من كل جانب، وبها خمسة آلاف بيت، وهى بيوت ذات طوابق وفيها قصر الكاشف وبه سبعون حجرة وحمام وديوان وميدان، وبجوار بيت الشيخ على بيت الشيخ صالح وبالقرب من القصر قصور طاصلاق زاده أحمد أغا، كما توجد بها قصور شامخة، ولكن هذا ما عرفناه منها وشاهدناه، وفيها محلات للمسلمين وغير المسلمين، وفيها جوامع وزوايا ولكن ستة منها جوامع تؤدى فيها صلاة الجمعة، وفى سوقها جامع قايتباى وجامع عز الدين لكل منهما حرم ومنارة، وبالقرب من قصر طاصلاق زاده أحمد أغا جامع لم يكتمل بناؤه ولكنه بدون حرم وله منارة على الطراز الرومى وله سبعة أعمدة من الرخام، وفوقها سقف لا نقوش فيه، وكان بانيه فى كل يوم يبنى ملحقات تضاف إليه، وللجامع أوقاف عظيمة وغير منارته رومية الطرز له خمس منارات أخرى عربية الطرز، وتوجد مساجد علاوة على هذه

(١) بياض فى الأصل.

الجوامع، وبها كذلك ثلاث مدارس وبها إلى جانب حجرات الدراسة جامع وبها أربعون مكتبًا للصبيان وأربعون سبيلاً وحمام، ولا توجد أبنية بقدر تلك المذكورة، ولجامع طاصلاق زاده أحمد أغا مِبَرَّةٌ، وكان متولى الوقف ينفق عليها عشرين كيسًا، وقد قرأت الفاتحة له، وبها عَشْرُ مقاهٍ وعشرة بيوت للصباغة وعشر وكالات مشهورة وجملة ما فيها من الدكاكين خمسمائة دكان، ولكن ليس فيها سوق خاصة، وفيها من كل سلعة، ويسكن هذه البلدة عشرون ألف شخص، وجوّها معتدل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لاعتدال جوها، وبها كثيرون من العسكريين المدنيين، وبها سوق كبيرة تقام كل يوم جمعة، ومأكولاتها ومصوغاتها وغنمها مشهورة كما تصنع سجاجيد صلاة بديعة فيها، وبها سجاجيد وبُسُط بديعة النقش، كما تصنع بها مقاعد عجيبة، وفيها حدائق الليمون والسفرجل والتمر، وفى بساتينها الشمَّام والبطيخ والخيار والعجور والقثاء والكرنب والقرنبيط والقُلْقَاس.

بيان ضرائح الأولياء التى زرتها

ضريح شيخ الملة وقطب الدولة الشيخ على بطح ملت الذى كان من قبائل العرب التى فى وادى بطح بمكة ولذلك سمى بهذا الاسم، ويزور ضريحه الرجال والنساء، وبجانبه منبع الأسرار ومرجع الأبرار الشيخ صالح الطيار، وإلى جانب الحمام من صحابة رسول الله ﷺ الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص الذى جرح فى البهنسية أثناء إغارة عمرو بن العاص عليها، وعلى ضريحه تاريخ إلا أنه كتب بخط غير واضح، لذلك لم أتمكن من ذكره، وعلى مقربة منه ضريح حاضر أسرار الطريقة وناظر أنوار الحقيقة الشيخ محمد الأنورى، وبجانب الوكالة البيضاء ضريح الشيخة الست حورية، وبالقرب منها الشيخ على كِبَارِى، وقد زرت ضرائح هؤلاء الأقطاب جميعًا، ولكن ثمة كثير من الأولياء والأتقياء مدفون فى هذه المدينة قدس الله روحهم. وقد مكثت فى هذه البلدة ثلاثة أيام ثم تجاوزت عشرين قرية على شاطئ النيل جنوبًا، وبعد ست ساعات بلغت:

قصبة فشنه

وهى على حدود بنى سيف وفى التزامها.

أوصاف قصبة فشنه

وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقچه، ويتحصل منها فى العام أربعة أكياس، ويتبعها ستون قرية، وهى قصبة صغيرة وجميلة، لكنها معمورة تقع على ربوة بعيدة عن النيل وفى جوانبها الأربعة سبعة أبواب خشبية كأنها أبواب القلعة، وبها ثلاثة آلاف بيت، وفى كل بيت منها برج للحمام ويحيط بها من جوانبها الأربعة نخيل، وفيها سبع محلات وسبعة محاريب وثلاثة منها جوامع، وفى السوق جامع كبير الأمير، مقام على اثنتى عشرة زاوية عليها أعمدة تحمل سقفًا وله قبة ومنارة قصيرة، وبها أربعة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وعشرون دكانًا وسبعة سبل وسبع مقاه وليس فيها سوق ولا حمام، وبها دار ضيافة فى أسفل الجامع، وبها يصرف الطعام للغادى والرائح كما يصرف العير والجياد للمسافرين، وتقام فى يوم الجمعة سوق عظيمة بها، ويجتمع فيها خلق كثير وكل إنسان يبيع سلعة.

أوصاف ضرائح فشنة

ضريح الشيخ عبد الله قدوة الرجال ونقطة الكمال ابن الشيخ جلال، وكما أن هناك قبر للشيخ جودى، وبالقرب منها الشيخ الأمين سلطان الدنيا والدين، وبالقرب منه ضريح الشيخ أبو العال صاحب طريق الكمال والمجاهد بلا جدال، وبالقرب منه الشيخ رمضان قدس سره رحمة الله عليهم أجمعين، ولو وصفت سياحتى فى هذه القرى والبلدان والقصبات والضرائح، وبفصاحتى وبلاغتى لتألف منها مجلد ضخم، ولكنى أصفها على وجه الإيجاز وهذا ما يسره الله لى، اللهم يسر لى إتمام ما أنا كاتبه.

ثم غادرت فشنه واجتزت اثنتى عشرة بلدة معمورة، وبلغت:

صفد أبو جرج

وهى أيضًا قرية وبعد سبع ساعات، مكثت فى:

بلدة قيس

لأن الجو كان شديد الحرارة، وهى التزام يتبع بنى سيف بعيدة عن النيل، وبها مائة بيت، وبها آبار عذبٌ ماؤها، ونزلت ضيفًا على شيخ البلد لأن دار الضيافة كانت خربة، وفى شمال هذه البلدة ضريح الشيخ إبراهيم عبد الرحيم، وله مناقب كثيرة ورد ذكرها فى كتاب الطبقات للشعراوى إنه قطب عظيم، وبجانبه شجرة غريبة وعجيبة، إنها شجرة لا نظير لمثلها، ويأتى إليها الغادى والرائح من الزوار والتجار ويندهشون لرؤيتها.

وصف هذه الشجرة الغريبة العجيبة

إنها تبلغ فى الطول طول خمس قامات للإنسان، وثلاث خطوات، إنها دوحة عظيمة وجذعها يتألف من فصوص فى جوانبها الأربعة، ولمن ينظرون إليها من الوسط يبدو لهم أوراقًا وثماراً، وإذا بَخَّروا مريضًا بالصرع بأوراقها شفى من مرضه بمشيئة الله، ولها ثمر حامضى الطعم ذات قشرة إذا أكل منها مرتين فى الشهر مصاب بالإسهال شُفِى بأمر الله ويأتيها أرباب الحاجات أول كل شهر، إنها شجرة سنط تَنبُتُ فى وسط الحديقة، وهى شجرة لا ثمر لها تنبت فى بلاد العرب، وهى تشبه شجرة طوبا التى توجد فى الجنة، وهى تمد غصونها ويجلس تحتها الصبيان والظلال التى تمدها تتسع لألف إنسان، يا لها من حكمة عجيبة إنها منكسة، وجذورها بارزة من الأرض، ويقول الشيوخ الذين طعنوا فى السن إن آباءنا وأجدادنا رأوا هذه الشجرة على هذه الصفات إن غصونها اتجهت إلى أسفل إنها تستحق المشاهدة لأنها خلق عجيب إن الله على كل شيء قدير، ويفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد ولا يسئل عما يفعل، ورأى بعض المتقدمين فى السن أنها من الكرامات للشيخ إبراهيم وقد أراد أهل البلدة أن يشاهدوا بها كرامات الشيخ إبراهيم فسجد فى الموضع الذى نبتت فيه الشجرة، فخلقها الله تواً بأمر الله تعالى وإنها لم تنبت ولكن هبطت من السماء، وظلت معلقة فقدم جميع من أنكروا الإيمان، كما جاء فى تواريخ السيوطى عنها، وقد قرأت أنا فى تواريخ المقريزى أن فى جنوب مصر القاهرة بالصعيد العالى شجرة معلقة ولا وجود فى الأرض لمثلها، وفى

عصر بنى إسرائيل عمرت هذه الشجرة ألف سنة وقد عبد الله فى ظلها سبعة أنبياء وأن سبعة من اليهود استشهدوا فى ظلها وحينما دفنوا هناك بأمر الله ظهرت هذه الشجرة ونزلت أغصانها من السماء إلى الأرض، وقتلة اليهود أكلوا منها فهلكوا، وصار ساق الشجرة فصوصًا عندما جاء النبى آه واه، وقد دفن فى ظلها هذا النبى، والآن يزورها الخواص والعوام لذلك فما كتب عنها صحيح، لأن ما جاء فى الخطط يعتمد على مراجع صحيحة ولكنى شاهدت الشجرة فلم أجد فى ظلها دفينًا من الأنبياء، وإنما دفن الشيخ إبراهيم فى ظلها.

وتجولت سبع ساعات، نحو الجنوب على شاطئ النيل ومررت بقرى كثيرة وبلغت:

بلدة سمنوط[1] بالصعيد

وهى تبعُد عن النيل وبها ثلاثمائة بيت كما أنها التزام، وحاكمها الأسبق كان كاشفًا، وبها تتم حدود المنيا وإلى جوار ضريحه شجرة نبق عظيمة ولها نبق لذيذ الطعم، وفى قبالة سمنوط على شاطئ النيل دير قبطى شديد الارتفاع وكنيسة كأنها قلعة عظيمة وفرعون بانيها ويجتمع القبط لزيارتها، والرهبان يجمعون المال لخزينة مصر، وثمة صخرة يجرى النيل من تحتها والرهبان من أعلى هذه الصخرة يغترفون من ماء النيل ويملؤن الصهاريج، ويضيفون المسافرين، ويكرمونهم إكرامًا عظيمًا، ويقدمون إلى الضيوف ثيابًا ويقومون على خدمتهم حتى الصباح، وقد شاهدت هذا كذلك ومضينا إلى سملوط فى الجهة الغربية، وركبنا جيادنا ومررنا بقرى المنيا على شاطئ النيل وبعد ثمان ساعات بلغنا بلدة المنيا.

أوصاف مدينة المنيا

مدينة جرجا عاصمة الصعيد العالى، وهى حكومة تابعة للوزير، وقد أصبح اثنان من بكواتها أميرين للحج مرتين، ويحصل منها سنويًا مائتا كيس (   )[2] الف أردب من الغلال ويحرسها مائة جندى وسبع فرق من جند مصر، ويفيض لها مائة كيس وثمة حاكم من قبل الوزير يكلف أغا فى تحصيل غلالها، ويحصل لمعرفته (   )[3] الف

---

(١) يقال لها: سمالوط.

(٢، ٣) بياض فى الأصل.

أردب من الحنطة والشعير والفول، ويقدم إلى الباشا ستة أكياس، ويفيض له خمسة عشر كيسًا ومركز الأغا أعلى رتبة ويأتى فى كل عام أغـا ليستعجل تحصيل الغلال وينال على ذلك أجرًا قدره كيس واحد على استعجاله للـغلال، وهو ملزم كذلك بتحصيل الغلال، وبها قاضى يحـصل على ثلاثمائة أقچه، وشـريف القضا يتقاضى عشـرين أقچه، وفى نواحيهـا مائتان وعشرون بـيتًا جميلاً، وفيـها أربعة مفتـين يفتون على المـذاهب الأربعة ونقيب لـلأشراف وسبعة من القـواد، وليس فيها عبـيد ولا قائد ولا كتخدا سـباهية ولا زعامت فـى قراها ولا تيمـارات ولا سيد فيها ولا رئـيس للجنـد، أما طائفَةُ الجـند من المصريين فكثيرة؛ لأنها مدينة مزدحمة بـالسكان، وعلى شاطئ النيل بيوت ذوات طوابق على ربوة يسكنها أسر كريمـة وبهـا مـائـة وخمسـون مـن الزوايا والمحاريب والجوامع، جامع قديم لعمر بن الخطاب لأن عمرو فى خلافة عـمر بن الخطاب فتحها بعد أن تغلب على القبط، لما أقام عمرو هذا الجامع كان معبدًا قديمًا، إلا أنه كان فى عهد الفراعنة ديرًا وهو واضح عـلى سد عال عـلى شاطئ الـنيل وطولـه تسعون خـطوة، وعرضه سـتون خطوة، وبداخله اثنان وخمسون عمودًا مـن الرخام، وحرمه مكشوف، وله ثلاثة أبواب ومنارة قصيرة وسقف مـنقوش، وتطل جميع نوافذه على النيل، ومـحرابه منحرف نحو الركن، وهو من الخشب المنـجور، ويزدحم فى الفجر بالمصلين لكنـه مقر طلاب العِلْم، وتُلْقَى فيه الدروس العامة، وفيه أربعون أو خمسون حلقة تلقى فيها شتى العلوم، ويختم القرآن من مائة إلى مائتى مرة فى اليوم والليلة، وثمة من حفظة القرآن من هم أكمهون، وكأنما هذا الجامع هو جامع الأزهر فى مصر إنها مدينـة طيبة الماء لها الشهرة عند العرب والعجم، وفيهـا يستجاب الدعاء، وبه مبرة أوقافـها عظيمة وبه يُضَيَّفُ العـلماء والفقراء والمساكين عمر الله هذا الجامع إلى انقراض الدوران[1].

وعلى ربوة على شاطئ النيل كذلك جامع الـظاهر بيبرس، ويقوم على ستة وثلاثين عمودًا من الرخام، وفى سقفه نقوش مذهبة بـديعة، ومحرابه ومنبره من الطراز القديم، ولكن جـدرانه الأربعة من الحـجر المكسو، وكأن كـل جدار مرآة، ولا وجود لمثـله فى

(١) يعنى: إلى قيام السـاعة.

أرض مصر، وكل الرحالة الذين يقدمون مصر يعجبون لأساس هذا الجامع لأنه كان فى الأصل صومعة قديمة، وفيه نقوش بديعة من كل الأنواع ويعجز عن وصفه الواصفون، وفى مصر كثير من الجوامع التى أقامها السلاطين ولا وجود لمثلها فى سائر أركان الأرض إلا أن جامع المنيا هذا يختلف عنها جميعًا لأنه فى طرزه عجيبٌ غريبٌ منقطع النظير، وعلى قبته كتب هذا التاريخ (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المسجد المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس خلد ملكه سنة عشرين وستمائة) وله بابان ومنارة وكل كواته تطل على النيل، ولكن لا وجود لما يشبه جامع عمرو.

ويقع شمال المدينة وفى السوق السلطانية جامع الشيخ مصرى، وهو تحتانى والمصلون فيه كثير، ويوجد كذلك جامعان لا علم لنا بهما فضلاً عن الزوايا.

وثمة ثلاث تكايا وإحدى عشرة وكالة وثلاثمائة دكان وحمامان، وعلى مقربة من جامع عمر بن الخطاب حمام منذ عهد فرعون بقى على ما هو عليه، إنه حمام قديم عجيب، وهو معلوم لدى العرب والعجم وإذا دخله مريض تم له بأمر الله الشفاء وإذا دخله مجزوم أربعون يومًا، فكأنما خرج من بطن أمه بيضة بيضاء حتى أن ابنة على بن أبى طالب العذراء قدمت مصر ودخلته فشفيت من مرضها، وهذا الحمام من بناء الحكماء القدماء وحوضه ذو صنبور مرتفع بقدر قامة إنسان ويكون فيه الوقوف ويستحم واقفًا وإن لم يكن من الجص، وقد طلى بابه وجدرانه بالمسك والعنبر والزعفران، وجدرانه مبنية من الجبس الخالص والعبير ينعم بتنسمه كل من يستحمون فيه، وينبع من جدرانه ماء الورد والمسك والكافور يتنسمه المستحمون، وجوه معتدل لطيف لقربه من النيل وماؤه من النيل، وأرضيته مفروشة بالحجر الأبيض، وفى زمننا لا يستطيع عامل ماهر فينا أن يضع حجرًا مثله فى موضعه، وغرفة الثياب فيه صغيرة وغاية فى الصغر، أما الحمام الذى فى قصر أغا الغلال فحمام جديد إلا أن جوه ثقيل، وثمة أكثر من مائة سبيل، وستون مكتبًا للصبيان، ولا وجود لسوق فيها، وجميع أسواقها مغطاة لدفع الرمال والغبار وشدة الحر عنها، وفى الوسط قصورٌ فيها قصر الكاشف، وقصر أغا الغلال على ضفة النيل وهو قصر جميل، وكل قصورها وما فيها من شرفات ونوافذ

تطل على النيل، وهى قصور عالية يمتد منها البصر إلى الدنيا، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة ستمائة قرية معمورة، وهى بلاد ذات بساتين كثيرة واسعة وجميلة لاعتدال جوها فأهلها يشتهرون بالجمال، وفتيانها حمر الخدود ومردانها يلبسون الحرير المنقوش، والجند فيها كثير، ويلبس فتيانها ونساؤها على رءوسهن حمر القلانس، ويربطون على خصورهن مناشف بيضاء ويضعون على وجوههن براقع من الشعر ويسمون الخبز المخبوز الأحمرَ بالرغيف وهو أحمر اللون كلون الوردة الحمراء، ومناشفها مشهورة وما أكثر الحدائق فيها، وتجاه النيل فى هذه المدينة آثار فرعونية كأنها أطلال قلعة.

وجاء فى بعض التواريخ أن الشيخ المصرى مدفون فى جامع المصرى، ولم يتيسر لى أن أزور ضريح آخر سوى هذا الضريح فى هذه البلدة.

ومضيت من هناك وسِرْتُ على شاطئ النيل نحو الجنوب، وبعد خمس ساعات بلغت:

مدينة اشمونين القديمة

وقد بناها أشمون بن بيطر أبى القبابط بن نوح، وفيها آثار وأطلال مغمورة فى الرمال، وإذا تعرضنا لوصفها لَمَسَّتِ الحاجةُ إلى مجلد كامل، وفى هذه البلدة ثلاثمائة بيت وجامعان وعدة دكاكين وهى تابعة لكشفية جرجا، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وفى نهايتها أربعون قرية، وبها سوق تقام كل أسبوع هى قصبة صغيرة. وتجاوزتها، وبعد ثمان ساعات بلغت:

قصبة بداوى، اى بلدة ملوى

وهى تتبع حكم جرجا، وهى داخلة فى كشفية المنية والحقت بها قضاء المنية، ويتحصل من قضائها مائة وخمسون أقجه فى الأحايين وبها ستون قرية ويحصل غلالها أغا غلال المنيا ولها قائد من طائفة الانكشارية وعدد من الانكشارية والعزب أما نقيبها ففى المنيا وهى على شاطئ النيل على ربوة، وهى بلدة جميلة لأن النيل ينحرف جنوبها وقد عصفت الريح بكثير من بيوتها فهدمت وتخربت، فأقام أهلها بيوتًا لهم فى أرض واسعة بالقرب منها منذ خمسين عامًا، وهى بيوت جميلة وقصور شامخة، وهى أربعة آلاف وخمسمائة بيت ولا وجود فى الصعيد لمدينة جديدة جميلة مثلها، وجميع بيوتها

لها أبـواب وجدرانها حمـر وسود وبيض وكتـب على كل منـها اسم صاحب الـبيت، وتاريخ بنائه وفى هـذه المحلة ست عشرة محلة وأربعون محـرابًا وخمس خطب، وفى السوق جامـع يوسف بك يصعـد إليه بسلم مـن ست درجات، وطوله وعرضـه ستون خطوة وفى داخله ثلاثون عـمودًا من حجر أبيض تحمل سقفه، ومحرابـه ومنبره خاليان من النـقوش، وفى أطراف حرمـه اثنان وعشرون عـمودًا، وله ثلاثة أبـواب ومنارة ولا وجود لمنارة أخرى فى تلك البلدة، وفى البـلدة جامعان آخران علاوة على زاوية كما أن فيها حمامًا وأربعمائة دكان على الطريق وصاحب هذا الجامع يوسف بك، وهذا الجامع وقف ليـوسف بك، ومائة دكـان تبرع بهمـا محمد بك حـاكم جرجا، وكل الـدكاكين مغطاة سـطوحها، وشوارعها الـرئيسية نظيـفة يسقى به الـسقاءون ماء النيل وبـها ثلاثة خانات وسبـعة مكاتب للـصبيان وسبع مـقاه، وستة سبل وبـيوت للعسكـر وخمسون طاحونة مائـية تديرها الخيول، وسبع طواحـين للزيت، ولم أرَ فيها مخـابز، إن جميع الأهالى فى هذه البلدة يـخبزون خبزهم فى بيوتهم، يسكنها سـبعة عشر ألف شخص، ولكنـهم يحبـون ويضيفون الـغرباء، وفى جـوانب المدينة الأربـعة أبواب كأنـها أبواب القلاع، وهى من الخشب، وعليها مزاغل، ومنـها تطلق النار على المجرمين من العرب إذا أغاروا على المدينة، وفـى كل ليلة يسد الحراس هذه الأبواب ويسلمـون المفاتيح التى تخص أبواب المـدينة إلى شيخ البلـدة، إنها مدينة مسـتتب فيها الأمن وجوهـا معتدل، وأهل ملاوى مشـهورون بالجمال، ومحصـولاتها معروفة ومـشهورة وصناعتهـا أعرقها السكر والسكر الـنبات، ولا وجود لمثله فى أراضى مصر، ولكنـه يأتى من الشام، وفى بساتينها عود قصب السكر يبلغ فى الطول ثلاث قامات إنسان وهو فى غلظ الذراع وكل أنبوبة فيه قـدر شبر، وهو لذيذ كثير الماء، وقـد قطعت أنبوبة منه وعصـرتها فى كوب فكانـت مثل ماء الورد فـكانت شرابًـا يجدد الحياة وهـو مفيد للـجسم وقشـره رقيق، ومجمـل القول أنه لا وجود فـى أرض مصر لما فى ملاوى مـن سكر وقصب الـسكر، وهذه البلـدة واسعة الشهرة بذلـك وفيها كذلك أشيـاء أخرى كثيرة، ولكن الـسكر هو أفضل ما فـيها، ولكنى لـم أزر ضرائح كبار الأوليـاء فيها وإن كنت قـرأت لهم سورة

يس، وتجاوزت مدينة ملاوى فى أرض ذات نخل، وانطلقت جنوبًا على شاطئ النيل، وبعد ثلاث ساعات بلغت بلدة: دارود الشريف.

أوصاف قصبة دارود شريف

إنها تابعة لحكم جرجا تتألف من ثمانمائة بيت وهى بلدة صغيرة معمورة، وناحية صنبو قضاء وغلالها مما أوقف فى مصر على الحرمين وهى فى التزام السادة الأشراف، وفيها جامعان وست زوايا ومقهيان وثمانية دكاكين وقد حفر فيها يوسف الصديق وأمده جبريل بالمصابيح ترعة، وذلك قبل أن تصبح هذه التى بالفيوم ترعة كانت جرفًا وحوض يوسف وجميع ما في مصر من ترع ومن خلجان تطهر فى كل عام بالجواميس والثيران ومائة ألف من الرجال، وترعة دارود التى فى مدينة الفيوم لم تكن جرفًا ولكنها شوهدت فى موضعها، وهى تجرى نحو الغرب وتروى مئات القرى وتمر من مدينة بهنيسا كما تسقى بلدانًا أخرى كثيرة، ورأيت فى جانب الفيوم بحر يوسف، وماؤه ملحٌ إنه بحيرة عظيمة، وسوف نكتب عنها فى موضعها ثم عبرنا بلدة ترعة دارود، وتجولت ثلاث ساعات وبلغت قصبة صنبو.

أوصاف قصبة صنبو

إنها فى حكم جرجا، وفى التزام السادات، وفيها صوباشى تابع للوقف وبها مائة وخمسون قضاء، وبها سبع وستون قرية، ويتحصل لقاضيها ثلاثة أو أربعة أكياس فى العام، ونصيب البلدة عشرون ألف أردب من القمح والغلال، وتقع على ضفة النيل، بها ألف بيت وثلاثة جوامع وسبعة دكاكين وليس بها حمام، كما لا يوجد بها خان ولا حدائق إنها قصبة صغيرة، ولكن بها دار ضيافة للغادى والرائح، وفى قصر عظيم يقدم فيها للضيوف فطور وطعام مرتين فى اليوم، وللمسافرين بيت للشعير فقمت منها صباحًا ومضيت مدة أربع ساعات على شاطئ النيل شرقًا، ثم انعطفت على شاطئ النيل جنوبًا أربع ساعات أخرى لأن النيل ينحرف فى هذا الموضع وكأنه رقبة البعير، وهناك فى النيل جزر ذات غابات وتماسيح ولصوص يركبون القوارب، وتجولت فى هذه المدينة ثمانى ساعات وبلغت مدينة منفلوط.

أوصاف بناى لوط اى مدينة منفلوط

وهى من بناء أبناء لوط بن أبى القبابط، ومدينة منفلوط مسطورة فى دفتر خانه جرجا والشائع خطأ على ألسنة العوام أن اسمها منفلوط وذلك سبب تسميتها بهذا الاسم وهى فى حكم جرجا باسم منفلوط، وهى مدينة قديمة ذات حكومة عظيمة، وقد منح وزير مصر حاكمها خلعة فاخرة، حتى فى يومنا هذا مصاحب أحمد بك يقدم هذه الخلعة وبها سبعة فرق مصرية من جنود مصر يحافظون على الأمن فى سبعمائة وعشر من قراها ويحصل منها مائتا كيس من مال السلطان وعدة من الأرادب من الغلال ويتصدق بمائة كيس بعد المصاريف، لأن من الواحات وبلاد الفونج والسودان يأتى النخاسون بمائة ألف جمل وآلاف الخصيان السود والبيض من السودان، ويمنح كل أسير ديناراً ذهبيًا ويمنح كل جمل قرش واحد، ويحصل من ذلك مال كثير، إنها مدينة يمر بها ناس كثيرة وكان قبل الباشا يحصل غلالها أغا الغلال، وكان يحكم البلاد ستة أشهر، وكان يتقاضى من الكاشف كيسين فى العام وحصانين وعدد عشرة من الخصيان المماليك يوميتهم عشرة قروش، وهؤلاء يحصلون الغلال، ويأتى أغا كذلك يستعجل تحصيل الغلال وينال من الكاشف كيسًا أجرًا على مقدمه فيلح على تحصيل الغلال، وعلى كل أردب يحصل يأخذ الباشا أغا بارتين ويورد للوالى سبعة أكياس، ويبقى بعد ذلك فائض قدره سبعة أكياس إنها قضاء يدر ثلاثمائة كيس، ومن ثلاثمائة قرية يحصل القاضى افندى عشرين كيسًا، وثمة قائد ونقيب وأعيان كبار، وعلى بعد ألف خطوة غرب النيل وعلى ضفة ترعة عظيمة ثمانية آلاف وستمائة بيت وهى من طوابق وهى جميلة مزينة، وفيها كثير من الفقراء المساكين وليس الأعيان بهذه الكثرة، ولكن التجار كثير، وفيها ثلاثون محلة وثمانية وثلاثون محرابًا وثمانى خطب منها الجامع الفوقانى للسعيد الشهيد: محمد بك ويصعد إليه بسلم من عشرين درجة إنه جامع لم يتم بناءه، ولكن المصلين فيه كثير وليس له مئذنة ولا حرم، وتحت الجامع دكاكين ولكل سوق بابان، وفى وكالة محمد بك جامعه وقد بنى على زاوية كانت من قبل وقد أقيم هذا الجامع فى وسط السوق المزدحمة، ويصعد إليه بسلم من حجر، وجامع عثمان بك جامع عتيق

كبير، وطوله وعرضه خمسون خطوة وله سقف منقوش وله باب للقبلة وبابان فى ناحيته وله منارة وخطبة ويسمى الشيخ جمال الدين ويقولون إنه من أولياء الله، وقد صام صومًا داوديًا وقد تلقيت منه الدعاء لى، وفى وسط السوق الجامع اليتيم، والجامع العتيق وجامع الكاشف محمد أغا، وهو جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولذلك يسمونه الجامع المعلق إنه جامع صغير، وليس به منبر ولا مدرسة ولكن زواياه كثيرة، وله ستون سبيلاً وسبعة وأربعون مكتبًا للصبيان، ودار للحديث وثمانية خانات، وفى داخل السوق حمام إمام خان وفى السوق كذلك حمام ويوجد مثله فى ديار مصر، وعلى نهر النيل فى دمياط حمام، وهو جميل البناء إلى أبعد غاية وفى المدينة ألف دكان، وكلها مغطاة، وهذا خاص بديار العجم ولا وجود لسوق وإنما لخان تباع فيه السلع النادرة، وثمة سوق للغلال وسوق للغنم وخارج المدينة أحد عشر سوقًا، وعلاوة عليها سوق للنساء، وأسواق هذه البلد كلها تقع على ربوة، لأنها مرتفعة مَنْ نظر منها إلى أسفل دار رأسه وقد كتب على معظم الأبواب وأعلاها الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]. وسألت ما أصل هذه النقوش فقيل لى بعد إيتاء الزكاة من يخرجون لأداء فريضة الحج ثم يعودون فينقش النقاشون على بابه هذه النقوش والآيات، وكثير من هذه الأبواب يوضع عليها جلد التمساح خوفًا من اللصوص، وهذه الأبواب مثل أبواب القلعة عجيبة وغريبة، وجو هذه المدينة جميل ويبدو الشبان بوسامتهم هنا وهناك وحدائقها وبساتينها لا تحصى كثرة وعندما يفيض ماء النيل وتجرى مياهه فى الترعة يجتمع على ضفتها جموع من الشباب للهو والمتعة فى العصر حتى مغيب الشمس، ووجوه أهلها وردية اللون، وهم يتاجرون فى الحرير والمناشف كما يباع على شاطئ النيل حرير القمصان وأشياء أخرى ويتعيشون من ذلك، وفيها سبعون طاحونة زيت ومائة وعشرون طاحونة قمح وعشرون مقهى وحانة، وبها محلة لليهود وأخرى للقبط وللمسيحيين واليهود ثلاثمائة بيت، وللأرمن وللأوربيين بيوت فيها وهم يأكلون الخبز فيه الينسون، والجبن القريش والزبد الأبيض والكعك وفطائر البوريك، والعسل الأبيض المصفى والليمون والسفرجل والرمان والنبق وغير ذلك كثير، ولكن ليس هناك جميز ولا موز وهم يكرمون الضيف.

بيان بالضرائح فيها

ضريح الشيخ محمد زعفران، وهو إلى جوار الأسواق السلطانية، وضريح الشيخ محمد أنفاس المغربى، وهو بالقرب من المسجد، وضريح الشيخ محمد القبيح وهو بالقرب من جامع اليتيم، وبالقرب منه ضريح الشيخ عبد الكريم وفى الجانب الغربى ضريح الشيخ عباس وفى الجهة القبلية ضريح الشيخ سليمان سلمانى، وبالقرب من قصر الكاشف مدفن الشيخ عثمان، وفى وسط المدينة الشيخ أبو الحسن، وعلاوة على ذلك توجد آلاف القبور وقد مرغت وجهى على هذه الضرائح وسألتهم البركات والعون، قدسنا الله بسرهم العزيز، ومن صلحاء الأمة أصحاب الكرامات الشيخ على سنارى، والشيخ محمد المنفلوطى كما وجدت قبور للطرارين والعيارين والمضحكين، ولكننا عرفنا الحافظين وأصحاب الكرامات ومن هؤلاء الذى حدد ميقات فتح القلعة بالساعة والدقيقة، وقبل أن تفتح بثمانية وخمسين يومًا، وقد رؤى فى الطريق يبشر به وهو من المجاذيب، وغادرت هذه المدينة بعد ثلاثة أيام، ومضيت جنوبًا ست ساعات حتى بلغت مدينة أسيوط القديمة.

أوصاف مدينة أسيوط القديمة

أسيوط فى اللسان القبطى اسم كاهن عُمِّر طويلا وكان له حَظٌّ من جميع العلوم لأنه أدرك نبى الله إدريس ـ عليه السلام ـ وهذا الاسم فى أفواه العوام هو سيوط وفى الزمان الماضى كانت أسيوط قلعة قديمة ضرب عمرو عليها الحصار سبعة أشهر ثم فتحها فتحطمت أسوارها وبرجها، وآثارها ظاهرة للعيان كأنها شمس الضحى وهى مدينة حول جهاتها الأربعة أرض منخفضة، وهى كاشفية تتبع جرجا، وفيها ثلاثمائة جندى وثلاثمائة جندى مصرى من أربع فرق، ويتحصل من أربعمائة وعشرين قرية خمسة وثمانون كيسًا وألف أردب من الغلال، ويحاسب عليها فى ديوان مصر ولها موظفان لاستعجالها وتحصيلها، وتجمع الغلال فى فترة تتراوح بين ستة وسبعة أشهر، وترسل إلى مصر فى السفن، كما أن الموظفين يحصل كلٌ منهم على ثلاثة أكياس، وما يفيض من ذلك لا يرسل إلى الباشا، وهى قضاء يُدِرُّ مائة وخمسين أقجه، وحواليها مائة قرية

وخمسة، ويحصل منها ثمانية أو تسعة أكياس، وفيها مفتى على المذاهب الأربعة وشيخ إسلام، وسبع طوائف للقواد والأعيان الكبار، وهى مدينة قديمة تقع على بعد ألفى قدم من شاطئ النيل وعلى ربوة عالية فى حدائق ونَـخِيل وفيها ستة وعشرون محرابًا وتسعة جوامع يـخطب لصَلاة الجمـعة فيها علاوة عـلى المساجد، ولهـا جامع جديد بنـاه مير يوسف بك وطوله وعرضـه خمسون خطوة، وفيه ستة وعشرون عـموداً، وعليه سقف غير منقـوش ومنارته من ثلاثة طوابق، وجامـع أمية وهو جامع عتيق فى جـانبه الأيسر باب ينزل منه بسلم من الحجر وطوله وعرضه ثمانون خطوة، وفى داخل الجامع ثمانون عموداً من الرخام وفى حرمه أربع شجرات نبق وأربع نخلات، ومنبره من الخشب المزين وعلى بابه كتـب عليه بالخط الكوفى البـسملة وآية الكرسى، وصاحب الخـيرات الخليفة عمر وقت الفتح.

وقد عمر عام خمسـمـائة، وهو جامع عِتيق ويقول البعض إن عمر لـم يبنيه إن بانيه عمر من الخلفاء الفـاطميين الذى كان له المُلك على مصر عام خمسـمائة، والعهدة على الراوى، وفى الـسوق جامع الحمصى وهو يقوم عـلى ثمانى عشرة قاعدة من الرخام وله سقف منقوش وبابان جانبيان ومنارة جميلة من طابقين وجامع القاضى صدر الدين يقوم على اثنى عشر عموداً وهو جامع جديد مـسقوف، وله بابان ومنارة وليس له حرم، وثمة زوايا إضـافة إلى هذه الجـوامع، توجد كـذلك تكـية وست مدارس، وسـبعون سبـيلاً وأربعون مكتبًا للصبيان، ودار للقرآن وداران للحديث، وستة وكالات وحمام وهو حمام جميل مـعتدل الجو كما يوجـد ثلاثمائة وستون دكـانًا، ولا وجود لمحال للقمـاش فيها والصاغة فيـها كثير، وفيها سـبع عشرة مقهى، وأربعـون طاحونة وخمسمائـة طاحونة تديرهـا الخيل ولا وجود لطـواحين فى خارج المدينـة لأن فى هذه المديـنة خلقًا كـثيراً، والقـرى التى خارج المـدينة فى حـاجة إلى الطـواحين، وكل هذه الـطواحين تيـمارات وزعامات، وفى سجلات شيخ البلد أن عدد سكـان هذه المدينة مائة وستة وأربعون ألف شخص، وشوارعها وأزِقَّتِها مزدحمة بالناس، وقديمًا كان بها قلعة ما زالت آثارها باقية، وقبل مجىء العثمـانيين إلى مصر، كان حكام جرجا يحكمـون هذا الإقليم مع وزيرهم

وفى هذا الزمان كان بها سبعة وعشرون ألف بيت وأربعة عشر حمامًا، وقد رأيت زواياها، وحماماتها القديمة، وحول هذه المدينة رأيت سورًا له أبواب كأبواب القلاع، وكان لهذه الأبواب حراس ليلاً ونهارًا لأن حولها فى الجانب الغربى كان يسكن مجرمون من العرب وكان هؤلاء العُربان يسكنون فى المغارات، ولهم حظائر لخيولهم وكان فيها يسكن قوم لوط وفى هذه المدينة كهوف دفن فيها بعض الموتى، وفى هذه المدينة محلة للقبط ولا وجود لأحد من أديان أخرى إن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة ليس إلا، وتوجد فيها كنيستان، وجو هذه المدينة معتدل وفيها فتيان وفَتَيات يتسمون بالجمال، إنهم جميعًا يكرمون الغرباء ويحبونهم وهم من أهل التقوى، والدكاكين فى هذه المدينة تقع فى شارع واسع، ولا وجود لدكاكين فى طريق إلا فى الطريق العام، وفيها سوق سلطانية مغطاة لدفع شدة الحر، ولها الشهرة بالحرير الأبيض والمناشف والبن والغلات ومعظم الحرفيين فيها نساجون، ويأتى إليها كثير من أهل المغرب، ويحملون معهم أحمالاً من الحرير والكتان، ويحملونها إلى بلاد المغرب معهم.

بيان الضرائح التى فى هذه المدينة

فى الناحية الجنوبية لهذه المدينة، مقبرتان كبيرتان منهما ما يسمونها الجبانة الكبرى ويصنع أهل هذه المدينة لموتاهم توابيت من الجص الأبيض، ويكتبون عليها التاريخ، ويزرعون حولها الأشجار ويبيت كثير من الفقراء فى هذه الجبانة ليدفعوا عنها الحيوانات، وعلى الطريق العام يوجد كثير من السبل، وآلاف القبور للصحابة الكرام، ويشهد أهل المدينة على أنه عند محاصرتها استشهد سبعمائة من الصحابة الكرام وأبنائهم ذوى الاحترام وقبورهم معلومة للجميع، وإذا ما كتبنا فى هذا طال بنا الكلام، إنها قبور عظيمة وهى لهم، وفى داخل المدينة قبر الشيخ اسكندر، وجانب الجسر قبر الشيخ محمد المجذوب وبجواره الشيخ رودى، وهم من السادات الكرام رحمة الله عليهم أجمعين، ثم غادرنا أسيوط مع رفقائنا وعبرنا الجسر السلطانى الواقع فى الجهة الجنوبية، ومضينا فى الصحراء.

بلدة شطب

وهى على حد قضاء أسيوط، وفيها ثلاثمائة بيت للمسلمين وقرى للأقباط، إنها بلدة قديمة تقع على جبل أحمر، وكان على قمة هذا الجبل فى ماضى الزمان قلعة وتبدو آثارها، وإلى الجانب الشرقى من الجبل مغارات وأرض خربة إذا بلغها الإنسان اعتراه الخوف الشديد، ويسمون تلك البلدة التى على رأس الجبل وادى طير.

اوصاف جبل الطير

ويسمونه كذلك جبل طيليمون، إنه عجيب وغريب جدير بالمشاهدة إنه جبل عظيم يحار فيه الوصف، ويأتى إليه أنواع من الطيور من الروم فى فصل الربيع، ومكثنا على هذا الجبل، ونزلنا ضيوفًا على أهله ولكن ليس فيه طيور اللقلق والبجع، وتحت الجبل أرض صحراوية، وكانت الطيور تصيح طوال الليل إلى حد أنه يتأذى بأصواتها المستمعون إليها، ويعرف ذلك أهل تلك المدينة، وثمة مقبرة فوق هذا الجبل، وفى كل قبر طيور مدفونة فى كفن، وأكثرها طيور اللقلق المكفنة، وتأتى جميع الطيور إلى هذه المقبرة وهى ترفع أصواتها بالنواح، وتحوم حول هذه المقبرة وتزورها، كما أنها تمكث فى هذا الجبل، ومعظم هذه الطيور التى فى الأكفان تبدو من القبور وأجسامها لا تبلى فى أكفانها، ولا يعرف أحد شيئًا عن هذه الطيور المدفونة، وقد حملت طائرين مكفنين حديثًا إلى الكتخدا إبراهيم باشا فرآهما، وعند الفجر ارتفع صوتهما بالصياح، وكان صياحهما يثير الفزع ويتوهم من يسمعهما أن الوقت وقت النحر.

وفى هذا الجبل غار عظيم، وتصيح الطيور عنده، وبعد أن تصيح سبع صيحات تحوم حول الغار ثم تمكث فى هذا الغار كأنها تتشاور فيما بينها، ثم يدخل طائر من كل جنس من الطيور هذا الغار ولا تخرج من هذا الغار المظلم بل تموت فيه وإذا لم تَمُتْ هذه الطيور فى الغار امتنعت بقية الطيور عن الطيران، وإذا خرجت بعض الطيور من الغار فإنَّ الطيور الأخرى تنقرها وتقتلها، ويضعون غيرها فى الغار، وبعد أن تطلع الشمس، تغادر جميع الطيور هذا الجبل، وتصعد صيحة حزينة وتدور حول قمة هذا الجبل حتى مغيب الشمس، ثم تعبر النيل إلى بلاد الفونج، وتخرج من جزيرة مصر

هـذه وتمضـى نحـو البحـر المحيـط جنوبـًا، وقـد رآها البُرتُغَاليون والهنـود فى سفنهم ولا يعلم إلى أيـن تمضى بعد عبورها البـحر المحيط، ولا يخرج من جزيـرة مصر طائر اللقلق، ولكنهـا لا تفرخ على السـاحل، لأن بيضها ينضـج فى الحر، ولقد شهدت فى طريقى إلى مكة بيضة نعامة ذات مرة، وقد ثقـبتها وأفرغت ما فيها لإحضارها إلى بلاد الروم إلا أن هذا الفرخ الذى خرج من البيضة طار من شدة الحر وقد زرت مقبرة الطيور ذات الأكفان، ومضيت إلـى الغار المذكور، وكان غارًا عظيمًا ولم يـكن ظلامه دامسًا، ولكن من جثث الطيور تصاعدت رائحة تفقد الإنسان وعيه، ورأيت جميع أنواع الطيور فى هذا الغار، وفى كل عام تأتى الطيور من جميع الأجناس إلى هذا الغار وتمضى هذه الطيور إلى أسوان والسـودان وتعبر البحر المحـيط، وتعود إلى السـواحل فى الربيع وتحوم حول هذا الجبل سبع مرات وهذه الطيور لا تنام ليلاً بل تمضى وتتهافت على هذا الغار، والله يعلم عدد هذه الطـيور، وفى كل عام تبدى منظرًا عجيبًا ويـأتى أهل هذا الإقليم، ويمضون إلى هذا الغار ويذبحون كل طائر وهم يصنعون فى ذلك مثلما كان عليه آباؤهم بحيث لا يبـقى فى الغار طائر، وهم يعلـمون أن الطائر منها إذا وقع فتـلك أمارة على القحط، وكل إنـسان يخزن متاعه على أن قـحطًا عظيمًا سوف يقـع، وإذا صلب طائر سهل صيده وإذا صـلب طائران أخذوا بيضهمـا، وإذا صلب ثلاثة طيور كانـوا غنيمة، وإذا اقتربت من النيـل بمقدار ستة عشر ذراعًا تحصل مال للدولـة وإذا صلب أربعة طيور أثرى جميع الملتزمين، وإذا صلب خمسة طيور أصبحت أفراد الرعية جميعها أمراء، وإذا صلب ستة طيور ارتفع النيل ستة وعشريـن ذراعًا وكان فى كل سنبلة مائة حبة، ويعجز الفلاحون عن حمل محصولاتهم من بيادرهم وهـذا معتقد الفلاحين فى الصعيد ويعجز الرعايـا والأمناء والكاشفـون أيضًا عن حمل مـحصولاتهم مـن البيادر، وتلك حـكمة عجيبـة وطلاسم قديمة وسحـر، والحمد لله أننا رأينـا هذا المنظر العـجيب فى سياحـتنا وتجاوزنا هذه المحلة وانطلقنا جنوبًا وبعد ست ساعات بلغنا قصبة أبو تيج.

أوصاف قصبة أبو تيج

إنها كاشفية تابعة لحكم جرجا، وبها مائتـا قرية يتحصل منها سبعون كيسًا وعشرون ألف أردب من الغلال، ويحاسـب عليها فى ديوان جرجا، ويقيم أغـا استعجال الغلال

فى جرجا، ولـيس فيها عسكـر ولا مفتى ولا نقيـب، وهى قضاء يغل مائـة وخمسين أقجه، وفى ناحيتها ثمانون قرية، وهذه القرى تلحق بقاضيها ويتحصل منها على خمسة أكياس فى العام، وبها ألف بيت وسبعة محاريـب وثلاثة جوامع وستة مكاتب للصبيان وخمسون سـوقًا صغيرة إنها قـصبة صغيرة اقتـضت حكمة الله أن أنزل ضيـفًا على دار ضيافة كاشفـها، وفى الضفة المقابلة للنـيل قبيلة أبى يحيى بهـا ستة آلاف فارس وجند يركبون الجمال وقد حاصروا دار الضيافة التـى كنت بها ونشب القتال وبدأوا فى إطلاق رصاص بنادقـهم وفى دار ضيافتنـا هذه وقف عشرة من الجـند التابعون لإبراهـيم باشا وثلاثة وعشـرون من جند الكاشف وسـبعة جنود ممن مـعنا ووقفوا جميـعًا وراء ثقوب المزاغل وأطلق الرصاص علـيهم فقتل ستة عشر من العرب وسبعـة جياد وقدم فرسانهم إلى قصبّتنـا، وكان معنا سبعون فارسًا فـخرجنا من دار الضيافة ووقعـت مناوشات بين الطرفين وقد قتل مـن العرب ستة وعشرون كما قتل فى دار الضيـافة اثنان وأربعون من العرب وقد تدحرجت رءوسهم، وتعلق بقيتهم بأذيال الفرار وكثير منهم غرقوا فى النيل وغنمنا منهم سبـعين جوادًا وسبعة حُجُور[1] وأحد عشر هجينًـا ووقع فى الأسر ثلاثة عشر عربيًا واسـتشهد منا سبعة من الـعرب ونفق جوادان وقتل جندى من جـنود الباشا وثلاثـة من رجال الكـاشف وأمام دار الـضيافة وضـع اثنان مـن العرب علـى الخاروق ووضعت رأسهما على رمح وحشى جلدهما بالقش وبعث بهما فى موكب إلى جرجا، وقد وهبنى الكاشف ثلاثة حجور وهجينًا، وقد مضيت مع الجند إلى جرجا فى الموكب وتجاوزناها إلى:

بلدة شيخ ابن عابد

وهو من المشايخ المطيعـين للسلطان سليم، وتسمى هذه القبيلـة قبيلة الهوارة وخيول مصر فى هذه القـبائل إنهم عشرة عشائر وقـبائل، ورجالها شجعان ولهـم ثمانية آلاف جندى وأرضهم كثيرة المحاصيل ولهم خمـسمائة بيت وجامع ودار ضيافة، وللشيخ عابـد بها قصر عظيم، وثمة ضريح للشيخ ابن منجا وفى كل ليلة جمعة يزور الشيخ ابن عابد ضريح الشيخ ابـن منجا ويقيم له المولد الشـريف، ويضيف الفقراء والمساكـين ومنحتنى

(١) الحِجْرُ: أنثى الخيل، والجمع: حُجُور وأَحْجَار انظر: المعجم الوجيز ص ١٣٦.

قبيلة الهوارة مهراً ومضيت إلى شاطئ النيل ثانية، والنيل فى تلك الناحية واسع وفيه جزر، وفى كل جزيرة غابة وهناك فى النيل تماسيح وأفراس النهر، وإذا فاض النيل انشعب من النيل ترعة فى الرمل وهى ترعة عظيمة، وفيها تجرى مياه النيل، وبهذا الماء ترتوى آلاف القرى وفى هذه الترعة عمود عليه طلسم ضد التماسيح ولذلك تخاف التماسيح دخول هذه الترعة. فإذا دخلها تمساح نفق وانقلب على ظهره على وجه الماء، وهناك التماسيح تأكل الجثث التى فى الطين وصغار الأحجار وتصعد من قاع النيل جثث التماسيح بين الجزر بعد أربعين يومًا ويمضى أهل تلك القرى وأولادهم إلى شاطئ النيل وهم آمنون لا يخافون شيئًا، ويشربون من مائه، ويمضى الرجال والنساء إلى ساحل النيل، ويضربون ماء النيل بعصىّ غلاظ.

والتماسيح تخطف خيولهم وجمالهم وتصعد الجزر وتأكلها، إنه حيوان لعين ويداه وقدماه ضعيفة وهو يبتلع الرجال والأطفال، أما إذا دخل التمساح ترعة الرمل نفق فى التو من أثر الطلاسم التى فى الترعة، والفلاحون يخلون جسمه من جلده ويصنعون من جلده قوارب يعبرون بها الترعة ومضينا سبع ساعات جنوبًا وعلى بعد من النيل قصبة تمه.

أوصاف قصبة تمه (طما)

إنها التزام تابع لجرجا، وبها خمسمائة بيت وجامعان ومقهى وبها سوق عظيمة ودار ضيافتها قصرٌ كبيرٌ، وفيها حدائق هنا وهناك وبها ساقية وزاوية، وتجاوزناها إلى أرض ذات نخيل وبعد خمس ساعات بلغنا قصبة تحته (طهطا).

أوصاف قصبة تِحته (طهطا)

بنيت فى عهد العباسيين إنها تابعة لجرجا ويتحصل منها ثلاثون كيسًا وثلاثة آلاف أردب من الغلال وفيها من الجند ثلاثمائة. إنها كاشفية وليس فيها طوائف عسكرية ولا شيخ إسلام ولا نقيب أشراف ولا قواد، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقچه، وسبق أن تحصل من مائة وخمسين قرية فيها عشرة أكياس، وأغا استعجال الغلال بها مقيم فى جرجا.

وهى تقع على ربوة بالقرب من شاطئ النيل، وهى ليست قصبة كثيرة السكان أما

قديمًا فكانت معمورة وآثار مبانيها ظاهرة، وفيها الآن ألفى بيت وعشرون محلة وسبعون محرابًا وتسع خطب وتكيتان وحمام مظلم قذر ومائة سوق صغيرة وثلاث وكالات وثلاث مقاه، وعشرون سبيلاً، وفيها ثلاث منارات ظاهرة إضافة إلى الزوايا التى ليس لها منارات، وهذه البلدة ثقيل وخمٌ جوها، وأهلها فقراء، وبالقرب من البلدة فى النيل جزر، ويَضِلُّ الإنسان فى شوارعها كما أن فيها كثير من التماسيح، وبعض الفتيان يقتلون هذه التماسيح وينصبون جلودها على الأبواب دفعًا للصوص، وأكثر الأبواب فيها عليها جلود التماسيح، وقد دفن فى أرضها أولياء.

الأولياء المدفونون فى أرض تلك البلدة

فى خارج المدينة قدوة الرجال ونقطة الكمال الشيخ أحمد الفرغل ولقد أظهر من كراماته الكثير، إنه قطب عظيم، كما زرت الضرائح التى فى المقبرة التى تجاوز ضريحه ومضيت فى البستان القريب منه، وهو كثير النخيل، وكان الجو شديد الحرارة.

أوصاف حكومة بلدة الجزيرة

إنها فى جرجا ولها ثلاثمائة تابع، تغل مائتى كيس، ويتحصل من قراها عشرون كيسًا وعشرة آلاف أردب من الغلال، وحسابها فى ديوان جرجا، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه فى كل مدة ثلاثمائة كيس يحصلها وليس لها عسكر من سبع فرق، ولا يوجد بها أغا للغلال ولا نقيب ولا مفتى إنها قصبة يسكنها الكاشف، وليس فيها إلا جامع ومقهى ومبرة وسوق ولكن فيها كثير من الضرائح، وأسماء أصحابها لا ترد على خاطرى، ولقد قرأت لأرواحهم سورة يس، ووهبت ثوابها لأرواحهم الطاهرة، تقبلها الله تعالى، ثم ركنت إلى الراحة ساعتين وبعد زوال الحر فى وقت الزوال قمنا ومضينا لمدة ثلاث ساعات وبلغنا سوهاج.

أوصاف قصبة سوهاج

إنها فى حكم جرجا، ويتحصل منها خمسون كيسًا وألف أردب من الغلال، وتضم ثلاثمائة قرية، وهى تمد جرجا بالغلال وأغا غلالها يقيم فى جرجا، ولقراها الستين

قاضٍ شرعى، ويتحصل منها عشرة أكياس فى العام، ولقربها من جرجا ليس لها عسكر من سبع فرق ولا مفتى ولا نقيب إنها قصبة جميلة قائمة على ربوة رملية بها بيوت ذات أسوار كأنها أسوار القلاع، وبيوتها ألفان ومائة وستون بيتًا من كبير وصغير وهى بيوت متعددة الطوابق وبها ست عشرة محلة، وستة جوامع، وخارج هذه البلدة من الناحية القبلية جامع السلطان أكراد وطوله وعرضه خمسون خطوة، وبه اثنان وثلاثون عمودًا وعلى يسرة هذا الجامع على بعد عشرة خُطَى منارة عالية جميلة، وللجامع بابان جانبيان وباب للقبلة، وبالقرب من قصر الكاشف جامع السلطان أيبك التركمانى، وفيه سبعة أعمدة منقوشة تحمل سقفًا منقوشًا ومنارة مُنْهدِمة، إنه جامع قديم، وهى عجيبة الشكل، ولم نشاهد جوامع أخرى، وبها خمسون محرابًا مع الزوايا وثلاث تكايا بدوية وسبعة عَلَوِيَّة وثمانية برهانية، وفى سبع زوايا مدارس، وبها عشرون سبيلاً عذبة الماء واثنا عشر مكتبًا للصبيان وست وكالات وستة خانات منها خان سليم الكاشف وخان كشك أوغلى، كما أن فيها حمام ومائة دكان ولا وجود فيها لسوق للحرير، وبيوتها بهذا القدر وهى قليلة العمران وليس بها قصور عظيمة، والفقراء فيها كثير، ومئات النخيل، والحدائق فيها قليلة وإذا ما اشتدت بها الريح ثار الغبار، وخبزها جيد كما أن شمامها طيب وبساتينها كثيرة وأرضها خصبة وإن الكيلة تغل خمسين كيلة من الغلال وفولها وفير.

بيان زيارتنا لقطبها العظيم

هو الفاضل العالم أبو القاسم، وقبره يزوره الناس ليل نهار، وخرجنا من هذه البلدة وعبرنا النيل ومضينا شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالا، وذلك لأن تخطى التُّرع والخلجان كان مستحيلاً، لذلك اتجهنا فى الطريق يمينًا وشمالا، وتحملنا مشقة شديدة طوال سبع ساعات وبلغنا قصبة المنشية.

أوصاف قصبة المنشية

يحكمها كاشف وبها مائتا قرية ويتحصل منها ستون كيسًا وأحد عشر أردبًا من الغلال، ولها من التوابع مائة، وليس بها عسكر من فرق أربع ولا مفتى ولا نقيب

وأعيان أشراف وأغا الـغلال يسكن جرجا، وهى تـضم سبعًا وستين قريـة، وعلى بعد خمسمائة خطوة من النيل ألفا بيت وسبعة عشر محرابًا وثلاثة خطب إنها قصبة جميلة، وفى سوقهـا جامع السلطـان محمد أكراد وطولـه وعرضه أربعون خطـوة، وفى أركان حرمه الأربعة أعـمدة وفى داخل الجامع اثنان وثـلاثون عمودًا تحمل سقفـًا مزخرفًا وبه ثلاثة محاريـب وعلى بـاب منبره الخشبى كتب تاريخ هو:

(أمـر بإنشاء هـذا المنبر المبارك محمـــد بن أبى بكر فى شهر رجب سنة أربع وثلاثين وسبعمائة)

هذا هو محمد أكراد الذى أقام على قبر الإمام الشافعى فى مصر قُبَّة وهو مدفون إلى جانب الإمام الشافعـى، وليس فى هذه البلدة جامع كبير سـوى هذا الجامع علاوة على المساجد المعمورة فيها كما أن فيها حمامًا وخـانين وسبعة أسبلة، وثلاثة مكاتب للصبيان ومائتى دكان وسبعـة مقاه، وجمال جوها يشبه جو حدائق أرض الـروم، وأهلها يحبون الغرباء ويكرمونهم، وغـادرناها وانطلقنا جنوبًا على ضفة النـيل واجتزنا مزارع وبساتين الشمام، وبعيدًا عـن النيل أرض ذات نخيل، وقرى وحدائق وساقيـة، وعبرنا زوايا بها أشجار وارفة.

أوصاف مدينة عظيمة هى عاصمة الصعيد القديمة وهى مدينة جرجا

اسمها مـدينة دهليز حبش وبـانيها هو طوطش بن أبـى القبابطة بعد الـطوفان وهى مدينة عامرة عظيـمة، ثم آل الحكم بعده إلى ابنه جرجيس وقد أنـشأ مدينة جرجا وكان شداد هو بانـيها لقد كانت حـديقة إرم، ولذلك وقع الخـطأ فى اسم هذه المدينـة فقالوا جرجا والصواب أن يقال جرجيس وهى تغل ستة أحمال من المال للسلطان وهى ملحقة بالخدمة السلطانيـة مع مكة والمدينة وآستانة، ومنها أمير الحاج، ولـه منصب عظيم وكل قرى جرجا عـامرة ولكن ألفًا وخـمسة وسبعين مـن قراها خاصة بغـلال الدولة، وهذه القرى تغل فى العام ثمانين ألف أردب من الغلال، ولكن جرجا تدر مائة وستة وثلاثين ألف أردب من الغـلال، ويفيض لوالى مصـر مائة وثمانون ألف أردب عـلاوة على ما يدخل تحت حكم جرجا، أما من القرى التى فى الإقليم فيحصل منها مائة وأربعون باره

إنها بلدة وفيرة الغلال، ويحصلها ضابط الحاكم وهى وقف، ويجرى منها الرواتب على جامع الأزهر وغيره من السلاطين، وأمير ميران جرجا يضع يده على هذه الأوقاف أما إذا ما ظلم ففى اليوم الثالث يعترض على ظلمه علماء مصر ليمنعوا الظلم. وليس فى إقليم جرجا تيمارات ولا زعامات، إنها قرى سلطانية وأوقاف، ويبقى لحاكم جرجا بعد المصروفات ثلاثمائة كيس ولكن حاكم جرجا المغفور له على بك تحصل لنفسه على مئات الآلاف من القروش لنفسه فرضها على الأهالى، وهذا صحيح لأننا نظرنا فى دفتر خانه جرجا وفى الإيرادات والمصروفات، لأن فى إقليم جرجا سبعة وثلاثون كاشفًا وفى إقليم جرجا واحد وثلاثون قضاء، وبها ستة آلاف ومائة وسبعون قرية عامرة، ولكن حسب حساب قرى الأوقاف، ويأتى مشايخ العرب إلى ديوان جرجا مرة فى العام ويجددون بيعتهم لحاكم جرجا، ويلبسون الخلع والثياب الحريرية، ويحصلون المال السلطانى الخاص بالعسكر، وينال شيوخ العرب هؤلاء من هذه القرى أحد عشر ألف رأس من الغنم ومائة ألف أردب من الشعير وخمسين ألف أردب من القمح وأربعين ألف أردب من البقلة، كما يقدمون إلى الحاكم الهدايا.

وقد تجمع للحاكم عشرون ألف أردب من القمح وأربعون ألف أردب من الشعير وزعها على الجند، أما ما تبقى من هذه الغلال فقد باعها، وطبق قانون السلف يقدم خمسمائة جواد من إقليمه، ويرسل كذلك من الهدايا ألف وخمسمائة جواد وسبعمائة أو ثمانمائة قافلة من الجمال ولتحصيل هذه الغلال يأتى فى كل عام خمسة آلاف حمار، ولجرف الترع والخلجان يأتى ألفا ثور، ومائتان من الخصيان وألف من المماليك غير السود كما ترد هدايا لا حصر لها، ورؤساء القبائل وشيوخ العرب وشيوخ البلدان، وجميع الكاشفين وبقية الأعيان يأخذون هذه الهدايا، وفى كل عام يأتى مالٌ وفير بلا حساب، أما المصروفات فهى خارجة عن الحساب ويتسلم باشا مصر كل عام سبعين كيسًا وأربعين من الخيل ومن هذه الخيول ما هو مُحَلًّى بالذهب وذهبى السلاسل وأربعين مملوكًا أسود وعشرة من الأحباش وهؤلاء المماليك جميعًا فى ثياب فاخرة، ويأتى مع هؤلاء الهدايا من ماء الورد والمسك والعنبر والكافور وسن الفيل وجلد التمساح، وآلة

الحرب، هذا كله ما يأتى على الترتيب لهؤلاء الغلمان السود ولهم كذلك عشرون جارية من بلاد الفونج إنهم يأتون فقراء خالين الوفاض ولكنهم يثرون بتلك الهدايا ومائة جمل بلدى وألف أردب من القمح، وألف أردب من عدس وألف أردب من قريك، وألف أردب من شعير، ويسلم هذا كله إلى باشا الغلال، وألف رأس من الغنم، وألف رأس من الحملان تصل إلى وكيل الخراج، ولوكيل الباشا فى كل عام عشرون كيسًا، وعشرة خيول، وعشرة من العرب، وخمسة من الطواشى، وخمسة جمال، وكلها تحمل السكر والعدس والبُنّ، كما تصل هدايا لا حصر لها إلى افندى الديوان ووزير مصر وسبعة عشر قائدًا، والحكام باشى والمشعل باشى، هؤلاء ينالون هدايا لا تَدْخل تحت حصر، وفضلا عن هذه الهدايا يتسلمون العيدية، كما تصرف رواتب وتعيينات إلى أصحاب المناصب ورجال الديوان والقواد وطوائف الجند المصريين فى جرجا ومن يتبعهم من جند الحراسة والأئمة والخطباء والمشايخ وتصل فى كل عام إليهم أربعة آلاف رأس من الغنم وعشرون ألف أردب من حنطة وأربعون ألف أردب من شعير، وفى كل يوم لهم عشرون ألف رغيف، يزن كل رغيف تسعة دراهم، وألف قنطار من الزيت وسبعون قنطارًا من العسل ومائتا حقيبة من البن ومائة سفينة خشبية، وآلاف من أحمال الجمال وهذه القرى هى التى تقدم هذه التعيينات وينال الجندى ثلاثمائة كيس علوفة، والجندى ينال مرتبًا شهريًا قدره مائة قرش وحامل البندقية خمسة قروش مرتبًا شهريًا، ورئيس الفرقة يتقاضى ألفى قرش وخمسة جياد فى العام، وعشرون من رؤساء الفرق ينالون ألف قرش وجوادين، أما الأوده باشية فيصرف لهم خمسمائة قرش وجواد واحد، كما يبذل العطاء للخدم وبناء على ذلك فإن نفقات وزير مصر ربما زاد عليها نفقات حاكم من الحكام، وهذا مقيد فى دهليز جرجا، وهو ديوان عظيم، وكل ما فى مصر من أرباب الديوان قدرهم فى ديوان جرجا وفيه أصحاب المناصب ولكن جميع كتاب الديوان من القبط لأن لهم عقل أرسطو، إنهم يشقون الشعرة دقة منهم ويحسبون أصغر الجزئيات فى الحساب فى قدرة ومهارة، وخلاصة القول طبق قانون السلطان سليم فلحاكم جرجا هذه الكيفية فى تدبير الأمور، ويكون الحساب قيراطًا قيراطًا ولكن هذا

المال الوفير يحصله الجند بالعنف، لأن الإقليم الكبير قد يكون أهله متمردين، والأموال التى فى ذمة العرب يحصلها منهم جيوش جرجا، والجند يطلعون على شأن كل بيت من بيوت القرى، وهم يحصلون منهم الغلال دون خوف منهم، ولا خشية ولا اكتراث بهم فبين هؤلاء العرب فتيان شجعان أولو بأس شديد ويسمون هؤلاء العرب الصبيان، وفى ديارهم مال كثير لأن بلادهم على حدود بلاد الفونج وعلى الجانب الشرقى من هذه البلاد يكون المسير على شاطئ النيل إلى بلاد الحبشة وعلى مسيرة شهرين جنوبًا بلاد البربر إن آخر قلعة على حدود مصر على مسيرة ثلاثة أشهر فى الصحراء بلاد الفونج، وثمة ولاية قرمانقه ومنها وعلى مسيرة شهر بلاد السودان، وفى الجانب الغربى على مسيرة ثلاثة أشهر بلاد فاس ومرانكوش وهذه البلاد خاضعة لحكم جرجا وأرض ملاصقة لحدود المغرب وطرابلس، والحاصل أن ولاية جرجا فى الإقليم الأول وله علاقة بالإقليم الثانى، إنها واسعة متراخية الأرجاء وغلاتها وفيرة وأهلها محبوبون وخيراتها وبركاتها كثيرة، ونهر النيل فى جرجا يجرى فى ترعها ماؤه عذب فرات، إنها أرض ملكية ما يسميه الغرب دهليز الحبش، ومعناه العرش الصغير لبلاد الحبشة، والعرب يملكون هذه الأرض الصحراوية، وقد حررنا هذا فى قضاء بنى سيف وسنحرر الباقى عند سياحتنا فى بلاد أخرى، ولوزير جرجا أغا عالى المنصب، وهو يأتى لتحصيل الغلال، ويسكن قصرًا شامخًا فى جرجا، وهو يلح فى طلب هذه الغلال، ثم تخزن هذه الغلال بعد تحصيلها فى مخازن على شاطئ النيل، ويأتى من مصر أغا المخزن ليحصلها فى ألف سفينة، وفى مصر العتيقة توضع فى مخزن يسمى مخزن يوسف، وأكوامها كأنها الجبال وينال منها جميع الجند جرايتهم وطوال ثلاثة أشهر، ومخزن يوسف هذا مر إلهى وللأغا محصل الغلال حمام وجوادان والأغا ينال على كل أردب بارتين ويأخذ عشرين كيسًا فى السنة ويسلم الباقى للباشا وهو خمسة أكياس ويمنح الكتخدا ويأخذ الكتخدا ثلاثمائة قرش ويأخذ الكتخدا من الباشا جوادًا على كل ثلاثة جياد وخصيًا على كل ثلاثة من الخصيان، وهذا الأغا يأتى كذلك لاستعجال تحصيل الغلال، ويأخذ على ذلك كيسًا من المال وغلامًا أسود؛ وذلك لتحصيله للغلال ولا يأتى

جنود من استانبول إلى جرجا ولكن يأتى إليها من مصر الجند المعروفون بقبوقولو أى جند الباب وقائد الانكشارية وقائد العزب وجند من الخمس فرق لحراستها وتنظيمها، ولا وجود فيها لقائد انكشارية استانبول ولا نائبه، بل يرسلون جنديًا غير مرضىٍّ عنه من استانبول إلى مصر وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف، ومحصولها فى العام عشرة أكياس ويتبعها مائة وثمانون قرية وفيها كثير من الأعيان والأشراف والتجار والملاحين والتجاريين.

وثمة مرفق يسمونه مرفق القصير خلف الجبال على أنه ميناء مكة والمدينة فى السفن ولذلك كان معظم أهل جرجا من التجار والفلاحين.

وبما أن جرجا تقع فى وسط الإقليم الثانى فأرضها على عشرين درجة وسبعة وعشرين دقيقة وطول نهارها ثلاث عشرة ساعة وخمس عشرة دقيقة، وثمة أرض واسعة خالية بين جرجا وبين قلعة طولها ألف خطوة بعيدة عن غرب النيل وفى جوانبها الأربعة عشرون بابًا من خشب ولا خندق لها وعلى كل باب حارس ويوصد كل باب ليلاً، وبها قصور مكسوة بالجص وحدائق وساقية وحوض وشاذروان وجدران القصور مزينة وبها عشرة آلاف وثمانية وسبعون بيتًا بين كبير وصغير، وبها تسع محلات وثلاثة وخمسون محرابًا وأحد عشر جامعًا تؤدى فيه صلاة الجمعة إضافة إلى جوامع السلاطين جامع الميرميران، وفى السوق جامع طوله وعرضه ستون خطوة وهو يسمى جقور جامع، وبه ثمانية عشر عمودًا فى أطراف حرمه، عليها سقف منقوش وليس له قُبّة وعلى باب منبره وهو من الخشب كتبت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ....﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفى السوق جامع السلطان، وطوله وعرضه ستون خطوة ويصعد إليه بسلم من ثلاث درجات، وبه خمسون عمودًا منقوشًا وسقفه منقوش ومزين ومذهب وله ثلاثة محاريب وثلاثة أبواب ويصعد إليه وينزل منه بثلاثة سلالم، وتحته ستون دكانًا، وفى حرمه دكاكين للحرير والأقمشة وفى هذه المدينة تباع سلع قيِّمَة، ومحلات بيع الأقمشة

لها أبواب متينة، وتوصد فى كل ليلة وعلى يمين هذا الجامع منارة ذات ثلاثة طوابق ولا يستطيع أن يصعد المنارة كل أحد لأنّها منحرفة ولوجود هذا الجامع فى السوق، والسوق مزدحمة فإذا انهارت ـ لا قدر الله ـ هذه المنارة هلك خلق كثير، إن الذى بناها ماهر، وحرم هذا الجامع مرصوف بالرخام وجدار القبلة من الرخام ومكسو بأحجار مختلفة جميلة، ومنبره من خشب مزخرف.

وفى السوق أيضًا جامع الأمير عثمان طوله وعرضه أربعون خطوة وليس له حرم، وله بابان جانبيان.

وفى غرب قصر البك وفى ميدان واسع جامع الشهيد سعيد محمد بك وهو جامع فوقانى وله ثلاثة أبواب ويصعد إلى كل باب منها بسلم يتألف من عشرين درجة إنه جامع جميل، إنه يشبه جامع رستم باشا فى استانبول وداخله مكسو بالقيشانى ومنقوش بنقوش مذهبة، وفى جوانبه الأربعة نوافذ من بللور، وله ثلاثة محاريب مزينة ومنبره ودكة مؤذنه من الخشب، وفى داخله أعمدة رقيقة، وفى الجانب الأيمن منه دهليز يفضى إلى دار ضيافة، فيها يستريح البعض كما يشتغل البعض بالعبادة وبما أنه جامع علوى فليس له حرم وصحنه مكشوف وفى داخله ثلاثون عمودًا منقوشًا مصنوعةً من شجر الدلب، فهى ليست حجرية وعلى يمنة المحراب كتب على لوحة من القيشانى:

(إن هذه حجرة الانكشارى محمد أوده باشى والسلطان مراد الرابع وقد صنعه عام ألف وثلاثة وأربعون).

وفى السقف كتب بالخط الجلى آية:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨].

وكتبت أيضًا أربعون آية تحيط بأركان الجامع الأربعة وعلى يسرة الجامع منارة جميلة وفى أسفله حوض وبه صنابير مذهبة وفى الجامع ستة مخازن، يضع فيها التجار سلعهم ودهاليز الجامع الستة تفضى إلى الطريق العام، وإن اللسان ليقصر عن وصف هذا الجامع ولا وجود فى مصر ولا فى الصعيد لمثله، وهناك أيضًا جامع اليوسفية وجامع

الفقـراء وجامع الشيخ عـبد السلام وجامع الـقائم مقام وحـمد بك وجامع المقـدم عبد الرحمـن وهذه الجوامع قـليلة الـزينة إنها لا تـعدو أن تكون عـلى الطرز الـقديم وهذه الجوامع يـؤمها كثـير من المصـلين وفى وسط المديـنة، جامع عـلى بك الجرجـى طوله وعرضه، خـمسة وأربعـون خطوة، وفى داخلـه ثلاثون عمودا مـن الرخام علـى يسرة المحراب المزخرف كتب على لوحة من الورق المقوى تاريخًا هو:

(ولأن حاكم جرجا أسد الله أهل الكرم ( )[1] زلفقار الأمير العالى صاحب الطبل والعلم، وقال كاتبه أن هذا البناء تم فى عام ألف وستمائة).

ومنبره من خـشب مزين، وعلى الباب الأيمن لـلجامع كتب تاريخ بـالخط الجلى هو سنة إحدى وسـتين وألف، وعلى الجامع منـارة من ثلاثة طوابق، وفيه خـمس منارات أخرى وإلى جانب الجوامع المذكورة مدارس وثلاثة دور لـتحفيظ القرآن وداران للحديث وثمانيـة عشر مكتبًـا للصبيان وسـبعة أسبلة وتـسع تكايا وألف ومـائتا ساقية وألـفا بئر وحمامان وأحدهما للفلاحين، وهو وبيل الجو، وضيق، وحمام غير ضيق، وفى السوق حمام على بك الميرميران وهو حمام ينشرح له الصدر لما فيه من مناشف وطاساته المذهبة وكل ما فـيه نظيف وأرضـه مفروشة بالـرخام وفى قبتـه زجاج وخدامه صبـاح الوجوه يخفون لخدمـة كل أحد فيه ولهم نواظر وكـأنها الخناجر، وفى هذه المديـنة عدة خانات وضيفان هذه الخانـات من التجار والمسافرين، وهى خان علـى بك وخان يازجى وخان موسى چاووش، وخان ممى كتـخدا وخان السكرى، وفيها أكثر من عـشرين ربعًا وهذه الربوع مساكن للأسر وفى المدينة ثمانمائة وستون دكانًا ولكن ليس فيها من يبيع الأقمشة بالجمـلة وفيها سـلع هندية وعـجمية ورومـيـة وكل الدكاكين الـتى أمام قصر عـلى بك الجرجى مزينة وفى سوق عـلى بك طريق رئيسىّ على جانبيه مائة دكـان مبنية بالحجارة ومسقوفة وفـيها سراجون[2] ولا وجود لسراجين فـى غيرها، وللسوق بابـان من حديد كأنهما بابـا قلعة يغلقهما البوابـون فى كل ليلة وليس فيها سوق لـلبز ولأن هذه السوق

---

(١) بياض بالأصل.

(٢) صانعو الـسروج. واحده سَرْج، وهو رَحْلُ الدابة. انظر: المعجم الوجيز، ص٣٠٨.

واسعة ففى سقفها منافذ للهواء، ويرش فيها الماء فى شدة القيظ وفيها استراحات ويستريح فيها الأعيان وهم يزجون الفراغ بلعب النرد والشطرنج، وعلى بك وهو فاعل خير يسقى دواب الرائحين والغادين من التجار والزوار ولذلك أنشأ أربعين ساقية، وهى تدور كما يدور الفلك. كما تروى هذه السواقى الرياض والبساتين، وهذه السواقى تأتى بالماء من الآبار وإلى جانب هذه الآبار فى جوانب المدينة الأربعة ثلاثة آلاف بئر، وفى جوانب المدينة الأربع حدائق وبساتين، كأنها إرم ذات العماد.

وفى أرض جرجا كنوز ودفائن وخبايا كثيرة، وفيها الخبز الأسمر الأُقَّة منه باره واحدة، والأردب من القمح بقرش واحد، وأردب الشعير بعشر بارات وثمن الخروف بخمس بارات وفى رمضان بعشرين باره، وغنم جرجا مشهورة وكل خروف يزن من أربعين إلى خمسين أُقَّة، وثمن العجل مائة بارة، وثمن الحصان مائتا باره وثمن الجمل ثلاثمائة بارة، أما المماليك البيض والأوانى النحاسية فغالية الثمن، أما فى تركيا فثمن العبد الحبشى بخمسة عشر قرشًا أو خمسة وعشرون قرشًا، وكبار أعيان هذه المدينة وأرباب الديوان يلبسون فيها السمور والأقمشة الفاخرة والجُوخ، أما متوسطى الحال فيلبسون ثيابًا قصارًا مبطنة، والفقراء يلبسون بز أسيوط، وأهل هذه المدينة مسنون معمرون، ومنهم من تجاوز مائة وسبعين عامًا وهم فصحاء بلغاء، كما أن شبابها يتميزون برجاحة العقل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لاعْتِدَال جوها ولهم لهجة خاصة بهم، أما النساء يتميزن بصحة العقل ولهن أسنان كأنها الدر وغدائرهن منتشرات وكأن وجوههن بدر التمام، وكل من شاهدهن تعلق قلبه بهن، كما أَنَّهُنَّ رشيقات القوام وإن وجد كذلك عجائز دميمات وساحرات خبيثات يستوجبن القتل وهن يسحرن الغرباء ويؤذينهن بسحرهن، وذلك أن السحر كان شائعا فى هذه الديار منذ عهد الفراعين.

منتجات ومصنوعات هذا الإقليم

يوجد بها الخبز الأبيض كالورد الأبيض وفطائر والكعك واللبن والقشدة، وفريك القمح والسمن والعسل والتمر والليمون والسفرجل والعنب والرُّمان والخوخ، والتين

الأبيض فيها ليس له مثيل فى بلد آخر ولكن إذا ما حملوا التين الطازج فى سلة إلى خارج المدينة فقد لذة طعمه، وهو سريع الهضم وهو مقو، وتنتج ثلاث مرات فى العام، وفيها الغنم والحملان كما أن دجاجها سمين كما تشتهر بخيولها وجِمَالها وسمكها، ومن مصنوعاتها الوسائد المصنوعة من الجلد كما يصنع فيها الأبنوس وسن الفيل والشطرنج ووبر الجمال وصوف الغنم وسجاجيد الصلاة والسفن، وفى جوانبها الأربعة مصاطب السوق تستحق المشاهدة وأمام قصر البك يحتشد جمع غفير من الرعاع والعرب وفى الديوان عديد من القاعات والحجرات وفى حديقة الديوان حوض ونافورات وسبل، كما أن ثمة طيور تصدح بأنغام عذاب.

بيان من دفن فى تراب هذه البلدة من الأولياء

أولا بالقرب من جامع على بك وفى نهاية دهليز بابه الأيمن قبر صغير للشيخ المكى وهو من أهل الطريقة البكرية، وحينما كان يحفر أساس هذا الجامع عثر على حجر مربع كتب عليه بالخط الكوفى:

(هذا قبر الشيخ محمد المكى سنة ١٠٤١، إن هذا العبد العاصى غادر تراب المذلة هذا وانتقل إلى أرض أخرى إنه مقامنا هو بيت الله ونحن نسكن بيت الله إلى أن تفنى هذه الدنيا).

وقد ظهر قبر هذا القطب أثناء بناء جامع على بك فنقل جثمانه من موضعه ودفن إلى جانب أساس الجامع ومنذ وفاته إلى بناء هذا الجامع ثمانمائة وتسعون عامًا وما زال جثمانه غَضًا وقد شهد على ذلك ألف وستون من الناس والكُلُّ يعرف كرامات هذا الولى ويقرأ عنها فى الكتب وهؤلاء المشاهدون كانوا يلتمسون منه البركات، كما دفن هناك الشيخ المَجْذُوب دهيش بن محمد، وخارج البلدة الشيخ عثمان الصنافيرى وبالقرب منه ابن تميم الدارى، والشيخ عبيد وقطب العالم الروحانى وحكمت المعدن الربانى الشيخ عبد السلام المقرى، والعالم النصيح ذو اللسان الفصيح الشيخ صبيح، والشيخ عباس، والشيخ بياض، وكذلك الشيخ عمر الحلوانى، وفى جامع الفقراء الشيخ

منصور العالم، وبجواره الشيخ حسن السعدى ومحمد أغا وفى الزاوية مقام الأربعين والشيخ عبد السلام وبجواره الشيخ عمر الحورانى وبجواره زاوية مقام الأربعين رحمة الله عليهم أجمعين.

ولله أحمد أنى قرأت الفاتحة لهم جميعًا وطلبت البركة من أرواحهم الشريفة وقد قضيت عشرة أيام هناك فى بهجة وسرور وقد حملت فرمان إبراهيم باشا إلى حاكم جرجا وفيه ذكر لغرق سفينة الغلال وحملته إلى الديوان وبناء على شهادة الأهالى أخبرتهم بأن سفينة الغلال غرقت وأثناء أخذنا من ربان السفينة خمسمائة قرش، وقدمنا للباشا خمسة أكياس ونلنا من حاكم جرجا أوزبك بك كيسًا وقماشًا من المخمل وجوادًا وهجينين، وفَرْوَ سمور كما نال كل خادم منا مائتى قرش ومعنا عشرين من حَمَلَةِ البنادق فودعنا أعيان البلاد جميعًا وأرسلنا إلى الباشا جوادًا وعشرة قروش.

بيان القرى والقصبات من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات

وقد لقينا مشقة شديدة من شدة القيظ فى رحلتنا من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات وأبريم وصاى وبربرستان وفونجستان، وقد مررنا فى طريقنا على منازل وقرى وقصبات أولا فى شهر صفر من عام ألف واثنين وثمانين فى اليوم الأول من شهر صفر وفى معيتنا فرسان وعبيد اشتريناهم ومضينا لطياتنا وركبنا سفينة فى النيل ودخلنا ولاية شرقستان وفيها يسمون جرجا غربستان، وإقليم شرقستان فى حكم أبى يحيى، وله عشرة آلاف فارس يحملون الحراب وبلغنا مدينة:

أبو خالد

ونزلنا فيها ضيوفًا ليلة، وهى بلدة صغيرة بها مائة بيت، ومضينا فيها إلى شيخها أبى يحيى وشرفنا بصحبته، وهو من أبناء الشيخ خالد، وإذا لم تضع امرأة حملها وغطت رأسها بسراويل الشيخ وضعت، ويقول بعضهم إن هذه السراويل المذكورة ليس للشيخ إنها خاصة بخالد بن الوليد، وقد آلت إلى الشيخ بالوراثة ـ والعهدة على الراوى ـ لأن هذه السراويل وما لها من خاصية معروفة مجربة أحضرت هذه السراويل من التكية فوجدتها سراويل حمراء ملفوفة، ويقال لقوم الشيخ يحيى بنى خالد إنهم قومٌ فى نعمة

ورغد كما أنهم مطيعون منقادون، وخيولهم عجيبة، وفى الجهة الشمالية من إقليمهم مساحة واسعة من الأرض، وفى الجهة القبلية السويس، وعلى شاطئ بحرها قلعة ميناء القصير وفى الجنوب مدينة مشا والشمال قضاء أخميم، وهى حدود صغيرة إلا أن قراها عامرة كثيرة المحاصيل فيقع هذا الإقليم بين بحر القلزم والنيل وهو إقليم واسع ومن الصباح اتجهنا إلى الشيخ يحيى بكيس كان قد أرسل معنا أمانة من أغا غلال جرجا إلى الشيخ يحيى، ومضينا مسيرة خمس ساعات على شاطئ النيل فبلغنا:

بلدة حمادى

وهى على ضفة النيل وتحوى مائتى بيت وجامعًا، ويسكنها أولاد الشيخ حمادى وهو من ذوى قربا الشيخ يحيى، وهم يسكنون هنالك كذلك وفيها ألف فارس وأبو يحيى من الهوارة واجتزناها وبلغنا:

بلدة مزادى

وبها ستون بيتًا وليس بها جامع ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات وبلغنا قصبة بلابش.

اوصاف قصبة بلابش

إنها فى حكم جرجا وكاشفية قوص ويتبعها مائة وسبعون قرية تدر أربعين كيسًا من المال وألف أردب من الغلال، وكلها عسكر وهى قضاء فوه، ويأتيها مرة فى الأسبوع نائب يحكمها، وبها جامع ودار ضيافة وستون بيتًا ولا آثار لعمران سوى ذلك وهى كثيرة المحاصيل، وهم يزرعون نباتًا يشبه شجرة ذات سوق ويعلو حتى يبلغ قامة الإنسان وله نورٌ أصفر مثل النرجس، وله رائحة طيبة، ويجمع فى الربيع ويصدر إلى فرنسا ليصنع منه الصبغة، ويشترى التجار القنطار منه بمبلغ ستين قرشًا، ثم يكتمل نوره ويمتلئ بالبذور وتجمع هذه البذور ويباع الأردب من هذه البذور بثلاث قروش ويستخرجون منها فى مصر وغير مصر الزيت، وزيت السمسم زيت لذيذ المذاق وله رائحة طيبة مثل الكافور والمسك والعنبر وإذا وضع فى القناديل انبثقت منه شعلة مضيئة.

وتجاوزنا هذه القرية، وفى الجنوب على ضفة النيل رأينا جبلاً على ساحله قرى عامرة وفى هذه القرى رأينا نوعًا من الدوم، وفى الطريق إلى الشمال رأينا بلدة تسمى بلد الدوم، وفيها أخشاب ترتفع فى السماء معوجة وغير معوجة لكنها أشجار دوم، ولكن هذا النوع من الدوم كل عذق منه يزن قنطاراً أو قنطارين، وكل دومة فيها تزن أربعين أو خمسين درهمًا، وهو دوم أحمر اللون وحجمها فى حجم القبضة وهم يستأصلون من الدوم شوكها ويضعونها فى حق فيه الفلفل الهندى والتبغ فيصبح هذا الدوم لذيذ المذاق والفلاحون غالبًا ما يأكلونه.

أوصاف قصبة فوه العليا

هى قصبة معمورة بعيدة عن النيل فيها ثلاثمائة بيت وهى تحت حكم جرجا، وهى مع توابع قوص، وبها مائتان من الجند المعروفين، بـ (سكسان) ويتبعها تسعون قرية تدر أربعين كيسًا ويتحصل منها على ثمانمائة أردب من الغلال، وليس فيها جند من الفرق الأربعة ولا قائد وبها دار ضيافة عظيمة، وبها جامعان كبيران وسبع زوايا ومقهيان، وليس فيها حمام ولا خان ولا سبيل ولا سوق، ولكن فيها مكتبين للصبيان، والكاشفون يقيمون بها فى خيام وحتى الخيام التى يقيم فيها الكاشفون تقام فى الرمال، وفيها أعمدة قديمة منقوشة، وعلى حد قول المقريزى كانت هذه آثار قصور يسكنها الفراعين فى الزمان الخالى، أما فى يومنا الحاضر فليست سوى صحراء لا أثر فيها للعمران ولا وجود لروضة ولا بستان، وكثير من أهلها مفاليس، ووجوههم شاحبة أميل إلى الصفرة، وجوها ثقيل وفيها ضريح الشيخ إبراهيم نورى، وله قبر صغير إلى جانب جامع كبير، وله مناقب مذكورة فى كتاب الطبقات للشعراوى وتجولنا بعد ذلك بين قرى وفيرة المحاصيل بالقرب من النيل حتى اقتربنا من السويس وبينهما مسيرة ثمان ساعات ونصف، وكما عبرنا أكواخًا من القصب يسكنها العرب وبعد سبع ساعات بلغنا قنا.

أوصاف مدينة قنا

مدينة قنا فتحها عمرو بن العاص وبعد عمرو وفى خلافة عثمان وحين كان محمد ابن أبى بكر واليًا على مصر قدم قنا، وجعلها عاصمة ثلاثة أعوام، وقد أصبحت هذه المدينة بعمائرها مصر الثانية، وأقيمت بها قلعة بالقرب من ميناء القصير فى تلك الفترة

ومنها كانت ترسل الـغلال إلى جدة، وهى ميناء مكة، وينبع وهى مـيناء المدينة المنورة، ومنذ هذا العصر وأهل قنا يشتغلون بالتجارة، وفيها تجار عظام وأكثرهم من أشراف مكة والمدينة، ولأن قنا ميناء صغير فهى كاشفية تتبع قوص وهى التزام يدر مائة كيس، ليس فيها جنود من الفرق الأربع ولكن فيها انكشارية وعزب من مصر.

ولهذه المدينة مفتـى على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف لأنها مـليئة بأشراف مكة وهى قـضاء يدر مائـة وخمسين أقـجه ليس إلا ولـتجارهـا مخازن علـى شاطئ النـيل وتتكدس فـى هذه المخازن شتى أنواع السـلع لأنها ميناء مـكة والمدينة والحبشـة واليمن وعدن، ويأتـى الأشراف من الحجـاج ويقضون فيـها أربعة أو خمـسة أيام، وهم فـيها يسيرون عـلى الأقدام أو يركبون الحُمُـرَ أو الجمال، ومنها يـصلون إلى ميناء الـقصير، وكراء[1] الحمار خمسة قروش، ويركبون منها السفن ليصلوا فى ليلة أو ليلتين إلى ميناء ينبع، وبعد ذلك يبـلغون مكة فى خمسة أو عشرة أيام بإذن الله، ويكـلفهم الحج ديناراً واحداً وهناك يلتقى جموع غفيرة من الناس، ولكن الطريق وعر عسر.

وفى جنوب قنا على ساحل النيل على مسيرة خمـسمائة خطوة أرض رملية بها قصور شامخة ومـسافة تبعد جـنوبًا عن النيـل قدرها ثلاثة آلاف وستـمائة خطوة وهى مـدينة جميلة وجوانبها الأربـعة لها أبواب، وعليها حراس، ويغلقونها لـيل نهار وفيها عشرون جامعًا، وسبع منها خطبة علاوة على كثير من الزوايا وفيها الجامع الكبير يَؤُمُّـهُ كثير من المصلين ويسمونه كذلك جامع أمير المؤمنـين لأن عمرو بن العاص حينما فتح هذه المدينة أقام هذا الجامع لـلخليفة عمر بـن الخطاب، وطوله وعرضه ستـون خطوة، وفى داخل الجامع خمسـون عمـودًا من الرخام يحمل سقفًا وفى وسط حرمه خـمس نخلات نبتت من جذر واحد، لـقد زرع عمرو هذه النـخلات بيده ومحرابـه ليس خاليًا مـن النقوش ومنبره من خشب وعلى منبره تاريخ هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا المعـمارات المباركة والجامع الأمير حسن أغا فى تاريخ السابع عشر محرم سنة ١٠٧٩).

(١) كراء: أجـرة.

وقد تخرب هذا الجامع علـى مر الأيام وقد أنفق حسن أغا وهو ملتـزم مدينة قنا من صلب مالـه عشرة آلاف قرش لتعمـيره وترميمه ولا وجود لجـامع كبير فى تلـك المدينة سوى هذا الجامع، وبـالمدينة سبع تكايا ومدرسـتان وعشرة مكاتب للصبـيان وعديد من الوكالات وسبع مقاه ومائة وخمسـون دكانًا وحمام وسوق للغلال وميدان، ويقام فى كل أسبوع فى هذه المديـنة سوق يأتى إليها جمع غـفير من الناس من سبعين قـرية بجوارها فيبيعون ويشترون.

ولاعتدال جـوها نساؤها سـمراوات جميلات ولقـربها من الحبـشة فإنهن مـن نسل الجوارى الحبشيات، وإنهن يـتحلين بالأساور والخلاخيل كما يلبسـن القمصان الحريرية، ولهن عيـون كعيون الظباء، وهن يـلففن قوامهن بـالحرير الأسود، وبعضهن خـليعات يرقصن فى المقاهى وليس هذا عيبًا عندهن، أما السيدات العفيفات منهن فيختلفن عنهن وهن لا يغادرن مـن منازلهن إلا إلى المـقابر فى يوم الجمعـة، والرجال يلبسـون العباءة وتشتهر المدينة بكرومها وعنبها المسكى وعناقيده تتدلى من السقوف وعنب قنا ينضج قبل عنب مصر والفيوم بخمسين يومًا، وذلك أنه فى أرض رملية وجوها شديد الحرارة، أما الخوخ فتزن الواحدة منه مائة درهم، وفيها المشمش طيب وحمامها مشهور ويأتى التجار من مكة ويأخذون الحمام من التجار ويضعونه فى أقفاص ليأخذوه، ويطيرونه وهو مقيد الجناحين فيـطير ويبلغ فى مدة تتراوح بـين ساعة إلى خمس ساعات ثم يعـود مرة ثانية إلى قنا ويـضرب به التجار للـناس المثل فى مَنْ يمـضى إلى حيث يريد فـى طرفة عين، ويقولون ألأنت حمام قـنا، وفى قنا يطيب عبد اللاوى، وهو نوع مـن الشمام وأكل لبه وبذره مدر للبول كما يطيب البطيخ والشمام والخيار والعجور فى هذا البلد.

بيان ما فى هذه المدينة من قبور الأولياء

فى الجهة القبلية من المدينة وفى الحدائق قبر الشيخ عبد الرحيم القناوى وهو الملقب بين الأولياء والصلحاء بشفيع المِلّة وقد ذكرت مناقبه على التفصيل فى كتب تراجم الأولياء وطبقات الشعراوى وله بابٌ يفضى إلى الجهة الغربية وعلى صندوقه الشريف زجاج رقيق وعليه سقف منقوش كما أن صندوقه مستور بستر أحمر وعلى عمود رخامى أمامه تاريخ مكتوب هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ....﴾ إلى آخر هذه الآية الكريمة رقم ٢١ من سورة التوبة، وبعدها (انتقل العبد الفقير إلى عفو ربه القدير الشيخ الإمام الحسينى، النسيب علم الأعلام، وبركة الإسلام وغياث الأنام، قطب الدين عبد الرحيم الحسينى، وتوفى يوم الجمعة بعد صلاة الصبح فى يوم (   )[1] من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة هجرية قدسنا الله بسره العزيز.

وعند قدمه المباركة الشيخ أبو الحسن وبجانبه الشيخ سيد محمد اسكندرانى وبجواره الشيخ عبد الله القريشى وفى ركنى الشيخ عبد الرحيم من خلفاء الغار الشيخ إبراهيم أبو الدنيا أما سبب تسميته بأبى الدنيا أن ابنًا له عندما انتقل إلى رحمة الله، ولم يكن معهم درهم واحد لتجهيزه وتكفينه فانشقت الأرض عن كنز عظيم، وحمل الأهالى ما فى الكنز من مال طوال ثلاثة أيام، فاستغنوا بهذا المال ولذلك لقبوه بأبى الدنيا وقد عمرت قنا بهذا المال المستخرج من ذلك الكنز وبجانب هذا الشيخ العظيم ابنه الشيخ على الصابرى ابن الشيخ إبراهيم أبو الدنيا، وأبوه كذلك قطب عظيم، ولم يضع يده على هذا المال، إنه كان رجلاً نزيهًا، إنه من ذوى قرابة الشيخ الزبيرى وقد توفى أيام الفتح زمن الصحابة الكرام، والشيخ عبد النبى والشيخ سيد محمد والشيخ محمد الحسينى والشيخ سيد يونس، وفى المدينة الشيخ عمر النسيم إنه قطب عارف بالله وله مناقب لا تدخل تحت حصر وخلف جامع عمر فى الركن الأيسر يرقد فى قبر متصل بجوار الجامع الشيخ محمد الأساسى وقد اعتزل أربعين عامًا فى ركن وكان يغادر هذا

(١) بياض فى الأصل.

الركن للتبول والتغوط ليس إلا، وكان ينام ساعة واحدة، ولم يشاهد ماشيًا، وقضى عمره أصم أبكم، وقد شغلته الطاعة والعبادة عن كل شيء فى الدنيا وقد حكى البكوات الذين اختلطت بهم قالوا، إنهم كانوا يزورونه كَسِيفِى البال ولكن المَسرةً كانت تدخل قلوبهم بزيارته وقد دفن فى هذه المدينة آلاف من الصحابة رحمة الله عليهم أجمعين، وفى هذه المدينة يسمون العرب العبابدة، وهم يشكلون قبيلة تسكن تلك المدينة، إنهم قومٌ يعيشون فى نعيم وهم شجعان وعددهم ستة آلاف، وهم على الدوام يحملون الغلال إلى ميناء القصير وهم يمضون فى أرض رملية حيث يقطعون مسافة فى الصحراء والجبال وتحت حرارة الشمس وفى القرى يتناولون الإفطار، وتجاوزناها بعشر ساعات فبلغنا القصير.

أوصاف قلعة ميناء القصير

إنها على البحر الأحمر وهى بناء صغير وحصين، ومحيطها خمسمائة خطوة، وأول من بناها محمد بن أبى بكر، وبعده الظاهر بيبرس والسلطان قايتباى وقد عمرها، وهى قائمة على صخرة وليس لها خندق وبابها يتجه نحو الغرب ولها رئيس ومائتان من الجند وعتاد سبعة عشر مدفعًا صغيرًا وجامع وعشرون غرفة ومخزن للقمح وغرف للضيافة، ولا وجود فيها لحَمَّام وليس فيها خان ولا سوق، ولا أثر فيها لحديقة، إنها أرض جزيرة ولها مرفأ عظيم ومرفأها يأمن الرياح جميعًا، وفى الجهة المقابلة ميناء ينبع، والوصول منها إلى المدينة فى يومين وميناء مكة توجد على مسيرة ثلاثمائة وستين ميل ومن جدة إلى مكة ثمانية أو تسع ساعات، وتأتى السفن من الحجاز على الدوام إلى القصير، وهذه السفن تبحث عن الغلال والعبابدة يبيعون الماء بالقطرة الواحدة وعندما قدمت هذه القلعة شكى لى أهلها من شدة الظمأ، وبالقرب من القلعة دليل على وجود الماء، ثم ركبنا جيادنا وقد بلغنا مكانًا يسمى جيرك وحقيقة الأمر أنه مكان فيه ماء وعرضت شكوتهم على إبراهيم باشا وزير مصر وأوصلت أعيان القلعة إلى إبراهيم باشا فرصد عشرة أكياس، ومع أغا موثوق به فأمر هذا الأغا المعتمد عليه بحفر بئر، وأقام عنده مصطبة وقصرًا فنبع منها ماء عذب، ولله الحمد أن هذا تم بمسعى من هذا الرجل،

وبذلك تخلص من الظمأ الغادون والرائحون والحجاج والمقيمون فى تلك القلعة والدال على الخير كفاعله، وقد جاء فى أحد التواريخ ذكر قلعة القصير والبئر والقصر الذى فى جانبها وتاريخ بناء هذا القصر هو عام ١٠٨٣ .

ومضينا تسع ساعات فى طريق دلنا عليه العبابدة وصلينا الصبح على شاطئ النيل وتناولنا طعام الإفطار فى بلدة تسمى:

انبوطه

واسترحنا ثلاث ساعات، وهى بلدة على بعد ثمانى ساعات من قنا بها خمسون بيتًا، واجتزنا على شاطئ النيل قرى بيوتها مبنية بالقصب وفى خيام العبابدة شربنا لبن النوق، وبعد ثلاث ساعات بلغنا مدينة قوص.

أوصاف مدينة قوص القديمة

أقامها شداد بن عديم بن يود فى عهد شيرين قفطريم، ومن أبناء قفط من يسمى قوص وهو الذى بنى المدينة لما آل إليه الملك، وفى عام ١٤١٤ استبحر العمران فى مدينة قوص، ففى هذا الزمان كان بالقرب من قوص مدينة خربة ومنها فر أهلها من خشية مرض الطاعون إلا أنهم لم ينجو من الطاعون وهلكوا مع أهل قوص، ومنذ هذا العصر لم تعمر قوص، ويقول بعض المؤرخين إن شداد بناها وكانت حديقة إرم، وقد اختلف العلماء داخل مصر وخارجها فى بناء هذه المدينة. وعلى حد قول كعب الأحبار لم يجتمع العلماء على رأى فى مَن هو بانى قوص إنها مدينة طيبة الهواء يعجز الوصف عن عظمتها إن جوها هو جوّ حَلَب أو جو مَعَرَّة النعمان، وقبل فتح مصر استولى عليها الأسود بن مقداد من القبط، وبعد الفتح بحثوا فى أرضها عن كنوز ووجدوا عمودًا منهدمًا، ولوجود العقارب بها فَرَّ العسكر وظلت المدينة خربة إلى أيام عبد الملك بن مروان من خلفاء بنى أمية، وسبب خراب هذه المدينة طوال تلك الفترة هو كثرة العقارب ولكن العقارب لا تصيب أهل هذه المدينة بضرر ولقد شاهدت أنا هذا العمود المنهدم، وقد رسم عليه صورة عقرب وقد كتب أسفل العمود سطور، ويراه كل من يمضون فى

الطريــق لأنه على الطريــق العام، وهذه المدينــة فى حكم جرجــا ولها كاشف له مــائتا جندى، كما تحوى ستين قرية ويتحصل منها أربعون كيسًا وألف أردب من الغلال ولكن ليس بها مستحفظون ومفتى ولا نقيب أشــراف وإنها قضاء به ستون قرية ويتحصل منها فى كل عام ثلاثة أكياس وهى مدينة تبعد عن النيل بمسافة بعيدة وبها ثمانمائة بيت واسع ولكن ليس فيها كثير من القصور ولا البــيوت الجميلة، وبها ستة محاريب وأربع خطب وبالقرب من الــسوق جامع بناه المستكفــى بالله حين نفى فى هذه المدينة إنــه جامع بالغ الغاية فى الــكبر وطوله وعرضه مائة خطــوة، وبه سقف قديم يقوم على مــائتى عمود، كما أن بها جــامعين آخرين لا علم لى بهــما إضافة إلى الزوايا، وبها وكــالتان وخمس مقاه وستة مكاتب للصبيان وثلاثون سوقًا صغيرة وعشرون سبيلاً ولكن ليس فيها حمام ولا مدرسة وأغلب ما فى حدائقها نخيل الدوم، ونتــيجة لذلك فإنها ليست مدينة عامرة كما أن جوها ليس مقبولاً ولذلك فأهلها صفر الوجوه.

بيان ضرائح هذه المدينة

لما آلت الخلافة فى مصر للمستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسى بَنَى بها جامعًا كبيرًا كما أن أتباعه من العباســيـين سكنوا قلعة الكبش، وكان الحل والعقد فى يد الظاهر بيبــرس، ولكن اسم المستكفى كان يــضرب على العُمْلة ويذكر اســمه فى الخطبة وقد وقع الصراع والنزاع بين ذوى قرباه كما وقع النفــاق بينه وبين الظاهر بيبرس، فنفى الظاهر بيــبرس أهل المستكفى وأقــاربه إلى تلك القلعــة، وأمر المستكفى جمــيع المغاربة والهنود الخبراء بالكشــف عن كنوز، فاستخرجوا مطلسمات مختــلفة من عهد شداد بن عاد ولكن المســتكفى توفى فى عام ٧٠٣، فدفــن فى قبر صغير، ودامت خلافــته تسعًا وثلاثين سنة، وعمره خــمسون سنة وهذا مسطورٌ على قبــره، وأخو الحاكم بأمر الله هو إبراهيم الواثق بالله وبجــانبه محمد عطاء الله بن إبراهيم الواثق بــالله، قد نفاهما الملك الصالح إلى قوص وهما مدفونان بجانب قبر المستكفى بالله، ولحكمة الله أنهما نفيا إلى قوص معًا، فقد نفاهما الملك الصالــح بن الملك الناصر إلى قوص وهؤلاء هم آل عباس

المدفونون فى هـذه المدينة، وهذا ما قيل فى شأنـهم وفى المقبرة التى بجانـب ضرائحهم الشيخ ظاهر والشيخ كاظمى والشيخ نور الدين الشيرازى والشيخ علام الدين البصراوى وهؤلاء الأعيان كانوا من حاشية المستكفى الـذين هاجروا معه من بغداد إلى مصر وبلغ مدينـة قوص، رحمة الله علـيه، وقد عبرنـا على شاطئ الـنيل أراضى رملـية وأراضى صخرية وأراضى خربة لمسيرة ست ساعات، وبلغنا ولاية أشمون.

اوصاف ولاية اشمون (الأقصر)

إن بيطر بن حام بنى مدينة قديمة تسمـى أقصرين بعد الطوفان وهو الأخ الأكبر لسام ويقال إن بـيطر هذا أبو الـقبط، ومن نسـله ولد توأمـان أحدهما أشمـون ريف، وآخر أشمون جاو وقد ولدا فى مـكان واحد وأرسلهما بيطر أبوهما إلى إقـليم مصر، ولذلك سمى الإقليـم أشمون وقد عمرت هذه المديـنة، وقد بنى الأخوان قصريـن على شاطئ النيل، وبعد بناء هذين القصرين سميت المـدينة القصرين، أى المدينة التى تحوى قصرين والكلام على هذه المدينة أولى به أن يكون وجيزًا، وهـى تتبع كاشفية جرجا، وبها مائتا جندى ويتحصل منها أربعون كيسًا، ولا يوجـد بها مـستحفظان ولا شورباجى ولا مفتى ولا نقيـب أشراف ولا أعيان وقد كـانت مدينة عـظيمة علـى شاطئ النيـل تحوى ألف ومائتى بيتٍ، وبـها كثير من الأبنية العاليـة وكثير من القبور، ولذلك تبقـى منها أعمدة مطمورة فـى الرمال، وهذه الأعمدة بقـايا لعمائر أقـامها سلاطين مصر الـقدامى، وفى جامع السليمانية أعـمدة من هذه المدينة نقلها ربان الإسكندرية إلى جامع السليمانية فى استانبول وقد أنعم عليه بخلعة وألف دينار، وقد نقلت هذه الأعمدة فى سفنٍ فى البحر إلى استانبـول، وقد علمت أن أعمدة جيء بهـا إلى ميدان الوفاء وهذا ما سـمعناه من والدنا رحمة الله عـليه، ولكن هذه المدينة لـيست معمورة وبها عشـرون محرابًا وثلاث خطب، وبها أسواق صغـيرة وجامع فى وسط السوق فيه جمع غفـير من الناس كما أن بها خانًا وحمامًا والعـديد من الزوايا المعمورة ومكتبًا للصبيـان وسبيلاً ومقاهى، وجوّها غاية فى اللطف وأما أهلها ففى غاية الفقر.

زيارة ضريح الشيخ أبى الحجاج

إنه مدفـون فى مغارة بالـقرب من جامعـه، وله كرامات كثـيرة، وإنه قطب عـظيم وليست لمناقبه نهاية، وهو الأخ الأصغر للشيخ عبد الرحيم القناوى الذى دفن فى مدينة قنا وله ملك خير الدنيا والآخرة، وقد قرأت الـفاتحة فى الضريح وقد وهبت ثوابها إلى روح الشيخ أبى الحجاج، إنه قطب ذو مكانة وشهرة واسعة فى تلك المدينة، وهو قريب الشيخ رمضان الفرغلى، وهو كذلك قطـب عظيم واسع الشهرة، وغادرت هذه المدينة، ومضيت جنـوبًا على شاطئ النيل فى أرض خـالية وعلى مسيرة سبـع ساعات شاهدت على ضفة النيل تماسيح وبلغت:

بلدة طوت

وهى بلدة معمورة تقع على أكمة فى ناحـية من الأقصر وتضم مائة بيت، تجاوزناها ومضيـنا وعلى يسـرتنا النيـل وقطعنـا طريقًا مدة ست ساعات وهو طريـق فى وسط الصخور فبلغنا بلدة:

شحـات

تتبـع إقليم أقصريـن وهى على شاطئ النيل، وبها مـائة بيت وجامع، وهـى بلدة عامرة، ومضينا على شاطئ النيل مدة ست ساعات، وبلغنا بلدة:

دير أم على

وبها كنيسـة عظيمة ولذلك يسمونها الـدير، ورهبان هذه الكنيسة جميـعًا من القبط ويقولون إن هذا الدير بنى قبل ثلاثة آلاف سنة.

واتجهنـا هـذه المرة إلى الجانب الشرقى من النيل، فبلغنا مرجًا مخضوضرًا وفيه قـبر صغير للـشيخ عبد الدايم وهو من أبنـاء الصحابة الكرام ـ رضوان الله عـليهم ـ وقرأت الفاتحة لروحه ومضينـا ست ساعات على شاطئ النيل، ونزلنا ضيوفـًا على خيمة شيخ العرب لقبائـل الحجيزة، واسمه الشيخ ناصـر الدولة وفى هذه الليلة تنـاولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة وأكلنا حلوى التمر كما أعلفت خيولنا ورجال هذه القبيلة من الفرسان

البواسل، وقمنا فى الفجر وعبرنا أراضى حجرية وبعد ست ساعات كان الوقت الغروب فبلغنا:

ديار عشاير رده

وهم كذلك شجعان وهم عيَّارون وشجعان يمضون إلى بلاد الحبشة ومكثنا فى خيمة شيخهم أبو عصيب، وتناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة، وحمدنا الله، وأعلِفت خيولنا الذرة، وقوم رده هؤلاء لا يدينون بالطاعة إلى والى الحبشة ولا كاشف إبريم فهم جبابرة فى الأرض، ومضينا على شاطئ النيل واجتزنا مدنًا خربة وقطعنا المروج فى ثمانى ساعات فبلغنا قوم:

عربان الشبيكة

وهم ستة آلاف مقاتل من العرب وهم شجعان، وشيخهم يسمى شجاع الدين، وعندهم كثير من الذرة ولحم الغنم وخبز الذرة ولا وجود للقمح عندهم، ولأنهم قوم عصاة متمردون لا يدفعون مال الغلال الذى على ما يزرعون، فقمنا من عندهم ومضينا عنهم وولينا وجهنا قِبَل الجنوب ومضينا على شاطئ النيل، وهو يأتى فى هذه الجهة من بلاد الحبشة، وفى هذه البقاع عرب عصاة وفقراء ليس لهم إيمان كأنهم الحيوان، وليسوا يتبعون ملك الحبشة ولا إبريم ولا بلاد الفونج إنهم رعاع عراة وقدمنا إليهم بعض الهدايا فغادرناهم سالمين، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى جبل السلسلة.

أوصاف قلعة السلسلة

إنها جبال شامخة توقع من ينظر إليها فى الخشية، وفى هذه الجبال مئات من المغارات ولا يعلم عددها إلا الله، حفرها قوم عاد وثمود وكانوا يسكنونها، وسخرت لهم صخور الصوان وكأنما طَحَنُوها وبنوا بها قاعاتهم وحجراتهم وكل حجرة ترتفع أربعين أو خمسين ذراعًا، وفيها عجائب وغرائب كأنها حية، وفيها تماثيل وتصاوير غريبة وفى كنهها تحار العقول، وفيها صور تنظر إلى مشاهدها وهى باسّمة كأنها تبتسم، وخلاصة القول أن جبل السلسلة هذا عجيبة من عجايب الزمان، وعلى سطح هذه الصخور حِصنٌ حصين، كما توجد قلعة قبالة النيل هى قلعة أتفود.

قلعة أتفود

وأمامها يجرى النيل، وفى زمان كانوا يجرون هاتين القلعتين إلى النيل بسلسلة ولذلك يسمون هاتين القلعتين قلعة السلسلة وبعدهما شلال بوغازى وشلال الولاية، إنهم سبعة مضايق والنيل بعدهما يمتلئ بالجزر العامرة وليس فى هاتين القلعتين رئيس لهما ولا قواد ولا جنود، ولكن يسكنها فوج من قبائل الجعفرية، وقبالة هذه القلعة فى جزيرة قبر الشيخ كوم صياح.

زيارة قبر الشيخ كوم صياح

حينما يفيض النيل ويغمر هذه الجزيرة يصيح، وهو يصيح موحداً بالله ولذلك يسمونها جزيرة الصياح.

وبلدة كليج

معمورة ويتبعها مائة قرية وجميع أهلها ملاحون ويسمونهم قبيلة بصلى وبها ثلاثة آلاف إنسان وقد أتوا من قوم الهوارة، واستوطنوها، وبعد ذلك مضينا خمس ساعات جنوبًا على ضفة النيل إلى قلومبو

أوصاف قلعة قلومبو

إنها من بناء شداد بن عاد، وهى قلعة كانت للملوك بعد ملوك ثم استولى عليها سيف بن ذى اليزن من القبط ثم اجتزنا صخور شلال بوغازى ويجرى النيل إلى صحراء نصف المغرب وفى مقابل جزيرة كريد يخلط ماؤه بماء البحر الأبيض وطريق جريانه خندق عظيم وفى عهد عثمان بن عفان استولى أبو عبيدة بن الجراح على هذه القلعة من القبط، ولكن بعد أن استشهد عثمان استردها القبط، وكل القلاع التى على النيل تحت حكم إبريم وفى قضاء أسوان، وفى داخل القلعة ثلاثمائة بيت من حصير يسكنها بنو جعفر، إنهم مسلمون ولكنهم على المذهب الجعفري، وإنهم يسكنون فى القلعة وفى الصحراء خارجها، إنهم ستون ألف إنسان وهم قوم يعيشون فى رغد من العيش، وفى الجانب الشمالى للقلعة ضاحية عظيمة، ومضينا على النيل ثلاث ساعات، ومررنا بأراضى صلبة كالحديد، وفيها كل صخرة فى حجم الفيل وقد أصبحت سداً فى النيل،

ويسمى العرب هـذا السد بخيط العجوز، وفى الجـهة الشرقية للقلعـة مغارات بها ألف تمساح مكفن وقد تراكمت هذه التماسيح بعضها على البعض وأكفانها من قشور الدوم، ومـن الـعجـب أن البلـى لم يصبهـا، ولكن لا تنبـعث رائحة خبيثـة من رممها كسائر الحيوانات، وهـذا أمر عجب، وهذه التمـاسيح يسمونـها جبل التمسـاح، وقد فتح ذو اليزن فى الصخر طريقًا، والسفن تمر فى هـذا المضيق، وهذه السفن سفن صغار وتمضى إلى أسوان، ثم تحمل الجمال أحمال السفن، وفى هذا المكان سبع مضايق وشلالات من بعيد تتدفق مياهها وتمر فى جبال شوامـخ وبين صخور، وثمة بوغاز والنيل ترتمى مياهه فى هوة فى طول المأذنة.

ومن عجب أن بعض السفن تطير فوق هذه الصخور ثم تجرى ويجرى النيل فى هذه المنطقة وبين ضفتين عليهما جبال كأنهـا الجودى ويتشعب النيل فى هذه المنطقة وبين كل شعبة وشعبة جزيرة والجزر المعمورة تقع فى الجانب المقابل، وسوف نتحدث عن هذا فى موضعه بمشيئة الله.

ومن يمضـون من قلومـبو إلى الحبشـة يبدأون السيـر من هذا الموضـع وبعض وزراء الحبشة يـقدمون إلى هذه القـلعة، ومنها يـجمعون الجند ويـحملون المؤن علـى الجمال ويقطعـون الصحراء إلى الحبـشة، وليس لهم طريـق سوى هذا الطريق، وهـذا الطريق طريق حجرى والطريق إلى إبريم على ضفة النـيل ويمضى جنوبًا وطريق إلى الحبشة فى الجهة الجنوبيـة، وقد مضيت مع جماعة من قـلعة قلومبو فى الطريـق إلى إبريم وسرنا ثلاث ساعات حتى وصلنا:

مدينة صين باس

كانت مدينة عـظيمة فى قديم الزمان ومضينـا بين خرائبها يومًا بتمامـه وفيها غرائب وعجائب وأعمدة ومطلسمات، وفيها ما فى (آت ميدانى) فى استانبول من أحجار مربعة وعليها علامات غريبة، إنها كانت قديمًا مدينة قوم عاد، وقد خرج من الحبشة أبرهة فى سبعين ألف فيل ومضـى إلى هذه المدينة فخربها وأهلك أهلهـا، وهى الآن مدينة خربة ليس فيها سوى البوم والأفاعى.

وعلى ضفة النيل مدينة بها مائتا بيت من الحصير وهى بلدة تشبه القرية وفيها جامع بلا مئذنة، وبجانب هذا الجامع ضريح الشيخ رجابى، وهو قطب عظيم، وهذا الضريح فى غابة من أشجار الدوم وثمة ضرائح ثمانية وسبعين قطبًا من الأولياء، ولكن أجهدنا القيظ فلم نستطع زيارتها وإن كنا قرأنا سورة يس ومضينا لطيتنا ومضينا بين الصخور فى طريق ضيق من المرتفعات والمنخفضات ولقينا من سفرنا هذا نصبا حتى وصلنا أسوان.

أوصاف قلعة أسوان

يذهب المؤرخون المحققون إلى أن قلعة أسوان بناها عاد بن شداد بعد الطوفان لأنهم يسمونها دير عرياق وأنها دير عظيم، والملك عرياق مدفون فى هذا الدير فى تابوت من النحاس وعلى الجوانب الأربعة لهذا التابوت كتابات بالعبرية ويسميه القبط عرياق بن عيوام ويقولون إن إدريس - عليه السلام - رفع إلى السماء فى عهد هذا الملك وفى زمان هذا الملك سجن هاروت وماروت فى بئر بمدينة بابل، وخلف عرياق فى الملك ابنه الوخيم وكذلك الوخيم مدفون فى هذا الدير، وخلف الوخيم فى الملك ابنه خصيليم، وهو أول من بنى المقياس فى النيل عند أسوان وآثاره باقية إلى اليوم.

ثم قدم مصر الخليفة المأمون العباسى من بغداد وبنى المقياس فى مصر وخرّب المقياس الذى فى أسوان حتى لا يكون هناك مقياس بناه أحد سواه، وخصيليم هذا فرع النيل ترعًا، وفرش هذه الترع بالرخام وأمام مدينة أسوان هذه المنطقة من النيل أحجار فى حجم جثة الفيل، وقد سوى هذه الصخور وصنع منها سدًا فى بلاد النوبة اثنتى عشرة قنطرة، ولم تبق من هذه القناطر اليوم سوى واحدة، وقد دمرتها الزلازل، وأُسُسُها ظاهرة فى النيل، وظهر نوح فى عهد خصيليم هذا وقد ركب خصيليم هذا فى سفينة نوح عند الطوفان، وقد عَمّر ثمانمائة سنة، ولذلك قال المؤرخون إن مدينة أسوان كانت قبل الطوفان لأن فيها آثار لخصيليم وأبيه الوخيم وجده عرياق، وهذا بالعبرية مسطور على الصخور، ثم عمرها عاد ولكن خربها أبرهة بعد الطوفان وقد جاء ذلك على التفصيل فى كتب الخطط ومحمد بن إسحاق وتواريخ الشهابى رحمة الله عليهما،

ولكنى أحقق هذا فى يقين فأقول ما مجملة أنها بقيت بعد زوال دول ودول وهى مدينة قديمة، وقد فتحها عمرو بن العاص وهى التزام تابع لجرجا، ويتحصل منها أربعون كيسًا كما أنها كاشفية تابعة لكاشف قوص ويتبعها ستون قرية يتحصل منها ومن توابعها المائة والخمسين ستمائة أردب من الغلال ولكن ليس فيها جند مستحفظون من أربع فرق وهى قضاء يدر مائة وخمسون كيسًا وريعها السنوى ثلاثمائة قرش ويبقى لكاشفها بعد المصروفات خمسة أكياس، ولها قلعة عظيمة على ساحل النيل، وهى سامقة مثمنة الشكل بناها شداد ومحيطها ثلاثة آلاف وستمائة خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفى داخلها حدائق وخمسمائة بيت صغير للفقراء ولرئيس هذه القلعة مائة وخمسون جنديًا، وفيها فرقة موسيقية ومخزن للأسلحة وعشرون مدفعًا، وهى الآن حد عظيم لأن حولها عرب عصاة، وبها جامع وسبع زوايا وثلاث مقاه، وستمائة بيت وليس فيها حمام ولا خان ولا مكتب للصبيان ولا سبيل ولا أسواق ولا دكاكين ولكن تقام فيها سوق عظيمة كل أسبوع، ويجتمع فيها خلق كثير من جميع الأجناس يبيعون ويشترون ويوجد فيها ما ليس له من وجود، وخارج القلعة ضاحية بها حدائق وبساتين وسبعمائة بيت وبعض هذه البيوت خربة ولكنها رممت وسكنت، كما أن فيها جوامع وزوايا ولكن ليس فيها سوق وبها بعض المقاهى المصنوعة من الخشب والأكواخ والدكاكين، وكانت بها فى ماضى الزمان على مسيرة ثلاث ساعات على ضفة النيل أبنية كأنها قصر الخورنق، وأعمدة لا حصر لها وضرائح عالية وخان وحمام وسوق للبزّ وعمائر كتبت عليها طلاسم، وكأن هذه الطلاسم قد كتبت منذ هنيهة، وقد اعتشت فى هذه العمائر الغربان والحمام والغربان فيها تنعق، وفى الشتاء تغادرها كل الطيور، ويأتى العرب ويسكنون هذه الخرائب، وجو أسوان لا بأس به، وفيها الأسلحة لا تصدأ وتبقى مصقولة ووجوه أهلها وردية ولاعتدال جوّها كان الجمال فى فتياتها وفتيانها، أما شراب البوزه فيها فيبعث القوة فى الروح وشراب البوزه هذا مرغوب طيب.

باب الأبواب

إنها جزيرة خربة فـي بوغاز الشلالات بأسوان، ويسمونها بـاب الأبواب وبما أن النيل يتشعب سبع شعب فثمة عدة جزر، وفى كـل من هذه الجزر يؤكد الكشفيون على وجود معادن جديدة ففيهـا النفط والقطران والكبريت والرصاص والكبريـت المائى، وفيها حمم ماؤها حار يـستشفى به، ولـكن ليس فيها أثـر للعمران، وعنـد فيضان النيـل تغرق هذه الجزائر جميعًا ولا يبـقى أثر لما فيها من معادن وحمم، ولا يستـطاع استخراج هذه المعادن منها ويفيض النيل وتخضوضر الأرض فـى مصر، وأهل الطب من أهل مصر لا يشربون من ماء النيل وإنما يحـضرون الماء من بئر فى المطرية ويشربونه وإذا شـرب الناس من النيل فى وقت الفيضـان وهو أخضر تورمت أرجلهم مثـل الطلومبة وارتعشت أجسـامهم نعوذ بالله، وأصل اخضرار ماء النيل واحمراره هو ما تجمع أمام تلك الجزر من النفط والكبريت والقطـران ويتلون ماء النـيل بألوان مختـلفة ومنهـا تهلك الحشرات ولـكنها تأتى ثـانية، وتختفى فى الترع وهذا هو سبب اخضرار ماء النيل وجنوب أسوان تسمى:

ولاية علوى

إنها ولاية واسعة تمتد حتى الحبشة ودُمبِستَان ولاعتدال جوّ هذه الولاية يتصف فتياتها وفتيـانها بالجـمال فلهـم عيون كعيـون الغزلان ويتـزوج أعيان أسوان مـن عذارى ولاية علوى، ومن عـذارى علوى من لم يبلـغن المحيض ولكن يحمـلن وغالبًا ما يَمُـتْنَ عند وضع حملهن، والعهدة على رواية أهل أسوان، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لقمان ـ عليه السلام ـ نبـى وقيل إنه نبى أسمر اللون، ولد فى أسـوان، كما أن ذا النون المصرى من أسوان وأصبح من صحابة الرسول ﷺ كما أن النبى إدريس ـ عليه السلام ـ ولد فى هذه المدينة، وقد زرت قبره وهو مدفون فى مغـارة وقد مرغت وجهى الشاحب على أثر قدمه فى الأرض حين عرج فى السماء، وكل أثر لقـدمه يبلغ ثمانية أشبار طولاً وعرض الأثر ثلاثة أشبـار، وكأن هذا الأثر حفرة كالصـندوق، وعندما ينزل المطـر فإن حفرة أثر قدمه تمتلئ بمطر الرحمة والوحوش والطيـور تشرب منه، وبجواره غار لقمانُ ومنه تفوح رائحة العقاقير، وهـى رائحة طيبة ولم تنقطع هذه الرائحة مـن ألف سنة، فما من ريب

فى أنه نَبِىٌّ، وذا النون المصرى من ذريته وكان طبيب النبى ﷺ ، وأجيال الأطباء تنتهى إليه، وفى جنوب أسوان ولاية النوبة العظيمة ويسمونها باب النوبة.

ولاية النوبة

إنها أرض غنية ومعدن الزمرد فى جبالها، وتستخرج المعادن والزمرد منها ولذلك أهلها أثرياء منعمون وقد أمر حاكم جرجا باستخراج الزمرد، وأمر أن يصنع منه الكؤوس والأقداح وقبضات الخناجر ودبوس من قطعة واحدة، ولكثرة ما استخرج من الزمرد أصبح على بك عريض الثراء واسع الدنيا، وإن كان استخراج الزمرد يتكلف نفقات باهظة، وفى أرض أسوان أربعون نوعًا من المعادن ولكنهم لا يعرفون كيف يستخرجونها، وجنوب النوبه أرض خربة، وبالقرب من أسوان شاة تلد فى السنة ثلاث مرات، وفى كل مرة تلد حملين وهذا بسبب لطافة الجو: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

عجيبة

وفى شمال أسوان شجرة منقطعة النظير وهى قائمة منذ عهد بنى إسرائيل وهى تثمر صيفًا وشتاء ويسقط ورقها كل سبع سنوات ثم تورق من جديد، وتسمى شجرة الخط، وهى شجرة لها الشهرة فى بلاد أسنه وأسوان وسودان وفونجستان ونوبة ودومبية وعلوى وحبش ويحتضن جذعها عشرة رجال ولها أربعون فرع يحتضن كل شعبة منها خمسة رجال، إنها دوحة عظيمة عالية، يمكن أن تظلل أربعين ألفًا من الغنم واتفق ذات مرة أن أحد الزنادقة استظل بها فسقطت عليه ورقة خضراء منها فأخذها الزنديق، فأخذ العجب منه كل مأخذ من ذا الذى أنبت الورق على الشجرة فسقطت من الشجرة عليه ورقة أخرى بأمر الله، وقد كتب على هذه الورقة من أنبت الورق على الشجر هو الذى شق السمع والبصر فى وجه البشر، وفى التو نطق الزنديق بالشهادة ثم زفر زفرة وفاضت روحه وله قبر فى ظل هذه الشجرة ويسمى قبر الشيخ الزنديق، ويزور الشجرة الخواص والعوام والآن أوراقها مخضوضرة، وهى كذلك إلى ما شاء الله، ولكن لا وجود لكتابة على أوراقها، وهى فى الطريق من أسوان إلى النوبة فى مرج واسع الأرجاء وهى تبعد عن أسوان بربع ساعة.

وقدم السلطان قايتباى من مصر فأمر بترميم قبر الشيخ الزنديق وأنشأ صفة ومحرابًا له وكتب على عتبته تاريخ هذا الترميم.

وفى أسوان يستخرج أربعون معدنًا، علاوة على الملح والنطرون وشمع العسل والصابون، والصابون كلمة عربية، وتطلق على ما يصنع من الأعشاب والنباتات، ويوضع فى الأكياس، وإذا غسل به الثياب أصبحت بيضاء. إنهم يأكلون شمع العسل من شدة الحر، وإن النحل يصنع العسل وإذا ما نزل غيث الرحمة تسد خلايا النحل، وينمحى العسل بالمطر ويخرج شمع العسل ويجمع ليباع، إنه أكثر بياضًا من الكافور وله رائحة كرائحة العنبر ولهذا الشمع أربعون فائدة، وإنه ينفع فى ألم الوسط والصداع والمغص، وإذا تناوله أحد فإن شمع العسل يساعد فى هضم الطعام، ويصلح المعدة ويخلص من غازاتها، وهو مقو ويزيد فى قوة البصر ومن تناوله أربعين يومًا لم يَبْقَ فى جسمه أخلاط، ويتورد وجهه، ويصح بدنه وشمع أسوان كثير فى سوق الفحامين فى مصر تلك هى خواصه.

ومن العجائب

أن عمودًا يوجد على ربوة من الرمل فى شرق أسوان على مسيرة ربع ساعة شرقًا ويرتفع مائة ذراع، وعند قمته صورة إدريس - عليه السلام -، وكأنما يجلس حبشى على قمته وكأنه حى ويبتسم وهو يرفع أصبع الشهادة كأنما يشير إلى السماء، وقد ولد إدريس فى أسوان، وبعث فيها ثم عرج به إلى السماء منها، فدخل أمته الحزن وجعلوا يبكون ويتجولون فى ذهول وحيرة إن إبليس اللعين ظهر لهم فى صورة شيخ، وإنهم يبكون وينتحبون لفراق إدريس وفى التو أمرهم الشيطان بأن يرسموا صورة إدريس، وعلمهم أن يسجدوا وبذلك كفوا عن النواح والنحيب ومرة كل عام يأتى إلى هذا العمود جميع الخلائق ويسجدون عنده، وإن إبليس الشيطان اللعين يمثل تلك الصورة ومن هذه الصورة كان يُتَنَبَّأ لهم عما فى الغيب وكانت هذه حالهم إلى أن ظهر النبى ﷺ، ثم انتهى هذا الأمر، والآن يسمونه رمال الصنم، ويتجه القبط نحو الشرق، ويركعون عند هذه الصورة.

ومن العجب

أنه إذا ما دفن أحد فى هذه الربوة من الرمال أصبحت عظامه حجرًا بعد سبعة أيام، وهذا من عجيب صنع الله يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقلعة أسوان هذه على شاطئ النيل لها سور عظيم.

حائط العجوز الساحرة

كل حجر فى هذا الحائط حجمه من أربعين إلى خمسين ذراعًا، وكأنه سد الإسكندر، إنه من قطعة واحدة، وفى أسوان علاوة على هذا البناء فى خرائب أسوان آثارٌ لعمائر يحار عقل من يشاهدها وعليها كلام النبى ﷺ عن شهادة على ـ رضى الله عنه، وكرم الله وجهه ـ كما أن كلامًا لعلى فى الجفر.

وقد أخذت ذلك من مختصر كتاب مفتاح الجفر للشيخ العلامة كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة غفر الله له، وقد ذكر على ـ رضى الله عنه ـ: (أن أشراط قيام الساعة عند اقتراب آخر الزمان أن أسوان سوف تتخرب بعد أن عمرت من قبل) وهذا كلام على ـ رضى الله عنه ـ، ومن قوله أيضًا: (إذا عمرت أسوان من قطر مصر فى آخر الزمان بالياء ثم العين يظهر بمصر الخصيان، وتحكم النسوان، وتفسد عليه السلطان، وتكثر الغربان، ويختل نظام صاحب الديوان، وتقوى شوكة الجيم، وذلك إذا حصل القران فى برج الهوا، وبعثر ما فى القبور، وحُصِّل ما فى الصدور، وصار الأمر مأمور) وسبب هذه الإشارات ما نقل فى تاريخ ابن مهدويه أن عمرو بن العاص وهو عامل مصر عند فتوحها كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يبشره بفتح مصر وذكر له صفتها وعدة حصونها المشهورة، وأن من جملة حصونها بالوجه الجنوبى قلعة تسمى أسوان على قرب نيلها حصينة مانعة رأينا وجه الصواب فى هدمها حتى تنقطع أطماع الكفار منها فهدمناها حجرًا حجرًا فلما بلغ الكتاب إلى أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ فقرأه واستوفاه ثم قال حضرت عَلِىّ ـ رضى الله عنه ـ نعم بذلك أخبرنى رسول الله ﷺ وعندى خبر هذا وستعمر فى آخر الزمان عمارة حصينة على يد

ياء ونكَّرَهُ ثم عين، ولـم يصرح باسم أحد غير أنه ـ رضى الله عـنه ـ أشار إلى حرفين صديقين لا منافرة بينهما وهما اليـاء والعين فالياء حرف ترابى والعين حرف مائى، ومن المعلوم أن الماء والتراب صـديقان، وهما أعظم آلات العمارة، فإنه يفهـم من قوله بالياء ثم العين أن مراده تعريف اسم من يتولى أمر عمارتها صدق عَلَى الرَّضِيُّ السَخِىّ.

وفى أسوان كثير من رموز لكنوز، لأن أسوان بلد من سبعة بلاد على وجه الأرض، لقد شاهدت أسوان ولكـنى لم أجد فيها وقتًا لِرَاحَتى لأن فـى أرضها مئات الآلاف من كبار الأولياء والشهداء والصحابة الكرام الذيـن قدموا من مصر مع الفتح، ولهم قبور لا سبيل إلى حـصرها لكثرتها، وقـد قرأت سورة يس لأرواحهم الشريـفة، وشاهدت فى جنـوب أسوان علـى ضفـة النيـل ميدوء خيـط العـجوز ورأيت الـتماسـيح فـى جزر الشلالات، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى شلال المضيق.

أوصاف شلالات المضيق

إنه لشلال عظيم، وهو مشهور لدى الـعَرَب والعَجَم والروم، وقد سبق أن وصفناه، وهذا الشلال بـه صخور يَضرِبُ لونُـها إلى الشُّهبَـة. وفى هذه المحلة أعشـاش الصقور والنسور والغربان، وهناك جبل مهيب مخسوف، ويعبر التجار هذا المضيق ويذهبون إلى القرى، والصخور فى هذا المضيق متقاربة، وتلاطم مياه النيل يصم الآذان، ورشاش ماء النيل يجعل الجو ممطرًا ويصاب من على مـقربة منه بالبَلَلِ، وإذا حل الشتاء وغَاضَ ماء النيل ظهرت أحجـار كأنها قباب الحمامات، ويدفع الماء الإنسـان من صخرة إلى صخرة ويستطيع أن يعبر بين الضفتين، وفى سالـف الدَّهر حينما كان هذا المضيق مسدودًا، كان النيل يـنشعبُ إلى رافدين فـيجرى فى ترعة إلى إقلـيم الحبشة وفى الأخرى إلـى إقليم علوى واختلط ماؤه بماء البحر الأحمر بواسطة السواقى على الترعة التى تتجه إلى إقليم الحبشة وآثار ذلك اليوم باقية فى موضعها.

وبعد الطوفان أحاط سـيف بن ذى يزن بعلم الهندسة وشتى الـعلوم والفنون، وأنس برأى الكاهنين صفوايم ومحرايم؛ فشق فى الجبال شقًا، أما سبب جريان النيل إلى مصر الآن فهـو مردود إلى سـيف بن ذى الـيزن، وكان جريـان النيـل إلى مصـر سببًـا فى

عمرانهـا وخصوبـة أرضـها وأصبـحت الحبشة والمغرب صحراء، وقد اجتمع المؤرخون على القول بهذا، وقد رأيت أثر جريان النيل فى سالف الدهر حفرًا فى الأرض، وكانت منطقـة الشلال قديمًا معمـورة فكان فى أسوان حدائق وجـنات ألفافًا، وفيهـا كذلك أثر للعمائر.

وقد دعا موسى ـ عليـه السلام ـ الله على الفراعنة والكهنة والسَّحَرَة فى هذا المكان ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فتخربت عليهم مائتا بيت.

وثمة جامعان عظيمان قديمان بها، ولكنهما مع ذلك لا يخلوان من المصلين، وليـس لهـما بهاء سائر الجوامع، ومنهما جامع سيف بن ذى اليزن والآخر جامع عمر ـ رضى الله عنه ـ ولا وجود لسوق ولا خان ولا حمام، وخرير الـنيل هناك من الشدة بحيث لا يمكن السُّكنى إلـى جانبه كما أن الواحد لا يسمع كلام الآخـر، ولكى يمكن لإنسان أن يكلم آخـر كلامًا يسمعه فـينبغى أن يرفع صـوته مثل الچاووش، ويقـال إن سبب هذه الجلبة هو أن للنيـل رعدًا، وقد غادر السكان هذه المنطقة لأن رشاش النيـل يهبط عليهم كأنه الرزاز ويصيب ثيابهم بالبلل.

أوصاف قلعة أبواب

بناها ذو اليزن إنها رباط حصين مستدير على المضيق فى الجانب الشرقى من النيل فى أسوان، وفيها يسـكن قبائل القَرْح وفيها خمسـمائة بيت بعضها من الحصـير وبها جامع قديم، وليس للقلعة رئيس ولا جنود، وقديمًا عـلى الصخور التى أمام هذه القلعة كانت تحصى الرسوم من السفن الرائحة والغادية، وتلـك السفن كانت تقف أمام السلسلة التى بين القلعتين حتى تـدفع الرسوم المستحقة عليها، وغادَرْتُ قلعـة أبواب وانطلقتُ جنوبًا على ضفـة النيل، ومضيـت فى طريق كثير الأحـجار وسِرْتُ فيه ست سـاعات، حتى وصلنا:

قبائل كنوزين

نزلنا ضيوفًا فيها على الشيخ علىّ الواسطى، أما أصل تسمية هذه القبائل بهذا الاسم

فهو أنهم عثروا على كنزين فى أراضى أسوان الخربة، وقد قسموا الكنزين بالسويَّة عليهم، وجاءت قبيلة عربية من بَعْد على أثرهم وطلبت نصيبها إلا أنهم لم يعطوها من الكنزين شيئًا؛ فنشبت الحرب بينهم عبوسًا شعواء، إلا أن رجال القبيلة الذين طلبوا نصيبهم أعملت السيوف والرماح فيهم فسميت القبائل المنهزمة بقبائل القَرْح وسكنوا جزيرة الشلال وهم الآن على مذهب الإمام مالك، ويدَّعون أنهم من ذرية ابن ذى اليزن ولهم سبعة آلاف محارب، وفى أول ليلة لنا هناك ضَيَّفُونا وقدموا إلينا الذرة ولحم الإبل ولبن النوق فطعمنا وشربنا، وهذه القبائل تمضى إلى الحبشة فى الربيع، لأن منطقة الشلال جبلية متقاربة والزروع بها قليلة نادرة وهؤلاء القوم لديهم كثير من الأنعام فلذلك يمضون إلى الحبشة طلبًا للمرعى، ثم مضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة مِهْرِيَّه.

قبيلة مِهْرِيَّه

وحللنا ضيوفًا على الشيخ حامد مهرى، وبها ألف وخمسمائة فقير من سُمْرِ البشرة وثوبهم لا يعدو أن يكون ما يستر عورتهم، وهم على مذهب المهريه وهم ينكرون الحشر والنشر، ومضينا على ضفة النيل فى طرق ذات أحجار لا تتسع إلا لمرور رجل واحد وسِرنَا بينما يتبعنا الخدام، وقطعنا هذه الطرق سيرًا على الأقدام، وقد شق هذا الطريق بن ذى اليزن ولا طريق سواه وبعد ساعتين بلغنا قبائل كلافيش.

قبائل كلافيش

ومعنى كلافيش: الشىء القليل، وليس لهم خيام، إنهم جميعًا يسكنون الكهوف، وقد دلنا شيخهم على غار فمضينا بخيولنا إليه وانصرفت عنا شدة القيظ، إنه غار بارد النسيم، وفى هذه المنطقة الصخرية ثلاثة آلاف من العرب المتمردين، ولهم كثير من المعز وليس لديهم أنعام أخرى وطعامهم الذرة ولحم الجمل والتيش وهو كباب التماسيح والمعز، وهم يجامعون أنثى التمساح ويقولون إنهم حين يجامعون أنثى التمساح يتحلب ريقهم وأنهم قوم جبابرة أشداء من أكل لحم التمساح ويستخرجون من مرارة التمساح حجرًا، وإذا أمسكوا بهذا الحجر استطاع الواحد منهم أن يجامع زوجته أربعين أو خمسين مرة، وإذا كان هذا الحجر كذلك عند نسائهم فإنهن كذلك لا تهدأ شهوتهن،

وهذه البقعة لا وجود للـترع فيها ولذلك ليس لديهم إلا البرسيـم والتمر، وعندهم من نبات الذرة ما هو أحمـر اللون وهم قوم صيادون يمضون إلى جبال الحـبشة، ليصطادوا الفيلة، وليـجمعوا سن الفيل ووحيد القرن لـيأخذوا قرنه ليبيعوه، ذلك ومضـينا عنهم على ضفة النيل جنوبًا وشاهدنا جبالا شامخة وصخوراً ضخمةً وبعد عشر ساعات بلغنا عشاير أبو حور.

عشاير ابو حور

إنهم قـوم من العرب سـود البشرة وزنـوج وفقراء ولا يعـرفون دينًا ولا حـشرًا ولا نشرًا، وقد تجاوزنا هذه العشائر، ومضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة سنيال.

قبيلة سَنْيَال

لهذه القبيلة فى الصحراء متراخِية الأرجاء أَخْبِيَةٌ وخيام، وهم ألفا رجل من المسلمين ولأنهم من العرب فإن وجوه نسائهم مكشوفة ومـكثنا فى خيمة شيخ العرب عبد المجيد وقدموا إلـينا الأنفحة، ثـم ذبحوا لنا ثلاثـة خراف، وأكرمونا إكـرامًا عظيمًا، وأعـلفوا خيولنا الذرة البيضاء، ورأيـنا جنديًا مصريًا يلبس حمر السراويل فاطمـأنت قلوبنا لعلـه كان جنديًا مـن إبريم وقدم إلينا بعض رغفـان فأكلناها لأن ما كان لدينـا من خبز نفد فأكلنـا الزبد بـالخبـز فكأنـمـا ردت عـلينا روحنا، والنـيل فى هذه المحلة ينـقسم إلى مضايق، ثم دخلنا فى إقليم إبريم فى طريق حجرى ومضينا فيه سبع ساعات جنوبًا بين الصخور حتى وصلنا:

بلدة كُوشتَامينه

بها مائتا بيت من قـصب، وأهلها مطيعون منقادون، وبها زاوية ومقـهى وفيها قبيلة من عرب كنوز تسكن الخيام، ومضينا جنوبًا خمس ساعات فوصلنا:

بلدة كورت

وفيها ثمانية وسـبعون بيتًا من قصب وزاوية، وليس بها مقـاه ولا حانة للبوزه، وبها أيضـًا قبيلـة مـن عـرب كنـوز تسكن الخيام، وهذا الموضع هو حد عرب كنوز وهم لا يمضون إلى إبريم لأن النيل فى هذه المحلة على ضفـتيه مروج تزرع بها اللوبياء والبطيخ وبعد خمس ساعات بلغنا بلدة سبوع.

بلدة سَبُوع

نزلنا عن خيولنا لنشاهدها، وسقنا الخيول إلى الصحراء وتجولنا ساعة فيها لنشاهدها وعلى ضفة النيل آثار فيلة من الصخر، وأسود نحتت من الحجر إذا شاهدها الإنسان دخله الخوف الشديد ويظن أن هذه الأسود أسودًا حيّة، إنها تماثيل متقنة الصنع وعلى ضفة النيل كذلك جِمَالٌ من الحجر الأسود وتنانين لها سبعة رءوس منها المنكس وبعضها ما ساخ فى الرمال إنها تنانين عجيبة وثمة أصاجيب أخرى، ولكن ليس فى الإمكان ذكرها وربما تحارب موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون فى هذه المنطقة، وقد صنع سحرته من سحرهم هذه العجائب، وقد أوحى إلى موسى آية: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]، وألقى موسى عصاه المتعددة الرءوس فإذا هى حية تسعى فابتلعت الحية ما صنع السحرة والكهنة بسحرهم من أسود ونمور وتنانين؛ فهزم فرعون وتعلق بأذيال الفرار، ولعل ما رأينا من هذه التماثيل هى بقايا هذه الوحوش التى صنعها سحرة فرعون، وهى التى أصبحت من بعد حجرًا بأمر الله؛ ويسمون هذه البقعة (سَبُوع) لوجود الأسود بها وفى العربية مائة وثمانون اسم للأسد منها (سبُوع) وقد شاهدنا هذه البقعة وتجاوزناها ومضينا أربع ساعات جنوبًا، على شاطئ النيل واجتزنا الصحارى حتى وصلنا:

وادى العرب

اسم محلة واسعة، وهى سَهْلٌ ذو مروج، ويجتمع جميع العرب فيه مرة كل عام، وفيه يدوم البيع والشراء سبعة أيام وسبع ليال، ولذلك يسمى وادى العرب، وعبرنا أراضى خصبة فى الجنوب وبعد أربع ساعات بلغنا تخت أزرق جادو.

أوصاف مدينة تخت أزرق جادو

بناها فرعون أزرق جادو وبعده فتحها ذو النون ثم استولى عليها القبط ودامت فى حوزتهم مئات السنين، ثم فتحها الأسود بن مقداد قائد عمرو بن العاص، ثم استولى عليها أهل بربرستان وفونجستان، وفى عهد السلطان سليمان كان والى مصر الطواشى سليمان باشا فاتح الهند واليمن وأخذ ميناء ديوباد الهندى من البرتغاليين والفرنجة

وقدمها إلى ملك الهند، ومضى إلى الحبشة في أسطول وجعل على رأسه أوزدمر باشا وأمره أن يفتح الحبشة ومنها عاد إلى مصر، ومن مصر خرج أوزدمر باشا في جيش كموج البحر ففتح هذه المدينة، وقلعة إبريم، واستولى عليها ملك الفونجستان، وفى هذا العصر ظلت هذه المدينة فى حوزة آل عثمان، وهي تابعة لحكم جرجا وكاشف إبريم الآن مقيم بها، ولكنها كانت تحت حكومة أخرى عند فتحها تحكمها، وكان فيها منذ أربعين عامًا فى حكم جرجه ثلاثمائة جندى وخمسمائة جندى من الفرق السبع ويتبعها جميع القرى وهي التزام يدر مالا وغلالا، وكان يقوم بجمع المال والغلال ويقدمه لجنود القلعة والمستحفظين.

وهى قضاء يتحصل منه مائة وخمسون أقجة، وبها مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب أشراف، ولكن ليس بها أعيان، وعلى شاطئ النيل ألف ومائة بيت صغير، ولا وجود فيها لقصور وأعلى الأبنية بها بيت قائد الفرق السبع والچورباجى وشكرباره خاتون والمصاحب على أغا وبيوت للحراس هنا وهناك، وبها عشرون محرابًا تؤدى فيها صلاة الجمعة علاوة على الزوايا، وليس فى هذه المدينة خان ولا حمام ولا سوق للبز، ولكن فيها ست مكاتب للصبيان وسبعة سبل وخمسة عشر دكانًا وثلاث مقاه وستة حانات للبوزه، لأن جو هذه البلدة مناسب ففى شدة الحر تطرب البوزه الجسم كما تدفع الجوع والعطش لِشُرَّابها ويصنعون فيها بوزة الذرة كأنها ماء الورد ويشرب البوزه الكبار والصغار، ولكن أكثرهم ضيق النفس وهم سمر البشرة لأن الحر فيها شديد، ومأكولات ومشروبات هذه المدينة البوزه والذرة وماء النيل وشراب البلح وما سوى ذلك من مأكولات ومشروبات فيأتى إليها من جرجه، وكانت هذه المدينة مدينة عظيمة فى قديم الأيام، ولذلك فإن بها آثاراً تدل على عظمتها، وداخل وخارج هذه المدينة كثير من الضرائح، لأولياء مشهورين وقد زرنا ضريح الشيخ (هو) ولأن هذه المدينة تابعة لولاية أزرق جادو، فنساؤها يشتغلن بالسحر ويسحرن الرجل حماراً، وقد ابتُلى بهذا كثير من الرجال، وقد سحرن حتى أحد متفرقة الباشا فإذا هو بين الرجال فى المقاهى وحانات البوزه حمار، وقد مكثت فى قصر الكاشف يومين، ثم مضيت لمجىء كاشف أبريم، ومضيت جنوبًا هلى شاطئ النيل فسِرْتُ لمدة ساعتين وبلغت قلعة إبريم القديمة.

أوصاف قلعة ابريم القديمة

بناها المقوقس ملك القبط، وقد حاصرها وفتحها عمرو بن العاص وكعب الأحبار وأبو عبيدة بن الجراح وجابر الأنصارى وأبو هريرة وسارية الجبل وأسود بن مقداد وأمثالهم من الصحابة الكرام، إنها قلعة حصينة متينة وقد بناها شداد على ربوة مشرفة على النيل وهى صغيرة وحصينة وخماسية الشكل ومحيطها ثمانمائة خطوة، ولها باب واحد مفتوح على الجهة الشرقية، وفى داخلها ثمانون بيتًا صغيراً وكبيراً، وفى وسطها جامع قديم الطرز ذو منارة، إنها لسليمان خان، لأن فى عهد سليمان تم الاتفاق مع البربر والفونج على حيلة للاستيلاء على هذه القلعة، ودخلت فى حوزته ومن بعد صار الطواشى سليمان باشا واليًا على مصر؛ فجعل أوزدمر باشا قائداً له، ففتح القلعة قهراً فى عشرة أيام، وقطع رءوس من فيها من البربر والفونج فأصبح لونهم أسود، وفى هذه القلعة أقيم جامع سليمان خان، وليس فيها سوق ولا حمّام ولا خان، ولكن للقلعة رئيس ومائة جندى وفرقة موسيقية ورئيس القلعة طبق قانون سليمان لا بد أن يكون من طائفة المتفرقة، ويأتى من مصر فى كل عام ثلاثمائة جندى كما يأتى إلى الكاشف ثلاثمائة مستحفظًا، وهم يحصلون على مال الدولة والغلال ولهم أقلام وأفراد ويأخذون علوفة قدرها أربعون كيسًا سنويًا من حاكم جرجه إنهم قوم شجعان، إنهم يتحاربون ليل نهار كما يحاربون مجرمى فونجستان، ومخزن الأسلحة فى القلعة مخزن عظيم ولهم أربعون مدفع وليس للقلعة خندق لأنها قائمة على أرض صخرية إن جوها لطيف، ولكن فى جنوب هذه المحلة تحرق شدة الحر بيوتًا للفقراء من القصب والحصير، ولكن بحمد الله أن شدة الحر لا تؤثر على الإنسان، ويجب التحرز من البرد فى وقت السحر، وعلى الرغم من أن جميع الناس يأكلون من خبز الذرة إلا أنه فى هذه الديار ينفعهم كثيراً، ويقيهم من مرض يصيبهم بالإسهال ثم الموت، وليس فى هذه الديار طاعون، وأكل خبز الذرة يشفى من الإسهال، وأعيانهم يلبسون قميصًا عليه شال أما متوسطو الحال فيلفون حول وسطهم مئزراً، وعليه مئزر آخر، أما الفقراء فيلفون حول وسطهم فوطة زرقاء ويمضون عراة أما نساؤهم فيأتزرن بإزار أبيض وأسود وعلى

رءوسهن خمار أسود وليس فى تلك الديار جميل ولا جميلة لأن بشرة أهلها شديدة السمرة والبعوض كثير إلى حد أنه يقلق راحة النوام ليلا، ولذلك ينامون فى شال رقيق اللهم عافنا، وإذا ما تجاوز أحد حدود ممتلكات الدولة العثمانية استوجب القتل أو نفى إلى إبريم، وصيف هذه المدينة معتدل ولشدة القيظ ينفون إليها المجرمين.

وأبريم تقع فى نهاية حدود ممتلكات الدولة العثمانية، وفى الجانب الشمالى من تلك الحدود قلعة أزاق، أما فى الجهة الشرقية فنهاية حد تلك الممتلكات العراق أما فى الجهة الغربية فحدودها مدينة بلغراد.

وثمة قلعة تسمى:

قلعة جاوغه

ولكنها فى ولاية لطيفة جوها كأنها حديقة إرم فليس فى أبريم حدائق ولا خلائق، ولكن فيها جبالا سوداً، وإن وجد فى هذه الولاية حدائق يكثر فيها الشمام والبطيخ، وكل كيلة من الذرة فيها تنبت مائة وخمسين كيلة، ولذلك لا يزرعون إلا الغلال، إنهم يزرعون الذرة البيضاء وحيواناتهم تعتلف الذرة، وهذه البلدة تقع فى نهاية الإقليم الأول، إنه على حد قول بطليموس على عشرين درجة وسبع وعشرين دقيقة ويطول النهار فيه ثلاث عشرة ساعة وثلاثين دقيقة أما طول الإقليم الثانى من الشرق إلى الغرب على حد قول الجغرافيين فهو ألفان وأربعمائة فرسخ، وعرضه مائة وستة وثلاثون فرسخًا وفى هذا الإقليم سبعة جبال عظام، وهى مقاليد الأرض كما أن فيه ست وثلاثين صحراء لا يسكنها إلا قلة من الناس، وأرضها ممتلئة بالحشرات، وفيها ألفا مدينة، خمسون منها مدنًا عظيمة، وفى جانبها الشرقى أولاً بلاد الهند والسند ومنصورة وهيزة وكندة وجزيرة العرب، ونجد وتهامة ويثرب والحجاز وديار فلزمك، وفى الجانب المقابل من بحر القلزم الحبشة وزيلع وسواكن وفى أرض بربرستان قلعة إبريم ومدينتها ومدينة دونقلا تخت بربره، وبها تنتهى الأرض الأفريقية والمصرية والبقلية ومقابل المغرب كفار البرتغال وهم على شاطئ البحر المحيط، وقد طوفت بكل هذه البلاد قدماء الحكماء طيلة عمرهم واستخدموا علم الإسطرلاب وعرفوا نعم الله وألفوا كتبهم وهى

أطلس، ومينور، وجوغرافية وباريه وقولونيه وكتبوا عن أشكال الدنيا وقد طوفت أنا كذلك فى البلاد والقرى التى فى الممالك المحروسة ووصفت قراها وقصبلتها ومدنها العظيمة وجبالها وأنهارها ومنازلها شمالا وجنوبًا ولم أذكر إلا ما تمس الحاجة لذكره ونقلت المقال إلى الحال، وذكرت أوصافها وأشكالها ونسجت على منوال أستاذنا نَقَّاش حِكَمِى زاده على بك ولم يتيسر لنا زيارة بلاد الفونجستان بعد فما استطعنا الوصف عنها وأقاليم إبريم هذه تميل سبع درجات عن جهة الشمال.

وقد مكثنا فى قصر الكاشف أيامًا ثلاثة، وشاهدنا القلعة والمدينة ومن أجل السفر إلى فونجستان تزودنا بالزاد والنوق وخمسة عشر جوادًا يحملون الشعير وسائر ما هو لازم للسفر، وقد تبادل الكاشف ورئيس القلعة والقائد والأعيان رسائل المودة مع ملك فونجستان وأمراءها وفى هذه المحلة تجار فونجستان وكانوا فى رفقتنا، وركبوا ثلاثمائة حمار، ومن جند القلعة سايرنا كذلك سبعون جنديًا يحملون البنادق، والحق بنا الكاشف أربعين رجلاً، وجملين وهجينًا وفرسًا، وودعنا جميع أحبابنا فى إبريم، وخرجنا من إبريم قاصدين فونجستان مشاة وركبانًا، وبعضنا يركب الجمال والبعض يركب الخيل والبعض الثالث يركب الحمير، وكان معنا من إبريم ثمانمائة رجل يحملون السلاح.

* * *

الفصل الحادى والسبعون

بعد توديع ولاية إبريم توكلنا على الله فتوجهنا صوب فونجستان

بيان بمنازل وقلاع وبلاد وقصبات فونجستان

مضينا على شاطئ النيل فى أول الأمر ولكن النيل فى هذه المحلة يمضى متعرجًا، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة وادى حلفه، وقد أقمنا خيامًا هناك مع ثمانمائة رجل، وكنا ضيوفًا تلك الليلة فى هذا الوادى إن وادي حلفه سهل معشوشب، وعلى شاطئ النيل فى ظل شجرة جلست أنعم بالراحة، وعلى ضفتى النيل فيها صخر أملس، ومنها رأينا شلالات لا تمكن السفن من العبور، ثم رأينا فى يوم آخر سفنًا كبيرة وهى تجرى، وغادرنا وادى حلفا هذا وعلى شاطئ النيل فى الشرق والغرب جبال وأدغال وأحراش مخوفة، فطوينا مراحل فى أرض كثيرة الأشجار وكثيرة الوحوش، وقضينا فى ذلك ثمانى عشرة ساعة، ولم نشاهد الشمس ستة أيام، لأننا كنا فى غابة أشجارها مثمرة وبها أشجار متقاربة من السنديان والسنط فهذه الأشجار حجبت عنا الشَّمْسَ ولكن ليس فيها أثر لأشجار بلاد الروم، وفى اليوم السابع بلغنا قلعة صاى.

اوصاف قلعة صاى

هى آخر حدود ممالك آل عثمان، وبناها أبرهة فى جزيرة واسعة بنهر النيل، وقد توارثها ملوكٌ بعد ملوك، وقد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٢هـ بقيادة الأسود بن مقداد، ثم استولى عليها الفونج وفى عام ٩٣٥ وفى عهد سليمان فتحها أوزدمر بك، وهى قلعة حدود بناءً على معاهدة أبرمت مع الفونج، وقد وفا ملك فونجستان بعهده إلى يومنا هذا فما استولى عليها مخالفًا لما تم الاتّفاق عليه، وبما أنها واقعة على نهاية الحدود فإن المتمردين من فونجستان وبربرستان لا يكفوا عن مناوشياتهم. وفى هذه البقعة يبدو النيل كأنه بحيرة واسعة، وهى تبدو حصنًا حصينًا من الحجر الأسود مربع الشكل بناه شداد، وفى البداية بعد طوفان نوح بناها الملك صاى بن مصرايم بن نقراوش وعمرها من بعده كثير من الملوك وبها الآن بابٌ من الحديد يطل على النيل، وقد أحضر أوزدمر باشا

هذا الباب من بـلاد الحبشة، وعلى عتبـة هذا الباب صورة على الحجـر الأسود لأبرهة، وكأنه حى ولما دخلت هذه القلعة حُيِّيتُ بإطلاق طلقة من مدفع، وقد رددت الجبال دوى طلقة ذلك المدفع التى حُيِّيتُ بها، ومضوا بـى إلى رئيس القلعة فجلست معه ولله أحمد أنى رأيت رجلاً رومـيًا، وقال إن أعيان الولاية أكـرموك، وبعد ذلك قدمـت إلى رئيس القلعـة وقائد الفرق المصرية الـسبع كما قدمت إلـى أعيان القلعة رسائـل كاشف إبريم، ورسائل حاكم جـرجا، وفرمانات الباشا فزادونى تـعظيمًا إلى تعظيم، ثـم تجولت سيراً على الأقدام لأشاهد الـقلعة والمدينة، ورئيس هذه الـقلعة هو من متفرقة مـصر.وله مائة وخمسون جنديًا وثلاثمائة مستحفظ من فـرق مصر السبع وفرقة موسيقية، وفى كل عام تأتى مؤنتـهم ورواتبهم من جرجه، ولهـم بارود أسود ومدافع، وليس فى القـلعة شيخ إسلام ولا نقيب للأشراف، ولها قضاء يدر ستمائة أقجة. وبعض المحلات ألحقت بقضاء إبريم، ويأتى نائب فى سفـينة تحمل المؤن كل خمسة أشهر، وفى القلعـة خمسمائة بيت صغير من القصب والحصير، كما أن بها جامع السلطان سليمان خان، ومسجد أوزدمر، وليس بها خان ولا حـمام ولا مدارس ولا زوايا ولا مكاتب للصبيان ولا سـبيل، وفيها عشرة دكاكين وبها ثلاث مقاه وثمانى حانات للبوزه، ولكن فيها بوزه مصفاة نقية وخارج القلعة مائة وخمسون بيتًا من حصير ليس فيها حـدائق، ولكـن فيهـا كثير مـن البساتين، وفيها لذيـذ مـن الشمـام والبطيخ والخيار وعبد اللاوى وفيها نخيل هنا وهناك، وفى هذه الولاية تنشعب من النيل ترع وفى الصحراء يـقيم عرب حلفا وهم يزرعون الذرة والكيلة تنبت عندهم مائتى كيلة وتربتها خصبة، وعرب حلفا هؤلاء قوم قبيحة وجوههم عابسون لا مذهب لهم وفـى بعض الجهات يعلنون عصـيانهم وتمردهم، ويحاربون عـسكر قلعة صاى.

وفى كل المواقع صحراء فيها الأسد والنمر والـفيل ووحيد القرن والغزال وتيس الجبل والعقـاب والثعبان وأنواع الحُـمُرِ، إنها مفعـمة بالوحوش المخـيفة حتى إنه يـوجد داخل القلعة ثلاثة أسود وكل منها كان أسداً أسود له جثة الفيل، وأنا لم أشاهد السباع، وأثناء انحسار ماء النيل يـعبره العَرَبُ بالجمال، إلا أن ما فى جوانب القلـعة الأربعة عميق ولا

يمكن عبوره على الأقدام، إن جو هذه البلدة جميل صيفها وشتاؤها معتدلان، وإذا ما نام الإنسان ليلاً وجد العمر الطويل لأن ريح النسيم لا تأتى إلى هذه البلدة حتى أرض حاساتكه ومدينة بلبيس والعريش ومنها لا يهب نسيم الصبا ولكن تهب ريح تياب وملسي. ولكن لا يؤثر فى هذه القلعة ريح النسيم، وللنباتات والرياحين ريح طيبة تفوح وترد على متنسمها روحه، كان فيها الفتيات والفتيان متميزين بروعة الجمال، وإذا ما وقعت عليهما عين إنسان سَرَتِ الرَّجْفَةُ فى جسده، ولطيب هواء هذه البلدة لا يصدأ فيها الحديد وساحرات صحاريها لهن شهرة تطبق الآفاق، وكم من غريب رومى سحرنه، والساحرات فى إبريم أقل منهن فى بلدة أزرق جادو اللهم عافنا إنهن فى هذه المدينة يسحرن الرجال حميراً وكلابًا ويطيرن الجرار والأوانى فى الهواء وحاكم قلعة صاى تحت حكم فونجستان وليس فيها غلمان من الروم إلا ما يجلبه النخاسون، وودعنا المستحفظون الباقون فى القلعة ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيوخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع ولا تأمنون عادية اللصوص من الزنوج، وبسطوا إلينا الرجاء ألا نمضى فقلت إن الخوف لا يدخلنى مطلقًا، لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقد حفظت منذ أربعين عامًا وقد ختمت القرآن الكريم فى كل يوم جمعة منذ فجر شبابى، وبذلك كنت أختمه فى كل عام ثمانية وأربعون مرة، وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع وأنا لا أنثنى عن عزمى، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا وأنت لا تحمل هدية فأنا لا أرد جوابًا، وماذا أصنع بالهدايا التى للملك فونجستان وفى الموضع الذى يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتى الحاجة، ودَعَوتُ الله أن ييسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك فأحمد الله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبنى رفيقًا لأرحل، وألححت فى الدعاء فقالوا لى لا تنسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة فقالوا لى على الملأ: إذا دخلت القلعة فإن جنودها من الروم سوف يقتلونك، ونحن لن نعطيك رسالة ولا رفاقًا البتة، وقرروا أن ذهابى لغير إياب، فدخلنى من ذلك خوف شديد، وتصورت ما سوف

ينزل بي من شدائد وبلاء ولكن لا بد من الذهاب فحملت خمسين هجينًا بالمتاع ومعي اثنين من حاملي البنادق الشجعان، وحملت أربعة جمال بالمؤن وهبنى أعيان القلعة ذلك كله، وقد أوصى شيخ النخاسين في بربرستان وتجار الفونج على، وأنى من طرف الباشا أغا وإذا ما أصابنى سوء فسوف يكون ذلك وخيم العاقبة كما أنهم حذرونى من أن أثق فيهم وحذرونى من الغفلة حتى في وقت أداء الصلاة فلا بد أن يكون حولي جنودٌ للحراسة وأن يحملوا السلاح ليل نهار.

جاء في جميع التواريخ العربية وتواريخ الصابئة أن مدينة صاى مدينة تقع في حدود أسوان وبعد الطوفان أنشأها كاهن يسمى رَهْوَان هندى وآثار أبنيتها ما زالت ماثلة للعيان، وهذه الآثار تثير دهشة مشاهدها وكأنها ليست من عمل البشر، وفي هذه المدينة مرآة صنعت من عدة معادن فمن قصد هذه المدينة من الأعداء أحرقتهم، ومن أجل ذلك لم يغر على هذه المدينة أعداء بغاة طغاة.

مدح حديقة إرم رَهوان الهندى

وبالقرب من هذه المدينة بجزيرة في النيل حديقة تسمى حديقة رَهْوَان هندى، وكأنها جنة رضوان وقد نبت نباتها دون زرع، وبه أشجار غريبة وثمار عجيبة وأطيار تغرد وفي السحر ترفع كل الطيور أصواتها الحزينة فيدخل السرور قلب الإنسان، كما أن فيها حيوانات أليفة لا يعلم عددها إلا الله، فيا عجبًا لهذه الحكمة، وكانت تابعة لأربعة حكماء اثنان منهم من ولاية بربرستان والآخران من ولاية الحبشة وبها أربعة ترع اثنان ماؤهما له مذاق التمر الهندى وماؤهما مفيد ومسهل للهضم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. وفي طرف مدينة صاى أحجار صفراء اللون مستديرة في الجبال ويسمون الحجر منها عين الصنم وهي أحجار مصقولة مجلوة ويقولون إنها عيون أصنام رَهْوَان الهندى. والعرب يضعون هذه الأحجار في الماء ويشربونه وفي طرفة العين يسكرون وهؤلاء هم قوم كنوز، ولكن على حد قول أهل هذه الديار فإن حجر عين الصنم موجود في جبال مدينة تنيس في الحبشة والبرتغاليون يشوبونه بالماء فيصير شرابًا خاصًا لهم ويقدمونه هدايا في ولاياتهم، إن شراب الذرة لا يتخمر ولكنه مسكر، وقد

خرجنا من قلعة صاى فى رفقة من أحد عشر رجلاً من الفونج والبربر ورافقنا أهل القلعة ساعتين، ثم ودعناهم وقد حذرونا من مرض يصيبنا هناك ثم عادوا إلى القلعة، ومضينا فى صحراء على شاطئ النيل، فى طريق مستقيم مع الجند وعبرنا بقاعًا لا ماء فيها حتى وصلنا ماغرات:

أوصاف ولاية فونجستان وقلعة ماغرات زاغستان

إن هذه القلعة تحت حكم حسين خان ويسمونه فى هذه الديار الوزير وقد فتح هذه القلعة أوزدمر بك على عهد الطواشى سليمان باشا والى مصر، ثم استولى عليها أهل الفونج بعد أربعين يومًا وما زالت إلى اليوم فى حوزتهم، وحسين بك من عرب كلابش، ومن أتباعه سبعة عشر ألفًا من المحاربين وهم يسكنون خارج هذه القلعة وتحت حكمه سبعة عشر قلعة ويسمى حاكم فونجستان دلكير، وهو يتبع وزير مصر، ولكنها الآن تابعة لمن يسمى برار بك ويحكم تلك المدينة الآن من قبل حسين بك عطاء الله خان، ولدى حسين بك خان رسائل من قبلنا، وقد قدمنا إليه من طرف حاكم إبريم وصاى هذه الرسائل التى من أعيان إبريم وأعيان قلعة صاى وقد قبلها ووضعها على رأسه، وأرسلنا إلى خان القلعة، وأهدى إلينا سِنَّيْنِ من سن الفيل، وقدم معنا من قلعة صاى مائتان مِنْ مَنْ يركبون الجمال فسلمناهم سن الفيل، وقد عاد هؤلاء إلى القلعة بما يحملون.

وقلعة ماغرات قلعة صغيرة مربعة الشكل تقع على الشاطئ الشرقى للنيل، وفيها أربعون أو خمسون بيتًا من حصير، ولهذه القلعة بابٌ من خشبٍ ينفتح على الجنوب وليس فيها سوق، وفيها سبع أو ثمانى حانات للبوزة، وجامع صغير المئذنة، وقد أدينا صلاة الجمعة فيه، وقد ذكروا فى الخطبة اسم ملك الفونج، وأهل الفونج مسلمون على مذهب مالك وأرسل الحاكم فى الصباح إلى مائة رفيق مسلحين بالحراب ويركبون الجمال، وكثير من خبز الذرة، والخراف المطهوة، وبطيخًا، وتمرًا، ومضينا على شاطئ النيل فى غابات أشجارها السنديان والأبنوس وهى أرض جبلية كثيرة الأحجار حتى تناره:

أوصاف قلعة تِنارَه

وهى تحت حكــم حسين بك حاكم الفونج، ولـها قضاة من الزنوج، وكانـت مدينة عظيمة فى سالف الزمان، وقد تركنا جميع رفقـائنا عند جزيرة قريبة من الشاطئ الغربى للنيل وهم الذيـن كانوا على الضفة الشرقية للنـيل فعبرنا إلى القلعة فى سفـينة، وبلغنا حاكمها وهو رجل صالح أسمر الوجه واسمه صـالح كذلك، وسلمنا إليه رسالة رئيس قلعة صاى فسر لذلك وأرسل لنا المؤنة وكذلك العلف لخيولنا، وفيها قلعة حصينة قائمة على الصخـور بناها شداد وهى قريبـة من الشاطئ الغربى لـلنيل، وتقدمنا فـى سيرنا، وبدت القلعـة كأنها جزيرة على الـصخور، ولها باب ينفـتح على الجهة الشرقـية وعليه صورة أسد وحـاكم القلـعة له ثمـانمائة من الـرجال المحاربين، أمـا رعاياه فأربـعون أو خمسون ألـف من العرب سود الشـعر، وهم جميعًا مـسلمون من أهل الـتقوى يؤدون الصلاة ومذهـبهم هو المذهب المالـكى، وثمة جامعان ومـحكمة ومقهى وسـبع حانات للبوزه، وهم لشدة الحـر عراة ومنهم من يلفون فوطة حول خـصورهم أو يضعون إزاراً على ظهورهم، ويلبس حـاكمهم قميصًا أبيض البطانة وفى هذه المديـنة يكثر من الفيل وقرن وحيـد القرن ويصيـدهم الصيادون، وفـى الجانب الشـرقى من النيـل زنوج سود يأكلون لحم الجمال ويشربون لبن النوق، وبعد مرور تسع ساعات بلغنا قلعة سه سه.

أوصاف قلعة سَه سَه

هى قلعة حصينة تـقع على الشاطئ الغربى للنيل، ومكث رفـقائى فى هذا الشاطئ وعبرت النيل فى قارب ووصلت إلى الحاكم وهو أسمر البشرة يسمى حسين بك وقدمت إليه الرسـائل، وقد عظمنا وكرمـنا، وهذه القلعة قائـمة على الصخور وقد بـناها شداد وبداخلها مـائة بيت من قصب، وليس فيـها مدافع ولكن فيها مجـانيق وقد رجوت أن يسمح لى بمشاهدة هذه المجانيق، إنها تقذف أحجاراً يزن الواحد منها ثلاثة قناطير فيطير فى الهواء كأنه النسـر، ولقد أطلق منجانيق حجراً فسقط الحجـر المقذوف فى بستان فى المدينة، وارتفع ثانية فبلغ الجانب الآخر للنيل، ولهذه القلعة قاعدتان عظيمتان، وعليهما نخلتان شامختان وقد علقوا فيها أربعـة حبال من جلد الفيل، وفى أعياد الروم يصنعون

الأراجيح للصبيان على هذه الحبال، وبهذه الحجارة فى تلك الحبال يهلك الأعداء، وقد وضعوا على أعمدة المجانيق كثيراً من الحبال وهم يدفعون الحجارة المعلقة فى الحبال فتصدم العدو صدمة عنيفة يكون بها من الهالكين، وفى خارج القلعة أشجار الدوم ويحملون المجانيق على ظهور الجمال إذا خرجوا محاربين وهذا يعدّ مشهداً عجباً، وفضلاً عن ذلك لهم أسلحة أخرى هى السهم والقوس والسيف والمقلاع والمزراق والحربة متعددة الأسنة، كما يستخدمون التروس من جلد الفيل ولهم خيول قصار وفيلة، ولكن جمالهم كثيرة والرجلان أو الثلاثة يركبان المدفع، وليس لهم بنادق، ويتبع هذه القلعة أربعون أو خمسون ألفًا من الزنوج سود الوجوه والشعور، والرجال عرايا أما النساء فمستورات، ولكنهم يواظبون على أداء الصلوات فى أوقاتها ولهم جامعان وسبع زوايا وستة مقاه وستة حانات للبوزه، ولا أثر فيها للأسواق ولكنهم يقيمون سوقًا عظيمة خارج القلعة فى كل أسبوع، وهذه القلعة قريبة من الحبشة وشرق القلعة أرض جرداء يغمرها ماء النيل وبذلك تبدو فى الماء جُزُر وجزر، كما تبدو فيها قلاع وكلها تحت حكم كور حسين خان ولهذه القلعة من العرب خمسمائة وخمسون جنديًا مسلحين بالحراب وتجاه النيل فى الضفة الأخرى قلعة مستديرة الشكل هى قلعة نازنارنته.

أوصاف قلعة نازنارنته

إنها قلعة منيرة مستديرة فى جزيرة فى النيل بناها شداد وهى كذلك فى حكم حسين خان وهو يملك خمسمائة جندى، وقد تجاوزنا هذه القلعة ومضينا على شاطئ النيل خمس ساعات وتجاوزنا خط الأستواء وسِرنًا فى أرض شديدة الحر ولا وجود فيها للأشجار ومضينا بمقدار سبع درجات.

أوصاف معدية خفير الصغيرة

إنها حصن صغير فى غرب النيل والسفن التى تعبر إليها تدفع رسومًا وفيها مدافع وعندما تنحسر مياه فيضان النيل يمضى العرب إلى جزيرة سه سه على الجِمال ثم يمضون منها إلى قلعة المعدية، ولم نَمْضِ إليها ولكن مضينا على شاطئ النيل واجتزنا بأكواخ من القصب، ومضينا فى الطريق ثمانى ساعات وبلغنا قلعة حفير.

بيان قلعة حفير العاصمة الكبيرة

وأرسلنا طليعة رجالنا إلى رئيسها الخان دائم الدين فخرج إلينا واستقبلنا بألف فارس ثم عبرنا بمائة سفينة إلى الجانب المقابل من الشرق إلى الغرب، فقصفت القلعة بالمدافع، ومكثنا فى قصر صاحب القلعة كور حسين بك، وفى الجانب الغربى من هذه القلعة بناء مثلث الشكل وهذه القلعة منيعة، إنها مقر كور حسين بك، ويقولون إن أول من بناها هو عنترة فعلى بابها المفتوح على النيل صورة زنجى على ظهر فيل ويقول أهل البلدة إنها صورة عنترة، إنها صورة صنعت قديمًا وداخل القلعة بيوت صغيرة وكبيرة من القصب وفيها عشرون محرابًا، وأهلها جميعًا من المسلمين المتقين على المذهب الشافعى، وفى سوقها جامع الملك سيف الدين خاقان، وجامع الملك حارث خاقان وجامع الملك تبع خاقان وجامع حسين بك الذى بُنى حديثًا، إنها جوامع صغيرة، ومنائرها قصار وليست مزخرفة، ويذكر فى الخطبة اسم الملك الخاقان ثم اسم خادم الحرمين ثم قيصر محمد، وفيها خمسون زاوية ومبرة، ووكالتان صغيرتان وستة مكاتب، وعشرون سبيلاً وحمام صغير، ومائة دكان وعشرة مقاه، وعشرون حانة للبوزه، وكل الدكاكين مفتوحة ليلاً ونهارًا، وفيها الأمن والأمان، ولهذه القلعة سبعمائة جندى وخمسون ألف بربرى وأهلها يشتغلون بالزراعة، وقد رأينا فى هذه المدينة خبز القمح، ويوزع علينا الحاكم دائم الدين خان فى كل شهر مائتى رغيف وخروفًا وسمنًا وجرّة من العسل ولحمًا وشعيرًا وأكثر محاصيلها هو الذرة والتمر وفى بساتينها يكثر البطيخ والشمام ولهم خيول صغار الحجم، وقطعان الإبل فى صحاريها لا تقع تحت حصر وغنمها وعنزاتها وعجولها كذلك كثيرة لا تحصى وكان فى القلعة فيل صغير وكان أليفًا للغاية يلاعب كل أحد.

وصف حفير

وخارج المدينة فى المقبرة ضريح القطب الشيخ ناصر الدين ابن الشيخ نصرت وقد زرنا ضريحه، ولاعتدال جو هذه المدينة تكثر فيها الحلنلق والنخيل، ولكن ليس فيها جميز ولا نبق، وهذه المدينة تقع على بعد ميل شمالى خط الاستواء وترتفع عن مصر بمقدار ربع دائرة، ولشدة الحر فيها رجالها ونساؤها سود البشرة، وثيابهم فوطة وأعيانهم

يلبسون شال إحرام ورءوسهم عارية وقد مكثنا فى هذه المدينة ثلاثة أيام، واستراحت خيولنا وجمالنا وقدم سبعة من النجباء على الجمال ومضوا إلى المحكمة ثم لحق بهم القائمقام دائم الدين وتليت رسائل النجباء فمضى بأمر كور حسين بك إلى ملك الفونج المتمرد مائة ألف جندى وخمسين منجنيقًا وأربعين ألف جمل مع أسلحتهم وأحمال سبعين فيل من الخيام، ولأن هذا لم يكن كافيًا كتب إلى أعيان المدينة يطلب المزيد من الذخيرة ففى خلال يومين جمع ذخيرة مقدارها ثلاثة آلاف جمل وثلاثة آلاف جندى وقد صعدت بنفسى إلى قلعة حفير.

وصف قلعة قاندى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل بناها وزراء ملك الفونجستان لذلك سميت قان، ولها ثلاثمائة حمل جمل من الذخيرة وثلاثة آلاف جندى فاختلطوا بعسكرنا وفى الصباح بعد أن مضينا سبع ساعات بلغنا قلعة ناورى.

وصف قلعة ناورى

إنها قلعة على الضفة الشرقية للنيل أقامها حسين بك وهى فى حكمه، وهى فى شكل مستطيل، ومساحتها ألف خطوة، ولها باب ينفتح على الجهة الشرقية ولكن أسوارها منخفضة وبها ثلاثة جوامع وست منائر قصيرة، وأسواقها صغيرة وبها حمام صغير، وداخل القلعة مائة بيت من القصب، وألف عسكرى وأربعون ألف من الأهالى وقد وزع قائم المقام كمال الدين بك على جندنا ألف حمل جمل من الطعام وستة آلاف جندى. ومضينا فى تلك الليلة عشر ساعات على شاطئ النيل وفى الصباح بلغنا قلعة سندى.

وصف قلعة سندى الحصن المتين

إنها فى شرق النيل على شكل مثلث وهى قلعة حصينة، وفى القلعة سبعمائة بيت من قصب وسبعة جوامع، وأما غير ذلك من المبانى فَخَرِبة، وكل أهلها مسلمون متفقون على المذهب الشافعى، وبها تتم حدود حسين بك، وهى فى حكم دفتر دار ملك الفونج، وثمة سوق ومحاريب وفى السوق سن الفيل وقرن وحيد القرن وجلد الضب

وشجر الأبنوس كأنها جبال مغمورة بالرمال، وهى موجودة ولكن لا قيمة لها، وحاكم هذه القلعة على بك، وقد انطلق فى الطريق ومعه مؤنة يحملها ألف فيل والفان من الجند أما العظمة لله، أصبحنا عددًا كبيرًا وكان الجند من الزنوج يملأون الصحراء والسهل وقد سألنى الحاكم عما إذا كان قيصر الروم لديه هذا العدد من الجند فأجبته ليس لنا من الجمال ولا هذا العدد من الجند العراة ولكن لآل عثمان مدافع كالبحر ولهم عسكر يحملون البنادق وما تسميهم العسكر عراة أكبادهم محترقة يتناولون كسرة من الخبز، وإنهم يمشون كأنهم قطعان من الحمير السود وإنهم غاية فى النحول والضعف، إلى حد أن عظامهم تبدو من جلودهم، ولكن حركتهم خفيفة، وجيرانهم لا يأمنونهم وبلغنا صحراء دانقة.

منزل صحراء دانقه

إنها صحراء مترامية الأطراف وفيها كثير من النباتات، وقد مكثنا فيها وأقاموا خيامهم فيها، وفى وقت العصر ظهرت لنا آلاف من الأعلام فى الغرب واقتربوا من عسكرنا ببطء، ولعلهم من بربرستان ومذهبهم هو المذهب الشافعى، وقد مضى منهم أربعون ألف جندى مع مائة ألف جمل ليكونوا مددًا لحسين خان وبدأوا فى السير من الصباح حتى الليل، وقد مكث عسكرنا عند بحيرة وامتطينا صهوات جيادنا التى قدمها لنا صاحب القلعة، كما استقبلنى ملك البربرستان، وقد أكرمنا الملك بأن أتحفنا بشال أسود، وخمس عشرة وسادة من الجلد وسجاجيد سود ولما استقبلناه وقف وعظمناه فقدموا إلينا لحوم الإبل والتمر وخبز الذرة، وأمام خيمته أحرق النِّفْتَ والقطران، وبعد الطعام لم يغسل يديه إنه رجل مكشوف الرأس وشعره عقائص وله خدام سمر البشرة سبحان الخلاق ثم أحضروا لنا حلوى التمر والشراب وقد شربنا الشراب فى كاسات من الخشب، وقد عظمناه برفع أيدينا وبينما كنا نشرب سألنا عن أحوالنا، فقلنا إننا قد أتينا من قبل وزير مصر إلى ملك فونجستان، فقال لا يأتى من قبل وزير مصر إلى فونجستان، رجل أبيض البشرة، فقلنا لنصل إلى ملك فونجستان، وعدنا إلى خيامنا، وفى السحر قرعت الطبول ونمنا فى الصحراء يومًا وليلة، ومضينا بعيدًا عن النيل، وفى اليوم الثالث بلغنا شاطئ النيل ثانية، وبلغنا قلعة واردان.

فى مدح قلعة واردان

إنها قلعة جميلة حصينة على الضفة الشرقية للنيل إنها تحت حكم ملك فونجستان وعاصمته وهى مدينة معمورة جميلة للغاية، وبها سبعة عشر ألف جندى من سمر البشرة مائتا ألف من الزنوج والبربر والفونج من حملة الرايات، وهم مسلمون مؤمنون على المذهب الشافعى، وبها سبعة جوامع وأربعون زاوية وخان وحمام وسبع وكالات وستمائة دكان ومكتب للصبيان وسبل، ولكن ليس فيها أبنية على طرز أبنية الروم والعرب، وليست هذه المبانى مزينة، وفيها حدائق هنا وهناك وفيها بساتين كثيرة، ومن شدة حرها تشوى الإنْسان، وجملة أهلها من التجار، ومتى بلغوا بلدًا حملوا السلع على ظهور الجمال والفيلة وعند السير إلى الجهة القبلية تطلع الشمس من خلف الكتف اليمنى، وتقع هذه المدينة عند خط الاستْواء فى الحبشة، وعلى الضفة الغربية للنيل أرض مخوفة؛ ولا يسكنها من أحد، إنها صحراء قاحلة وفيها فيلة، وعقبان ووحيد القرن فَسِرنا بمحاذاة القلعة، وَصِدْنا الفيل ووحيد القرن وبعض الحيوانات الأخرى فى الكمائن بالأوهاق[1] والحراب.

وقد ألحق حاكم واردان حمل ألفى جمل من المؤنة وعشرة آلاف جندى مع جندنا، ولم نتلبث[2] بهذه الصحراء وقد رأينا بشاعة ما فيها وسِرْنا ثلاثة أيام بلياليها وبعد أن أخذ منا التعب مأخذه بلغنا ساحل النيل.

صحراء هانقوج العظيمة

إنها تحت حكم ملك فونجستان، وهناك مكث عسكرنا وسمعنا فى الصباح صوت يقول الله كأن جيش كور حسين خان كان فى انتظارنا، وكأن خيولنا وجمالنا مهيأة للتقدم، وقد جاءنى خطاب يأمرنا بالتقدم سريعًا فمضينا فى الصحراء ثلاث ساعات، فوجدنا أنفسنا وسط كثرة من الرجال والجمال، وهم يحملون الحراب والسهام والقسى، والمزاريق ولا يعلم عددهم إلا الله، وتجاوزناهم، ووجدنا أنفسنا فى جيش تفوح من

(١) الأوهاق: الحِبَال ومفردها: وهق.

(٢) تلبّث بالمكان: توقف فيه وأقام.

رءوسهم رائحة ذكية، وهم قوم سمر البشرة فى وجوههم مسحة من الجمال، وقدم للمدد من ملك قرمانقه مائة ألف جندى وتجاوزنا خيامهم، ثم وجدنا أنفسنا فى جنود، وفيهم من يشبهون جنود المصريين والعثمانيين، ورأينا لهم خياماً تشبه خيام العرب فدخلنا السرور ومضينا إليهم ولهم ألفى خيمة من الحرير الملون وقد انعكست أشعة الشمس على مدافعهم فكان لها بريق يبهر عيوننا، وقد مضيت إليهم غير خائف ولا وجل وتحدثت إليهم بكل أدب وقد استقبلونى عند الباب، وبعد أن تصافحنا وعظَّمته وركعت على ركبتى وقال لى بلسان تركى فصيح مرحبًا بك، فاطمأنت روحى، وكأنه كان يعرف التركية الفصحى فبالقرب من أسوان كانت قبيلة من العرب مقيمة ففرحت بذلك، وقلت: إننا قدمنا دون طعام فقدم لنا الشاى فشرب كل منا فنجانًا من الشاى، وقبَّل كل من قَدِمَ معنا من القلعة يده.

كما أنه وقر ملك بربرستان كل التوقير فى البداية عند مقدمه، وقبَّل يد ملك الفونج الذى كان واقفًا على يمنته، والتقينا به طبق القانون المرعى ومنح من معنا من الجند المؤن، وقال سوف نمضى لمواجهة العدو فى الصباح بإذن الله، وقلت قدموا لنا الطعام كذلك فقال مرحبًا، وقد قدمت رسائل وزير مصر ورسائل أعيان جرجا ودراو، وصاى وإبريم، وقرأها ملك الفونج بلسان عربى بليغ ففهموا ما تضمنته هذه الرسائل، فوقف فى التو واللحظة وأراد أن يقبل يدى، وأمر وكيله بأن يهيىء خيمة بكل ما يلزم فيها فأقمنا بها، كما أنه كان يحمل عنزًا فى يده فقدمه إلينا كما كنت أحمل إزارًا مزركشًا فقدمته إليه، فلفه حول رأسه فقال لله نحمد أننا تسلمنا هدايا الروم فوقفت ومضيت إلى الخيمة واسترحت فيها ساعة، وقدم إلى خيمتنا بعد أن أصلحها العسكر والخدم، فرفعنا من التراب وأكلت بعض الحلوى التى أحضرها وشربت كوبًا من الشراب وسُرَّ كثيرًا لما أحضر إلينا من حلوى وشراب، وأهدينا إليه الحلوى والشراب المعطر فسر لذلك سرورًا لا غاية بعده، وقدمنا جميع المؤن على الجند، وصاح العسكر طالبين إلىَّ أن أتقدم، وفى جوف الليل قرعوا الطبول، وقودوا كل الخيام، وكانوا على تمام الأهبَة، ولما أصبح نفخ فى البوق، وانطلقوا فى طريقهم وطلبوا إلىَّ أن أركب فيلاً فصعدت سلمًا لأركب على ظهره

فتلوت المعوذتين، ومضينا فى الطريق وفى طليعتنا ملك البربرستان ودعا ثلاثة عشر منا لركوب الفيل وعلى ظهر الفيل تناولنا فطورنا وطوينا المراحل وبعد الطعام سرنا طاوين مراحل بعيدة وقد امتلأ طريقنا بالعرب، وكانوا يمضون أمامنا زرافات زرافات، وعلى ألف فيل حملت الأسلحة والمجانيق، كما حملت المدافع ألف فيل وحملت الأسلحة والعتاد على ظهور مئات من الجمال، كما أن المشاة كانوا لا يحصون كثرةً ومضينا فى صحراء على النيل سبع ساعات.

أوصاف قلعة طومبو

إنها فى جزيرة عظيمة فى النيل وهى قلعة حصينة مربعة الشكل وفيها ألفان من الجند وعشرون ألف من الرعايا الزنوج، وفى القلعة جامع وقد مكثنا قبالة هذه القلعة وقد قدم إلينا حاكم القلعة حمل خمسمائة جمل من الذخائر، ولما أصبح الصباح ألحق بنا عشرة آلاف جندى من العرب وقد أهدى إلىَّ حسين خان فيلاً لأركبه فى رحلتنا، فركبنا جميعًا، وقد بلغنا القصر واسترحنا من شدة الحر، وصلينا، ومضينا على ضفة النيل تسع ساعات.

فى تعريف قلعة جلته شوكزاوى

بما أن الشيخ شوكزاوى مدفون فى هذه القلعة لذلك سميت القلعة بقلعة شوكزاوى، إنها على الضفة الشرقية للنيل وهى قلعة حصينة وعاهل الفونج له من الرعية خمسون ألفًا وفى القلعة جامع، ومنها يأتى المدد والذخائر، ولما أصبح الصباح سرنا على ضفة النيل عشر ساعات.

أوصاف قلعة حفير فونجستان

إنها بناء على الضفة الشرقية للنيل، وفيها جامع وأسواق صغيرة وحانة للبوزه، وللقلعة رئيس ويقيم بها ستون ألف من الرعايا، وقد قدمت إلينا كذلك الأطعمة ومضينا على ضفة النيل جنوبًا وكان الحر غاية فى الشدة وفى الساعة الحادية عشرة بلغنا قلعة مشو.

أوصاف قلعة مشو

إنها قلعة على الضفة الغربية للنيل وهى تحت حكم الفونج، وفيها جامع ولها قاض

وعدة مقاه وحانة للبوزه، وقبالة هذه القلعة قلعة طومبول، وبها جامع بلا مئذنة، وحاكمها هو ناصر بن طومبول، وطومبول اسم قوم عظام وقد شاهدناها، وعبرنا إلى الضفة الغربية، ومكثنا فيها ثلاثة أيام بلياليها، وقد وزعت الأسلحة على جميع الجنود، وأخذوا أهبتهم للحرب، وفى اليوم الرابع مضينا إلى الجانب الغربى فى جنود لا يقعون تحت حصر، وقد مكثنا عند بحيرة فيله، ويحمل من البحيرة فى كل يوم حمل مائة ألف جمل من الماء، وفى الصباح مضينا، وجملة القول أننا طوينا مرحلة بعد مرحلة فى مدة يومين وثلاث ليال.

صحراء ادريسك

فيها أربع قرى وفيها دارت رحى القتال وفى الصباح كانت المجانيق تنطلق من فوق ظهور الفيلة والمدافع أيضًا تنطلق من فوق ظهور الفيلة وزحفنا نحو العدو، وتلوت الفاتحة وأنا إلى جانب حسين بك، ومضينا فى الصحراء أربع ساعات، وهناك رأينا جند من الكفرة هبطوا علينا من الجبال وكانوا جنداً كموج البحر، وواجهوا جنودنا، ولكننا لم نتقهقر حتى تقهقر العدو إلى الجبال، وتفرقوا فى الصحراء، أما جنودنا فصاحوا جميعًا فى صوت واحد قائلين الله الله، وهاجمونا بالخيول والجمال والفيلة، وقد أطلقوا المجانيق وقد اختلط جنودنا بجنودهم فواجه الجندى جنديًا.

وخلاصة القول أن المعركة دامت سبع ساعات وكانت غاية فى شدتها وضراوتها.

وفى وقت العصر عندما قيل انهدم بيره مخاف اطمأنت قلوب جنود الإسلام وقرت عيونهم أخبر حسين بك بقية جند الكفاح بالمجىء فقدموا وقت الغروب فمضيت إلى حسين بك وقدمت إليه التهنئة قائلاً بارك الله فى غزواتك فرد بقوله هذا من فضل ربى، ولفرط سروره بذل الأموال لنا جميعًا، وفى الصباح ارتحل عن هذا المكان وأمر الجند بالإغارة على عبدة النار، أما غير الجند فبقوا تحت:

قلعة فردانية

ومضى الجند أفواجًا لتخريب ديار عبدة النار ووجدوا فى قلعة الفردانية جميع

الأموال والأرزاق، ودخل القائد المعظم حسين خان مع جنوده القلعة، واستولى على كل ما فى القلعة من خزائن وأمر جنده بالرحيل إلى القلعة، وأقام فى قلعة عبدة النار، ومضيت إلى قصر رئيس عبدة النار ولكن هؤلاء القوم حفروا داخل وخارج القلعة وخربوا هذه القلعة، فأخرجوا ما لا يحصى كثرة من الفؤوس، أى أنهم وجدوا أرض الذهب، كما عثروا على سن الفيل وقرن وحيد القرن والمسك والعنبر والذهب والأقمشة الفاخرة فهى نادرة فى هذه الديار، وأموالهم هى الفيل والفرس والجمل والكبش والعجل والجاموسة وهى كثيرة عندهم لا تعد ولا تحصى، أما ما يستحسنه أهل هذه البلاد فهو ما يأتى إليهم من مصر من كتّان ومن حرير، وقسى ورماح وسيوف وقد بناها كنعان بن نوح الذى ارتد عن دين أبيه ولم يركب معه السفينة، وهذا على حد قول عبدة النار، إن هذه القلعة على ربوة تطل على بحيرة وكل حجر فى بنائها يبلغ فى الطول والعرض خمسين أو ستين شبراً، وقد بنيت على شكل مسدس، وتتألف من طابقين ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها باب يفضى إلى الشرق وفى داخلها بيوت مبنية بالحجر، وفيها عدة بيوت تحت الأرض وكأنها غار الجحيم، وفيها قوم ليسوا من عبدة النار، لأنهم من عبدة الشمس وقد أغرنا على هذه البيوت وقد أخرجنا منها كثيراً من الغنائم، وليس فى هذه القلعة أثر يدل على أنها كانت كنيسة من قبل، وفى وسطها ميدان ويجتمع عبدة النار فى هذا الميدان كل صباح فى ظل أشجار السنط والسنديان والأبنوس ويسجدون وفى جوانب هذا الميدان الأربعة أشجار كأنها الجبال ويحضرون منها الحطب يحملونه على ظهور الفيلة والخيول، ولكن فى بيت النار هذا طائفة الفونج والقرمانقى والققانى أطفئوا النار وتبولوا وتغوطو عليها، وقد رأينا بعض الأسر يصيحون ويبكون وقد عرفنا أن بيت النار هذا لم تنطفئ فيه النار منذ ثلاثمائة عام، وفى زعمهم أن هذه النار هى النور الإلهى ولكنها لا تدوم وتنتهى، وهذه هى حال بيت عبادتهم، وهذا ما أحزنهم، أما عبدة النار الذين يسكنون تحت الأرض، فليس لهم كنيسة ولا بيت للنار، ولكن على غارهم بحيرة واسعة يطل عليها عمود، وقد حفر فى هذا العمود محراب متجهًا إلى الغرب، وجميع عبدة النار يجتمعون ويسجدون للشمس حينما

تشرق الشمس وترسل أشعتها على شرق هذا المحراب، ثم يرقصون وينصرفون ويفعلون مثلما فعلوا عند غروب الشمس، فهم يقيمون شعائرهم هذه كل يوم، وقد أبطل حسين خان هذه الشعائر، وجملة القول أننا مكثنا فـى هذه القلعة شهرًا بتمامه، وقد أغرنا ليلاً إلى أسوان على عبدة النار وعبدة العجل وعبدة الفيل وعبدة الشمس وقد غنمنا كثيرًا من الغنائم فى كل يوم، وانطلق جنودنا وعادوا بالغنائم من فيل ووحيد القرن وفرس وجمل وحمار وجاموسة وثور وكبش، وعلى كل فيل عشرون أو ثلاثون أسيرًا وعلى كل جمل خمسة أو ستة أسرى كما جاءوا بخيول وحيـوانات ومن كل ولاية جاءوا بفتيات وفتيان وزنوج، وبعد ذلك فى أحد الأيام من عام ألف وثلاثة وثمانين خربوا قلعة فرداني وكان المسيـر على شاطئ النيل فَسِرْنا نحو الـشرق إحدى عشـرة ساعة ومكـثنا علـى ضفة البحيرة، ثم قـمنا ومضينا شرقًا فَسِرنَـا سبع ساعات على شاطئ النيـل وقد سبق لنا أن عرفنا قلعة مشو ومـكث الجند مع غنائمهم على ضفة النيـل، وبعد إحدى عشرة ساعة أمرنا بـالبقاء فى هـذه القلعة عـلى ساحل النـيل لمدة ثلاثة أيـام، والتفت كُلٌّ مِـنَّا إلى غنائمه، ثم مضـيت إلى حسين خان وقلت له لله أحمد أنك نلـت النصيب الأوفى من هذه الغنائم، ووصلنا إلى مملكتنا سالمين غانمين، ونحمد الله على أنك كنت سببًا فى نيل هذه الغنـائم ولقد خدمنا شهـرين، فأذن لنا أن نمضى إلى مـلك فونجستان حتى نـسلمه الرسائل والهدايا، وقد تفكر طويلاً فى هذا مما قلنا له؛ فقال لقد سررت كثيرًا لمجالستك ومحادثتك ومصاحبتك ولقد تعشقناك ولكن لنا نصيحة فاقْبلها منا، فأنت من قوم الروم وغريب الديار وأنت الآن ضيف لـنا وأنتم مسلمون، ولقد جعلنا ديـار عبدة النار خرابًا يبابًا وقد غـنمنا من ديارهم الأنعام والأسرى وأخذنا منهم الأسرى ولقد مَـنَّ الله علينا بذلك بـلا حدود ولا حساب، وقضـينا على عـبدة النار إلى آخـرهم، وسلكنـا طريق الفونجستان والبربرستان إنهم قطاع الـطريق، وأعداؤنا فى جميع الأرجاء تم لنا قهرهم، فارجعوا إلى ولايتكم وسـنرسلكم إلى فونجستان فى الموسم فى السفـن، ولتبقى جميع خيولكم وجمالكم عندنا وهذه هى نصيحـتى لك وسوف يتيـسر أمركم بمشيئة الله ولكن هذه النـصيحة لم تـصادف رضا وقبولاً، وقد اسـتأت لهذه النـصيحة، وصبـرت على

تكراره لهذه النصيحة، فقدم رجل ومعه ستار أبيض واضح اللون فألقاه أمام حسين بك وسجد عليه، وقال يا مولاى إن ملك بربرستان قادم فقال له: ليقدم، وسرعان ما فتح باب الحجرة فقدم بربر رءوسهم عارية وقد جلس ملكهم إلى جانب الخان وتعانقا وبعد ذلك حييناهم وقلنا فلنمض إلى ولايتكم، لأننا لا ننسى تسلط العدو علينا، وقد طلبوا من حسين خان المدد لولايتهم فقال لهم على السمع والطاعة ووجهوا الكلام إلىّ قائلين، ولقد يسر الله لك عملك ها هو ذا ملك الفونجستان يمضى فى مائة ألف جندى إلى ولايته، وهو يمضى معهم إلى بربرستان وسوف نسر كثيراً إذا ما أطلعت ملك فونجستان على مطلبه وامدده بما طلب من الجند فقال الملك على السمع والطاعة، وقام من مجلسه وأراد أن يقبل يدى ولكنى لم أمكنه من ذلك فجذبت يدى، وكأنما كان المحبة لهم دأبًا قديمًا، وكانوا يشترطون لتعظيم أضيافهم تقبيل يدهم، ولله أحمد أنى وجدت رفيقًا عظيمًا، فشكرت الله وقد خاطبنى ملك من ملوك الأرض، فقال فى الصباح امضوا إلى طراود، وقد ودع حسين خان ثم مضى، وذهبت إلى خيمتى واسترحت فيها ساعة فرأيت الخان قادمًا، فوثبت قائمًا لأستقبله وصافحته فأتى إلى خيمتنا وخلفه قافلتان من الجمال تحملان ليف النخيل وفى غرائر سن الفيل وعشرون من العذارى الجميلات الحسناوات السمراوات، وعشرة جمال عليها عشرون من غلمان عبدة النار وهم سمر البشرة حمر الوجوه وقد وهبنا هذا كله كما وهبنا أفيالاً وجمالاً، وعدداً من الزنوج الأسرى وقد قيدنا الأسرى حتى لا يفروا وقد نصحنا بأن نحذرهم ونحرسهم فى الليل كما منحنا فأسًا من الذهب وعشرة قرون من قرون الثيران وعشرة أقفاص فيها ببغاوات ناطقة وصندوق من المسك وآخر من العنبر وحمل جمل من الكاكاو وبعد كل هذه الهدايا حيّانا بأحسن تحية وقال وفى عودتكم بخير مروا بقلعتنا، ثم مضى إلى مسكنه، وفى الصباح هيأنا أحمالنا ومضينا إلى جند بربرستان وقد أرسل إلينا حسين خان ألف جندى لتوديعنا ثم مضينا سبع ساعات وبلغنا قلعة دفنا.

قلعة دفنا

إنها قلعة صغيرة مربعة الشكل فى جزيرة عظيمة فى النيل وبها كثير من المدافع والفيلة وبها خندق وسوق ولا عمران فيها سوى ذلك وإن كان فيها جامع صغير بلا

مئذنة وهذه تحت حكم ملك بربرستان ووصلنا بكل هذا القدر من الهدايا التى كانت معنا إلى هذه القلعة التى ليس فيها شىء يذكر، إنها فى الصعيد العالى والقوم هناك هزيلو الأجسام لا يزرعون وعلى ضفة النيل ينبت القطن والكتان والبرسيم والسمسم والفول والأرز والعدس، وفى أرضهم الذهب إلا أنّهم قوم عبيد متمردون، وفى الصباح خصنا رئيس قائم مقام القلعة بخمسمائة جندى لأن فى هذه الليلة فَرَّ مِنَّا زنجيان من عبدة النار ثم بعد ذلك مضينا جنوبًا وسِرْنا على شاطئ النيل وبعد مسيرة عشر ساعات على ضفة النيل بلغنا قلعة أمداج أرقو.

قلعة أمداج أرقو

وهى قلعة واسعة فى جزيرة فى نهر النيل قريبة من الجانب الشرقى وهذه الجزيرة قليلة السكان، وفى الجزيرة غابات أشجار الأبنوس وقدمنا إلى حاكمها الهدايا وسِرنَا جنوبًا تسع ساعات وبلغنا قلعة بنى.

إنها كذلك قلعة فى جزيرة فى النيل تحت حكم البربر، إنها بناء مربع مرتفع، وقلعة جميلة، وقد أتى إليها الإمام مالك فى سياحة له، وقد شرفوا بالإسلام، وبعد أن اعتنقوا الدين الحنيف وبناء على اقتراح الإمام مالك أقاموا هذه القلعة، وعلى باب القلعة كتابات للإمام مالك بالخط الكوفى، ومقدم الإمام مالك إلى هذه القلعة لأن قطب الأقطاب الشيخ عز الدين كان على قيد الحياة فالتقى به فأصبح فريد زمانه، والشيخ عز الدين مدفون فى هذه القلعة، ولخوفهم من هذا القطب سكن جميع سكان الجزيرة خارج هذه القلعة ولا وجود لإنسان داخل القلعة ومن يدخلها من بابها يخلع نعليه، ولا يستطيع أحد أن يتبول أو يتغوط وهو فيها، ولقضاء حاجتهم يخرجون إلى ضفة النيل فقد بقى بداخله ثلاثة بلا تغوط ولا تبول وهم لا يربون من الأنعام إلا الحصان والجمل لأن نجاسة باقى الحيوانات نجاسة غليظة، ولأنه قطب عظيم ولا يجرؤ أحد فى تلك الجزيرة على أن يفعل السوء أو يرتكب إثمًا أو يظلم أحدًا فهو قطب طبق صيته الآفاق، وقومه من الموحدين، ومؤمنون من أهل التقوى، ويقصده المرضى والصغار ليشفوا من مرضهم؛ فيزول عنهم ما بهم قبل أن يصلوا إلى ضفة النيل، وسِرنَا ثمان ساعات على ضفة النيل وبلغنا قلعة أرتد.

فى وصف قلعة أرتد

إنها تقع علـى الضفة الغربيـة للنيل إنها مربـعة الشكل، وحاكمهـا زنجى وهو يقدم الهدايا إلى حاكم بربرستان، وهو من أهل القلعة، وسِرنَا على شاطئ النيل لشدة حرارة الجو فبلغنا قلعة أرنش.

وصف قلعة أرنش

إنها قلعة فيها جامع، وبها من الرعايا خمسون ألف إنسان وألف جندى، وهى قلعة معمورة وحاكـمها فرجون فهو بربرى ولا يـوجد فيها سوق وبعد أن تجاوزنـاها بخمس ساعات بلغنا قلعة جبرية.

قلعة جبرية

إنها قلعة جميلة وبداخلها ثلاثمائة بيـت من قصب، وبها جامع بلا مئذنة كما يسكنها خمسمـائة إنسان، ولكن خارج هذه الـقلعة فى الصحراء وحـولها تسكن الصحـراء قبائل الجبرية، وكلهم عـلى مذهب الجبر، وليسوا على المذهب المـالكى، وهم لا يؤدون الصلاة فى أوقاتها الخمسـة، ويؤخرون الأذان عن أوقاته الخمسة وأذان الصلاة عندهم بكيفية خاصة بهم أما نحن فنقول حى على الصلاة مرتين، وحى على الفلاح مرتين أما هم فيقولونها فى أوله وآخره، أما نـحن فنقولهـا مرة واحدة فى الأذان وليسـوا أصحاب سنة إنهـم يصلون خمس مـرات فى أربع وعشريـن ساعة ولكن أى وقـت كان وبعضـهم يجمع الـصلاتين بالقصر، ويصلون الصلوات الخمس بإقامة واحدة، فهم لا يكررون الإقامة، وهم قوم أكثر العدد على المذهب الجبرى، وعلى مسيرة اثنتى عشرة ساعة قلعة حنَّاق.

قلعة حَنَّاق

إنها قلعة كبيرة مخمسة الشكل فى داخلـها سبعمائة بيت من قصب وكل فرد فيها له منزل، وبها جامع وحـول القلعة فى الصحراء بدو على المذهب المـالكى إنهم قوم زنوج على المذهب الجـبرى وعددهم مائة ألف من الـرعايا إنهم فى إقليـم الفونج وهم أشداء شجعـان وليس فيهـم من يركب الخـيل ولا الفيلـة، وخَانُهم الشـيخ عشاب ابـن ملك الخاقان، أمـا القلعة فـحاكمها هـو حسين الفـونجى البربرى فـقد أتى إلى الملـك ومعه الهدايا، وبعد سبع ساعات بلغنا قلعة خندق.

قلعة خندق

إنها قلعة صغيرة على الضفة الغربية للنيل بها جامع ومن بين مدافعها مدفع من الذهب وهى قلعة تشبه الخندق الصغير فى خارجها خندق عميق فى الأرض، ولذلك سميت القلعة بقلعة الخندق، وبداخلها مائتا بيت من قصب ولا يسمح للجبرية بدخولها، ويمشطون شعورهم على جانبين، وهم يحلقون أقفيتهم، وبذلك يعرف أنهم من الجبرية، وأنهم بدو، وقد قدم حسين بك إلى حاكم القلعة هدية من مائة قربة من البوزه وقد أتى علينا عيد الأضحى ونحن فى ضيافة البربر، وبعد اثنتى عشرة ساعة بلغنا قلعة قولى.

قلعة قولى

قلعة على الضفة الغربية للنيل، وبها جامع وثلاثمائة بيت يسكنها البربر ورئيسها سليمان بن بشير، وقد قدم لنا مائة خروف وخمسة جمال صغيرة وسبعون قربة من لبن النوق المجبن وعشرة جمال محملة بخبز الذرة ومنها بلغنا قلعة بقر.

قلعة بقر

إنها قلعة تقع على الضفة الغربية للنيل والجانب الشرقى منها منهدم ويسكنها فقراء من البربر، وحاكمها حسين الفونجى، وقد أهدى إلى ملك البرابرة جواداً وثلاثة جمال وما غنم ملك البرابرة من فيلة وجمال ومما لا يلزم من أنعام أطلقها إلى صحراء قلعة بقر مع الجمالة والفيالة لترعى النباتات والأعشاب وبذلك ردت عليها الروح، وأهالى دونقله خرجوا جميعًا لاستقبال الملك زرافات زرافات قائلين بارك الله لكم فى غزوتكم وقدموا الهدايا كما وزع على العلماء من مال الغنائم لكل فرد منهم خمسة أو عشرة خراف وقد عرفت من ذلك أن ملك البربر شحيح لقلة ما أهدى إلى العلماء ففى هذه الديار يقدمون عشرة خراف ثمنًا لذراعٍ من الحرير أما الحرير فى جرجه فالذراع منه ثمنه منقرتين، وفى خيمته كان يأكل لبن النوق وخبز الذرة، وعلى الدوام يطلب المتعة، فيطعم ويشرب، ويدمن شرب البوزه فما التفت إلىّ إلا أننى كنت أحسن العشرة.

وفى الصباح لبس جميع الجند البربر ثيابهم النظيفة وقد تزينوا بأسلحتهم وللملك بربرستان جنود يحملون الحراب يحيطون به، وهم يؤلفون جناحًا أيمن وآخر أيسر، فى

انتظام كما كان طليعة جنده خمسين ممن يحملون السهام وقد تغنوا بلغتهم وانطلقوا فى طريقهم، وقرع أتباع الملك الطبول وعلى هذه الحال مضينا سبع ساعات على ضفة النيل.

أوصاف بلاد السودان

وصف قلعة دنقله المدينة العظيمة والعاصمة القديمة لبربرستان

على حد ما ورد فى تواريخ القبط أن أول من بنى هذه المدينة هو نقول بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ، ونوح نبى عاش ألف سنة وبعد أن أنجاه الله من الطوفان جعل يتجول وقد استوطن هذه البلاد، ثم زوج ابنه حام فتاة فولدت له ولداً اسمه فى العربية دنقل وعلى مر الأيام كثر أولاد حام ونزل نوح وأولاده وقومه ذات يوم ضيوفًا على حام ولحكمة يعلمها وجد الراحة عنده، وانكشفت عورة نوح وهو نائم فقدم ابنه حام فرأى عورة أبيه قد انكشفت فجعل يقهقه ومضى بعيدًا ودلّ على ذلك سام ويافث فأخذهما الخجل لما شاهدا عورة أبيهم وخرا مغشيًا عليهما من فرط الخجل، وبينما كانا يستران عورة أبيهما بإزار أفاق من نومه وجعل حام الغرير يضحك، ونظر حام الغرير إلى أبيه فسأله نوح عمًّا يضحكه؟ فقال: إن يافث وسام حدثاه عن انكشاف عورته.

وطلب نوح من الله الملك، وأن يعمر ابنه سام، كما دعا الله أن تملأ ذريته الدنيا، ودعا الله أن يعمر ابنه يافث وأن يكون ملوك الأرض جميعًا من ذريته، ولا تنقرض ذريته إلى قيام الساعة، كما استجاب الله دعاءه بأن يكونوا مرفوعى الهامة فى الدنيا والآخرة، وأن ينتهى نسب جميع ملوك وسلاطين الأرض إلى نوح، وأن نسب جميع العرب والعجم وجميع المرسلين والأنبياء إلى سام ابنه وأن يعمر ابنه حام فى هذه الأرض الشديد قيظها، وأن يكون أولاده فى جزيرة مصر وأنعامه لا تدخل تحت حصر وقد دعوت الله أن يجعل أبناءك فى هذه الأرض يمشون عراة لأنك ضحكت ولم تستر عورتى، وأن يمشوا عراة سود الوجوه إلى أن تقوم الساعة، كما دعوت الله أن يجعل وجه حام أبيض فى الآخرة فأمر الله أن يستقر حام فى دنقل، وأن من ذكر انكشاف عورة أبيه اسود وجهه، وجميع العرب ينتهى نسبهم إلى حام، وقدم نوح مع غير هؤلاء من أولاده إلى مصر وبقى حام المذكور

فى منطقة خط الاستواء وكان له من الأبناء مائة ألف وكانوا سود الوجوه ثم مات حام الأسود وأفضى حكم دنقل إلى أولاده ولأنه بنى قلعة دنقل أثناء حكمه، سميت هذه القلعة ولاية أسوان باسم دنقل ولتخفيف الكلام حذفت الألف فأصبحت أسودان فى سودان وكانت بلاداً عظيمة فى الزمان الخالى، وأساس عمائرها ما زالت ماثلة، ولقد خربها كذلك أبرهة اللعين ولكن تبقى بعد ذلك جزء من قلاعها وبيوتها وعمائرها وقلعتها مبنية بالآجُرّ الأحمر وتقع على الضفة الشرقية للنيل إنها قلعة قديمة لا خندق لها، ولها ثلاثة أبواب منها بابٌ يطل على النيل، وفى داخلها بيوت من الجص تبلغ ستمائة وخمسين بيتًا وهى من الحجر المحروق يسكنها البربر وفيها سبع جوامع وتسع مساجد وستة مكاتب للصبيان، ولا أبنية فيها غير ذلك، إنها تقع على صخرة قائمة، كما أن قصر الملك قلعة، وليس فى هذا البلد بيوت عامرة، ولكن خارجها ثلاثة آلاف بيت للبربر، وبعضها من اللبن وبعضها الآخر من القصب، وفيها عشرة جوامع يدعى فيها لسلطان العثمانيين ثم يدعى بعد ذلك لملك الفونج لأن السلطان العثمانى خادم الحرمين؛ إنهم قومٌ أتقياء على المذهب المالكى، ولا يعرفون الغيبة ولا النميمة ولا سوء الظن ولاستقامتهم وحسن أخلاقهم فيجمع خدم التجار من البرابرة، ويسمون الجندى بالبربرى، وهم ستون ألف، أما البرابرة فعددهم ثلاثمائة ألف رجل والبرابرة يشتغلون بالزراعة والتجارة فيزرعون الشعير والذرة ويحصدونها وطعامهم خبز الشعير والذرة ولحم الطير ولحم الجمل ولبن النوق، وبوزتهم جيدة للغاية، ويأكلون لحم القطط فهو عندهم مباح فهم يقولون: (جدى قطه) أى: القط اللذيذ، وإنهم يأكلونه عند الضرورة ويشربون ماء النيل، ويصيدون فى الصحراء الفيل والزرافة ووحيد القرن والغزال وأظافرهم كالمخالب وبها يتناولون الطعام.

وصف الزرافة

إن خدام صاحب بيتنا يحترفون صيد الزرافة، ويصنعون منها الكباب ولكن لحمها دسم للغاية، وطلبوا إلى أن آكله وقالوا إنه حلال إن شاء الله فلم نر لها ذكرًا فى القرآن الكريم، ولا وصف لشكلها ولا جسدها فجلدها مثل جلد العجل ولها عنق طويل كعنق الجمل، ورأسها كرأس العنزة إلا أنه أكبر، وهى تفاحية العين، وأذنها كأذنى الجمل

وعلى ظهرها خطوط سوداء وذيلها كذيل العجل وقوائمها طويلة وحوافرها من شطرين، وعنقها كالمئذنة تبلغ به الشجر العالى، فتأكل من الأغصان كما أنها ترعى أنواع شتى من الأعشاب فى الأرض، إنها حيوان جميل ولحمها ألذ طعمًا من لحم العجل، والبربر يصيدونها بالحيلة ولـلحم الخراف فى هذه الديار رائحة كرائحة المسك لأن الماء عذب فرات ولذلك تنمو به الزروع المختلفة التى ترعاها ولا يشبهها علفٌ فى بلاد أخرى، كما أن طيب الهواء سببٌ فى جمال النساء فى تلك الديار، ولهن عيون الغزال وسمر الوجوه كأن ثغورهن البراعم، إنهم حقًا من نسل نوح، ولكن الناس لا يلبسون ثيابًا، وإنهم يكتفون بإزار عليهم ويتلففون به ويفرقون شعورهم، ولشدة القيظ كأنهم فى جهنم، وأجسامهم نحيلة، ولكنهم يتصفون بالجرأة والشجاعة، ويتصفون بالبخل والطمع والجشع وهم يتجولون وهم جياع، ويطعمون ما يجدون، إنهم حفاة لا يسترون رءوسهم وحاكمهم هو رفيقنا محمد بن حسين، وهو تابع لملك الفونج، وكان معنا فى محاربتنا لعبدة النار، ولكن بلادهم يسود فيها الأمن والأمان، وإذا ظهر فيها قطاع للطريق بادروا إلى قتلهم، ولا وجود للنقود فى هذه الديار، كما لا وجود لسوق ولا خان ولا حمام ولا مِبَرَّة ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن يوجد بها حانات للبوزه، ومقهى، ولا وجود لحدائق والقردة كثيرة، ولا وجود للفاكهة، ويكثر الشمام والبطيخ فى البساتين ولا وجود فيها للمآذن، وفى أيام الجمعة يحتشد الرعاع، وتقام سوق فى ميدان وسيع ويشترى كل ما يريد من سلعة ويشاهد النخيل فى جهات متفرقة وبين هذه البلاد وبلاد النوبة مسافة طويلة، وفى غرب هذه البلاد مدينة:

مدينة زغاوه

تقع هذه المدينة فى الإقليم الأول، وقد كانت مدينة عظيمة فى قديم الزمان، وكنت فى دنقل أتحدث مع الملك طيلة ثلاثة أيام وأخذت من الغنائم التى غنمها حسين خان حاكم حفير وهى ما أقدّمه هدية إلى ملك الفونجة، والتى أحضرتها إليه، ومن أمواله قدمت ألف جمل وسبعين فيلاً وألف عجل وستة آلاف خروف وخمسمائة أسير من

عبدة النار، ومضيت إلى ما فى المدينة من المزارات ففى المقبرة ضريح الشيخ بن عيسى وعلى ضريحه يهبط فى ليالى الجمعة نور، وفيها كذلك ضريح الشيخ أعوا كما أن هناك ضريح الشيخ أبو بكر والشيخ أبى القاسم.

وفى نفس المقبرة ضريح الشيخ بلبل والشيخ غلام الله، وقد زرت هذه الضرائح وعندما عدنا إلى بيتنا قدم علينا ملك بربرستان، فشرفنا بزيارته لنا فمنحنا اثنى عشر جملاً وفيلاً أسود، وعشرة من الجمالة، وعشرين عبداً أسود، وست نساء وشمعدان من الفضة، وحقًا كبيرًا فيه حجر سيلان الثمين وكأن كل حجر منه ياقوت بدخشان، كما منح كل خادم من خدامنا ثلاثة جمال، وطلب المعذرة، كما عين جنديًا من جنود القلعة لحراستنا فى مسيرنا إلى فونجستان كما قدم إلينا وسادة مخططة وعمامتين وإزارين وقد رقصوا من فرط السرور لأنهم لم يجدوا مثل هذا فى بلاد الروم وقد تقبلنا هذا، ثم مضى إلى قصره فأرسل لنا بعد ساعة خمس من العذارى الجميلات وحمل جملين من سن الفيل وقد أمر القاضى بأن يحمل هذه الهدايا إلى ملك الفونج، وفى الصباح ودعنا الملك وعزمنا على الرحيل، ومضينا على الضفة الشرقية للنيل ثمانى ساعات حتى بلغنا سور طوشى.

أوصاف سور طوشى

إنها قلعة فى جزيرة فى النيل فى الجانب الغربى من الجزيرة وقد سألت عن بانى هذه القلعة فما عرفوه، وهى كذلك كقلعة دنقل لها ثلاثة أبواب، ولكنها ليست قائمة على صخرة كقلعة دنقل، إنها قلعة عظيمة مربعة الشكل، إنها تحت حكم فونجستان وبداخلها بيوت للبربر وحولها حانة للبوزه، وجوامع ولا عمران فيها غير ذلك، ولحاكمها ثلاثة آلاف من الجند وسبعة آلاف من الرعايا البرابرة، وكان أكثرهم معنا فى حربنا فى الفردانية، وفى هذه الجزيرة كثير من التماسيح، إنها تختطف الخراف والعجول والجمال وتجذبها إلى الماء فتغرقها، إنها تماسيح أسوان اللعينة، وطول الواحد منها من أربعين إلى خمسين ذراعًا، وسرنا على شاطئ النيل فى غاية القيظ لمدة ثمان ساعات.

وادى العفاريت

مكثنا فى صحراء مترامية الأرجاء وفيها من أشكال العفاريت كل عجيب وغريب، إن هذه الأشكال الغريبة على ربوة مرتفعة فى ميدان واسع، وفى جوانب هذا الميدان الأربعة كراسى، وفى الجانب الغربى من هذا الميدان سبعة أعمدة، وعلى ذروة هذه الأعمدة حجر كبير يصل بين هذه الأعمدة ويغطى هذه الأعمدة السبعة، وهو يحمل فوق الأعمدة، ويَقُوم على هذا الحجر تمثال لامرأة من النحاس الأصفر وإذا ما شاهدها إنسان انشقت مرارته وقد ارتفع رأسها ارتفاعًا عظيمًا كما أن غدائرها منتشرة متفرقة، وقد حدقت بعينها فى الشمس فكان لهما بريقٌ شديدٌ، وفى حضنها طفل من النحاس الأصفر كذلك تجلسه على ركبتيها، وكأنها تحتضنه، يا له من تمثال عجيب يلقى الرعب فى القلوب إنها كبيرة الثديين وقد رفعت ذراعها اليمنى وهى تشير بها إلى الجانب الجنوبى من النيل بإحدى أصابعها، والتمثال مصقول، وكأنه من الذهب الخالص، وأمام قدمى التمثال حوض عظيم وقد نحت فى الحجر الصلد مساحته عشرٌ فى عشر، وفى الإمكان أن تجرى فيه سفينة إنه عجيب المنظر، وهذا التمثال الذى يقوم على الأعمدة من عجب أن تسيل دموع من الدم على ركبتيه ويجرى الماء من أظافرها كأنه مذاب منذ ألف عام، وهذه الدموع الدامية إذا سقطت نزلت فى الحوض وأصبحت ماء بعد أن كانت دمًا أحمر، والماء يتغير لونه فى هذا الحوض فى شهر تموز ويصبح طعمه كطعم الكبريت والمرضى يشربون منه مرة فى العام فيتم لهم الشفاء، فيشفون من جميع الأخلاط التحتانية ويحمر وجه من يشربون من هذا الماء، وبعد انقضاء شهر تموز يصبح ماءً عذبًا غيرًا، وقد أكب على هذا الماء مِن مَنْ معنا وشربوا منه لشدة القيظ حتى أفرغوا ما فى الحوض من الماء، وقد شربت منه فنجانا، حقًا إنه ماء زلال وكفار البرتغال يملأون الجرار من هذا الماء فى مدينة زيلع ويقدمنها هدية ويحضرونها إلى الهند وأوربا، ويسقون هذا الماء المصابين بالجذام ومرض الزهرى، وهو نافع من هذين المرضين.

أما الأعمدة التى فى الجنوب فقد كتبت آيات شريفة، والكتابة هى: ﴿يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ولم يكتب تحتها تاريخ، وقد خطت علامة تحت هذه

الآية وفى الصباح شددنا الرحال، وسِرنَا إحدى عشرة ساعة على ضفة النيل إلى الجنوب، وكان القيظ غاية فى شدته.

وصف حصار كنيسه

على الضفة الغربية للنيل قلعة عظيمة كأنها سد يأجوج، وبانيها هو أزرق جادو وليس فى مَبْنَاها جص إنها مبنية على الطراز القديم، ولكنها حصينة إلى أبعد غاية ولها بابان أحدهما غربى والآخر ينفتح على النيل، إنها مربعة الشكل، وبداخلها مائتا بيت وجامع، وخارجها ألف بيت وفيها سبعة جوامع وزاوية وأربعون حانة للبوزه وأسفل أبواب هذه القلعة قناطر عليها جلد تمساح، والقوم هناك سمر البشرة من البربر وسبب تسمية هذه القلعة بالكنيسة أنه غرب هذه القلعة على مسيرة ثلاث ساعات بنى جامع يشبه الكنيسة لسليمان بن داود، ومحرابه فى جهة الرياح الشمالية ويتجه إلى القدس الشريف ولهذا سميت هذه القلعة بهذا الاسم.

فى وصف الجامع القديم

بجانب هذا الجامع بحيرة عذبة الماء، إذا ألقيت فيها جثة الميت سرت فيها الحياة، وقد حكم سليمان الإنس والجن والوحوش والطيور، ولما كانت تطير رأت فى طيرانها هذه البحَيرة فسأل سليمان وزيره آصف عن هذه البحيرة فأجابه يا سليمان إن اسمها «قرجلاتقه زيد درسان»، وهى تعنى: بحيرة تخرج من باب الجنة، فأمر نبىّ الله فى التو الريح بأن تنزل جميع مخلوقات الله ومكثوا فى هذا الوادى وتجولوا فى جوانبه الأربعة، وشربوا من مائها العذب، فكأنما ارتدت إليهم روحهم وأمر الشياطين بأن يقيموا له قصرًا شامخًا فى ذلك الموضع وجامعًا عظيمًا، فبنوا هذا الجامع الذى يعجز عن وصفه القلم واللسان، وقد شرف هؤلاء القوم باعتناق الإسلام بعد الهجرة، وولوا القبلة شطر المسجد الحرام بعد القدس.

وخلاصة القول أنه جامع منقطع النظير فى جماله، وكأنما أنشأت يد القدرة أعْمِدَتَهُ وجدرانه الأربعة، وفى استانبول آيا صوفيا ذو القبة العالية من طابقين وست قباب

صغيرة، وفى وسطه قبة بيضاء تحيط بها القباب من حولها، وفى الليلة التى ولد فيها النبى ﷺ وكانت ليلة الاثنين انهدم «طاق كسرى» «وقزل ألْمَا» وهذه القبة العالية، وفى زمان كفاح النبى ﷺ كان هذا الجامع معبد صنم وظل بناء بعيداً عدة قرون وفى جوانبه الأربعة نزلت صحف كانت فيها إشارات كتبت بالعبرية عن الأنبياء، ونزلت صومعتهم، وفى داخل الجامع عدد ألف وسبعمائة عمود أحمر اللون ومرتفع مصقول إنه مثل ياقوت بدخشان، ولا وجود لثغرة بين عمودٍ وآخر، ولا نظير لهذه الأعمدة فى المقدس ولا دمشق ولا مصر، ولكنها منها كثير فى الإسكندرية واستانبول وأثينا ولأن سليمان أقامها من أجل بلقيس فهى غاية فى الجمال، وكم من عمود راقد فى الرمال، ومساحة هذا الجامع خمسمائة خطوة طولا وعرضًا فهذا الجامع فى السودان أكبر من جامع الغنبق فى مكة، وجامع إبراهيم فى جبل عرفات، وجامع المزدلفة أى المشعر الحرام فى جبل مزج بين عرفات ومنى وأكبر من جامع عمرو بن العاص فى مصر وجامع أمية فى دمشق وجامع آيا صوفيا فى استانبول، لأن هذا بناء الإنس والجن ولذا ما شاهد معمار واسع العلم بالهندسة هذا الجامع إلا وأدرك أن سليمان النبى كان بارعًا كل البراعة فاظهر معجزاته ولقد تجولت ما تجولت فى البلاد فلم تقع عينى على مثل هذا الجامع إنه مكسو فى الداخل والخارج بالرخام وفرش بالصدف الهندى وفى بسطه اللؤلؤ واللازورد والعقيق والصدف والفيروز، وجدرانه فيها نقوش ملونة وأحجار الجدران مصقولة كأنها ورق الصين، وعلى الجدران أيضًا كتابات شتى وهذه الأحجار مصقولة وكأنها مراية، وفى أطراف محرابه آيات من الزبور وهى بخط الوزير آصف بن برخيا وهذه الكتابات على الرخام وداخل قبابه الست أحجار منقوشة، أما منبره فهو يشبه كرسى يصعد إليه من مسافة قدرها ثلاثة خطوات، ولا وجود لمنارة له، ويصعد فيه الأذان على الدوام والأحجار التى خارج الجامع كل حجر منها حجمه أربعون أو خمسون ذراعًا، حقًا إنه من عمل الشياطين لأن هذه الأحجار يعجز عن حملها الإنسان لثقلها ولو وجد هذا الجامع فى أرض عامرة لكان جنة ولكن هذا دُرٌّ يَتِيمٌ، ولكن يجتمع على هذه البحيرة من مصر مئات الآلاف من الناس والحيوان، ويقيمون مئات الآلاف من الخيام على

ضفافها ويقيمون سوقًا أربعين يومًا بلياليـها، وحول هذه البحيرة يلتف جمـع غفير مـن الناس والكائنـات إنـهـم يتبركون بالـشراب من مائها لأن سليمان ـ عليه السلام ـ شرب منها، وإذا شرب منها المرضى تم لهم الشفاء بمشيئة الله وفى اليوم الأربعين لهذه السوق المقامة عند البحيرة يحمل الماء على ظهور الفيلة والإبل والحمير فى قرب لا يعلم عددها إلا الله وتحمل إلى بلاد الكفر وبلاد العرب، ولا يبقى فـى البحيرة قطرة من ماء ولكنها تمتلئ فى العام المقبل بأمر الله، إنه جامـع عظيم، أما فى داخل الجامع فالخدم والشيوخ على المذهب المالكى.

أما قصر سليمان فقد تخرب ومكانه مِبَرّة، ولكن القوم ليسوا بنى آدم، وقد شاهدت ذلك وصليـت فى الجامع ومضيت فى حـمله على الكنيـسة، وفى مُضِينا علـى الضفة الغربية للنيل مـررنا بضريح الشيخ دليب وتجاوزناه ثم سرنا ثمـانى عشرة ساعة فى شدة القيظ ثم استرحنا فى ظلال غابة من أشجار الأبنوس والسنديان، وبعد مغيب الشمس، بلغنا على الضفة الشرقية للنيل حصن اتقور الحصين.

وصف حصن اتقور

إنه قلعة مـربعة الشكل على الـضفة الشرقية للـنيل، وفى داخله مائتـا بيت وجامع وحاكم الحصن يسمـى كورجه وهو من قبل حاكم فونجستان، وللـقلعة بابان ولا وجود فيها لـدكاكين ولا حمام ولا وكالة، وهم قـوم غلاظ شداد وليس فى قلوبـهم رحمة، وهم سمر البشرة حمر الوجوه فتجاوزناها وبعد ثلاث ساعات بلغنا بلدة أرقى.

بلدة أرقى

ليس لها قلعة، ولكن بها بيوت كثيـرة وجامع شديد الضيق وثمة ضريح الشيخ كرام الله الركابى على مقربة منه ضريح الشيخ حاجى ماجد وإلى جانبه ضريح الشيخ حاجى محمـود وعلـى مقربـة منه الشـيخ حاجى نَـقُور إنهم جـميعًا يـرقدون فى قبـورهم الصغـيرة، وقد قرأت الفاتحـة لأرواحهم الشريفـة ومررنا على ضـفة النيل بسـبع قلاع خربة. ومـضينا فى الصـحراء إحدى عشرة ساعـة فى طريق يخـلو من الفيلـة والقردة

ووحيد القرن والزراف.

وصف رباط دَفّاره

إنها قلعة جديدة على الضفة الشرقية للنيل على هيئة الأوزه وقد تظلم أهل فونجستان من حاكمهم إلى سلطان مصر فى ذلك الوقت أيبك التركمانى فأمر سلطان مصر ببناء هذه القلعة ليتحصن فيها ملك الفونج لما كان بينه وبين ملك الفونج من صداقة ومحيطها ألف خطوة وبداخلها جامع وفيها ثلاثمائة بيت للبربر ولها باب من الخشب يتجه نحو الشمال وعليه جلد تمساح ولا وجود على الباب لتاريخ بناء القلعة، وسِرْنا ست عشرة ساعة حتى بلغنا قلعة الملك إدريس.

أشكال قلعة الملك إدريس

إنها قلعة صغيرة الشكل على الضفة الشرقية للنيل فى صحراء واسعة وفيها جامع وسبعمائة بيت وبابها يتجه إلى الشرق وأهلها بربر سمر البشرة وهم على المذهب المالكى، وهم غاية فى التقوى ولم تصدر منهم فتنة ولا عصيان ولا كذب أو طغيان ولا بهتان وهم يمضون إلى مصر للخدمة وهم أهل ثقة، وقد تجاوزناها وبعد تسع ساعات بلغنا قلعة غرى.

قلعة غرى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل وهى خربة ومحيطها ألف خطوة وفيها جامع ولا أبنية سواه فيها، وفى الصباح سِرْنَا على شاطئ النيل ست ساعات وعبرنا سهولاً ذات زروع وبلغنا قلعة خلفاهى.

المدينة العظيمة قلعة خلفاهى

إنها أيضًا على الضفة الشرقية للنيل وبها بيوت وجامع ولا وجود لأبنية أخرى، وجملة أهلها من الزنوج غلاظ الشفاه وهم قوم جبابرة أشداء، ومضينا عنها، وبعد ثمان ساعات، بلغنا ايلغون دنقله.

أوصاف مدينة ايلغون دنقله العظيمة

كانت هذه المدينة فى الزمان الخالى تحت حكم ملك بربرستان ثم تولى عليها سلطان الفونج وجميع أبنيتها من عمل البربر، إنها مدينة غاية فى الجمال، وعندما فتحها الفونج

تهدمت أماكن فيها، ويقـول أهلها إن دنقلة جنتنا فى الدنيا فإن كان لنـا جنة فهى جنتنا ولا حاجة لنا بالجنة، إن جوها ليس بحـار ولا بارد فكأنها إرم ذات العماد، وفى الزمن الماضى كان مَنْ يشاهد أسواقها وقصورها الشامـخة يأخذ منه العجب كل مأخذ، وفيها غرائب وعجائب كأنها أسوان، ولاعتدال هوائها فى بسـاتينها الليمون والسفرجل والتمر وأنواع شتى من الفاكهـة، وأهلها مع ضآلة جسمهم وسواد بشرتـهم إلا أنهم فى صحة جيدة، ولاعتدال جوها يلد نساؤهم وأنعامهم التوائم على الدوام ولكن شياههم تلد فى العام ثـلاثة حملان إلا أنـها غاية فى ضـآلتها، وفتـياتها يَـبْلُغْنَ مَبْـلَغَ النسـاء فى سن العاشرة، وتلـد المرأة فى شهرها السابع والـثامن، وهم يزرعون الذرة، ولهـم كثير من البساتين والإبل والعجول، ولا وجود فى أرضهم للمعادن، ولديهم حمامات المياه الحارة ويأتى إليها أهل المـمالك المحروسة، ويدخلونها فتشفى أمراضهم فـيصبحون كما ولدوا لذلك فالقوم فى أسوان وفـونجستان وايلغون يتّسمون بالجمال، وهـذه المدينة تحت حكم ملك بربرستان ولكن زالـت دولته فأصبحت تابعة للفونجـستان، ومـضينا عن هذه المدينة وسِرنَا فى أرضٍ كثيرة الأحجـار والصخور جنوبًا، وبعد مضى ثمانى عـشرة ساعة بلغنا مدينة قوثراى.

فى مدح مدينة قوثراى العظيمة

كانت هذه المدينة على الضفة الشرقية لـلنيلْ وقد ذاعت شهرة مبانيها فى الآفاق ولم يَبْقَ منها إلا سبعمائة بيت، وجامع وثلاث شجرات للدوم، وبعد أن سِرنَا إحدى عشرة ساعة بلغنا مدينة عدى.

مدينة عِدَىّ

إنها فى حكـم الفونج وركبنا سفينة وعـبرنا من الشرق إلى الغرب، وشاهـدنا مدينة عظيمة وكانت كذلك فى العصور القديمة، ولقد تبقى من عمائرها القديمة بعض آثار.

ولقد كانت مدينة عدى تزدان بالقصور، وفيهـا اليوم ألفا بيت للبربر، إن أهلها على المذهب المالكى ومنهـم على المذهب الجَبْرى، وقد عمرها ملك الفـونج، إنهم قومٌ فيهم

قِحَةٌ [1]، وشيخهم هو الشيخ سعيد جبرىٌ، ويتبعه أربعون ألف من الجبرية ومعظمهم من العيارين، وعلى الضفة الغربية للنيل سبعة محاريب، وبعض الدكاكين ولا وجود للخانات، ولا وجود فيها لحدائق ولا بساتين ولا تمر ولا برميم، والناس يأكلون الذرة والتمساح والقطط والثعلب وقط الزباد وسمك النيل ولأكلهم لحم التمساح أصبحوا شجعان، إنهم يحاربون بربرستان فينتصرون، ومضينا على ضفة النيل ثمان ساعات فوصلنا:

قلعة حلت الملك

إنها قلعة خشبية على الضفة الشرقية للنيل وبها جامع وستمائة بيت من القصب، فتجاوزناها وبعد خمس ساعات بلغنا قلعة نوجى.

قلعة نوجى

إنها على حدود الفونج، إنها قلعة عظيمة من خشب السنط ولها باب واحد وجامع ومائة كوخ وفى الصباح مضينا عنها وسِرنَا عشر ساعات.

وصف قلعة مدينة أرياجى

قلعة بنيت على الضفة الشرقية للنيل فى فضاء واسع وفى مساحة واسعة، فيها زروع إنها مدينة جميلة، إنها قلعة متينة الجدران ومرتفعة وارتفاعها ارتفاع الشجر ففى هذه البلدة أشجار عمرها ألفى عام أو ثلاثة آلاف، إنها قلعة خشبية بنيت من خشب الدوم والسنط والسنديان والزقوم إنها مستطيلة الشكل ومحيطها ألف خطوة، وفيها سبعمائة بيت من القصب، وفيها جامع ولها باب يتجه إلى الشرق، وقناطر بابها من خشب شجر الدوم، ولا أثر للحجر فى بناء هذه القلعة، وفى المدينة ثلاثة آلاف بيت من الحصير والقصب وسبعة جوامع وأحد عشر دكانًا للبوزه وليس فيها حدائق ولا حمام ولا خان ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن فيها كثير من البساتين، وكان يسكن فيها قديمًا وزير ملك الفونج، والآن يسكن فيها جرجيس خان أخو ملك الفونج إن له أربعين ألف جندى

---

(١) قِحَةٌ: وَقُحَ يَوْقُحُ. ووقِحَ يوقحُ وَقَحًا ووقَاحَةً وقِحَةً قَلّ حياءُه واجترأ على اقتراف القبائح ولم يعبأ بها. ويقال: رجل: وَقِيحٌ وامرأة وَقَاحٌ، وهو وِقحٌ وهى وقِحَةٌ أيضًا. والجمع وُقُحٌ.

وستمائة ألف من الرعايا، وهو ملك على البرابرة، وقد شرفت بلقائه، وقد قدمت الغنائم التى أرسلها كور حسين وكانت فى موقعة فردانية، وبعد السلام عليه سأل عن حسين خان ولقد نقلت الأنباء وسجدت شاكرًا، كما حملت له هدايا ملك البربرستان فَسُرَّ لذلك كما أهدى إلىَّ قارورة من الشراب المعطر، وقميص وسراويل إلا أنه غاية فى البله، وقد أتينا جرجيس خان فلما شاهدنا قام واختبأ فى ركن ونادى الترجمان فقال لى الترجمان (يقول جرجيس خان لماذا هؤلاء بيض البشرة هكذا لعلهم جاءوا يشتكون ممن بيض وجوههم لأنصفهم منه؟) وقد نقل إلى الترجمان هذه البلاهة، فوقعت فى حيرة شديدة، فندمت على تجولى فى بلد فيها ثمانية عشر ملكًا وقرى لا حصر لها لأنى سمعت هذا الكلام، ولكنى بدأت أتكلم فقلت للترجمان (نحن من عبيد سلطان مكة والمدينة وملك ملوك العرب والعجم والروم والقسطنطينية القيصرية السلطان محمد خان، ونحن تحت حكمه ونسكن فوق ترابه وبأمر الله تعالى نعود إلى بلادنا ولذلك فوجوهنا بيض أما أنت وأنتم أولاد حام بن نوح فى بربرستان وفونجستان وسودان وبغه نسقستان وجزيرة مصر، إنهم سود الوجوه والشعور والعيون، فالله خلقكم سودًا كما خلقنا بيضًا، وإلا فإن جلد وجوهنا إن سلخ فإنه سيسيل منه الدم ثم قلت إن الله تبارك وتعالى هو الذى بيض وجوهنا إنه على كل شىء قدير، وقلت ما قلت واعظًا، وقد أخذ العجب كل مأخذ من ترجمان جرجيس خان واتجه بالخطاب إلى من بجانبه قائلا: (أرأيت قومًا بهذه الغِرّة، زادك الله عمرًا يا خان جرجيس لقد رأيت فى مصر كذلك بلهاء، ففى هذه الديار تبدو الشمس فلا قيظ لديهم) فشرد عنى عقلى، ونحمد الله على أنه لم يتحرك وهو ذاهب العقل ثم قام وقدم عَلىَّ فقمت ووقفت ثابت القدم، ولكن كنت أنظر إلى الخدم وهم مسلحون، وقال لى «أى ثياب تلبس؟» وقال لى «حُلَّ سراويلك»، وألح فى ذلك إلحاحًا شديدًا، وقال: «فلتحل سراويلك لنشاهد إن كان جسدك مثل وجهك»؛ فطاش صوابى وحسرت عن ذراعى ليشاهدهما؛ إلا أنه لم يقنع بذلك وقال: «لا بد أن تحل حزامك»؛ فكلفني ما لا يطاق، فامتلأتُ غضبًا وخفت أن يطهونى فى الشمس، فجعلت أصيح وأقول أنا من الروم، وقد أتيت من دنقلة، وكلهم لم يقنعوا بهذا وحلوا

حزامى وعرّونى مـن ثيابى، وقالوا: «سوف نستولى على ما لك من مـال»؛ ثم قالوا: «كنا نظن أنك تحمـل سلاحًا فى حزامك»، ثم لم ينبث أخو الخان ببنت شفة، وجلس فى مكانـه وابتسم ثم ألحَّ فى الـرجاء طالبًا منى أن أبقـى، وتكلم بكلام ونطـق ببعض كلمات، وطلب المغفرة، وقال إننا طيلة عمرنا لم نشاهد رجلاً غريرًا مثلك، وطلب منى أن أقبل يده، وقال فلترفع العمامة عن رأسك لنرى علامة فى رأسك للجنون، فقلت إن عمامتنا هكذا فنحن مجاهدون فى سبيل الله، وفى رأسنا علامة لذلك ندفن بها فنحن لا نحل عمامـتنا، وكان هذا من جوابى، فأخـرج من منطقته عطـرًا وأهداه لى، وقدم إلى عودًا وعقيقتين ومرجـان كما أهدى إلى فتاتين سمراوين، وثمانية من الـعبيد السود كما أهديت إليه فيلاً عظـيمًا فَسُرَّ لذلك سرورًا عظيمًا، أما أنا فكـنت أعظم منه سرورًا، فإن هذه الفيلة تعتـلف كل يوم حمل مائة من الإبل وكأنها تشرب نـصف ماء النيل، ثم فى اليوم الثالث ودَّعته ثم ارتحلنا على شاطئ النيل إلى فونجستان، وسِرنَا اثنتى عشرة ساعة، وبلغنا قلعة عطشان.

وصف قلعة عطشان

إنها تقع على الضفـة الغربية للنيل وهى مستديرة الشكل، وبهـا جامع وستمائة بيت من القصب، أما حاكم هذه القلعة فرومى اســمه قره على جلبى، وهو ولد لأم حبشية وبينما كان يمضى إلى مدينة زيلع من الحبشة وقع أسيرًا لدى الفونج وهو فى صباه، ولم يطـلق سراحـه من الأسر مـنذ خمـسين عـامًا، وهو رب أسـرة، وعلى خـلق عظـيم ومتصوف، ولقد شاهدنا جامع المدينة وأسواقهـا السبع والمغنيات والموسيقيين فى حانات البوزه، وفى البساتين التى فى خارج هذه المدينة، الشمام والبطيخ ثم مضينا بعد ذلك.

لقـد تجولت فـى كل الـبلاد وتجولـت فى بلاد الـزنوج خـصوصًا، وجـزت خلال الطرقات، وبينما كنت فى بستان هذه المدينـة كان الفصل فصل البطيخ ولم نشاهد هناك جيادًا، ولكننا سمعنا زمزمة بكتاشى، ووقفت وقدم على اثنان من البكتاشية لهما سحنة القلندرية وهما كمـا ظهر أمامنا بعض الصوفية، وبالسؤال دللـنا على الطريق، وبعد أن سلمنا أمسك خدامنا من البربر بلجم خيـولنا، وجلسوا، فأمسكت بلجام خيـول هؤلاء الصوفية ثم مضينا.

فى وصف وحيد القرن

للوزراء فى الروم جيادٌ مثل دابة الأرض، وهى جيادٌ ضخمة الجثة كثيرة اللحم والشحم، وأما وحيد القرن فجلده يشبه جلد العجل ولكن من أذنيه إلى ذيله شعر أسود ورأسه كرأس الحصان، وعيناه كالتفاح، ومستديرة وكحيلة، وله أذنان كالحصان، وفى مقدمته قرن وهو غاية فى الغلظ وهو مستدير الطرف، وطول جسمه خمسة أشبار وأذناه واسعتان وأسنانه كأسنان الحصان، ولكن له سنتان على الجانبين بارزتان تبدوان كأنهما سِنَّى رمح، وعنقه قصير للغاية، وعنقه وكتفاه يشكلان كتلة واحدة، وله شعرٌ موفور على كتفيه وقوائمه تشبه قوائم الجاموس، وهى قصار كما أن حوافره مشقوقة وذيله فى غلظ ثلاثة أذيال للفرس، وشعره معقوص، وقرنه قوى وهو من القوة بحيث أنه إذا نطح به الفيل بقى فى جثة الفيل لأنه قرن منحرف أنه ينطح الفيل فى عينيه وقوته تكمن فى قوائمه.

التعريف بدَابَّةِ الأرض

تسمى فى العربية البغل فلا فرق بينها وبين البغل، ولكن فى أعلى أذنيها قرنان أسودان معقدان، وطرفهما كالمبضع وحوافرها مشقوقة وفى المذاهب الأربعة حلال أكلها، وهى سريعة العدو إلى حد بعيد، وكأنها غزال وتلد مرتين فى العام، والمولعون بها يركبونها ويجعلون لها لجامًا، ويضعون الإكاف على ظهورها، فلما رأيناها دخلنا سرور عظيم، ووجدنا لحم الإبل ولحم الدجاج، وقلنا إن خير الطعام ما حضر، وسألنا عن أصل وجودها فقيل لنا: كنا ثلاثة إخوة فى سفينة تسير بنا من الهند إلى الحبشة، وبينما كانت سفينتنا تسير بنا استولى كفار البرتغال على سفينتنا، وأوقعونا فى الأسر وحبسونا فى مخزن السفينة، وجرى القضاء بأن يموت أخٌ لنا فشووا لحم جثته وأطعمونا منه، فأكلنا من لحم أخينا طوال شهر واتفق أن تلاطمت أمواج البحر ودفعت السفينة إلى الشاطئ فتحطمت السفينة وفَرَرْنَا إلى جبل مرتفع، واغتسلنا فى ماء حار وصلينا ركعتين لله شكرًا، وتوبنى أخى من أكل لحم ذى روح، ولما ذَكَرَ هذا السبب أجهشنا بالبكاء، ومن الغد جاء هذا الحيوان إلينا، فأنسنا به، وقال بلسان الحال اركبا، فوصلنا بسلامة الله

على ظهر هذا الحيوان بعد سبع سنوات وبقينا بين الزنوج فسخر منا هؤلاء الحَمْقَى، وأكلنا قليلاً من الخبز وخبز الذرة وشمام وبطيخ، وشكرنا الله ولما دخلنا المدينة لم نأكل من طعامها، وقد فضحونا، فسألتهم فى جرأة، لم نأكل من ثمار حديقتكم ولم تقدموا لنا شرابًا من ماء نهركم، فأى البلاد مسقط رأسكم؟ فقالا: إن بلادنا بلاد الروم، وبالقرب من مدينة قونيه، فقلت لقد رأيت بلدكم، وزرت جامع والدة مولانا، وشاهدت مدرسة يعقوب وإبراهيم بك فسرا لذلك، ثم قلت لهما: يا إخوان الوفاء إذا أردتم الخروج بسلام فاتبعونى واقبلوا رفقتى لأمضى بكم إلى مصر بسلامة الله، يدى فى يدكم، فجددوا البيعة لى وقدموا لخدامنا كِسْرَة خبز، وأصبحنا أخوة فى الدنيا والآخرة، وتكلموا معى كثيرًا، وانشرحت صدورهم بحديثى معهم، وغادرنا البستان وبينما كنا فى سيرنا جاء رجل من قلعة عطشان ودلنا على الطريق وشرفنا بصحبتهم، وسألت عن اسمهما الشريف، فقال أحدهما إن اسمه نعمت الله والآخر سيد جار الله، وقالا: إننا لا نقبل جيفة الدنيا، ولم يقبلوا أى شيء، وقالوا خذ الرفيق قبل الطريق وقطعنا المراحل فى شدة القيظ، وبعد عشر ساعات سِرنَاها بلغنا قلعة بقيت.

قلعة بقيت

هى قلعة على الشاطئ الغربى للنيل، وهى من الخشب كما أن البيوت فيها من خشب، وبها جامع صغير مكثنا به، وسِرنَا فى شدة القيظ وقطعنا المراحل سبع ساعات وبلغنا قلعة حلة الركابى.

قلعة حلة الركابى

تقع على الضفة الشرقية للنيل وهى من الخشب، وليس فيها جامع ولا أبنية، وسِرنَا على ضفة النيل تسع ساعات وبلغنا قلعة حلة الجندى ثور.

قلعة حلة الجندى ثور

يسمى حاكمها جندى ثور، وهى قلعة من الخشب، وبها ألف بيت للبربر من خشب وقصب، وبها جامع، ولا وجود فيها لثمر، وأرضها سبخة، ومن القلعة مضينا برجالنا إلى ملك الفونج، وفى هذه الليلة أحضرنا كل هدايانا ورسائلنا وفى الصباح سِرنَا إلى

سنّار، وقد أعطانا والى مصر كتخدا إبراهيم باشا جوادًا وعبدًا لنقدمه لملك الفونج، وهو جواد من المخمل المزركش وثلاثة قسى ملفوفة وإزار من الحرير، وقدمتها إلى خدمنا وقد تزين جميع الخدام بأحسن ثيابهم كما زينت الجياد والإبل، وقد وضعت الرسائل فى حقيبة مزينة وسِرْنا على ضفة النيل ست ساعات وثار الغبار علينا من عصف الريح، وقد استقبلنا من يركبون الفيلة والإبل والحمير، وجاء ملك الفونج فى جمع وهو على ظهر فيل أبيض، وبعد السلام عزمنا على الرحيل، فبدت لنا ثمانون خيمة على ضفة النيل ومن انعكاس الشمس على المدافع بهرت عيوننا، فقال إن الملك خرج لاستقبالكم، وهو فى انتظاركم وقَدَّمَ له جميع الهدايا، ومضينا إلى قاضى بربرستان، ووقفنا أمامه ويدانا على الصدر تأدبًا، وقلت له السلام عليك يا سلطان السودان فى خشوع فقال لى السلام عليكم يا خادم آل عثمان فسلمت يدًا بيد وبعد ذلك مضينا إلى سماط، فطعمنا طعام الفونج وغسلنا أيدينا بالماء والصابون فى وعاء، وبعد ذلك قدم عبد أسود فى يده حق، فأخذه ومسح به يديه كما مسح وجهه ففاحت رائحة العطر فانتعشنا، وقدم إلينا العبد حقًا وفيه مسحوق أبيض ولكن رائحته ساطعة فواحة، ورائحته أشد نفاذًا من رائحة المسك والكافور فأخذنى العجب، فناديت ترجمان الفونج، وسألته عن نوع هذا العطر فذكره لى فأسَرَّ الترجمان بشىء فى أذن الملك، فرد الملك علينا قائلاً ليقرأ من معكم الرسائل التى أحضرتموها معكم، وفى نفس اللحظة قرعت الطبول فى الجوانب الأربعة، فقال أنا أقدم فيلاً كأنه دابة الأرض وفى القصر كان سبعة فيالين، وعشرون عبدًا، وخرجنا أفواجًا كالجند، ومضينا تسع ساعات على مقربة من مدينة سنار فى الطريق العام ورأينا رجال الملك وهم يسجدون لنا، وبناء على ظهور سنار أطلقت المدافع، وفى دخولنا فى القلعة قرعت الطبول ونفخ فى الأبواق، وحضر جميع أعيان الفونج وكان الملك جالسًا على عرشه فقدمت إليه فى البداية الرسائل، وقرأ رئيس الديوان الرسائل التى بالعربية فجعل يثنى علينا الثناء، ثناء تجاوز فيه كل حد، وقام فيه من عرشه ووضع كفى فى كفه، وطلب إلى أن أجلس على العرش فتقبل الرسائل ووزع الهدايا أمامى ونال كثيرًا من القسى والسهام والكؤوس وأعجب بالسهام والقسى والكؤوس، وقال هل يرشق

أحد عدوه بمثل هذه الأشياء النفيسة فأجبته بقولي يا مولاى إن هذه النفائس تليق بك، ولأنها فى الغزوة تقضى على العدو، ولقد أدركت من ذلك أنه شجيع، فأحضرت بعد ذلك جوادًا عليه بساط قَسُرٌ به كثيرًا، ولقد فهمت لسان الحال وجعل الملك يتأمل هذا الحصان وعليه البساط مدة ساعتين فخرجنا من عنده ومنحنا دارًا وبستانًا فيه الليمون والنارنج على شاطئ النيل ودخل معنا جميع خدامنا مدينة سنار فى العشرين من شهر شعبان عام ألف وثلاثة وثمانين.

وصف ولاية السودان وقلعة سنار

ومن الغد فى الصباح اجتمع المجلس ثانية، وقد سلمت الهدايا التى أرسلها معى كور حسين بك، وتناولنا الطعام بعد المجلس وكان الطعام طعامهم المعتاد والزعتر، ولديهم الكثير من النعم منها الكباب والضأن ولحم الغزال ولحم الإبل ولبن النوق بالذرة وهم لا يعرفون طعامًا غير هذا، والأرز والعدس والفول إذا أتت من مصر وجرجا ولكن حين حل شهر رمضان طبخوا الأرز والقرع والقلقاس والقرنابيط ويقدمون فى كل يوم ألف قدر من الطعام، كما قدموا إلى خدامنا طعامًا خمسة أيام، وفى كل يوم مائتى طبق من الطعام السودانى، كما قدموا أربعمائة رغيف من خبز الذرة، ولخيولنا مائتى ربع من الذرة فى كل يوم، وفى هؤلاء القوم رأينا شابًا فقيهًا حلو الكلام أسمر اللون وجيه المنظر ومعتدل القامة وعلى رأسه عمامة بيضاء، ويرتدى قميصًا أبيض كان دائم العبادة مشغولاً بها يحضر الديوان، ويسمع للشاكين وهو يكمم فمه وأنفه، ثم يأتى وهو يستر فمه وأنفه، ثم يأتى المدعى عليه ويقف إلى جانبه، وهو يسجد ويقدم فروض الطاعة أمام الملك والقضاة، إلا أنهم على المذهب المالكى، لأن جميع أهل بربرستان والسودان على المذهب المالكى وقاضيهم يسمى شفيع الدين، ووزيرهم يسمى فين خان، والدفتر دار يسمى دابر خان والكاتب برابى خان وحاكم المدينة يسمى سرمن، وتسمى طائفة الجند عندهم سلام وهم يملكون ثلاثمائة ألف من الزنوج المحاربين وليست لهم رواتب والله يعلم عدد الرعايا، والبرايا، وفى مصر كثير من العرايا والجياع، ولا يعرفون المرض، وهم معمرون ولهم شيخ إسلام على المذاهب الأربعة، ولهم من أهل

الإفْتاء أربعة على المذهب المالكى والحنبلى، ولا وجود لمفتى على المذهب الحنفى، ولهم نقيب أشراف، ولأن بينهم سادات كرام، فإنهم يحضرون على الدوام فى ديوان الملك، ولكنهم لا يبدون رأيًا فى الديوان ولا يلبسون ثياب الحرير، والأعيان يلبسون القمصان والعمائم البيض والفقراء منهم يمشون حفاة الأقدام، وإذا ما استحق شخص ما القتل تشاور الأعيان فى أمره إما قتله وإما تبرئته، وإذا جاء النساء إلى الديوان فللملك حجرة متصلة بالديوان فيقفن وراء حاجز من القصب وهن يعرضن مظلمتهن وفى هذه البلاد يحرم على النساء أن يخرجن من بيوتهن وإذا كُنَّ سبعًا أو ثمانى فلهن دار ضيافة خاصة بهن، ويقدم إليهن الطعام والشراب من قبل الملك ويكرمهن تكريمًا عظيمًا، وولايتهم واسعة الأرجاء، وهى ستمائة وأربعون مدينة وألف وخمسمائة قلعة وأربعون ألف وسبعون جبل كبير وثلاثمائة صحراء وأربعون بحيرة عذبة وخمسون بحيرة أخرى مالحة، وفى أرضهم معادن كثيرة وفى صحاريهم ذهب تحت الأرض، ولديهم طعام يشبه الثعابين وهو سم زعاف، وعندما يجمعون الذهب تقفز جميع الثعابين والحيات، وتبدو الفضة ومعدن النحاس والحديد والرصاص والنفط والقطران وغبار الزجاج والكبريت، ولا وجود لمثل هذه فى بلاد أخرى، كما توجد كنوز لكثير من هذه المعادن وكلها يحصل عليها مجانًا، ولكن لوجودها عند طائفة من الأغبياء، فلا يقتدر على استخراجها، والكلام على هؤلاء القوم يطول ويطول، ولهم كثير من الأحوال تشبه أحوال الخيول، ولا يمكن ذكرها وبعد ذلك بلغنا السودان.

* * *

فى بيان حد السودان

فى الشمال على بُعد أربعين مرحلة من الحبشة، ومن الشرق عشرة مراحل إلى (سلطانه بردو مبيه)، وإلى الجنوب مسيرة شهرين إلى قرمانقه والنيل ينبع من جبل القمر فى قرمانقه. وعلى مسيرة ثلاثة أشهر غربًا إلى بغه نسكى، وفى الشمال على مسيرة ست مراحل إلى حدود بلاد البربر، وأهله يختلطون بالبرابره. وعلى الجانب الشرقى للنيل على مسرى رياح الشمال على حدود مملكة علوى، إن هذه البلاد المتراحبة الأرجاء فيها عجائب وعجائب، وما يلفت إليه النظر، يعجز أقلام البلغاء عن وصفها، إلا أنا نحاول ذلك جهد المستطاع وفى البلاد يهود، وقبط، وروم، ولا وجود فيها للفرنجة والقزل باش وأهل السند والهند، ولكن فيه قومًا من عبدة النار، وهم يذهبون إلى الحبشة ويعودون منها فى تجارتهم، وقد حضرنا فتح ولاية فروانكه، وفيها قوم من المجوس، وهم فى حكم السودان. وهم سمر البشرة وحمرها وصفرها، وأجسامهم نحيلة ما رأيت فيهم أحدًا عليه لحمًا وشحمًا، إن فيهم نشاط كما يحتملون شدة الحر. وهم يمضون عراة الأجسام، ولا وجود فى هذه الديار للجوخ والحرير والمخمل، ولا وجود للعملة الذهبية وقد رأوا آباءهم وأجدادهم على تلك الحال. أما ما يجلبه تجارهم فهو الإبل والغنم والعجول والجاموس وسن الفيل وقرن وحيد القرن، وتروس الفيل وخشب الساج الفونجى والصقنقور والببغاوات، والأبنوس، والسنط، والتجارة عندهم بالمقايضة، إنهم يبيعون ويشترون بلا مال يدفع ثمنًا للسلعة، والذهب عندهم كثير، ولكنهم يصهرونه ولا وجود عندهم لسكّة لأنهم لا يعرفونها، وفى جوامعهم الكثير من الخطباء على المنابر يعظون الناس باللغة العربية، ثم بعد الخطبة يدعون لسلطان البلاد الواسعة سلطان السودان السلطان بن الخاقان بن غلام محمد خاقان ابن إدريس خاقان، ثم يدعون لمولانا السلطان محمد خان صاحب الحرمين أيد الله ملكه إلى انقراض الدوران، ويتلون آيتين وإنَّ الله وملائكته يصلون على النبى، ثم يؤذن المؤذن بأذان قيام الصلاة، ثم يصلون ركعتى الجمعة، ويخرجون من الجامع وهم لا يصلون ركعتى السنة، وهذا دأبهم منذ الزمان الطويل، ولا يمكن الزواج إلا بعلم الملك، وهم يُؤذن

لهم بالرحيل إلى جميع البلاد، وهم يعدون ملكهم فى منزلة النبى، وبينما يذهبون إلى الجامع أو يخرجون إلى الصيد يسلمون على الملك ويسجدون له سجود تعظيم وتكريم، ويمضون حاملين نعالهم فى أيديهم عندما يذهبون إلى الجامع مما يدل على تواضعهم الجم.

أوصاف قلعة مدينة سنار عاصمة السودان

إنها مدينة عظيمة وقلعة قديمة على الضفة الغربية للنيل فى السودان وأول مَن بناها الملك خلحا خاقان، إنها قلعة مبنية من الحجر على شكل مربع ولكن ليس لها خندق، وفى خارجها سور من الخشب المحشو، وما شاهدناه فى ولاية إبريم من قلاع صغيرة وكبيرة فما شاهدنا أكبر من هذه القلعة فى شكلها وصفاتها، إنها معمورة، ومزينة لأنها عاصمة فونجستان، ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفى داخلها جامع الخاقان إدريس، وله منارة واحدة، وفى معظم القلاع التى اجتزناها جوامع بلا منائر، وبها قصر الملك وقصور الوزراء، وبها بيوت مبنية من الحجر واللبن المصنوع من طين النيل وعددها ألفا بيت من القصب وبها بيوت ذات حدائق وأخرى بلا حدائق وقصر يطل على النيل وفى القلعة حمام، وقصر الملك فيه بساتين الليمون والنارنج والبلح وحدائق الورد والرياحين وبها يزدان القصر.

ولا وجود فى هذه القلعة لسوق، ولكن فى خارج القلعة جهة الغرب بيوتًا من القصب والحجر والخشب والحصير عددها ستة آلاف بيت، وخارجها كثير من ساكنى الصحراء وهم زنوج عددهم مائة ألف، ويأمرون هؤلاء القوم بترميم القلعة إذا وجب ذلك ويحضرون لما فى جزر النيل من الكرز والسنط وخشب الساج. ويحمل ذلك على ظهور الإبل، ولكن ليس لهذه القلعة حاكم مثل ما لقلاع الروم من حاكم وجنود، ولكنْ فيها مخزن للسلاح والبارود الأسود وخمسون مدفعًا وبعض حملة البنادق، ولكنهم لا يجرأون على استخدامها، إنهم قوم جبناء للغاية، وعلى أبواب القلعة إطارات من الحديد لمدافع فى حجم الفيل، وإذا أخرجوا إلى القتال استخدموا هذه المدافع الضخمة بعد حملها فوق ظهور الإبل، وفى يوم رؤية الهلال ويوم العيد يطلقون هذه المدافع، وتزدان الدنيا بمصابيح النفط ودوى الطبول وهم يصعدون ولولةً كأنهم فى احتفال ملكى.

والزنوج من الحبشة والمندبية حينما يقدمون للإغارة على تلك المدينة تقصف المدافع معلنة بمقدمهم، وفى القلعة ثمانية وسبعون ألفًا من الزنوج يبقون فى القلعة ليكونوا مددًا للجيش، والمندبية تنخلع قلوبهم رعبًا من ذلك، إنهم ليسوا مسلمين ينكرون الحشر والنشر، وخارج القلعة سبعة جوامع من الحجر، وأربعون مسجدًا وثلاثمائة دكان، وهى من الدكاكين الصغيرة، والمقاهى وحانات للبوزه لا تحصى كثرة، وهى معمورة مثل أبنية الروم والعرب والعجم وحلب، وليس فيها خان ولا حَمّام ولا سوق للبن ولا مبرة ولا سبيل ولا مكتب للصبيان ولا مدارس. ففى هذه المدينة لا يوجد فيها بقلة فى حجم الحجارة وترابها لطيف إلى حد أنه صنع كاسات للعين خزفية منه، كما أن تربتها خصبة حيث الكيلة من الذرة تنتج خمسمائة كيلة، كما أن محصول القمح موفور، ولاعتدال جوها زرعت حدائق فيها هنا وهناك، وفيها الليمون والنارنج ولا وجود فيها للحدائق ولكن بساتينها كثيرة للغاية وجمال نسائها وفتياتها فى سواد بشرتهم، ولكنهم ليسوا غلاظ الشفاه ولا عابسى الوجوه كالزنوج، وفيهم عذارى لهن من الجمال والدلال ما يتيم القلوب، سبحان الخلاق الباقى، فلهن عيون الغزلان الكحيلة والكلام الرقيق والقوام الممشوق مَن رآهن أخذ منه العجب مأخذه. وأهلها يتزوجون على المذهب المالكى وهذا جائز، أما نكاح المتعة فممنوع إلا أن علماءهم يبيحون ذلك فهم فى كل أسبوع يتزوجرن زواج المتعة، ويدفعون المهر ذراعًا من البز، وفتياتهم يسرن عراة وإذا أعطوا مرتبًا قاموا بالخدمة ثلاثة أو أربعة أيام، وبعضهم يخدمون دفعًا للجوع ومعيشتهم ضنك ولكن إذا أخذهم الغضب أصبحوا شرارة من نار وفيهم عناد، وليسوا بلا أصل فهؤلاء قوم بنقلا ودنقله، وأولئك أفنو وبورنو، وقرمانقه وبغه نسكى وهكذا. إنهم ليسو غلاظ الشفاه، وليست لهم أرجل الفيلة وجسم الغول، ولا عمالقة إن كلامهم رقيق ووجوههم جميلة وسمر البشرة وأفواههم صغيرة وأنفهم كالثمرة وأسنانهم مُنَضَّدَة بيضاء بين شفتين حمراوين ولهم نساء لهن عيون الغزلان وهذا من جمالهن يوقع الرجال فى غرامهن ويزدانون بالخرز، والخرز عندهم جميل كما أنهم يلبسون الإزار المصرى والإسكندرى، ويلبسون ذلك من شدة البرد فى الشتاء، ولكنهم

عراة فى غير فصل الشتاء، أما نساؤهم فيلبسن إزار الصعيد العالى والمرط القطنى المنقش كما يضعن فـى أذرعهن الدمالج وفى أرجلهن الخـلاخيل، وكلامهم بالعبريـة منذ عهد إدريس.

اللغة العبرية

الأعداد فى اللغة العبرية:

تلوَ: واحـد | اندى: اثنـان | ياصقى: ثلاثة | داقى: أربعة

اوقو: خمسة | أرصقى: ستة | لقار: سبعـه | طلور: ثمانيه

تافى: تسعـة | راقى: عشرة.

ومن الشعر الرائع للخاقان:

المصراع الأول:

جيجلقداتى ابله تتانى اجلى قتار قابلى جدان جتام بولاشى

(الجميل سل القوم عنه أنه روح روحى إذا ما رأيته قبلته)

المصراع الثانى وهذا يكون بيت:

قاسقلى جمناج دال بلادى يبله بادى بقبلى مصناح

(وإذا ما احتضنته، وامتصصت شحمة أذنه وعانقت ذراعه الأسود)

البيت الثانى: المصراع الأول:

اجم جى تمناح بملمجى جلطات

(فلا تظن أنى غبى أخذنى النعاس)

المصراع الثانى:

ججلى قلطان للل لتى

(ملكت الدنيا وإذا قال لعبت بها)

البيت الثالث: المصراع الأول:

مزامى لبتى قراجى جبتى صج بولانى قوس جلامى سلحلتى بتى

(تعشقته وهبته فؤادى أكفرت لذلك عشقت منذ زمان بعيد)

المصراع الثانى:

قفان شاهى قليت جاهى ختزيله جاج باتيله حاج تتلتى شاهى

(الملك الخاقان قلت ذلك فى لوم إنه يسكن روحى إنها له قربان إننى بعشقه ثَمِلُ)

وقد لحن هذا فى نغمة البياتى، وغنيت على أصول السماعى وتغنى الرجال والنساء بالأناشيد، وقرعوا الطبول وضربوا الدفوف وملئوا القرع بالحصى ودام سرورهم ليل نهار، وأكلوا البصل والثوم وشربوا البوزه وأنشدوا المربع.

أسماء أهل فونجستان

من أسمائهم إدريس وجرجيس وحمد، وهى أسماء محبوبة ومألوفة وكذلك ناصر وفونقو وأنشومبوا بمعنى سيد، فرما وعدلان بمعنى جندى، وسرهاج وبشير ودانيال ومدللا وحدللا وسلى يعنى سليمان وعبد رى بمعنى عبد الرحمن وفيسبان بمعنى معلم.

أسماء شاه فونجستان

طاغليته، وحجى جى، وقوره وجوضه يعنى حَفَظَه، ونوره حه وارابه وحوشه وغنيه وحليمه وماقنى وأمَنى ونفيسه وشمامه ومشيقه وآشيه وسبيقه وحجه وباره وشو، وجاره يعنى جاريه وحته ومدينه واسانى وحنفه وسما ولغلم أن هذه الكلمات السابقة بمعنى أمهاتنا وأخواتنا ولكن هؤلاء النساء فقيرات للغاية، وتستر هؤلاء النساء عوراتهن بجلد الغزال والغنم والماعز، وهن يمزقن هذه الجلود قطعة قطعة كما أنهن يزين حلاتهن بالخرز، وبقية أجسامهن عارية وهن لا يلبسن ثيابًا لشدة الحر، وقد جئن من دعاء نوح عليه السلام عليهن، وأنعامهم كثيرة للغاية ولكن لا وجود بينها للبغل إنهم يشربون ماء النيل وبوزه الذرة، وثمة نوع آخر من البوزه مسكر للغاية، أنهم يأكلون الذرة، كما أنهم يربون ويأكلون الغنم والمعز والجاموس والبقر والإبل والفيل ووحيد القرن والغزال وبيض النعام والقطط والنعام والأسد والنمر، وهذه الحيوانات تأتى إلى بيوتهم وبساتينهم ويصنعون من جلود الغزال والحملان وسائد لهم، والنساء يزين بيوتهن ببيض النعام، ويشربون لبن النوق المسكر خمسة أو ستة أيام، وأنه يسكر أكثر مما تسكر البوزه، ولكن

بما أن العنب لا وجود له فى بساتينهم ليس لديهم شراب مسكر كالعرق الذى يصنع من العنب، وليس لديهم من المسكرات غير البوزه واللبن والسبب فى أن لبن النوق لا يسكر إسكارًا شديدًا أنهم يضعون فيه جذر نبات الحلفاء فيزداد اللبن سكرًا، إن هذه المشروبات المسكرة تناسب جوهم الحار ولكن شدة الحر لا تؤثر فيهم وأحمد الله أنى لم أتأثر بها، ونحن نمشى فيها كما نمشى فى أيام الإحرام عراة الرءوس حفاة الأقدام ونحن بذلك نتبع أهل الفونج، ولم نحزن ذات يوم مع أتباعنا لأن نسيم الصبا هب فأنعش أرواحنا.

وماء النيل فى هذه البقعة ماء زلال، لأنها تقع على مسيرة شهر جنوبًا وفيها من المعادن فى الأرض السبخة النفط والقطران والكبريت والحديد والزرنيخ وفى القنوات مئات الآلاف من الأفاعى والحيات والحيوانات السامة غارقة فيها ويملئون بماء النيل القِرب من جلد الغزال، فيبرد ويصبح قطعة من الثلج، إلا أنهم إذا أكثروا من شرب الماء أصيبوا بالإسهال، وفى هذه الديار لا وجود للبراغيث ولا القمل ولا البق لأن جميع أهل هذه البلاد يدهنون أجسامهم بالزيت ويرقدون فى الشمس كأنهم الجاموس، والبراغيث والقمل والبق لا تبقى فى الأماكن التى فيها دهن، وهم لا يعرفون المآثم والمحارم والزنا واللواط والنميمة، وأمراضهم الطاعون وذات الجنب والفالج والرعشة الجسمية والجزام والجمرة والبرص، والحاصل أنهم لا يعرفون ما الطاعون، وهم يعدونه مرضًا عارضًا إنه فى أول أمره ضعف يصيب المريض ثم ينقطع عن الطعام والشراب ثم يموت فيدفن، إنهم لا يبكون ولا يتأوهون، ولكنهم يضحكون، وقد سألت عن ذلك لماذا لا يبكون، نحن إذا أصبنا بذلك لم نر عيبًا فى البكاء، فقالوا: إننا نموت جميعًا قضاءً وقدرًا.

وخلاصة القول أنهم قوم يتوكلون على الله إنهم من لم يجد عشاءه ووجد أكله، وإلا فإنه يمضى جائعًا، إنهم يصيدون سمك النيل وبه يسدون جوعتهم، وإذا وصفنا أحوال وأوضاع السودان كلها تطلّب منا ذلك كتابًا بذاته.

علم الهيئة والإسطرلاب وربع الدائرة

وبيان ارتفاع البلاد وانخفاضها وطول أنهارها

أولاً خط الاستواء فى الإقليم الأول ويبلغ ولايات بربرستان وعلوستان ودميستان وخط الاستواء عنده يتساوى الليل والنهار، لأنه الإقليم الأول، ولكننا وصلنا إلى السودان وهو على مسيرة ثلاثين مرحلة من منطقة خط الاستواء وإقليم فى حكم مدار الجدى. وقال الحكيم بطليموس إن هذا الإقليم هو الإقليم الأول، وخط الاستواء هو الإقليم الثانى لأن فى فونجستان الليل والنهار يتساويان وإننا على مسيرة ثلاثين مرحلة منها فمضينا إلى وراء خط الاستواء فوجدنا ست عشرة درجة وخمسًا وأربعون دقيقة ومدار يمر فى وسط أسوان، وإلى ما بعد المدار فلم يذكره قدماء العلماء، ولأن هذا الإقليم يخلو من العمران وشدة الحر وأثر السرطان، وقد استولى كفار البرتغال على نهاية جنوب جزيرة مصر، وبنوا القلاع على ضفة النيل كما بنوا المدن ومارسوا البيع والشراء فيها وكانت لهم ولاية بين مدار الجدى والإقليم الأوسط، ولكن لا يستحق هذا الإقليم الكتابة عنه، وعلى طرفى مصر البحر المحيط، والباقى تراب على مسيرة خمسة آلاف ميل من البحر المحيط أرضًا خالية ولكن الطيور تطير فوقه، وتعبره ونرى أناس من طين فيه لأن الأقيونوس والمحيط يحولان دون ذلك.

ذكر الإقليم الأول

على حد قول قدماء العلماء إنه خط على الأرض من الشرق إلى الغرب وسموه الإقليم الأول ولكنه من عند الله، ولقد تجول إدريس ودانيال فى الأرض من الشرق إلى الغرب فأطلقوا على هذا الإقليم الإقليم الأول، ولما مضوا من الشرق إلى الغرب وجدوا أن عرضه اثنتى عشرة درجة وأربعين دقيقة، فقالوا إنه الإقليم الأول، ثم أطلقوا الأسماء على الأقاليم الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، ولشدة الحر لم يصلا إلى إقليم آخر لنذكره. فبقيا عند الإقليم السابع، ولكن إقليم فونجستان وسط خط الاستواء توجد ولاية عمران وولاية الزنج وديار الحبشة وبعض المدن القريبة، ولشدة الحر

فيها لا يسكنها الإنسان فما سمياه إقليمًا، ولكن كان ولاية عمران وولاية الزنج كانتا معمورتين من قديم الزمان وسنذكرهما فى موضعهما إن شاء الله.

وعلى حد قول سقراط إن الإقليم الأول الذى عبرناه هو ولاية بربرستان وعرضه أربع عشرة درجة وسبع وثلاثون دقيقة، وأطول نهار فيها ثلاث عشرة ساعة وطول الإقليم الأول هذا من الشرق إلى الغرب ألف ومائتا وخمسين فرسخًا، وعرضه مائة وأربعون فرسخًا وفيه ألف مدينة وخمسون منها زنوج أهلها.

أولاً: جزيرة سرنديب وهند وصغانه وطغار وحرش وفرج أباد وأحمد أباد وديوابا وختن فى جزيرة الحبشة زيلع ومدينة مقدشو ومدينة زنج وسودان وبربرستان وفى أرض المغرب فاس، ومرانكوش وطنجه وسبته إنها رأس الأقيونوس.

وعلى حد قول بدر وقولون أن فى هذا الإقليم الأول أربعين جبلاً شامخًا وثلاثين نهرًا عظيمًا، وكل نهر فيها كنهر النيل ومضينا فى الإقليم الثانى وفى نهاية مدينتى دمياط ورشيد اللتان تطلان على بحر الروم.

زيارة ضرائح سنار عاصمة فونجستان

أولاً فى المقبرة ضريح الشيخ عيسى، والشيخ بلال وحاجى فوندان، والشيخ ستوان وحاجى ملابه، والشيخ على وحاجى إدريس، والشيخ فرج عاصم، وعلى كرم الدين عدنى، والشيخ جندى ابن خاقان، وجميع الملوك مدفونون فى هذه المحلة، إلا أن قبورهم ليست مزينة، وهم يزورون قبورهم على أنهم ملوكهم القدامى، وقد قرأت الفاتحة لهم، ورجوت منهم البركات ولله أحمد أن دعاءنا قد كان مستجابًا، ومكثنا فى مدينة فونجستان أربعين يومًا وكان رمضان هذا هو الثالث والثمانون على تولى الملك وقد منحنا فى العيد عيدية ثيابًا مزركشة وثيابًا قطنية ومبخرة من الخزف وغرارة من العود وقارورة من ماء الورد وجاريتين حبشيتين، كما منح هدايا لمن معنا وقد أرسلنا إليه فيلين وجوادًا وزوجين من الأكياس بها قمصان وسراويل ودستين من الصوف وعمامة وثلاثة مآزر مزركشة، ثم جاء الملك إلى بيتنا، وتناول الطعام معنا فقد كان لنا مملوكان يجيدان

طهو الطعام، وكنا نقدم إليه في كل ليلة من ليالي رمضان عشرات الأصناف من الطعام، وكان يطيب نفسًا بتناولها كما كان يحسن إلى غلماننا وكان يفضل الكباب على غيره من ألوان الطعام، بعد ذلك جالب الطعام للإنكشارية وتُجّار الحبشة وأذن للأحباش فطلبوا المدد من الجند، وقالوا سمعًا وطاعة فجيء بألف فارس وألف راكب إبل وألفان من المشاة يحملون الحراب فتحينت الفرصة وطلبت الإذن لي لأكون رفيقًا لهم فاستجيب لطلبي، فقيل لي عَلَيَّ السمْع والطاعة نحن لا نستغنى عنك لحظة فقد الِفْناك للغاية، وذلك لحميد سجاياك وبمشيئة الله سوف تتجول في بلادنا مع هؤلاء الجنود، ومن الغد قدمنا الهدايا وهي عشرون زوجًا من قرون وحيد القرن وعشرون حمل جمل من الشعير والذرة وخبز وخمسون حربة من خشب السنديان وعشرون من تروس الفيل وعشرون زوجًا من سن الفيل وغرارة من المسك وعشر فتيات وعشرة غلمان أحباش وفي يد كل منهم صندوق وفي كل صندوق عنبر ومسك وعقيق وزبرجد وأحجار عين السمكة، وطاووس، ودفعنا الرسوم لحاكم القلعة على ذلك وقلنا إن وزير مصر سوف يقدم من الهدايا غير ذلك.

وقد قدمنا إلى كل واحد إزارًا وعمامة وحملاً من القمصان ومن الغد وصلتنا الهدايا وهي عشرون طاووسًا وخمسون من المماليك السود، وخمسون فتاة سمراء، وخمسون حمل جمل من سن الفيل، وقرون وحيد القرن وعشرون ترسًا للفيلة وألف زوج من السهام ومائة زوج من جلد النمر ومائة زوج من جلد الغرانق، وحمل من الذرة، ومائة حمل من مسك جلد قطة الزباد وعشرة أحمال من الأبنوس، وعشرة أحمال من خشب السنديان وحملان من الذهب وصندوق من المسك وستون شمامة من العنبر وصندوق من نبات ذكي الرائحة وصندوق من عطر البنفسج، وصندوق من دهن السكسبان وحُق من دهن الكبريت، وقد تقبلنا هذا كله، وفي الظهيرة وصلت هدايا كُل من الكتخدا والبوابين للكتخدا والخازندار والمهردار والشيخ العزيز بكرى زاده، وقد سلم الملك ذلك كله إلى أحد الرجال وقد استبشرت في ذلك واشترك الملك كذلك في هذه المشورة وقيل

لنا إننا سنحمل كل هذه الهدايا فى سفـينة سنمضى بها إلى التلال وسوف تلاحظ ذلك لأننا نـثق فيك، وسنكـمل برأيك وتدبيـرك، ومن الغد وصلت مـائة سفينة مـن سفن النيـل، وقد امتلأت فى كـل مرحلة بمأكـولات ومشروبات، فتـوكلنا علـى الله ومضوا لانتظارنا فى قلعة إبريم، وفى يوم سابق على هـذا قَدِم إلينا نحن والباشا كل من حملة الهدايا وراكبو الإبل ورجال الملك وثلاثة رجال من البربر من قبلنا وقد احتفظنا عندنا بما خف حمله وغلا ثمنه، وخرجنا إلى الصيد مـع الملك وفى معيتنا ثلاثة وخمسون رجلاً لخدمة الملك وفى ظهيرة الغد خرج ثمانية آلاف فارس وعشرة آلاف من راكبى الإبل مع الملك من فونجستان للصيد.

* * *

الفصل الثانى والسبعون

بيان عودتنا من مدينة سنار عاصمة فونجستان

فى معية الملك إلى مدينة رملية الجمال التى شاهدناها وذلك فى اليوم الخامس لعيد الفطر المبارك عام ألف وثلاثة وثمانين.

عرف الأحباش الخبر فحملوا أمتعتهم ألف حمل على الفيلة وقد سبقنا فرقة من الجيش تتألف من عشرين ألف جندى خرجنا من المدينة واتجهنا شمالا وغادرنا من مدينة سنار ومضينا على ضفة النيل جنوبًا ووجّه الملك السؤال قائلاً: إن طريق سلطاننا فى الروم من الشمال ونحن نمضى إلى الجنوب فما الحكمة فى ذلك فقلت إن فى ولاية السودان أراضٍ عامرة وطلاسم تستحق المشاهدة ولذلك نمضى إلى هناك وقطعنا عشر مراحل من فونجستان جنوبًا، وقلنا سوف نعود إلى ولايتنا وقطعنا مراحل ومراحل فى تسع ساعات.

بناء قلعة ابسوقه القديمة

كانت فى سالف الزمان مدينة عظيمة، واسمها ما زالت ظاهرة للعيان أما التى على الضفة الغربية للنيل فبناء قوىٌ من خشب السنديان والسنط والصباح ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، وهى على شكل مربع وقد أقمنا خيامًا فى مرج إلى جانبها وشاهدنا فى ذلك اليوم عجائب فى ديوان الملك.

أوصاف العجائب فى الديوان

دعانى الملك إلى خيمته، وجلسنا على سرير هندى فرأينا الديوان الذى فيه كثير من الناس، فجلسوا ركبة إلى ركبة، وكان فى وسطه ميدان عظيم فرأيناه ورأينا فرقة موسيقية تعزف بلهجة وتغنى بلهجة خاصة أمام ستار الملك كما رأينا سبعة من الغلمان الهنود يرقصون وأمام الملك دار أربعة منهم وأذيال ثيابهم مزركشة وكانوا يدورون كأنهم الفلك الدوّار، ولكن لم يكن منهم أحد من العرب والعجم ولا الروم، وكانت فى أيديهم سن الفيل وبه يرقصون ويدورون وكان رقصهم ليس فى قدرة البشر.

وجملة القول أن جميع الأوضاع الخاصة بالبربر قد ذكرتها، ولما أتممت الفصل الخاص بهم ظهر لى رجل فيل الجسم وهو حافى القدم ولكنه يستر عورته بكسره وهو فى ثوب بهلوان وعلامة بهلوان وبينما كان يسير فى ميدان المعركة وطأت قدمه نملة فمضى إلى الملك وقال: يا حى ووثب عاليًا وارتفع مقدار خمس خطوات فى الهواء وقال: إن هذه آداب البهلوان، وقَبّل الأرض بين يدى الملك، ودعا للملك ولى وتراجع موليًا لنا وجهه. وقال: يا سلطان السودان عدت من ديار الهند ومضيت إلى ديار البرتغال ولله أشكر أنى شاهدت جمالك ولكنى غريب عن بلادى وعارى الجسد والآن وقت السحر وأشعر بالبرد فقلت للملك مرهم بإيقاد نار لنستدفئ، فأشعلوا النار فى كومة من حطب السنط والصباح حمل عشرة أفيال، وكانت مثل نار النمرود، فاندلعت ألسنة النار عاليًا، وتتطاير شرارها إلى جانب هذا الرجل فاستدفأ فوثب فى التو وقدم إلى الملك وقال له: يا سلطان الإحسان لقد وجدت الدفء من النار بحمد الله، ولكنى جوعان فأحضروا جملاً بدينًا وأمر بذبحه وشى لحمه على النار وقال لآكل من هذا اللحم، ودعا للملك وبعد ذلك أحضروا جملاً جسيمًا آخر، وكأنما هو دابة الأرض وذبح الجمل وشرب البهلوان كل دم الجمل، ثم سلخ جلده، وقطع جسمه قطعة قطعة وقدموا لحم الجمل للملك فقال: الإذن يا سلطان، لقد قطع قطعة من اللحم ووضعها فى النار وشواها ولكن لم يبق شىء من لحم الجمل وحطم بالفأس عظامه وتناولها، وأخذ بعض أتباع الملك رأسه وقدموها له فأكلها وبقى ذلك أسطورة عند الناس وقال: إن هذا تسبب فى نجاسة تمنعه من أن يصلى إمامًا ثم وقف الرجل ومشى، ولما سمع الغناء قَدِم إلى الملك وقال: يا سلطان إن بطنى لم يشبع فأنا أملك اللحم النيئ وانت تملك النار فأرجو أن تمنحنى إياها ولما قال ذلك ابتسم الملك ثم مضى وخلع سترته بجانب النار وجلس وسط النار وهو يقول بسم الله، أما أنا فتأملت النار وألسنتها تلتفح وكانت النار مثل عقيق اليمن، ولكنى ذهلت وجعلت أتأمل، وقال: النار فاكهة الشتاء ثم حَك بيده جسمه وظهر منه دخان ثم خرج من النار وقَبّل الأرض بين يدى الملك،

وقد تصبب عرقًا، وفى ساعة تناول الجمل وهذا القدر من النار فبقيت فى حيرة والناس من حوله مصطفين يتأملون، وهربوا فى سفينة، ومضى البهلوان إلى أهله وعشيرته وقلت أطال الله فى عمرك أيها الملك وجعل رءوس أعدائك رقابًا لك، ومنحنى حصانًا وخمسة أحمال جمال من سن الفيل وإزاراً وخمسًا من صغار المماليك ولما عُدْت لمدينة أبشوقه فقبلت رجاء الملك ونبهت إلى ذلك وزيره؛ فقال الوزير: على الرأس والعين. وجعل البهلوان يعرض ألعابه فى الميدان على قرع الطبول ونفخ المزامير وأحضر حطبًا محمولاً على عشرة من الفيلة وأشعل النار فى الحطب وعلى أرواح شهداء كربلاء ملئت عشر قرب من ماء النيل، فجاء ليشرب منها ناس كثير منهم رجل بدين.

من العجائب والغرائب

ومضى الرجل البدين إلى الملك فقال: يا سلطان السودان أعطِنى خمس قرب من ماء النيل وأعطه خمسًا فلقد ظللت سبعة أيام صائمًا وسبع ليالٍ قائمًا لم أذق فيها قطرة ماء، وأقسم على ذلك وكانت هذه الرياضة التى أزاولها، فقال الملك: لنعد لك فطوراً فإليك هذه القِرب الخمس، فأمر الملك بتقديم هذه القِرب الخمس له، وكان ثمة سماع للمولوية ألقينا السمع إليها نصف ساعة وتعالت ألسنة اللهب كأن شرر النار يتطاير هنا وهناك، فقال: لم أجد ماء طيلة أيام صيامى ولذلك أريد عشرة قِرَب من الماء، وقال: إذا زادت نار فى نارى فإن هذه القِرب العشر تكون من حقى، وكان هذا رأيًا صوابًا، وفى البداية أكل لحم الجمل وقالوا للبهلوان آكل النار: لقد عرفوك جلية الأمر، فوضع البهلوان كلتا يديه على رأسه وبدأ الغناء وأخرج دم الجمل من فيه قطعة قطعة وتحلق حوله جمع غفير، ومضى إلى الملك وأمامه قاء لحم الجمل على عشرين دفقة كما قاء بين ذلك النار مراراً حتى أن غلامًا صغيراً لى أخرج من فم البهلوان قطعة من لحم الجمل ولكن لم يخرج من فيه كثير من النار، هذا الرجل أكل اللحم راجيًا الملك وقال: يا سلطان الفونج لقد غلبت على النار والرغبة فى أن أقىء لحم الجمل تملكتنى فقال الملك ومن معه من المشاهدين: ينبغى أن يجيبه إلى رجائه وحكم الملك بذلك لقد أكل

عظام الجمل ونجاسته، فشرب خمسة قرب من الماء دفعة واحدة فصاح البهلوان أن حرارته سكنت ولكن رغبته فى قيء لحم الجمل لم تسكن، فقالوا: أعطوه شرابًا يجعله يقيء وقال أنا لا أعلم أى سحر فعله بى الماء ولذلك لم أتخلص من ناره، وصاح قائلاً: أنا هالك لا محالة، واعتزل فى ركن وهو يتألم فلم يرحمه أحد فما نال قطرة ماء فشرب ما قدمه إليه السلطان من ماء القِرب وكان راقصًا ثم وقف فعطس وسعل وحمد الله على انخفاض حرارته ثم قَدِم على الملك قائلاً: أيها السلطان العادل لقد منحتنى خمس قرب للماء فى البداية فدفعت بها عطشى والماء لمن طلب.

لقد أشفى البهلوان على الهلاك من آلامه وحرارته وعطشه إنه آدمى ضعيف وعلى كل الأحوال فإن البهلوان كان سيهلك وهذا على حد قولهم فنظر الملك إلىّ وكان مستاء فقد هلك عطشًا لعدم تقديم الماء إليه ولكنه لام البهلوان على أكثر ما أكل من لحم الجمل وما أكل من النار وأردت أن أطيب خاطره فقلت له: إن هؤلاء يلعبون بأرواحهم وهذا دأبهم على الدوام، ولما دخل البهلوان الميدان قال رجل: أيها السلطان إن ما يعمله هذا البهلوان سحر مبين إنه لعين من عبدة النار وإنى أبرئ من ذلك ولله أحمد أنا رجل تقى على المذهب المالكى اسمى أبو الذهب أقوم بصيام وقيام ورياضات ومجاهدات، فقال الملك: ولكنك أنت كنت بهلوان وأخشى أن أكون قد قتلته يا أيها السلطان إذا كنت تحبه كثيرًا فأنا أسلخ جلده فى حضورك فتعهد الملك بأن يهب مائة من الإبل.

من المضحك العجيب

مضيت إلى جثة البهلوان المرحوم وعقدنا حبل من ذيل الحصان وربطنا عنق جثة البهلوان بهذا الحبل، وركبت الحصان وضربت الحصان بالسوط مرارًا إلى حد فانطلق الحصان فى الصحراء والجثة المعلقة فى ذيله اختلطت بالرمال وتسلخ جلد الجثة فى مواضع فظهر لحمها أحمر اللون، وجررت هذه الجثة حتى بلغت بها الملك، وقال الملك: لقد حقرتم هذه الجثة بما فعلت بها فتسلخت وبان لحمها، وأغلظ علىّ اللائمة، فقال البهلوان الثانى: أمانًا أيها السلطان اصبرن قليلاً، وقال: لقد مزقت كل أعضاء

الجثة من أنفه وفمه وغيرهما ومثلت بجثة إنسان، إن أول جرعة شربها كانت خمس قرب فانتفخ بطنه كالقربة. وقال البهلوان للملك: انظر ماذا سأفعل إلى ساحيى عابد النار هذا ببولى، ثم قال بعض اللطائف، فقال السلطان: لا أعرف غيرك يُحيى هذا الرجل فإن لم تحيه قتلتك، فقال: على السمع والطاعة فدق الطبول ونفخ فى المزامير فجاء الملك إلى السلطان وقال له: أيها السلطان إن هذا عابد نار إن عابد النار هذا كان بجانب النار التى أوقدتها جثة نحيلة وأصبحت جثة مختلفة الألوان وأصبح الدم ينبجث من جثته كأنه ينبجث من جراح مقاتل.

والحاصل أن هذا الميت بقى فى ميدان المحبة وأمره الملك بعرض ألعاب أخرى.

منزل عابد النار

ارتفعت ألسنة النار وتصاعدت رائحة كريهة تأذى بها جميع المشاهدين فأخبروا السلطان هذا الخبر وفرّ خدام البهلوان وأحضروا إلى السلطان ثلاثة من الخدام مقبلين وضرب رأس البهلوان فتدحرج رأسه أمام الملك فوقف البهلوان من وسط النار وجاء ثلاث بهلوانات وقبّلوا الأرض أمام الملك فأخذ من الملك العجب كل مأخذ، ولما قَدِم البهلوانات لتقبيل يد الملك كانت أجسامهم مطلية بالدهن، والحق أن البهلوان أبدى معجزات، وبعد ذلك أمر الملك للبهلوان بمائة من الإبل ومائة من الغنم ومائة من العجول ومائة عنزة وخمسة وستين من سن الفيل وثلاثة جوارى حبشيات فدعوا للسلطان بالخير.

الدعاء الهندى

بعد أن دعا البهلوان للسلطان بالهندية قبّل الأرض بين يديه، ولقد تعجبت، ولكن السلطان سر لذلك ولقد تجولت فى البلاد اثنين وأربعين عامًا ورأيت ثمانية عشرة مملكة، ورأيت من الألعاب السحرية ما رأيت ويا كم رأيت فى فونجستان ونقولستان من عجائب السحر، وتحدثت عن ذلك حديثًا مختصرًا ثم مضيت إلى قلعة أبسوقه مع الملك وفى طريقنا صادفنا خندق عظيم على ضفة النيل عمقه خمسون ذراعًا، وكأنما جرى النيل منه

بعد الطوفان وينصب غربًا فى المحيط، وقد فعله سيف بن ذى اليزن بعد الطوفان وقد حطم صخور الشلالات وجرى إلى مصر فى النيل وقد ظل هذا يابسًا فعبرناه وبعد اثنتى عشرة ساعة بلغنا بلدة أوتمر.

بلدة اوتمر

إنها مدينة عظيمة وإن لم يكن لها قلعة تسمى بلدة ولكن حواليها ما يشبه قلعة خشب ولها خندق ورأينا فى بداية هذه البلدة هذا الخندق وعلى شاطئ النيل بيوت من اللِّبن وفيها نحو أربعين أو خمسين دكانًا ودار ضيافة وست مقاه وعشر حانات للبوزه وسبعة جوامع والقوم على المذهب المالكى وقد قدموا إلى الهدايا واجتزنا قرى كثيرة هناك على شاطئ النيل وبعد عشر ساعات بلغنا مدينة بورروشش.

مدينة بورروشش

يحكمها وزير السودان وله مائة ألف من الجند وألفان من الفيلة وخمسمائة ألف من الرعايا، وأنعام لا تعد ولا تحصى سبحان الذى لا يُسئل عما يفعل ولكن كيف خلقنى، فلما سمعت المصراع ولما مضينا للقاء الوزير أحضر فيلين عظيمين أحدهما أبيض والآخر أسود، وهما فيلان مسنان يقال أن عمرهما ألف سنة، ويصعد إليهما بسلم مقداره عشرون مرقاة، ولم أرى مثلهما قط، وهما أليفان وفى الروم يسمى الفيل (أكول) والفيل هناك ضخم الجثة جدًا وللفيل خرطوم يتنفس منه وله صوت كصوت عذراء حزينة، ويركب الفيل المماليك وقد جاء الفيلان للملك هدية، ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات حتى بلغنا قلعة بورروسته.

أوصاف قلعة بورروسته قلعة مدينة وعدستان

حينما دخلت هذه المدينة قرعت الطبول وفى كل سوق استقبلنا جمع غفير من الناس كما أن النساء السمر رفعن أصواتهن بالتهليل، وكانوا ينظرون إلينا على أننا بيض البشرة، وهم يقولون سبحان الله لما رآنا بعضهم لاذوا بالفرار، وفى القلعة ستة جوامع وألف بيت من القصب، وفيها دكاكين هنا وهناك، وحانات للبوزة، وهم قوم من رعايا

فونجستان وهم سمر الوجوه، وستمائة زنجى، وهم يتحدثون العبرية وهذه هى أعدادهم العبرية:

واحد: زا. اثنان: زى. ثلاثة: زو. أربعة: كا. خمسة: كى.

ستة: كو. سبعة: چا. ثمانية: چى. تسعة: چو. عشرة: چه.

ووجدنا شعراً بالفارسية للنبى قفاح عليه السلام، ويقال أنه كان يعرف العروض الفارسى واللغة الدهلوية تشبه اللغة العبرية. قال رسول الله ﷺ: «من طعن حركة الاظى فهو كافر بالله»، وحروف اللسان العبرى كحروف اللسان العربى، ولكن العربى لسان واضح وهو فصيح بليغ، أما اللسان الفارسى فهو حلو ظريف لطيف فيقال العربى فصاحة والعجمى ظرافة والتركى قباحة، وكل لسان آخر نجاسة وفى ديار فونجستان كثير من الألسنة المختلفة ولكن ذكرنا ما نعرفه منها واللسان الذى يتكلم به أهل بورسته يندهش له من يسمعهم لأنه لسان مغلق أنهم فى بداية كل كلام يعظمون السلطان، وأكثرية القوم يعبدون الشمس، ويؤدون الخراج للملك، ولهم أسواق عظيمة وهم يعبرون النيل بسلعهم، وهم يصلون بها إلى بلاد البرتغال عن طريق البحر ويتم لهم البيع والشراء فى بلاد الفرنجة، ولا يأخذون نقوداً بل بالمقايضة ونزلنا ضيوفًا يومين على هذه القلعة وحابينا وتآلفنا مع أهلها وكتبنا بعض ألفاظهم، إنهم على خلق عظيم، واتفق فى الليلة الثانية أن نجمًا ظهر فى الشرق والآخر فى الغرب، ونزلا على المدينة، وبقيا معلقين، وقد اهتز أحدهما واتصل أحدهما بالآخر وقد تلاقيا فاهتزت الأرض والسماء وانبثقت نجومًا من هذين النجمين، وغادرا مدينة بورروسته، وأتيا الصحراء فأحرقا الزروع، وظهر النجم الأكبر منهم. ومضى إلى الموضع الذى ظهر منه وعاد ثانية إلى المدينة وانبثق منهما الشرر ونفق الحيوانات من فيلة وإبل من ذلك ثم تفرقا.

وخلاصة القول أن هذين النجمين تحاربا فوق المدينة لمدة ست ساعات، ولم يبق شىء أمام خيامنا، إنه عذاب من الله قد نزل وقد تضرع الناس إلى الله على أن هذا كان

من أشراط الساعة، ولمح الـنجم الشرقى فى وقت السحر ومضيـت كواكب نحو الشرق وأخرى نحو الغرب، ثم أفلت ولذلك تلبثنا يومًـا، وقد سقنا أنعامنا ناحية وتعوذنا بالله أن هذا كان من علامات القيامة، وفى الصباح سرنا على ضفة النيل وعبرنا مناطق كثيرة العشب والزروع وبعد عشر ساعات بلغنا قلعة دنقده.

قلعـة دنقـده

أقيمت بناءاً على تعاليم آصف بن برخيا أنهـا كانت مدينة عظيمة قديمة والآن فيها ستة آلاف بيت وتـقع غرب القلـعة، وبها جامـع عظيم القـبة وأسواق صغيـرة ولكنها كـثيرة السكان، وفيها من الطغاة والبغاة، وحاكمها رحيم الدين خان وقد استقبلنا وزيره فى معية ألف جندى، وقدم إلينا كثيراً من الهدايا، إنهم على المذهب المالكى، وهم يأكلون الغزال والعجل والقـرد والفأر والأرنب، ويأكلون فاكـهة ذات بذور تشبه الشاه بـلوط، ويأكلون كذلك فاكهـة تشبه السمكة، وهـى ثمرة شجر قصير ولـذيذ الطعم والعبرانـيون يدهنون رءوسهم بزيت هذه الفاكهة، وبذلك تخلو شعورهم من القمل، ولكن الأكثر منها يذهب البصر وقد حصلت على حُقٍّ منها وهم يزرعون الذرة أكثر ما يزرعون، ولا وجود عندهم لقمح وشعير وعدس وحمص وفول وكتان ولابـرسيم وقد أمر الملك برجم رجل اغتصب فتاة، ولا وجود لديهم لنخـيل وغادرنا هذه المدينة على ضفة النيل فرأيـنا تماسيح ضخمة وسرنا فى الرمال والتراب والجبال وبعد تسع ساعات بلغنا جبل سندس.

اوصاف عجائب جبل سندس

إن إدريس عليه السلام أقام فى سفح هذا الجبل، تـناولنا الفطور مع الملك وركبنا مع ألف منـهم الإبل والخيل، وعـلى امتداد البصـر رأينا جبلاً شـامخًا من الحجـر الأحمر المصقول ولهذا الجبل باب يطل على جهة الشرق، ولكن أقيم بناء عظيم سد هذا الباب، وهناك حوض منحوت فى الصخر، وفيه يذبـح سبعة جمال وسبعة خراف وسبع عنزات وسبعة ديكة وسبعة مـن القطط، فيـسيل دمها فى منحر الحوض، ويغـمس الناس جميعًا

يدهم فى هذا الدم ثم يمسحون بأيديهم الصخر فسألتهم لماذا يفعلون ذلك، فقالوا: إن هذا أصبح لنا طلسمًا وهم يتعرفون من ذلك ما قدر لهم فى الغيب وما لم يقدر، وغمسنا يدنا كذلك فى هذه الدماء ومسحنا الصخر لنرى العجائب، ولكن احذروا من أن يستولى عليكم الخوف ولو قليلاً هذا ما أوصانا به الملك، وقد أعملنا الفؤوس فى هذا الجدار الذى سد الباب فانفتح الباب، فكبّر كل من قاضى سنار والملك والإمام وواعظ دونقده، ودخلوا وبعدهم الوزراء وفعل السلطان ذلك ودخل فرأوا أن المغارة فيها حجر بها دولاب وضع فيها الديك وغاب عن نظر الحاضرين فحمدوا وهللوا وكبروا، وفى جوانب المغارة الأربعة جلس الناس على كراسى وجلسوا على المصطبة مائة إنسان وقد خيم الصمت عليهم جميعًا وزلزل ركن من أركان المغارة فسمعنا صوتًا يغنى بصوت حزين بمصاحبة المزمار والعود والقانون والسنطور والطنبور والرباب وكانت هذه النغمة هى نغمة الرست من فصل الحسينى فأخذت منى الدهشة كل مأخذ ثم سمعنا غناء ولكننا لم نفهم ألفاظه لأنها منقطعة النظير ولكن هذه الأنغام كانت على أصولها فسمعنا أصوات طبول وقدوم ومزامير وكانت هذه الأنغام من مقام الحسينى، وقد ترددت أصداء هذه الأنغام فى الكهف كأنها هزيم الرعد فكان الصمم لآذاننا وخرج شيخ من الغار واتجه نحو الفرقة الموسيقية وأشار إلينا بالوقوف ثم ركب جمله فارتفع صوت من الصخر قائلاً السلام عليك يا سلطان الجان فرد صوت امرأة من الصخر قائلاً: وعليكم السلام يا أولاد حام وقال قاضى سنار: السلام عليكم يا سلطان الجان، وقال الصوت: وعليكم السلام يا قاضى سنار بن طاهر بن يعقوب، وقال للملك: اذكر ما تريد، وجاء وزراء وعلماء وألقوا السلام ورد كل منهم السلام باسمه، ثم مضى الملك إلى الصخرة فقال: السلام عليكم يا سلطان الجان، وفيما هو يرد التحية قيل له: وعليكم السلام يا ظالم خاقان بن سارند خاقان بن إدريس خاقان بن لاوند خاقان، أقم العدل فى الناس فإن نجومًا أخرى هوت، يأتى إلى بلادك من بلاد الزنج ومن عصاة بغاة من الجند فلا تغفل

وخذ حذرك، وأنت منصور مظفر فعليك أن تقدم إلى هنا فى كل عام وتقدم القرابين وتسجد شاكرًا خمس أو ست سجدات، وكان هذا الكلام بلسان الفونج وولد له ولد فقال لى الملك: قل السلام عليكم يا سلطان الجان فقيل لى بصوت مرتفع بصوت رومى فصيح: وعليكم السلام يا جواب العالم ونديم بنى آدم ومصاحب السلطان وحملة القرآن أوليا چلبى بن درويش محمد ظللى بن قره أحمد بن دمرجى زاده قره مصطفى باشا الشهيد بن دروحان بك بن ياو وزار بن أجه يعقوب بن عبد الله وردى أقاى بن محمد كرمانى بن توركان خواجه أحمد يسوى بن محمد حنفى رضى الله عليهم أجمعين، وإلى شجرة نسبنا وهى أن أجدادنا الإمام الحسين والإمام علىّ وفاطمة الزهراء والنبى ﷺ فذكر أجدادنا قاطبة وبذلك دخل السرور على قلوبنا، وقد تحدث طويلاً فى مصر عن الوزراء والوزارة فى مصر لإبراهيم باشا، ويسود الهرج والمرج فى مصر ويأتى أحمد باشا الدفتردار ويعود وهو ابن كوبرلى والوزارة لقره ويمرض فى مصر وإذا مات فمضى إلى مكة ثم تعود إلى مصر فحزنت لهذا من قوله وأمضى إلى الحبشة فاخذ العجب مأخذه من جميع الحضور فى المجلس وأخذتنى الدهشة، وعندما ألقى عليه السلام كل من رفقائى وهم على خلخالى ودرويش غدى ودرويش لمعى ودرويش نعمت الله رد عليهم السلام بصوت عال ذاكرًا أوصافهم والقرى والقصبات والمدن التى ينتمون إليها وأسماء أفراد أسرهم وذوى قرباهم ولكن قال أن درويش على خلخالى تارك الصلاة جبرى فابتسمنا جميعًا فخجل درويش على ولكنه أدى فريضة الصلاة من بعد ثم جاء خدامنا فأتى بهرام وألقى السلام فرد عليه يا خائن المولى ثم أتى حيدر وألقى السلام فرد قائلاً: يا خائن ولى النعم، وأتى العبد خسرو وألقى السلام فرد عليه عليكم السلام يا مخدم البلاد.

وخلاصة القول أنه أخبر السلطان ومعيته فردًا فردًا عما فى نيته وطيب خاطره ولم يدع سائلاً دون أن يجيبه ثم سمعت ألحان الحرب فى الميدان فطابت بها النفوس، فخرج

الناس جميعًا، ومكثوا فى الصحراء ثلاث ليال وثلاثة أيام، وفى كل يوم يأتى الناس أفواجًا أفواجًا ويسلمون وهم يسألون عما يتطلعون إلى معرفته إلا أن المغيبات الخمسة لم تعرف، وفى اليوم الثالث قدم إلى السلطان وكبار الأعيان فقدموا القرابين وسدوا باب الكهف ورفعوا الدعوات وقدموا الشكر والثناء، وفى شهر يونيه فى كل عام يجتمع فى هذا الموضع أهل فونجستان وأهل بربرستان وغيرهم ويشكلون جمعًا غفيرًا منهم فى ثلاثة أيام وثلاث ليال ويسألون عما يريدون إن هذا الغار غار عظيم منحوت فى الصخر وهو مطلى ولكن الموضع الذى يخرج منه الصوت مفتوح وبقية الصخر مصمت وليس فيه موضع يدخل منه إنسان ويسمع أصوات أنغام وصوت قرع طبول ونفخ المزامير مما يحار العقل فيه، وقد سألت السلطان وبعض ندمائه من الشيوخ فجاءوا بأخبار شتى عن هذا الكهف والذى يسمى خروس بو غازلين ولكن حكى خدام هذا الكهف أن هذا الجبل هو جبل إدريس عليه السلام، وكان إدريس النبى يلقى دروسه على الملائكة فى الكهف لذلك سمى إدريس، وكان الملائكة الكروبيون يأنسونه على الدوام فى الكهف، وانتوى إدريس النبى أن يعرج فى السماء وذلك من الآية: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧] وقد دعا الله له الكروبيون وهذه الآية دليل على أن عروج إدريس النبى كان فى أسوان، ومنذ هذا الزمان تصدح الألحان فى هذا الكهف، وهذه الألحان تسمع ليل نهار وسواء قدم أحد أو لم يَقدِم فهذه الألحان تسمع، وقد رأينا آباءً وأجداداً على هذا القول، وكانوا جميعًا يقدمون القرابين وهذا على حد ما قال خدام السلطان، وقد شاهدت هذا الكهف دون أن أتكلم ببنت شفة وتناولت الطعام وتعجب الحاضرون لذلك منى وضحكوا ثم غادرنا هذا المكان ثم انطلقنا على ضفة النيل جنوبًا ستة أيام وست ليال، وكنا نمضى كذلك فى ضوء القمر ونصيد فى الصباح وبلغنا وادى شلجلاه.

وادى شلجلاه

يعنى ذلك صحراء ذو الجلال، وهى واسعة لا حدود لها خصبة، إنها كثيرة الغابات ومياهها جارية وبها بحيرات وذات نخيل وبساتين، وفى جانبها الغربى على بعد عشرة فراسخ قلعة أقامها البرتغاليون على ساحل البحر المحيط فى مدينة سيختره أنها كانت مدينة عظيمة وفى أرض سنجلاه تصيدنا ثلاثة أيام وبلغ صيدنا سبعين فيلاً وستة عشر من وحيد القرن وكثيراً من النمور وكثيراً من الأرانب والحُمُر الوحشية والزراف وتيوس الجبل، وجملة القول أننا تصيدنا ما لا يحصى كثرة من الحيوانات والطيور فهذه الأرض تمتلئ بالمخلوقات، وليس فى مصر أرض طيبة الهواء مثلها وفى اليوم الرابع ظهراً، ولقد أهدانا حاكم الروم سبعين أو ثمانين ألف من الجند وألف فيل ومائتى عبد وجارية فى موكب عظيم.

أوصاف مدينة رومية الجمال العظيمة

مدينة بناها آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وكانت فى أول الأمر على هيئة قرية، وقد ولد آصف فى هذه البلدة، ولأنها مسقط رأسه شيد المدينة وبعد أن أتم بناءها دعا سليمان عليه السلام إليها، وبنى قصوراً عالية ولكل قوم مَلِك ولقد دعاهم سليمان إليها، وجعل لكل منهم قصراً شامخًا ومقصورة على ساحل النيل، كما أقام قصوراً مختلفة فى شمال هذه المدينة وبنى قصوراً فى جنوبها تبعد عنها مسيرة سبع ساعات، ورسم على جدران هذه القصور صوراً لهم وزين هذه القصور بتماثيل اثنى عشر ملكًا وكانت لهذه التماثيل صورة مهيبة وكانت من المرمر والرخام، وكانت شعورهم تدلى على جانبهم وأجسامهم هى أجسام الآدميين، وفى أحد القصور أشكال للشياطين ورأسهم كالمرجل وأذانهم كأنفى ثور وعيونهم مستديرة وفى أيديهم وأقدامهم خمسة مخالب كما للأسد، ورأينا عقبان وحمائم تطير وفيه تماثيل للفيل ووحيد القرن والجمال ولها ذيول كثيرة الثنايا وأجسامهم تشهد لصانعها الفنان بالبراعة، وفى القصر أشكال لطائر السمندر وليس كبيراً، ولكنه طائر جميل وكأنه النعام المنقوش فى الصحراء

إلا أن عنقه قصير، وهذه التماثيل مصنوعة من الحجر الصلد وقد مدت جناحيها وفي القصر تمثال لغول الصحراء وهو من الرخام الأبيض وله جسم إنسان ولكن له رأسان أحدهما رأس شيطان والآخر رأس عقاب وأقدامهم كأقدام الإبل وأذانها أذان حمار، إنه مخلوق عجيب، وهناك نقوش صور حشرات مثل النملة وكذلك الضفدعة والحلزون والجرادة والعقرب والحية، والحاصل أن جميع حشرات الأرض هناك، ولكني أقول حاشا أن يكون الإنسان صنع هذه الأشكال لأن ذلك ليس في مقدور البشر ولا يمكن أن تكون معجزات لأنها تماثيل عجيبة إنها لم توجد منذ ألف سنة وكأنها ذات بروج وأنها أناس غضب الله عليها فسخطها أحجاراً لأن الإنسان يعجز عن خلقها ولو عاش ألف سنة ولكن في وسط هذه المخلوقات ومن قصور الملوك كان قصر عرش سليمان الذي ليس له شبيه ولكن ثمة صورة لسليمان النبي إنه قصر يقوم على ألف قاعدة وفيه صورة لغلمان كأنهن الحور بعضهم واقف والبعض الآخر جالس، وبعضهم مستند إلى عصا، وبعضهم راقص وبعضهم يشدو، إنها أشكال عجيبة غريبة وكلها مصنوعة من الحجر الأحمر وإلا فإنها لا يمكن رسمها بالقلم ولا حفرها في الصخر، ولكن في داخل قصر سليمان رأيت كثيراً من الأشكال العجيبة، رأيت غلامًا ثائر الشعر وفي يده اليمنى صقر وهذا الصقر مصنوع من الرخام وحاط على خشبة مبنية، وقد جعله الفنان ينظر لفتى وسيم، ولا رسم ماني ولا بهزاد رسم مثل هذا الصقر على الورق، وقد شاهد الملك كل هذه الصور ثم مضينا إلى مدينة رميله الحمال.

أوصاف مدينة رميله

لقد بنى هذه المدينة آصف بن برخيا في مائتي عام وعَمّرها ثم فاض ماء النيل وبلغ ماءُه جبل القمر، وفي هذه الديار امراءة تسمى رميلة، وقد سكنتها بعد أن بنيت ولحكمة يعلمها الله كانت هذه المرأة عاقراً، ولكنها حملت في هذه المدينة وأطلق أهل المدينة عليها اسم هذه المرأة وهو رميله، وعندما حملت هذه المرأة سميت المدينة باسم رميله الحمال نسبة إلى هذه المرأة، ولكن كان اسمها في البداية مدينة برخيا وهي مدينة

عظيمة ذات قباب عالية بلغت النجم فى علوها، وفيها آثار وكنوز تستحق المشاهدة ولكن يوجد فى هذه المدينة ألف بيت من الجص وسبع جوامع بلا منارة ومائة دكان وخان وعشرون حانة للبوزه، ولكن ليس بها حَمّام ولا مدرسة، ولقد أعطينا إلى حاكم هذه المدينة الهدايا، وكان طليعتنا عشرة آلاف جندى مع السلطان وسرنا جنوبًا من هذه المدينة على ضفة النيل وبعد خمس ساعات وصلنا جبل دابة الأرض.

جبل دابة الأرض

وبلغنا سفح هذا الجبل ومكثنا هنالك فى أرض معشوشبة وليس فيها أمارة على العمران ولكن فيها صخور قائمة بيضاء.

اشكال اعجوبة الأرض دابة الأرض

وثمة تمثال لفيل له أربعة أرجل ذو جثة ضخمة من الرخام الأبيض وفى عنقه قرن وجلده كجلد النمر وذيله متفرق الشعر وأقدامه شبه خفاف الإبل، وفى ثلاثة من أقدامه أظافر، وعلى كتفه عظام كأنها فأس فرهاد وكأنه هو حيوان تهيأ للطيران، وفى الجانب الشمالى من هذا التمثال تمثال الحمار الدجال اللعين، إنه حمار منحوت من الصخر الأسود، وعلى ظهره رجل بدين وهو له عين واحدة وعلى رأسه عمامة من الرخام الأبيض ومن حوله نساء وصبيان ويهود على رأسهم قبعات، وفى أيدى القوم دفوف ورباب وصنج وكل من فى هذه الأرض يعزف على آلة من آلات الطرب وقد تجمعوا حول رأس الدجال، يا له من منظر عجيب يستحق المشاهدة، ثم مضينا فى تلك الأرض مع الملك ساعة.

تمثال عوج بن عنوق

إنه تمثال من الرخام الأبيض يرتفع إلى أوج السماء وظهره وكتفاه تتصل بالصخر لتكمل صورة عوج إنه واقف، هذا فى الأحوال العادية، أما فى وقت السحر فرأسه فى السحب وشعره متفرق إنه رجل وقدماه تشبهان الرخام، أما عنقه فملتف ويمكن أن يحتضنها خمسون رجلاً إنه فى قدر قبة جامع السليمانية، وذراعاه كأنهما عمودان وفى

يده تمثال لتمساح، وقد شاهدته كذلك، ومضيت مع الجند فى ريح الجنوب ومكثنا فى أرض معشوشبة نتصيد، ثم ركبنا خيولنا مع الملك وبلغنا جبل ثور الدنيا.

جبل ثور الدنيا

العظمة لله إنه لشامخ وصعدنا فى هذا الجبل ساعة فلقينا من ذلك مشقة ونصبًا ورأينا فى الصخر الأحمر تمثالاً لثور «حامل الدنيا» سبحان صانع القدرة إن الله يظهر عجائب صنعه لعباده، وعلى عمود أحمر يقدر بثلاثة آلاف عمود فى آيا صوفيا أقيم تمثال لثور «حامل الدنيا»، وله بطن كأنها جبل عظيم وعلى رأسه قرن وله قرون لا تدخل تحت حصر مما أثار دهشتنا ومضينا بخيولنا حوله ساعتين ولكن بمشقة، وفى وقت الغروب عدنا إلى خيامنا، وعند بزوغ الفجر قمنا مع الجند، ومضينا ثلاث ساعات ومكثنا فى أرض معشوشبة وهناك رأينا تماثيل الحوت العظيم حامل الدنيا، وفى هذا الجبل تماثيل كأنها تمساح البحر المحيط الواحد منها فى طول ألف وستين رجلاً، إنه يشبه جبل دماوند وقد زين جسده بالقشور، وهو بجانب بحيرة، وقال من صنعها أنه صنع شيئًا منقطع النظير فى الدنيا بأسرها وتجاوزنا هذا الموضع وفى الغرب منه تماثيل الملائكة المقربين.

تماثيل الملائكة المقربين

وفى واديين هناك أربعة تماثيل قد نحتت فى الصخر الأبيض، هذه التماثيل (وهى بلا تشبيه) لجبرائيل على صخرة وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، إنها أجسام بلا أيد ولا أقدام ولا رءوس، ولا وجود لأعضاء الحواس ولها وجوه مستديرة، ولهم صور مختلفة الألوان، وهى سحر إعجاز وقد شاهدناها، وبالقرب منهم وادى نار الجحيم.

وادى نار الجحيم

على جانبى هذا الوادى تماثيل من الصخر لثعابين وحيات وعقارب وحيوانات عجيبة كما يوجد تمثال لساحرة إذا رآها الإنسان انخلع قلبه رعبًا، إنه واد يسمى وادى جهنم وكدنا نهلك بين صخرتين، والله يعلم عددها، وفيها الثعابين والعقارب وكل جندى

يشاهدها يصيح: ثعبان وبه روح، أما الذين لا روح لهم إذا ما خرجوا من الوادى ردت عليها أرواحها، وبالقرب من هذا الوادى وادى المأوى.

وادى المأوى

إن هذا الوادى هو درة الجنة وكأنها إرم ذات العماد ولقد ازدانت بأنواع الأشجار، وفيها أنهار جارية وعلى جانبيها مقاصير من الرخام سكنها غلامان وجوار وليس فيها تماثيل لإنسان، وقد سكن هذا الوادى فى شهر يوليه حيث فيضان النيل أهل رميله لمدة ثلاثة أشهر وعاشوا فى نعيم، وبينما السلطان يتناول طعام الإفطار فيها والبلابل تغرد تغريداً تطرب له القلوب، وغادرنا وادى المأوى ومضينا فى الصحراء غربًا.

تماثيل الثعابين العجيبة

هناك تنين له سبعة رءوس، وكل رأس من رءوسه يرتفع فى السماء، ولكن كلا منها متصل بالآخر، وهذا التمثال من الحجر وكل قدم من أقدامه يتسع لعشرة رجال ولكل منها أظافر منفرجة، أما جسمه فهو بتمامه من الحجر الأحمر، أما قدماه الخلفيتان فيتسع كل منها لعشرة رجال ولها مخالب متفرقة، وكل مخلب يشبه سنان رمح وفمه واسع كأنه الغار، إن جسمه كأنه جبل أما ذيله فيتصل بظهره والمسافة بين قدميه الأماميتين والخلفيتين بمقدار سبعمائة خطوة، وقد رأى غلام لى فمه من الداخل فقال: إنه مثل غار الجحيم ولكن قال الملك أن قصة موسى وفرعون مسطورة فى جميع الكتب وكان فى مدينة رميله ساحر، فبعث إليه فرعون قائلا: (وأنت أيضًا أظهر معجزة وأحضر لتكون فى عوننا وأنت أظهر اليد الطولى وائت بثعبان ذى سبعة رءوس)، وهذا الثعبان من الحجر الأحمر وليكن ذيله مثل قوس قزح، وليتحرك إلى موضعه فى الجبل وإذا ما تجاوزه ومضى إلى المرج أصبح من حجر، وشاهدنا العجائب والغرائب فى هذا الموضع ففيها آثار لعاد بن شداد وقوم ثمود ولقوم جان بن جان علامات عجيبة وإذا ما دونتها فى كتاب فلقد شاهدناها وعلمناها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وتصيدنا فى الصحراء وبعد خمس ساعات بلغنا جبل شوام.

جبل شوام

فى أسفل هذا الجبل ماء جار وأنه ينبع منه ويجرى شمالا نحو مصر وقد عرفت مقدار ارتفاع هذا الجبل، وسرنا النهار بطوله وقطعنا سبعين مرحلة وبلغنا عند خط الاستواء، ولم نصل فى ذلك الموضع، ومن مصر حتى بلغنا جبل شوام على مدى مائة وثمانين مرحلة على ضفة النيل شاهدنا المدن والقصبات والقلاع، وعدنا إلى مدينة فرانيه ومكثنا مدة شهرين بها وشهر ونصف فى السودان وفى بعض مواضع فى سنار توقفنا، وبلغنا جبل شوام وبعد ثمانية أشهر، وفى الثالث من ذى القعدة عدنا بحمد الله سالمين معافين إلى السودان، ولكن فى هذه المنطقة ينهمر المطر انهماراً بحيث تجرف السيول الفيلة، وستة أشهر أيام الخريف يصبح الجو كأنه جو تركيا فغادرنا جبل شوام وانتقلنا شمالا لمدة خمس ساعات.

أوصاف ولاية مدينة جرسينقه
وبيان منابع النيل

إنها ولاية عظيمة، ولها ملك بربرستان وفى قديم الزمان كان لها ملك مشهور، ولكن دولته دالت، فتبعت فونجستان، إنهم قوم مسلمون على المذهب المالكى واسم ملكها الآن سان الله خان وقد استقبلنا فى معيته مائة ألف جندى ولسلطان الفونج من الهدايا حمل أربعين فيل وحمل مائة بعير، ولقد ضيفنا الملك ثلاثة أيام وقدموا لنا وللخان الهدايا وغاب جنودنا وما أكثرهم فى بلدة جرسينقه لأن جميع البيوت هناك كهوف فى الجبل من الرخام الأبيض، وهم ينشئون الكهوف فى الصحراء والجبال، وليس فى هذه المنطقة زروع ولا نباتات إنها جميعًا جبال وصحارى وطبق الآية الكريمة: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] يتربى فتيانها وهذه الآية تبين حكمة الله عز وجل تلك، وقبل شهر يوليو فى كل عام تحمر السماء وتمطر ترابًا كالعنبر، ولكن ترابها بعد ذلك يصبح صخوراً فى تلك الأرض ويصبح كل اثنين أو ثلاثة صخور أرضًا يملكها الناس ويزرعونها ليل نهار وأكثر ما يزرعون الذرة، لأن

محصول الذرة محصول وافر وينزل من السماء مطر فتصبح الصحراء أرضًا ذات زرع، وتسقى جميع الحدائق بأمر الله، وفى اليوم الأربعين ينضج المحصول ويجمعونه ويضعونه فى مغاراتهم وينال كل منهم نصيبه منها ويستخرجون منه زيت الذرة، ويَزِنونه ثم يضعونه فى المغارات ويسدون عليه الأبواب بحجر واحد ولا يبدو بين الحجرين قطرة ماء، وتسد أبواب الكهوف ولكنها تذوب فى شهر وتنهمر الأمطار ثلاثة أشهر ويجرف السيل أكوام من التراب من هذه الولاية ويصب السيل فى النيل، ولكنه يجرى ويفيض من جديد، ويعود يحمل التراب الأحمر فى ماء النيل ويغمر أرض مصر بهذا الطين مدة ثلاثة أشهر، وإذا ما انحسر ماء النيل زرع الفلاحون أرض مصر، وبذلك يتحينون الفرصة لما يعود بالنفع وتنحسر المياه فى شهر يوليه وتزيد فى النيل والطين الأحمر الآتى من ولاية جرسينقه الممتزج بماء المطر هو سبب حمرة أرض مصر، ويبعد نبع النيل عن ولاية جرسينقه جنوبًا مسافة طويلة وهذا ما مر بسمعى بيد أنى لم أستطع الذهاب إلى هناك، ولله أحمد أنى شاهدت ما على ضفة النيل من عمائر وقلاع ومدن عامرة وآثار غريبة وعجيبة، وبذلك أتممت السياحة، وعند نبع النيل قوم يفدون على مدينة جرسينقه ويحضرون معهم سلع مثل البن ومثل البز الخاص بالقمصان وبطانة الثياب، والقطران، ولقد أخذت بأطراف الأحاديث فحكوا لى ذلك، وقالوا أنهم حين يتوجهون من نبع النيل إلى مصر لا يأتون برًا لأن الطريق جد مخوف، ففى الطريق ثعابين سمها زعاف، كما أن بها الثعابين والحيات والعقارب والفيلة ووحيد القرن والأسود والنمور والفهود والعقاب وغير ذلك من الضوارى، وهى أرض حجرية جبالية، وليست عامرة ولذلك يستحيل السير فيها.

وثمة محلة تسمى سنجره، وأهلها لا يعرفون الدين ما هو، وإذا رأوا إنسانًا غيرهم قبضوا عليه وشووا لحمه وأكلوه. والنيل ينبع من جبل القمر ويبلغ هذه المحلة حتى إذا يختلط بماء البحر الأبيض، وبذلك يختلط النيل بالبحر العظيم ولا وجود لأنهار أخرى هناك، وينشعب من النيل روافد وروافد ويجرى فى ولايات ويرويها، وإذا ما خرج

النيل من جبل القمر جرى شمالا وينشعب فرعين أحد فرعيه يمضى إلى قوم سنجره العصاه ويمضى الفرع الغربى إلى البقاع التى يحكمها البرتغاليون ويقولون نحن نسكن البقاع التى يحكمها البرتغاليون، ونحن على ذلك منذ سبعين عامًا، لقد أتوا بمدافعهم وبنادقهم إلى ولايتنا واستعمروا، ونحن نؤدى الضرائب والخراج إلى الملك.

وخرجنا من هذا الموضع بعد أن استولوا على ديارنا وخوفًا من الحيوانات السامة ركبنا القوارب فى النيل الذى جرى فرعه ومر بمدينة لاجنه وتجمع ماءه فى بحيرة عظيمة عذبة الماء، وفى جوانبها الأربعة قوم من سبع أجناس والبرتغاليون لم يستولوا عليها، ويجرى النيل ثم يلتقى فى مجرى واحد، وقالوا نحن نمضى إلى هذه الديار، فقلت: أنتم تبلغون نبع النيل فسألته عما شاهدوا هناك فقال: ذهبت إلى هناك ثلاث مرات، فقال: الطريق إلى مدينة لاجنه يقطع فى عشرة أيام، وفى البحيرة قوارب تبحر إلى مدينة القمر وقد وقع يرزكجن ابن عمى فى أسر البرتغاليين، وأحضرت لإطلاق سراحه سن الفيل، وأن مدينة القمر مدينة عظيمة، وقد بنى سليمان فى هذه المدينة على جبل القمر عند نبع النيل ضريحين وقصرين وشيد المدينة على سفح الجبل، ويقولون أن آثار ما أقامه من أبنية ماثل للعيان وللآن نبع النيل فى حوزة البرتغاليين وينبع النيل من جنوب جبل القمر، إنه جبل شامخ مخوف وعلى بعد سبع مراحل من جبل القمر جنوب البحر المحيط والبرتغاليون لقربه من البحر استولوا على مدينة وجبل القمر، ولقد أطلقت سراح ابن عمى من أسر البرتغاليين، ومن مدينة لاجنه خرجت فى تجارتى إلى مدينة جرسينقه ورأيت سلطان الفونج كما رأيتكم، ومضى إلى حضرة الملك وقبّل الأرض بين يديه فقال من مع الملك: نعلم أن هذا الرجل من تلك الديار وهو مسلم صدوق القول، وقد سافر إلى تلك البلاد طولا وعرضًا، ويأتى ويذهب فى تجارته كل عام إلى فونجستان، وقالوا: أنه رجل موضع ثقة، وقد استولى البرتغاليون فى غرب مصر من مضيق سبته إلى منبع النيل فى أرض عند زيلع، وكانت سواحل مصر فى حوزتهم وعلاوة على الهند استولوا على ستة آلاف جزيرة، وقد عرفت من هذا الرجل

أن عند منبع النيل مواضع يقيم فيها الكفار ومخاطر كثيرة وأراضي لا عمران فيها ولذلك زهدت في الذهاب إلى نبع النيل وسوف تكون وجهتنا في ولاية جرسينقه إلى الشمال، ولأن ما أمكن الوصول إليه من الإقليم الأول تسع وعشرون درجة من الجنوب، وشاهدنا مدينة جرسينقه ورأينا أن فيها العجائب والغرائب وأنها نهاية حدود السودان، وفي الجانب الجنوبي منها ولاية لاجنه، وفي الجانب الشرقي ولاية دونق، وفي الشمال حدود سلطنة دومبيه، والجانب الشمالي أيضًا حدود الحبشة، ويجاورها شمالا بربرستان، وفي الغرب ولاية فردان ويسكنها عبدة النار.

- وعدت من ولاية جرسينقه إلى فونجستان، ورجوت ملكها وقلت إننا كنا نريد أن نبلغ نبع النيل بيد أننا لم نحقق رغبتنا واعترانا اليأس ولله أدعو أن يتيح لنا المضي في مائة رجل إلى مراكش وإلى فاس ومدينة قرطبة ومدينة طنجه ومنها إلى الجزائر وتونس وولاية طرابلس ومنها إلى مصر، وأن نحمل معنا الهدايا لنزور أرجاء مصر كلها وأظهرنا ملك فونجستان على رغبتنا هذه وطلبنا منه الإذن بتحقيقها، وألححت في الرجاء، فوقف الملك وقبل يدي وقال قد كتبت لك إلى سلطان مصر رسالة فيها الإذن لكم بمشاهدة كل الولايات، وأن تشاهدوا جميع الآثار ولتبعثوا بأخينا العزيز أوليا معززًا مكرّمًا إلى مصر إن تريدوا الذهاب إلى مراكش وفاس وهذه الأطراف ليس في حكمي، وهي لا ماء فيها وينعدم فيها الأمان، وسيقولون لكم إن رجلاً أبيض البشرة مثلكم لم يقدم هذه البلاد ولم تقع على مثله عيننا فتقع في الأسر، وسيعجبون لرؤيتكم وسوف يوجهون إليكم الكثير من الأسئلة في كل يوم، فذهابكم إلى هناك غير ممكن إن فاس ومراكش هي نهاية حدود جزيرة مصر وطريقكم مسدود وبيننا وبينها مراحل تقطع في خمسة أشهر وهي طرق صحراوية وكل من في معيتكم وخدامكم سوف يتأذون من شدة الحر فساءني ذلك كثيراً، وفي ذلك دعوت الله واستخرته فأخذني النوم فجأة فرأيت فيما يرى النائم جملاً صغيراً وعليه رجل يلتفت يمنة ويسرة وهو يسير بين فيل ووحيد القرن ورأيت في غابة عظيمة جملاً كبيراً ففرّ الجمل الصغير فدخلني فزع شديد، وورد على خاطري قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] فتلوتها ففرّ الجمل من فوقى وعادت إلىّ روحى وأمسكت بالجمل مع رفقائى ثم استيقظت من منامى وبالإلهام فسرت هذا الحلم؛ فعرفت أن من الخير ذهابى إلى مصر، وصرفت فكرة الذهاب إلى مراكش وفاس، وفى الصباح تناولت الفطور مع الملك ودقت الطبول وشد الرحال فغادرنا مدينة جرسينقه واتجهنا شمالا بعيدا عن النيل لمدة ست ساعات، وبلغنا وقت السحر فى صحراء خلامه وشمالها على مسيرة ثلاث عشرة ساعة مدينة جنجفه.

مدينة جنجفه

قد بنيت فى عهد سليمان عليه السلام وآثارها دارسه، وبها بيوت من قصب وثلاثة جوامع ودكاكين وحاكمها سدان لديه عشرة آلاف جندى وغادرناها فى منتصف اليوم بعد عشر ساعات وبلغنا مدينة رميلت الجمال، وهناك مكثنا يومًا ومنها انطلقنا شمالاً على ضفة النيل وانتقلنا من قلعة إلى قلعة ومن مدينة إلى مدينة، ونلنا الهدايا من حكام القلاع والخانات وأعيان الولايات والسلاطين، وخرجنا للصيد وبعد خمسة وأربعين يومًا دخلنا مدينة سنار عاصمة فونجستان وخرج أهلها لاستقبالنا وأطلقت المدافع من القلعة ترحيبًا بمقدمنا، وبقيت فى دارنا أسبوعًا كاملاً ثم طلبنا الإذن بالرحيل إلى مصر، فاحتفى الملك بنا وقال على الرأس والعين، وأمر السلطان لنا بخمسة جياد ومن فونجستان عشرة طواويس وعشرة غلمان وعشر جاريات سود وعشرة أحمال جمال من المؤن وعشرة صناديق من المرجان والعقيق وحجر سيلان الثمين وجوهر عين الهر ومسك وعنبر وحبات سبحة من اللؤلؤ وسيف من سيوف الصحابة وخيمة منقوشة ومائتا صحن من صحون سنار وكؤوس، ودعا لنا بكل خير وأمر بإحضار السيف والوزير فى معية ألف جندى حتى قلعة أرياجى لأخى السلطان وأعطانا الرسائل، وفى الصباح غادرنا سنار ورافقنا الملك مرحلة كاملة وعانقنا الملك وودعنا وعزمنا على متابعة السير شمالا حتى الفونج وتلوت الفاتحة وسرنا ثمان ساعات وبلغنا مدينة بقيث.

مدينة بقيث

سبق وصف هذه المدينة كما سبق ذكر قلعة عطشان كما أسلفنا وصف قلعة مدينة أرباجى، وفى تلك المدينة قال لنا أخو سلطان فونجستان: مَن ذا الذى سلخ جلد وجوهكم وعيونكم، وأنتم ضيوفنا، وقَدّم إلينا رفيقًا وكلّفه بالقيام لخدمتنا وعاد، ومن حكمة الله أنه إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه إذن لكل شىء لا بد من سبب ودليل ذلك من الآية: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥] وكأنما شاءت قدرة الله أن نمضى إلى ديار أخرى، وقَدِم على الخان الذى كنا فيه خمسة أو ستة من الزنوج يجيدون التكلم بالتركية فدار بيننا وبينهم كلام طويل، ربما كانوا من جند الحبشة ثلاثة منهم من رجال ملك الحبشة، ومنهم مَنْ كان وكيل محمد أغا وهؤلاء قدموا تلك الديار للتجارة، وقد كرمنا تكريمًا، وسألت كم يومًا يستغرق من الحبشة إلى تلك المدينة فقال: يستغرق الطريق عشرين يومًا، فتحمست لذلك إلا أنى أخفيت عنهم الرغبة فى المضى إلى الحبشة، إلى أن شاء الله لنا أن نرحل إلى الحبشة، وقلت إن شاء الله سيكون ذلك يوم الخميس فقلت: يَسّر الله لنا أمرنا فركبنا فى السفن ومضى ما نحمل من هدايا للملك ومع خمسة من رجالنا فأدرك التعب اثنين منهم، فتلبثنا فى مدينة أرباجى وقد أصيب أحدهم بالسحر، ولم يستطع المضى إلى السفن لركوبها ومضت أربعون يومًا على ذلك، وفى اليوم الثالث سمعنا أنه قادم إلينا وقدم القلعة وهو يزحف زحفًا لضعفه، فبقى وقد اشتد بنا التعب وقلت لآخرين أن يحضروا ومن الغد قَدّم إلينا أخو الملك ثلاثة جياد وعشرة من الإبل ومؤنة وخمس جوارٍ وخمسة عبيد من الزنوج وست أرواج من سن الفيل، وخمسة أرواج من سن وحيد القرن، وخيمة وقط مسك وجلد نمر وتهيأ ذلك فى الغد فارتحلنا إلى الحبشة.

* * *

الفصل الثالث والسبعون

بيان المنازل التى قطعناها

من السودان من مدينة أرياجى إلى الحبشة

من مدينـة أرباجى مضينـا فى ثمانية آلاف جنـدى من جند الإسلام فاجـتزنا خلال ثمانـية أيام، غابات وأرضًا ذات أحـجار وغابات شجر الأبـنوس وأحيانًا غابـات شجر السنط، واتجهنا نحو الشمال الشرقى فبلغنا وادى قوز.

أوصاف وادى قوز

إنه أرض خصبة تقع بين ضفة النيل الشرقية والصحراء، وهذا الجانب من الحبشة يقع تحت حكم ملك السودان ولكن الحبشة ودنقلا ودمبيه وزنجيه لا تقع تحت حكم السودان إنها حدود فونجستان وتقـع تحت حكم قوز وزير قوز على الضفة الغربية لـلنيل يسمونه وزير خان، وعلى الضفة الشرقية للنيل من وزراء قوز الوزير صاغ قول، ويـسمونه قوز، وله ثلاثمائة ألف جندى وألف ألف من رعايا قوز وكلهم مؤمنون على المذهب المالكى، وهم يسمون بـاسم قوز كذلك إنهم قوم قوز وإنـهم شجعان بواسل وكلـهم من العرب وهم يسترون عـورتهم بجلد الغزال والأسد والـنمر، وفى هذه البقعة لـهم أربعون ألف بيت من القصب أما حاكمهم فيسـكن قصراً من الحجر والخشب، إلا أنه متين حصين، وهذا القصر هـو قلعته ويزينون ديارهم بـريش وبيض النعام، وفى حدائـقهم أنواع من الثمار والذرة عـندهم وفيرة ولا يزرعون القمـح ولا الشعير ولا البرسيم، وفـى جبالهم الحجر الـصماقى، والرصاص والـكبريت والذهـب والفضة، ولا يعرفـون الماس، وفى جوانب هذه الأرض الأربعة أودية، وفى وادٍ من أودية الجهـة الغربية من هذا المضيق فى يوليه يمـتلئ بالماء عند فيـضان النيل فتغرق تـلك الأرض ثلاثة أشهر وتصبـح هذه المياه بحيـرة، ويشرب من هـذه البحيرة الـناس جميـعًا وفى تلك الـبحيرة قـوارب صيادون ويصيدون منها أنـواع السمك ويسكن أهل قوز على جوانب هـذا الخليج الأربعة، وقد قدم حاكم قوز هـدية، وهى ثلاثة من الإبل وعبد ومـائة مرافق، ومن الغد وبيـنما كنا

نجتاز الصحراء الشمالية ظهر لنا غبار أسود يرتفع إلى عنان السماء وتقدمنا فى سيرنا إليه فكان نسر صاد فيلاً صغيراً وبينما هو يمزقه وينهشه جاءت أم الفيل فنشب الصراع بينهما، وهذا هو سبب الغبار الذى ثار ولكن النسر تغلب على أم الفيل وحطت على رأسها، ومزقت لحم أنثى الفيل وشاءت أن تحمى الفيل الصغير بخرطومها ولكن بلا جدوى، فأشفق رفقائى عليه فارتفع صوتهم بقولهم الله الله، وأطلقوا على النسر بنادقهم فطار وقد أظل بجناحه الأرض فستر شعاع الشمس واكفهر الجو وفرت أنثى الفيل ووصلنا إلى الفيل الصغير، فإذا عيناه قد فقعت من منقار النسر وجعل الفيل يأكل من حوله ومضينا، فإذا بالنسر يطير خلفنا وظل فى موضعه وحط عليه النسر وجعل ينهش لحمه، وتجاوزناهم فى وقت الغروب، وبلغنا جبل ترجاش.

جبل ترجاش

ومضينا فى غابة من شجر الأبنوس وحطمنا أشجار تلك الغابة ومضينا طوال الليل فى نور القمر وخلدنا إلى الراحة فى سهل فى الغابة، وأعلفنا جيادنا وبلغنا حدود دومبيه وطلب إلينا قائد القافلة ونائب الكتخدا أن نحمل أسلحتنا ونمضى متفرقين، وبلغنا أرضًا فيها مجرمو دومبيه وأرض كثيرة القردة وبها وحوش ضارية كما قيل لنا: خذوا حذركم من ذلك الخطر الذى يتهددكم، ولم نضع أحمالنا مدة ستة أيام وست ليال ومضينا شمالا نطوى المراحل واجتزنا بعض قرى دومبيه، وجعلنا نأكل لحم الإبل ووحيد القرن ونشرب لبن النوق والبوزه وبلغنا حدود دومبيه فبلغنا مدينة بورغه الواقعة بين الصخور السود، ورأينا جثث بعض النسور وذيول الأفاعى وقد نشب الصراع بينهما، وقد هلكت النسور من سم الأفاعى وكذلك هلكت الأفاعى من مناقير النسور ولكن لا يمكن الاقتراب من هذه الجثث لخبث رائحتها، إن رائحتها الخبيثة تشبه السم، وكان فى تلك الصخور التى وقفنا بها أوكار للنسور، وكانت ليل نهار تصعد أصداء أصواتها وكل نسر يطير وإذا ما مد جناحيه فكأنه شراع وهذا هو حجم تلك النسور، وكل نسر يصيد فى كل يوم فيلا أو وحيد قرن ويحمل ما يصيد إلى الجو ثم يسقطه على الأرض وينهشه أما إذا وقع ظل

جناحه علـى طائفة مـن الجنـد العثمانيين لم تمـس حاجتهم إلى مظلـة ولا خيمة، وقد انتظرنا حاكم بورغـه ذات ليلة كما قدم إلينا بعض الرعايا هـدايا، وكان ذلك من حكمة الله تعالى، ولهم بيوت من الحصير والقصب ولهم جامعان ومئات من البيوت، وقد عين كل منهم فى داره قدر من مسك الهر.

أنواع مسك الهـر

هؤلاء القوم فى كل صباح يخرجون القمامـة من بيوتهم فلا وجود لديهم من نجاسة ولا قذارة ويعـرقون بقدر ما يـعرق الهر، ومخـالب هذا الهـر فى أرجله الأربع فـليس مخالب هذا الهر مثل مخالب الكلب وليست لحيوان مفترس، إن هذا الهر صغير الرأس ورأسه وأنفه يشبه أنف كلب الصيد إنه وحشـى وليس أليف كالهرة، ويربونه فى قفص على سطح البيت ويقدمون إليه الطعام، وقد أهدى إلى حاكم قوز قفصين من هذا النوع من الهررة أحدهم أبيض والآخر أسود، ولا يحتـمل أن يكون هذه الهررة لون آخر غير الأبيض والأسود، ولكن رائحة هذا الهر عطره ولما غـادرنا مدينة بورغه فى اليوم التالى وسلكنا واديًا واسعًا فقابلنا أحد عشر فيلاً ومضت الفيلة على يمنتنا ويسرتنا ووقف أمامنا فيل ضخم ولم يتحرك، واقترب مراراً من الجنة وكأنه يحدثهم عن نفسه أنه حيوان وَقّاد الذكاء، وكل رجل من أرجله كأنها مأذنة وكـل سن له كانه عمود وخرطومه مثل دخان المجرة وبطنه مثل طبل أصفهان أما أذنه مثـل مائدة الخلفاء ورأسه مثل خم الملوك وجلده مثل سماط الغرباء، وفـمه فم موقد الحمام، وعينه مثل جسم الـغزلان وذيله مثل عصا الشيوخ، وبعد ثمانى ساعات بلغنا ريـــده.

منـزل ريـده

هذه المحلـة فى حكم دومبيـه، إنها أرض جبليـة سوداء، وإذا ما حفرنا فـى أرضها مقدار ثلاثـة أو أربعة أشبار انبـعث ماء عذب كما تـوجد آبار، هذه الآبار يشـرب منها الفيلة وحركت الفيلة فى هذه الأرض، وفى مـدينة بوريد بيوت من القصب وجامع من القصب كذلـك وكل أهلها زنوج مثل أهل دومـبيه والجميلات بها كثـير، وغادرنا هذه

المدينة ومضينا إلى مرج على شاطئ بحيرة فيه قردة ضحكنا منها.

اوصاف قلعة نازدى

إن هذه القلعة كذلك فى حكم دومبيه ولـها حاكم زنجى يسمى جرجاج ولها أربعون ألف جنـدى عراة، وهى قلعـة مرتفعة، إلا أنـنا لم نسـتطع دخولهـا لمشاهدتهـا ولكن حولها، ألفى بيت من القصب وبيوت من الطـين كما أن أمامها جامعان وحانتين للبوزه ودكاكين وأمامها أشجار سنط وسنديان والأبنوس وغادرناها صبحًا.

ومضينا فوجـدنا قطعان من الفيلة ووحـيد القرن والغزال والعجول والحُمُـر الوحشية والخنازير الـوحشية، ولا يعلم عدد تـلك الحيوانات إلا الله، إنها أرض كثـيرة الأشجار والزروع، كما تسمع فيها تغريد الطيور بصوت حزين، وهذا ما يشرح صدر من يشاهد هذه المدينة ولذلك يأتى إلـيها ملك دومبيه ليصيد فيها، وله هنا وهـناك خيمة ومصطبة ومطبخ، وقـد شاهدنا كل ما فـى هذه الأرض، وفيها غابـات بها قردة يركب بـعضها بعض كالحمير أنـها قردة متعددة الألوان منها ما هو أبـيض وأزرق وأحمر وأسود وعلم عددها عند الله، وبعضـها يجرى كأنما يريد أن ينجز أمراً والحاصـل أن القردة كثيرة إلى حد يحار العقل فى كـثرتها، وأنها مخلوقات ممسوخة، وقد وجـدت ثلاثة من صغارها فى طريقى، وقد حملتها فى قفص وبهذه الصحراء تكون حدود دومبيه.

ودخلنا الإقليم الأول فى ولايـة الحبشة، فنحرنا الذبائح ابتهاجًا بـسلامتنا ولكن هذا الحر لا يصيبنا بشـىء بإذن الله وتقدمنا عشرة من رجالنا روادًا وبينما نحن ننظر رأينا أول مـن تقدمنـا فـى سيـرنـا يسقط من على صهوات جـواده، وعاد جواده نحونا كما أن رفيقًا آخـر من رفقائنا سقـط من على عنق جـواده، وإذا نحن بهذا الحيوان الـلعين وفرّ الجواد منا ثم صعد تلاً وهلك وفرت كل جيادنا وقد انفجر الجواد، وهذا الحيوان اللعين الذى سبق ذكره يشبه الغزال وفى طول قامته وفى جثته أما ذيله فينتهى بما يشبه العناقيد، وصعدنا الجبـل، ومضينا فوصلنـا إلـى هـذا الرجل، وقد هلك فتركناه وانـطلقنا فى طريقنا وقال بعض رجالنا إن ذلك الرجل الذى فـاضت روحه كان يحمل سبعمائة دينار

من ذهب فأخذنا الأسف وقلنا الحكم لله ثم سرنا فى أرض فيها أسود ونمور وفيلة ووحيد القرن وجبل أسود وصخور سود ودام سيرنا فى هذه الأرض ستة أيام وست ليال وبلغنا وادى ابرايش.

وادى ابرايش

إنه فى أرض الحبشة، وعلى جوانبه الأربعة آثار العمران وتنبعث منه رائحة طيبة فنزلنا فى هذه البقعة توّاً، وقد حفرنا الأرض فانبعث منها ماء عذب فمنذ سبعة أيام قَلّ ما نحمل من ماء فشربنا من هذا الماء ولذلك ردت الروح على الجند والدواب وتالقت الحياة فى الوجوه، وقد وجدنا آباراً كثيرة حفرت فربما كان التجار المرتحلين من الحبشة إلى مصر كانوا يسلكون هذا الطريق فحفروا تلك الآبار، ونحمد الله أننا بلغنا الطريق الواسع، وكان العبابدة يأتون من قنا سالكين هذا الطريق، وغادرنا هذه البقعة وسرنا ثلاثة أيام فى أرض حجارتها سود وجبالها سود وأرضها سوداء وقد تأذينا كثيراً من شدة القيظ ولما دخلنا الغابات تنسمنا رائحة كرائحة المسك وكأنما وجدنا من هذه الرائحة حياة الخلود، وقد سألت بعض التجار عن مبعث هذه الرائحة الطيبة التى تنسمناها فى الغابات فقالوا إنها رائحة تنبعث من الجبال التى تمتلئ برائحة المسك وثعابين المسك، واجتزنا هذه الغابات وفى اليوم الثالث وفى نهاية الصحراء بلغنا جبل عزلون.

جبل عزلون

نزلنا سفح هذا الجبل، إنه فى حكم الحبشة وفى يسرة هذا الوادى عرب لهم عشرة آلاف خيمة وهم زنوج، وعلى المذهب الجعفرى، وتجاوزنا هذه الأرض وحفرنا الآبار، فخرج ماء عذب، ومضينا شمالا حتى بلغنا البحر المحيط وطوينا مراحل على ساحل هذا البحر وبلغنا أرض القردة وفى شتى جبالها وأحجارها شتى أنواع القردة والنسانيس وأنواع أخرى من القرود، ولقد شاهدنا هذه القرود من فوق الأشجار التى تسلقتها وكانت تطلق أصواتها كأنها تضحك، وكانت تلعب وبذلك نسينا ما تكبدناه من نصب ومشقة فى سيرنا، وجملة القول أنه لا وجود فى عالم الحيوان كالقردة فى ذكاءها

وإضحاكها، ولكنها ممسوخة وإن كانت مشاهدتها تذهب عن الإنسان ما به من حزن ولكن تربيتها وتعليمها مما يورث الفقر والفيل كذلك حيوان ذكي، وعبرنا أرض القردة ومضينا ستة أيام في أرض ذات أحجار وأرض جبلية وأرض رملية ومضينا على شاطئ البحر ثم بلغنا وادي دنقلاب.

وادي دنقلاب

وتلبثنا في ذلك الوادي، وحفرنا آبارًا فخرج الماء العذب، إن هذا الوادي في إقليم الحبشة في قضاء سواكن سنجاغي وهو قريب من ساحل البحر، ويسكن عرب في هذه البقعة إنهم مائة ألف من الزنوج العراة، وعلى مسافة قدرها مائة وخمسون ميلاً شمال ميناء ينبع وهو ميناء المدينة المنورة وهو شمال هذه البقعة على الشاطئ والمدينة على ثلاث مراحل منها، ودنقلاب ميناء عظيم ولكن في البحر جزيرة تسمى لولو، وهي تبدو من الميناء وفي هذه الجزيرة بيوت من قصب وفيها جامع وحانات للبوزه، وليس فيها أرض تزرع، وكل سكانها غواصون، وهم يستخرجون اللؤلؤ من البحر، وهو لؤلؤ نادر لا مثيل له، واللؤلؤة في حجم البندقة، ويحكم هذه الجزيرة أغا من فرق الوالي الحبشي، وله عشر ما يستخرج من اللؤلؤ ويحاسب الباشا، كما أن السفن التي ترسو على ميناء دنقلاب تدفع جمركًا، وغادرنا دنقلاب واتجهنا شمالاً وبينما نحن على ساحل البحر رأينا جبلاً فيه دجاج ريشه مختلف الألوان والدجاج الحبشي يشبه الطواويس ومن الغد بلغنا أتله.

أرض أتله

هي تحت حكم سواكن وهي أرض رملية ويسكنها عرب زنوج وهم أربعون ألف يسكنون في الخيام، وهم يمنحون الباشا الحق في المراعي وفيها ينابيع ماء عذب وتجاوزنا هذه الأرض فشاهدنا قطعان الفيلة في الجبال السوداء وقطعان العجول السوداء ثم بلغنا قوم المرفا.

قوم المرفا

على بحر القلزم وهو بحر السويس مرفأ عظيم ولكنه ليس معموراً وعلى شاطئ البحر ملأنا القرب من ماء عذب وغادرناها صباحًا وسرنا على شاطئ بحر السويس أيامًا ثلاثة، وشاهدنا أصداف اللؤلؤ وأنواع السمك وسمك له مئات الآلاف من الألوان وهناك عجائب على شاطئ البحر سبحان الخالق وله الحكمة يحار العقل فيها فثمة أشجار لا أوراق لها في هذا البحر إلا أنها كثيرة الأغصان ولكن جذورها مغمورة في البحر وبعض السفن تمر بهذه الأشجار فتتحطم أما إذا كانت السفينة ضخمة فإنها تجتاز وتمر بين هذه الأشجار محطمة أغصانها، واللؤلؤ في هذه الشعاب المرجانية، وهذه الشُعب المرجانية غابة عظيمة وفيها سمك القرش ولا يمكن عادةً من يستخرجون اللؤلؤ ولا من يغرقون مع السفن لأنه يبتلعهم، وفي اليوم الثالث بلغنا جزيرة مدينة سواكن.

أوصاف جزيرة مدينة سواكن

في قديم الزمان سكنت هذه المدينة والدة لندها واسمها سواكن وقد أقيمت فيها الأبنية، وعلى مر الأيام بينما كانت المدينة تحت سلطان دومبيه، وفي عصر السلطان سليمان وكان وزير مصر طواشي سليمان باشا مضى في ثلاثمائة سفينة إليها وإلى مدينة ديو آباد وأحمد آباد في الهند، وانتزعها من البرتغاليين فهابه ملك الهند وعاد منصوراً مظفراً، كما فتح عدن وصفا وموحه وهي موانئ كانت في حوزة البرتغاليين، ومر الأسطول السلطاني بالحبشة وألقت مراسيها أربعون ألف سفينة بما تحمل من الجند، وأقام في مدينة سواكن وأصبح أوزدمر باشا وزيراً فهاجم إقليم الحبشة، وكان من أقرباء السلطان الغوري وهو جركسي الأصل ورجل مدبر وشجاع، وكان يبيع ويشتري ومكثنا فيها يومًا وقد بعث أربعين جملاً بخمسمائة قرش كما بعث خمسين سن فيل بخمسمائة قرش، ووقفت على أحوال هذه المدينة وبذلت همتي في مشاهدتها، ويقابلها على شاطئ البحر الأحمر على بعد ثلاثمائة ميل مدينة جدة، وبينها وبين مكة المكرمة مسيرة اثنتي عشرة ساعة، إن سواكن في الإقليم الأول وهي تواجه القبلة، وجزيرة سواكن صغيرة تمتد غربًا ثلاثة أميال، وهذه الجزيرة أيضًا تحت حكم الحبشة ولكن الوالي لا يقيم فيها. وينوب عنه من يتولى أمورها، ويقدم للباشا في العام مائة كيس، ويسمون قصر

الباشا فى الميناء خرده، ومن يستلمون الجمرك يسكنون هناك وأن بانيه هو أوزدمر باشا، إنه قصر عظيم شامخ وإذا ما اقتربت منه السفن القادمة من الهند والسند واليمن والحبشة دفعت عشراً، ولهذه المدينة قضاء قدره مائة وخمسون إنها قضاء عجيب وفى هذه الجزيرة مائتان وستون بيتًا من القصب والحصير كما أن فيها بيوتًا صغيرة جميلة من اللبن ولأوزدمر باشا جامع ذو مأذنة وهو مبنى بالحجارة كما توجد فيها المساجد وعشرون دكانًا من الحصير، وعلى رأس الميناء، مخازن لعبدة النار وهذه المخازن بها شتى السلع ومبرات وحمامات وخانات ومدارس وحدائق ولا يوجد شىء غير ذلك ولكن سواكن ميناء الفونج وزنجستان ودمبستان وفى إحدى جوانبها يسمع دوى الأذان، وفى هذا الجانب من الميناء ثلاث قلاع قديمة، وهى متقاربة ولا وجود للماء فى سواكن لذلك بنيت هذه لحفظ الماء فيها، وتمر بها القوافل القادمة والذاهبة ولولا هذه القلاع لما وجد أهل سواكن قطرة ماء وهلك أهل سواكن عطشًا والسفن القادمة إليها من الأرض المقدسة تسأل الماء وسفن جدة واليمن تطلب الماء من أجل ذلك يحفظ الماء دائمًا فى هذه القلاع، وفى بعض البيوت يوجد صهريج ماء، وهذه القلاع معمورة وهى قلعة باش وقلعة أورنه والثالثة قلعة بوغاز وفيها من الجند خمسون أو ستون، وينالون علوفتهم من الباشا كل شهر، وإذا مضى الباشا مع كثير من الجند إلى الحبشة ناب عنه بعض أتباعه فيها، وفى هذه القلاع مدافع وذخيرة، وهذه القلاع قوية حصينة، وتحتها أبواب ذات مصاريع تطل على البحر وفى جوانبها الأربعة مزاغل ومن فى القلعة على تمام الأهبة دائمًا.

أوصاف مدينة كيف القديمة

إنها فتحت على يد أوزدمر باشا فى عهد السلطان سليم خان الثانى، وكانت فى ماضى الزمان تحت حكم سلطان دومبيه إنها عظيمة ولكن ليست معمورة، وفى جوانبها الأربعة آثار أبنية قديمة، ونائب كاشف فى هذه الديار ورجال حكومتها مائتان والصوباشى يتسلم من السفن القادمة الجمرك، وفيها ثلاثمائة بيت مكسوة بالطين،

وبعضها من الحجر وبعضها من الحصيـر والقصب وليس فيها عمران سوى حمام وخان وسوق للبز ومدرسة ومبرة، ولكن فيها عدة مـقاه وحانات للبوزه، وليس فيها حدائق، وإن كان هناك بساتين جـميلة بعيد عن الساحل، وآبارها عـذب ماءُها، ولاعتدال جوها تحمل المرأة وعمـرها مائة سنة، ولقد شاهـدنا هذه المدينة ثم عدنا إلـى جزيرة سواكن، وركبت مـع نائب الكـتخدا محمـد أغا، ورفقائى سـفينة وتـلونا ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] وتوكلنا على الله وأبحرنا إلى جزيرة دهلك وبلغنا شاطئها ورأيت شراع هذه السفيـنة وقد جلس ربان السفينـة وملاحوها وكانوا ينظرون إلى الـبحر على الدوام، وهناك من ينظر يمنة ومن ينظر يسـرة ويبلغ الربان بذلك، وإذا ما اشتغل قبطان السفينة بغير ذلك فإن البحر يتعالى مـوجه، وكل من فى السفينة يقرأ الفاتحة مرارًا، ولو لم تقـرأ الفاتحة فـى السفينـة لا تجرى لأن شراعهـا من حصير ومـرساتها مـن حجر، ومساميرها حبـال من حصير وتحت السفينة دهن الـبعير كما أنها تمتلئ بدقـيق الشعير، ومضت السفينة فى البحر الأحمر وقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ومررنا بكثير من الجزر وبلغنا جزيرة دهلك.

أوصاف جزيرة دهلك

كانت عاصمة النجاشى، وقد فتحها عثـمان بن عفان بعد أن أرسل من جدة مائة سفينة ثم استولى عليها النجاشى من بعد إلى أن فتحت فى عهد السلطان سليم الثانى إنها جزيرة واسعة، حينما كان القائم مقام أوزدمر باشا فى الحبشة حاصرها ويستخرج اللؤلؤ عند هذه الجزيرة، وكان بها قلعة صغيرة إلا أنها انهدمت وآثـار المبانى فيها ماثلة للعيان، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقچه، وفـيها ستمائة بيت ونصف أساسها من الحجـر ويكسو سطوحها تراب كما يـوجد بها عدة دكاكـين ومخازن وجامع ومسـاجد، إلا أن بيوتها ضـيقة، ولا وجود فيها للحدائق، وعند المرفأ قصر القـائم مقام وفيها أربعون أو خمسون مخزنًا، وهى تمتلئ بـسلع التجار ولا وجود فـيها لأبنية أخرى، وفـى كل خان صهريج للـماء، أما الماء الذى يزيـد على الحاجة فـيبيعه بـعضهم للـسفن، وهواءهـا لطيف معـتدل، ويكثر فـيها

الجميلات من النساء، والفتيان سُمر البشـرة ويزرع فى هذه الجزيرة فى بقع مختلفة الذرة، وفيها بساتين وبهـا كثير من المَعز، ومن عجب أن المعز فى تلك الجـزيرة تأكل اللحم الذى يوجد فى صدف اللـؤلؤ كما تأكل السمك المملـوح ولحمها وشحمها رائحتـه ذكية كرائحة العنبـر، ولما فتح عثمان بـن عفان هذه الجزيرة قَـدِمَها عدة آلاف من المهاجـرين والأنصار وأرباب الصُفّة والصحابة، ودفنوا فيها ولكن ليس لهم قبور تدل عليهم ولا وجود لما يرشد إلى تاريخ موتهم، وقد شاهدنا جزيرة دهلك، ورأينا ما يحازى الشاطئ من صخور، وبعد قطع ستة أميال فى يوم واحد بلغنا جزيرة قلعة موص أووا.

اوصاف جزيرة قلعة مـوص أووا

كانت عاصمة لملوك الحبشة فى قديم الزمان، ولـقد فتحها عثمان بن عفان كذلك ثم فتحها آل عثمان فـى عهد السلطان سليم الثانى على يـد أوزدمر باشا وهى الآن عاصمة والى الحبشـة، وتحت حكمه سبعة سـلاطين، وللخاصة السـلطانية اثنا عشـر حملاً من أقجة، ولكن لا يوجد فـى هذه الولاية شعار ولا زعامة ولا علوفة ولكـن بها الدفتر دار والروزنامجى، والمحـاسبجى، والمقاطمجى طبـق القانون، ورواتب مائة من جنـد القلعة وعشر خاصــة بإدارة الدفتر دار والمغفـور له الموصدارلى مصـطفى باشا كان يربـى مائتى جندى من حملة البـنادق، وكان يحصل فى كل عام ألف كيس وفى المقـابل كانت تأتيه هدايا عدل ألف كيس وبقـوته القاهرة إذا ما شاء أن يفتح العالم لاستـولى على العالم، وعلى وجه الـعدالة بعد الخراج والمـصاريف يحصـل ألـف كيس، وإذا ظهر بيـض لـسود الوجوه مائـة أو مائتا رجل سيطـروا عليهم، وإذا ما أرســل الهدايا إلى ملك فـونجستان وملك دمبستان وملك الزنج وملك علوى وملك زيـلعستان ويحصل مال وفير من التجار القادمين من اليمن والهند، وكانت الحبشــة مولوية، وهؤلاء القوم لا يعرفون الحقيقة ولا الشريعة، إنهم زنـوج طغاة بغاة وحشو جهنم، ولا مذهب لهم ولا ديـن، إنهم يسكنون الحبشة، إن القيظ غـاية فى الشدة وقد يكون مهلكًا إلا أن شدة الحـر لا تؤثر عندهم فى إنسان ولا حيوان، ولكن الجو يعتدل من بعد العصر إلى الصباح فى اليوم التالى، ويهب

نسيم الصبا، فيهب الإنسان حياة الخلود، وقصر الوالى فى هذه الجزيرة على شاطئ البحر، وقد بنى هذا القصر كذلك أوزدمر باشا إلا أنه ليس واسعًا ولا مزينًا، وهو يتألف من غرف صغيرة وفيه غرف يكسو سطحها الرصاص ويسمون الجمرك هناك خورده، وهو قصر الباشا، وتشترى عشر سلع التجار فى قصر الباشا هذا وتقترب من قصر الباشا هذا السفن القادمة من البرتغال والإنجليز والفلمنك والهند والسند والصين واليمن وعدن وتوم فوطه وموحه ولوحيه وجدة وينبع وطور والسويس، لأنه مرفأ جميل، وتقع فى الإقليم الأول وبينها وبين مرفأ اللوحيه فى اليمن على البحر الأحمر مسافة قدرها مائتا ميل، ومدينة قرشية ويأتى إليه السفن من اليمن فى ثلاثة أيام، إن أبنية هذه المدينة صغيرة ولأنها جزيرة لا تحتمل الأبنية الكبيرة، وأبنيتها تغوص فى الطين، وبيوتها بعضها من الحجر وبعضها من القش، وبعضها من القصب، وأما قصر الباشا فعال وفيه محاريب وفى السوق جامع أقامه أوزدمر باشا، وهو على الطرز القديم وله مئذنة صغيرة، وله بابان أحدهما يفضى إلى الساحل، والآخر يفضى إلى السوق، وابن أوزدمر باشا ومصطفى باشا البوسنوى مدفونان فى ضريح على يمنة الجامع وثمة جامع الشيخ الجمالى، والشيخ الجمالى مدفون فى هذا الجامع كما أن هناك ست زوايا، ومنها مسجد قره بك ولا يوجد آثار أخرى لحمّام ولا خان ولا مدرسة ولا مبرة ولا سبيل، ولا وجود لسوق لبز وعند المرفأ مخزن للسلع، وفى هذه المخازن كل شىء ثمين حتى أكياس المسك والعنبر، وهذه المخازن بناءها متين الحجر، ولا يوجد فى الجزيرة حدائق ولا بساتين ولكن الدنانير الذهبية والقروش كثير، وأكياس الجواهر فى أكواب بهذه المخازن والقوم زنوج سود البشرة ومن أهلها الأسمر والأبيض، إنهم جميعًا من عبدة النلو وإذا مات منهم أحد أحرقوا جثته، ويلبسون الثياب البيضاء الهندية ويحمون رءوسهم ببيض العمائم وعندهم دفاتر بمصروفات وجمرك الحبشة، وهم يعملون حساباتهم بدقة متناهية وإنهم يقيدون مصروفاتهم تقييدًا دقيقًا، وتعتمد الحبشة عليهم فى الحسابات، ولا يقولون الكذب ولا البهتان، ولا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير، وإذا أكلوا يأكلونه

فرادى ولا يأكل أحد مع غيره ولا يطعمون إلا إذا نزل عليهم ضيف من سفر ويتاجرون مع الهند والسند ودمبستان وفونجستان، وإنهم قوم على خلق عظيم يحبون الغرباء حبًا جمًا، ولقد ساعدونى فى حمل متاعى الثقيل ولقد جئت من مدينة كيف فى فونجستان فى أربعين يومًا فى حدود دومبستان وعبرت الصحراء، وقد تبينت أن لهم ألف جندى لهم علوفه، كما أن رعاياهم عشرة ملايين وهذا ما قيل لى على لسان قوم بانيان والباشا، وبما أن بلادهم خالية من الطاعون يعمر الإنسان فيهم من مائة إلى مائة وخمسين عامًا، وباشا الحبشة يرسل إلى سلطان دومبيه رسول من قبله يحمل معه اللؤلؤ والعقيق والقسى، والسهام والحراب والبنادق والرصاص والبارود والنفط والقطران والبندق والفستق والجوز الرومى والصحون النحاسية والقمصان والسراويل والكتان والبز، والحرير والخيط وهذه الأشياء سابقة الذكر هناك نادرة، وقد صحبنا هذا الرسول فى طريقنا وأسلم هذه الهدايا التى فى معيته لـلسلطان، وقد أكرمه السلطان كما أن السلطان بعث مع الرسل إلى والى الحبشة أربعين أو خمسين غلامًا حبشيًا وأربعين أو خمسين جارية والزباد وسن الفيل وقرون وحيد القرن وقط الزباد والعنبر الخام، وترس الفيل والسياط، وقد أرسل جميع التجار إلى الباشا ما لديهم من سلع فأخذ منهم الباشا الجمرك، ويرد من ولاية دومبيه إلى الحبشة القمح والشعير والذرة والسمن والعسل، وشمع العسل والدقيق والزباد وخشب الأبنوس، وما سوى ذلك، وكذلك الغنم والجمال والعجول والغزلان والمعز وجميع الأطعمة والأشربة، وقد شئت أن أمضى إلى السلطان، ولكن فى ذلك الوقت كانت الحبشة تموج بالعصيان والتمرد، وأشفق فورتاجى أحمد باشا من بطش الثوار فركب من الليل فى باخرة أبحرت به إلى اليمن، ولقد بقيت غريبًا، ولم أستطع الرحيل إلى بلاد أخرى، وبذلك كانت هذه الجزيرة وبالاً حط على رءوسنا فركبنا زورقًا وبلغنا جرار باشى.

أوصاف جرار باشى

غادرنا بالزورق مع خيولنا، ودخلنا إلى جرار باشى، وجرار باشى التى دخلناها هى مدينة

قديمة يفد إليها الناس والسلع بالسفن، ولكنها الآن خربة وفيها هنا وهناك أشجار وبساتين وأنعام أهل الجزيرة تربى هناك وثمة آبار ماءها عذب، وليس فى جزيرة موص أووا ماء وامتطينا صهوات جيادنا من جرار باشى وبعد مضى ساعتين دخلنا أرضًا سهلة وبلغنا قلعة خرق.

أوصاف قلعة خرق

عندما دخلنا هذه القلعة رحب بنا رئيسها، ووضع فى يده منشفة ولما أردنا أن نقبل يده قال: عفواً أنتم إخوتنا الأحبة وكنتم رفاقًا لـلبك فى طريقه من فونجستان ولكنكم ركبتم السفينة من دهلك لتبحر بكم إلى موص أووا، والباشا فورطجى قد تمرد وعصى وبغى إنه تمذهب بالمذهب الزيدى وتعلق بأذيال الفرار إلى اليمن وقد وقفت على هذا الأمر، وإذا ما مضيت إلى مصر أظهرت وزيرها على هذا الأمر ثم أمضى إلى الآستانة، واسترحنا بضعة أيام ونـزلنا ضيوفًا عليهم، وقال لنا: اعلموا حقيقة الأمر، وأقمت فى حجرة خاصة بى وردُّت عَلَىّ روحى، فاستدعى رجاله فى التو واستولى على أموال وخدام وأرزاق أحمد باشا، وشاهدت المدينة، إن قلعة خرق قلعة قديمة سوداء وقد فتحت على يد أوزدمر باشا وإن كانت قلعة قديمة عظيمة من الحجر على ساحل البحر الأحمر لكنها ليست ركينة ولا معمورة، ومحيطها أربعة آلاف خطوة وهى مربعة الشكل ولها سبعة بروج وستة أبواب باب البرج الرئيسى وباب المرفأ وباب جبل جدا وباب الشيخ مظلوم وباب الماء وفى الركن القريب من الشاطئ داخل القلعة وهو الجزء المعمور داخلها ومساحته تبلغ ستمائة خطوة وقد رممه درويش أغا وصار جزءاً معموراً داخلها وتبلغ مساحته ستمائة خطوة أما ما خارج القلعة ففى حاجة إلى الترميم والتعمير، وفى القلعة بضعة مدافع وينوب عن الباشا مع مائتين من رجاله قائم مقام، ويحاسب فى كل عام مائة كيس ويفيض له بعد ذلك خمسون كيسًا، وقضاءه مائة وخمسون أقجه والباشا يحكم الأئمة وللقلعة رئيس وأغاوات، وهم ينالون راتبًا معينًا من الباشا كل شهر، ومعظم أغاوات الباشا يسكنون فيها لأن موص أووا وبرييس أووا جزر لأن السفن تبحر من قلعة خرق أووا وفى جوانب القلعة الأربعة آبار كلها عذب ماؤها وقد بنيت هذه

القلاع للحفاظ على هذا الماء ولذلك فتحت هذه الولاية وتم الاستيلاء عليها، وكان السلب والنهب فى أركانها الأربعة، ومن هذه القلعة غنموا ما غنموا وتحصنوا بها وأصبحوا فى عيشة رغدة، وحول القلعة كثير من الزنوج البغاة الطغاة وفى هذه القلعة سبعمائة بيت من القصب والقش، وسطوحها مكسوة بالتراب وفيها عشرون سوقًا صغيرة وسبع مقاه وحانات للبوزه وخان وجامع لأوزدمر وسبع زوايا ولا عمران فيها سوى ذلك ولا حاجة إلى وجود حَمَّام فيها لأن أهلها يتجولون عراة ليل نهار وتعرق أجسامهم كأنهم فى حَمَّام إنها مدينة غريبة وعجيبة وحاكمهم رجل شديد عنيد وإذا ما قامت الحرب استطاع أن يجمع حوله مائة ألف مقاتل، وهم جميعًا عبيد للوالى إله فورطجى أحمد باشا وزير مستقل وإنه الوزير الأول وقد ضاقت به الأرض بما رحبت ففر إلى إمام اليمن، والنائب قره يسكن قلعة خرق لووا إنه كريم أحمر الوجه واسع العينين وهو على علم بالتركية ويذل لشا الدجاج وحساء القمح وخبز الذرة، ويصدع بما يأمر هذا الرجل قوم الحبشة وفونجستان ودومبستان وعلوستان والعبابدة وسلاطينهم، ولهؤلاء السلاطين جند ولكن إذا ما رموا بحجر هربوا وتفرقوا لأنهم جيوش جياع وضعاف البنية، والنائب قره يحكمهم وتحت رياسته أمين الجمرك، وله خمسة آلاف جندى من حملة البنادق يغذوهم ويكسوهم، وإنهم جنود لهم قوة الإنكشارية ويلفون وسطهم بمنشفة وفى إحدى أيديهم بندقية وفى يدهم الأخرى منشفة مبللة بالعرق، إنهم يتجولون فى الصحراء، وإنهم يغيرون على كثير من البلاد فيقتلوا وينهبوا ويجمعون من ذلك مالاً كثيراً وتأتيهم الهدايا من كل الأرجاء وهى هدايا لا تدخل تحت حصر ويقدم للباشا كل عام هدية قدرها ألف كيس من المال المتحصل وهو يقدم مائة وخمسين كيسًا لأغوات القلعة كعلوفة لأن هذا مطلوب من الباشا، كما أنه يقدم علوفة إلى آخواته، وفى أيالت لا وجود للخدمات كما فى سائر البلاد ولكن فيها عشرون قائم مقام إنه يقدم إليهم كذلك علوفة، كما أن لمن فى القلعة وخدامها علوفة خاصة بهم، ويقدم للنائب ولمسلّم المدينة والقائد وكتخدا الباشا ونائب البوابين والإمام والأمين فى كل شهر

منهم علوفة قدرها ثلاثة وثلاثون قرشًا، كما ينال خمسة قروش كل من رئيس البوابين ورئيس من يسيسون الخيل وغيرهم والجلشنكير وأمير الإسطبل، أما أغوات الداخل خمسة عشر قرشًا، وهم يأخذون علوفة غير علوفة القلعة ومن خدمة الأمانة فى الموفا فلهم عوائد وفوائد أكثر من ذلك وإذا ما تعلق الأمر بالتجارة فلا بد من الزيادة.

وركبنا خيولنا من قلعة خرق أووا ومضينا جنوبًا ربع ساعة ففى مضيق زرنا ضريح الشيخ مظلوم القطب العظيم، ولقد ظهرت له كرامات وكرامات أما مناقبه فلا تدخل تحت حصر ولم يقبل أن يقام له ضريح وإنما اكتفى برحمة الله، وقدم إلينا الباشا وأعيان الولاية الخيام والمطبخ، وكنا لم نزل فى طريقنا وقد صدنا الغزلان والأرانب وتناولناها.

وفى قول أن أربعين أو خمسين فلاحًا يجتمعون فى مكان ويبقون فى الجبال خمسة أو عشرة أيام ليصيدوا الفيل ووحيد القرن والنمر فيحضرون جلد الفيل وسِنّه وقرن وحيد القرن، ويأخذونها للإتجار فيها.

إنها ولاية عجيبة لقد شاهدت مدينة خرق أووا بتمامها وكان ذلك فى عيد الأضحى من عام ألف وثلاثة وثمانين، تم ذلك فى يوم واحد وقد تسلمت الإذن مع محمد أغا بمغادرة مدينة خرق أووا وسلكنا طريقًا على الساحل الشرقى للبحر الأحمر، وفى الصحراء أرض ذات أحجار واستغرق ذلك منا يومين. والعرب يسكنون فى جبل ووله فى الحبشة إنه أرض واسعة خصبة وهؤلاء القوم يسمون القوم القليسين، إنهم سبعة آلاف من الزنوج إنهم عراة وفيها من الفتيات جميلات سُمر البشرة ومن الفتيان لأن فى هذه الأرض مياه وغادرنا هذه الأرض واتجهنا شرقًا.

أوصاف قلعة هنديه

قَدِم هذه الأرض قديمًا ملوك الهند وأقاموا هذه القلعة إلا أنهم لم يبنوها محكمة متينة إنها من الحجر ومربعة الشكل، ومحيطها سبعمائة خطوة ولأنها مقامة على ساحل

البحر الأحمر فمياه البحر تتسرب إلى أساسها ولها باب خشبى يفضى إلى المرفأ وباب آخر يفضى إلى الجنوب ولها حاكم يحكم هذه الآيالة مع مائتين من أتباعه ويقدمون إليه أربعين كيسًا فى كل عام، لها قضاء قدر مائة وخمسين قرشًا ولكن نائب الباشا إمام قاض، وقد تم فتح هذه القلعة على يد أوزدمر باشا وله جامع صغير بلا منارة ومسجدان وبها بيوت، ورئيس القلعة ومن معه أتباع للباشا فيها وبها مخزن للأسلحة وعشرة مدافع ويسكن خارجها عرب وهم يجمعون بعض النباتات العطرية والفاكهة ويربون فى كل خيمة من خيامهم خمسة من هررة المسك ثم غادرنا قلعة هنديه وانطلقنا شرقًا وقطعنا ثلاث مراحل فى أرض ذات أحجار وفى وقت الظهيرة بلغنا برج طوزله.

برج طوزله

إنه برج عظيم على ساحل البحر أقامها أوزدمر باشا، وبها نائب للباشا وبها ثلاث أسواق ومبرة وجامع ولا عمران غير ذلك والملح يرد إلى الحبشة منها، والتزامها فى العام أربعون كيسًا ويتحصل منها فى كل عام حمل مائة ألف جمل من الملح وإذا انحسر ماء البحر بالجزر ظهر الملح الأبيض، وفى هذه البقعة مسكن قبيلة الرونجيه وعدد أفرادها عشرة آلاف، إنهم يجمعون الملح فى التو والساعة ويصفون الملح أسفل البرج، وتجاوزنا هذه البقعة وانطلقنا شرقًا على ساحل البحر وشاهدنا خارج البرية، وفى شدة الحر لمدة ستة أيام شاهدنا الجبل الأسود.

أوصاف مدينة بهلوله الخربة

كانت مدينة عظيمة على ساحل البحر، بينما كان أوزدمر باشا يفتحها استولى عليها البرتغاليون فجعلوها خرابًا يبابًا وآثار أسسها ما زالت ماثلة وكان أهلها يسمون عبيره إنهم مائة وخمسون ألفًا، إنهم فى نظافة تامة ولهم عبير العنبر ولكنهم قوم لا علم لهم بالمذاهب الأربعة وليس لهم ولا يعرفون الحشر والنشر ولا يعرفون الحديث ولا يعرفون ما ينهى عنه الشرع، إنهم يقيمون جميعًا فى خيام بالصحراء ولا يعرف عددهم إلا البارى، ولكنهم على خلق عظيم كما أنهم عراة يسترون عورتهم بجلد، وفى هذه البقعة ميناء

عظيم يتسع لألف سفينة، وليس فيها أثر للرياح ولا أثر فيها لليل، وهؤلاء القوم يطعمون الذرة ولحم الغنم والمعز والغزال والعجل ويشربون لبن النوق والبوزه ولا وجود فى أرضهم للحصان ولا الحمار ولا وحيد القرن، إنها أرض ذات غابات، ولذلك يكثر فيها الأسد والنمر والفهد، إن هؤلاء القوم يشكون كثيراً من القردة، قائلين: هم يقاتلوننا على الدوام، ونحن عاجزون عن قطع شجر السنط والزقوم والأبنوس، وأتت القردة وأسرتنا ومضت بنا إلى الجبال، ولا خلاص من أيديها، فبعضها ينام وبعضها يتولى الحراسة، وقد وجدنا الفرصة لكن لم نستطع الخلاص، ومحاولات رجالنا أهلكت كثيراً من رجالنا فما لدينا أسلحة، وقالوا تقرر أن لا تغادروا هذه الأرض إنهم قردة ضخمة شديدة القوة، وإذا دخل الليل أغاروا على خيامنا وخطفوا الغلمان والبنات والنساء.

وخلاصة القول إننا عاجزون.

ونصحونا بمغادرة هذه الأرض فزايلناها فى السحر، فانطلقنا شرقًا، وإن هذه القردة تركب تيس الجبل وعجل الجبل وتمضى بهم وكأنهم سادة وجميع الحيوانات تهاب وتخضع لهذه القردة، وقد رأينا من القردة ما تحمل هررة الجبل تحت إبطها وتطعمها، وكما رأينا منها ما يحمل صغارها فوق بطنها وتطوف بها فى الجبال، ومنها قردة بيض أشبه بالعنزة البيضاء ذات الزغب تحت ذقنها إنها قردة جميلة وقد شاهدناها ثم مضينا لمدة ستة أيام فى الجبال وفى الخلاء وعلى ساحل البحر وبلغنا زيلع.

أوصاف مدينة زيلع القديمة

أقامها ملوك الهند فى الزمان الخالى، وفى عام ٩٣٨ استولى عليها أوزدمر باشا من البرتغاليين، إنها قلعة عظيمة ومرفأ قديم، وهذه القلعة تقع على صخرة فى الجانب الشرقى للنيل، ومحيطها خمسة آلاف وسبعمائة خطوة إنها قلعة حصينة خماسية الشكل، وأنها مرفأ منقطع النظير ترسو فيه السفن والسفن تأمن عصف الرياح فيها، ولهذه القلعة بابان أحدهما من حديد وأحدهما يفضى إلى البحر والآخر يفضى إلى البر، ولها رئيس وسبعمائة من أتباعه وليس فى الحبشة كثير من مثل هذه القلعة، وبها مخزن

للأسلحة وسبعون مدفعًا لأنها آخر حدود الحبشة وقد تجولنا من الحبشة إلى مدينة زيلع عند البوغاز حتى النيل، وجميع المدن على ساحل البحر فى المغرب حتى مضيق سبته وجزيرة مصر فى حوزة البرتغاليين، وفى القلعة ثلاثمائة تابع، وفى كل عام تقدم إليه أربعون كيسًا، أما إذا دخل مرفأ زيلع خمس أو عشر سفن هندية، وخمس أو عشر سفن برتغالية فيبلغ الجمرك خمسمائة كيس، وإذا انعقدت الصداقة والمودة والألفة مع الباشا قدّم إليهم اللؤلؤ والزباد والأبنوس وسن الفيل وقرن وحيد القرن وبذلك يدفعون الجمرك عن رضا وطواعية، وعندما وصلت كان نائب الكتخدا القائم مقام محمد أغا، وقدمت إليه سبع سفن برتغالية وألقت مرساتها تحت القلعة، ودفعوا أربعون ألف قرش جمركًا وكانت سفنهم تحمل الحرير والكتان والقطران والقطن، وفى هذه الديار يقدمون الماء المغلى للمريض ويطعمونهم القطران، ويدلكون به أجسادهم مرة فى العام وبذلك يتم لهم الشفاء، ويضعون فى عيونهم التوتيا، ويسمون القلعة جبل قدرى، وقوم قدرى عندهم عظيم إنهم زنوج ولكن وجوههم كوجوه التتار وشعرهم مفرق إنهم بواسل شداد يزرعون أرضهم وحدائقهم كثيرة المحصول وهم يبيعونه كما يصيدون الغنم والغزال والوحش وتيوس الجبل والجاموس الحبشى وهم يملحون لحم ما يصيدون ويبيعونه للفرنجة فى بواخرهم ولذلك يأتى كثير من البرتغاليين إلى هذه القلعة، ولأهل هذه القلعة على المذهب القادرى ونساء ورجال خارج القلعة سبعون أو ثمانون ألف وهم يلبسون الثياب البيض الهندية، إنهم يعبدون النار ويحرقون جثث موتاهم ويعبدون النار ولا يعرفون الخالق ويقولون هذا ما رأينا آباءنا وأجدادنا عليه وهم لا يغشون وهم جنب بل يبادرون إلى الاغتسال، كما يغتسلون إذا طعموا أو قضوا حاجتهم، وأجسامهم وثيابهم لها رائحة العنبر والزباد والمسك، حسانهم حمر الوجوه وبيض وسود الوجوه، وفى الحبشة حسناء زيلع بعيدة الصيت وأسنانهن كاللآلئ ولهن نونه جميلة وغبغب جميله وهم نساء ظريفات لطيفات نظيفات طاهرات الذيول وهؤلاء القوم يتبادلون المبيع والشراء مع تجار الهند واليمن والبرتغال، والمخازن عند المرفأ مفعمة بالنفائس، ولكن الترسانة خربة،

وهذا المرفأ ممتلئ بسفن جدة وسفن ينبع ومويلح وهذه السفن محملة بالبن من اليمن وحجاج المسلمين والسلع الأخرى، ولما شاهدنا هؤلاء الحجاج صاحوا، كأنما ارتدت إليهم أرواحهم كما أننا شعرنا بحياة خالدة تسرى فى أجسامنا وهؤلاء فى هذا المرفأ كانوا جياعًا وحاجتهم إلى حبة واحدة، ولقد استراحوا أول ليلة فى خيامنا ولقد قدمنا لهم ما استطعنا من نعم ومن الغد سار ستمائة رجل معنا لأننا كنا فى صحراء وكانوا معنا لحسن رفاق وقالوا لنمض، وفى يد كل منهم عصا وقد ساروا الهوينا وتبعناهم فى سيرهم، وفى اليوم السادس بلغنا مرفأ جرزه.

مرفأ جرزه

لقد ظلت فيه سفينة ثلاثة أشهر وغرقت، ولقد خرج منها مائتا رجل وأصبحوا رفاقًا لنا، وبقوا من الغد إلى وقت العصر ثم مضوا وأركبونى ومحمد أغا جملين لهم وطوينا المراحل حتى بلغنا منزل وادى حنفظه.

منزل وادى حنفظه

وفى هذه البقعة بالقرب من إبريم يقيم عرب من قبيلة كنوز، فنادى محمد أغا نائب الكتخدا شيخ عرب الكنوز واشترى هؤلاء الحجاج من عرب كنوز ألف جمل ومن الغد طوينا المراحل معهم إلى وقت الغروب معنا ثم مضينا وبلغنا منزل سهريج.

منزل سهريج

إنها مدينة على ساحل البحر الأحمر خربة، وبها بركة عظيمة ولقد نزلنا ضيوفًا عليهم ليلة هطل فيها مطر الرحمة فملأنا قربنا من هذا الماء ومن الغد مضينا فى الصحراء وبلغنا منزل وادى جانيج.

منزل وادى جانيج

كان البحر على يمنتنا ثم اتجهنا غربًا فى صحراء وادى حلفه وفى جانبها الغربى أرض رملية وحجرية، وفى اليوم الخامس بلغنا قلعة إبريم بحمد الله سالمين فنحرنا بعيراً وتصدقنا بلحمه، ولقد وصلنا من الحبشة فى غرة جمادى الآخرة، ونزلنا ضيوفًا على رئيس القلعة بكر أغا وكانت إبريم فى نظرنا جنة الخلد قياسًا ببلاد أخرى كأنها جهنم، ورأينا قومًا بيض الوجوه فشعرنا ببرد الراحة وأكلت خيلنا الشعير وأكلنا خبز القمح وقد حملنا الهدايا من السفن وهى التى أرسلها حاكم فونجستان إلى الباشا، وسلمناها إلى رئيس القلعة بكر أغا وقد أحسن المحافظة عليها ورعت خيولنا فى الحقول، وأتى رفاقنا، ومنذ أتيت من ثمانية أيام، لم أستطع أن أنزل النيل كما أن الآخرين لقوا كل المَشَقَّة فى الطريق ودخلوا مدينة إبريم، ولله نحمد أننا جمعنا كل ما نحمل من أشياء فى مكان واحد، واسترحنا فى مدينة إبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا فى السفن وأرسلناها إلى جرجا ولقد كتبت مسودات رحلتى وليعلم من يطلعون عليها أن العلم الذى يشمل العالم لذوى النهى ليس مخفيًا وليعلموا أن ما فى رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافيا، وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوى العقول الراجحة، إن سياحتنا فى فونجستان والسودان وبربرستان وسودان كانت شاقة، ولكن عناية الله عمتنا، فما أُبَرِّئُ نفسى من تقصير، إنها موهبة إلهية، وفى عام ثلاثة وسبعين خرجت فى حرب أويوار وبعد الفتح بعام تيسر فتح قلعتين، وبعد ذلك كانت هزيمة نهر راب ثم مضيت مع السفير قره محمد باشا إلى ألمانيا ثم إلى النمسا ومنها إلى ملك دونقارقير ومنها إلى ملك الدنمارك، ومنها إلى ملك هولندا فى أمستردام، ومنها إلى ملك بوهميا ومنها إلى ملك دانصقه ده له، ومنها إلى ملك قراقو، وبعد عامين ونصف بلغت السلطان محمد كراى سلطان القرم، ومكثت عنده شهراً، وقد عزله آل عثمان عن خانية القرم وأحل محله ابنه جوبان كراى، وقد عبرت مع محمد كراى جركرستانه فبقى محمد كراى خان فى ديار ملك داغستان،

وبناء على أمر أصدره السلطان محمود ركبت من دَمْرِ قَبُو فى سفينة فارسية، ومضيت إلى قلعة ترك فى ولاية موسكو وشاهدت فى ولاية موسكو ستّا وسبعين قلعة، وصل محمد باشا إلى قلعة أزاق فى اليوم الأربعين من شدة زمهرير الشتاء، وقد عزل كذلك عن قلعة أزاق فى هذا الأسبوع فدخل القرم، ومع آق محمد باشا فتح أدرنة، ومعى دخل مورية، ومع قبلان باشا دخلنا قلعة نبولى، ومضينا فى جزيرة كريت إلى قلعة خانيه ومع الوزير فاضل أحمد باشا فتحنا قلعة قنديه فى ثلاث سنوات، وتيسر لى فتح أزاق ثم فتحت ولاية ممانيه على يد قبودان كوسه على باشا، ثم مضينا إلى سبوط ثم استانبول ومنها إلى مكة المكرمة ثم مصر وبرسالة وزير مصر إلى فونجستان ثم إلى الحبشة ثم دخلت البريمه، ووالله أنى طوفت فى ممالك تسع ملوك فى أحد عشر عامًا، وهذا من فضل ربى رب العزة أنى وصلت إلى فونجستان وبربرستان وما ضقت ذرعًا لحظة بهذه الرحلة، وكنت فى صحة وعافية، ومن مدينة إبريم ثم ودعت خِلانى وأحبابى وركبت السفينة فى النيل إلى الجانب المواجه لأن فى ذهابى إلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية.

بيان بالقرى والقصبات والمدن التى شاهدتها فى رحلتى من إبريم إلى مصر

وبينما سِرنا على ضفة النيل الغربية فشاهدنا سبع قلاع خربة فتجاوزناها فرأينا على شاطئ النيل بلدة سبوع وقد بناها كهنة فرعون بالسحر وفيها تماثيل من حجر أسود، وهى تحت حكم إبريم وفيها مائتا بيت من قصب وجامع، وعلى ضفة النيل طوينا ست مراحل وفى قبائل كنوز العربية كنا نشرب ماء النيل ونأكل لحم الجمل ونشرب لبن النوق ونطعم خبز الذرة، فطوينا المراحل وإن قبيلة كنوز تتألف من عشرة آلاف مسلم عربى أبيض البشرة، وهم يتحدثون بالعربية وهؤلاء القوم على علم بالحشر والنشر وعلوم الشرع والحديث الشريف، ومنهم قبيلة أخرى تسكن الضفة الشرقية للنيل وعددهم قليل ومرعاهم ضيق ولكن من يسكنون الضفة الغربية منهم بلادهم نهايتها المغرب وهم كثير

ولهذه القبيلة علـى ضفة النيل على ستة مراحل خمس وعشرون قلـعة خربة ولكنها لو رممت لكانـت قلاعًا عظيمـة، وهذه القلاع لكهنـة فرعون ولهم أيضًـا قلاع ولاية الى، وبينما كان هارون أخو موسى ـ عليه الـسلام ـ وزيرًا له قدم إليها مع جند الإسلام[1]، وفتح كل تلك القلاع وهزم الفراعـين وسوى قلاعهم بالأرض هدمًا، وفى هذه الأرض عجائب وغـرائب الآثار، ولو كتبنـا عنها لاقتضى ذلـك منا طومارًا كبيـرًا، وفى اليوم الـسابع شاهدنا قلعة طومانس.

قلعة طومانس

ليس لها رئيس ولا أتباع وقد أقامها عرب كنوز وبما أنهم لا يستطيعون الهجرة فإنهم يسكنونها، وهذه البقعة هى حد لكاشفية إبريم وهى قضاء إسنا وبعد تسع ساعات بلغنا بلدة رقبة.

بلدة رقبـة

تقع على الضفة الغربية للنيل، وبهـا ستمائة بيت من حصير وجامع قديم بلا منارة، وغادرناها شمالا على ضفة النيل، وبلغنا قـبيلة عربية هى قبيلة قارح وهم ستة آلاف من العرب بيض البشرة، إنهم رُحَّلٌ يقيمون الخيام، وكلهم مسلمون موحدون، ومضينا عنهم وبعد ست ساعات بلغـنا بلدة حمام فرعون على ضفة النيل، وهـى فى حكم إسنا وبها ستمائة بيت من الحصير وجامع، ولها حمام كان فرعون بداخله على الدوام ثم ابتلى من بعد ملك القبط بمرض الجذام، ولما كان يـداوم على دخول هذا الحمام شفى من مرضه، إن هذا الحمام يشبه طاق كسرى، وهو حمام مشهور فى جميع الآفاق ومن جدرانه تفوح رائحة المسك والعنبر، ومضينا عنها وبعد ست ساعات بلغنا جزيرة باجه.

جزيرة باجـه

إنها جزيرة عظيمـة فى النيل وهى كثيرة الأشجار، وفيها جمـاعة من العرب هم بنو حمام كما أن فى الجزيرة مـعادن مختلفة، ولكن لا يعرفون كيف يـستخرجونها، وهذه

الجزيرة تسمى جزيــرة الشلالات، وقد سبق التعريف بها، وسِرنَــا أربع ساعات من بعد على ضفة النيل.

بيان قلعة أتفو

إنها فى حكم إسنا وهى بناء قديم على ضفة النيل وليس لها رئيس ولا أتباع له وهى بناء محكم ركين، ولها باب، وهى مربعة الشكل ومحيطها ألفى خطوة فيها مائتا جندى وثلاثمائـة بيت من قصب وجامعــان وثلاثة مساجد إنهــا تقع فى التزام إسنا ولــيس بها سوق ولا حمام ولا خان، ولكن حدائقها كثيرة، وغادرناها وبلغنا قبائل هجيزة العربية.

قبائل هجيزة العربية

إنها ثلاثمائة من العــرب على المذهب الشافعى وهم يقيمون خيامــهم فى هذه البقعة ويرتحلون، وهم قــبائل مشهورة وقدم لنــا شيخها ناصر علــى طعامًا ومضينا عــنها وفى وقت العصر بلغنا قبيلة العرب الجعفرية.

إن عدد أفرادها تسعة آلاف وهم يقيمون فى تلك البــقعة وشيخهم يسمى شمير الدين وفى عينه فتيل وعندما يخرجونه يضعــون فتيلاً آخر فى موضعه ويقولون إن عينه أخرجت من قفاه فهى مثقوبــة إنها جرح من رمح، يا له من شيخ عظيم بعيــد الصيت باسل، لقد نزلنا عليه ضيوفًا ذات ليلة، ثم انطلقنا ست ساعات على ضفة النيل وبلغنا بلدة كلح.

بلـدة كلـح

بها مائة وخمســون بيــتًا وجامع، ومضينا تسع مراحل شمالاً على ضفــة النيل فبلغنا قبيلة بــصلى العربية، عدد أفرادها ثــلاثة آلاف وكل عملهم أن يزرعوا الــبصل، لذلك أطلق عليهم هذا الاسم، إنهم مسلمون عيونهم تدمع على الدوام لأنهم يكثرون من أكل البصل ويضعونه فى غابات النخيل ويرحــلون، وقبيلة هوارة على عداء معهم، ولهؤلاء القوم طائفــة فى جزيرة الشلالات، والشيخ صَــيَّاح يسكن عندهم، وهو قــطب عظيم، وغادرناها وسِرنَا ست ساعات فبلغنا أسنا.

أوصاف قلعة أسنا

إنها كاشفية أخرى لجرجا وتقدم إليها فى كل عام أكياس المال والغلال ومحاسبتها فى ديوان جرجا ولكاشفها مائة تابع، وله سبع فرق ولهم غلال من الباشا فى كل عام، وقضاؤها مائة وخمسون أقجه وتتبعها ست وسبعون قرية يتحصل منها كل عام ألف قرش ولها قلعة مربعة عظيمة على شاطئ النيل، كما أن بها خمسمائة بيت وأحد عشر مسجدًا، وقد أقام هذه القلعة عمرو بن العاص عندما فتح مصر، ثم أقام جامع عُمَر، وهى على غرار جامع عمر فى قنا، وليس بها خان ولا مدرسة ولكن بها بضعة دكاكين وحانة للبوزه، ومقهى، ويقع فى غرب أسنا أرض خصبة وهناك يسكن قبائل الهجيزة، وقبائل الجعفرية وقبائل مطحنة، وإذا ما اشتد زمهرير الشتاء رحلوا إلى جبل الزمرد، وأهلها يتميزون بالجمال لاعْتدال جوها، وفيها ضريح يزار منذ قديم الزمان، وقد ضرب الحصار عليها عمرو بن العاص بخمسين ألف جندى حين فَتْحِهِ مِصْرَ ودام هذا الحصار سبعة شهور وقد تم فتحها بعد حرب ضروس، والخطيب فى جامعها يعتلى درجات المنبر ومعه سيف، وقد استشهد فى تلك الحرب ستمائة من الصحابة الكرام وقبورهم معروفة وعليها أسماؤهم، ولكن ليس فى الإمكان أن نذكرها لأن ذلك شرحه يطول، ومضينا على ضفة النيل وبلغنا ضريح الشيخ صنيع.

هذا الضريح يتردد الناس عليه لزيارته، وفى غرب مدينة أسنا على مسيرة نصف ساعة ضريح حمزة وفيه ثلاثة قبور، ومَن فى هذه القبور من أبناء حمزة، ولا نعرف أسماءهم، وعلى مسيرة ثلاث ساعات شمالاً بلغنا بلدة أسفون.

بلدة أسفون

إنها بلدة فى أرض أسنا وفيها مائتا بيت وحدائق ونخيل وجامع، وعليها أوقاف للسادات فى مصر، ومضينا شمالا ومررنا بقبيلة مطعه، بعد أربع ساعات بلغنا:

بلدة زيقت

وبها مائة وخمسون بيتًا وفيها حدائق ونخيل، وبها ركن من وقف الإسكندرية وبها جامع معمور، ومضينا خمس ساعات شمالا وبلغنا بلدة أرمن.

بلدة أرمن

إنها قريبة من النيل بها مائة بيت وجامع، وأهالى هذه البلدة مواظبون على الصلاة وهم على المذهب الشافعى، وكانت مدينة غاية فى العظمة وقد كتب عنها كثير من المؤرخين، وفيها ولد موسى ـ عليه السلام ـ، وخوفًا من بطش فرعون ثبت موسى فى لوح وألقى فى اليم، وكان من حكمة الله عندما مرّ موسى أمام قصر فرعون أن اتخذت آسيا زوجة فرعون موسى ولدًا، وربته، ورأى فرعون موسى وأعجبه من موسى حركته؛ فصمت. ولذلك تواريخ وقصص كثيرة، فى تفاسير الطبرى وغيره فلا حاجة بنا هنا إلى ذكر ذلك، وسبب تسمية هذه المدينة أرمن أن جد موسى لأبيه اسمه أرمن ويسكن هذه المنطقة الآن اليهود والقبط، ويزورون ضريحه فى الكهف وبذلك سميت المدينة بأرمن، وكان لأرمن ابن يسمى هرم ولابنه ولد يسمى حنام فمضى حنام هذا إلى ديار ماهان، وهناك أصبح له الملك فيها وولد له ابن فسمى ولده أرمن على اسم جده، وأصبح أرمن هذا ملكًا مستقلاً للأرمن ولذلك نسب الأرمن إلى موسى وأرمن، ثم جاوزناها ومضينا على ضفة النيل نطوى المراحل بين القرى المعمورة على جانبى النيل لمسيرة ثمانى ساعات، وبلغنا بلدة قورنا.

بلدة قورنا

هذه البلدة هى حدود أسنا كما أنها حد جرجا، وأهلها جميعًا يسكنون الكهوف إنهم قوم بيض الوجوه، وهؤلاء القوم استشهدوا على يدى هولاكو فى زمن المستنصر، وبعد أن خرب هولاكو مدينة بغداد، ولما استولى هولاكو على المدينة فر المستكفى بالله منها إلى مصر، فجعل له الظاهر بيبرس بالقرب من أسنا موطنًا له؛ ولذلك تسمى البلدة قورنا، وقد قدم أهل قورنا إلى المدينة الجديدة وسكنوها وقد قدموا بأموالهم وأرزاقهم، وزرعوا الأرض وعمروا البلدة، وكل مغاراتها من بناء سيف بن ذى اليزن، ومن دخل هذه الكهوف أخذه كل العجب، إنها من حجر، وفيها مقرنصات بديعة، إنها من عجائب الدهر، وفيها قصور وقاعات ومطابخ واسطبلات من شاهدها أخذه كل

العجب، لقد كانت جميع الأحجار طوع هؤلاء القوم منذ الزمان الخالى، وبعض هذه الكهوف يسكنها العرب كما أن أغنامهم وعجولهم تأوى إلى هذه الكهوف، ثم مضينا على ساحل النيل خمس مراحل، وبعد ست ساعات بلغنا بلدة نقاده.

بلدة نقاده

بناها مصرايم، من فراعنة مصر ويسمونه أبا القبط وهو حفيد نوح، وهو الذى بناها بعد الطوفان، وأصبحت مدينة متراحبة الأرجاء، وآثار أبنيتها للآن، بها من الخراب ما يتجاور ثلاثة أمثال ما فى مصر، وبهذه الأرض خمسمائة بيت هى وقف وجامع وزاويتان وهذه المدينة نصف مسلمون والنصف الآخر قبط، وشددنا رحالنا على شاطئ النيل لنجتاز فى صحراء متراحبة الأرجاء، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة دندره.

بلدة دندره

إنها فى حكم جرجا وفى ناحية فرشوط، وهى بلدة معمورة كأنها إرم ذات العماد، بها ألف بيت وجامع وتجاورناها فى أرض رملية حجرية وبعد سبع ساعات بلغنا قصبة به هو.

أوصاف قصبة به هو

إنها كاشفية أخرى لجرجا وليس فيها جند ولا قائد ولكن كاشفها يحصل فى كل عام للسلطان عشرين كيسًا من المال و (   )[1] أردب من الغلال، وبها باشا لاستعجال الغلال، إنها قضاء فرشوط، ولها حدائق جميلة تشبه حديقة إرم، كما أن بها ألف بيت وسبعة مساجد وجامع ذو منارة وسوق ومقهى وحانة للبوزة وداران للضيافة، وليس فيها حمّام ولا سوق للبز، والتمر فيها وفير من عجائب هذه المدينة أن فيها شجرة فى غرب المدينة هى شجرة سنط وقد تحطم جذع هذه الشجرة، وسقطت بعض أغصانها على الأرض، ولكن بنيت من جديد هذه الأغصان، فأورقت هذه الأغصان وأثمرت ما ليس له مثيل، وإذا جاء الخريف وهطل المطر سقطت هذه الأغصان على الأرض وإذا جاء الربيع تبدأ تورق غصونها ثانية وما وجد على ظهر الأرض شجرة لها مثل صفاتها

(١) بياض فى الأصل.

ويقول الشيوخ من أهل تلك المدينة إن هذه الشجرة وجدت منذ ألف عام إن رجلاً جنبًا حمل فأسًا وأراد أن يقطع هذه الشجرة، وأصبحت أوراقها مثل أوراق الخريف وتسقط بعض أوراقها من الخوف، وفي التو تبقى أغصانها على حالها، وأهل الصعيد لا خبر لهم عن هذه الشجرة، بيد أن الأقباط يعرفون هذا من أخبارها، بل إن بعضهم هم الذين مضوا مضى كي أشاهدها، إنها دليل على بديع وغريب صُنْعِه عز وجل، ولقد شاهدتها فإنها تستحق المشاهدة، وغادرنا هذا الموضع وسِرْنا خمس ساعات على شاطئ النيل وبلغنا قصبة فرشوط.

أوصاف قصبة فرشوط

إنها في حكم جرجا إنها كاشفية أخرى تؤدي مالاً وأكياسًا أخرى ويحصل مائتان من سكانها الأموال، ولهذا جند من الطوائف السبع وقضاؤها مائة وخمسون أقجه وتؤدي في العام خمسمائة قرش، لأن أهلها من عرب الهوارة المطيعين، ولشيخهم ولد واحد اسمه علي، وله ثلاثة آلاف من الفرسان من الهوارة، وعلى شاطئ النيل ثمانمائة بيت بين الحدائق والنخيل، ولها أحد عشر مسجدًا، وجامع كما أن فيها بضع أسواق صغيرة ومقاه، وحانات للبوزه، ولكن ليس فيها مدارس ولا حَمّام، أما علماء فرشوط فهم كثرة، ومنهم المفسرون والمحدثون وأكثر من ألف مصنف كما أن منهم مؤلفون من صالحي الأمة، وفي مصر شهرة واسعة للعلماء الغمراويين والفرشوطيين والأسيوطيين، ولاعتدال الجو فإن الشيوخ والشبان راجحة عقولهم كما أن الصبيان الذين يتعلمون في المكاتب أذكياء مجتهدون، وأصل تسمية فرشوط أن نوحًا ـ عليه السلام ـ قدمها بعد الطوفان، وقد وهب هذه الأرض إلى فرشوط بن مصرايم بن بيطار بن حام بن نوح، وقد عُمِّرَ فرشوط هذا ألفًا ومائة سنة وعندما مضى إلى بلاد فونجستان، بنى مائة وأربعين مدينة ومن هذه المدن مدينة فرشوط وكانت قديمًا مدينة جميلة، وما زالت آثار أبنيتها ماثلة للعيان، وغادرنا هذه المدينة ومضينا على ساحل النيل خمس ساعات وبلغنا قصبة بسمنهوط.

أوصاف قصبة سمنهوط

إنها مدينة عظيمة بناها سمنهوط وهو حفيد نوح لابنه بيطر، إلا أن هذه المدينة على مر الأيام تلاعب بالاستيلاء عليها أبناءه فأصبحت مقرًا لأعشاش البوم، والحمام، إنها كاشفية تابعة لالتزام جرجا وتقدم عشرة أكياس من المال وستمائة أردب من الغلال ولها أغا لاستعجال الغلال، ولكن ليس لها جند من سبع طوائف إلا أن كاشفًا يحكمها مع مائة من رجاله، ويحصل المال، ولها قضاء فى ناحيتها، والمدينة على ضفة النيل إن فيها حدائق ونخيلاً وكأنها جنة عدن، وفيها ألفا بيت وسبع محلات وعشرون مسجدًا وثلاث جوامع كما أن فيها كثيرًا من الأسواق الصغيرة ومقهى وحانة للبوزه، وليس فيها مدرسة ولا حمام، وكلهم من الهواره، ونواحى هذه المدينة الثلاث أرض كثيرة الزرع ففيها القمح والفول والشعير لأن جوها لطيف، وبها خيول فارّة والمغارات التى فى جانبها الشرقى بينها مغارة عظيمة.

أوصاف هذه المغارة

ومن عجب أن فى تلك المغارة بذر كتان تكوم من ألف عام وحجم هذه البذور كحجم حبة الفول فى يومنا هذا، إنها بذور كبيرة للكتان، ولم يوجد من مضى على هذه المغارة من أجل بذور الكتان، وإذا ما رآها خرج سالمًا، أما إذا قصد أن يأخذ بذرة من هذه البذور جاءته حشرات فأكلت جسده، ولم يَبْقَ منه إلا العظام، ولما كنا فى هذه المغارة أتت جاموسة إلى الغار فلما بدأت تأكل بذور الكتان قدم صاحب هذه الجاموسة، فرأى أجناسًا من المخلوقات قد دنت عليها والتهمتها بتمامها، فخرج من الجاموسة إنسان وسد باب المغارة عدة مرات ثم بنى جدارًا كأنه ترس، يا له من منظر عجب وما أكثر العجائب والغرائب فى هذه المدينة لقد شاهدت هذا فمضيت أربع ساعات فى أرض مستوية على ضفة النيل مع نائب الكتخدا محمد أغا، وبلغنا قصبة برديس.

أوصاف قصبة برديس

إنها نيابة جرجا يحصل غلالها أغا جرجا، وهى كاشفية يحكمها كاشف مع خمسين من رجاله، ويجمعون الغلال من أربعين قرية ويبقى منها عشرة أكياس، وليس فيها

جنود مستحفظون، إنها قصبة على شاطئ النيل كثيرة الحدائق والبساتين وبها جوامع ومساجد وأسواق صغيرة، ولكن ليس فيها خان ولا حَمّام، وجميع أهلها من قبيلة الهوارة وشيخها ابن أبى مؤذن بينما كنا عنده تحارب ابن الشيخ على ابن المؤذن مع أخيه حربًا ضروسًا أمام أعيننا، فقتل سبعمائة رجل وفى التو واللحظة تعانق أهل القبيلتين، وتصالحوا وانصرف عن القبيلة الفزع والجزع فحملوا القتلى على الخيل والإبل، يا له من منظر عجيب، ولا سُئِلَ عن هذا الحاكم، وكأنما هذه الحرب كانت قانونًا قديما، ولم يتشاوروا فيه وغادرنا قصبة برديس وعبرنا حوالى مائة بلد من قبيلة الهوارة، وفى الساعة الخامسة بلغنا مدينة جرجا.

اوصاف جرجا المدينة العظيمة

نزلنا فى قصر البك، والتقينا بأصدقائنا وأحبابنا، وأحضرنا الهدايا على الجمال والخيول، وقدمناها إلى العرب لتربيتها وبسطنا إلى بك جرجا رجاءنا بالسماح لنا بالمضى إلى ولاية الواحة، فقال على الرأس والعين وكان معنا خمسون جملاً تحمل المؤن.

طوينا المنازل من جرجا إلى ولاية الواحات، فغادرنا جرجا واخترقنا الصحراء غربًا وسِرنَا فى أرض غير ذات زرع، ولا ماء فيها، وطوينا منازل وسِرنْا فى خمسة أيام بلياليها وبلغنا ألواح.

أوصاف (الواح) تلك المدينة القديمة

يقال إن أول من بنى هذه المدينة قبل طوفان نوح حاكم مصر نقراوش، وأنه كاهن عظيم بنى سبع مدن تسمى أمسوس، وقد عمر مائة وثمانين عامًا، وبعد وفاته خلفه ولده انتراش وكان كأبيه ساحرًا ماهرًا، وعمر ثلاثمائة عام، إنه أول من بنى مدينة ألواح وتولى الملك من بعده أخوه مصرايم، وكان كاهنًا عظيمًا حكيمًا وقد عمر مدينة ألواح حتى أصبحت أعظم من مدينة أمسوس، وبعد الطوفان أصبحت خرابًا يبابًا، وبعد الطوفان وجد ابن كنعان بن نوح جثة أبيه كنعان فى مدينة ألواح فدفنه فى أرضها، وقد

عمرها بوبلجان بن كنعان بن نوح، وفى غرب مدينة ألواح جِبَالٌ حمر، ويسمونها جبل كنعان، وكنعان مدفون فى صخرة بها، ويتردد كثير من القبط على قبره لزيارته، أما المسلمون فيمتنعون من زيارة قبره لأن كنعان الابن الرابع لنوح إلا أنه لم يركب السفينة مع أبيه نوح النجى وارتد، وغرق فى الطوفان ومات كافرًا، إنه مدفون فى مدينة ألواح ولذلك منعت زيارة قبره، إن مدينة ألواح تقع فى صحراء مترامية الأطراف إنها لطيفة الجو وفيها ماء وفير ونخيل وحدائق، وفيها ألف بيت صغير كما أن فيها جامعين وستة مساجد، ومقهى وحانات للبوزه ولكن ليس فيها خان ولا حمام وسوق كبيرة، ولكن يجتمع خلق كثير فى ألواح كل أسبوع ويبيعون ويشترون بالعملة الذهبية والقروش، إنهم يؤلفون جماعة عظيمة وحاكم ألواح هو الكاشف الكبير، وله قائم مقام، ولألواح قاضى ونائبه يحكم، وليس لهذه المدينة قلعة ولكن حولها خندق يحميها كما أن لها سورًا فيه سبعة أبواب، يوصد البوابون هذه الأبواب ليلاً، وأبوابها من خشب النخيل، والبوابون والحراس يغلقون هذه الأبواب، لأنهم يخشون عادية عرب الصحراء غير أن بوابى هذه الأبواب حراس مهرة، وبلغ الأمر من شهرتهم وبراعتهم أنهم يختارون كذلك بوابين وحراسًا فى مصر لقصور مصر وقصر الكتخدا والديوان والقلعة، حتى أن عمرو بن العاص حين فتح مصر أحسن إلى هؤلاء البوابين بل إن السلطان سليم حين فتح مصر اختار بوابى ألواح حراسًا لأبواب مطبخ القلعة وباب ساقية القصر، وقد تولوا حراسة القلعة، ولما دخل العثمانيون مصر كان ذلك وقت المغرب رفع الأذان ورفعت الأعلام البيض على سبعة وسبعين برجًا من أبراج القلعة وقرعت طبول آل عثمان هنا وهناك، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها امتلأت القلعة، لذلك تم فتح قلعة مصر وثَمَّة فرمانات لسليم خاصة بهؤلاء البوابين لأنهم منذ قديم كانوا بوابين وكانوا يتولون ذلك كابرًا عن كابر، وكان هؤلاء البوابون يتقاضون رواتب من الحكام والكاشفين، وكان ذلك طبق قانون سليم، وتقاريره تشهد بأن خمسين ألفًا منهم كانوا يقومون بالخدمة وكان يأتى البوابون من ألواح مرة كل ستة أشهر ويمضى القدماء منهم، وهم إلى يومنا

هذا يؤدون خدمتهم، إنهم معروفون باستقامتهم وتقواهم وحميد سجاياهم، وسبعة من الواحات فى حكم جرجا إلا أنهم كانوا قبل ذلك فى حكم منفلوط وكانوا يلبسون الخلعه من قبله ومنهم من كان يصبح كاشفًا لأنه كان فى منفلوط جمرك عظيم، وفى كل عام كانت مئات الآلاف من الإبل والغنم والبقر تأتى من الواحات ويحملها العرب ويعلم بذلك كاشف الواحة، فمع ألف من العرب وحاملى البنادق يقابلون القوافل القادمة من الولايات، يقضون عليها ويأخذون كل شىء من أمتعتهم ويسجلونه فى دفتر ويقدمون هذا الدفتر إلى كاشف منفلوط ويعلنون ذلك فينال التجار بناء على ما جاء فى دفتر كاشف ألواح ينالون العشر، فيجمع المال ولذلك كانوا تحت حكم كاشف منفلوط، ولكن ذلك كان فى إيالة جرجا وكان لحاكم جرجا العشر من القوافل الآتية إلى جرجا وذلك طبق القانون القديم، لقد شاهدت مدينة ألواح وتناولت الغداء مع قائم مقام الكاشف فأرسلت خمسمائة قِربَة ماء إلى الغرب من ألواح، وفى اليوم الأول ونحن نعبر الصحراء عصفت ريح السَموم فغطينا طعامنا بقرب الماء فحفظناها فرأينا بعد أن نمضى فنظرنا فلم نجد قطرة ماء فى قِربِتَا، وقال رفاقنا شكرًا لله أن مدينة ألواح الكبرى قريبة ولو أن ريح السموم هبت علينا عند خروجنا من مدينة جرجا وقطعنا المراحل ستة أيام لما بقى شىء من الماء لدينا ووردنا موارد الهلاك جميعًا، فقالوا الحمد لله أن مدينة ألواح الكبرى قريبة وفى وقت العصر بلغنا مدينة قليمون.

أوصاف مدينة قليمون

بانيها هو كاهن من كهان قليمون؛ ولذلك يسمون هذه المدينة باسم قليمون الحكيم، هذا وبعد الطوفان كان لبيطر بن حام أبو القبابط ثلاثون ولدًا كان أكبرهم مصر، وأبو مصر وهو بيطر بن حام مات فى الطوفان فدفنوه فى جبل بجانب الهرم فاستقل ابنه مصر بمصر ملكًا، وكان له تسعة وعشرون من الأخوة فوزعهم على أقاليم مصر فعمروها، وبعد الطوفان بألفين وستمائة سنة هلك ملكهم مصر وأدرك مصر الموت، ودفن إلى جانب أبيه بيطر فى جبال الهرم، وكانت جبال الأهرام هذه إلى عهد إبراهيم -

عليه السلام ـ مزاراً للخاص والعام، وبعده ملك مصر الملك قفط ولم يكن من ذريته، فظهرت لغة القبط، وقدم هود ـ عليه السلام ـ فى عهد قفط هذا وبناء على تعاليم هود ـ عليه السلام ـ بنى قفط مدينة ألواح وجعلها مدينة مثل إرم ذات العماد وقد حكم الملك قفط أربعمائة وثمانين عاماً ثم مات فدفنه هود فى الهرم وبنى كذلك فى وادى القرى بالقرب من المدينة بالقرب من صخرة ناقة صالح مدينة سكنها، ولذلك فإن حجاج الشام يسمون هذه المدينة مدينة هود ثم نقل الملك قفط ملكه إلى أشمون، وقد بنى أخوه مدينتى ألواح الكبرى وأشمون وعمرها وما زالت فى خرائب ألواح الكبرى أبنية للملك قفط والملك أشمون وهناك تواريخ لها بالخط القبطى.

إن هذا الشيخ الفانى رأى عديداً من عرس الدنيا.

وبعد أن فتح مصر عمرو بن العاص واستولى العثمانيون على مصر من يد الشراكسة والآن يوجد من قبل خيره بك لمنفلوط كاشف آخر وهو يؤدى فى كل عام سبعين كيساً، ولكن ليس ثمة أغا للغلال ولهذا الكاشف من مستحفظى الطوائف السبع مائة فارس وألف فارس من العرب وله سبع مدن فى الواحات، وذكر هذا فى موضعه، وغير هذه الواحات السبع لا وجود لقرى ولا قصبات وفيها أرض زراعية وحدائق كثيرة ويفيض للكاشف فى العام مائة كيس وإذا قدم التجار وكان الطالع طالع نحس ولم يأتِ الجلابه يتحصل من جميع الحدائق عشرة أكياس، وهذه الواحات قضاءها مائة وخمسين أقجه، ولها شيخ إسلام ونقيب أشراف وشيوخ على المذاهب الأربعة، ولكن ليس فيها أعيان ولا أشراف والفقراء فيها كثير، فى داخل هذه المدينة وخارجها فى الصحراء آثار كثيرة، وبها آلاف الطلاسم كما دفنت فيها كنوز وكنوز، وعلى الأحجار والصخور علامات متعددة وإلى يومنا هذا يستخرج المغاربة هذه الكنوز الدفينة وليس ثمة من يمنع ذلك وعلى كل كنز يهلك آلاف مؤلفة من أهل الهند والسند يهلكون وترقد جثثهم تحت الرمال، إن المعادن فى تلك الأرض لا يعلم كثرتها إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن هذه المعادن حجر الشب الأحمر والتراب الأحمر والزاج والزرنيخ وحجر الكلس وحجر

الفرح وحجر اليرقان، والحجر البلغمى وحجر البلاط وهو حجر لين، وينشر بالمنشار قطعًا قطعًا وهم ينضدون به أرض البيوت والحمامات وبعد أن يمر عليه الهواء يصبح صلبًا وكذلك معدن الرصاص والذهب والفضة والكبريت والنفط والقطران غير أن القوم لا يعرفون كيف يستخرجون المعادن ولكن لهم محاصيل أخرى كثيرة، ولا وجود للحديد ولا النحاس فيها ولكن لديهم مياه كثيرة، وإذا ما طلب أحد ماء حفر الأرض فيخرج منها ماء عذب ويسقط الماء من فم الغنم، وإذا حفرت الأرض وظهر الماء حمل إلى الحدائق ليرويها، إن الماء العذب غزيرٌ وفير، وبعض هذه المياه مسهل وبعضها قابض وبعض هذه المياه مثل الخل يضعونه فى الحساء، وهو حامض فى غاية الحموضة، ومن المياه ما هو ماء ملح وهم يضيفونه إلى الطعام، ومنها ماء أحمر اللون ومنه يخرج سمك النيل وإذا مسحت الجراح ببعض المياه اندملت وشفيت، ومن حكمة الله أن هذه المياه متغايرة فلكل ماء طعم ولون وخاصية (يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته)، وأهل الفرنج يصنعون من هذه المياه، الزجاج والصفيح والنحاس الغليظ وهم يضعون كل ماء بما له من خاصية فى جرار يرسلونها إلى مختلف البلاد وهذه المياه لا تصيبها الكدرة ولا يلحق بها تغير فى يوم من الأيام، وكان معنا رفيق يركب وحيد القرن وهو درويش ولما مسح وجهه بالماء ابيض وجهه ولحيته ولما سألته عن سبب بياض لحيته، وكنت أنظر إلى اللحى لأرى، وقد توضأت، وتساءلت عن أثر الوضوء فقال إن مسح لحيتك بهذا الماء منظر عجب فإذا سرق اللصوص خيولاً أو أنعامًا وكان لونها أسود أو أحمر غسلوها بهذا الماء فأصبح لونها أبيض، وبذلك تمكنوا من بيعها دون ما خشية أن يفتضح أمر سرقتهم، وتلك خاصية لهذا الماء وكان عندى فلو غيرت لونه إلى الأبيض بهذا الماء فغسلته به فصار لونه كلون اللبن، وفى ولاية الواحات سبع مدن بين كل مدينة وأخرى مسيرة يوم واحد وفيها حدائق وبساتين ومزارع، ولكن ولاية الواح الكبرى معمورة لأنها عاصمة الحاكم، وفيها قاض وأعيان، وسبب تسمية هذه الديار بالواحات أنه قد بناها كنعان بن نوح وله بنتان إحداهما تسمى كنسه والأخرى تسمى

حديه وقد وجدتا مع نوح فى السفينة عند الطوفان، وكانت لهما النجاة إلا أن أباهما هلك فانطلقتا إلى الجبال فنقلتا جثة أبيهما على ألواح ودفنتا جثه فى غلو فشَعَبَ السُّلْوَانُ قلبهما ولكن داما على حزنهما عليه ليل نهار وذهب بصرهما وتمثل لهما إبليس فى هيئة شاب وسألهما قائلاً أنتما من بعد فراق أبيكما فى بكاء ونحيب أتريدان أن تشاهدا أباكما فى التو؟ وأخذ إبليس لوحًا من ألواح أبيهما وصور على تلك اللوح صورة لكنعان أبيهما، وكأن كنعان حى وحملت البنتان هذه الصورة إلى دارهما وكانتا إذا نظرتا إليه وجدتا الصبر والسلوان، ودامت حالهما على ذلك مدة مديدة حتى أدركهما الموت، أما أولادهما فقد عبدوا هذه الصورة التى على اللوح فأصبحوا من عبدة الصنم، ولذلك سميت عبدة الأصنام، باللوحية نسبة إلى عبادتهم هذا اللوح، ولذلك سميت هذه المدينة بألواح، وهذه اللوحة فى كنيسة على شاطئ النيل فى الضفّة المقابلة فى كنيسة لرهبان من القبط، وتسمى الكنيسة دير أم على وهم يعبدون هذه الصورة وأقاموا أصنامًا مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وعبدوها فعبد الكفرة هذا اللوح إلى الآن، وقد رأينا إبان سياحتنا أن الكفار يعبدون الصورة وإذا ما سب الكفار سب بأنه يؤمن باللوح، ولقد كانت عبادة الألواح هذه بِإِغْوَاءٍ من إبليس، وفى جوانب مدينة ألواح الكبرى الأربعة قلاع، ولهم رؤساء وجنود ومدافع، إنها مدينة تقع فى صحراء مستوية وبيوتها جميعًا مكسوة سطوحها بالتراب والكلس وبها مساجد وجامعان لهما مئذنة، وليس فيها حَمّام ولا مدرسة ولا تكية ولا خان ولا مبرة، ولكن فيها أسواق صغيرة ومقهى وحانة للبوزه، وليس فيها سوق للبَزّ ولقلاعها أبواب متينة وليس فيها أبنية مكسوة بالرصاص ولكن بها آثار لعمران قديم لا يعلم حصرها إلا الله؛ ولطيب جوها كان جمال أهلها، وأهلها يكرمون ويحبون الغرباء، وفى حدائقها طيور ذات تغريد يثير الطرب فى النفوس، وفى بساتينها بطيخ أصفر وأخضر لذة للآكلين، إنها كثيرة الخيرات ومتكاثرة الكائنات، وأنهارها جارية، أما التمر فيها فمن مائة نوع وعشرة وإذا ما نضج التمر الأحمر كان فى حلاوة التين وإذا ما اصفرت التمرة بلغت

التمرة طول الساعد وطولها طول التمر المعروف بالخصطاوى فى بغداد وهو لذيذ الطعم، وما فى هـذه الديار من رطـب لا وجود لمثلـه فى البصـرة ولا بغداد ولا الطـائف ولا الحجاز ولا الإحساء ولكن فى المدينة المنورة التمر المعروف بجلبى فهو تمر لذيذ المذاق إلا أنه قليل وفى كل عام يـحمل التمر من ألواح إلى الأقاليم السبعة حـمل خمسمائة ألف بعير من الـتمر كما أن بها الخوخ والمشمـش والكمثرى والعنب والتفـاح والرمان والتين والتوت كثير طيب، كما أن الجميلات فيها كثير ولكن الفقراء فيها أكثر ولذلك لا عدالة فى هذه الديار كما أنه يكثر فيها ذوى البشـرة السمراء، وأهلها يتجرون فى الغنم والمعز والعجول والبساتين والتمر وهم بذلك يعيشون فى كفاف.

* * *



الخاتمــة

ولله نحمد أن كتابنا هذا بـلغ نهايته هنا، كما نحمد الله ونثنى علـيه الثناء كله على أننا أقمنا فى ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل خرقة الدرويش ذات ألوان.

وكانت ألفاظها من بدايـتها إلى نهايتها فى عصر والى مصر الباشـا وأتممنا كتابنا فى ظل خيره ورعايـته وإن كان هذا الكتاب فى رأى الـعقلاء والحكماء لا يخلـو من نقص وعيب وذلك لكـثرة تنقلنا بين الـبلاد ولم يهتم بكتـابته بألفاظ جذلة والمـرجو منهم أن يغضوا النظر عن السهو والغلط، ولعلهم يسترون عيبه وأن يمحوا مواضع هذا الخطأ وأن يصلحوا ما فيه الحاجة إلى إصلاحه فى عبـارته، فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح فى البلاد خمسين عامًا ولكثرة سياحـتى انزويت فى ركن العزلة ولم يتيسر لى أن أتتبع كل ما جاء فـى التواريخ، ورأيت نهاية حادث من الأحداث، ولم أقـيد فى كتابى نهاية حدث بالذات، ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقيت إليه الـسمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبـوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك تجرأت على كتابة هذه الأوراق (والعـذر عند كرام الناس مقبول)، وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت.

هذا التاريـخ كتبه أضعف الـكُتَّاب الحاج محمد المـعروف بحافظ القـرآن المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب الـسراير العامرة لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

وإذا سأل من ينظر فى هـذا الكتاب حين يفتح صفحات هذا الـكتاب وجد وصفًا لما يريد من القرى والقصـبات والمدن، ففى الصفحة الأولى من هذا الكتـاب ديباجة خطبة باللغة العـبرية بوزن مفتعلين مفتعـلين، وذكر أوصاف البلاد القديمة والعظـيمة التى فى مصر المحروسة نـادرة العصر أى أم الدنيا وأسمـاء كتب التاريخ وعرفت بـالملوك الذين قدموا وحكموا مصر قبل وبعد الطوفان ومن بنوا مدن مصر بعد الطوفان، وعرفت بمائة

وخمسين خليفة، وعـرفت بالعمالقة والملك طوطيس وإبراهيـم ـ عليه السلام ـ وزوجته ساره، كما ذكـرت حكاية اعتنـاق سارة للإسلام وبينت أن يـوسف الصديق نبـى مدينة الفيوم كما عينت تاريخ وفاته وذكرت آل ريان والأنبياء الذين قدموا مصر وذكرت كذلك حكاية الإسكندر ذو القرنين، وعرفت بشط الـعرب وعرفت بموسى عليه السلام ورفيقه الخضر، أمـا الذين قدمـوا مصر من آل الـرسول ﷺ والذين دخـلوها من الحـكماء آل الأشكانيين وآل الـكيانيين وآل الساسانيـين وعمرو بن العاص الذى فتح مـصر فى عهد عمر بن الخطاب هؤلاء ذكرتهم الآيات الشريفـة صريحة وكناية، وكذلك الآيات الكريمة والأحاديث كمـا ورد ذكر عن الحرب التى نشـبت بين عمرو بن العـاص وكفار الروم، وكذلك ما وقع بين المقوقس وجميع الملوك الذين ملكوا مصر من عهد عمرو بن العاص إلى عهد الـسلطان العثمانـى محمد الرابع أولئك عـرف بهم هذا الكتاب، كمـا تضمن الكتاب تاريـخًا للعباسيين والـفاطميين والطاهريـين والصفاريين والسامانـيين والزياريين والبويهيين وآل سبكتكين، وكذلك الغوريين والخوارزميين والسلاجقة والقرامانيين، ودولة تاج الدولة والأتـابكة، وآل العمريـة وآل البكيان كبـير وآل الصالحين والأيـوبيين وشاد الكـردى وآل البـحريـة، ودولة الشـراكسـة ومماليـك الـبحريـة، والتـركمـان والأكراد والقراخـطائيين وآل الأيوبـيين اليمنـيين، وآل الملاح وآل بنى أرتـق ودولة آل مروان وآل مرداس الكلابى وآل بنـى أسد وآل بنى همذان وآل بنى عقيـل بن أبى طالب وأمراء آل التركمانيين وآل ماهان الدانشمنديه وآل قره يوسف وآل آق قيونليين وآل دانشمند سيواس وآل ملوك أصفهان وآل دربنـديان وآل شامخاليان وآل الأوزبك وآل جنكيز وكـلهم اثنتا عشرة فرقة وكذلك آل جـنكيز القرم وآل جنكيز ما وراء النهـر وآل جنكيز إيران وتوران والتيـموريين من آل جنكـيز صاحب خروج وأولاد تـيمور خان توركان، وممـالك إيران وتوران وهمدان وآل تيـمور خاقان الهند ودولة مـلوك السند ودولة ملوك مـولتان وذكر أحوال خاقان الـصين وأحوال ملك الصين الفـغفور وأحوال ملك الديلـم وأحوال ملك بلخ وبخارى ودولة الأنجوليين ودولة المظفريين ودولة آل جوبانيين وآل الإيلخانيين ودولة

آل كرتباى ودولة السربداريين وآل العباسيين الأكراد وحاكم الجزيرة وسيد خان وصوران وأردلان والجزيرة وبنبانش وحاكم محمودى وحاكم حكارى وحاكم هيزان وحاكم بتليس وحاكم خرو وحاكم بالو وآل الكيانيين والعجم وآل الإشكانيين وآل القروانيين وآل المامانيين وآل الماهاتيان الذين هم أسلاف آل عثمان وآل بنى رسول الله وآل الهاشميين فى مكة وآل بنى قتادة.

ذكر سلاطين مصر القاهرة

وبعد أمير المؤمنين جاء الأمويون والعباسيون والإخشيديون والفاطميون وبينهما آل البحرية وبعدهم دولة نور الدين الشهيد فى الشام، ودولة الشراكسة ودولة آل عثمان الذين فتحوا مصر القاهرة، وأبو الفتح السلطان محمد خان والسلطان با يزيد خان وسليم خان الأول وأبو الفتح ومحاصر استانبول، وفاتح قليون فى فرنسا وما أحدث الإمام الشافعى فى مصر من الصوباشية وأسماء ثمانية وأربعين سلطانًا فى جزيرة مصر وكذلك ذكر أعيان مصر ووجهائها من سلاطين مصر الأوائل آل الأدارسة وآل حمودة وسلاطين الموحدين وآل بنى طاس والملثمين وآل بنى حرين والشرفاء وآل الكماليين وآل بنى الأغلب وآل بنى كلب، وآل بادنيش وآل بنى حفص وسلاطين قاش ودولة مراكش وسلاطين السودان وسلاطين فونجستان والملك قفان وملك بربرستان وملك قرمانقه وملك بغه نسكى وملك حردقان وهم من عبدة النار وملوك ذى اليزن وآل بنى هلال وآل الأفاريقه وملك ماوى بورنوا وملك أفنو ودولة ديار الجزائر ودولة طونسى ودولة طرابلس والمغرب.

ملوك الجانب الشرقى فى جزيرة مصر

أولاً ملك دومبيه وآل حابيه وسلاطين الحبش فى إقليم الحبشة وفيها ثلاثمائة ملك وفى الفصل الثانى عشر بيان عدد ما على الأرض من قرى المشركين، أولاد كيومرث وذريته من آل دادانيان أربع طبقات، ودولة كسرى وآل الدادانيين فى جورجيا، والجورجيين، وآل آجق باش وآل كوربل وآل شوشواد وآل مكرل وآل تاجدار وملك دار

موسكــو وملك له وملــك جه وملك أردك المجرى وأورتــه المجر والملك أسفــاج وملك هولندا ودولة الدانمارك ودولة دوتقارقيزه وملك جاسار انيره طورنمسه ودولة ملك انجلترا ودولة المجر الصــغيرة والهرسك ومــنها زرين أوغلو وبــكان أوغلو ونداز أوغلــو وكبان أوغلو وشوار أغلــو ودودوشقه أوغلو ودولة بلاى البــندقية ودولة دوبره البنــدقية وولاية قزل الما ودولة اريم بابا وهى رأس الــدولة المسيحية هذا كله ما ذكر بيــانه، وملك فرنسا ودولة جنوه العتيقة ودولة العزاندوق ودولة البرتغال الضالة ودولة الأفلاق ودولة بوغدان والدولة الأوربية التى دانت لآل عثمــان وهى اسلون وقورول وطوت وكروات والصرب والبلغار واللاتين والهرسك ونبيق ولاز وحيلاز والقزاق العاق والروس المنحوسين وألبانيا والموره وجقــونه الموره ومانــيه أوورومى واللاز الأوروميــيه وفى جزيــرة كريد الأصفــاقيه الروميــة، وفى جزيرة الــقرم طاط إلى الــرومية، هذه الــدول كلها تــدين بالطــاعة لآل عثمان. أما فى الأناضول ولاية جركستان وفيها:

أولاً جزيرة طــمان الشركــيــة وشغاكه الشــركسية، وزانا الــشركسية، وزانا الــكبرى الشركــسية، وحانوتاى الــشركسية، والأدمى الــشركسية وبولــتقاى الشركــسية وبوزدوق الشركسية ومــامشوخ الشركسية وولاية بــنى الــشركسية وتقفو الشركــسية وولاية قبارتى الشركسية وولاية طاوسطان الشركسية لقد كتب عن كل هذه الدول على وجه التفصيل.

بيان من سكن القبيجاق والقلمان

الذين سكنوا فى بقاع أخرى من الكفار

أولاً دولة طايســى شاه ومويتجاق شاه وقوبــه قلماخ شاه وجاقان قــلماخ وكوك دان قلماح وأورميت قــالمق والقرى التابعة لها كــما فيه ذكر قوم أبازه الساكنــين على ساحل البحــر الأسود وفى الجبال والحــدائق منهم أبازه جــاجلر، وأبازه وارلان وأبازه جــاندالر وأبازه جاندالر الــكبرى وأبازه كجلر وأبازه أرتــلر وقوم صدشه الذين ليــسوا من الأبازه والشراكسه، وأبازه قامش، وأبازه سوجه لر ومــن يشبهون الشراكسة وهم أبازه بوزودق وعشيرة فوتا الأبازيه، وعشيرة بوسوخو وعشيــرة أج جى وعشيرة بسلب وعشيرة ملكية

وعشيرة ايبغا وعشيرة الافريش وعشيرة حجاقورش وعشيرة ماجا وعشيرة بانجارس، وجميع الأباره يسكنون هذه الديار.

بيان عن الروس المنحوسين

أولاً: خطمان قرداش قزاق وخطمان دوروز ونقا وخطمان سركه وخطمان أخمليتج ويرأباش واندريا وشره مست وزابوروشقه وخرستنا وأومان وكورلو وجهرك وكلها أتباع ملك له وبالقرب من قلعة مز الخطمان وهم التابعون لملك موسكو:

أولاً: تن صويى خطمانى وشركس القرمان الخطمانيين وخروس كرمان الخطمانيين وكرمن منجه وكرمن سو وكرمن أسود وكرمن نورق وقرمن توقاى وكرمن براص والى قلعة ازاعه على مسيرة ثلاثة أشهر مساكن سبعين من الخطمانيين.

أما دولة قياصرة الروم ودولة القبط فى مصر وإحدى وعشرون قرية وعشيرة وخطمان ذكرت فى هذه المحلة. كما ذكرت دولة اليزنان ودولة البطالسة وثلاثة وعشرون فصلاً تعرف بنشأة الدولة العثمانية:

أولاً: جد آل عثمان أرطغرل خان وآل ذو القدرية وآل رمضانية وآل دانشمنديه وآل أماسيه فى قسطمونى وآل فرهاد وآل كوتاهيه وآل كرميان وفى انكرو آل سنجان وفى صاروخان آل صارخان وآل عماد وفى صونقور صنقورباى وفى بلاد كسكن آل كسكن باى وفى بلاد تكه آل تكه باى وفى بلاد حميد كذلك أية باى وفى منتشا آل منتش باى وفى بلاد ايدين آل ايدين باى وفى بلاد لارنده آل قرمان باى وفى يلق آباد وأرطغرل باى وأسماء سلاطين هذه الدول السالف ذكرها.

كان علاء الدين بوى بكلرى، وأرطغول بك وعثمان بك وأورخان بك وشهيد مراد بك ويلدرم بك وجلبى محمد بك ومراد بك الثانى والسلطان محمد الفاتح، وبا يزيد خان وسليم خان الأول، وسليمان خان وسليم خان الثانى ومراد الثالث ومحمد الثالث وأحمد خان ومصطفى خان وعثمان الثانى ومصطفى خان ومراد الرابع وإبراهيم خان والى محمد خان الرابع ذكرت أسباب فتح السلطان سليم الأول لمصر، وسيرة سليم

الأول وكيف أنه مضى إلى بغداد ومنها إلى الكعبة والمدينة ومصر والشام وحلب ثم مضى إلى القرم ثم رأس عسكره إلى أبيه وسلم ثانية فى عام ٩١٨ واستقل بالسلطنة، وقد قتل أخوته وأبناءهم وحارب الشاه إسماعيل الصفوى وقد وصفت حربه معه تفصيلاً، كما ذكرت زيارته فى بورصه لأمير سلطان فلما قال السلام عليكم رد من القبر قائلا السلام عليكم يا فاتح مصر، وقد حارب سليم فى زحفه على مصر السلطان الغورى فى مرج دابق، وألحق به هزيمة ساحقة فى مرج دابق ومكث فى الشام عامًا واحدًا وفتح من البلاد مرعش وعين تاب وحلب وعزز وكلس وانطاكية وفتح مائة وسبعين قلعة وكم قبرًا وجامعًا وحمَّامًا وخان ومساجد فى الشام، وفى الكتاب كلام عن سليم خان وقول الحق جل وعلا، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ...﴾ [الأنبياء:١٠٥] إلى آخر الآية الكريمة، وفتح قلعة غزة الهاشم وفيها أسماء جميع مشايخ العرب كما أنه فى أرض حاسان فى مدينة بلبيس حارب سليم خان الغورى حربًا ضروسًا وقد هلك الغورى فيها كما أن كل جنود مصر حصدتهم السيوف، وأصبح محمد شاه خليفة للغورى لكنه خلع وخلفه السلطان طومان باى واستشهد سنان باشا فى أرض الخانكة.

فتح قلعة مصر

ذكر فى الكتاب حرب سليم العظمى وتاريخ فتح نامه الذى كتبه كمال باشا زاده ووقوع السلطان طومان باى فى الأسر وعاقبت أمر طومان باى، والأسطول العثمانى المكون من سبعمائة سفينة فى الإسكندرية بقيادة مصطفى باشا ومضى السلطان سليم إلى قصر أم القياس، كما ذكر مضى السلطان سليم إلى رشيد والإسكندرية وعثوره على خزانة السلطان الغورى فى الإسكندرية، وبيان ما سَنَّ السلطان سليم من قانون فى مصر، ووصول السلطان سليم إلى استانبول، وذكر وفاته، وكذلك بيان ما ذكر كمال باشا زاده من تقسيم مصر إلى تسع أقاليم وذكر أسماء جميع القائمين بالأمر فى مصر ورؤساء الأقاليم، كما ذكرت أسماء جميع الكاشفين فى مصر وقانون نامه سليم خان، وكذلك مراسم ديوان مصر وقوانين الملتزمين وما يجبا من ضرائب، وعدد الأكياس فى

مصر وما ضرب من مسكوكات كما ذكر عدد ضباط الوجقات، وعدد ثلاثة وستين من كتاب الدواوين وغيرهم من الكتاب وذكر ما يجبى ويرسل إلى الخزانة فى مصر، وما قد يترتب من خسارة فى الأموال، كما ذكرت أنواع الحيوانات وكثرة الناس، وعدد جند الفرق السبع فى مصر وغيرهم من الجند وبيان الرواتب الصغيرة فى أول كل شهر والرواتب الكبرى كل ثلاثة أشهر وجميع القوانين التى يفرضها الديوان. وفى مصر بيان أن فى مصر ستة وسبعين قضاء كما ذكر كل ما فى مصر من أسماء العلوم وما دون كتخدا إبراهيم باشا من أسماء الكاشفين والأمراء والكتاب والملتزمين وما يجبى من ضرائب من المقاطعات وسبع بنادر وما ينفق من مصروفات ويجبى من إيرادات وبيان الإصلاحات ولغة أهل مصر وأوصاف علماء مصر وساداتها ونقيب الأشراف وذكر أول من بنى القلاع فى مصر ومن ملك مصر من القبط واليونان والروم والفرنجة سنة ٣١ وذكر حكايات لطيفة وبيان حدود مصر واسم جبابرة مصر وأوصاف بلدان مصر وما فى القلاع من كنوز والقلاع التى بنيت بعد الهجرة ٥٧٣.

والتعرف بخير باشا أول حاكم لمصر من قبل العثمانيين كما ذكرت قلعة تتألف من ثلاث طوابق وغرف الانكشارية وقلعة قره ميدان وحديقتها وقصر قره ميدان مع تعيين طوله وعرضه، وما فى داخل القلاع من طلاسم وبيان بالقصور الشوامخ التى بناها الأسلاف وورد وصف لقصر الوالى ومائة وستين بيتًا وتاريخ القصور والقلاع المزينة وميدان السراى وديوان قايتباى وديوان الغورى مع تعيين طوله و عرضه وتاريخها وبيان ما فيها من خطوط عجيبة وغريبة وفى الهوامش تعيين محيط كل قلعة وفى داخل القلعة بئر يوسف العجيب وغيرها من الآبار فى المدينة وعدد من قناطر الماء فى البلاد والتعريف بمنشئها وبناتها كما ورد ذكر لعدد ما فى مصر من طرق وقصور ومحيط القلعة الذى هو بضعة آلاف من الخطوات وعدد الأبواب فى كل محلة، وكم فى مصر من عدد الجوامع التى أقامها أقطاب الدين والسلاطين منها جامع عمرو بن العاص فضلاً عن الجوامع التى أقامها السلاطين فى ماضى الزمان وأقام كل منهم جامعًا على طراز

خاص مع ذكر تاريخ وأبواب ومحيط وزخارف هذه الجوامع وقد جاءت مواصفات هذه الجوامع على وجه التفصيل وورد ذكر ووصف جميع المساجد ودور العلم والمدارس ودور الحديث ودور القرآن ودور القراءة، وجميع مكاتب الصبيان وجميع تكايا الدراويش وطرق مشايخ الطرق وأسمائهم وتفاصيل هذه التكايا كما ذكرت المبرات ودور الضيافة والحمامات والخانات والربوع والمستشفيات، وذكر من يصطادون الأفاعى لعمل الترياق وذكر ما لحساء فاروق من فوائد طبية كما أنى ذكرت فيه سيرة أوليا جلبى الفقير الحقير كما سردت حكايات عجيبة وغريبة، كما ذكرت أنواع ترياق فاروق، كما ذكرت شتى أنواع الأدوية وخواصها كما وصفت السيول وتواريخها، وكذلك الآبار والسواقى والأحواض وأسماء ثمانية آلاف وتسعمائة طريق عام ومن شقوا الخلجان التى تجرى وسط المدينة وأسماء ما عليها من جسور، وكذلك البرك واسم من أنشأها وذكر جوامع ومخازن ومبرات بولاق وترسانتها وحى قايتباى وقدم النبى ورؤيا السلطان أحمد خان فيما يتعلق بأثر قدم النبى وجوامع حى قايتباى وأوصاف مدينة الفسطاط وهى مصر القديمة وذكر حكامها وبناتها ومن فيها من الصوفية وسبب تسميتها وما حولها من مدن وأسماء من بنوها والجوامع فى مصر القديمة ومخازن السيد يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وسواقى السلطان الغورى فى مصر القديمة وذكر كسر الخليج ومقياسه ومناقب الشيخ السادات وشيوخ جزيرة أم القياس وحكاية عمر الخاصة بالمقياس وأوصاف جزيرة أم القياس وحوضها وحضور السلطان سليم والولاة بما يعرف بكسر النيل أو كسر الخليج والموكب العظيم الذى كان يمضى فيه السلطان إلى جزيرة أم القياس وذكر موكب الوالى العظيم عند ركوبه النيل فى بولاق وما كان يطلق من ألعاب نارية فى ليلة كسر النيل احتفالاً به، وما كان يقيم الوالى من ولائم مرتين فى اليوم الواحد، كما أنه يعرف بمناسيب النيل وما جاء عنه فى كتاب الله المبين وما يمر به من بلدان كما يشير إلى أنه سبعة آلاف خليج وإحدى عشرة ترعة وجاء ذكر جبابرة مصر وكلمات باللغة القبطية تجرى على الألسنة وفيه وصف لما ترتب على فيضان النيل فى بعض البلاد من أضرار

وما فى النيل من حيوانات وما لها من خصائص كالتمساح وغيره من عجائب المخلوقات، وورد ذكر للطلاسم التى فى المقياس بجزيرة أم القياس وما حكى من حكايات عجيبة عن التمساح وما فى النيل من سمك رعاش وما يحدثه من أذى وخواص التمساح ومما فى مدينة قليوب من بئر ماهان، وقد أحصيت كل من فى مصر من أهل الحرف كما أحصيت عدد الدكاكين فيها ووصفت موكب مشاهدة رؤية هلال رمضان كما وصفت العيد فى مصر، وما فيه من مواكب عظيمة والمواكب التى كان يمر فيها والى مصر، وديوان العادلية وما كان يقيم من ولائم عظيمة، وقد ورد وصف لثلاث ليالى بالقناديل وإطلاق بنادق كما تتبعت نصائح وأوامر وزراء مصر وبينت كيف كان يحبس الأعيان وفى سجونهم يرقدون على الحصير، وبينت ما يتحصل فى إحدى وثمانين خزانة فى مصر وبينت مقادير العملات من دراهم ودوانق والمحاصيل الزراعية بأنواعها كما ذكرت المقابل والمثاقيل التى يوزن ويكال بها القمح ووصفت موكب الوالى والموكب الذى كانت تحمل فيه الخزانة لترسل إلى السلطان.

وذكرت أسماء مشايخ الطرق وعرفت المحمل الشريف وعدد المواكب التى حملت فيها أربع خزائن وأحصيت عدد الخزائن، وتصديت للموالد التى تقام فى مصر، وذكرت مناقب الشيخ اللبان ومناقب السادات أبو التخصيص وأشرت إلى ما فى مصر من طلاسم ومِنْ عجائب وغرائب وبينت أنواع الحرف التى يتكسب بها، والنباتات والفواكه التى توجد فى مصر ولا توجد فى بلاد الترك، وعرفت بالصناعات والأطعمة والمعادن على اختلافها فى مصر، وذكرت الفلاحين وأسماء النسوة، ووصفت تاج فرعون وعادات الختان فى مصر وحفلات ختان الصبيان وذكر الملاماتية والمجاذيب والمشايخ ومن تستجاب دعوتهم من الصالحين وذكرت الشيخ البكرى زاده ومحمد افندى، ونقيب الأشراف برهان افندى كما ذكرت مناقب كرامات الصبيان وعرفت بطول الليل والنهار فى مصر وكافة أقاليمها وتحدثت عن بلدانها العظيمة وأقاليمها المختلفة وضرائحها، وعرفت بمناقب الشيخ محمد البكرى ومناقب الشيخ على الشمرلى ومناقب

الكلشنى زاده جلبى، وذكرت ما فى مصر من طرق كما وصفت مولد الشيخ أحمد البدوى وذكرت سفرى إلى مدينة دمياط وإلى مدينة رشيد، وذكرت قصبة التفاحية وقصبة زفته وقصبة ميت غمر ووصفت عاصمة مصر القديمة مدينة المنوفية ووصفت قصبة طنطا ووصفت تفصيلاً مولد السيد أحمد البدوى، وأوصاف ميدان السيد أحمد البدوى كما وصفت محلة مرحوم وقصبة ابيار ومدينة النهارية القديمة، ومحلة أبو على وقصبة إبراهيم الدسوقى ومولده ومدينة دمنهور القديمة، ومدينة حوش عيسى، وذكرت مدينة العقاب وقلعة الإسكندرية وقلعة أبو قير والعجائب فى أبو قير وقصبة إتفو ووصفت ميناء رشيد وقلعة رشيد ومرج البحرين، وذكرت محلة الأمير وقصبة برمبال وقصبة دبيى وقصبة ادفينه وقصبة مطوبس ومحلة جمشير وقصبة فزاره ومحلة ديروط وقصبة سنديون ومحلة عاطف وقصبة فووه ومحلة شرفا وقصبة شوروم بك ومحلة ساليه، وقصبة مالك ومحلة سومخرات، ومحلة الرحمانية ومحلة دسوق ومحلة أبو على وبلدة مرقاص ومحلة دبيى الكبرى ومحلة شبراخيت ومحلة شبرريش ومحلة ميت جناح ومحلة مالجسق ومحلة صاح ومحلة الكفر الجديد ومحلة نقل.

وذكرت محلة فرزدق ومحلة اثليميه ومحلة طاهرية ومحلة كفر زياد ومحلة شابور ومحلة سليمون ومحلة كفر ناحه ومحلة الكفر الجديد الكبرى، ومحلة أبو أحمد ومحلة بحيرة ومحلة زعيره ومحلة طنوب ومحلة أمروز ومحلة طرّانه ومحلة علقمه أبو الجاوى ومحلة تماليه. ومحلة جزى وأوصاف محلة طرانه والنطرون ومحلة الزاوية ومحلة أبو فشانه ومحلة أشمون جريس وكفر شركس ومحلة قطه ومحلة أم دينار ومحلة شراوى ومحلة وراق، ومدينة بطن البقر ومحلة شبرا ومدينة امبابه وقلعة البرلس وقصبة بلطيم ومدينة الغافية ومدينة دمياط، وقلعة التينه ومدينة فرسكور وبلدة شرباز وميت غالب وبلد رأس الخيلج وميت أبو عبد الله وبلدة طهريه، وبلد بوشاط وبلد دنجى ومحلة موشاق ومحلة مدينة شربين، وأوصاف محلة برمبال وبلد دياسط وبلدة الخيارية وبلد شيرين قاش وولاية دقهل أى المنصورة، وجاء فى كتابى ذكر لمدينة المنزلة، ووصف

مدينة سمنوط والعاصمة الثانية للغربية كما ذكرت قصبة شنباط الكبرى ومدينة القليوبية.

بيان فى منازل فونجستان

أولاً: قصبة ومدينة بنى سيف العظيمة وقصبة فشنه ووصفت شجرة عجيبة ومدينة المنيا المعمورة، ومدينة أشمونيين، ومدينة ملوى وقصبة صنبو ومدينة منفلوط العظيمة ومدينة أسيوط القديمة وجبل الطيليمون (جبل الطير) العجيب وقصبة أبو تيج وقصبة تيمه وقصبة تحته وسكوته الجزيرة وقصبة سوهاج وقصبة المنشية وتخت الصعيد العالى ودهليز جسر جد.

بيان مدن وقلاع فونجستان

أولاً: بيان حدود آل عثمان:

أولاً: قلعة ماغراق الواقعة على حدود فونجستان وقلعة تنارة وقلعة سه سه ووصف منجنيق نمل ودلعين، وقلعة نارنارنته وقلعة سندى وصحراء دانقة وقلعة واردان وصحراء هانقوج وقلعة طومبو وقلعة جلته شوكزاوى، وقلعة حفير فونجستان وقلعة مشو وقلعة طومبول وولاية خردقان وقلعة فردانية وقلعة دفنا وقلعة أرقو وقلعة بنى وقلعة أرند وقلعة أرش وقلعة جريه وقلعة حناق القديمة وقلعة الخندق وقلعة قولى وقلعة بقر وبلاد السودان وقلعة دنقلة وحيوان الزرافة ومدينة الزغاوة، وقلعة سورطوش وأشكال العفاريت العجيبة وحصن الكنيسة وجامع سليمان وقلعة أتقور ورباط دفاره وقلعة الملك إدريس وقلعة غرى وقلعة مدينة خلفاهى العظيمة ومدينة ايلغون القديمة ومدينة قوثراى العظيمة ومدينة عدى وقلعة حلت الملك وقلعة نوجى وقلعة أرباجى وقلعة عطشان وذكر أوصاف وحيد القرن ودابة الأرض وقلعة بقيت وقلعة حلة الركاب، وقلعة حلة الجندى وقلعة سناره عاصمة فونجستان ومقابلة ملك فونجستان، وذكر اللغة العبرية وإقليم السودان وذكر خط وفيه ولاية رميليت الحمال وقلعة أبسوقه بالسودان وعجائب وأضاحيك والدعاء الهندى ومدينة أبو تمر ومدينة بروشش وقلعة بروشته وقلعة دنقده وجبل سندس العجيب ووادى سلجلاه وبيان العجائب فى مدينة رميليت الجمال وولاية

جرسينقه، وبـيان ومنابع النيل وبيان منـازل الحبش فى فونجستان ومدينـة جلامه ومدينة جنجفه ومدينة سنارة عاصمة فونجسـتان ومدينة بقيت وأوطاف وادى قوز العريب وولاية دومبيه ومدينة بورغه وأشكال هررة المسك وقلعة ناردى ووادى ابرايش وولاية ميمونستان ومنزل دنقـلاب، وجزيرة لولو ومنـزل أتله ومنزل أهل المـيناء وجزيرة سواكـن عاصمة الحبشة ومدينة ليـف وجزيرة دهلك ومن العجائب والغرائب وقلـعة مـوص أووا وقلعـة خـرق أووا وقلعـة هنديـة وبـرج طورلـه ومـدينة خراب بهلوله ومدينة زيلع أووا القديمة وزيارت بابا مندوب وقصبـة سحرتا وقلعة أوقات ومدينة هدية ومديـنـة رازداق ومدينـة مقدسوا العظيمة ومنزل قبيلة جنقله وعرضنا بالمنازل من الحبشة إلى مصر.

وتعرفت بألفاظ الحبشية ولغة عبدة النار ومـنزل حاتند أووا واللغة السريانية الفصحى ومنزل قبيلة أوقوت، واللغة العبرية ومنزل شاجه ومنزل وادى جنفطة وقلعة ابريم.

تلك سياحتى أنا الحـقير ومن إبريم قبائل كنوز وقلعة طومـانس وبلدة حمام فرعون وقلعة ادفو وقبائل هجـيزة وقبيلة جعفرى وقلعة إسنا ومدينة أرمـن الكبرى ومدينة نقاده وقصبة به هو وقصبة فرشوط وقصبة سمنهوط ومن عجائب سمنهوط مغارة بذر الكتان، وقصبة برديس ومدينة جرجا وبيان بالواحات وألواح الكبرى ومدينة قليمون.

وتمت كتابة فهرس هذا الكتاب فى هذه المدينة.

* * *

محتوى المجلد الثانى